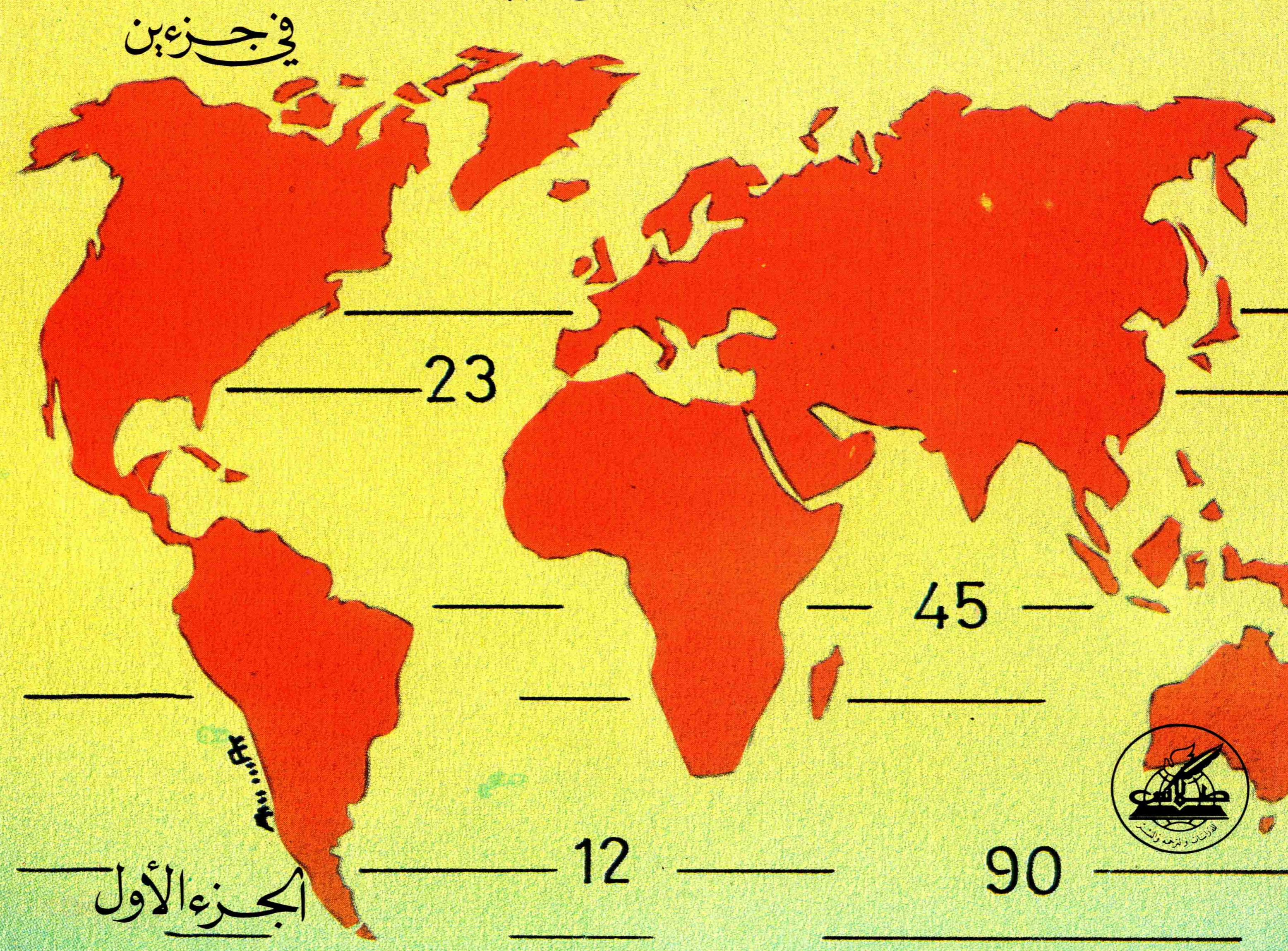
مجموعة من الباحثين
بإشراف
العماد الدكتور مصطفى طلاس

الاستراتيجيّة السياسيّة العسكريّة

في جزءين



الجزء الأول

دمشق: اوتستراد المزة ــ مقابل مدخل ملاعب مدينة الجلاء الرياضية
حي فيلات شرقية 3 ــ حارة فايز منصور (10) ــ ص. ب: 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 ــ برقياً: طلاسدار
E-mail:info@dartlass.com Website:www.dartlass.com

مكتبة دار طلاس ــ دمشق ــ فكتوريا ــ بناء المصرف التجاري فرع 9 ــ هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

الاستراتيجيّة السياسيّة العسكريّة

طبعة -٢٠١١

مجموعة من الباحثين
بإشراف
العماد الدكتور مصطفى طلاس

الاستراتيجيّة السياسيّة العسكريّة

في جزءين

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم



تم تأليف الكتاب من قبل مجموعة من الباحثين بإشراف
العماد الدكتور مصطفى طلاس

لجنة التأليف

- العماد الدكتور مصطفى طلاس.
- اللواء الركن عبد الرزاق الدردري.
- اللواء الركن سعيد الطيان.
- اللواء الركن عبد العزيز جركس.
- اللواء الركن سميح السيّد.
- اللواء الركن علي ملاحفجي.
- اللواء الركن جبرائيل بيطار.
- العميد الركن صبحي الجابي.
- العميد الركن مصطفى أنطاكي.
- العميد. د. هيثم كيلاني.
- المقدم بسام العسلي.

لجنة الصياغة

- اللواء الركن سعيد الطيان.
- اللواء الركن سميح السيّد.
- العميد الركن صبحي الجابي.



الفصـــل الأول

طبيعـــة الحـــرب



أولاً ـــ المفهوم الماركسي لطبيعة الحرب

١ الحرب باعتبارها استمراراً للسياسة

أ ـــ أفكار عامة

يرى الباحثون السياسيون أن المبدأ الأساسي للإيديولوجية الماركسية ونظرتها إلى العالم والمجتمع، وطريقة تحليلها للظواهر الاجتماعية والمادية لم تتغير بعد. وأن مبادىء التحليل لا يمكن أن تطبق إلا في مرحلة معينة فقط. وأن التفسير الماركسي تغير أيضاً بتغير العالم. ونتيجة لذلك، وجدت أهداف جديدة للحركة الشيوعية وللدول الإشتراكية لم تكن موجودة من قبل، وتلتها تغيرات حتمية في الماركسية والعقيدة السياسيةـــ العسكرية للاتحاد السوفييتي.

لقد طوَّر لينين أفكار ماركس في فترة حصلت خلالها تغيرات هامة في دول الاحتكار الصناعي، وفي الثورة الإشتراكية في روسيا، وفي بدء البناء الإشتراكي في الاتحاد السوفييتي. ثم عمد ستالين إلى تبديل هذه الأفكار وتكييفها حسب حاجات الدولة الإشتراكية التي أصبحت قوة عالمية. وجرت بعد وفاة ستالين تغيرات أخرى في النظرية، جعلتها متوافقة مع الطابع المتبدل لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. وسوف نتعرض في هذه الدراسة فقط لوجهة النظر الماركسية ـــ اللينينية التي تتبناها رسمياً العقيدة السوفييتية الحالية.

ب ــ المفهوم الماركسي ــ اللينيني لجوهر الحرب في العصر الحديث

يعتبر موضوع جوهر الحرب، في المفهوم الماركسي ــ اللينيني، الموضوع الأساسي عند تقرير المسائل الرئيسية كافة، النظرية منها والعملية، المرتبطة بالاستراتيجية. ويؤكد المنظرون العسكريون السوفييت، أن «الأحداث العسكرية في عصرنا تثبت، بما لا يقبل الشك، صحة الفهم الماركسي ــ اللينيني لجوهر الحرب ولأسباب وقوعها وظروفه»[١].

ويؤكد المارشال سوكولوفسكي، أن هجمات المفكرين العسكريين الغربيين على المفهوم الماركسي ــ اللينيني للحرب، ووصفه بأنه قد شاخ، هو أمر غير صحيح، وأن ذلك يخدم مصالح الاحتكارات الأمبريالية، والموجهة لتسويغ حرب عدوانية تحت شعار محاربة الشيوعية.

تعتبر الماركسية ــ اللينينية الحربَ ظاهرةً اجتماعية تاريخية، تنشأ عند درجة معينة من تطور المجتمع الطبقي. وهي ظاهرة اجتماعية معقدة جداً، لا يمكن كشف جوهرها إلا باستخدام الأسلوب العلمي، أي الجدلية الماركسية ــ اللينينية. وقد أوضح لينين، متحدثاً عن النظرية الماركسية لدراسة الحرب فقال: «تتطلب الجدلية بحث جوانب الظاهرة الاجتماعية كافةً وتطورها، والمعطيات الخارجية التي تؤثر على القوى المحركة الأساسية، وعلى تطور القوى المنتجة، وعلى الصراع الطبقي»[٢].

وأوضح لينين «أن الحرب هي جزء من كل، وأن السياسة هي ذلك الكل». كما أوضح أن «الحربَ هي استمرار للسياسة، وأن السياسة تستمر أيضاً خلال الحرب». وهذه المبادىء اللينينية، برأي المنظرين العسكريين السوفييت، تدحض وتلغي النظرية البورجوازية عن طابع الحرب.

---

(١) كتاب الاستراتيجية العسكرية (سولوفسكي) ــ الترجمة العربية (دردري ــ أتاسي ــ جركس) الباب الرابع ص ٢٧٤.

(٢) لينين (المؤلفات الكاملة) الجزء ٢٢ ص ١٩٣ ــ ١٩٤ (باللغة الروسية).

يتصف المفهوم الماركسي ــ اللينيني لطبيعة الحرب بثلاث ميزات هامة

(١) تتميز الحرب بكونها شيئاً مختلفاً تماماً عن الصراعات في العالم المادي أو العضوي، وهي بالتالي: **ظاهرة اجتماعية**.

(٢) من ناحية ثانية، تختلف الحرب تماماً عن صراعات النفس الإنسانية، أو الصراعات بين فردين أو عدة أفراد. وتعتبر هذه الصراعات ذات طبيعة بيولوجية أو نفسية، بينما الحرب هي صراع بين جماعتين، أو عدة جماعات اجتماعية.

(٣) من ناحية ثالثة، يُنظَر دوماً إلى الحرب على أنها صراع سياسي بين الطبقات. وعندما تزداد التناقضات والصراعات بين الطبقات، أو بين دولتين طبقيتين، أو بين دول تقودها طبقات مختلفة، فإن الحرب يمكن أن تكون طريقة للحل.

وهكذا فإن نقطة الانطلاق للتعريف الماركسي ــ اللينيني للحرب هي النظرة إلى الحرب على أنها استمرار وأداة للسياسة.

لذلك تعتبر الحرب، بالنسبة إلى لينين، (استمراراً) للسياسة، بوسائل أخرى، (تعتمد أساساً على العنف). وهكذا كانت أيضاً وجهة نظر كل من ماركس وانغلز، اللذين اعتبرا «كل الحروب استمراراً لسياسة دول معينة، وطبقات مختلفة ضمن هذه الدول».

وقد عُرِّفت الحرب في أول معجم عسكري ألماني شرقي بأنها «صراع مسلح بين دول أو تحالفات أو طبقات معينة، بغية تحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية، أي أنها استمرار للسياسة بوسائل العنف[٣]».

إن التشابه كبير بين هذه التعاريف، والتعاريف الأخرى العديدة، بالرغم من أن أكثر من ثلاثة أرباع القرن من الزمن يفصل بين الجديد والقديم منها. ولعل الأفكار المشتركة فيما بينها تتلخص فيما يلي:

ــ إن الأطراف المتورطة في الحرب هي طبقات من دول، أو ربما من شعوب (أمم) أحياناً.

---

(٣) السياسة، والطبقة، والحرب.

ــ إن ظاهرة الحرب، باعتبارها صراعاً مسلحاً، والتي تميزت عن الظواهر الاجتماعية الأخرى، وبشكل خاص عن الصراع السياسي في زمن السلم، قد تأكدت عبر التاريخ.

ــ يؤكد دوماً على أن الحرب الأهلية هي نوع من الحروب.

ــ وبالإضافة إلى هذا التعريف الخاص بالحرب، فإن تفسيراً أوسع يكمله عادة، لشرح الجذور الطبقية للحرب، وطبيعتها المؤقتة، وللتأكيد على أن الأمبريالية هي المصدر الرئيسي للحرب في العصر الحديث.

١ ــ السياسة والطبقة والحرب

السياسة

إن أحد العناصر الحاسمة في النظرية الماركسية ــ اللينينية عن طبيعة الحرب، باعتبارها استمراراً للسياسة، هو مفهوم السياسة نفسه. كما أن الفرق بين التفسيرات الماركسية ــ اللينينية، واللا ماركسية، المتعددة لهذا المفهوم، يكمن في الخلاف التفسيري للحرب نفسها.

ــ معنى تعبير السياسة

إن السياسة، وفق التعريف العام، هي النشاط الذي تمارسه جماعات منظمة، ويكون موجّهاً، نحو جماعات أخرى. ويتولد هذا النشاط، كما يتم التعبير عنه، عن طريق إقامة علاقات متبادلة بين الجماعات. وعموماً فإن أحد المبادىء الأساسية في الماركسية ــ اللينينية هو كون كافة مجتمعات ما قبل الإشتراكية، بغض النظر عن المجتمعات البدائية، هي مجتمعات طبقية، أي أنها تتألف من طبقات ذات مصالح متناقضة. ويتم التعبير عن العلاقات بين الطبقات بعلاقات سياسية، تعكس أولاً، وقبل كل شيء، العلاقات الاقتصادية فيما بينها. وقد تقاتل هذه الطبقات لحماية مصالحها بوسائل مختلفة، يمكن أن تكون إحداها الاستيلاء على السلطة السياسية والتمسك بها. وإن الهدف الرئيسي للصراع السياسي هو تحقيق السيطرة على أجهزة السلطة في الدولة، لأن قوة الدولة وحدها، هي طبقة معينة قادرة على إقامة نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي يلائم مصالحها، والتمسك به.

الصراع الطبقي والسياسة

لقد ظهرت الدولة، وفقاً للنظريات الماركسية ــ اللينينية، في مرحلةمن التطور الاجتماعي للإنسان، أصبح فيها العداء بين الطبقات غير قابل للتسوية. وكان الهدف من الدولة، عندئذ، إقامة نوع من النظام، عبر إضفاء الشرعية والاستمرارية على سيطرة إحدى الطبقات على كافة طبقات المجتمع. وهذه الطبقة الحاكمة، التي وجدت تحت تصرفها أجهزة الدولة، كانت قادرة على الدفاع عن مصالحها، سواء داخل البلاد أو خارجها. وإن قيامها بهذا العمل، يعني أنها تنفذ سياسة الدولة.

وهكذا نرى أن أجهزة الدولة تشكل أداة لحل الصراعات الطبقية، وفقاً لمصالح الطبقة الحاكمة.

إن الدولة، باعتبارها أداة للسيطرة الطبقية، تستطيع أن تحقق سياساتها الداخلية في ثلاث مجالات:

ــ فهي تدافع عن النظام السياسي الحاكم.
ــ تفرض إيديولوجيتها على كافة شرائح المجتمع.
ــ تقوي السيطرة الاقتصادية **للموجودين في السلطة**.

أما في مجال السياسة الخارجية للدولة، فإن الطبقة الحاكمة تحقق مصالحها وأهدافها، سواء بتوسيع حجم أراضيها، وأسواقها، ومواردها المالية، أو بحماية احتكارات الحكام فيها ضد المنافسة الأجنبية.

٢ ــ الدولة الإشتراكية

الدولة الإشتراكية مشمولة ضمن التعريف العام للدولة، ولكن جوهرها، ووظائفها تختلف تماماً عما هو موجود في دول ما قبل الإشتراكية. وبما أن هذه الدولة قد وجدت أداة للطبقة العاملة، التي تمثل أكثرية السكان، فإن سياستها تمثل الغالبية، وتعمل من أجل المصلحة الوطنية. وبالتدريج، ومع تضاؤل سلطة ونفوذ الطبقات، التي تمَّ إسقاطها، واضمحلال الصراع الطبقي، فإن الوظائف القمعية للدولة تتراجع، إلى حد ما، وما يبقى منها يوجه ضد العدو الخارجي. وكان احتمال الحرب الداخلية وارداً، خلال

الفترة الانتقالية نحو الإشتراكية ، عندما تحاول الطبقات الرجعية استعادة سلطتها . ولكن ما إن يتم بناء الإشتراكية حتى تختفي هذه الأخطار عموماً . ففي عام ١٩٦١ ، تمَّ الإعلان عن أن الاتحاد السوفييتي لم يعد دولة تخضع لدكتاتورية البروليتاريا - (العمال والفلاحين) ، بل أصبح دولة غير طبقية لكل الشعب . وبذلك انتقل الصراع الطبقي إلى المسرح الدولي ، ولم يعد موجوداً داخل الدولة السوفييتية .

وتعتبر السياسة الخارجية ، التي تأخذ بها الدولة الإشتراكية ، وفي النظرية السوفييتية ، سياسة طبقية ووطنية بآن واحد ، وهدفها المعلن هو الدفاع عن مصالح الدولة ، والتحالف الإشتراكي ، ودعم الصراع ضد الطبقات المستبدة .

٣ ــ الطابع الطبقي للحرب

يستنتج من المقولتين ، أن الحرب استمراراً للسياسة ، وأن السياسة ترتبط ، بدورها ودوماً ، بالمصالح الطبقية ، وأن الحروب كافة هي ذات طابع طبقي ، وأن الحرب هي أداة للسياسة الطبقية . ومن الواجب أن نميِّز بين فكرة أن للحرب طابعاً طبقياً ، وفكرة أن الحرب هي شكل من أشكال الصراع الطبقي . ففكرة أن الحروب كافة هي ذات طابع طبقي تعني أن مصالح الطبقات ، التي تكون ممثلة في سياسة الأحزاب والدول ، هي التي تقرر أهداف هذه الحروب . وهذه الأهداف والمصالح يمكن ، إما أن تظهر مباشرةً في بعض الحروب ، كالحرب الثورية الأهلية مثلاً ، أو تكون واضحة ، كما هي الحال في الحروب بين الدول الإشتراكية والرأسمالية ، أو تكون أقل وضوحاً في حروب أخرى .

الحروب باعتبارها استمراراً للسياسة

تعتمد الصيغة ، المتعلقة بكون الحرب استمراراً للسياسة ، في التفسير الماركسي ــ الميني ، على افتراضين ، يكمل أحدهما الآخر ، فمن ناحية أولى نجد أن أهداف الحرب هي استمرار لأهداف السلم ، ومن ناحية ثانية تقتضي الحرب فقط تغييراً في الأسلوب .

أ ــ استمرار الأهداف

تحاول كل طبقة ، أو دولة ، أو أمة ، وفق التحليل الماركسي ــ اللينيني ، أن تحقق

أهدافها سلمياً بمختلف الوسائل. أما الطبقة الحاكمة، التي تتألف في المجتمع الطبقي من مالكي وسائل الإنتاج، فإنها تحاول أن تحقق أفضل الشروط الاقتصادية والسياسية، لاستثمار الطبقات الكادحة، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها، وذلك بمختلف الوسائل التي تؤدي إلى ذلك. وبالمقابل فإن الطبقات العاملة سوف تكافح في سبيل تحررها، وإسقاط نظام الحكم الرأسمالي. ويلاحظ في النظام الرأسمالي، أن الجهاز الإداري والاقتصادي، وجهاز الإعلام (الإيديولوجي)، والأحزاب، والنظام التربوي التعليمي تستخدم للمحافظة على سلطة الطبقة الحاكمة. وإذا لم تستطع الطبقة الحاكمة، بكل هذه الوسائل السلمية، المحافظة على وجودها، فإنها تلجأ إلى العنف المسلح، أي ما تطلق عليه الماركسية ــ اللينينية **العمل العسكري المضاد للثورة**، بغية نزع سلاح القوى الثورية وتحطيمها.

إن الحرب على الصعيد الدولي، وفقاً للماركسية اللينينية، تشبه الحروب الداخلية. فالطبقات الحاكمة في الدول غير الإشتراكية تستخدم أجهزة الدولة، الموجودة تحت تصرفها، لتمدّ مصالحها إلى ما وراء حدودها. لذلك فإن العلاقات بين الدول هي علاقات طبقية بصورة أساسية. وفي الفترات التاريخية السابقة، كان الصراع بين الدول الرأسمالية والمستعمرات، والصراع بين الأمبرياليين أنفسهم، من أجل إعادة اقتسام المستعمرات، هو الجهة الأساسية التي يشتد فيها التنافس بين الطبقات الحاكمة. ومع ظهور النظام الإشتراكي في دول متعددة، فإن الصراع الطبقي الدولي اتخذ شكل النزاع بين النظامين الإشتراكي والرأسمالي. وثمة وسائل متعددة، بالإضافة إلى الحرب، يمكن أن يُنَفَّذ الصراع بواسطتها، منها مثلاً: إقامة التحالفات، وتظاهرات القوة العسكرية، والإقناع الدبلوماسي، والضغوط الاقتصادية.

ب ــ بعض التعديلات في فكرة الاستمرار

لقد أُدخلت، في العصر النووي، بعض التعديلات على التفسير الماركسي ــ اللينيني لآلية الاستمرار، حيث يتعلق أحد هذه التعديلات بالسياسة المعمول بها في الحرب، بينما يتعلق الثاني بوصف أسباب نشوب الحرب وشروطها.

فقد صدر تفسير الماركسية ــ اللينينية لمفهوم أن الحرب هي استمرار للسياسة

بوسائل أخرى، في الوقت الذي كان الحزب الشيوعي يعبىء القوى ضد اشتراك روسيا في الحرب العالمية الأولى، وتحويل الحرب إلى ثورة بروليتارية. لذلك جرى التأكيد، آنئذ، على أن الحرب العالمية كانت استمراراً لسياسة ما قبل الحرب، للمشتركين فيها كافة، أي الطبقات الحاكمة للدول المتحاربة، وأنها كانت أيضاً استمراراً للصراع الطبقي، الذي يجري داخل كل دولة مشتركة، وعلى الصعيد الدولي: الطبقة العاملة الدولية ضد البورجوازية الدولية.

وفقاً لهذا التفسير، كان لسياسة القوى الأمبريالية ثلاثة مضامين أدت، بمجموعها، إلى إطلاق عنان الحرب:

١ ــ العلاقات المتبادلة فيما بينها.
٢ ــ الصراع الطبقي داخل كل بلد.
٣ ــ الصراع الطبقي الدولي.

وفي العصر النووي، يقال عن السمة الأساسية للسياسة بأنها تفسَّر بالصراع الطبقي الدولي بين القوتين الرئيسيتين في عالمنا المعاصر، وهما القوتان اللتان تمثلان الطبقة العاملة العالمية، والطبقة البورجوازية العالمية. أما في جبهات المواجهة المتعددة للصراع، فإننا نجد أن العلاقة المتناقضة بين النظامين العالميين المتضادين تمثل ما يعرف بـ (التناقض الرئيسي في الوقت الحاضر)، حيث تتأثر بهذا التناقض التناقضات الدولية والداخلية الأخرى كافةً، كـ: الصراع من أجل التحرر الوطني، الذي تخوضه الشعوب المضطهدة ضد الاستعمار ــ النضال الشعبي ضد المجموعات الاحتكارية ــ الصراع الثوري للطبقة العاملة، في بعض الدول، ضد البورجوازية ــ الصراع بين الدول الرأسمالية نفسها من أجل تعزيز مواقعها الرأسمالية الاحتكارية.. إلخ. ففي ضوء ذلك، إذن، فإن التيار السياسي الرئيسي، الذي تتدفق عبره الحروب في وقتنا الحاضر ينبع من الصراع بين الامبريالية والنظام الإشتراكي العالمي.

وتوجد، أيضاً، دلائل على أن تحولاً ثانياً قد حصل في تشديد التحليل الماركسي ــ اللينيني على الحروب الخاصة. فلدى تحليل أسباب النزاعات الدولية الحديثة، نجد أن بعض البحاثة السوفييت يميلون إلى إضعاف التشديد، الذي كان سابقاً، على الصراع

الطبقي الداخلي، باعتباره المصدر الرئيسي الأكثر عمقاً. ولكن بعضاً آخر يشير إلى أهمية تحليل الوضع الداخلي للدول المشتركة في النزاع. ومع ذلك، فهم لا يذكرون الأسباب التقليدية للحرب، مثل سوء الظروف الداخلية، أو الميل لإعادة توجيه النزاعات الداخلية، مثلاً. وربما يكون هذا التحول مرتبطاً بالتركيز الرئيسي للسياسة الخارجية السوفييتية على ما يعرف بـ (التعايش السلمي)، الذي يوجه بشكل رئيسي إلى منع الحروب الدولية، التي يكمن مصدرها، كما يقول السوفييت، في السياسة العالمية للأمبريالية.

أما التبدل، الذي حدث في المرحلة النووية ــ حسب التفسير الماركسي ــ اللينيني للحرب ــ من حيث كون الحرب استمراراً للسياسة، فيمكن أن يناقش في ضوء أسباب نشوب الحرب وشروطها. وهنا أصبح التحليل الماركسي ــ اللينيني أكثر تعقيداً، إذ أصبحت فكرة السبب تعالج باعتبارها ذات فروع متعددة.

وقد يكون من المناسب أن نفكر قليلاً ببعض أسباب هذه التغييرات في التحليل السوفييتي. فهي تعكس اتجاهاً عاماً لتحرير العمليات الاجتماعية ــ السياسية من العمل الآلي، وهذا يسهل بعض التغيرات النظرية، التي ستبدو ضرورية، إذا ما استبعدت العقيدة القائلة بأن بعض الحروب هي حتمية. أما التفسير الذي يبدوا أكثر قبولاً للباحث في الوقت الحاضر، فهو أن المحللين السوفييت، كانوا قد سعوا لتأمين إطار عمل للسيطرة على الصراع ومنع الحرب.

ج ــ العلاقة بين السياسة والحرب

يؤكد التحليل الماركسي ــ اللينيني سيادة السياسة على الحرب، حيث أن الأهداف السياسية، التي تخاض الحرب من أجلها، هي التي تحدد طابعها، إن كان تقدمياً أو رجعياً، عادلاً أم غير عادل. وإن الاستراتيجية التي تخاض الحرب بها تعتمد على الخطوط السياسية العريضة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن السياسة التي تأخذ بها حكومة ما، هي التي تحدد إن كانت هذه الحكومة قادرة على حشد التأمين المادي لخوض الحرب، أو حث السكان على تقديم التضحيات الضرورية.

١ ــ تأثير السياسة على الحرب

نجد في العقيدة العسكرية السوفييتية «أن الهدف من الاستراتيجية العسكرية هو أن تؤمن بالوسائل العسكرية، الشروط التي تتحقق فيها الأهداف التي وضعت لها[٤]. وأن العلاقة بين الاستراتيجية والأهداف السياسية ــ العسكرية للحرب، والأهداف السياسية هي علاقة وثيقة وواضحة جداً[٥]. ويمكن تمييز سمتين لهذه العلاقة، تتمثل الأولى بكون مضمون الأهداف السياسية تحدد من قبل القادة السياسيين، أما الثانية فتتمثل بإعارة الأهمية الكبيرة إلى طابع الأهداف السياسية. فإذا كانت هذه الأهداف عادلة فإن الحرب سوف تخاض، من أجل تحقيق الأهداف العسكرية، بتصميم كبير وتحبيذ الشعب، أما إذا كانت الأهداف ذات طابع صراع طبقي، فإن هذا يحتل دوراً خاصاً في صياغة الاستراتيجية العسكرية. ويرى السوفييت أنه إذا ما تطور الصراع بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين، إلى حرب، فإن الطابع الطبقي الحاد للصدام سوف يستبعد أي نوع من التراخي.

وقد أصبح تحديد الأهداف الاستراتيجية السلمية، في المرحلة النووية، لتنفيذ الأهداف السياسية للدولة، أكثر صعوبةً من السابق. ونظراً لاشتداد الصراع الطبقي فإن أهداف الحرب الحديثة لن تتحدد بتدمير القوات المسلحة للعدو فقط، كما كان الأمر في السابق، وإنما بالتدمير الكامل لكافة طاقته ومقدرته الاقتصادية، ولكافة أجهزة الدولة. وقد أدى تطور التقنيات العسكرية إلى جعل تنفيذ مهام القادة السياسيين والعسكريين أمراً صعباً. لأنه لا يمكن اتخاذ أي قرار، ضمن الإرادة العسكرية، الأمر الذي يخلق صعوبات أخرى في الصراع الداخلي بين مختلف الأحزاب السياسية وجماعات النفوذ والتأثير في سياق استراتيجي صرف، بل يجب ربطه مع الظروف السياسية في كل لحظة.

---

(٤) انظر كتاب كوزلوف Kozlov (بعض مسائل نظرية الاستراتيجية)، مجلة الفكر العسكري السوفييتية ١٩٥٤ العدد ١١، ص ٢٣.

(٥) كلما كانت الأهداف، التي تتطلع إليها القوات المسلحة، أكثر حسمية، كلما أصبح النضال أكثر شدة وحدة. وتؤثر السياسة على القرارات العملياتية والاستراتيجية المحددة، كنشر القوات المسلحة، وحركاتها، واتجاه الضربات الاستراتيجية، واستخدام الأسلحة.. إلخ. من كتاب (ن. ن. آزوفتسيف ــ لينين).

وفي المفهوم الماركسي ـــ اللينيني للحرب ، فإن القادة في الدول الأمبريالية سوف يواجهون صعوبات إضافية ، حيث أن أهدافهم **غير منسجمة** مع الاتجاه العام الذي يتطور فيه العالم ، والذي لا يستطيعون إدراكه ، حيث تنقضهم المنهجية العلمية الصحيحة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن التناقضات الداخلية للرأسمالية أصبحت ظاهرة للعيان في التنسيق بين وجهات النظر المتباعدة لحلفٍ ما ، كالناتو مثلاً .

٢ ـــ تأثير الحرب على السياسة

بالرغم من أن الماركسية ـــ اللينينية تؤكد سيادة السياسة على كل ما عداها ، فإنها ترى أيضاً أن السياسة يمكن أن تتأثر ، في ظل ظروف معينة ، بالاعتبارات العسكرية . وبما أن أساس الحرب والسياسة هو الصراع ، فإن العديد من مبادئهما الأساسية يكون متشابهاً . ونذكر منها :

ـــ حشد القوى ، ثورية كانت أو عسكرية ، في الزمن والمكان المناسبين .
ـــ الضرب في أضعف نقطة من دفاع العدو .
ـــ تكييف الوسائل المستخدمة حسب الموقف .
ـــ المناورة بمهارة بالإحتياطات .
ـــ اتباع الخط العام للخطة ، بالنسبة للمعارك والعمليات الكبرى ... إلخ .

وكان ستالين مغرماً بالتحدث عن الاستراتيجية السياسية ، عبر تحديد نقاط تشابهها مع الاستراتيجية العسكرية ، واستخدام الأمثلة الواقعية الحربية .

ويقول المحللون السوفييت أن متطلبات الاستراتيجية العسكرية قد تؤثر في أثناء مجرى الحرب ، على السياسة التي تأخذ بها الحكومة . وأن على هذه الحكومة أن تأخذ في الاعتبار البدائل العسكرية الحقيقية ، كما يجب على القادة أن يخططوا نشاطهم في سبيل المحافظة على السيطرة التي يمارسونها في العمليات العسكرية .

كذلك ، فإن للحرب نتائج بعيدة تؤثر على الظروف الداخلية للبلد المحارب . وهنا ، سوف تتولد الحاجة لأن يكيف السياسيون شروط الحرب ومتطلباتها . وإن أحد أهم هذه التأثيرات العامة يتصل بالسياسة الاقتصادية للبلد المحارب ، حيث يتوجب إدخال

تعديلات ، جذرية أحياناً ، على بنية الإنتاج بهدف تأمين المواد الحربية اللازمة للوصول إلى النصر .

ويرى السوفييت أن الحرب تمارس أيضاً ، تأثيراً عميقاً على الصراع السياسي والإيديولوجي في البلدان الرأسمالية ، وأن الطبقة الحاكمة سوف تحاول أن تحدّ من الحقوق الديمقراطية للسكان ، سواء باتخاذ إجراءات تشريعية وإدارية ، أو بحض المواطنين على التضامن الاجتماعي ضد العدو . وسوف يكون رد الطبقات العاملة معتمداً على طبيعة الحرب . فإذا كانت الحرب عدوانية ، وهي غالباً كذلك ، فإن هذه الطبقات سوف تصعد من صراعها الطبقي ، أما إذا كانت الحرب دفاعية ، فإنها سوف تزيد من مساهمتها في الإنتاج اللازم للجهد الحربي .

وقد أضفى العصر النووي سمتين خاصتين على هذه المسألة . فمن ناحية أولى ، نجد أن الحاجة قد ازدادت لتكييف الأهداف السياسية مع الوقائع العسكرية ، علماً بأن هذه الوقائع تمارس تأثيرها على السياسة منذ وقت السلم ، وأن القدرة التدميرية الهائلة للتكنولوجيا العسكرية الحديثة تضطر كل الدول إلى أن تحضر نفسها لاحتمال الوقوع في حرب عالمية جديدة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستراتيجية السياسية لمنع الحرب ، والاستراتيجية العسكرية لخوض حرب محدودة ، كانتا قد نشأتا من ظروف تطور التقنية العسكرية ، وتركتا تغييرات كبيرة في طبيعة السياسة في زمن السلم . وهكذا ، فإنه يجب أن تتوافق الأهداف السياسية ، والاستراتيجية السياسية لدولة ما ، مع مقدرتها الحربية ، ومع مقدرة حلفائها ، حتى في زمن السلم .

ومن ناحية ثانية ، فإن تأثير الاستراتيجية العسكرية على السياسة سوف يزداد في الحرب النووية ـــ الحرارية ، لأن نتائج العمليات الحربية سوف تأتي بشكل سريع ، لا يتوفر فيه الوقت اللازم لأن يؤخذ بعين الاعتبار سوى الأهداف الاستراتيجية الفورية . ولعل أحد أهم الحلول في هذه المسألة ، يكمن في زيادة سيطرة القادة السياسيين على العمليات الحربية ، عبر الموافقة ، أو عدم الموافقة على استخدام أسلحة التدمير الشامل .

د ـــ الحرب الأهلية ، باعتبارها استمراراً للسياسة

انعكست الأفكار السوفييتية العامة ، حول طبيعة الحرب ، في دراستها للحروب الأهلية والحروب الدولية وحروب التحرر الوطني .

فالحرب، تُعرَّف في النظرية التقليدية السوفييتية، بأنها «صراع مسلح بين الطبقات ضمن بلد واحد، من أجل الوصول للسلطة السياسية». ولم يطرأ تبديل على هذا التعريف حتى الوقت الحاضر، لكن تفسيره قد وضح مؤخراً بحيث لا تشمل فقط الحرب بين الطبقة العاملة والبورجوازية، والتي أطلق عليها (الحرب الأهلية الثورية)، بل وبين الجماهير التقدمية والقوى الرجعية المتطرفة للرأسمالية الاحتكارية، وهذا ما أطلق عليه (الحرب الأهلية).

١ ـ الحرب الأهلية الثورية

في الحرب الأهلية الثورية، يتم استخدام الوسائل السياسية والوسائل العسكرية في آن واحد، حسب النظرية الماركسية ـ اللينينية، بأمل تحقيق التحول الاجتماعي، الذي تنشده وتدعمه الجماهير سياسياً. وبالرغم من كون العناصر السياسية جوهرية وأساسية، فإنها لا تكفي لإلقاء ظلها، بالضرورة، على الإجراءات العسكرية التي تتخذ. وفي الواقع، فإن الصراع العسكري يمكن أن يدور على نطاق واسع وبشكل شديد جداً.

وتوجد ثلاث حالات يمكن أن تقع فيها الحروب الثورية (أو الحروب المضادة للثورة):

الحالة الأولى: هي حالة ما قبل الثورة، حيث تنظر الطبقات الحاكمة إلى تنامي الحركة الثورية باعتباره تهديداً للنظام الموجود، وتحاول إجهاض الثورة، معتمدة على القوة، للصراع ضد القوى الثورية (أي قيام الطبقات الحاكمة بحرب مضادة للثورة).

ويمكن أن ينشأ احتمال آخر في حالة ما قبل الثورة، إذا قررت الطبقات المستغِلة (بكسر الغين)، في بلد ديمقراطي ما، والتي تخشى أن تقوم الحكومة باتخاذ إجراءات معينة لتحقيق تحول اجتماعي في المجتمع، أن تطلق الحرب من معاقلها للحصول على السيطرة السياسية على الدولة. (كما حدث في اسبانيا عام ١٩٣٦).

الحالة الثانية: هي حالة الثورة نفسها، التي تهدف إلى إسقاط أو خلع النظام الراهن، حيث تنفذ الثورة، عادة، باستخدام القوة المناضلة المسلحة.

الحالة الثالثة: هي الحالة التي تلي نجاح الثورة. حيث سوف يترتب على النظام الجديد،

الذي توصل إليه نتيجة الثورة، أن يدافع عن نفسه ضد الأعمال المضادة للثورة، والتي قد تقوم بها طبقات معينة مستغِلة (بكسر الغين)، غالباً ما يكون ذلك بتعاون خارجي، بغية استعادة السلطة المفقودة، (كما حصل في روسيا ١٩١٨ — ١٩٢٠).

في كل هذه الحالات الثورية، نجد أن الحرب الأهلية الثورية تشكل استمراراً للصراع السياسي السابق بين الطبقات. ويعتبر هذا النوع من الحروب واقعاً لا محالة، عندما يصبح الصراع الطبقي حاداً إلى درجة عالية. وسرعان ما يبدأ صراع ايديولوجي واقتصادي وسياسي، طويل تنفذه الطبقات العاملة بقيادة حزب ثوري، الأمر الذي يقود حتماً إلى انتفاضة ثورية. ومن الطبيعي أن يكون الدفاع عن النظام الجديد استمراراً لإقامته.

٢ — الحرب الأهلية الديمقراطية

ليست كل الحروب الأهلية حروباً ثورية، فمن الممكن أن تؤدي التناقضات الملازمة للديمقراطية إلى كسر سلطان الطغمة الحاكمة الاحتكارية مدمرة النظام نفسه. وما دامت الطبقة الحاكمة ستدافع عن حكمها الاستبدادي، فإن الصراع المسلح يمكن أن ينشب بين هذه الطغمة وأكثرية الشعب، وهذا ما يسمى بـ الحرب الأهلية الديمقراطية. أما الفرق الرئيسي بين هذه الحرب والحرب الثورية فهو أن الهدف في الحرب الأهلية الديمقراطية يتم بتحقيق الديمقراطية، وليس بالإصلاحات الإشتراكية. وهكذا فإن القوى التقدمية تضم، في هذه الحالة، جزءاً من البورجوازية الوطنية، وجزءاً من العمال والفلاحين. وبالرغم من أن الطبقة العاملة تأخذ دوراً هاماً في هذه الحرب، إلا أنها لا تقود الصراع[٦].

٣ — الحرب الأهلية والحرب الداخلية

لا يستخدم تعبير الحرب الداخلية إلا في بعض الأحيان، في النظرية السوفييتية عن الحرب، وهو يشير إلى المفهوم العام، الذي يشمل أنواع الحروب الأهلية كافةً،

---

(٦) الماركسية — اللينينية عن الحرب والجيش، ١٩٦٨، تيوشكفتش ١٩٦٩ ص ٣٢ وهذه الحروب تعالج في دراسات أخرى باعتبارها إحدى حالات الحروب الأهلية (روبكين ١٩٧٤).

بالإضافة إلى نوعين آخرين من الحروب، هي: حروب التحرر الوطني، والحروب التي تخاض من قبل الأفراد، أو الجماعات ذات التوجهات القبلية أو الدينية، من أجل الاستقلال أو الحكم الذاتي. وبالتالي فهنالك أساس اجتماعي للحروب الأهلية، بينما يرتبط النوعان الآخران بالصراع الطبقي، ولكن أهدافهما الرئيسية تكون إما قومية أو دينية.

هـ ــ الحرب الدولية (بين الدول)

إن معالجة الصراع والحرب، من وجهة النظر الماركسية ــ اللينينية، كموضوعين منفصلين، تشكل انطلاقاً جديداً في العديد من الحالات. ويتم التركيز الأساسي على مختلف أسباب هذه الحروب، وللشروط التي يمكن أن تؤدي هذه الأسباب إلى الحرب.

١ ــ أنواع الحروب الدولية

يقوم عادة ثلاثة أنواع من الحروب والصراعات الدولية.

النوع الأول: هي تلك الحروب والصراعات المتصلة بالتناقض الرئيسي، الذي هو الصراع الطبقي الدولي. ومن صلب التناقض بين النظامين العالميين المتعاديين، تتولد الصراعات والنزاعات بين القوتين العظميين، سواء أكانت هذه الصراعات واقعة بين تحالفات الدول، أو بين الدول الأعضاء في هذه التحالفات. فيمكن أن تنشب الحروب، عندما يحاول عضو في المعسكر الرأسمالي أن يتدخل في الشؤون الداخلية لدولة إشتراكية، أو يرتكب عملاً عدوانياً ضد هذه الدولة.

لقد ركزت الدراسات السوفييتية عن الحرب على الحروب المعروفة بحروب الدفاع عن الدول الإشتراكية وأعطتها اهتماماً كبيراً. وإن التحضير لمثل هذه الحروب يمثل نواة العقيدة العسكرية السوفييتية والسياسة السوفييتية معاً.

النوع الثاني: هو تلك الحروب والصراعات، التي تنشب بين دول العالم الثالث والقوى الامبريالية، أي بين حركات التحرر الوطني والقوى الامبريالية. إضافة لذلك فإن الامبريالية تحرّض على الحرب بين دول العالم الثالث (الحرب العراقية ــ الإيرانية، على سبيل المثال).

النوع الثالث : هو الحروب التي تقع بين القوى الامبريالية نفسها ، بحثاً عن مزيد من التسلط الامبريالي على دول العالم الثالث ، أو بين الدول الرأسمالية المتوسطة والصغيرة .

٢ ــ مراحل تطور النزاع في الحروب الدولية

إن إحدى المسائل الرئيسية المعالجة في المجال الجديد للحروب الدولية هي آلية تطور الخلافات السياسية ، من الخلاف السلمي إلى صراع العنف . وتتطور هذه الآلية ، عادة ، في سبع مراحل :

١ ــ في البدء تنشأ وتبرز التناقضات الأساسية ، الاقتصادية والإيديولوجية ، والسياسية وغيرها .

٢ ــ انطلاقاً من هذه التناقضات ينشأ خلاف محدد في العلاقات بين طرفين أو أكثر .

٣ ــ يحدد كل طرف أهدافه ، ويقرر نوع الاستراتيجية التي يمكنها أن تحقق هذه الأهداف . وقد تتضمن هذه الاستراتيجية اتخاذ إجراء عدائي ، يؤدي بدوره إلى إثارة رد فعل مماثل لدى الطرف الآخر .

٤ ــ تتورط دول أخرى ، وخاصة القوى العظمى ، في الانحياز إلى أحد الطرفين ، عبر التحالفات أو الاتفاقيات أو المصالح التي تربطها بأحد طرفي النزاع .

٥ ــ يتصاعد الخلاف السياسي ، ويتخذ صورة أزمة سياسية حادة ، لها تأثير على السياسات الدولية .

٦ ــ تستنفر القوات المسلحة وتستدعى إلى حلبة الصراع ، إما لعرض القوة ، بهدف إفهام الطرف الآخر بأن الهدف هو هام بالنسبة للطرف الأول ، أو للقيام بعمل عسكري محدود .

٧ ــ تنشب الحرب الدولية بين الطرفين . وبالرغم من أن العمليات العسكرية قد تتوالى بشكل محدود ، إلا أن الوضع قد ينذر بتدخل القوى العظمى ، ويجر إلى الحرب النووية العالمية .

سياسة الأزمات

وفقاً لوجهة النظر هذه ، فإن الأزمة ، في المرحلة الحاسمة ، تكمن في الحد الفاصل بين السلم والحزب . والأزمات لا تحدث بالصدفة . وإن جزءاً هاماً من الاستراتيجية

الكبرى للأمبريالية يتمثل بخلق الأزمات، بغية تحقيق بعض المكاسب الهامة. وبكلمات أخرى، فإن الأزمة أصبحت، إلى حد ما، بديلاً للحرب، باعتبارها وسيلة رئيسية تسعى بها الأمبريالية لتحقيق أهدافها. ولعل سياسة الأزمات تشكل، حالياً، المواجهة الفعلية، الأكثر حدة بين القوتين العظميين، والأحلاف التي تقاد من قبلهما.

ويؤكد الباحثون السوفييت في دراستهم للأزمات، أن الأمبرياليين يغامرون بحرب عالمية، يمكن الانتقال إليها عبر أزمة حادة، لا يمكن التراجع عن متطلباتها. ويقول الأمبرياليون إنه يمكن لأسلحة التدمير الشامل أن تركز، خلال وقت قصير، على منطقة الأزمة بشكل لم يسبق له نظير، وبالتالي فإن خطر التصعيد السريع للأزمة كامن في الأزمة.

وقد تبدو الأزمات المحلية، التي تعلن بين قوى غير عظمى، أقل خطراً مما هي في الواقع. ولكن القوى العظمى قد تتورط في إحدى هذه الأزمات المحلية، وعندئذ تنقلب الحرب المحلية إلى حرب عالمية تستخدم فيها كافة الأسلحة المتوفرة، بما فيها النووية ـــ الحرارية.

و ـــ حروب التحرر الوطني

تشمل الدراسة السوفييتية للحرب، بالإضافة للحرب الأهلية، ثلاثة أنواع من الحروب الدولية وحروب التحرر الوطني. ويكون الممثلون السياسيون الرئيسيون في هذه الحروب هم شعوب المستعمرات والبلدان غير المستقلة من طرف، والقوى الأمبريالية، المتحدة غالباً مع القوى الرجعية الداخلية من طرف آخر. أما الأهداف السياسية، التي تهدف الأطراف المتصارعة إلى تحقيقها، فهي الوصول إلى التحرر الوطني، بالنسبة للطرف الأول، والمحافظة على السيطرة الاستعمارية على البلد، بالنسبة للطرف الثاني.

تعامل حروب التحرر الوطني، حسب الفكرة الماركسية ـــ اللينينية، كفئة من الحروب الوسيطة بين الحروب الدولية والداخلية، أو كفئة مختلفة. فهي تشبه الحروب الدولية في أن القوة الاستعمارية هي دولة خارجية، وأن النظام السياسي، الذي تقيمه هذه الدولة الاستعمارية، والذي يقاتل الشعب المضطهد ضده، يمثل غالباً مصالح القوى الرجعية الداخلية أيضاً.

إن كثرة حروب التحرر الوطني، منذ الحرب العالمية الثانية، تؤكد أهميتها في المرحلة الحاضرة، كما أن ذلك يدعم مكانة كل من الأمة، والطبقة، والدولة. وقد طرأ تعديل على طبيعة صراع التحرر الوطني، بعد أن ظهر أكثر من ٧٠ دولة جديدة على المسرح الدولي، خلال العقود الثلاثة الماضية. وهو يأخذ اليوم شكلين إضافيين:

الشكل الأول: نجد أن العديد من الدول، التي حصلت على استقلالها، ما زال عليها أن تناضل من أجل الدفاع عنه، ومن أجل تحقيق مكانة سياسية مستقلة حقيقية. ويتمثل هذا النضال، بشكل رئيسي، في إقامة اقتصاد مستقل متحرر من استغلالها الرأسمالي الأجنبي، ومقاومة الضغوط الموجهة ضدها من أجل الإشتراك في الأحلاف العسكرية الاستعمارية، أو ضد السماح للقوى الأجنبية بإقامة قواعد عسكرية في أراضيها. ويمكن أن يأخذ هذا النضال شكل العنف المسلح، نظراً لاحتمال التدخل العسكري الأمبريالي.

الشكل الثاني: من النضال في حروب التحرر الوطني، وبخاصة الحروب الداخلية، يمكن أن يقع خلال النضال من أجل التقدم الاجتماعي، وبخاصة، عندما تدعو الضرورة لإحداث تحولات اجتماعية. وفي هذه الحالة ينفذ النضال الاجتماعي، عادة، دون استخدام السلاح. ولكن إذا ما حاول الرجعيون، في الداخل أن يقاوموا هذه التحولات بعنف وبخاصة إذا ما تدخل الأمبرياليون لمساعدتهم، فإن هذا النضال قد يتصاعد إلى الحرب. وعندئذ تنتقل الحرب من كونها حرباً داخلية إلى حرب دولية.

ز ـ العلاقة بين الحرب الأهلية والحرب الدولية

بالرغم من أن الحروب الأهلية، أو حتى الحروب الداخلية، لا تشبه الحروب الدولية في عدة نواح، فإن الشروط المتعلقة بنشوب العنف، وطبيعة خوض الحرب، وملامح نتائجها، تكون، حسب النظرية السوفييتية، ذات جذور رئيسية واحدة، تمتد، بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى الصراع الطبقي والتناقضات الطبقية، التي تكمن في كافة أنواع الحروب. وهذا الافتراض ينبع من المبادىء الأكثر جوهرية في الماركسية، والتي تقول بأن السياسات تنبع بدورها من العلاقات الجدلية (الديالكتيكية) بين الطبقات، ضمن دول معينة، وفي المسرح الدولي.

١ ـــ تأثير الحربين الأهلية والدولية بعضهما على بعض

نظراً لهذه الوحدة الجوهرية ، فإن نوعاً ما من الحرب يؤثر على نشوب ، أو سير حرب أخرى . وتوجد عدة أساليب يمكن أن يمارس فيها هذا التأثير من الناحية العملية .

فعندما تصل الظروف ، ضمن بلد ما ، إلى مرحلة تصبح فيها الحرب الأهلية على وشك الانفجار (أو ربما تكون قد انفجرت فعلاً) ، فإن هذه الحرب يمكن أن تتحول إلى حرب دولية .

- إما بأن تقوم الطبقة الحاكمة بتوجيه توتر المجتمع وسخطه أو رضاه نحو شن حرب أو بزيادة الاستعدادات لحرب كان قد خطط لها مسبقاً .
- أو إذا دعم أحد الطرفين المقاتلين من قبل دولة خارجية ، فإن التوتر سوف يؤدي إلى إساءة العلاقة مع الدول الداعمة ، وقد يؤدي ذلك إلى صراع مسلح .
- إذا قررت دولة أجنبية التدخل مباشرة في الحرب الأهلية ، لصالح إحدى الفئات .

أما في الحالة المعاكسة ، فإن للحرب الأهلية تأثيراً على الحرب الدولية ، فقد تضغط الظروف لتحول دون قيام الطبقة الحاكمة ببدء حرب دولية ، أو ربما تضطرها هذه الظروف لإنهاء حرب تدور رحاها فعلاً ، ويمكن أن تتحول الحرب الدولية إلى حرب أهلية ثم تتوقف .

يمكن ، في بعض الحالات ألاّ تظهر أية علاقة مباشرة بين الحربين الأهلية والدولية . ويمكن للحرب الأهلية أن تنشب بمعزل ، إلى حد ما ، عن تيار السياسة الدولية ، كذلك يمكن أن لا تكون هنالك أية تأثيرات مباشرة للحرب الدولية على الصراع السياسي الداخلي في الدول المشتركة فيها .

٢ ـــ وجهة النظر الصينية

يتضمن المفهوم الصيني عن طبيعة الحرب الافتراضات الأساسية نفسها ، التي افترضتها النظرية الماركسية ـــ اللينينية عن الحرب ، باعتبارها استمراراً وأداة للسياسة . ويرى الصينيون أن الحرب شكل من أشكال الصراع الطبقي ، كما أن الامبريالية تشكل بدورها المصدر الأكثر عمقاً للحرب في الوقت الحاضر .

ويذهب الصينيون ليؤكدوا أن السمة الأكثر أهمية في الصراع العالمي ضد الامبريالية ، تتمثل بالصراع من أجل التحرر الوطني ، وأن جنوح الثورات نحو التحرر الوطني يوصف بأنه أعظم تطور تاريخي في عصرنا الحالي ، منذ نشوء النظام الإشتراكي العالمي . وينكر الصينيون بقوة أن مجرى الصراع ونتيجته من أجل التحرر الوطني ، يتحددان بدور النظام الإشتراكي ، وخاصة بدور الاتحاد السوفييتي ، في عالم العلاقات المتبادلة للقوة .

كذلك يرى الصينيون أن الصراع من أجل التحرر الوطني ، هو تظاهرة للصراع بين (قرى العالم) و (مدن العالم) . ففي الخلفية السياسية لهذه النظرة نجد أن (قرى العالم) هي الدول النامية في آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية ، وأن (مدن العالم) هي الدول الرأسمالية في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية . إن انتصار (القرى) سوف يشكل المرحلة الأولى من الثورة العالمية ، بينما ستكون المرحلة الثانية هي التطور الاجتماعي في الدول النامية .

وفي اتجاه آخر ، يرى الصينيون أن كلاً من (قرى العالم) ، والدول الأقل رأسمالية سوف تكون هدفاً لتنافس القوتين العظميين . ويرى الصينيون أن الاتحاد السوفييتي لم يعد يتصرف كدولة إشتراكية ، وبالتالي فقد أصبح (دولة اجتماعية أمبريالية) ، وإن التناقضات بين القوتين العظميين لم تعد قائمة على أساس الصراع العقائدي بين الإشتراكية والرأسمالية ، وإنما على الهدف الامبريالي لكل منهما ، والذي يهدف إلى السيطرة على العالم . وحيثما ينجح عدوانهما ، فإنهما سرعان ما يقيمان دولاً مضطهدة (بفتح الدال) ، ثم لا يلبث هذا العدوان أن يؤدي إلى الحروب ، التي تحاول الشعوب المضطهدة أن تحقق استقلالها الذاتي عبرها ، أو تحاول الدول المستقلة الأخرى أن تحافظ بها على استقلالها .

وباختصار ، فإن الصينيين يؤكدون على أنه توجد للحروب ، في العصر الحديث ، ثلاثة أبعاد :

ـــ أولاً : استمرار لسياسة المشتركين فيها .
ـــ ثانياً : هي جزء من المواجهة السياسية بين القوتين العظميين .
ـــ ثالثاً : هي جزء من نضال شعوب العالم من أجل التحرر الوطني والاجتماعي .

ويمكن لهذه الأبعاد الثلاثة أن تتطابق مع النضال العظيم لدول العالم الثالث.

٢ الطابع التاريخي للحرب

تعرف الماركسية الحرب بأنها «أداة للنضال الطبقي السياسي، وبالتالي فإن الحرب هي ظاهرة اجتماعية في المجتمع الطبقي».

وحسب النظرة الماركسية ــ اللينينية فإن الحروب لم تحدث، عبر التاريخ إلا بعد ظهور أول دولة طبقية. وإن النزاعات أو الشجارات كافة التي كانت تحدث بين القبائل، أو بين الشعوب البدائية، كانت تحدث دون أن تتوفر لها الشروط الضرورية لتسميتها حرباً. وأن الأساس الاجتماعي ــ الاقتصادي للدولة الطبقية هو العبودية. وسرعان ما أصبحت الحرب وسيلة لرعاية المصالح الاقتصادية للطبقة المستغِلة.

واستمرت الحرب، في المجتمعات الطبقية اللاحقة كافة، أداة طبيعية لا يمكن الاستغناء عنها. واستطاعت الطبقات المستغلة أن تحافظ، بواسطتها، على موقعها، وأن تعمل على تقويته عبر التوسع.

أ ــ مستقبل الحرب

تقول النظرية الماركسية ــ اللينينية: إن «الحرب سوف تختفي مع اختفاء المجتمع الطبقي، بمعنى أنه عندما تصبح كافة الدول إشتراكية، فلن يبقى سبب لوقوع الحروب، ما دام أن الطبقات، التي تخاض من أجل مصالحها الخاصة، لم تعد موجودة».

كانت هذه هي النظرية التقليدية عن الطبيعة الطبقية للحرب. وعندما تصل الدول إلى مرحلة الإشتراكية تصبح جميعها متساوية السيادة، وبالتالي تكون لديها الفرص نفسها لكي تتطور في مختلف المجالات، بما فيها مجالات الاقتصاد والثقافة. وهكذا تختفي الفروق بين الدول وتصبح كلها متساوية متعادلة.

وكان الاعتقاد التقليدي، خلال نصف القرن الأول بعد انتصار أول ثورة إشتراكية، هو أن المجتمع الشيوعي سوف يكون متحرراً من الحرب، وسوف يكون ذلك نتيجة طبيعية مادام أن الحرب ستظل حتمية، ما لم يتحقق الإنتصار النهائي للإشتراكية على مستوى العالم كله. وعلى ضوء الشروط الحديثة المعقدة، التي ظهرت على المسرح العالمي

في المرحلة الصاروخية النووية، من الناحية السياسية، والتقنية، والنفسية، والسياسية الجديدة للاتحاد السوفييتي، التي احتل فيها التعايش السلمي مكانة رئيسية، فقد ظهرت الحاجة إلى أسلوب إيضاحي جديد للدور الذي تلعبه الحرب في العالم المختلط، المؤلف من نظامين اجتماعيين متناقضين، ومن ذول عالم آخر، أطلق عليها دول العالم الثالث.

ب ــ الحرب في العالم الحديث المختلط

يمر التقدم التاريخي للإنسان، حسب النظرة الماركسية ــ اللينينية، عبر خمس مراحل اجتماعية اقتصادية، ابتداء من المجتمع البدائي وانتهاء بالشيوعية، وأن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يتم بالثورة. ولا تزال هذه المفاهيم مقبولة في النظرية الماركسية مع تفسيرات أكثر ليناً ومرونة.

ترى النظرية الماركسية أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى لا يتم في سائر البلدان في وقت واحد، ولا بد أن يتم في أزمنة مختلفة. وبالتالي فإنه حتى تنتقل دول العالم كافة إلى الإشتراكية، فسوف يبقى العالم مختلطاً. وإن هذا الانتقال لن يتم إلا عن طريق الثورات، التي قد تنجح بعضها ويفشل بعضها الآخر. وإذا كان الانتقال من الرأسمالية، التي تكون الحرب فيها حتمية، إلى الإشتراكية، التي تنعدم فيها الحرب نهائياً، فإن ذلك يعني **أن الحرب سوف تختفي تدريجياً في هذا العصر الانتقالي**. وكلما ازداد عدد الدول المنتمية إلى الإشتراكية أصبح النظام الإشتراكي أكثر قوةً. وهكذا سوف يزداد، حتماً، عدد الدول الإشتراكية في العالم، وبالتالي سوف يقل تعداد الحروب. وهكذا يمكن أن نصل إلى مستوى، يمكن أن نناقش فيه ضرورة الحرب بين النظامين المتناقضين، أو أن حروب التحرر الوطني سوف تحلّ تدريجياً مكان ضرورة الحرب وحتميتها بين القوتين العظميين.

وإضافة إلى ذلك، نجد أن الباحثين السوفييت والسياسيين يلاحظون أن الفترة الانتقالية هذه تتعزز عند ظهور مناخ أخلاقي ونفسي جديد، تصبح فيه الحرب غير مقبولة، من حيث كونها وسيلة لحل النزاعات والخلافات الدولية. وأن وعياً جديداً أخذ ينتشر على نطاق واسع بين الدوائر السياسية والجماهير الشعبية الواسعة، مفاده أن محاولة منع الحرب بوسائل سباق التسلح ليست إلا حماقة أو عملاً جنونياً. ويمكن تفسير هذا

التبدل في المواقف على ضوء أن الحرب النووية أصبحت ، في مفهوم الجميع ، لا تؤدي إلى أية نتائج سياسية مرغوبة .

وفي الرأي الماركسي ـــ اللينيني يعتبر النضال من أجل السلم هاماً جداً في العصر الحالي ، نظراً لأن هذا العصر هو فترة انتقالية من الرأسمالية إلى الإشتراكية ، وأن التطور في هذا الاتجاه أمر حتمي ، ولذلك يجب أن يترك هذا التطور للنضال السلمي وليس للحروب والصراعات المسلحة . وأنه يجب الانتباه والحذر من نشوب الحروب المفاجئة ، فهي من طبيعة الرأسمالية ، التي تدافع عن تدهورها وعن مصالحها الحيوية .

ج ـــ الحرب داخل النظام الإشتراكي

سوف تختفي كافة الأسباب الداعية لشن حروب داخلية ، في بلد ما ، بمجرد انتصار الثورة الإشتراكية فيه . ولكن من المحتمل أن تؤدي الإجراءات المضادة للثورة ، في بلد ما، إلى إثارة الحرب ، عندما تقوم إحدى الدول الإشتراكية بتقديم مساعدة أخوية إلى دولة إشتراكية ثانية لمساعدتها في قمع عناصر التخريب . ولكن الحرب بين الدول الإشتراكية ليست واردة مطلقاً وعندما يناقش الباحثون .السوفييت احتمال اندلاع حرب بين الصين والاتحاد السوفييتي ، فهم يلاحظون أن الموقف سوف يكون نموذجاً شاذاً .

وقد قام بعض الماركسيين ، من غير السوفييت ، استطراداً لهذه الفكرة ، بالإشارة إلى أنه سوف يوجد العديد من التناقضات والنزاعات ، في المرحلة الانتقالية ، سواء ضمن المجتمعات الإشتراكية أو فيما بينها ، وأنه سوف يكون ثمة خطر دائم في أن تؤدي هذه التناقضات والنزاعات إلى الحرب . ذلك أن عملية التغلب على عدم المساواة القومية بين الدول الإشتراكية سوف تحتاج إلى زمن طويل .

وقد درس احتمال حدوث الصراع المسلح بين الدول الإشتراكية نفسها من قبل الباحثين اليوغسلافيين ، الذين أثير اهتمامهم بهذه المسألة ، في الوقت الذي كانت فيه العلاقة تسوء بين بلادهم وبين الاتحاد السوفييتي ، لأسباب تعود في رأيهم ، إلى سياسة الاتحاد السوفييتي نفسه[٧] .

---

(٧) انظر كاردلي ، ١٩٦١ ، (الحرب والإشتراكية) .

د ــ بعض مضامين نظرية التعايش السلمي

بعد ظهور القوى النووية المدمرة ، بدأت تظهر وجهات نظر معدلة إلى حد ما ، حول الطبيعة الأساسية للدولة الرأسمالية ، في مفهوم المرحلة الانتقالية ، التي سوف تختفي فيها الحرب **تدريجياً** . وترى الماركسية ــ اللينينية التقليدية أن الدولة الرأسمالية كالدول الطبقية كافة ، تستخدم العنف أداة للمحافظة على الحكم الداخلي ، وعلى استمرار التوسع الخارجي ، حيث تكون الحرب ، بالنسبة لهذه الدولة ، عملاً طبيعياً وحيوياً ومشروعاً ، كما هو التنفس بالنسبة للكائنات الحيَّة . ولعل القول بأن الدول الرأسمالية تأخذ بسياسة التعايش السلمي ، أو تدعمها بقوة ، لا يعني سوى أنها تقبل التخلي عن وظائفها الحياتية ، التي لا يمكنها الاستمرار دونها .

وفي الماركسية ــ اللينينية الأصيلة نجد أن طابع الحرب يرتبط بشكل وثيق بالطابع التاريخي للطبقات والدول والسياسات ، كما أن مفهوم الطبقة هو الأساس الذي تحدد بالنسبة له التعابير الثلاثة التالية :

ــ الدولة هي أداة للطبقة .
ــ السياسة هي نشاط الدول الطبقية .
ــ الحرب هي الوسيلة التي تنفذ السياسة بواسطتها .

ولكن الطبقة هي ظاهرة اجتماعية ذات حدود مؤقتة معينة ، لأن التقدم الاجتماعي للإنسان يتجه نحو المجتمع غير الطبقي . وعندما تختفي الطبقة ، تختفي الدولة المرتبطة كما تختفي السياسة والحرب .

وباختصار ، فإن وجهة النظر السوفييتية متفائلة حول إلغاء الحرب ، ليس عندما يصل الإنسان إلى نهاية تقدمه الاجتماعي فحسب ، بل وفي الوقت الحاضر أيضاً . ومهما يكن من أمر فإن عملية إنهاء الحرب وإلغائها ليست عملية آلية . وثمة من يقول إن العناصر الرجعية في الدول الرأسمالية تخلق الصعوبات في طريق الوفاق ، ونزع السلاح ، وإلغاء الحروب كافة بين الدول . ولكن هذه الدوائر قد تخسر نفوذها السياسي مع انحدار الرأسمالية ، حيث تحل محلها العناصر التقدمية .

٣ مستقبل الحرب في المرحلة الصاروخية النووية

في السنوات الأخيرة، وجه الباحثون السوفييت اهتمامهم الرئيسي من أجل تحديد مدى التغيّر، في الموقف الدولي، الناجم عن التبدلات التي طرأت حتى الآن في الإطار الاجتماعي السياسي للعالم، على ضوء ظهور التقنية العسكرية النووية وتطورها، ومدى تأثير ذلك على طبيعة الحرب ومستقبلها. وقد ركز هؤلاء الباحثون، في إعادة تدقيقهم للموقف السوفييتي التقليدي، على ثلاث مسائل هي:

ـــ هل لا تزال الحرب استمراراً للسياسة؟
ـــ هل الحرب وسيلة عملية، يُنصَح بها لتحقيق الأهداف السياسية؟
ـــ هل هناك أي تأثير لأجوبة هذين السؤالين على نظرية حتمية الحرب، التي كانت قد لعبت دوراً عميقاً في النظرية الماركسية ـــ اللينينية في الحرب؟

وفي مناقشة هذه المسائل كان لدى العلماء والباحثين السوفييت ميل إلى تحديد تعليقاتهم فقط على أنواع خاصة من الحرب، دون أن يجعلوها ذات علاقة بالحرب بشكل عام[٨].

كانت المسألة الأولى، أي كون الحرب استمراراً للسياسة، قد عولجت فيما سبق. واسترجاعاً لهذه المناقشة باختصار، يمكن القول بأن الباحثين السوفييت يؤكدون أن المبدأ الرئيسي في نظرية الحرب يبقى صالحاً. فالشكل الأساسي للصراع الطبقي، هو الصراع بين قوى الأمبريالية من ناحية، والقوى التقدمية الإشتراكية إلى جانب قوى التحرر الوطني من ناحية ثانية. ويمكن لهذا التضاد والعداء أن يأخذا شكل الحرب بين النظامين الاجتماعيين السياسيين. أو بكلمة أخرى، قد تقع الحرب العالمية بين الدول الرأسمالية والإشتراكية، أو أن تقع حروب محدودة (أو محلية)، تثيرها الأمبريالية، أو حروب ثورية تهدف إلى التحرر الاجتماعي أو القومي.

---

(٨) إن الأوراق الرسمية، والكتب العلمية، المتعلقة بهذا الموضوع، هي من الكثرة بحيث لا يمكن أن نأتي على ذكرها هنا. أما بالنسبة لاستعراض هذه النظرية فيمكن الرجوع إلى كتاب (الاستراتيجية العسكرية ـــ ١٩٦٨)، وروبكين، ١٩٥٩، ١٩٧٣، ١٩٧٤ ..إلخ.

أ ـ فائدة الحرب

أما الإجابة عن السؤال الثاني، عن كون الحرب وسيلة عملية ومرغوبة لتنفيذ أهداف السياسة، فقد وضعت أمامنا بعض المشكلات. ذلك أنه لكي تكون الحرب أداة مفيدة، فإنه يجب أن تتوفر فرصة جيدة كي تؤدي إلى النصر، أي إلى تحقيق الأهداف السياسية المرغوبة. وحتى إذا كانت الحرب مفيدة، وفقاً لهذا المقياس، فإنها سوف تظل أداة لا ينصح بها لمتابعة السياسة، إذا أمكن تحقيق الأهداف نفسها بوسائل سلمية، وبثمن أقل، أو إذا كانت التكاليف الاجتماعية، المباشرة وغير المباشرة، لاستخدام وسيلة الحرب، أكبر من الربح الناتج.

وحسب رأي الباحثين السوفييت، فإن ظهور الأسلحة النووية، الذي أدى إلى زيادة كبيرة جداً في تكاليف الحرب، ونمو النظام الإشتراكي، الذي خلق شروطاً أفضل لتحقيق الأهداف الثورية بالوسائل السلمية، قد أدخلا تأثيراً على قيمة الحرب كأداة لحل الأهداف السياسية.

ب ـ الحرب النووية ـ الصاروخية بين الأنظمة

يرى السوفييت أنه سيكون عملاً انتحارياً، أن تحاول الدول الأمبريالية شن حرب نووية ـ صاروخية ضد النظام الإشتراكي، لأن هذه الدول إنما تضع نفسها في موقف خاسر، حيث أن هذه الحرب لن تنتهي بأية قيمة إيجابية بالنسبة لها. وإضافة إلى ذلك، فإن المعسكر الإشتراكي يستطيع نظرياً أن يستخدم هذه الحرب لتحقيق النصر النهائي على الأمبريالية.

ويرى السوفييت أن السيطرة السياسية على الاتجاه العام للعمل، وعلى السمات المادية والأخلاقية كافةً، وعلى العمليات العسكرية خاصةً، سوف تكون صعبة في ظروف الحرب النووية الصاروخية. ومهما يكن من أمر، فإن الصعوبات سوف تكون أقسى وأكثر حدة في الجانب الأمبريالي، منه في الجانب الإشتراكي، ذلك أن التنسيق بين الجهود السياسية والاقتصادية والعسكرية سيكون منفذاً، بفعالية أقل بكثير مما هو عليه الحال في النظام الإشتراكي[٩].

---

(٩) يعتبر هذا الموضوع أحد الموضوعات الرئيسية في كتاب (روبكين) ١٩٦٥.

وهكذا فإن الباحثين السوفييت يرون أنه إذا ما شن الأمبرياليون حرباً نووية صاروخية ، فإن الدول الإشتراكية سوف تربح هذه الحرب ، وعموماً فإنهم يصرحون دائماً على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي بأن هذه الحرب لن تكون مرغوبة جداً ، وأن انتصار القوى التقدمية سوف يكون حتمياً بالطرق السلمية ، ودون اللجوء إلى مثل هذه الحروب القذرة .

ويوجه السوفييت انتقاداً حاداً إلى وجهة النظر الصينية عن الحرب النووية ـــ الصاروخية ، ويقولون : «إن عدالة أهداف الدول الإشتراكية وأعمالها ، في حرب معينة ، لا يمكن أن تكون دافعاً ، أو مسوِّغاً لشن الحرب ، حسب تفسير القادة الصينيين ، الذين يريدون تحقيق أهداف ذات طابع مغامر واستفزازي»[١٠] . ويقال إن الصينيين يهملون مقدار التدمير الكبير جداً الذي تحدثه هذه الحرب ، عن طريق تشديدهم على الثقة بانتصار المعسكر الإشتراكي ، وبالتالي على فائدة الحرب وهدفيتها .

ج ـــ الحروب المحلية والمحدودة

نجد في المصطلحات السوفييتية ، أن الحروب غير الشاملة التي تشنها القوى الأمبريالية تختلف تماماً عن الحروب الشاملة . ونرى أنه بينما عملت التقنية العسكرية النووية على الإقلال ، وبشكل جذري ، من فائدة الحروب الشاملة بين النظامين ، نرى أن تأثير هذه التقنية على الحروب المحلية ، أو المحدودة ، التي هي حسب التعريف غير شاملة ، لم تكن له أهمية تذكر .

ويصعب جداً التأكيد على فائدة الحروب المحلية أو المحدودة ، حيث أن كلاً منها يشكل مزيجاً فريداً في نوعه من العوامل السياسية والعسكرية . ويشير الباحثون والعلماء السوفييت إلى أن هذه الحروب ، تكون عملية بدرجة أكبر إذا أمكن توقع تحقيق نصر سريع . وكلما طال زمنها ، تعقدت العوامل الداخلية والخارجية ، وازدادات بالتالي تكاليفها بالنسبة للمكاسب والأرباح المحتملة . وفضلاً عن ذلك ، فإنه كلما امتدت مدة الحرب

---

(١٠) أنظر ج. مالينوفسكي في مقالة (الحروب المحلية وحروب التحرير الوطني) المجلة العسكرية التاريخية السوفييتية ١٩٧٤/٥ ، وف. موتشالوف في (الوهم الكبير في الحروب الصغيرة) . دار النشر العسكرية ـــ موسكو ١٩٦٥ .. إلخ .

المحدودة، ازداد خطر تصعيدها إلى حرب دولية كبيرة. وبالتالي فإن هذا التطور يجعل هذه الحرب غير ذات فائدة، باعتبارها أداة للسياسة.

إن أخطار الحروب المحلية والمحدودة حادّة، خاصة بسبب اختلال التوازن في القدرات العسكرية بالنسبة للأطراف المعادية في مختلف مراحل الحرب. وعندما تتدخل قوة أمبريالية في حرب محلية محدودة، فإن الدولة المهاجمة (بفتح الجيم) تعبىء جهداً دفاعياً شاملاً لمواجهة التدخل المحدود. ويمكن أن يصبح الموقف أكثر تعقيداً، ما دامت حركات التحرر الوطني تدعم، عادة، من قبل القوى الإشتراكية، وتدعم القوى الرجعية من قبل القوى الأمبريالية.

ويقدم العلماء السوفييت الحربين الكورية والفيتنامية، باعتبارهما مثالين عن الحروب المحلية والمحدودة، التي لم تستطع القوى الأمبريالية التي تدخلت فيهما أن تحقق أية فائدة. وقد سميت أعمال التدخل المذكورة، أحياناً بـ (الوسائل المضادة).

د ـــ الحرب الثورية

لا شك في فائدة الحرب الثورية في الدراسات السوفييتية عن الحرب، فما دامت إمكانية نجاح الثورة، لم تكن تمثل، حتى أعوام الخمسينيات، أية خطورة جدية، دون حرب ثورية، فإن السؤال عن كون الحرب الثورية مرغوباً فيها، لم يطرح عموماً. وفي إعادة التدقيق في طبيعة الحرب، التي نفذت بعد تبني سياسة التعايش السلمي، أصبحت عقيدة حتمية الحرب الثورية موضع استنكار رسمي للمرة اللأولى. وقد جعل ذلك، من الممكن أو حتى من الضروري أن يجري النقاش حول ما إذا كانت الحرب هي الوسيلة الأفضل لتحقيق الثورة.

ويمكن تقسيم العنف الثوري المسلح الموجه لتحقيق الثورة إلى ثلاث مسائل ذات علاقة متبادلة فيما بينها:

١ ـــ هل الحرب الثورية ضرورية للنصر؟ وهي أكثر المسائل أهمية؟
٢ ـــ هل من الضروري أن تقع حرب دولية كبيرة كي تخلق الظروف الضرورية للثورة؟
٣ ـــ هل على الدول الإشتراكية والتقدمية أن تقدّم دعماً عسكرياً للانتفاضات المسلحة التي تقودها القوى الثورية في البلدان الأخرى؟

لقد تمت الإجابة، بصورة تقليدية عن السؤال الأول، بشكل إيجابي وحاسم. فلا يمكن تصور حدوث تحول إشتراكي للمجتمع دون كفاح مسلح. ولا يوجد احتمال لاستسلام البورجوازية دون مقاومة مسلحة، أو احتمال أن تهزم دون اللجوء إلى الحرب المضادة للثورة.

أما بالنسبة للسؤال الثاني، وبالرغم من أن البحاثة السوفييت لم يعلنوا مطلقاً عن ضرورة الحرب الدولية لنجاح الثورة، فإنه يمكن أن يستنتج ذلك عبر وصفهم للثورات التاريخية، حيث يلاحظ أن هذه الفكرة كانت فعلاً في أذهانهم. وقد أشاروا إلى أن الحرب العالمية الأولى قد خلقت، مثلاً، شروطاً ملائمة إلى أقصى حد من أجل نجاح ثورة أكتوبر. فقد أضعفت هذه الحرب النظام الرأسمالي، بزيادة تناقضاته حدة، وأسهمت في تنامي الوعي الطبقي لدى الطبقة الكادحة.

وبالرغم من أن السوفييت لم يعلنوا صراحةً عن أن أسلوب الحرب الدولية ضرورية لنجاح الثورة الإشتراكية، ولكنها كانت فرصة سانحة لذلك، استفادت منها العناصر الثورية الإشتراكية للاستيلاء على الحكم. وهذا يمكن أن يعني أنه في فترات مماثلة من الحروب الدولية، يمكن أن تستفيد حركة ثورية ما من ضعف السلطة، التي تشترك قواها الرئيسية في الحرب الدولية كي تقفز وتستولي على السلطة، أسوة بما حصل في ثورة أكتوبر الإشتراكية (١٩١٧).

أما المسألة الثالثة، والتي كان السؤال فيها: هل يتوجب على الدول الإشتراكية أن تقدم دعماً عسكرياً للانتفاضات المسلحة التي تقودها القوى الثورية في البلدان الأخرى؟ فإن الباحثين السوفييت لم يقدموا دراسة مباشرة وصريحة. فقد كانت النظرة اللينينية تستنتج أن العملية الثورية العالمية سوف تستمر لمرحلة تاريخية كاملة، حيث ستنجح الثورة في بدايتها في عدد قليل من الدول، وربما في دولة واحدة فقط، ومادام إشتراك الاتحاد السوفييتي في أية أحداث ثورية في الخارج سيرتبط بمغامرات خطرة، فإن السياسة المتبعة خلال الفترة بين الحربين العالميتين، في أثناء بناء الإشتراكية في بلد واحد، كانت تنبع من نظرية لينين. أما بعد ذلك، وبالرغم من حقيقة أن الاتحاد السوفييتي قد ساعد القوى الشيوعية، بشكل فعال، في الوصول إلى السلطة في عدة بلدان أوروبية، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فإن الموقف الرسمي، حول عدم ضرورة تقديم الدعم العسكري،

وإرسال القطعات العسكرية بشكل خاص لدعم موقف الثورة في البلدان الأخرى، بقي كما هو ثابتاً.

هـ ـ الأسلحة والثورة في مرحلة التعايش السلمي

أدت الحاجة إلى التعايش السلمي، في الظروف التي سادت بعد الحرب العالمية الثانية، إلى إعادة تدقيق كل من الموقف الرسمي، والافتراضات الضمنية المتعلقة بهذه المسائل الثلاث، المذكورة أعلاه. فقد نفى ضرورة تلازم الثورة مع الحرب الثورية، وبالتالي فإن ضرورة اللجوء إلى العنف كانت تنشأ فقط عندما تلجأ البورجوازية إليه أولاً. وهذا يعني أن القوة المسلحة لم تكن ضرورية إلا للرد على استخدام الطبقات المستغلة (بكسر الغين) للعنف المضاد للثورة. ونظراً للتحول في توازن القوى في العالم لصالح القوى التقدمية والإشتراكية، فلم يعد ممكناً الافتراض بأن البورجوازية ستلجأ، حتماً ودوماً، إلى استخدام القوة المسلحة الموجودة تحت تصرفها، بل سوف تفضل، على الأغلب، أن تستسلم دون مقاومة مسلحة.

وهكذا نجد، حسب التصريحات السوفييتية الجديدة، أن التعايش السلمي أصبح ممكناً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التعايش أصبح مرغوباً فيه لأسباب عديدة، ذلك أن الحرب الثورية الأهلية يمكن أن تؤدي إلى دمار مادي كبير، وإلى معاناة إنسانية حادة. كما يخشى، في الظروف الراهنة، تحول الحرب الأهلية إلى حرب دولية نتيجة التدخلات الخارجية (الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٦)، الأمر الذي يجب تجنبه في ظل التنافس والسباق العالميين، بعين النظامين الاجتماعيين المتضادين.

يمكن أن نضيف، أخيراً، أنه منذ إعلان أول تصريح عن سياسة التعايش السلمي من قبل خروتشوف، كان يمكن الكشف عن بعض التحولات في تأكيد الخط الرسمي للحزب. ويشار حالياً، وفي التصريحات الرسمية، غالباً، إلى أن التعايش السلمي لا يتناقض مع إمكانية وقوع الحرب الثورية، أو حروب المسلح في التحولات الإشتراكية.

و ـ الثورة الوطنية والحرب في المرحلة النووية

إن أحد المبادىء الأساسية للنظرية السوفييتية هو أن الاستقلال الوطني للشعوب المضطهدة، وغير المستقلة، الواقعة تحت نير الاستعمار، سوف يتحقق بالثورة. ولا يزال الايديولوجيون السوفييت مخلصين، في الوقت الحاضر، لهذا المبدأ، كما كان أسلافهم من قبل.

ولكن، وكما اعتبرت العلاقة بين الثورة الاجتماعية والحرب علاقة غير كاملة، بعد إعادة تدقيقها في أعوام الخمسينيات، فإنه جرى أيضاً نفي التوافق بين الثورة الوطنية والحرب. وقد سبق وذكر بأن هنالك إمكانية لتحقيق التحرير الوطني بالوسائل السلمية، ولذلك أصبح من الواجب على النقاط النظرية أن تحدد الظروف التي يجب أن يستخدم فيها العنف المسلح، والظروف التي تستخدم فيها الوسائل السلمية.

وفي هذا المجال، فإن العلماء والباحثين السوفييت يرون أنه مادامت أمور كثيرة سوف تعتمد على الظروف الاجتماعية الاقتصادية للدولة صاحبة العلاقة، فمن الصعب أن نخرج بقاعدة عامة عن المزيج من الطرق الصحيحة الواجب انتاجها في حالة معينة. وفي الوقت نفسه، فثمة خطر إضافي في المرحلة التاريخية الراهنة، يتمثل بأنه إذا ما تم اختيار الحرب كوسيلة لتحقيق التحرر الوطني، فإنها قد تتصاعد إلى صراع دولي كبير يهدد بالتحول إلى حرب شاملة. لذا، وفي ظل الموقف الدولي الراهن، فقد توجد الأسباب اللازم لتفضيل الطرق السلمية على الطرق العسكرية في النضال ضد الأمبريالية، والأمبريالية الجديدة.

ز ــ الدعم الإشتراكي للثورات الوطنية

إن الدعم، الذي تقدمه الدول الإشتراكية لحركات التحرر الوطني، هو أمر طبيعي، كالدعم الذي تقدمه هذه الدول للقوى الثورية. وكما ذكر سابقاً، وفق وجهات النظر السوفييتية، فإنه يفضل، في الوقت الحاضر، اتباع الطريق السلمي غالباً للوصول للاستقلال أو التحرر الوطني. وإذا ما تطلبت الظروف المحلية استخدام وسائل العنف المسلح في النضال من أجل هذا التحرر، فإن نوع الدعم، الذي سوف تقدمه الدول الإشتراكية، سيكون مقيَّداً لسببين:

ــ أولاً: أن كافة الثورات يجب أن تعتمد بصورة رئيسية على قدرات القوى الثورية المحلية. فالثورة لا يمكن تصديرها من قبل الدول الإشتراكية، حسب رأي الباحثين السوفييت.

ــ ثانياً: أن الدعم الواجب تقديمه يجب أن يكون متلائماً مع سياسة التعايش السلمي، وبالتالي فإنه يجب أن يقدم دون أن يبدو تدخلاً مسلحاً مكشوفاً في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى.

والحقيقة، أنه لا يستطيع المنظرون السوفييت أن يبوحوا بواجب الدعم المسلح للثورات الوطنية المختلفة، لأن ذلك سوف يحمل ذريعة ضدهم، من الطرف المعادي، الذي هو الأمبريالية، للقيام بعمل مماثل أو أشد، متخذة في ذلك ذريعة موافقة النظريات السوفييتية على هذا العمل المشروع، وبالتالي فإن احتمال زيادة الاصطدام مع الأمبريالية، في صراع دولي، يصبح أكبر، وهذا ما لا ترغب فيه النظريات السوفييتية.

ح ــ وجهات نظر متطرفة

خرج بعض الباحثين السوفييت المنفردين ببعض الاستنتاجات المتطرفة، من وجهة نظر التبدلات التي طرأت على التصريحات السوفييتية الرسمية، فيما يتعلق بصحة استمرارية مختلف أنواع الحروب في العصر النووي. ونذكر منها مثلاً أن الحروب، وعلى الأقل النووية قد أصبحت شبه مستبعدة، أو لا يمكن استخدامها حالياً.

وكان قد ظهر كتاب للسيد نيكولسكي NIKOLSKY، في بداية أعوام الستينيات، وكان لهذا الكتاب أهمية خاصة لأنه ناقش، وأكد أن أنواع الحروب كافة قد أصبحت مستبعدة، وغير ممكنة في العصر الحديث، وهذه الفكرة تخالف الفكرة والنظرية الرسمية السوفييتية. فقد أكد المؤلف أن التطور التاريخي للتقدم الاجتماعي، منذ الحرب العالمية الثانية قد أدى بالتدريج، إلى تآكل الجذور الأساسية للحروب كافة، وبالتالي إلى تآكل النظام الرأسمالي. ذلك أن القدرة التدميرية للحرب قد ازدادت باستمرار، مع تعقد تصاميم الأسلحة الجديدة. ونتيجة لذلك فإن قوى الحرب (الأمبريالية) فقدت الكثير من قدراتها بالنسبة لقدرات قوى السلم (الإشتراكية)، الأمر الذي أدى إلى انخفاض إمكاناتها في خوض الحرب، وفضلاً عن ذلك، فإن الحرب الشاملة لم تعد ذات فائدة في تحقيق أهداف الأمبريالية.

وهكذا أصبحت الحرب الشاملة، بمعنى ما، ضد الحرب. وما دام أنها لن تستطيع أن تحل أي نزاع دولي، فلن تكون استمراراً أو أداة للسياسة، كما أنها لن تكون ذات فائدة، وأن قدرتها التدميرية الهائلة سوف تجعل منها جريمة كبرى ضد الجنس البشري عامة.

وهناك وجهات نظر متطرفة أخرى، لا يمكن سردها هنا لضيق المجال، ولكنها

تقارب ، عموماً ، وجهة النظر المذكورة أعلاه ، بأن الحرب النووية لا يمكن أن تقدم أية فائدة لأي من النظامين الاجتماعيين المتضادين ، وقد وجهت انتقادات لوجهات النظر هذه كافةً .

١ ـــ وجهة النظر الصينية والانتقاد السوفييتي لها

كان الموقف السوفييتي الحديث مماثلاً في بعض المجالات المتصلة بمسائل الحرب لموقف أنصار السلم المعتدلين ، الذين يشددون على استنكار أنواع الحروب كافة ، باعتبارها وسائل لتحقيق الأهداف السياسية . وبالمقابل ، فإنه يمكن افتراض وجود بعض التشابه بين وجهتي النظر الماركسيتين ، السوفييتية والصينية ، حتى وإن كانت وجهة النظر الصينية أكثر ميلاً للناحية العسكرية .

٢ ـــ فائدة الحرب ، حسب العقيدة الصينية

تتمثل المسألة العقائدية الجوهرية ، لكل من السوفييت والصينيين ، في كون الحرب بين النظامين الاجتماعيين المتضاربين فيها فائدة للقوى التقدمية . وإذا كان السوفييت يرون دائماً أن هذه الفائدة محدودة ، في الوقت الحاضر ، نظراً للأعداد الكبيرة من البشر الذين سيدمرون فيها ، فإن الصينيين يشددون على فائدة الحروب الثورية ، وفي المساعدة والإسهام في تحقيق الاستقلال الوطني والتحول الإشتراكي ، لدرجة أصبح معها هذا التشدد يعادل الإيمان بعقيدتهم التقليدية . ويتهم الصينيون السوفييت بأن الأخيرين يحاولون تثبيط عزيمة القوى الثورية ، فيما يتعلق بالنضال المسلح ، الذي هو الطريقة الوحيدة التي تستطيع الثورات أن تنجح بواسطتها ، وأن السوفييت قدموا مصالح ما يعرف بالمعسكر الإشتراكي ، الذي هو الاتحاد السوفييتي ، على مصالح الثورة ، وأنهم خانوا قضية تحرير الشعوب من الاضطهاد الأمبريالي ، متبعين في ذلك سياسة أمبريالية جديدة .

ووفقاً للانتقاد السوفييتي ، فإن الصينيين تركوا المفهوم الماركسي اللينيني للتاريخ ، الذي يعتمد على الافتراض بأن النشاط الاجتماعي يكون مشروطاً بحالة القاعدة المادية ووضعيتها ، وأنه يجب أن تكون الشروط الموضوعية للثورة ناضجة حتى تستطيع أن تنجح ، وبالتالي فإن العنف المسلح ، يستخدم فقط إلى الحد الضروري الذي تمليه هذه الشروط .

وأضاف المنتقدون السوفييت للنظرية الصينية، أن الصينيين استبدلوا المفهوم الماركسي للتاريخ بنظرية ايديولوجية تحمل طابع المغامرة العنيفة، وبوسائط الصراع المسلح. وأن ما قاله ماو بأن البندقية تولد القوة، وأنه يمكن إعادة خلق العالم فقط بواسطة البندقية، ليس سوى تسويغ للقوة، وتمجيد للعنف المسلح.

ط ـ النظرية المتبدلة عن حتمية الحرب

يمكن اختصار وجهة النظر السوفييتية التقليدية عن الحرب، باعتبارها وسيلة مساعدة للإشتراكية، بالقولين التاليين: بما أن الحرب ضرورية لتحقيق الإشتراكية فيجب أن تكون مفيدة. إضافة لذلك، وبما أن الإشتراكية حتمية فيجب أن تكون الحرب حتمية أيضاً. وقد لاحظنا، في الفقرات السابقة، أن العلماء والباحثين السوفييت نفوا، فعلاً، ضرورة الحرب عبر تساؤلاتهم عن فائدة بعض أنواعها، في فترة ما بين الحرب العالمية الثانية، وعن كونها عملية ومرغوباً فيها، وأن هؤلاء العلماء إذ يفعلون ذلك، إنما يزيلون جزءاً من الأساس الذي استندت عليه فكرة حتمية الحرب من الناحية المنطقية.

١ ـ التطور والتغيير

يوجد جذران لهذه النظرية، **أولاً**: كونها الطريقة الوحيدة لتحقيق الأهداف الثورية، من وجهة النظر الماركسية الأساسية، **وثانياً**: اعتقاد كل من ماركس وانغلز أن الحرب ملازمة لطبيعة الرأسمالية، وذلك على غرار ما كان عليه الأمر في المجتمعات الطبقية في مرحلة ما قبل الرأسمالية.

وقد طور لينين هذه الافتراضات إلى نظرية مفصلة، تتعلق بحتمية أنواع خاصة من الحروب. وقد أكد لينين، في نظريته عن الأمبريالية، على أن الحرب حتمية بين الدول الرأسمالية. ففي المرحلة الرأسمالية، تنشب الحروب من أجل إعادة تقسيم الأمبراطوريات الاستعمارية. وسوف تؤدي التناقضات الداخلية في النظام الاستعماري، في نهاية المطاف، إلى الحروب التي تحقق فيها شعوب المستعمرات والبلدان غير المستقلة استقلالها وتحررها. وقد اعتبر لينين أن الحروب الثورية غير حتمية، وبالتالي فإن الثورة لن تقع نتيجة ذلك في كافة الدول الرأسمالية في وقت واحد، كما افترض كل من ماركس وانغلز، بل ستقع في دول قليلة، أو في دولة واحدة فقط.

أما إمكانية حدوث الحرب بين دولة رأسمالية وأخرى إشتراكية ، فقد عوجلت بشكل غير مباشر فقط من قبل لينين ، عندما أخذ بعين الاعتبار أنه يجب على الثورات الناجحة أن تساعد الحركات الثورية في البلدان الأخرى . وبعد ظهور أول دولة إشتراكية ، أعلن لينين أن الحرب مع الدول الرأسمالية هي حتمية .

ودعم ستالين نظرية حتمية الحرب ، ولكن استخدامها بدا مختلفاً حسب الظروف السياسية . ففي بداية عهد ستالين كان التشديد يتم على حتمية الحرب المضادة للثورة ، التي سوف تشنها البلدان الرأسمالية ضد الوطن الإشتراكي . وحدث تحوُّل في عام ١٩٣٥ ، يهدف إلى مواجهة التهديد المتنامي لتحضيرات الحرب النازية ، حيث تقرر أن يتم التعاون مع القوى المضادة للفاشية في أوروبا . أما الفرضية حول حتمية الحرب بين أول دولة إشتراكية والدول الرأسمالية فقد نقلت إلى منظور بعيد الأمد .

ولم تعد الأفكار المتعلقة بحتمية مختلف أنواع الحروب ، عنصراً رئيسياً في الايديولوجية السوفييتية ، إلا في السنوات الأولى التي تلت الحرب العالمية الثانية . ويبدو أن هذه النظرية وصلت إلى ذروتها ، في نهاية الحرب الباردة . وما إن بدأت سياسة التعايش السلمي تحلّ تدريجياً محل سياسة الحرب الباردة حتى أصبحت الإشارة إلى نظرية حتمية الحرب تقل شيئاً فشيئاً ، إلى أن دفنت رسمياً في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي ، الذي عقد في عام ١٩٥٦ . وكان خروتشوف ، والقيادة السوفييتية ، قد أعادوا تدقيق العقيدة السوفييتية في أثناء التحضير لهذا المؤتمر ، بحيث تتلاءم مع ظروف العصر النووي ، ومع مسائل سياسة التعايش السلمي .

ولم يبق من وجهة النظر التقليدية السوفييتية حول حتمية الحرب سوى الافتراض الذي يقول إن النظامين الاقتصادي والسياسي للأمبريالية يشكلان المصدر الأساسي لكافة الحروب . وأعلن رسمياً أنه يمكن تجنب أي نوع كان من أنواع الحروب ، كما أعلنت إمكانية الانتقال السلمي من الرأسمالية إلى الإشتراكية في بعض الدول الخاصة ، كما نفيت فكرة حتمية الحرب ، باعتبارها وسيلة للتحرر الوطني .

إن التفسير النظري لفكرة ترك نظرية حتمية الحرب يكمن في التغييرات التي طرأت على شروط الحياة الاجتماعية ، سواء على الصعيد الدولي ، أو على صعيد الدولة

نفسها . ذلك أن الماركسية ـــ اللينينية تنظر إلى التطور التقدمي للمجتمع كأمر حتمي ، حيث يستمر هذا التطور نحو بُنى ، أو مجتمعات ، أكثر رقياً من الناحيتين الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ، والتي تشكل الشيوعية المرحلة الأعلى فيها . وبالتالي فإن هذه الظواهر الاجتماعية ، والأعمال الضرورية لدفع هذه العملية إلى الأمام تكون حتمية . وإذا كانت الحروب التقدمية العادلة هي الوسيلة الوحيدة لدفع هذا التقدم ، فإنها ستكون حتمية بشكل مطلق ، وإلى الحد الذي تستطيع فيه أن تخدم التطور الاجتماعي بتكلفة إجتماعية أقل من الوسائل البديلة ، أو إلى الحد الذي تكون فيه حتمية نسبياً .

٢ ـــ وجهة النظر الصينية

مع تقدم الزمن أصبحت النظريتان ، السوفييتية والصينية ، اللتان نشأتا من مصدر مشترك واحد ، هو الماركسية اللينينية ، مختلفتين في بعض النقاط الهامة فيما يتعلق بحتمية الحرب .

فالصينيون ، خلافاً للسوفييت ، لم يسبق لهم أن أعلنوا سياسة رسمية للتعايش السلمي ، وبالمقابل فإن قناعتهم بكون الحرب بين النظامين ، الأمبريالي والإشتراكي ، حتمية ، لم يأت ذكرها في السنوات الأخيرة إلا نادراً ، وعندما كان يحصل ذلك فقد كان يقصد به أن يحدث في مستقبل غير محدد . ولكن أهم العناصر الجديدة في الموقف الصيني ، والذي تكرر التصريح به في مناسبات عديدة ، هو أن النظام الإشتراكي لن يكون البادىء في الحرب الدولية ، وبالتالي فإن هذه الحرب لن تنشب إلا إذا شنت من قبل الأمبرياليين .

أما بالنسبة للحرب بين الأمبرياليين أنفسهم ، فإن الصينيين يذهبون إلى مدى أبعد مما وصل إليه الوضع التقليدي ، حيث يرون في الصراع بين القوتين العظميين مثالاً عن هذا النوع من الحرب . وكثيراً ما يصف الصينيون الاتحاد السوفييتي بأنه نظام أمبريالي ، ويؤكدون على وجود تواطؤ بين القوتين العظميين .

ويناقش الصينيون حتمية الحرب الثورية وحروب التحرر الوطني ، ويذكرون بأنه ما دامت الأمبريالية تمارس كفاحاً ، لا هوادة فيه ، ضد الجماهير المضطهدة (بفتح الهاء) ، ولا تتردد في استخدام العنف المسلح ، فإن النتيجة الوحيدة التي يمكن تصورها

هي انتشار الحرب الثورية الأهلية، في أكبر عدد ممكن من البلدان. وأنه بغض النظر عن الأسباب الداخلية، فإن كل حرب ثورية هي جزء من الثورة العالمية. وما دامت الثورة العالمية هي ظاهرة حتمية، حسب قوانين التقدم الاجتماعي، فإن كل جزء منها يجب أن يحدث أيضاً. وهكذا نجد في وجهة النظر الصينية أن الأمبريالية يمكن أن تُهزَم عن طريق سلسلة من الحروب الثورية، عوضاً عن الحرب العالمية الواحدة، وبالتالي فإن الحرب بين الدول، والحرب بين الأنظمة الاجتماعية المتضادة، تصبحان شيئاً ثانوياً من حيث الأهمية بالنسبة للحروب الثورية.

٤ طبيعة الحرب، هل هي مستقرة أم متبدلة؟

يميل السوفييت إلى استخدام تعبير (طبيعة الحرب) بمعنيين مختلفين إلى حد ما. فطبيعة أو جوهر الحرب تحيط بتلك السمات العامة التي تميزها، باعتبارها عملاً سياسياً وصراعاً مسلحاً، عن الظاهرة الاجتماعية السياسية والاجتماعية التاريخية.

فإذا استخدم تعبير طبيعة الحرب، دون تحفظ في الدراسات السوفييتية، فيجب أن يفهم بهذا المعنى. ولهذا فإن الحاجة تدعو إلى مفهوم أكثر تعقيداً لطبيعة الحرب. فالمنظرون السوفييت يدركون كون الحرب ذات خواص سياسية، وإجتماعية تاريخية، وأخلاقية، تعكس السمات الاجتماعية التاريخية للمرحلة التي تحدث فيها. وعند تحليل طبيعة حرب معينة، فإن السوفييت يعالجون مجموعة من السمات الداخلية، والجدلية: المشتركة بينهما وبين الحرب بشكل عام، وعلى ضوء الحروب المماثلة لها في التاريخ، وذلك بالإضافة إلى السمات الخاصة بها فقط.

وهكذا فإن مفهوم طبيعة الحرب، في هذا التحليل، يتألف من ثلاثة مفاهيم فرعية هي:

— مفهوم طبيعة الحروب كافة بشكل عام، باعتبارها ظاهرة اجتماعية تاريخية، وعملاً سياسياً معاً.
— مفهوم طبيعة النوع الخاص من الحروب التي تنتمي إليه هذه الحرب.
— مفهوم الطبيعة الخاصة للحرب التي يجري تحليلها.

وعند مناقشة تبدل طبيعة الحرب، فإن الباحثين السوفييت يقرون تقليدياً، بأن الحرب كانت، في كل العصور، استمراراً للسياسة بوسائل عسكرية، وأن طبيعتها الجوهرية لا تتبدل. وقد عرف السوفييت أن الحروب تختلف من عصر إلى آخر، ولكنهم فضلوا أن يحصروا ملاحظتهم حول طبيعة الحرب في أعلى مستوى من التجريد، وبالتالي فقد أكدوا لا نهائية الطبيعة الجوهرية لها.

وعموماً فإن ظروف المرحلة النووية الصاروخية أقنعت عدة باحثين سوفييت بتحدي المصداقية الدائمة للمقولة التي تشير إلى أن الحرب امتداد للسياسة. وكان هذا يبدو حافزاً لإيضاح المعنى الذي يمكن أن تكون فيه طبيعة الحرب متبدلة أم غير متبدلة. ولكن يوجد إجماع عام على أنه توجد نواة جوهرية للمعنى لم تتبدل، ولكن عدلت فقط بعض العناصر الأساسية.

ويبدو أنه يوجد أسلوبان أساسيان استخدمهما الباحثون السوفييت في تحليل طبيعة الحرب للتوصل إلى هذا التمييز. يهدف أحدهما إلى تحليل هذا التعبير، في سياق الأهداف السياسية والوسائل العسكرية، بينما يتم التساؤل في الثاني عن المعنى الذي يمكن فيه تبدُّل الفقرات الثلاث التي تؤلف طبيعة الحرب، أي: الجزء العام، والجزء النوعي الخاص، والجزء الفردي.

فقد أكد أحد الباحثين السوفييت، بالنسبة للنوع الأول من الأساليب، أنه في الوقت الذي تبقى فيه العلاقات الأساسية بين الحرب والسياسة غير متبدلة، فإن الحرب نفسها تبقى استمراراً للسياسة، وتظل السياسة عاملاً رئيسياً. ومع تطور مضمون السياسة وأشكال الحرب، فإن شكل العلاقة بين السياسة والحرب يتبدل.

وأكد باحثون سوفييت آخرون أن السياسة هي العامل الأكثر دينامية في طبيعة الحرب، وأن ما يكون تقدمياً في مرحلة ما، قد يصبح رجعياً في مرحلة تالية. ونذكر مثلاً أن البورجوازية كانت تقدمية في وقت ما، ولكنها أصبحت الآن رجعية.

ويؤكد البروفسور روبكين الفكرة القائلة بأن شكل العلاقة بين السياسة والحرب هو الذي يشكل السمة الانتقالية لطبيعة الحرب. وهو يحدد ثلاث طرق تبدلت من خلالها هذه العلاقة في المرحلة النووية الصاروخية. ذلك أن احتمالات بدء الحرب

أصبحت محدودة جداً، وبالتالي فإن الحرب أصبحت أيضاً أقل استمراراً للسياسة، مما كانت عليه في السابق. فضلاً عن ذلك، فإن احتمال تحقيق الأهداف السياسية المرغوب فيها يتبدل عبر الحرب، كما أن الفائدة من الحرب أصبحت محدودة، أو مقيدة، إلى حد كبير. وكذلك فإن طبيعة التقنية العسكرية الحديثة تجعل من الصعوبة بمكان أن تتم السيطرة على الحرب بعد بدئها.

وهكذا يرى الباحثون السوفييت أن الطبيعة العامة للحرب لا تتبدل ما دامت الحرب تستخدم كأداة لتحقيق المصالح الطبقية، كما أن ظهور طبيعة مختلفة في أنواع خاصة من الحروب يختلف من بنية إجتماعية إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر، وبالتالي فمن الطبيعي أن توجد اختلافات بين الحالات الفردية من الحرب. يضاف إلى ذلك أن كلاً من أولئك الذين يرون أن طبيعة الحرب تخضع للتبدل، وأولئك الذين لا يرون ذلك، يفتشون عما يدعم مواقفهم في كتابات لينين.

ويمكن أن نلخص الموقف السوفييتي حول السمات الثابتة والعرضية للحرب كما يلي:

السمات الثابتة

١ ــ الحرب عمل طبقي، اجتماعي سياسي، يهدف إلى تحقيق أهداف طبقية، إجتماعية سياسية.
٢ ــ تتميز الحرب عن النشاطات الاجتماعية السياسية الأخرى، بالاستخدام المنظم لوسائل العنف العسكري.
٣ ــ تلعب السياسة دوراً حاسماً في العلاقة بين السياسة والحرب.

السمات المتبدلة

١ ــ تحكم السياسة حرباً خاصة، حيث تعتمد فيها على العصر الذي تقع فيه، وعلى السمات الفردية الخاصة لهذا العصر.
٢ ــ سوف يكون تأثير السياسة على نشوب الحرب مختلفاً.
٣ ــ ستكون الطريقة التي سيستخدم فيها العنف المسلح مختلفة.
٤ ــ إن الفائدة من الحرب سوف تتبدل.

٥ التفسير السوفييتي لكلاوزفيتز

من خلال إعادة تدقيق العقيدة العسكرية السوفييتية، في ظروف المرحلة النووية الصاروخية، نجد أن مناقشة بعض المسائل، كالمعنى أو المجال، الذي يمكن اعتبار الحرب فيه استمراراً للسياسة، أو معنى فائدة الحرب، وحتميتها، والرغبة فيها، كانت تترافق دوماً بتفسيرات ترتبط بوجهات نظر كلاوزفيتز عن هذه المسائل، وبما أنه توجد علاقة بين تطور الأفكار السياسية العسكرية السوفييتية عن طبيعة الحرب، وبين التبدلات التي طرأت على التفسيرات السوفييتية لوجهة نظر كلاوزفيتز، فإنه من المفيد أن نستعرض هذه التفسيرات.

أ ــ المفهوم التقليدي

لقد أخذت الماركسية ــ اللينينية بعدة أفكار كانت قد نشأت بدورها في الفكر الفلسفي، وأصبحت تعتبر جزءاً من النظرية الماركسية ــ اللينينية. وقد تبنت النظرية السوفييتية مقولة كلاوزفيتز عن كون الحرب استمراراً للسياسة بوسائل أخرى. فقد استخدم معنى هذه المقولة من ناحيتين. فمن الناحية الأولى حدد التعبيران الرئيسيان، أي الحرب والسلم، وفق المفهوم الماركسي الأساسي عن الطبقة. ومن ناحية ثانية، وفق المفهوم الأوسع عن الحرب، حيث استخدم هذا المفهوم ليس فقط للحروب بين الدول، بل وللحرب الداخلية أيضاً. ولكن عاد الباحثون السوفييت إلى انتقاد كلاوزفيتز، لارتكابه الخطأ في هاتين النقطتين، وتسفيهه، عبر اعتباره وتلامذته ممثلين للطبقات الرجعية.

---

(١١) رازين Razin، يفغيني أندريفتش (١٨٩٨ ــ ١٩٦٤). مؤرخ عسكري سوفييتي وأستاذ (بروفسور) في عام ١٩٤٠، عميد في عام ١٩٤٩، أنهى الأكاديمية العسكرية للجيش الأحمر في ١٩٢٤، وكلية الأساتذة الحمراء في ١٩٣٦. قائد كتيبة في الحرب الأهلية السوفييتية، اشتبك بها مع قوات الحرس الأبيض. أصبح مدرساً اعتباراً من ١٩٣٦، ثم رئيس جناح تاريخ فن الحرب في أكاديمية فرونزه العسكرية، ثم مدرساً في أكاديمية الأركان العامة. اشترك في أثناء الحرب العالمية الثانية، في القتال مع أركانات الجبهات والجيوش. عاد بعد انتهاء الحرب رئيساً لأجنحة تاريخ فن الحرب في أكاديمية فرونزه العسكرية، وأكاديمية القوات المدرعة. أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٧. ألف كتاباً في تايخ فن الحرب، منذ العصور القديمة حتى القرن السابع عشر في ثلاثة أجزاء. مات في موسكو عام ١٩٦٤.

ب ــ رأي ستالين بكلاوزفيتز

عندما سأل العقيد رازين[١١] ستالين في شباط من عام ١٩٤٧، عما إذا كان كلاوزفيتز لا يزال ذا فائدة، أجابه ستالين بالنفي، وأعطى ثلاثة أسباب لذلك، هي **أولاً**: أن كلاوزفيتز أكد فقط الطرح الماركسي المألوف، والقائل بأنه توجد علاقة مباشرة بين الحرب والسياسة. **ثانياً**: إن عقيدته العسكرية، وكل الايديولوجية العسكرية الألمانية لا يلائمها مصالح الاتحاد السوفييتي، وبالتالي فلا بد من انتقادها. **وثالثاً**: إن كلاوزفيتز الذي هو ممثل لمرحلة الأدوات اليدوية بالنسبة للتكنولوجية العسكرية، لا يمكن أن يعتبر إلا بصعوبة فائقة مرجعاً في أمور الحرب في العصر الآلي الحديث.

أدّى ردُّ ستالين هذا إلى انتقاد كامل للايديولوجية السياسية العسكرية، ولفلسفة الحرب، اللتين بنى عليهما كلاوزفيتز مقولته عن الحرب كعمل سياسي.

وقد أثيرت ثلاثة اعتراضات رئيسية ضد فلسفة كلاوزفيتز عن الحرب:

ــ في البدء، لم يكن هنالك توازن بين مفهوميه عن الحرب، باعتبارهما عمل عنف، من ناحية، وعملاً سياسياً من ناحية أخرى. وحسب وجهة نظر كلاوزفيتز، فإن المفهوم الرئيسي كان يتجه نحو الحرب المطلقة، التي كانت في شكلها المجرد، وحسب التعريف، مستقلة عن الاعتبارات السياسية. أما العنصر الأساسي في الحرب فقد كان ثانوياً بشكل واضح، لأن دوره الوحيد كان الحد من حجم العنف المستخدم.

ــ بالإضافة إلى ذلك، لم يكن المفهوم الكلي للحرب المطلقة مقبولاً بالنسبة للباحثين السوفييت. وقد فسَّروه على أنه نوع من «المجون، أو الفسق البيولوجي والغرائز الحيوانية، والعنف المادي الشامل، التي لا تقيدها أية قواعد سلوكية، أو قوانين لخوض الحرب». وقد كان النظر إلى الحرب المطلقة، باعتبارها نموذجاً مثالياً، أو نوعاً من الكمال الذي يستحق النضال من أجله، مؤشراً عن ايديولوجية كلاوزفيتز الطبقية الرجعية.

ــ والاعتراض الثالث كان يتعلق بالمفهوم الثاني للحرب، بكونها عملاً سياسياً.

فبالرغم من أن هذه الفكرة تتضمن شيئاً من الحقيقة، جرى تشويهها بتفسير خاطىء لمضمون السياسة. ففي التفسير النموذجي لكلاوزفيتز، نجد أن السياسة والحرب، ينظر إليهما على ضوء ما يقوم به الحكام من أعمال طوعية.

وقد بيّن ماركس حماقة وجهة النظر هذه، مبيناً أن السلوك يضرب جذوراً في القاعدة المادية، أي في نظام الانتاج والبنية الاجتماعية الاقتصادية. وانطلاقاً من مفهوم كلاوزفيتز الفلسفي، فإن صاحبه يعالج السياسة باعتبارها ظاهرة لا طبقية، ويحصر نطاق عمله في السياسة الخارجية. وهو بذلك، حسب ملاحظة ماركس، يرتكب خطأ الافتراض بأن السياسة التي ينفذها حاكم دولة ما، تجسد مصالح كل الشعب (الدولة).

ويمكن شرح بعض هذه الأخطاء، في ضوء حقيقة أن لفلسفة كلاوزفيتز عن الحرب، جذوراً في الايديولوجية الرجعية. فقد كان كلاوزفيتز برغم كل شيء، رجلاً ذا ايديولوجية مادية بروسيّة، ومدافعاً عن مصالح الطبقة الاقطاعية البروسنية، وعدواً للثورة الفرنسية، وكذلك للحركة الديمقراطية لتوحيد ألمانيا، ومؤيداً لسياسة الدولة، وموافقاً على الحروب العدوانية الشرسة. وقد أظهر، في مفهومه عن الحرب المطلقة، الطمع البروسي في ضم أراضي جيرانها إليها، ثم وصف خيبة أمل المعتدي، الذي يخشى كونه لا يزال ضعيفاً جداً، وبالتالي لا يستطيع أن يحقق أعمال الضم الكبرى التي يحلم بها، ولذلك فسوف يكون مضطراً لاتخاذ سياسة الحذر.

وقد أصبح أمراً عادياً، في السنوات الأخيرة، أن يتم التحدث بصوت عال عن الاختلافات بين التفسيرات الكلاوزفيتزية واللينينية، لمقولة كون الحرب استمراراً للسياسة بوسائل أخرى. وإن مناقشة الموضوع، الذي كتبه وزير الدفاع السوفييتي الراحل غريتشكو، يمكن أن يقدم مثلاً واضحاً عن ذلك. فقد كتب ما يلي:

أولاً ــ الحرب باعتبارها استمراراً للسياسة الخارجية فقط، مقابل كونها استمراراً للسياستين الداخلية والخارجية في شكلهما الموحد، الذي لا يقبل الفصل.

ثانياً ــ السياسة باعتبارها تجسيداً للتفكير الأعلى في الدولة، مقابل السياسة أداة للطبقة.

ثالثاً ــ الفلسفة المثالية التي تشوه طبيعة السياسة والحرب مع التعتيم على جذور الحروب الخاصة وطبيعتها، مقابل التفسير المادي للحرب والنظام الطبقي الذي (يولد الحرب)[١٢].

---

(١٢) غريتشكو (القوات المسلحة للاتحاد السوفييتي) دار النشر العسكرية، موسكو، الطبعة الأولى ١٩٧٤، الطبعة الثانية ١٩٧٥.

وهكذا فإن النظرية الماركسية ــ اللينينية عن جوهر الحرب تخالف آراء كلاوزفيتز في تفسيره، وفي فهمه لطبيعة الحرب.

٦ السلام والتعايش السلمي، ومنع الحرب

أعار الفكر العسكري السوفييتي، كما فعل الغرب، انتباهاً لإجراء تحليل مفصل للسلام، وبشكل خاص، حول السؤال المتعلق بكيفية تحقيق الأهداف السياسية، بالوسائل السلمية بعد أن استحال تحقيقها بواسطة الحرب.

أ ــ تعريف التعايش السلمي

يتميز التعايش السلمي بعلاقات جديدة بين الدول، تقوم على مبادىء رفض الحرب، والاعتماد على الحوار والتفاوض، لحل المشاكل التي تطرح، أو التي تنشأ بين الدول، ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة، والإقرار بالمصالح والحقوق المعترف بها لكل دولة لحل مشاكلها الخاصة، دون أي تدخل خارجي، وتطوير التعاون الاقتصادي والثقافي إلى أقصى الحدود.

ومع ذلك، فإن التعايش السلمي لا يعني التقليل من أهمية النزاع مع الرأسمالية. أما الترجمة العملية للتعايش السلمي في ميدان السياسة الخارجية، فهي (الانفراج).

ويقول السوفييت: «لا يستطيع أحد أن يتصور أن الشيوعيين يمكنهم في ظروف الانفراج، مهادنة الرأسمالية المستغلة، لأن ذلك يعني أن المحتكرين يمكن أن يصبحوا شركاء في الثورة»(١٣). والواقع أن مفهوم التعايش السلمي يحدد (حالة اللا حرب)، ضمن شروط معينة، لأنه «لا يمكن أن يكون هناك تعايش سلمي في الميدان الإيديولوجي، وإن أي تفاهم غير ممكن بين الشيوعية والبورجوازية، والصراع بينهما حتمي». وهذا الأمر هو صحيح جداً، ما دام السوفييت ينظرون إلى العدو على أنه يتابع العمليات التخريبية المكثفة بالتركيز على المسائل العرقية وحقوق الإنسان.

---

(١٣) مقررات المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، نقلاً عن كتاب (الحرب والجيش) صفحة ٣٠.

ويقول السوفييت بأنه « ليس هناك سوى بديل واحد ، وهو التعايش السلمي ، أو الحرب المهلكة » .

ويذكر الباحثون السوفييت أن التعايش السلمي لا يعني رفض كل أنواع الحروب كوسيلة لتسوية المشاكل الدولية . وأن التعايش السلمي ، بين دول ذات بنيات اجتماعية مختلفة ، لا يعني منع الحروب الثورية من أجل التحرر الاجتماعي ، والحروب الأهلية التي تقوم بها الطبقات الكادحة في سبيل الوصول إلى حقوقها الاجتماعية والاقتصادية .

وهكذا ، فإن التعايش السلمي يسمح بنشوب (الحرب المحلية المحدودة) ، التي يشنها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، العدو الأمبريالي . ولا يستطيع الاتحاد السوفييتي التملص من واجبه الأممي بدعم الشعوب التي تصارع الأمبريالية .

ويدخل التعايش السلمي ضمن المفهوم الأساسي الذي أقامته الماركسية اللينينية . فمع قناعة الاتحاد السوفييتي بحتمية انتصار الشيوعية ، إلا أنه يرفض الحرب الشاملة كوسيلة لتسوية النزاع ، ويسعى للمحافظة على السلام ، ويرى في الوقت نفسه أن الضمان الرئيسي للسلام هو قوته العسكرية .

يقول سوكولوفسكي في كتابه (الاستراتيجية العسكرية) ، إن التعاليم اللينينية القائلة بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل العنف ، تعني أن الحرب لا تعادل السياسة ، بشكل عام ، ولكن تشكل جزءاً منها ، وأنه يوجد تحت تصرف السياسة مجموعة كبيرة ومختلفة من الوسائل الأخرى ، غير العنيفة ، والتي بمساعدتها يمكن للسياسة أن تحقق أهدافها دون اللجوء إلى الحرب . وهذا ما تبناه ، في الوقت الحاضر ، الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية بدعوتهما الدول الغربية لحل المسائل المتنازع عليها ، عن طريق المفاوضات ، وليس عن طريق الحرب .

ويقول المارشال فولكوغونوف إن « السبب الأساسي ، الذي يحول دون انفجار حرب بالصواريخ النووية فوق كوكبنا ، يعود بالدرجة الأولى إلى وجود الاتحاد السوفييتي ، وصلابة الدول الإشتراكية وتضامنها ، وقدرتها الفعلية على إيقاف المعتدي » .

وهذا لا يعني مطلقاً ، أن الحرب أصبحت بعيدة الاحتمال ، ولكنها أخذت صفة أخرى غير صفة الحرب الشاملة ، التي بقيت مع ذلك محتملة الوقوع .

ب ــ تكوين مذهب (التعايش السلمي)

إن المصدر الأساسي لمذهب التعايش السلمي هو المقولة الآتية:

«إذا بقيت العلاقات مع الرأسمالية على حالها، فإن الحرب معها لم تعد حتمية الوقوع، ولكنها ممكنة».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النظريات المتعلقة بحتمية أو عدم جتمية الحرب، تعتبر، كما ذكر في الفصول السابقة مسألة مركزية في مجمل الفكر الاستراتيجي السوفييتي.

ويؤكد السوفييت حالياً، أن هناك انسجاماً دائماً بين مذهب التعايش السلمي والمفاهيم اللينينية على الصعيد النظري. ولكن ذلك لا ينفي وجود بعض الفوارق بين المفهومين، لأنه إذا كان لينين قد تخلى عن مبدأ تصدير الثورة المسلحة إلى الخارج، إلا أنه لم يقلل من أهمية مبدأ حتمية الحرب. وكان الشعار الذي رفعه، ينص على: «التجاور السلمي بين الأنظمة المتعارضة».

ولا يوجد في النظرية الماركسية ــ اللينينية أي سبب يحول دون إمكانية تحقيق أي هدف بالطرق السلمية. وتعتبر النظرية السوفييتية السلم كالحرب، يمكن أن يكون عادلاً أو غير عادل، وذلك حسب طبيعة الأهداف السياسية التي تميزه. وبما أن السياسة هي تعبير عن مصالح الطبقات الحاكمة، فإن الفترات بين الحروب، والتي يستخدم فيها العنف المسلح، يمكن اعتبارها غير عادلة في المرحلة الأمبريالية، ولكن السلم يمكن أن يكون أيضاً حالة معينة يتم فيها تحقيق السياسة الإشتراكية، وبالتالي فإن هذا السلم يكون سلماً عادلاً.

ويعتبر التعايش السلمي **شكلاً من أشكال النضال الطبقي الدولي من أجل الانتصار النهائي للإشتراكية**، حيث ينفذ دون استخدام الأسلحة، ويقدم، في بعض الأحيان، بديلاً للحرب الصاروخية النووية، أو الحرب العالمية، أو بديلاً للحروب كافة بين الدول [١٤]. ويجمع هذا النضال بين النضال الإيدلولوجي، على المسرح الدولي،

---

(١٤) قال خروتشوف في اجتماع عمالي في ١٠ تشرين الأول ١٩٥٩: «علينا أن نفهم جيداً معنى التعايش السلمي، إنه يعني استمرار الصراع بين النظامين الاجتماعيين القائمين، ولكنه صراع بالوسائط ←

والنضال الطبقي السياسي، ضمن دول رأسمالية خاصة، والمنافسة الاقتصادية بين النظامين الاجتماعيين. وهو يهدف إلى إظهار تفوق النظام الاجتماعي. وإن أهم أسس كل سياسة، أن تدخل في هذه المنافسة دون حرب، ومع مراعاة السيادة والحقوق المتساوية للدول الأخرى، وحق هذه الدول في تقرير المصير، وعدم انتهاك حرمة أراضي الغير. وفي الوقت نفسه، فإن التعايش السلمي يدعو إلى التعاون الاقتصادي والثقافي في المجالات التي يمكن أن تقدم فيها الفوائد إلى الدول المشتركة فيها.

ج ـ منع الحرب

إن الهدف المعلن للعقيدة السياسية العسكرية، المتصلة بالسياسة الرسمية العامة للتعايش السلمي، هو منع الحرب. وفي هذا المجال كان الاتحاد السوفييتي قد تقدم بعدد من الاقتراحات تشير إلى حدود عدم تورطه في الحرب. فهو سينتقم بالوسائل الموجودة تحت تصرفه كافة ـ حتى الحرب النووية الصاروخية ـ دفاعاً عن أرضه، وأراضي حلفائه، ضد أي عمل عسكري عدواني. وفضلاً عن ذلك، حذر القوى الأمبريالية من أي تدخل في الحروب المحلية، وخاصة بالنسبة لغزوها للبلدان الصغيرة، حيث أن هذه الأعمال ستؤدي إلى حروب كبيرة.

وهكذا فإن سياسة التعايش السلمي لا تمنع الاتحاد السوفييتي من الدفاع عن نفسه ضد الهجوم المسلح، كما لا تمانع أية دولة احتل جزء من أراضيها، من استخدام القوة، لاستعادة هذا الجزء المحتل. كذلك تحتفظ الجماهير المُستغلة (بفتح الغين) بحقها في القتال من أجل التحرر الاجتماعي.

٧ الحروب المعاصرة: ظروف وأسباب نشوبها

تؤكد الماركسية ـ اللينينية أنه لا يمكن فهم حقيقة أية حرب دون فهم العصر الذي حدثت فيه. وأن الأسلوب الماركسي لمعرفة سمة العصر الراهن تتلخص في أن معظم أحداث التاريخ الضخمة يمكن أن تفهم بشكل صحيح فقط في حالة أخذ النقطتين التاليتين بعين الاعتبار:

السلمية، ودون حرب.. ونحن نرى أنه صراع اقتصادي، سياسي، فكري، ولكنه ليس صراعاً عسكرياً». سوكولوفسكي (الاستراتيجية العسكرية) ص ٢٨٢.

١ ـــ النظر إلى الأحداث من زاوية الصراع بين الاتجاهين التاريخيين الأساسيين : الرأسمالية والإشتراكية .
٢ ـــ حساب تناسب القوى التاريخية والراهنة بينهما ، ومعرفة النمو المتزايد للإشتراكية .

في مطلع القرن العشرين ، كان النظام الرأسمالي فريداً ، وشاملاً ، ومسيطراً بشكل مطلق . وكان هذا النظام يشعل الحروب متى يشاء وأنّى يشاء ، مسبباً اندلاع انفجارات ثورية ضده .

وعندما انتشرت الإشتراكية ، باندلاع ثورة أُكتوبر ، فتحت عهداً جديداً في تاريخ الإنسانية ، عهد فشل الرأسمالية وانتصار الإشتراكية وتأكيدها[١٥] .

ويقول الباحثون العسكريون الاستراتيجيون السوفييت إن الثورات التحررية الوطنية تعتبر أهم عامل مدمِّر للنظام الأمبريالي حالياً ، كما أن الحركة الثورية العالمية للطبقة العاملة تتسع باضطراد . ويؤكدون كذلك ، أن العصر الراهن ليس عصر الأمبريالية والحرب ، بل عصر انحطاط وانحسار الأمبريالية كنظام عالمي ، وهو عصر الثورات وانتصار الإشتراكية على المستوى العالمي . ويعتبرون هذا المضمون هو المضمون الأساسي للعصر الراهن ، وهو العامل الذي يحدد فهم المواضيع الجذرية للحرب والسّلم .

ويتابع الباحثون ليقولوا إن الأمبريالية أشعلت ، خلال جيل واحد ، حربين عالميتين راح ضحيتهما عشرات الملايين من الناس ، كما أن الحرب النووية العالمية الحديثة ، والتي تعدّها الرجعية العالمية ، تهدد الشعوب بنكبات لا يمكن تقديرها ، يقتل فيها مئات الملايين من الناس ، وتخرب فيها المدن والحضارة الإنسانية .

وبسبب التطور المتفاوت للرأسمالية ، في الوقت الحاضر ، فقد انتقل مركز الثقل السياسي ، والاقتصادي ، والعسكري للأمبريالية من أوروبا إلى الولايات المتحدة . واستولى رأس المال الاحتكاري الأمريكي على المصادر الأساسية للمواد الأولية ، وعلى أسواق التصريف ، ومجالات استثمار رؤوس الأموال ، وأنشأ امبراطورية استعمارية ، غير مرئية . وأصبح أضخم مستثمر عالمي . كما تقوم الأمبريالية الأميركية ، في الوقت الحاضر ، بتنفيذ

(١٥) من كتاب سوكولوفسكي : الاستراتيجية العسكرية ، ص ٢٨٧ .

دور الشرطي العالمي، حيث تناهض الديمقراطية والثورية، وتحضر العدوان ضد الشعوب المناضلة في سبيل استقلالها.

أما في الغرب فإن الواقعيين السياسيين متشائمون عموماً بشأن إلغاء الحرب، ويرون أن استمرار الصراع على المصالح بين الناس، وبين الدول، هو حقيقة سياسية تعمل ضد إمكانية استبدال الحرب، باعتبارها وسيلة أخيرة للحل، بأي شيء آخر.

وعلى ضوء معرفتهم بالمخاطر، التي تجرها الحروب الحديثة، فإنهم يعترفون بقيمة السعي نحو إيجاد أساليب جديدة لحل الصراعات السياسية سلمياً، ولكنهم لا يعتقدون بأنه يمكن تحقيق أية تبدلات جذرية، سواء في البنى السياسية الدولية أو الداخلية، في المستقبل المنظور[١٦]. وهكذا فإن الواقعيين السياسيين الغربيين متشككون فيما يتعلق بمصداقية العديد من الاقتراحات المقدمة من قبل الباحثين السوفييت، حول إضفاء صفة اللا شرعية على الحرب، أو عن تأكيد إمكانية السيطرة الجماعية على الموارد العسكرية. وهم ينظرون بسخرية إلى هذه الاقتراحات ويصفونها بأنها طوباوية أو ساذجة. ويعتقدون بأن ما يمكن تحقيقه هو التخفيف فقط من حدوث الحرب، ولا يعتبر برنامجهم سوى أحد الإجراءات البراغماتية، أو الذرائعية، الهادفة إلى تحقيق الوفاق التدريجي، والتعاون الدولي عبر المنظمات الدولية، وتحديد الأسلحة، وتطوير المساعدة لمواجهة موجة التوقعات المحتملة.

النقد المتبادل

ينتقد كل طرف مواقف الطرف الآخر وطموحاته بشدة.

فالسوفييت يوجهون انتقاداتهم إلى اللاماركسيين بشدة على شكوكهم حول الأسباب التاريخية لنشوء الحرب. كذلك يشكك الباحثون الغربيون بالظهور المتزامن للحرب مع المجتمع الطبقي، فإنهم بذلك يجعلون إزالة الحرب عملاً صعباً جداً، وبالتالي فهم يخدمون فكرة استمرارها إلى الأبد.

---

(١٦) جاء في أحد الموضوعات الرئيسية من مقالات الكتاب الفرنسي ريمون آرون RAYMOND ARON، عن كلاوزفيتز ١٩٧٦، أنه حتى المستقبل المنظور، سيظل المجتمع العالمي مؤلفاً من أمم لا تفهم بعضها بعضاً، ومن دول تريد أن تحافظ على استقلالها وأيديولوجياتها المتعارضة.

أما بالنسبة لمستقبل الحرب ، فإن الباحثين السوفييت ينظرون إلى تشاؤم الواقعيين السياسيين حول هذه النقطة ، باعتباره ظاهرة لمأزق العلم الرأسمالي في المرحلة الانتقالية . ويحاول الواقعيون أن ينفذوا الحرب باعتبارها أداة للسياسة ، ما داموا يعترفون بأنها ـــ أي الحرب ـــ ضرورية لأسلوب الحياة الرأسمالي . وفي الوقت نفسه يؤكدون أن الحرب أصبحت أداة غير عملية لمواجهة التحدي السياسي الرئيسي للرأسمالية ، بسبب قوة القوى الإشتراكية التي تصنع هذا التحدي .

ويمكن تلخيص الملامح الرئيسية لنقد الواقعيين السياسيين للأفكار السوفييتية كما يلي :

إن التفاؤل الذي يؤكده الشيوعيون ، عن كونهم قادرين على وضع نهاية للحروب ، يعتمد على افتراضين ، يقول أولهما إن الشيوعية ستنتصر في النهاية على الرأسمالية في كل العالم ، بينما يقول الثاني بعدم إمكانية وقوع الصراعات في عالم شيوعي محض . ويقولون إن كلا هذين الإفتراضين يبقيان موضع تساؤل .

نقاط التشابه

تبدو الاختلافات كبيرة ، إضافة إلى الحدة في لهجة الجدل . وإذا ما أخذنا بعين الإعتبار حقيقة أن المواقف تنبع من إيديولوجية مختلفة ، ذات تفسيرات متباينة للأحداث التاريخية ، والقيم السياسية ، فإنه لا يمكن التوصل إلى أي استنتاج في هذا المجال .

ولكن إلغاء الحرب ، ليس مسألة اهتمام مجرد للمنظرين والإيديولوجيين فحسب ، بل هو قضية اهتمام عاجل وفوري للشعوب كافة ، التي تصبح حياة أفرادها مهددة إذا ما انفجرت الحرب الفعلية غداً . وبالتالي ، فإن السياسات ، التي يأخذ بها المسؤولون عن الأمور اليومية في كافة الدول ، هي متشابهة إلى حد ما . ويتصرف كلا الطرفين الكبيرين ، في ضوء التعايش السلمي ، المعتمد بدوره على توازن القوى .

وباختصار ، فإن وجهات النظر ، الطويلة الأمد للباحثين السوفييت والغربيين هي متعارضة بشكل جذري ، ولكن السياسات التي يأخذون بها على المدى القريب والفعلي متشابهة جداً .

الحروب العالمية

يقول السوفييت إن الحرب بين المعسكرين الأمبريالي والإشتراكي، والتي ستكون، من حيث الجوهر السياسي، اصطداماً مسلحاً حاسماً بين نظامين عالميين اجتماعيين متناقضين، ستكون حرباً عدوانية غير عادلة، من جانب الاستعمار، وحرباً تحررية عادلة وثورية من جانب الدول الإشتراكية. أما من حيث المستوى فسوف تكون حرباً عالمية بين حلفين كبيرين متناقضين.

الحروب الأمبريالية

يقول الباحثون السوفييت إن الحروب الأمبريالية يلجأ إليها الأمبرياليون لضرب حركات التحرر الشعبية، ولاحتلال المستعمرات والقواعد العسكرية، أو للاحتفاظ بها، كل ذلك من أجل تحقيق الأهداف العدوانية. وتعتبر هذه الحروب حروباً عدوانية غير عادلة وضد الشعوب. ويرى الباحثون السوفييت أن هذه الحروب هي ضرورية فقط للأمبرياليين من أجل الاستيلاء على أراضي الآخرين، واستعباد الشعوب ونهبها.

حروب التحرر الوطني والحروب الشعبية

وهي الحروب الموجهة لصد العدوان الأمبريالي، وللنضال من أجل حرية الشعوب واستغلالها. وهي الحروب التي تقابل الحروب الأمبريالية. وتعتبر حروباً عادلة وتحررية وثورية.

تعتبر الحروب الأمبريالية، وحروب التحرر الوطني، من حيث المستوى، من الحروب المحدودة والمحلية.

يرى الباحثون السوفييت أنه من الواضح تماماً أن ظروف نشوء الحروب المذكورة أعلاه وتطور أنواعها (الحروب العالمية، والحروب الأمبريالية، وحروب التحرر الوطني، والحروب الشعبية) تختلف من مرة إلى أخرى. وأن الأهداف السياسية العسكرية، والاستراتيجية للأطراف المتحاربة، وكذلك وسائط خوض هذه الحروب وأساليبها، هي التي تتعرض للاختلاف الحاد. وهنا تبرز مسألة أساسية، عند وضع نظرية الاستراتيجية

العسكرية، وهي أن دراسة مسائل الحروب المعاصرة وصياغتها يجب أن لا يتم بشكل عام، بل بشكل محدد، ينطبق على الحرب المعنيّة، موضوع البحث.

واستناداً للتحليل الماركسي اللينيني للتبدلات الجذرية في تناسب القوى بين النظامين العالميين المتناقضين، وعلى أساس الموقف الدولي بشكل عام، فقد توصل السوفييت، في المؤتمر العشرين، إلى النتيجة التالية: وهي: «أن الحرب ليست حتمية الوقوع، عندما يتحول المعسكر الإشتراكي العالمي إلى قوة سياسية واقتصادية وعسكرية جبّارة، وعندما تتعزز قوى السلام في أنحاء العالم كافة[١٧]».

والمؤتمر الواحد والعشرون، أعلن في قراراته، من حيث تطوير هذه المبادىء، أنه وإلى أن يتم تحقيق النصر الشامل للإشتراكية على الأرض، ومع بقاء الرأسمالية في بعض أنحاء العالم، فإنه توجد إمكانيات حقيقية لاجتثاث الحروب العالمية من حياة المجتمع. وقد حدد المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي الخط الاستراتيجي العام، للمرحلة التاريخية القادمة. إن المهام الرئيسية لهذه المرحلة هي إقامة القاعدة المادية التقنية للإشتراكية، والاستجابة الكاملة لمطالب الشعوب وحاجاتها، وفي الوقت نفسه تعزيز الاقتصاد والقدرة الدفاعية للدولة.

ويجيب الباحثون الغربيون من جانبهم، وخاصة منهم الواقعيون السياسيون، بأن الطريقة الوحيدة لمنع الحرب النووية تكمن في التحضير الجدّي لها. أما الاعتبارات الأخلاقية، حول منع الحرب النووية، فليست مقبولة، مادام أن العدو المحتمل (والمقصود هنا العدو الإشتراكي) لا يأخذ بها أيضاً.

وبين هؤلاء وأولئك، نجد الواقعيين السياسيين الغربيين يؤكدون أن العالم الحر لا يمكنه أن يعتمد فقط على الأسلحة النووية، في صراعه ضد العدوان الشيوعي، حيث أن هذه الأسلحة لا يمكن أن تستخدم إلا في حالات الكوارث فقط. وبما أن الاستراتيجية السوفييتية أصبحت تعوّل على تجنب المواجهات الكبرى، فإنه يجب على الغرب أن يكون مجهزاً ومستعداً، بصورة جيدة، لمواجهة تهديدات الأسلحة التقليدية.

وهكذا يبقى احتمال بقاء الحروب أمراً محتماً، ما بقيت الوسيلة الوحيدة لتحرر

(١٧) سوكولوفسكي: الاستراتيجية العسكرية، صفحة ٢٩٥.

الشعوب من جهة، ولإيقاف هذا التحرر من جهة أخرى. وما دام الرادع الأخلاقي لن يكون متوفراً لدى الأمبرياليين، الذين يرون التهديدات والأخطار تحيق بخططهم وسياساتهم، في المحافظة على مصالحهم الاستعمارية، السياسية والاقتصادية، في بعض أنحاء العالم.

الحرب الباردة

يعرف السوفييت الحرب الباردة بأنها سياسة عدوانية للدول الأمبريالية، بعد الحرب العالمية الثانية، موجهة نحو الاتحاد السوفييتي، والدول الإشتراكية، والدول التقدمية كافة والمحبة للسلام. ويقولون إن هذه الحرب موجهة من أجل إبقاء التوتر الدولي، وإثارة الخوف الدائم من خطورة نشوب (الحرب الحارة) والإبقاء على هذا الخوف ماثلاً أمام أعين الشعوب، وكذلك من أجل إيقاف تطور الاتحاد السوفييتي وغيره من الدول الإشتراكية، وتعزيز القوى المناهضة للإشتراكية.

وقد أذيعت فكرة (الحرب الباردة) في ٥ آذار ١٩٤٦، من قبل تشرشل عند زيارته للولايات المتحدة الأميركية، عندما طالب الولايات المتحدة بإيجاد اتحاد بريطاني أميركي من أجل الصراع ضد (الشيوعية العالمية التي تقودها روسيا السوفييتية). وقد ظهر مضمون هذه الحرب في (مبدأ ترومان)، وفي خطة مارشال التي أعلنت في العام ١٩٤٧، وفي إحداث حلف شمال الأطلسي العدواني، وفي إنشاء مجموعات الأحلاف السياسية العسكرية، وفي إنشاء القواعد الحربية في شتى أنحاءَ العالم.

وقد رافق إعلان (الحرب الباردة) سباق في التسلح، وتهديد بالحرب النووية، وتهديد دائم باستخدام القوة، وتعزيز النشاطات الأمبريالية والتخريبية ضد الدول الإشتراكية وغيرها من الدول التقدمية في العالم.

وقد أدى تبدُّل تناسب القوى في العالم لصالح الإشتراكية والديمقراطية، والصراع الإيجابي للاتحاد السوفييتي والقوى المحبة للسلام، في سبيل التعايش السلمي ونزع السلاح... إلخ، في أعوام السبعينيات إلى عدول الأمبريالية عن (الحرب الباردة)، وإلى

الاسترخاء العالمي ، وإزالة التوتر منه . ولكن القوى المعادية للإشتراكية لم تعدل نهائياً عن خطط الحرب الباردة ، وتهدد بالعودة إلى أجواء (الحرب الباردة)[18] .

ولا يبحث المنظرون الغربيون في (الحرب الباردة) ، ويعتبرونها تعبيراً يصف حالة توتر دولي طويلة الأمد ، ناتجة عن عدائية بين خصمين ، بحيث لا تصل إلى حد استخدام العنف المسلح . وقد استخدم هذا التعبير ، من قبل الغربيين منذ (مشكلة براغ) التي حصلت عام ١٩٤٨ . حيث قام الأمبرياليون بإحداث توتر دولي كبير ، ومحاولات لإثارة الشعب التشيكي ، وإثارة الرأي العالمي ضد العمل ، الذي قام به الاتحاد السوفييتي لرأب الصدع في البنية القيادية التشيكية .

---

(١٨) من الموسوعة العسكرية السوفييتية ، الجزء الثامن ، صفحة ٣٨٥ .



ثانياً ــ المفهوم اللاماركسي لطبيعة الحرب

تمهيد

بنتيجة الحرب العالمية الثانية وتدمير الآلتين العسكريتين النازية الهتلرية واليابانية، طرأ تطور كبير على وضعية أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ووجدت الظروف المواتية لتعزيز النظام الإشتراكي وتوسيعه، وهو الذي خرج من إطار الدولة الواحدة وتحول إلى نظام عالمي يشمل أكثر من ثلث سكان الكرة الأرضية. وجرت، كذلك في العالم الرأسمالي، وبنتيجة الحرب العالمية الثانية تغييرات جوهرية. فقد خرجت إنكلترا من الحرب منهكة القوى، وفقدت هيبتها القديمة. كذلك خرجت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، التي رزحت، فترة طويلة، تحت الاحتلال الألماني، وهي شبه ممزقة. أما بقية الدول الرأسمالية، باستثناء الولايات المتحدة وكندا، والتي اشتركت إلى جانب المعسكر المعادي للنازية، في الحرب، فقد وجدت نفسها في وضع اقتصادي سيء للغاية.

استغلت الولايات المتحدة الأميركية هذه الظروف لتعزز مواقعها السياسية والاقتصادية والعسكرية في العالم.

وقد تجلت الأهداف السياسية، التي وضعتها الأمبريالية الأميركية نصب عينيها، في استقطاب الدول الأوروبية، وتجميعها في أحلاف عسكرية مختلفة موجهة ضد دول

المعسكر الإشتراكي، لتحقيق الهدف الرئيسي من وراء ذلك، وهو السيطرة على العالم كله.

فقد أعلن المسؤولون الأميركيون، أكثر من مرة، عن سعي الولايات المتحدة للسيطرة على العالم. ففي عام ١٩٤٥ كتب الجنرال مارشال في تقرير لوزارة الدفاع الأميركية، جاء فيه «إن على الولايات المتحدة امتلاك القوة اللازمة لتأمين دورها القائد في التطور المقبل للإنسانية». وأكد الرئيس ترومان هذه الفكرة، في رسالة للكونغرس في كانون الأول ١٩٤٥: «إن النصر في الحرب العالمية الثانية وضع الشعب الأميركي أمام مسؤولياته في قيادة العالم».

وهكذا قامت بالفعل، وتحت الإشراف المباشر للولايات المتحدة، الأحلاف العسكرية التالية: في العام ١٩٤٩ حلف شمال الأطلسي (الناتو) في أوروبا. وفي العام ١٩٥٤ حلف شرقي آسيا (سياتو CIATO). وفي العام ١٩٥٥ حلف السنتو (حلف بغداد) في الشرق الأوسط... إلخ.

أما بالنسبة للدراسات النظرية العلمية العسكرية، فقد درست الحرب كظاهرة اجتماعية معقدة ومتعددة التشعب، وكظاهرة تسيطر على الموارد المادية والمعنوية للشعوب كافة، من قبل كتاب يمثلون عدة اتجاهات، ومن عدة وجهات نظر أيضاً. وإذا حاولنا التقرب من تحليل الحرب، فإن هذا سوف يكون جزءاً فقط من دراسة أوسع وأعمق للتطور الاجتماعي أو للعلاقات بين الدول.

تشمل مفاهيم إيضاح هذا الموضوع: المفهوم البيولوجي، والمفهوم النفسي، والمفهوم الإناسيّ[(١٩)] (الانتروبولوجي)، والمفهوم السياسي، والمفهوم الاجتماعي.

ويؤكد دارسو الحرب غالباً على أن الفهم الكامل لطبيعة الحرب يحتاج إلى تدقيق في مظاهرها المتعددة، حتى وإن كانت الحرب، وقبل كل شيء، ظاهرة اجتماعية سياسية.

---

(١٩) الإناسة هي علم الإنسان، أي العلم الذي يبحث في أصل الجنس البشري، وتطوره، وأعراقه، وعاداته، ومعتقداته.

ويمكن أيضاً أن تختلف الدراسات عن الحرب ، حسب مستوى التحليل المنتقى . ويعتمد الانتقاد هنا غالباً على الافتراضات التي يضعها المحلل نصب عينيه عن الحرب ، أو عن أسبابها . فعلى سبيل المثال : إذا اعتقد المحلل أن الحرب تعبير عن الطبيعة الملازمة للإنسان ، أو إذا اعتقد أن أصل الحروب يكمن في الأفكار التي يحملها الرجال في أذهانهم ، فإنه سوف يركز انتباهه على سلوك الأفراد . أما إذا نظر إلى الحرب كنوع من العلاقات الإنسانية بين جماعات من الرجال ، فإنه يحتمل أن يتم المحلل تحليله على مستوى أكثر جماعية (شمولية) . لذا فإن التحليل نفسه سوف يكون موجهاً ، حسب النظرة الخاصة التي ينظر منها المحلل ، إلى جوهر الموضوع . فإذا عرَّف المحلل الحرب بأنها حرب طبقية ، أو حرب داخلية ، أو آلية لإعادة توازن النظام العالمي ، فإن الأسئلة والأجوبة التي سوف يضعها ستختلف تماماً ، في كل حالة .

وبنتيجة اختلاف الافتراضات حول طبيعة الحرب وجذورها ، وعن مدى الأبعاد والمستويات المحتملة للتحليل ، فإنه يمكن إيجاد عدد كبير من التعاريف عن الحرب . ويمكن عموماً تقسيمها إلى مجموعتين :

ـــ التعاريف التي تؤكد على سيادة الطبيعة الاجتماعية والسياسية للحرب .
ـــ والتعاريف التي لا تؤكد على الطبيعة الاجتماعية والسياسية للحرب .

والتعاريف الأولى هي التي تأخذها الماركسية ـــ اللينينية بعين الاعتبار ، عند وضع تفسير للحرب وظواهرها وأسبابها . وقد تحدثنا عن ذلك في الفقرة ـــ أ ـــ من الفصل الأول .

١ مفاهيم الحرب في النظريات الغربية

سوف نبدأ بتحليل مفاهيم الحرب التي لا تؤكد على الطبيعة الاجتماعية والسياسية للحرب .

أ ـــ المفهوم البيولوجي للحرب

يمكننا أن نجد في المفهوم البيولوجي مجموعة واحدة ، أو بضع مجموعات من افتراضين أساسيين :

الافتراض الأول

هو قانون مزعوم عن بقاء الحياة واستمراريتها. ذلك أن البيولوجي (عالم الأحياء) يفترض عادة ــ كبديهية أساسية ــ أن أشكال الحياة كافة، من النبات إلى الإنسان، تمارس صراعاً مستمراً بعضها ضد البعض الآخر، ولا يبقى فيا حيّ سوى الأصلح. لذا فإنه، بالنسبة للبيولوجي، تعتبر الحرب أنها مجرد صراع ظاهر، يتضمن وظيفتين توجد بينهما علاقة متبادلة. فمن ناحية أولى، يكون هذا الصراع وسيلة لبقاء الأصلح، ومن ناحية ثانية أسلوباً لتزاحم أفراد العنصر الواحد للوصول إلى أفضل مركز في الجماعة، أو تزاحم الجماعات، كالقبائل والطبقات والدول في سبيل الوصول إلى شروط حياتية أفضل، أو استلام المكانة العليا في نظام الجماعات. وفي هذه النظريات نرى أن الجماعات تعمل غالباً كعضويات حية[٢٠].

الافتراض الثاني

وفيه يفترض البيولوجي أن جزءاً من طبيعة الإنسان ينساق بالغريزة نحو الصراع والحرب. ولذا فإنه ينظر إلى الحرب كأحد الأشكال التي يعبر فيها عن هذا السلوك.

وقد سجلت أعوام الستينيات إحياء للأسلوب البيولوجي. ويؤكد علماء الأثيولوجيا ETHOLOGY، وهو علم سلوك الحيوانات في البيئة الطبيعية، أن الإنسان ورث غرائزه العدوانية من مملكة الحيوان.

ويمكن أن نذكر فيما يلي فرضيتين اثيولوجيتين متصلتين بطبيعة الحرب وهما:

ــ وجود ميل فطري لدى الإنسان لأن يقتل أبناء جنسه.
ــ وجود (حسّ الأرض) لدى الإنسان، وهذا الحس يظهر واضحاً في التصاقه العاطفي العميق بأرض معينة.

ويتفرع من هذا الشعور (الحس) حاجة الإنسان إلى (مجال خاص به

---

(٢٠) أي أن الدولة هي تنظيم قوة المجتمع بغرض حمايته واتساعه. أنظر WITHEY, KATZ, 1965, P.66. وقد تم إيضاح هذا الهدف (بالنسبة للدولة) باعتباره رفعاً لمستوى قوة الخير العام أو الحرب العامة.

ـــ شخصي)، في منطقة لا يشغلها أي شخص آخر، ودون هذا المجال فإن الرجل لا يستطيع أن يعمل بصورة طبيعية.

ونظراً لهذه الحاجات، الناتجة عن الشعور الداخلي والعاطفي، أكثر مما هي عقلانية أو وظيفية، فإن الإنسان طور الميل إلى القتال من أجل الأرض. وقد أكد أردري ARDREY ذلك تحت تسمية (الالتزام بالأرض)، وأكد على كون ذلك (سمة غريزية وراثية وأصيلة).

إن إدعاءات البيولوجيين، عن قوة مفهومهم في تفسير الحرب، تختلف عن التأكيد المتواضع بأن الحرب لا يمكن تفسيرها دون أخذ العامل البيولوجي بعين الاعتبار، إلى القناعة القصوى بأن الحرب ليست سوى الشكل والنتيجة للصراع البيولوجي.

وينكر أغلب علماء الاجتماع فرضيات تسبب سلوك الإنسان فقط بالحرب، وينكرون كون الإنسان عدوانياً بالتلازم. ويدعون أنه لا يمكن تعميم غرائز العدوان عند الحيوانات على الإنسان.

ب ـــ المفهومان: النفسي، والنفسي الاجتماعي

يؤكد المفهوم النفسي لطبيعة الحرب على تأثير الظاهرة النفسية الاجتماعية، أو الظاهرة النفسية للجماعة على نشوب الحرب ومجراها. وبهذا، فإنه ينظر إلى الحرب على أنها إظهار للميول العدوانية للجماهير، حيث تكون العدوانية تعبيراً اجتماعياً عن بعض المشاعر الإنسانية. ويقول كلاوزفيتز CLAUSEVITZ: إن الحرب تمثل استمراراً للسلوك في ظرف آخر، وأنها تفسير للعدوان الشخصي في المجال الثقافي.

ويعطى لهذا المفهوم أربع حالات رئيسية، تختلف في شرحها للطريقة التي تتشكل فيها الظاهرة النفسية الاجتماعية، وهي:

ـــ السلوك العدواني كسمة متطورة من صراع فردي بدني إلى قتال جماعي بين المجتمعات.

ـــ تحول العدوان من ظاهرة نفسية للإنسان الفرد إلى ظاهرة نفسية للمجتمع.

ـــ العدوان عبر خيبة الأمل . أي أن خيبة الأمل لدى الرجال تدفعهم للتصرف بعدوانية ، وتصبح الحرب بذلك نموذجاً مدرسياً للسلوك .

ـــ العدوان كسلوك مدرك ، حيث يتمسك السلوكيون بأن عدوانية الجماعة ، إذا حدثت ، تكون مدركة وليست فطرية . ويعتبرون أن الإنسان قادر على التطور ، خلال مفهوم الحرب ، وكذلك خلال مفهوم السلم .

ج ـــ المفهوم الانتروبولوجي للحرب

بالمقارنة مع البيولوجيين ، الذين يرون أن أسباب الحرب هي في الغرائز الحيوانية للإنسان ، ومع علماء النفس والاجتماع ، الذين يؤكدون على أهمية التأثير المتبادل بين الاحتياجات النفسية للأفراد والقوى الاجتماعية ، فإن الأنتروبولوجيين يرون في الحرب ظاهرة ثقافية ، وأن نقطة الانطلاق الأساسية لهذا المفهوم هي أن الحرب نتاج لخبرة الإنسان الثقافية .

الحرب نتاج للثقافة

ترى النظريات الانتروبولوجية أن الحرب ليست ظاهرة أبدية ، وأن كونها قد ظهرت لأول مرة في مرحلة معينة من تطور الإنسان ، يشير إلى أنها من نتاج هذا التطور الثقافي ، وإلى أن الفترات المبكرة من حياة الإنسان مرت دون حرب . وتقول مارغريت ميد MARGARET MEAD إن (الحرب هي اختراع) ، ويشير آخرون أيضاً أن السيطرة الأكبر على الموارد التكنولوجية أثرت دوماً على وتيرة نشوب الحروب ، وأن البنية السياسية ، وخاصة في الأنظمة الرأسمالية والأمبريالية كان لها دائماً مثل هذا التأثير .

ويقدم مالينوفسكي وجهة نظر مستقلة حيث يقول : « إن جوهر الحرب هو صدام بين ثقافات القبائل المستقلة[٢١] » . وهو يعرف الحرب بأنها « نزاع مسلح بين الوحدات السياسية المستقلة ، بواسطة القوة العسكرية المنظمة ، وكاستمرار للسياسة القبلية أو الدولية » . وحسب رأيه ، فإن الوحدات الثقافية التي تثير الحروب هي القبيلة أولاً ،

---

(٢١) انظر توماس ، (القوة) (١٩٦٤ ـــ ١٩٦٥) . Tomas, Power (1964-5), Dole O. Smith, Curtis Lemoy Tomas D. White.

والدولة ثانياً. أي أن الحروب تتقرر ثقافياً وليس بيولوجياً، وأن الحروب تخاض من قبل وحدات ثقافية للوصول إلى أهداف سياسية محددة.

ويناقش الإنسان فكرة: هل تحقق الحرب تطور الإنسان؟. فهناك من يقول إن الحرب كانت عبر العصور تدميرية (**الفرضية التدميرية**)، عبر فرضها لتكاليف مرتفعة، وإعاقتها للتطور، وإيقافها بعض الحضارات. وهناك الانتروبولوجيون، الذين يدعون أن الحرب كانت دوماً تسهم في تطور الإنسان والمجتمعات. حيث كانت تدمر كل ما كان قائماً، وتفتح الطريق أمام ما هو قابل للحياة. وأن الدور الذي لعبته الحرب، في خلق الوحدات الاجتماعية الكبرى، والمؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التابعة لها، كان له أهمية خاصة، ويؤكد أندريسكي ANDRESKI أن «الحرب كانت شرطاً ضرورياً لكل من نشوء الحضارة، والارتقاء البيولوجي للإنسان».

وهناك تفسير انتروبولوجي آخر يعتبر أن تطور الإنسان مرتبط ارتباطاً لا يقبل الفصل مع تطور أدوات الحرب. وأن الحرب والاحتياجات العسكرية اعتبرت سبباً لإثارة القدرات الانتاجية للمجتمع.

د ـ المفهوم البيئي (الايكولوجي) ECOLOGICAL APPROACH

ينبثق هذا المفهوم من النظرة إلى أن الحرب تعتبر ظاهرة صراع من أجل شروط أفضل للبيئة، وكشيء يتأثر إلى حد كبير بالبيئة.

كانت الفكرة الأساسية فيما مضى أن البيئة الجغرافية تحدد سياسة الدول بشكل مباشر، وبالتالي تحدد أيضاً الصراعات والحروب. ولهذا كان الرجال مضطرين للسعي نحو بيئة أفضل. ويعتبر المفهوم الجيوبوليتي لدراسة الحرب أحياناً حالة من حالات المفهوم البيئي (الايكولوجي)، وأن وجهة نظر توينبي TOYNBEE عن التاريخ، كنموذج، تعتبر أحد الأمثلة، حيث أن الحضارات تولد وتنمو كرد على التحدي الذي تفرضه البيئة. وثمة مثال آخر في تأكيد أندرسكي ANDRESKI الذي يقول إن «الحرب تنشأ عن ميل أفراد المجتمع لتنمية مواردهم بشكل إضافي، الأمر الذي يؤدي إلى تطور المجتمع ككل».

هـ ـــ المفهوم الجيوبوليتي GEOPOLITICAL APPROACH

يبدو أن هذا المفهوم قد يكون الأكثر قدماً من كافة طرق دراسة طبيعة الحرب ، والذي كان له أعظم الأثر في الطريقة التي نظر فيها السياسيون إلى الحرب . إن الوضع الجيوبوليتي (الجغرافي السياسي) لأية دولة يُعرَّف بشكله التقليدي بأنه «المجال الذي تحتاجه هذه الدولة ، أو تلك ، لتعيش برفاهية وأمان عبر حدودها وموقعها الجغرافي» .

وإن الحرب ، حسب هذا المفهوم ، هي عبارة عن شكل من الصراع من أجل توفير شروط جيوبوليتية أفضل . وإن نظرية (المجال الحيوي) LEBENSRAUM قد طورت من قبل علماء الجيوبوليتية الألمانية ، حيث اعتبروا أن الدول العظمى عانت من الحاجة إلى دفع حدودها إلى الوراء ، لكي تحقق اكتفاءاً ذاتياً ، وتؤمن نمواً كبيراً في السكان . وقد استغلت النازية هذه الفكرة بالذات ، لكي تدفع حدودها للوراء ، وتؤمن المجال الحيوي لها .

و ـــ المفهوم القانوني للحرب

بالرغم من المظاهر المختلفة للحرب ، فإن المفهوم القانوني لا يعالج الحرب كظاهرة قانونية صرفة ، ولكنه يؤكد على الملامح القانونية فيها .

يرى أولئك الذين يؤكدون على الملامح القانونية للحرب أن حالة الحرب تتطلب السيادة . ويمكن اعتبار الصراع حرباً فقط عندما ينتمي فيها المتصارعون إلى وحدات سياسية ذات سيادة (قبائل ، إقطاعيات ، امبراطوريات ، قوميات ، .... إلخ) .

حاول كوينسي رايت QUINCY WRIGHT أن يجمع بين وجهات النظر القانونية والاجتماعية والعسكرية والنفسية عن الحرب ، ويقدمها كمركّب . وقد جاء التعريف الناجم عن ذلك يقول : **إن الحرب هي حالة قانونية ، وإن شكل الصراع يشتمل على درجة عالية من المساواة القانونية والعداء والعنف في العلاقات بين الجماعات الإنسانية المنظمة ، وإن الحرب** ــ بكلمات أبسط ــ **هي شرط قانوني يسمح بشكل متساو لجماعتين متعادلتين أو أكثر بتنفيذ الصراع بالقوة المسلحة .**

ويرى رايت في مكان آخر أن الحرب تحدث بنتيجة التغير السريع في الحياة

الاجتماعية والتكنولوجية والنفسية أو الثقافية لمجتمع ما . ولا يمكن أن يفترض حدوث التغيير السياسي ما لم يؤخذ التعبير الاجتماعي ليعني اجتماعياً وسياسياً .

ويصف رايت الحرب باختصار بأنها طريقة لإنجاز تغييرات سياسية كبيرة . وأن الأسباب التي تخاض الحرب من أجلها هي بشكل رئيسي أسباب سياسية : كبناء الدول القومية ، والإسراع في تطوير الحضارة ، والمحافظة على السلام والاستقرار أو تدميرهما ، وحفظ أو تدمير النظام العالمي للدول ...

وفي المفهوم القانوني للحرب يمكن أن تفسر **الحرب بأنها تحول للسيادة** ، أي انتقالها إلى طرف آخر ، كما يقترح ريفيز REVES .

ز ــ المفهوم الأخلاقي للحرب

توجد مسألتان أخلاقيتان متصلتان بظاهرة الحرب ، تتعلق إحداهما بالطابع الأخلاقي للحروب من حيث كونها **عادلة أم غير عادلة** . بينما تعالج الثانية الحرب كأداة في نظام أخلاقي معين ، أو كوسيلة لتطوير الإنسان أو المجتمع ، ويمكن أن ندعو ذلك بالتفسير الأخلاقي لطبيعة الحرب .

١ ــ تطوير الإنسان

هناك نظريات تقول إنَّ للحرب تأثيراً محسِّناً لطبيعة الإنسان الفردية . وفي نظريات أخرى يكون هذا التأثير مستقلاً عن أسباب الحرب ، بينما يكون سبباً لها في نظريات أخرى أيضاً . نجد مثالاً على النوع الأخير في النظريات الدينية التي ظهرت في بعض الثقافات في أزمنة متعددة ، والتي كان فيها المحاربون يصبحون أتقياء في قتالهم ، وفي استشهادهم من أجل قضية إيمان عادلة . ففي الديانتين القديمتين الإغريقية والرومانية ، كان الطريق لأن يصبح الإنسان بطلاً شبيهاً بالإله يمر عبر ميدان القتال . كذلك الأمر بالنسبة للمسلمين ، فإن الاشتراك في الحروب ضد الكفار يعتبر أقصر الطرق لتطهير النفس والوصول للجنَّة . ويمكننا أن نجد أفكاراً مماثلة في المعتقدات الدينية المسيحية واليابانية .

٢ ــ تحسين العرق الإنساني

والحالة الثانية من المفهوم الأخلاقي هي التي تنظر إلى الحرب كوسيلة ، يمكن أن يتحسن فيها العرق الإنساني . ومن هؤلاء الذين يأخذون بهذا المفهوم بعض النازيين والفاشيين ، وآخرون ومنهم تشامبرلين CHAMBERLAIN ، ودوغوبينو DE GOBINEAU ، وروكو ROCCO ، وموسوليني MUSSOLINI ، وهتلر .

ويمكن اعتبار أن العرقية (العنصرية) قد فقدت اعتبارها باستثناء أصوات قليلة في ألمانيا النازية ، سابقاً . وهذه الأفكار تنادي بـ « **أن الحرب ، وحدها ، هي التي تستطيع أن تظهر مَنْ مِنَ الشعوب يستطيع أن يربح في سباق الأمم الآرية ؟** » ، وأن « الحرب وحدها هي المحكمة القانونية العادلة » . وهكذا تبدو الحرب ، بهذه الأفكار ، وسيلة للاصطفاء الطبيعي .

٣ ــ تحسين الثقافة الإنسانية

يرى روسكين RUSKIN أن الحرب تعتبر دافعاً للثقافة في أضيق معنى ، حيث يقول : « **إن الفن العظيم لا يكون ممكناً إلا في تلك البلدان التي تلجأ غالباً إلى الحرب** » .

٤ ــ رفع مستوى الأمة ــ الدولة

هنالك بعض النظريات الأخلاقية تؤكد على أن الحرب تظهر القوة الأخلاقية للدولة ــ الأمة . وتعود جذور هذه الأفكار إلى الأزمنة القديمة . ففي إسبارطة كانت الفكرة السائدة ، والتي قبل المواطنون التضحية بنفوسهم من أجلها ، متمثلة بالدولة القوية (قوة الدولة) . وكانت الحرب هي الوسيلة الوحيدة لإظهار ذلك . ولم يدافع شبنغلر SPENGLER عن الحرب ، لكنه اعترف بالدور الذي تلعبه الحرب في تمكين الدولة من تقوية نفسها ، ومن السيطرة على الشعوب الضعيفة . من هذا التقليد الفلسفي تطورت أفكار الحرب لدى النازية الألمانية ، حيث يرى لودندورف أن الحرب عبارة عن قوة دائمة في حياة الشعب ، تساعده على أن يبقى حيّاً .

٥ ــ القوة الدافعة للحرب

بهذا، تكون المناقشة قد عالجت الاستنتاجات التي توصلت إليها مختلف المفاهيم الأخلاقية، التي نظرت إلى الحرب على أنها مجرد وسيلة نحو إنجاز الهدف. كما أن القوة الدافعة، التي تم التعرف عليها من خلال هذه النظرات المختلفة كسبب رئيسي للحرب، تتصل بشكل وثيق بالاستنتاجات، التي يقال إن الحرب تخدمها. أما في النظريات الدينية فإن الحرب تعلل، غالباً، في ضوء إرادة الله، الذي يصب جام غضبه على الخطاة الملحدين، أو يقود المؤمنين إلى النصر. وإجمالاً يلجأ الرجال غالباً إلى الحرب كوسيلة لتحقيق غاياتهم.

ح ــ المفهوم التقني العسكري

يتم التأكيد في المفهوم العسكري ــ التقني على الحرب كصدام عنيف بين وجودين إجتماعيين متعاديين، وأن الحرب تُرى أو تُحلّل **كظاهرة تكون ملامحها الرئيسية أو قوانين سلوكها مستقلة عن الشروط الاجتماعية السياسية، التي قادت الأطراف المتصارعة لكي تكون معادية بعضها لبعضها الآخر**. وهذا هو المفهوم الذي تبناه، تقليدياً، العسكريون المحترفون، ولكنه يظهر في التحليل العلمي، الذي سنقدم عنه مثالين:

يؤكد العسكريون على أن المظاهر التقنية للحرب ذات تأثير كبير على تطور النظريات العسكرية وممارستها. ومن هذا المنظور يرون أن السياسة يمكن أن تُعطَى دوراً في العملية المؤدية لنشوب الحرب، ولكنها تعتبر ذات تأثير ضعيف على إرادة الحرب.

ويذكر المنظِّرون حالة الأركان العامة الألمانية، كمثال على تحرر الجندي الألماني المحترف من براثن الساسة. وحتى الحرب العالمية الأولى، كان القادة العسكريون في الولايات المتحدة يعتبرون أن الحرب هي مسألة تقنية من حيث النظرية والممارسة. وعموماً فإنه يمكن سوق الدليل على أن نظرية (الحرب الصرفة) كان لها تأثير على تفكير القادة العسكريين الأميركيين.

١ ــ المفهوم المزدوج

نجد في أغلب مصادر العلم العسكري الحديث، أن وجهة النظر، القائلة بأن

طبيعة الحرب هي اجتماعية سياسية، تبدو سائدة عموماً. وبالرغم من ذلك، فإن المفهوم **التقني لا يزال يستخدم في العديد من الدراسات الاستراتيجية، وخاصة فيما يتعلق منها** بدور الأسلحة النووية.

وقد عرف العالم العسكري الإنكليزي ماك كلوغري MAC CLOUGHRY الحرب بأنها «**صراع مسلح بين الدول يهدف إلى فرض إرادة بعض على بعض آخر**». **وكان** نقاشه حول تطور الحرب يتفاعل مع التبدلات في طبيعتها التقنية، حيث تكمن الإشارات والدلالات المميزة لاختراع الأسلحة الجديدة.

٢ ـ العوامل التقنية العسكرية، كسبب للحرب

يعتبر المفهوم العسكري التقني أساسياً أيضاً، بالنسبة لبعض النظريات التي تكون وضعية التكنولوجيا العسكرية فيها عاملاً مستقلاً، ومؤثراً على سلوك الدولة. وهنا ينظر إلى تحسين أسلحة ما وتطويرها كشيء يتعلق بسياستها الخاصة. وعندما يشكل ميزان القوى، أو سباق التسلح، عوامل ضاغطة فإن الحرب تصبح محتملة جداً. ومن هنا فإن المنافسة في مجال التكنولوجيا العسكرية تتضمن أخطار حرب مدمرة.

ط ـ المفهوم الاجتماعي للحرب

نجد أنه بينما ساهمت المفاهيم السابقة كافة في دراسة الحرب كظاهرة متعددة الأبعاد، فإن الأبعاد الاجتماعية والسياسية (أو الاجتماعية والسياسية) والاقتصادية للحرب تبدو مسيطرة على نظرية الحرب المعاصرة.

تتعدد وتختلف مدارس الفكر، التي يمكن جمعها تحت عنوان المفهوم الاجتماعي لدراسة الحرب. وإن ما يربطها، عموماً، هو **أن الحرب عبارة عن لجوء جماعات من المجتمعات للعنف المسلح**. وهكذا فإن الحرب تخضع للقوانين التي تحكم كافة الصراعات الاجتماعية. وقد استقى علماء الاجتماع نظرياتهم من تحليل بنية المجتمع، والصراعات التي تحصل بين جماعات ذات مصالح مشتركة للوصول إلى مصالحها.

ي ـ المفهوم السياسي للحرب

يتم التأكيد، فيما يمكن أن نسميه بالمفهوم السياسي لدراسة الحرب، على

الطبيعة السياسية، أو الاجتماعية السياسية للحرب، وجوهرها، ودورها كأداة للسياسة. وبموجب هذا التعريف، فإن المفهوم السياسي يتضمن عدداً كبيراً جداً من النظريات، التي يمكن أن تختلف، بشكل حاد، في تفسيرها للدور الذي تلعبه الحرب في العلاقات الدولية، وفي الحياة الداخلية للمجتمعات، وفي تقييمها للاعتبارات الأخلاقية، وفي استنتاجاتها الوصفية.

وأحد مصادر الاختلاف يكمن في مستوى التحليل المختار. وغالباً ما تعتبر الأمة ـــ الدولة (NATION-STATE) وحدة يجب إيضاح دورها. أما المستوى الأقل من الدولة، فهو الفئات الاجتماعية التابعة لها، كالطبقات، والأحزاب السياسية، والطوائف الدينية، والجماعات العمالية. وفي المستوى الأعلى من الدولة توجد التكتلات الدولية ذات المصالح المشتركة، سواء من الناحية السياسية، أو الاقتصادية، أو الدينية، أو العنصرية...إلخ.

ك ـــ المفهوم السياسي الاقتصادي للحرب

إن الدراسات المرتبطة بالمفهوم السياسي الاقتصادي للحرب تؤكد أيضاً على الدوافع السياسية للحرب، ولكنها ترى فيها صراعاً بين المصالح السياسية كانعكاس لصراع كامن بين المصالح الاقتصادية. ومعالجة النسوفييت للحرب يمكن أن تعتبر مثالاً لهذا المفهوم، بالرغم من أنها يمكن أن تعتبر أيضاً كنظرية اجتماعية، أو اجتماعية سياسية، ما دام أنها تؤكد، في الوقت ذاته، على أن الحرب ليست سوى إحدى الوسائل، التي تنفذ هذه الطبقات سياستها بواسطتها.

كان نورمان آنجل NORMAN ANGELL، أحد رواد التفسير الاقتصادي لأسباب الحروب، قد أكد على أن **الحروب تخاض لأسباب اقتصادية**. وقد استنتج من دراسته أن الحرب في العصر الصناعي لا يمكن أن تكون ذات فائدة مادية، وبالتالي فإنها يجب أن تحرّم.

وقد كُتِبَ كثيراً عن هذه العلاقة بين الحرب والاقتصاد، كانت الموضوعات الأربعة الرئيسية هي:

١ ـــ حروب تحدث بين الدول، بسبب تضارب مصالحها الاقتصادية، أو المصالح الاقتصادية لمجتمعاتها. واستطراداً من هذا يرى نقاد هذه النظرية أنه من الصعب

أن نتكلم عن مصالح المجتمع ككل، لأنه توجد للجماعات المختلفة ضمن المجتمع مصالح مختلفة، وبالتالي فإن ما يكسبونه بنتيجة الحرب سوف يكون مختلفاً أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك فإن الحرب أصبحت في الأزمنة الحالية غير مربحة لأحد من الخصوم المتعادلين، بسبب الطبيعة التدميرية للأسلحة الحديثة.

٢ ــ حروب بين الدول، تكون وسيلة يمكن بواسطتها إعادة توجيه الصراعات الاقتصادية الداخلية، وإيجاد مخرج لها، يكون أقل ضرراً للمجتمع.

٣ ــ حروب بين الدول، تنشأ بتأثير الجماعات الاقتصادية القوية في المجتمع. تلك الجماعات التي تستفيد من الحرب، حيث تمارس هذا التأثير على الحكومات.
وإن كافة النظريات اللاماركسية للأمبريالية عن الحرب تؤكد على ذلك أيضاً.

٤ ــ حروب داخلية، على شكل صراع بين جماعات ذات مصالح اقتصادية متضاربة.

والانتقاد العام لهذا المفهوم يتوجه إلى حد كبير بالقول بأن الحرب هي ظاهرة شديدة التعقيد، متعددة الأبعاد والأسباب. وأن صراع المصالح الاقتصادية للمجتمعات والجماعات ليس شرطاً كافياً للحرب، ما دام أن هذه الصراعات يمكن أن تحل بأساليب أخرى، كأن يكون عبر التطور الاقتصادي مثلاً.

إن أهمية الدوافع الاقتصادية كسبب للحرب معروفة لدى العديد من ممثلي مختلف المفاهيم الأخرى. وقد ارتأى الانتروبولوجيون، مثلاً، أن الرجال كانوا يلجؤون، في المراحل الأولى من تاريخ المجتمعات، إلى القتال المسلح، لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى. وغالباً ما كانوا يفضلون عدم تسمية هذا القتال حرباً. لكنهم يحبذون إطلاق كلمة (الحرب) على القتال الذي يجري لأسباب سياسية، أو الذي أصبح قتالاً منظماً.

ل ــ المفاهيم متعددة الأبعاد للحرب

مهما كانت نقاط القوة والضعف في كل هذه المفاهيم المختلفة لدراسة الحرب، فلا يمكن أن يكون هناك شك في أن طبيعة الحرب قد تبدلت بعمق خلال الجيلين أو الأجيال الثلاثة الأخيرة. وإن خبرة الحربين العالميتين، وتوقع الحرب النووية، ومجرى الحروب المحلية التي حصلت في العقود الماضية، تقف جميعها دليلاً على أن الحروب

الحديثة ستنفذ بوسائط معقدة من عسكرية وسياسية واقتصادية وغيرها ، وبآن واحد . والأهمية النسبية لكل بعد من أبعاد الحروب ، يمكن أن تختلف من حرب لأخرى ، وفي مختلف مراحل أية حرب منها .

ويعالج القادة السياسيون تحضير الحرب ، سواء أكانت هجومية أم دفاعية ، كخطة شاملة على أساس القناعة الثابتة بأن الحروب المقبلة سوف تخاض على عدة جبهات : عسكرية ، واقتصادية ، وتكنولوجية ، وايديولوجية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المجتمع أخذ يظهر وعياً نحو الحقيقة التي تقول إن الحروب في الأزمنة الحديثة يمكن أن تصل أبعادها حتى الكوارث ، وأن تكون لها نتائج على غاية من الأهمية في كافة مجالات النشاط الإنساني . وباختصار ، **فإن الحرب أصبحت ظاهرة اجتماعية ذات جوانب تزداد كثيراً عما كانت عليه في الماضي** ، وإن هذه الحقيقة أصبحت ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تفشل في إحداث تبديلات في المفاهيم المستخدمة في دراسة الحرب .

في السنوات الأخيرة ، حاول عدد من العلماء أن يطور طرقاً لدمج أكثر ما يمكن من الملامح في تحليلهم . وكان طموحهم يتجه دوماً نحو إيجاد نظرية عامة عن الحرب . ولكن السمة المشتركة تمثلت بالتبني الواعي **لمفهوم متعدد الأبعاد** . ومهما يكن من أمر ، فإنه يوجد نقص كبير في الوضوح الفكري لاستخدام كلمة البعد . ولعل الكلام الصحيح يشير إلى أن بُعْدَ الحرب هو أحد صفاتها المميزة ، الذي يتميز عن أي سبب من أسبابها ، سواء أكان السبب أساسياً أو ثانوياً . ويعتبر المفهوم المتعدد الأبعاد مفهوماً شاملاً للدراسات التي تعالج الحرب كظاهرة اجتماعية . وسنكتفي بالإشارة إلى أربعة اتجاهات في هذه الدراسات :

١ ــ للحرب عدة أبعاد ، ولكن ، يركز عادة على واحد منها

يقر أغلب العلماء اليوم بأن الحرب هي ظاهرة متعددة الجوانب ، حتى ولو اختازوا التركيز على واحد أو اثنين منها . وأن العديد من هؤلاء يقيّد نفسه بأحد هذه المفاهيم المذكورة سابقاً ، لأسباب عملية تتعلق بخلفيتهم الأكاديمية ، وحاجتهم للمحافظة على دراستهم ضمن حدود تسهل السيطرة عليها . أما الآخرون (كالواقعيين السياسيين ، مثلاً) فإنهم يبررون استعمالهم لأحد المفاهيم الرئيسية على أساس أن البعد المدروس

(القوة ، مثلاً) هو البعد المسيطر على بقية الابعاد ، وهو الذي يحدد بالتالي المجرى الرئيسي للحرب . ومع ذلك فإن هذه الدراسات التي تواكب دراسة بُعْدٍ واحد فقط لا تغطي كافة الأبعاد الأخرى الواجب حلُّها .

٢ ــ التحليل المتعدد الأبعاد

في المرحلة الثانية من التطور ، كان الطابع المتعدد الأبعاد للحرب يمثل نقطة الانطلاق ، بالإضافة إلى بذل بعض الجهود للإحاطة بشمولية الحرب ضمن الإطار التحليلي .

ولعل المدرسة الفرنسية في الجدل السياسي تعطي مثالاً عن ذلك .

ففي حالة من الحالات ، توجد **ثلاث مستويات** يمكن من خلالها تمييز كافة الصراعات مدار البحث . **فعلى السطح** نجد الأسباب الظاهرة للحرب : كإطلاق الرصاص في سراجيفو قبيل الحرب العالمية الأولى . وفي المستوى الثالث ، **في العمق** تكمن العوامل الرئيسية (ديمغرافية ، اقتصادية ، نفسية ، سياسية ، اجتماعية) ، التي تشكل بنية المجتمع وتؤدي إلى العدوانية المحتملة . **وبين هذين المستويين** يأتي المستوى الأوسط ، الذي تتطور فيه المنافسة والتناقضات في العلاقات السياسية وميزان القوى بين المجتمعات المختلفة .

٣ ــ التحليل المتعدد الأسباب

يمثل التحليل النظري الذي أجراه كينث والتز **KENNETH WALTZ** تحت عنوان (**الرجل والدولة والحرب**) مثالاً ثالثاً لمحاولة تطوير النظرة التركيبية للحرب . وقد قام بذلك ، عبر تحليل العديد من النظريات الرئيسية في تاريخ الفكر السياسي : حيث يُرجِعُ بعضُها الحربَ إلى طبيعة الإنسان ، بينما يرى بعضها الآخر أن أسباب الحرب كامنة في البنية الداخلية للدول ، وترى جماعة ثالثة أن ذلك يعود إلى العلاقات بين الدول . ولا يغوص والتز مباشرة إلى جوهر الحرب ، ولكن بما أن كلاً من هذه الصور الثلاث للحرب تتضمن منظوراً مختلفاً عن طبيعة الحرب ، فإن محاولته لجعل هذه الصور متكاملة قادته إلى وجهة نظر متعددة الأبعاد عن الحرب نفسها .

إن الدراسة الأكثر طموحاً من هذه الدراسات، هي مشروع دراسة **المتلازمات في الحرب** CORRELATES OF WAR، الذي قام به كل من سمول AMOLL وسنجر SINGER. كان هدف هذين الباحثين البعيد المدى هو الإسهام في نظرية الحرب الدولية الحديثة. وكانا في الوقت نفسه منهمكين في اختبار الترابط الحاصل بين المتغيرات المعتمدة والمحلية للحرب، وبين متغيراتها المستقلة الأخرى. **وقد تألفت هذه الحالات من فئتين رئيسيتين** هما: الحالات البيئية (ايكولوجية)، والحالات السلوكية. ثم قسمت الفئات البيئية إلى **فئات بنيوية (الأحلاف، النماذج التجارية، البنية الاجتماعية الاقتصادية للدول في النظام... إلخ)، وفئات مادية** (سمات جغرافية، تطور تكنولوجي... إلخ)، **وفئات ثقافية** (معتقدات شعبية، قيم مختارة... إلخ).

م ـ اللا أدرية AGNOSTICISM[٢٢]

كانت الشكوك، حول إمكانية كشف طبيعة الحرب، أو حول اكتشاف الأسباب العامة للحروب في التاريخ، موضع تساؤل من قبل علماء بارزين. فقد كان اناتول رابوبورت ANATOL RAPOPORT يذهب بعيداً ليتساءل عما إذا كان من الممكن والمشروع أن نطلق على فئة من الأحداث المتعلقة بالسلوك الإنساني تعبيراً مؤلفاً من كلمة واحدة فقط هي الحرب. أو هل إن الحرب عموماً هي حدث لا يمكن تعريفه؟ فإن الحرب تعتمد على ما نفكر فيها: فيمكن أن ننظر إليها كنكبة متكررة كالمرض، ويمكن أيضاً أن ننظر إليها كحالة طبيعية من الأحداث، أي كمرحلة متكررة ذات طبيعة تنظيمية في العلاقات الدولية، بينما نجد أن الحروب القبلية، وحروب التوحيد السياسي، والحروب الاستعمارية، والدينية، والقومية هي من النوع الذي وصفه كلاوزفيتز بأنه يتطلب شرحاً أو تفسيراً منفصلاً.

يقول رابوبورت: إن النقاش، حول الطبيعة الحقيقية للحرب، لن ينتهي إلى شيء، كما هو الحال في كثير من المناقشات الفلسفية الأخرى المماثلة.

وربما يمكن أن نطلق على هذا الوضع **اللا أدرية**، وهو يأتي ضمن المفهوم المتعدد

---

(٢٢) هو مذهب فلسفي يعلن بأن المطلق في غير متناول الفكر الإنساني، ويدعي بالجهل المطبق والكامل للفكر الإنساني تجاه الطبيعة الداخلية، وأصل ومصير الأشياء.

الأبعاد . وإن أولئك الذين يدعوهم لا أدريين لا ينكرون أن الأسباب الخاصة للحروب ، أو لبعض منها ، يمكن أن تعرف . ولكنهم يتساءلون عما إذا كانت هذه الأسباب مشتركة بالنسبة لكافة الحروب .

٢ الحرب أداة للسياسة (النظريات اللاماركسية)

تعرضنا في الفقرة السابقة إلى أن المفهوم السياسي ينظر إلى الحرب كأسلوب يمكن أن تحدث فيه المنافسة السياسية . وهذا الأسلوب يتميز عن أشكال الصراع الأخرى باستخدام الوسائل العسكرية فيه .

تتصف الفرضية العامة لمختلف وجهات النظر السياسية عن الحرب في أنها استمرار للسياسة وأداة لها .

والحرب ، وفقاً للقانون الدولي ، يمكن أن تقع بين وجودين سياسيين يتمتعان بالسيادة ، أي بين دولتين . وبذلك تكون الحرب وسيلة لحل الخلافات بين الدول ، وما دامت الحرب موجودة ضمن خلفية دولية فإن نتائجها يمكن أن تمثل بحياة أو موت الدول .

إن أحد أكثر التحديات أهمية لمفهوم الدولة كممثل عن الشعب (الأمة) ، جاء من القناعة بأن سلوك الدولة هو فعلاً سلوك الرجال أنفسهم الذين يعملون باسم الدولة . وأن أولئك الذين يملكون (النفوذ) ، قد لا يمثلون المصالح الوطنية ، بل مصالح بعض الجماعات ، التي تعتبر وجهات نظرها متوافقة مع آراء صانعي القرار . ومن هذه الجماعات : رجال الأعمال الكبار ، الذين يحققون مكاسب ضخمة في الحرب ، وصانعو الأسلحة ، الذين يشكلون ، بحكم اتصالهم مع المؤسسات العسكرية ، جماعة ضغط (لوبي) ، وأخيراً ، منفذو السياسة الخارجية ، من حيث امتلاكهم فرصاً عديدة للتأثير على السياسة ، وميلهم للعمل لصالح الطبقات الحاكمة .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يوجد في التقليد اللا ماركسي ، وخاصة في مجال أبحاث السلم ، عدة نظريات ، يتم التأكيد فيها على الدور الذي تلعبه جماعات المصالح في تحضيرات الحرب والتحريض عليها .

أ ـــ الحرب ، باعتبارها وسيلة لتنظيم العلاقات الدولية

سوف ننتقي من النظريات اللاماركسية المختلفة عن الحرب (**مدرسة الواقعية السياسية**) ، وبالدرجة الأولى ، الحالة الأميركية للمقارنة مع النظرية الماركسية .

١ ـــ الواقعية السياسية

إن الخاصة المميزة للنظريات المتعلقة بمدرسة الواقعية السياسية هي « **أن السياسة الدولية هي عبارة عن كفاح من أجل القوة** » ، **والقوة ضرورية لتطوير مصالح الدولة** . وبهذا يعترف أصحاب (النظرية الواقعية السياسية) ، بأنه يمكن للدول أن تسعى إلى أهداف أخرى في سياساتها الخارجية . ولكن هؤلاء يؤكدون أن تحقيق هذه الأهداف يعتمد على حجم القوة الموجودة تحت تصرف الدولة . ويعتقد أصحاب هذه النظرية أيضاً بعدم تلاؤم المصالح الوطنية للدول فيما بينها . ذلك أن السياسة ، التي تأخذ بها كل دولة ، سوف تتصادم مع طموحات الدول الأخرى ، وبالتالي فإن القوة هي التي ستحدد النتيجة المترتبة على تصادم المصالح . وبما أن القوة هي وسيلة ضرورية لتحقيق أي هدف تضعه الدولة أمامها ، فإنها ـــ أي القوة ـــ تأخذ المكانة الأفضل في النهاية . وبما أن الدولة المستقلة هي الحارس الوحيد لنفسها ولمصالحها الخاصة ، فإنه لا بد لها من امتلاك القوة . وقد لا تعرف الدولة متى تحتاج للقوة ، ولذا كان عليها تجميع قوة تحت اليد ، وتكميلها بأكبر قوة ممكنة تكون في الاحتياط .

وينظر العديد من أصحاب نظرية الواقعية السياسية إلى **السعي نحو امتلاك القوة** باعتباره ميلاً متأصلاً لدى الأفراد للسيطرة على الآخرين ، وإن القوة تدين بوجودها لغريزة حب السيطرة .

٢ ـــ توازن القوة

في النموذج الواقعي للدول تسعى كل دولة ، بدينامية أساسية ، وانهماك مستمر من أجل الحصول على القوة . وكذلك تسعى القوة العظمى لتحقيق مركز مسيطر . ومتى شعرت دولة بأن قوتها أخذت تختل تجاه قوة معادية لها ، فإنها تسعى من جديد لاستكمال هذه القوة للوصول إلى القوة الأكبر وهكذا ... **سباق في الوصول للقوة** .

ويطلق على هذه العملية بالمصطلحات الحديثة، **بالآلية التلقائية في التسابق**. وبهذا يمكن أن تفسّر هذه الآلية التلقائية، بأن الحصول على المركز الأقوى ينتقل دورياً من طرف لآخر.

٣ ــ توازن القوة في العصر النووي

يعترف مؤيدو الواقعية السياسية بأن بعض ملامح السعي للوصول إلى القوة قد تبدلت بسبب الظروف الجديدة الناجمة عن انقسام العالم إلى كتلتين متعادلتين، وعن انهيار النظام الاستعماري، وظهور الأسحلة النووية.

ولكن مؤيدين آخرين للواقعية السياسية الحديثة يؤكدون أن المبادىء الأساسية لم تتبدل، ما دام السعي للوصول إلى القوة لا يزال المبدأ الأساسي في العلاقات الدولية، وأن **مصلحة الدولة أو الشعب لا زالت ترتبط بشكل وثيق بالقوة.**

ب ــ الحرب، وسيلة لتنظيم توازن القوة

تعمل سياسة السعي إلى **القوة كعامل استقرار في العلاقات الدولية**، إلى الحد الذي يجعل قوى الاستقرار الرئيسية قادرة على تجنب حرب كبيرة فيما بينها، وبالتالي على منع التبدلات الكبيرة في الوضع الإقليمي الراهن والشرعي.

ويعترف مؤيدو سياسة القوة بالمظاهر الضارة للحرب، ولكنهم يؤكدون على ضرورتها لتوازن القوى، وعلى الاستعداد لها دوماً، أي ادخار القوة لليوم المطلوب.

أما بالنسبة للمسألة الأخلاقية، فإن الواقعيين السياسيين يؤكدون على أن استخدام القوة ليس أمراً منافياً للأخلاق بحد ذاته. فالسياسيون يعملون من أجل دولهم، وحسب مصلحتها الوطنية، وليس وفقاً للمبادىء الأخلاقية.

هنالك انتقادات توجه إلى الواقعية السياسية، وليس المجال هنا متسعاً لذكرها. ولكن يمكن القول إن الواقعيين السياسيين يبتعدون عن المثل العليا الأخلاقية والتربوية، ويأخذون في الاعتبار الواقع السياسي الحالي للدول التي تتناحر دوماً، كما يتناحر الأفراد في أية بيئة اجتماعية، مستندين في تفسيراتهم إلى النزوع نحو القوة في الطبيعة البشرية، وعبر الافتراض بأن جوهر (الرجل السياسي) مرتبط بالبحث عن القوة والسيطرة والعنف

١ ــ مكانة الواقعية السياسية بين المفاهيم السياسية

قدمت الواقعية السياسية فيما مضى كمجموعة من الأفكار حول العلاقات الدولية مع موضوعين رئيسيين هما :

أ ــ أن القوة تلعب دوراً حاسماً **كوسيلة لتحسين مصالح الدول**، وكمقياس لمكانتها ووضعها في النظام الدولي،

ب ــ **أن الحرب وسيلة للسياسة**، وأن استخدامها يُسَوَّغ، عند الضرورة، من أجل رعاية مصالح الدولة.

وإن الطابع العام لهذه الأفكار يجعل من الممكن إيجاد الواقعيين السياسيين، في العديد من المفاهيم السياسية المذكورة سابقاً. وإننا نجد في التصنيف المعتمد على وجهات النظر السياسية العسكرية، إن هؤلاء مشمولون في الفئات كافة باستثناء **مدرستي (التهدئة النووية)** و **(التهدئة المتكاملة)**. **أما في التقسيم المزدوج**، وفقاً للقيم السياسية الأساسية، فإن العلماء يقسمون إلى مؤيدين لفكرة (**كون الحرب أداة طبيعية**) حيث ينتمي الواقعيون السياسيون بشكل طبيعي إلى الفئة الأخيرة، انسجاماً مع المبدأ الواقعي.

٢ ــ الحرب استمرار للسياسة

إن العملية المؤدية لاتخاذ القرار، حول الدخول في الحرب، هي إحدى أهم مشكلات دراسة طبيعية الحرب، لأنها تتعلق باللحظة الحاسمة التي يقرر فيها صانعو السياسة تبديل الوسائل، التي يعملون بها لتحقيق أهدافهم، من وسائل سلمية إلى وسائل عنف، أي اللحظة التي تولد فيها الحرب.

ويتساءل القارىء، **هل اتخاذ القرار بالحرب عمل سياسي واع؟** يقول المنظرون الذين يتعاملون مع الحرب، إنها قتال من أجل تحقيق أهداف سياسية، ويجيبون عن هذا السؤال بالإيجاب. ذلك أنه إذا كانت الحرب استمراراً للسياسة بوسائل أخرى، فإن الدول لا تلجأ للحرب إلا عندما تعتقد، مع أخذ كافة النواحي بعين الاعتبار، أن هذه الحرب تظل الطريقة الأكثر فعالية في إنجاز الهدف، وأن هنالك عدة عوامل تستطيع أن تؤثر على القرار النهائي، وبالتالي فهي تؤخذ كحلقة أخيرة في السلسلة الكاملة للنشاط

السياسي الذي يسبق الحرب. ويتمسك الواقعيون السياسيون بالقول إن الحرب هي الوسيلة الوحيدة للتنفيذ المستمر للسياسة الخارجية.

ويركز **الواقعيون السياسيون الغربيون** على الأسباب السياسية ذات **الطابع الفوري جداً للحرب**، وبشكل خاص على عملية صنع القرار. ويمكن أن يفسر الاتجاه الذي أخذوا به بتطوير طرق جديدة، وخاصة **الطرق الكميّة** منها، التي تعتبر أكثر ملاءمة لتفحص العناصر الخاصة في عملية صنع القرار من الأسباب العميقة للحرب.

إن المسائل المركزية، المتصلة بعملية صنع القرار، والتي تهم المدرسة الواقعية هي:

- تعريف (**الموقف المتأزم**) وطبيعته وأصله.
- العوامل الأساسية التي تؤثر على القرار (كالتصورات المتعلقة بالتهديدات، والفرص التي يتمسك بها صانعو القرار، ومصادر معلوماتهم).
- التأثيرات المتبادلة بين الدوافع والاعتبارات المنطقية وغير المنطقية.
- البحث عن الخطوط البديلة للعمل (بدء مناقشات التفاوض، **اللجوء إلى الأمم المتحدة، إقامة حصار اقتصادي، إعلان الحرب.. إلخ**).
- الظروف الأكثر إسهاماً في التصعيد المتسلسل في الأزمة.
- القرارات المتعلقة بنتيجة المساومات بين مختلف الفعاليات البيروقراطية، التي تحاول، كل منها، أن تدافع عن مصالحها واعتباراتها.
- دور الأشخاص المسؤولين في عملية صنع القرار.

وهكذا ينظر الواقعيون إلى الحرب، في التفسير الكلاسيكي، كاستمرار **لسياسة طويلة الأمد**. ويفترضون أن الوسائل السياسية لا تكتفي في بعض الحالات لإنجاز الأهداف السياسية الهامة، وأن استخدام العنف المسلح يكون ضرورياً ومخططاً بشكل مدبَّر ومحضَّر جيداً قبل أن تنشب الحرب فعلاً. وإن الوسائل الدبلوماسية، والاقتصادية، والعسكرية، والدعائية كافة... إلخ تخدم تحضيرات الحرب.

ولعل نشوب الحرب العالمية الثانية، كنتيجة لسياسة ألمانيا النازية، يعتبر مثالاً صحيحاً حول ذلك.

ولكن القرار يتخذ، عادة، خلال وقت قصير قبل نشوب الحرب. وهو يعتمد على عدة عوامل، بعضها فريد في نوعه، والآخر غير متوقع، ولكنها تتصل، غالباً، بشكل غير مباشر بالخط السياسي العام، والاعتبارات الاستراتيجية للدولة.

وقرار الحرب هو عبارة عن قرار من بدائل أخرى. حيث يعتمد قرار الحرب على **الموارد الفعلية** التي يمكن تعبئتها للحرب، وعلى **المعلومات** عن هذه الموارد التي تصل إلى صانعي القرار. وقد يحاول، هؤلاء أن يحلِّلوا بعقلانية: المخاطرات، والتكاليف، والفوائد لكل بديل يبدو أكثر واقعية. وفي هذه العملية لن تتأثر وجهات نظر صانعي القرار فقط بالتصورات حول المصالح الوطنية، ومصالح الجماعات، والقوات المسلحة، وإنما أيضاً بالعوامل النفسية، والنزوات غير العقلانية، الاندفاعات العاطفية. وهكذا، فإنه توجد، بكلمات أخرى، **دينامية اجتماعية سياسية لعملية صنع القرار**.

٣ ــ الحاجة لإعادة تفحُّص

لقد قاد تطور تقنية الأسحلة في العصر النووي، العلماء الغربيين إلى دراسة الأوضاع، التي يمكن أن يوضع فيها التفسير التقليدي لكلمة (**استمرار**) موضع تساؤل.

ويكمن أساس هذا الموضوع في ملاحظتين اثنتين:

- ــ **القوة التدميرية الهائلة للأسلحة النووية الحرارية**، التي هي من الضخامة بحيث لا يمكن تحقيق أية مكاسب بناءة من استخدامها.
- ــ **السرعة، التي يمكن بها تسديد الضربة النووية**، حيث ازدادت، إلى حدّ كبير، بحيث أصبح الوقت المتوفر للتفكير في الحرب النووية، في الخطوات أو الخطوات المضادة الواجب اتخاذها، قليلاً جداً. فالدمار يأتي بسرعة.

وهكذا، فإن وضعاً تتجمع فيه كل هذه الخصائص، اعتباراً من المقامرة بحياة شعب، إلى عدم توفر الوقت للتشاور حول ما يجب، أو ما لا يجب اتخاذه، قد يجعل من الصعب أن ننظر إلى القرارات المتخذة من قبل قادة دولة ما، كأعمال واعية تهدف إلى تحقيق أهداف سياسية محددة. وهذا يعني، بكلمات أخرى، أن **الحرب ليست دوماً استمراراً للسياسة**.

ـــ الحرب غير المقصودة

يمكن، عموماً، أن تحدث **أوضاع ومواقف تصبح الحرب فيها حتمية** (لا يمكن تفاديها)، حتى ولو لم يكن أحد من المشتركين يقصدها. ففي هذه الأحوال يمكن لبعض العوامل الاجتماعية النفسية: كانعدام الثقة، والعدائية بين الدول والشعوب.. إلخ، أن تجعل هجوم العدو أكثر تصعيداً، الأمر الذي يضيف أشياء أخرى إلى مخاطر الحرب.

إن (**سياسة الشجاعة المتطرفة**)، التي يعزوها بعض العلماء إلى القوى العظمى يمكن أن تزيد في المخاطرة. ويؤكد بيرت رولينغ PERT ROLING أن الحروب الناجمة عن قرارات خاطئة، وعاطفية، وغير عقلانية، تشكل في الوقت الحاضر الخطر الرئيسي، بينما لا يزال احتمال الحروب بالمعنى الكلاوزفيتزي قليلاً. وهنا تستخدم التعابير الاصطلاحية التالية: **كالحرب غير المقصودة**، أو **الحرب غير المرغوب فيها**، أو **الحرب المرتكبة خطأً**.

ـــ الحرب الوقائية والاستباقية

إن الحربين الوقائية والاستباقية هما احتمال آخر ذو طابع مختلف إلى حد ما. وقد افترض عدد من العلماء أن هذا النوع من الحروب يمكن أن يكون **منطقياً**، إن كان على الصعيد التقليدي، أو على الصعيد النووي، آخذين بعين الاعتبار حجم المقامرة، الذي يرافق الحرب النووية، عندما يعمد الطرف الأول إلى إطلاق **هموم** (**مؤثر وفعال**) ضد الطرف الآخر، معتقداً باحتمال لجوء هذا الطرف إلى سبقه في الهجوم. وإن مثل هذه الحروب تعتبر من الحروب المقصودة ما دامت تسعى لتحقيق أهداف دفاعية. وقد عُرِف نوعان من هذه الحروب: **الحرب الاستباقية** PREEMPTIVE WAR، والحرب الوقائية PREVENTIVE WAR، حيث يشير النوع الأول إلى الأعمال العدائية، التي تبدأ في ضوء القناعة بأن هجوم العدو متوقع بشكل حتمي، ويعتمد النوع الثاني على الافتراض بأن العدو سيبدأ الحرب في المستقبل القريب، وأنها ستكون ملائمة جداً للطرف الذي يباشر العمليات الحربية.

الاستمرار بوسائل أخرى

ـــ العنف المسلح والمنظم

يكون استخدام العنف المسلح مقبولاً، بشكل عام، كأحد السمات المميزة

للحرب ، وكوسيلة لتحقيق أهدافها . أما السمة الثانية فهي الطابع المنظم للمعركة ، الذي يؤكد على الصفة الاجتماعية للحرب ، والتي تميزها عن القتال في عالم الحيوان . وقد بدأ الرجال يخوضون الحرب ، للمرة الأولى ، عندما ارتفع مستوى حياتهم الاجتماعية إلى المستوى الذي استطاعوا فيه خلق تنظيم في تقسيم المهام ووضع خطة عامة .

ـــ استخدام الوسائل غير العسكرية

يوافق كل العلماء على أن الوسائل غير العسكرية تستخدم أيضاً خلال الحرب ، الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان ، أحياناً ، أن نحدد متى تبدأ الحرب ، وفقاً لمبدأ كلاوزفيتز (٢٣) .

ويشير بعض العلماء إلى أنه ما دامت الحروب الشاملة ، ذات الجهود غير المحدودة ، غير واردة في العصر النووي ، **فإن دور الوسائل غير العسكرية في الحرب قد ازدادت بشكل كبير ، بينما ضعف دور الوسائل العسكرية .**

وإن النظريات ، التي تقلل من دور القتال المسلح في الحرب ، يمكن ملاحظتها في استراتيجية الاقتراب غير المباشر ، المعروفة جيداً ، والتي قدمها المنظر العسكري البارز هارت ، والذي يرى أنه في الفترة الأولى من الحرب ، وقبل نشوب أية معركة حاسمة ، يتوجب على هذه الاستراتيجية أن تحدث خللاً في توازن العدو العسكري ، والسياسي ، والنفسي ، عبر ممارسة ضغوط غير مباشرة عن طريق سلسلة كاملة من التحركات العسكرية والدبلوماسية . وبالتالي تتم تهيئة الشروط اللازمة لضربة حاسمة . وهنا تتضمن الفكرة أن **القتال ليس الطريقة الوحيدة للحرب** . وثمة تصور بأن العدو سوف يستسلم للشروط دون أية معركة حاسمة .

وقد ظهر في كتابات حديثة ، أن العالم ينتقل من عصر سيطر عليه الاستخدام القتالي (المكشوف) للقوات العسكرية ، بهدف تحقيق النصر في المعارك ، **إلى عصر تسيطر فيه المناورة والحيلة** ، كلما كان ذلك ممكناً ، **مع تجنب القتال المباشر** .

---

(٢٣) انظر كتاب Stagnar, 1966 ص ٤٥ ـــ ٤٦ ، وكتاب Withey Katz ١٩٦٥ ، ص ٦٤ ـــ ٨٨ .

ج ــ السياسة وقيادة الحرب

١ ـــ تأثير السياسة على الحرب

ــ الأهداف الاستراتيجية

إن الاعتبارات السياسية، بالنسبة للذين تبنوا فرضية أن الحرب هي استمرار للسياسة، ذات أهمية رئيسية في قيادة الحرب. ذلك أن الحرب تخاض لتحقيق أهداف سياسية، وبالتالي فإن أول عمل يؤخذ، في أية حرب، وهو تحديد هذه الأهداف، يكون عملاً سياسياً. ومن هنا نرى **أن السياسة تحدد المخطط التمهيدي للاستراتيجية العسكرية الواجب تطبيقها**، أي، الأهداف الاستراتيجية للحرب، والطرق الرئيسية التي ستستخدم فيها لتحقيق هذه الأهداف، وحجم القوات المسلحة وتسليحها.. إلخ. كذلك يتخذ القرار حول كون الحرب ستكون **شاملة**، أو **محدودة**، **طويلة**، أم **قصيرة**، **هجومية**، أم **دفاعية**، وهل ستنفذ **بضربة مدمرة واحدة أم بضربات متلاحقة**؟ وفي هذه الحالة **أين**، **وكيف**؟ **حيث تعتمد هذه القرارات على الأهداف السياسية**.

وقد ازداد التأثير الكبير للسياسة على انتقاء الاستراتيجية المناسبة في العصر النووي. فمن ناحية نرى أن الصراع **بين الكتلتين العالميتين المتعادلتين هي القضية المركزية**. وهنا، لا تشكل الاستراتيجية العسكرية سوى جزء واحد من نشاط سياسي منسق. كما أن **الحرب**، من ناحية أخرى، أصبحت أداة مجازفة أكثر من السابق، لذا فإن قرار إعلانها، وتحديد أهدافها، أصبحا عملين في غاية الأهمية، ويجب أن ينفذا على أساس تقويم دقيق للوضع السياسي العالمي. وهكذا نجد أن المنظور العسكري الاستراتيجي أصبح ضيقاً بشكل خطير جداً.

وفي العصر النووي، أصبحت الحرب تتطلب التزاماً كاملاً من المجتمع، وبشكل أكثر حدة من الماضي. وباستخدام الهجوم النووي يمكن إحداث تدمير هائل خلال زمن قصير جداً. ونظراً لهذا الخطر فسيكون من الضروري أن تقاد النشاطات العسكرية بحذر كبير، وفي ظل سيطرة عسكرية وسياسية دقيقة للغاية.

ــ الأهداف العسكرية

وفقاً للتعريف التقليدي، **فإن الهدف العسكري للحرب هو النصر**، الذي

يستطيع مالكه أن **يفرض إرادته على المهزوم**، الذي عليه أن يلبي الطلبات السياسية للمنتصر.

إن النصر في **الحرب الشاملة** يعني استسلام العدوّ الكامل، وتلبية شروط المنتصر كافة، أما في **الحرب المحدودة** فإن النصر يتحدد بتحقيق بعض المكاسب المحدودة، كالاستيلاء على بعض المناطق الحدودية.

وفي المجال العسكري يعني النصر إيقاع حجم من التدمير بالعدو عبر التفوق عليه بالقوة العسكرية، الأمر الذي يجعل العدو يخضع لإرادة خصمه. وهكذا نرى أن مؤشر هزيمة العدو هو مؤشر نسبي، حيث قد يعني تدمير العدو كلياً ونزع سلاحه، أو قد يعني أن العدو تكبد خسائر استراتيجية أكثر من المنتصر بحيث وفّر للأخير مزيداً من التفوق النسبي.

ولا يمكن استخدام هذا المؤشر التقليدي للنصر في العصر النووي، ذلك أنه يستحيل تحقيق النصر المطلق عبر الحرب الشاملة (إلا في الحالات النظرية فقط)، لأن كلاً من الرابح والخاسر سوف يتكبدان خسائر تزيد أكثر عن أية مكاسب ممكنة.

ـ السيطرة السياسية على العمليات العسكرية

إن المظهر الرئيسي الثاني لسيادة السياسة على قيادة الحرب أهمل كثيراً في التحليلات التقليدية للحرب. وقد أصبح اليوم ذا أهمية حيوية في عصرنا النووي. وقد دققت مسألتان، هما: **تطوير الاستراتيجيات العسكرية الحساسة بالسيطرة السياسية، ودراسة العوامل التي تعيق أو تسهل السيطرة السياسية.**

ويجادل العلماء، في موضوع السيطرة السياسية على قيادة الحرب في العصر النووي، بأن الرد على هجوم صاروخي نووي (نشيط) يجعل الحرب تخرج بسرعة من قيود السيطرة.

إن **استراتيجية (الرد المرن)**، التي تبنتها رسمياً الولايات المتحدة الأميركية في عهد ماكنامارا، مصممة لتأمين السيطرة السياسية على استخدام القوات المسلحة في كافة أنواع الحروب. وترى أن فوائد هذه الاستراتيجية توفر **الوقت اللازم للتشاور واختيار**

الخطوات العسكرية، كما تؤكد على ضمان سيطرة **القادة السياسيين بشكل دائم**. وأعطت بذلك أفضلية قصوى لبناء منشآت قيادية تسهل أعمال القيادة والسيطرة والاتصال التي تؤمن للقادة السياسيين وصول المعلومات عن الاتجاه الذي تنحوه الأعمال القتالية العدائية، وتسمح لهم بقيادة القوات.

وقد أشار عديد من العلماء العسكريين إلى أنه، بالإضافة إلى ضرورة مراعاة مبدأ السيطرة السياسية على العمليات العسكرية، فإن مبدأ آخر يجب أن يحافظ عليه، هو أن على **مثل هذه السيطرة أن لا تعبث بجوهر الحرب**، وألاّ تعمل كي تجعل النصر بعيد المنال. وبهذا يمكن تأمين التعاون الصحيح بين القيادات السياسية والعسكرية.

٢ ــ تأثير الحرب على السياسة

ــ في أثناء السلم

إن العلاقة بين السلم والحرب لا تسير في اتجاه واحد فقط، ذلك أن الأعمال الحربية تمارس أيضاً تأثيراً على السياسة. ذلك أنه يجب على القادة السياسيين أن يأخذوا بعين الاعتبار خطر احتمال تورطهم في الحرب، وأن يكون حجم التورط في مستوى المقدرة العسكرية لقواتهم المسلحة. فقد قال كلاوزفيتز: «**إنه بالرغم من أن الحرب تخاض لتحقيق أهداف سياسية، فإن هذه الأهداف يجب بدورها أن توضع بما يتلاءم مع الوسائط العسكرية المتوفرة**».

ــ في أثناء الحرب

ما إن تنشب الحرب فعلاً، حتى تصبح القضايا العسكرية ذات أهمية كبيرة جداً، كما يمكن في بعض الحالات، أن تصبح صاحبة اليد العليا بالنسبة للقضايا الأخرى كافة. ومن ناحية أخرى، فإن مجرى الحرب قد يجبر المتحاربين على إيضاح أهدافهم السياسية، وخاصة إذا كانت هذه الأهداف غير واضحة منذ البداية.

وإذا أخذنا مثالاً حديثاً على ذلك، فإننا نجد أن العديد من **نقاد التدخل الأميركي في فيتنام**، كانوا قد أكدوا على أن الولايات المتحدة أُرغِمَتْ على تغيير أهدافها لتسمح بمسيرة غير متوقعة لأحداث تلك الحرب. كما يرى عدد من الذين حللوا السياسة

الأميركية في الحرب العالمية الثانية أن **الاستسلام غير المشروط كان الهدف السياسي الرئيسي . ولم يكن هذا الهدف قابلاً للدفاع عنه بلغة الواقعية السياسية ما دام قد أغلق الباب على أية تسوية ، ولم يترك للألمان واليابانيين أي خيار سوى القتال . وإن هذا الهدف قد تجاهل كلياً موضوع التصور السياسي لما سيكون عليه الوضع بعد الحرب ، الأمر الذي سمح للاتحاد السوفييتي أن يحقق مكاسب كبيرة**[٢٤] .

وقد توصل العديد من العلماء إلى استنتاج أن **الحرب أصبحت الآن أداة فجّة** لتحقيق الأغراض السياسية . وأن العنف والسمة التدميرية للحرب الحديثة يثيران سلسلة من النتائج التي لا يمكن السيطرة عليها ، أو توقّعها بشكل كامل . ومن الناحية العملية ، فإن خضوع بعض الاعتبارات السياسية للمتطلبات العسكرية يمكن أن يكون ضرورياً لتجنب الهزيمة .

ــ تأثير الحروب الصغيرة على السياسة

نظراً لتورط عدة قوى غربية في حروب صغيرة ، وفي مناسبات مختلفة بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد تولد اهتمام خاص بين العلماء الغربيين بتأثير مثل هذه الحروب على السياسات الداخلية والخارجية . وأعير اهتمام أقل ، في هذا المجال للحروب الصغيرة الناجحة ، والتي أثبتت صحة الخيار في إنجاز أهداف سياسية قابلة للبقاء . وقد جرى التركيز في هذه الدراسات على أمثلة ورطت فيها القوى الغربية نفسها في حروب طويلة الأمد باهظة التكاليف ، والتي لم تستطع الخروج منها بشروط مقبولة إلا بصعوبات بالغة . الأمر الذي أدى إلى إعادة تقدير في العلاقات بين الدول ، إلى خفض الالتزامات العسكرية في الخارج ، واستبدال الدعم العسكري المباشر بمساعدات عسكرية ومالية للقوى المحلية ، وإلى إعادة تدقيق التحالفات بغية تشجيع البلدان الحليفة على الإسهام بقوة عسكرية أكبر ... إلخ .

٣ الحرب الداخلية استمرار للسياسة

كانت دراسة الحرب مقتصرة ، تقليدياً ، على الصراع بين القوى ذات السيادة ،

---

(٢٤) اقرأ كتاب Hessler, 1949 ص ١٥٨ ــ ١٦٠ .

وبالتالي فقد تجاهلت الثورات، والصراعات الأخرى، التي ضمت مقاتلين ليس لهم طابع السيادة. أما التقليد الليبرالي (التحرري) فقد وضع مفهوم السياسة والحرب في منظور أكثر اتساعاً، بإظهاره أن أساس السلطة السياسية هي من طبيعة العلاقات الإجتماعية للإنسان، وأنه يمكن، من حيث المبدأ، أن تكون هذه السلطة موضع تساؤل أي مواطن، وبالتالي فإنه يمكن إسقاط هذه السلطة من قبل أكثرية المواطنين. وقد تبين أن الصراعات الداخلية التي تحدث بين الشعب والسلطة لا تقل في أهدافها السياسية ووسائل العنف المستخدمة فيها عن الحروب التقليدية.

ومنذ الحرب العالمية الثانية أعير اهتمام علمي كبير لدراسة الصراعات المسلحة الداخلية، كنوع من الحروب. وكانت إحدى نتائج كثرة الدراسات والتحليلات أن ظهرت عدة تعاريف وتصانيف لها. وقد شملت التعابير التي استخدمها العلماء الأميركيون: الحرب الداخلية INTERNAL WAR، الحرب الدولية (بين الدول) INTERSTATE WAR، الحرب الأهلية DOMESTIC WAR، حرب العصابات GUERRILLA WARFARE، والحرب داخل المجتمع INTERSOCIAL WAR، والحرب التخريبية SUBVERSIVE WAR، والحرب الثورية REVOLUTIONARY WAR والحرب المحدودة المحلية SUBLIMITED WAR، والحروب غير النظامية GUERRILLA WARFARE، وحرب الأنصار PARTISAN WAR. وأضاف لها البريطانيون والفرنسيون تعابير: الحروب الصغيرة، وحروب التطهير BRUSH FIRE WARS، بينما أضاف الألمان تعبير الحروب الخفية CONCEALED WARS.

وهذا العدد الكبير من التعابير يعكس التنوع الواسع في المفاهيم، التي تؤكد على الجوهر الإجتماعي السياسي لمثل هذه الحروب.

ويبدو أن مفهوم الحرب الداخلية لاقى قبولاً في أكثر الدراسات الحديثة، ولكن عدداً متزايداً من الدراسات أطلقت عليها تسمية الحروب الأهلية. وهذا المفهوم يماثل، عموماً، المفهوم المستخدم في النظريات السوفييتية. وكذلك تعبير الحروب الثورية.

أ ـ الجانب العسكري

إن الطبيعة السياسية للحروب الداخلية لا يمكن اختصارها في معادلة عامة،

ولكن الأهداف السياسية الرئيسية للحروب الخاصة يمكن أن تحدد بسهولة نسبية . وغالباً ما يكون تحديد السمات العسكرية لهذه الحروب أكثر صعوبة ، حيث لا تنفذ وتقاد حربان داخليتان بالاستراتيجية نفسها . وما دامت المفاجأة تشكل السلاح الرئيسي للمتمردين . وبما أن هؤلاء هم عموماً أقل تجهيزاً وتدريباً من الناحية العسكرية ، فإنهم يملكون عادة دافعاً كبيراً للتجديد والابتكار . وكنتيجة لذلك ، فإن أغلب الحروب الداخلية هي ، من وجهة النظر العسكرية ، مزيج من القديم والحديث .

ب ــ أنواع العنف المسلح الداخلي

يمكن أن نرى أربعة أنواع رئيسية استخدمت فيها القوة المسلحة ، تاريخياً ، في الحروب الداخلية ، في القرن الحالي :

١ ــ المتمردون يحصلون على دعم قسم من القوات المسلحة الموجودة (عسكرية ، شرطة ، قوى أمن أخرى) ويحتلون مكاتب الحكومة عبر انقلاب عسكري .

ويمكن أن تختلف الانقلابات العسكرية من حيث الشدة حسب حجم الدعم الشعبي الذي تتلقاه ، وهي بالتالي تتدرج بين (**ثورات القصر**) ، والأعمال الاجتماعية السياسية التي تدعمها جماهير الشعب . وهكذا ، اعتبرت **ثورة أكتوبر** ، من قبل بعض الباحثين الغربيين ، انقلاباً مدعوماً بالحركة العمالية في كل من بيتر بورغ (بطرسبرج) وموسكو . ويمكن أن تعتبر **الثورة البرتغالية** ، في عام ١٩٧٤ ، مثالاً حديثاً عن نوع آخر من الانقلابات .

٢ ــ المتمردون يبنون قوة مسلحة خاصة بهم ، ويقومون بانتفاضة مسلحة لدحر القوات الحكومية ، كما حدث في **كوبا** مثلاً .

٣ ــ المتمردون يعتمدون على القوة العسكرية لقطعاتهم الخاصة ، غير النظامية ، ولكنهم يتحاشون الصدامات الكبيرة مع القوات الحكومية ، مستخدمين عوضاً عن هذه الصدامات ، تكتيك الأنصار ، أو حرب العصابات (الهجوم والانتشار المتفرق من جديد) ، وتكتيك حرب الاستنزاف الطويلة الأمد ، كما حصل في **الصين** مثلاً .

٤ ــ اتباع أسلوب (**الإرهاب**) ، وهو التكتيك الرابع . وبرغم كونه وسيلة غير

كافية لإزاحة الحكومة القائمة، فإنه يستخدم في مرحلة أولية، أو انتقالية، من الحرب الداخلية (كما يجري في **ايرلندة** حالياً).

ج ــ حرب الجماعات الثورية REVOLUTIONARY GUERRILLA WAR

من المعروف أن حرب الجماعات الثورية تتميز عن الحرب بين الدول، ليس في الأهداف السياسية فقط وإنما من حيث قيادة الأعمال القتالية أيضاً. ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى عدم التساوي الأوَّلي، وإلى حد بعيد، في الموارد المؤمنة للمقاتلين. فالقوات الحكومية تملك تفوقاً كبيراً في الموجودات، والموارد العسكرية، والاقتصادية، والقدرات السياسية، أما الطرف الثوري فيعتمد على تفوقه بأشياء أخرى كالإيديولوجية، والأمل في الحصول على دعم الجماهير الساخطة، حيث يمكن ترجمة هذا الدعم إلى موجودات مادية أيضاً أكثر أهمية مما لدى الطرف الآخر.

ونظراً لعدم وجود التفوق العسكري لدى الجماعات الثورية، فإنهم يتحركون بمجموعات صغيرة، ويتحاشون المعارك الكبيرة. أما استراتيجيتهم فتتمثل بتنفيذ ضربات مدمرة خاطفة، ثم الانسحاب بسرعة إلى الريف. وبالمقارنة مع استراتيجية الأشكال التقليدية للقتال، التي تهدف إلى تدمير قوات الخصم بالهجوم المباشر من الخارج، فإن الافتراض الأساسي لاستراتيجية حرب الجماعات الثورية هو القدرة على قتال القوات المسلحة المعادية وتدميرها، بهجمات من الداخل. وهكذا يتم التأكيد على الطابع الطويل الأمد للصراع، وعلى تحويل الصراع إلى حرب استنزاف.

٤ الحرب نوع من الصراع

حاول عدد من علماء الاجتماع، بغية زيادة تفهمهم لطبيعة الحرب، والبحث عن إمكانات المحافظة على السلام، أن يربطوا الحرب بأنواع أخرى من النزاعات الاجتماعية، وأن يعملوا على إيجاد جذور مماثلة، أو ملامح أخرى، عن طريق تفحص العملية المؤدية إلى نشوب الحرب، وخاصة اتخاذ القرار بشن الحرب. وبالرغم من أن أغلب هؤلاء العلماء افترضوا أن عملية الذهاب إلى الحرب هي عمل سياسي بصورة رئيسية، فإنهم حاولوا ــ عبر معالجتهم الحرب كنوع من الصراع ــ أن يقرروا كيف تؤثر الخصائص الديناميكية للنظام الاجتماعي، والعلاقة المتبادلة بين العوامل الاقتصادية، والإيديولوجية، والثقافية،

والنفسية ، وغيرها . وقد حاول بعض آخر منهم أن يطور نظرية عامة حول الصراع ، حيث لا تزال هذه النظرية ، عموماً ، في مرحلة مبكرة من التطور .

وقد عرف بعضهم الصراع بالتعريف الذي يبدو نموذجياً : « **إن الصراع يعود إلى الظرف الذي تعيش فيه إحدى الجماعات البشرية المحددة ـــ سواء أكانت قبلية ، أو لغوية ، أو ثقافية ، أو دينية ، أو عرقية ، أو إجتماعية إقتصادية ، أو سياسية ، أو غير ذلك ـــ بمعارضة واعية ضد جماعة أخرى أو أكثر ، لأن هذه الجماعة ، أو الجماعات ، تهدف إلى تحقيق أهداف تبدو غير ملائمة لها** » .

وفي كافة الخطوط العامة للصراع ، نجد أن الحرب ينظر إليها كنهاية مطاف ، وليس ثمة طريق متفق عليها حول تصنيف الصراعات ، حيث أن مجمل الاقتراحات التي قدمت ، تعكس تنوع أساليب التفسيرات الأساسية لتفهم طبيعة الحرب .

ويتمثل أحد الحلول ، للتمييز بين الصراعات ، التي يستخدم فيها العنف المسلح ، وتلك التي لا تستخدم فيها هذا العنف . ويعتبر هذا الحل مماثلاً للوضع الذي أخذ به كلاوزفيتز ، والذي يقول بإمكانية حل المسائل السياسية ، سواء بوسائل سلمية أو بالحرب .

ـــ جذور الصراع

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن سائر الصراعات تشترك فيما بينها ببعض الخصائص الأساسية ، فإننا نجد أن الفكرة القائلة باحتمال كون هذه الصراعات ذات منشأ يتصل بالجذور الرئيسية نفسها ، ربما تكون صحيحة . ويعتقد بعضهم أنه وجد جذور الصراعات ، في حين أن آخرين قالوا بوجود جذور خاصة في كل مرحلة من التاريخ أدت إلى نشوب الصراع . ومهما يكن من أمر فلم يتم التوصل حتى الآن إلى شيء من الاجماع .

إن نقطة الانطلاق التي تبناها أصحاب كل هذه النظريات ، هي أن الصراع ينشأ من التقسيم الأساسي للمجتمع البشري إلى عدة مجتمعات . وبما أن كلاً من هذه المجتمعات يريد أن يعيش بظروف أفضل فلا بدَّ له من أن يؤسس هوية معينة له ويحافظ عليها ، ويطور الوسائل التي تؤدي إلى وصوله إلى تحقيق أهدافه وغاياته .

وفقاً (**للنظرية البنيوية للعدوان**) ، فإن سائر الأنظمة الاجتماعية تكون متعارضة طبقياً . وبالتالي فإن السلوك العدواني وصراعات العنف تنشأ من هذا التعارض . فيأخذ الصراع الطبقي في مستوى الفرد شكل الجريمة ، في حين يأخذ نظام الجماعات شكل الثورة ، وفي النظام الدولي شكل الحرب(٢٥) .

وثمة نظريات أخرى تعتمد على المفاهيم السياسية ، حيث تفترض نظرية العلاقات السائدة ، مثلاً ، أن **الانشقاق الرئيسي يولد صراعات العنف التي تنشأ من التوزع غير المتساوي للقوة ضمن نظام اجتماعي ما** . وفي أحيان أخرى تجد أن النموذج يدرس بالتفصيل مع إدخال عوامل إضافية أخرى غير القوة السياسية ، كالقيم الاقتصادية ، والاجتماعية (أي الغنى والمكانة) . وبما أن التوافق لن يوجد أبداً فإن الصراعات والحروب الهادفة إلى إعادة توزيعها لا بد وأن تظهر بشكل أو بآخر .

وفي النظام الدولي ، يرى بعض الباحثين أن استقرار النظام ، أي التكرار النسبي للحرب ، يمكن أن يكون وظيفة عدد من العناصر الرئيسية الفاعلة . وهنا يمكن أن تقدم نظريتين متناقضتين حول الاحتمال المستقبلي للحرب ، على ضوء تطور النظام الدولي الراهن . فوفقاً لإحداها ، فإن الانتقال من الوضع الذي نجم عن الحرب العالمية الثانية ، والمتمثل بسيطرة قوتين رئيسيتين على الساحة الدولية (**النظام ثنائي الأقطاب**) ، إلى وضع تسود فيه عدة قوى (**أي إلى نظام متعدد الأقطاب**) سيؤدي إلى إنقاص عدد الحروب . ويعتقد مؤيدو النظرية الثانية أن النظام الثنائي هو أكثر استقراراً من النظام المتعدد الأقطاب .

ويركز آخرون على أنه يوجد في النظام الدولي **أربعة أنواع من الأنظمة الاجتماعية هي : النظام المحافظ ، والنظام الفاشي ، والنظام الليبرالي ، والنظام الإشتراكي** . ويرون أنه يوجد للنظامين الأولين مصلحة في التوسع ، وميل لاستخدام القوة العسكرية لتحقيق ذلك ، بينما يعتبر النظام الليبرالي أن له أسباباً جيدة للتوسع الاقتصادي ، دون أن يكون مستعداً لاستخدام الوسائل العسكرية . أما **النظام الإشتراكي** فإنه ليس لديه ــ من الناحية النظرية على الأقل ــ أي حافز للتوسع والعدوان .

---

(٢٥) انظر Arendt, 1963 ، و Millis, 1961 .

ولإيجاز الرأي حول جذور الصراع، لا بد من ذكر النظريات، التي تربط بين تكرار ظاهرة الحرب والأمور الخاصة، بالتطور الثقافي لبعض الدول. وتركز الفرضية الرئيسية من هذه الفرضيات على أنه ما إن تصبح هذه الدول أكثر تطوراً، وتصبح بنيتها الداخلية أكثر تقدماً وتعقيداً، حتى تتولد الضغوط داخل المجتمع، وتشتد الحاجة **للتنافس** مع الدول الأخرى، الأمر الذي يقود إلى مواقف أكثر عدائية نحو هذه الدول.

وفي حالة أخرى، نجد أن ادعاءاً يقول أن (**الضغط الثقافي**) الكبير في الدول الصناعية، الذي لا يمكن تخفيفه عبر الاصطلاحات الاجتماعية والاقتصادية، يمارس بالتالي ضغطاً على السكان. لذا نجد أن الحرب في مثل هذه الدول تكون بمثابة صمّام أمان.

وأخيراً فإن تفسيراً ثالثاً يربط الحروب بالجمع بين النمو السكاني والتطور التقني، حيث يولِّد هذان العاملان الحاجة إلى موارد معينة، الأمر الذي يخلق ضغوطاً تتزايد بسرعة، من أجل التوسع في أراض جديدة، تزخر بالمواد الأولية والأسواق.

وفي هذا المجال، فإن منشأ الحروب بين الدول يكمن في الفروق التقنية، والاقتصادية، والبيئية.

٥ هل الحرب ظاهرة دائمة أم مؤقتة؟

يرتبط هذا السؤال عموماً بالعلاقات الاجتماعية للجنس البشري. والمحلل المقتنع بأن الحرب هي جزء من النظام الطبيعي يتخذ موقفاً واضحاً ومختلفاً، بشأن المظاهر الوصفية أو المقدّرة للحرب، عن العالم أو الباحث الذي ينظر إلى الحرب كظاهرة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها.

يمكن أن تقسم المسألة إلى سؤالين:

- هل كانت الحرب دوماً جزءاً من التاريخ الاجتماعي للإنسان، أو أنها ظهرت أولاً في مرحلة معينة؟
- بغض النظر عن زمن ظهورها لأول مرة، هل أصبحت الحرب سمة دائمة في الحياة الاجتماعية، أم أنها معرضة للاختفاء بشكل أو بآخر؟

ويوجد عملياً جوابان رئيسيان يمثلان الفكر الغربي :

١ ــ إن الحرب كانت دوماً وسوف تبقى سمة دائمة في الوجود الاجتماعي .
٢ ــ مهما كانت أسباب نشوء الحرب ، فإنها ستصبح ، في وقت ما ، قابلة للزوال .

فلنستعرض السؤالين المذكورين أعلاه وبعض الأجوبة عليهما .

أ ــ أصل الحرب

لا ينكر باحث أن الحرب بين جماعتين أو أكثر كانت دوماً جزءاً من التاريخ الإنساني . ولكن المسألة تطرح فيما إذا كان من الممكن أن نطلق تسمية الحرب على أي نوع من القتال .

ب ــ الديمومة التاريخية للحرب

لا يزال عدد كبير من الباحثينن في الحرب ينظرون إليها كظاهرة استمرت منذ بدأ الإنسان حياته على الأرض . وتوجد في الأدب العلمي الاجتماعي دراسات عامة لا تحصى ، تعكس افتراض أن الحرب ، كنتاج للبنى الاجتماعية ، كانت قد تعايشت دوماً مع الإنسان ، منذ أن وجد في جماعات منظمة : قبائل ، أو مدن أو دول أو امبراطوريات . ولدى مقارنة الحروب في المجتمعات البدائية أو العصرية ، يرى بعض الباحثين أن الفروق بينها هي أقل أهمية مما يبدو ، لأن الحروب كانت تؤدي الوظيفة ذاتها بصورة دائمة .

ج ــ مستقبل الحرب

تنقسم الآراء الأكثر انتشاراً حول استمرار الحرب كسمة تتصل بمصير الإنسان ، إلى مجموعتين : **مجموعة المتشائمين ، ومجموعة المتفائلين** .

١ ــ وجهات نظر المتشائمين

تبدو وجهات نظر الواقعية السياسية وكأنها تقتضي اعتقاداً بديمومة الحرب . ولكن الواقعيين السياسيين لا يوافقون على أن تكرار حدوث الحروب هو ضرورة ترتبط بقانون ما ، أو أنها خاصة لا مهرب منها في الطبيعة الإنسانية ، كفرد ، أو ككائن اجتماعي ، كما لا توجد أية أسباب تقنع بأن الحرب وجدت كجزء مكمل لعلاقات

الإنسان الاجتماعية. ويعتبرون أن «الحرب والتهديد بها ظاهرة مرضية في العلاقات الدولية»، لأنه لم توجد حتى الآن وسيلة تستطيع الدول بواسطتها أن تحقق مصالحها. ولهذا فقد كانت الحرب حتمية من أجل فعالية النظام الدولي، حيث أنها تؤمن وسيلة لحل الصراعات، وإقامة نوع من النظام المشروع. ونظراً لأنه لا تبدو في الأفق أية إمكانية حقيقية لطريقة بديلة لتنفيذ وظائفها الرئيسية، فإنه لا يحتمل أن تختفي الحروب الدولية والداخلية.

وإن ظهور الأسلحة النووية جعل القوى العظمى أقل رغبة في حل خلافاتها بسرعة، ولكن التهديد بالحرب استعاد أهمية كبرى كأداة للسياسة.

وباختصار ترى الواقعية السياسية، دون التأكيد الواضح على أبدية الحرب، أن **الحرب تشكل جزءاً غالباً من الأنظمة السياسية الراهنة**، سواء أكانت هذه الحرب بين الدول أو داخلية. وأن ما يمكن أن يؤمل به للمستقبل، ليس إلا بعض التحسينات في الأنظمة السياسية، التي ستؤدي إلى خفض وتيرة نشوب الحرب.

إن جدول توازن الإجراءات والتطورات، الذي كان يؤمل أنه سيخفض وتيرة الحرب بين الدول، لا يزال غير مشجع. وقد أثبت كلٌّ من إجراءي **نزع السلاح، وإضفاء الصفة غير الشرعية على الحرب، عدم جدواهما**. ويقول الواقعيون السياسيون الغربيون إن الاعتقاد بأن الدول الديمقراطية (أو الإشتراكية المعتمدة على القيم السياسية) هي محبة للسلام قطعاً، وأن الطريق إلى هذا السلام يكمن في التغييرات الداخلية، قد ثبت خطؤه أيضاً. ويعتبر كثيرٌ من العلماء أن التحول في النظام الدولي غير ممكن، ما لم يرافقه تغير في الطبيعة الإنسانية.

٢ ــ وجهات نظر المتفائلين

إن الفرق بين نظرات المتشائمين والمتفائلين هو غالباً مسألة اعتقاد، أو موقف أكثر مما هو منظور نظري. وهكذا فإن أغلب المتفائلين يبنون رأيهم على ما يعتبرونه تغيراً جذرياً حدث في الدور الذي تلعبه الحرب بين الدول في الحياة الاجتماعية للإنسان. ففي وقت من الأوقات، كانت الحرب عملاً عقلانياً بلغة الاقتصاد السياسي، وبالتالي فإن فكرة القتال من أجل الانتصار لفكرة ما، كان الناس قد آمنوا بها، تنتمي إلى الفضائل

الأخلاقية. وقد عكست تقنية التدمير الكبير بشكل كلي تماماً هذه الأفكار، حيث أصبحت تكاليف الحروب الدولية تتجاوز أية فائدة يمكن التفكير بها. وبالمقابل فإن التصنيع ونموّ التجارة الدولية جعلا من الممكن زيادة العائدات المادية، ورفع مستوى المعيشة والرفاهية. وهكذا أصبح الاستيلاء على ما يملكه الآخرون عملاً مهملاً تجاوزه الزمن. وقد أكد ذلك مرة أخرى ظهورُ السلاح النووي، حيث **أصبح ينظر إلى الحرب النووية كأمر لا يمكن التفكير فيه**، كما أن **الحرب الباردة** أصبحت أيضاً أقل حدة، وتوقفت القوى الكبرى عن مشاحنات على مبادىء لا يمكن الاتفاق عليها.

وهناك مؤشر آخر على ذلك، هو **التعديل الذي حدث في أسطورة الدولة ــ الأمة**، باعتبارها حاملة مُثْلى لقضيتي الحرب والسلم. ولم تعد نوعية الدولة تقاس بقدرتها على تأمين مستوى عال من العيش لمواطنيها، عبر إخضاعها شعوباً أخرى، بل إن الوزن الأكبر أصبح يتصل بالجهود التي تبذلها الدولة من أجل أفضل استخدام للموارد الموجودة تحت تصرفها.

٣ ــ المثالية

إن الفرق في الإيمان، بين المتفائلين والمتشائمين، يمكن أن يلحظ أيضاً في **خط المثالية**، الذي هو أقرب إلى آراء الباحث المتفائل. وإذ يجد المتشائم النموذجي صعوبة في رؤية أية إمكانية لتحسينات كبرى، فإن المتفائل كان يدعم مخططاً ما لإصلاح العالم.

وفيما يلي بعض أمثلة من **آراء المثاليين المتفائلين**:

- يجب أن يطرح جانباً مبدأ سيادة الدول، وأن تُخلَق **دولة عالمية** ذات **حكومة عالمية**.
- يجب أن تدخل تحسينات كبرى على النظام الدولي الراهن. وتتضمن الاقتراحات: **نزعاً للسلاح، ونظاماً للأمن الجماعي، وتقوية لسلطة القانون الدولي، وإعادة توزيع الموارد العالمية، وزيادة وسائل الاتصال والمواصلات بين الدول**.. إلخ.
- يجب أن **تحسن البنية الداخلية** للدول، بغية إلغاء تأثير تلك الدول ذات الاهتمام بالحرب، وإبراز الجانب المحب للسلام في سائر الدول.

إن التمييز بين التشاؤم والتفاؤل، أو بين الواقعية والمثالية، هو وسيلة وصفية

مفيدة. ولكن الواقع ليس على هذه الصورة من الوضوح. وإن الآمال لا تستثني الشك، فأولئك الذين يؤكدون أن المهام الدولية التي كانت تنجز عبر التاريخ بالوسائل العسكرية، وأنه يمكن، وبل يجب أن تنجز بالوسائل غير العسكرية، يعلنون **أن الحرب الداخلية ربما ستبقى**، لأنه لا يمكن إلغاء احتمال استخدام العنف لحل الصراعات الداخلية. وكذلك فليست المثالية خالية من السياسة الواقعية، **وثمة متفائلون لا يستبعدون احتمال اللجوء إلى الحرب من أجل تغيير تقدمي.**

٦ تقويم الحرب

لقد استعرضنا فيما سبق التفسير اللاماركسي لطبيعة الحرب، بطريقة تم فيها تحليل الظاهرة العامة للحرب، سواء باعتبارها وسيلة لتحقيق بعض الأهداف السياسية، أو نوعاً من السلوك الذي يتميز باستخدام العنف المسلح، بطريقة منظمة، أو الاثنين معاً. وإن فهم طبيعة الحرب يمكن أيضاً أن يبرز أكثر في منظور ثالث، يتمثل بتقويم الحروب الخاصة، حسب نظام ما للقيم السياسية، والاجتماعية التاريخية، والأخلاقية.

وسنجد، في النقاش التالي، أن مفهوم طبيعة الحرب، الذي سيقتصر بدوره على ثلاث ملامح هي الأكثر التصاقاً بهدف هذه الدراسة، يمثل مقارنة أفكار الواقعية السياسية عن الحرب حسب وجهتي النظر السوفييتية، أو الماركسية ـــ اللينينية، والغربية.

ويمكن التعبير عن هذه العناصر الثلاثة بأسئلة ثلاثة، يمكن لأي باحث أن يثيرها عندما يحاول إيجاد خصائص حرب ما. وهي:

١ ـــ ما الملامح السياسية للحرب، ومَنِ المقاتلون؟ وما هي أهدافهم الفورية؟

إن الأجوبة عن هذا السؤال ستكون وصفية بشكل طبيعي، ولكن مجموعة من القيم الإنسانية ستجد طريقها إلى التعابير التي يلامس فيها المحلل إدراكه الحقيقة.

٢ ـــ ما الدور الذي تلعبه الحرب في تاريخ التقدم الاجتماعي للإنسان؟

ويمكن أن تتم الإجابة عن هذا السؤال، مع الإشارة إلى بعض المثل الاجتماعية السياسية.

٣ ـ **هل الحرب عادلة أم غير عادلة؟** وهنا يمكن أن تواجه الحرب بالمبادىء الأساسية للخير والشر.

وبكلمات أخرى، تشكل هذه الأسئلة الثلاثة بحثاً واحداً، بمستويات مختلفة من التجرد، في القيمة الاجتماعية السياسية التي تُعزى إلى حرب فعلية ما، أو إلى نوع ما من الحرب. أما الأسئلة الموضوعة، فيمكن أن يقال عنها أيضاً إنها انعكاسات للإيديولوجية السياسية السائدة.

وسوف نؤجل مناقشة هذه المسألة، حتى نواجه ونقارن التقديرات الغربية والشرقية بعضها مع بعضها الآخر.

أ ـ الخواص السياسية والاجتماعية التاريخية

١ ـ التقويم السياسي

كان التقويم السياسي للحروب في الولايات المتحدة ولا يزال مرتبطاً بشكل وثيق بالتقييم الواسع للموقف السياسي الذي وضعت بناء عليه السياسة الخارجية.

ففي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة، كان الصراع بين القوتين العظميين يحكم المنظور الأميركي، وبالتالي كانت سائر الصراعات المسلحة، الفعلية والمحتملة، تقوم في هذا السياق. وكنتيجة لذلك فقد نوقشت ثلاثة أنواع رئيسية من الحروب هي: **الحرب الشاملة بين القوتين العظميين وحلفائهما، والحرب المحلية المحدودة، والانتفاضات المضادة للاستعمار.**

ووفقاً للفرضيات التي اعتمدت عليها السياسة الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية، فإن التهديد الرئيسي للسلم العالمي يأتي من الاتحاد السوفييتي، الذي بدا وكأنه يريد فرض النظام الشيوعي على العالم. وكانت الولايات المتحدة تتصور أن مهمتها يجب أن تتضمن احتواءها الشيوعية عن طريق توحيد دول العالم الأخرى، التي أطلقت عليها أنها محبة للحرية، وأن تأخذ على عاتقها قيادة هذه الدول. وقد افترضت الولايات المتحدة أن حرباً شاملة محتملة سوف تقع بين القوتين العظميين، وأنها سوف تجري في المسرح الأوروبي، وأن الحرب في أوروبا لن تكون إلا توطئة للحرب الشاملة بين الدول الإشتراكية

والولايات المتحدة. وقد كان هذا التقييم هو الأساس النظري والسياسي لخلق حلف الأطلسي (الناتو).

ويقوِّم الأميركيون الملامح السياسية للحروب الصغيرة (المحدودة) التي تفجرت في أجزاء عديدة من العالم، بعد الحرب العالمية الثانية، بأن يضعوها في فئة واحدة أو فئتين: الحروب المضادة للاستعمار، أو الحروب المحلية بين الدول. وتدعي الولايات المتحدة أنها تصرفت بشكل حكيم، من حيث المبدأ، بالنسبة للحركات المضادة للاستعمار. ومهما يكن من أمر، فإن الطابع المعادي للغرب عموماً، والذي لازم معظم حروب التحرر الوطني، كان يعتبر خطراً بالنسبة للغرب، لأنه كان يرى في ذلك دفعاً لهذه الدول لصداقة الطرف الإشتراكي الآخر.

وقد حدث تغير في الخطوط العريضة للسياسة الخارجية تجاه الحروب الخاصة. وقد افترضت عقيدة دالاس (**الانتقام الشامل**) أن الولايات المتحدة لن تشترك مباشرة في كل الحروب، حتى لو اعتبرت هذه الحروب ذات أهمية خاصة بالنسبة لمصالحها القومية. وبعد ممارسات التدخل في فييتنام، أصبحت سياسة (**الرد المرن**)، السياسة التي تعتمد على التقدير السياسي الدقيق لكل حالة على انفراد، هي السياسة التي تمثل الخط السياسي الرسمي للولايات المتحدة.

أما في الدول الغربية الأخرى، فقد كان تقييم الحروب يعتمد على الأسلوب الأميركي نفسه، مع وجود خلاف بسيط في التأكيد على التهديد الذي تشكله الحروب الاستعمارية على المصالح الغربية، وخاصة الاقتصادية، والدعم المضاد للاستعمار الذي يقدم من قبل القوى الإشتراكية. وقد أعار المحللون الألمان الغربيون اهتماماً خاصاً، إلى احتمال كون الحرب في أوروبا الوسطى قد بدأت بشكل خفي، وبدعم نشيط من الدول الإشتراكية، كما اعتقد هؤلاء أن هذه **الحرب الخفية** لم تكن سوى مقدمة للحرب على نطاق عالمي.

٢ ـــ الخواص الاجتماعية التاريخية

بالمقارنة مع المعالجة الماركسية اللينينية للحرب، فإن الباحثين الغربيين يتساءلون عن الدور، الذي تلعبه الحرب في تاريخ التقدم الاجتماعي للإنسان. ويبدو أنه لا توجد

رغبة عامة بين هؤلاء الباحثين في أن يحاولوا عمداً أن يقيموا حرباً ما، حسب مثل أعلى للتقدم الاجتماعي. وبرغم ذلك فإنه توجد في معظم التحليلات الغربية عن الحرب افتراضات تشكل مفهوماً أساسياً وعاماً جداً عن التقدم الاجتماعي. ويؤخذ كأمر مسلَّم به، إنه إذا كان على القوى الغربية أن تتورط في حرب ما (ليست بالضرورة ضد البلدان الإشتراكية)، بالرغم من كون الهدف المباشر هو الدفاع عن مصالحها القومية، فإن هذا الهدف سيكون، في الوقت نفسه، المحافظة على السلام، أو الدفاع عن استقلال هذه الدول.

ب ـــ الخواص الأخلاقية

إن السؤال الذي يمكن أن يوجه، لدى تقدير أهمية بعض الحروب الخاصة، هو عما إذا كانت هذه الحروب عادلة، أم غير عادلة، وما علاقتها بمبادىء الأخلاق العامة. وتقليدياً، كانت أهداف الحرب تحدد طبيعتها الأخلاقية. وهناك ثلاثة أهداف تعتبر مسوِّغة[٢٦]، هي:

ـــ حماية البريء من الاعتداء الظالم.
ـــ استعادة الحقوق، التي أُنكِرت بشكل غير صحيح بالنسبة لصاحبها.
ـــ إعادة إنشاء نظام ضروري للوجود الإنساني الشريف.

وعلى أساس هذه الاعتبارات، فقد تم الإفصاح عن **خمسة آراء بديلة**، يمثل **اثنان منها** الحدَّين الأقصيين: أي إن سائر الحروب إما أن تكون **جيدة**، أو **سيئة**، بينما يمكن أن تكون الحروب حسب **الرأي الثالث** جيدة في بعض المراحل التاريخية، وسيئة في بعضها الآخر. أما **الرأي الرابع** فيتلخص بعدم وجود أي تقييم أخلاقي للحرب، مادامت الحروب نفسها لا تخضع للأحكام الأخلاقية. ويرى **الرأي الخامس** أن كل حرب لها تقييم خاص بها، يجب أن تؤخذ نتائجها وتقيم حسب إيجابياتها وسلبياتها. وكان هذا الرأي الأخير هو الذي أثار تعليقات وكتابات غنية حول نظرية الحرب الصحيحة.

ج ـــ النظرية التقليدية للحرب الصحيحة

لا بد لكي تعتبر الحرب عادلة، وخاصة من الناحية التقليدية، أن تكون

(٢٦) انظر رالف بوتر (الأخلاق: منطق الحرب). R. Potter, (The Moral: Logic of War) 1973.

أهدافها عادلة. والتسويغ المقبول هو عندما تكون موجهة للدفاع ضد العدوان.

والفكرة الثانية المطروحة، والتي استخدمت طويلاً لإعطاء الصبغة الأخلاقية للحرب، هي في صحة أسبابها. فمنذ الحروب الدينية في القرون الوسطى، مروراً بحروب نابليون ضد التعسف الملكي، إلى الحرب التي تعطي العرق المتفوق الحياة الأفضل، أو إلى تلك التي تعمل على تحرير العالم من الطغيان النازي، كان يتم اللجوء عموماً إلى المثل العليا الرفيعة التي تكمن وراء الأهداف السياسية. وكانت السمة الهامة لهذا النوع من التسويغ هو تقديم الحرب على أنها **صراع بين الخير والشر**. ونذكر على سبيل المثال، أن **الغربيين لم يكونوا يعتبرون أنه من الخطأ أن يهاجم الصليبيون الكفار المسلمين (!)**، وذلك لكون الأخيرين غير مسيحيين، ويعملون بموجب أخلاق غير مسيحية.

ولذلك فإن التقييم الأخلاقي للحروب متعلق بالمنظار الذي يرى منه كل طرف الطرف الآخر. فالغربيون يرون أن الحروب الصليبية كانت حروباً عادلة في سبيل وقف الكفر المستشري، في حين يرى العرب المسلمون رؤية مخالفة حيث كانوا يدافعون عن وطنهم ودينهم.

وهنالك مبادىء أخلاقية يمكن منها جعل الحرب عادلة نوعاً ما:

أ ـــ لا يفضل استخدام الوسائل العسكرية إلا عندما **يثبت** أن سائر الوسائل غير العسكرية ليست فعّالة.

ب ـــ يجب أن تكون هناك قناعة معقولة بأن الوسائل العسكرية سوف تربح الحرب فعلاً.

ج ـــ يجب أن تستخدم الوسائل والأساليب العسكرية **الضرورية فقط** لتحقيق أهداف الحرب. (**مبدأ الضرورة العسكرية**).

د ـــ يجب تأمين حماية غير العسكريين من العمليات العسكرية.

هـ ـــ يجب أن يحافظ على السيطرة الصارمة للأساليب المنتقاة لشن الحرب ..وقد أضيف هذا المبدأ للتأكد من مراعاة المبادىء الأربعة السابقة.

و ـــ وبما أنه كان من الصعب دوماً تسويغ أهوال الحرب، التي تقع بالرغم من مراعاة

المبـــادىء المذكــــورة أعـــلاه، فإن (مبـــدأ التـــأثير المزدوج) (PRINCIPLE OF THE DOUBLE EFFECRT) قد أضيف إلى ما سبق أيضاً، ويشير هذا المبدأ إلى أن التأثير الشرير، الذي قد ينجم عن الكفاح الهادف إلى عمل الخير المقصود، يمكن تحمله، إذا أمكن مواجهة ثلاثة شروط هي: أن الخير المقصود يجب أن يكون محدداً، وأن يكون الشر ذا تأثير جانبي، وأن يكون الخير المنجز أهم وأكبر بكثير من الشر الواقع.

وقد أخذت هذه المبادىء عموماً بعين الاعتبار نظراً لاحتوائها على القيم الإنسانية الواسعة، والمقبولة في سائر الإيديولوجيات. وقد تم أخذها في عدة اتفاقات دولية.

د ـــ الطبيعة الأخلاقية للحروب في العصر النووي

إن أخذ العامل الأخلاقي في الحروب بعين الاعتبار كان ينبع من كون أهداف هذه الحروب عادلة، الأمر الذي يقتضي من حيث المبدأ عدالة نوعية الوسائل المستخدمة. **وقد أدى اختراع الأسلحة الصاروخية النووية إلى خلق تشويش كلّي في العلاقة بين الأهداف والأساليب والنتائج.**

ذلك أن حجم الأسلحة النووية، التي يفترض أنها ستكون ضرورية، وسوف يسبب دماراً واسع النطاق. وأن عملية دفاع لمنع ذلك سوف ينفذها الخصم بالصواريخ النووية أيضاً. ونظراً لكون الأسلحة النووية منتشرة على مساحات واسعة في سائر أراضي الخصم، فإن النتيجة ستكون دماراً شاملاً. ومهما سعى الطرفان للتقليل من حجم القوة النووية المستخدمة فإن النتائج سوف تكون مذهلة ومرعبة. ولذلك أصبحت نتائج الحروب لا تتوافق مع الأهداف السياسية الموضوعة، ولذلك يمكن اعتبار الأهداف السياسية ذات قيمة مهملة تجاه النتائج الكارثية.

ويرى بعض الباحثين أن النظرية التقليدية عن الحرب العادلة يمكن أن تبقى في الوقت الحاضر مع شيء من التعديل. ويؤكدون أنه إذا كانت الحرب مدمرة جداً فيمكن أيضاً أن تكون عادلة أيضاً، ما دامت أهدافها ذات أهمية وقيمة كافيتين. والحرب الشاملة يصعب جداً الموافقة عليها على أساس أخلاقي، ولكن النقيض الأهم لها هو الخضوع الكلي للمعتدي، وهو أمر سيكون صعب الاستيعاب. ويرى مؤيدو النظرية

التقليدية عن الحرب العادلة أن تطوير الأسلحة النووية الاستراتيجية لا يؤثر إلا قليلاً على الحرب ككل. ويجب أن يحتفظ بالأسلحة الجديدة للمواقف المتطرفة فقط.

ويرى الواقعيون السياسيون أن الخوف من الأسلحة النووية قد انتشر على نطاق واسع، بحيث أصبح القادة الوطنيون يجدون صعوبة كبيرة في اكتساب دعم شعوبهم لاستخدام هذه الأسلحة. وهذا ما يؤدي إلى إضعاف القوة السياسية للدولة، الأمر الذي جعل **الواقعيين السياسيين يدينون الحرب الصاروخية النووية**. ولكن هذا لا يعني أن مكانة الحرب، كأداة طبيعية للسياسة قد تبدلت، بل إن الحروب الشاملة يجب أن يستعاض عنها بحروب محدودة، وأن على الدول أن تتبنى (**استراتيجية الردع**) لمنع الحرب النووية، حيث يؤمن ذلك درعاً يمكن أن تشن الحروب المحدودة في ظله بأمان أكثر.

وترى مجموعة أخرى من الباحثين من مدرسة الواقعية السياسية، أن أي تمييز، من الناحية الأخلاقية، بين الحرب التقليدية والحرب النووية، أو بين الحرب الشاملة والحرب المحدودة، لن يكون له أي معنى، **فلا توجد أسلحة أخلاقية وأسلحة غير أخلاقية**. وأن **العقلانية هي العامل الوحيد لتقييم العمل العسكري**. وبالنتيجة فإن هذه المجموعة تدعم أيضاً (**استراتيجية الردع**).

هـ ـ عدم أخلاقية الحرب

يرى أنصار السلام أن تطور التقنية الصاروخية النووية، الذي يقدم للإنسان إمكانية التدمير الكلي للعالم، يؤخذ باعتباره إثباتاً آخر على **السخف التام لفكرة الحرب عموماً**. فهم يناضلون من أجل الدفاع عن وجهات نظرهم على جبهتين، تتمثل الأولى بالتأكيد على ضرورة النظر إلى الحرب من منظور أخلاقي، والثانية بانتفاء سوء استخدام النقاشات الأخلاقية.

ويدافعون عن أن المشكلة الأخلاقية للاستراتيجية السياسية في زمننا الحاضر هي في التوفيق بين الإرادات المتعارضة، دون إخضاع إحداها للأخرى قسراً. وبما أن استخدام القوة المسلحة لتحقيق الأهداف السياسية أو غيرها ليس عادلاً، فإن الحرب نفسها ليست عادلة أيضاً.

٧ الحرب في المرحلة الصاروخية النووية

أعيد النظر في عدة مسائل تتصل بطبيعة الحرب في المرحلة النووية. وقد أسهمت البنية الجديدة للنظام الدولي، والصراع العالمي بين نظامين متعارضين، والتطور الثوري في التقنية العسكرية، في إحداث تغييرات جذرية في الطريقة التي أخذت تحل بها حالياً الصراعات الدولية والداخلية. وبالمقابل، فقد أصبحت بعض أنواع الحروب، وخاصة الحرب الشاملة، والحرب النووية الحرارية العالمية، غير محتملة. وبالتالي فإن أشكالاً جديدة من القوة العسكرية أصبحت تستخدم بشكل متعدد، كأداة للضغط السياسي، الأمر الذي يمكن أن نراه في الأهمية الكبرى المعطاة للتهديد باستخدام القوة.

في أعقاب هذه التطورات نشأت مسألتان تتعلقان بمفاهيم طبيعة الحرب، هي:

١ ــ هل لا تزال الحرب أداة ممكنة لتحقيق الأهداف السياسية؟

٢ ــ هل لا يزال التمييز بين زمن السلم وزمن الحرب، على أساس الوسائل المستخدمة لتحقيق الأهداف السياسية، واضحاً وذا معنى؟

أ ــ السلام الشبيه بالحرب

لنأخذ السؤال الثاني أولاً، فثمة وجهة نظر منتشرة على نطاق واسع، وهي أن الحدود بين السلم والحرب، كما تُعرَف تقليدياً، بدأت تصبح غير واضحة. وأن التعابير، مثل (الحرب الباردة) و (السلام الشبيه بالحرب) ابتُكِرت لتحيط بجوهر الوضع أو الموقف الجديدين. فمن ناحية، نجد أن الأهداف السياسية الأساسية للقوتين الرئيسيتين هي شاملة ومتصلبة، كتلك التي تطلب في الحرب. ومن ناحية ثانية نرى أن الطرق، التي تنفذ فيها السياسة في الموقف الجديد، تشبه تلك التي تستخدم في زمن الحرب، حيث يوجد في كليهما مزيج من الوسائل الدبلوماسية والعسكرية. وقد دفع هذا بعض الباحثين لأن ينظروا إلى العلاقات بين الدول، في (**مجال الصراع**) الذي يتراواح بين **التعايش السلمي**، مروراً **بالحرب المحدودة الصغيرة**، **والحروب المحدودة**، **والحرب النووية الحرارية**. وفي هذا المنظور يبقى الانقسام بسيطاً بين مفهومي السلم والحرب.

يشير بعض الباحثين إلى أنه توجد دوماً حرب تدور رحاها في مكان ما. ولهذا، لا بد من النظر إليها باعتبارها حالة عادية في الحياة الاجتماعية، بل ربما تكون أمراً عادياً

أكثر من السلم نفسه . ويعترف باحثون آخرون بأن الموقف بعيد جداً عن **السلم المثالي** ، الذي لا تقع فيه صراعات أو حروب ، ولكن بالرغم من القتال الذي يقع كل يوم تقريباً ، فإن الموقف هو نوع ما من السلم ، لأن الحرب العالمية ، التي تبدو دوماً وشيكة الوقوع ، لم تقع بعد ، وإن تنوع الأسماء التي اقترحت لوصف الحالة الجديدة ، والتي بينها (**السلم الشبيه بالحرب**) ، و (**حالة عدم الحرب**) ، و (**السلم السلبي**) ، و (**غياب الحرب**) ، و (**غياب الحرب الشاملة**) ، و (**السلم المحدود**) ، يجب أن ينظر إليها باعتبارها محاولة لإثبات وجود العالم على حافة الحرب .

يفضل العديد من العلماء السياسيين أن يعالجوا الحالة الراهنة للأحداث باعتبارها فئة جديدة ، أو شيئاً متوسطاً بين الحرب والسلم . وثمة اقتراح يدعوا إلى النظر إليها كأمر يمنع اللجوء إلى القوة . واقتراح آخر عن حالة عدم السلم المنظمة ، التي تأخذ بالجمع بين الاستخدام المتدرج للعنف ، لتحقيق أهداف سياسية لا علاقة لها بالحرية السياسية ، والتعاون بين الدول ، أو العدالة الاجتماعية .

ومن هذه التفسيرات الثلاثة لموقف ما بعد الحرب ، فإنه لا يوجد شك في أنه كان للتفسير الأقدم ، أي (**نظرية الحرب الباردة**) ، ولا يزال تأثير كبير على السياسة الخارجية للبلدان الغربية . وقد تطورت عبرها (**استراتيجية الردع**) لمنع نشوب (الحرب الحارّة) ، ثم نشأت مؤخراً (**استراتيجية إدارة الأزمات**) ، **باعتبارها وسيلة لحل الصراعات السياسية دون مواجهة عسكرية مكشوفة** .

ب ــ نظرية الحرب الباردة

يرى الباحثون الغربيون أن الصورة السياسية التي تم رسمها بموجب هذه النظرية هي « **أن الدول الشيوعية ، التي يقودها الاتحاد السوفييتي ، تميل إلى السيطرة على العالم ، وبالتالي فإنه يتعين على الغرب اتخاذ وضع دفاعي معد لحماية الديمقراطية ، والحرب ، والسلام ، من الدكتاتورية الشيوعية** » . ولكن الشيوعيين كانوا ينفذون ما عرف بالصراع الطويل الأمد ، أو الاستراتيجية غير المباشرة ، المؤلفة من سلسلة أعمال نضالية ، هدفها تحقيق أهداف سياسية خاصة ، في كافة مجالات النشاط الاجتماعي . لذا فإن الخطة العالمية الشاملة تهدف إلى إضعاف العدو بعدد كبير من الأعمال الصغيرة

المنفذة دورياً ، حتى يصبح الموقف ناضجاً ، لتدمير العدو بضربة حاسمة ، أو إجباره على الاستسلام دون هذه الضربة .

ووفقاً لوجهة نظر الاستراتيجيين السياسيين الغربيين ، فإن الموقف في نهاية الحرب العالمية الثانية كان جديداً في كل شيء ، فالهجوم الذي تبناه الشيوعيون ، قدم للغرب أنواعاً مختلفة من التحدي ، في حين كانت التقنية العسكرية تدخل المرحلة النووية ، فأصبحت الحاجة تدعو إلى استراتيجية جديدة للغرب ، فلم تلبث أن ظهرت **استراتيجية الردع** .

يتضمن المعنى العسكري لكلمة (**الردع**) : « **عدم تشجيع العدو على اتخاذ عمل عسكري** » ، وذلك بأن يُفرض عليه حجم من التكاليف والمغامرة يتجاوز ما يتوقعه من أرباح . أما في المجال السياسي، فقد وُسِّع هذا المفهوم ليعني « **عدم تشجيع طرف ثان على أن يفعل شيئاً عن طريق التهديد الخفي أو المكشوف ، باستخدام عقوبة ما إذا ما نفَّذ العمل الممنوع** » .

كانت **فكرة الردع** أحد أحجار الزاوية في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية وحلفائها ، خلال كل الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية . وحسب التصريحات الرسمية ، فإن القوات المسلحة الأميركية سوف لن تستخدم لبدء الحرب ، وإنما ستردع بثبوتها أيَّ عدو محتمل ، عن اتخاذ خطوات عدوانية . وفي البداية كان الهدف هو تأمين أوروبا الغربية ضد غزو سوفييتي . وكانت الولايات المتحدة تتمتع في الخمسينيات **باحتكار الأسلحة النووية** ، ثم بوجود التفوق لديها في نهاية الخمسينيات . وقد توجت هذه الفترة بعقيدة دالاس (**الانتقام الشامل**) ، التي دعمت ببرنامج عسكري يسمح للولايات المتحدة بتوجيه ضربة نووية للاتحاد السوفييتي بواسطة أسطول من القاذفات بعيدة المدى . وفي الوقت نفسه أقيمت قواعد أميركية على أراضي الدول الأوروبية ، أعضاء حلف الأطلسي ، وفي مناطق أخرى (إسبانيا والمغرب) ، حيث كانت القاذفات البعيدة ، والصواريخ ذات الأمدية المتوسطة ، تستطيع أن تهاجم قلب الاتحاد السوفييتي .

وفي عام ١٩٥٧ ، استطاع الاتحاد السوفييتي أن يطلق قمره الاصطناعي الأول ، وأن يترك طابعاً دراميا على أن أراضي الولايات المتحدة أصبحت معرضة للهجوم النووي .

وهكذا كان على الأميركيين أن يعيدوا صياغة (الردع) في الموقف الجديد المتميز **بالتعادل النووي**، لأن عقيدة (**الانتقام الشامل**) بدت وكأنها خدعة في مثل هذه الظروف. وقد دلّت الدلائل على أنه بالرغم من اختبارات القوة، التي نفذت أحياناً، فإن الاتحاد السوفييتي لم يكن راغباً في المغامرة بمواجهة عسكرية في أوروبا.

ولهذا الأسباب، نجد بعض المحللين الاستراتيجيين، كـ وليام كاوفمان W. Kaufman، و روبرت اوسغود R. Osgood، وهنري كيسنجر وآخرين، كانوا متفقين على عدم كفاية سياسة (دالاس)، وبالتالي دعوا إلى استراتيجية (الردع المتدرج)، التي تسمح للولايات المتحدة بمواجهة كل مستوى من التحدي برد مناسب. وقد عرض هيرمان كان H.Kahn هذه الاستراتيجية وشرحها ورسم لها ٤٢ درجة في (**سلم التصعيد**)، اعتباراً من الأزمات الخفيفة حتى المحرقة النووية.

ونظراً لتحويل الاتحاد السوفييتي اهتمامه وأنظاره نحو العالم الثالث، عوضاً عن أوروبا، في سبيل إنهاضه ودعمه ضد الأمبريالية العالمية، فإن الولايات المتحدة **عززت من تسليحها التقليدي** في سبيل خوض الحروب ضد ثورات وانتفاضات الأنصار.

ويجب أن نلاحظ أن استراتيجيين من دول غربية أخرى ساهموا أيضاً في مفهوم (الردع). فقد أضاف الفرنسيون فكرة (**الردع النسبي**)، وتتضمن هذه الفكرة مبدأ أساسياً للردع، وذلك بعدم اتخاذ أي إجراء، ما لم تزدد الخسائر التي يغامر بها عن الأرباح المحتملة.

وقد انتقد المنظرون الألمان الغربيون نظرية (**الردع المتدرج**)، حيث أكدوا أن الاحتفاظ بالأسلحة النووية من أجل الرد على هجوم نووي يزيد من احتمال لجوء الاتحاد السوفييتي للمغامرة بحرب محدودة بالأسلحة التقليدية. ولكي يكون الردع فعالاً، فإنه يجب أن يجعل المعتدي المفترَض يدخل في مغامرة غير مدروسة، عبر شكل ما من الاستراتيجية الأمامية لحلف الأطلسي، التي تأخذ مسبقاً بعين الاعتبار، إمكانية الرد على هجوم صغير على حدود دول هذا الحلف، بضربة نووية مدمرة. ولهذه الأسباب نجد أن ألمانيا الغربية اقترحت (ردعاً مستمراً)، لا يميز بين الأسلحة النووية والتقليدية، حيث يمكن استخدام هذين النوعين من الأسلحة في سائر مستويات الرد على الأعمال العدائية.

ج ــ نظرية إدارة الأزمات

والتجديد الثاني الذي أُدخل على العقيدة السياسية العسكرية الغربية ، منذ بداية الحرب الباردة ، هو نظرية إدارة الأزمات . ذلك أن الملامح الرئيسية للشؤون الدولية ، في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت أهدافاً سياسية أساسية ، مع وجود خطر كبير ينجم عن محاولة التوصل إليها ، عن طريق الوسائل العسكرية ، الأمر الذي يؤدي للقضاء على الجنس البشري . لذا نجد أن التفكير اتجه إلى أنه يمكن الاهتمام بالمسألة المطلوبة ، مع المحافظة على حدود مقبولة من المخاطرة والمغامرة ، بالنسبة لكلا الطرفين ، أو إلى حل الأزمة دون اللجوء إلى القوة .

ولكن ما الأزمة ؟ .. بالرغم من عدم وجود إجماع بين المحللين الغربيين الذين درسوا هذه المسألة ، فإن أكثر التعاريف تشير إلى أن الأزمة الدولية تنشأ ، عندما يؤدي تحول مفاجىء في الأحداث إلى وجود خطورة على بعض القيم ذات الأهمية السياسية العليا لدولة ما . ونظراً لأن الموقف المتأزم يحتاج من قادة الدولة لاتخاذ إجراء سريع ، ولا يتوفر الوقت اللازم لجمع المعلومات اللازمة عما حدث في الحقيقة ، من أجل الوصول إلى أسلوب صحيح في المعالجة واتخاذ قرار بذلك ، وإذا لم يكونوا مستعدين لقبول الهزيمة ، أو الرضوخ للخصم ، كأمر واقع ، فإنهم قد لا يجدون أيَّ مخرج لمأزقهم سوى اللجوء إلى القوة العسكرية .

وهكذا فإن **الأزمة** موقف يتصل بكل من السلم الحرب . ويمكن أن ينظر إليها بالمنظار التاريخي على أنها توطئة للحرب . ويقول البعض إنه مادامت الحرب قد أصبحت تمثل أسلوباً خطراً جداً في تحقيق الأهداف السياسية ، **فإن المأزق النووي أثَّر تأثيراً شالًّا** على الدبلوماسية . وبكلمات أخرى ، فإنهم يؤكدون أن الأزمة أصبحت بديلاً عن الحرب ، ووسيلة أخيرة لكي تجد دولة مّا طريقها إلى النجاة . وثمة وجهة نظر ترى في الأزمة مزيجاً من هذه العناصر ، فبينما تتميز الحرب بالقسر ، وتتميز الدبلوماسية بالتفاوض ، فإن الأزمة تمثل كِلا هذين النوعين .

ونظراً لخطورة تحوُّل الأزمة السياسية إلى صراع عسكري ، وبشكل مفاجىء ، فإنه يوجد إجماع في الغرب على الحاجة إلى استراتيجيات لإدارة الصراع . وبما أنه أصبح معروفاً

أن حل الأزمات يعتمد إلى حد كبير على القدرات العسكرية النسبية، فإن هذه الاستراتيجيات أصبحت داخلية في الاستراتيجية العامة للحرب الباردة.

وبغية حل الأزمات، دون أن تؤدي فعلاً إلى الحرب، أُنشِئت مراكز خاصة في بعض البلدان الغربية، وزُوِّدت بعناصر خاصة مسؤولة عن تخطيط الإجراءات السياسية والاقتصادية والعسكرية، التي يمكن اتخاذها، لمواجهة الحالات الدولية الطارئة. وقد أنيطت أعمال التخطيط لمثل هذا العمل بمجلس الأمن القومي، في الولايات المتحدة، وبرئاسة الحكومة الاتحادية في ألمانيا الغربية، بينما تقيّم القوات المسلحة نفسها الأزمات، وتصدر التقارير عن مركز قيادي خاص بأوقات الأزمات.

وهكذا نجد أن الفرق بين السلم والحرب قد ضاق إلى الحد الذي أصبح تعبير الحرب يستخدم على نطاق واسع، في الوقت الذي ينحسب فيه تعبير السلم على سائر صفات الحرب، ويقي من صدام عسكري مباشر. أما أن تصبح دولة ما متورطة في حرب نووية صاروخية، فإنه يبدو ضرباً من الجنون، حيث إن الدمار الذي ستحدثه هذه الحرب في العالم لا يمكن أن يتوافق مطلقاً مع الأهداف السياسية لأية دولة، كما أنه لا توجد دولة قادرة على ربح مثل هذه الحرب. لذا فإن فكرة الحرب التي تستخدم استمراراً وأداة للسياسة فقدت معناها.

وقد قيل في الدفاع عن المفهوم التقليدي للحرب إن الحروب المحدودة والمحلية لا تزال ممكنة، وتوجد حجج كثيرة تدعم وجهة النظر هذه. وإن هذه الحروب هي وسائل عملية لحل الخلافات ما دام تنفيذها ممكناً بشكل عقلاني، وفي ظل السيطرة السياسية.

وهناك أيضاً من يدعي أن الحرب النووية الصاروخية مفيدة أيضاً، وأنه يستحق المجازفة بها من أجل تحقيق أهداف كبيرة كاحتواء الشيوعية، مثلاً.

وهكذا فإن الجدل الكبير حول طبيعة الحرب في المرحلة الصاروخية النووية يتركز في قضيتين هما: **إن السلام أصبح الآن يشبه الحرب، وإن الحرب الشاملة لا يمكن أن تخدم أية أهداف إنسانية بعد الآن.**

أما في الجدل التقليدي حول طبيعة الحرب، فإنه توجد، حسب مخطط كلاوزفيتز ثلاث وجهات نظر مقنعة:

١ ــ **المدرسة العسكرية**، التي ترى أنه ما إن تنشب الحرب حتى تصبح أهدافها السياسية غير قابلة للسيطرة عليها، وبالتالي يصبح من الضروري أن توجه بالاعتبارات العسكرية الصرفة.

٢ ــ **مدرسة الواقعية السياسية**، التي تأخذ بوجهة النظر القائلة إن الحرب يمكن أن تشن في ظل السيطرة السياسية.

٣ ــ **المدرسة السلمية**، التي لا تعترف بالمبدأ السياسي الذي تأخذ به وجهتا النظر الأخريان، حيث ترى أن الحرب هي واقع لا يمكن تجنبه. وتقدم هذه المدرسة منظوراً فلسفياً بديلاً، يمكن أن تحدد من خلاله الصراعات السياسية وحلولها.

مناقشة

كان أحد الاستنتاجات، التي توصل إليها العسكريون، نتيجة للموقف الجديد الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية، هو **أن الغرب كان في موضع يستوجب شن حرب وقائية ضد الاتحاد السوفييتي**. وقد كان على قناعة منطقية بأنه مادامت الحربُ مع القوى الشيوعية سوف تقع في نهاية المطاف، فعلى الغرب أن يغتنم الفرصة التي توفرت له بتفوقه النووي لتدمير القوة العسكرية للعدو، قبل أن يمتلك هذا الأخير ما يكفي من القوة، لكي يغامر هو نفسه بالهجوم. ومع النمو السريع لقدرة الاتحاد السوفييتي على القيام بهجوم صاروخي نووي، فقد أصبح واضحاً أن **عقيدة الحرب الوقائية أصبحت غير منيعة**. وأن الاتحاد السوفييتي سوف يتوفر لديه الوقت الكافي، لكي يرد بهجوم صاروخي على الولايات المتحدة، يكون بمثابة **ضربة انتقامية** قبل أن تصل الصواريخ الأميركية إلى أهدافها. وسوف يحتفظ بالقدرة على أن يفعل ذلك، حتى بعد الهجوم.

ويؤكد العسكريون على أن الاستراتيجية يجب أن يعاد النظر فيها باستمرار، من أجل المحافظة على التطورات الجديدة، كما يجب أن لا يتوانى في خزن الأسلحة النووية من أجل منع العدو من تحقيق كسب استراتيجي.

٨ جوهر الحرب في النظرة العسكرية الغربية، حسب منظور الناقد العسكري الماركسي

عند التكلم عن الجوهر الطبقي للنظرة العسكرية البورجوازية لا يجوز إغفال موضوع طبيعة السياسة الداخلية للدول الأمبريالية، ذلك أن هذه السياسة تعبّر عن **المصالح الطبقية للأمبريالية**، وتحدد مضمون الاستراتيجية العسكرية وجوهرها.

تسعى الأمبريالية الأميركية للسيطرة على العالم، الأمر الذي يشهد عليه قول الرئيس الأميركي السابق ايزنهاور «**إن المصالح الحيوية لأميركا ذات صلة بكل العالم، وتشمل هذه المصالح نصفي الكرة الأرضية وكلّ القارات. وإن الولايات المتحدة تعتقد بأنه من الضروري أن تأخذ على عاتقها دوراً رفيعاً في المسائل الدولية ــ دور القيادة الحيوية**».

وتعكس السياسة الخارجية للولايات المتحدة وبريطانيا سعي الدوائر الرجعية العسكرية لفرض إرادتها على الدول الأخرى، مستخدمة في ذلك سلاح الضغط الاقتصادي والسياسي والتهديد والاستفزاز. وقد سميت هذه السياسة بسياسة (مواقع القوة)، والتي هي تعبير عن سعي أكثر الدوائر العدوانية للأمبريالية الحديثة لبسط سيطرتها الدولية، وشلّ الحركات العمالية الديمقراطية والإشتراكية، والإعداد لمغامرة عسكرية ضد المعسكر الإشتراكي، وبالدرجة الأولى ضد الاتحاد السوفييتي.

ويعار موضوع (**القوّة**) أهمية كبرى، تصل إلى مستوى التقديس، في السياسة الأميركية. ففي كثير من المؤلفات السياسية العسكرية الأميركية، التي صدرت في السنوات الأخيرة، اعتبر (**مبدأ القوة**) مبدأ **وحيداً** في العلاقات الخارجية للولايات المتحدة مع الدول الأخرى، حتى إن المنظِّر العسكري الأميركي ج. ف أيليوت يؤكد أنَّ على الأميركيين أن يؤمنوا بأنَّ السياسة الواقعية الوحيدة هي سياسة المحافظة على القوة، في أعلى درجاتها، وأن السياسة الخارجية يجب أن تبنى على مبدأ (الهجوم الفعَّال). ويعتبر الاستفزاز الدولي، والنشاط التجسسي والتخريبي وتعطيل العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والتأزيم المفتعل للعلاقات الدولية أساس سياسة مواقع القوّة[٢٧].

---

(٢٧) سوكولوفسكي (الاستراتيجية العسكرية) ترجمة (دردري ــ أتاسي ــ جركس) ص ٧٢.

تتجلى الأشكال الاستراتيجية السياسية، للسياسة الخارجية للـدول الأمبرياليـة الحديثة، في إقامة قواعد عسكرية ومنشآت أخرى، واحتلال أراضي الدول، وإنشاء الأحلاف العسكرية العدوانية. وتختار هذه القواعد والأحلاف بحيث تعتبر رأس جسر للحرب العدوانية، ضد دول المعسكر الإشتراكي. وتحاول الولايات المتحدة أن تحيط الاتحاد السوفييتي بهذه القواعد والأحلاف إحاطة كاملة.

وبما يتفق مع الهذيان العسكري للأمبريالية الأميركية، فقد ظهرت في الولايات المتحدة **نظرية (الرجل الأبيض)** للعلماء الرجعيين، وهذه النظرية لا تختلف كثيراً عن الهذيان الهتلري.

فقد صرح الدكتور **بنفس**، مدير جامعة في مدينة تامبا: «**إني أعتقد أنه يجب أن نجري إعداداً شاملاً قائماً على قانون الغاب. فعلى كل إنسان أن يتعلم فن القتال. أنا لا أظن أن الحرب يجب أن تكون وقفاً على الجيوش والأساطيل والقوى الجوية، أو أن يكون هناك أي قيود أمام استخدام أسلحة التدمير. وإني أرحب بالحرب الجرثومية، واستخدام الغازات والقنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ القارية، دون رحمة، حتى ضد المشافي والكنائس والمنشآت الثقافية، أو ضد أية مجموعة ما من السكان**».

كذلك ظهرت على صفحات المطبوعات (الصحف والمجلات) عناوين كثيرة من نوعية (**استراتيجية حافة الحرب**)، (**استراتيجية العقاب الشامل**)، (**استراتيجية الجرعات**)، (**مذهب الردع**)، (**مذهب التحرير**)، ... إلخ. كما ظهر، بعد فقدان الولايات المتحدة احتكار الأسلحة النووية، اهتمام خاص بما يطلقون عليه (**الحروب الصغيرة أو المحدودة**).

وإن سلوك الولايات المتحدة في **إستراتيجية الحروب المحدودة** يهدف، عن طريقها لتأمين بلادها من الضربات النووية الانتقامية، التي قد توجه إليها من البلدان الإشتراكية، في حال كون الاعتداء عليها كبيراً وموجهاً ومقصوداً. وبرأي الباحثين الأميركيين فإن قيمة نظرية (الحروب المحدودة)، تكمن في أنها قد تستبعد استخدام الأسلحة النووية ضدها.

وختاماً يقول ماريشال الاتحاد السوفييتي ف. د **سوكولوفسكي**، في كتابه

(الاستراتيجية العسكرية) : «إن الاستراتيجية العسكرية البورجوازية ليست رجعية في جوهرها السياسي فحسب، بل رجعية أيضاً في أسسها النظرية الفلسفية، ولأنها في تعرضها لمثل هذه الظاهرة الاجتماعية، وهي الحرب، تعتمد على علم الاجتماع البورجوازي اللا علمي، وعلى الفلسفة الفكرية الميتافيزيّة.

إن الاستراتيجية العسكرية للدول الأمبريالية موجهة للمحافظة على النظام الرأسمالي البالي، وتوطيده، وإلى المحافظة على النظام الاستعماري، وموجهة للصراع ضد النظام الأكثر تقدمية وطلائعية للمجتمع الإنساني، وهو النظام الإشتراكي».

٩ مقارنة بين وجهات النظر السوفييتية والبورجوازية ورأي نقاد كل جانب في نظرية الجانب الآخر

لقد أظهر استعراف الأفكار الغربية والسوفييتية عن طبيعة الحرب تعقيداً كبيراً في الموضوع. وهنالك لدى كل جانب أسباب يقول عنها إنها مشروعة: كالمصالح والهدف والطريقة (الأسلوب)، يستطيع الباحث أو العالم أن ينظم على أسسها المسائل المتعلقة بالحرب بطريقة معينة، أو يحدد لنفسه جزءاً صغيراً منها، كأن يكون ذلك على أساس إبعاد الحرب أو سماتها الاستراتيجية، أو أحد ملامحها ووظائفها الأخرى المتعددة.

أ ــ النقد السوفييتي للنظرية البورجوازية عن الحرب

ظهرت في بداية الخمسينيات من هذا القرن دراسة سوفييتية عن النظرية البورجوازية للحرب، حيث كانت تضم استعراضاً لبعض المفاهيم اللاماركسية عن الحرب، وتدين هذه المفاهيم، معتبرة إياها رجعية غير علمية[٢٨]. وقد بدأت هذه الدراسة بالمفهوم الأخلاقي، واصفه إياه بأنه وجهة نظر تمجّد الحرب، وتعتبرها مبدأ نبيلاً،

(٢٨) انظر كتاب ي. اوسنكو I. Usenko في (أسباب الحروب الأمبريالية موسكو) ١٩٥٣، الصفحات ٣ــ٦، و(الأيديولوجية العدوانية وسياسة الأمبريالية الأميركية) موسكو ١٩٥٠، و(أيديولوجية البورجوازية الأمبريالية ــ تشجيع للعدوان والحرب)، أكاديمية العلوم السوفييتية، معهد الفلسفة، موسكو ١٩٥٢، ون. بتروف N. Petrov في (الجوهر الرجعي والطابع العدواني للأيديولوجية العسكرية الحديثة للأمبريالية الأميركية) ١٩٥٢.

وتحتقر السلم، وترى أنه يولِّد التفتت الأخلاقي، ويؤدي بالتالي إلى سقوط الأمم. واعتبرت أن هذا المفهوم يتسم بصفة الإبادة الجماعية، حيث يكوِّن مع المفهوم النازي عن الحرب، الحالة الأكثر رجعية في الايديولوجية البورجوازية. ثم يأتي المفهوم البيولوجي، الذي يدَّعي أن الحرب ضرورة طبيعية للدورة الحياتية للأمم، وأن الهدف من هذه القوانين الخاطئة والمزيفة ليس سوى تبرير النهب، وإضفاء الصفة القانونية الطبيعية على حروب النهب والاستعمار التي تمارسها البورجوازية. وإن النظرية القائلة إن الحرب هي بروز الصراع بين العروق (ج عرق) كانت تأتي غالباً في المرتبة الثالثة من الأهمية. وكانت هذه النظرية البورجوازية قد قدمت على أنها اقتراح مغطى ببرقع يهدف إلى تدمير العروق الأقل مكانة. ولم تكن المالتوسية (Malthusianism)[٢٩] (نسبة إلى مالتوس)، أو المالتوسية الجديدة (Neo Malthusianism) أقل إنسانية من هذه المفاهيم. ونجد في الوصف السوفييتي لهذه النظريات بأنها كانت تعادل التوصيات القائلة إنه يجب قتل السكان الفائضين في العالم بغية استعادة التوازن بين عدد السكان والوسائل المحدودة من موارد الأرزاق، ويقول السوفييت إن الباحثين الغربيين طوروا نظريات جغرافية سياسية (جيوبوليتية)، بغية تبرير حروب النهب على أساس العوامل الجغرافية، كما أن السوفييت انتقدوا مفهوم المواطنية العالمية[٣٠](Cosmopolitisme) عن الحرب، الذي يدعو إلى إقامة حكومة واحدة عالمية تحكم شعوب العالم كافةً، وتلغي سيادة الدول الأخرى كافةً، واعتبر السوفييتَ هذا المفهوم بأنه يخفي في طياته شهوة البورجوازية لحكم العالم قاطبة.

وباختصار، يرى النقاد السوفييت أنه لا توجد أية قيمة علمية لهذه النظريات، وأنها لم تكن، في ضوء أسسها الايديولوجية المشتركة، سوى تبريرات فقط للسياسة

---

(٢٩) المالتوسية: نسبة إلى واضعها توماس روبيرت مالتوس T. R. Malthus وهو كاهن انغليكاني، واقتصادي بريطاني (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤). والمالتوسية تعبير، طرأ عليه كثير من التغييرات منذ إعلانه، وهدفه تحاشي زيادة عدد السكان في العالم لأن ذلك يؤدي إلى مساوىء كبيرة بالنسبة للبشرية، وذلك عن طريق الضغط على الشعوب الفقيرة لتخفيض عدد الأولاد الذين تنجبهم، والسماح بضرورة استخدام مانعات الحمل. أما المالتوسية الجديدة، فإنه ذهب فيها أيضاً إلى الإقلال من الإنتاج الغذائي العالمي، على مختلف أشكاله، في سبيل الضغط الإضافي على العائلات الفقيرة لمنعها من زيادة الإنجاب.

(٣٠) المواطنية العالمية: مذهب أخلاقي وضعه الفيلسوف الألماني كانت Kant وهو يبرز شعور الإنسان، ذا الصبغة العالمية، غير المقيدة وغير المرتبطة بوطن معين.

الأمبريالية العدوانية، كما أنها تخدم، بشكل خاص، السياسة البعيدة المدى للولايات المتحدة الأميركية، الهادفة للسيطرة على العالم. ويرى النقاد السوفييت أن الأمبرياليين كانوا يأملون أن تبدو الحرب حتمية في ظل هذه النظريات العلمية الزائفة، وذلك لإخفاء الطابع الإجرامي لحروبهم الهادفة إلى نهب الآخرين، ولتحويل انتباه الشعوب عن النضال ضد النظام الرأسمالي، ولنشر الاقتناع باستحالة إلغاء الحرب.

وفي أعوام الستينيات بدأ يظهر نقد الواقعية السياسية الخاصة بالنظريات البورجوازية عن الحرب. ولم يلبث هذا النقد أن احتل المكان الأول، في الانتقادات الموجهة إلى المفاهيم اللاماركسية، في السبعينيات.

ونجد في التقديم السوفييتي أن ثمة فكرتين مرتبطتين ببعضهما بعضاً تؤكدان هذا المفهوم. حيث ترى الفكرة الأولى أن **العنف** هو قوة ذات جذور طبيعية في الإنسان وأنه الوسيلة الرئيسية التي يدافع الإنسان بها عن حقوقه ومصالحه ضد تعديات الآخرين. أما داخل الدولة، فنادراً ما يلجأ الأفراد إلى العنف بسبب النظام الصارم الذي تفرضه السلطة باستخدام **العنف المشروع**. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الدول تسلك كالأفراد. ولكن واقعية العلاقات الدولية تتباين مع فوضوية المجتمع. ولكي تحمي الدولة مصالحها لا بد لها من استخدام العنف، وبالتالي فإنه يجب عليها إدخار القوة، لكي تضمن الربح في أية تجربة لها (أي القوة). وهكذا فإن الافتراض الثاني، الذي يكمن في الواقعية السياسية يرى أن القوة المحركة للعلاقات السياسية هي السعي من أجل القوة، وخاصة القوة العسكرية. وأن النتيجة الطبيعية لهذا الوضع، هي أن تصبح الحرب عملاً طبيعياً لا مفر منه، وبالتالي فإن الحرب تشكل الوسيلة الأكثر فعالية، والأكثر حسماً، في تأمين مصالح أية دولة.

وقد انتقدت هاتان السمتان بشكل عنيف في التقييم السوفييتي. ويرى النقاد السوفييت، من ناحية أولى، أن العنف ليس صفة ملازمة للإنسان، ولكنه نتاج للقوى الاجتماعية السياسية والاقتصادية في نهاية المطاف. وأن استخدام الإنسان للعنف مشروط ومرتبط بالظروف التاريخية، وهو أداة يمكن، أو لا يمكن للقوى التقدمية أو الرجعية أن تستخدمها في الصراع الطبقي، حسب المرحلة التاريخية، أو مرحلة التقدم الاجتماعي التي وصلت إليه هذه القوى.

وبالمقابل ، فإن المفهوم ، أو الفكرة القائلة ، إن السعي إلى القوة يشكل القوة المحركة للتاريخ هي فكرة مضللة. ويمكن لدولة ما ، أن تأخذ بسياسة القوة ، عندما تعتقد الطبقة الحاكمة ، بأن مصلحتها الاجتماعية السياسية ، أو الاقتصادية تقضي بذلك. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الحرب ، باعتبارها وسيلة للسياسة. وبالتالي ، فإن إدخال أو تطوير القوة العسكرية لم يسبق له أن عكس قوة تاريخية ذاتية ما ، بل كان نتاجاً للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

كذلك وجه انتقاد أكثر حدة إلى الفكرة التي تنادي بأن السعي إلى القوة يقود إلى توازن القوى ، وأن الحرب بحلها للصراعات الدولية يمكن أن تصون وتعمل على استقرار ميزان القوى. وقد أثار السوفييت ستة اعتراضات في هذا المجال.

١ ــ إن النظريات ميزان القوى تستخدم من قبل الدول الأمبريالية لتبرير سياستها في السيطرة. ذلك أن الدول قد تتدخل بادعائها أنها تلعب دور التوازن ، الذي هو ضروري ــ حسب النظرية ــ لتأمين التوازن في العلاقات بين الدول الأخرى ، بغية تحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية ، وبشكل خاص لتحقيق السيطرة على السياسة العالمية. وأن دور التوازن يلعب حالياً من قبل الولايات المتحدة الأميركية.

٢ ــ إن نظرية القوى استخدمت في الصراع بين الرأسمالية والإشتراكية لتبرير بناء شبكة من الأحلاف والقواعد العسكرية المضادة للإشتراكية ، وللتحضير من أجل شن حرب ضد الدول الإشتراكية.

٣ ــ إن الحرب ، في نظريات توازن القوى ، هي الطريقة التي يصان التوازن بها عادة. وفي الوقت الحاضر لا تخدم هذه النظريات سوى زيادة حدة النزعات ، وتبرير سباق التسلح ، والسياسات الأكثر عدوانية.

٤ ــ تستخدم نظرية توازن القوى ، حالياً ، لتبرير قمع الحركات الهادفة إلى تحقيق التحرر الوطني ، أو الثورة الاجتماعية ، على أساس أن التبديلات ، في البنية الداخلية للدول ، تقلب توازن القوى العالمي لصالح الإشتراكية.

٥ ــ إن نظرية توازن القوى هي نظرية غير علمية ، بسبب تشديدها المبالغ فيه على القوة العسكرية ، باعتبارها عاملاً حاسماً في القوة الإجمالية للدول ، ولمجموعات الدول.

وهي لا تأخذ بعين الاعتبار عوامل حيوية، كطبيعة النظام السياسي، وسياسة الدولة، والوعي الايديولوجي لجماهيرها، وإمكاناتها الاقتصادية. ثم إنها لا تقدر بشكل صحيح العلاقة العالمية المتبادلة بين القوى الاجتماعية المتخاصمة، وتفشل في تفهمها توازنَ التطور الاجتماعي، والتي ستبدل، وفقاً لها، ديناميات توازن القوى لصالح الإشتراكية.

٦ ـ وأخيراً، فإن نظرية توازن القوى تتضمن صورة مزيفة للنظام الدولي. فهي تستعيض عن نضال الخصمين الرئيسيين، في سبيل شكل مستقبلي للمجتمع العالمي، بنماذج مصطنعة مختلفة من أشكال القوة... إلخ، وبالتالي فإن العلاقة الحقيقية المتبادلة بين قوى التقدم، وقوى الماضي تصبح مشوهة.

ب ـ النقد الغربي للنظرية السوفييتية عن الحرب

بعد أن اطلعنا على النقد السوفييتي للنظرية البورجوازية عن الحرب، من المفيد أن نطلع على النقد المعاكس، أي وجهة النظر الغربية في النظرية السوفييتية عن الحرب.

تعالج النظرية الماركسية ـ اللينينية عن الحرب، في الغرب، إما باعتبارها موقفاً رسمياً للاتحاد السوفييتي. وفي كلا الحالتين توجد آراء عديدة جداً ومختلفة، في الغرب، حول محاسن وجهة النظر السوفييتية ومساوئها. ونظراً لاتساع المفاهيم المعاكسة وكثرتها فسوف نقدم فقط بعض الانتقادات العامة، التي يراها عدد كبير من الباحثين الغربيين.

يرى الباحثون الغربيون، عموماً، أن الخطأ الجوهري، الذي يكمن في المفهوم الماركسي عن الحرب، هو الافتراض أن لكافة البنى والنشاطات الاجتماعية جذوراً في العلاقات بين الأفراد ووسائل إنتاجهم. ويقولون لعل إحدى نقاط قوة الماركسية، هي الطريقة التي تجمع فيها الظواهر الاجتماعية، كالاقتصاد، والبنية الاجتماعية، والأنظمة السياسية، والايديولوجية، في مظهر متلائم. ولكن محاولة استخدام التبسيط السببي، لشرح التغييرات في مجموعة مركبة من العوامل على أساس عامل واحد منها، تقدم نموذجاً مبسطاً، لدرجة مبالغ فيها، حيث يصبح هذا النموذج غير مقنع، إن لم يكن مضللاً أيضاً[٣١].

(٣١) انظر كتاب لويس. آكوزر Lewis A. Coser (كارل ماركس وعلم الاجتماع المعاصر) طبعة ١٩٦٧.

ومهما يكن، فإن النقاد الغربيين يؤكدون أن انشغال ماركس بالطبقات الاقتصادية عَكَسَ الخلاف الكبير الذي وجد بين العمال ورجال الصناعة في إنكلترا الفيكتورية. وهم يشيرون إلى أن رأيه في المجتمع، من حيث كونه في حالة صراع دائم وغير متوازن، وأنه يجب أن ينتهي بحرب ثورية، كان مبالغاً فيه، كما أثبت التاريخ نفسه. ويقولون إنه وجدت أيضاً صراعات متفجرة بين العمال وأرباب العمل، لا يمكن إنكارها، ولكنها لم تؤد قط إلى ثورة إشتراكية. وعلى العكس من ذلك، فإن شدة الصراع قد ضعفت في العديد من البلدان، بعدما انخرط العمال في النقابات والمنظمات الخاصة بهم، ووجدوا طرقاً لحل هذه الصراعات مع الإدارة دون استخدام العنف.

أما بالنسبة لوجهة النظر الماركسية، حول كون المجتمع في حالة صراع دائم، لا ينتهي إلا بعد انتصار الثورة، فإن النقاد الغربيين، أشاروا إلى أن المجتمع، يمكن أن ينقسم أيضاً إلى جماعات أخرى: دينية، وسياسية، وثقافية.. إلخ، حيث لا حاجة لأي منها أن تكون منسجمة مع الطبقات الاقتصادية، أو معتمدة عليها كلياً. ثم إن المنافسة بين مختلف الجماعات يمكن أن تسهم كثيراً في فهم تطور المجتمع الذي تنتمي إليه، باعتبار هذا التطور صراعاً بين الطبقات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المنافسة تعتبر جوهرية في طبيعة المجتمع، ولا يمكن أن تلغى بالثورة، وليس مرغوباً أن يتم ذلك، ما دامت هذه المنافسة تظل ضمن حدود معينة، حيث تؤمن الدينامية التي يستمر بها التقدم.

وهكذا يعتبر النقاد الغربيون أن نظرية الحرب، التي يقدمها السوفييت، هي نظرة ضيقة جداً، وأولية جداً. فهي ضيقة جداً لأنها تتجاهل الصراعات الاجتماعية، وبالتالي، فإن التفسير، الذي يعطى للعديد من الحروب التي لا تكون أسبابها اقتصادية، كما هي الحال في أغلب الحروب بين الدول، يبدو وكأنه يشوه الحقائق بجعلها تلائم النظرية. وهي أولية جداً، لأنهم يجدون، حتى في الحروب ذات المنشأ الاقتصادي، أن التبسيط المفروض بالمفهوم الطبقي يمنع أي تفسير يأخذ بالتحليل الدقيق للواقع.

ويقول النقاد الغربيون إن الاهتمام بالصراع الطبقي الاقتصادي جعل السوفييت لا يرون التغييرات التي حدثت في الطريقة التي تنظر الدول الرأسمالية، من خلالها، إلى مصالحها الوطنية. وقد يكون صحيحاً أن الحربين العالميتين قد نشبتا بسبب السياسة التوسعية لبعض الدول، والتي يمكن أن يكون للاعتبارات الاقتصادية دور فيها، دون أن

تكون هذه الاعتبارات هي الغالبة على أية حال. ثم إن الفعل، الذي قام به الحلفاء الرأسماليون، للدفاع عن أنفسهم ضد ألمانيا النازية، لم يكن يختلف، بشكل جوهري، عن الفعل الذي قام به حليفهم الإشتراكي. ذلك أن المصالح الاقتصادية تكون هامشية، عندما يبرز عنصر البقاء على الساحة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن جميع الدول، التي عانت من الحرب العالمية الثانية، أصبحت تعرف حجم التكاليف الباهظة، التي تتطلبها التكنولوجيا العسكرية الحديثة، وهي تكاليف تصاعدت إلى مستويات يصعب تصورها، في ظل التطور المقبل للصواريخ النووية. ثم إن الدول الرأسمالية اكتشفت أن مصالحها الوطنية لا يمكن أن تؤمَّن إلا بالتعاون من أجل تحقيق فوائد مشتركة، وبحل خلافاتها عبر الأقنية الدبلوماسية. وبالتالي فإن خطر الحرب بين الدول الرأسمالية، اختفى تقريباً(٣٢).

وأخيراً، فإن النقاد الغربيين يرون نقطة ضعف في النظرية الماركسية اللينينية، هي أنها لا تأخذ بعين الاعتبار الحرب بين الدول الإشتراكية نفسها. وفي محاولة شرح التدخلات السوفييتية في كل من المجر وتشيكوسلوفاكيا، والصدامات الحدودية بين القطعات السوفييتية والصينية، فإن الباحثين السوفييت يلجؤون إلى تبريرات بعيدة، بينما كان من الواضح تماماً، حسب وجهة نظرهم، أنهم إنما يفعلون ذلك لحماية مصالح دولتهم بشكل خاص(٣٣).

ويقول جوليان لايدر في كتابه حول طبيعة الحرب، إنه لا بد، أخيراً، من بضع كلمات عن الاتهام المتبادل بأن المفهوم الكلي عن الحرب، في عقيدة كل خصم، يشير إلى ايديولوجية محدودة، ولا يحمل الطابع العلمي، وبالتالي فهو مجرد أداة للدعاية في الصراع السياسي والإيديولوجي. ويبدو أن هذه الآراء تعتمد على شيء من سوء الفهم للعلاقة بين الإيديولوجية والعلم.

فالإيديولوجية هي نظام للأفكار، ولوجهات النظر والتعاليم، ذات العلاقة المتبادلة فيما بينها، عن المجتمع وقوانين تطوره. وإن مفهوم ظاهرة اجتماعية معينة يعكس الواقع، ويفسر بالتوافق مع الأفكار الرئيسية، التي تعتمد عليها الإيديولوجية ككل. وهكذا فإنه يوجد عنصران، في كل المفاهيم الاجتماعية، أحدهما علمي مجرد، والثاني ايديولوجي. وإن

(٣٢) من كتاب حول طبيعة الحرب On The Nature of War تأليف جوليان لايدر J. Lider ص ٤٦٥.
(٣٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤٦٦.

القيمة العلمية للأفكار المتعلقة بالحرب تعتمد على الدرجة التي تعكس فيها العمليات الحقيقية للحرب، وعلى الدرجة التي تعكس فيها هذه الأفكار الإيديولوجية الأساسية، والقوانين التي تحكم المجتمع فعلاً. وبالتالي فإن الطابع الإيديولوجي، لمفهوم ما، ليس بالتأكيد هو العامل الذي يقرر، أو يحدد الطابع العلمي، أو غير العلمي للنظرية.

الفصل الثاني

الاستراتيجية العسكرية



أولاً ــ قوانين الصراع المسلح

تعتبر قوانين الصراع المسلح المادة الأساسية للعلم العسكري، وإن كشف هذه القوانين والطرق الصحيحة لاستخدامها، يحوِّل العلم العسكري إلى أداة هامة في النشاط العملي للقوات، وخاصة من قبل الكوادر القيادية للقوات المسلحة، وهي انعكاس دقيق للقوانين الموضوعية الموجودة فعلاً، وأساس للنشاط العملي للقيادات الاستراتيجية والعملياتية. وهذه القوانين تتعلق بـ:

١ ــ العلاقة بين السياسة والصراع المسلح في الحرب.

٢ ــ اعتماد سير الحرب ونهايتهما على تناسب الامكانات العسكرية للطرفين.

٣ ــ اعتماد سير الحرب ومصيرها على تناسب الامكانات الاقتصادية ــ العسكرية للطرفين.

٤ ــ اعتماد سير الحرب ومصيرها على المستوى النفسي ــ المعنوي للطرفين.

١ ــ قانون العلاقة بين السياسة والصراع المسلح في الحرب

تعبِّر هذه القاعدة عن الوحدة غير القابلة للانفصام بين السياسة والعنف المسلح في الحرب. وتنحصر بالدرجة الأولى في أن العلاقات السياسية بين الطرفين المتحاربين في ظروف الحرب تتجسد بشكل عنف مسلح، مع الإبقاء على جوهره السياسي. وتندمج السياسة بالعنف المسلح اندماجاً عضوياً فيما بينهما. ونتيجة ذلك ترى السياسةُ اللجوءَ إلى الصراع المسلح في أثناء الحرب، أما هذا الأخير (الصراع المسلح) فيقوم بدور الإدارة المنفذة للسياسة.

ففي الحرب غير العادلة تظهر التناقضات الحادة في العلاقات بين السياسة والعنف المسلح . وترمي السياسة خلال الحرب ، إلى استخدام العنف المسلح كأداة رئيسية لتحقيق الغايات السياسية ، ولكنها مضطرة في الوقت نفسه لأن تمنح العنف المسلح (استقلالية) معينة ، باعتباره يتبع قوانينها الخاصة . وفي النهاية يؤدي هذا التناقض إلى أن تنقلب السياسة إلى ضدِّها ، نظراً لأن الأشكال المتطرفة من العنف المسلح تصبح هي السياسة التي تنتهجها الدول المعينة . وتصبح هذه الحروب عنيفة ورجعية .

أما الحروب العادلة فهي على نقيض ذلك ، حيث يجري تجانس من نوع آخر بين هذه التناقضات ، أي يتم بلوغ التوافق الداخلي لأساليب الصراع المسلح وأشكاله ووسائطه ، من أجل مصالح السياسة التقدمية وغاياتها .

وبفضل ذلك ، وبالرغم من أنه لا مفر من وقوع الضحايا وحدوث التخريب ، فإن الدولة التي تخوض مثل هذه الحروب تبدي في أثناء الصراع المسلح تسامحاً إنسانياً واضحاً تجاه السكان ، بل وحتى تجاه أفراد قوات الطرف المعادي .

ومن الظواهر الأخرى لوحدة السياسة والصراع المسلح ، وتبعية الصراع المسلح بطبيعته إلى السياسة ، فإن السياسة تحدد أهداف الصراع المسلح ومهامّه ، كما تحدد وسائط الصراع المسلح وأساليب خوضه ، وتؤمن أعمال القوات المسلحة في المجال الدبلوماسي ، وفي السياسة الداخلية . ويمكن الاعتماد العكسي للسياسة على الصراع المسلح في أن نجاحات الصراع المسلح أو فشله تساعد أو تعرقل تحقيق الغايات السياسية .

٢ ــ قانون اعتماد سير الحرب ونهايتها على تناسب الامكانات العسكرية للطرفين المتعاديين

إن سير الحرب ومصيرها مرتبطان مباشرة مع تناسب العوامل العسكرية البحتة للخصمين ، ومع حالة إمكاناتهما العسكرية . وتتضمن العوامل :

١ ــ كمية التسلح الحديث ونوعيته .
٢ ــ تعداد أفراد القوات ونوعيتها .
٣ ــ مستوى المعارف العسكرية والمواهب التنظيمية لدى القادة ، أو مقدرتهم على السيطرة على بناء القوات وتدريبها ، واستخدامها في المستويات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية .

كما أنَّ لتناسب القوى المادية والمعنوية للقوات، كماً ونوعاً، تأثيراً حاسماً على مصير الحرب. إن التقدير السليم لتناسب قوى الطرفين المتحاربين مشكلة هامة للغاية ومعقدة جداً في الوقت نفسه. كما أن حساب تناسب القوى مرتبط مع الواجبات الكثيرة للتخطيط الاستراتيجي، والقيادة العسكرية، سواء في المرحلة التي تسبق الحرب أو خلالها.

ويتوقف على نسبة القوى **لدى الطرفين** المتحاربين وضع خطة الحرب والعملية، وتحديد أهداف الاستراتيجية، وفن العمليات، وتحديد أساليب تبديل هذا التناسب، من أجل تحقيق النصر في الصراع المسلح. ويجدر التنويه بأن المواقف السياسية وأهداف الدولة، أو مجموعة الدول المعنية، تؤثر على القرارات الاستراتيجية العسكرية تأثيراً إلزامياً، ويعرف التاريخ حالات كثيرة لم يستخدم فيها تناسب القوى الملائمة بصورة رئيسية، لأسباب سياسية بحتة. وفي أيام السلم يرتبط تحديد تناسب القوى وتأمينها المطلوبين بإعداد مناهج البناء الاقتصادي والعسكري وتطبيقها، وإقرار العديد من المسائل النظرية والعملية المتعلقة بإعداد القوات المسلحة إعداداً شاملاً للحرب التي قد يشعل الأمبرياليون نارها. والشيء الجوهري للغاية أن التحليل النوعي لتناسب القوى من الناحية الاجتماعية، والحالة النفسية المعنوية للقوات بشكل خاص، قد أصبح معقداً جداً.

وفي الوقت الحاضر يمكن أن تجري أعمال القتال دون استخدام السلاح النووي، ولكن مع استخدام أسلحة تقليدية متطورة. وهنا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن العوامل التي يمكن أن تغير نسبة القوى في أثناء الأعمال القتالية قد تبدل محتواها السابق، واكتسبت محتوى جديداً، وهي:

- ازدياد قوة التأثير الناري وعمقه، وخاصة الضربات الجوية.
- قصر الوقت اللازم سواء لتسديد الضربات أو الاستفادة من نتائجها.
- ازدياد قدرة القوات على التحرك والمناورة.
- تطور قدرات قوات الإنزال الجوّي تطوراً ملموساً.

وهكذا فإن نتيجة صراع الأطراف المتحاربة مرهونة بطبيعة (خصائص) قوى الطرفين المعنيين، وبالقدرة القتالية للقوات المتحاربة، ومقدرة القادة على استخدامها في المواقف المعقدة بالدرجة الأولى. إن القدرة القتالية للقوات، هي في جميع الأحوال، وحدة جدلية لعناصرها المادية والمعنوية كماً ونوعاً.

تتميز القدرة القتالية **الكمية** بعدد جنود القطعات وضباطها والتشكيلات والجحافل، وعدد الأسلحة والعتاد القتالي.

أما الجانب **النوعي** من القدرة القتالية فهو يتوقف على:

ــ مستوى الوعي السياسي، والروح المعنوية، والانضباط لدى أفراد القوات المسلحة.
ــ مهارة الجنود ومستوى تدريبهم ــ فعالية الأسلحة والعتاد، ودرجة إتقان القوات لها.
ــ تنظيم القوات وتنسيق أعمالها ــ تنظيم أجهزة السيطرة والتنسيق بينها.

كما تتوقف القدرة القتالية للقوات أيضاً على المواهب التنظيمية، والتدريب السياسي والتقني العسكري والعملياتي التكتيكي للرؤساء والقيادة.

تتفاعل جميع هذه العناصر والعناصر الأخرى الخاصة بالقدرة القتالية للقوات وتتكامل فيما بينها، ولكنها تتمتع في الوقت نفسه باستقلالية نسبية. إن القدرة القتالية للقوات ــ ليست مفهوماً عسكرياً ــ تقنياً فقط، وإنما لها جوهر اجتماعي عميق أيضاً، لأنها تعبر في شكلها المركّز عن الخصائص المميزة الاقتصادية والسياسية والعلمية والعقائدية للدولتين المتحاربتين. وبالتالي فإن التوصل إلى تقدير تناسب القوى علمياً يساعد الكوادر العسكرية على تفهم خصائص تأثير قانون تناسب القوى، في ظروف التبدلات الثورية الطارئة على المجال العسكري، ومتطلبات القوانين الأخرى المرتبطة معه بصورة أعمق.

إن قانون اعتماد سير الحرب ونهايتهما على تناسب الإمكانات الحربية للخصمين يحافظ على مفعوله في ظروف الحرب النووية الصاروخية أيضاً. حيث سيحاول كل من الطرفين المتحاربين تحقيق التفوّق على الطرف الآخر، سواء في قوة الضربات النووية وفعاليتها، أو في تكتيك تنفيذها.

٣ ــ قانون اعتماد سير الحرب ومصيرها على تناسب الإمكانات الاقتصادية العسكرية للدولتين المتحاربتين

إن الإمكانات الحربية للطرفين المتحاربين، ومصير الصراع المسلح بالتالي مرتبطان باقتصاد الطرفين المتحاربين. وتتضمن الإمكانات الاقتصادية الحربية ما يلي:

ـــ مستوى تطور جميع القوى المنتجة وحالتها، والعلم والثقافة.
ـــ حجم الإنتاج بكامله وخاصة في الصناعة الثقيلة.
ـــ طبيعة النظام السياسي والاقتصادي، والعلاقة الطبقية والقومية في المجتمع.
ـــ التعداد العام للسكان وكثافتهم.
ـــ حجم الثروات الطبيعية اللازمة ودرجة استقلالها، لصنع الأسلحة والأعتدة والذخائر والوسائط الأخرى الخاصة بالصراع المسلح.
ـــ توزع الصناعة وفعالية حمايتها من تأثيرات العدو.
ـــ طبيعة طرق المواصلات والاتصال ووسائطها، وحالتها.
ـــ العمل التنظيمي والعقائدي وسط الجماهير الشعبية.

ومن الخصائص المميزة لطبيعة النظام الاقتصادي وإمكاناته، طبيعة العلاقات الإنتاجية التي تؤمن درجة فاعلية الإنسان، وحجم طاقته، وحماسته في العمل، وفي الصراع المسلح. ويفعل هذا القانون فعله من خلال كمية الأسلحة ونوعيتها، ومن خلال جهاز تنظيم الاقتصاد الوطني في أثناء الحرب، ومن خلال القيادة السياسية للبلاد.

٤ ـــ قانون اعتماد سير الحرب ومصيرها على تناسب الإمكانات النفسية المعنوية للطرفين المتحاربين

إن مسألة الطاقة (الكمون) المعنوية هي إحدى المسائل الهامة في النظريات العسكرية، لأن هذه المسألة هي مسألة نظرة الجماهير الشعبية الواسعة إلى الحرب الحديثة، وإلى غاياتها السياسية.

في ظروف الحرب الحديثة ازدادت أهمية الطاقة المعنوية السياسية ازدياداً لا حدود له، وذلك لأن الغايات السياسية للحرب أصبحت ذات طبيعة حاسمة، خاصة. بينما تتمتع وسائط خوضها بقوة فتاكة هائلة. إن اعتماد سير الحرب ومصيرها على تناسب الإمكانات السياسية المعنوية للطرفين المتحاربين هو أحد القوانين الموضوعية للحرب التي يحدد سيرها ومصيرها. كما أن هذا الاعتماد مرتبط بصورة عضوية بالدور الحاسم للجماهير الشعبية في التاريخ على وجه العموم، وفي الصراع المسلح خاصة. إن نظرة

الجماهير الشعبية الإيجابية إلى حرب أو أخرى هي دليل على أن هذه الحرب هي حرب ضرورية عادلة، ذات أهمية كبيرة بالنسبة لمستقبل البلاد.

تتجلى الحالة السياسية المعنوية بمظهرها المباشر في البطولات الجماعية لأفراد القوات، وفي الانضباط العالي للجنود، وروح المبادرة، واستعدادهم للعمل، وروح النظام العالية لدى البشر، وقوة التحمل الكبيرة، والاستعداد للتضحية، وعدم الخوف، وفي الصبر على الشدائد، وتقديم الضحايا، وتحمل الشظف والحرمان والفشل المؤقت، أو حتى الهزيمة بروح بطولية.

عندما يعلم أفراد القوات أن غايات الصراع هي بمثابة الحياة لهم، لا يدخر الجنود والضباط وسعاً في سبيل كسب النصر.

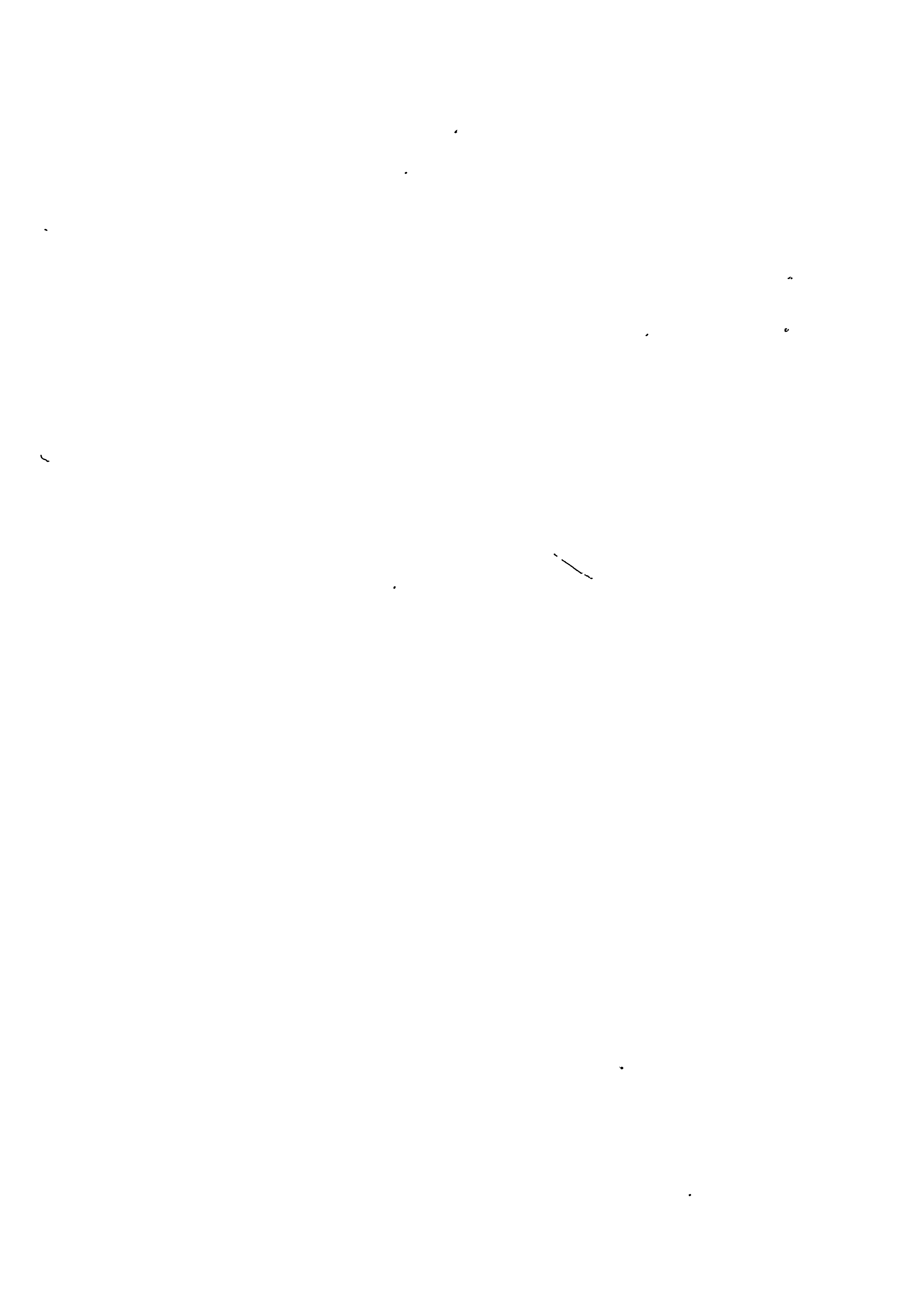
إن دور العامل المعنوي ليس عظيماً في الجبهة فقط، ولكن في المؤخرة أيضاً، وإن الحالة السياسية المعنوية العالية للجماهير الشعبية في المؤخرة شرط من شروط تماسكها واستقرارها، وفاعلية عملها لصالح الحرب.

وفي الحرب الحديثة، وعلى الأخص في ظروف استخدام الأسلحة الصاروخية النووية، يزداد دور العامل السياسي المعنوي والنفسي ازدياداً ملموساً.

إذن يؤثر الكمون المعنوي تأثيراً كبيراً على قيمة إمكانات الحرب الحديثة وقوّتها ومتانتها اقتصادياً وعسكرياً على حد سواء.

تكتشف قوانين الصراع المسلح عن طريق النشاط العملي للقادة الكبار، إلا أن كشفها وإدراكها مرّا في مراحل تاريخية طويلة، وتمّا بالطريقة التجريبية وبالمراقبة الطويلة للمراس العملي (خبرة الحروب والتدريب القتالي). ومنها نستخلص مبادىء الاستراتيجية والفوارق بينها وبين قوانين الصراع المسلح. فالقانون يثبت وجود ارتباطات موضوعية بين ظواهر الحرب، دون أن يحدد أية مهمات عملية لنشاط القوات للاستفادة من هذه الارتباطات. أما مبادىء الاستراتيجية، فتحدد اتجاه نشاط القوات والقيادات السياسية والعسكرية، وتبين أسلوب العمل لتحقيق النصر. فالقانون المتضمن مثلاً، أن النصر سيكون حليف من يملك التفوق العددي بالقوى والوسائط (عند تساوي الشروط

الأخرى)، ينعكس في مبدأ التوزيع غير المتساوي على امتداد الجبهة، وتكثيف القوى والوسائط على اتجاه الضربة الرئيسية.



ثانياً ــ شروط الحرب الحديثة وطبيعتها

١ ــ الميزات العامة للحروب الحديثة

الحرب استمرار للسياسة بوسائل العنف ، والصراع المسلح واسطته الأساسية ، وتحدد المصالح السياسية للدول المتصارعة غاية الحرب ، فالغاية والواسطة تحددان السمة الأساسية للحرب كظاهرة اجتماعية .

٢ ــ الجوهر السياسي للحرب ومحتواها

الحرب ظاهرة من أعقد الظواهر الاجتماعية ، وقد بلغ عدد الحروب خلال الخمسة آلاف سنة الماضية ١٤ ألفاً ، كما نشبت خلال النصف الأول من القرن الحالي حربان عالميتان . لقد بلغت خسائر الحرب العالمية الثانية وحدها خمسين مليون قتيل ، وظهور الحرب وطبيعتها ومكانتها في التاريخ كظاهرة اجتماعية خاضع لقوانين التطور الاجتماعي . وليست الحروب غاية في حد ذاتها بل واسطة للسياسة ، لذا يعتبر الطابع السياسي لأية حرب سمة مميزة لها ، ولا بدّ لفهم ذلك من تحليل الموقف السياسي الذي سبق الحرب ، والاتجاه السياسي للدول المعنية داخلياً وخارجياً . فالدول تطبق سياستها زمن السلم مستخدمة أساليب الصراع السلمي المختلفة ، من سياسية وعقائدية واقتصادية ودبلوماسية ، ولا تلجأ إلى وسائط الصراع المسلح إلا عند ازدياد حدة التناقض إلى حد يتعذر فيه تحقيق أهدافها دونه . فالصراع المسلح إذن هو الطابع المميز للحرب ولا نصر

بدونه. وتكتسب أشكال الصراع الأخرى مضامين جديدة، إذ تزداد حدة، وتوجه لتساعد الصراع المسلح في تحقيق الغايات السياسية للحرب.

٣ ـ العوامل العسكرية التقنية التي تحدد طبيعة الحرب

يعتمد طابع خوض الحرب وأساليبها على:

أ ـ **الشروط الاقتصادية**: لأن التنظيم والتسليح، وبالتالي فن العمليات تظل مرهونة بمستوى الإنتاج، ووسائط المواصلات في اللحظة الراهنة.
ب ـ **السكان كماً وكيفاً**، لأنهم الواسطة الأساسية لخوض الصراع المسلح.
ج ـ **مستوى تطور العلم والتقنية**، وبالتالي تطور وسائط خوض الصراع المسلح.

فظهور وسائط صراع جديدة بكميات كبيرة، وخاصة الوسائط النووية، أدى إلى ظهور أساليب جديدة، تؤدي إلى اختصار مدة الحرب، وبالتالي إلى تبديل طبيعتها. وعلى هذا سيكون للحرب المقبلة ملامح وسمات مغايرة للحروب السابقة.

٤ ـ تصنيف الحروب

الحروب ظاهرة اجتماعية متعددة الوجوه، تصنف وتعرف حسب:

أ ـ غاياتها السياسية فتكون:
١ ـ عادلة تحريرية كحرب تشرين التحريرية وحرب فيتنام.
٢ ـ غير عادلة أي عدوانية كالحروب التي شنتها الصهيونية والأمبريالية العالمية ضد الشعب العربي.

ب ـ حسب وسائط خوضها فتكون:
١ ـ حرباً نووية.
٢ ـ حرباً بالوسائط التقليدية.

ج ـ حسب مستواها فتكون:
١ ـ حرباً عالمية بين الأحلاف.
٢ ـ حرباً محلية أو محدودة.

د ــ حسب مدتها فتكون إما :

١ ــ حرباً طويلة .

٢ ــ حرباً خاطفة .

ه ــ حسب القوى المتصارعة فيها فتكون :

١ ــ حرباً بين الدول .

٢ ــ حرباً أهلية (ثورية) .

ولكل حرب طابعها وسماتها . ويساعد كشف ذلك على صحة التقدير السياسي ، وتحديد التدابير التفصيلية للبناء الحربي ، وتوقع خطرها ، ومعرفة نوع الحرب التي يجب أن تستعد لها الدولة والعدو المحتمل .

٥ ــ السمات الأساسية للحرب النووية العالمية

أ ــ **نووية** : لأن ازدياد تزويد أنواع القوات المسلحة بالسلاح الصاروخي النووي قد جعلت منه الواسطة النارية ، والضاربة الأساسية في الجيوش المتطورة ، دون أن يمنع هذا وسائط الصراع الأخرى .

ب ــ **صاروخية** : لن يقتصر توجيه الضربات النووية على الوسائط النووية والاستراتيجية الأخرى المعادية ، بل سيشمل المراكز الإدارية والسياسية والاقتصادية في العمق ، مما يؤدي إلى إضعاف القدرة الاقتصادية والمعنوية في وقت قصير جداً ، وبث الذعر والفوضى في صفوف الجيش والدولة . وهذا يزيد من أهمية دور الدفاع الجوي وخاصة الإقليمي ، وتحتل الصواريخ المكانة الأولى فيه .

ج ــ ازدياد أهمية الفترة الأولى من الحرب ، التي ستقرر نتائجها مجرى الحرب ومصيرها .

د ــ حرب الأحلاف ، وإن لم تكن هذه جديدة لأن الحروب العالمية السابقة كانت حروب أحلاف أيضاً ، ولكن طبيعة هذه الأحلاف هي التي تختلف .

ه ــ ستشمل القارات الخمس ، لأن تزويد القوات المسلحة للدول الرئيسية وبالوسائط الصاروخية النووية الاستراتيجية ، سيؤدي إلى إعادة النظر في دور المجال الأرضي ،

وتبديل دور أنواع القوات المسلحة في تنفيذها لمهمات الصراع المسلح، وبالتالي طابع الصراع المسلح نفسه.

إن استخدام وسائط الصراع المسلح الحديثة أعطى الحرب النووية الحديثة طابع الإبادة والتدمير، بشكل لم يعهد من قبل، مما يجعلها تغطي مجالاً أرضياً هائلاً، يعم القارات الرئيسية كافةً، وعرض المحيطات، والجو والفضاء، ولن يكون خط الجبهة عائقاً أمام الصواريخ النووية مهما كانت كثافة القوات عليه، ولن يكون للمسافة أي دور، وستكون جميع الأهداف العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية مكشوفة أمام الصواريخ النووية، التي يعتبر تدميرها أضمن وأسرع طريق لتحقيق النصر في الحرب الحديثة.

إن الصراع في مسارح الأعمال الحربية في الحرب العالمية الحديثة سيكون على مستويات أكبر، ولكن لن يلعب الدور الحاسم في تقرير مصير الحرب كما كان في الماضي. وفعلاً فإن الحرب العالمية النووية ستكون ظاهرة من نوعية جديدة، وستؤدي إلى تدمير دول كثيرة، وتشكل خطراً على الوجود البشري بكامله. ويجب التأكيد هنا على أن تعقُّد العلاقات الدولية في الظروف الراهنة، والتطور المذهل للعتاد القتالي سيجعلان أي نزاع مسلح يتصاعد دون شك إلى حرب نووية شاملة، إذا دخلت الدول النووية في هذا النزال. إن القدرة التدميرية الهائلة التي تتمتع بها الأسلحة النووية الموجودة معروفة للجميع. وإن هذه القوة تتضاعف بالاستخدام الكثيف للحشوات النووية، بمساعدة وسائط مضمونة ودقيقة لإيصالها إلى أهدافها (كالصواريخ). كل ذلك يعطي فكرة عن طبيعة الحرب النووية الصاروخية. إن أنواع القنابل الهيدروجينية الموجودة في الوقت الحاضر تفوق بقدرتها جميع المتفجرات التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية، أو كل الحروب التي عرفتها الإنسانية بعدة أضعاف. ويكفي القول إن الطيران الأنكلو أميركي في الفترة بين ١٩٤٠ ــ ١٩٤٥ ألقى خلال غاراته المتواصلة على ألمانيا والأراضي التي تحتلها ما يعادل مليوني طن من القنابل، بينما يستطيع صاروخ واحد في العصر الحاضر من المستوى الاستراتيجي أن يحمل إلى الهدف حشوة نووية، تزيد قوتها عدة مرات عن مجموع قوة انفجار المتفجرات المعادية التي كانت محشوة بها تلك القنابل. وبناء على حسابات العلماء فإن انفجار قنبلة هيدروجينية واحدة في مركز صناعي، يمكن أن يبيد

في آن واحد ٥ر١ مليون إنسان، وأن يميت بسبب الإشعاع ما يزيد عن ٤٠٠ ألف إنسان آخر، وحتى القنبلة النووية المتوسطة يمكنها أن تمحو من الوجود مدينة ضخمة بكاملها.

وقد وصل العلماء الإنكليز إلى استنتاج مفاده أن أربع قنابل من فئة ميغا طن على كل من لندن وبيرمنغهام ولانكشاير ويوركشاير ستؤدي إلى موت ٢٠ مليون إنسان في لحظة واحدة. وأما إحصاءات مصلحة حفظ الصحة الأميركية فتقول إنه نتيجة الضربة النووية على المدن الأميركية سيبقى على قيد الحياة فقط ١٣٥ مليون إنسان من أصل ١٨٨ مليون، أي سيبلغ مقدار القتلى ٥٣ مليون شخص. علماً بأن معظم المدن ستكون مدمرة بنتيجة الضربة النووية.

هذه هي بعض المعطيات التي تقدّم فكرة عن الضحايا والخسائر التي لا يمكن تجنبها في حال نشوب حرب عالمية نووية.

٦ ــ الميزات العامة لأساليب خوض الحرب العالمية النووية

يجب أن نفهم من أساليب خوض الحرب أنها مجموعة الأشكال والطرائق المتبعة في خوض الأعمال القتالية، واستخدام وسائط الصراع المسلح، وأنواع القوات المسلحة، والجحافل والتشكيلات، وصنوف القوات والقوات المسلحة بكاملها، لتنفيذ المهمات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والعملياتية ــ التكتيكية. ويعتبر الغربيون أن الأسلوب الأساسي في خوض الحرب النووية هو الضربات النووية الكثيفة بواسطة الصواريخ، والقاذفات التكتيكية، والمقاتلات القاذفة التكتيكية، والصواريخ العملياتية التكتيكية، والمدفعية الذرية. أما القوات البرية وبقية القوى والوسائط التقليدية فتخصص للاستفادة من نتائج الضربات النووية، ولغزو الأراضي، واحتلالها، وخوض الحروب المحلية.

تعتبر القوات الصاروخية النووية القوى الأساسية المخصصة لتنفيذ المهام الرئيسية في الحروب النووية، كما ستلعب القوى الأخرى دوراً هاماً فيها.

كما تعتبر قوات الدفاع الجوي، والدفاع ضد الصواريخ، والقوى والوسائط الموجودة في الدفاع المدني الوسيلة الرئيسية للدفاع عن البلاد، وعن تجميعات القوات المسلحة من الضربات النووية المعادية. إن وسائط الاستطلاع الحديثة وخاصة الوسائط الألكترونية، والأقمار الصناعية قادرة على الإنذار عند التدخل النووي المفاجىء. وفي الوقت الذي تسدد فيه الضربة الجوابية تبدأ وسائط الدفاع الجوي، والدفاع المضاد للصواريخ عملها، لصد الضربات الجوية والصاروخية التي يسددها العدو، وحماية السكان والمدن والمراكز الاقتصادية، وتجميعات القوات المسلحة من الضربات النووية المعادية. وعلى أثر الضربة الجوابية يمكن أن تسقط الإنزالات الجوية، وتنتقل التجميعات البرية إلى الهجوم السريع، يدعمها الطيران، لتسحق ما بقي من القوات المسلحة المعادية نهائياً، وإخراج بعض البلدان من الحرب. وفي الوقت نفسه تنتشر الأعمال القتالية في المسارح لسحق القوى البحرية المعادية، وتسديد ضربات نووية إلى الأغراض الساحلية، وشل النقل البحري المعادي، ودعم القوات البرية الصديقة في عملياتها على الاتجاهات الساحلية.

تعتبر الصواريخ النووية العملياتية التكتيكية، والطيران الجبهوي والتكتيكي (قاذفات، مقاتلات، قاذفة، ومقاتلات) من أهم وسائط الصراع المسلح في المسارح البرية. وستستخدم القوات المدرعة والميكانيكية لاستثمار نتائج الضربات النووية، وسحق تجميعات العدو المتبقية نهائياً، والتوغل في عمق أراضي العدو.

ستتميز الأعمال الحربية على المسارح البرية بفقدان الجبهات المتواصلة، وانتشار الأعمال القتالية في آن واحد على مساحات واسعة بالجبهة والعمق. وستتصف بالمناورة العالية، وضراوة القتال، وفداحة الخسائر، والتدمير الكبير، وتلوث المناطق بالإشعاع. وسيكون خطر الضربة النووية المعادية قائماً باستمرار. لذا يتوجب على القوات أن تنتشر وتناور باستمرار، أي أن تكون في حالة حركة دائمة، وأن تكون وسائط الوقاية جاهزة لديها، وأن تحسن استخدام الأراضي للوقاية من الموجة المصادمة.

تؤمن الخصائص القتالية العالية للقوات وتسليحها وعتادها القتالي، وخاصة السلاح الصاروخي النووي والدبابات وإمكانات القوات المدرعة والميكانيكية، المناورة العالية وخوض الأعمال القتالية بإيقاعات كبيرة.

تمتلك الدول الكبرى أساطيل بحرية قوية ، أُعدت لتوجيه الضربات النووية إلى القواعد البحرية ، والأهداف الأخرى في العمق ، ولمكافحة الغواصات ، وأنواع المراكب الأخرى ، وحماية المواصلات البحرية ، وتأمين الإنزالات البحرية . وتعتبر مكافحة الغواصات حاملة الصواريخ من أولى واجباتها .

يمكن تدمير الغواصات في قواعدها أو في عرض البحر ، بوسائط قطع الأسطول أو الطيران المضاد للغواصات بعد اكتشافها فوراً . فالغواصة حساسة جداً ضد الانفجارات النووية تحت الماء . أما سفن السطح ، فيتم تدميرها بضربات الغواصات الذرية المجهزة بالصواريخ والطوربيدات الموجهة ذاتياً ، وبواسطة الطيران البحري والطيران البعيد المدى ، كما تستطيع هذه الأساطيل شل مواصلات العدو البحرية ، وتأمين خطوط مواصلاتها .

تستطيع القوى البحرية في أثناء القتال على الاتجاهات الساحلية ، دعم القوى البرية ، وحمايتها في الوقت نفسه من قوى العدو البحرية ، والاستيلاء على المضائق ، وتأمين الإنزالات البحرية والنقل البحري ، وغير ذلك .

تشكل هذه الأعمال كافةً الفترة الأولى من الحرب العالمية النووية وتتميز بـ :

١ ــ الأهمية الكبرى لنتائجها ، مما يؤثر على مجرى الحرب بالكامل .
٢ ــ الحسم في الأعمال القتالية لدى الطرفين منذ الوهلة الأولى ، مع استخدام أقصى الطاقات المتوفرة .
٣ ــ محاولة كلّ طرف تحقيق غاياته السياسية والاستراتيجية في أقصر وقت ، ومنذ بداية الحرب .
٤ ــ سيكون الصراع المسلح أكثر ضراوة وتخريباً ، ويمكن تصور الموقف ، بعد تبادل الضربات النووية ، والضرر الذي سيلحق بأراضي دول كثيرة ، وخاصة الدول الصغيرة ، ذات الكثافة السكانية الكبيرة ، ومن خرائق تشمل الأهداف العسكرية والمدنية ، وخرائب تعم المدن ، وفيضانات كبيرة نتيجة تخريب السدود . وسيغطي الغبار المشع أراضي واسعة من الدول الداخلية في الحرب بجرعات مميتة ، تنتشر إلى الدول المجاورة ، ويصبح موت الملايين من البشر أمراً محتماً .

٧ ـــ مبادئ الدفاع المدني

يستدعي التهديد باستخدام أسلحة التدمير الشامل في الظروف الحديثة ضد القوات في ميادين القتال والمؤخرة العميقة، ظهور نوع جديد من التأمين الاستراتيجي للنشاط الحياتي للدولة، ألا وهو الدفاع المدني، والذي وجهت لإعداده وتنظيمه في مختلف الدول أهمية كبرى في الآونة الأخيرة. فقد شكلت غالبية الدول إدارة خاصة للدفاع المدني، يترأسها أحد أعضاء الحكومة، ويجري تحت إشرافها المباشر تجارب كثيرة للإنذار النووي، كما تعد الملاجىء اللازمة للوقاية النووية، وتقوم بتدريب السكان عسكرياً.

ولقد ازدادت الأهمية الاستراتيجية للدفاع المدني، لأن تنظيمه الجيد والفعال يؤدي ـــ بالإضافة إلى وقاية مؤخرة البلاد ـــ إلى تنفيذ عملية تعبئة القوات المسلحة في الفترة الابتدائية من الحرب بشكل أفضل.

إن المهمة الرئيسية للدفاع المدني هي تأمين الشروط لعمل مختلف أجهزة الدولة والصناعة بشكل طبيعي وفعال في أثناء الحرب. ويتم التوصل إلى هذه الأغراض بالتدابير التالية:

ـــ وقاية السكان من أسلحة التدمير الشامل.
ـــ تقديم المساعدات المختلفة للمصابين.
ـــ إزالة آثار ضربات العدو النووية بسرعة.

ترتبط المهام المذكورة أعلاه ببعضها كما تتمم الواحدة الأخرى، إلا أن طرق تنفيذها مختلف، إذ ينفذ قسم منها بقرار من الحكومة وعلى مستوى البلاد، (الإخلاء الجزئي، وتأمين الاتصال والسيطرة، وتشكيل قوات خاصة للدفاع المدني ..إلخ)، بينما ينفذ القسم الآخر بتعليمات من الوزارات أو الإدارات، وينفذ القسم الثالث بشكل لا مركزي، ضمن المدن والمؤسسات والمصالح. وبهذا الشكل يعتبر الدفاع المدني مجموعة من التدابير المتنوعة الواجبة على كل مواطن وكل فرد في جهاز الدولة، وهي متداخلة مع بعضها بشكل لا يمكن فصلها عن المهمات العامة لتنظيم إدارة البلاد واقتصادها القومي.

وإن مثل هذا التنظيم للدفاع المدني لا يؤدي إلى تخفيف مسؤولية الوزارات أو الإدارات أو المصالح في تأمين عمل المؤسسات والمصالح وتنظيمه، وكذلك في تأمين السكان وخدمتهم في أثناء الحرب، بل يزيدها.

يستدعي التخريب الواسع والخسائر الكبيرة المحتملة في حالة استخدام العدو للضربات النووية، إنشاء عدد كبير من تشكيلات الدفاع المدني، لإزالة آثار هجوم العدو في مؤخرة البلاد، تتألف من مفارز نجدة وإنقاذ، ومساعدة طبية، وآليات .. إلخ. ويجب تجهيز هذه المفارز بحيث يمكن إرسالها إلى مسافات كبيرة بوسائطها العضوية.

وحتى تستطيع قوات الدفاع المدني تنفيذ مهماتها بنجاح يجب وضعها على مسافات مناسبة من المدن الكبيرة والمناطق الصناعية.

إذ تمكن العدو من القيام بضربة نووية أو كيميائية أو جرثومية فإن جميع جهود الدفاع المدني ووسائطه يجب أن توجه إلى تقديم المساعدات الطبية للسكان، ولإطفاء الحرائق، وتنظيم أعمال الإنقاذ، ونقل المصابين من منطقة التلوث، وإخلاء الأصحاء منهم، وكذلك المحافظة على النظام.

عند تنظيم المساعدات المذكورة أعلاه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار الحجم الكبير للمساعدات الطبية الضرورية، وإتمامها بقوى ووسائط النقاط التي لم تتعرض للقصف، لأن أجهزة الدفاع المدني ووسائطه التي تعرضت للقصف ستتكبد خسائر جسيمة.

يتطلب تقديم المساعدة الطبية في اللحظة المناسبة إعداد الأطباء كافةً، بغض النظر عن اختصاصاتهم، وتدريبهم منذ السلم على تقديم المساعدة للمصابين بالوسائط النووية والكيميائية والجرثومية. ويشمل هذا التدريب الممرضات أيضاً.

يُعتبر وضعُ نظامٍ لتشخيص الأمراض السارية بسرعة، وتحديد نظام عمل المؤسسات والمصالح ووسائط النقل، وعزل المصابين والحجر الصحي أمراً هاماً جداً لتقديم المساعدة للمصابين عند هجوم العدو بالوسائط الجرثومية.

وخلاصة لما سبق يعتبر الإبداع في إعداد التدابير المذكورة، مركزية كانت أو لا مركزي، عاملاً هاماً في تنظيم الدفاع المدني، كما يجب زيادة حجم هذه التدابير باستمرار.

إن النصر في الحرب يتعلق بالدرجة الأولى بالتخطيط الصحيح والكامل لها، ويتقرر مصير الحرب إلى درجة كبيرة قبل خوضها. فإذا كان الإعداد لها في كلّ المجالات علمياً وشاملاً، فسيكون النصر فيها مضموناً، فكم من حرب جلبت الويلات إلى مشعليها، لأن الإعداد لها كان ناقصاً، ومبنياً على أسس خاطئة. فالقيادة الواعية هي التي تعتبر من دروس الماضي، وتستطيع التنبؤ بما سيحدث في المستقبل، وتعد العدَّة لذلك.

٨ ـــ أسس قيادة القوات

١ ـــ تعريف قيادة القوات ومتطلباتها

يشمل تعريف (قيادة القوات المسلحة) نشاط القيادة الاستراتيجية في مجالات إعداد الحرب وإدارتها، الذي يتضمن المسائل التالية:

- تحديد الهدف الاستراتيجي للحرب بالكامل، وهدف كل مرحلة من مراحلها، وذلك على ضوء الأهداف السياسية وطبيعة الحرب.
- قيادة القوات المسلحة في أثناء التحضير، والتعبئة، والانتشار الاستراتيجي، وتنظيم الأعمال الحربية وتأمينها من كل الوجوه.

تدل خبرة الحروب الماضية على أن قيادة القوات المسلحة في الحرب الحديثة بشكل صحيح تتطلب ما يلي:

- تقدير الشروط السياسية والاقتصادية والعسكرية التي يتم فيها إعداد الحرب وخوضها.
- التقدير الواقعي لإمكانات العدو وأعماله.
- تعبئة جميع جهود الدولة والقوات المسلحة لتأمين النصر على العدو، وبالتالي يجب أن تكون أجهزة قيادة القوات المسلحة قادرة ـــ بالإضافة إلى اعتبار الموقف والإمكانات ـــ على الاستفادة من تبدلاتها لصالحها، وأن تتنبأ بشكل علمي ومعلل بتطورها لأمد طويل، وأن تتخذ القرارات في الوقت المناسب، وتنفذها بحزم.

إن قيادة القوات في الظروف المعاصرة تزداد تعقيداً، ويتعاظم حجم الأعمال

المنفذة لتنظيم القيادة الاستراتيجية من جهة، ويتقلص الوقت اللازم لذلك من جهة أخرى، مما يؤدي إلى تعاظم ثبات القيادة ومرونتها وسرعتها وسريَّتها في شروط الحرب الالكترونية النشطة.

٢ ــ الأجهزة القيادية الاستراتيجية

يختلف تشكيل الأجهزة القيادية وطرق قيادة القوات المسلحة بين دولة وأخرى، لكنها تتفق جميعاً في محاولة الوصول إلى طريقة تناسب طبيعة الحرب، وتؤمن وحدة القيادة، من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، ويمكن أن تكون كما يلي:

١ ــ جهاز قيادة للدولة والقوات المسلحة، يتألف من عدد من الوزراء والمسؤولين السياسيين الآخرين، تترأسه أعلى سلطة سياسية في الدولة ــ رئيس الجمهورية، أو رئيس مجلس الوزراء، حسب نظام الحكم القائم في الدولة ــ يسمى مجلس الدفاع أو اللجنة العليا، أو القيادة العليا ويهتم بـ:

إعداد الدولة للحرب في مختلف المجالات:

أ ــ إعداد القوات المسلحة.

ب ــ إعداد الاقتصاد.

ج ــ إعداد السكان.

٢ ــ هيئة أركان عامة (مجلس رؤساء الأركان) وتهتم بـ:

أ ــ وضع الخطط الاستراتيجية.

ب ــ استخدام جميع أنواع القوات المسلحة للدفاع عن البلاد.

ج ــ تأمين القوات المسلحة من جميع الوجوه.

د ــ إعداد مسارح العمليات.

هـ ــ تأمين التعبئة والانتشار.

و ــ تشكيل الاحتياطات.

ز ــ أية مواضيع أخرى تتعلق بتأمين الدفاع عن البلاد بالكامل.

٣ ــ قيادات مسارح (قيادات جبهات أو اتجاهات).
٤ ــ قيادات أنواع القوات المسلحة.
٥ ــ قيادة القوات المتحالفة.

بغية توحيد الجهود السياسية والاقتصادية والحربية للدول المتحالفة، والدعم المتبادل فيما بينها، وتعبئة كل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية والحربية، وتحديد خط مشترك لسياستها الحربية والاستراتيجية خلال الحرب بكاملها، ولكل مرحلة من مراحلها على حدة، وتأمين الوحدة الكاملة في قيادة قواتها المسلحة المشتركة، يكوّن:

١ ــ جهاز قيادة سياسي لتنسيق جهود الدول المتحالفة على غرار المجلس الاستشاري لحلف وارسو، أو مجلس حلف شمال الأطلسي، الذي يضم وزراء الخارجية والدفاع والمال للدول الداخلية فيه، ويشترك فيه عند الضرورة رؤساء الدول الذين يكوّنون القيادة السياسية العليا لهذا الحلف.

٢ ــ لجنة عسكرية وهي أعلى جهاز عسكري، ويمكن أن تتألف من ممثلي هيئات الأركان للدول الداخلة في الحلف، وتعالج المواضيع التالية:

أ ــ تخطيط الاستراتيجية العسكرية.
ب ــ إنشاء القوات المسلحة وإعدادها.
ج ــ قيادة القوات المسلحة عملياً.

٣ ــ قيادات مسارح العمليات (الاتجاهات والمناطق)، وتتكوّن في حلف الأطلسي مثلاً من:

أ ــ القيادة العليا في أوروبا.
ب ــ القيادة العليا في الأطلسي.
ج ــ لجنة منطقة بحر المانش.
د ــ مجموعة استراتيجية محلية لكندا والولايات المتحدة.
هـ ــ قسمت المنطقة الخاضعة للقيادة الأوروبية إلى ثلاث مسارح عمليات:
أ ــ مسرح عمليات شماليّ أوروبا.
ب ــ مسرح عمليات وسط أوروبا.

ج ــ مسرح عمليات البحر المتوسط.

٣ ــ طرق القيادة الاستراتيجية

عادة تتخذ القيادة العليا القرارات الاستراتيجية الهامة بعد مناقشتها، وترسل إلى قيادات مسارح العمليات (الجبهات + المناطق) على شكل توجيهات يذكر فيها:

أ ــ هدف العملية.

ب ــ القوات المخصصة لتنفيذها.

ج ــ وقت تقديم خطط العمليات للتصديق.

د ــ وقت الجاهزية وطريقة إعطاء التوجيهات عن بدئها.

تُترَك لقيادات المسارح حرية التنفيذ، على أن تؤمن القيادة العليا التعاون بين المسارح، واستخدام الوسائط الاستراتيجية مركزياً (مثل الصواريخ بعيدة المدى ــ الطيران الاستراتيجي ــ الوسائط الكونية).

٩ ــ دراسة وجهة نظر العدو في خوض الحرب

الصراع المسلح عمل ثنائي الجانب، يلعب فيه العدو دوراً هاماً، وقد يكون حاسماً يتوقف على إمكانات هذا العدو وأساليب عمله، **وطابع تنفيذ الكثير من المهمات الاستراتيجية. وتتضمن نظريات الاستراتيجية العسكرية دراسة لإمكانات** واستعداد العدو للحرب ودرجته، وقوام قواته المسلحة، وغاياته السياسية والعسكرية المحتملة في الحرب المقبلة، وإمكاناته الاقتصادية والعسكرية والمعنوية، كما تدرس بشكل دقيق وجهات نظر العدو حول طبيعة خوض الصراع المسلح وأساليبه، وبناء القوات المسلحة، وإعداد الاقتصاد والسكان وأراضي الدولة للحرب.

الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية

تعتمد خصائص وجهات نظر القيادة العسكرية الإسرائيلية حول إعداد البلاد والقوات المسلحة للحرب وخوض الأعمال القتالية وأساليبها على الأهداف السياسية للصهيونية، والظروف الجغرافية والاقتصادية. وتتعلق الاستراتيجية العسكرية للحكومة

الإسرائيلية بعقيدتها العسكرية، التي تعتبر أداة السياسة الخارجية والداخلية للدوائر الصهيونية الحاكمة، والخاضعة بصورة تامة للأمبريالية.

يتلخص المضمون الأساسي للعقيدة العسكرية الإسرائيلية في أن «إسرائيل كحكومة لا يمكن أن تبقى إلا بالحرب، والاستيلاء على الأراضي العربية، وضمها إلى الأراضي المحتلة في فلسطين وبالتالي توسيع حدودها باستمرار».

تبرر الحكومة الإسرائيلية الطبيعة العدوانية للعقيدة العسكرية والسياسة الخارجية الإسرائيلية بالحدود الضيقة لأرضها، وعدم كفاية مساحتها لاستيعاب ١٤ مليون يهودي منتشرين في جميع أرجاء المعمورة، وبالكثافة العالية لسكانها في الأراضي التي تحتلها في هذه الأيام، وبعدم كفاية الموارد المادية، وبسوء الحدود الجغرافية للدولة الحالية. يقول وزير حرب العدو السابق موشي ديان: «يجب أن يكون هدف أعمالنا خلق الإمبراطورية الإسرائيلية، الممتدة من النيل حتى الفرات».

يدخل في صلب العقيدة العسكرية الإسرائيلية نظرية الحرب الخاطفة. وتعلل الصهيونية وحلفاؤها الأمبرياليون هذه النظرية بـ: أرض إسرائيل الضيقة التي هي عبارة عن شريط من الأراضي الساحلية، حدودها البرية واسعة وغير محمية بحواجز طبيعية، والتركيز الكبير لصناعاتها (٨٠ ـــ ٩٠٪ من المراكز الصناعية المتواجدة في تل أبيب وحيفا)، كل هذه العوامل تجعل إسرائيل عرضة للخطر من قبل العدو الأرضي والجوي، ونظراً لقلة السكان، وقلة المصادر المادية فإن هذا لا يسمح لإسرائيل بخوض حرب طويلة الأمد.

ولهذا تأخذ الاستراتيجية العسكرية بعين الاعتبار:

ـــ توجيه ضربة خاطفة مفاجئة وقوية على التجميع الرئيسي المعادي بقوى الطيران والقوات المدرعة.
ـــ امتلاك زمام المبادهة الاستراتيجية منذ اللحظة الأولى للحرب.
ـــ تدمير تجميعات العدو المتبقية الواحدة تلو الأخرى، وذلك بنقل الجهود من اتجاه إلى آخر، ومن جهة لأخرى بأسرع ما يمكن.
ـــ نقل الأعمال القتالية إلى أراضي الدول العربية.

بعد وقف إطلاق النار يجب أن توجه الجهود القصوى للمحافظة على الأراضي المحتلة .

إن أهم أهداف الخطة الاستراتيجية الإسرائيلية هي :

الأهداف العسكرية

ـــ تدمير القوات المسلحة للدول العربية المجاورة وسحقها .
ـــ الاستيلاء على المزيد من الأراضي العربية بهدف خلق (إسرائيل الكبرى) .

الأهداف السياسية

ـــ القضاء على الأنظمة التقدمية في الجمهورية العربية السورية وغيرها من الدول العربية الأخرى .
ـــ تمزيق وحدة الدول العربية ، وخلق دويلات صغيرة تقوم على حكم الأقليات .
ـــ تقويض التعاون بين الدول العربية والمنظومة الإشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي . وعندما لا تسمح الظروف لإسرائيل بتحقيق الأهداف السياسية للحرب بحجمها الكامل ، فهي تسعى إلى «إجبار الدول العربية على الاعتراف بإسرائيل كحكومة ضمن حدود جديدة» .

إن معاهدة كامب ديفيد ، والحرب الإيرانية ـــ العراقية المستمرة ، تعطي دفعاً قوياً للسياسة الإسرائيلية ، وتحسِّن من وضعها السياسي . ولا تستطيع إسرائيل بمفردها أن تقوم بأعمال عدوانية على مستوى كبير ، لأن ذلك يكوِّن خطراً على وجودها وكيانها . ولهذا تعتبر إسرائيل أن من الشروط الضرورية لإشعال نار الحرب العدوانية ما يلي :

الشروط السياسية

ـــ رغبة الدول الغربية في إشعال نار الحرب بين إسرائيل والعرب .
ـــ امتناع الدول الغربية عن التدخل في شؤون الشرق الأوسط بالقوة .
ـــ خلق النزاعات والخلافات بين الدول العربية .
ـــ السعي لزيادة عدد الدول العربية المرتبطة بالدول الغربية .

ـــ تحسين العلاقات الإسرائيلية مع بعض الدول والحكومات الإفريقية.
ـــ تقوية النواحي العسكرية والسياسية وتعزيز الدعاية لصالح إسرائيل.
ـــ إتخاذ الإجراءات المناسبة للتقرب من الأقليات الطائفية بهدف جرها لسيطرتها.

الشروط الاقتصادية

ـــ تعبئة جميع الموارد القومية.
ـــ تطوير الاقتصاد وتوجيهه المسبق لخدمة أغراض الحرب.
ـــ توسيع المشتريات العسكرية من الدول الغربية.
ـــ خلق الاحتياطات الاستراتيجية من المواد الخام من أجل الصناعة والمعدات الحربية اللازمة لقواتها المسلحة.
ـــ اتخاذ الإجراءات لمنع الحصار الاقتصادي.

الشروط العسكرية

ـــ التعبئة الكاملة للجيش الإسرائيلي بسرية مطلقة، وبأقصى سرعة ممكنة.
ـــ إعداد الجيش إعداداً كاملاً للحرب الخاطفة.
ـــ يجب أن تظهر خطط الهجوم وكأنها خطط دفاعية.

يؤخذ بعين الاعتبار، في الخطة الاستراتيجية للحرب الدفاعية تقسيمها إلى ستة فترات: الفترة التحضيرية ـــ الدفاع الفعّال ـــ و ٤ فترات للأعمال الهجومية اللاحقة.

لقد اتبعت القيادة الإسرائيلية هذا التسلسل في حروبها ضد العرب أعوام ١٩٦٧ ـــ ١٩٧٣.

الفترة التحضيرية

تتضمن الفترة التحضيرية التعبئة الكاملة للموارد القومية وتسخيرها للدفاع والهجوم.

الدفاع الفعّال

الدفاع على طول الحدود بشكل يكون فيه العدو بعيداً عن المراكز الحيوية في البلاد. وتتضمن نظرية الدفاع الفعال ما يلي:

ـــ توسيع حدود إسرائيل بالتتابع خطوة خطوة لتكون المراكز الحيوية بعيدة عن الأعمال القتالية.
ـــ تركيز الجهود للدفاع عن القواعد والمراكز الاستراتيجية.
ـــ عزل جيوش الدول العربية بعضها عن بعض.
ـــ إيجاد خطوط انطلاق وتشكيلها من أجل الهجوم.
ـــ تدمير القوى الجوية العربية وهي في قواعدها (مطاراتها)، وتحطيم دفاعاتها الجوية وانتزاع السيطرة الجوية.
ـــ تدمير القوى والوسائط البحرية العربية، وهي في موانئها وقواعدها.
ـــ استفزاز الدول العربية لكي تبدأ الحرب في الوقت والمكان المناسب لإسرائيل.

بنيت الخطة الاستراتيجية للعدو على أساس تدمير جيوش الدول العربية وسحقها على التوالي (بالتتابع). تعتبر الجمهورية العربية السورية وقواتها المسلحة العدو الأول الرئيسي بالنسبة لإسرائيل.

فترات الأعمال الهجومية المحتملة اللاحقة

الفترة الأولى:

الهجوم باتجاه الجنوب بهدف إخراج جمهورية مصر العربية من الحرب، والاستيلاء على شبه جزيرة سيناء، والوصول إلى قناة السويس.

القوى الضاربة الرئيسية: القوى الجوية، القوات المدرعة، وقوات الإنزال الجوي.

الفترة الثانية (بوقت واحد مع تنفيذ الفترة الأولى):

الهجوم باتجاه الشرق بهدف:

ـــ الاستيلاء على القسم الغربي من أراضي المملكة الأردنية الهاشمية.
ـــ منع اقتراب القوات العراقية، وعند اقترابها ـــ تدميرها.
ـــ إخراج الأردن من الحرب، وخلق الظروف الملائمة للوصول إلى الخليج العربي.

القوة الضاربة الرئيسية: القوى الجوية، القوات البحرية بقوى ١٠ ـــ ١٢ لواء.

الفترة الثالثة:

الهجوم على الجبهة الشمالية بهدف تدمير قوات الجمهورية العربية وسحقها، وإخراج كل من سورية ولبنان من الحرب، والاستيلاء على بعض العواصم العربية أو محاصرتها. في مثل هذه الظروف يحاول المحتلون استغلال الأقليات الدينية حيث يحثون على تأليف حكومات مستقلة تتبع الدولة الإسرائيلية.

الفترة الرابعة:

لم تكشف الخطة الاستراتيجية الإسرائيلية هذه الفترة بصورة مفصلة، لكن من الواضح أن هدفها سيكون الوصول إلى نهر الفرات، وخلق الممر الذي يؤدي إلى الخليج العربي، أو خلق الظروف الملائمة لتأمين الأعمال القتالية على اتجاهات أخرى.

لتنفيذ مهام الفترة الأولى والثانية والثالثة لا بدّ للقوات الإسرائيلية من تدمير القوى الجوية والدفاع الجوي والقوى البحرية للجمهورية العربية السورية، وغيرها من الدول العربية، بضربات مفاجئة من قبل القوى الجوية الإسرائيلية، والاستيلاء على زمام السيطرة الجوية والبحرية، وبالتالي تركيز جهود الطيران من أجل تأمين وتائر عالية لهجوم القوات البرية الإسرائيلية، وإخراج الدول العربية الواحدة تلو الأخرى من الحرب، وبالدرجة الأولى — إخراج الجمورية العربية السورية. وإذا لم يتسنَّ لإسرائيل تحقيق كل ذلك، فعليها الانتقال إلى الدفاع عن الخط المحتل، ودعم امكاناتها العسكرية والاقتصادية وتطويرها، وخوض الصراع السياسي ضد الأمة العربية، لتأمين الشروط اللازمة لبدء الفترة الرابعة من الهجوم، وبلوغ الهدف النهائي للحرب — خلق الامبراطورية الإسرائيلية في الشرق الأوسط، أو تأمين الدفاع المتين والصلب عن الأراضي المحتلة، بهدف المساومة على الحدود الآمنة بالنسبة لإسرائيل. وهكذا... تتلخص بنود الاستراتيجية العسكرية العدوانية لإسرائيل في ما يلي:

— عدم الهجوم (عدم البدء بالحرب)، إذا لم تتوفر الضمانات الكاملة للنجاح.
— يمكن أن تكون الحرب وقائية، مفاجئة، كما يجب أن تكون المبادهة الاستراتيجية في يد القوات الإسرائيلية.

ـــ يجب عدم خوض الأعمال القتالية الفعالة (الهجومية) بآن واحد على أكثر من جبهة واحدة على أن يتأمن الدفاع على الاتجاهات الأخرى.

ـــ حشد القوات والتحضير للهجوم بشكل مستور ومخفي، والشروع بالهجوم بشكل حاسم وبوتائر عالية.

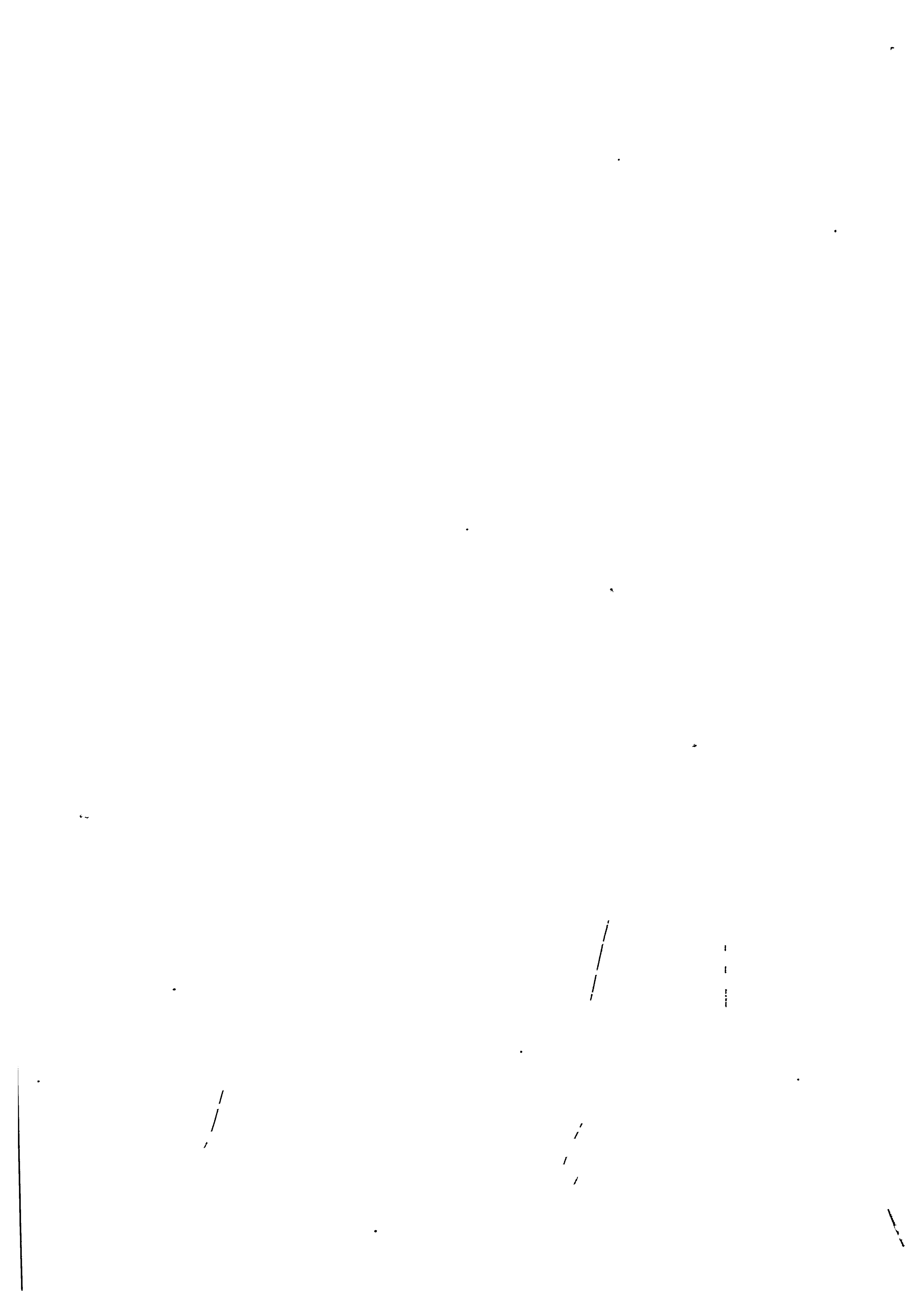
ـــ يجب وبسرعة نقل جهود القوات من جبهة لأخرى.

تولي القيادة الإسرائيلية أهمية بالغة وبالغة جداً للاستطلاع.

بعد نهاية حرب عام ١٩٦٧ أعلن وزير حرب العدو السابق موشي دايان «لقد لعب الاستطلاع دوراً لا يقل أهمية عن دور القوات المدرعة والطيران في صنع النصر».

تشير الخبرة العملية للسنوات الأخيرة، أن كثيراً من العوامل التي أوردناها سابقاً أصبحت ذات طبيعة ثابتة.

تصرح الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة الأميركية وفي غيرها من الدول، وخاصة في دول منظومة حلف الناتو، أنها لا تسمح ولا بشكل من الأشكال أن تهزم إسرائيل، حتى ولو دخلت هي الحرب ضد الأمة العربية، فهي تعلن عن ذلك بصراحة ودون مواربة. إن التدخل العسكري للدول الغربية في شبه جزيرة سيناء وفي لبنان موجه عملياً لتعزيز التواجد العسكري للولايات المتحدة الأميركية في منطقة الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه لتأمين أمن إسرائيل وسلامتها. ولايعني توقيع معاهدة التعاون بين الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل حول التعاون الاستراتيجي إلاّ شكلاً قانونياً من أشكال التحالف العسكري والعدواني بين حكومتيهما الموجودة سابقاً.



ثالثاً ــ إعداد الدولة للحرب

تمهيد

إن تحقيق النصر في الحروب الحديثة هو نتيجة جهود ضخمة ومشتركة تقوم بها جميع أجهزة الدولة ومؤسساتها، وتنفق في سبيلها الامكانات المتاحة كافة. ويبذل لها أقصى ما يمكن من الطاقة.

ومن الخطورة بمكان أن تترك الأمور التي تمس كيان الدولة ومستقبلها، وخاصة أمور الدفاع عنها إلى الصدفة والقدر. فكل شيء في هذا المجال يجب أن يحسب حسابه، وأن يتم تنفيذه في الوقت المناسب والصحيح، وحتى لا تفاجأ الدولة بتورطها في صراع مسلح دون إعداد جيد ومدروس.

إن جميع التدابير والإجراءات والجهود التي تتخذها الدولة زمن السلم في سبيل تحقيق خاتمة مظفرة للصراع المسلح، تندرج تحت ما أصبح يعرف حالياً في العلم العسكري (بإعداد الدولة للحرب).

إن إعداد الدولة للحرب ليس عملية محددة أو محدودة، تتم وتنتهي في توقيت محدد ثم تتوقف، بل هي عملية مستمرة، تساير التطور، وتلاحق الأحداث، بل وتسبقها لتستعد لها.

كذلك فإن عملية إعداد الدولة للحرب هي عملية متكاملة. فهي ليست مسؤولية جهة أو جهاز واحد في الدولة، بل هي مسؤولية مؤسساتها وأجهزتها كلّها. وتتم وفق خطة شاملة مدروسة بعمق وموضوعية، على أسس علمية سليمة، تتوافق مع واقع الدولة نفسها وطبيعتها، ومع طبيعة الحروب التي سوف تخوضها. مما يحتم وجود النظرة العميقة والدراسة الدقيقة للأحداث الدولية، وبصفة خاصة ما قد يؤثر منها على الدولة، أو يقع على أراضيها، وتحديد موقف الدولة وسياستها وأسلوب عملها، وبالتالي إعداد نفسها للمواجهة الناجحة السليمة للصراع.

يتضمن إعداد الدولة للحرب مجموعة من التدابير الرئيسية أهمها:

- إعداد القوات المسلحة.
- إعداد الشعب.
- إعداد أجهزة الدولة.
- إعداد الاقتصاد الوطني.
- إعداد مسرح العمليات.

١ ــ إعداد القوات المسلحة

القوات المسلحة هي الدرع الواقي للدولة ضد العدوان، وهي التي تحافظ على سلامة ترابها الوطني، وتدافع عن مكتسباتها. كما أنها أداتها في ردع المعتدي وتدميره، إذا ما فكر في العدوان.

ولا يمكن أن تكون القوات المسلحة قادرة على تحقيق هذه المهام في الحرب إلا إذا تم إعدادها، وبناؤها بناء سليماً منذ أيام السلم.

يعتبر إعداد القوات المسلحة من أولى واجبات الدولة. حيث يجب أن ينال هذا الواجب القسط الأكبر من اهتمام قيادتها السياسية. وهو يعتبر أهم قطاع في عملية إعداد الدولة للحرب، كما أن بناء القوات المسلحة يعتبر المجال الحيوي للاستراتيجية العسكرية، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية.

ولا يقع عبء إعداد القوات المسلحة للدولة على أجهزة وزارة الدفاع والقيادة

العامة للقوات المسلحة فحسب، بل على جميع أجهزة الدولة ومؤسساتها التي تشارك في الإعداد وتعمل على تلبية وتوفير مطالب واحتياجات القوات المسلحة حتى يأتي بناؤها متكاملاً وقائماً على أسس متينة وراسخة.

إن العوامل التي تؤثر على إعداد القوات المسلحة وبنائها هي:

— الهدف السياسي — الاستراتيجي للدولة.
— الوضع الاقتصادي للدولة وحجم مواردها البشرية والمادية.
— طبيعة العدو المحتمل، وقدراته وأطماعه وأسلوبه في الصراع.
— طبيعة الصراع المنتظر، وأنواع الأسلحة المستخدمة فيه.
— طبيعة مسرح العمليات.
— العقيدة العسكرية للدولة.
— أسلوب القيادة والسيطرة.

يؤثر كل عامل من هذه العوامل بشدة على الحجم المطلوب من القوات المسلحة: فمثلاً يجب تحديد العدو المنتظر مواجهته، والوقت المحتمل للمواجهة، وما هو حجم العدو في ذلك الوقت، وما هي نسبة التفوق المطلوب أن تكون عليه قواتنا لتحقيق النصر، كما يجب أن لا يكون التفوق في الكم فقط، بل في نوعية التسليح والمعدات أيضاً.

وإن طبيعة الصراع المحتمل تؤثر في حجم القوات المسلحة وشكلها للدولة التي يجب أن تكون قادرة على خوض ذلك الصراع بنجاح، والذي قد يتطلب قوات إنزال جوي أو بحري، أو قوات ميكانيكية أو خفيفة.

كذلك فإن طبيعة مسرح العمليات واتجاهاته العملياتية تؤثر على حجم القوات المسلحة، فالاتجاه الصحراوي يتطلب نوعية معينة تختلف عن الاتجاه الجبلي، أو الزراعي، أو الآهل بالسكان، أو الذي يحتوي موانع مائية، أو الممتد بجوار السواحل البحرية.

كما أن لدور القيادة والسيطرة أهمية كبرى في تحديد الحجم. فكلما زاد حجم القوات المسلحة، وكلما تعددت أنواعها وكلما زاد انتشارها، تعقّدت السيطرة عليها، وزادت أعباؤها. الأمر الذي يجب أخذه بعين الاعتبار، عند تشكيل القوات المسلحة وتكوينها.

وأخيراً فلعل من أهم العوامل المؤثرة على بناء القوات المسلحة هو الحالة الاقتصادية. فالدولة مهما كانت قدراتها كبيرة لا يمكنها الاحتفاظ بقواتها المسلحة كاملة في كل الأوقات، لأن ذلك يعتبر مخالفاً لمبدأ المحافظة على القوى، لذلك فإن هذا العامل هو الذي يحدد الحجم الدائم من القوات الواجب الاحتفاظ به في السلم، والحجم الكامل خلال الحرب.

يشتمل إعداد القوات المسلحة على التدابير التالية:

- التخطيط الاستراتيجي لاستخدام القوات المسلحة.
- تقدير حجم القوات المسلحة في زمن السلم والحرب، وبناء هذه القوات، وإعداد نظام التعبئة عند توقع الحرب.
- وضع أسلوب الانتشار الاستراتيجي للقوات المسلحة، وبناء التجمعات الاستراتيجية والعملياتية في مسرح العمليات، وعلى الاتجاهات الاستراتيجية المختلفة.
- وضع خطط التدريب القتالي وتنفيذها.
- وضع التأمين الشامل للقوات وتنفيذه.
- إعداد مسرح العمليات وتجهيزه.
- تنظيم الاستطلاع الاستراتيجي.

أ ــ التخطيط الاستراتيجي لاستخدام القوات المسلحة

يعتبر التخطيط الاستراتيجي العمود الفقري لإعداد القوات المسلحة. وهو يعني أساساً استخدام القوات المسلحة في الحرب وتأمينها بكل ما تحتاجه مادياً وفنياً وبشرياً.

يتم التخطيط الاستراتيجي لاستخدام القوات المسلحة من قبل أجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة (وزارة الدفاع)، ويصادق على التخطيط من قبل القيادة السياسية للدولة.

يشمل التخطيط الاستراتيجي لإستخدام القوات المسلحة العديد من الخطط العامة والخاصة وأهمها:

ـــ الفكرة والقرار الاستراتيجي لاستخدام القوات المسلحة في الحرب .
ـــ الخطط الاستراتيجية لاستخدام أنواع القوى المسلحة وتشمل خطط استخدام القوى البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوي .
ـــ خطة تعبئة القوات المسلحة ، وخطة الانتشار الاستراتيجي ، وبناء التجميعات الاستراتيجية والعملياتية في مسارح العمليات ، أو على الاتجاهات العملياتية .
ـــ خطة الاستطلاع الاستراتيجي قبل بدء العمليات وبعده .
ـــ خطط التأمين الشامل للقوات .
ـــ خطة السيطرة .
ـــ خطة الخداع والتمويه الاستراتيجيين .

يجب أن يراعى دائماً عند التخطيط الهدف الاستراتيجي الواجب بلوغه بالكفاءة والقدرة اللازمة . كما يجب مراعاة الواقعية والإمكانات والقدرات الفعلية للقوات حاضراً ومستقبلاً ، وكذلك إمكانات الدولة وقدراتها لخدمة القوات المسلحة وتوفير مطالبها .

يجب أن تراجع الخطط الموضوعية دورياً ، أو كلما طرأت تطورات جذرية على الأحداث المحيطية بالدولة ، أو التي قد تؤثر فيها ، وذلك حتى تتجاوب الخطط مع هذه التطورات وتؤمِّن مواجهتها بكفاءة .

ب ـــ تحديد حجم القوات المسلحة في السلم والحرب وبناء هذه القوات

لا تستطيع أية دولة مهما كانت قدراتها الاقتصادية مرتفعة أن تحتفظ بقواتها المسلحة كاملة الحجم طوال الوقت ، إذ إنَّ في ذلك عبئاً ضخماً على اقتصاد الدولة ، وبالتالي تأثيراً كبيراً على سير الحياة فيها . لذلك تعمد أغلب الدول إلى الاحتفاظ زمن السلم بحجم من القوات قادر على مواجهة الأحداث المفاجئة ، مع وضع نظام دقيق وسليم لتعبئة « الحجم اللازم لاستكمال القوات المسلحة في زمن الحرب » . ولا شك في أن لكل دولة ظروفها الخاصة التي تحدد حجم هذا الجزء أو ذاك . ذلك أن الأمر يحتاج إلى موازنة عدة أمور قبل إقرار حجم القوات المسلحة في السلم ، وحجمها في أثناء الحرب .

يجب أن يراعى عند تقرير حجم القوات المسلحة وأسلوب بنائها أن يلبي هذا الحجم مطالب الحرب الحديثة ، وأن يساير اتجاهات التطوير ، سواء في المعدات أو في

أسلوب القتال. كما يجب أن يراعي ما تحدثه الحرب الحديثة من خسائر كبيرة في القوى البشرية والمعدات، بحيث يؤمن الحجم المطلوب إمكانية الاستمرار في القتال.

من كل ذلك فإن حجم القوات المسلحة للدولة ينقسم عادة إلى نوعين:

ـــ زمن السلم

ويكون حجمها في المستوى الذي يمكنها من صد أي هجمات معادية مفاجئة، والبدء في أعمال نشطة حاسمة، مع إمكانية دعم قوة الصدمة الأولى بقوات جديدة معبأة.

إن حجم القوات المسلحة زمن السلم يجب أن يتضمن القوى القادرة على بدء العمليات الحربية مباشرة، دون الحاجة إلى وقت طويل للانتشار ورفع الجاهزية، وخاصة في القوى الجوية والدفاع الجوي، وتشكيلات القوى البشرية الموجودة قرب حدود الدولة، وفي مسرح العمليات الرئيسي، والقادرة على بدء العمل مباشرة، وصد العدوان، وإتاحة الوقت اللازم للتعبئة، ولانتشار باقي تشكيلات القوات المسلحة، ودفعها إلى مسرح العمليات.

ـــ زمن الحرب

يحدد حجم القوات المسلحة زمن الحرب على ضوء الأهداف السياسية والعسكرية للدولة والمهام الاستراتيجية المطلوب تحقيقها بالحرب، وكذلك على ضوء حجم العدو المنتظر وقدراته، ونسبة التفوق المطلوبة لمواجهته، ومدة استمرار العمليات، وحجم الخسائر المتوقعة.

وتتفاوت نسبة حجم القوات المسلحة زمن الحرب بالنسبة لحجمها زمن السلم، بحسب الموقف السياسي والعسكري والجغرافي للدولة. وقد تفاوتت هذه النسبة في الحرب العالمية الثانية بين $\frac{١}{٥}$ بالنسبة لبعض الدول (فرنسا مثلاً) و $\frac{١}{٢٩}$ في الدول الأخرى (أميركا).

إن الحاجة إلى زيادة حجم القوات المسلحة زمن السلم موجودة دائماً، وكثير من الدول (ومنها الدول العربية) تحتفظ بحجم كبير من قواتها المسلحة بصفة دائمة.

ولما كانت القوات المسلحة هي أكبر مستنزف للموارد الاقتصادية والبشرية لأية دولة ، فإنه يجب عدم الاندفاع وراء الاحتفاظ بحجم ضخم ، بل يجب أن يعوض ذلك بوضع نظام دقيق للتعبئة ، قادر على الانتقال بالقوات من وضع السلم إلى وضع الحرب في أقل وقت ، وبأحسن أسلوب .

ــ نظام التعبئة

إن التعبئة بمعناها الشامل تعني تحويل الدولة كلّها من حالة السلم إلى حالة الحرب . وهي إما أن تكون عامة أو جزئية ، سرية أو علنية . والتعبئة العامة تشمل تعبئة جميع مصادر الدولة . لذا فهي بطبيعة الحال ستكون علنية . أما التعبئة الجزئية والتي تشمل قطاعاً واحداً ، أو عدة قطاعات من الدولة ، فيمكن إجراؤها بسرية ، وخاصة إذا اقتصرت على تعبئة القوات المسلحة فقط .

وتعد خطة تعبئة القوات المسلحة طبقاً لخطة التعبئة العامة للدولة . ويجب أن لا تنفصل عنها ، أو تغاير اتجاهها والهدف منها .

تشمل تعبئة القوات المسلحة بصفة عامة استكمال مِلاكات القطعات المخفضة زمن السلم بالأفراد والأسلحة والمعدات ، وقد تشمل أيضاً تكوين قطعات ووحدات جديدة تتطلبها ظروف الموقف .

تعتبر خطة تعبئة القوات المسلحة من أهم الخطط الاستراتيجية التي تضعها قيادة القوات المسلحة زمن السلم ، والتي يجب أن توفر لها كل الإمكانات لضمان تنفيذها بمنتهى الدقة والسرعة عند صدور الأمر بتنفيذها .

وكلما كانت خطة التعبئة سليمة وإمكاناتها متاحة حقق ذلك توفيراً في حجم القوات المسلحة زمن السلم ، وما يتبع ذلك من تخفيف العبء عن الاقتصاد الوطني .

إن أهم ما تتطلبه خطة التعبئة لضمان تنفيذها بدقة وسرعة هو وجود مراكز التعبئة للأفراد ، ومستودعات تخزين الأسلحة والمعدات ، مع وجود وسائل نقل وطرق جيدة ، لسرعة وصول العناصر المعبأة إلى التشكيلات في الوقت المناسب ، إلى جانب وجود نظام دقيق للإنذار والاستدعاء ، مع إجراء التجارب وإدخال التحسينات على الخطط الموضوعة .

ولا شك في أن استخدام المعدات الالكترونية الحديثة والحاسبات الآلية على جميع المستويات سوف يؤدي إلى سرعة التنفيذ، وإلى دقة النظام بأكمله وكفاءته.

جـ ـ الانتشار الاستراتيجي للقوات المسلحة

عند بلوغ القوات المسلحة ـ نتيجة التعبئة العامة أو الجزئية ـ الحجم اللازم لها للحرب تبدأ مرحلة هامة من مراحل إعداد القوات المسلحة للحرب، وهي مرحلة الانتشار الاستراتيجي للقوات، وبناء التجميعات الاستراتيجية والعملياتية على مسارح أو اتجاهات العمليات المنتظرة.

تتم عملية الانتشار على ثلاث مراحل، تبدأ بمرحلة الحشد الاستراتيجي، حيث يتم نقل القوات المسلحة وإعادة توزيعها على مسارح العمليات، ثم مرحلة التجمع لتشكيل القوات في تجميعات مشتركة من أنواع القوات المسلحة، طبقاً لمطالب العمليات على الاتجاهات المختلفة، ثم مرحلة توزيع هذه التجميعات المشتركة على الاتجاهات المحددة سلفاً.

تتم هذه المراحل في توقيتات محددة، وبأسلوب يضمن إتمام الانتشار الاستراتيجي للقوات في الوقت المناسب وعلى الاتجاه المناسب.

لا تتم عملية الانتشار الاستراتيجي عادة بعد إنهاء عملية تعبئة القوات المسلحة وحسب، بل تتم أيضاً خلالها، حيث يتم دفع التشكيلات بمجرد الانتهاء من تعبئتها حسب الأسبقيات المحددة للعمليات، وفتحها لاحتلال أوضاعها على الاتجاهات المحددة لها.

لا تعتبر عملية الانتشار الاستراتيجي كاملة إلا بتنفيذ الإجراءات التالية:

- وصول التشكيلات المشتركة (من مختلف القوى) إلى مواقعها في مسرح العمليات، ودخولها تحت قيادة التجميعات العملياتية المخصصة للاتجاهات المختلفة.
- تمركز القطعات الجوية في المطارات الأمامية.
- تمركز الوحدات البحرية في قواعدها أو مناطق عملها في أعالي البحار.
- احتلال قوات الدفاع الجوي لمواقعها المحددة في الخطة.

ـــ تمركز الوحدات الإدارية لمواضعها ، وممارساتها لنشاطها ومهامها .
ـــ فتح مقرات القيادة والسيطرة وجاهزيتها لإدارة العمليات .
ـــ تلقي التشكيلات والقطعات مهامها القتالية وتنفيذها إجراءات المعركة ، والإبلاغ عن جاهزيتها لبدء القتال .

نظراً لأهمية هذه المرحلة من إعداد القوات المسلحة ـــ مرحلة الانتشار الاستراتيجي ـــ ولطبيعتها المتميزة بالتحركات الضخمة والحشد الكبير فإنه يجب التخطيط الجيد لها ، حتى يتم تنفيذها بشكل جيد وفي التوقيت المحدد . كما يجب أن تتوفر لها تدابير الوقاية من العدو الذي سيحاول إحباط عملية الانتشار ، وبالتالي منع استعداد القوات في مواقعها في الوقت المناسب ، ويجب التركيز على الوقاية ضد طيران العدو ، وضد تدخله الالكتروني على شبكات السيطرة للقوات القائمة بالحركة ، وكذلك ضد الصواريخ أرض ـــ أرض وبحر ـــ بحر .

د ـــ التدريب والإعداد القتالي للقوات المسلحة

يعتبر التدريب القتالي للقوات من أهم واجباتها في أثناء السلم . وهو أساس إعدادها للحرب . فالتدريب الشاق الجيد المبنى على أسس سليمة هو حجر الزاوية في خلق قوات كفوءة وقادرة على الدخول في القتال ، ومواجهة أية مواقف . وبالتالي تحقيق حماية الدولة ضد أي عدوان .

لذلك فإن من أهم الخطط السنوية للقوات المسلحة هي خطة التدريب القتالي التي تهدف إلى تطوير الكفاءة القتالية ، والاستعداد القتالي لمختلف وحدات الفروع الرئيسية وتشكيلاتها ، وكذا أجهزة القيادة العامة .

تبنى خطة التدريب القتالي على أساس مهام العمليات المنتظرة وطبيعة الصراع المنتظر ، وكذلك مواجهة أساليب قتال العدو المحتمل وتكتيكاته . وذلك في أراض مشابهة لطبيعة مسرح العمليات المنتظر . كما يجب أن يوجه التدريب القتالي إلى توخي الواقعية ، وغرس روح المبادرة لدى القادة ، وعلى مختلف المستويات ، بالإضافة إلى تدريبهم على الأسلوب الصحيح لقيادة قواتهم ، والسيطرة عليها في أقسى الظروف ، وفي أشد المواقف حرجاً .

وللتدريب القتالي أشكال مختلفة لا مجال لذكرها في هذا الموضع. لكن المهم هو التركيز على الفرد المقاتل، لرفع كفاءته في القتال، وعلى استخدام سلاحه ومعداته، وعلى لياقته البدنية، وكذلك على رفع مستواه الثقافي وغرس روح المبادرة والتصرف، وكذلك التركيز على التدريب المشترك للوحدات، حتى تصل إلى مستوى التدريب العملياتي الذي تشترك فيه التشكيلات الكبرى في القوات المسلحة، بمشاركة جميع أنواع القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية والدفاع الجوي... إلخ والذي يتم التدريب فيه على مهام العمليات الحربية، وذلك لحل جميع المشاكل التي قد تواجه القوات المسلحة في الحرب، وذلك بأن يأخذ التدريب صورة الحرب الحقيقية الحديثة.

كذلك يجب التركيز في الظروف الراهنة على تدريب القوات على العمل في ظروف استخدام العدو لأسلحة التدمير الشامل.

تنظيم الجاهزية القتالية للقوات المسلحة

يعتبر تأمين الجاهزية القتالية للقوات المسلحة من أهم واجبات الاستراتيجية العسكرية. وجاهزية القوات هو وضعها في الحالة التي تمكنها من صد أي هجوم مفاجىء للعدو، وإحباطه تحت أي نوع من الظروف ومن أي اتجاه، مع قدرتها على تدمير العدو وتحقيق مهام العمليات المحددة بأعلى كفاءة ممكنة.

تعتبر القوات المسلحة على درجة من الجاهزية القتالية إذا كان مستوى تدريبها عالياً، وأسلحتها ومعداتها القتالية على درجة عالية من الصلاحية، وتأمينها الإداري والفني على مستوى جيد من التنظيم، ونظام السيطرة والقيادة فيها على مستوى عال من الكفاءة، ومناطق عملياتها معدة مسبقاً.

كذلك فإن أهم عوامل الجاهزية القتالية للقوات هو تنظيم درجات الاستعداد القتالي فيها، بحيث تكون هناك قوات مناوبة ليلاً ونهاراً في أعلى درجات الاستعداد، وأن يكون هناك نظام كامل للإنذار، بحيث تستطيع باقي القوات الدخول المنظم في القتال في التوقيتات المحددة.

تكون القوات المسلحة بشكل دائم في إحدى حالات الجاهزية القتالية التالية:

ـــ حالة الجاهزية القتالية العادية (اليومية).
ـــ حالة الجاهزية القتالية العالية.
ـــ حالة الجاهزية القتالية الكاملة.

فحالة الجاهزية القتالية العادية (اليومية) هي الحالة التي تكون عليها القوات في مناطق تمركزها الدائم تمارس نشاطها اليومي من تدريب ورفع كفاءة، مع وضع جزء منها في حالة المناوبة القتالية لمواجهة المواقف الطارئة.

أما حالة الجاهزية القتالية العالية فإنها الحالة التي توضع بها القوات في حالات توتر الموقف، ووجود معلومات عن نيّات عدوانية لدى العدو، وتكون القوات فيها جاهزة للتحول إلى درجة الجاهزية الكاملة خلال وقت قصير.

يتم في حالة الجاهزية العالية تكثيف الاستطلاع، وتعزيز وحدات المناوبة القتالية، ورفع درجة استعداد مقرات القيادة والسيطرة.

أما حالة الجاهزية الكاملة فهي الحالة التي توضع بها القوات عند ظهور تهديد واضح بالعدوان، أو عندما تستعد فيها قواتنا للقيام بأعمال تعرضية، أو لإحباط استعدادات العدو للهجوم.

يتم رفع درجة جاهزية القوات من حالة إلى أخرى تدريجياً، أو يتم مباشرة من الحالة العادية إلى الكاملة. كما قد ترفع درجة استعداد كامل القوات المسلحة أو أجزاء منها، وذلك بحسب الموقف والمعلومات المتوفرة عن العدو.

ومن الواضح أن المعلومات الصحيحة التي تصل في الوقت المناسب من أهم العوامل تأثيراً على رفع درجة جاهزية القوات. كما أن كفاءة وسائط الاتصال ومنظومة الإنذار تؤثر بشدة على التوقيت المناسب لرفع درجة الجاهزية.

هـ ـــ التأمين الشامل للقوات المسلحة

يعتبر التأمين الشامل للقوات المسلحة من المهام الرئيسية للاستراتيجية العسكرية، ويقع أساساً على عاتق القيادة العامة للقوات المسلحة (وزارة الدفاع). لكن بعض العبء يقع أيضاً على بعض أجهزة الدولة ومؤسساتها التي تتعاون مع وزارة الدفاع،

في سبيل تلبية المطالب الإدارية والفنية للقوات المسلحة، حتى يكتمل إعدادها للصراع المسلح.

إن العامل الرئيسي في تأمين مطالب القوات المسلحة من الاحتياجات هو تحديد مطالبها بدقة. ويؤثر على هذه المطالب بعض العوامل مثل حجم التجميعات الاستراتيجية والعملياتية المخصصة للصراع، وطبيعة المهام المسندة إليها، وطبيعة الصراع المنتظر وشدته والمدة المتوقعة لاستمراره وقوة العدو وطبيعة مسرح العمليات.

كما يجب في جميع الأحوال التقدير الواعي والعميق لتطورات الموقف المتوقع، حتى يأتي تقدير مطالب القوات المسلحة سليماً، وينجح في مواجهة المراحل الأولى للحرب والتطورات المتوقعة للصراع. ويعتبر الاحتفاظ باحتياط استراتيجي مناسب من الاحتياجات المختلفة من الأسس الهامة عند التخطيط لتأمين القوات.

ونظراً لأهمية هذا الاحتياط الذي يؤثر بشدة على مدى قدرة الدولة والقوات على الاستمرار في الصراع، فإنه من المهم تقسيمه إلى مستويات متدرجة وهي:

- احتياط الطوارىء، ويحتفظ به على مستوى التشكيلات والقيادة العامة لمواجهة الاستهلاك خلال العمليات.
- الاحتياط الاستراتيجي — ويعتبر جزءاً من مخزونات الدولة، ويوضع تحت تصرف القيادة العامة لمواجهة أية زيادة في الاستهلاك، أو أية ظروف غير متوقعة.
- احتياط الدولة ويخصص لمواجهة مطالب الشعب والقوات المسلحة في حالة الاستهلاك الكبير غير المنتظر للمواد، نتيجة للتدمير الشديد لبعض مصادر الإنتاج أو حدوث توقف فيها. ويتم الاستهلاك من هذا الاحتياطي حتى تتم عملية إعادة البناء والتشغيل.

وبالإضافة إلى احتياط الدولة من المواد الرئيسية، فإن على كل مؤسسة أو مصنع أن يحتفظ بجزء من المواد الخام والمنتجات الجاهزة أو نصف المصنعة كاحتياطي خاص بها لمواجهة المواقف الطارئة. كما يجب الاحتفاظ باحتياطي من الطاقة اللازمة لتشغيل مصادر الإنتاج بمختلف أنواعها.

ولا شك في أن الدول غير المنتجة لمتطلبات قواتها المسلحة وشعبها، والتي تعتمد إلى حد كبير على استيراد هذه المتطلبات من الخارج، سوف تواجه أقسى المواقف

وأصعبها، في حالة تحكم هذه المصادر الخارجية فيها، وأمتناعها أو حبس بعض متطلباتها عنها، مما يدعو بإلحاح إلى أن تعمل الدولة على إقامة المصانع المختلفة، وتأمين مصادر الإنتاج لتحقيق الاكتفاء الذاتي الكامل أو الجزئي، وخاصة بالنسبة للمواد الاستراتيجية. كما عليها أن تتعاون مع مثيلاتها من الدول لتتكامل في إنتاج متطلبات الصراع.

وإذا لم تصل الدولة إلى تحقيق ذلك فليس أمامها إلا تخزين الاحتياطات المطلوبة من الاحتياجات المختلفة، مع ما يشكل ذلك من عبء على الاقتصاد الوطني.

و ــ إعداد مسرح العمليات وتجهيزه

يعتبر مسرح العمليات من أكثر العوامل تأثيراً على إعداد القوات المسلحة، وأسلوب تنفيذها لمهامها القتالية.

والهدف من تجهيز مسرح العمليات هو إتاحة الظروف المناسبة لسرعة انتشار القوات وسرِّيتها على الاتجاهات المختلفة، مع توفير أكبر قدر من الوقاية لها، وخاصة ضد تأثير أسلحة التدمير الشامل، كما يهدف إلى إتاحة أنسب الظروف للاستخدام المؤثر لجميع أسلحة القتال ومعداته، مع تحقيق إخفاء القوات وتمويهها، وإعاقة أعمال العدو.

ونظراً إلى التطور الكبير في وسائط الصراع المسلح وبعد مداها فقد أصبحت كل أراضي الدولة مسرحاً للعمليات، يجب تجهيزه وإعداده بما يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة عمليات القوات المسلحة، خلال القتال، في أية بقعة من أراضي الدولة، وبما يوفر الوقاية والأمن للشعب وللموارد.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فقد خصص له فصل خاص في هذا الباب.

ز ــ تنظيم الاستطلاع الاستراتيجي وإدارته

من دراسة التدابير الرئيسية في عملية بناء القوات المسلحة نجد أن العامل المشترك الدائم في الإعداد السليم هو وجود المعلومات الصحيحة وتوفرها عن العدو، والتي لا يمكن توفرها إلا بوجود نظام متين وكفء للاستطلاع.

إن المهمة الأولى للاستطلاع هي الحصول باستمرار زمن السلم على المعلومات عن العدو، ومتابعة نشاطاته المختلفة، بما يضمن عدم مفاجأته لنا، وإتاحة الفرصة لقواتنا للاستعداد، واتخاذ التدابير والإجراءات اللازمة لصد العدوان قبل بدايته. ولا تقتصر مهمة الاستطلاع الاستراتيجي على النواحي العسكرية، بل تشمل أيضاً كل النواحي المتعلقة بالمجهود الحربي لدى العدو.

كذلك يهدف الاستطلاع الاستراتيجي إلى معرفة نيَّات العدو، والحصول على المعلومات الخاصة بخططه السياسية والعسكرية، وإجراءات التعبئة، ومعرفة قدراته العسكرية والاقتصادية والعلمية والفنية، ومعدات القتال لديه، ومدى تطورها، والحالة المعنوية لمواطنيه، سواء في القوات المسلحة أو خارجها، ومدى تجهيز مسرح العمليات المنتظر، أي كل ما يتعلق بالعدو وكل ما يؤثر على الصراع المحتمل.

والحصول على كل هذه المعلومات الاستراتيجية لا يقع على عاتق أجهزة الاستطلاع العسكري الاستراتيجي فحسب، بل على عاتق أجهزة الدولة الأخرى التي تقوم بدور كبير في الحصول على المعلومات. فالدبلوماسيون في الخارج، والمستشارون الاقتصاديون والملحقون الإعلاميون والثقافيون في السفارت لهم دور كبير في هذا المضمار، مما يوجب تأهيلهم تأهيلاً عالياً على هذه الأعمال، وذلك بإلحاقهم في الكليات العسكرية العليا (كلية الدفاع الوطني)، بحيث يستطيعون متابعة النشاطات المختلفة التي يقوم بها أعداء الدولة، والخروج بالاستنتاجات السليمة من هذه النشاطات، وإبلاغها عن طريق الأجهزة المختصة في الوقت المناسب.

أما الأجهزة العسكرية المسؤولة عن الاستطلاع الاستراتيجي العسكري فيجب أن لا يقتصر عملها على النواحي العسكرية البحتة، بل يجب أيضاً أن تتابع النواحي السياسية والاقتصادية والحربية للدولة أو الدول المعادية. وهي تعتمد لتحقيق مهمتها على الملحقين العسكريين في الخارج. كما تعتمد أيضاً، وعلى نطاق واسع، على وسائل الاستطلاع الألكتروني والجوي والبحري، كما أصبحت تعتمد على المعلومات المتلقاة من الأقمار الصناعية المخصصة للاستطلاع.

إن الاستطلاع الاستراتيجي عمل كبير متشعب ومتداخل، لكنه لا يمكن أن

يحقق النتائج المرجوة منه إلا إذا كان هناك تنظيم وتنسيق بين وسائله المختلفة، حتى لا تتعارض الجهود أو تتكرر.

ومن هنا تظهر أهمية وجود جهاز واحد على مستوى الدولة، يكون مسؤولاً عن هذه المهمة الخطيرة.

متطلبات إعداد القوات المسلحة

يتبين مما تقدم أن إعداد القوات المسلحة للدولة ليس بالأمر الهين اليسير بل هو موضوع متشعب ضخم، يحتاج لجهد كبير وتخطيط سليم، حتى يأتي الإعداد سليماً يؤدي الغرض منه، ويحقق أهدافه.

يمكن حصر المتطلبات الرئيسية لإعداد القوات المسلحة للدولة بالآتي:

- تأمين الحجم المطلوب الوصول إليه.
- تأمين المنشآت اللازمة لاستيعاب هذا الحجم.
- إعداد المؤسسات الإدارية والفنية اللازمة لإدامته.
- تأمين متطلبات التدريب.
- تأمين الميزانية المالية اللازمة لتوفير هذه المتطلبات.

إن تأمين الحجم المطلوب من القوات المسلحة يتوقف على عوامل كثيرة يجب أخذها كلها بعين الاعتبار.

ويجب أن لا يغيب عن الأذهان أن تحديد حجم القوات المسلحة يعني تحديد جميع أنواعها من قوات جوية وبحرية وبرية ودفاع جوي، وكذلك جميع صنوفها المقاتلة والمعاونة، من مدفعية ومدرعات ومهندسين وحرب كيميائية وحرب الكترونية واستطلاع، مما يؤكد سعة هذا الموضوع وخطورته.

وبعد تحديد الحجم المطلوب من القوات المسلحة وتأمينه، يجب بحث كيفية المحافظة عليه سليماً مستعداً ليوم الصراع. وهنا تبرز مطالب استعيابه وإيوائه، والمنشآت اللازمة لذلك، والمستودعات والمخازن المطلوبة لحفظ مختلف الأسلحة والمعدات والذخائر

وصيانتها، وكذلك المطارات والقواعد الجوية والقواعد البحرية، ومواقع الدفاع الجوي ومحطات الكشف والإنذار... إلخ.

ومما لا شك فيه أن الدولة ـــ مهما كانت قدراتها كبيرة لا يمكنها الاحتفاظ بقواتها المسلحة كاملة في جميع الأوقات. لذا تعمد الدولة إلى تقسيم قواتها إلى قسمين قسم عامل يتواجد بصفة دائمة، وقسم احتياطي تتواجد منه في السلم نواة عاملة، والباقي يستدعى عند التعبئة. مما يتطلب بالضرورة وجود نظام كفء للدعوة، لضمان سرعة التعبئة وسلامتها، كما يستدعي إنشاء مراكز ومستودعات للتعبئة موزعة ومنتشرة في الاتجاهات الاستراتيجية التي قد تعمل بها القوات المسلحة.

وبما أن القوات المسلحة ليس كلها قوات مقاتلة، بل هي قوات ومنشآت إدارية وفنية، لضمان سلامة وصيانة القوات المقاتلة في أعلى درجات الاستعداد، فإنه من الضروري حصر المطالب الإدارية والفنية للقوات المسلحة من الوحدات الإدارية والورش الفنية ووسائل النقل، ومن الوقود والذخائر والمعدات الطبية.. إلخ، وتوفيرها بالحجم والنوعية المناسبة لحجم القوات المسلحة ونوعيتها.

كذلك فإن التدريب القتالي والعملياتي هو السبيل لاستمرار استعداد القوات المسلحة. لذلك يجب حصر مطالب تدريب القوات من مدارس ومعاهد وميادين ومساعدات للتدريب وتوفيرها، والعمل على تطويرها أولاً بأول، مع مسايرة أحدث أساليب التدريب.

وأخيراً يجب تقدير الميزانية المالية اللازمة لتوفير مطالب إعداد القوات المسلحة تقديراً سليماً، حتى لا يتوقف الإعداد، ويتأثر استعداد القوات المسلحة للقتال، نتيجة نقص الاعتمادات المالية.

ومن الطبيعي أن تتعذر تلبية مطالب القوات المسلحة في موازنة سنة واحدة، وخاصة مطالب التسليح أو الإنشاءات التي يمتد توريدها أو إنشاؤها لعدة سنوات. لذلك يجب وضع ميزانية شاملة لمطالب القوات المسلحة (لخمس سنوات على الأقل)، ثم توزع إلى ميزانيات سنوية طبقاً للقدرات والإمكانات المحلية المتاحة للتنفيذ.

عملية إعادة بناء القوات المسلحة العربية السورية بين حربي ١٩٦٧ ـــ ١٩٧٣

عالجنا في الجزء الأول من هذا الفصل النواحي النظرية في عملية بناء القوات المسلحة ، والتي تعتبر من أهم واجبات الاستراتيجية العسكرية . وقد رأينا أن نقدم لمحة سريعة عن الجانب التطبيقي لهذه المهمة ، وذلك من خلال عرض المهام التي قامت بها القيادة الاستراتيجية في الجمهورية العربية السورية ، في سبيل بناء القوات المسلحة ، بعد حرب عام ١٩٦٧ .

بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ بدأت القيادة العامة للقوات المسلحة السورية بعملية إعادة تنظيم سريعة للقيادات وللقوات ، تستهدف بالدرجة الأولى تأمين الحد الأدنى من القدرة القتالية الضرورية لبناء دفاع صلب على خطوط وقف إطلاق النار ، مع الاحتفاظ باحتياط كاف في يد القيادة العامة لصد أية محاولة يقوم بها العدو ، لتطوير النجاح الذي حققه خلال العدوان . وقد امتدت هذه العملية حتى نهاية عام ١٩٦٧ ، حيث تم خلالها استكمال القوات المتوفرة ، باستخدام العتاد المورد من الكتلة الإشتراكية . وأعيد تشكيل الوحدات وتجهيزها على أسس جديدة ، وتم الأخذ بالتنظيم الفرقي الثابت القوام .

وعلى ضوء متابعة توريد أعداد كبيرة من الأسلحة ، وزيادة تعداد القوات المسلحة ، واستناداً للدروس المستفادة من هذه الحرب ، فقد تمت دراسة توسيع القوات المسلحة ، وأعيد بناؤها بحجم جديد ، وبشكل يؤمن لها قوة الصدمة والنار والمناورة ، ويجعلها قادرة على خوض عمليات حربية هجومية ودفاعية ضد القوات الإسرائيلية ، وقادرة على تحرير الجزء المحتل من الأراضي ، بالتعاون والتنسيق مع الجبهات العربية الأخرى .

وعلى ضوء ذلك تمت إعادة تنظيم القوات البرية والبحرية والجوية ، وبناء تشكيلات جديدة في مختلف أنواع القوات المسلحة وفق المبادىء المقررة .

إلى جانب تلك الجهود التي كانت تبذل لإعادة التنظيم كانت هناك جهود تبذل لتطوير أسلحة الجيش ، والحصول على الحديث منها .

واستمرت الخطط الطموحة توضع وتنفذ تباعاً ، وتواكبها الجهود للحصول على العتاد الأفضل ، مع توفير العناصر المتخصصة له ، وخاصة ذلك العتاد المتطور ذي

الفعالية العالية، كالصواريخ الموجهة بأنواعها، والطائرات والدبابات والمدافع والوسائط الألكترونية المتنوعة.

وفي ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ قام السيد الفريق حافظ الأسد بحركته التصحيحية التي أعطت عملية إعداد القوات المسلحة للحرب دفعاً لم تعرفه من قبل. فقد شهد عام ١٩٧١، بالإضافة إلى تشكيل قيادات هامة، تبدلاً نوعياً في تسليح القوات. فقد امتلك الجيش أنواعاً حديثة من الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات، وكذلك الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات. وقد حققت القوات المسلحة في ذلك العام نمواً كبيراً إذ زاد حجم القوات البشرية حوالي ٥٠٪ عما كان عليه في العام السابق، بينما تضاعف عدد الدبابات والعتاد المدفعي. كما شهد العام نفسه إتمام تشكيل إدارة جديدة، ذات أهمية بالغة في الحرب الحديثة، هي إدارة الحرب الالكترونية.

وفي عام ١٩٧٢ تلقت القوات المدرعة الدبابة ت ـــ ٦٢ الحديثة ذات الخواص الفنية والتكتيكية العالية، بالإضافة إلى المدفعية م/ط المحمولة على هياكل الدبابات، وناقلات الجنود الحديثة وغير ذلك من المعدات.

كما حققت القوات الجوية في ذلك العام تطوراً كبيراً بتشكيل قطعات جوية بالحجم المقرر، وتم التركيز على قطعات الدفاع الجوي، وخاصة ألوية الصواريخ أرض ـــ جو. وكان ذلك تنفيذاً لقرار القيادة في تأمين التغطية الصاروخية الأكيدة للأهداف الحيوية في البلاد، وللتجميع الرئيسي للقوات المسلحة قبل البدء بأية عملية حربية واسعة النطاق.

وأخيراً أطل عام ١٩٧٣ الذي شهد تطوراً هاماً في التسليح، وذلك بإدخال الصواريخ أرض ـــ أرض في الخدمة، حيث أصبحت القيادة تمتلك بهذا السلاح والأسلحة الأخرى قدرة على توجيه الضربات إلى العمق العملياتي للعدو عند الحاجة.

ولم يكن حظ القوى البحرية في هذا التطور بأقل من القوات البرية والجوية. فقد حققت تطوراً هاماً في مجالي التسليح والتنظيم. وشهد النصف الأول من عام ١٩٧٣ تطوراً هاماً في تسليح القوى البحرية، والدفاع الساحلي، بزيادة حجم وحدات الصواريخ، وكسح الألغام، وحوامات مكافحة الغواصات.

وهكذا فقد تطورت القوات المسلحة السورية خلال ست سنوات، بين عامي ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ تطوراً كبيراً، حيث أصبح تعداد قواها البشرية مع بدء الأعمال القتالية في حرب تشرين حوالي ربع مليون مقاتل. ورافق هذا النمو الكبير في العدد نمو مماثل في حجم العتاد، حيث أصبحت القوات المسلحة السورية تملك عشية حرب تشرين وفق تقديرات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية أكثر من ١٠٠٠ مدفع وحوالي ١٨٠٠ دبابة. وبمقارنة هذه الأرقام مع الحجم الذي كانت عليه عام ١٩٦٨ نجد أن النسبة قد ازدادت بمعدل أربعة أضعاف، بمختلف أنواع العتاد الحربي.

إن هذا النمو الكبير في حجم القوات المسلحة استدعى اتخاذ تدابير قاسية، شملت حياة المواطنين، وخاصة المكلفين الذين استدعوا للخدمة في الجيش. فقد اضطرت القيادة ــ بغية تأمين الأعداد اللازمة من الأفراد ــ إلى تعديل مدة خدمة العلم وجعلها سنتين ونصف، بدلاً عن سنتين، ثم عمدت إلى الاحتفاظ بمن تنتهي خدماتهم، كما أعادت النظر في نظامي السوق والتعبئة، وأصبحت الدورات الاحتياطية للدورات التدريبية أكثر تنظيماً.

توجيه خطط التدريب لخوض حرب التحرير

لم يكن عبء تدريب القوات المسلحة للحرب ورفع مستواها وجاهزيتها القتالية يقلان بحال من الأحوال عن عبء تنظيم هذه القوات، وتأمين القوى البشرية لها، وتجهيزها بالأسلحة، نظراً للجهد الذي يتطلبه تخطيط التدريب، وتأمين العناصر القادرة على القيام به بكفاءة، وكذلك تأمين الوسائط الكثيرة المعقدة التي يتطلبها التدريب الجيد. لقد أولت القيادة شؤون التدريب الدرجة الأولى من اهتمامها، لإدراكها أن القوى البشرية إن لم تكن حسنة التدريب تفقد قيمتها في حساب ميزان القوى، بين الأطراف المتحاربة.

كان أول عمل قامت به قيادة الجيش العربي السوري في سعيها لرفع مستوى تدريب القوات، أنها عملت على زيادة المستوى الثقافي بين صفوف الأفراد وصف الضباط، عن طريق زيادة عدد المتطوعين من حملة الشهادات المختلفة، مع زيادة عدد سوقيات المكلفين من حملة الشهادات، ولما كان صف الضباط يشكلون العمود الفقري

في الجيش فقد عمدت القيادة إلى رفدهم بأعداد كبيرة من حملة الشهادة الثانوية . وسعياً وراء تحسين المستوى الفني في صفوف القوات المسلحة، ضاعفت القيادة عدة مرات البعثات إلى الخارج للتدرب على الأسلحة الحديثة في البلدان التي صنعت فيها الأسلحة نفسها .

أما على صعيد تأمين الأعداد اللازمة من الضباط، فقد وجدت نفسها حيال ضرورة ملحة لزيادة استيعاب الكليات العسكرية . وقد نجحت في ذلك نجاحاً ملحوظاً وخاصة في القوى الجوية .

وإلى جانب ذلك كله، كان لا بد من توسيع القاعدة التدريسية للحصول على المستويات اللازمة في التدريب . وقد أمنت القيادة العامة حقول التدريب المختلفة من كهربائية ولاسلكية وميكانيكية وعممتها على مختلف التشكيلات، وعممت أيضاً أسلوب الاختبارات، لتخلق جواً من التنافس بين التشكيلات والوحدات . لقد بلغت التدريبات العملياتية للقيادات والوحدات مستوى مناورات الجيش، حيث أجريت مناورات اشتركت فيها عدة فرق من المشاة والدبابات، وعدة أسراب من الطائرات المقاتلة والحوامات ووحدات المظليين والقوات المحمولة جواً، وكان ذلك قمة ما وصل إليه النشاط التدريبي .

في حملة التدريب هذه لم تنسَ القيادة تدريب كبار ضباطها . فبالإضافة إلى الدورات المنهجية التي كانت تعقدها لضباطها ضمن برامج التدريب السنوية، وإلى جانب اشتراكها في قيادة المشاريع والمناورات وتحكيمها بأنواعها، افتتحت لأول مرة في سورية دورة قيادة عليا دامت سنتين ونصف السنة، لعدد من كبار ضباط القيادة . وكان الفريق حافظ الأسد أول المنتسبين والمواظبين على حضورها، بالرغم من أعبائه الجسيمة، وقد جرى استقدام، هيئة كاملة من أساتذة كلية القيادة والأركان العليا في الاتحاد السوفييتي لهذه الغاية .

ومع اقتراب موعد الحرب أخذ تدريب القوات المسلحة يتركز في حل مسائل الخطة الهجومية نفسها، وأصبحت القوات بكاملها في معسكر للتدريب دائم الانعقاد في حقول المناورات .

ومن أجل هذا حددت القيادة جملة من المهام التدريبية وأصدرتها على شكل تعليمات تدريبية وتوجيهات متتابعة، دون أن تفصح للقوات عن غرضها من هذه التوجيهات.

وهكذا فقد تم التدريب على واجبات العمليات نفسها بشكل متقن، وقبل أن يحين موعد الحرب بأشهر طويلة، كانت كل كتيبة قد نفذت مشروعاً تكتيكاً مع الرمي القتالي على موضوع اقتحام جهاز الحواجز والتحصينات المعقد. وقد نفذت هذه المشاريع بكامل وسائط التعزيز المخصصة للكتائب. كذلك قام كل لواء قبل نهاية شهر آب ١٩٧٣ بمشروع مماثل على مهمته الهجومية نفسها، وفي شروط مماثلة لشروط المعركة، وعلى أرض جهزت خاصة لهذه الغاية بجهاز من الحواجز والتحصينات، شبيهة بالتي أقامتها إسرائيل في دفاعاتها.

ومع هذه التدابير وبصورة موازية لها كان التركيز يتم على إتقان استخدام الأسلحة، وخاصة الحديثة منها إتقاناً كاملاً، انطلاقاً من المبدأ التدريبي القائل: «خير لك أن تصرف تسع طلقات في التدريب لكي تضمن أن تستطيع إصابة عدوك بالطلقة العاشرة من أن تدخر طلقاتك العشر لعدوك، دون أن تكون واثقاً من إصابته بواحدة منها».

٢ ــ إعداد الشعب للحرب

تعتبر القوى البشرية في الوقت الحاضر أهم وأمضى أسلحة الصراع. ومهما تبدلت الوسائل المادية للحرب فإن الإنسان يبقى السلاح الرئيسي، وهو الذي يحدد مصير الحرب ونتيجتها.

وليس من الضروري أن تربط قدرة القوى البشرية للدولة بحجم تعداد سكانها، بل بنوعية الشعب والأسلوب السليم لاستخدام طاقاته وقدراته وإعداده الإعداد المناسب عسكرياً ومعنوياً، حتى يصبح قوة فعالة ومؤثرة على سير الصراع.

يشمل إعداد القوى البشرية للحرب النشاطات التي تخدم مباشرة الموقف العسكري وأهمها:

ـــ الإعداد المعنوي والسياسي بهدف غرس المثل العليا، وتوعية الشعب بالأهداف السياسية للصراع المقبل، وبعدالة القضية التي سيقاتل من أجلها.
ـــ إعداد الشعب عسكرياً ليكون جاهزاً للالتحاق بالخدمة العسكرية، وللاشتراك في وحدات المقاومة الشعبية خلف خطوط العدو.
ـــ حماية الأهداف الحيوية في العمق.
ـــ إعداد قوى الدفاع المدني.

• يهدف إعداد الشعب للحرب إلى تحقيق ما يلي:

ـــ الاستخدام الأمثل للقوى البشرية في جميع المجالات مع العمل على إيجاد التوازن بين أداء الفرد للخدمة الوطنية وممارسته الحياة اليومية.
ـــ العمل على زيادة الدخل القومي، وتحقيق أكبر قدر من الوفر المادي في أثناء السلم، لتلبية الاحتياجات الضخمة في أثناء الحرب.
ـــ المحافظة على القوى البشرية في الدولة، وحمايتها في أثناء الصراع المسلح، بالمحافظة على الروح المعنوية العالية خلال الصراع.
ـــ رفع القدرة العسكرية للقوات المسلحة بتعبئة العناصر المؤهلة في أثناء العمليات، في أقل وقت، دون التأثير على سير الحياة الطبيعية ومتطلباتها.

وسيتطرق هذا الفصل، بشيء من التفصيل، إلى النواحي الرئيسية لإعداد الشعب وهي:

ـــ بناء الاقتصاد الوطني والقوات المسلحة.
ـــ إعداد قوى الدفاع المدني.
ـــ الإعداد العسكري للجماهير.

كما سنتطرق إلى التدابير التي اتخذتها القيادة الاستراتيجية العليا في الجمهورية العربية السورية لتطبيق المبادىء النظرية في هذا المجال.

الإعداد السياسي ـــ المعنوي للشعب

لقد اتفقت آراء جميع المنظرين العسكريين على أن النصر يتوقف على العامل المعنوي أكثر من العوامل الأخرى.

والقوى المعنوية هي التي تعبر عن قدرة الدولة (شعبها وقواتها المسلحة) ، على تحمل ويلات الحروب والصمود أمام أي جهد مادي ومعنوي قاس خلال فترة الحرب . ومن الواضح أنه لا يمكن تحقيق الروح المعنوية العالية للقوات المسلحة ما لم تكن الحالة المعنوية للشعب مرتفعة ، ونابعة أساساً من إعداده السياسي ـــ المعنوي ، وخاصة في ظروف الحروب المعاصرة ، حيث تزول الحدود بين الجبهة والمؤخرة نتيجة للتطور الهائل للأسلحة ومعدات القتال .

والعامل السَياسي المعنوي هو مجموعة العناصر التي تمثل قدرة الشعب وقواته المسلحة على تحمل ظروف الحرب ، وقدرة الدولة على التأمين المادي والسياسي للمحافظة على الروح المعنوية العالية للشعب وقواته المسلحة ، بما يحقق الصمود المعنوي والمادي في أثناء الصراع .

إن عناصر الإعداد السياسي والمعنوي تنحصر في المهام التالية :

ـــ غرس الروح الوطنية وتعميقها في الشعب وحب الوطن .
ـــ إقناع الشعب بأهمية النصر وحتميته في الحرب ، وبعدالة القضية التي سيقاتل من أجلها .
ـــ غرس ثقة الشعب بقواته المسلحة ووقوفه وراءها .
ـــ غرس كراهية العدو في نفوس المواطنين وأفراد القوات المسلحة .

يتم تحقيق هذه المهام بتعبئة مختلف الطاقات الإعلامية والسياسية في الدولة وأجهزتها ، مع مراعاة الصدق والوضوح ، حتى تعطي التوعية ثمارها ، وحتى يحقق التوجيه الهدف المطلوب .

إعداد الكوادر اللازمة لتسيير الاقتصاد الوطني في أثناء الحرب

يلعب الأخصائيون دوراً رئيسياً حاسماً في بناء قوة الدولة وقدراتها . مما يحتم الاهتمام بهم ، وإعدادهم على أفضل وجه ، لأنهم عماد المؤسسات الصناعية والزراعية والنقل والإنتاج والخدمات ، وكذلك في القوات المسلحة للدولة .

إن تلبية مطالب الاقتصاد الوطني والقوات المسلحة زمن الحرب من الأخصائيين

هي مشكلة يجب حلها بأفضل الأساليب. إذ دون حل هذه المشكلة فإن الاقتصاد الوطني سوف يصاب بالشلل، عند إجراء التعبئة العامة والتحاق الفنيين الأخصائيين في القوات المسلحة، وتركهم المؤسسات والأجهزة التي يعملون بها زمن السلم.

ومن هنا فإن على الدولة أن تبدأ بحل المشكلة من جذورها، وذلك بتوجيه الشبان في مراحل تعليمهم الأولى إلى التعليم المهني والحرفي، وذلك بإنشاء المعاهد المتوسطة للصناعة والزراعة بهدف إعداد وتأهيل وتوفير الأخصائيين الذين تحتاج إليهم الدولة في السلم والحرب، وإمداد هذه المعاهد بجميع الإمكانات البشرية والمادية الضرورية كهيئات التدريس والورش ومساعدات التدريب المختلفة.

تنظيم الدفاع المدني

يعتبر تنظيم الدفاع المدني من أهم عناصر الشعب للحرب، حيث أن هذا الموضوع يتصل بوقاية ممتلكات الشعب، وحماية أرواح المواطنين.

يهدف تنظيم الدفاع المدني أساساً إلى وقاية الشعب من هجمات العدو الجوية، وإزالة آثار هذه الهجمات، وكذلك حماية الأهداف العسكرية والمنشآت الاقتصادية الحيوية، ووسائل الإنتاج، والخدمات في الدولة، وتأمين استمرار الاقتصاد الوطني في أثناء الحرب في الإنتاج، دون تأثر كبير بأعمال العدو العدوانية.

إن أهم الإجراءات التي يستهدفها تنظيم الدفاع المدني هي:

- تعليم الشعب وتدريبه على أساليب العمل في حالة الهجمات الجوية المعادية، وكيفية إزالة آثار هذه الهجمات.
- إعداد أماكن لوقاية السكان في أثناء هذه الهجمات كالملاجىء والمخابىء ومراكز الإسعاف، وتقديم المعونة للمصابين، والقيام بأعمال الإنقاذ.
- إنشاء قوات ووسائل الدفاع المدني وإعدادها في المراكز الآهلة، وداخل المؤسسات والمنشآت الاقتصادية.
- حماية الأهداف الاقتصادية الهامة في الدولة، وضمان استمرار سير العمل فيها في أثناء الحرب، وخاصة مصادر الطاقة والمياه، وعقد المواصلات، مع وضع الخطط والإجراءات السريعة اللازمة لإصلاحها فور حدوث أعطال بها.

ـــ إقامة شبكة إنذار مضمونة لتنبيه المواطنين.

بالرغم من أن هذه الإجراءات تتطلب مجهودات ضخمة ونفقات باهظة فإن على الدولة ألاّ تضن على الدفاع المدني، وأن تنظمه تنظيماً دقيقاً، وأن تشرف عليه وتوفر له كل الوسائل اللازمة ليستطيع القيام بعمله. لأن في ذلك حماية أرواح المواطنين، ورفعاً لمعنوياتهم ولمعنويات المقاتلين في الجبهة.

الإعداد العسكري للجماهير

إن الدفاع عن الوطن والذود عنه هو واجب قومي يضطلع به الشعب بكامل فئاته، وما القوات المسلحة للدولة إلا جزء من الشعب، يتكفل بتحمل الصدمة الأولى والدفاع عن الدولة في جبهات القتال، بينما يقف الشعب كله خلف قواته المسلحة، يساندها ويمدها بكل ما تحتاج إليه.

وقد أصبح الشعب ـــ وخاصة في شروط الحرب الحديثة ـــ معرضاً للإشتراك في الصراع، سواء في الخطوط الأمامية أو في عمق البلاد، وتحمل مسؤولية حماية الأهداف الحيوية فيها.

لذلك فقد أصبح من الضروري إعداد الشعب إعداداً عسكرياً لهدفين، أولهما تزويد القوات المسلحة بالعناصر المدربة واللائقة عسكرياً، وبذا يخفف العبء عليها في التدريب وإضاعة وقت طويل في إعداد الفرد، قبل توليه مهامه القتالية، وثانيهما المشاركة في الدفاع عن الأهداف الحيوية للدولة في العمق، لتستطيع القوات المسلحة التفرغ للقيام بمهامها في الخطوط الأمامية.

يتم إعداد الشعب عسكرياً زمن السلم، مع استمرار الإعداد وتكثيفه زمن الحرب. وتعتبر خدمة العلم من أهم سبل الإعداد العسكري للشعب، حيث ينضوي جميع الشبان المؤهلين صحياً في صفوف القوات المسلحة، لفترات محددة، يكتسبون خلالها المعارف العسكرية، مما يؤهلهم مستقبلاً للمساهمة في الدفاع عن الوطن، سواء في صفوف القوات المسلحة، أو في صفوف قوات الجيش الشعبي، أو الدفاع المدني، أو الدفاع المحلي.

ولزيادة حجم طاقة التجنيد في الدولة وتنقيها أفضل العناصر للخدمة العسكرية،

يجب البدء بإعداد الشبان في مراحل الدراسة الثانوية والجامعة ، والتدريج بهم في التدريب العسكري سنة بعد أخرى ، حتى يصلوا إلى خدمة العلم وهو مؤهلون ولائقون للخدمة ، مما يخفف الأعباء عن القوات المسلحة ، ويزيد في كفاءتها وقدارتها .

كذلك فإن التدريب العسكري يجب أن يستمر حتى بعد انتهاء خدمة العلم، وانتقال المجندين إلى صفوف الاحتياط ، ليصبحوا المخزون البشري من الأفراد المدربين . وذلك عن طريق العناية بهم واستدعائهم دورياً للتدريب ، لضمان استمرار لياقتهم وارتباطهم بقواتهم ووحداتهم .

إن التخطيط السليم للإعداد العسكري للشعب ، والجهود الذي يبذل في سبيل ذلك سيكون لهما نتائجهما الباهرة وقت الحرب ، وستنعكس هذه النتائج إيجابياً على كفاءة الدولة وقدراتها لمواجهة العدوان .

المهام المنفذة من قبل القيادة السياسية ـــ العسكرية العليا في الجمهورية العربية السورية للإعداد لحرب تشرين التحريرية في مجال إعداد الشعب للحرب

أ ـــ بعد أن عالج الجزء الأول من هذا الفصل مهام الاستراتيجية العسكرية في إعداد الشعب للحرب ، فإننا نتطرق إلى الجهود التي بذلتها القيادة العسكرية السورية العلياً في مجال الإعداد السياسي والمعنوي والفكري لخوض الحرب .

لقد بدأت القيادة السياسية العسكرية العليا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ حملتها بجهد متواصل دؤوب لتغرس في نفوس المواطنين والمقاتلين جملة من القناعات .

أولهما أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلاّ بالقوة ، وأن تحرير الأرض المغتصبة واستعادة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني ، هما الهدف الرئيسي لأمتنا ، وأن قواتنا المسلحة هي الأداة الرئيسية لتحقيق ذلك الهدف .

وثاني هذه القناعات أن العدو الذي يواجه أمتنا ليس ذلك العدو الذي لا يقهر ، وأن ما استطاع تحقيقه ليس عملاً خارقاً ، بل هو نتيجة طبيعية لواقع معين ، ومقدمات لا يمكن أن تأتي بغير تلك النتائج .

وثالثها أن الهزيمة التي أصابت الجيوش العربية، وبالتالي الشعب العربي بأسره لم تكن بفعل قوة إسرائيل وحدها أو حلفائها، بمقدار ما كانت بفعل القصور العربي والاسترسال في الأوهام. ففي الجانب الإسرائيلي كان هناك التخطيط للعدوان والتصميم عليه، وإعداد العدة له والحشد بسرية، مع استخدام جميع أساليب الخداع، وتصنع التزام جانب الاعتدال الظاهري، والجنوح للسلم في التصاريح الرسمية والصحف ووسائل الإعلام الأخرى. وفي الجهة المقابلة كانت هناك السياسات والخطوات غير المحسوبة، وإهمال خطير للجاهزية القتالية.

من هنا خلصت القيادة السورية إلى نتيجة ركزت عليها كثيراً، لكي يدرك كل مواطن وكل مقاتل مهما بدت له وظيفته قليلة الشأن، أن على تنفيذه واجبه بوجدان كامل ووعي قد تتوقف نتيجة المعركة ومصير الوطن.

وأخيراً وليس آخراً قامت القيادة بدراسة الحملة الواسعة من الدعاية التي أعقبت هزيمة جزيران، والتي ركزت إسرائيل فيها على تهديم القيم التي يعتز بها المقاتل العربي، فوضعت لها خطة معكسة من أجل القضاء عليها. ولقد تركزت حملة الدعاية الإسرائيلية آنئذ ــ إلى جانب مقولة تفوق المقاتل الإسرائيلي ــ على تضخيم مقولة تخلف الجندي وقصوره في استخدام أساليب التكنولوجيا الدور الأساسي فيها: المدفع والدبابة والطائرة والصاروخ والعربة المدرعة وكل الأسلحة الأخرى الحديثة. كما ركزت تلك المقولة على المغالطة على أن الضابط العربي يفتقر إلى البداهة والإبداع، ومتعال على مرؤوسيه، لذلك فلا يستطيع أن يحصل منهم على المردود الأقصى في القتال.

والأمر الخطير أن قسماً من الادعاءات انطلت حتى على أوساط عربية معينة وتلقفتها أجهزة الإعلام الأجنبية ورددتها باستمرار، كما تناولها الكتاب أحياناً. وساعد على ذلك أنها انطوت على تلبية للحاجة التي كانت تشعر بها بعض السياسات العربية الخاطئة، للتنصل من تبعة أخطائها التي قادت إلى كارثة، حين وجدت في إلقاء اللوم على القادة العسكريين وحدهم تبريراً لما جرى.

كانت إسرائيل ترمي من وراء إطلاق تلك الدعاية المدروسة إلى جعل التطلع العربي إلى الانتفاض على واقع الهزيمة أملاً مستحيلاً، معتمدة على أن مثل تلك القناعات

إذا ترسخت في أذهان المقاتلين يصبح من الصعب محوها ، وأنه لا بد من مضي سنين طويلة قبل أن يستطيع العرب خوض حرب جديدة .

ويجب الاعتراف أنه قد أعوز القيادة العسكرية السورية كثير من الوقت والجهد حتى حصلت على النتيجة المجزية لجهودها في تحويل المقاتل الذي عانى من هزيمة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ إلى مقاتل لا يكتفي فقط بإثبات بطلان الدعاية الإسرائيلية ، بل يستطيع أن يحقق انتصارات على العدو لتصفية آثار هزيمة حزيران .

وجدير بالذكر أن هذا السلوك المتزن والموضوعي من قبل القيادة ، والمنطلق من شعور كامل بالمسؤولية وثقة بالنفس كبيرة رافقه على الصعيد الإعلامي منذ قيام الحركة التصحيحية ، خط متزن آخر يتسم بالرصانة مع الابتعاد عن الإثارة غير المستندة إلى واقع علمي .

ب ـ التدابير التي اتخذت لتأمين حماية الأهداف الحيوية في العمق

وضعت القيادة العسكرية العليا خطة تنفذ على مراحل ، وحسب الإمكانات التصاعدية للدفاع الجوي عن المنشآت الاقتصادية الهامة في سورية . وقد جرى حصر هذه الأهداف ، وتم ترتيبها في أفضليات ، وشكلت لجان خاصة درست على الطبيعة حاجة كل هدف ، والمنطقة المحيطة به . وقد أعطيت الأفضلية الأولى للمنشآت والأهداف الأكثر حيوية ، كما تم الايعاز إلى الجهات المختصة في المنشآت الاقتصادية لوضع خط دفاع إيجابي أرضي محلي عن كل منشأة على حدة ، تنفذ من قبل العناصر العاملة فيها ويتم تدريبهم على ذلك كعناصر جيش شعبي ، كما تقرر الدفاع المباشر عن بعض المنشآت الهامة من قبل بعض وحدات القوات المسلحة .

ج ـ تدابير الوقاية السلبية

واستناداً للخبرة المكتسبة ، تبين أنه لا بد من وضع أسس وقائية سلبية للمنشآت العسكرية والمدنية ، تراعى في التصميم والبناء لتكون مقاومة بذاتها لأية تأثيرات معادية ، وإضافة بعض المنشآت الوقائية على الأهداف الاقتصادية القائمة استعداداً للحرب .

ومن أجل إجراء دراسات كاملة وموحدة، وبمفهوم شامل وهندسي وقائي، شكل القائد العام للجيش والقوات المسلحة لجنة إعداد مسرح العمليات، وكلفها بدراسة ما يلزم لوقاية الأهداف الحيوية الهامة في القطر. وبعد أن باشرت اللجنة أعمالها اقترحت تشكيل عدة لجان فنية للدراسة على الطبيعة، لبعض المنشآت الهامة، وتقديم الاقتراحات اللازمة بشأنها، وصدرت إثر ذلك شروط إقامة المستودعات والمدارس، وإضافة أعمال معينة في المصانع كالملاجىء والخنادق ومولدات كهربائية للطوارىء.. إلخ.

وللإشراف على هذه التعليمات، شكلت في كل منطقة عسكرية لجنة مسرح عمليات فرعية، أنيط بها مراقبة التعليمات الصادرة بهذا الخصوص، وإجراء تفتيشات مفاجئة على الأهداف الحيوية في المنطقة، واقتراح ما يلزم بشأنها، وإبلاغ تقاريرها إلى رئاسة مجلس الوزراء لإجراء اللازم.

وقبل بدء الحرب بعدة أيام تم تنفيذ مجموعة كبيرة من التدابير الوقائية من قبل جميع وزارات الدولة، من الناحية التموينية ومرافقها، لتأمين احتياجات المواطنين وسلامتهم في أثناء الحرب، وكذلك فقد تم التغلب على الكثير من الصعوبات من قبل الوزارات المختلفة، حيث وضعت الأموال اللازمة لحلها. وقد خول الوزراء والمحافظون حق تجاوز النظم، وتدارك استمرار الحياة العامة بأفضلية قصوى.

وهكذا خاضت الدولة غمار حرب تشرين التحريرية، وهي أكثر استعداداً من أية حرب سابقة، وذلك بفضل الإجراءات الفعلية التي اتخذت في نطاق إعداد الدولة للحرب، وفي نطاق الإدارة المدنية للبلاد، زمن الحرب وخلال العمليات.

لقد أضحت هذه التدابير التي تم تطبيقها وأعطت ثمارها أنموذجاً يجعل منها تجربة وطنية رائدة، تجدر دراستها باستمرار، على ضوء نتائج حرب تشرين، وذلك لتبقى الدولة بكلّ أجهزتها على استعداد للقيام بواجباتها كاملة في مختلف احتمالات الصراع مع العدو الصهيوني.

٣ ــ إعداد أجهزة الدولة للحرب

لا يقتصر تأثير الحرب الحديثة على القوات المسلحة للدولة، أو على مناطق

العمليات فحسب بل يمتد تأثيرها بشكل مباشر أو غير مباشر إلى كل أراضي الدولة ومرافقها، مما يستدعي إشتراك جميع أجهزة الدولة ومؤسساتها في الإعداد لها، وتأمين متطلباتها.

لذلك فإن إعداد الدولة لمواجهة الحرب لا يتم إلا بعد إعداد أجهزة الدولة نفسها، لمواجهة الصراع بحيث تكون الدولة كلها في مناخ واحد، فلا يكون جزء منها ـــ وهو القوات المسلحة ـــ جاهزاً للصراع، بينما يعيش الجزء الآخر ـــ باقي أجهزة الدولة ومؤسساتها ـــ في مناخ السلم وغير معنيٍّ بأمور الحرب.

يقصد بإعداد أجهزة الدولة للحرب إعداد سلطات الدولة ومؤسساتها وأجهزتها السياسية والتنفيذية والإدارية والجهاز الحكومي والمؤسسات والمنشآت الإنتاجية بما يضمن الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة زمن الحرب، وبما يضمن استمرار السيطرة والعمل للنشاطات المختلفة للدولة ومؤسساتها الإنتاجية، دون توقف أو تأثير كبير نتيجة الصراع الدائر.

يشمل إعداد أجهزة الدولة للحرب التدابير التالية:

- تأمين استمرار عمل الجهاز التخطيطي القادر على التخطيط الاستراتيجي الشامل والتخطيط المرحلي، ورسم السياسات الاستراتيجية، وتحديد أهدافها، وإصدار التوجهات للأجهزة التنفيذية للدولة، ومتابعة عملية التنفيذ ومراقبتها خلال الحرب.
- إعداد كل جهاز من أجهزة الدولة للعمل وقت الحرب وذلك بـ:
  - إعداد أجهزة التخطيط للعمل في ظروف الحرب وسرعة التحوُّل من حالة السلم إلى حالة الحرب.
  - وضع الخطط التفصيلية لتنفيذ المطلوب من كل جهاز لتغطية مطالب المجهود الحربي ومطالب الشعب خلال الحرب.
  - القدرة على السيطرة في ظروف الحرب، مما يتطلب إنشاء غرفة عمليات لكل جهاز من أجهزة الدولة، يتوفر لها الوقاية اللازمة، وأجهزة الاتصال الضرورية مع التخطيط للانتقال والمناورة.

لايمكن إعداد أجهزة الدولة لتولي مسؤولياتها كاملة زمن الحرب إلا بالتنبؤ السليم

المسبق لطبيعة الصراع المنتظر، والتقدير الصحيح لمداه وتأثيره، ثم وضع الخطط السليمة نتيجة ذلك.

كذلك فإن من أهم عوامل قيام أجهزة الدولة بمسؤولياتها زمن الحرب هو تحديد المسؤوليات التفصيلية لكل جهاز، وكذا تحديد أسلوب التعاون بين الأجهزة المختلفة بالدولة، وأسلوب السيطرة الشامل للقيادة السياسية عليها جميعاً.

تقع مسؤولية تنظيم الإجراءات التفصيلية وتحقيقها في إعداد الأجهزة للحرب على عاتق المحافظين والسلطات المحلية الأخرى، باشتراك قادة المناطق العسكرية، وتستخدم إمكانات الدفاع المدني والجيش الشعبي على نطاق واسع لهذا الغرض. كما تتولى السلطات العسكرية بعض الإجراءات التي تخرج عن طاقة السلطات المدنية وقدراتها.

التدابير التي اتخذتها القيادة السياسية العسكرية العليا في سورية لإعداد أجهزة الدولة لحرب تشرين

لقد أثبت عدوان حزيران ١٩٦٧ أن التخطيط والتنظيم لاستخدام معظم أجهزة الدولة للمساهمة في المجهود الحربي على المسرح العسكري كان دون المستوى المطلوب.

لذلك فقد بدأت القيادتان السياسية والعسكرية عقب انتهاء العدوان في اتخاذ التدابير الكفيلة بإعداد مرافق الدولة كلها للحرب، والتي تركزت على هدفين أساسيين هما:

١ ـــ استمرار عمل الدولة بأجهزتها المدنية كاملة خلال الحرب، بشكل يضمن قيامها بواجباتها، وبما يطلب منها من مهام، ضماناً لاستمرار تقديم الخدمات على مختلف الأصعدة.

٢ ـــ تأمين حماية المنشآت الاقتصادية الحيوية الهامة في البلاد، كالمعامل والسدود والمصافي وخزانات النفط والموانى والمستودعات الرئيسية، والتي كان خطر تعرضها للإصابة من قبل العدو متوقعاً، للرد على أعمالنا أو عن مبادرته للعدوان، ويشكل عبئاً على القيادة العسكرية عند اتخاذ القرار.

استمرار عمل الدولة

لتحقيق الهدف الأول، صدر عن رئاسة مجلس الوزراء، قرار يتضمن النص الناظم لجاهزية جميع أجهزة الدولة، المركزية منها والفرعية، ويحدد لها وللمرة الأولى في البلاد، حالات متدرجة من الجاهزية.

ولهذه الغاية طلب إلى كافة أجهزة الدولة وضع الخطط الخاصة بها، والإعداد والتحضير المسبقين لمجابهة الحرب الشاملة، أو المحدودة، وحالات الطوارىء الأخرى، تتضمن كيفية تنفيذ هذه الخطط لأداء كل أجهزة الدولة واجباتها خلال مختلف الظروف، بما فيها الحرب.

٤ ـ إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات الحربية

أ ـ عام

قبل الخوض في بحث إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات الحربية، لا بدّ من تعريف مفهوم مسرح العمليات بشكل عام، وتطورات هذا المفهوم في الظروف الحديثة.

إن المقصود بمسرح العمليات الحربية هو ذلك الجزء من أراضي الدولة (أو الدول المتحالفة)، مع المياه أو البحار المتاخمة لها، ومجالها الجوي، والتي يمكن أن تدور عليها الأعمال القتالية للتجمعات الاستراتيجية في القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية بهدف بلوغ أهداف الحرب.

تحدد القيادة العسكرية ـ السياسية العليا للدولة (أو الدول المتحالفة) حدود مسرح العمليات الحربية وقوامه، مع الأخذ بعين الاعتبار عوامل عديدة أهمها:

ـ الموقف السياسي ـ العسكري.
ـ أهداف الحرب.
ـ الظروف الطبيعية.
ـ العامل الاقتصادي.
ـ الوسائل والطرق المحتملة لخوض الأعمال القتالية.

يتم تحديد حدود مسرح العمليات الحربية بحيث تشكل الأجزاء الرئيسية لكل مسرح بنية متكاملة من الناحية السياسية الإدارية والاقتصادية والطبيعية الجغرافية. وعندئذ تمر الحدود كقاعدة ـ على امتداد خطوط طبيعية كبيرة ـ كسلاسل الجبال أو البحار والمضائق مع اعتبار الحدود الدولية أيضاً.

كما يدخل في حدود مسرح العمليات الحربية عادة جزء من أراضي الدول المعادية.

وعند تحديد حدود عدة مسارح عمليات يجب أن تتداخل حدود بعضها البعض، وذلك من أجل تأمين التعاون الأفضل وخاصة إذا كانت الأعمال القتالية ستدور على حدود دولتين، أو عدة دول.

يجب أن تؤمن سعة مسرح العمليات الحربية إمكانية تأمين انتشار تجميع استراتيجي، يضم عدة تشكيلات عمليات من القوات البرية والجوية والبحرية على هذا المسرح، والتي يمكن ربط أعمالها العسكرية بفكرة استراتيجية واحدة، وخطة واحدة ضمن حدود المسرح المذكور.

وتتحدد سعة مسرح العمليات الحربية على ضوء أهميته السياسية ـ العسكرية والاستراتيجية، والأبعاد العامة للمسرح (الجبهة والعمق)، وموقعه الجغرافي، ومستوى تطور شبكة المطارات والموانىء وطرق المواصلات، وكذلك وجود الأغراض العملياتية والاستراتيجية الهامة وعددها.

إن المفاهيم المذكورة آنفاً هي مفاهيم عامة يحتاج تطبيقها إلى دراسة دقيقة للوضع الراهن سياسياً وعسكرياً مع أخذ الواقع بعين الاعتبار.

ب ـ إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات الحربية

تتميز الحرب الحديثة عن سابقتها باستخدام معدات قتال على درجة عالية من التطور، وخاصة في مدى تأثيرها وقوتها التدميرية الرهيبة كالصواريخ والطائرات بعيدة المدى، الأمر الذي يجعل كل أراضي الدولة ـ مهما بلغت مساحتها وعمقها وبعدها عن المسرح الرئيسي للأعمال القتالية ـ عرضة للوقوع تحت التأثير المدمر لهذه

الأسلحة، مما يجعلها كلها بالتالي مسرحاً للعمليات بمفهومه الواسع، حيث تزول الحدود بين الجبهة والمؤخرة، مما يتطلب إعدادها لمواجهة آثار الصراع.

يتضمن إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات كل الأعمال التي تؤمن حشد القوات المسلحة وتحركها، وانتشارها، وفتحها الاستراتيجي. وتعزيز صمودها وتقليل آثار الضربات المعادية ضدها، والمساعدة على خدمة المجهود الحربي، وتأمين مطالب الشعب في أثناء الصراع المسلح.

ومع أن إعداد أراضي الدولة مطلب حيوي لأي صراع، وخاصة على المستوى الاستراتيجي، إلا أنه من الطبيعي أن درجة إعداد مناطق الدولة سوف تتباين، فالمناطق المحتمل أن تكون مناطق للأعمال القتالية الأساسية يجب أن تكون الأكثر إعداداً، ولها أسلوبها المميز. وكذلك المناطق الاقتصادية والحضارية والعسكرية الحيوية في عمق الدولة يجب إعدادها، ولكن بطريقة أخرى.

لذلك فإن هناك اختلافاً طبيعياً بين تجهيز مسرح الأعمال القتالية من وجهة النظر العسكرية لخدمة القوات المسلحة أساساً، وهو ما يتصف بالطابع العسكري البحت، وبين إعداد أراضي الدولة ككل، كمسرح للعمليات، نظراً لاحتمال تعرضها لآثار الصراع والتدمير.

ج ـ إعداد مسرح الأعمال القتالية وتجهيزه

مع اعتبار أن جميع أراضي الدولة قد أصبحت مسرح عمليات يحتمل أن تعمل فيه القوات المسلحة، وتقاتل وتحارب، فضلاً عن تعرضها كلها لآثار التدمير، إلا أن هناك اتجاهات معينة في كل دولة ـ وهي عادة المناطق المتاخمة لحدودها تكون الأكثر احتمالاً لاستخدام القوات المسلحة، وبالتالي تحتاج إلى تجهيز خاص يتسم بصفة عامة بالسمات العسكرية أساساً، لتسهيل عمل القوات وتوفير متطلباتها في التحرك والفتح والمناورة، سواء للدفاع أو الهجوم.

يشمل تجهيز مسرح الأعمال القتالية العديد من الأعمال ـ معظمها أعمال هندسية ـ لإعداد مناطق التجمع والحشد، وخطوط الدفاع، وإقامة الموانع بمختلف

أشكالها (حقول ألغام ــ خنادق مضادة ــ أخ..)، وتجهيز الطرق والمدقات للمناورة العمودية على خط الجبهة، أو الموازية له، فضلاً عن إنشاء متطلبات القوى المسلحة الأخرى وتجهيزها، من قوات جوية وبحرية ودفاع جوي، وذلك بإعداد شبكات المطارات العسكرية والقواعد الجوية وتجهيزها بالملاجىء وغرف العمليات المحصنة، وإنشاء الممرات التبادلية، وأراضي الهبوط، وكذلك إنشاء مرابض الرمي الرئيسية والتبادلية لقوات الدفاع الجوي، ومواقع محطات الرادار، وكذلك تجهيز القواعد البحرية والموانىء، ونقط التمركز على الساحل، وإعداد مرابض المدفعية الساحلية والصواريخ، وتجهيز مواقع الدفاع على الساحل، ضد قوات الإنزال البحري العادي.

ولا شك في أن هذه الأعمال في مجموعها تكوّن عملاً ضخماً لا يمكن إتمامه مرة واحدة، أو في توقيت واحد. لذلك يجب وضع خطة متكاملة لتجهيز مسرح الأعمال القتالية، تحدد فيها جميع أعمال التجهيز المطلوبة، وتُحدد فيها أسبقيات التنفيذ التي يتحكم في تحديدها الوقت والإمكانات وأهمية الاتجاهات التي تخصص لها أسبقية عالية.

كما أن تجهيز مسرح الأعمال القتالية يعتبر عملاً مستمراً يجب تطويره دائماً نتيجة للدراسة المستمرة لمسرح العمليات وتطوير الأسلحة المنتظر استخدامها، وتطوير أساليب القتال والسيطرة والخداع، وحجم القوات المنتظر أن تعمل في المسرح.

إن هذا العبء الكبير والعمل الضخم المستمر لتجهيز مسرح الأعمال القتالية وتطويره يجب أن تشارك فيه الدولة ببعض إمكاناتها، حيث أن إلقاء هذا العبء على إمكانات القوات المسلحة وحدها فيه استهلاك كبير لمعداتها التي هي في حاجة إليها عند نشوب الصراع، فضلاً عن الوقت الكبير الذي سوف يستغرقه الإعداد بإمكانات القوات المسلحة وحدها.

لذلك يجب أن تشارك أجهزة الدولة الفنية والهندسية أساساً مع أجهزة القوات المسلحة للقيام بتجهيز مسرح الأعمال القتالية، في أقل وقت ممكن، وبأعلى كفاءة ممكنة.

ويجب أيضاً أن يوضع في الاعتبار أن تجهيز مسرح الأعمال القتالية يتم وفق التخطيط المنتظر للعملية وأسلوب إدارتها، والاتجاهات الرئيسية للصراع، وأماكن المواقع

الحيوية مثل مراكز السيطرة ... إلخ ، لذلك يجب وضع خطة كاملة للخداع تسير جنباً إلى جنب مع خطة إعداد مسرح الأعمال القتالية ، الهدف منها خداع العدو الذي يجب أن تُفترض دائماً إمكانية استطلاعه لمسرح العمليات بأكمله ، ومعرفة دقائقه ، خاصة بعد استخدام الأقمار الصناعية في الاستطلاع .

د ـــ إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات الحربية

يشتمل إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات الحربية كثيراً من النواحي ، أساسها إعداد مرافق الدولة بصفة عامة لخدمة المجهود الحربي ، ولخدمة الشعب وقت الصراع المسلح ، مع ضمان استمرارية قيام هذه المرافق بأداء واجباتها الحيوية ، دون قصور يؤثر عن طريق مباشر أو غير مباشر على قدرة الدولة وقواتها المسلحة ، وعلى مواجهة آثار الحرب والصراع .

وبما أن هذا الإعداد له صفة الشمول والاتساع ، فإنه بالتالي يحتاج إلى وقت طويل وجهود ضخمة ومصروفات كبيرة ، مما يتطلب التخطيط المبكر والإعداد المسبق ، والتنفيذ في الوقت الذي تصبح معه الدولة معدة بدرجة مقبولة قبل بدء الصراع . ولعل في إعداد الجمهورية العربية السورية أراضيها قبل حرب تشرين بوقت كاف من أبرز الأمثلة على التنفيذ السليم لهذا الإعداد ، ويمكن بصفة عامة اعتبار نواحي الإعداد التالية النواحي الرئيسية لإعداد أراضي الدولة .

هـ ـــ إعداد شبكات المطارات

ويقصد بهذه الشبكات أساساً الشبكات الحربية والمدنية بما يحقق للقوات الجوية للدولة التمركز والانتشار والمناورة ، مع تجهيزها بالمعدات الفنية اللازمة ، وكذلك إنشاء ملاجىء الطائرات ، وتحصين المستودعات والمخازن ومراكز المواصلات والقيادة والسيطرة . وبذا نتيح أنسب الظروف للقوات الجوية للعمل ، فضلاً عن وجود المطارات اللازمة لخدمة الاقتصاد الوطني ، والنقل المدني ، وربط الدولة داخلياً وخارجياً بمواصلات جوية مضمونة في جميع الأوقات ، كما يجب إنشاء المطارات الهيكلية والخداعية لامتصاص ضربات العدو .

و ـــ إعداد القواعد البحرية والموانىء

ويتم هذا بتطوير بعض الموانىء البحرية والمدنية لتصبح صالحة للعمل كقواعد تمركز للقوات البحرية بها مما يتيح لها مجالاً مناسباً للانتشار والعمل، مع ضرورة إنشاء التجهيزات التكميلية والمساعدة واستكمالها داخل الموانىء والقواعد ونقاط التمركز.

كما يجب أيضاً إنشاء المراسي النهرية ـــ في حالة وجود أنهار ذات سعة معقولة داخل الدولة ـــ للاستفادة من طاقات الأسطول النهري لخدمة المجهود الحربي.

ز ـــ إعداد شبكات طرق النقل المختلفة

وهي من أهم أعمال إعداد أراضي الدولة، حيث أن الطرق تعتبر الشرايين الرئيسية التي تسمح للقوات المسلحة للدولة ووسائل النقل المدنية أيضاً بالمناورة، وخدمة المطالب الحربية والمدنية، وكلما زادت كفاءة شبكات طرق النقل كانت الفرصة متاحة أكثر لإمكانية الاستمرار وقت الصراع، وخاصة عند قيام العدو بمحاولة تدمير طرق النقل، لإحداث الشلل داخل الدولة، وإيقاف الحياة العامة والحركة بها.

ويقصد بشبكات طرق النقل المختلفة شبكات طرق النقل البري، والسكة الحديدية، ومحطات الشحن والتفريغ حيث أنها تعتبر نقاطاً حساسة في طرق النقل، وكثيراً ما يوجه العدو إليها ضرباته.

ح ـــ إقامة الجسور والأنفاق بما يخدم المجهود الحربي

يقصد بذلك ضرورة مراعاة حمولات الجسور بما يسمح بمرور أضخم المعدات الحربية وأثقلها وزناً ـــ وخاصة على الجسور المقامة على الأنهار، وفي اتجاه جبهة القتال ـــ مع مراعاة أن يتم إنشاء الأنفاق بالأعماق المناسبة لمرور جميع معدات القتال داخلها.

ط ـــ إقامة شبكات أنابيب المياه والوقود

أصبح استخدام الأنابيب وسيلة اقتصادية رئيسية في نقل المواد السائلة من مياه ووقود ... إلخ، لذا يجب التوسع في شبكات الأنابيب والتخطيط لاتجاهاتها، بحيث تسمح باستخدام القوات المسلحة لها عند قتالها في مسرح الأعمال القتالية، سواء مباشرة أو عن طريق بعض الشبكات الفرعية التي يمكن إقامتها بسهولة وسرعة.

ي ــ إعداد المستودعات والمخازن الرئيسية

يعتبر تخزين الاحتياطات المادية الاستراتيجية للدولة من أهم نواحي إعدادها للصراع، كلما كانت مصادر الإنتاج المحلية لها متوفرة، وتزداد أهمية هذا الموضوع عندما تعتمد الدولة على استيراد بعض الموارد من الخارج وخاصة الاستراتيجية.

ولا تعتبر الاحتياطات المادية الاستراتيجية للدولة قد تم إعدادها إلا مع إعداد المستودعات والمخازن المناسبة التي تحتاجها هذه المخزونات، والتي يجب إعداد خطة منفصلة لها بحيث يتوفر فيها التطابق والتنسيق مع التخطيط الاستراتيجي للقوات المسلحة، وخطة الانتشار الاستراتيجي لها، والقرب إلى حد ما من القواعد الجوية والبحرية والعقد الهامة للمواصلات والطرق، وخاصة الواقعة على الاتجاهات الهامة المحتملة للعمليات الحربية. كما يجب وضع خطة دقيقة لوقاية هذه المستودعات وانتشارها، وحراستها، وسهولة السحب منها والشحن والتفريغ بها، واستعداد جزء منها للمناورة به طبقاً للموقف.

ك ــ إعداد نظام السيطرة ومقرّاته

لا شك في أن السيطرة عامل أساسي وعلى درجة عالية جداً من الأهمية، حيث أن فقدان السيطرة، ولو لفترة بسيطة، أو إحداث الخلل بها، يؤثر بشدة على تنفيذ الخطط الموضوعة، وعلى أعمال القوات، بل وعلى أجهزة الدولة نفسها.

من هنا كان إعداد نظام السيطرة على مستوى الدولة من الأهمية بمكان، لتحقيق سيطرة متزنة مستمرة وحازمة يعتمد عليها على مستوى الدولة وقواتها المسلحة.

إن أهم عامل في نظام السيطرة هو إنشاء مقرات القيادة والسيطرة السياسية أو العسكرية، والتي يجب انتخاب مواقعها بمنتهى الدقة، حيث تتوفر الوقاية وسهولة السيطرة، مع تزويدها وتجهيزها بوسائط الاتصال المختلفة، من سلكية ولاسلكية، ومتعددة القنوات، وأجهزة نقل الصور. ويتم إنشاء هذه المقرات على جميع المستويات. فعلى المستوى السياسي يتم إنشاء مقرات سيطرة لرئاسة الدولة والحكومة والمحافظات والمدن الرئيسية والمؤسسات.. إلخ، وعلى المستوى العسكري يتم إنشاؤها على مستوى القيادة

العامة ، والمستوى الاستراتيجي والعملياتي والتكتيكي ، كما يجب إنشاء المقرات التبادلية والمتحركة .

ل ــ رفع قدرات الإصلاح

ويقصد بها إعداد الورش ومراكز الإصلاح للمعدات المختلفة على مستوى الدولة ، بحيث يمكنها القيام بأعباء إضافية وقت الحرب ، مساهمة في تلبية مطالب المجهود الحربي ، علاوة على استمرار تلبية احتياجات الشعب ، ووضع الخطط اللازمة لتعبئة هذه الطاقات ، مع العمل على توفير مطالبها من إجراءات الوقاية والإخفاء وكذلك المناورة بجزء منها .

م ــ نواحي أخرى من الإعداد

علاوة على ما سبق فإن على الدولة إعداد الكثير من أراضيها وأهدافها لمواجهة الصراع ، ومطالب المجهود الحربي ، منها المستشفيات ومصادر إنتاج الغذاء والساحات الشعبية والنوادي والملاعب .. إلخ . كل هذا في سبيل الاستفادة من هذه الأراضي والمنشآت وقت الحرب بأسلوب مناسب لطبيعتها ، ولن يتأتى ذلك إلا بإعدادها الإعداد السليم مسبقاً حتى تقوم بمهامها الحضارية وقت السلم ، ثم سهولة تحويلها لخدمة المجهود الحربي وقت الحرب . ويجب أن تضع الدولة في اعتبارها ضرورة الإعداد لإيواء المهاجرين وقت العمليات ، وهم السكان المدنيون المقيمون قرب مسارح عمل القوات المسلحة أو داخلها ، والذين يتعرضون بشدة لآثار أسلحة القتال ، حيث يجب وضع خطة منسقة لتهجيرهم إلى أماكن آمنة معدة من قبل ، يتوفر فيها جميع سبل الحياة والراحة ، حفاظاً عليهم وعلى روح الشعب المعنوية .

س ــ تجهيز الدفاع المدني وحماية المنشآت

وأخيراً يأتي إعداد الدفاع المدني بمختلف صوره ، من وقاية الشعب بإعداد المخابىء الآمنة اللازم وتجهيزها بفرق الإنقاذ والإسعاف ، إلى إعداد جميع المنشآت الحيوية لمواجهة آثار التدمير ، وتجهيزها هندسياً .

ع ـ التخطيط لإعداد أراضي العدو

لا شك في أننا عندما تناولنا هذا الموضوع، وهو إعداد أراضي الدولة للصراع المسلح يجب ألا نغفل عن أهمية التفكير في التخطيط لإعداد أراضي العدو أيضاً. ويقصد بهذه الأراضي هنا ـ تلك الأراضي التي يكون العدو قد انتزعها من الدولة، وأصبح محتلاً لها، والتي ستقوم الدولة بتحريرها ـ أو أراضي العدو نفسه التي قد يدعو تطور القتال إلى اقتحامها. وفي كلتا الحالتين يجب التفكير في تلك الأراضي، ووضع الخطط المسبقة لإعدادها لاستخدام القوات، وأسلوب استعادة كفاءة المنشآت المتوفرة فيها، كالمطارات والموانىء والطرق والموارد الطبيعية كالآبار والمزروعات.. إلخ، حتى يتم استغلالها في أقصر وقت ممكن، وبأسهل الطرق، وسوف يحتاج الأمر في بعض الأحيان إلى تشكيل أطقم خاصة لهذا العمل تدفع مع القوات الأمامية لسرعة استعادة كفاءة تلك المنشآت، وسرعة إعداد تلك الأراضي لصالح قواتنا.

ف ـ جهود القيادة العسكرية السورية لإعداد مسرح العمليات

لقد وجدت القيادة السورية نفسها غداة عدوان حزيران ١٩٦٧ إزاء مشكلة ضخمة تحتاج إلى حل دون إبطاء، فاحتلال منطقة الجولان من قبل إسرائيل فرض عليها تنظيم خطوط دفاعية جديدة كاملة. وعندما يكون الحديث متعلقاً بالخطوط الدفاعية، فمن الطبيعي أن ذلك يتضمن حجماً ضخماً من الأعمال الهندسية والمنشآت، ابتداء بالخندق العادي وانتهاء بمقرات القيادة مروراً بالملاجىء والمراصد العادية، ومساند الأسلحة ومرابض المدفعية، والحواجز بأنواعها، بما فيها حقول الألغام، وكذلك خطوط المواصلات، بالإضافة إلى ما يتطلبه الدفاع عن عمق البلاد.

وفي مجال لا يقل أهمية عما سبقه، إن لم يزد، كان على سورية بعد أن لعب الطيران الإسرائيلي الدور المعروف في عدوان ٥ حزيران، وإزاء التنامي المضطرد للقوى الجوية الإسرائيلية وامتلاكها الأنواع المتطورة من الطائرات القادرة على الضرب في العمق مثل السكاي هوك ـ والميراج ـ والفانتوم، كان على سورية إضافة إلى بناء قوتها الجوية القادرة على التصدي بكفاءة للطيران الإسرائيلي، أن تنشىء جهازاً متكاملاً من مراكز الرادار ومراكز الرصد بالنظر، يغطي المجال الجوي السوري من جميع الاتجاهات وعلى

الارتفاعات المختلفة، بما في ذلك الارتفاعات المتوسطة والمنخفضة جداً، كما أنه كان عليها أن تغطي أراضي البلاد بعدد كبير من المطارات والمطارات الميدانية، وأراضي الهبوط، وأن تضاعف المهابط في المطارات نفسها وتزويد هذه المطارات بغرف العمليات المطمورة، وبملاجىء للطائرات من الإسمنت المسلح، وبتمديدات المحروقات والأكسجين، وكذلك أن تقيم شبكات الاتصالات الهاتفية المطمورة في هذه المطارات، فضلاً عن شبكات الاتصالات اللاسلكية.

وأخيراً كان لا بدَّ من إقامة غرف العمليات المشتركة والعديدة والمنتشرة التي كانت ضرورية لقيادة هذا الجهاز الحديث والمتطور من الدفاع الجوي وإدارته، وتهيئة الشروط الفنية للتعاون الوثيق بين الطيران والدفاع الجوي، سواء أكانت صواريخ موجهة أو مدفعية كلاسيكية مضادة للطائرات. وما يقال عن القوى الجوية يقال بالطبع عن القوى البحرية التي اقتضت أحجاماً ضخمة من الأعمال الهندسية كالتي مر ذكرها.

في مطلع عام ١٩٧٢ كانت الخطة الهجومية قد تبلورت، وبدأت الأعمال الهندسية تأخذ اتجاهاً محدداً يخدم تنفيذ الخطة بوتيرة عالية. لقد أصبح على القيادة أن تؤمن موعد الهجوم الذي تحدد بصورة تقريبية، تجهيز قاعدة الانطلاق للهجوم بكل ما تتضمنه من مرابض متقدمة للمدفعية والصواريخ، ومساند الدبابات وخنادق وملاجىء، وطرق مواصلات ومناطق تحشد، وأن تضاعف كل هذه الأعمال عدة مرات لأغراض الخطط التبادلية وخطط التمويه.

إلى جانب الأعمال الهندسية المتعلقة بالعمل العسكري المباشر، فقد اهتمت القيادة العامة في سوريا بموضوع تنسيق جهود أجهزة الدولة لجعل جميع هذه الجهود تنصب لخدمة المجهود الحربي.

ولهذا الغرض تم إيجاد جهاز خاص تابع لشعبة العمليات في القيادة العامة للقوات المسلحة السورية، وهو فرع إعداد مسرح العمليات الذي أنيطت به مهمة دراسة جميع المشاريع المقامة على أراضي الجمهورية والتأكد من ملاءمتها للمطالب العسكرية. وأصبحت موافقة القيادة العامة على هذه المشاريع شرطاً رئيسياً من شروط إقامتها، وأصبح هذا الجهاز بالتنسيق مع الأجهزة المختصة في رئاسة مجلس الوزراء يشرف ــ من الوجهة العسكرية ــ على خطط إعداد أراضي الجمهورية كمسرح للعمليات الحربية.

٥ ـــ مسؤوليات أجهزة الدولة في التخطيط لإعداد الدولة للحرب

إن إعداد الدولة للحرب عمل ذو أنشطة متعددة ومتنوعة، ويتطلب اشتراك جميع قيادات الدولة **السياسية والعسكرية**، بل وجميع أجهزتها ومؤسساتها التنفيذية والتشريعية، ومنظماتها السياسية والشعبية. كما يتطلب مساهمة جميع الطاقات الاقتصادية والبشرية، مما يعطيه صفة الشمول على مستوى الوطن.

من هنا فإن مسؤولية إعداد الدولة تقع على الأجهزة التالية:

ـــ القيادة السياسية للدولة.
ـــ القيادة العسكرية.
ـــ الحكومة.

أ ـــ مسؤولية القيادة السياسية

إن القيادة السياسية للدولة هي المسؤول الأول عن إعدادها لمواجهة جميع الظروف. وتأتي في مقدمة هذه المسؤوليات مسؤولية إعدادها لمواجهة أي صراع مسلح.

وقد يختلف شكل القيادة السياسية من دولة إلى أخرى طبقاً لنظامها الدستوري، **لكنها تتمثل عادة في رئيس الدولة (رئيس الجمهورية أو الملك أو الأمير)، ومؤسسات الدولة السياسية والحكومية (مجلس الشعب، مجلس النواب، مجلس الوزراء)، وقد يضاف إليها أو يعاونها بعض المجالس الخاصة، كمجلس الأمن القومي، أو مجلس الدفاع الوطني .. إلخ.**

والقيادة السياسية للدولة مسؤولة عن إقرار السياسة العامة وتوجيهها بشقيها الداخلي والخارجي، وبالتالي السياسة العسكرية للدولة، باعتبارها جزءاً أساسياً من السياسة العامة.

وتقوم القيادة السياسية بالتصديق على مقترحات القيادة العسكرية حول مطالب إعداد الدولة للحرب، وإقرار الخطة الموحدة لهذا العمل الضخم. كما تصدر التوجيهات،

وتحدد المهام لقطاعات الدولة المختلفة لتنفيذ متطلبات إعداد الدولة، كما تقوم أيضاً بالإشراف على الإعداد الكامل في جميع المجالات، ومتابعة التنفيذ وتوجيهه.

وبصفة عامة يعتبر مستوى القيادة السياسية هو المستوى الذي يحدد:

- نوع الحرب أو الصراع المنتظر والذي على الدولة أن تستعد له.
- طرق تحقيق السياسة العسكرية للدولة.
- تحديد العدو الرئيسي للدولة.
- تحديد الهدف السياسي العسكري من الحرب.
- تحديد طبيعة الصراع المنتظر وتوقيته المحتمل، ومدى الصراع ومراحله.
- تحديد مسرح العمليات المنتظر.
- تحديد الحلفاء المنتظرين والدور المطلوب من كل منهم.

وانطلاقاً من هذه القرارات المحددة يبدأ التخطيط في إعداد الدولة لمواجهة الصراع المنتظر.

ب ـ مسؤولية القيادة العسكرية

قد يختلف شكل القيادة العسكرية من دولة إلى أخرى طبقاً لنظمها وطبيعتها. لكننا نجد أن هذه القيادة تتمثل في الآتي:

- رئيس الدولة (بصفته قائداً أعلى أو عاماً للقوات المسلحة).
- مجلس الدفاع الوطني، والذي يرأسه رئيس الدولة ويؤلف أعضاءه بقرار منه.
- وزارة الدفاع وهيئة الأركان العامة.

تلعب وزارة الدفاع والقيادة العسكرية دوراً هاماً في إعداد الدولة للحرب، فهي وإن كانت تضطلع بالمسؤولية الرئيسية في إعداد القوات المسلحة، إلا أنها تقوم بدور فعال ورئيسي مؤثر في إعداد باقي مجالات الإعداد، كإعداد الاقتصاد الوطني، وإعداد الشعب، وإعداد مسارح العمليات بما يتلاءم مع أهداف الصراع.

ففي مجال إعداد القوات المسلحة تقوم القيادة العسكرية بتحديد الأسس العسكرية للعقيدة العسكرية، والمفاهيم النظرية للاستراتيجية، والتحقيق العلمي

لمتطلباتها، كما تقوم ببناء وإعداد طرق وأساليب استخدام القوات المسلحة في الحرب لتحقيق الأهداف السياسية ـــ العسكرية.

أما في مجال إعداد الدولة ككل للحرب فالقيادة العسكرية هي التي تقرر مطالب الإعداد للصراع المنتظر، وتقدم مقترحاتها المتعلقة بهذا الإعداد وخاصة في مجالات:

ـــ نظام تعبئة الصناعة والزراعة والنقل والمواصلات والتجارة والموارد المالية والجهود العلمية، وأيضاً تطوير ما يلزم لإعداد اقتصاد الدولة بجميع نواحيه، لصالح الدفاع عن البلاد، وبناء القوات المسلحة وإعدادها.
ـــ أسلوب الإعداد العسكري للشعب ونظام الدفاع المدني وأجهزة الدولة للحرب.
ـــ متطلبات إعداد أراضي الدولة كمسرح للعمليات الحربية، وتجهيز مسرح العمليات من وجهة النظر الاستراتيجية والعملياتية.
ـــ تحديد الالتزامات العسكرية في المعاهدات والاتفاقيات والتحالفات مع الدول الشقيقة والصديقة.
ـــ تنظيم تأمين الأسلحة والمعدات الضرورية بكميات تكفي احتياجات القوات المسلحة لتحقيق مهامها المحددة.
ـــ تقديم مقترحاتها لرفع احتياط الدولة من المواد لمواجهة الاحتياجات الإضافية اللازمة لدعم القوات المسلحة في أثناء الصراع المسلح.
ـــ تقديم المقترحات بشأن المطالب الفنية العسكرية والمواصفات العسكرية للمنشآت والمشاريع الإنتاجية الصناعية والخدمات؛ لتطابق تصميمات الإنتاج للاستخدام العسكري.
ـــ الاشتراك في كل ما يتعلق بالتخطيط لإعداد الدولة لمواجهة الصراع المسلح، وتقديم المشورة والمقترحات لوضع الخطط السليمة التي تحقق الهدف.

وبعد قيام القيادة العسكرية بحصر المطالب، تقوم بتقديمها إلى القيادة السياسية للدولة للتصديق عليها وإدخالها ضمن الخطة العامة لإعداد الدولة للصراع ـــ بحيث تعتبر هذه المطالب العمود الفقري لها ـــ ثم تكلف الأجهزة التنفيذية بالالتزام بها وتنفيذها، طبقاً لخطة تفصيلية موضوعة على ضوء المهام المحددة والنابعة من الخطة العامة الموحدة لإعداد الدولة لمواجهة الصراع المسلح.

من هنا يتضح أن العبء الرئيسي لإعداد الدولة للصراع يبدأ وتتكفل به القيادة العسكرية، وتخطط وتعدُّ له وزارة الدفاع، مما يحتم ضرورة وجود جهاز قوي لهذا العمل، على مستوى وزارة الدفاع. وإن كان هذا الجهاز حالياً موجوداً في بعض الدول إلا أنه جهاز ضعيف يتبع عادة شعبة العمليات، مما يحد من صلاحياته في التخطيط، الأمر الذي يستدعي تقوية هذه الأجهزة ورفعها إلى مستوى هيئة أو شعبة للتخطيط الاستراتيجي، تتبع مباشرة لرئيس الأركان، ولها الحرية الكاملة في الاتصال بباقي الأجهزة التخطيطية، سواء داخل القوات المسلحة أو الوزارات المختلفة، ليعمل الجميع في تنسيق وتعاون كامل في سبيل الهدف الموحد.

ج ـ مسؤولية الحكومة

إن الحكومة أو جهاز الحكم في الدولة هو العامل المشترك في التخطيط والتنفيذ. فالحكومة جزء من القيادة السياسية تشترك في بحث المشاكل الخاصة بسيادة الدولة وأمنها ومصيرها، وتشترك في التخطيط لرد أي عدوان عليها. وأخيراً فهي مسؤولة عن تنفيذ هذا التخطيط ومتابعته والإشراف عليه.

والحكومة بمعناها الواسع هي الجهاز الحكومي بدءاً من مجلس الوزراء، وحتى أدنى الأجهزة التنفيذية. وهي كلها مسؤولة عن تنفيذ سياسة الدولة، وتركيز الجهود والإمكانات لتنفيذها، مع مراعاة التنسيق الكامل لها.

يبدأ عمل الحكومة ومسؤوليتها من مرحلة الدراسة والتخطيط حتى انتهاء مرحلة التنفيذ التي عادة ما تكون مرحلة متواصلة.

ففي مجال إعداد الدولة للحرب نجد أنه على ضوء دراسة طبيعة الصراع المحتمل والمهام الرئيسية التي تحددها القيادة السياسية لإعداد الدولة لهذا الصراع تبدأ أجهزة الحكومة في العمل، حيث تقوم كل وزارة أو جهاز من أجهزة الدولة بعمل دراسة وافية لكل ما يخصها في هذا المجال، وتضع خطة عامة للتنفيذ، وتقسمها إلى مراحل تنفيذية محددة بمواعيد، وتوضح كل ما يلزمها من مطالب.

ولتجميع هذه المتطلبات وتنسيقها والتخطيط لتنفيذها تشكل لجنة وزارية تقدم إليها خطط الوزارات والهيئات المختلفة ومطالبها. وتقوم هذه اللجنة بتجميعها ودراستها

وتنسيقها ، ثم تضع خطة عامة موحدة لإعداد الدولة للحرب ، ثم تعرض هذه الخطة على القيادة السياسية (عادة مجلس الدفاع الوطني) لإقرارها ، وإصدار التوجيهات اللازمة لتنفيذها .

وعلى ضوء التوجيهات الصادرة من القيادة السياسية للدولة تقوم كل وزارة أو جهاز بإعداد خطة تفصيلية للتنفيذ ، محددة بتوقيتات تقدم إلى مجلس الدفاع الوطني ، لدراستها واعتمادها . ثم تقوم الوزارات المختلفة بعد تصديق القائد الأعلى بإصدار المهام إلى الأجهزة التابعة لها ، والمحافظات والمؤسسات والهيئات للتنفيذ .

ومن المحتم أن تلتزم كل وزارة أو جهاز بالتنفيذ طبقاً للخطة التفصيلية التي صدق عليها مجلس الدفاع الوطني . وعلى كل وزير أو رئيس جهاز أن يقدم تقريراً دورياً إلى مجلس الوزراء ، عن مدى تنفيذ الخطة طبقاً لمواعيدها ، موضحاً مدى التقدم في التنفيذ ، ومدى التقصير في بعض نواحيه ومقترحاته لدفع عجلة التنفيذ ومطالبه ، إن خرجت عن قدراته وإمكاناته .

ثم يأتي دور التوجيه والمراقبة والمتابعة ، وهو جزء أساسي من عمل الحكومة لضمان سير العمل وعدم وصوله إلى مواقف حرجة تخل بالتنفيذ كله ، والإعداد بصفة عامة . وقد تشكل لهذا لجان خاصة من داخل مجلس الوزراء ، أو قد تقوم وزارة الدفاع بهذا العمل حيث أنها المتأثر الأول بخطط إعداد الدولة فتقوم بتشكيل جهاز خاص للمتابعة ، أساسه الجهة المسؤولة عن إعداد الدولة للحرب ، بالاشتراك مع من ترى الاستعانة به من أجهزة الدولة . وتقوم بمتابعة تنفيذ الخطة وتوجيهات مجلس الدفاع الوطني ، وتقدم تقاريرها الدورية إلى وزير الدفاع الذي يتولى عرضها على مجلس الوزراء .

لا يقتصر عمل الحكومة وأجهزتها على التخطيط لإعداد الدولة ، وتنفيذ الخطة بعد التصديق عليها فحسب ، ولكن عليها أن تعد نفسها هي للعمل تحت ظروف الصراع من ناحية أسلوب العمل ، أو وسائط القيادة أو الوقاية والانتشار .. إلخ من أعمال تضمن لها حسن سير العمل ، والوفاء بالتزاماتها وقت الصراع ، وتحت ظروف الحرب بكفاءة . ولا يقتصر هذا العمل على مجلس الوزراء أو وزارة بعينها فحسب ، بل ينطبق على جميع الوزارات ، وجميع الأجهزة والهيئات في الدولة .

رابعاً ــ الإعداد الاقتصادي للحرب

تمهيد

من البديهي أن النصر لا يمكن تحقيقه بمحض الصدفة، وبخاصة في العصر الحديث. وإن من الخطورة ترك الأمور التي تمسّ كيان الدولة ومستقبلها إلى القدر أو الحظ. ولا بدّ بالتالي، من أن يتم كل ما يتعلق بالدفاع وحماية الدولة على أسس علمية، وأن تخصص له الإمكانات اللازمة، وأن يبذل في سبيله أقصى ما يمكن من جهود.

وإذا ما كان الهدف من إعداد الدولة للحرب هو تحقيق أمن الدولة وسلامتها، وقدرتها على صد العدوان، وعلى توجيه الضربات الرادعة إلى العدو، وتهيئة الظروف والعوامل للحصول على المبادأة الاستراتيجية للدولة والاحتفاظ بها ــ إذا ما كان الهدف هو كذلك، فإن إعداد الدولة اقتصادياً للحرب يأتي في مقدمة الأولويات في برنامج الدولة الخاص بالإعداد للحرب. ذلك أن الاقتصاد هو القاعدة الأساسية التي يبنى عليها الدفاع وخططه، وتقوم عليها القوات المسلحة، وهو المصدر الذي يغذي أجهزة الدفاع جميعها بنسغ الحياة وبوسائل العيش والعمل.

وليست عملية إعداد الدولة اقتصادياً للحرب عملية محددة أو محدودة، تتم وتنتهي في وقت محدد، ثم تتوقف، بل هي عملية مستمرة ودائمة، بقدر ما هي عملية الدفاع عن الدولة مستمرة ودائمة. وتتصف عملية الإعداد الاقتصادي للحرب بأنها معقدة

وشائكة، لأنها تدخل ضمن إطار شبكة واسعة ومعقدة من عمليات تأمين الدفاع عن الدولة، تلك العمليات التي تشترك فيها جميع أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع.

وتتوقف طبيعة الإعداد الاقتصادي للحرب على طبيعة الصراع المسلح المتوقع، وعلى دروس الحروب والتجارب الماضية. وبمثل ما يأخذ المخططون الاستراتيجيون العسكريون الظروف والعوامل الدولية بعين الاعتبار حينما يرسمون خططهم، يأخذ المخططون الاقتصاديون هذه الظروف والعوامل، من وجهة النظر الاقتصادية، بعين الاعتبار عندما يضعون خططهم الاقتصادية لإعداد الدولة للحرب.

١ ـ أهمية الإعداد الاقتصادي للحرب

إن الإعداد الاقتصادي للحرب ليس بالأمر السهل، ولا العشوائي الذي تمكن معالجته في حينه، ولا بالأمر الذي يستطيع جهاز واحد من أجهزة الدولة أن يحققه، ولا هو بالأمر الذي يتخطى الزمن والظروف قفزاً عليها وهروباً من مواجهتها. وإنما هو عمل علمي دقيق، يقوم على معطيات وإحصاءات علمية دقيقة، ويستند إلى تنبؤات وتصورات أساسها الواقع القائم، والاحتمال القادم. وهو يتعلق بالدولة كلها والشعب كله والقوات المسلحة كلها، بمثل ما ترتبط هذه الكيانات كلها به. ومن هنا تأتي خطورة الإعداد الاقتصادي للحرب، ومن هنا تأتي أهميته وأثره وتأثيره.

وإذا كانت هناك شؤون في الدولة تديرها وتعمل فيها ولها أجهزة متخصصة، فيها الكفاءة والكفاية، فإن الإعداد الاقتصادي للحرب شأنٌ معقد، متشابك الأطراف، متعدد المستويات، متنوع النسيج. ولا تستطيع جهة اقتصادية واحدة في الدولة أن تتولى كفاية القوات المسلحة والشعب بحاجاتها ومتطلباتها، وإنما الأمر يتعلق بمجموعة هرمية كبيرة ذات مستويات كثيرة ومتنوعة ، قاعدتها كبيرة تمتد إلى أرض الوطن كله، وتصغر حلقاتها وتضيق حتى تبلغ القيادة الاستراتيجية العليا في قمة الهرم. وفي كل حلقة أو طبقة في الهرم نجد مجموعة متخصصة من الأجهزة الاقتصادية، مختلطة مع مجموعة من أجهزة الدولة المختلفة، والتنظيمات الشعبية. وجميعها تعمل في تنسيق وتناسق، كالجوقة الموسيقية تعزف لحناً واحداً، يتألف في الأصل من أنغام تنبعث من مختلف الآلات الموسيقية. وهكذا يتألف المجهود الاقتصادي للدولة والمجتمع من تآلف هذه العناصر التي

ذكرناها، ليصب في تيار المجهود الحربي، فيرفده بالعون والنسغ، بمثل ما يوفر للشعب والمجتمع حاجاتهما الحيوية.

٢ ــ الحرب الحديثة والإعداد الاقتصادي

من صفات الحرب الحديثة أن مجرياتها ووقائعها وآثارها لا تقتصر على القوات المسلحة ومسرح العمليات فحسب، وإنما تمتد إلى جميع أنحاء الوطن، شعباً وأرضاً، جواً وبحراً. لذلك فإن جميع أجهزة الدولة تكون مشتركة في الحرب، بشكل ما من الأشكال، وبنسبة ما من نسب الاشتراك. وعلى هذا فمن واجب الدولة، بمختلف أجهزتها، أن تعد نفسها وشعبها للحرب، بمثل ما تعد القوات المسلحة لأداء واجبها المقدس.

ويعني إعداد الدولة اقتصادياً للحرب، إعداد أجهزة الدولة الاقتصادية ــ التخطيطية والزراعية والصناعية والتجارية والفنية والهندسية وغيرها، مما له علاقة بالاقتصاد الوطني ــ بما يضمن استمرار الحياة اليومية والإنتاج والاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة والمجتمع وقت الحرب، وبما يضمن استمرار السيطرة والعمل للمؤسسات الإنتاجية والخدمات الاقتصادية لمصلحة القوات المسلحة والشعب في آن واحد، دون توقف أو تأثر كبير، نتيجة الصراع الدائر.

ويتطلب الإعداد الاقتصادي للحرب:

١ ــ وجود جهاز تخطيطي أعلى، قادر على التخطيط الاستراتيجي الشامل، يضع الخطط والسياسات الاستراتيجية التخصصية، ويحدد فيها الأهداف، ووسائل التنفيذ ومراحله، والأجهزة الاقتصادية المكلفة بالتنفيذ. ويراقب هذا الجهاز التخطيطي تطبيق الخطط والسياسات، ويتابعها في مختلف مراحلها.

٢ ــ إعداد أجهزة التخطيط الفرعية للعمل في ظروف الحرب، وسرعة التحول من طبيعة السلم إلى حالة الحرب.

٣ ــ وضع الخطط التفصيلية لتنفيذ كل جهاز اقتصادي ما هو مطلوب منه لمصلحة المجهود الحربي وحاجات الشعب وقت الحرب.

٤ ــ قدرة الأجهزة الاقتصادية على التنفيذ والحركة والمتابعة والمراقبة والسيطرة في ظروف

الحرب وطوارئها . وقد يتطلب الأمر أن ينشىء كل جهاز ، أو كل مجموعة نوعية من الأجهزة الاقتصادية غرفة عمليات خاصة بها ، تستطيع من خلالها القيام بواجبها .

٥ ـــ وضع الخطط التبادلية لتستطيع الأجهزة الاقتصادية المناورةَ وحُسْنَ التصرف والادعاء ، وتوفير المرونة الكافية لمواجهة أية مطالب مفاجئة ، أو مواقف طارئة ، وهي كثيرة ، وقت الحرب .

ومن المؤكد أنه لا يمكن الإعداد السليم لأجهزة الدولة الاقتصادية لتولي مسؤولياتها وأدائها واجبها بشكل مناسب ، .وعلى درجة جيدة من الكفاءة وقت الحرب ، ودون خلل أو اضطراب جسيم ، قد يؤثر تأثيراً عميقاً في عمل الدولة والوضع الحربي ـــ لا يمكن الإعداد السليم إلا بالتنبؤ السليم المسبق بطبيعة الصراع المنتظر ، واحتمالات تطوره ، وحجوم حاجاته ومتطلباته ، والتخيل الأقرب للواقع لمداه وتأثيره ، ثم وضع الخطط المؤسسة على ذلك كله ، مع تحديد المسؤوليات والواجبات لكل جهاز اقتصادي ، وأسلوب التعاون بين الأجهزة المختلفة ، وارتباط مجموعة الأجهزة الاقتصادية بالقيادة العليا للدولة وللدفاع .

وفي جميع الأحوال ، فإن الأجهزة الاقتصادية لا تستطيع أداء واجباتها كاملة بمفردها ، إذا لم تتلق العون المباشر من المحافظين ، والمجالس الشعبية ، وقيادات المناطق والمواقع العسكرية ، والسلطات المحلية الأخرى ، ومنظمات الدفاع المدني والدفاع الشعبي وغيرها من المنظمات الشعبية .

وعلى هذا ، فإن الإعداد الاقتصادي للحرب ، يتطلب تخطيطاً اقتصادياً دقيقاً ومفصلاً ، يؤدي تطبيقه إلى توفير القاعدة والعوامل المادية ، لكي تؤدي القوات المسلحة ، والدولة ، والشعب ، واجباتها في الدفاع عن الوطن .

٣ ـــ التخطيط الاقتصادي للإعداد للحرب

لكل دولة ظروفها وسياستها وأسلوبها في الحياة . ويعني هذا أن لكل دولة نظامها الاقتصادي الخاص بها ، والذي يتمشى مع إنتاجها واستهلاكها ، وتصديرها واستيرادها ، ومطالبها وحاجاتها ، ويعمل لاستمرارها وتقدمها .

ويمكن تمييز ثلاثة نظم اقتصادية رئيسية تسود معظم أنحاء العالم هي: النظام الرأسمالي، والنظام الإشتراكي، والنظام الذي يجمع بين الأسلوبين الإشتراكي والرأسمالي. وإذ ا كان التقسيم ليس دقيقاً وجامعاً، فإن الاختلاف الرئيسي فيه يقوم على أساس ملكية وسائل الإنتاج وعناصره. وفي حين ذهب النظام الرأسمالي نحو الحرية الاقتصادية، اتجه الاقتصاد الإشتراكي إلى التخطيط الوطني الشامل، وتنشيط قطاعات الإنتاج العام وتشغيلها. غير أن هذا لا يعني أن النظام الرأسمالي لا يعرف التخطيط، أو لا يلجأ إليه لمعالجة شأن من شؤونه، أو قطاع من قطاعاته لفترة من الزمن. وفي جميع الأحوال، فإن النظام الرأسمالي يلجأ إلى التخطيط الشامل، من أجل الإعداد الاقتصادي للحرب، وطوال مدة الحرب، وحتى زوال أهم آثارها.

والتخطيط ذو أهمية كبرى في النظام الإشتراكي، وفي الدول النامية التي تسعى إلى اللحاق بركب التقدم. وتزداد أهمية التخطيط الاقتصادي في وقت الإعداد للحرب وفي أثنائها. ذلك أن الدولة التي تعد نفسها للحرب، دفاعاً أو هجوماً، تجد نفسها مشدودة إلى الإنفاق الذي قد يتزايد بمرور الزمن، من أجل تلبية مطالب مرحلة الإعداد للحرب. وسيؤدي ذلك، بالضرورة، إلى زيادة نفقات الدولة بصورة سريعة، مما يدفع الدولة إلى زيادة الأعباء الضريبية على المواطن. وقد تلجأ إلى الاقتراض الخارجي الذي يزيد أعباء الدولة، كما يرفع نسبة التضخم، ما لم تتخذ الدولة تدابير تحد من احتمال حدوثه.

وللعامل البشري في مرحلة الإعداد للحرب وفي أثنائها أثر واضح في الموقف الاقتصادي للدولة. ففي ظروف الحرب تنشأ حالة قوامها ندرة العمال المخصصين للإنتاج الصناعي أو الزراعي، والعاملين في قطاعات الخدمات العامة، سواء في الميدان العسكري أو المجال المدني، وذلك بسبب تعبئة قسم كبير من العمال وسوقهم للخدمة العسكرية. ويؤدي ذلك إلى ارتفاع أجور العمال المدنيين الباقين في قطاعات الإنتاج، كما يؤدي، بالتالي، إلى نشوء التضخم النقدي، وحدوث خلل في مستويات الأجور.

وتواجه مختلف قطاعات الإنتاج، في زمن الحرب بصورة خاصة، مجموعة كبيرة من المشكلات والأزمات والصعوبات، وبخاصة في الدول النامية، مما يفرض على السلطة أن تتدخل بشكل مباشر، أو تزيد تدخلها، حتى لا يقع خلل هام أو خطير في توفير المواد اللازمة لتشغيل آلة الحرب. ولا بد أن تكون السلطة حريصة حذرة في تدخلها، وفي

فرضها للقيود اللازمة ، حتى لا ينعكس ذلك التدخل وتلك القيود على كفاءة الاقتصاد انعكاساً سلبياً .

ويرى بعض الاقتصاديين أن ظروف الحرب تُخْضِعُ الاقتصادَ الوطني لمجموعة من الأحكام والقيود والتوجهات ، تجعله اقتصاداً موجهاً أو مُداراً ، وتفقده حريته في التحرك والتطور ومعالجة مشكلاته . وفي الواقع فإن النظام الاقتصادي لكل دولة يختلف في توجيهاته في وقت السلم عما يكون عليه في ظروف الحرب . وتشترك في هذه السمة جميع أنواع الأنظمة والمذاهب الاقتصادية .

وإذا كان النظام الاقتصادي الإشتراكي نظاماً موجهاً في الأساس والأصل ، قادراً على مواجهة متطلبات السلم وظروف الحرب ، بواسطة التخطيط العلمي ، فإن النظام الرأسمالي ليس كذلك ، لأنه يقوم على الحرية الاقتصادية للفرد ، وللمؤسسة التي تعمل في القطاع الخاص ، الذي يعم جميع المؤسسات والمنشآت الاقتصادية . ويعني هذا أن اهتمامه بالاقتصاد الحربي وبإعداد الدولة للحرب إنما هو اهتمام يقوم على أساس الربح . وليس من اختصاص هذا الفصل أن يبحث في الاحتكارات الصناعية العسكرية الكبيرة في العالم ، وفيما تفعله من أجل إثارة الحروب والتوترات المسلحة ، من أجل كسب المال ، ببيع الأسلحة إلى الأطراف المتحاربة دون تفريق .

وما نود قوله في شأن الاقتصاد الرأسمالي ، وتحوله لينسجم مع ظروف الحرب ، هو أن التخطيط للإعداد الاقتصادي للحرب ، ولتوجيه الإنتاج الاقتصادي والشؤون الاقتصادية في حالة الحرب ، قد أخذ مكانته في النظام الرأسمالي . وهو في زمن الإعداد للحرب النووية أعظم مكانة وأهم شأناً ، وأكثر شمولاً وأوسع تدخلاً مما كان عليه في ظروف الحرب التقليدية .

ولنأخذ مثلاً على ذلك ما جرى في الولايات المتحدة الأميركية في الحرب العالمية الثانية . فهذه الدولة دخلت في الحرب متأخرة ، ولم تتعرض أراضيها ومراكز الإنتاج فيها ، وثرواتها الطبيعية ومؤسساتها ومرافقها الاقتصادية لأي أذى من جراء الحرب ، على عكس الدول الأوروبية المشتركة في الحرب ، فقد عصف بها الخراب والدمار والقتل والمرض وغيرها من الويلات .

وحتى تواجه الولايات المتحدة متطلبات ظروف الحرب، اضطرت الإدارة إلى التدخل في دورة الاقتصاد الوطني، منذ أن بدأت الحرب في أيلول ١٩٣٩، إلى أن اشتركت فيها في عام ١٩٤١. واستمر تدخل الإدارة حتى زالت آثار الحرب على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، بعد أن انتهت الحرب عسكرياً في صيف ١٩٤٥. وقد تجسد تدخل الإدارة الأميركية في دورة الاقتصاد الوطني من خلال مجموعة من الإجراءات الهادفة إلى الرقابة والتوجيه والتحكم في النشاط الاقتصادي، وزيادة الإنتاج إلى المستوى الذي يتطلبه المجهود الحربي، من حيث الكم والنوع، فأنشأت الأجهزة التالية:

١ ـ **مكتب إدارة الإنتاج**: للإشراف على إنتاج الأسلحة والذخائر والمعدات الحربية.
٢ ـ **مجلس الإنتاج الحربي**: للإشراف على تنفيذ خطط الحرب الاقتصادية ومتابعتها.
٣ ـ **مكتب الاستقرار الاقتصادي**: لمكافحة ارتفاع الأسعار، ومنع احتمالات التضخم.
٤ ـ **إدارة الاقتصاد الدولي**: لتنسيق العلاقات الاقتصادية مع العالم الخارجي.

وهكذا يؤدي التخطيط الاقتصادي دوراً جذرياً أساسياً في التنبؤ الصحيح والدقيق بمتطلبات الحرب وحاجاتها، والتوفيق بين مطالب الصراع المسلح والقوات المسلحة من جهة، ومطالب الشعب والحياة اليومية للجماهير من جهة أخرى. حتى تسير الأمور الاقتصادية في الدولة والقوات المسلحة والمجتمع في مرحلة الإعداد للحرب، وفي أثنائها دون مشكلات أو عثرات أو هزات عنيفة، ودون خلق أعباء ضخمة، أو ارتباطات تثقل كاهل الدولة، وتؤثر في حياة الشعب تأثيراً شديداً سلبياً، وقت الحرب، وبعد انتهائها.

وليس من شك في أن مسألة الإعداد الاقتصادي للحرب في الدول النامية تشكل مسألة صعبة ومعقدة، بسبب الوضع الاقتصادي العام لتلك الدول. وأول ما تواجهه هذه الدول هو قصورها عن القدرة على الاكتفاء الذاتي في صنع الأسلحة والذخائر والمعدات اللازمة للقوات المسلحة، وبخاصة أن الأسلحة معرضة للتطور المستمر، ولم يحدث قط أن حاربت دولة ما بأسلحة الحرب السابقة ذاتها. ولا سبيل أمام الدول النامية، آنذاك، سوى أن تشتري من الخارج، بعض تلك الأسلحة والذخائر والمعدات،

وما يلزمها من وسائل التشغيل والصيانة وقطع التبديل. وهناك دول نامية تشتري كل ما يلزمها من السلاح والذخيرة، إذ إنها لا تصنع شيئاً منها، وفي ذلك عبء جد ثقيل على كاهلها، وقيد كبير على اقتصادها.

وتأسيساً على ذلك، ينبغي على الدول النامية أن تحسن انتقاء مصادر السلاح، وأن تعقد صفقات الشراء خالية من كل قيد سياسي أو شبه سياسي، أو شرط يقيد سيادة الدولة وحريتها في التحرك السياسي.

يضاف إلى ذلك أن سياسة استيراد الأسلحة والذخائر والمعدات الحربية من الخارج ينبغي أن تتيح توفير تجهيزات منتجة خلال سنوات متتالية، حتى لا تقع الدولة في محذور انتهاء العمر الفني الافتراضي لتلك التجهيزات إذا كانت كثيرة ومتراكمة، وكانت فرصة استخدامها معدومة. كما ينبغي أن ترافق خطة الاستيراد بخطة لتخزين المشتريات الحربية وقطع تبديلها، ولصيانتها وحفظها جاهزة للاستعمال في أوقات زمنية محددة.

٤ ــ مطالب الإعداد الاقتصادي للحرب

يتطلب الإعداد الاقتصادي للحرب تحقيق مطالب تحددها خطط الإعداد الاقتصادي، التي تقوم على معطيات تستخرج من:

١ ــ حصر مطالب إعداد الدولة اقتصادياً للصراع المسلح.
٢ ــ حصر إمكانات الدولة وقدراتها، وأسلوب استخدامها لمصلحة الإعداد.
٣ ــ حصر ما هو خارج عن إمكانات الدولة وقدراتها، وتدبّر أمر الحصول عليها.

وبعد أن يتم حصر المطالب والإمكانات والطاقات ووسائل تدبير ما لا تستطيع الدولة تأمينه بإمكاناتها الذاتية، تبدأ مرحلة التخطيط، لتليها مرحلة التنفيذ، التي تعني مجموعة من الجهود والأموال والفترات الزمنية.

إن أولى الخطوات لإعداد الدولة اقتصادياً للحرب هي حصر مطالبها. ولا بد أن يكون هذا الحصر دقيقاً وسليماً، ومبنياً على أسس علمية وواقعية، وعلى الحاجات الفعلية، طبقاً لظروف الدولة وطبيعة الصراع المنتظر أن تخوضه، دون مبالغة تؤثر على

اقتصاد الدولة، ودون إخلال، في الوقت نفسه، بالمطالب الاقتصادية الرئيسية للدولة.

لذلك يجب أن يكون حصر المطالب دقيقاً ومسايراً للتنبؤ السليم في المستقبل، مع المرونة الكافية لمواجهة التغيرات التي تفرضها ظروف الحرب.

ويتألف حصر مطالب إعداد الدولة اقتصادياً للحرب من ثلاثة فروع رئيسية، هي:

١ ـ مطالب إعداد القوات المسلحة.
٢ ـ مطالب تجهيز مسرح العمليات.
٣ ـ مطالب إعداد مرافق الدولة وأجهزتها.

إن الفرعين الأول والثاني يخصان القوات المسلحة بشكل مباشر، وهي تقوم بعملية الحصر لتقديمها إلى الجهاز الاستراتيجي الأعلى في الدولة. وسنقصر الحديث على الفرع الثالث، وهو مطالب إعداد مرافق الدولة وأجهزتها.

تشكل أجهزة الدولة الاقتصادية ومرافقها عصب الدولة وجهازها الاقتصادي المفكر والمخطط والمنفذ. ولا تستطيع القيادة العامة إعداد القوات المسلحة، تدريباً وتسليحاً وتجهيزاً وقتالاً، ولا إعداد مسرح العمليات، إذا لم يكن في الدولة مجموعة من الأجهزة والمرافق الاقتصادية، تستطيع أن تلبي مطالب القيادة العسكرية.

وما نقصد بتعبير المرافق هو تلك المؤسسات والمنشآت التي تقوم على خدمة الشعب والقوات المسلحة، كشبكات الماء والكهرباء، والمواصلات السلكية واللاسلكية، والمطارات والموانىء، والطرق والسكك الحديدية، والمشافي، والمستودعات والمخازن، وما إلى ذلك من مؤسسات ومنشآت تؤمن الخدمات العامة.

وإذا افترضنا أن المرافق العامة كافية لتأمين تلك الخدمات في وقت السلم، فهي ليست كذلك في وقت الحرب، حيث يزداد الضغط عليها، كما يزداد الاستهلاك منها، فضلاً عن تعرضها للدمار أو التعطيل أو التخريب. لذلك فلا بدَّ لخطة الإعداد الاقتصادي من توسيع شبكات المرافق العامة، ووضع البدائل، وإنشاء ما يلزم من بعض

الشبكات الاحتياطية، والتوسع في إنشاء المرافق، حتى تكون بمجموعها صالحة وملائمة لظروف الحرب.

وعندما ينتهي حصر جميع المطالب من مختلف الجهات، تأتي مرحلة التخطيط لتلبية هذه المطالب. ولعل أول خطوة في التخطيط هو تجميع البيانات وتصنيفها وتنسيقها، لتقوم خطة الإعداد الاقتصادي على أساسها، على أن يؤدي التصنيف إلى توزيع المطالب على قسمين رئيسيين: أولهما يتضمن المطالب التي تدخل في إطار إمكانات الدولة وقدراتها الذاتية المتاحة، وثانيهما يشمل المطالب التي لا تستطيع الدولة أن تؤمنها داخلياً، ولا بد من استيرادها من الخارج، سواء من الدول الحليفة أو الصديقة أو الأسواق العالمية.

٥ ــ العوامل التي يرتبط بها الإعداد الاقتصادي

يرتبط الإعداد الاقتصادي للحرب بعوامل عدة لعل أهمها:

١ ــ الهدف الاستراتيجي للدولة.

٢ ــ العدو المنتظر مواجهته، وقدراته.

٣ ــ طبيعة الصراع المسلح المتوقع.

٤ ــ خطة استخدام القوات المسلحة في الصراع المتوقع.

٥ ــ حجم القوات المسلحة المطلوب الاحتفاظ بها في وقت السلم، والحجم المطلوب أن تصل إليه هذه القوات في وقت الحرب.

٦ ــ نظام تعبئة القوات المسلحة عند توقع الحرب أو التعرض للخطر.

٧ ــ متطلبات الانتشار الاستراتيجي للقوات المسلحة، وبناء التجمعات الاستراتيجية، والعمليات في مسرح العمليات، وعلى الاتجاهات الاستراتيجية المختلفة.

٨ ــ خطط التدريب في مختلف المستويات.

٩ ــ خطة إعداد مسرح العمليات وتجهيزه.

١٠ ــ التأمين الشامل للقوات المسلحة للشعب والدولة.

إن جميع العوامل التي ذكرناها، يعود تقديرها، حجماً ونوعاً وكماً، إلى القيادة

العامة للقوات المسلحة. وعلى الجهاز الاقتصادي للدولة أن يأخذها، في تخطيطه للإعداد للحرب، كأسس ومنطلقات لعمله.

ولعل العامل الأخير، وهو التأمين الشامل للقوات المسلحة والشعب والدولة، هو العامل الذي يتعلق باستمرارية الحرب، وقدرة القوات المسلحة على المقاومة وتحقيق الهدف الاستراتيجي للحرب، وقدرة الشعب على الصمود، ومساندة القوات المسلحة في أداء مهمتها في ساحات القتال، وقدرة الدولة على التماسك والتفاعل بين مختلف أجهزتها ومؤسساتها في خدمة الهدف الاستراتيجي، ومدّ القوات المسلحة بوسائل استمرار القتال.

ولعل تحديد القوات المسلحة مطالبها وحاجاتها هو الشرط الأول للعمل لتأمينها. ويجب أن تحدد هذه المطالب والحاجات بدقة، ودون إسراف أو مبالغة، وبعد الاستناد إلى العوامل التي ذكرناها سابقاً، حتى يستطيع جهاز الدولة الاقتصادية أن يرسم خططه على أساس ذلك التحديد.

وفي جميع الأحوال، فإن التحديد الذي تقوم به القوات المسلحة لمطالبها وحاجاتها، لابد له من أن يشتمل على تقدير دقيق للمواقف الطارئة المحتملة كافة، وللتطورات المتوقعة، حتى يأتي الإعداد الاقتصادي على قدر ذلك التقدير، ومستجيباً للمواقف والتطورات المنتظرة، وحتى تجد القوات المسلحة نفسها قادرة، في الوقت المناسب، على مواجهة تلك المواقف والتطورات والتفاعل معها.

ويتجسّد ذلك التقدير للمواقف والتطورات المحتملة، في نهاية الأمر، بإنشاء احتياطي استراتيجي اقتصادي للدولة، والغرض منه خدمة الهدف الاستراتيجي للحرب، ومدّ القوات المقاتلة بما يلزمها من حاجات حتى تواجه المواقف والتطورات الجديدة، ذلك لأن حجم هذا الاحتياط يؤثر، تأثيراً مباشراً وفعالاً، على قدرة القوات المسلحة والدولة على مواجهة المستجدات والتفاعل معها.

ويتوزع الاحتياط الاستراتيجي على ثلاث درجات:

١ ــ **احتياط الطوارىء**: ويحتفظ به على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة، والتشكيلات، ويستعمل خلال العمليات.

٢ ــ **الاحتياط الاستراتيجي**: ويعتبر جزءاً من مخزون الدولة واحتياطها، ويوضع تحت تصرف القيادة العامة للقوات المسلحة، لمواجهة أية زيادة في الاستهلاك، أو أية ظروف غير متوقعة.

٣ ــ **احتياط الدولة**: ويعد لمواجهة متطلبات الشعب والقوات المسلحة في حالة الاستهلاك الكبير غير المنتظر، نتيجة تدمير شديد أصاب بعض مصادر الإنتاج. ويتم السحب من هذا الاحتياط حسب الحاجة، ويتوقف متى تمت عملية إعادة بناء مصادر الإنتاج المهدمة وتشغيلها.

وعلاوة على احتياط الدولة ــ وهو مخزونات المواد الرئيسية ــ فإن من واجب كل مؤسسة إنتاجية أو مصنع أن يحتفظ لنفسه باحتياط خاص من المواد الخام والمنتجات الجاهزة أو نصف المصنعة وقطع التبديل، ليستعملها في مواجهة المواقف الطارئة، ريثما تتمكن الدولة من توفير الحاجات اللازمة لتلك المؤسسة أو ذلك المصنع، وذلك حتى لا يتوقف العمل والإنتاج.

٦ ــ تحويل اقتصاد السلم إلى اقتصاد حرب

ولأن إعداد الدولة اقتصادياً للحرب هو عملية قومية شاملة، تهدف إلى تحويل النظام الاقتصادي للدولة من اقتصاد سلم إلى اقتصاد حرب، فمن الضروري أن تكون خطة التحويل هذه دقيقة وشاملة، وتهدف إلى تعبئة جميع موارد الدولة الاقتصادية، ووضعها في خدمة المجهود الحربي. وتشمل هذه الخطة التعبئة الصناعية والزراعية والتجارية، وتعبئة وسائط النقل والمؤسسات المالية، وغيرها من الأجهزة الاقتصادية.

ولما كانت الأسلحة ووسائل الصراع الحديثة وما لها من قوة تدميرية هائلة قد زادت، بشكل كبير، معدلات الاستهلاك، فإن الأمر أصبح يتطلب، بالضرورة، إعداداً مسبقاً لهذا المعدل العالي المتوقع من الاستهلاك.

وإذا ما نظرنا إلى القطاعات التي تشمل عليها عملية إعداد الدولة اقتصادياً للحرب، فإننا واجدون شبكة واسعة ومعقدة من القطاعات والمجالات الاقتصادية، المترابطة المتشابكة. غير أن هناك ثلاثة قطاعات رئيسية لها الأثر الأكبر على الإعداد الاقتصادي، وهي قطاعات الصناعة والزراعة والنقل.

أ ــ إعداد قطاع الصناعة

تنبع أهمية القطاع الصناعي بالنسبة للمجهود الحربي ، والاهتمام به كعنصر رئيسي من عناصر الإعداد الاقتصادي الوطني ، تنبع من طبيعة الصناعة نفسها ، ودورها الرئيسي في بناء الدولة وقواتها المسلحة ، ومن كونها وسيلة إنتاج الأسلحة والذخائر والمعدات اللازمة لإدارة الصراع المسلح واستمراره .

ولا يمكن لأية دولة ، مهما بلغت من التقدم والثراء ، أن تعدّ كل ما يتطلبه الصراع المسلح من أسلحة وذخائر ومعدات إعداداً مسبقاً للمدة الزمنية المحتملة للصراع . وقد أثبتت تجارب الحربين العالميتين الأولى والثانية أن كل مخزون الدول المتحاربة من الأسلحة والذخائر والمعدات التي تم صنعها قبل الحرب ، وفق الخطط الاستراتيجية الشاملة قد استهلك بكامله ، تقريباً ، في المراحل الأولى من الحرب . وأصبح لزاماً على الدول المتحاربة آنذاك أن تواجه مشكلة الاستهلاك في المراحل التالية من الحرب ، وتوفر أسلحة وذخائر ومعدات جديدة ومتطورة . وقد برز ، آنذاك ، العجز والقصور في قدرة المصانع والمؤسسات الحربية على تلبية ذلك السيل المتدفق من طلبات القوات المسلحة ، للحصول على أدوات الصراع . ولم يكن هناك بدّ من تحويل جزء كبير من مصانع الإنتاج المدني إلى الإنتاج الحربي .

وكمثال على ذلك ،نذكر التحول الذي طرأ على الصناعات الحربية في الولايات المتحدة الأميركية . فقد كانت هذه الصناعات تمثل ٢٢ ٪ من إجمالي الصناعات الوطنية الأميركية . وما إن أتى العام ١٩٤٢ ، حتى ارتفعت هذه النسبة وأصبحت ٥٦ ٪ ، ثم قفزت إلى نسبة ٦٦ ٪ في العام ١٩٤٣ ، أي أن متطلبات الصناعات الحربية من الصناعات الوطنية للدولة تضاعفت ثلاث مرات خلال عامين من أعوام الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت تشكل ثلثي إجمالي الإنتاج الصناعي الوطني .

ومن البديهي أن هذا التحول الكبير من الصناعة المدنية إلى الصناعة العسكرية لتلبية حاجات المجهود الحربي لم يتم فجأة أو عفوياً ، وإنما جاء نتيجة لإعداد دقيق مخطط مسبق . وأي تحول فجائي أو عفوي أو عشوائي يؤدي إلى نتائج عكسية ، بحيث تعجز الدولة عن تلبية المطالب العسكرية والمدنية على السواء .

وحتى تكون خطة التحويل دقيقة ومؤدية الغرض المنشود ، يجب أن تشتمل أساساً على العناصر التالية :

١ ـــ المطالب والحاجات الرئيسية للقوات المسلحة التي لا تستطيع الصناعة الحربية توفيرها ، ويطلب من الصناعة المدنية تدبيرها .

٢ ـــ وضع أسلوب تلبية هذه المطالب والحاجات ، وتحديد المصانع والمؤسسات المدنية التي سيتم تحويلها تحويلاً كاملاً أو جزئياً للإنتاج الحربي ، مع تحديد الوقت اللازم للتحويل وأسلوبه .

٣ ـــ تحديد المهام لكل مصنع ومؤسسة تم تحويلها ، وتحديد أنواع المنتوجات المطلوبة منها ، وكمياتها ، ومعدلات الإنتاج المطلوبة ، وتوقيتات التسليم .

٤ ـــ أسلوب توفير المواد الأولية اللازمة لضمان استمرار الإنتاج ، وخزن هذه المواد ، لمدة زمنية محددة ، وأسلوب توزيعها على المؤسسات الإنتاجية .

٥ ـــ خطة توزيع القوة البشرية على المؤسسات الإنتاجية .

من الواضح أن هذه الخطة ، والخطط التفصيلية المنبثقة عنها ، تعتبر على درجة عالية من الصعوبة والتعقيد في التنفيذ ، إن لم يُمَهَّد ويُعَدَّ لها من قَبْلُ ، ببعض التدابير والإجراءات التي تسهل تنفيذها مثل:

١ ـــ أن يراعي في التخطيط الصناعي وقت السلم إمكانية تحويل الصناعة المدنية إلى صناعة حربية في أقصر وقت وأقل مجهود ، ودون تغييرات حادة في الإنتاج .

٢ ـــ توحيد النمطية في بعض المعدات والتجهيزات بحيث يمكن استخدامها في المجالين العسكري والمدني معاً في آن واحد ، مثل معدات النقل ، وآلات الحفر والجرف والرّوافع ، وغيرها .

٣ ـــ التوحيد القياسي للمنتجات العسكرية والمدنية ، مما يتيح سهولة الإنتاج على نطاق واسع ، مع سهولة في أعمال الصيانة والتعويض .

٤ ـــ ضرورة القيام بتجارب عدة لأسلوب تحويل الصناعة المدنية إلى صناعة حربية ، وتطويره ، وسد الثغرات والأخطاء التي تظهر بنتيجة التجربة .

ونظراً لأهمية الصناعة ودورها الكبير في الاقتصاد الوطني للدولة ، وفي تغذية آلة الحرب واستمرار القوات المسلحة في أداء مهامها القتالية ، ولأنها أحد الأهداف الحيوية

التي يسعى العدو دائماً إلى النيل منها، فضلاً عن طبيعة الحرب الحديثة والتطور الهائل في الأسلحة التي أصبحت قادرة على الوصول إلى أية بقعة في الدولة، فقد غدا توفير الأمن والدفاع عن المنشآت الصناعية من أهم العوامل المؤثرة على القدرة الاقتصادية للدولة، وبالتالي، على المجهود الحربي. لذلك ينبغي وضع خطة لتأمين المنشآت الصناعية ووقايتها والدفاع عنها، وتدبير متطلبات هذه الخطة، ومنها:

١ ــ نشر المنشآت الصناعية جغرافياً. والقاعدة العامة في ذلك هي إقامة هذه المنشآت، وبخاصة الجديدة منها، خارج المدن والمناطق التي يمكن إغراقها بالماء، إذا ما دمر العدو المنشآت المائية المبنية على الأنهار والبحيرات.

٢ ــ محاولة وضع المصانع في أبنية تحت الأرض، أو نصف مدفونة، وبخاصة تلك المصانع التي تنتج أكثر المنتجات أهمية وأعظمها نفعاً للمجهود الحربي.

٣ ــ توفير وسائل الدفاع الجوي اللازمة لوقاية المنشآت الصناعية الهامة، مع محاولة إدخالها ضمن نطاق عمل الصواريخ المضادة للطائرات المكلفة بالدفاع الجوي عن الدولة.

٤ ــ توفير المعدات والتجهيزات والوسائل اللازمة لإزالة آثار التدمير، إذا ما حدث في المنشأة الصناعية.

٥ ــ وضع خطة تجعل المنشآت الصناعية قادرة على أن تحلّ بعضها محل بعضها الآخر ــ وهو ما يطلق عليه ازدواج الصناعة ــ لضمان استمرار الإنتاج الصناعي، إذا ما تعطلت إحدى المنشآت الصناعية، لسبب من الأسباب.

٦ ــ وضع خطة لكل منشأة صناعية على حدة، أو كل تجمع صناعي، لوقايته من أعمال التخريب والتجسس، وحمايته من أية هجمة برية معادية، وبخاصة من قوات الأبرار (الإنزال الجوي أو البحري إلى البر).

ب ــ إعداد قطاع الزراعة

يعتبر الإنتاج الزراعي في الدولة من أهم العوامل المؤثرة على بقاء الشعب وإدامة القوات المسلحة، وتوفير العنصر الرئيسي لاستمرارها في أداء مهامها القتالية. وكل قصور في القطاع الزراعي، أو في توفير الغذاء للقوات المسلحة والشعب يؤثر تأثيراً مباشراً على حياة الجنود والمواطنين وروحهم المعنوية. لذلك ينبغي على الدولة أن توجّه عنايتها للإنتاج

الزراعي، سعياً وراء تحقيق الاكتفاء الذاتي، وبخاصة في المواد الغذائية الرئيسية، مع السعي إلى المحافظة على الأسواق التقليدية الخارجية للمنتجات الزراعية للدولة.

وبغية إعداد القطاع الزراعي لمواجهة مطالب الصراع المسلح، ينبغي أن ينظم الإنتاج الزراعي على المبادىء الأساسية لاقتصاديات الحرب، كضرورة وجود احتياط من المواد الغذائية وتخزينها في أماكن مناسبة بعيدة عن المدن والمناطق المزدحمة بالسكان، والتركيز على الاستثمارات الزراعية ذات العائد السريع، بشكل يؤدي إلى زيادة الإنتاج، وزيادة التصدير وتخفيض الاستيراد، وإنتاج المواد الغذائية الضرورية، وبخاصة تلك المواد التي يمكن تخزينها لمدة زمنية طويلة نسبياً، مثل الحبوب والبقول.

كما يجب أيضاً تنميط المعدات والتجهيزات الزراعية ليمكن استخدامها في وقت السلم والحرب معاً، مثل الجرارات والسيارات والشاحنة والصهاريج وأدوات تسوية التربة، وإلى ما ذلك.

وتجدر، في خطة الإعداد الاقتصادي للحرب، أن توجه عناية خاصة إلى مسارح العمليات من وجهة النظر الزراعية، وذلك بإنشاء التجمعات الزراعية في بعض المناطق الحيوية، بشكل يسمح بتوفير بعض مطالب القوات المسلحة من المواد الغذائية والثروة الحيوانية ومشتقاتها وقت الحرب، لأن مثل هذا التدبير يوفر وسائل النقل إلى مسافات بعيدة، ويرفع الروح المعنوية للقوات المسلحة.

ج ــ إعداد قطاع النقل

أثبتت الحروب كافة، قديمها وحديثها، أن للنقل دوراً كبيراً في اقتصاديات الحرب، يؤثر عليها تأثيراً بالغاً. كما أثبتت الدراسات الاقتصادية أهمية قطاع النقل في نمو الاقتصاد الوطني للدولة، لارتباط هذا القطاع بسياسة التصدير والاستيراد، تلك السياسة التي يرتبط بها اقتصاد الحرب ارتباطاً وثيقاً، ذلك لأن سياسة التصدير والاستيراد تتأثر، إلى حد كبير، بقدرة قطاع النقل في الدولة، الذي يعتبر الوسيلة الأساسية لتنفيذ هذه السياسة، ويؤثر في تكاليف السلع، وفي رفع أو خفض أثمانها، سواء للمستهلك أو المستورد أو المصدر.

ويظهر دور قطاع النقل وأهميته الفائقة في الدول النامية بصفة خاصة، فقد تبين أن حوالي ٣٥ ٪ من القروض التي منحها البنك الدولي لهذه الدول ـــ منذ إنشائه ـــ قد استخدمت للاستثمار في قطاع النقل.

ومما لا شك فيه، أنه مهما كان الإنتاج الصناعي والزراعي للدولة غزيراً وفائضاً عن حاجة الشعب بشكل يسمح بتصدير قسم منه إلى الخارج، فإن عدم كفاية وسائل النقل سيؤدي إلى بقاء هذا الإنتاج والمواد الخام المستخرجة في أماكن الإنتاج نفسها، مما يعرضها للتلف أو الضياع، أو استيلاء العدو عليها، ويصيب الاقتصاد الوطني والإعداد الاقتصادي للحرب بأضرار كبيرة. إن ذلك كله يجعل دور قطاع النقل ذا أهمية بالغة، لأنه يمثل الشريان الحيوي للدولة واقتصادها وقدرتها على تحمل الحرب ومتطلباتها.

هذا من ناحية أثر قطاع النقل في الاقتصاد الوطني واقتصاديات الحرب، أما أثره في القوات المسلحة وتحركها وانتشارها وتلبية حاجاتها فجد هام وكبير، وبخاصة أن مفهوم النقل يشمل كل ما يتعلق به من وسائل نقل برية وجوية وبحرية ونهرية، وطرق ومطارات وموانىء، وورشات للصيانة والإصلاح.

لذلك فإن خطة إعداد قطاع النقل لزمن الحرب يجب أن تشمل هذا المفهوم الواسع لجميع نواحي النقل وأنواعه وفئاته، ليصبح قادراً على خدمة اقتصاديات الدولة والقوات المسلحة.

ولما كان هذا الإعداد يتطلب اعتمادات مالية ضخمة، ووقتاً طويلاً فإن التخطيط له يجب أن يكون دقيقاً ومسبقاً ومتكاملاً، على أن توفر له الإمكانات اللازمة والكافية، وتوضع له البرامج التفصيلية التنفيذية، حتى يتم الإعداد المناسب في الوقت المناسب.

وإذا ما نظرنا إلى مسرح العمليات الحربي في الصراع العربي ـــ الإسرائيلي، وبخاصة المسرح ـــ الطرق، لوجدنا أن النقل البرّي بالسيارات والسكك الحديدية يؤدي الدور الرئيسي في النقل، ويليه النقل الجوي فالبحري. ويستدعي هذا الواقع ضرورة ربط الدول العربية بعضها ببعض بشبكة منتظمة وواسعة ومتكاملة من الطرق البرية والسكك الحديدية، هي جد مفيدة للاقتصاد القومي، بمثل ما هي ضرورية للدفاع العربي المشترك.

ويتطلب الأمر توفير العدد اللازم من السيارات والسكك الحديدية، لخدمة التعبئة

العامة ، وعمليات نقل الأسلحة والذخائر والمعدات ، والمؤن والتموين والأغذية ، وغير ذلك من المواد التي تتطلب حالة الحرب نقلها من مكان إلى آخر .

ونظراً لأن حاجة القوات المسلحة في زمن الحرب إلى وسائط النقل كبيرة وماسة ، فقد لجأت معظم الدول ، ومنها دول نامية كثيرة ، إلى تصنيع وسائط النقل فيها ، عن طريق التشارك مع بعض المصانع العالمية الكبرى ، أو عن طرق تجميع قطع أنواع محددة من السيارات . وفي ذلك فوائد جمة للاقتصاد الوطني وللقوات المسلحة ، وبخاصة في مرحلة الإعداد للحرب وفي أثناء العمليات .

٧ــ آثار الإعداد الاقتصادي للحرب على الدولة

إن أول ما يتجه إليه اقتصاد الدولة في مرحلة الإعداد للحرب ، هو بناء القوات المسلحة ، وتوفير حاجاتها من الأسلحة والذخائر والمعدات والتجهيزات والمؤن والمحروقات ، إضافة إلى تكديس مخزون احتياطي استراتيجي قادر على تلبية متطلبات الشعب الحياتية طوال مدة القتال ، الأمر الذي يعني ، من وجهة النظر الاقتصادية ــ كما بيّنا فيما سبق ــ تجميد جزء هام من القوى العاملة والثروات الوطنية في إطار مؤسسة غير منتجة ، ووضع نسبة عالية من الثروات خارج الدورة الاقتصادية المنتجة ، والاحتفاظ بها كاحتياط غير معدّ للاستخدام آنياً .

وتتباين نتائج هذا الوضع حسب طبيعة الدولة التي تطبقه. ففي الدول الصناعية ، يؤدي إعداد الدولة الاقتصادي للحرب إلى تنشيط صناعات التعدين والطائرات والألكترونيات والسفن والآليات والكيماويات على حساب الصناعات الأخرى . وتتزايد نسبة إنشاء الثكنات والتحصينات وخطوط المواصلات الاستراتيجية على حساب التطور الإسكاني . كما يؤدي إلى تزايد فرص العمل ، وامتصاص البطالة ، وارتفاع الأجور ، وتشجيع مبادرات الإبداع والاختراع ، ويخلق ، في النهاية ، حالة من الازدهار الاقتصادي ، تشبه الحالة التي شهدتها ألمانيا النازية في الحقبة ١٩٣٣ ــ ١٩٤٠ ، إلى درجة دفعت أحد الخبراء الاقتصاديين إلى القول : «إن ألمانيا تصل إلى قمة السعادة والازدهار عندما تكون حبلى بحرب جديدة» .

هذا في الدول الصناعية المتطورة ، أما في الدول النامية ، التي تستورد الأسلحة

والمعدات ، ومعظم مواد المخزون الاستراتيجي ، فإن إعداد الدولة اقتصادياً للحرب ، وما يتطلبه من إنفاق مالي كبير ، وتجميد غير منتج ، يؤدي إلى إبطاء عجلة الإنماء ، وقلة فرص العمل الإنتاجي ، وتصاعد في نسبة البطالة الظاهرة أو المقنعة ، وتراكم الديون الخارجية . كما يؤدي إلى اقتطاع جزء كبير من الدخل القومي وتكريسه لشؤون الدفاع ومتطلباته ، وإلى انخفاض مستوى الإنفاق على الخدمات العامة ، وظهور حالة من الركود الاقتصادي ، إلا إذا تلقت الدول النامية المعنية مساعدات على شكل هبات (نقدية أو عينية) ، تؤمن تغطية مصروفات إعداد الحرب ، وتضمن في الوقت ذاته ، متابعة مسيرة الإنماء وفق الوتائر التي حددتها خطط التنمية .

هذا ، وتسود في مرحلة العمليات الحربية حالة من الاستهلاك المتسارع لقوى المتحاربين البشرية والمادية ، واستنزاف المخزون من هذه القوى ، وضرورة تجديدها من أجل متابعة المجهود الحربي . وإذا كان استهلاك القوى البشرية يتمثل في الأشخاص الذين يخرجون من عداد القوى المقاتلة أو المنتجة (من قتلى ، جرحى ، معوقين) ، فإن الاستهلاك المادي يتمثل في الأسلحة والذخائر والمحروقات المستهلكة على نطاق واسع ، والأعتدة المدمرة أو المستهلكة في مسرح العمليات ، والمؤن التي ترسل إلى القطعات المحاربة بكميات تزيد عن حاجة تلك القطعات ، بسبب احتمال تعرضها لتدمير طيران العدو أو مدفعيته . كما يتمثل الاستهلاك المادي في الدمار الذي يصيب الأبنية والطرق والجسور والسكك الحديدية والمصانع ومختلف مكونات البنية الاقتصادية التحتية .

وتنعكس آثار خطط الإعداد الاقتصادي للحرب ، والاستهلاك المتسارع ، وضرورة تجديد المخزون ، على الاقتصاد الوطني بأشكال متعددة :

١ ــ ففي الدول الصناعية المشتركة في الحرب : تشتغل المصانع بالطاقة القصوى لإمداد آلة الحرب ، وتتناقص المنتجات الاستهلاكية (الزراعية والصناعية) المعروضة في الأسواق ، وترتفع الأسعار . ويفرض التقنين على الاستهلاك المدني ، ويزداد الطلب على اليد العاملة لتشغيل المصانع وإصلاح المنشآت . ويظهر الخلل بين فرص العمل الكثيرة المتاحة وبين اليد العاملة النادرة المتناقصة من جراء الخسائر البشرية ، وانشغال القوى البشرية الفاعلة في الأعمال القتالية وشبه القتالية ، فترتفع الأجور ، وتختفي البطالة ، وينخرط عدد أكبر من النساء والأحداث في عجلة الإنتاج الاقتصادي .

٢ ــ في الدول النامية المشتركة في الحرب : إذا استثنينا الدول النامية التي تتلقى دعماً كبيراً من دولة حليفة أو صديقة ، بشكل يضمن لها الحصول على الأسلحة والذخائر والمعدات وقطع التبديل ، وتجديد المخزون من المواد الاستراتيجية ، وتأمين استكمال الحاجات الاستهلاكية الضرورية لحياة الشعب ، وإصلاح المنشآت الحيوية المدمرة ــ إذا استثنينا هذه الدول ، وجدنا أن الانعكاسات الاقتصادية الناجمة عن الحرب تأخذ منحنى عسيراً وصعباً ومعقداً ، وبخاصة إذا استمرت الأعمال القتالية فترة طويلة من الزمن ، واتسمت بطابع العنف . ويرجع ذلك إلى أسباب أربعة :

أ ــ انشغال عدد كبير من الفلاحين ــ عماد الاقتصاد الزراعي في الدول النامية ــ في المهام القتالية وشبه القتالية ، مما يؤدي إلى انخفاض حجم الإنتاج الزراعي والحيواني .

ب ــ استخدام جزء من هذا الإنتاج المتناقص لسد العجز المتزايد في ميزان المدفوعات .

ج ــ تكريس نسبة عالية من القطع الأجنبي المتوافر لاستيراد متطلبات القتال ، وتجديد المخزون الاستراتيجي ، بدلاً عن استيراد البضائع الإستهلاكية أو مستلزمات إصلاح المنشآت المدمرة .

د ــ تجميد المهنيين والحرفيين والأعداد المحدودة من العمال الفنيين في القوات المسلحة ، تحت متطلبات الإصلاح والصيانة في المعركة ، وتشغيل مصانع الأسلحة والذخائر وورشاتها ، الأمر الذي يحرم المصانع ومؤسساتها الخدمات العامة من ملاكاتها وفنييها .

في ظل هذه العوامل القاهرة ، يزداد العجز في ميزان المدفوعات ، وتتراكم الديون الخارجية إلى الحد الذي يتعذر سداده ، وتختفي المنتجات الاستهلاكية (الزراعية والصناعية) ، وتتعرض إلى تقنين شديد ، وتظهر السوق السوداء على نطاق واسع ، وترتفع الأسعار ، وتتعثر حركة المؤسسات العامة ، ويتناقص مردودها تدريجياً مع ما يلحقها من دمار ونقص في قطع التبديل ووسائل الصيانة والتشغيل . وهناك حالات يصل فيها الوضع الاقتصادي إلى مستوى البؤس ، وقد تتعرض بعض المناطق إلى المجاعة والأوبئة .

٣ ــ في الدول المتحاربة بصورة عامة : إن لجوء الدول في حالة الحرب إلى

التقنين ومراقبة حركة السلع وتنظيم الاستيراد ومراقبته، يؤدي إلى تضخم الجهاز الإداري والأمني المكلف بتسيير الأجهزة الاقتصادية في الدولة، الأمر الذي يثقل كاهل الاقتصاد المنهك بمزيد من العناصر المستهلكة وغير المنتجة.

يضاف إلى ذلك كله، أن عنف القصف الجوي وامتداد تأثيراته إلى عمق أراضي الدول المتحاربة، يؤديان إلى انعكاس اقتصادي ذي طبيعة جديدة، يتمثل في انتقال بعض فروع الاقتصاد من الأسلوب المركزي إلى الأسلوب اللامركزي، بغية تجنب الأخطار الناجمة عن تدمير مجمع اقتصادي ضخم وحساس في هجمة أو هجمات جوية متعاقبة في منطقة محددة وصغيرة. وإذا كان الاتحاد السوفييتي وألمانيا في الحرب العالمية الثانية يقدمان أنموذجان للدولة الصناعية التي شهدت ظاهرة لامركزية بعض الصناعات، فإن فييتنام الشمالية تعطي نموذجاً حياً لدولة نامية أقامت اقتصادها بكل فروعه ومؤسساته على أساس اللامركزية، طوال المدة من بدء الغارات الجوية الأميركية على الأراضي الفييتنامية في العام ١٩٦٥ إلى طرد القوات الأميركية المحتلة، وتوحيد شطري فييتنام في دولة واحدة مستقلة في العام ١٩٧٥.

ومن المؤكد أن بعثرة وسائل الإنتاج تسهم في تخفيف الخسائر الناجمة عن القصف الجوي، وتؤمن متابعة العمل والإنتاج، بالرغم من سيطرة العدو على الأجواء بصورة مطلقة، كما كانت الحال في فييتنام. وقد أخذت هذه المسألة تحتل اليوم بعدها التخطيطي والتنفيذي في معظم الدول، وبخاصة الصناعية منها، فذهبت إلى بعثرة مؤسساتها الاقتصادية في مساحات واسعة، حتى تضمن استمرار البقاء ومتابعة الإنتاج الاقتصادي في ظروف الحرب، التقليدية والنووية، حيث يأخذ الدمار شكلاً واسعاً وشاملاً.

وسواء أكانت الدولة صناعية أو نامية، فإن بعض الظواهر الاقتصادية الناجمة عن الحرب (انخفاض الإنتاج، قلة المواد الاستهلاكية، تعثر حركة البضائع، التقنين، وغيرها) تدفع السكان إلى السعي إلى تأمين حاجاتهم الضرورية الملحة بوسائلهم الذاتية، وذلك عبر العودة إلى أساليب الاقتصاد الحرفي في مجالات المنتجات المصنعة، وأساليب الإنتاج الزراعي والحيواني البدائية، بالإضافة إلى استخدام وسائط النقل الحيواني. ومما لا شك فيه أن قدرة الشعوب في الدول النامية على العودة إلى أساليب

الإنتاج والنقل القديمة والتلاؤم معها أسهل من عودة الشعوب في الدول المتقدمة إلى الأساليب ذاتها، لأن البنية الاجتماعية وأنماط العيش في الدول النامية لا تزال قريبة من تلك الأساليب، على عكس البنى والأنماط في الدول الصناعية المتقدمة.

وتتطلب الحرب، كل حرب، توظيف رأسمال ضخم من الأسلحة والذخائر والمعدات والمؤن، من أجل إعداد الأداة القتالية اللازمة والمتناسبة مع ظروف القتال الحديثة، وحجم القوى المعادية وطبيعتها. ولا يتم هذا التوظيف إلا عبر تكريس جزء هام من الثروة الوطنية، يسمح للقوات المسلحة بالتعبئة والتدريب والتحشد والانتشار وتنفيذ الأعمال الحربية، ويستمر توظيف هذا الرأسمال طوال مدة القتال أيضاً.

ولقد كانت عملية التوظيف هذه في العصور القديمة، تهدف إلى إعداد الأداة القتالية وإمدادها إلى أن تتمكن من اجتياح أراضي العدو، والعيش على حساب سكان المناطق المحتلة. إلا أن تقنين الحرب وأنسنتها، وتطور وسائل القتال، وتعقيدات ظروف المعركة، جعلت من الصعب تأمين إعالة القوات بما يتوافر في المناطق المحتلة، وفرضت متابعة الإمداد والتموين حتى بعد تحقيق النجاحات العملياتية الأولى. كما أن خوض الحرب في مناطق محرومة من متطلبات الإعالة (الجبال، والصحارى، مناطق خالية من السكان أو قليلة السكان)، أو في مناطق ملوثة بآثار الأسلحة النووية، تدعو إلى ضرورة متابعة الإمداد والتموين. وعلى هذا فإن الحرب الحديثة تأخذ في بعض نواحيها شكل مشروع اقتصادي، يعتمد، منذ البداية، على تراكم اقتصادي، يتمثل في الأموال والمنتجات والموارد الأولية، ويتطلب إنتاجاً وتكديساً مسبقين معدّين وفق خطط دقيقة ومحكمة.

وليس هناك من ينكر أن المال عصب الحرب، وهو الوسيلة الأولى من أجل إعداد الدولة اقتصادياً للحرب. وهناك قول مأثور للمارشال الفرنسي دوساكس في هذا الصدد. فقد قال: «من أجل خوض الحرب لا بد من توافر أشياء ثلاثة: أولاً المال، وثانياً المال، وثالثاً المال». ومن أجل تأمين المال اللازم للحرب، كانت الدول في العصور السالفة تحتفظ بالأموال المتراكمة داخل خزائن تسمى (خزائن الحرب).

وعلى الرغم من تطور المفاهيم والأساليب الاقتصادية، فإن مفهوم (خزانة الحرب) لا يزال قائماً وسائداً، بشكل ما من الأشكال، ويتمثل في الاحتياط الذي يمتلكه مصرف الدولة المركزي من الذهب أو القطع الأجنبي. ولا يزال الذهب، حتى اليوم، هو

أحد الأسس الهامة في (خزينة الحرب)، ما دامت الثقة بالعملة الورقية قابلة للاهتزاز، عند حدوث اضطراب اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي.

وإلى جوار الرأسمال المتمثل في (خزينة الحرب) التي لا تفتح إلا حين بدء الحرب، فإن من الضروري وجود رأسمال متراكم يصرف في مرحلة الإعداد للحرب. وهو يأخذ في العصر الحاضر اسم (موازنة الحرب) المخصصة للقوات المسلحة ووسائطها ومنشآتها. ويلعب صرف هذا المال دوراً موازناً للاقتصاد الداخلي، ما دامت الأموال المصروفة تبقى داخل الدولة، وتدخل في دورتها الاقتصادية، وتؤمن تنشيطها، إلا أن هذا الدور الموازن يتناقص، أو يختفي، عندما يكون من الضروري تأمين حاجات القوات المسلحة، جزئياً أو كلياً، عن طريق الاستيراد من الخارج، لأن المال المتراكم المصروف في هذه الحالة، يخرج من الدورة الاقتصادية، الداخلية، دون أن يعود على شكل مواد استهلاكية أو وسائط إنتاجية، ويأخذ شكل نزيف اقتصادي يمتص التراكم المتوافر.

ولا ينطبق هذا القول على الدول النامية وحدها، وإنما ينطبق أيضاً، بنسبة أقل، على الدول الصناعية، التي تعتمد صناعاتها الحربية على عدد من المواد الأولية المستوردة من بلدان العالم الثالث، وترتبط فاعلية قواتها المسلحة الآلية على ما تحصل عليه من نفط مستورد. لذا فإن ضبط نزيف الرأسمال المتراكم يشكل هاجساً بالنسبة إلى الدول المتقدمة والدول النامية على حد سواء. ويدخل هذا الهاجس، مع هاجس الحفاظ على (خزينة الحرب) وزيادتها في صلب الاستراتيجية الاقتصادية، التي تشكل أهم الأسس المادية لبناء الاستراتيجية العسكرية.

تقول الحكمة الصينية القديمة: «الثروة تخلق القوة، والقوة تحمي الثروة». وليست العلاقة المتبادلة القائمة بين الاقتصاد والقوات المسلحة وإعداد الدولة اقتصادياً للحرب، سوى التعبير العصري لهذه الحكمة.

٨ ــ أمثال من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥)

لا تزال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) تعتبر مثلاً حياً على كيفية إعداد الدولة اقتصادياً للحرب، نظراً لشمولية تلك الحرب واتساع رقعتها الجغرافية، وتنوع الأسلحة وأساليب القتال فيها، وضخامة القوات المشتركة، والعدد الكبير من الدول التي

انخرطت فيها، وتخصيص جميع الإمكانات الاقتصادية للدول المتحاربة لمصحلة المجهود الحربي، والاستعانة بالموارد الاقتصادية والإنتاج الاقتصادي لدول وأقطار كثيرة كانت واقعة تحت الاستعمار يومذاك.

ولقد خلص مؤرخو الحرب العالمية الثانية إلى بعض النتائج، حينما قارنوا بين الآثار التي تركتها الغارات الجوية على السكان المدنيين، وتلك التي تركتها الغارات الجوية على المنشآت والمؤسسات الاقتصادية والمرافق العامة. وقدَّم هؤلاء المؤرخون الإحصاءات التالية:

١ ــ كانت الغارات على السكان، بصورة عامة، ذات فائدة ومردود ضئيلين. فقد دمّر ٢٠٪ من المباني، وتعدى معدل التخريب ٤٠٪ في ٥٠ مدينة. وقتل ٣٠٠٫٠٠٠ مدني، وجرح ٧٨٠٫٠٠٠ مدني، وتشرد ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ إنسان، ولم تولّد هذه المذابح سوى الحقد في قلوب المنكوبين.

٢ ــ كان لبعض الغارات الجوية مفعول جد قاس وجد رهيب، ففي بفورزهايم سقط ٤٠ ألف قتيل في ١٧ دقيقة. وفي فيرتزبورغ سقط ٢٤ ألف قتيل في ٢٢ دقيقة. ولكن الربح العملياتي الذي عكسته هذه النتائج كان ضئيلاً.

٣ ــ وفي مقابل ذلك، كان ضرب المجموعات الصناعية في ألمانيا أحد الأسباب الرئيسية التي هدّت المجهود الحربي الألماني. كما أن ضرب المرافق العامة ووسائل الحياة اليومية (المياه، الغاز، الكهرباء، المستودعات، المخازن، إلخ...) أدى إلى زعزعة الروح المعنوية وخلق الاضطراب والقلق في صفوف الشعب والقوات المسلحة.

٤ ــ كان ضرب وسائل النقل ومنابع الطاقة البرية وخطوط المواصلات البحرية ذا فائدة جُلّى وتأثير مباشر على سير العمليات الحربية.

٩ ــ امثال من حرب تشرين التحريرية (١٩٧٣)

تتحمل سورية منذ العام ١٩٤٨، حين قام الكيان الصهيوني في فلسطين، أعباء عسكرية دفاعية ثقيلة، بسبب الاحتلال الصهيوني لفلسطين، والسياسة العدوانية الاستعمارية التوسعية التي ينفذها هذا الكيان تجاه الشعب العربي الفلسطيني والأمة العربية.

وقد أدى هذا الوضع الخطير على حياة البلاد، من الناحية الأمنية والقومية، إلى ضرورة تكريس الجهود كافةً لخدمة أغراض الدفاع، وتعبئة الموارد الاقتصادية والبشرية، وتوجيهها نحو الدفاع والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، على خطين متوازيين قدر الإمكان، وإن كان الإنفاق على المجهود الدفاعي يتزايد بنسب كبيرة، بسبب سياسات العدو التوسعية.

ولقد خطت سورية خطوات واسعة وراسخة في تطوير اقتصادها، وذلك منذ قيام ثورة الثامن من آذار، حيث بدأ التخطيط الاقتصادي والاجتماعي يأخذ مكانه في إطار تطوير الدولة والمجتمع، وإزالة الخلل الناجم عن التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. وقد انعكس ذلك في الخطوات العملية التي تحققت في ظل الثورة، كالتأميم الذي شمل القطاع الصناعي وقطاع المصارف، والتجارة الخارجية، وتجارة الجملة. وفي القطاع الزراعي، أنشىء النظام التعاوني. وكان ثمة اتجاه واضح في الخطط الخمسية لإحداث تغيير جذري بنيوي في تركيب الاقتصاد الوطني، وتحويله من اقتصاد متخلف إلى اقتصاد زراعي ــ صناعي متطور.

ولقد تميز الاقتصاد السوري بدءاً من العام ١٩٧١ بالازدهار والتقدم، إذ دخلت البلاد مرحلة جديدة في التحويل الإشتراكي، واتسع إطار الخطط الخمسية التنموية، وتنوعت وتوازنت أهدافها ونفقاتها.

وبالرغم من جسامة الأعباء التي تتحملها سورية دفاعاً عن الأمة العربية وحقوقها ومستقبلها، فقد استطاعت أجهزة الدولة الاقتصادية قدر الإمكان، أن تحول دون انعكاس آثار الإنفاق العسكري سلبياً على خطط التنمية وحياة الشعب ومتطلباته، وبخاصة أن هذه الخطط اتجهت نحو زيادة الإنتاج وتنويعه، ورفع الطاقة التصديرية من أجل رفد المجهود الدفاعي بالنفقات اللازمة.

ولقد خططت القيادة العليا، في المرحلة الإعدادية للحرب، لاستمرار الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدورة الاقتصادية الوطنية في المجتمع بشكل طبيعي وحيوي، دون أية ظواهر سلبية، بمثل ما حققت بقاء الجبهة الداخلية قوية متماسكة. ولقد كانت تتم، وباستمرار، عمليات تأمين متطلبات القوات المسلحة بشكل كامل، بالإضافة إلى

متطلبات الشعب وحاجات الدولة . وقد ظهرت وقائع هذه الخطط وانجازاتها ، والتوجهات في مرحلة إعداد الدولة اقتصادياً لحرب تشرين الأول التحريرية في العام ١٩٧٣ ، وفي أثنائها ، ثم في مرحلة حرب الاستنزاف التي تلتها .

ولما كانت المحافظة على سلامة الاقتصاد زمن الحرب تتوقف ، إلى حد كبير ، على سرعة ترميمه باتخاذ تدابير مختلفة على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والعسكرية وصعيد الخدمات والمرافق العامة ، فقد قامت أجهزة الدولة الاقتصادية ، في مرحلة ما قبل الحرب واستعداداً لها ، بإجراء مسح اقتصادي شامل لكل ما هو موجود من فعاليات وطاقات وإمكانات في المؤسسات العامة والخاصة ، لاستكمال أي نقص قد يقع في أثناء المعركة ، وبخاصة في المواد والمعدات .

ولتحقيق هذا الهدف ، تم وضع سلم للأولويات من أجل تأمين المرافق الاقتصادية الهامة ، وبخاصة المواد الحيوية لحياة الشعب ، ومرافق النقل والكهرباء والماء وغيرها من المرافق والخدمات العامة .

وعلى صعيد الإجراءات التموينية ، قامت الجهات المسؤولة بتأمين احتياط كبير من المواد الغذائية ، وبخاصة الطحين والمواد الأولية المختلفة . وقد وزعت هذه المواد على الأفران ومحلات البيع منذ اليوم الأول للحرب . كما وزع على الأفران مولدات كهربائية لاستعمالها في حال انقطاع التيار الكهربائي .

وهكذا استمرت الحياة اليومية للمواطنين بشكل طبيعي في أثناء الحرب . ومن أجل تفادي أية مشكلات قد تنشأ بسبب القصف الجوي أو العمليات العسكرية ، أعطيت للوزراء والمحافظين صلاحيات واسعة للتصرف إزاء الحالات الطارئة بشكل يتلاءم مع متطلبات المرحلة والظروف التي كانت سورية تمر فيها بسبب الحرب .

وفي مرحلة الاستعداد لحرب تشرين التحريرية ، اتخذت القيادات المسؤولة التدابير الكفيلة بإعداد الدولة اقتصادياً للحرب ، والتي تركزت ، في الناحية الاقتصادية ، على هدفين أساسيين هما :

١ ـــ استمرار عمل الدولة بأجهزتها الاقتصادية في أثناء الحرب ، بشكل يضمن

قيامها بواجباتها ، وبما يتطلب منها من مهام طارئة ، ضماناً لاستمرار تقديم الخدمات المطلوبة .

٢ ــ تأمين حماية المنشآت الاقتصادية الحيوية والهامة ، كالمصانع والسدود والمصافي ومراكز توليد الكهرباء وخزانات النفط ومستودعات المياه والموانىء ، والمستودعات الرئيسية ، وغيرها .

من أجل تحقيق الهدف الأول ، صدر عن رئاسة مجلس الوزراء قرار يتضمن النص الناظم لجاهزية أجهزة الدولة كافةً ، ومنها الأجهزة الاقتصادية ، المركزية والفرعية ، ويحدد لها حالات مختلفة للجاهزية ، وهي ثلاث ، تتضمن كل منها تدابير وإجراءات خاصة محددة . وتقوم رئاسة مجلس الوزراء بإعلان الحالة المناسبة للجاهزية ، بالتنسيق مع القيادة العامة للقوات المسلحة .

ولقد طلب من الأجهزة الاقتصادية أن تضع الخطط التفصيلية المتضمنة الإجراءات والتدابير الواجب اتخاذها في كل حالة من حالات الجاهزية الثلاث ، بحيث يتم تنفيذ تلك الخطة فور إعلان الحالة المناسبة .

ومن أجل تحقيق الهدف الثاني ، تم وضع خطة نفذت على مراحل ، وحسب الإمكانات التصاعدية للدفاع الجوي عن المنشآت الاقتصادية الهامة في سورية . وقد جرى حصر هذه المنشآت ، وتم ترتيبها في سلم أفضليات . وشكلت لجان خاصة درست على الطبيعة حاجة كل هدف ، والمنطقة المحيطة به . كما كلفت الجهات المختصة في المنشآت وضع خط دفاع أرضي محلي عن كل منشأة على حدة ، تنفذ من قبل العاملين فيها ، ويدرب هؤلاء للقيام بأعمال الدفاع عن المنشأة . وثمة منشآت اقتصادية هامة تولت وحدات من القوات المسلحة أمر الدفاع عنها .

وهكذا خاضت الدولة غمار حرب تشرين التحريرية ، وهي أكثر استعداداً من أية حرب سابقة ، وذلك بفضل الإجراءات الفعلية التي اتخذت في نطاق إعداد الدولة الاقتصادي للحرب ، تخطيطاً وتنفيذاً . ولقد غدت هذه الخطط وتطبيقاتها تجربة وطنية رائدة ، تعتبر أساساً علمياً وعملياً لعملية إعداد الدولة الاقتصادي للحرب .



الفصل الثالث

وسائط الصراع المسلح المعاصرة وتأثيرها على طابع الحرب



مقدمة

ترتبط وسائط الصراع المسلح ارتباطاً عضوياً متكاملاً بأشكال خوض الأعمال الحربية وطرقها .

قد يأخذ تأثير وسائط الصراع المسلح على طبيعة الحرب شكل تطور تدريجي بطيء ، كما حدث عند ظهور أسلحة الرمي الناري ، أو يتم بشكل تحولات ثورية حادة ، كما حدث عند ظهور السلاح النووي ، وتسليح بعض الجيوش به .

واستمر تطور وسائط الصراع وتحسينها عبر العصور المديدة لتاريخ البشرية ، لكنه لم يجر أبداً بالوتائر السريعة التي شهدها في أواسط القرن العشرين حتى يومنا هذا . ويعود سبب ذلك إلى التقدم العلمي السريع ، والمكتشفات البارزة في مجال الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية الأخرى من جهة ، وبسبب سباق التسلح الذي تشجعه دول الأحلاف العسكرية ، ويمليه أقطاب الأطراف المتصارعة .

تتصف السمة المميزة لتطور وسائط الصراع المسلح في العصر الراهن بظهور أنواع من الأسلحة والأعتدة العسكرية الجديدة نوعياً ، وبنشرها بكميات كبيرة ، وبشكل سريع في الجيوش ، مما أسفر عنه تغيير جذري في البنية التنظيمية للقوات المسلحة ، وفي طرق خوض الصراع المسلح .

وشهد القرن العشرون حتى الآن حربين كبيرتين ، وكان حجمهما واتساعهما كافياً لتسميتهما بحربين عالميتين .

ابتدأت الحرب الأولى في عام ١٩١٤ كصراع أوروبي ، لكنه سرعان ما انتشر لتشترك فيه ٢٢ دولة غير أوروبية كالصين واليابان ، وحتى الولايات المتحدة الأميركية . واستمرت حتى عام ١٩١٨ حيث خيل للعالم أنها (نهاية الحرب) . وما مضت عشرون عاماً حتى استؤنف هذا الصراع في عام ١٩٣٩ بأعمال عسكرية ضخمة شارك فيها ٨٠ مليون مقاتل ، وقتل فيها ما يزيد عن ٢٠ مليون إنسان ، عدا المدنيين الذين قتلوا وظلوا في طي الكتمان .

بلغت الحرب العالمية الثانية ذروتها باستخدام السلاح الذري الجديد ضد هيروشيما وناغازاكي في آب ١٩٤٥ .

انبثق من دخان الحرب العالمية الثانية وخرائبها قوتان عظيمتان ، سخرتا ثرواتهما الضخمة من القوى البشرية والطاقات الصناعية لسباق التسلح . وبدأ شبح الحرب العالمية الثالثة يخيم على الشعور العام . وأصبح هاجس التسليح العامل الرئيسي المحدد للسياسة الدولية ، وللوضع الدفاعي لقوى ما بعد الحرب الثانية .

إن الحرب النووية التي ستستخدم فيها الأسلحة المعقدة بعيدة المدى سوف تضع حياة المواطنين في خطر بالغ . وستختلف هذه الحرب عن الحروب السابقة ، بسبب التطور الكبير في تقنية الأسلحة والقدرات العسكرية الضخمة الناتجة عن تطبيق العلوم الحديثة . فقد حولت الألكترونيات الحديثة طبيعة الحرب إلى حرب مع المجهول ، بينما أنتجت الفيزياء ، بالإضافة إلى النواة ، الليزر ، الذي يتوقع أن يتوصل بالحرب إلى التأثير نفسه الذي توصلت إليه الحرب النووية . لقد وجّه العلم الحرب إلى الفضاء الخارجي من خلال تطوير المراكب الفضائية المأهولة وغير المأهولة ، وأدى تطبيق التطور العلمي في مجال التسليح إلى منافسة نشطة في الحواسب الألكترونية العسكرية .

وهكذا فإن منتجات التنافس الحالي في الأسلحة التقنية سوف تبلور إلى مدى بعيد شكل الحرب ونتيجتها . وأصبحت الحرب الحديثة تتطلب تقنية عالية ، لذلك تنحو الدول إلى تحديث مصانعها الحربية ، وتستحوذ على الأسلحة الحديثة بكميات كبيرة ،

لأن الحرب المفاجئة سيكون القتال فيها عنيفاً ، لكن مدتها ستكون قصيرة ، ولا تدع مجالاً لتعويض الخسائر بالإنتاج . وعلى الدول المتحاربة أن تعتمد على قواها المتوافرة ، واستعداداتها المسبقة ، لأن نسبة الخسائر ستكون عالية جداً .

لم يقتصر استخدام منجزات العلم على إنشاء الأسلحة الحديثة ، بل شمل تطوير الأسلحة التقليدية وتحديثها أيضاً ، لزيادة فعاليتها وقدرتها التدميرية . وتتوصل بعض الأسلحة التقليدية الآن إلى مجاراة الأسلحة النووية ، وحتى إلى تدميرها .

ازدادت كلفة الأسلحة الحديثة بشكل كبير ، وزادت كلفة قتل الإنسان مئات المرات عما كانت عليه في الحرب العالمية الثانية . إن السرعة الفائقة في خطا التقدم العلمي قد تجعل الأسلحة الحديثة الغالية الثمن ، قديمة بين عشية وضحاها . وهكذا فإن الكلفة العالية تجبر على جعل مخزون الأسلحة أقل ، وتحديد الكميات الواجب الحصول عليها ، والاحتفاظ بالأسلحة القديمة لمدة أطول في حالة الاستخدام .

١ ـــ وسائط الصراع النووي

أ ـــ الأسلحة الصاروخية النووية

من المؤكد أن الدور الذي ستلعبه أسلحة التدمير الشامل في الحروب المقبلة كبير للغاية، وإنها لهذا السبب أثرت بصورة جذرية على المعدلات التكتيكية والعملياتية لخوض الأعمال القتالية، وأدخلت الكثير من التعديل والتجديد على المفاهيم الاستراتيجية للحرب المقبلة، التي من الممكن أن تشهد استخداماً محدوداً أو شبه شامل أو شاملاً لأسلحة التدمير، وهو ما يعني مواجهة كل حالة بأسلوب محدد يؤمن:

١ ـــ الوقاية منها.
٢ ـــ العمل على تدمير مصادرها، وشل قدرة القوات المعادية على استخدامها.

وقد ظهر السلاح النووي لأول مرة في أواسط الأربعينيات في الولايات المتحدة الأميركية حيث تم ضرب مدينتي هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية.

في أواخر الأربعينات ظهر السلاح النووي في الاتحاد السوفييتي على شكل حشوات نووية للصواريخ والطوربيدات.

بعد هذا استمر سباق التسلح النووي بين الجبازين يسير بوتائر عالية متنقلاً من خطر إلى خطر. حيث ظهر في مطلع الثمانينات السلاح النيوتروني، وهو عبارة عن سلاح

نووي لأنه يعتمد على الذخائر النووية الحرارية صغيرة القوة ، يؤمن الانشطار والاندماج النووي فيها الطريقة الجديدة لخروج الإشعاع النيتروني .

ويمضي في الوقت الحاضر إنشاء السلاح الجيوفيزيائي الأكثر خطورة ، والذي يعمل على أساس استخدام القوى الطبيعية لتحقيق الأهداف العسكرية ، عن طريق التأثير الاصطناعي على المحيط الجوي وقشرة الأرض .

كما أكدت الدراسات المختصة الأخيرة انتشار أعمال البحوث العلمية الخاصة بانتشار السلاح الليزري ، الذي أنفقت الولايات المتحدة الأميركية من أجله مليارات الدولارات .

لقد أكدت التجارب على تفوق هذا السلاح وفعاليته ، وهو الذي قد يستخدم عدة مرات ، ولا يحتاج إلى نقل الذخائر ، ويستطيع أن يصيب الأغراض بدقة عالية في الحال ، وبأصوات خافتة غير مسموعة .

ومن المحتمل استخدام الوسائط الليزرية في المستقبل القريب على أرض المعركة بمهمة إعماء الأفراد ، ولتعزيز الدفاع المضاد وللصواريخ ، والدفاع المضاد للأغراض الفضائية .

وابتداء من عام ١٩٧٨ عكف المختصون في الغرب على إنتاج السلاح الذي يعمل على استخدام التيارات الموجهة الضيقة للجزئيات (الألكترونات) ، ذات الطاقة العالية ، حيث يعتمد عمله على قابلية مثل هذا التيار ، لإثارة تفجير المادة المتفجرة ، أو إبطال المعدات الألكترونية لمختلف الأغراض .

وتخطط الولايات المتحدة الأميركية لإنتاج السلاح الشعاعي مع استخدام تيار الجزئيات النيترونية ، بغية مكافحة الصواريخ الباليستية ، والأقمار الصناعية في أواخر الثمانينيات .

وقد ظهرت في الصحف الغربية دراسات تتنبأ بظهور السلاح الاضمحلالي الذي يعمل على حساب عملية الاضمحلال (أي التلاشي ANNIHILATION) ، حيث يتحول الجزيء والجزيء المضاد العكسي خلالها إلى الإشعاعات الكهربائية المغنطيسية مع استخلاص الطاقة الجبارة .

يشترك في النادي النووي اليوم عدة دول في مقدمتها كل من: الولايات المتحدة الأميركية، والاتحاد السوفييتي وانكلترا، وفرنسا، والصين، والهند بينما تستعد للدخول في قوامه كل من: إسرائيل، جنوب إفريقية العنصرية، والباكستان.

إن العالم كله لم يكن يتوقع أن يمضي مشروع مانهاتن الأميركي الذي أدى إلى أول تجربة ناجحة لجهاز نووي في صحراء الأمواردو في نيومكسيكو بتاريخ ١٧/٧/١٩٤٥ إلى هذه النهاية المفجعة، حيث دمرت مدينتا هيروشيما وناغازاكي اليابانيتان في يومي ٦ و ٩/٨/١٩٤٥.

ومنذ ذلك التاريخ والسلاح النووي يزداد تعقيداً سواء في مدى الرؤوس الحربية وعددها، أو في إنتاج الوسائط الحاملة له والتي تنقله إلى أهدافه.

وتعتبر عملية انشطار الذرة المعروفة (بالانشقاق) المبدأ الأساسي المستخدم في القنابل التي دمرت هيروشيما وناغازاكي. إن هذه الأجهزة النووية الأولى والتي أطلقت الطاقة المدمرة الهائلة عن طريق تقسيم نويّات ذرات اليورانيوم ٢٣٥ أصبحت تعرف باسم (القنابل الذرية).

أما القنبلة الهيدروجينية فتعتمد على مبدأ مختلف ـــ وهو الالتحام النووي للذرة ـــ ويعتبر سلاحاً أقوى بكثير، يعتمد على الالتحام النووي للنوى ذات النظائر الهيدروجينية الخفيفة، مثل ديونوريوم وترتريوم، وذلك تحت تأثير درجات حرارة عالية جداً.

تقاس قوة الانفجار النووي بما يعادلها من الـ (ت ن ت) حيث أن الكيلو طن الواحد يساوي (١٠٠٠) طن من الـ (ت ن ت)، بينما الميغاطن يساوي مليون طن.

إن نتائج الانفجار الذري مشابهة لتلك التي نحصل عِليها من الوسائط التقليدية باستثناء الإشعاع.

ويوزع الانفجار النووي بحيث يكون ٥٠٪ للقدرة التدميرية للقنبلة النووية و ٣٥٪ للأمواج الحرارية، و ١٥٪ للإشعاع الذي يعتبر التأثير الأخير المميز للانفجارات النووية، والذي يمكن أن يكون له أوسع مدى تأثير.

إن الإشعاعات الأساسية يمكن أن تؤدي إلى الموت خلال عدة أيام قليلة ، بينما يمكن أن تؤدي الجرعات الأقل إلى أمراض لمدة طويلة تشمل الكريات البيضاء، وتشويهات وراثية ، يمكن أن يستمر تأثيرها لعدة سنوات .

وقد جهزت الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي منذ الخمسينيات براج دفاع مدني للطوارىء في حالة حدوث هجوم نووي .

وركز البرنامج المكبر للولايات المتحدة الأميركية على إخلاء المدن والملاجىء المضادة للانفجار والغبار الذري المتساقط .

إلا أن السنوات اللاحقة أكدت انعدام فاعلية هذا البرنامج ، حيث قررت إحدى الدراسات أنه في الوقت الذي يبدو فيه أن الدفاع المدني فعال على الورق « لا يفكر أحد على الإطلاق بأنَّ لدى الولايات المتحدة دفاعاً مدنياً فعّالاً » .

أما عن الاتحاد السوفييتي فقد بذل جهوداً مضنية لتطوير نظام مجال الدفاع المدني . والدراسة التي تمت عام ١٩٧٨ من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية أعلنت أن أهداف الاتحاد السوفييتي هي حماية القيادة السياسية والإدارية ، والمكتسبات العمالية ، وعموم الشعب .

يعتمد البرنامج السوفييتي للدفاع المدني ضد أسلحة التدمير الشامل على الإخلاء ، وتقوية الإمكانات الصناعية ، بحيث تكون هناك دوماً قدرة على تحمل الحرب .

ومع هذا فإن الدراسات المتخصصة تؤكد أنه يوجد في الوقت الحاضر حوالي ٥٠٫٠٠٠ رأس حربي من قياسات متنوعة في المستودعات الحربية للطاقة النووية . وأن استخدام حتى ٥٠٠ رأس من هذه الرؤوس الحربية في حرب نووية شاملة من المحتمل أن يقتل ٥٠ مليون إنسان ، ويترك ٢٥ مليون إنسان مرضى بدرجات متفاوتة من جراء الإشعاع .

إن برامج الدفاع المدني سوف تقلص إلى حد ما من عدد الضحايا ، إلا أن المساعدات الطبية ستكون عملياً شبه معدومة ، ويتوقع حدوث عدوى بالأمراض ، مثل

الكوليرا والتيفوس ، بينما ستدمر أكثر المرافق العامة ويصبح الناس بلا مأوى . ومع الزمن تزداد الإصابة بالسرطان والأمراض الوراثية .

وستنجم عن الحرب النووية مشكلة أخرى ، لا تقل خطورة ، وهي تغيرات المناخ . وذلك نتيجة لتدمير كميات كبيرة من الطبقات الأرضية الآزوتية ، أو زرع كميات كبيرة من الغبار في الطبقات التروبسفورية ، وتشكل أوكسيدات النتروجين ، نتيجة لحرارة الانفجار ، حيث تساعد على تحول الأوزون إلى أوكسيجين .

بدأ السباق النووي يأخذ أبعاده بوضوح منذ بداية الخمسينيات ، حيث ظهرت نظرية (المنع بالتهديد) ، حيث كانت الأسس الكلية للمنع هي : « إنك تجعل الأشياء جيدة بجعلها مرعبة مهما حدث » .

ثم جاءت النظرية الأميركية (الرد الشامل) ، وتتلخص بالرد على العدوان السوفييتي بكل ما هو موجود في الترسانة النووية للولايات المتحدة الأميركية .

في بداية الستينيات توصل وزير الدفاع الأميركي روبرت ماكنمارا ومساعدوه إلى قرار يتضمن عدم وجود طريق السلام النهائي لحرب نووية مقبلة ، لعدم وجود طريقة للتأكد من المحافظة على مثل هذه الحرب ، دون حدوث الدمار بدرجة مفجعة ، لذلك أوصوا بتعليمات نووية حول (ضمان عدم الإبادة المتبادل) الذي ينص على منع كلا الجانبين من البدء بالهجوم ، ذلك أن الهجوم من أحد الأطراف سوف يؤدي إلى الثأر من الطرف الآخر وكلا الطرفين سيدمران .

إن هذا التطور للردع من خلال الحساسية المتبادلة أصبح معروفاً بعد فترة بـ (توازن الرعب الضعيف) . وفي الوقت نفسه كانت للاتحاد السوفييتي أفكاره وآراؤه في هذا المجال . ففي البداية رفض ستالين التورط باستخدام الأسلحة النووية في الحرب والسياسة ، وتابع الإلحاح باستمرار على أن مقومات النصر في الحرب ما زالت النظام الإشتراكي القوي ، حيث النصر السوفييتي مؤكد في النهاية .

وقد جاءت نظرية (التعايش السلمي) لتؤكد على أنه يعني السير في صراع اقتصادي وإيديولوجي إشتراكي ضد المعسكر الرأسمالي ، بدلاً من البحث عن النصر من خلال الأعمال القتالية .

ولكن في فترة ليونيد بريجنيف بدت السياسة العسكرية للقيادة السوفييتية تخطو باتجاه صورة توازن أكبر لحرب المستقبل.

لقد قبل السوفييت الحرب النووية المفجعة ــ بعد أن كانوا قبل الآن يؤكدون على خطورتها ويعزفون عنها ــ وأصبحوا الآن مؤمنين كلياً بضرورة التحضير لجميع الاحتمالات العسكرية، سواء أكانت تقليدية أو نووية.

إن الردع النووي لا ينبع بالنسبة للسوفييتي من (توازن الرعب الضعيف) ــ حسب رأي ماكنمارا ــ بل من القدرة والقوة المتكافئة والجاهزية السوفييتية للقتال في مختلف الأحوال التي من الممكن حدوثها.

ومع أواخر السبعينيات ابتعد الطرفان عن التصور السابق للحرب النووية وباعتبارها حرب إبادة شاملة غير مفيدة.

إن الوثيقة الأميركية رقم ٥٩ لعام ١٩٨٠ تؤكد أن السياسة الأميركية السابقة في المجال النووي لم تستند كلية على ضمان عدم الإبادة المتبادلة والتسديد على المدن السوفييتية، ولكنها اعتمدت على اختيار الأهداف العسكرية والحرب النووية المحدودة.

وقد توصل الاتحاد السوفييتي للمفهوم ذاته، ولكن بطريقة أخرى، حيث كان حتى عهد قريب لا يثق بالضمان المتبادل للتدمير. إلا أنه بظهور الصواريخ الباليستية عابرة القارات العصرية والمعقدة امتلك المرونة نفسها في اختيار الأهداف.

وفي السنوات الأخيرة أصبح التهديد بالحرب النووية جزءاً هاماً من مكونات العلاقات السياسية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية.

وخلال مراحل التطور النووي المتقدمة كانت مباحثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية النووية بين العملاقتين تمضي بصورة متواصلة ــ برغم ما يصيبها أحياناً من تعثر ــ.

بدأت محادثات سالت عام ١٩٦٩، وفي عام ١٩٧٢ ظهرت اتفاقية مؤقتة بعد محادثات مضنية لتحديد القوة النووية والوسائط التي تحملها من الصواريخ والقاذفات.

في أواخر السبعينيات ظهرت اتفاقية سالت ـــ ٢ التي لم يصدقها الكونغرس الأميركي حتى الآن ، بحجة التفوق السوفييتي النووي على الولايات المتحدة الأميركية في الثمانينيات .

وقد أدى هذا إلى ظهور المرحلة العاصفة المعاصرة من تطوير السلاح النووي ، وبرامج التسليح الضخمة التي تكلف مئات المليارات من الدولارات ، وبالتالي ظهور برنامج (حرب النجوم) والسيطرة العسكرية المطلقة على الكون .

ب ـــ الأسلحة النووية التكتيكية والاستراتيجية

إن تحديد مكان الاستخدام وكيفيته هو الذي يعين سمة الأسلحة النووية واعتبارها تكتيكية أم استراتيجية . فالأنواع الاستراتيجية من القنابل والصواريخ سوف تستخدم في الضربات الموجهة ضد البلدان المعادية ، وتكون عادة بالأسلحة الأكبر في ترسانة الأسلحة النووية .

أما الأسلحة التكتيكية فالمقصود بها الأسلحة النووية ذات الاستخدام المتوسط والقصير ـــ أي على أرض المعركة ـــ .

لقد كان السلاح الاستراتيجي الرئيسي في الخمسينيات عبارة عن قنابل الإسقاط الحر التي تلقى من القاذفات الاستراتيجية ذات المدى البعيد . لكن الصواريخ سرعان ما شكلت التطور الرئيسي كواسطة ثقل للسلاح النووي .

وقد تم استبدال الصواريخ التي تستخدم الوقود السائل بأخرى ذات وقود صلب يعتبر أكثر جودة ، وهو اقتصادي في آن واحد . ومع ذلك بقي الوقود السائل مستخدماً في صواريخ تيتان ـــ ٢ الأميركية وس س ـــ ٩ الروسية .

يتميز الصاروخ عن القنبلة بإطلاقه من الأرض والبحر والجو . وتمثل الصواريخ الراجعة متعددة الرؤوس الموجهة ذاتياً MIRV والتي تطلق من منصات صلبة تقدماً عظيماً ، حيث أصبحت السلاح النووي الأول في كلتا الدولتين العظميين .

هناك ثلاثة أنواع لهذه الصواريخ هي :

ـــ ذات مدى متوسط.
ـــ ذات مدى بين المتوسط والعابر للقارات.
ـــ صواريخ عابرة للقارات.

إن تطور القذائف النووية والصواريخ النووية والتكتيكية قصيرة المدى قد تواصل بوتائر عالية اعتباراً من الخمسينيات. كما أن تطور الهندسة النووية والاستفادة الكبيرة من مواد الانشطار الذري جعلت الأسلحة النووية التكتيكية جزءاً رئيسياً في تسليح قوات كل من حلفي الناتو ووارسو.

ففي عام ١٩٥٣ طورت الولايات المتحدة الأميركية مدفع هاون يطلق قذيفة نووية تساوي في القوة التدميرية القنابل التي أسقطت على هيروشيما وناغازاكي.

وفي السبعينيات كانت في الخدمة مع قوات حلف الناتو في أوروبا قطع كثيرة من المدافع التي تستطيع إطلاق قذائف نووية بشكل مماثل للقذائف التقليدية.

وقد صنعت واستخدمت بشكل واسع صواريخ قصيرة المدى مثل الأميركية لانس والسوفييتية فروغ.

اعتمدت قوات الناتو بشكل خاص على صواريخها النووية التكتيكية لمواجهة التفوق العددي في الأسلحة التقليدية لحلف وارسو.

فالولايات المتحدة لوحدها تملك حوالي سبعة آلاف سلاح نووي تكتيكي زيادة عن الروس، بالرغم من أن الصواريخ الروسية أكبر حجماً. أما في دول حلف الناتو الأخرى فإن فرنسا هي الوحيدة التي طورت صاروخها التكتيكي المسمى (بلوتون)، والذي يصل مداه إلى ٧٥ ميلاً.

في السنوات الأخيرة ظهرت الأسلحة النووية الصغيرة جداً (ميني) بإنتاجية عالية قدرها كيلو طن، حيث أضافت بعداً آخر إلى الاستخدامات الممكنة للأسلحة النووية. وهذه الأسلحة الصغيرة ليست إلا أشكالاً ذات فعالية أكبر من التفجيرات التقليدية الضخمة.

وقد تجلت هذه الأسلحة في المعركة البحرية التي شهدت تطوير عدد من الأسلحة التكتيكية الصغيرة مثل حشوات الأعماق، والصواريخ، والقنابل الفعالة تحت الماء.

ومهما يكن فإن المشكلة تكمن في إمكانية تصعيد الاستخدام النـووي من التكتيكي إلى الاستراتيجي حيث لا توجد اليوم حدود فاصلة بينهما.

فالأسلحة التكتيكية الكبيرة مثل صاروخ (بيرشينغ) الأميركـي، و (سكيـل بورد) النسوفييتي قد تسبب دماراً بالغاً ضمن منطقة واسعة.

وعلى أية حال فإن المشكلة ما زالت قائمة بين القوى المتصارعة حول وقت استخدام الأسلحة النووية التكتيكية.

إن الأطلسيين يتبنون نظام (الرد المرن) الذي يؤخر استخدامها لأكبر مدة ممكنة، بالرغم من ثقتهم بأن الاتحاد السوفييتي يمكن أن يكون جاهزاً لاستخدام أسلحته النووية التكتيكية في المراحل المبكرة لأي صراع، مما يجعل الغرب في وضع غير مريح.

ومع هذا تبقى الصواريخ العابرة للقارات السلاح النووي الأخطر الذي يستطيع أن يقطع المسافة عبر القارات خلال ٣٠ دقيقة، حيث تصل سرعته إلى ٢٠٫٠٠٠ ميلاً في الساعة، خاصة بعد أن جرى تطويرها وأصبح الصاروخ الواحد يحمل عدة رؤوس حربية مستقلة التسديد، حيث يصل عددها إلى عشرة صواريخ. وتعتبر الصواريخ التي تطلق من الغواصات أحد التطورات الرائعة للتقنية العسكرية لما بعد الحرب، حيث تمتلك الغواصة التي تطلق الصواريخ النووية عدة مزايا على الصواريخ المتمركزة على الأرض، وعلى القاذفـات الاستراتيجية.

إن الغواصات قادرة على التحصن من الضربة الأولى، لأن لديها محيطات العالم بأجمعها لتختبىء فيها، وهي تستطيع تنفيذ رماياتها من أماكن قريبة إلى أرض العدو، وقادرة على البقاء تحت الماء لمدة طويلة، ولهذا فهي تعتبر منصة إطلاق مثالية.

وعموماً فإن أحد العوامل التي ساعدت بشكل كبير على تقدم الصاروخ هو تطوير أنظمة التصويب والتوجيه بالغة الدقة، حيث ظهرت الصواريخ ذات الدقة العالية والقنابل الذكية Smart Bombs التي تتضمن أنظمة توجيه ذات فعالية عالية جداً.

وقد وقف الرأي العام العالمي كله ضد نشر الصواريخ النووية المتوسطة المدى من طراز كروز.

هذه الصواريخ عبارة عن تطوير مباشر للقنابل الألمانية الطائرة، يمكن إطلاقها من الأرض أو البحر أو الجو، وقد تحمل رؤوساً حربية نووية أو تقليدية ذات دقة عالية تصل إلى أقرب بضعة ياردات من أجل مدى قدره ٢٠٠٠ ميل.

لقد أدى تطوير السلاح النووي إلى تطور الوسائط التي توصله إلى أغراضه. ففي البداية كانت الطائرات هي وسيلة استراتيجية رئيسية تحمل الذخائر النووية إلى أهدافها.

ففي مطلع الخمسينيات كان لدى الولايات المتحدة الأميركية ١٦٥٤ طائرة قاذفة ثقيلة ومتوسطة.

وفي عام ١٩٦١ كانت هذه القاذفات تشكل ٩٤٪ من مجموع الوسائط، حيث تواجد معها ٢٨ صاروخاً باليستيا عابراً للقارات، وخمس غواصات نووية. وكان يحمل كل منها ١٦ صاروخاً من طراز بولاريس.

فيما بعد تم التركيز الأميركي على (قوات الصواريخ المنيعة) أي الصواريخ (مينتمان) والغواصات النووية.

في عام ١٩٦٥ وصل عدد الصواريخ الباليستية في الولايات المتحدة الأميركية إلى ٩٠٠ صاروخ أرضي متمركزة في المناطق الخاصة بها و ٥٦٠ صاروخاً على الغواصات.

وفي عام ١٩٧٧ كان في الولايات المتحدة الأميركية ٥٤ صاروخاً من طراز تيتان ــ ٢ و ٥٠٠ صاروخ مينتمان ــ ٢ و ٥٠٠ صاروخ مينتمان ــ ٣ ذات ثلاثة رؤوس، وعشر غواصات مزودة بصواريخ بولاريس أ ــ ٣ مع ثلاث حشوات متمركزة في رأس الصاروخ، وبمعدل ١٦ صاروخاً في كل غواصة. و ٣١ غواصة نووية تحمل ١٦ صاروخاً من طراز يوسيدون س ــ ٣ مع رأس ذي عشر حشوات.

تتفوق الصواريخ بشكل عام، والصواريخ عابرة القارات بشكل خاص على الطائرات القاذفة سواء من حيث مواصفاتها، أو من حيث فقدان عوامل المسافة والطقس

والطبيعة لأدوارها وتأثيرها، كما تختصر زمن وصول الحشوة إلى الهدف بشكل ملحوظ، وتزيد من المناعة ضد وسائط الدفاع الجوي.

إلا أنه سرعان ما تمت العودة إلى استخدام الطيران بعد تزويده بالصواريخ من نوع جو ــ أرض التي تعتبر اليوم أساساً لتسليح الطائرات القاذفة الحديثة، حيث تزود هذه الصواريخ بالرؤوس مع الحشوات العادية أو النووية، وتتميز بمدى الطيران الكبير.

تستخدم هذه الصواريخ بشكل رئيسي لتوجيه الضربات على الأغراض الأرضية والبحرية الهامة للعدو التي تتواجد كالمعتاد في عمقه العملياتي والاستراتيجي، حيث تمكن أجهزة توجيهها الحديثة ومدى عملها الكبير من توجيه الضربات على العدو دون دخول الطائرة منطقة تأثير دفاعه الجوي.

إن مستقبل إنتاج الصواريخ كوسائط حرب نووية يتجه لحمل أعمال البحوث العلمية والتصحيحية الاختبارية في هذا المجال على إيجاد القدرات الأكثر فعالية ضد أغراض الإصابة المحددة، وتخفيف وزن الذخائر النووية، وتصغير حجمها، وزيادة مدى طيران الصواريخ ودقتها، وتقصير زمن تحويل قواعد الإطلاق إلى وضع القتال، وإطلاق الصواريخ وزيادة قدرة مناورتها وحيويتها، وتحسين المواصفات الاستثمارية والمواصفات الأخرى لمجموعات الصواريخ.

إن الصاروخ الأميركي الجديد من طراز مينتمان الذي سوف يزود بكتلة الرأس الواحدة ذات القوة حتى ٦٠ كيلو واط، ومدى الطيران أكثر من ١١ ألف كيلو متر هو نموذج عصري لتطور الصواريخ النووية الاستراتيجية العابرة القارات.

كما يمثل الصاروخ العملاق ام اكس، الذي سيحمل أكثر من عشرة رؤوس نووية ذات انفصال متباين، هذا الطراز الجديد من الأسلحة النووية. أما الرأس م كـــ ١٢ آ فيتفوق على الرؤوس المتوفرة من حيث القدرة\والدقة.

سوف يتم حتى نهاية الثمانينيات وضع ٢٠٠ صاروخ من طراز ام اكس و ١٤ غواصة ترايدنت في الخدمة.

وتمثل الصواريخ المجنحة التي تطلق من الطائرة قاذفة القنابل ومن الغواصات أو من

القواعد الأرضية، النماذج الجديدة من الوسائط النووية الحديثة. وتتميز هذه الصواريخ المجنحة بدقة عالية تكتسبها عن طريق نظام التوجيه المكتمل، وصعوبة كشف الصواريخ على الارتفاعات المنخفضة والسطح العاكس الصغير.

وحسب الخطط التي اعتمدت في آذار عام ١٩٨٣ فإن الولايات المتحدة الأميركية تنوي في المستقبل نشر أحدث أنواع الأسلحة النووية في الفضاء، بغية استخدامها ضد الأهداف الأرضية والجوية والبحرية...

إن السوفييت قد واجهوا بدورهم هذا التطور العاصف في مجال إنتاج الأسلحة النووية واستخدامها، واستطاعوا أن يحققوا التوازن في هذا المجال منذ مطلع السبعينيات، أما الآن فإن الولايات المتحدة الأميركية ودول حلف الأطلسي تدعي أن هؤلاء قد خرقوا التوازن النووي، وأصبحوا يملكون سواء في الشحنات أو عدد الرؤوس، أو عدد الوسائط، ما يزيد على ما هو في ترساناتهم.

إن الصاروخ السوفييتي س س ـ ٩ و س س ـ ١١ بنماذجه الثلاثة هو صاروخ باليستي عابر للقارات، يحمل رأساً حربية بقوة ٢٥ ميغاطن، لأنه سوف يسقط على أرض تبعد عن الهدف الحقيقي عدة أميال. بينما الصاروخ الأميركي تيتان الباليستي العابر للقارات يحمل رأساً حربية بقوة ٩ ميغاطن للسبب نفسه.

إن نتائج الحرب النووية سوف تكون كارثة بالنسبة للبشرية كلها، وذلك لأن المخزون النووي الموجود اليوم قادر على تدمير الكرة الأرضية ١٥ مرة.

وإذا كان الاتحاد السوفييتي قد أخذ على عاتقه ألا يكون البادىء في توجيه الضربة النووية، إلا أنه قادر على توجيه الضربة الجوابية والتي لن تكون بأية حال من الأحوال ـ كما أشار إلى ذلك الدبلوماسيون والعسكريون السوفييت ـ بأقل فعالية من الأولى.

إن الولايات المتحدة الأمريكية تحتفظ بـ ٨٠ ـ ٩٠٪ من قوة صواريخ مينتمان في حالة استعداد لمدة ٢٤ ساعة في اليوم، ويحتفظ الاتحاد السوفييتي بنسبة استعداد أقل بقليل، ومن المحتمل أن تتقلص حتى ٢٥٪ من قوة صواريخه الباليستية عابرة القادرات. وهو لا يبدو خائفاً من (المفاجأة المذهلة) لهجوم نووي أميركي، ذلك لأنه عند ظهور مؤشرات الصراع سيكون لديه الوقت لوضع قوته في حالة الجاهزية القتالية المطلوبة.

تبقى القيادة والسيطرة الإيجابية الفعالة للقوات النووية الاستراتيجية هي المشكلة الأساسية للحرب النووية.

إن قابلية تعرض منظومة القيادة والسيطرة والاتصال (C 3) للكشف والتدمير تعتبر أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لكل طرف عند التخطيط الاستراتيجي.

إن كلا الطرفين يحاول الحفاظ على منظومة القيادة والسيطرة والاتصال من خلال استخدام الملاجىء، والوفرة في الوسائط، والملكية في الأرض والجو.

لقد اقتنع كل طرف بإمكان نشوب الحرب النووية، واستعد لها. إلا أن المتوقع أن يكون السيناريو على الشكل التالي:

ـــ أزمات سياسية متلاحقة وحادة، يليها قتال تقليدي، وآخر نووي، من المحتمل أن يكون في وسط أوروبا والشرق الأقصى. ثم أخيراً ضربات نووية محدودة على أهداف عسكرية في الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي.

إن الحرب النووية المقبلة ستكون مقاومة حذرة ذات انتقائية محدودة، سوف تسقط من خلالها وحدات من الصواريخ العابرة للقارات، وهو ما سيكون أسهل بالنسبة للسوفييت الذين قبلوا بالأولوية الاستراتيجية للولايات المتحدة الأميركية، لمدة تساوي حوالي ٣٠ سنة، بينما سيكون أقسى بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية التي ما زالت تعاني من عقدة (بيرل هاربر)، أو الرعب الناشيء عن الهجوم المفاجىء.

٢ ـــ الوسائط الألكترونية ووسائط القيادة الفنية

لعبت وسائط القيادة منذ بداية الحروب وحتى الآن دوراً مهماً في المعارك التي دارت بين الأطراف المتصارعة، وكانت دوماً وراء تحقيق النصر.

وقد ازداد دورها أهمية وتعقيداً في أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم ما لبث أن تطور بشكل عاصف، نتيجة لاستخدام الوسائط الفنية والألكترونية المتعددة في قيادة القوات.

ولقد كان التغيير المتواصل في طبيعة الأعمال القتالية سبباً وراء البحث عن طرق

مناسبة لقيادة القوات من جهة ، ولوسائط تتجاوب وهذه القيادة من جهة أخرى ، خاصة في ظروف استخدام أسلحة التدمير الشامل بشكل محدود أو كلي .

لم تكن أغلبية الوسائط الأولى لقيادة النيران مزودة بتجهيزات وتقنيات ضد التشويش الذي انتشر منذ مطلع القرن ، ولعب دوراً في حسم الصراع على أرض المعركة ، ولهذا سرعان ما تبدلت صورة وسائط اليوم لقيادة القوات .

وفي مطلع الستينيات بدأت وسائط الاتصال (المرئي المرمز ، والهاتفي ، والبرقي ، والتصوير البرقي) تتجهز بمضادات التشويش ، وفيما بعد تم التطوير الكبير لوسائط مكننة أعمال القيادة ، بدءاً من الدبابة ، وانتهاء بالتشكيل الكبير سواء بالنسبة للاتصال اللا سلكي أو السلكي .

وفي الوقت الراهن تستخدم من أجل قيادة القوات محطات الاتصال الموجه متعددة الأقنية ، وأنظمة الاتصال التروبسفوري ، والاتصال اللاسلكي ذي الأمواج القصيرة جداً .

إن وسائط الاتصال الحديثة تتميز بقدرتها العالية ووقايتها الذاتية الجيدة من التشويش ، وضمان مستوى عال من الأداء ، ونقل الدفعات الكبيرة من المعلومات الهاتفية والبرقية في الوقت المناسب ، وإيصال قرار القائد على شكل خرائط أو مخططات أو تعليمات قتال مختصرة فوراً إلى المرؤوسين .

اتصف تطوير الاتصال السلكي بتكثيف الأقنية واستخدام المقاسم الجديدة ، وتحسين تجهيزات مرور إصلاح خطوط الاتصال المعطلة وإعادة إنشائها .

وأخيراً جاءت مسألة أتمتة قيادة القوات ثورة في مجال الاتصال والقيادة ، حيث تم التوصل إلى تأمين وصول حجم كبير من المعلومات بدقة عالية ، وفي الوقت المناسب ، ودونما تعرض لتشويش .

وهكذا نشأت أنظمة قيادة حركية مؤتمنة تؤمن سرعة وثبات وإخفاء واستمرارية قيادة القوات وعمل الوسائط القتالية .

كان تطور الأتمتة قد تم على عدة مراحل : حيث جرى في المرحلة الأولى تزويد

القوات ببعض الحاسبات الألكترونية فقط . ثم جاءت المرحلة الثانية التي تضمنت إنشاء خطوط مؤتمتة ذاتية ، وتوفير البرامج التي تمكن من أتمتة هذه الأعمال في عدة عناصر للقيادة بآن واحد .

أما في المرحلة الثالثة فقد تم استخدام أنظمة القيادة المؤتمتة بصورة شاملة ، وعلى جميع المستويات لعناصر القيادة .

ويرى معظم الخبراء أن النظام المؤتمت يمكّن من جمع المعلومات بسرعة ومعالجتها آلياً ، وتجديد معلومات الاستطلاع والمعطيات حول وضعية القوات الصديقة ، وإيصال المهام إليها في الوقت المناسب ، ومراقبة تنفيذها ، وتحديد سير الأعمال القتالية حسب مختلف حالات قرار القائد . وقد أدى استخدام نظام القيادة المؤتمت إلى اختصار كبير في الزمن ، والقوى اللازمة لتنظيم المعركة (العملية) ، ومكن من تحسين التعاون وتنسيق الأعمال القتالية ، وزيادة ثبات قيادة القوات ، ودقة عمل وسائط الصراع المسلح وديمومتها بشكل عام .

لقد كان هذا كله التطبيق العملي لما قاله العالم توماس الفا اديسون : « سوف تبرز للوجود في يوم ما من دماغ العلم آلة أو قوة مرعبة في طاقاتها ، مروعة حتى للإنسان المقاتل الذي سوف يتحدى التعذيب والموت على التوالي ، وستكون حرباً مرعبة ومتحررة من كل قيد » .

أما أنيشتاين ــ واضع الأسس النظرية للفيزياء الذرية الحديثة ــ فقد قال عندما سئل : أية أسلحة ستستخدم في أثناء الحرب العالمية الثالثة : « لا أدري ولكنني أؤكِد لكم بأن الحرب العالمية الرابعة سوف تستخدم الحجارة للقتال » .

جاء الاستخدام الواسع للجهاز الألكتروني الأولي لأغراض الاتصالات والاستطلاع منذ مطلع هذا القرن . وازدهر مع تطور الألكترونيات التي رصدت لها في الدول الغربية اعتمادات ضخمة ، وأنشئت لها خاصة مراكز البحوث العلمية الهامة .

ومنذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن يشهد العالم صراعاً جباراً بين كلا الجانبين الغربي والشرقي لتطوير وسائط أتمتة قيادة القوات والوسائط ، حيث وظفت الولايات المتحدة الأميركية وحدها ٣٠٫٠٠٠ عالم ومهندس في هذا المجال .

ولقد طرأت تطورات هامة للغاية على الأسلحة التقليدية، وأصبح من الممكن تنفيذها إلى حد ما نتيجة للتطور السريع في العناصر الألكترونية الصغيرة الحجم. والحواسب الألكترونية، وتصميم المحرك الصغير، والمحروقات الجديدة الفعالة، وتقنيات التوجيه، والعناصر المتحسسة، والألكترونيات.

كتب المارشال السوفييتي ف. د سوكولوفسكي هنا: «إن المشكلة في تحقيق السيطرة الكمية والنوعية للتقنية العسكرية على المعتدي المحتمل تحتاج إلى أوسع تطويع في الجيش للقوات العلمية والتقنية».

وفعلاً أنفقت وزارة الدفاع الأميركية في العام ١٩٧٩ ما يزيد على ١٠٪ من ميزانية الوزارة على أمور البحث والتطوير العسكري.

وقد أدى التطور السريع في مجالات التوجيه والقيادة وتقنية المستشعرات إلى إمكانية إطلاق كثافة عالية من النيران وتصويبها على الأهداف باستمرار.

لقد تطورت الاتصالات الآن بحيث أنها وصلت إلى مستوى يمكّن من توجيه الأعمال التكتيكية عن بعد، بواسطة سلطة مركزية عالية، حتى نصف المسافة حول العالم.

ومعروف أن القدرة على الحركة والمناورة قد وسعت بشكل كبير من رقعة مساحة المعركة وزمنها.

لقد أصبحت هذه المتغيرات ممكنة بشكل مباشر أو غير مباشر بواسطة تطوير الحاسب الألكتروني، الذي تطور مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، بصورة ملحوظة، حيث أخذ على عاتقه تطوير أساليب أتمتة القيادة، وإيصال مهام كثيرة في أجزاء صغيرة من الثانية، كان من الممكن أن يستغرق عملها عشر سنوات أو أكثر من قبل الإنسان.

لقد قدم الحاسب الألكتروني إمكانية كبيرة لتخزين مجموعة ضخمة من المعلومات المنظمة المترابطة واسترجاعها ومعالجتها.

ويتمثل هذا التطور العاصف في حقل المعلومات في أن أميركياً واحداً من ١٦٠

عاملاً كان في عام ١٩٧٠ يقوم بالأعمال الكتابية، بينما كان يقوم واحد من أربعة بهذا العمل في عام ١٩٨١.

وهكذا ومع مطلع الثمانينيات تحقق حلم العالم الإنكليزي جون بول الذي وضع مبادىء الحاسب الألكتروني في عام ١٨٤٧، وأوجد نظاماً للتعبير المنطقي (الصيغ الاستنتاجية) على شكل اصطلاحات رياضية مبسطة.

يعتبر الحاسب الألكتروني ـــ دماغ ـــ منظومة أتمتة القيادة والوسائط حيث كان الجد الأول تحت الإشراف العسكري له هو (هارفرد مارك ـــ ١). كان هذا الحاسب يستطيع تأمين عمليات الجمع والطرح بعد مدة قدرها ثلاث ثوان، ويخزن مؤقتاً حوالي ٢٣ خانة لأرقام من ٠ ـــ ٩، ويقوم بعمليات منطقية وحسابية وقتالية مطولة.

ثم جاء بعده في عام ١٩٤٦ حاسب جديد تحت اسم ENIAC الحاسب والكامل العددي الألكتروني ـــ وكان أيضاً تحت الإشراف العسكري.

اتصف هذا الحاسب بالحجم الكبير، وحاجته إلى استطاعة قدرها ١٤٠,٠٠٠ واط من أجل تغذية ١٨,٠٠٠ صمام ألكتروني، وكان يؤمن فقط ٥٠٠٠ عملية حسابية في الثانية، ويمتلك عشر خانات لأرقام من ٠ ـــ ٩.

بعد هذا جاءت الحواسب الجديدة ـــ الجيل الثاني ـــ أصغر حجماً، وأكبر سعة، وأقل استهلاكاً للقدرة، وذات ذاكرات مغناطيسية، وصلاحية كبيرة في العمل.

بدأ التغيير الرئيسي الأول على الحاسبات من طراز ENIAC عند تطوير الترانزستور عام ١٩٥٧، أو بداية ظهور دارات أنصاف النواقل. وبظهور الدارات الميكروية نتيجة للتطور التقني العاصف، بدأ الجيل الثالث للحاسبات الألكترونية، حيث تحتوي الدارة الواحدة ذات القياس الكبير جداً على ١٠٠,٠٠٠ ترانزستور على رقيقة واحدة.

تمتلك الإدارة العسكرية الأميركية اليوم أكثر من نصف عدد الحواسب الألكترونية العاملة في البلاد. بينما تستخدم جيوش العالم في الوقت الحاضر الحواسب على نطاق واسع.

ارتبطت تقنية الحاسب الألكتروني بالمستشعرات مثل الرادار، والأشعة تحت

الحمراء ، والكهرباء الضوئية ، والتلفزيون ، والتصوير الفوتوغرافي ، والاعتراض الألكتروني . وذلك من أجل إنشاء منظومة قيادة وسيطرة حديثة ، وأجهزة إنذار وقيادة نيران ، أو منظومات قيادة معارك .

كما أمنت هذه التقنية الجديدة بدورها عدم التأخر في اتخاذ القرار ، وتأمين الأعمال القتالية القريبة والبعيدة ، والاستجابة الثورية للأعمال الاستراتيجية بالدقائق والثواني .

إن الزمن اللازم للمنظومات المخصصة للدفاع عن هذه الأنظمة قد يكون جزءاً من مليون من الثانية ، حيث تعتمد على توفر المعلومات عن المسار الواردة من الرادار ، ومن المستشعرات بالأشعة تحت الحمراء ، وهي معلومات تدخل من الاتجاهات الملتقطة إلى الحاسب الألكتروني ، ومن ثم تطلق صواريخ الاعتراض ، بواسطة الحاسب ، ضد الصواريخ البالیستية المضادة .

إن الحواسب هنا هي التي تعطي عن طريق استخدام المعلومات التي تشكلت بواسطة المستشعرات معلومات عن طريقة الاعتراض والاتجاه ، ومن ثم مراقبة أداء منظومة الأسلحة .

ففي الدبابة الأميركية ابرامز يقوم حاسب ألكتروني ــ فمي يعمل كعنصر هام من عناصر منظومة قيادة النيران ، بأخذ المعلومات من موجه اتجاه لايزري ، فيوجه المدفع إلى الاتجاه المطلوب ويطلق في أجزاء من الثانية .

ويعتبر الرادار واسطة هامة تتعامل مع الحاسب الألكتروني في منظومة القيادة المؤتمتة .

وقد طرأ تطور ملحوظ على عمل الرادارات وبنيتها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهرت رادارات البحث ذات المدى البعيد ، وأساسها هوائي إرسال كبير جداً يمكن تدويره وتوجيهه إلى أي مصدر للإشارة المطلوبة .

وقد اتضح للخبراء المتخصصين أن الرادارات الأرضية محدودة الفاعلية ، لأنها لا تستطيع الكشف لما فوق الأفق بسبب كروية الأرض .

وقد كان المخرج الوحيد متمثلاً في استخدام أنظمة القيادة والإنذار المحمولة جواً

(أواكس) والتي تتضمن راداراً بعيد المدى، مركباً على طائرة كبيرة مدنية معدلة، هي في الولايات المتحدة الأميركية من طراز بوينغ ٧٠٧، مركب عليها رادار دوار بقطر تسعة أمتار من جهة الذيل.

يمكن لهذه الطائرة الطيران على ارتفاع ٤٠٫٠٠٠ قدم ومسح مسافة تساوي ٢٣٥ ميلاً رادارياً. وهي مجهزة بالوسائط الألكترونية المعقدة التي تمكنها من تمييز الأغراض عن ركام الأرض، وترسل المعلومات مباشرة إلى مقر القيادة.

إن هذا النظام قد أمن مسألة تكبير مدى المراقبة الرادارية خلف مدى الرادارات الأرضية، ووفر إمكانية النظر إلى الأسفل وكشف الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة، والتي تكون شبه مستحيلة الالتقاط بوسائل أخرى.

ونظام الأواكس هذا هو في الوقت نفسه للقيادة الجوية، خاصة لامتلاكه حاسباً ألكترونياً على الإنتاجية، وأجهزة لإظهار الموقف ووسائط للاتصال، وجهازاً تعارفياً.

إن المعلومات المتوفرة الحديثة تؤكد أن الرادار المحمول على طائرة الأواكس (E-3A) يمكّن من كشف الطائرات على الارتفاعات العالية حتى مسافة ٦٠٠ كم والمنخفضة مسافة ٤٠٠ كم، وأنها قادرة على تنفيذ المناوبة في الجو لمدة تسع ساعات. ويمكن زيادة الزمن حتى ٢٤ ساعة في حالة ملئها بالوقود مرتين وهي في الجو.

يوجد على متن الطائرة طاقم مؤلف من أربعة عناصر ومجموعة عملياتية مؤلفة من ١٣ عنصراً، منهم تسعة ملاحين موجهين يقومون بحل المهام التكتيكية على اللوحات المستقلة، وأربعة خبراء فنيين باختصاص مراقبة الأجهزة والعدادات الألكترونية.

إن الحاسب الألكتروني للأواكس قادر على معالجة المعلومات الواردة عن الأهداف المكتشفة، وحل المهام التكتيكية الخاصة بقيادة الطائرات المقاتلة وطائرات الدعم الجوي.

أما وسائط الاتصال فتتألف من محطتين لا سلكيتين ذات أمواج قصيرة، وحتى ١٤ محطة لا سلكية ذات أمواج قصيرة جداً، ونظام آلي لنقل تعليمات القيادة وأوامرها.

ونظراً لهذا التجهيز الكبير، فإنه قد تنفذ من على متن الطائرة الأواكس القيادة

المركزية للتجميع الجوي الكبير العامل في المناطق الواسعة، وقيادة الوحدات الجوية المستقلة المتواجدة فوق الأراضي المعادية.

وعلى كل حال فإن التطور باتجاه تصغير حجوم العناصر الألكترونية، والطاقة المتزايدة للحواسب الألكترونية قد سمح بظهور أنظمة رادار صغيرة ومعقدة جداً، تستخدم من قبل السفن والطائرات، حيث غالباً ما تميل إلى ارتفاع التردد المستخدم والمدى القصير.

وقد تطورت البنية التنظيمية التكتيكية والعملياتية والاستراتيجية لعمل الرادارات نفسها، فظهر التعاون بين الرادارات الأرضية والمحمولة جواً من أجل إيصال الطائرة إلى أهدافها، بحيث يمكن لرادار الطائرة فيما بعد متابعة الملاحقة.

وعادة يكون للرادارات الملاحية مسح دائري، ولكن الأنواع الجديدة الهامة تتضمن رادارات الكشف الجانبي المحمولة جواً، التي تستخدم لرسم الأرض إلى جانب الطائرة، وتسهيل عملية الطيران السريع على ارتفاعات منخفضة.

ويقوم رادار الطيران على ارتفاع منخفض بمسح الأرض أمام الطائرة أو الصاروخ بشعاع حاد جداً. ويدخل الصور إلى الحاسب الألكتروني الذي يقوم بدوره بتعيير عناصر التحكم بالطائرة بحيث تتجنب العوائق.

ومؤخراً تم تطوير الرادارات المحمولة باليد وذات الحقيبة للاستخدام من قبل المشاة، وأعطي بعض الاهتمام لطرق التشويش وكشف النبضات الرادارية المعادية. وإحدى الطرق لتنفيذ ذلك هي عبارة عن تركيب هوائي راداري على منصة دوَّارة بحيث يمكن الدوران فوق أرض المعركة.

إن التصميم الألماني لهذا الرادار يسمح له بالعمل لعلو قدره ٧٠٠٠ قدم، حيث يكون قادراً على استقبال الإرسالات الرادارية المعادية وتحليلها. يمكن تنفيذ مهام مشابهة بواسطة عربة محمولة جواً تقاد عن بعد، ومخصصة لنقل المسح من فوق أرض العدو. ويمكن أن تجهز بحيث تحمل عناصر هامة وكاميرات تلفزيونية وأجهزة ليزر وتحت الحمراء، ورادارات.

ونتيجة لحرب فيتنام والشرق الأوسط جرى تطوير واسع في مجال استخدام المستشعرات التي يمكن أن تلقى بواسطة الطائرات إلى الأرض. وتتضمن أجهزة تصنُّت، وكاميرات تلفزيونية، وأشكالاً متنوعة من الرادارات، والأشعة تحت الحمراء. وهي تعمل عن بعد، وترسل المعلومات الاستطلاعية على مراحل لطائرة أو أجهزة استقبال أخرى.

وعموماً فإن طائرات الكشف الراداري والقيادة عن بعد تكوِّن جزءاً هاماً من نظام القيادة المؤتمت للقوات.

أما أنظمة الاتصالات فتعتبر إحدى أهم أنواع الاتحاد الوثيق مع الحاسب الألكتروني، حيث ساعدت تقنية الاتصالات المتحولة على التطوير السريع للحاسب الألكتروني نفسه. وقد كانت أنظمة الإرسال خلال فترة من الزمن في طريقها إلى (الترقيم)، حيث تتم الأعمال التي اعتدنا القيام بها بواسطة دارات قياسية، تتم الآن رقمياً في الحاسبات الصغيرة جداً أي (الميني ـــ كمبيوتر).

لقد عزز هذا كله من دور القيادة الآلية في مجال التحكم بدارات الاتصالات ذات الاستخدام العسكري، والمعروفة باسم C2 أي (القيادة والتحكم).

ويرى المختصون اليوم أن القيادة والتحكم مفتاح النجاح العسكري. فالطرف القادر على تنفيذ مسائل القيادة والتحكم في سير الأعمال القتالية، وأنشطة التشكيلات، واستخدام الوسائط والأعتدة والأسلحة استخداماً فعالاً، هو الطرف الذي سوف يكتب له النصر في المعركة الحديثة.

إن الاتصالات هنا تلعب دوراً مهماً في رسم سير المعركة، ومعرفة ما يجري على الأرض في الجو وفي البحر، ليس فقط في النطاق العملياتي، بل والاستراتيجي وربما الكوني أيضاً.

لقد استطاع ابراهام لنكولن الذي كان يبعد أقل من ١٠٠ ميل عن جيتسبورغ. إرسال تلغراف إلى الجنرال جورج ميد في صباح الأول من تموز ١٨٦٣، سائلاً إياه إعلامه عن نتيجة الاشتباك مع روبرت أي لي الذي اجتاح القوات الجنوبية بينما كان ميد في حالة قيادة تكتيكية كاملة.

بعد مئة سنة استطاع الرئيس الأميركي لندن جونسون من غرفة خاصة في البيت الأبيض أن يقود شخصياً عمليات الأسطول السادس الأميركي في شرق البحر المتوسط، وكانت إحدى يديه على الخط المباشر مع موسكو.

وبدوره كان هنري كيسنجر يعطي الأوامر التكتيكية لقائد الكتيبة في أثناء عمليات إنقاذ Mayaguez عام ١٩٧٥.

وكان جيمي كارتر يتحدث مباشرة إلى قادة مهمة إنقاذ رهائن إيران عام ١٩٨٠، وأعطى الأوامر شخصياً لإنهاء العملية.

وعموماً تؤدي الاتصالات والمعلومات الفورية إلى قمة المركزية في العمل والقيادة، حيث بواسطتها أصبحت السلطات العليا اليوم مرتبطة عن بعد بالأعمال التكتيكية. وتعين هذه المركزية هنا على أن تكون كافة الوحدات السياسية والعسكرية مترابطة، لأن كل طرف يفترض بأن الطرف الآخر متنبه تماماً لجميع ما ينتج عن تصرفه من مشكلات.

لهذا كان اتجاه كلا الطرفين ــ ما زال ــ يمضي لتطوير أنظمة قيادة وسيطرة آليتين قويتين لهما إمكانات سريعة جداً، بحيث يكون هناك تكامل تام بين القيادة والسيطرة والاتصالات التي أصبح يرمز لها مجتمعة C3، هذا المصطلح الذي ظهر في السبعينيات، بعد أن وقعت عدة كوارث نتيجة اتصالات ثانوية، كما حصل بالنسبة لسفينة التجسس الأميركية، ليبرتي، التي قصفت من قبل الطائرات الإسرائيلية عام ١٩٦٧، وذلك بسبب إخفاقها في الحصول على معلومات التحذير المرسلة إليها للابتعاد عن منطقة حساسة.

وكما حصل بالنسبة للسفينة الأميركية أيضاً ريبلو التي تم الاستيلاء عليها عندما أخطأ حاسبها الألكتروني في إبلاغ رسالة تحذير عن تحديد هجوم كوري شمالي.

واليوم أنشأت الولايات المتحدة الأميركية منظومة قيادة وسيطرة واتصال جديدة، لإستخدامها من قبل جميع القيادات العسكرية. وهي عبارة عن نظام للقيادة والتحكم العسكري العالمي الواسع يسمى نظام WIMEX، وهو عبارة عن نظام لشبكة أقمار صناعية شاملة، ومحطات رادار، ومستشعرات أخرى، ومنظومات إنذار واتصالات، تتم قيادتها جميعها بواسطة شبكة ضخمة من الحواسب الألكترونية.

يستخدم نظام ويمكس كل من رئيس الجمهورية وضباط الارتباط في الأركان، وذلك من أجل التحذير عن الهجوم، وتوجيه جميع الفعاليات وقيادتها بواسطة القوات الأميركية في أي مكان من العالم.

ولدى القوى الجوية الأميركية أضخم أجهزة C3 في القوات المسلحة الأميركية، وتعمل ضمن خطة الأعمال (المتكاملة الوحيدة) واختصارها SIOP وهي عبارة عن خطة رئيسية تم إدخالها في الحاسب الألكتروني، وصالحة لأعمال القوى الجوية كافة في حالة نشوب حرب مقبلة.

وسوف تزداد حيوية عمل منظومة القيادة والسيطرة والاتصالات بإدخال مراكز القيادة المتحركة ضمن منظومتها، واستخدام طائرات الأواكس لمراكز قيادة متغيرة محمولة جواً، واستثمار جهد أجهزة المعالجة الآلية للمعلومات، على ساحة القتال، وهو ما يؤمن بدوره السريان السريع والدائم للمعلومات من وإلى جميع المستويات.

إن هذا سيؤدي إلى المحافظة على تسلسل أحداث الحالة التكتيكية، والعملياتية في آن واحد، وتحليل لأعراض معلومات الاستطلاع والرموز المنطقية المحسوبة، وتجنب التقلص الممكن في مردودية بعض الحواسب وإنتاجيتها، لأن الحواسب الأخرى سوف تأخذ مكانها بطريقة تدعى Interoperability أو (العمل البيني).

ولكن أخطر ما تواجه منظومة القيادة والسيطرة والاتصال هو خطر المعركة الألكترونية التي تسعى أسلحتها لإبطاله والتشويش عليه. لأن هذا يؤمن شلَّ أعمال الطرف الذي تم إبطال نظامه C3 والتقليل من فعاليته.

لهذا تتضمن خطط الهجوم والدفاع الحديثة لكل جانب الأولوية لأهداف منظومة القيادة والسيطرة والاتصال. ويتطلب هذا، الحصولَ مسبقاً على معلومات مفصلة عن نظام المعركة الألكترونية المعادية، والتخطيط المسبق بعناية لجميع مراحل المعركة التي ستكون غالباً سريعة ومتغيرة للغاية.

لقد عبَّر أحد الجنرالات الأميركيين عن أهمية منظومة القيادة والسيطرة والاتصالات حين قال: «إن الربح في الحرب العالمية التالية هو الطرف الذي يُبقي في حوزته آخر هوائيين منصوبين».

استخدم السوفييت الدايبولات المعاكسة والتشويش لإعماء رادارات حلف الأطلسي واتصالاته في عملية براغ ١٩٦٨ . وفي حرب ١٩٧٣ تطور استخدام الحرب الألكترونية بشكل ملحوظ لدى كل من: إسرائيل والعرب، حيث راقب كل طرف بصورة مكثفة الاتصالات المعادية والتشويش النقطي البعيد المدى على الترددات ذات التردد المعروف، أو الذي يمكن تحديده، والاستخدام الناجح للتشويش السدّي، وذلك من أجل قطع الاتصالات التكتيكية للتشكيلات المسلحة المعادية.

إن التجهيزات الألكترونية المحمولة على الطائرات والسفن والمتوضعة على الأرض في المقرات والأغراض المختلفة تعتبر جزءاً حيوياً من تسليح هذه الأعتدة من جهة، وعنصراً أساسياً من عناصر حسم المعركة، عن طريق الإسهام الكبير في إنشاء التشويش الإيجابي والسلبي لإبطال عمل العدو وتضليله، وتأمين قيادة الأسلحة والوسائط الصديقة وتوجيهها، وحمايتها في الوقت نفسه عن طريق التشويش على الصواريخ والقذائف والأسلحة المعادية. ويتم اعتراض الإرسالات الرادارية المعادية وتحليل إشاراتها بواسطة محلل للرادار، وهو يمثل في أعقد حالاته جهازاً للتعرف على نوع الصاروخ الموجه، وبعد ذلك يمكن اتخاذ إجراءات التشويش المناسبة ضده، أو استخدام الألياف الرقيقة المطلية بالقصدير **Chaffs** لتضليل الشعاع الراداري المعادي.

لقد حققت هذه الإجراءات ــ على سبيل المثال ــ حماية فعالة للطائرات الإسرائيلية من الصواريخ العربية في حرب تشرين ١٩٧٣ . ولقد تم التركيز مؤخراً على استخدام طرق التشويش، وكشف النبضات الرادارية المعادية.

إن إحدى الطرق لتنفيذ ذلك هي عبارة عن تركيب هوائي راداري على منصة دوارة، بحيث يمكنه الدوران فوق أرض المعركة، ويكون قادراً على استقبال الإرسالات الرادارية المعادية وتحليلها.

ويعتبر التشويش على وسائط الاتصالات اللا سلكية والفنية مهمة أساسية من مهام القوات التكتيكية والعملياتية والاستراتيجية على حد سواء. وذلك لأن إبطال أعمال C3 ــ كما أسلفنا ــ هو المهمة الأساسية لكلا الطرفين المتحاربين، حيث أن نتيجة لإبطال الاتصالات والمراقبة والقيادة وأنظمة توجيه الأسلحة المعادية يقل عدد الأسلحة والوسائط

التدميرية التي تصل في نهاية الأمر إلى الأهداف المراد حمايتها، وفي الوقت نفسه تتدنى الإمكانات الدفاعية لدى الطرف الآخر.

وبالنسبة للطائرات نفسها زودت اليوم بحواضن تشويش تحمل أجهزة تشويش وطلقات رادارية حرارية Flares، وذلك لحماية الطائرة بمعاكسة رؤوس التوجيه الذاتي الرادارية والحرارية للصواريخ.

إن أحدث حواضن التشويش مبرمجة بحيث أن نظام التحذير عن التهديد المركب على الطائرة يمكنه أن يوجه الحاضن لمواجهة التهديد الأكثر خطورة.

في حروب الشرق الأوسط التي دارت بين العرب وإسرائيل تمّ اللجوء إلى التشويش على الوسائط اللا سلكية والفنية والرادارية والألكترونية من قبل الطرفين بصورة واسعة، استفاد منها فيما بعد المختصون في هذه الشؤون.

لقد استطاعت القوات العربية ـــ وخاصة في سورية ـــ خلال مرحلة صغيرة من الزمن ١٩٦٧ ـــ ١٩٧٣ تبديل موقعها الألكتروني، وتحسين البنية التنظيمية، والاستخدام التقني العصري لوسائط الحرب الألكترونية بغية القيام بمهام الاستطلاع والتشويش في آن واحد.

إلا أن إسرائيل كانت في الوقت نفسه قد قطعت شوطاً كبيراً في هذا المجال، وهو ما دفع بالقوات العربية السورية في حرب ١٩٧٣ للقيام بعملية خاصة، كان هدفها احتلال ثلاثة مراكز استطلاع وتشويش وقيادة وتدميرها في (الحرمون ـــ وتل أبو الندى ـــ وتل الفرس) الأمر الذي أدى إلى شل أعمال وسائط الحرب الألكترونية ووسائط البث اللاسلكي، واللاسلكي الفني الإسرائيلية ضد القوات العربية السورية لمدة طويلة.

كما استطاعت في الوقت نفسه مجموعة من الطائرات السورية بقوام ٧٩ طائرة، تحت تغطية التشويش الإيجابي والسلبي من توجيه ضربة كثيفة ضد القوات الإسرائيلية في مرتفعات الجولان، حيث فقدت نتيجة لهذه العملية الجريئة طائرة سورية واحدة.

أكدت المصادر العسكرية الموثوقة أن فعالية التشويش الذي قامت به الطائرات السورية لإبطال محطات ورادارات كشف واستطلاع العدو الصهيوني وتوجيه المقاتلات

الإسرائيلية إلى أهدافها، كانت كبيرة جداً ولدرجة أن منظومة الدفاع الجوي الإسرائيلية لم تستطع العمل بفعالية ضد. الطيران العربي السوري بعد هذا التشويش لفترة طويلة.

ينقسم الإبطال الألكتروني إلى إبطال لاسلكي وإبطال الأجهزة الألكترونية من جهة، وإبطال فترة عمل الأجهزة نفسها من جهة ثانية، حيث يتم هذا بواسطة أجهزة التشويش الخاصة، التي تؤمن التشويش الإيجابي والسلبي اليوم ضد المحطات اللاسلكية، واللاسلكية الفنية، وضد مختلف أنواع الرادارات الأرضية الثابتة، والمتحركة والجوية والمحمولة.

وللتعامل مع أغراض منظومة قيادة القوات المسلحة المعادية من الضروري تنظيم الاستخدام المركب لوسائط الحرب الألكترونية، عن طريق القيام بأنواع التشويش الإيجابي والسلبي، والتضليل بالمعلومات الألكترونية، حيث يتأمن هذا كله بأجهزة التشويش الإيجابي والسلبي المتوضعة غالباً في الوسائط الحربية والمركبات القتالية (سفن السطح)، (الطائرات، الحوامات، الخاملات) وفي مقرات العمل الراداري والألكتروني المختلفة.

ويعطى اليوم دور هام لوسائط تشكيل التشويش السلبي الذي ــ كما يرى المختصون البريطانيون ــ قد برهن على فعالية في حرب فوكلاند التي جرت بين بريطانيا والأرجنتين.

وتتجه الأنظار اليوم إلى تجهيز الوسائط القتالية بمنظومات مركبة تؤمن تضليل العدو، عن إنشاء موقف لاسلكي ــ ألكتروني ــ (استعراضي ــ كاذب).

إن التطوير السريع اللاحق يتجه اليوم تقنياً سواء في مجال خوض الحرب الألكترونية في العملية المشتركة أو الخاصة (بحراً وجواً) لزيادة حساسية أجهزة الاستقبال، وتوسيع مجال عمل الترددات، وتقليص الأزمنة بالنسبة لبعض بارمترات محددة خاصة لاستقبال الإشارات، وزيادة دقة الاسترشاد، وتخفيض وزن وحجم وأبعاد التجهيزات والاستطاعة المطلوبة.

كما يجري التطوير بالنسبة لوسائط الحرب الألكترونية التي تنفذ مهمة الصراع ضد العدو، في مجال زيادة مخزون قدرة أجهزة التشويش الإيجابي وطاقتها، وتوسيع مجالات الترددات العاملة، وتجهيز وسائط إنشاء التشويش في مجال الرؤيا بالبصريات.

٣ ـــ القوات البرية

يؤكد العلم العسكري أن الحرب تكون لصالح الأعمال الهجومية الحاسمة التي تهدف إلى تحطيم قوات العدو. وأن أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم الذي يسمح باختيار زمان خوض الأعمال العسكرية ومكانه. ويتم تحقيق النصر من خلال الاستخدام الجيد لجميع الأسلحة، ومن خلال استخدام أشكال النيران كافةً، وبالأعمال الحاسمة لجميع أنواع القوات وصفوفها. وتعتبر النيران المصدر الرئيسي لإبادة العدو في المعركة. ويكمن بلوغ النصر الشامل بالاستخدام الأعظمي للقوة فقط.

ستكون الحرب البرية عملية معقدة للطرفين المتحاربين، حيث ستستخدم وسائط تدمير وأنظمة صراع مسلح مختلفة ومتكافئة في أدائها وتنسيقها.

ستكون هذه الحرب عبارة عن سلسلة من المعارك التصادمية بين قوات ذات قدرة عالية على الحركة والمناورة على أرض المعركة، وستأخذ أبعاداً كبيرة بالجهة والعمق. في مثل هذه الظروف يمكن استخدام القوات المدرعة في الدور الأساسي فقط. وستكون الدبابة نقطة الثقل فيها، لكنها تحتاج للمرافقة والدعم بالمشاة المدرعة، والمدفعية المحركة، وتحتاج للتغطية بوسائط الدفاع الجوي.

أ ـــ الأسلحة الخفيفة

إن طبيعة الأعمال القتالية في ظروف استخدام الأسلحة الصاروخية النووية واستخدام أسلحة الحرب التقليدية المتطورة، ونتيجة لتخفيض تعداد الأفراد في وحدات المشاة، واختصار أعداد الأسلحة الخفيفة فيها بشكل ملحوظ، تطلب بالتالي تطوير الأسلحة الخفيفة وتعويض النقص في أعدادها على حساب تحسين مواصفاتها القتالية. لقد زاد عرض جبهة أعمال وحدات المشاة الميكانيكية وعمق نطاقها، وخاصة في الدفاع، وهذا يتطلب بدوره تأمين الفواصل بين مناطق الدفاع ونقاط الاستناد والمواضع بالنيران الكثيفة. إن تنامي منظومة النيران المباشرة بوزنها النوعي الكبير، وكثافتها العالية من العربات القتالية وناقلات الجنود المدرعة، يمكن تأمينها أيضاً بمساعدة النيران الكثيفة للأسلحة الخفيفة المتطورة.

لقد أعطت الحرب العالمية الثانية التوجيه لتطوير الأسلحة الآلية ذات معدلات النيران العالية، والمقاييس والأوزان الأصغر من البنادق والرشاشات التقليدية.

وبهذا الشكل أصبح جندي المشاة مجهزاً بباروده آلية، ذات قوة نيران عالية منذ سنين عديدة. ومنذ الخمسينيات توجهت دول حلف الناتو وحلف وارسو باتجاه توحيد عيار البنادق والذخائر.

في عام ١٩٥٣ استخدمت معظم دول حلف الناتو بندقية من تصميم بلجيكي FAL عيار ٧٫٦٢ مم، ويبلغ وزنها ٤٫٥ كغ مع مخزن يتسع لعشرين طلقة. وتعتبر من البنادق الأكثر نجاحاً، والمستخدمة على نطاق واسع في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ـــ **في أميركا** تم تسليح القوات البرية والمشاة البحرية بالبارودة الآلية طراز م ـــ ١٦ عيار ٥٫٥٦ مم ذات مدى رمي فعال ٦٤٠ متراً ويبلغ وزنها ٣٫٧٢ كغ مع المخزن الذي يتسع لثلاثين طلقة.

ـــ في ألمانيا الغربية تنفذ التجارب على البندقية الآلية س ـــ ١١ من عيار ٤٫٧ مم تستخدم فيها الطلقات المصنوعة من المواد الخفيفة ودون أغلفة. طول البندقية ٧٥ سم وزنها ٣٫٦ كغ، يتسع مخزنها لـ ٥٠ طلقة.

ويعتزم حلف الناتو استخدام البنادق عيار ٥٫٥٦ مم في الثمانينيات، ومن الممكن أن يختار للفترة اللاحقة البنادق عيار ٤٫٧ مم.

ـــ **في الاتحاد السوفييتي** تم تسليح الجيش في الخمسينيات بالبندقية الآلية كلاشنيكوف آك ـــ ٤٧ عيار ٧٫٦٢ مم. وهي بندقية بسيطة ذات جودة عالية يبلغ وزنها ٤٫٣ كغ مع المخزن الذي يتسع لـ ٢٥ طلقة، تستطيع تنفيذ الإطلاق الآلي ونصف الآلي.

طور السوفييت البارودة آك ـــ ٤٧ وظهرت البارودة المعدلة ذات الأخمص القابل للطي آك ـــ ٤٧م من العيار نفسه ٧٫٦٢ مم.

لقد نجح السوفييت في إنتاج نموذج جديد من البارودة الآلية كلاشنيكوف عيار ٥٫٤٥ مم.

كما تجري في الغرب الإجراءات الهادفة لتوحيد الأسلحة الخفيفة التي تجمع خواص البارودة والرشاش، وقاعدة إطلاق القذائف الصاروخية المصغرة م/د، وحتى الحشوات النووية، وتستخدم فيها الطلقات دون أغلفة، والسهام الحديدية بطول عدة سنتمترات وقطر ٥ر٢ مم، والقذائف الصاروخية والطلقات المتعددة الرصاصات.

وحصل القناصة على نصيبهم أيضاً من التقنية الحديثة، وأصبحوا يستعملون أسلحة خاصة للقنص، وهي بواريد نصف آلية ذات مدى كبير، ومزودة بأجهزة تسديد تلسكوبية قوية، كبارودة القنص السوفييتية طراز س ف د عيار ٦٢ر٧ مم المزودة بجهاز تسديد، يمكّن من تنفيذ الرمي الدقيق على الأهداف الصغيرة البعيدة من مسافة ١٠٠٠ متر وأكثر، في ظروف الرؤية المحدودة.

منذ ظهور الأسلحة النارية للوجود بدأت المحاولات لتحسين فعاليتها خصوصاً في مجال دقة الرمي وسرعته. وأخذ العسكريون يفكرون بأسلحة يستطيع بواسطتها شخص أو اثنان القيام بما كان يفعله عشرة من رماة البندقية القديمة. وجاء أول استعمال هام للرشاش في العام ١٨٧٠ عندما أنتج الفرنسيون رشاشهم ذا السبطانات السبع والثلاثين. منذ ذلك الحين بدأ العسكريون ينظرون إلى الرشاش كسلاح جديد وحاسم، لكنهم لم يتمكنوا حينئذ من وضع الخطط التكتيكية المناسبة لاستعماله. في العام ١٨٨٤ ظهر أول رشاش آلي بالمعنى الصحيح، وسمي باسم مخترعه الأميركي مكسيم. تابعت مختلف الدول تطوير هذا السلاح حتى شهد عصره الذهبي في سنوات الحرب العالمية الأولى، حيث أنشئت مدارس خاصة لتدريب رماة الرشاشات. وبرزت فكرة تجميع الرشاشات في وحدات اختصاص. وفي عام ١٩١٥ ظهر سلاح الرشاشات كنوع من أنواع القوات البرية، وأنشئت للرشاشات ملاجىء خاصة لحمايتها، ومع أنها كانت تعتبر سلاحاً دفاعياً فإن قيمتها في الهجوم كانت كبيرة.

بعد الحرب العالمية الثانية وجدت غالبية الدول العظمى أن لديها كميات ضخمة من هذا السلاح، جعلتها تحجم عن إدخال تغييرات كبيرة عليه. وسارت عمليات تطويره ببطء شديد. ولم تظهر الأسلحة الجديدة منه إلا بعد الحرب الكورية، عندما زود الانكليز قواتهم برشاش للأغراض العامة الذي تستخدمه أيضاً بلجيكا. وكذلك فعل الأميركيون باعتماد الرشاش م ـ ٦٠. أما فرنسا فقد اضطرت في حربها مع الهند الصينية

لاستخدام رشاشات أخذتها من مصادر حليفة خاصة، كألمانيا الرشاش م ج ــ ٤٢، لكنها أتمت صنع رشاشها ذي الأغراض العامة آ آت ــ ٥٢. وعندما عادت ألمانيا لتسليح قواتها استخدمت رشاشاتها السابقة م ج ــ ٤٢، وأجـرت عليها بعض التعديلات، وما زالت مستخدمة باسم م ج ــ ٣.

في الاتحاد السوفييتي يعتبر إنتاج الرشاش ر ب ك على أساس البنـارودة كلاشنيكوف خطوة هامة في توحيد السلاح الخفيف. ويعتبر من أفضل الرشاشات في العالم، بسبب خفة وزنه ودقته العالية في الرمي. وقد زوِّد بالأخمص المطوي لتصغير قياساته، وتأمين سهولة استخدامه من قبل القوات الخاصة، وقوات الإنزال الجوي.

وظهر الرشاش ب ك من عيار ٧٫٦٢ الذي تستخدم فيه طلقة البارودة العادية من أجل زيادة عمق التأثير على العدو. وهو يجمع قدرة المناورة العالية للرشاشات الخفيفة وقوة النيران الكثيفة للرشاشات الثقيلة، ويعمل بوثوقة دون أعطال. لقد أمنت هذه المواصفات مجالات واسعة لاستخدام هذا الرشاش على العربات القتالية وناقلات الجنود المدرعة، وفي وحدات المشاة كسلاح منقول عادي. يؤمن تصميم قاعدة الرشاش استخدامه في الأراضي العشبية والثلجية وفي الجبال، ويسمح بتنفيذ الرمي الفعال على المسافات البعيدة. وكذلك على الأهداف الجوية.

أدى تعديل الرشاش الثقيل ب ك ب السوفييتي إلى ظهور الرشاش الثقيل الجديد س ك ب الذي أصبح أخف من الرشاش السابق بمرة ونصف مع المحافظة على مواصفاته وميزاته.

إن ظهور البارودة الآلية بمواصفاتها العالية في تسليح جميع جيوش الدول، ومع ظهور وسائط مكافحة الأغراض المدرعة الأكثر تأثيراً ومناورة، لم تعد الرشاشات الثقيلة تجد الاستخدام الواسع في ميدان المعركة. وانحسر دور رشاشات المشاة تدريجياً، وصارت الرشاشات المتوسطة تستخدم على الدبابات والعربات المدرعة والرشاشات الثقيلة تستخدم لمكافحة الأهداف الجوية.

ب ــ المدفعية

تعتبر المدفعية أكبر صانع للضحايا في حروب القرن العشرين السابقة. ولم

ينحسر دور المدفعية مطلقاً بظهور الأسلحة الصاروخية النووية، كوسائط نيران أساسية في ميدان المعركة، وإنما أصاب تطور المدفعية بعض الجمود، ولم تتغير منذ الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الخمسينيات، حيث اتجه كلا حلفي الناتو ووارسو نحو التأكيد على الأسلحة النووية بدلاً من التقليدية، في تلك الفترة نسقت كميات كبيرة من المدافع، وخاصة من القوات السوفييتية.

أدى إدخال السلاح الصاروخي النووي، وخاصة في المستويات التكتيكية إلى التحسين المستمر لوسائط الصراع المسلح، ووضعت أمام المدفعية متطلبات جديدة لتطويرها اللاحق. تتلخص أهم هذه المتطلبات في زيادة مدى الرمي، وقدرة المناورة، وإنتاجية النيران، وخفة الوزن، وتأمين الحماية لأفراد الطاقم من تأثير الأسلحة التقليدية بشكل عام والأسلحة النووية بشكل خاص.

من أهم التحسينات التي أجريت على المدفعية من أجل زيادة قدرتها على المناورة كانت باتجاه إعطاء المدفع إمكانية الحركة الذاتية، دون الحاجة إلى القطر، وذلك بتركيبها على عربات مدرعة مجنزرة. وهذه الميزة تمكن المدفعية من مرافقة الدبابات في ميدان المعركة، وتمكنها أيضاً من التمتع بسرعة رد الفعل، حيث تستطيع فتح النيران من الحركة أو بعد حوالي دقيقة من الوقوف، ويستطيع بعضها تنفيذ الرماية الدائرية، والمناورة مباشرة بعد الرمي (اتباع تكتيك أطلق وانسحب)، وقابلية التمويه بسهولة، بينما يحتاج المدفع المقطور إلى حوالي نصف ساعة لتجهيزه بعد الوقوف، وتقدم المدافع الذاتية الحركة الحماية للأطقم من شظايا الأسلحة الخفيفة، وبعضها يقدم الحماية ضد الأسلحة الكيميائية والبيولوجية.

بدأ تطوير المدفعية الذاتية الحركة عشية الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، حيث ركبت المدافع على هياكل الدبابات لتسمح للدعم الناري بالمحافظة على مرافقة الهجوم المدرع السريع. ودخل المدفع السوفييتي ذاتي الحركة سو ــ ١٤. المركب على الدبابة ت ــ ٣٥ في المعركة في عام ١٩٤٠، كما دخل المدفع الأميركي الذاتي الحركة م ــ ٧ المركب على الدبابة م٢ في الخدمة عام ١٩٤٢.

استمر تطوير المدافع الذاتية الحركة بعد الحرب العالمية الثانية بوتائر عالية، وتم تصنيعها بأعداد كبيرة، ودخلت في تسليح القوات المسلحة في معظم دول العالم،

وحلت محل المدفعية المقطورة. وبالرغم من ذلك فقد أبقت غالبية الدول على قطع من المدفعية المتطورة حتى الآن.

يصنف الأميركيون المدفعية ضمن صنفين أساسيين، مدفعية الدعم القريب، ومدفعية الدعم العام. تنفذ مدفعية الدعم القريب مهام الدعم الناري المباشر للوحدات المقاتلة على الخطوط الأمامية، وتدمير الأغراض على الخطوط الدفاعية الثانية. وفي الدغم العام تسيطر المدفعية على المناطق حتى عمق ٣٠ كم، بينما تسيطر الصورايخ على المسافات الأبعد من ذلك. وفي السنوات الأخيرة جرب رجال المدفعية إيصال طلقات المدافع إلى مسافات أبعد، من خلال الطاقة الذاتية العالية والقذائف الصاروخية، لكنهم قابلوا بعض المشاكل في دقة الرمي والمردود، وفي تمزق السبطانات وانفجار الضغط الزائد على الطاقم.

طورت بريطانيا مدفعيتها، وأنتجت في نهاية الحرب العالمية الثانية المدفع الذاتي الحركة طراز آرشر عيار ٧٦٫٢ ملم. وفي الستينيات أنتجت المدفع الذاتي الحركة طراز أبوت ــ ف ف ــ ٤٣٣ عيار ١٠٥ ملم. وتقوم الآن كل من بريطانيا وألمانيا الغربية وإيطاليا بإنتاج مدفع جديد متطور من عيار ١٥٥ ملم، سيدخل الخدمة بنموذجين، الأول مقطور طرازه ف ن ــ ٧٠، والثاني ذاتي الحركة طراز س ب ــ ٧٠.

في فرنسا تم تركيب المدفع عيار ١٠٥ ملم على هيكل الدبابة ام اكس ١٣ في بداية الخمسينيات. وإنتاج مدفع ذاتي الحركة ام اكس ــ ١٠٥. وفي نهاية السبعينيات تم تطوير الدبابة ذاتها، ليركب عليها مدفع من عيار ١٥٥ ملم. وأنتج المدفع ام اكس ــ ج سي ت. وتقوم فرنسا حالياً بتطوير مدفع حديث من عيار ١٥٥ ملم باسم ت. د.

استمر الاتحاد السوفييتي في الخمسينيات بأعمال البحث الخاصة بتطوير مدفعية الميدان السوفييتية، وأسفرت الأعمال التجريبية لتركيب المدافع على قاعدة متحركة عن ظهور المدفع الذاتي الحركة سو ــ ١٠٠ عيار ١٠٠ ملم في منتصف الخمسينيات والذي لا يزال قيد الاستخدام. وتتابع ظهور الطرازات الأخرى من مختلف العيارات، وتم إنتاج المدفع الخفيف ذاتي الحركة آ ــ و ــ ٥٧ من عيار ٥٧ ملم، الذي يزن حوالي ٣ طن والمدفع آ سو ــ ٨٥ من عيار ٨٥ ملم الذي يزن حوالي ١٤ طناً. وزودت قوات الدفاع

الجوي بهذين الطرازين، لسهولة نقلهما جواً إلى أرض المعركة، وإنزالهما من طائرات النقل العسكرية بالمظلات. كما تم إنتاج المدافع من عيار ١٢٢ ملم بنموذجين، المقطور من طراز د ـ ٧٤، وذاتي الحركة من طراز سو ـ ١٢٢ والمدافع ١٥٢ ملم بنموذجين أيضاً، المقطور من طراز د ـ ٢٠، وذاتي الحركة من طراز سو ـ ١٥٢. وتم تطوير وسائط القطر بحيث استخدمت القاطرات المجنزرة للقطر في ميدان المعركة، وعربات القطر على عجلات للمسافات البعيدة. ووضعت المدافع القذافة الجديدة من العيارين في تسليح وحدات المدفعية ضمن قوام تشكيلات القوات المدرعة والميكانيكية، لزيادة مدى نيرانها وقدرتها على المناورة، ولزيادة فعالية مدفعية هذه التشكيلات.

إن استخدام الدبابات الكثيف في الأعمال القتالية، وزيادة سماكة درعها، وقدرتها العالية على الحركة والمناورة، تطلب تطوير المدفعية م/د لزيادة قدرتها على خرق الدروع، وذلك بزيادة السرعة الابتدائية للطلقة، وباستخدام القذائف ذات الحشوة الجوفاء، وباستخدام السبطانات القصيرة والمدافع عديمة التراجع، وبتركيب هذه المدافع على هياكل الدبابات لتكون ذاتية الحركة. وأدى ذلك إلى الحصول على مدافع ثقيلة من أجل الوصول إلى سرعة ابتدائية عالية وقوة نفاذ للطلقة.

من هذا العرض نرى أن المدفعية تطورت بشكل ملموس منذ الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا. لكن التطورات التي حصلت في ذخائر المدفعية ومنظومات قيادة نيرانها كانت أكبر وأوسع، وأدت إلى زيادة دقة رمايات المدفعية وفعاليتها، وتعدد أوجه استخدامها. وأصبحت المدفعية قادرة على إطلاق القذائف الشديدة الانفجار وذات الحشوة الجوفاء والدخانية والمضادة للدروع والأشخاص، باستخدام التوجيه الليزري، واللاسلكي، والأشعة تحت الحمراء، وباستخدام مبدأ التوجيه الذاتي إلى الهدف عند الانطلاق، أو في المرحلة النهائية من طيران القذيفة على محركها.

يستخدم الأميركان حالياً القذائف م ـ ٥٤٦ المضادة للأشخاص التي تحتوي كل قذيفة منها ٨٠٠٠ شظية سهمية. والقذائف م ـ ٤١٣، م ـ ٤٤٤ التي تحتوي رمانات صغيرة ضد الأشخاص. وأعار الأميركان اهتماماً خاصاً لتطوير (القذائف التقليدية المحسنة) التي هي عبارة عن حواضن تقذف ذخائر صغيرة أو عناصر استشعار، من هذه القذائف ما يحمل ٨٨ لغماً ثنائي الغرض، بحشوة مختلطة فعالة ضد

الدروع الخفيفة والعربات والأشخاص، ومنها ما يحمل ٩ ألغام مغناطيسية ضد الدرع. وباستطاعتها كما يقال إيقاف أية دبابة في الوقت الحاضر، وإذا لم تنفجر هذه الألغام على أهدافها فإنها تدمر نفسها ذاتياً بعد فترة معينة من الزمن.

في الجانب الآخر عمل السوفييت أيضاً على تطوير ذخائر المدفعية، واستخدموا منجزات العلم لرفع مستوى (القذائف التقليدية المحسنة).

نظراً للتطور الكبير الذي حصل في المدفعية من حيث قدرة المناورة العالية وإنتاجية النيران الغزيرة وقدرتها، تطلب ذلك تزويدها بوسائط الاستطلاع البصرية والصوتية والرادارية، وبوسائط الاتصال الموثوقة، وتم تزويد وحدات المدفعية بأجهزة الرؤية الليلية وقوائس المسافة المختلفة والليزرية منها، ووسائط الربط الطوبوغرافي الجيوديزى، وبأجهزة التسديد المتطورة التي تعتمد على الحواسب الألكترونية، وذلك للإسراع في عملية إعداد عناصر الرمي، وتحقيق دقة النيران وفعاليتها، بغض النظر عن الوقت من اليوم والفصل من السنة وحالة الجو.

لقد حاصرت التكنولوجيا العصرية المدفعية من عدة اتجاهات، ومن هذه الاتجاهات الهامة المدفعية الصاروخية المعروفة باسم أرغن ستالين. كانت القذائف الصاروخية من أوائل أنواع المدفعية المطورة، وكان يجدد تطويرها من جيل لآخر في محاولات مستمرة للاستفادة من ميزاتها، خصوصاً إمكانية إطلاقها من قواذف خفيفة رخيصة نسبياً. لقد لعب الهجوم بالصواريخ الكثيف دوراً هاماً في مبدأ قوة النيران السوفييتية منذ الحرب العالمية الثانية، باستخدام نظام كاتيوشا. إلا أن هذه النظم كانت تعاني مشكلة دقة الإصابة وخاصة عند الرمي على المسافات البعيدة. لذلك كانت تستخدم من مسافات قريبة لإشباع منطقة محددة بالنيران. والآن تجاوزت المدفعية الصاروخية مشكلة الدقة، وأصبح بالإمكان مقارنتها بأفضل أنواع المدافع التقليدية، وذلك بفضل استخدام مجموعة من تقنيات التصنيع الحديثة.

يملك السوفييت عدة طرازات مختلفة من راجمات الصواريخ من عيار ١٢٢ ملم وحتى ٢٥٠ ملم مركبة على شكل مجموعات حتى ٤٠ صاروخاً. لكن الأكثر شيوعاً منها عيار ١٢٢ ملم طراز ب م ـــ ٢١ ذو ٤٠ سكة توجيه صواريخ، يبلغ مدى إطلاقها

٢١ كم. ويمكن أن ينفذ الإطلاق بصلية واحدة خلال زمن أقل من دقيقة واحدة، أو ينفذ على رشقات منتخبة، يمكن إعادة تذخير قاعدة الإطلاق خلال ١٠ دقائق.

وكذلك تنتج ألمانيا الغربية المدفعية الصاروخية من طراز لارس معتمدة على خبرتها المكتسبة في الحرب العالمية الثانية، وهو من عيار ١١٠ ملم، يركب على العربة ٣٦ صاروخاً، ويبلغ مدى الرمي ١٠ ــ ١٢ كم.

أما دول حلف الناتو التي تتحدث منذ بداية السبعينيات عن تفوق مدفعية حلف وارسو كماً ونوعاً على مدفعيتها، فتعمل حالياً على إنتاج نظام للمدفعية الصاروخية، تشترك في صنعه أميركا وألمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا. وهو عبارة عن قاعدة إطلاق متطورة من طراز م ل ر س تحمل ١٢ صاروخاً من عيار ٢٢٧ ملم، ويبلغ وزن الرأس الحربي للصاروخ ١٥٩ كغ ويحتوي ٦٤٤ قنبلة صغيرة طراز م ــ ٧٧ يبلغ وزن كل منها ٢٣٠ غراماً، وتستطيع الراجمة الواحدة إطلاق ٧٧٢٨ قنبلة صغيرة من صواريخها الإثني عشر خلال أقل من ٦٠ ثانية، ولمسافة ٣٠ ــ ٣٢ كم، لضرب أهداف خفيفة التسليح، كبطاريات المدفعية والصواريخ والمشاة.

أدت البحوث المتواصلة لتطوير وسائط المشاة الفردية المضادة للدبابات إلى إنتاج الصواريخ الموجهة م/د. استنبطت هذه الصواريخ بشكل رئيسي من قواذف البازوكا الأميركية و البانزر فوست الألمانية و ر ب ج ــ ١٢ الروسية، التي لعبت دوراً جيداً للصراع ضد الدبابات في الحرب العالمية الثانية، وكانت تستخدم من قبل جندي واحد. وتتألف من سبطانة إطلاق كتفية وصاروخ ذي جناحات استقرار صغير الحجم، له رأس حربي بشحنة مختلفة. كان احتمال الإصابة منخفض جداً، لكن حتى بهذه الوسطة الابتدائية كان يمكن لجندي المشاة حماية نفسه، وخاصة عندما يتواجد وسط عدد من دبابات العدو.

أدخلت التحسينات الأولية على هذه القذائف، وأصبحت تقاد بواسطة سلك على الأرض من الصاروخ باتجاه الهدف، حيث يجب أن يبقى الهدف على مرأى الرامي باستمرار، وأن يتابع توجيه الصاروخ بالسلك بواسطة عصا قيادة خاصة حتى اصطدامه بالهدف. ونفذت التجارب الأولى لهذه الصواريخ في أواخر الحرب العالمية الثانية، ولم

توضع بالخدمة إلا في أواسط الخمسينيات في عدة دول بآن واحد. وهكذا نشأ الجيل الأول من الصواريخ الموجهة م/د.

تستخدم جيوش حلف ناتو الصواريخ الموجهة م/د من الجيل الأول من طرازات س س ـ ١٠، س س ـ ١١، فيجيلانت، دارت، كوبرا ومن الجيل الثاني من طرازات هاربون، هوت، ميران، دراغون، سونغ فاير، تاو.

أنتج الاتحاد السوفييتي عائلة كبيرة من الصواريخ الموجهة م/د التي يطلق عليها حلف الناتو الرمز (آ ت). ويتضمن الجيل الأول الطرازات آت ـ ١ سناير، آت ـ ٢ سواتر، آت ـ ٣ ساغر، ويعتبر الصاروخ ساغر أكثرها شهرة وأعمها استخداماً. ويضم الجيل الثاني الطرازات آت ـ ٤ سبيجوت، آت ـ ٥ سباندرل. بالإضافة لذلك ما زالت تستخدم القذائف م/د، ر ب ج ـ ٧ التي طورها السوفييت عن القذائف ر ب ج ـ ٢ بالمدى وقدرة الخرق، وهي عبارة عن قنبلة صغيرة نفاثة ذات حشوة جوفاء مع جهاز إطلاق بسيط.

تعمل أميركا على إنتاج الجيل الجديد للصواريخ الموجهة م/د من طراز أهامز و هيلفاير المخطط له أن يحل مكان الصاروخ تاو. وقدم الاتحاد السوفييتي عائلة خاصة من هذا الجيل، والأكثر شهرة منها الصاروخ آت ـ ٦ سبيراك.

ما زالت مدافع الهاون كما كانت في السابق تحتل مكاناً هاماً في سلاح المدفعية، وذلك بفضل قدرتها التكتيكية العالية على الحركة، وقوة تأثيرها، ورخص كلفتها، وسهولة صنعها وصيانتها. بقيت عدة طرازات منها قيد الاستخدام في معظم الجيوش إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية لاستخدامها في قتال المشاة القريب. وتتراوح عيارات مدافع الهاون ما بين الخفيف والثقيل من ٦٠ ملم وحتى ٢٤٠ ملم. والأكثر شيوعاً في الاستخدام في الوقت الحاضر من عيار ٨١ ملم و١٢٠ ملم.

ج ـ العتاد المدرع

لقد خلقت الدبابة، كواسطة من وسائط الصراع المسلح، ثورة في الفن العسكري، وغيرت طبيعة الحرب بشكل جوهري خلال القرن العشرين، لامتلاكها قدرة

الحركة والمناورة والحماية بواسطة الدرع، بالإضافة إلى قدرة نيران مدفعها. هذه الثورة لم تكن واضحة إطلاقاً عندما ظهرت الدبابة لأول مرة على أرض المعركة في عام ١٩١٦، بعد أن صنعتها إنكلترا وفرنسا لمجابهة المعضلات التكتيكية في ذلك الحين عن مهاجمة خنادق العدو. لقد برهنت الدبابة عن نجاحها التكتيكي عندها تمكنت الدبابات البريطانية من كسر جمود حرب الخنادق في معركة كمبري عام ١٩١٧، إلا أنها لم تستطع آنذاك تحطيم القيود التقليدية للحرب العالمية الأولى، وإعادة قدرة الحرب على الحركة، لأنها زجت في المعركة دون التفكير باستخدامها التكتيكي. وبعد ظهور الدبابات بفترة وجيزة بات جلياً أنها قادرة على الاضطلاع بمهام أخرى، كتقديم الدعم القريب للمشاة، واستثمار النجاح بعد الخرق.

لقد أدرك بعض المفكرين العسكريين حينئذ كالجنرال فولر، والكابتن ليدل هارت، والكولونيل ديغول، والجنرال ايتان في فرنسا، والجنرال غودريان في ألمانيا والمارشال توخاتشيفسكي في الاتحاد السوفييتي، أن للدبابات إمكانات أوسع، إذ باستطاعتها أن تكون السلاح الرئيسي للقوات البرية في المستقبل. لذلك راحوا يطالبون بإعادة تنظيم الجيوش حول الدبابات. إلا أنه لا بد من إدخال تحسينات كثيرة على الدبابة، قبل أن تصبح هذه الإمكانية قابلة للتحقيق. وتم إحراز تقدم كبير في صنع الدبابات خلال العشرينيات، ومطلع الثلاثينيات. وعملت هذه التحسينات في زيادة سرعة الدبابة، وتطوير مدفعها. وتم إحراز تقدم في إنشاء تشكيلات تعتمد على الدبابات. وكان أنجحها فرق اليانزر الألمانية التي لعبت دوراً حاسماً في الحرب الخاطفة ضد بولونيا عام ١٩٣٩، وضد فرنسا عام ١٩٤٠. في هذه المعارك، والمعارك اللاحقة من الحرب العالمية الثانية أظهرت الفرق المدرعة أنها تملك من حرية الحركة والقوة الضاربة أكثر بكثير من فرق المشاة التي كانت الركيزة الأساسية للجيوش حتى ذلك الحين. وزادت أعداد فرق الدبابات في الجيوش.

على الرغم من الدور الحاسم الذي لعبته الدبابات في الحرب العالمية الثانية فإن مستقبلها كان في كثير من الأحيان موضع تساؤل، حيث واجهت خلال الحرب تحديات كبيرة. فقد حصل المشاة مؤخراً في الحرب على أسلحة مضادة للدبابات مثل البندقية عديمة التراجع و البازوكا و البانزرفوست و ر ب ج ــ ٢ التي تطلق الذخائر ذات

الحشوة الجوفاء ضد الدروع. وقد كانت الدبابة قابلة للسقوط أيضاً تحت تأثير الهجوم الجوي على الارتفاعات المنخفضة، وحيث أن الحرب تتقدم وجد المقاتلون أنه من الضروري أن تقوم المشاة أكثر فأكثر بمرافقة الدبابات وتقديم الدعم المدفعي وتأمين التغطية الجوية لها. وحتى أصحاب مدرسة فكر (التشكيلات المدرعة) وجدوا في بعض الفترات أن الدبابة ميئوسٌ منها بسبب سقوطها قبل وصولها للعدو.

في بداية الخمسينيات ظهرت أسلحة جديدة ضد الدبابات كالأسطوانات ذات الشحنات شديدة الانفجار. فعندما ينفجر غلافها على سطح الدرع تشكل حرارة عالية من الغازات المنتشرة منها، وتحرق الدرع كالشعلة، وتؤثر على داخل الدبابة بالقدرة الحرارية الناتجة عن الاحتراق. وأدخل الفرنسيون في تلك الفترة جيلاً جديداً من هذه الأسلحة وهي الصواريخ م/د الموجهة بالسلك. وأصبحت لاحقاً تزود برؤوس قتالية ذات شحنة مختلطة، تؤدي إصابتها إلى قتل الدبابة. وهذا ما دفع المحللين العسكريين إلى أن يقولوا: «حانت جنازة الدبابة» حيث بدا أن القذائف م/د الجديدة جعلت الدبابة قابلة للسقوط أمام العدو.

تقدم تطور الدبابة في اتجاه زيادة فعالية استخدامها في ظروف الحرب الحديثة، وأصبحت تمتاز بحيوية عالية، وتؤمن حماية مضمونة لطاقمها من تأثير الأسلحة النووية. وتمتلك قوة ضاربة كبيرة ونيراناً دقيقة مسددة، وقدرة مناورة عالية، وتعتبر الواسطة الرئيسية لاستثمار نتائج ضربات الأسلحة النووية.

فمن أجل رفع حيوية دبابة المعركة الحديثة أمام الانتشار الواسع لوسائط م/د الحديثة ولحمايتها من قوة النيران المتزايدة من نظيراتها، نجح المصممون في تأمين الوقاية للدبابة، بالجمع والملاءمة بين سماكة الدرع ونوعيته وأبعاد الجسم والبرج والشكل الجانبي، والشكل العام للدبابة بآن واحد بأسلوب ماهر.

يتفق المنظرون العسكريون في العالم على أن قدرة الدبابة على المناورة واحدة من أهم الميزات القتالية التي يجب أن تتمتع بها إلى جانب تدريعها وأسلحتها. والمناورة تعني حركية الدبابة، وقدرتها على الإقلاع وبدء الحركة والتحرك بسرعة على الطرق والأراضي الصعبة، وتنفيذ الدوران وتبديل الاتجاه واستقرار الجسم في أثناء الحركة، وتخميد الاهتزازات ومدى العمل. ويبدو أن وجهة نظر المصممين والقادة العسكريين تهدف إلى زيادة قدرة حركية

الدبابة ، لاحتمال الإصابة الأولى ، وتجنب القتل منها . وبذلك تحقق الحماية الأفضل من الدرع السميك .

تستخدم الدبابات الحديثة محركات قوية جداً ذات استطاعة كبيرة . وفي بعض الأحيان أكثر من محرك واحد . وكانت استطاعة محرك دبابة الحرب العالمية الأولى لا تتجاوز ١٠٥ أحصنة بخارية ، وتسير بسرعة عظمى ٤ كم/ سا ، بينما تبلغ استطاعة محرك الدبابة الحديثة ابرافر م ــ ١ مثلاً ١٥٠٠ حصان بخاري وتسير بسرعة تعادل ٧٠ كم/ سا تقريباً . وفي بعض الحالات تركب المحركات من الأمام للمحافظة على حياة الطاقم في حالة التعرض للإصابة الأمامية .

من أجل تحقيق مناورة أفضل للدبابة تم تحسين أجهزة نقل الحركة ، باستخدام محول عزم هيدروليكي في الفاصل الواصل ، واستخدام فاصل واصل إضافي ، وتركيب علبة سرعة هيدروليكية أو هيدروكهربائية ذات سرعات أمامية وخلفية أكثر . وتم تحسين المقود باستخدام المقود الهيدروديناميكي بدلاً من الهيدروستاتيكي ، وتحسين جهاز السبر ، وجهاز التعليق المتغير المزود بمخمدات هيدروهوائية ، الذي يرفع الجسم بين الجنزير ، وبذلك يجعل الدبابة تأخذ وضعية الجسم الغاطس بسهولة وتحافظ على استقرارها ، خاصة عند السير على الأرض الوعرة ، ويساعدها في تحسين القدرة على الحركة التي كانت محدودة في الدبابات السابقة بسبب الوزن . ومثل هذا التعليق متوفر في الدبابة ايرافر ام ــ ١ ، والدبابة ت ــ ٨٠ .

وتعتبر الدبابات السوفييتية هنا مثالاً حياً للتطور الذي لحق المدافع المركبة عليها ، والذخائر المستخدمة بواسطتها . ففي الخمسينيات تم تركيب المدفع عيار ١٢٢ ملم الجديد آنذاك وجهاز استقرار للمدفع ذي مستويين يؤمن نسبة احتمال في الإصابة حتى ٨٠ ــ ٩٢٪ عند تنفيذ الرمي من الحركة . وفي العام ١٩٧٥ بدأ استخدام المدفع ٧٦ ملم على النموذج المعدل للدبابة البرمائية ب ت ــ ٧٦ البرمائية الخفيفة .

لكن السنوات الأخرى اللاحقة عرفت تطوراً عاصفاً في هذا الميدان من أجل زيادة سرعة رمي المدفع ، وبهدف الوصول إلى فاعلية أكبر في مجال خرق الدرع .

وهكذا ظهرت المدافع من عيار ١٢٠ ملم للدبابة الانكليزية طراز تشيفتن

والأميركية اكس م ـ ١ والمدافع الروسية عيار ١٢٥ ملم للدبابة ت ـ ٧٢، حيث تم التوصل إلى هذا باستخدام السبطانة المتدرجة في القطر، أو باستخدام قذائف ذات عيار صغير ضمن غلاف خارجي، والتي تسقط بعيداً بعد إطلاق الطلقة والمعروفة (بالسباط المبوذ).

وقد طور السوفييت في المجال نفسه القذائف السهمية المثبتة بواسطة جنيحات.

توصلت ألمانيا الغربية والاتحاد السوفييتي إلى المدفع ذي الماسورة الملساء. وتنشأ حركة الخروج من السبطانات المحلزنة من حقيقة أن الدوران اللولبي يميل إلى الإقلال من النفاذ عن طريق نشر تدفق الانفجار الشديد ضد الدبابة (HEAT)، من جراء الدوران اللولبي. وكذلك فإن وزن المواسير الملساء أقل. وتعطي ارتداداً إلى الخلف أقل، ولا تتعرض إلى الاهتراء بالسرعة نفسها للأنابيب المحلزنة. لكن السيئة هنا تبدو في أن المواسير الملساء تعطي مدى أقل، ولا تستطيع إطلاق جميع أنواع الذخائر، أما طلقات القدرة الحركية ذات نبذ الأغلفة لزيادة سرعة فوهة المدفع، والمحافظة على السرعة على طول مسار القذيفة فتعتبر حالياً قياسية.

إن الدبابات الأكثر تطوراً تستخدم أجهزة التكبير الضوئي، والأشعة تحت الحمراء السلبية من أجل تأمين الأعمال القتالية الليلية بفعالية أكبر.

إن التقدم الجوهري الآخر الذي أحرزه مدفع الدبابة منذ الحرب العالمية الثانية هو الموازنة بين برج الدبابة والمدفع. وهي موازنة تسمح للرامي بأن يرمي من الحركة، وظهور المساعدات الضوئية المحسنة، والتي تسمح لكل من القائد والرامي بالمشاهدة. ويوجد الآن عدد أكبر من الأجهزة المعقدة، والتي تم تطويرها مثل نظام (سيمفاير) اللايزري الداخل في تركيب الدبابة شيفتن البريطانية، حيث يستخدم هذا النظام (برجكتوراً لايزرياً) محاذياً لرؤية السبطانة، يطلق طلقة مقلدة، فترتد بإرسال معلومات عن الإصابة فوراً، مما يساعد على أن تكون الطلقة الحقيقية محققة. واليوم تجري في الدول الغربية، وعلى الأخص في الولايات المتحدة الأميركية وألمانيا الغربية أعمال متواصلة لزيادة سرعة الرمي من المدافع، وتوجيه الرمايات إلى الهدف، وتحقيق دقة النيران، واستخدام الظروف المحترقة، وإيجاد المواد المتفجرة الأكثر فعالية. وتطوير المساعدات الضوئية المختلفة.

ومنذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن تجري في الدول الغربية بنشاط ملحوظ أعمال البحوث العملية الرامية إلى تزويد الدبابات بمختلف قواعد إطلاق الصواريخ. ومع هذا وحتى نهاية السبعينيات كانت غالبية الأنواع الرئيسية للدبابات الأجنبية مزودة بالمدافع، ولم تجد الصواريخ الموجهة م/د وحتى منها تلك المرمية من سبطانة المدفع، انتشاراً واسعاً.

تتمركز الأعداد الكبيرة للدبابات في حلفي الناتو ووارسو، حيث يقدم كل طرف آخر ما توصل إليه في تقنية الدبابة. فالولايات المتحدة الأميركية انتقلت منذ أواخر السبعينيات لتبديل الدبابات من طراز م ــ ٤٨، وم ــ ٦٠ بأخرى جديدة من طراز م ــ ٦٠ آ ٣ التي تشكل اليوم ٧٠٪ من تعداد الدبابات الأميركية العاملة.

ومع مطلع الثمانينيات بدأت بإنتاج الدبابة الأميركية م ــ ١ ايرامز التي جاءت تتويجاً لمحاولة التوصل إلى أداء فائق ومتميز من جميع الأوجه، في مركبة واحدة، وإيجاد حلول جديدة لمقاييس الفاعلية القتالية للدبابات ــ أي القوة النارية والحركية والوقائية.

قدمت ألمانيا الغربية الدبابة ليوبارد ــ ٢ التي امتازت ولأول مرة في العالم الغربي كله بالخصائص القتالية الثلاث التي يحاول الأميركيون الآن الوصول إليها في دبابتهم ابرامز. مدفع الدبابة الألمانية هو من عيار ١٢٠ ملم أملس السبطانة وتدريعها فولاذي مقسى.

قدمت بريطانيا الدبابة تشوبهام م ب ت ــ ٨٠ وتشيفتن المطورة ٩٠٠ وتشالنجر، وفيكرز فاليانت، ودبابة الاستطلاع من طراز سكوربيون. أما فرنسا فقدمت الدبابة ام اكس ــ ٣٢، وام اكس ٤٠ التي ظهرت في معرض ساتوري للأسلحة في شهر حزيران عام ١٩٨٣.

إن الدبابة السوفييتية ت ــ ٧٢ تعادل وربما تتفوق على الدبابة الألمانية الغربية ليوبارد ــ ٢ والأميركية ابرامز.

وعلى كل حال فإن الناتو يحذر اليوم من معارك الدبابات المقبلة، ويرى ضرورة مواجهة الدبابة السوفييتية ت ــ ٧٢ التي سيطرأ عليها تعديل جوهري، والدبابة ت ــ ٨٠ بأحدث ما ستنتجه الدول الأعضاء لديه.

والإسرائيليون بدورهم حسَّنوا أولاً الدبابة سنتوريون التي حصلوا عليها في الأعوام ١٩٥٩ ـــ ١٩٦٠ ، وتمكنوا من إجراء توحيد قياسي في التسليح والمحرك ، وبعض قطع الغيار بالنسبة لدباباتهم المستخدمة ، وفَّر لهم سهولة في الاستثمار والإمداد .

في السبعينيات فكر الإسرائيليون بشراء كلٍ من الدبابة الإنكليزية تشيفتن والألمانية الغربية ليوبارد ـــ ١ إلا أن الصفقة لم تتم ، فعمدوا إلى إنتاج دبابة تحت اسم سابرا ما لبثوا أن تخلوا عنها وصمموا دبابتهم ميركافا . وقدمت واشنطن معونة لإسرائيل من أجل إنتاجها وصلت إلى ١٠٠ مليون دولار .

استفاد مصمميها الجنرال تال من خبرة حربي حزيران ١٩٦٧ وتشرين الأول ١٩٧٣ ، ومن أحدث التقنيات الغربية في مجال التدريع ، وأجهزة قيادة النيران والمدفع والذخيرة . كما تأثر تصميمها بالمذهب العسكري الإسرائيلي الذي يفضل الأسلوب الدفاعي من وراء تحصينات منيعة ، وتحقيق أكبر الفرص الممكنة للمحافظة على حياة الطاقم .

لكن دبابة المستقبل تتجه لتلافي جميع السلبيات والنواقص ونقاط الضعف التي ظهرت بها حتى عام ١٩٨٥ . إنها ستكون دبابة ذات قوة نارية عالية وقدرة حركية كبيرة . ووقاية تدريع رخيصة ، وحماية ذاتية من مختلف الأخطار الكيميائية والنووية والجرثومية والتلفزيونية .

حجم الدبابة المقبلة سيكون صغيراً ومحمياً بتدريع قوي ، ومجهزة بمدفع مزدوج السبطانة ، ومحركها من الأمام .

لكن الدبابة لن تقاتل بمفردها ، حيث وضع انتشار استخدام السلاح النووي قوات المشاة الميكانيكية أمام ضرورة تنفيذ الأعمال القتالية بنجاح في منطقة تأثيره ، وهو ما دعا بدوره إلى ظهور العربة القتالية المدرعة المزودة بسلاح قوي قادر على العمل في ظروف تأثير عوامل الإصابة بالسلاح النووي .

إن عربة المشاة القتالية ب م ب تتصف بالمرونة والحركية والتدريع ، وتمكن الطاقم من استخدام الأسلحة الفردية من الحركة بشكل فعّال ، وتنفيذ الركوب والترجل بسرعة وسهولة .

إن كلا الجانبين : الغربي والشرقي قد كرس عائلات معقدة لمركبات خاصة لدعم الدبابة في أثناء تنفيذها لمهامها القتالية . وتأتي عربات المشاة القتالية الميكانيكية في مقدمتها .

كتب المارشال ديساكس في القرن الثامن عشر يقول : «على الأرجح يقع كامل السر في المناورة والحركة» . وهذا القول اليوم أكثر حقيقة من أي وقت مضى ، فكما يركز تكتيك الهجوم أكثر فأكثر على الدبابة ، يجب على المشاة أيضاً التمتع بالقدرة على الحركة من أجل المحافظة على مستواها والمساعدة على حماية الدبابة من خصومها .

٤ ــ القوات الجوية

بدأ استخدام الطيران في المشاريع التدريبية قبل بداية الحرب العالمية الأولى في الأعوام ١٩١٣ ــ ١٩١٤ ، واقتصر استخدامه حينذاك في تنفيذ مهام السطع الجوي .

بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، ومنذ بدايتها بدأت الأطراف المتحاربة في استخدام الطيران على نطاق واسع .

نفذ الطيران خلال الحرب العالمية الأولى مهام الاستطلاع وضرب الأهداف الأرضية والصراع مع طائرات العدو في الجو ، كما استخدمت لتأمين الاتصال .

اعتبر السطع الجوي من المهام الرئيسية للطيران في ذلك الوقت وكان ينفذ بالنظر بشكل عام ، وبطريقة التصوير للأغراض الهامة ، وذلك بغية كشف توضع القوات والأغراض ، ومعرفة نيّات العدو . واستناداً لدراسة معلومات السطع وتحليلها اتخذ القادة العسكريون القرارات المناسبة مما أثر بشكل كبير على نتائج الأعمال القتالية .

استخدم الطيران لقصف الأغراض العسكرية . وقد شمل ذلك المطارات ومحطات السكك الحديدية والموانىء ، بالإضافة إلى ضرب القوى الحيّة في الحدّ الأمامي والمؤخرة في المدى التكتيكي .

خلال عامي ١٩١٥ ــ ١٩١٦ بدأ استخدام الطيران للتصدي لطائرات السطع والقاذفات ، وبشكل محدود ، نظراً لعدم توفر تجهيزات التسليح والتسديد والاتصال في

الطائرات، بالإضافة لانعدام القيادة من الأرض. وأسندت للطيران أيضاً مهمة تأمين الاتصال. وقد نفذت هذه المهمة طوال فترة الحرب العالمية الأولى، وكانت من المهام الرئيسية للطيران، نظراً لاتساع الأعمال القتالية، وعدم توفر وسائط الاتصال.

بدأ استخدام الطيران البحري خلال الحرب العالمية الأولى عندما تم صنع سفن ناقلة للطائرات كانت مهمتها نقل الطائرات إلى عرض البحر وإنزالها في الماء لتقوم بعد ذلك بالإقلاع والهبوط فوق سطح البحر وكانت مهمة هذه الطائرات إجراء السطع وقصف الأغراض على الشواطىء وفي الموانىء.

في عام ١٩١٦ استخدمت الطائرات البحرية الروسية لأول مرة في التاريخ، لضرب ميناء بحري، وضرب الطيران المعادي في المطارات. وقد تطور استخدام الطيران البحري بعد ذلك ليشمل تنفيذ مهام تأمين عمليات النقل البحري سطع ـ تغطية.

بالإضافة للطائرات تم استخدام المناطيد الهوائية خلال الحرب العالمية الأولى، لتنفيذ مهام الاستطلاع وقصف القنابل.

عند انتهاء الحرب العالمية الأولى كان لدى روسيا حوالي ١٠٣٩ طائرة، وفي ألمانيا ٢٧١٠ طائرات، وفي انكلترا ١٧٥٨ طائرة، وفي فرنسا ٣٣٢٠ طائرة. وبالرغم من أعداد الطائرات التي امتلكتها الأطراف المتحاربة، واستخدمتها خلال الحرب فقد كانت إمكاناتها القتالية محدودة نسبياً وبشكل عام، لكون الطيران في بداية تطوره، وبالتالي لم تتوفر الأسلحة والتجهيزات المناسبة. فقد كانت القنابل تسقط باليد فوق أهدافها في معظم الأحيان، ولم تتوفر أجهزة التسديد البسيطة إلا في بعض الطائرات القاذفة الكبيرة، كما أن الدلالة على الأهداف كانت تتم في معظم الأحيان بواسطة إشارات على الأرض تشير إلى اتجاه الأهداف، أو بتعليم الأهداف برمايات المدفعية.

في بداية الحرب العالمية الثانية ظهرت الحاجة الماسة إلى تنفيذ العمليات الحربية بإشراك جميع أنواع القوات المسلحة. ولأول مرة في تاريخ الحروب فقدت القوى البرية والبحرية الاستقلالية في خوض الأعمال القتالية، وارتبطت أعمالها بالقوة الثالثة، وهي القوى الجوية.

نفذ الطيران خلال الحرب العالمية الثانية المهام القتالية التالية :

ـــ كسب السيطرة الجوية

في بداية الحرب العالمية الثانية كان الطيران الألماني يمتلك قوة ضاربة تؤمن له الوصول إلى مدى كبير، بالإضافة لقدرة نارية كبيرة، وبفضل ذلك تمكنت القوات الألمانية من تحقيق المفاجأة. ونتيجة لتعاون الطيران مع المدرعات والقوات الميكانيكية والقوى البحرية حققت السيطرة على مناطق شاسعة، ونفذت عمليات حربية واسعة، خلال فترة زمنية قصيرة.

بغية الاستخدام للإمكانات القتالية للطيران والأعمال القتالية، كان من الضروري كسب السيطرة الجوية. واعتُبِر ذلك المهمةَ الرئيسية الأولى للطيران.

نتيجة الضربات الجوية الألمانية الكثيفة تكبد الطيران السوفييتي خسائر فادحة، كما حدث في المنطقة الغربية عندما تم تدمير ٣٥١ طائرة قاذفة، و٣٨٧ طائرة مقاتلة خلال يوم واحد.

أُسندت للقوات السوفييتية مهمة صدّ القوات المهاجمة. وكانت مهمة الطيران السوفييتي الرئيسية تدمير القوات الألمانية المهاجمة. أما مهمة كسب السيطرة الجوية فقد أسندت للطيران السوفييتي كمهمة رئيسية في العام ١٩٤٣:

ولتحقيق هذه المهمة قام الطيران السوفييتي بضرب المطارات الألمانية على شكل عملية جوية. ونفذت أول عملية جوية في أيار ١٩٤٣، واشترك فيها ٦ جيوش جوية، وتم قصف ١٧ مطاراً موزعاً على جبهة عرضها ١٢٠٠ كم في وقت واحد.

ـــ دعم القوات البرية وتأمين عمل الأسطول البحري

وقد استمر الطيران في تنفيذ هذه المهمة حتى نهاية الحرب. ومن أجل تنفيذ هذه المهمة كان الطيران يقوم بتغطية القوات من ضربات العدو الجوي، بالإضافة لضرب احتياطات العدو.

تنفيذ الإنزالات الجوية

لعب الطيران دوراً فعالاً في الإنـزالات الجويـة. وفي معظـم الأحيـان كانت نتائج تنفيذ الإنزالات الجوية حاسمة في مجرى الأعمال القتالية، والعمليات الحربية. لقد أمَّن الإنزال الجوي الألماني على السواحل الشمالية للنروج والدانيمارك احتلال عُقَد الطيران والسكك الحديدية وبعض المطارات، وبالتالي تم تنفيذ الإنزال البحري في تلك المنطقة بسهولة. وكان ذلك مقدمة لاحتلال القسم الغربي من الدانيمارك والنرويج، كما أن الاستخدام الفعال للإنزالات الجوية ساعد بشكل كبير في احتلال بلجيكا وهولندا.

ـــ الاستطلاع الجوي

نفذ الطيرانُ السطعَ الجويَ بالنظـر وبالتصويـر خلال الحرب العالميـة الثانيـة بكاملها، وذلك بهدف الحصول على المعلومات اللازمة عن القوات والأغراض المعادية. وقد نفذت معظم طلعات السطع باستخدام التصوير الفوتوغرافي.

ـــ إمداد القوات البرية بالوسائط المادية

اشترك الطيران في نقل الإمدادات بمختلف أنواعها، لتأمين أعمـال القـوات البرية. وقد قامت الطائرات بتنفيذ هذه المهمة بواسطة الهبوط في المطارات وبطريقة الإسقاط من الجو. وقد استخدم الطيران لهٰذه المهمة بشكل واضح في الجبهة الروسية اليابانية.

بالإضافة للمهام السابقة شارك الطيران في تأمين أعمال القوى البحرية، وفي مساعدة الفدائيين.

شارك الطيران البحري خلال الحرب في:

ضرب المطارات، تغطية الموانىء وخطوط النقل البحري، تدمير السفن، زرع الألغام في خطوط النقل البحري، السطع.

نفذ الطيران البحري للاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية أكثر من ٣٥٠ ألف طلعة.

تميز الاستخدام القتالي للطيران خلال الحرب العالمية الثانية بما يلي :

أ ـــ توجيه الضربات الجوية الكثيفة . واعتبر ذلك مبدأ رئيسياً لاستخدام الطيران ، من قبل جميع الأطراف المتحاربة . وقد حققت معظم هذه الضربات النتائج المطلوبة منها ، كما حدث في أيار عام ١٩٤٠ ، عندما لم تتمكن القوات الألمانية من عبور نهر الماس في فرنسا إلا بعد أن قامت ١٠٠٠ طائرة ألمانية بإبطال المدفعية الفرنسية التي كانت تعيق عملية العبور .

ب ـــ تنفيذ الطلعات الجوية نهاراً وليلاً في الشروط الجوية البسيطة والمعقدة .

ج ـــ تنفيذ المهام في العمق التكتيكي والعملياتي والاستراتيجي .

د ـــ التعاون بين أنواع القوات المسلحة وصنوف القوات عند تنفيذ المهام القتالية .

هـ ـــ ظهور صنف جديد من صنوف الطيران وهو طيران الاقتحام (يقابله حالياً الطيران المقاتل/قاذف) ، وكان سلاحه طائرات ذات مناورة جيدة وتسليح جيد ، خصصت للعمل في المدى التكتيكي والعملياتي القريب .

و ـــ تنفيذ عمليات التوجيه للطائرات بالنظر وبواسطة محطات الرادار .

ز ـــ استخدمت القنابل الذرية لأول مرة ، وحملها الطيران إلى أهدافها البعيدة .
بغية استكمال المعلومات الهامة عن دور الطيران في الحرب العالمية الثانية .

بالإضافة لما سبق من الضروري تذكر العدد الهائل من الطلعات الجوية التي نفذها الطيران . وعلى سبيل المثال نفَّذ الطيران السوفييتي ٤ ملايين طلعة طائرة .

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ونظراً للدور الهام الذي قام به الطيران خلال الحرب ، وبناء على الخبرات المكتسبة ، سارعت مختلف الدول لتطوير قواتها المسلحة وتحديثها ، بما في ذلك الطيران .

تطور الطيران باتجاه تحسين المواصفات الفنية والتكتيكية للطائرات وتجهيزاتها بشكل رئيسي . ودخلت في الاستخدام الطائرات النفاثة مثل ميغ ـــ ١٥ ، ميغ ـــ ١٧ ، ف ـــ ٨٦ هنتر المزودة بالمدافع الرشاشة وأجهزة التسديد الفعالة .

وتمّ وضع المبادىء النظرية لاستخدام هذه الطائرات، كما وتم استخدامها قتالياً بشكل عملي، وتحسّن تكتيك استخدامها خلال الحروب المحلية.

نشبت الحرب الكورية ١٩٥٠ — ١٩٥٣، واشترك فيها الطيران الأميركي بالقاذفات ب ٢٩ — ب ٥٠ والمقاتلة ف ٨٦، وطيران كوريا الشمالية السوفييتي الصنع كالطائرة ميغ ١٥.

نفذت القاذفات الأميركية مهام ضرب الأهداف الأرضية بتغطية المقاتلات. أما طيران كوريا الشمالية فكانت مهمته الرئيسية التصدي للطيران الأميركي بالمقاتلات، في محاولة لمنعه من تحقيق أهدافه.

واستمرت الحرب في فييتنام لمدة طويلة ١٩٦٥ — ١٩٧٣، وكان للطيران فيها الدور الرئيسي.

استخدمت الولايات المتحدة الأميركية حوالي ١٠٠٠ — ١٢٠٠ طائرة مقاتلة قاذفة ف — ١٠٤، ف — ١٠٥، ف — ١١١، فانتوم بمختلف طرازاتها.. إلخ. كما استخدمت حوالي ١٠٠ طائرة قاذفة ب ٥٢ للمهام الاستراتيجية، وذلك بالإضافة لطائرات الاستطلاع والتشويش والطائرات البحرية والحوامات.

بينما استخدمت فييتنام الشمالية الطائرات ميغ — ٢١ بشكل أساسي بالإضافة إلى ميغ — ١٧، ميغ — ١٩.

نفذ الطيران الأميركي خلال حرب فييتنام المهام التالية:

— ضرب القوى الحية والعتاد القتالي والأغراض الحيوية، مثل طرق المواصلات والسكك الحديدية والموانىء والمدن الرئيسية الهامة.
— تأمين أعمال المقاتلات القاذفة والقاذفات بالمقاتلات.
— إجراء الاستطلاع.
— إحداث التشويش السلبي والإيجابي.

أما الحوامات فقد نفّذت مهام الاستطلاع، ونقل مفارز التخريب والاستطلاع والإنقاذ.

نفذ الطيران الفييتنامي مهام الدفاع عن القوات والأغراض الحيوية، وذلك بالملاقاة والصد الحر.

تميز استخدام الطيران في حرب فييتنام بما يلي:

ــ اشتراك الطائرات النفاثة فوق الصوتية.
ــ استخدام وسائط التأثير الحديثة والمتنوعة: قنابل موجهة بأشعة اللايزر، صواريخ شرايك ضد محطات الرادار، قنابل النابالم.
ــ التأمين الجيد للأعمال القتالية (سطع، إحداث تشويش).
ــ تنظيم التعاون وتنفيذه بين القوى الجوية والدفاع الجوي.
ــ استخدام الطيران من حاملات الطائرات.
ــ تكبد الطيران خسائر كبيرة وخاصة الأميركي.

أدى الطيران دوراً هاماً ورئيسياً في حرب حزيران ١٩٦٧، عندما استخدمت إسرائيل الإمكانات القتالية القصوى لطيرانها في تنفيذ المهام القتالية:

ــ كسب السيطرة الجوية، وذلك بضرب معظم الطائرات العربية على أرض المطارات.
ــ تغطية القوات المهاجمة ودعمها.
ــ السطع الجوي.

بعد انتهاء حرب ١٩٦٧ توصلت القيادة العسكرية العربية إلى نتيجة هامة مفادها أن القوى الجوية والدفاع الجوي عنصران رئيسيان في المعركة. سواء أكانت هجومية أو دفاعية، كما تأكدت لدى القيادة الإسرائيلية أهمية الطيران في أي حرب مقبلة.

في الفترة ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ تضاعف عدد الطائرات الإسرائيلية. وفي الوقت نفسه قامت الدول العربية (سورية ــ مصر) بتطوير الطيران والدفاع الجوي، واستيعاب الأسلحة الجديدة المتطورة.

نفذ الطيران خلال حرب ١٩٧٣ مهام كسب السيطرة الجوية، ودعم القوات وتغطيتها، وضرب الأهداف الحيوية، وإنزال الإنزالات الجوية، وإجراء الاستطلاع، وبث التشويش، والقيام بالبحث والإنقاذ وإخلاء الجرحى.

تميز استخدام الطيران خلال حرب ١٩٧٣ بما يلي:

ـ اشتراك أحدث الطائرات في الحرب.
ـ عدد الطلعات الجوية الكبير.
ـ الاستهلاك الكبير من الذخائر.
ـ تنفيذ الإنزالات الجوية بالحوامات بنجاح، والتأثير الكبير الذي حققته الإنزالات.
ـ عدم التمكن من تحقيق السيطرة الجوية.
ـ استهلاك معظم الطلعات الجوية لتغطية القوات وأغراض المؤخرة.
ـ تنفيذ معظم المهام القتالية نهاراً.
ـ استخدام التشويش الأرضي والجوي لتأمين أعمال صنوف الطيران.
ـ عدم الحصول على النتائج المتوقعة من ضرب المطارات، نظراً لتوضع الطائرات ضمن الملاجىء، والتغطية الجيدة للمطارات بالأسلحة م/ط، وتطور نظام إصلاح المهابط.

إن الاستخدام الواسع لمنجزات العلوم، وخاصة في مجال الايروديناميك والألكترون واللاسلكي والتسليح أدى إلى تطور الطيران بشكل كبير.

منذ عام ١٩١٦ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان التطور نوعياً بمعظمه. ومنذ نهاية الحرب وحتى وقتنا الحاضر استمر التطور نوعياً وكمياً، وبسرعة فائقة. وذلك بالمقارنة مع بقية أنواع القوات المسلحة.

لقد شمل التطور صناعة الطائرات بمختلف أنواعها، والأساليب التكتيكية لاستخدامها في تنفيذ مختلف المهام، في وقت الحرب والسلم.

يعتبر اختراع المحرك النفاث والتحسينات التي تناولته فيما بعد، بالإضافة للتقدم الكبير في صناعة هيكل الطائرة من أهم أسباب التبدل الحاد في المواصفات الفنية والتكتيكية للطائرة، والتي تتلخص في خفة الوزن، مدى العمل الكبير، والسرعة الكبيرة، والقدرة على المناورة، وارتفاع الطيران.

في نهاية الحرب العالمية الثانية بلغت نسبة دفع المحرك النفاث إلى وزنه ١٥ر١. أما في الثمانينيات فقد تضاعفت هذه النسبة لتصل ١٣ر٦، وذلك نتيجة استخدام السبائك المعدنية التي تتحمل الحرارة والجهود العالية، كالخلائط الفولاذية التي يدخل في تركيبها

الكربون والموليبدين والنيكل والسيليسيوم .. إلخ ، وذلك بالإضافة إلى تصميم دورات ألكترونية واستخدامها لتنظيم عمل المحرك باستجابة عالية ومردود كبير ، ووزن أخف بكثير من الدورات السابقة .

نتيجة التقدم الكبير في علم المعادن والايروديناميك تم تصميم الطائرة ذات الأجنحة المتحركة وإنتاجها بغية الوصول إلى سرعات فوق صوتية ، خلال الطيران ، مع إمكانية الاستفادة من السرعات البطيئة من أجل الاقلاع والهبوط ، وتأمين مناورة واستقرار أكثر عند تنفيذ مهام الدعم الأرضي .

إن سرعة الطائرة القتالية في نهاية الحرب العالمية الثانية لم تتجاوز ٥٠٠ ــ ٦٠٠ كم/سا ، ووصلت في الوقت الحاضر عدة أضعاف سرعة الصوت .

فقد الطيران المهام القتالية خلال الحرب العالمية الثانية على ارتفاعات لم تتجاوز ٨ كم ، ولم تسمح مواصفات الطائرة حينذاك بالطيران على ارتفاع أكثر من ١٠ كم . وفي أيار ١٩٦٠ تم إسقاط طائرة الاستطلاع الأميركية يو ٢ ، وهي تطير على ارتفاع ٢١ كم . ومنذ ذلك الحين أصبح الطيران على الارتفاعات العالية وفي الستراتوسفير من الأمور الطبيعية .

تعتبر الطائرة ذات الإقلاع والهبوط العمودي إحدى الإنجازات الهامة في صناعة الطائرات ، بعد أن كانت لزمن طويل حلماً من أحلام المصممين . ومن أفضل هذه الطائرات في المعسكر الغربي الطائرة الإنكليزية هارير ، التي دخلت الخدمة في العام ١٩٦٩ ، ولا تزال الطائرة الوحيدة من هذا النوع في حلف الناتو ، أما في الاتحاد السوفييتي فقد تم إنتاج الطائرة ياك ــ ٣٦ . وقد خططت الولايات المتحدة وألمانيا الغربية لتصميم طائرة إقلاع وهبوط عمودي وإنتاجها دون نتائج ملموسة .

إن استخدام طائرة الهبوط والإقلاع العمودي لا يتطلب العمل من المطارات التقليدية التي لا تزال تشكل أهدافاً هامة للطائرات المقاتلة القاذفة وقاذفة الصواريخ ، بالإضافة لإمكانية تمويهها بشكل جيد واستخدامها من السفن الحربية .

تم تحسين الشكل الايروديناميكي للطائرات بالاعتماد على العقول الألكترونية الحديثة التي أمنت دقة الحسابات واختصار الزمن اللازم لتنفيذها ، مما أدى إلى رفع كفاءة

أجهزة قيادة الطائرة ، وتخفيض قوة الكبح المؤثرة على الطائرة خلال الطيران ، وبالتالي زيادة سرعتها ، ومدى طيرانها . وفي الوقت نفسه تم استخدام طريقة التزود بالوقود في الجو ، حيث أصبح بالإمكان تنفيذ الطيران لمسافات كبيرة دون ضرورة الهبوط من أجل تموين الوقود .

بدأ تطور علم الألكترون بعد الحرب العالمية الثانية بشكل بطيء . وفي السنوات الأخيرة تبدلت هذه الصورة بشكل حاد وسار التطور بخطا سريعة ، بحيث أصبح من الصعب على الاختصاصيين متابعة كل جديد فيه ، وأصبحت المعلومات التي تعود إلى ٤ سنين قديمة .

شمل هذا التطور استخدام الحاسبات الرقمية في مجال الطيران ، وذلك من أجل معالجة المعلومات وإظهارها بشكل دقيق وفوري ، كما استخدمت في قيادة الطيران واستخدامه قتالياً .

استخدمت الألكترونيات لتحسين مواصفات الأجهزة الرادارية الجوية والأرضية . ومن المنجزات الرئيسية في هذا المجال ظهور هوائيات رادار لا تحتاج إلى حركة لتأمين مسح الجو .

أدى هذا التطور أيضاً إلى تعميم استخدام أشعة اللايزر في الصناعات الحربية جميعها ، بما في ذلك الطائرات .

يستخدم اللايزر حالياً في أجهزة تسديد الطائرات ، ومن أجل قياس مسافة الأهداف ، وفي إنارة الهدف ، بغرض توجيه السلاح عليه ، ومن أجل قياس ارتفاع الطائرات ومسافتها .

امتد علم الألكترونيات إلى نظام الاتصال . وبفضله توفرت إمكانية نقل كمية هائلة من المعلومات بشكل فوري ولمسافات بعيدة جداً .

نظراً للانتشار الواسع لوسائط الحرب الألكترونية برزت الحاجة لتأمين الحماية الذاتية للطائرات خلال تنفيذها المهام القتالية . وبدأ التوجه نحو تجهيز الطائرات بوسائط المعاكسة الألكترونية التي تضمنت :

ـــ إحداث التشويش السلبي، وذلك برمي قصاصات معدنية تشكل أهدافها كاذبة.
ـــ رمي الطلقات الحرراية لتضليل الصواريخ التي تعمل على مبدأ الأشعة تحت الحمراء.
ـــ إحداث التشويش الإيجابي على المحطات الرادارية المعادية.
ـــ وسائط الإنذار عن العدو الجوي والأرضي.

يتضمن تسليح الطائرات الحديثة: المدافع، الصواريخ غير الموجهة، الصواريخ الموجهة، القنابل.

تشكل الصواريخ غير الموجهة قدرة نارية كبيرة، مع الأخذ بعين الاعتبار حجمها الصغير نسبياً، ووزنها الخفيف، وكلفتها البسيطة. تسلح معظم المقاتلات القاذفة بالصواريخ غير الموجهة، وتستخدم لتدمير القوى الحية والعتاد القتالي بشكل أساسي. وجرى تطوير الصواريخ غير الموجهة لزيادة فعاليتها، وذلك بزيادة عياراتها، وتطوير تصميم رأس الصاروخ، حسب متطلبات استخدامها. وعلى هذا الأساس تستخدم حالياً أنواع من الصواريخ غير الموجهة، مثل الصواريخ المتشظية، الصواريخ الثاقبة، الصواريخ الثاقبة المتفجرة، الصواريخ الحارة المتشظية شديدة الانفجار.

بدأ استخدام الصواريخ الموجهة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وذلك نظراً لزيادة سرعة الطائرات، وتحسين هياكلها، وظهور القاذفات الضخمة، والحاجة إلى تسليح يفوق قدرة المدفع من حيث مدى التأثير، وقوة التدمير، ودقة الإصابة.

ـــ نظام التوجيه التلفزيوني، ويستخدم للصورايخ جو ـــ أرض.
ـــ نظام التوجيه الذاتي، ويستخدم للصواريخ جو ـــ جو.
ـــ نظام الوجيه المركب.

يقسم نظام التوجيه الذاتي إلى ثلاثة أنواع:

أ ـــ نظام التوجيه الذاتي الإيجابي، وفي هذه الحالة يمتلك الصاروخ محطة رادار كاملة تؤمن توجيه الصاروخ حتى الهدف، ولا حاجة للطيار لأن يتابع ملاحقة الهدف.

ب ـــ نظام التوجيه نصف الإيجابي وفي هذه الحالة لا بد من وجود محطة رادار في

الطائرة تؤمن كشف الهدف. وهنا يجب ملاحقة الهدف من قبل الطيار مثل الصاروخ سيا ــ د ــ ٢٣.

ج ــ نظام التوجيه الحراري وفي هذه الحالة يلاحق الصاروخ بعد إطلاقه الحرارة الصادرة عن الهدف مثل الصاروخ الأميركي سايدويندر والصاروخ الروسي ر ٣ س.

استناداً لما سبق يمكن تصنيف أنواع الصواريخ الموجهة كما يلي:

الصواريخ الموجهة جو ــ أرض اللاسلكية، اللايزرية، الرادارية، الحرارية، التلفزيونية، الضوئية السلكية.

تطور إنتاج القنابل واستخدامها لتحسين دقة الإصابة، وزيادة فعاليتها. وقد تم ذلك بتحسين النوعية الايروديناميكية لتخفيض قيمة كبح الحمولات الخارجية، وتطوير أجهزة التسديد، وتنويعها حسب الأهداف المراد قصفها.

تشمل أنواع القنابل حالياً:

قنابل شديدة الانفجار، قنابل متشظية، قنابل عنقودية، قنابل مضيئة، قنابل محرقة، قنابل متفجرة حارقة، قنابل فرملية، قنابل ثاقبة، قنابل دخانية، قنابل دعائية.

بلغ وزن القنبلة العادية القديمة بحدود ٥٠ كغ، وزاد وزن القنبلة بعد ذلك ليصبح حوالي ١٠٠٠ كغ وأكثر.

إن التطور في أجهزة التسديد أدى إلى ظهور أجهزة التسديد الآلية، والأجهزة التي تؤمن برمجة الأهداف بشكل مسبق وقصفها بشكل آلي، دون تدخل الطيار. كما أن توجيه القنابل بالتلفزيون وبأشعة اللايزر أدى إلى رفع دقة الإصابة، بحيث لا تتعدى ٣ أمتار عن الهدف.

يتضح لنا مما سبق مدى ما وصل إليه التطور في قنابل الطائرات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار القنابل النووية المنتشرة حالياً، وبقية أنواع القنابل التي يجري إنتاجها، بالإضافة للصواريخ الموجهة، يمكن أن نحدد الأهمية والإمكانات القتالية للتسليح الجوي في الحاضر والمستقبل.

يعتبر الطيران المقاتل أحد صنوف الطيران الأساسية. ويستخدم من أجل تدمير الطائرات والوسائط التي تطير دون طيار في الجو بشكل أساسي.

يتضمن تسليح المقاتلات بشكل رئيسي المدافع والصواريخ جو ــ جو.

في بداية الستينيات كان الصاروخ جو ــ جو قد أثبت ضروريته وفعاليته، لدرجة أن بعض المقاتلات الأميركية مثل كونغير ف ١٠٢، والروسية مثل سو ٩ سو خلت تماماً من المدافع. إلا أن الخبرة العملية أثبتت فيما بعد ضرورة تزويد المقاتلة بالمدفع.

إن استخدام الصواريخ الموجهة جو ــ جو بمختلف أنواعها تطلب وجود التجهيزات الإضافية لتمييز الهدف، وتحقيق الإصابة في مختلف الشروط الجوية. وهنا برز دور الألكترونيات التي يجري تطويرها باستمرار.

يتم تطوير المقاتلة باتجاه زيادة سرعتها وقدرتها على المناورة والطيران، في الشروط الجوية البسيطة والمعقدة نهاراً وليلاً، وتزويدها بوسائط الصراع الألكترونية، والحماية الذاتية.

من الملاحظ أيضاً، وخاصة في مقاتلات المعسكر الغربي، إمكانية تحميل المقاتلة بالقنابل. يضم الطيران المقاتل في الولايات المتحدة أنواعاً متعددة من الطائرات ف ٥، ف ١٤، ف ١٥، ف ١٦، ف ١٠٤، آ ــ ٤، سكاي هوك. وتعتبر الطائرة ف ١٥ مقاتلة حديثة الخدمة في عام ١٩٧٤، مزودة بمحركين قدرة كل محرك ٦٧٤٤، وسرعتها القصوى على ارتفاع بمنخفض أكثر من ١٤٨٢ كم/سا (١٫٢٢ ماك)، وعلى ارتفاعات عالية أكثر من ٢٦٦٠ كم/سا (٢٫٥ ماك). وتم تجهيز الطائرة بمدفع عيار ٢٠ ملم متعدد السبطانات، و ٤ صواريخ جو ــ جو نوه سبارد، بالإضافة إلى ٤ صواريخ سايدويندر.

كما يمكنها حمل ٢٣٠٣ كغ أجهزة تشويش أو أسلحة أخرى.

يضم الطيران المقاتل في الاتحاد السوفييتي طرازات مختلفة من المقاتلات منها:

ميغ ٢١، ميغ ٢٣، ميغ ٢.٥، سو ١٥.

دخلت الطائرة ميغ ٢٣ الخدمة في عام ١٩٧١، وهي مزودة بمحرك واحد قدرته ١٢٫٥٠٠ كغ، تبلغ سرعتها القصوى ٢٫٥٠٠/كم/سا. يتضمن تسليحها مدفعاً عضوياً عيار ٢٣ مم، و ٤ حواضن للصواريخ غير الموجهة، و ٤ صواريخ موجهة جو ـــ جو رادارية وحرارية. وتستطيع تعليق ٢ ـــ ٣ طن من القنابل المختلفة.

يضم الطيران المقاتل في إنكلترا الطائرات:

لايتننغ، تورنيدو.

تعتبر الطائرة تورنيدو من المقاتلات الحديثة، وتصنع بالتعاون مع إيطاليا وألمانيا الغربية. طارت لأول مرة في عام ١٩٧٤.

زودت الطائرة بمحركين قدرة كل محرك ٤٠٨٢ كغ، وهي مسلحة بمدفع عيار ٢٧ ملم، ٢ صاروخ سايدونيدر، ٤ صواريخ سكاي فلاش، وتجهيزات ألكترونية متنوعة.

تعتمد فرنسا على طائرة الميراج بطرازاتها المختلفة:

ميراج ٣، ميراج ٥، ميراج ٥٠، ميراج ٢٠٠٠.

تعتبر الطائرة ميراج ٢٠٠٠ من المقاتلات الحديثة. طارت لأول مرة في عام ١٩٧٨ مزودة بمحرك واحد قدرته ٥٠٦٢ كغ، سرعتها القصوى على ارتفاع ١١٫٠٠٠ متر ٢٤٤٠ كم/سا. يشمل تسليحها، ٢ مدفع عيار ٣٠ ملم، ٢ صاروخ جو ـــ جو طراز ماتراسوبر ٥٣٠، ٢ صاروخ طراز ماترا ٥٥٠.

يعتبر الطيران المقاتل القاذف (الدعم التكتيكي) أحد صنوف الطيران الهامة. ويستخدم من أجل تدمير الأغراض البرية والبحرية الهامة في العمق التكتيكي والعملياتي القريب أساساً، ويمكن أن يشترك في تدمير الطائرات والوسائط التي تطير دون طيار على الأرض، وفي الجو، وفي تنفيذ السطع الجوي.

يستخدم الطيران المقاتل القاذف نهاراً في الشروط الجوية البسيطة والمعقدة بشكل رئيسي، وليلاً بشكل محدود.

يتضمن تسليح المقاتلات القاذفة القنابل بشكل أساسي، بالإضافة للصواريخ غير الموجهة، والصواريخ الموجهة، والمدافع.

انطلاقاً من وظيفة الطيران المقاتل القاذف، واستناداً لخبرات الحروب المكتسبة يرى الخبراء العسكريون أن متطلبات الطائرة المقاتلة القاذفة تتلخص في (التسليح الجيد، وخاصة القنابل، المناورة الجيدة، ضمانة الوصول للهدف وتدميره).

وبالإضافة لذلك تتجه بعض الدول لاستخدام طائرات دعم تحت صوتية، سهلة الاستخدام والاستثمار، أبعدت عنها الأجهزة والرادارات المعقدة. تتمتع بميزة المناورة العالية والوثوقية الكبيرة والحيوية في الأداء، مثل الطائرة آ ــ ١٠، و سو ــ ٢٥.

تستخدم الولايات المتحدة الأميركية الطائرات المقاتلة القاذفة:

أ ــ ١٠ أ، ف ــ ١١١ أ، أف ــ ٨ ب، أ ــ ٤ سكاي هوك.

تعتبر الطائرة أ ــ ١٠ من أفضل المقاتلات القاذفة الموجودة في تسليح القوى الجوية الأميركية، وهي مزودة بمحركين قدرة كل محرك ٤٢٠٠ كغ، ويشمل تسليحها:

مدفع ٣٠ ملم في مقدمة وأسفل الجسم، ومدفع ٢٠ ملم في حاضن أسفل الجسم، وصواريخ موجهة جو ــ أرض مافريك، وجو ــ جو سايدونيدر، وحواضن صواريخ غير موجهة، وقنابل متنوعة. يبلغ مجموع حمولاتها الخارجية ٧٢٥٧ كغ.

بالإضافة لما سبق زودت الطائرة بجهاز لايزري لكشف الأهداف وتجهيزات ألكترونية أخرى، تبلغ سرعتها القصوى ٧٤٠ كم/سا. طارت لأول مرة عام ١٩٧٢، ودخلت الخدمة في عام ١٩٧٤.

يستخدم الاتحاد السوفييتي المقاتلات القاذفة من الأنواع التالية:

ميغ ٢٣ ب، سو ــ ١٧، سو ــ ٢٠، سو ــ ٢٤، سو ــ ٢٥.

تبلغ السرعة القصوى للطائرة سو ــ ٢٠، ١٣٥٠ كم/سا، وهي مزودة بمحرك واحد قوة جره ١١٫٢٠٠ كغ.

تحمل صواريخ موجهة جو ــ أرض ذات وظائف مختلفة، كما تحمل صواريخ

جو ــ جو حرارية، وحواضن صواريخ غير موجهة، وحمولة ٤ ــ ٥ طن من القنابل بالإضافة لمدفعين عيار ٣٠ ملم.

تستخدم إنكلترا الطائرات المقاتلة القاذفة التالية:

بوكانير، هارير، هوك.

دخلت الطائرة هارير ذات الإقلاع والهبوط العمودي الخدمة عام ١٩٦٩، ويضم تسليحها ٢ مدفع عيار ٣٠ ملم، وصواريخ موجهة جو ــ جو سايدونيدر وصواريخ جو ــ سطح من طرازات هاربون، وقنابل متنوعة.

تعتمد فرنسا على المقاتلات القاذفة من طراز سوبراتندار، ميراج ف ١، ميراج ٤٠٠٠.

يعتبر الطيران القاذف القوة الضاربة الأساسية في القوى الجوية. ويستخدم من أجل العمل المشترك مع القوات البرية والبحرية، وكذلك لتنفيذ الأعمال القتالية بشكل مستقل. ويعمل الطيران القاذف بشكل أساسي ضد الأغراض المتوضعة خارج مدى تأثير الطيران المقاتل القاذف. ويمكن أن يشترك في تدمير أسلحة التدمير الشامل، والطائرات على المطارات، والصواريخ، والوسائط اللاسلكية الفنية، وفي تدمير القوات والعتاد القتالي، وتخريب الأغراض الحيوية، وتدمير الإنزالات الجوية والبحرية في أثناء التحميل، وفي عرض البحر، وفي إجراء الاستطلاع الجوي.

استناداً لوظيفة الطيران القاذف يمكن تقسيمه إلى طيران قاذف تكتيكي، وطيران قاذف استراتيجي.

استخدمت القاذفات على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية، وفي فييتنام، لقصف المدن والأغراض الحيوية البعيدة. ولذلك سارعت مختلف الدول لتطوير قاذفاتها.

كانت القاذفة ب ٢٩ أكبر قاذفة صممت خلال الحرب العالمية الثانية. وأصبحت بعد الحرب الدعامة الأساسية للقيادة الجوية والاستراتيجية في الولايات المتحدة الأميركية. وكانت الطائرة الأولى التي حملت القنبلة الذرية. وفي عام ١٩٥٥ تم إنتاج القاذفة الاستراتيجية ب ٥٢. وكان الهدف الرئيسي لاستخدامها هو قصف القنابل

النووية. ومن المتوقع استمرارها في الخدمة بعد التعديلات التي تنفذ على النموذجين ب ـ ٥٢ اتش، ب ـ ٥٢ ج.

تعتبر القاذفة الاستراتيجية ب ـ ١ ب قاذفة المستقبل الأساسية في القوات الجوية الأميركية. وقد استمرت الدراسات لإنتاج هذه الطائرة وتطويرها لا أقل من ١٩ سنة، وقد دخلت أول طائرة الخدمة في عام ١٩٨٢.

زودت هذه الطائرة بأربع محركات نفاثة قدرة كل محرك ١٣٦٠٨ كغ.

تسليحها الأساسي ٤ صواريخ جو ـ أرض ذات رؤوس نووية طراز كروز، بالإضافة لقنابل نووية أو عادية. وتم تجهيز الطائرة بأجهزة ألكترونية متقدمة جداً لا يزال معظمها سرياً.

سرعة الطائرة القصوى على مستوى سطح البحر ١٠٤٠ كم/سا وعلى الارتفاعات العالية ٢١٣٥ كم/سا، ومداها الأقصى مع وجود التسليح ٩٨٢٠ كم.

طور الاتحاد السوفييتي القاذفات. وخلال الخمسينيات والستينيات كانت الطائرة تو ١٦، والطائرة تو ٩٥ أساس الطيران القاذف. أما في الوقت الحاضر فتستخدم القاذفة التكتيكية سو ٢٤، والقاذفة تو ٢٦ بعيدة المدى.

ودخلت الطائرة تو ٢٦ الخدمة في العام ١٩٧٣ وهي مزودة بمحركين نفاثين، قدرة كل محرك ٢٢٠٠٠ كغ، وسرعتها القصوى على الارتفاعات العالية ٢٤٤٥ كم/سا. يتألف تسليحها من ٢ صاروخ جو ـ أرض وحمولة قنابل نووية أو عادية.

استخدمت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية القاذفة فولفان، والقاذفة كانبيرا، وذلك حتى منتصف الستينيات، ولم تخطط بعد ذلك لتطوير قاذفاتها، نظراً لاتجاهها نحو المقاتلات القاذفة مثل هارير، و ف ١١١.

ولعل فرنسا من أقل الدول الغربية اهتماماً بصناعة أو تطوير القاذفات، فالقاذفة الوحيدة التي صنعتها واعتمدت عليها هي ميراج ١٤، وتم تحويلها في الفترة ١٩٧٨ ـ ١٩٨٠ إلى طائرات استطلاع. وكما الحال في بريطانيا انصرف اهتمامها نحو

المقاتلات القاذفة. إن اهتمام الدول الكبرى بالقاذفات، والذي يبلغ ذروته خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها بدأ يخف للأسباب التالية:

ـــ تطور أنظمة الدفاع الجوي مما شكل خطراً فعالاً على القاذفات.
ـــ تطور الصواريخ أرض ـــ أرض والصواريخ بحر ـــ أرض وقدرتها على حمل الرؤوس النووية والعادية.
ـــ التكاليف الباهظة لصناعة القاذفات.

ومع ذلك فلا تزال الدول الكبرى تخطط لاستخدام نوع واحد من القاذفات على الأقل، مع تركيز الاهتمام على تجهيزها بالوسائط الألكترونية التي تؤمن تنفيذ مهامها.

دخلت الحوّامات عالم الطيران بشكل متأخر نسبياً، بالمقارنة مع بقية صنوف الطيران. ومع ذلك فقد احتلت مركزاً هاماً سواء لصالح السلم أو الحرب.

استخدمت الحوامات لتنفيذ الأعمال القتالية بشكل واسع في حربي الجزائر وفييتنام، وكانت مهامها الأساسية المنفذة (نقل القوات، نقل مفارز التخريب، السطع، الانقاذ).

خسرت الولايات المتحدة في حرب في فييتنام ٥٠٠٠ حوامة خلال تنفيذ ١٧ مليون طلعة حوامة، وقد تم تدمير ٤٠٪ منها على الأرض من قبل الفدائيين.

بعد انتهاء حرب فييتنام تركز الاهتمام لتطوير الحوامات القتالية. ونتيجة لذلك تم تزويدها بالصواريخ غير الموجهة، والصواريخ الموجهة جو ـــ أرض، والرشاشات. وأظهرت نتائج الاختبارات والمشاريع المنفذة فعالية استخدام الحوامات ضد العتاد، والمدرع وخاصة الدبابات، وقد أعطت بعض الدول الغربية النتيجة التالية:

تدمير ١٠ دبابات مقابل حوامة واحدة.

تؤثر طبيعة الوسائط م/ط المتوفرة لدى الأطراف المتحاربة وطبيعة الأرض بشكل كبير على نتائج الأعمال القتالية للحوامات ضد الدبابات، وعلى هذا الأساس يجب النظر إلى نتائج المشاريع بحذر.

تعتبر الحوامات واسطة فعالة وأساسية لكشف الغواصات وتدميرها. وقد تم تطوير تجهيز الحوامات المضادة للغواصات بشكل كبير، ودخلت هذه الحوامات في تسليح معظم الجيوش.

تستخدم الولايات المتحدة عدة أنواع من الحوامات مثل (هيوكوبرا، بل ٢٠٦، بل ٢١٢، بل ٢١٤، هيوز ٥٠٠، أش ٦٤).

تعتبر الحوامة القتالية آ أنش ـ ٦٤ من الحوامات المتطورة التي اعتمدها الطيران الأميركي. طارت هذه الحوامة لأول مرة عام ١٩٧٥، وتقرر شراء ٥٣٦ حوامة منها. وزودت الحوامة بمحركين، قدرة كل محرك ١٢٥٨ حصاناً بخارياً.

يتضمن تسليح الحوامة:

ـ مدفع عيار ٣٠ ملم وحدته النارية ١٢٠٠ طلقة.
ـ ١٦ صاروخاً موجهاً ضد الدبابات نوع هيليفاير.
ـ حتى ٧٠ صاروخاً غير موجه عيار ٧٥ر٢ أنش.

يستخدم الاتحاد السوفييتي الحوامات مي ٢، مي ٨، مي ١٤، مي ٦، مي ٢٦، مي ٢٤. وتعتبر الحوامة مي ٢٤ أهم أنواع الحوامات القتالية، وهي مزودة بمحركين قدرة كل محرك ١٥٠٠ حصان بخاري. طارت هذه الحوامة لأول مرة عام ١٩٧٠، وأنتج منها عدة طرازات، ويتضمن تسليحها:

ـ مدفعاً رشاشاً عيار ٧ر١٢.
ـ ٤ صواريخ موجهة ضد الدبابات.
ـ صواريخ غير موجهة، وقنابل مختلفة.

تعتمد إنكلترا حالياً بشكل رئيسي على الحوامة لينكس. ويوجد منها عدة طرازات (بحرية، ضد الدبابات، إنقاذ.. إلخ).

طارت الحوامة لأول مرة في العام ١٩٧١، وهي مزودة بمحركين قوة كل محرك ٩٠٠ حصان.

يتضمن تسليحها رشاشاً وصواريخ موجهة ضد الدبابات وصواريخ غير موجهة.

تستخدم فرنسا عدة أنواع من الحوامات مثل (غازيل، بوما، سوبر بوما، ايكوري، دوفين)، وتركز اهتمامها على الحوامة القتالية دوفين. ويوجد منها طراز للبحرية، وطراز ضد الدبابات. وهي مزودة بمحركين قدرة كل محرك ٧٥٠ حصاناً بخارياً. يتضمن تسليحها:

ـــ ٨ صواريخ موجهة نوع هوت ضد الدبابات.
ـــ مدفعاً من عيار ٢٠ ملم غير عضوي.

وبالإضافة لما سبق تنتج ألمانيا الحوامة القتالية م ب ب ١٠٥، كما تخطط إيطاليا لإنتاج الحوامة أـــ ١٢٩.

اتجه تطوير الحوامات القتالية في السنوات الأخيرة إلى المجالات التالية:

ـــ تزويد الحوامات بالصواريخ الموجهة جوـــأرض، ضد الدبابات ذات مدى أكثر من ٤ كم، وذلك لتفادي الأعمال المضادة للوسائط م/ط.
ـــ تحسين أجهزة الرؤية الليلية، واستخدامها بشكل واسع.
ـــ تجهيز الحوامة بالتجهيزات التي تؤمن طيرانها نهاراً وليلاً، في مختلف الشروط الجوية.
ـــ تسليح الحوامة بالمدفع الرشاش والصاروخ جوـــجو لتنفيذ المعركة الجوية.
ـــ تسليح الحوامات البحرية بصواريخ جوـــأرض ضد السفن والبواخر.

يستخدم طيران النقل العسكري لنقل القوات والعتاد والحمولات، وتنفيذ الإنزالات الجوية، وإسقاط الحمولات. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية كانت معظم طائرات النقل العسكرية عبارة عن طائرات ركاب مدنية معدّلة.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ التطور الحقيقي في طائرات النقل، في مجال زيادة سرعتها، ومقدار الحمولة، وقدرتها على الطيران في مختلف الشروط الجوية.

في العام ١٩٥٤ ظهرت الطائرة سيـــ ١٣٠ الأميركية والتي لا تزال تستخدم حتى وقتنا الحاضر في عدد كبير من الدول.

في العام ١٩٧٠ استخدمت الولايات المتحدة الطائرة سيـــ ٥، وقد حققت هذه الطائرة نجاحاً كبيراً في فييتنام، حيث كانت قادرة على نقل العتاد الكبير بما فيه

الدبابات. وزودت هذه الطائرة بأربع محركات نفاثة، قدرة كل محرك ١٨٦٤٢ كغ، ويمكنها الطيران بحمولة ١٠٠ طن لمسافة ٦٠٠٠ كم.

وفي العام ١٩٧٥ استخدمت الطائرة الروسية اليوشن ٧٦، والتي نفذت إحدى طلعاتها الاختبارية لمسافة ٢٠٠٠ كم بحمولة ٦٠ طناً، وبسرعة ٨٥٧ كم/سا.

تعتبر طائرات النقل هدفاً يسهل مهاجمته من قبل المقاتلات والصواريخ م/ط. وقد زودت بعض طائرات النقل بمدفع رشاش في مؤخرتها، إلا أنه لا يؤمن الحماية المطلوبة مما يتطلب تأمين طائرات النقل في أثناء تنفيذها لمهامها.

تستخدم طائرات الاستطلاع كواسطة أساسية للحصول على المعلومات اللازمة بسرعة وبشكل صحيح. خلال الحرب العالمية الأولى نفذ الاستطلاع الجوي بالنظر. وكانت هناك صعوبات كثيرة تعترض إيصال المعلومات في الوقت المناسب، بالإضافة إلى ضعف توثيقها. وخلال الحرب العالمية الثانية دخل التصوير الجوي في مجال الاستطلاع، وكانت نتائج السطع تعتمد على كفاءة آلات التصوير المتوفرة، والشروط الجوية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثاني حدث تطور كبير في آلات التصوير، وتم الحصول على آلات يمكنها التصوير على مسافات كبيرة بشكل عمودي ومائل.

بالإضافة للاستطلاع بالنظر والتصوير يمكن لطائرات السطع أن تنفذ الاستطلاع اللاسلكي الفني، والاستطلاع الجوي التلفزيوني، والاستطلاع الجوي الإشعاعي. وينفذ الاستطلاع اللاسلكي الفني بغية تحديد أماكن المحطات الرادارية، ومحطات التوجيه، ووسائط الاتصال، وبيان الترددات والأنظمة التي تعمل عليها.

يسمح الاستطلاع الجوي التلفزيوني بالحصول على صور الأرض والأهداف، وإرسالها مباشرة إلى مقرات القيادة الأرضية، وذلك عند وجود الطائرة فوق الهدف.

ينفذ الاستطلاع الجوي الإشعاعي لتحديد مدى التلوث بالإشعاعات.

تدخل طائرات السطع في تسليح معظم القوى الجوية، وتستخدم على نطاق واسع. وقد استخدمت الولايات المتحدة في الستينيات الطائرة يو ـــ ٢. وقد حظيت هذه الطائرة بشهرة واسعة، لأنها كانت مكلفة بتنفيذ أعمال السطع السرية فوق أراضي

معظم دول العالم، كما لجأت الولايات المتحدة إلى تصميم طائرة أخرى هي س ـــ ٧١ وإنتاجها في العام ١٩٦٤ . وتفوق هذه الطائرة سابقتها في المواصفات الفنية والتكتيكية .

استخدم الاتحاد السوفييتي الطائـــرات (م ـــ ٤ ، تو ـــ ٢٠ ، تو ـــ ٩٥ ، ميغ ـــ ٢٥ س) .

أما بقية الدول فكان إنتاجها من هذه الطائرات محدوداً ، واعتمدت على الطائرات المتعددة الأهداف لتنفيذ مهام السطع .

تستخدم الطائرات المسيرة لتنفيذ المهام التالية :

ـــ التصوير الجوي بأنواعه .
ـــ التصوير التلفزيوني ، وبث الصور التلفزيونية مباشرة إلى مقرات القيادة الأرضية .
ـــ استطلاع الوسائط اللاسلكية الفنية .

وبالإضافة لما سبق تستخدم بعض أنواع الطائرات المسيرة كأهداف تدريبية للطيران المقاتل والوسائط م/ط .

تعمل الطائرات المسيرة على أساس البرمجة المسبقة لمحور الطيران وارتفاعه ، أو بطريقة القيادة المستمرة لها من الأرض .

تتميز الطائرة المسيرة بما يلي :

ـــ صغير حجمها وبالتالي صعوبة كشفها من قبل محطات الرادار .
ـــ صعوبة إصابتها .
ـــ رخص ثمنها .
ـــ خسائرها مادية وليست بشرية .
ـــ سهولة المناورة بقواعد إطلاقها وسهولة استخدامها .

تستخدم طائرة الكشف والإنذار والقيادة لكشف الأهداف الجوية البعيدة على مختلف الارتفاعات وتوجيه الطيران عليها .

تتحدد فعالية هذه الطائرة بنوعية الرادار والتجهيزات الألكترونية المزودة بها .

استخدمت هذه الطائرة لأول مرة في حرب فييتنام من قبل طيران الولايات المتحدة الأميركية. وقد تم تطويرها بالاستفادة من تقدم الألكترونيات.

تستخدم الولايات المتحدة ٣٤ طائرة بوينغ اي ــ ٣ آ لقواتها الجوية. وبالرغم من تكاليفها الباهظة قررت دول حلف الأطلسي شراء ١٨ طائرة من هذا النوع. نفذت هذه الطائرة أول طيران تجريبي في العام ١٩٧٥. وقد زودت بأربع محركات سرعتها القصوى ٩٦٦ كم/سا على الارتفاعات العالية وحوالي ٤٨٣ كم/سا على الارتفاعات المنخفضة. ويمكنها الطيران حوالي ١٢ ساعة دون الحاجة للتزود بالوقود، ويتألف طاقم العمل فيها من ١٧ شخصاً.

تسمح التجهيزات الموجودة في الطائرة بمراقبة الجو رادارياً لمسافة أكثر من ٣٠٠ كم. وبالإضافة لهذه الطائرة تصنع الولايات المتحدة الطائرة اي ــ ٢ سي.

تستخدم بريطانيا طائرة النمرود كطائرة كشف وإنذار وقيادة. أما بالنسبة للاتحاد السوفييتي فإن الطائرة المعروفة هي تو ١٢٦، وهذه الأخيرة طائرة نقل عسكري تم تعديلها وتجهيزها كطائرة كشف وإنذار وقيادة.

تشكل طائرات الكشف والإنذار نوعاً خاصاً من الطائرات، لا تجرؤ سوى بضع دول على اقتنائه، لأن هناك ما هو أهم من الطائرات وعددها، هناك التجهيزات الألكترونية التي يجب أن توضع في الطائرة وعلى الأرض.

تؤكد خبرات الحرب العالمية الأولى والثانية والحروب المحلية، وتدل اتجاهات تطور الطيران بمختلف صنوفه ووسائط التأثير، ومدى ما وصل إليه هذا التطور في وقتنا الحاضر، على أهمية دور الطيران في الحرب المقبلة، برغم الانتشار الواسع في استخدام الصواريخ أرض ــ أرض، وسطح ــ أرض العملياتية التكتيكية. ويدعم هذه المقولة النسبة الكبيرة من مخصصات النفقات الحربية التي تصرف القوات الجوية. حيث تبلغ في الولايات المتحدة الأميركية نسبة ٤٠٪ من المجموع العام للنفقات الحربية. أما في إطار حلف شمال الأطلسي فإن الولايات المتحدة تخصص للقوات الجوية المبالغ المخصصة نفسها للقوات البرية. وفي باقي الدول الغربية يخصص ٢٠٪ من القوى البشرية لخدمة القوات الجوية، مع حصة كبيرة نسبياً من الميزانية العسكرية.

في الحرب المقبلة ، وعند تنفيذ الأعمال القتالية من أي حجم أو مستوى على جبهة واحدة ، أو عدة جبهات ، لا بد من استخدام جميع صنوف الطيران . وسيكون الدور الأهم للطيران التكتيكي والحوامات القتالية ، لدعم القوات البرية في جميع أنواع العمليات ، نظراً لما تتمتع به من مرونة وقدرة على تدمير الأهداف الصغيرة المتحركة .

إن تطور القاذفات الاستراتيجية وانتشارها ، وتزويدها بالصواريخ بعيدة المدى جو ــ أرض وجو ــ سطح يزيد من إمكانية الطيران القاذف في إضعاف القدرة العسكرية والاقتصادية للعدو .

لا تزال الطائرات المقاتلة الواسطة الرئيسية للصراع ضد الطيران التكتيكي المعادي ، وجزءاً هاماً من منظومة الدفاع الجوي ، لحماية أغراض مؤخرة البلاد .

إن دور الطيران البحري في الحرب المقبلة سيكون أكبر من أي دور أداه منذ ظهوره . وستلقى على عاتقه مهمة الصراع ضد السفن والغواصات ، ودعم الإنزالات البحرية ، والدفاع عن الأسطول البحري ، والقواعد البحرية ، بالإضافة لإجراء الاستطلاع الجوي .

في الحرب المقبلة سيشترك الطيران في كل معركة وموقعة وعملية ، مع أنواع القوات الأخرى . وسينفذ العمليات الجوية المستقلة .

٥ ــ قوات الدفاع الجوي

تخصص قوات الدفاع الجوي لمنع ضربات العدو الجوية على القوات وأغراض المؤخرة ، وذلك بتدمير وسائط هجومه الجوي في الجو ، ومنعه من تنفيذ الاستطلاع الجوي ، وإتاحة الفرصة للقوات لتنفيذ الأعمال القتالية في مختلف شروط الموقف .

تتلخص مهام الدفاع الجوي في كشف العدو الجوي في حينه ، وإنذار القوات وأغراض المؤخرة عنه ، وفي تدمير وسائط الهجوم الجوي المعادي في الجو ، وتدمير الإنزالات الجوية في أثناء طيرانها ، وفي مناطق نزولها .

تتضمن وسائط الدفاع الجوي الصنوف التالية :

ــ الطيران المقاتل .

ـــ الصواريخ م/ط.
ـــ المدفعية م/ط.
ـــ الرشاشات م/ط.
ـــ أسلحة المشاة الخفيفة.
ـــ وسائط استطلاع العدو الجوي.

يعتبر الطيران المقاتل إحدى الوسائط الفعالة والنشيطة للدفاع الجوي فهو يتمتع بمناورة عالية، ومدى عمل كبير، وقدرة على تنفيذ مهامه القتالية على ارتفاعات مختلفة.

تتميز الصواريخ م/ط بقدرتها الذاتية على كشف الأهداف الجوية، والتعرف عليها، وإمكانية العمل في مختلف الشروط الجوية نهاراً وليلاً، بالإضافة لاحتمال تأثيرها الكبير، وإمكانية تغطيتها لمناطق واسعة.

تتمتع المدفعية والرشاشات م/ط بغزارة نيرانها، وقدرتها الكبيرة على المناورة، وسهولة استخدامها.

تعتبر أسلحة المشاة الخفيفة من الوسائط الفعالة في الصراع ضد الأهداف الجوية ذات السرعة البطيئة كالحوامات، في حال تنظيم استخدامها والاستفادة من كثافة نيرانها.

تؤمن وسائط استطلاع العدو الجوي استخدام الإمكانات النارية لوسائط الدفاع الجوي في الوقت المناسب، وتؤثر بشكل كبير على نتائج الأعمال القتالية لهذه الوسائط.

بدأ استخدام الدفاع الجوي نتيجة لاستخدام وسائط الهجوم الجوي، ولذلك نجد أن الاهتمام بالدفاع الجوي بدأ بعد التطور الجوي في صناعة الطائرات. وكان من الصعب تحقيق المساواة بين وسائط الهجوم ووسائط الدفاع. وهذا يعلل عدم تساوي معدل تطور الدفاع الجوي مع معدل تطور الطيران.

استخدم الدفاع الجوي خلال الحرب العالمية الثانية. ومنذ بداية الحرب سارعت الأطراف المتحاربة إلى اتخاذ التدابير الفعالة لتعزيز الدفاع الجوي، وتطوير بنيته التنظيمية.

تضمنت وسائط الدفاع الجوي خلال الحرب العالمية الثانية المدفعية م/ط، والطائرات المقاتلة، ووسائط المراقبة والإنذار والاتصال.

في بداية الحرب لم تكن قوى الدفاع الجوي ووسائطه كافية لتغطية تجمعات القوات وأغراض البلاد بشكل جيد. كما أن وسائط المراقبة والإنذار والاتصال كانت ذات إمكانات محدودة وبالتالي لم تتمكن وسائط الدفاع الجوي من جاهزيتها لصد الضربات الجوية الكثيفة المعادية في الوقت المناسب. كما أن إمكانية المناورة بوسائط الدفاع الجوي كانت ضعيفة.

أدت الأسباب السابقة مجتمعة إلى تخفيض إمكانية وسائط الدفاع الجوي في الصراع ضد وسائط الهجوم الجوي، واقتصار ذلك على المشارف القريبة للأغراض المغطاة أو فوقها مباشرة.

في بداية استخدام الطيران المقاتل اقتصر عمله على تنفيذ الدوريات في المحاور المحتملة لظهور الطيران المعادي، غير أن هذه الطريقة استهلكت طلعات جوية كثيرة، ولم تؤمن كشف الطائرات المعادية في الوقت المناسب.

تمكنت وسائط الدفاع الجوي في تلك الأثناء من تكبيد العدو الجوي بعض الخسائر، ولكنها قادرة على صدِّ الغارات الكثيفة المعادية على المدن وعقد الطريق والسكك الحديدية والموانىء، وتغطية القوات.

وتطورت وسائط الدفاع الجوي خلال الحرب العالمية الثانية، حيث تعددت وسائط المدفعية م/ط، وأصبحت تضم عيارات مختلفة. كما دخلت محطات الرادار في الاستخدام الفعلي، وذلك بالإضافة لتطور الطيران المقاتل، مما أدى إلى زيادة الإمكانات القتالية لهذه الوسائط.

تطورت وسائط الدفاع الجوي خلال حرب فييتنام لتشمل طائرات حديثة مثل الفانتوم، ف ١٠٤، ف ١٠٥، ب ٥٢، وطائرات البحرية، بالإضافة لوسائط التأثير المتنوعة، مثل الصواريخ شرايك والقنابل الموجهة والقنابل التقليدية.

استخدم الفييتناميون في دفاعهم الجوي المقاتلات من طراز ميغ ٢١ بشكل أساسي. والصواريخ م/ط، والمدفعية والرشاشات م/ط من مختلف الأعيرة ١٠٠ ملم، ٥٧ ملم، ٣٧ ملم، ٢٣ ملم، ٥ر١٤ ـــ ٥ر١٢ ملم، بالإضافة لأسلحة المشاة. وبالرغم من التفوق الأميركي الواضح، فقد تمكن الدفاع الجوي من تكبيد الطيران خسائر

كبيرة، ومنعه في حالات كثيرة من تحقيق أهدافه. ففي شهر كانون أول ١٩٧٢ أسقطت وحدات الصواريخ الموجودة حوالي هانوي ٢٥ طائرة منها ١٧ قاذفة طراز ب ٥٢.

نفذ الدفاع الجوي العربي مهامه بكفاءة كبيرة وكان دوره أكثر إثارة خلال حرب تشرين ١٩٧٣، وقد تميز استخدامه بما يلي:

— تطور وسائط الدفاع الجوي حيث شملت الصواريخ م/ط ذات المواصفات العالية، والمدافع الموجهة بالرادار ذاتية الحركة.
— تنفيذ المناورة.
— التعاون الجيد مع الطيران المقاتل.
— تنظيم الدفاع الجوي بشكل صحيح.

تمكن الدفاع الجوي خلال هذه الحرب من تنفيذ معظم مهامه بنجاح. وقد أكدت نتائج الأعمال القتالية لمختلف وسائط الدفاع الجوي على أهمية وسائط استطلاع العدو الجوي، وضرورة تنفيذ التدابير الألكترونية المعاكسة، وتكامل مهام مختلف وسائط الدفاع الجوي، وبالإضافة لاستمرار الدور الهام للمناورة والسمة الجوهرية للعنصر البشري.

وبغية التعامل مع وسائط الهجوم على الارتفاعات المنخفضة والمنخفضة جداً، اتجه الاهتمام لتحسين مواصفات الصواريخ الموجهة الصغيرة المحمولة من قبل الأفراد مثل الصاروخ كوبرا والصاروخ ريد آي، وذلك بزيادة مدى عملها، وتحسين مقاومتها لوسائط الحماية الذاتية في الطائرات. وتعتبر مثل هذه الصواريخ واسطة فعالة أثبتت الخبرة إمكانية الاستفادة منها بشكل كبير، مع الأخذ بعين الاعتبار سهولة استخدامها، وإمكانية تمويهها وتكاليفها البسيطة.

شمل التطور المدافع والرشاشات م/ط وذلك بتزويدها بالرادارات والحواسب الألكترونية، وتثبيتها على عربات مدرعة تؤمن حرية المناورة.

ولا يزال السؤال التقليدي يتردد:

هل الطائرة أو الواسطة الأرضية أقدر على تأمين دفاع جوي قوي؟

من الصعب فصل وسائط الدفاع الجوي والاعتماد على واسطة واحدة بشكل كامل. ولا بد من الطائرة، وبقية الوسائط الأرضية، لتنظيم دفاع جوي حديث. ومن المفيد هنا أن نتذكر أن إحدى طائرات سلاح الجو الفرنسي من طراز جاكوار أُسقِطَتْ بتاريخ ١١ آب ١٩٨٤ في الصحراء التشادية بواسطة رشاش صيني عيار ١٤٫٧ ملم شبه قديم.

تستخدم الولايات المتحدة الأميركية في دفاعها الجوي، بالإضافة للمقاتلات، عدة أنواع من الصواريخ الموجهة أرض ـــ جو، ذات وظائف مختلفة، منها ما هو محمول يطلق من على الكتف، ضد الأهداف المنخفضة جداً على الأمدية القريبة من طراز ريد آي، ستينغر، ومنها ما هو ذاتي الحركة للأمدية القريبة والمتوسطة من طراز شبايل، سيفجارد، هوك، باتربون، ومنها ما هو للأمدية البعيدة من طراز نايك هيروليس، نايك ريوس. كما تستخدم عدة أنواع من الصواريخ الموجهة سطح ـــ بحر من طرازات تالوس، تارتار، ستاندارد، سي سبارو.

يستخدم الصاروخ ستينغر من قبل المشاة، ويطلق من الكتف، يبلغ مداه حوالي ٥ كم ووزنه ١٠ كغ، توجهه سلبي بالتثبيت على الأشعة تحت الحمراء. يعتبر البديل للصاروخ ريد آي.

يستخدم الصاروخ شباريل ضد الأهداف القريبة، ويبلغ مداه حوالي ٤ كم، ووزنه ٨٤ كغ. يطلق من مجنزرة تحمل حتى ٤ صواريخ.

يعتبر الصاروخ هوك من الصواريخ الأميركية الواسعة الاستخدام داخل الولايات المتحدة وخارجها منذ العام ١٩٦٠. وقد تم تعديله ليبلغ مداه ٤٠ كم، ووزنه ٦٢٥ كغ، ويعمل بالتوجيه نصف الإيجابي.

يعتبر الصاروخ باتريوت من أحدث الصواريخ الأميركية، وهو البديل للصاروخ هوك، يعمل هذا الصاروخ في ظروف التشويش السلبي والإيجابي، بالإضافة لقدرته على العمل ضد الأهداف ذات المناورة العالية، يعمل بالتوجيه نصف الإيجابي، ووزنه حوالي

٦٨٠ كغ، ومداه حوالي ٨٤ كم، وسرعته حوالي ٣ ماك، ورأسه الحربي نووي أو شديد الانفجار.

اهتم الاتحاد السوفييتي بالدفاع الجوي وخاصة الوسائط الأرضية أكثر من بقية الدول، ونتيجة لذلك أصبح لديه عدة أنواع من الصواريخ الموجهة أرض ـــ جو من عائلة سام بدءاً من الصاروخ كوبرا المحمول، المخصص للأهداف المنخفضة، وحتى الصواريخ بعيدة المدى. بالإضافة للمدفعية م/ط من مختلف العيارات ومن ضمنها المجموعة شيلكا، ذات الأربع سبطانات المحمولة على آلية مدرعة، والمخصصة للأهداف المنخفضة والقريبة، والتي تعتبر من الأسلحة المتطورة. كما يستخدم الاتحاد السوفييتي عدة أنواع من الصواريخ الموجهة سطح ـــ جو من عائلة سان التي تشبه في مواصفاتها الصواريخ سام.

اهتمت إنكلترا وفرنسا بوسائط الدفاع الجوي بشكل متأخر نسبياً، إلا أنها تمتلك في الوقت الحاضر منظومات دفاع جوي متطورة ومتكاملة.

تستخدم إنكلترا الصواريخ الموجهة أرض ـــ جو من طرازات بلويابب، رابير المحمولة على الكتف، كما تستخدم للأمدية المتوسطة الطرازات، بلوهاوند، تايجركات. كما تستخدم الصواريخ سطح ـــ جو من طرازات سي كات، سي وولف، سي دارت.

تستخدم فرنسا الصواريخ أرض ـــ جو من طراز كروتال وشاهين للأهداف المنخفضة ومن طراز ماترا للأمدية المتوسطة. والصواريخ سطح ـــ جو من طراز كروتال البحري، وايروندبل.

تؤكد خبرات الحرب العالمية الثانية والحرب المحلية، وخاصة حرب تشرين ١٩٧٣ أن الدفاع الجوي سيحتفظ بدوره الهام والفعال في الحرب المقبلة، شريطة استخدامه بشكل متكامل، بالتعاون مع وسائط الحرب الألكترونية، التي يصعب التنبؤ بما قد تقدمه في هذا المجال مستقبلاً.

٦ ـــ القوات البحرية

تهتم القيادات العسكرية في الجيوش العالمية العصرية بأساطيلها البحرية حيث توجه قيادات القوى البحرية بدورها اهتمامها الخاص لزيادة الإمكانات القتالية لقطع

أساطيلها وتشكيلاتها، وتنسيق أعمالها مع أعمال القوات الجوية والبرية، والمساهمة بصورة فعالة في الهجوم والدفاع، وكسب المعلومات، وتنفيذ القيادة في آن واحد.

لم يكن دور القوات البحرية للأطراف المتصارعة في أية حرب سابقة كما سيكون عليه في الحرب المقبلة، بعد التطور الكبير الذي طرأ على السلاح البحري كماً وكيفاً، وبعد تزويده بأحدث الرادارات والحواسب والأجهزة الألكترونية من جهة، وأكثر الصواريخ دقة من جهة أخرى.

وليس هذا من المستبعد أن تتسع الحرب العالمية الثالثة لتشمل المحيطات والقارات كافةً، التي أصبحت عملياً هدفاً مخططاً لغواصات الأطراف المتصارعة وسفنها.

ويرى المختصون في هذه الشؤون أن الحرب البحرية سوف تلعب دوراً هاماً بالنسبة لكلا الطرفين، في قطع الأجنحة المؤدية إلى مسارح الأعمال القتالية المتوقعة في أوروبا، ومراقبة خطوط الاتصال القائمة بين الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها في أوروبا وآسيا. كما أنها سوف تكون وراء تنفيذ العمليات الهجومية الاستراتيجية من قواعد بحرية على الولايات المتحدة الأميركية، وعلى الأراضي السوفييتية.

وتوجه قيادة القوى البحرية الأميركية اليوم الاهتمام الكبير لزيادة إمكانات القوى البحرية. ويخصص لها دور خاص ليس فقط في الحرب بل وفي ممارسة السياسة العدوانية، من خلال اعتبارها وسيلة لاستعراض القدرة العسكرية.

وقد طرأت على القوى البحرية الأميركية ـــ وهو ما حدث بالنسبة للسوفييت والدول العظمى الأخرى، خلال السنوات العشر الأخيرة تعديلات جذرية، حيث تم بناء الغواصات النووية، وحاملات الطائرات والطرازات السريعة. كما تم تبديل السفن والأسلحة والأعتدة القديمة بأنواع جديدة.

وتشير المعطيات الموثوقة إلى أنه في الوقت الحاضر تمتلك الولايات المتحدة الأميركية ٥٠٠ سفينة قتالية بينها ٤٠ غواصة نووية مزودة بالصواريخ الباليستية، و٩٠ غواصة نووية متعددة الأغراض، و ١٤ طراداً مزوداً بالسلاح الصاروخي، وحوالي ٢٠٠ مدمرة وفرقاطة، و٦٧ سفينة إنزال.

يتواجد على السفن والغواصات حوالي ثلاثة أرباع القوة الأميركية النووية.

ومن المخطط له تعزيز القوى البحرية الأميركية بـ ٢٠ غواصة نووية من طراز أوهايو مزودة بالصواريخ النووية ترايدنت، حيث أدخلت ست غواصات منها في الاستخدام.

إن رشقة واحدة من غواصة ترايدنت أقوى بألفي مرة من الانفجار النووي الذي حدث في هيروشيما اليابانية.

إن الميزة الهامة الجديدة تتلخص في ذلك التزويد المتواصل للسفن الحربية والغواصات والطائرات المضادة للغواصات م/غ، بعدد كبير ومتطور من الصواريخ المضادة للسفن م/س من طراز هاربون، التي يبلغ مدى رميها ستة أضعاف مدى رمايات الطوربيدات.

تستطيع الغواصات النووية المزودة بهذه الصواريخ توجيه الضربات النارية ضد الأهداف الأرضية على مسافة حتى ٢٧٠٠ كيلو متراً. وتعتبر حاملات الطائرات اليوم مجالاً هاماً يركز الانتباه عليه في القوات البحرية العصرية. وهو ما يتضح في الولايات المتحدة الأميركية التي غالباً ما تحمل الحاملة الواحدة منها حوالي مائة طائرة، منها ٤٠ حاملة للسلاح النووي ــ وهذه هي قوتها الضاربة.

ومعروف هنا أن الولايات المتحدة الأميركية غالباً ما تستخدم الحاملات لتهديد أمن الشعوب، وخرق المياه الإقليمية، وعرض عضلاتها العسكرية. وهو ما برهنت عليه أحداث لبنان ١٩٨٢، وأحداث نيكاراغوا، حيث دخلت حاملة الطائرات المعروفة باسم أميركا المياه الإقليمية لنيكاراغوا. وقصفت الطائرات الأميركية المتمركزة على حاملة الطائرات ايزنهاور بشكل بربري الأحياء السكنية في بيروت وغيرها من المدن والقرى اللبنانية.

وخلال السنوات العشرين الأخيرة تمَّ في القوى البحرية الأميركية تحديد القوام القتالي للطيران البحري نوعياً، حيث تم تسليحه بطائرات الدعم الجوي، والمقاتلات والطائرات م/غ العاملة على حاملات الطائرات والمطارات الساحلية، من طراز هاريير A.V-8 وانترودر A-6E وتوم كات F-14.

ومؤخراً ظهرت الطائرات المقاتلة الداعمة الأميركية من طراز هورنيت FA.18 .

إن الاتحاد السوفييتي لم يتأخر بدوره في هذا المجال ، حيث استغل وإلى أبعد حدود إنجازات الثورة العلمية التكتيكية لتطوير القاعدة الفنية ــ التقنية للأسطول البحري السوفييتي .

فمنذ الخمسينيات يتجه السوفييت إلى إنشاء أسطول بحري صاروخي نووي ــ أسوة بالأميركيين ــ قادرٍ على العمل في المحيطات . بعد هذا يجري اهتمام وعمل كبيرين لبناء أسطول متطور من الغواصات . وفي مطلع السبعينيات تلحظ اتفاقية سالت ١ التوازن بين الجبارين ، والقدرة السوفييتية البحرية الكبيرة الموازية للقدرة الأميركية .

إن التطور اللاحق يستهدف في الوقت نفسه تجميع الإمكانات القتالية القصوى في كل غواصة ، مع الحفاظ على الحمولة الأكثر اقتصاداً ، وتأمين تنفيذ المهام بصور أكثر فعالية ، مع الحدود الدنيا للتكلفة .

في مقابل تطور الغواصات كجزء مكون هام من الأساطيل البحرية كان السلاح المضاد لها يتطور هو الآخر . وهذا يتفق مع جدلية التطور بين الأضداد .

فالطرف الآخر أصبح يكتشف أماكن تواجد الغواصات وعملها على مسافة أكبر بكثير مما كانت عليه في الخمسينيات والستينيات ، كما أصبح يمتلك وسائط تأثير جديدة ، تؤمن العمل ضد الغواصات ، مهما كانت أعماق عملها .

لكن الأسطول البحري ليس هو الغواصات فقط ، بل مجموعات أخرى من السفن ذات المهام المتعددة . منها سفن الدعم ، والزوارق السريعة المزودة بالأسلحة الصاروخية ، وسفن المدفعية التي تنفذ مهام خاصة ، كمرافقة سفن النقل في أثناء الرحلات ، وتأمين الإنزال البحري ، بفضل سرعة المدافع العالية ودقة رميها .

تلعب السفن العاملة فوق الماء دوراً رئيسياً في إزالة الألغام البحرية ، خاصة بعد أن زودت مؤخراً بوسائط كشف وإزالة متطورة . وتم تحسين قابليتها على الإبحار ، والعمل المستمر لمدة طويلة داخل مياه البحر .

ويعتبر من الإنجازات العسكرية الهامة في مجال القوى البحرية إنشاء سفن الإنزال

البحري الخاصة التي تؤمن تنفيذ الإنزال البحري، مع الأسلحة والأعتدة الثقيلة على الساحل غير المجهز للإنزال مسبقاً.

وجاءت الخطوة الجديدة في عالم تطوير القوى البحرية حيث كانت السفن الجديدة من حيث المبدأ، والعاملة فوق سطح الماء كالسفن المجنحة، والسفن السابحة على مخدات هوائية. وإن هذا النوع قابل للسير فوق سطح الماء والمناطق الثلجية، واجتياز المضاحل، والتنقل الحر من البحر إلى البر (الثلج) وبالعكس، وهو ما أكسب هذه السفن مناعة ضد التأثير بالطوربيدات والألغام، ومكن في الوقت نفسه من توسيع منطقة استخدامها القتالي.

وخلال السنوات العشرين الأخيرة اعتبرت الصواريخ التي تطلق من الغواصات من ضمن الأسلحة الاستراتيجية، والتي تلي بالأهمية الصواريخ الباليستية العابرة للقارات. ولقد أنفقت جميع الأطراف المبالغ الهائلة من ميزانيات واعتمادات القوى البحرية لتحسين حماية الصواريخ، التي تطلق من الغواصات، ومهاجمة المعادية منها.

ولقد شمل التطور في الوقت نفسه تكتيك خوض الأعمال القتالية البحرية، وأساليب عمل قطع الأسطول، سواء أكانت بصورة فردية مستقلة، أو عن طريق التشكيلات أو أخيراً بالتعاون مع أنواع القوات الأخرى.

فقبل الحرب العالمية الثانية كان هناك مظهران للحرب البحرية:

الأول: مهاجمة التجارة المعادية.

والثاني: الاشتباك في معركة مكشوفة مع الأسطول المعادي، ومنعه من التدخل لإعاقة سير الأعمال القتالية الصديقة.

كانت معركة السفن أساس ولب أية معركة بحرية، كما كانت منصة المدفع العائم على سفينة خشبية من سلسلة زمن نلسون، أو أية مدرعة فولاذية مصقولة من الحرب العالمية الأولى، هي الأداة الأساسية للاشتباك الناري والقتالي.

كانت السفن يشتبك بعضها مع بعضها الآخر في خطوط متقابلة طويلة وتنفذ رمايات نارية بحجم كثيف للغاية.

أما في الحرب العالمية الثانية فقد حل محل سفينة المعركة كمحرك أساسي للصراع البحري الطيران المقاتل المتمركز بحراً. هنا سيطر نموذج حاملة الطائرات على المعركة البحرية في الحرب العالمية الثانية، هذا النموذج الذي ترجع بداياته إلى الحرب العالمية الأولى.

كانت معركة بحر المرجان عام ١٩٤٢ أول اشتباك في التاريخ من هذا النوع، حيث لم تظهر القوات البرية على مرأى، أو ضمن مجال المدفعية لكلا الطرفين، بينما جرت الأعمال كلها ونفذت بواسطة الطائرات المتوضعة على الحاملات. والشيء نفسه بالنسبة للمدفع الذي استعيض عنه بالطائرة.

بعد هذا جاء دور الصاروخ الذي أصبح الأداة الأساسية، والواسطة النارية الأقوى لتدمير الأهداف المعادية حتى على أرض العدو.

وعلى هذا استمر عهد مثل هذه الصواريخ حتى الستينيات فقط، حيث ظهرت الصواريخ الباليستية التي تطلق من الغواصات. ونتيجة لهذا تغيرت المهمة الرئيسية للقوات البحرية لكلا الطرفين، وأصبحت تتلخص بحماية قوات الصواريخ الباليستية العاملة في الغواصات، ومحاولة ضرب مثيلتها المعادية، وتأمين وصول القوات البرية إلى المنطقة والمكان المحدد، وحماية تأمين عمليات نقل المؤن والمعدات.

في الثمانينيات اتضح أن التغيير الأكبر للقوة الضاربة في الحرب البحرية يتجلّى في الإمكانات النووية الاستراتيجية المرعية، والتي أضافت أبعاداً جديدة لكل من الحرب النبووية والتهديد النووي. وهو ما دفع بالغواصات إلى أعلى درجات سلم الأولوية، وأظهر بالمقابل أهمية الحرب المضادة للغواصات. لقد تم هذا التغيير عن طريق تزاوج الغواصة النووية والصاروخ الباليستي البعيد المدى.

وقد ساعدت القوة النووية على إنجاز إحدى نقاط الضعف في الغواصة ــ الحاجة إلى الصعود لسطح الماء من أجل الهواء، ومن أجل شحن البطاريات ــ ذلك لأن الغواصة النووية لا تحتاج أبداً إلى الصعود لسطح الماء. ولهذا فإن التزايد المستمر لمدة بقائها في العمق، وسرعتها يجعل منها الواسطة الأقوى في إيجاد الأهداف وتدميرها.

إن معركة البحر المقبلة هي معركة الغواصات النووية المزودة بصواريخ باليستية،

تقذف من البحر، وتقطع مسافات توازي المسافات التي تقطعها الصواريخ الباليستية عابرة القارات، والتي تقدر ما بين ٤٠٠٠ ــ ٥٠٠٠ ميل.

إن مدى الصواريخ الباليستية المقذوفة من البحر قد تغير الآن، بعد أن كان قليلاً في الماضي.

فالصواريخ السوفييتية س س ــ ن ــ ٥ و س س ــ ن ٦ كان مداها على التوالي ٧٠٠ و ١٥٠٠ ميل.

والصواريخ الإسرائيلية من طراز بولاريس وبوسيدون كان مداها على التوالي ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ ميل.

ولكن مع مطلع السبعينيات قدم الاتحاد السوفييتي الصاروخ س س ــ ن ــ ٨ حيث زاد مداه على ٤٢٠٠ ميل، ثم طور المدى إلى ٤٥٠٠ ميل.

أجاب الأميركيون في نهاية عام ١٩٧٩ بوضع المركب البحري الأميركي الأول المسمى فرنسيس سكوت لي الذي يحمل الصاروخ الباليستي المقذوف من البحر ترايدنت ــ I والذي يبلغ مداه ٤٠٠٠ ميل.

إن أهمية الزيادة وفاعليتها في أمدية مثل هذه الصواريخ تتجلى في كونها تقلل من احتمال إصابة الغواصات التي تقوم الآن بحراسة المحيطات وحمايتها.

إن الصواريخ الباليستية البحرية تختلف من خلال أنابيب في الغواصات، وبالتالي فإن إنتاجية الرأس الحربي وفعاليته فيها أقل.

كما أن الصواريخ الباليستية التي تقذف من البحر تعتبر ذات إطلاق بارد يدحرج المركب إلى أحد جانبيه ويقذف الصاروخ بواسطة غاز مضغوط، قبل أن يقدح المحرك. وعملية المركب وحركته هما ضمان مسبق أولي للتأكد من أن الصاروخ سوف لا يسقط إلى الخلف على المركب.

والصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر ليست دقيقة مثل العابرة للقارات التي تطلق من منصات متحركة.

ومع هذا فقد تم تحسين كبير في مجال دقة الإصابة، حيث يمثل الصاروخ الأميركي ترايدنت ــ II أحدث تقنية في هذا المجال.

أما في الوقت اللازم لوصول الصواريخ الباليستية البحرية والبرية إلى أهدافها فهو تقريباً واحد ــ حوالي ٣٠ دقيقة وسطياً ــ بعد الإطلاق.

إن التطور قد لحق بدوره الوسائط البحرية التي تحمل هذه الصواريخ. فالسوفييت أطلقوا أول صاروخ باليستي بحري في العام ١٩٥٧ من غواصة ديزل طراز زولو مطورة، ثم ظهر الصاروخ من نوع غولف، وهو نيل المقذف من غواصة نووية.

استخدم السوفييت ٣٤ حركياً نووياً من نوع يانكي يحمل كل منها ١٦ صاروخاً من طراز س س ــ ن ــ ٦ ذات الأمدية من ١٣٠٠ ــ ١٦٠٠ ميل، حيث أخذت على عاتقها أعمال الدورية على السواحل الشرقية والغربية للولايات المتحدة الأميركية.

في العام ١٩٧٢ ظهر نوع آخر من هذه المراكب دلتا ــ I يحمل ١٢ صاروخاً من طراز س س ــ ن ــ ٨ ثم دلتا ــ II ١٦ صاروخاً ثم دلتا ــ III الذي يحمل صاروخاً من طراز س س ــ ن ــ ١٨.

مقابل ذلك وضع الأميركان عام ١٩٦٠ أول غواصة تحمل صواريخ باليستية مقذوفة من البحر في المحيط الأطلسي، لتنفيذ أعمال الدورية، وفي البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٦٣، وفي الشرق الأقصى عام ١٩٦٤.

شيدت الولايات المتحدة الأميركية خمسة أصناف من الغواصات التي تحمل صواريخ باليستية مقذوفة من البحر وهي: جورج واشنطن س س ــ ن ــ ٥٩٨ عام ١٩٥٩، تحمل ١٦ صاروخاً من بولاريس. ايتان الين س س ب ن ــ ٦٠٨ عام ١٩٦١، وتحمل كذلك ١٦ صاروخاً من بولاريس لافابيت س س ب ن ــ ٦١٦ عام ١٩٦٣، جيمس ماديسون س س ب ن ــ ٦٢٧ عام ١٩٦٤، بنيامين فرانكلين عام ١٩٦٥، وهذه الأخيرة يحمل كل منها ١٦ صاروخاً من طراز بوسيدون. ويجري الآن تحويل هذه المراكب لتحمل الصواريخ ترايدنت ــ I وترايدنت ــ II).

دخلت اليوم إلى الخدمة السفينة المركب أوهايو س س ب ن ــ ٧٢٦ وهي مزودة

بـ ٢٤ صاروخاً من طراز ترايدنت ـــ I . تعتبر أوهايو قفزة كبيرة في عالم التقنية البحرية من حيث الحجم والقوة ، وبهذا فقد قدم السوفييت ما يقابلها تيفون .

في بريطانيا توجد صواريخ باليستية مقذوفة بحراً . حيث استخدم البريطانيون قوارب بحرية من نوع رزليوشن ، يحمل كل منها ١٦ صاروخاً من طراز بولاريس .

وفي العام ١٩٨٠ تمّ تحديث هذه الصواريخ وتزويدها برؤوس نووية حربية ، من تصميم بريطاني تدعى تشينغالاين بإنتاجية قدرها ميغا طن واحد .

في التسعينيات تخطط بريطانيا لاستبدال مراكب رزليوشن بأخرى تحمل صاروخ ترايدنت ـــ I .

أما لدى فرنسا فيوجد ٨٠ صاروخاً باليستياً بحرياً على خمسة مراكب من نوع ريدوماتل وسوف يتم تحديثها .

إن أهمية الصواريخ الباليستية البحرية تكمن ـــ بالرغم من تواضع دقتها ـــ في كونها ليست عرضة للهجوم المعادي ، لأن منصات إطلاقها متحركة ومغمورة في المياه ، لذلك فإن هناك اعتقاداً راسخاً بأنها سوف تمنح كل طرف ضربة ثانية مؤكدة ، أو القدرة على القيام بضربة انتقامية .

يلقى التعامل مع الغواصات المعادية التي تحمل صواريخ باليستية مقذوفة من البحر أهمية كبيرة اليوم ، باعتباره من أولى المهام الرئيسية للبحرية العائدة لكلا الطرفين .

يتم كشف مكان تواجد المراكب ووضعها بدقة كافية لتدميرها بواسطة السفن السطحية والغواصات والطائرات ، وعناصر متحسسة دائمة ومؤقتة .

وما زال السونار هو الواسطة الأساسية للكشف عن الغواصة حيث يقوم بقياس الاتجاه وزمن العودة لصدى الصوت .

تم تطوير السونار الإيجابي والسلبي اليوم إلى درجة متناهية ، وزاد مدى الكشف والقدرة على معرفة باعث الضجيج وتحديده فعلاً .

يعتبر كشف الهدف القسم الأول من مشكلة الصراع معه ، يليه الهجوم عليه

وتدميره. وهناك تنوع كبير في الأسلحة الفعالة ضد الغواصات، حيث يعتبر الهجوم بالغواصات النووية المسلحة بالطوربيد الأكثر فعالية عن بُعْدٍ للحرب المضادة للغواصات لكلا الطرفين.

لهذا عمد الاتحاد السوفييتي مؤخراً لتجهيز حوالي نصف قوة غواصاته التي تعمل بالطاقة النووية بالصواريخ.

بينما لدى الولايات المتحدة الأميركية اليوم ٧٠ غواصة هجومية تعمل بالطاقة النووية، بما في ذلك ١٢ من نوع لوس انجلوس س س ن ـــ ٦٠٨ وهي عبارة عن مراكب زنتها ٩٠٠٠ طن مسلحة بصواريخ مضادة للغواصات وطوربيدات م/غ. وقد دخلت الخدمة في العام ١٩٧٦.

ويهتم الاتحاد السوفييتي كثيراً بالصواريخ الطوافة، حيث لديه ٤٦ مركباً يعمل بالطاقة النووية مزوداً بها، كما يعتمد على مركب الهجوم، ولديه منها ٤٥ مركباً، بالإضافة إلى ٢٣ مركباً للصواريخ الطوافة، يعمل بالديزل، و١٤٣ غواصة هجوم بالطوربيد، تعمل بالديزل.

إن استراتيجية الحرب البحرية المقبلة ستكون على أساس التقابل بين القوتين الكبيرتين، الأطلسي ووارسو، حيث سيشن الغربيون هجومهم فيدافع الشرقيون، وينفذون المعركة ضد غواصات الصواريخ الباليستية، محتفظين بقواربهم من طراز دلتا وبتفون، مع الصواريخ البعيدة المدى في المياه الإقليمية، ومستخدمين الطيران المتمركز على السواحل.

وبالرغم من أن الاتحاد السوفييتي كان متخلفاً عن الولايات المتحدة بحرياً في الخمسينيات إلا أن اتفاقية سالت ـــ I الموقعة عام ١٩٧٢ قد أكدت على توازنهما في هذا المجال. بينما تؤكد الدراسات الأخيرة الموثوقة على تفوقه في امتلاك عدد أكبر من السفن. إلا أن تقنية سفن الناتو عالية وذات قدرات متعددة المهام. فالطراد الموجه الأميركي حامل الصواريخ ايجبس يعتبر ثورة في عالم التقنية البحرية. وهو عبارة عن سفينة زنتها ٨٨٠٠ طن، وثمنها ٧٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أميركي. يتم التحكم بعملها بواسطة حاسب ألكتروني، ونظام دفاع راداري موجه، باستطاعته الإرسال في كافة الاتجاهات بآن واحد.

ويكتشف ويلاحق ويشتبك مع الصواريخ الواردة . وفي الوقت نفسه يستمر في البحث عن صورايخ غيرها .

سوف تستخدم الحاملات من قبل الطرفين في الحرب المقبلة ، لأنها تملك النوعين من المهام الحرب المضادة للغواصات ، والهجوم النووي . وسوف يمتد الدفاع الجوي عنها لعدة مئات من الأميال ، وسوف تستخدم أنظمة الإنذار المحمولة جواً ، وأنظمة المراقبة من طراز اواكس ، والطيران المعترض .

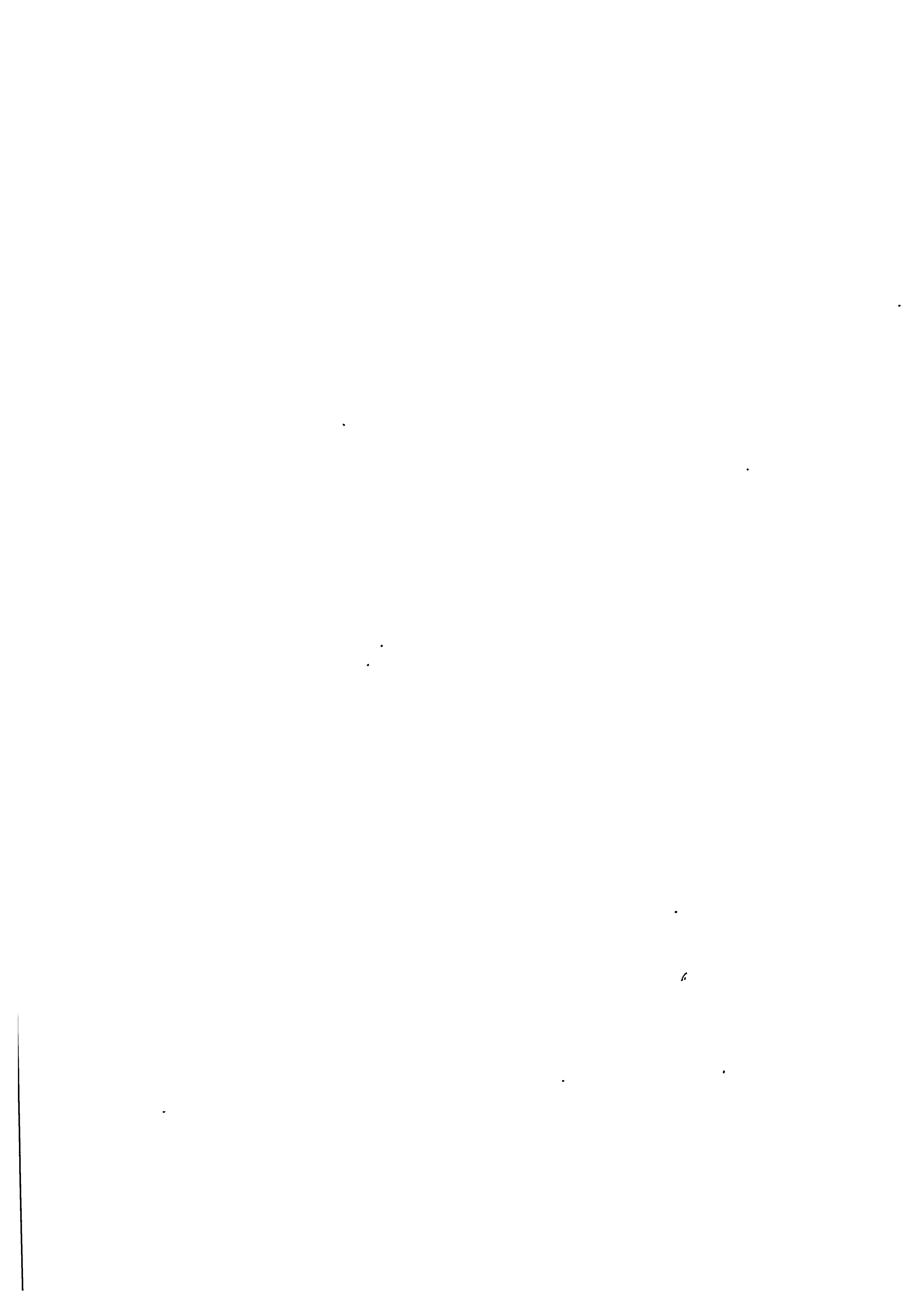
فعندما تكتشف الأواكس طائرة سوفييتية سوف تطلق عدداً أكبر من أجل محاولة إسقاطها قبل أن تستطيع إطلاق صواريخها . وبعد الإطلاق سوف تواجه الصواريخ السوفييتية منطقة دفاع بعيد المدى من الصواريخ أرض ـــ جو ذات الدقة العالية .

سوف تكون الطائرات بعيدة المدى والأقمار الصناعية عناصر هامة في المعركة البحرية المقبلة . وسيلجأ كل طرف إلى آخر ما لديه ، إن في مجال التقنية أم فن الاستخدام القتالي للتشكيلات البحرية العصرية .



الفصل الرابع

الجغرافية الاستراتيجية (الجيوستراتيجيا)



مقدمة

سعى الإنسان منذ القدم، بدافع الحاجة وحب الاطلاع، إلى التعرف على محيطه الأرضي، بدءاً من المناطق القريبة منه، حتى أبعدها عنه. فاكتشف أن الطبيعة الجغرافية تختلف بين منطقة وأخرى، في حين تتشابه الشروط المعيشية في المناطق ذات الطبيعة المتماثلة. وهكذا قسم الأرض تبعاً لهذه المعلومات، فكانت الوديان والسهول التي يمكن العيش فيها، ثم الجبال القاسية والأراضي القاحلة، التي لا تنبت زرعاً، والخصبة الغنية بالمياه. وفي مرحلة لاحقة وضع هذه المعلومات كتابة، سواء بنصوص وصفية أو برسوم تخطيطية. وكان لكل عصر جغرافيوه الذين ما زالوا يدهشوننا بمدى دقة المعلومات التي توصلوا إليها، برغم قلة الإمكانات التي توفرت لهم آنذاك. وكان لليونانيين والعرب باع طويل في هذا المجال. ولا شك في أن الدقة هي دوماً نسبية، وبالتالي فإن أدق المعطيات الجغرافية القديمة تبدو لأعيننا المعاصرة أقرب إلى الخيال المبدع منها إلى الواقع الفعلي. ومع ذلك كانت أساساً للاكتشافات الجغرافية اللاحقة، ودليلاً للرحالة عبر العالم. وكان لا بد من الانتظار حتى نهاية القرن الثامن عشر للحصول على معطيات جغرافية مقبولة الدقة، للمناطق المكتشفة فعلاً، بعد أن توفرت أدوات القياس الدقيقة نسبياً، والقادرة على تحديد المواقع بدقة، وعلى حساب الأبعاد والارتفاعات إلخ..

تعرف الإنسان على الطبيعة الجغرافية للأرض منذ زمن موغل في القدم. وشعر بالروابط المتينة بين طبيعة المنطقة والقدرة على العيش فيها، ونوه الجغرافيون الأقدمون

بالعلاقة بين المجموعات السكانية وبين الحيِّز من الأرض الذي تشغله كل مجموعة ، وتأثيره على تصرفاتها : فسكان الجبال يختلفون من حيث الطبع والقدرة على تحمل المشاق عن سكان السهول ، وإنسان الداخل غير إنسان الساحل .. إلخ . واهتم قادة الشعوب بذلك ، واستفادوا من هذه الصفات ، أو على الأقل أخذوها بعين الاعتبار . ولكنهم لم يولوا حتى عهد قريب أي اهتمام للعلاقة المتينة بين الجغرافية والسياسة . وإذا كان العالم قد قسم إلى دول وفق أسس جغرافية فإن سبب ذلك هو فقط حدة التنافس التي عمت الكرة الأرضية ، نتيجة الاكتشافات الجغرافية الهامة . وربما كان مفهوم ديشوليو في القرن السابع عشر (للحدود الطبيعية) أول ربط واقعي للسياسة بالجغرافية .

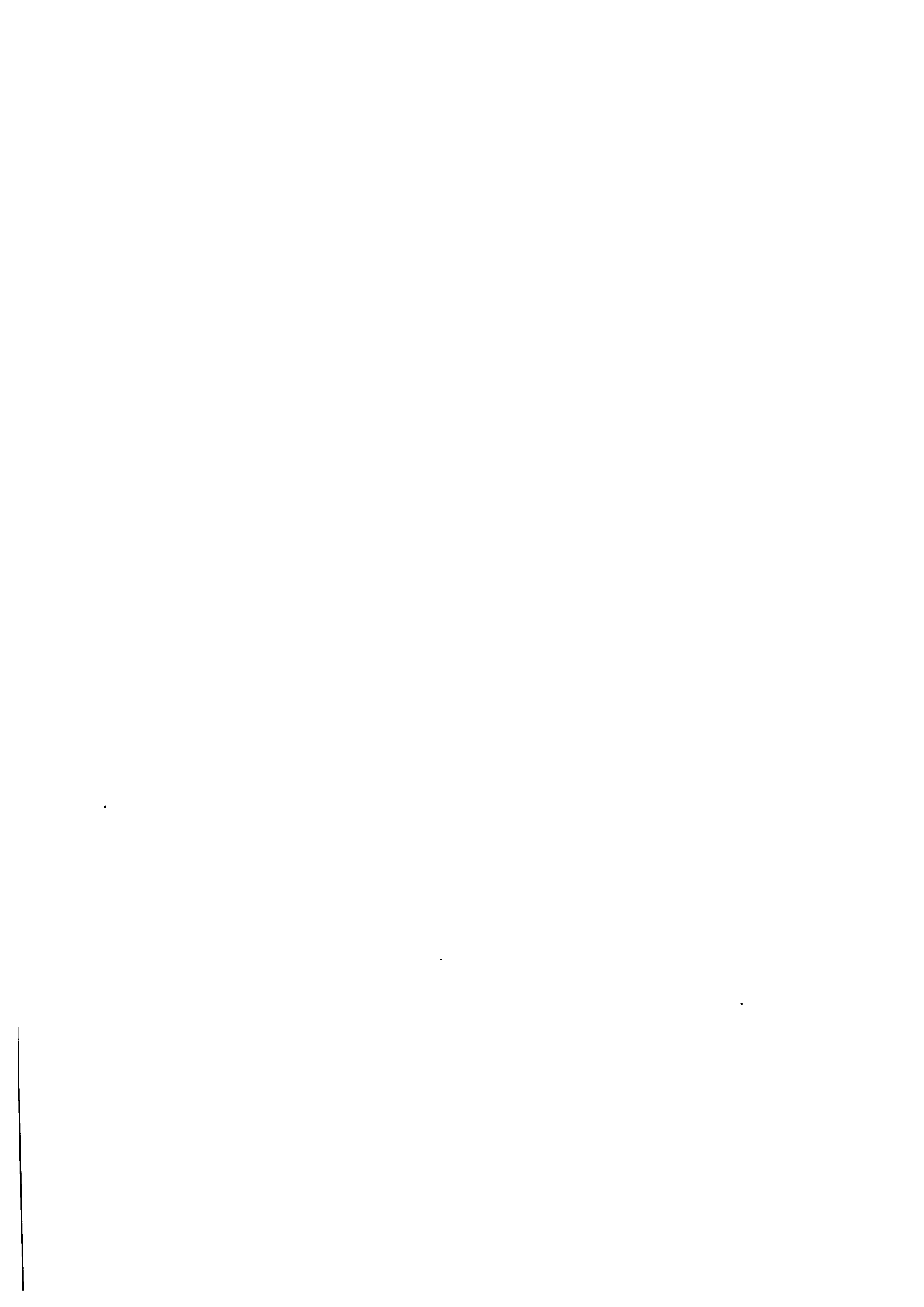
ثم ظهر بعض المفكرين من ذوي النظرة الواقعية والخيالية بآن واحد ، الذين اهتموا بإبراز العلاقة بين العناصر الجغرافية الثابتة والحياة اليومية للإنسان كفرد ، وكمجموعة سكانية . ونظراً لأن حياة الكفاح مقسمة إلى حروب ، يفصل بينها فترات من السلام ، كان لا بد لكل من السياسي والعسكري من الاهتمام بالعوامل الجغرافية . وإن كان مجال هذا الاهتمام قد بقي متبايناً ، إذ نظر كل منهما إليها من زاوية معينة ، خاصة وأن الجغرافية لم تكن تقدم آنذاك سوى معطيات جامدة .

لم يعد هذا مقبولاً في العصر الحديث . وقد اكتسبت الجغرافية معاني وقيماً مختلفة تماماً بعد أن سمحت الأساليب الجديدة والوسائط العلمية الحديثة بالتعرف بدقة على مختلف الظواهر الكونية ، بل واكتشاف التبدلات الطارئة عليها ، وأحياناً التنبؤ مسبقاً بالظواهر الطبيعية . كما أصبح بإمكان الإنسان التدخل لتعديل بعض العوامل الطبيعية ، مع معرفة مسبقة بالنتائج ، التي سوف تنجم عن هذا التعديل ، ومدى تأثيرها على التوازن القائم . وبما أن مثل هذا التعديل قد يتم وفق أسس علمية ـــ أي بصورة سلمية ـــ أو بوسائط حربية ، فإنه في الحالتين يعتبر تجسيداً للإرادة السياسية للدولة ، وبالتالي موضع اهتمام السياسي والاستراتيجي بآن واحد ، ومن منطلق موحد .

لا بد إذن في العصر الحديث من التعاون الوثيق بين السياسي والاستراتيجي في مختلف المجالات ، ومنها توحيد مفاهيمهما الجغرافية . ولم تكن مقولة كلاوزفيتز بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى ، صادقة في أي عصر كما هي في عصرنا الحالي .

ومن إدراك أهمية العوامل الجغرافية وتزايد أثرها على القرارات السياسية ظهر علم جديد ــ حديث نسبياً ــ يشمل مجالي الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية.

وعلى الرغم من كون هذا البحث اقتصر على الجغرافية الاستراتيجية، فلا بدّ من التعرض باختصار لأهم الأفكار الجغرافية السياسية التي لها علاقة مباشرة بالجغرافية الاستراتيجية المعاصرة.



أولاً ــ الجغرافية السياسية (الجيوبوليتية)

هي مجال دراسي يهتم بمدى تأثير المحيط الطبيعي لدولة ما، على الحياة السياسية فيها، سواء الداخلية منها أو الخارجية. وكانت هذه التسمية (الجغرافية السياسية) قد أطلقت قبيل الحرب العالمية الأولى من قبل العالم السياسي السويدي رودولف كيلن (١٨٦٤ ــ ١٩٢٢)، ثم عمّت إبان الحرب العالمية الثانية، بعد أن طورها عدد من المفكرين، كان أبرزهم الجنرال والمفكر السياسي الألماني كارل هاوسهوفر (١٨٦٩ ــ ١٩٤٥)، الذي بنت ألمانيا النازية تطلعاتها السياسية على أفكاره، وإن كان قد انتحر في النهاية احتجاجاً على سوء استغلال آرائه.

لا يوجد في الواقع تعريف دقيق للجغرافية السياسية. وقد عرفها الجنرال هاوسهوفر بأنها: «علاقة الأرض بالقرارات السياسية» في حين وصفها الكولونيل الأميركي كلابوغ في العام ١٩٤٨ بكونها: «علماً يجمع بين الجغرافية والتاريخ والسياسة، ويهدف إلى شرح أسلوب تصرف دولة ما، ومن ثم إتاحة الفرصة للدول الأخرى للتنبؤ بهذا التصرف المحتمل». ونظراً لتعدد المفاهيم وتنوع الآراء ظهرت مدارس مختلفة للجغرافية السياسية، سنتوقف هنا فقط عند المدرسة البريطانية، وعلى رأسها ماكندر ١٨٦١ ــ ١٩٤٧، لما لأفكاره من بعد شمولي عالمي من جهة، وللأثر الذي خلفته آراؤه على السياسة العالمية المعاصرة من جهة أخرى.

يرى ماكندر أن كوكبنا مؤلف من كتلة أرضية واحدة هي كتلة أوروبا وآسيا

وإفريقية . وقد أطلق عليها اسم (جزيرة العالم) و اعتبر أن مركزها هو قلب العالم . وحدد موضع هذا القلب في المنطقة التي تشغلها روسيا . وخرج من ذلك كله بمقولة مشهورة تفيد بأن « كل من يشغل أوروبا الشرقية يمسك بقلب العالم ، ومن يملك القلب يقود جزيرة العالم ، ومن يسيطر على هذه الأخيرة يهيمن على العالم بأسره » . قد يكون من المفيد معاودة قراءة تاريخ أوروبا القديم انطلاقاً من هذه الأفكار .

ويتابع ماكندر فيقسم الكرة الأرضية إلى بحر وبر ، وبالتالي إلى قوى محيطية وقوى قارية . وهو يعتقد أن **القوة القارية** التي تسيطر على اليابسة ، وتملك قوة بحرية كافية ، بإمكانها السيطرة على العالم ، وهذا يستدعي حكماً أن تكون هذه القوة القارية مؤلفة من كتلة متماسكة مزودة بأسلحة حديثة ، ولها أسطول بحري قادر على التوغل حتى المحيطات البعيدة . ويرى ماكندر أن روسيا وحدها هي التي تملك مثل هذه الكتلة والقوة البحرية ، ويدعوا العالم الغربي إلى السعي لمنعها من الوصول إلى البحار المفتوحة ، إذا رغب فعلاً بالوقوف في وجه سيطرتها على العالم .

وبقي ماكندر حتى أواخر سني حياته متمسكاً بأسس نظرياته هذه رغم أنه عدل فيها قليلاً بسبب بروز الولايات المتحدة الأميركية كقوة عالمية كبرى .

وكان المفكرون الألمان النازيون قد استندوا إلى أفكار ماكندر هذه في تطوير آرائهم السياسية ، واكتفوا بإزاحة (قلب الأرض) قليلاً نحو الغرب ليكون ألمانيا بدلاً من روسيا .

ثانياً ــ الجغرافية الاستراتيجية (الجيوستراتيجية)

هي جمع المعطيات الجغرافية الأساسية ودراستها ومقارنتها وتفسيرها ثم الاستفادة منها في وضع الخطط الحربية، والإشراف على سير العمليات خلال الحرب. والواقع أن اهتمام القادة العسكريين على مختلف المستويات، بالواقع الجغرافي الطبيعي لساحات العمليات قديم قدم الحروب. ولكن اتساع مسارح العمليات الحديثة بسبب التطور الهائل الذي شاهدته الأسلحة والوسائط القتالية المعاصرة فرض على القائد الاستراتيجي أخذ عوامل جديدة عديدة أخرى بعين الاعتبار.

فالمعروف أن مسرح العمليات الحربية بالمفهوم التقليدي هو المساحة من الأرض التي تدور عليها العمليات الحربية. وتحدّد أبعاده أساساً بهدف الصراع على المسرح نفسه، وضمن الحدود التي تصلها الوسائط النارية. وهكذا لم يتجاوز مسرح العمليات إبان الحرب العالمية الثانية حدود المؤخرات العملياتية، في حين بقيت المؤخرات الاستراتيجية، بالإضافة إلى باقي أراضي الدولة الخصم خارج هذا المسرح.

أما الآن، ومع ظهور الطائرات بعيدة المدى، والأسلحة النووية والصواريخ العابرة للقارات، فقد تبدلت وبشكل جوهري كافة المفاهيم المتعلقة بمسرح العمليات، الذي أصبح يشمل، وفق المفهوم الحديث، كامل أراضي الدول المتحاربة، وتلك المتحالفة معها، بالإضافة إلى مجالاتها الجوية وحتى الفضائية، إذ ليس للوسائط النارية الحديثة من

مدى محدود في إطار دولة معينة . وقد تكون حدود الدولة أو القارة هي حدود المسرح العملياتي ، تبعاً للأغراض الاستراتيجية المطلوب تدميرها ، والمسايرة للهدف السياسي .

إن اتساع مسرح العمليات ، وشموله لمساحات جغرافية أبعد بكثير من حدود منطقة معينة ، بالإضافة إلى توفر وسائط نارية قادرة على ضرب أهداف بعيدة جداً ، تحت تصرف القائد العسكري ، والتي قد يؤدي استخدامها بقرار فردي إلى نتائج تتناقض وسياسة الدولة ، يفرض قيام تعاون وثيق جداً بين السياسي والاستراتيجي ، قد يؤدي غالباً إلى تداخل بين الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية ، لا بد من أخـذه بعين الاعتبار .

ثالثاً ــ التداخل بين الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية

إن الهدف النهائي للاستراتيجية العسكرية ، كما عرَّفه العديد من المفكرين ، هو التدمير الكامل لقوات الخصم المسلحة ، لإجباره على الاستسلام اللامشروط . هذا عندما كانت الحرب مقتصرة على الجيوش المتجابهة ، أما الآن فإن هذا التعريف برغم احتفاظه بمصداقيته فإنه لم يعد شرطاً حتمياً . فقد استسلمت ألمانيا عام ۱۹۱۸ وإيطاليا عام ۱۹٤۳ واليابان عام ۱۹٤٥ دون قيد أو شرط ، وقدراتها العسكرية لما تدمر تدميراً كاملاً بعد ، ذلك لأنه في العصر الحديث هناك شروط سياسية واقتصادية ومادية ومعنوية يؤدي فقدانها إلى الهزيمة .

وبما أن معظم هذه الشروط تدخل في نطاق الجغرافية السياسية فلا بدّ إذن من أن يسعى القائد العسكري إلى تحقيق أهدافها في الوقت نفسه الذي يعمل فيه على تنفيذ مهامه العسكرية ، كي يبلغ الهدف النهائي للحرب ، عبر هذه أو تلك ، أو بكليهما معاً . ولن يتسنى له ذلك ما لم تكن جميع الاحتمالات مدروسة مسبقاً . أي لم تعد الجغرافية الاستراتيجية مقتصرة على زمن الحرب بل احتلت موقعاً متزايد الأهمية في السلم أيضاً ، تماماً كما احتلت الجغرافية السياسية مركزاً هاماً في الحرب . ومن هنا كان التداخل بين الطرفين وضرورة ملاءمة الاستراتيجية العسكرية مع سياسة الدولة ، هذا مع العلم أن استراتيجية زمن السلم هي التي تحدد استراتيجية الحرب ، مما يتطلب مرونة في التطبيق ، واستمراراً في التطور ، تبعاً لموقف العدو المحتمل أو المفاجىء وبالتوازي مع الأسلحة والوسائط المتوفرة فعلاً ومدى ملاءمتها للعصر المستخدمة فيه .

ففي عصرنا الحالي مثلاً برغم أن اختيار مواقع القواعد الجوية وحسن توزيعها، ونشر منصات إطلاق الصواريخ العابرة للقارات، يحتاج إلى دراسة متأنية وقرار حكيم، فإن النتائج المتوخاة من هذا الانتشار لا تتحقق إلا بمقدار ما تكون هذه القواعد ونوعية الأسلحة فيها مكشوفة للخصم، بعكس مبادىء المحافظة على السرية السابقة، هذه السرية التي لم تعد مرغوبة إلا في مجال طريقة الاستخدام وتوقيت التنفيذ. وهذا حدث فريد لم يسبق له مثيل في أي عصر سابق، وينطبق بصورة خاصة على وسائل الردع الاستراتيجي المتمثلة حالياً بالصواريخ سواء منها الرابضة على اليابسة أو تلك المحملة على الغواصات. وأوضح مثال على ذلك هو خطة نشر الصواريخ كروز وبيرشنغ الأميركية على أراضي الدول الأوروبية الأعضاء في حلف شمال الأطلسي.

هذا المنحى الجديد للجغرافية السياسية لم تعتد عليه الاستراتيجية من قبل، ومع ذلك فإن انعكاساته على هذه الأخيرة هامة جداً، ولا بد للقائد الاستراتيجي من أن يتكيف معه ويعمل في إطاره.

المظهر الثاني للعصر الحديث هو بروز دور المجموعات أو الكتل الدولية التي أفرزت أحلافاً عسكرية متجابهة فيما بينها. هذا الصراع المستمر بين الأحلاف الكبرى هيمن على أحداث العالم المعاصر، وتجد انعكاساته في كل مكان. وأصبح من النادر جداً أن تنشب حرب مهما كانت محدودة دون أن يتأثر موقف كل طرف فيها بقوة أو ضعف الحلف الأقرب إليه، لأن جميع دول العالم حتى تلك التي لم تنضم إلى أي حلف مضطرة إلى تلقي المساعدة من هنا أو هناك.

إن الأحلاف العسكرية ظاهرة معروفة منذ زمن بعيد. وكانت في معظم الحالات تقام لمواجهة عدو مشترك، أي أحلاف عسكرية بحتة، تنتهي عملياً بزوال الدافع لها. في حين أن الأحلاف المعاصرة مشكلة أساساً من دول تجمعت حول عقيدة سياسية اجتماعية معينة ــ كمجموعة الدول الإشتراكية مثلاً ــ أو جمعت بينها مصالح مشتركة غُلّفت بإطار من المبادىء الزاهية ــ كمجموعة الدول الرأسمالية ــ ومن هنا كان الصراع فيما بينها صراعاً مستمراً، لأنه صراع عقائدي لا صراع جيوش.

هذا النوع من المجابهة لا يقتصر على العمليات العسكرية، بل قد تكون هذه

أندرها ، وإنما يشمل جميع النواحي الحياتية ، من اقتصادية وعقائدية ونفسية . وهذه المجابهة تدور أساساً في زمن السلم ، وتشتد في الحرب ، مسايرة العمليات العسكرية الفعلية .

وفي مثل هذه الظروف يجد القائد الاستراتيجي نفسه أمام تحديات متعددة ، فهو ملزم من جهة بتنفيذ المهام العسكرية الملقاة على عاتق قواته ، ومن جهة أخرى ملزم بحماية هذه القوات من آثار الحرب غير العسكرية التي يشنها العدو ، وخاصة النفسية منها ، في الوقت نفسه الذي يشن هو فيه حرباً نفسية واقتصادية وعقائدية ضد العدو . وهذه أهداف بعيدة جداً عن التدمير التقليدي للقوات المسلحة المعادية . وقد دلت الخبرات على أن النجاح في هذه الحرب غير العسكرية يكون أوفر حظاً كلما كانت الشروط الجغرافية الاستراتيجية الطبيعية أكثر ملاءمة . فلم يكن بالإمكان فصل إيطاليا عن ألمانيا عام ١٩٤٣ بتلك السهولة ، لولا وجود سلسلة جبال الألب كحاجز طبيعي يحد من سيطرة الرايخ ، ومن قدرته على التدخل السريع . ولكن ومن جهة أخرى ، فإن رسوخ العقيدة والقناعة بصحة المبادىء التي يتم الدفاع عنها هي أقوى ضمان ضد الحملات النفسية المعادية . وأوضح مثال على ذلك فشل النشاطات النفسية الأميركية الهائلة الساعية إلى التفريق بين مقاتلي الشعب الفييتنامي ، بل أدت إلى عكس النتائج المتوخاة منها .

برزت الحرب النفسية كعنصر هام جداً في العصر الحديث ، يساهم فيها أخصائيون جدّيون ، يتصرفون بإمكانات ضخمة ، كما تشترك فيها أحياناً القوات المسلحة بعمليات معينة بهدف تحطيم معنويات الخصم . ولا بدّ لتنفيذ مثل هذه العمليات من إجراء دراسة دقيقة ، مبنية على المعرفة الصحيحة لعقلية السكان ، ومدى قدرتهم على تحمل الضربات ، ومدى تمسكهم بعقيدتهم ، وإلا أدت إلى رد فعل معاكس تماماً للغاية المتوخاة. وبما أن معرفة الحالة المعنوية لشعب ما ، ودراسة وضعه النفسي هو من صلب عمل الجغرافية السياسية فإن ذلك يفرض تداخلاً بين عمل السياسي والاستراتيجي قبل التنفيذ وفي أثنائه .

ويتداخل عمل السياسي والاستراتيجي أيضاً في مجال اختيار الأهداف الاستراتيجية الواجب تدميرها . ما من شك بأن قصف الموارد الاقتصادية والتجمعات الصناعية المعادية وتدميرها ، بالإضافة إلى مراكز الإنتاج الحربي ، يقدمان فوائد جُلّى

للقائد الاستراتيجي العسكري. ولكن للقرار السياسي هنا أيضاً دوره الهام، إذ إنه هو الذي يحدد، ضمن الإطار السياسي الجغرافي العام، الأهداف الواجب تدميرها، وتلك التي من الأفضل المحافظة عليها سليمة بهدف استثمارها لاحقاً. ومثل هذه القرارات لا يمكن اتخاذها بصورة فورية، كما لا يمكن للسياسي وحده اتخاذها، وبالتالي لا بد من أن تكون موضع درس مشترك بين السياسي والاستراتيجي منذ زمن السلم.

وتنطبق الحالة نفسها على شبكات المواصلات ـــ الجهاز العصبي للحياة الاقتصادية، ولتحرك الذيول الإدارية الضخمة للجيوش الحديثة ـــ مما يجعلها عاملاً استراتيجياً أساسياً. وإن شلّها يؤدي إلى عرقلة عمليات العدو العسكرية. ونظراً لضخامة هذه الشبكات عادة، واتساع المناطق التي تمر عبرها، فلا بدّ من اختيار أفضل المناطق لضربها، وهي عادة حساسة جداً. وهذا عمل مشترك بين السياسي والاستراتيجي، إذ إن الأهداف المختارة يجب أن تكون أولاً مؤثرة على حركة مواصلات العدو، وفي الوقت نفسه لا يؤثر تدميرها على التحركات اللاحقة للقوات الصديقة. وقد تكون أحياناً مواقع طبيعية كالمضائق أو البرازخ أو الممرات الإجبارية، وأحياناً اقتصادية، مثل الموانىء والمطارات والمستودعات.. إلخ. ويتم الاختيار بينها تبعاً للموقف السياسي الاستراتيجي العام.

هذه بعض المجالات التي تتداخل فيها الجغرافية السياسية بالجغرافية الاستراتيجية، لإعطاء فكرة عامة عن مدى الحاجة إلى التعاون الوثيق بين الاثنين، ومنذ أيام السلم، مع استمرار هذا التعاون طيلة فترة الحرب.

رابعاً ـــ الدور الجديد للجغرافية الطبيعية

يوجد في الجغرافية السياسية بعض العوامل الثابتة ، لا بد من دراستها بتمعن ، خاصة تلك التي لها دور في الجغرافية الاستراتيجية ، إذ إنها في الواقع أساس هذه الأخيرة . ومن المفيد أن نوضح كيف تطابق الاستراتيجية بين أسلوب استخدام الأسلحة والوسائط الحديثة وبين العوامل الثابتة للجغرافية السياسية .

نذكّر أولاً بالأهمية الكبرى التي اكتسبها البعد الثالث ، سواء في الجو ـــ الطائرات والصواريخ ـــ أو في أعماق البحار ، حيث ترتبط فعالية عمل الوسائط البحرية ـــ الغواصات ، قنابل الأعماق .. إلخ ـــ بالعمق المتوفر في المياه . إذ لا يمكن للغواصات أن تعمل بأمان ما لم يكن العمق كافياً ، في حين أن الألغام البحرية تزرع على أعماق مختلفة . ومن الطبيعي ألا تستخدم الوسائط البحرية إلا في المناطق الكثيفة الملاحة ، أي المناطق الهامة جغرافياً ، مثل المضائق البحرية ، والموانىء ، والقواعد البحرية .. إلخ .

أما الطائرة فإنها برغم التطور الهائل الذي بلغته تبقى مقيدة بحدود إمكانات صيانتها الفنية ، وتموينها بالمحروقات . وهنا أيضاً نجد أن للظروف الجغرافية الطبيعية دوراً هاماً في اختيار مواقع النقاط الفنية ومستودعات التموين .

ثم إن فعالية الطائرات على الارتفاعات المنخفضة والمتوسطة مرتبطة بطبيعة منطقة العمليات والأحوال السائدة فيها . أخيراً أدى توفر الطائرات القادرة على التحليق على

ارتفاعات عالية جداً، إلى حرمان الطرفين من المزايا الأمنية التي كانت توفرها بعض المناطق التي اعتبرت في الماضي غير قابلة للعبور، فقد أصبحت الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي وجهاً لوجه عبر القطب الشمالي.

ولكن هذا التوغل في البعد الثالث برغم أهميته لا يبدل شيئاً في المظهر الجغرافي الاستراتيجي للعالم، خاصة إذا كانت ساحة العمليات محدودة نسبياً، إذ إن الطبقة الجوية التي تشغلها الطائرات لا تشكل سوى شريحة دقيقة من الفضاء المحيط بالكرة الأرضية. وإذا ما استثنينا الطائرات المحلقة على ارتفاعات شاهقة، فإن كل منطقة تحافظ على طبيعتها، وتؤثر على العمليات الجو بحرية والجو أرضية، فالطائرات تتأثر بالتضاريس وبالظروف الجوية تماماً كالجندي المقاتل على اليابسة، وكالبحّار على متن زورقه السريع. وينحصر الاختلاف فقط بالأسلوب والتقنية تبعاً للواسطة المستخدمة.

الواقع أن ما يميز الوسائط الحديثة هي (المكننة) التي زادت من فعالية عمل القوات، سواء في ساحة المعركة أو في جميع المجالات الأخرى المساعدة في تسهيل مهمة القائد العسكري، مثل إصلاح الطرق البرية، والخطوط الحديدية بسرعة كبيرة، وترميم مهابط الطائرات، وكذلك أمنت المرونة الحركية التي تسمح بالمناورة والالتفاف حول الموانع الطبيعية الضخمة التي لا يمكن اجتيازها، أو فتح ممرات فيها. ولكن برغم هذه المزايا كلها يبقى للعوامل الطبيعية أثرها الهام على الطرفين. وكل من تتوفر لديه معدات أفضل أمكنه التغلب عليها بسرعة أكبر.

هذا التطور في العتاد أدى إلى بروز الحاجة إلى إيجاد منظومة جيدة وواسعة النطاق، لتأمين أعمال الصيانة الفنية والتموين بالمحروقات.. إلخ. أي زاد من أهمية دور الجهاز الإداري والفني. وهذا الجهاز خاضع بشكل مباشر للشروط الطبيعية الجغرافية، إذ عليه الاستفادة منها لاختيار مواقع مراكز الصيانة والتموين، وشق طرق المواصلات، وفي الوقت نفسه تأمين الحماية لها كلها.

هذه القيود الجغرافية تفرض نفسها حتى على أحداث الأسلحة. فالأرض الكثيرة التضاريس مثلاً تحد من مدى السلاح الآلي، والرياح الشديدة التي تحرك السحب تجلب معها أيضاً الغبار المشع والجراثيم الفاتكة والمواد الضارة الأخرى الناجمة عن الأسلحة

الكيماوية . ولا بد لأي طرف من أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار ، قبل اتخاذه قرار استخدام هذه الأنواع من الأسلحة ، بالإضافة إلى أنه في بعض المناطق تسود رياح موسمية معروفة عادة تحد من حرية اتخاذ القرار في الوقت المحدد .

ويتطلب الدفاع ضد الوسائط الجوية المتزايدة السرعة توفير منظومة كشف وإنذار مبكر ، لإفساح المجال للأسلحة المضادة للاستعداد لملاقاة الهدف . والواسطة الأساسية الحالية لهذه المنظومة هي (الرادار) البعيد المدى . ومن المعروف أنه كلما زاد ارتفاع موقع رادار الكشف زاد مداه ، أي أن للتضاريس هنا أيضاً دوراً هاماً جداً . ولكن ما يفوق ارتفاع موقع الكشف أهمية هو قرب رادار الكشف من العدو ، لأنه بمقدار ما يكون قريباً إلى الأمام يتزايد عمق الكشف . ويتم ذلك بإقامة مواقع الرادارات على أراضي أقرب دولة صديقة للعدو . مثلاً ضد خطر جوي آت من شرقي أوروبا تلعب مواقع الرادار الموجودة في الأراضي الاسكندنافية دوراً هاماً في تغطية بريطانيا ، في حين أن الحياد اليوغسلافي يعرّي إيطاليا . وهذه الأخيرة تغطي غربي البحر المتوسط . وهذا عنصر هام من عناصر الاستراتيجية الحديثة أدى إلى إضفاء أهمية خاصة على بعض الجزر الصغيرة ، كما أثار انزعاج الكتل الكبرى من موقف الحياد الذي تتخذه بعض الدول .

أصبح من الواضح أن الحرب ليست حصراً على العمليات الدائرة على الجبهة ، ولا حتى على كامل مسرح العمليات ، بل تشمل أراضي الدولة أو الحلف بكامله ، طالما توفرت لدى العدو الوسائط النارية القادرة على ضرب كامل عمق الطرف الآخر . هذا الوضع الجديد يفرض العمل على الانتشار الواسع للقوات المسلحة ، وللذيول الإدارية ، كما للتجمعات الصناعية والبشرية ، خاصة وأن الهدف الاستراتيجي الملائم لضربة نووية موجود حتماً في العمق البعيد ، مثل الموانىء الهامة ، والقواعد الجوية الرئيسية ، والتجمعات الصناعية ، والمدن الكبرى .

وهكذا نجد أننا ، من جهة نسعى إلى الانتشار ، ومن جهة أخرى ، علينا إذا رغبنا بشن هجوم ناجح أن نحشد القوى والوسائط الكافية ، لنؤمن تفوقاً كاسحاً على العدو في قطاع الخرق . وهنا تبرز فوائد القدرة الحركية التي تتمتع بها الأعتدة الحديثة التي تسمح بالمناورة السريعة بالقوات وأن نخلق الحشد اللازم في الوقت المناسب . والقائد الناجح في هذا المجال هو الأكثر حنكة في استثمار طبيعة الأرض ومحاور التحرك المتوفرة .

والواقع أن هذه المناورات بالقوات برغم إمكانية تحقيقها، تبقى عملية معقدة وصعبة. لذلك لم تعد الاستراتيجية الحديثة تهتم بإجراء تحركات لتشكيلات ضخمة على المحاور وعبر المضائق، بل تتجنب ذلك قدر الإمكان، وتستثمر القدرة الحركية لدى القوات، والقدرة النارية القوية، لتخوض عمليات هجومية متصلة، تتم عبر معارك قصيرة الأمد شديدة العنف، أي بقطعات مختلفة الصنوف، قليلة الحجم. وهنا تبرز صعوبة القيادة والإشراف على جميع هذه المعارك بصورة مركزية. لذا نجد أن دور قيادات المناطق، وحتى قادة القطعات، قد تزايد أهمية، في حين تسعى القيادة الاستراتيجية إلى خلق المواقف الملائمة للعوامل الجغرافية الاستراتيجية، ومن ثم التنسيق بين التحركات لخلق تفوق بالقوى على الاتجاهات الملائمة.

وحتى الحروب المحلية لا تخرج عن هذا المفهوم ولا تتناقض معه، إذ إن حرب العصابات، وهي المظهر الرئيسي لهذه الحروب، تفترض وجود العدو في كل مكان، وبالتالي تدير معاركها على ساحات واسعة من الأرض، وتخوض قتالها في مواقع تختارها حسب الموقف الراهن، وتستفيد في جميع الحالات وإلى أقصى حد من المزايا الطبيعية للمنطقة.

هذا فيما يتعلق بالصراع المحلي أو المحدود. أما الصراع الشامل فإنه يدور على المستوى العالمي. وعلينا أن ننظر إليه في هذا الإطار. وهنا تتضخم جميع المعطيات السابقة، سواء منها ما يتعلق بالأسلحة والأعتدة نوعاً وكماً، أو تلك المتعلقة بالأبعاد الطبيعية لمسارح العمليات. ولن نجد خريطة صالحة لعمل الاستراتيجية العليا، بل نحتاج إلى مجموعة من الخرائط التي تشمل العالم كله، ونستخرج منها حدود القوى والتكتلات الدولية التي قد نواجهها. ولن تعود هناك أهمية لأقنية المياه والوديان الصغيرة، بل المهم هي الأنهار الكبرى والوديان العميقة، كما لن تعود الجزر، التي بحجم (مالطا) مثلاً تهمنا، بل تلك التي بحجم بريطانيا كلها أو إفريقية الشمالية بدولها.

من جهة أخرى لن تكون هناك ذيول إدارية في العمق المباشر، إذ إن العمق اللازم للعمليات الحديثة لم يعد مقتصراً على عشرات الكيلو مترات، بل على المئات منها. والمساحة التي تسمح بالاستفادة منها للمناورة بالاحتياطات وتحريك الذيول الإدارية أصبحت أكثر اتساعاً، لدرجة أن مساحة بلد أوروبي بكامله قد لا تكون كافية.

ومن الطبيعي أن تتوفر شبكات مواصلات كافية تسمح بالتحرك بمختلف الاتجاهات، ومنذ زمن السلم، لتستطيع الاستراتيجية تنفيذ مهامها. وإن تنفيذ هذه الشبكات خاضع حتماً للشروط الجغرافية السياسية والاستراتيجية للحلف، أو التكتل في الوقت نفسه الذي تخدم فيه استراتيجية الدولة نفسها.

ومن المستحيل وضع أسس استراتيجية على هذا المستوى من الشمولية، ما لم يتم التحضير لها مسبقاً وبعناية تامة، مع الأخذ بعين الاعتبار منظومتين أساسيتين لا غنى عنهما مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً بالشروط الجغرافية وهما:

أولاً منظومة القيادة العليا: وهي تجسد المفهوم الجغرافي السياسي، وتهتم بمصالح جميع الدول الموجودة في مسارح العمليات، آخذة بعين الاعتبار القدرات العسكرية الفعلية لكل دولة. وعادة تتبع لها قيادات مسارح عمليات تحمل غالباً أسماء المناطق التي تعمل فيها.

ثانياً منظومة (القواعد): وهي الهيكل العظمي لكل سياسة عسكرية موحدة. وهذه القواعد يجب أن تكون، من جهة، بعيدة قدر الإمكان عن العدو المحتمل، ومن جهة أخرى قريبة منه بشكل يسمح لها بتنفيذ المهام الملقاة على عاتقها. وتجاور طبعاً شبكات المواصلات الرئيسية، بالإضافة إلى تمتعها باستقلال إداري، ومحمية جيداً ضد الأخطار المحتملة كافةً. ومن الواضح أن جميع هذه المتطلبات مرتبطة بالعوامل الجغرافية السياسية.

ونظراً لأن الاستراتيجية المعاصرة قد أصبحت على مستوى الكون، فقد أصبح من المهم أن ننظر إلى مسارح العمليات ضمن هذا الإطار. ولا بد في هذه الحالة من توفر وسائل بيانية، وخرائط تعطي فكرة واضحة ودقيقة عن كل منطقة من العالم، يحتمل نشوب صراع فيها. وقد تكون هذه المنطقة هائلة المساحة، وموجودة في أية بقعة من الكرة الأرضية. وهنا تبرز صورة الانتباه إلى التشويه النسبي في الخرائط التي تغطي مساحات واسعة من الأرض، واختيار المناسب منها للناحية الجاري بحثها. إذ إن هناك اختلافاً بين خريطة وأخرى، تبعاً لنظام الإسقاط المعتمد إبان إنتاجها، وبالتالي تكون دقيقة بالنسبة لبعض المعطيات وغير دقيقة للأخرى.

وهذا مرتبط طبعاً بنوعية العملية ومدى اتساعها : برية ، جوية تكتيكية ، جوية استراتيجية ، صاروخية ، عمليات بحرية على السطح ، أو تحت المياه .. إلخ .

وأخيراً فإن الاستفادة من البعد الثالث ، سواء في الجو أو في أعماق البحار ، وخاصة على مساحات شاسعة ، يتطلب دراسة عوامل أخرى خاصة غير مألوفة سابقاً ، مثل مدى تأثير الرياح الشديدة جداً على الارتفاعات الشاهقة ، وكذلك التأثيرات المغناطيسية ، والتيارات المائية ، وتفاوت درجات حرارة المياه بين عمق وآخر .

خامساً ــ استمرارية الصراع بين المحيط والقارة

لبعض الأحداث التاريخية معالم مشتركة ترافقها عبر الأجيال. فلو عدنا إلى الصراعات الكبرى عبر التاريخ، والتي نجم عنها التوازن العالمي الحالي، لوجدنا أنها كانت تدور دائماً بين قوة ذات طبيعة بحرية وأخرى قارية، وكانت الأولى تسعى إلى التحالف مع قوى أخرى موجودة على اليابسة، في حين تحاول الثانية امتلاك قدرات بحرية تساعدها في الدفاع أو الهجوم.

وكانت العوامل الجغرافية الاستراتيجية، وما زالت، تلعب دوراً أساسياً في توزع الأرض والبحار بين هذه القوة أو تلك. ولكن دورها قد اختلف الآن، من حيث المستوى، خاصة إذ تحولت المجابهة إلى صراع بين أحلاف كبرى، وحلت مناطق واسعة محل الموقع المحصن، الذي يحمي ممراً معيناً. فقد أصبحت الدولة التركية هي التي تشرف على المضائق، وليست مدينة استنبول وحدها.

سوف نتعرض هنا للمبادىء الأساسية لهذا الصراع المستمر بين المحيط والقارة، مع التنويه بأن الولايات المتحدة الأميركية قد حلت الآن محل بريطانيا في مجال التفوق البحري، وأخذت روسيا مكان ألمانيا كأكبر قوة نارية.

في العصر الحالي لم تتبدل التطلعات القديمة لهذه القوة أو تلك، فالبحرية منها ما زالت بحاجة إلى موطىء قدم على اليابسة، تجسده دول ساحلية حليفة ندعوها بالدول

(العتبة). والقوة القارية تتطلع إلى امتلاك القدرة على الوصول إلى المحيطات البعيدة والمحافظة فيها على تواجد أساطيلها البحرية مع ما تحتاجه من قواعد صديقة أو حليفة للتموين والصيانة.

بين القوتين البحرية والقارية عادة تباين واضح في المفاهيم الأساسية، مرده اختلاف المحيط الطبيعي لكل منهما. فالقوة القارية تميل عادة إلى تنفيذ عملياتها مستخدمة قوات كبيرة، بعد حشدها في قواعد الانطلاق، في حين تفضل القوة المحيطية الاحتفاظ بقوى مستقلة منتشرة في مناطق عدة، تعمل ضمن إطار استراتيجية عليا، تنسق فيما بينها. وهي عملياً استراتيجية متعددة المراحل، يسعى فيها الخيال والمرونة للتعويض عن الضعف المبدئي، ولكنها لا تحول دون تطبيق استراتيجية مركزية للتدخل بقوة، وبشكل شبه فوري، إذا تطلب الموقف ذلك.

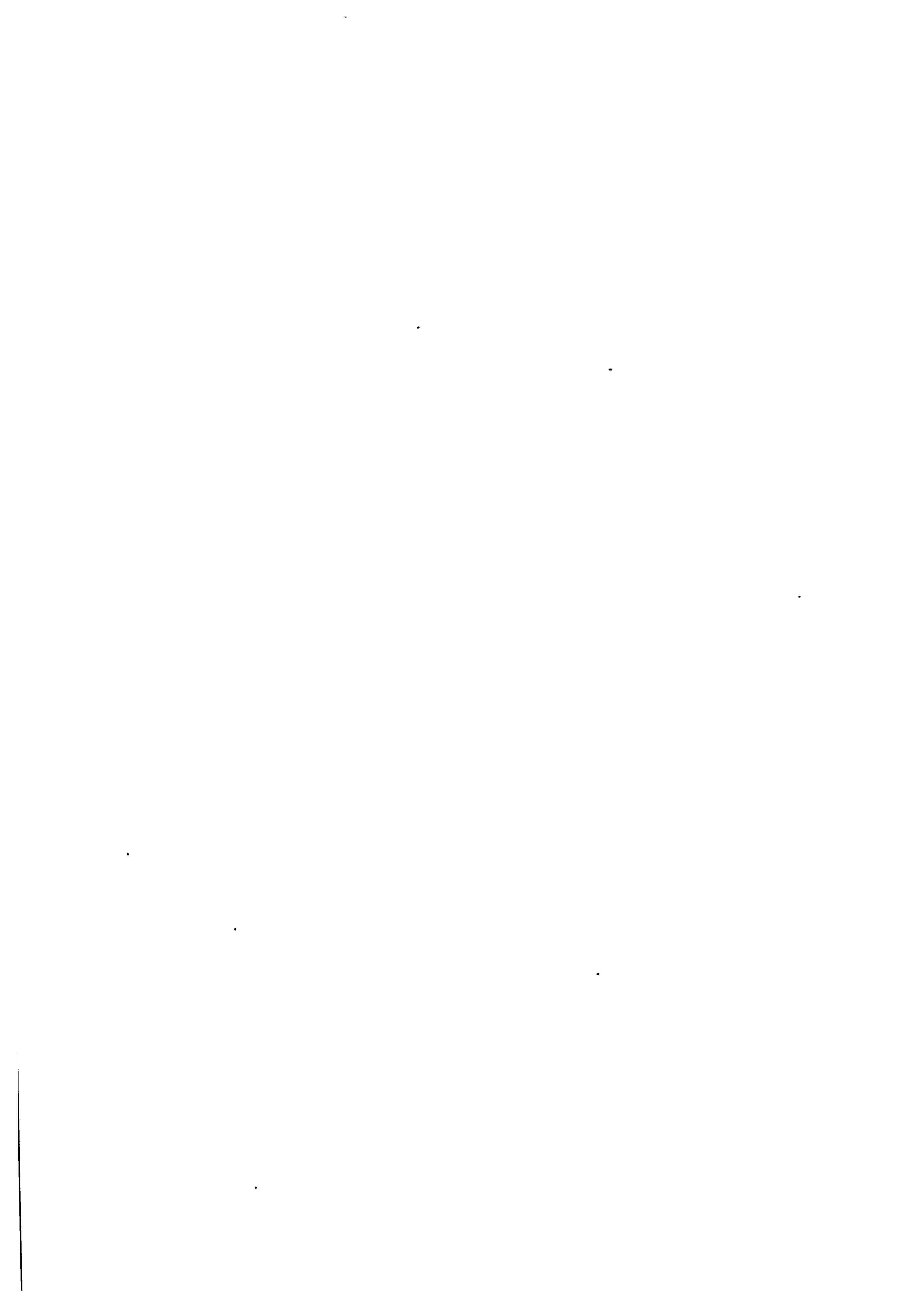
لقد اتصفت الصراعات التاريخية الكبرى جميعها بهذه المظاهر، كما كانت القوة القارية فيها تحقق نجاحات أولية، تجعلها على مقربة من النصر النهائي. أما في العصر الحالي فلا يمكننا اعتماد هذه الخبرات كقوانين جامدة. ذلك أن الصراعات القديمة بين المحيط والقارة كانت تدوم لفترة زمنية طويلة، في حين أن حرباً نووية شاملة، إذا ما نشبت فإنها لن تدوم سوى أيام معدودات، بل قد لا تتجاوز بضع ساعات، لأن الدمار الذي سوف تسببه سيكون هائلاً.

ومع ذلك لا يمكن لنا أن ننفي احتمال استمرارية الصراع، بعد الضربة النووية، إما بشكل حرب تقليدية مع استخدام القنابل النووية التكتيكية، أو أن يتابع الطرف المنتصر — إن وجد — بما تبقى له من قوة عمليات بهدف السيطرة على باقي أنحاء العالم التي لم تتعرض للدمار، بسبب بعدها عن مركز الصراع.

ومن الملاحظ أن العالم المعاصر متجه أكثر فأكثر إلى تطوير القوى البحرية برغم التطور الهائل للوسائط البرية والجوية. ذلك لأن بقاء الشعوب ورخاءها مرتبطان حالياً، أكثر من أي وقت مضى، بسعة المبادلات بين الدول من مختلف الأنواع.

والأساطيل البحرية هي الوسيلة الأمثل لهذه المبادلات. وبالتالي لم تعد الأساطيل البحرية الحربية هي وحدها التي تحدد القوة البحرية للدولة، بل احتلت التجارية أيضاً فيها

موقعاً مميزاً. وهذه الأخيرة ضرورية جداً لضمان استمرارية التواجد والاتصال على الصعيد العالمي. وأكبر دليل على ذلك هو الجهود الجبارة التي تبذلها الدول العظمى في هذا المجال. فالولايات المتحدة تسعى مستميتة للمحافظة على تفوقها البحري، في الوقت نفسه الذي يطور فيه الاتحاد السوفييتي قواه البحرية الحربية والتجارية بتسارع متزايد. كما نلاحظ أن الصين الشعبية قد بدأت تبدي اهتماماً ملحوظاً بالقوى البحرية، واعية أن سيطرتها على المحيط الهادىء تؤمن لها السيطرة على نصف العالم. وسوف تجد باقي الدول نفسها مدفوعة بطبيعة الظروف العالمية، إلى سلوك الطريق نفسها. فألمانيا مثلاً لن تستطيع تعزيز مركزها عالمياً ما لم تتجه نحو المحيطات.



سادساً ــ التكنولوجيا ، البعد ، والردع

التكنولوجيا في العصر الحالي هي التي تكيف حياتنا وتحدد مستقبلنا في جميع المجالات المدنية والعسكرية ، وعلى مختلف المستويات ، من المشروع الفردي الصغير حتى مستوى الأمة بكاملها . نحن نعيش عصر الألكترونيات والحواسب أكثر من عصر الذرة والسفن الفضائية . ومن ميزات عصرنا هذا أن تقدّم أمة ما يعتمد على مدى قدرتها على استيعاب الوسائط التكنولوجية الحديثة واستثمارها أكثر من اعتماده على الاكتشاف العلمي بمعناه التقليدي . إذ إن هذا الأخير يتطلب توفر مجموعة هائلة من الأدمغة ، تعمل ضمن مؤسسات دقيقة التنظيم ، وتتصرف بموارد ضخمة لسنوات عدة ، لتتمكن فعلاً من تحقيق اكتشاف مفيد وقابل للاستثمار . هذا الشرط هو الذي أوجد مفهوم (البعد) ، أي الحد الأدنى من العلماء والموارد المالية والوسائل العلمية الكافية لخوض مجال البحث المتطور على الصعيد العالمي . كما أوجد مفهوم (الكتلة) ، أي القدرات البشرية والاقتصادية والطبيعية الواجب توفرها لمساندة مثل هذا العمل .

وفي عصرنا الحالي نجد أن الدول العظمى وحدها هي التي تملك البعد والكتلة اللازمتين ، وهناك احتمال بتوفرهما لدى مجموعة من الدول الصناعية المتقدمة كالمجموعة الأوروبية مثلاً . ولا يمكن حالياً اعتبار دولة ما مستقلة فعلاً ، ما لم يتوفر لديها الحد الأدنى من المتطلبات التكنولوجية والمادية .

من جهة أخرى فإن للبعد والكتلة أثرهما الكبير على الجغرافية الاستراتيجية

المعاصرة . فالكتلة هي التي تؤمن للأمة القدرة على الصمود والبقاء وحرية التحرك . بل هي عملياً العامل الوحيد القادر على المحافظة على وجود الأمة . إذ بمقدار ما تكون هذه الأخيرة كبيرة جغرافياً ، وغنية بشرياً ، وقوية اقتصادياً وعملياً ، تكون قادرة على المحافظة على وجودها ، والصمود في وجه الأسلحة الحديثة ، والاحتفاظ بقوة كافية لمتابعة النضال لأمد طويل .

ويتضافر البعد الجغرافي في الوقت الحاضر ، مع البعد التكنولوجي ليزيد ويعقد أكثر فأكثر التفاوت بالقوة بين الدول ، ولمضاعفة تفوق العظمى منها . ولا بد للدفاع على المستوى الاستراتيجي الشامل من تجمع الدول المتوسطة . فمن أحلاف مكونة إما من دول متجانسة ومتكاملة بسبب موقعها الجغرافي الذي يشمل الاتصال فيما بينها ، وبالتالي التعاون ، أو من دول تجمع بينها عقيدة موحدة وأهداف مشتركة . وفي الحالين لا بد من أن يكون الحلف عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، وأن ينشط باستمرار عبر التعاون الوثيق في مختلف المجالات . وقد فرضت ظروف العالم المعاصر ، حتى الآن ، على هذه الأحلاف أن تنحاز إلى إحدى الدولتين الأعظم . وإن حلفي وارسو وشمالي الأطلسي هما المثال الأوضح على ذلك ، مع وجود أحلاف ثانوية أخرى عديدة ، وكلها مرتبطة بهذه أو تلك من الدولتين .

ونلاحظ أن الصين الشعبية ، العملاق الثالث ، الهائلة الكتلة تسعى بدورها لاستقطاب تجمع مماثل ، ولكن تخلّفها المبدئي على الأصعدة الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية قد قاد كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي إلى اتخاذ جميع التدابير الهادفة إلى احتواء هذا العملاق الذي بدأ يتمطى . خاصة وأن الصين الشعبية برغم افتقارها حالياً للبعد الاقتصادي والتكنولوجي المتناسب مع كتلتها الطبيعية والبشرية ، فإن إمكاناتها وطاقاتها الكامنة تضفي أهمية خاصة على سلاحها النووي ، وعلى نشاطاتها العلمية . ولا بدّ للدول العظمى الحالية من أخذ ذلك بعين الاعتبار . وهذا ما يفسر سعي كل منهما لخطب ودِّ الصين ، وقد تكون الصين حالياً تستغل الطرفين .

وقد نتساءل ، ألا يمكن لدولة متوسطة الكتلة وتمتلك القدرة النووية أن تشكل قوة منافسة للدول العظمى ، وتعوض الفارق بينها وبين الدول الأكبر منها بعداً وكتلةً ؟ أو على الأقل تكون خطراً عليها ؟

لقد دلت الوقائع الفعلية أن امتلاك القدرة النووية لا يبدل شيئاً على الصعيد الاقتصادي، أما على الصعيد العسكري فلا بد من إيضاح بعض النواحي. مما لا شك فيه أن السلاح النووي هو سلاح استراتيجي هام، يوفر قدرة رادعة، يحسب كل عدو حسابها حتى لو امتلك مثلها. ولكن الردع هو نفسه نسبي. فالدولة المتوسطة قادرة بلا شك بسلاحها النووي، على إلحاق الضرر بجزء هام في الكتلة المعادية الكبيرة، ولكن هذا الضرر يبقى محدوداً، في حين تكون جميع أراضي الدولة المتوسطة عرضة للتدمير برشقات نووية تطلقها الدولة الكبرى. وبالتالي تجد هذه الدولة نفسها مضطرة إلى التفكير طويلاً قبل اللجوء إلى هذا السلاح، ضد دولة أكبر منها كتلة وتسليحاً نووياً. وإذا قيل إن الدولة الأكبر لا تملك سلاحاً نووياً، فإننا نقول إنها في هذه الحالة فقدت صفة (أكبر)، وعلينا في هذه الحالة أن ندرس الموضوع من زاوية أخرى، لا مجال للتوسع بها هنا. من جهة أخرى، فمن الصعب جداً إعطاء حكم مطلق على القيمة الفعلية للسلاح النووي الاستراتيجي، نظراً لقلة خبرة العالم العملية في هذا المجال، ولكن ذلك لا يمنع من إيضاح بعض جوانبه.

أولاً: إن امتلاك السلاح النووي مع ما يتطلبه من مقومات عسكرية وافية، غير كاف بحد ذاته لضمان الأمن الدائم للدولة، لأنه كسواه خاضع لقانون التطور التكنولوجي الصارم. والسلاح الذي يبدو اليوم فعالاً جداً لن يكون كذلك غداً. الواقع أن الجهود التكنولوجية والصناعية المتطورة باستمرار، والهامة جداً للمحافظة على فعالية منظومة الأسلحة النووية، هي أكثر أهمية وكلفة مادية من السلاح نفسه، وهنا تبرز من جديد أهمية (البعد).

ثانياً: إن السلاح النووي الاستراتيجي كقوة رادعة لا ينفي احتمال نشوب حرب تقليدية، خاصة إذا كان العدو أشد قوة، وموجوداً على القارة نفسها، مع العلم بأن جميع المسافات تعتبر قريبة في العصر الراهن، بفضل القدرة الحركية العالية للجيوش الحديثة. وفي مثل هذه الحالة يكون الردع أكثر فعالية بواسطة قوات مختلفة الصنوف، قادرة فعلاً على التصدي لأي هجوم معادٍ. ومن الأفضل أن تكون مزودة بأسلحة نووية تكتيكية، تستخدمها بحنكة، ومستغلة أفضل الظروف الجغرافية الاستراتيجية. ومن ناحية أخرى، قد يمتص الطرف الأقوى نتائج ضربة نووية دون الرد عليها بالمثل، آخذاً بعين الاعتبار أن

احتلاله السريع للمناطق الغنية لدى الطرف الآخر يعوض بسخاء عن الخسائر التي لحقت ببعض أهدافه، وهذا ما تحدده الجغرافية السياسية الاستراتيجية.

أما في حالة امتلاك الطرفين لقوى نووية متوازية تقريباً، فإن الموقف يتبدل تبدلاً جذرياً. وهذا يسري أيضاً عندما يكون لدى الطرف الأضعف شروط مناسبة، يتمكن خلالها من منع أي خرق معادٍ برّي أو إعاقته لمدة طويلة.

ومن الملاحظ أن أقوى الدول من حيث ترساناتها النووية لم تتوقف لحظة عن تطوير أسلحتها التقليدية، حتى تلك التي هي من حيث الموقع خارجة عن نطاق الهجوم المعادي المباشر المحتمل.

أخيراً من المعروف أن قرار استخدام السلاح النووي هو مسؤولية ضخمة جداً. والسلطة السياسية العليا هي وحدها المخولة باتخاذه. مع العلم أنه لا توجد حالياً دولة واحدة في العالم قادرة على اتخاذ قرار بخوض حرب نووية شاملة، دون أن يتوفر لها مسبقاً نوع من المساندة المعنوية الشعبية أولاً، والتأييد من الدول الأخرى الحليفة والصديقة. أما المساندة الشعبية فتكون نتيجة للإعداد السياسي والنفسي والعقائدي المسبق، الذي يؤمن تعاضداً متيناً بين السلطة والشعب. وهذا هام جداً، إذ يضفي على قرارات الدولة المصداقية اللازمة.

أما الحصول على تأييد الحلفاء فدونه صعوبات جمة. إذ إن لكل دولة في الحلف مصالحها الوطنية الخاصة، وتقويم مختلف للأمور. والشرط الأساسي لتعاونها كلها هو الشعور بأن الخطر يهددها جميعها، وأن الحرب تؤمن لكل منها مصالحها الخاصة بالدرجة الأولى، وكحلف بالدرجة الثانية.

سابعاً ــ الجغرافية الاستراتيجية والجغرافية السياسية

إذا كانت الأطماع الاستعمارية للدولة الحديثة لم تعد تتطلع إلى الاحتلال الفعلي للدول الأخرى، وضمها إليها بالقوة، فإن الرغبة بالتسلط وفرض الإرادة عليها ما زالت قائمة وبالقوة السابقة نفسها. فقد حلت السيطرة الاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية محل الاحتلال الفعلي. وقد أثبتت الوقائع أن هذا الاستعمار الجديد لا يقل فعالية عن القديم، بل هو أقسى أحياناً. خاصة وأنه أسلوب مشروع ومعترف به، ويتم عادة تحت ستار الصداقة والمساندة في المحافظة على استقلال الدولة الضحية، هذا الاستقلال الذي كلما زادت الإشادة به قلّت حقيقته.

إن معظم الأحلاف القائمة حالياً مشكلة وفق هذا الأسلوب، وتستمد قوتها عبر ربط مصالح الدول الأعضاء، بعضها ببعضها الآخر، وبالدولة الأكبر خاصة، وذلك على مختلف الأصعدة، الاقتصادية، والتكنولوجية، والعسكرية. مع العلم بأن هذه الأحلاف عند تأسيسها تأخذ بعين الاعتبار الظروف الجغرافية السياسية والاستراتيجية لكل دولة، وللحلف كمجموعة.

لا شك في أن للوسائط الحديثة وللسلاح النووي خاصة أثراً عميقاً جداً على المنطلقات الأساسية لتكوين حلف ما، ولكن الخبرة قد أثبتت أن العوامل الجغرافية هي العامل الأهم والدائم في جميع الحالات. ومن المفيد أن نتذكر بعضاً منها حسب الظروف المعاصرة، وخاصة تلك التي ما فتئت تبرز لدى كل أزمة، ولكونها مظهراً من مظاهر

التوازن القائم بين الكتلتين الشرقية والغربية . هذا مع العلم أننا نلاحظ تجنب كلا الكتلتين التعرض لها مباشرة وصراحة . وهي منطقة وسط أوروبا التي كانت تدعى في السابق (مربع البوهيم) ، وهي منطقة استراتيجية هامة مرشحة لتكون مسرحاً لأية حرب تقليدية أو نووية بين الكتلتين . ثم منطقة المتوسط حيث تسعى كل كتلة للسيطرة على هذا البحر والإشراف على خطوط الملاحة البحرية فيه ، سواء بالتواجد المستمر للأساطيل الحربية ، أو عبر إيجاد قواعد محلية حليفة أو صديقة ،برغم الإعلان بين الحين والآخر عن فقدان هذه القواعد لأهميتها السابقة .

أخيراً المثابرة على تأكيد صفة (الجزيرة) على بريطانيا ، برغم أن بحر المانش لم يعد سوى قناة ضيقة ، مع ما يتطلب ذلك من ضرورة تبنّي استراتيجية ملائمة وهي عملياً بعيدة عن الواقع الفعلي . ويمكن تفسير التطورات السياسية الحاصلة في هذه المناطق تبعاً لسياسات كل من الكتلتين الأعظم .

ثامناً ــ الجغرافية الاستراتيجية للعالم المعاصر

لا بد عند دراستنا للمظاهر الجغرافية الاستراتيجية للعالم المعاصر من أن ننطلق من إحدى المدارس الجغرافية السياسية، وقد وجدنا أكثرها ملاءمة مدرسة (ماكندر) البريطانية، لأنها تعرضت لتقسيم العالم إلى مناطق ولكون هذه المناطق تتطابق إلى حد كبير مع التكتلات الكبرى لعالمنا المعاصر. ومن الطبيعي أن ننطلق من خلفية ثابتة للأحداث الجغرافية السياسية، لنضفي على هذا البحث المظهر العصري.

يعيش عالمنا حالياً هيمنة كتلتين عالميتين، اصطلح على دعوتهما بالكتلة الشيوعية أو الشرقية والكتلة الغربية، بالإضافة إلى مجموعة دول العالم الثالث. هذا مع العلم أن تعبير (الكتلة) ليس دقيقاً ولا متماثلاً هنا وهناك، وتسمية (العالم الثالث) تسمية مطاطة غير محددة. ولكن نظراً لأن هذه التسميات قد أصبحت متداولة فإننا سنأخذ بها تسهيلاً للبحث.

عندما نحمّل تقسيمات ماكندر على الخريطة الجغرافية الاستراتيجية للعالم، نلاحظ أن القسم الأعظم لما دعاه (بالجزيرة العالمية) تشغله حالياً الكتلة الشيوعية من أوروبا الشرقية، وحتى المحيط الهادي. في حين أن الإطار المحيط بهذه المنطقة مكون من دول (عتبات) ــ عدا الصين الشعبية برية ــ بحرية موزعة بين الكتلة الغربية والعالم الثالث. أي أن الوحدة الجغرافية الطبيعية لأوروبا وآسيا (أوراسيا) تدعمها حالياً عقيدة مشتركة أساسها المبادىء الماركسية.

ومع ذلك لا بد من الملاحظة بأن هناك نوعاً من التباين بين أوروبا وآسيا موجود منذ زمن بعيد. ومن الملفت للنظر مثلاً، أن الخلاف الصيني ـــ السوفييتي يتطابق بشكل غريب والعداء القديم جداً الذي كان سائداً بين الأعراق والأمم، والمستند أصلاً إلى عوامل جغرافية سياسية.

من جهة أخرى نجد أن الكتلة الغربية مكونة من أجزاء متباعدة والرابط الوحيد الطبيعي بينها معنوياً ومادياً هي البحار والمحيطات.

أما الجزيرة الأميركية الكبيرة، والقاعدة الأساسية للكتلة الغربية فهي تواجه من الشرق والغرب والشمال ثلاثة من حدود (أوراسيا)، عبر المحيطين الأطلسي والهادىء. وتفصل بين أميركا الشمالية والجنوبية منطقة جغرافية سياسية هي (أميركا الوسطى)، المتميزة بحالة عدم الاستقرار، والمكونة من عدة دول صغيرة. ومع ذلك تعتبر أحد أهم (السروج) العالمية ونقطة اتصال سريعة العطب بين المحيطين، وبين الأمريكيتين، وبالتالي تعتبر هدفاً طبيعياً لاستراتيجية الكتلة الشيوعية منذ زمن السلم. ومن هنا كانت أهمية (كوبا) بالنسبة للطرفين.

أما دول العالم الثالث فهي مجمعة في إطار من (الحياد المتأرجح) بين الكتلتين، وتحتل نطاقاً واسعاً جداً من الكرة الأرضية يغطي (أوراسيا) الجنوبية والقسم الأعظم من إفريقية. وفي وسط هذه المنطقة يبرز (الشرق الأوسط) كنقطة اتصال هامة جداً، وكمنطقة لم تعرف الاستقرار منذ قديم الزمن.

ولو نظرنا إلى هذا النطاق الذي تشكله دول العالم الثالث، من الشرق إلى الغرب نجده يمتد حتى السواحل الغربية لإفريقية، وهو بالتالي الطريق الأقصر نحو (المفصل الأميركي) الحساس ـــ أميركا الوسطى ـــ، بالنسبة لأية قوة لا تسيطر على أوروبا الغربية. أما لو سايرنا هذا النطاق من الغرب نحو الشرق لوجدنا أنه الطريق التي موّنت أميركا عبرها حلفاءها في الشرق إبان الحرب العالمية الثانية خاصة.

أخيراً نلاحظ أن كلاً من أميركا وروسيا في سعي دؤوب لزرع هذا النطاق بالقواعد الموالية أو الحليفة أو الصديقة.

وبالمناسبة نذكّر بأن هذين المفصلين الأميركي والإفريقي الأوراسي (أميركا الوسطى والشرق الأوسط) يحتويان القسم الأعظم من الاحتياط النفطي العالمي، وهذا الواقع وحده كاف لجعلهما هدفاً من المرتبة الأولى لكل دراسة جغرافية استراتيجية.

وللعالم الثالث أخيراً صفتان مميزتان، فهو من وجهة سياسية عبارة عن تجمع قائم مبدئياً على أسس عاطفية أكثر منها عقائدية. والعواطف عامل سلبي في مجال ثبات العلاقات الدولية. بمعنى أنها غير ثابتة، وقابلة للتبدل، إما بسبب المصالح، أو بشكل طبيعي مع زوال مسبباتها. مثلاً نجد أن هناك نوعاً من الانسجام بين الدول المستعمرة في فترة نضالها لنوال الاستقلال، ومتى تخلصت من الاستعمار فقد يتبدل موقفها، بعضها تجاه بعضها الآخر. كما أن للعامل الديني دوراً هاماً في العالم الثالث، إذ يقود إلى تقارب بين الدول المشتركة بعقيدة دينية واحدة. وربما كانت هذه هي أسباب عدم انحياز العالم بشكل صريح نحو هذه أو تلك من الدول. والواقع الفعلي يدل على أن موقف العالم الثالث هو موقف الحياد برغم تعاطف بعض دوله مع هذه الكتلة أو تلك تبعاً للظروف الراهنة.

الصفة الثانية التي تميز العالم الثالث هي أن معظم دوله حديثة الاستقلال، وبالتالي تسعى جاهدة إلى تطوير اقتصادها، وتأمين الاستقرار والازدهار لشعوبها، مع اضطرارها باستمرار إلى تعزيز قدراتها الدفاعية. ونظراً لافتقارها إلى أغلب حاجاتها فإنها مضطرة للتوجه نحو الدول الأخرى للحصول عليها. وبما أن غالبية هذه الدول هي بحرية فإنها تبعاً للمحيط أو البحر المطلة عليه تتخذ اتجاهات استراتيجية مختلفة.

وجدنا من الملائم على ضوء جميع الملاحظات التي أوردناها أن ندرس العالم المعاصر من الوجهة الجغرافية الاستراتيجية وفق مناطق كبرى ثلاث، سوف نطلق على كل منها اسم المحيط الأقرب إليها، أي: منطقة المحيط الأطلسي، ومنطقة المحيط الهادىء، ومنطقة المحيط المتجمد الشمالي. ونلاحظ فوراً أن بين دول كل منطقة مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات تنسق التعاون فيما بينها.

ونظراً لأن دراستنا الحالية للعالم سوف تقتصر على العموميات فإننا نعتقد أن هذا

التقسيم يفي بالغرض، في حين أن دراسة أعمق وأكثر تفصيلاً تحتاج بلا شك إلى تقسيمات أدنى مستوى، سواء من حيث الحجم أو الأهمية.

١ ـ حدود المناطق

يفصل بين منطقتي الأطلسي والهادىء من جهة أميركا (من كندا حتى الطرف الأقصى لجنوبي أميركا)، ومن جهة أخرى خط اعتباري يمتد بشكل عام من بحر (كارا) ـ شمالي روسيا ـ وحتى رأس الرجاء الصالح ماراً بسلسلة جبال الأورال وبحر قزوين ومدينة بغداد وبحيرة فيكتوريا.

أما منطقة المحيط المتجمد الشمالي فتشمل الدائرة القطبية عدا الأرخبيل الاسكندنافي والبحر الأبيض ـ شمالي شرقي روسيا ـ، الذي لا يتجلد بسبب التيار الدافىء (غولف ستريم) الذي يصله بالأطلسي.

نلاحظ أن منطقة الأطلسي تضم بحاراً داخلية: البلطيق والمتوسط والأسود، في حين تشمل منطقة الهادىء المحيط الهندي المتصل بالهادىء.

إن هذا التقسيم برغم كونه يبدو منطقياً، فإنه قابل للجدل، فهو يقطع مثلاً كلاً من الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط إلى نصفين في الوقت الذي تشكل كل منهما وحدة جغرافية سياسية واحدة. ومن الملفت للنظر أن خط التقسيم هذا ينطبق في الاتحاد السوفييتي، مع التقسيم التقليدي الجغرافي بين روسيا الأوروبية وروسيا الآسيوية، الذي لم يفرض نفسه طيلة هذه الفترة الزمنية الطويلة دونما سبب.

أما بالنسبة للشرق الأوسط، منطقة تلاقي المحاور الكبرى، فمن الملاحظ أن القسم الشمالي الغربي منه قد اتجه دوماً نحو البحر المتوسط، في حين أن النصف الجنوبي الغربي منه توجه نحو الهند والشرق الأقصى.

على كل حال، ومهما كان شكل التقسيم الجغرافي الذي نتبناه، فعلينا ألا نغفل عن حقيقة الروابط الوثيقة والتعاون المتبادل بين الدول المتجاورة، هذه العلاقات التي لا يمكن الوقوف دونها إلا عبر سلسلة واسعة من التدابير المصطنعة والمخالفة للطبيعة غالباً.

في كل من المناطق الكبرى نجد دولاً محايدة، مثل سويسرا والسويد ودولاً (غير

منحازة) ــ العالم الثالث ــ ولا بد من أخذ مواقف هذه الدول بعين الاعتبار ، عند القيام بإجراء دراسة استراتيجية زمن السلم . أما في حالة حرب طويلة الأمد وشاملة ، فإن هذه الدول ستضطر إلى اتخاذ موقف واضح وصريح . وعند ذلك سيكون قرارها خاضعاً حتماً ــ إن لم يكون مفروضاً ــ لظروف موقعها الجغرافي الاستراتيجي العالمي .

٢ ــ ترابط المناطق

كل واحدة من هذه المناطق الثلاث تغطي جزءاً من الدولتين العظميين القائدتين الفعليتين للمعسكرين العالميين ، أي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . في حين تنفرد كل منهما بالمقابل بالاتصال بالمناطق الثلاث . هذا بالإضافة إلى وجود نطاقات محيطة بالمناطق سوف نتعرض لها لاحقاً .

أ ــ أميركا

تشكل الولايات المتحدة وكندا كتلة متجانسة طبوغرافياً ، وإن كانت شديدة التباين من حيث هيكلها الداخلي . فالقسم الأوسط منها قاري الطبيعة نسبياً ، محافظ على تقاليده الانعزالية ، يتوجه باهتماماته نحو هذا أو ذاك من الأقسام الأخرى ، تبعاً للظروف ولانعكاساتها على ظروفه الحياتية . في حين أن القسمين الشرقي والغربي ، وبسبب طبيعتهما المحيطية يتوجهان بنشاطهما نحو أوروبا والشرق الأقصى على التوالي . ويتصل هذان القسمان ، بعضهما ببعضهما الآخر ، بالإضافة إلى الطرق البرية ، بواسطة قناة (بناما) مما أضفى على هذه القناة أهمية كبرى ، خاصة وأنها تسمح للأساطيل البحرية الأميركية ، الحربية والتجارية ، بالانتقال السريع من محيط إلى آخر . ومن المعروف أن الأساطيل البحرية والقوى الجوية هما الدعامتان الأساسيتان للقدرة العسكرية الأميركية ، لهذا فإن قناة (بناما) تعتبر هدفاً استراتيجياً في المرتبة الأولى من الأهمية .

وتحافظ الولايات المتحدة ، برغم كبر مساحتها وتنوع طبيعتها الداخلية ، على صفتها (الجزيرية) . ونظراً لعدم وجود جار قاري قريب منها ، وقادر على تهديدها ، فقد تغلبت الصفة البحرية على قدراتها العسكرية . لذلك نجد أن قواتها البرية نفسه والعاملة داخل القارة مهيأة للعمل عبر البحار . وتلعب القوى الجوية البحرية خاصة ــ بما في ذلك الفيلق البحري ــ دوراً هاماً جداً ، سواء في العمليات الهجومية ، أو في مجال الدعم

الإداري اللازم لقواتها البعيدة ، بالإضافة إلى دور الأساطيل التجارية ، في نقل المواد الأولية اللازمة لصناعاتها الهائلة . لهذا نجد أن الولايات المتحدة قد جعلت قواتها جاهزة دوماً للتدخل في أية بقعة من العالم ، وأمنت لها المرونة والقدرة الحركية اللازمة ، وعززتها بأسلحة متطورة باستمرار .

ولم يتعارض الحدث النووي مع هذا المفهوم . إذ إن قوة الردع النووية الأميركية مؤلفة بالإضافة إلى الصواريخ العابرة للقارات ، من الطيران الثقيل ، وحاملات الطائرات ، والغواصات النووية القادرة على إطلاق صواريخها ، في أي وقت ، ونحو أي نقطة في العالم .

أما من الناحية الدفاعية فإن لمظاهر القوة هذه نفسها انعكاسات سلبية ، فالتجمعات الصناعية والبشرية في الشمال الشرقي خاصة ، وكذلك على سواحل المحيط الهادىء تشكل أهدافاً ممتازة للأسلحة النووية ، بالإضافة إلى أن اضطرار أميركا للمحافظة باستمرار على اتصالاتها البحرية يفرض عليها تأمين السيطرة الدائمة على المحيطات ، وهو عبء كبير ، ويقود عملياً إلى توزع قواتها وانتشارها على مسافات شاسعة .

تفتقر الجزيرة الأميركية الضخمة إلى نطاق من الجزر في كلا المحيطين . (فالأرض الجديدة) ــ جنوب شرق كندا ــ تعتبر ، على صعيد الاستراتيجية الشاملة ، كأنها جزء من القارة ، كما أن سلسلة جزر (الأنتيل) ــ في البحر الكاريبي ــ ليست سوى امتداد للقارة ، مثيلها مثل أميركا الوسطى . وفي حين نجد أن جزر (هاواي) من جهة ، وجزر (برمودا) و (ايسلندا) من جهة أخرى هي مواقع هامة فإن عزلتها تحد من فعاليتها . ومع ذلك فإن احتلالها من قبل الخصم يشكل تهديداً جدياً للقارة الأميركية . أما في الشمال فنجد (غروينلند) والجزر الكندية ، ولها أهمية كبرى كمواقع متقدمة ، ولكن فعاليتها تبقى محدودة بسبب الظروف الجوية القاسية .

الواقع أن نقص الجزر هذا يزيد من الفعالية الدفاعية للعزلة الأميركية ، ولكنه من جهة أخرى سيئة هامة ، إذ يحرم الولايات المتحدة من العمق الكافي اللازم للإنذار المبكر ضد كل خطر جوي . ولذلك نجد أنها جادة في العمل على تلافي هذا النقص ، بالاستفادة من بعض الكتل الجليدية العائمة ، وكذلك بناء جزر اصطناعية في مواجهة سواحلها ، تتمركز فيها محطات الإنذار والكشف وقواعد جوية لطائرات الإقلاع العمودي .

أخيراً تعتبر (آلاسكا) مع جزر (الأليوتين) مواقع استراتيجية هامة جداً، سواء لقربها المباشر من الاتحاد السوفييتي، أو لإشرافها على مضيق (بهرنغ) الممر الوحيد الذي يربط بين مورمانسك وميناء فلاديفوستوك، بالإضافة إلى موقعها المناسب للكشف والإنذار المبكر، ولقواعد انطلاق القاذفات الثقيلة.

ب ـ الكتلة الشيوعية

تشغل دول الكتلة الشيوعية القسم الأكبر من (أوراسيا). وكانت روسيا، زعيمة هذه الكتلة، منذ القدم قارية الصفات من الناحية العسكرية خاصة. لهذا نجد أن قواتها الجوية قد بقيت ولمدة طويلة تضم طائرات دعم تكتيكي للقوات البرية وطائرات مطاردة. وفي حين بنت استراتيجيتها الهجومية على الاستخدام المكثف للقوات فإن استراتيجيتها الدفاعية اعتمدت أسلوب إجهاد القوات المعادية الغازية، ومن ثم تشتيتها على مساحات واسعة من الأرض. وما زالت هذه هي استراتيجيتها في حال نشوب حرب برية، سواء في الشرق أو الغرب. هذا في الوقت الذي أصبحت فيه جيوشها تتمتع بقدرات حركية كبيرة ومرونة عالية.

ولكن الخصم الرئيسي الحالي لروسيا موجود حالياً عبر المحيطات، ولا يمكن الوصول إليه إلا جواً، أو بحراً، مما دفعها إلى تبني استراتيجية شاملة جديدة تغلب عليها الصفة البحرية. وهي تسعى حالياً، بالإضافة لامتلاكها الصواريخ النووية العابرة للقارات، إلى الوصول إلى المحيطات، وامتلاك قواعد بحرية خارجية، وبالتالي تشكيل قوى بحرية قوية وحديثة. وقد نقل عن بطرس الأكبر قوله: «إن الدولة التي تملك قوات برية فقط لها يد واحدة فقط، ولا بد لها من امتلاك قوة بحرية لتصبح لها يد أخرى».

ويجد الاتحاد السوفييتي نفسه تبعاً لموقعه العالمي كدولة عملاقة، ولعقيدته ذات التطلعات العالمية مدفوعاً نحو مفهومين أساسيين، سواء في مجال الجغرافية السياسية، أو الجغرافية الاستراتيجية.

المفهوم الأول (قاري) المنطلق، دفاعي أساساً، ولكنه جاهز للتحول إلى الهجوم، مستفيداً من قواعد الانطلاق المشكلة من الدول الحليفة المتصلة به جغرافياً من جهة، والمواجهة للعدو من الجهة الأخرى. أما المفهوم الثاني فهو (محيطي) كالغرب تماماً.

ونلاحظ أن الأول ينسجم تماماً مع الميل إلى العزلة التي تتميز بها الدول القارية الكبرى، بل ويدعمها، في حين أن الثاني يتجه نحو تحطيم هذه العزلة، وبالتالي يتطلب التعاون مع دول أخرى في إطار أحلاف أو معاهدات أو إتفاقيات، مع ما يقتضيه هذا التعاون من مرونة في العلاقات غريبة نوعاً ما عن الميل إلى العزلة التقليدي.

و(للبعد) الهائل المتوفر للاتحاد السوفييتي مزايا عدة، عمق كبير يسهل توزيع المرافق الحيوية وانتشارها، ويضمن التحرك والمناورة الاستراتيجية، ووفرة المواد الأولية والاحتياطات من مختلف الأنواع.. إلخ. ولكنه من جهة أخرى لا يخلو من بعض المساوىء، خاصة عند وجود تهديد جدّي من قبل دولة كبرى مجاورة ـــ كالخلاف الصيني ـــ السوفييتي الحالي ـــ إذ إن المسافات الشاسعة، والظروف الجوية القاسية تشكلان عقبة هامة في وجه التحركات السريعة للجيوش الكبيرة. لهذا نجد أن الاتحاد السوفييتي يقوم منذ فترة بتحسين شبكات مواصلاته باذلاً في سبيل ذلك جهوداً جبارة ومبتكرة، خاصة في مجال شق القنوات الكبيرة المسايرة للمحاور الشمالية الجنوبية، وتوسيع شبكات الخطوط الحديدية، وتعزيز أساطيل النقل الجوي. ولكن وعلى الرغم من هذا كله تبقى روسيا الأوروبية وسيبيريا الشرقية مسرحين مستقلين للعمليات، بسبب تباعدهما الكبير. ومن الصعب جداً تنظيم أي تعاون فعلي بين القوات الموجودة في كل منهما، كما أنه ليس باستطاعة الخط الحديدي (عبر سيبيريا) مهما توسع أن يعوض عن ذلك. خاصة وأن الطريق البحرية من الشمال تبقى صعبة وطويلة، بالرغم من الإمكانات التقنية الحديثة، وعلى الأخص كاسحات الجليد النووية. والواقع أن البعد بين هذين المسرحين أكبر من بعد أوروبا الغربية عن أميركا.

وفي الوقت الذي تتزايد فيه أهمية سيبيريا كمنفذ على المحيط الهادىء عبر فلاديفوستوك، يتزايد الخطر الصيني يوماً بعد يوم. وقد يؤدي في حالة نشوب حرب فعلية إلى عزل سيبيريا عن روسيا الأوروبية. وبالتالي عمدت روسيا إلى المحافظة على تواجد دائم لقوات كافية للتصدي لمثل هذا الاحتمال. وهذا يعني عملياً وجود مجموعتين مستقلتين من القوات المسلحة، إحداهما في القسم الأوروبي، والأخرى في القسم الآسيوي، مع السعي إلى تجنب دخول أي صراع مسلح على الاتجاهين الشرقي والغربي

بآن واحد. ومن هنا كانت المحاولات الأميركية للتقرب من الصين، وكان تمسك الاتحاد السوفييتي بسياسته المتصلبة تجاه حلفائه في أوروبا الشرقية.

الصين الشعبية تتمتع هي أيضاً (ببعد) هائل جغرافياً وبشرياً، وتسعى إلى إيجاد توابع أو حلفاء لها من الدول المجاورة، لتؤمن لها هامش أمان، قبل أن تسبقها إليها الدول المنافسة لها سياسياً وعسكرياً، وخوفاً من أن تصبح هذه الدول المجاورة (عتبات) للقوى الخارجية. ولدينا في كوريا والهند الصينية مثالان مباشران لهذا السعي.

وتمتاز الصين بامتلاكها لسواحل بحرية طويلة ومفتوحة على المحيط الهادىء، غنية بالمرافىء والخلجان الصالحة للاستثمار. وهي برغم فقرها الحالي، وتخلفها الاقتصادي والتكنولوجي ـــ خاصة بعد فقدانها للدعم السوفييتي في هذا المجال ـــ، وضعف تسلح كتلتها البشرية الهائلة، فقد توصلت إلى القدرة النووية بسرعة نسبية. وهي تعمل حالياً بجد ونشاط لامتلاك وسائل نقل هذه القدرة إلى مسافات بعيدة. وما من شك في أنها ستوفق في ذلك في المستقبل القريب.

من الصعب حالياً التنبؤ بالاستراتيجية التي ستتبناها الصين في مجال استخدام هذه القدرة، إن كان في السلم كوسيلة ضغط سياسية، أو في حالة حرب مكشوفة. وإن العالم كله وخاصة الدول العظمى تراقب تطور الصين بقلق.

وإذا كان التطور المحتمل للخلاف الصيني ـــ السوفييتي والنتائج التي قد تتمخض عنه ما زال لغزاً مجهولاً، فإن هناك حالياً بعض المظاهر الواقعية في تلك المنطقة، التي تعكس الاهتمامات الجغرافية السياسية والاستراتيجية العالمية. وإننا نرى مثلاً أن الولايات المتحدة قد بدأت بتعزيز مواقعها تحسباً للمد الصيني، وذلك عبر تطويق المنطقة خارجياً بطوق يمتد من (برمانيا) حتى (كوريا). وهي تقدم الدعم الاقتصادي والسياسي للدول المشكلة لهذا الطوق، ولا تتورع عند الضرورة عن التدخل عسكرياً، كما في كوريا والهند الصينية. ولن تستطيع الولايات المتحدة الاستمرار في هذا الدعم ما لم تحافظ على سيطرتها على المحيط الهادىء، ولا يمكن إخراجها من المنطقة إلا من قبل قوة عسكرية بحرية أخرى تعادلها أو تفوقها قوة. ومن المحتمل جداً أن تتطلع الصين الشعبية إلى لعب هذا الدور على المدى البعيد. ونظراً لأن الوسائط اللازمة لذلك لن تتوفر قريباً، فقد وجدت الصين أن

البديل الأسرع، وربما الأكثر فعالية في الوقت الراهن، هو السلاح النووي، فعملت على امتلاكه.

لقد أبرزت الحرب في الهند الصينية أهمية السيطرة على البحار والمحيطات المحيطة بالكتلة القارية. وكان تموين القوات الفييتنامية الشمالية يتم عملياً عبر مرفأ (هايفونغ) بمفرده تقريباً، لا عبر الحدود الطويلة المشتركة مع الحليف الصيني. وعلى الرغم من أن هذا المرفأ كان ضمن المدى المجدي للطيران الأميركي فإنه لم يتعرض لأية غارة فعلية، ذلك لقناعة القيادة الأميركية أن مثل هذا العمل قد يؤدي إلى اندلاع نيران حرب شاملة. إذ لا الاتحاد السوفييتي ولا الصين الشعبية تقبلان بتوقف دعمهما للفيتكونغ. وبما أن مرفأ (هايفونغ) هو بمثابة الرئة الحيوية الوحيدة (للتونسكان) فقد بقي حرماً مقدساً يحميه الخوف من الحرب الشاملة.

ج ــ النطاقات المحيطية

تحيط بالكتلة الأوروبية الآسيوية ثلاثة نطاقات مستقلة عن أميركا من الناحية الطبيعية وهي:

(١) ــ **النطاق (شبه الجزيري)**: وهو مكون من سلسلة من أشباه الجزر وهي في أوروبا: اسكندنافيا، إسبانيا، إيطاليا، اليونان، ثم تركيا، والشرق الأوسط، الذي يعتبر همزة الوصل بين القارة الأوروبية والقارة الآسيوية، حيث نجد الهند ــ ماليزيا ــ الهند الصينية وكوريا.

يفصل بين أشباه الجزر هذه وعمق القارة حواجز طبيعية هامة، مما أدى إلى جعل البحر الواسطة الرئيسية للاتصال فيما بينها. إذ غالباً ما تكون المواصلات البرية صعبة. ومن جهة أخرى تعتبر أشباه الجزر هذه رؤوس جسور لكل قوة متجهة نحو قلب القارة، في الوقت نفسه الذي تشكل فيه قواعد انطلاق للقوى القارية نحو العالم الخارجي.

وإن هذا النطاق هو في الوقت الراهن موضع تنافس شديد بين الكتلتين العظميين، ولذلك ورغم كونه مؤلفاً من مناطق متباعدة فإن أي حدث يقع في أية منطقة يتردد صداه في كامل النطاق.

(٢) ــ نطاق الجزر الداخلية: وهو مؤلف من الجزر الكبرى المحيطة بالقارة مثل (سبيزبورغ، ايسلندا، بريطانيا، شمالي إفريقية ــ الذي يعتبر من الناحية الاستراتيجية كالجزيرة لانفصاله عن عمق القارة بصحراء واسعة ــ ثم كريت، قبرص، سيلان، الفيليبين، فورموزا، اليابان، الاليرتين). وهذا النطاق يضاعف الأول ويدعمه، إذا بالنظر لانفصال هذه الجزر فعلاً عن القارة فإن دون الوصول إليها من قبل القوات القارية صعوبات جمة، ولا يمكن غزوها إلا بعمليات جوية بحرية، يتطلب تنفيذها احتلالاً مسبقاً لتخوم النطاق الأول، بالإضافة إلى تأمين السيطرة الجوية والبحرية المحلية على الأقل. وكانت مثل هذه المشكلة قد اعترضت ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية.

وأخيراً تعتبر هذه الجزر أهدافاً هامة للعمليات الجوية البحرية في أثناء الحرب، ومناطق للتغلغل السياسي والعقائدي زمن السلم.

(٣) ــ نطاق الجزر الخارجية: وهو يشكل مع أميركا مؤخرة العالم الغربي. ومكون من إفريقية الجنوبية، مدغشقر والأرجنتين القريب منها، اوستراليا، كاليدونتيا الجديدة، وزيلندة الجديدة، أرخبيل أوكيانا، وأخيراً أرخبيل المحيط الهادىء حتى جزيرة هاواي.

لهذا النطاق أهمية جغرافية استراتيجية برزت بوضوح إبان حرب المحيط الهادىء بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥. وقد ازدادت هذه الأهمية بالنسبة للكتلة الغربية منذ ذلك الحين نتيجة لعاملين جديدين. **أولاً** الحاجة لقواعد جوية بعيدة للطائرات القاذفة الحديثة، **ثانياً** لأن المواقع الاستراتيجية الهامة للغرب مثل عدن، سنغافورة.. إلخ، قد أصبحت محدودة وتم إخلاء بعضها فعلاً.

أخيراً نلاحظ أن الموقف العالمي الراهن قد أضفى أهمية خاصة على بعض جزر المحيط الهندي التي بقيت مهملة حتى زمن قريب.

(٤) ــ منطقة المحيط الأطلسي: تحتل أوروبا الغربية المرتبة الأولى من الأهمية داخل هذه المنطقة، وهي شبه جزيرة متصلة بكتلة (أوراسيا) تتصل بها أشباه جزر ثانوية. من الألغام البحرية لتحويل الممرات الواسعة إلى مضائق مسيطر عليها. كما أن هذين الشمالية كانت مسرحاً للعمليات العسكرية الحديثة، وفي كلا الاتجاهين. هذا بالإضافة

إلى الموجات الكبرى الأخرى التي سلكت اتجاهات متعارضة أو مائلة، فقد اجتازها (الفايكنغ) نحو الجنوب في طريقهم إلى استنبول، وساير النورمانديون الأنهار في تحركاتهم، كما اجتاز العرب البوسفور من جهة وجبل طارق من جهة أخرى في اتجاههم شمالاً إلخ. ومن هذا يتضح أن أوروبا الغربية حتى عندما لم تكن هدفاً للغزو كانت معبراً لقواته.

تبدو لنا أوروبا الغربية وكأنها مقسمة إلى خمس مناطق يفصل بين الواحدة والأخرى مقاطع أشبه بالمضائق، بسبب إحاطتها بالأنهار، متوازية تقريباً، وتضيق شيئاً فشيئاً من الشرق إلى الغرب، وكلها متجهة من الشمال إلى الجنوب، أو من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي وهي:

- مضيق ادخانغسك ـ استراخان بطول ٣٠٠٠ كم، وهو يساير حدود روسيا الأوروبية.
- مضيق كوينسبرغ ـ أوديسا بطول ١٤٠٠ كم، ويعتبر الحد الغربي لروسيا.
- مضيق لوبيك ـ تريستا بطول ١٢٠٠ كم، وهو على حدود الكتلة الشرقية.
- مضيق آنفير ـ جنوا بطول ١٠٠٠ كم.
- مضيق بايون بورت فاندر بطول ٤٠٠ كم، تغطيه سلسلة جبال البيرنييه.

وعلى امتداد هذه المضائق، ومن الجانبين تمتد شبكات المواصلات، وتسيل الأنهار، مما يجعل من كل منها منطقة فاصلة واضحة.

وحتى فرنسا نفسها يمكن اعتبارها مضيقاً واسعاً بين مصب نهر الرون ودلتا السين. وهذا ما يفسر العديد من الأحداث التاريخية. ونذكر فقط أنه عبر هاتين النهايتين انطلقت قوات الحلفاء بعد الإنزال في النورماندي والبروفانس، سالكة الوديان والسهول، قبل التلاقي في أواسط أوروبا. ومن هنا كانت أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المناطق على الصعيد الاستراتيجي.

تسيل الأنهار الأوروبية (عدا نهرا البو والدانوب) باتجاه عرضاني بالنسبة للقارة الأوروبية. وقد اعتبرت طيلة فترة طويلة من الزمن موانع استراتيجية هامة، ولكن توفر

وسائط العبور الحديثة أفقدها قيمتها، ولم تعد سوى محاور لتحرك الأرتال الميكانيكية التي تستغل وديانها للمناورة.

أما القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الأوروبية فهو مغطى بسلاسل جبلية تتدنى فيها فعالية الأسلحة الحديثة، وتستعيد التقليدية منها أهميتها. ونظراً لاضطرار الجيوش إلى الالتفاف حولها، فبإمكان الاستراتيجية الدفاعية أن تستفيد منها لإنشاء جزر مقاومة قادرة على الصمود تجاه أي هجوم معاد مع العلم أن هذه الجزر ستكون منعزلة، وتتلقى الدعم والتموين من الجو فقط.

ويقدم القسم الجنوبي من النطاقين (الجزيري وشبه الجزيري) القريب من أوروبا، إمكانات استراتيجية متميزة سواء من حيث الموقع أو من حيث المقومات الطبيعية والاقتصادية. ومن الملفت للنظر أن دورها هذا متماثل من الشمال ومن الجنوب.

فالبحران الداخليان البلطيق والأسود مغلقان من جهة بواسطة شبه الجزيرة الاسكندنافية وشبه جزيرة آسيا الصغرى، وكلتاهما مكونة من كتل جبلية قاسية، وتنتهيان بعدد من المضائق: البوسفور والدردنيل، من جهة، ومضيق السوند والبلت حول الجزر الدنمركية، من جهة أخرى. وتشرف هذه المضائق بإحكام على الملاحة، وهي قادرة على إيقافها تماماً. في حين أن احتلال هذه المضائق يحتاج إلى عمليات تنفذها قوات محمولة جواً، تنطلق من القواعد الجوية الأقرب لكل مضيق. لهذا كان لصراع عليها بين الشرق والغرب شديداً جداً، لأن بقاءها تحت سيطرة القوى الغربية يحرم الاتحاد السوفييتي من إمكانية الخروج من البحر الأسود، لدعم عمليات قواته البحرية، في حين أن استيلاءه عليها يوسع أفق عملياته البعيدة، ويسهل دعم القوات المجابهة على مجنبة أوروبا الغربية.

وتواجه القوات السوفييتية موانع طبيعية أخرى في النسق الثاني، أهمها معقلان متناظران يلعبان دوراً مماثلاً لدور المضائق السابقة، وهما بريطانيا وإفريقية الشمالية. إذ تشرف كل منهما على سلسلة أخرى من المضائق: جبل طارق وبادوكاليه بالإضافة إلى الممرات المحيطة بايسلندا في الشمال، حيث يمكن تدعيم الحواجز الجليدية الطبيعية بحقول من الألغام البحرية لتحويل الممرات الواسعة إلى مضائق مسيطر عليها. كما أن هذين

المعقلين ــ بريطانيا وإفريقية الشمالية ــ يمكن أن يشكلا قواعد انطلاق للقوى الجوية الضاربة، أو مناطق حشد للقوات، وقواعد تموين كبرى، وبالتالي يعتبران هامين جداً للاستراتيجية الشاملة.

سنقتصر هنا على تعداد أشباه الجزر، والجزر الثانوية التي لها أهمية خاصة انطلاقاً مما ذكر أعلاه. فنضيف إلى الكوتنتان وإيطاليا التي سبق ذكرهما، اليونان، ومنها هدد الألمان قناة السويس. أما الجزر القريبة من القارة مثل غوتلند، وبونهولم في بحر البلطيق، وتلك الموجودة في البحر المتوسط، فإنها تفتقر إلى الحجم الكافي في إطار الاستراتيجية النووية الشاملة، ولكنها تبقى محتفظة بكامل أهميتها في إطار الاستراتيجية المحلية، عندما لا تتجاوز الحرب العتبة النووية، أو عندما يستمر الصراع، بعد الضربة النووية الأولى، ويتحول إلى حرب تقليدية. وفي هذه الحال يسترد البحر المتوسط أهميته، ليس فقط كبحر داخلي، بل أيضاً لكونه أقصر طريق نحو الشرقين الأوسط والأقصى.

والعامل الجغرافي الأخير الهام يتمثل بمراكز القوى الاقتصادية والعسكرية، والتي تعتبر أهدافاً جغرافية رئيسية للاستراتيجية. ومن نافلة القول تعداد المناطق الزراعية والصناعية الغنية في أوروبا، والتي تعتبر أهدافاً تقليدية لكل استراتيجية. ولكننا نود لفت النظر من جديد إلى الشرق الأوسط (السرج) الواصل بين القارات، والمستودع الهائل للنفط، عصب الصناعة، وبالتالي موضع الصراع الدولي الأبدي.

هذه اللمحة السريعة للمظاهر الجغرافية الاستراتيجية لمنطقة المحيط الأطلسي، وخاصة أوروبا منها، تعطي فكرة عامة عن بعض العوامل المؤثرة على الاستراتيجية، وبالإمكان استخلاص نقطتين منها:

أولاً: في كل صراع بين قوة قارية وأخرى محيطية على المسرح الأوروبي ستلجأ كل منهما إلى دفع قواتها على الجناحين، لأنه لا يمكن للقوة القارية أن تستثمر خرقها الأولي ما لم تتقدم قواتها على محور اسكندنافيا ــ بريطانيا من الشمال، وعبر الشرق الأوسط حتى المغرب من الجنوب. في حين سوف تضطر القوى المحيطية إلى الهجوم المعاكس على الأجناب أيضاً، لأن هذه المحاور هي أقل عمقاً وأضيق جبهة من وسط أوروبا، حيث دارت المعارك الواسعة النطاق السابقة. إذ أثبت التاريخ أنه كلما كانت قوات الهجوم

تتوغل عميقاً كانت تتشتت وتضيع في الوهاد الشاسعة مثل الموج في رمال الصحراء.

ثانياً: إذا كان هذا الرأي صحيحاً فإنه لا بد منذ زمن السلم من تنظيم القوات المسلحة وتدريبها ونشرها، بالشكل الملائم، للعمل وفق هذا المفهوم. وهذا يستدعي من كل طرف أن يمتلك بالإضافة إلى التشكيلات الثقيلة المزودة بالأسلحة الحديثة، والمستعدة لتلقي الصدمة الأولى للهجوم، قوات برمائية وجوية قادرة على التعايش والعمل في الجو والبحر وعلى اليابسة، لأنها عملياً ستنتقل جواً وبحراً إلى مناطق العمليات، محتلة المضائق والممرات الإجبارية، ورؤوس الجسور، لتؤمن حرية العمل للقوات المدافعة على الساحة الأوروبية.

(٥) ـــ منطقة المحيط الهادىء: برغم أنه من الأفضل، عند دراسة هذه المنطقة، أن نتعرض إلى مناطق بعيدة مثل جزيرة مدغشقر وسواها لكونها في الواقع تشكل مع منطقة الهادىء وحدة متكاملة، إلا أننا سنقتصر هنا على آسيا والمناطق المجاورة حيث تقع أهم المناطق في عصرنا الحالي.

هناك ملاحظة أولية تفرض نفسها قبل الدخول في تفاصيل منطقة الهادىء، وهي أن الصين الشعبية دولة قارية أساساً، والأفكار الاستراتيجية لماوتسي تونغ تؤكد ذلك. ولكن إذا كانت هي والدول الآسيوية الأخرى ـــ عدا اليابان ـــ ما زالت محافظة على طبيعتها هذه بسبب فقرها التكنولوجي والاقتصادي الذي صرفها عن تدعيم قواها البحرية، فيجب ألا يغرب عن البال أن اليابان قد استفادت من التكنولوجيا الغربية، ومن حيوية شعبها، لتصبح قوة بحرية من الدرجة الأولى.. وليس هناك ما يمنع الدول الآسيوية الأخرى من أن تحذو حذوها.

للنطاقات المحيطة هنا دور مماثل لدورها في منطقة المحيط الأطلسي، ويكفي إلقاء نظرة على خريطة العالم للتعرف على أهمية الجزر وأشباهها في السيطرة على خطوط المواصلات البحرية. ومن المفيد لفت النظر إلى سلسلة الأرخبيلات المتتالية الممتدة من جُزُر (أذمان) في خليج البنغال حتى (الكوديل) الملاصقة لشبه جزيرة (كاماشاتكا). وتعتبر اليابان جزءاً أساسياً في هذه السلسلة. وبالفعل كان اليابانيون ينظرون إليها كجدار واقٍ، وأملوا أن يخلقوا بداخله وحدة متجانسة متداخلة المصالح في طريقهم نحو آسيا الكبرى.

تنقسم آسيا إلى قسمين تفصل بينهما سلسلة جبال هملايا الضخمة التي تصل حتى البحر بفضل جبال سليمان من الغرب وجبال الأنام من الشرق. وبموازاة سلاسل جبال سليمان والأنام ومن الداخل يمتد محورا تقدم هامان، هما وادي الآندوس ووادي الميكونغ. وفي وسط سلاسل الجبال هذه تقع آسيا الجنوبية الثمينة وتشمل الهند وبرمانيا وماليزيا وسيام والهند الصينية، وتشرف على الفيليبين واندونيسيا. أما في شمال وشرق جبال الهملايا فهناك دول قاسية المناخ تتميز شعوبها بالبأس والإقدام والميل نحو الغزو؛ ولا يمنعها من ذلك سوى الموانع الجبلية الضخمة وضعف قدراتها البحرية. وأمامها، متى توفرت الإمكانات، فقط محوران هامان: الأول من الغرب عبر وادي الآندروس الذي تشرف عليه الباكستان، ومن هنا كانت أهمية الحلف الغربي المشكل من الباكستان وتركيا وبريطانيا. والثاني من الشرق عبر وادي الميكونغ الذي يمكن الوصول إليه بالالتفاف حول جبال الأنام. ثم من الجنوب باتجاه سايغون، أو عبر شمالي التونكان ولاوس العليا. هذا المحور الذي كانت تحميه قاعدة ديان بيان فو الشهيرة.

وتهدف استراتيجية زمن السلم في هذه المنطقة إلى تحقيق أهداف الجغرافية السياسية، وذلك عبر سلسلة من التدابير: الغزو السياسي والاقتصادي والعقائدي، وإثارة المشاعر القومية والعصبيات العرقية حتى بالحروب المحلية — كوريا، الهند الصينية — وسوف تبقى هذه الاستراتيجية سائدة حتى في حالة الحرب الشاملة. ففي هذه الحالة الأخيرة ستجد اليابان نفسها مضطرة إما إلى الانضمام إلى أحد المعسكرين بشكل فعلي، أو أن تجازف بتعرضها للاحتلال بعمليات جوية بحرية. كما سيتم غزو آسيا الجنوبية، إما سياسياً أو عسكرياً، وبالتالي إخضاع الهند الصينية والباكستان. وتكون العمليات هنا مرتبطة بتلك الدائرة في الشرق الأوسط الذي سبق أن نوهنا بأهميته. وأخيراً سوف تتابع العمليات للسيطرة على اندونيسيا والفيليبين وسواهما.

هذا على الأقل ما تتوقعه الأوساط الغربية من الكتلة الشيوعية، وعلى أساسه يمكن فهم الإجراءات التي تتخذها الولايات المتحدة في تلك المنطقة بداعي الدفاع عنها.

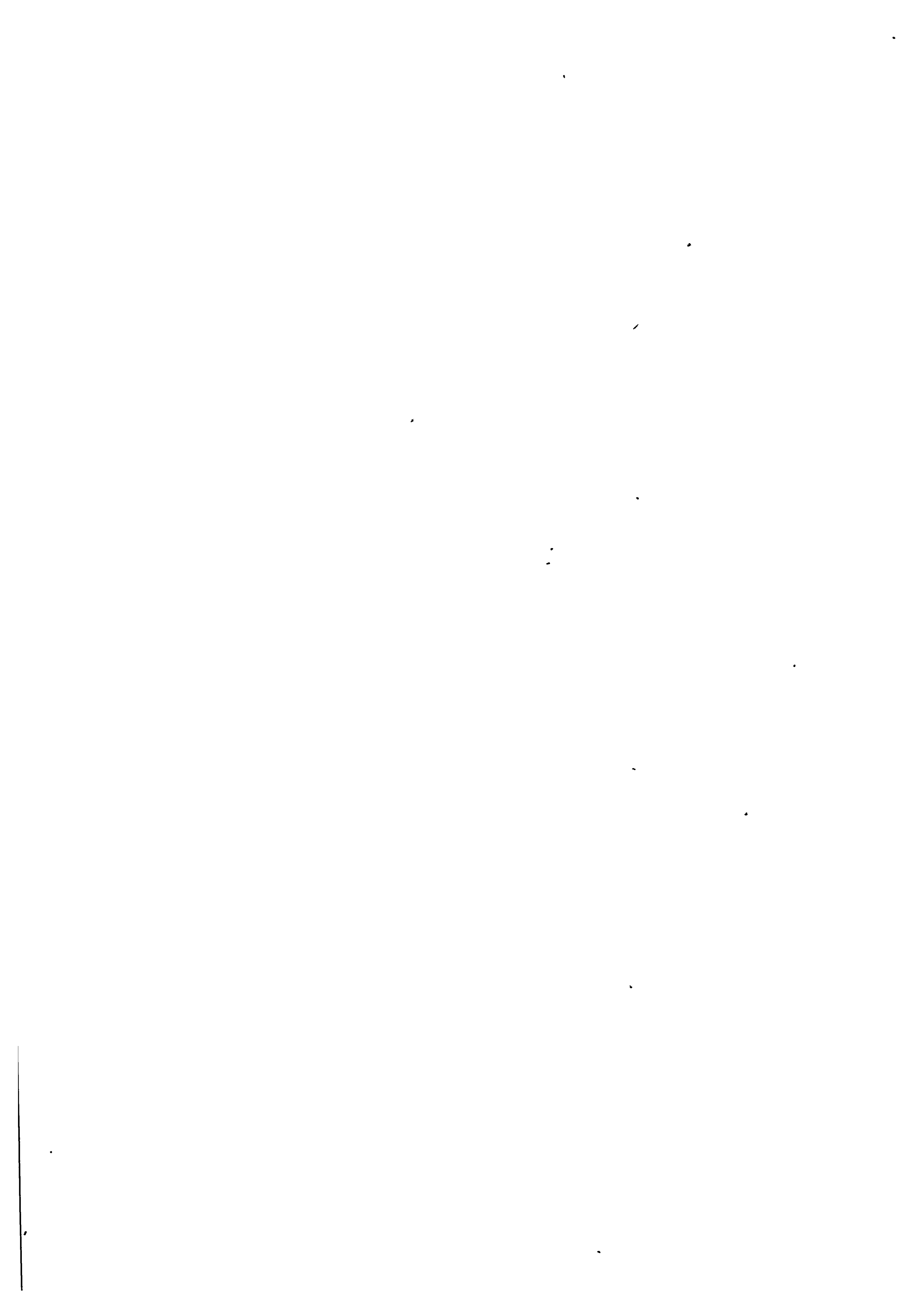
المهم بالنسبة لدراستنا أن هذا التصور يوضح مدى ترابط الأحداث الدائرة في جميع أنحاء العالم، وانعكاس كل منها على الآخر.

(٦)ـــ منطقة المحيط المتجمد الشمالي: أعطت الوسائط الحديثة لهذه المنطقة من الكرة الأرضية أهمية لم تكن لتخطر على ذهن أحد في الماضي، مما استدعى إفراد بحث خاص بها. والواقع أن نظرة واحدة إلى الخريطة الكروية للعالم من فوق القطب الشمالي توضح مدى قرب المسافة بين شمالي أميركا وأوراسيا. ولم يكن لهذا الوضع أهمية تذكر، عندما اعتبرت منطقة القطب الشمالي غير صالحة للعبور ولا للاستثمار أما اليوم فقد اختلف الوضع تماماً، فالطائرات تحلق يومياً فوق القطب، وانشاء القواعد قائم على قدم وساق في آلاسكا وغرونيلاند وسيبريا، ومنها تنطلق الطائرات المدنية، وعلى مهابطها تربض التشكيلات الجوية الاستراتيجية. هذا بالإضافة إلى كون هذه المناطق غنية بالمواد الأولية الأساسية كالنفط والمعادن، وهي قيد الاستثمار الفعلي حالياً، مع ما يتبع ذلك من منشآت صناعية ضخمة ومناطق سكنية.

من جهة أخرى فالمعروف أن منطقة المحيط المتجمد الشمالي هي عبارة عن بحر مغطى بكامله تقريباً بالجليد. وهذا صحيح، ولكن هذه الطبقة الجليدية قليلة العمق نسبياً، في حين أن عمق المياه تحتها كبير جداً، مما يسمح للغواصات ذات الدفاع النووي بالغوص والإبحار تحت الجليد، بل هي قادرة عند الضرورة على اختراق الجليد والطفو.

وتكون هذه الغواصات إبان إبحارها تحت الجليد بمنجاة من الكشف والإصابة، مع احتفاظها بقدرتها على إطلاق صواريخها النووية إلى مسافات تزيد عن الثلاثة آلاف كيلومتر، كما لو كانت في المياه الحارة تماماً. وهذه المسافة تسمح بضرب أهداف في عمق أراضي العملاقين، نظراً لقربهما من بعض عبر القطب.

أخيراً سمحت كاسحات الجليد النووية بشق الطرق البحرية، مما سهل إمكانية تحرك الأساطيل السوفييتية الشمالية في أي وقت من العام، وبالتالي أصبحت موضع اهتمام جديد للولايات المتحدة الأميركية.



تاسعاً ــ أسس الجغرافية الاستراتيجية المستقبلية

تعتبر السلطة السياسية العليا للدولة الآن أكثر من أي عصر مضى، المسؤولة الأولى والوحيدة عن اتخاذ القرارات الهامة. وإذا كان قرار شن الحرب هو قرار مصيري هام، فإن الاستعداد لها لا يقل أهمية عن تنفيذها، هذا لأن عمليات التحضير والاستعداد أصبحت تتطلب اتخاذ تدابير عديدة ومعقدة وشاملة لجميع المجالات. وللجغرافيا الاستراتيجية دور هام في هذا المجال. وقد قال عنها لينين إنها تقدم مساعدة ثمينة جداً، لكونها تتعرض بالدراسة لجميع القدرات البشرية والمادية للصديق وللعدو.

١ ــ معطيات أساسية

التنبؤ بحدث مستقبلي ليس اختراعاً أو تخيلاً وهمياً لهذا الحدث، بل هو تصور لما يحتمل أن يكونه استناداً إلى محصلة أقصى حجم مكرر من المعلومات والمعطيات التي تم جمعها، ومن دراسة طبيعة العناصر المكونة واتجاهاتها لهذا الحدث، بالاستفادة من الخبرات السابقة، إضافة للتطورات المتوقعة التي يمكن أن تطرأ على بعض العناصر المتحولة. لذلك لا بد لنا هنا من تلخيص ما توصلنا إليه في ما سبق، قبل أن نتابع هذا البحث.

أ ــ المبادىء الاستراتيجية تبقى صالحة من حيث الأساس في حين تتبدل الأساليب والتقنيات والوسائط.

ب ــ تبقى العوامل الجغرافية الطبيعية كما هي ، ولكن قيمتها قد تتبدل تبعاً لتطور الوسائط والأسلحة ، في حين تتعاظم أهمية عناصر الجغرافية السياسية الأخرى .

ج ــ لم يعد باستطاعة أية دولة أن تواكب التطور في مختلف المجالات بالاعتماد على قدراتها الذاتية فقط ، كما أنها لن تستطيع الدفاع عن نفسها منفردة ، وبالتالي أصبح الانضمام إلى حلف أو تكتل أو مجموعة ضرورياً جداً ، سواء في السلم أو الحرب .

د ــ ترتبط الحياة اليومية للدولة وقدراتها الدفاعية ارتباطاً وثيقاً بمدى حرية تحركاتها ، أي بتطور شبكات المواصلات فيها ، سواء الداخلية منها أو الخارجية .

هـ ــ للاستراتيجية المعاصرة صفات ثلاث فهي **وطنية وتحالفية ودولية** . وكثيراً ما تتعارض المصالح الوطنية للدولة مع مصالح الحلف الذي تنتمي إليه . وهنا يبرز دور الدول الأخرى الأعضاء في هذا الحلف ، وخاصة الدولة الأقوى ، بالسعي لإزالة التناقض في المصالح . وتبقى دوماً الاستراتيجية الشاملة للحلف هي الإطار العام للتصرف .

و ــ لم يعد هناك تدبير أو ستار يحمي أية دولة من الهجمات النووية الشاملة ، من هنا كانت قوة مفهوم الردع . ولكن هذا المفهوم نفسه لم يقف عائقاً ضد نشوب صراعات محلية أو محدودة ، بل قد يكون مشجعاً لها .

ز ــ نادراً ما يكون للحروب المعاصرة نهاية واضحة ، يتبعها توقيع معاهدة سلام بين الطرفين ، ويحترم بنودها كل منهما . فأعمال المقاومة وحرب العصابات التي أصبحت المظهر الشائع إثر العمليات الحربية الفعلية ، تمد في أجل الصراع وقد تؤدي عملياً إلى العودة إلى المعارك الفعلية الواسعة النطاق . أي أصبحت عملية (ربح السلام) معقدة جداً .

٢ ــ الحرب والأعداء المحتملون

كان الغزو العسكري بهدف الاحتلال الفعلي لمنطقة ما هو الغاية الطبيعية لكل حرب ، وبالتالي السبب الأساسي لنشوبها . وما زال هذا المظهر سائداً في بعض مناطق العالم ، خاصة بين الدول الحديثة الولادة . إذ إن نوعية مشاكلها ونمط تفكيرها مماثلان لمنطق الدول القديمة ووضعها في العصور السابقة .

لم تعد الدول الكبرى المتطورة تلجأ إلى هذا الأسلوب . ذلك لأنها وعت قدرتها على تحقيق أهدافها ، دونما حاجة لغزو فعلي ، فتحولت عن الاستعمار القديم إلى استعمار اقتصادي تكنولوجي سياسي للدول الأقل تطوراً ، وأثبتت الخبرات أن هذا النوع الأخير من الاستعمار هو في غالب الأحيان أكثر فعالية وأشد قسوة .

من جهة أخرى نجد أن الأسلحة النووية ، التي أصبحت وسيلة تهديد مستمر ، هي أشد خطراً على الدول الصناعية الكبرى منها على الدول الصغرى ، مما قاد الأولى إلى السعي للمحافظة على توازن دقيق في هذا المجال ، توازن أساسه الخوف من الفناء المتبادل ، مما جعل نشوب حرب نووية شاملة احتمالاً بعيداً جداً ، إلا في حالة خطأ غير محسوب ، أو نتيجة لفقدان السيطرة على حرب محدودة .

هذا الخوف من الحرب الشاملة رسخ أقدام الحروب المحلية والمحدودة ، وأكسبها صفة الديمومة . بل زاد من احتمالات نشوبها . ولا يوجد أي دليل في العصر الراهن يشير إلى احتمال زوالها . ولكن هذه الحروب قد بدأت شيئاً فشيئاً لتصبح وسيلة للصراع المستمر بين الدولتين العظميين ، ومن هنا تعاظم الخطر الذي قد ينجم عنها . إذ إن سياسة كل من هاتين الدولتين مبنية على عدم السماح للدول بالحصول على مكاسب جديدة ، وبالتالي تدعم كل منهما أحد الأطراف المشتركة في الحرب المحدودة ، مما قد يؤدي إلى مواقف يتجابه فيها العملاقان مباشرة . وكاد هذا أن يحدث مرات عدة : في البحر الكاريبي ، والشرق الأوسط ، والبحر المتوسط . خاصة وأن الدعم الذي يقدمة كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية ، في إطار صراعهما المستمر ، للدول الأخرى ليس حصراً على زمن الحرب ، بل هو أساساً في فترة السلم ، مما يؤدي إلى وجود مصالح لكل منهما ، لا بدّ من المحافظة عليها عندما تنشب الحرب .

ثم إن مبدأ (التعايش السلمي) الذي اتفقت عليه الكتلتان العالميتان ما هو إلا إجراء سياسي مقبول حالياً في ظل الخوف من الدمار الشامل المتبادل ، ولا يمكن اعتباره أساساً متيناً لحفظ السلام العالمي ، ولن يقف حائلاً دون نشوب حرب ثانوية حتى ولا شاملة . وقد انتقدته الصين الشعبية (العملاق الثالث) بصورة علنية وبشدة ، واعتبرته وسيلة لاقتسام العالم بين العملاقين .

لم يعد بالإمكان الآن، كما كان في الماضي، التنبؤ حتى بدقة تقريبية، بحرب قادمة، ولا أين ومتى يمكن أن تبدأ. إذ إن الأهداف المتوخاة من الحرب قد أصبحت أكثر تعقيداً وغموضاً. وأحياناً تبدو غير منطقية إطلاقاً، وبالتالي تتزايد احتمالات الخطأ. وقد نجد بعض الأهداف المعلنة التي كانت الحرب دوماً وسيلة لتحقيقها، وقد تم بلوغها عبر وسائل أخرى. أخيراً حتى في حالة كون السلاح هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ هدف ما فليس من الحتمي أن تشهره الدولة صاحبة المصلحة الفعلية، بل قد يتم ذلك عبر دول أخرى، تتوهم أن اللجوء للحرب خدمة لمصالحها.

من هذا كله يتضح أنه لم يعد من السهل التنبؤ بحرب مقبلة، والاستعداد لها، أو لنتائجها. كما أن هناك صعوبة جمَّة في تقدير الأعداء المحتملين، مما يفرض على السلطات السياسية والاستراتيجية في كل دولة أن تكون مستعدة لجميع الاحتمالات، وبالتالي للبقاء على اطلاع دائم على كل ما يجري في العالم بأجمعه.

أخيراً فإن هذا التقسيم الذي أوردناه للعالم وفق المناطق الثلاث ليس سوى إطار جغرافي عام، ولا بد لمن يرغب بمتابعة الموقف السياسي العالمي من التعمق بدراسة كل جزء من هذه المناطق، والسعي إلى التعرف على موقف كل دولة، وعلى مصالحها وتطلعاتها، وعلى الأحداث الجارية فيها، والنتائج التي قد تترتب عنها. خاصة، وإنه لم يعد بإمكان أية سلطة سياسية اتخاذ قرار الحرب أو السلم، ما لم تأخذ بعين الاعتبار مواقف الدول الأخرى، التي لها دور قريب أو بعيد بنتائج هذا القرار.

ولا بدّ من لفت النظر إلى أن القيمة النسبية للمناطق غير ثابتة، وهي عرضة للتبدل. فمثلاً نجد حالياً أن قيمة آلاسكا، والبحر الأحمر، ومنطقة الخليج العربي في تعاظم في حين لم تعد لقناة السويس أهميتها السابقة. كما أن كثيراً ما يحدث أن تبدل دولة ما ولاءها، أو على الأقل اتجاه تعاملها من معسكر إلى آخر، مع ما يؤدي ذلك إلى تبدُّل في الموقف العالمي، وما يتطلبه الوضع الجديد من إعادة النظر في الاستراتيجية العامة للدولة.

وفي جميع الحالات تقف الدولتان العملاقتان خارج نطاق الصراعات المحلية

ظاهرياً، ترقبها من بعيد، ساعية إلى توجيهها لصالحها، واثقة من قدرتها على التدخل الفوري عند الضرورة بالوسيلة المناسبة.

٣ ـ تداخل الاستراتيجيات الوطنية

يبدو، على ضوء ما ذكر أعلاه، أن على الدولة الصغرى والمتوسطة السعي إلى التعاون الوثيق فيما بينها في السلم كما في الحرب، لتتمكن من تكوين (البعد والكتلة) الضروريين للوقوف في وجه التحديات والضغوط السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية. ولا يمكن أن يتم ذلك إلا في إطار تجمع أو تكتل لعدد من هذه الدول لحماية الأهداف المشتركة والمصالح المتبادلة، يكون لكل دولة فيه دور خاص بها، ضمن إطار استراتيجية شاملة موحدة للتجمع بكامله.

ولكن كي تكون هذه الاستراتيجية فعالة لا بدّ وأن تقوم كل دولة عضو بنوع من التخصص في مجال معين، وأن تنصهر عملياً في المجموعة. وهذا الانصهار يؤدي عملياً إلى وضع بعض القيود على حرية تصرف الدولة، أي أن تتخلى عن بعض مظاهر سيادتها الوطنية. وغالباً ما ترفض الدولة ذلك. إذ تعتبر أن السيادة الكاملة هي أهم مقومات استقلالها، وهذا صحيح. ثم ومن جهة أخرى نجد في معظم الأحيان أن مصالح الدولة الأقوى في المجموعة هي الطاغية على سياستها العامة.

أخيراً تسعى كل دولة إلى زيادة قدراتها العسكرية الذاتية لضمان قدرتها في الدفاع عن نفسها، ثم تحاول الملاءمة بين الأهداف الاستراتيجية الوطنية وأهداف المجموعة ككل. وقد أثبتت الخبرات التاريخية أن تطابق الهدفين نادر الحدوث، بل إن تعارض المصالح هو الأكثر احتمالاً. ولهذا انعكاسه السلبي على فعالية المجموعة. لذلك لا بد من أن تسعى الدول التي تجمعها مصالح مشتركة، وروابط تاريخية وقومية وثقافية واحدة، ويهددها عدو مشترك إلى أن تجد الحل المناسب الذي يضمن توفر مستوى مقبول من أسس التعاون الذي يضمن تماسكها.

والدول الكبرى المتحالفة ليست بمنأى من مثل هذه العقبات الناجمة عن تضارب المصالح الوطنية والتطلعات القومية، بين كل دولة وأخرى، وبينها وبين الحلف ككل. لذلك نجدها تعكف على الدراسة الواقعية للعوامل الجغرافية الاستراتيجية الهامة لكل

دولة ، واستثمار الملائم منها ، لتعزيز الحلف ، مع إظهار المرونة الكافية لتحقيق الأماني الوطنية للشعوب المرتبطة به . وفي الوقت نفسه تحتفظ بقوات متحركة جاهزة للتدخل عند الضرورة في أي مكان لمواجهة أي تصرُّف يمس سلامة الحلف بشكل خطير .

من هنا برز مفهوم قُوى (التدخل السريع) ، المشكلة عادة من صنوف مختلطة عالية القدرة الحركية والمرونة في الاستخدام جاهزة للعمل الفوري . وأوضح مثال على ذلك الأسطول السادس الأميركي الذي نفذ حتى الآن مهاماً عدة : ممارسة الضغط السياسي (السويس ١٩٥٦) ، التدخل العسكري تحت ستار حفظ الأمن (لبنان ١٩٥٨ و١٩٨٢) ، الاستعداد للمحافظة على حلفاء الولايات المتحدة كإسرائيل مثلاً (عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣) ، مع العلم أنه يشكل قوة نووية ضاربة ، لها دورها في إطار الاستراتيجية النووية الأميركية الشاملة .

هذا وتحتفظ أميركا حالياً بعدة مجموعات تدخل سريع في كل من المحيط الهادىء ، والأطلسي ، والبحر المتوسط . كما تملك كل من بريطانيا وفرنسا قوات تدخل يتناسب حجمها مع إمكانات كل منهما . هذا وقد بدأ الاتحاد السوفييتي بتشكيل قوى مماثلة لمواجهة أي حدث محتمل . ولا شك في أن الصين الشعبية سوف تنحو اتجاهاً مماثلاً في المستقبل القريب .

باختصار ، نجد أنه بالإضافة إلى العوامل الجغرافية الاستراتيجية المساعدة على تدعيم أي حلف ، لا بدّ من الاحتفاظ بقوة استراتيجية متحركة جاهزة للعمل على المسرح العالمي ، سواء لتنفيذ استراتيجية الحلف ، أو لتغطية التناقض بين المصالح الوطنية للدول ومصالح الدولة الأعظم في هذا الحلف .

٤ ــ أفكار استراتيجية محتملة

ينطلق كل مفهوم استراتيجي أساساً من المعرفة الدقيقة للعدو المحتمل ، عبر الدراسة المسبقة والدقيقة لجميع المعلومات المتوفرة عنه ، ومن ثم التقويم العقلاني لقواتنا الذاتية وإمكاناتنا الفعلية . ونستخلص من كل ما تقدم بعض الأسس المبدئية .

أ) يبقى الاستعداد والتحضير المسبق للمواجهة شرطاً هاماً من شروط النجاح مهما

كانت نوعية الحرب المقبلة، أي أن بقاء الدولة مرتبط بحجم الجهود التي تبذلها في الاستعداد، بما في ذلك الانتشار الحكيم للقوات وللتجمعات الاقتصادية والسكانية، وبتدابير الدفاع الإيجابي والسلبي عن السكان. ومن الواضح أن تحقيق هذه المتطلبات يحتاج إلى فترة زمنية طويلة، كما يتطلب تنفيذها وضع خطة شاملة ومتكاملة. وتفيد الخبرات أن نظام لا مركزية الإدارة يسهل التنفيذ العملي.

من جهة أخرى أصبح للمستوى التكنولوجي أهمية كبرى سواء بالنسبة للدول الصانعة للسلاح والعتاد، أو بالنسبة لتلك المستثمرة له، إذ لا تستطيع الأولى السماح للخصم بأن يسبقها في هذا المضمار، كما لا يمكن للثانية الحصول على مردود جيد من الأعتدة، ما لم تؤمن للسدنة مستوى معيناً من الكفاءة التقنية، عبر تدريب متواصل عملي وعلمي.

أخيراً احتلت التهيئة النفسية والمعنوية للشعب موقعاً طليعياً في مرحلة الاستعداد للحرب، لا يمكن إغفالها، إذ بتحول الحروب من معارك بين الجيوش إلى صدام بين الشعوب، واحتمال تعرض مرافق الدولة كلها إلى الأخطار، أصبح الشعب بكل فئاته طرفاً مباشراً فيها، ولم يعد يتقبل قرارات تتخذ بغفلة عنه. ولا بدّ من وضع أسس متينة للتوجيه السياسي الوطني، تجعل من السلطة والشعب كتلة واحدة. لأن بقاء الوطن واستمرار الحياة فيه رهن بمدى استعداد الشعب والتفاته حول السلطة السياسية.

من المعروف أن المفهوم (الاستراتيجي النووي) يتصف عادة بالجمود، لاعتماده على أنواع محددة من الأسلحة تستخدم وفق أسلوب معين. ولكن امتلاك السلاح النووي الاستراتيجي بحد ذاته يفتح المجال واسعاً أمام الاستراتيجية السياسية. إذ بإمكانها اختيار الأهداف التي يؤدي تدميرها إلى تأمين الظروف الملائمة لتسهيل عمل قواتها وتحقيق النصر.

أما في الحروب (نصف النووية) حيث تستخدم الأسلحة النووية التكتيكية والتقليدية، وكذلك في الحروب التقليدية فإن الفرصة فيها مفتوحة أمام حرية المناورات التكتيكية. ومع ذلك تبقى الخطوط الاستراتيجية العامة لكلا النوعين واحدة، ومنها:

ـــ أن السيطرة الجوية المحلية على الأقل شرط هام من شروط النجاح.

ـــ في العمليات البرية يجب أن تعمل القوات المهاجمة على الخرق السريع والعميق لدفاعات العدو، وللمفاجأة دور هام في هذا المجال. أما أهداف الهجوم فهي المدن المعادية والمراكز الحيوية، بالإضافة إلى المناطق التي تؤمن السيطرة عليها وصول الإمدادات، (كالقواعد الجوية والمطارات والموانىء). هذا الخرق في عمق المناطق الحيوية المعادية يحمي قوات الهجوم من خطر الضربات النووية، لأن العدو لن يجازف باستخدامها ضد مناطقه الخاصة.

ـــ ومن هنا كان لا بد للاستراتيجية الدفاعية من أن تعتمد مبدأ تحطيم قوى الهجوم المعادي أبعد ما يمكن عن المناطق الصديقة، ليتسنى لها الاستفادة من الأسلحة النووية والصاروخية. أما في حالة نجاح العدو في خرق الدفاع، والتوغل داخل المناطق الصديقة، فيجب أن يتحول الدفاع إلى عقد محصنة قوية، مع الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من الطبيعة الجغرافية لمسرح العمليات. مع العلم أن النجاح في مثل هذه الظروف مرتبط بمدى التحضير المسبق والدقيق للأرض، وللمناورات اللازمة، والمعنويات العالية للشعب والقوات المسلحة، وإطالة مدة الحرب إلى أطول فترة ممكنة، وضمان مساعدة الدول الصديقة والحليفة. وهذا يقودنا من جديد إلى ضرورة ارتباط الدولة منذ زمن السلم بنوع من الصداقة أو التحالف مع الدول الأخرى التي تجمعها وإياها العقائد المشتركة، أو التاريخ الموحد، أو على الأقل العدو المشترك الواحد.

الخلاصة

لم يكن بالإمكان، خلال هذا البحث المحدود، التعرض لكافة المعضلات العالية الشائكة والمتعددة المظاهر، حتى ولا تلك التي لها علاقة بالجغرافية الاستراتيجية فقط. وإن المطمع الوحيد لهذه الدراسة كان لفت النظر إلى بعضها، ومحاولة لإيضاح مدى الترابط فيما بينها، ضمن إطار نظرية شاملة على المستوى العالمي. وسنحاول باختصار استخلاص بعض النتائج منها:

١ ـــ لقد دلت جميع الدراسات الجغرافية السياسية والاستراتيجية على أنه لم يعد من المقبول اعتبار الكرة الأرضية كلوحة واسعة، توضعت عليها الدول، تجاور إحداها الأخرى، وتفصل بينها حدود واضحة أحياناً، ومبهمة غالب الأحيان، بل هي مجموعات

كبرى من الدول المتطورة باستمرار ، ومتواكبة ، تتعايش ضمن إطار توازن قدرة العالم على السيطرة على الأزمات التي يتعرض لها ، وامتصاص نتائجها .

ولو نظرنا إلى الواقع الفعلي لوجدنا أن هذه المجموعات الكبرى نفسها موزعة بين معسكرين متجابهين على مستوى الكون ، وللعوامل الطبيعية والبشرية والعقائدية دور في هذا التقسيم .

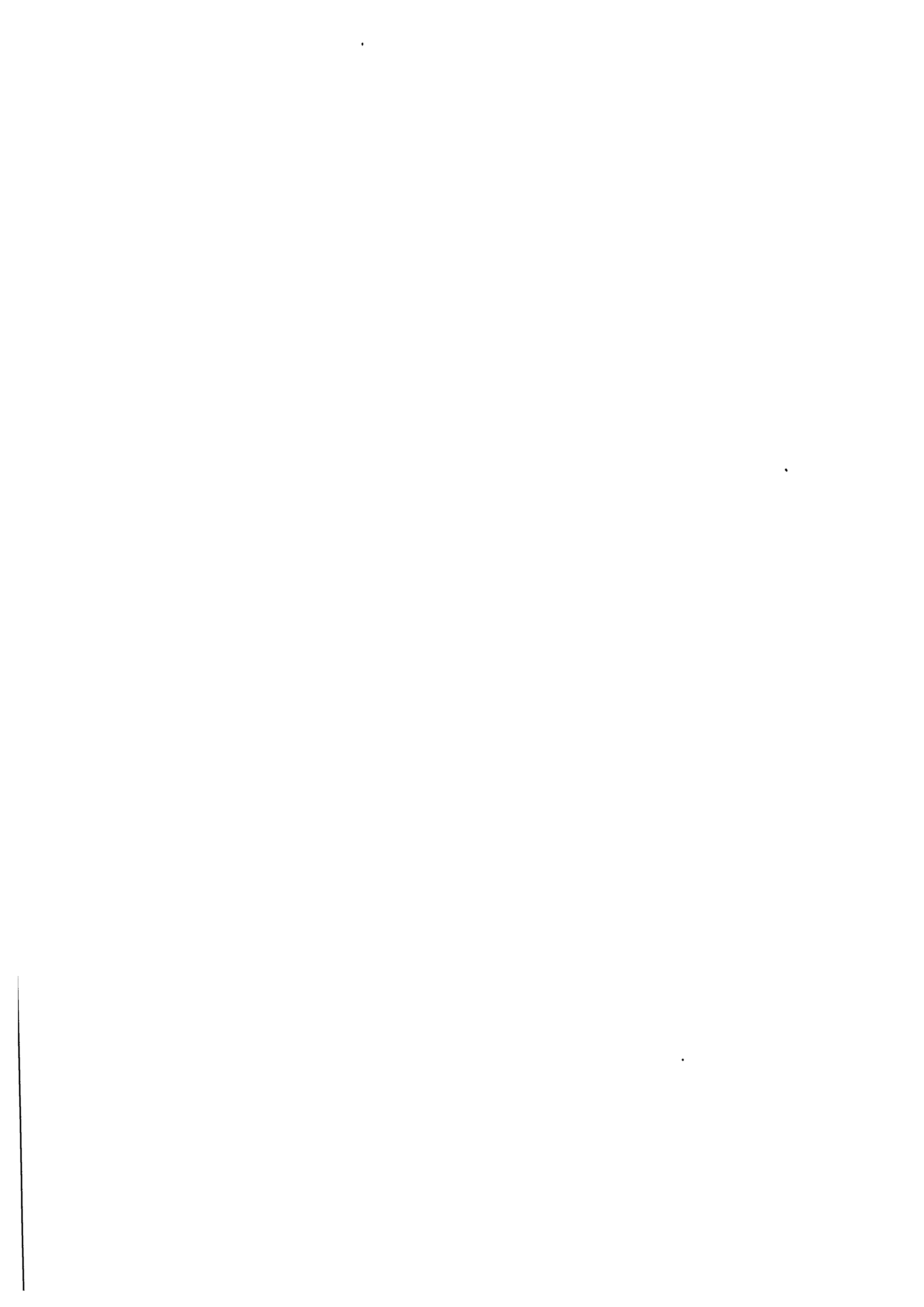
٢ ـــ ويرتدي الصراع الدائم بين المعسكرين أشكالاً متنوعة ، ويتم بأساليب مختلفة : حروب ساخنة أو باردة ، صراع سياسي أو عقائدي ، تعايش سلمي ، توازن القوى ، تنافس في الدعم الاقتصادي والتكنولوجي والتسليحي للدول الأخرى . وهو يهدف في جميع الأحوال إلى تحطيم المعسكر الآخر ، أو إضعافه ، عبر تحويل ولاء بعض الدول المرتبطة به ، خاصة تلك التي تحتل مناطق حساسة جغرافية ، مثل الشرق الأوسط ، وأميركا الوسطى .. إلخ .

٣ ـــ أخيراً لم يعد باستطاعة السلطات السياسية العليا في كل دولة ، أن تقتصر ، عند دراستها وتقويمها لموقفها ، على مواقف الدول المجاورة لها والعدو التقليدي ، أو المحتل ، بل عليها أن تعي موقعها على اللوحة العالمية ، وبالتالي انعكاسات كل قرار تتخذه على استراتيجية التكتلات العظمى .



الفصـــل الخامـــس

أسس الاستراتيجية



أولاً ـــ تعريف الاستراتيجية ونظريتها

تمهيد

يعتبر مفهوم الاستراتيجية من المفاهيم المتداولة في العلوم الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية التي تستخدم للدلالة على أكثر من معنى واحد. فكلمة استراتيجية، وصفة استراتيجي، تستخدمان استخداماً واسعاً من قبل الباحثين والمتخصصين في شتى العلوم، دون تحديد واضح لمعناهما، أو تعريف لأبعاد المفهوم وحدوده، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى الغموض والاضطراب الفكريين.

وإذا كان تعبير الاستراتيجية Strategy قد اشتق أصلاً من الكلمة اليونانية Stratêgos[1] بمعنى فن القيادة Art of Generalship، فإن استخداماته المعاصرة قد تعددت وشملت العديد من الميادين. فقد يوصف موقع ما ــ أو جزء من دولة ــ بأنه استراتيجي، مثل القول بالموقع الاستراتيجي لمضيق هرمز، أو لباب المندب. وقد يوصف قرار سياسي أو اقتصادي هام بأنه استراتيجي، إذا كان يؤثر على السياسة و الاقتصاد في البلاد. كما يطلق وصف استراتيجي على بعض الأسلحة ذات التأثير الحاسم في الحرب،

---

(١) مشتقة من Stratos التي تعني الجيش، و agein التي تعني قيادة أو إدارة. واستخدمت هذه الكلمة المركبة في اليونانية القديمة Stratêgos بمعنى قائد الجيش، ومنها اشتقت Strategie فن قيادة الجيش (لاروس ل ٣).

كالتي شملتها معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية SALT[٢]، أو على قطاع من القطاعات الرئيسية في المجتمع. وتتحدث إحدى وثائق الأمم المتحدة عن (الأهمية الاستراتيجية للقطاع الريفي) في مجالي توزيع الدخل والعمالة، أو على بعض المواد الاقتصادية والمنتوجات، فتقول إن دولة ما فرضت حصاراً بحرياً على دولة أخرى فيما يتعلق بالمواد الاستراتيجية، وهي مواد تؤثر على السياسة الاقتصادية أو السياسة العسكرية لدولة ما، كالبترول مثلاً. وأخيراً فقد يوصف نمط من التفكير أو الدراسات المتخصصة بأنه تفكير استراتيجي، أو دراسات استراتيجية. ومن هذا العرض السريع يتضح تعدد النواحي التي يستخدم فيها تعبير استراتيجية. ومن هنا تأتي ضرورة تحديد هذا المفهوم وتعريفه بشكل دقيق.

إن أهمية هذا الموضوع تنبع من الإدراك المتزايد لأهمية الاستراتيجية ودورها في سلامة الوصول إلى الأهداف المرسومة. فالاستراتيجية بمعناها العام ــ كما يقول الجنرال الفرنسي آندريه بوفر[٣] ــ ليست مجرد رياضة عقلية تنطوي على الغرور أو التحذلق، وإنما هي «نمط من التفكير يجب، برغم تعقيده، أن يكون بمثابة مرشد عملي لتحقيق غايات السياسة على خير وجه وخاصة لتفادي الأخطار الجسيمة التي يظهر لنا التاريخ الحديث أمثلة عديدة منها»[٤].

وجدير بالذكر أن بعض الجامعات الأوروبية والأميركية تضم أقساماً متخصصة لدراسة الاستراتيجية، أو مراكز للأبحاث الاستراتيجية، وإن كان هذا الاهتمام لم ينتقل بعد بدرجة كافية إلى وطننا العربي، حيث ما زالت الدراسات الاستراتيجية ضعيفة نوعاً ما في كل مجال.

١ ــ تعريف الاستراتيجية

تعبير الاستراتيجية هو تعبير ذو أصل عسكري. ومن الناحية التاريخية ارتبط

---

(٢) Strategy Arms Limitation Treaty.

(٣) اندريه بوفر André Beaufré جنرال فرنسي ولد في نويي على السين (١٩٠٢ ــ ١٩٧٥)، وهو مؤلف لعدة كتب عن الاستراتيجية الحديثة. (لاروس).

(٤) اندريه بوفر، مدخل إلى الاستراتيجية، ترجمة هيئة الاستعلامات، العدد ٦٩٩، القاهرة ص ٨٠.

لفظ الاستراتيجية بلفظ الحرب وإدارتها. وعندما ظهر علم الحرب أصبحت استراتيجية الحرب فرعاً من فروعه. وبدأت الجهود الجادة لتدوين فن الحرب مع نيقولا مكيافيلي، الذي ألف كتاباً بعنوان (فن الحرب). وترجع بداية الدراسة العلمية للموضوع إلى منتصف القرن الثامن عشر، عندما قام هنري لويد(٥) الانكليزي، في مقدمة كتابه عن تاريخ حرب السنوات السبع، بتدوين عدد من النظريات العسكرية العامة، وأسس الاستراتيجية الحربية. ويقصد بالاستراتيجية في المجال العسكري استخدام القوة المسلحة بواسطة الدولة لتحقيق أهدافها. ويمكن الإشارة إلى إضافات فكرية ساهمت في تطوير المفهوم وتحديد معناه. ففي البداية سادت تعاريف حصرت مفهوم الاستراتيجية ليشمل كيفية استخدام القوة المسلحة عموماً، لتحقيق الأهداف السياسية، ثم قدم الجنرال آندريه بوفر إضافته التي أخرجت مفهوم الاستراتيجية من إطاره العسكري إلى إطار أوسع، يعتبر القوة المسلحة أحد أبعاده ومجالاته.

وهكذا مر تعريف الاستراتيجية في المجال العسكري بأكثر من مرحلة، ففي البداية كان من أشهر التعريفات وأكثرها ذيوعاً تعريف المنظّر العسكري الألماني الشهير كارل فون كلاوزفيتز القائل إنها «فن إعداد المعارك ووضع الخطط العامة للحرب».

ويعرفها فوندر غولتز بأنها «اتخاذ الإجراءات ذات الطبيعة العامة بالنسبة لمسرح الحرب ككل». كما عرفها مولتكه بأنها «عملية المواءمة العملية للوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد لتحقيق الأهداف».

يعرف كلاوزفيتز الاستراتيجية في كتابه الشهير (في الحرب) بأنها: «فن استخدام المعارك كوسيلة للوصول إلى هدف الحرب. أي أن الاستراتيجية تضع مخطط الحرب، وتحدد التطور المتوقع لمختلف المعارك التي تتألف منها الحرب، كما تحدد الاشتباكات التي ستقع في كل معركة».

ولقد قدم مولتكه تعريفاً أوضح وأفضل للاستراتيجية، إذ قال: «إنها إجراء الملاءمة العملية للوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد إلى الهدف المطلوب».

(٥) Henry Lloyd.

ويحدد هذا التعريف مسؤولية القائد العام أمام الدولة التي يخدمها. وتبقى هذه المسؤولية ضمن حدود استخدام القوات المسلحة الموضوعة تحت تصرفه، في حقل العمليات المحدد، لتحقيق مصالح السياسة العليا للحرب على أفضل وجه. فإذا وجد الوسائل التي تحت يديه غير كافية للمهمة المحددة له كان من حقه التنبيه لذلك، فإن لم يؤخذ رأيه بعين الاعتبار كان من حقه رفض القيادة أو الاستقالة، دون أن يفرض على حكومته الوسائل التي يجب أن توضع تحت تصرفه، لأن في ذلك خروجاً على حدود اختصاصاته.

ومن جهة أخرى فإن الحكومة هي التي تضع سياسة الحرب، وعليها أن تؤمن توافقها واتساقها خلال الحرب، تجاه الظروف الطارئة وغير المتوقعة، ويمكنها أن تتدخل في استراتيجية معركة كبرى، لا باستبدال القائد العسكري الذي فقدت ثقتها به فحسب، بل بتعديل الهدف المحدد ليتلاءم مع ضرورات سياستها الحربية، وإمكاناتها المتوفرة.

وليس للحكومة الحق في عرقلة عمل القائد العسكري بالتدخل في استخدام جهازه الحربي، ولكن واجبها تحديد طبيعة مهمته بكل دقة ووضوح. وهكذا فليس هدف الاستراتيجية دائماً مجرد القضاء على القوة العسكرية المعادية. وتستطيع الحكومة إذا وجدت أن عدوها يتمتع بتفوق عسكري عام، أو محلي في ميدان من ميادين العمليات، أن تقرر تنفيذ استراتيجية ذات هدف محدود.

وتستطيع الحكومة أيضاً أن تصر على التريث، حتى يتعادل تناسب القوى. ويمكنها تأخير الجهود العسكرية، أو إيقافها نهائياً، في انتظار نتيجة حاسمة لعمل اقتصادي أو حربي. كما يمكنها اعتبار تدمير القوة العسكرية المعادية عملاً يفوق إمكاناتها المادية، أو لا يستحق الجهد الذي يبذل لأجله، وإن الوصول إلى هدف سياستها الحربية ممكن باحتلال الأراضي، والاحتفاظ بها، أو المساومة عليها خلال مفاوضات الصلح.

إن السبب العادي الذي يدعو إلى استخدام استراتيجية ذات هدف محدود هو انتظار الانقلاب في ميزان القوى. ويتم الحصول على هذا الأمر بإنهاك وسائط العدو. علماً بأن وخزات الإبر المتعاقبة تضعف أكثر من الصدمات الكبيرة ذات النتائج غير الحاسمة. على أن يكون إنهاك العدو خلال ـــ هذه الوخزات ـــ أكبر من إنهاك قواتنا.

ويمكن الحصول على ذلك بتدمير تموين العدو ، بإغارات أو هجمات محلية ، تؤدي إلى إفناء بعض وسائطه ، أو تكبيدها خسائر كبيرة ، مما يدفعه للقيام بهجمات غير مجدية ، ويجبره على اتخاذ وضع ممتد أكثر مما تتحمل قواته ، مع إنهاك قدرته المادية والمعنوية .

ويوضح هذا التعريف مشكلة حرية القائد الذي يحدد استراتيجيته بنفسه ضمن مسرح عملياته . فإذا قررت الحكومة اتخاذ سياسة عليا على طريقة فابيوس ، أو ذات هدف محدد فإن أعمال القائد العسكري التي تهدف إلى تدمير قدرة العدو الحربية في نطاق حدوده الاستراتيجية يمكن أن تؤدي إلى الإضرار بسياسة حكومته ، دون كسب فوائد تذكر . وهكذا فسياسة الحرب ذات الهدف المحدود تفرض استراتيجية محدودة الهدف . ويجب عدم البحث عن الهدف الحاسم إلا بعد موافقة الحكومة التي تقرر وحدها ما إذا كان الأمر يستحق المخاطرة .

ويمكننا الآن إعطاء تعريف مختصر للاستراتيجية العسكرية بقولنا : « هي فن توزيع مختلف الوسائط العسكرية واستخدامها لتحقيق هدف السياسة » ، إذ إن الاستراتيجية لا تعتمد على حركات الجيوش فحسب ، ولكنها تعتمد أيضاً على نتائج هذه الحركات . وعندما يؤدي استخدام واسطة الحرب إلى معركة حقيقية فإن الاستعدادات التي تتخذ لإعداد مثل هذا العمل وتنفيذه تشكل ما يسمى (التكتيك) . ويمكن الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك نظرياً في أثناء الحديث ، بينما يتعذر ذلك في الأمثلة العملية ، نظراً لتشابكهما وتأثير كل واحد منهما على الآخر .

ويلاحظ من هذه التعريفات أنها تُضيِّق من نطاق مفهوم الاستراتيجية وتربطه بالمعارك . ومن ثم تبدو الحرب وكأنها الأسلوب الوحيد لتحقيق الأهداف الاستراتيجية . لذلك انتقدها الكاتب العسكري الشهير ليدل هارت ، وقدم تعريفاً جديداً قوامه أن الاستراتيجية العسكرية هي فن توزيع الوسائل العسكرية واستخدامها لتحقيق الهدف السياسي ، أو بعبارة أخرى طرق استخدام القوة العسكرية لتحقيق الأهداف السياسية .

إلا أن تعريف ليدل هارت بدوره تعرض لانتقاد جوهره : إن هارت يقصر مفهوم الاستراتيجية على الجانب العسكري ، ويستخدم تعبير الاستراتيجية للدلالة على الاستراتيجية العسكرية ، التي لا تمثل في الحقيقة سوى جانب واحد من جوانب

الاستراتيجية بمفهومها الأشمل. وهنا تبدو أهمية تعريف الجنرال بوفر، الذي ذكر أن الاستراتيجية هي فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف السياسة، وهي حوار القوى أو الإرادات التي تستخدم القوى لحلِّ خلافاتها.

وتعكس هذه العبارة نظرته لاستخدام القوة المسلحة كأحد عناصر المواجهة بين أطراف صراع ما. ويميز العسكريون في هذا الإطار بين الاستراتيجية Strategy والتكتيك Tactic واللوجستيك Logistic (التأمين الإداري). فالتكتيك هو نظرية استخدام القوات المسلحة في الاشتباك، أو هو فن استخدام الأسلحة في المعركة للحصول على أكبر قدر من الفاعلية، واللوجستيك (التأمين الإداري) هو فن نقل القوات والمعدات والأسلحة إلى ميدان المعركة، أما الاستراتيجية فهي علم تنسيق هذين النوعين من العلوم العسكرية، لتحقيق النصر، ولكيفية استخدام القوة المسلحة لتحقيق أهداف الدولة.

وهكذا فإن الفهم المعاصر للاستراتيجية العسكرية يبتعد عن مفهوم كلاوزفيتز الذي عرَّفها بأنها «فن استخدام المعارك لتحقيق هدف الحرب». ويقترب أكثر من النتيجة التي توصل إليها ليدل هارت وآندريه بوفر، وهي أن الهدف الحقيقي ليس السعي إلى المعركة بقدر ما هو خلق موقف مُواتٍ للدولة، سواء حدثت معركة أو لم تحدث.

وكما كتب الحكيم الصيني صن تزو، منذ زمن بعيد «إن إخضاع العدو دون قتال هو قمة المهارة»[٦].

ولكن تعبير الاستراتيجية لم يعد قاصراً على الاستخدامات العسكرية، بل نجده اليوم في جميع العلوم الاجتماعية تقريباً. ففي مجال علم السياسة والعلاقات الدولية يستخدم التعبير للدلالة على كيفية مواجهة أو إدارة صراع بين قوتين متضادتين، أو كيفية استغلال كل طرف لعناصر قوته، ولعناصر ضعف خصمه لتحقيق النصر.

ويستخدمها آخرون للإشارة إلى جدلية الإرادات المتقابلة التي تستخدم القوة بمعناها الشامل، الذي يتضمن الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والدعائية والنفسية.. إلخ، لفض ما ينشأ بين الدول من نزاعات، أو لتحقيق الأهداف القومية. ومن الواضح أن هذا الفهم يشير إلى ما يسمى بالاستراتيجية القومية أو الكلية.

(٦) John M. Collins. Grand Strategy (Maryland: Naval Institutc Prass. 1973) P. 15.

ويستخدم بعض دارسي السياسة الدولية وصف (استراتيجي) للدلالة على العامل أو العنصر الذي يزيد من مجمل قوة طرف ما، في صراعه مع طرف آخر، أو يقلل من قوة الخصم، و أنها «تحقيق الأهداف الأساسية للدولة عن طريق بعض السياسات».

وفي مؤلف عن الاستراتيجية السياسية لإسرائيل، لم يحدد الكاتب مفهوم الاستراتيجية وإنما استخدم تعبير (الاستراتيجية العامة) للدلالة على أن الدولة في تحركها السياسي ـــ داخلياً أو خارجياً ـــ لها أهداف قومية تسعى إلى تحقيقها، وعليها أن تحدد أوجه القوة التي يجب استغلالها، وأوجه الضعف التي ينبغي تلافيها، للوصول إلى هذه الأهداف. ومن هذا المفهوم تنطلق سياسات الدولة في المجالات الاقتصادية والعسكرية والسياسية.

وعند دراسة استخدام القوة المسلحة في العصر النووي يذهب باحث آخر إلى أن وظيفة الاستراتيجية الرئيسية في هذا العصر هي منع قيام الحرب، والحفاظ على السلام، وذلك من خلال الردع Deterrence[(٧)]. ونقتبس عبارة لتوماس شيلينغ يذكر فيها أنه إذا كانت الاستراتيجية في الماضي تعني الاستعمال الماهر للقوة فإنها الآن تعني الاستعمال الماهر (لعدم استخدام القوة) أو هي عدم الحرب، ومن ثم يعارض العبارة الشائعة عن أن الحرب هي استمرار للسياسة بطرق أخرى، وذلك لأن الأسلحة النووية قد جعلت من الحرب الشاملة أمراً بعيد الوقوع.

أما علماء الجغرافية السياسية Geopolitic فإنهم يستخدمون التعبير للدلالة على الصراع الذي يقوم على اعتبارات جغرافية. فالاستراتيجية في معناها الجغرافي هي النمط الإقليمي للصراع بين القوى العالمية. وتتردد في هذا المجال نظريات **ماكيندر وماهان**. فماكيندر على سبيل المثال أوجز الصراع الاستراتيجي في العالم بأنه صراع بين قوة البر وقوة البحر.

وينبغي التأكيد على ضرورة النظر إلى عملية رسم استراتيجية ما بشكل جدلي، يأخذ بعين اعتباره العلاقات المتداخلة بين المتغيرات المختلفة، والتأثير المتبادل الذي تمارسه كل منها على الأخرى، وعلى العملية ككل. فهناك مثلاً علاقات متبادلة بين

---

(٧) من أوائل من نادى بنظرية الردع الجنرال بيير غالوا.

الأهداف والوسائل. فاختيار هدف بعينه قد يتضمن انحيازاً إلى مجموعة من الوسائل دون غيرها، كما أن تبنّي وسائل معينة واستخدامها قد يفرضان في المستقبل أهدافاً بعينها.

وهكذا فتحديد الأهداف يتضمن اختياراً للوسائل، يؤثر على اختيار الأهداف في مرحلة لاحقة. ويترتب على ذلك أن اختيار الأهداف والوسائل هو عملية مستمرة، فما يعتبر وسيلة في مستوى ما قد ينظر إليه على أنه هدف في مستوى آخر.

كما ينبغي الأخذ بالنظرة الجدلية نفسها عند دراسة العلاقة بين رجل السياسة والاستراتيجي. صحيح أن هناك اتفاقاً على أن عملية اختيار الأهداف هي من اختصاص السياسيين وسلطتهم، ولكنه صحيح أيضاً أن رجل السياسة يتخذ قراراته على ضوء المعلومات والدراسات المتاحة له بواسطة الخبراء والمتخصصين. كذلك فمع أن رجل السياسة هو الذي يتخذ القرار فيما يتعلق بالأهداف العامة للمجتمع إلا أن الاستراتيجي بدوره يتخذ العديد من القرارات. ومن هنا جاءت ضرورة النظر إلى عملية وضع الاستراتيجية في إطار حركي، والنظر إلى العلاقات المتداخلة، والتأثيرات المتبادلة، وأشكال التغذية الاسترجاعية Feedback، بين السياسي والاسترجاعي من ناحية والاستراتيجي والمخطط من ناحية أخرى.

يترتب على نقطة الانطلاق هذه ثلاث نتائج رئيسية عند الحديث عن أية استراتيجية:

١ ــ أن الاستراتيجية ليست قاصرة على مجال بعينه دون غيره من المجالات، وغير صحيح أنها مرتبطة فقط بالجوانب العسكرية.

وهي لا ترتبط فقط بعملية إدارة الصراع كما تتضمن التعريفات الكثيرة التي يقوم بها العسكريون، فهي ما زالت ترتبط في أذهانهم بكيفية تحقيق النصر في صراع ما. كما نجد الارتباط نفسه لدى العديد من مفكري السياسة، لكنها ترتبط أساساً بعملية تحقيق أهداف الدولة، سواء أخذت شكل الصراع مع طرف آخر، مثل الحديث عن استراتيجية الصراع العربي الإسرائيلي، أو شكل مواجهة مشاكل المجتمع، مثل الحديث عن استراتيجية التنمية الاجتماعية.

٢ ــ إن أية استراتيجية تقوم على عدد من الافتراضات النظرية والفكرية المرتبطة

بالأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، وعلى الواقع الذي يتم الانطلاق منه، وعلى الوسيلة التي يقترح استخدامها.

فالوسائل والأدوات ليست مجرد قضية تقنية أو فنية، ولكن يستتر خلفها عدد من المسلّمات والتصورات الفكرية والنظرية.

٣ ـ إن عملية وضع استراتيجية ما هي عملية البحث عن أفضل الأساليب والطرق والأدوات لتحقيق الأهداف التي حددها السياسيون. وهذه الاستراتيجية كما يتضح من النقطتين السابقتين ترتبط بغيرها من الاستراتيجيات من ناحية، كما أنها تعكس تصورات وافتراضات نظرية من ناحيَة أخرى.

٢ ـ شروط وضع الاستراتيجية

أ ـ وضع الأهداف وتكاملها

لما كانت الاستراتيجية هي عملية اختيار أفضل الوسائل لتحقيق أهداف الدولة على المستوى القومي، أو في أحد مجالاتها، فلا يمكن وضع استراتيجية سليمة لأهداف مبهمة أو غير واضحة.

ويثير وضوح الأهداف وتكاملها نقطة هامة بالنسبة لبلادنا العربية. فإذا كنا ننطلق من مقولة وحدة الأمة العربية فإن مفهومنا يجب أن يقتصر على مستوى كل قطر عربي، ولكن يجب أن يمتد ليشمل الأقطار العربية ككل.

وهكذا فإن الأهداف التي تسعى استراتيجية ما إلى تحقيقها يجب أن تتسم أولاً بالوضوح، وثانياً بالتكامل والشمول بين الأهداف والقطاعات المختلفة، وثالثاً بالتناسق الداخلي وعدم التناقض.

ب ـ واقعية الأهداف

إن اختيار الأساليب الناجحة للوصول إلى الأهداف المطلوبة يستلزم وجود أهداف واقعية يمكن تحقيقها، ومن ثم أهمية تكافؤ القدرات والموارد مع الأهداف. وتتأثر في ذلك عمليات وضوح الأهداف، وتقدير الاحتياجات اللازمة، وتحديد الإمكانات

والقدرات والموارد المتاحة، ومقارنة الإمكانات بالاحتياجات، وتقويم احتمالات تحقيق الهدف بالإمكانات المتاحة.

ج ـ الابتكارية والاعتماد على الذات

لعل ذلك هو إحدى القواعد الأساسية التي يجب أن تنظر إليها البلاد المختلفة بقدر أكبر من الجدية، وهي ضرورة تطوير هذه البلاد للاستراتيجيات الملائمة لظروفها، في إطار الاعتماد على الذات.

د ـ العقلانية والتخصص

بمعنى أن عملية وضع استراتيجية ما هي عملية تتضمن اختيارات عقلانية Rational في العلاقة بين الوسائل والأهداف. ويقصد بالعقلانية في هذا المجال عقلانية ذرائعية Instrumental Rationalism، أي أن عملية الاختيار من بين عدة وسائل وأساليب مختلفة تتم على أساس عقلاني، يمكن حسابه والدفاع عنه، وهو مدى فعالية هذه الأساليب في تحقيق الأهداف. وتتضمن هذه العملية معرفة الأهداف، ودراسة الأساليب البديلة لإنجازها، ومقارنة هذه الأساليب بعضها ببعض، وتحديد الأسلوب الأمثل.

ولتحقيق ذلك يستلزم وجود معلومات دقيقة وبدونها لا يمكن للاستراتيجية أن توضع بطريقة سليمة، كما يستلزم أن تتم دراسة المعلومات وتحليلها وتقويمها على أسس علمية، تأخذ في تقديرها المناهج الحديثة لتحليل المعلومات بواسطة الخبراء والمتخصصين. فوضع الاستراتيجية هو عملية فنية يقوم بها الخبراء.

هـ ـ الاستمرارية

فالاستراتيجية لا تهتم بالمشاكل اليومية، وإنما تتضمن عادة عدة مراحل تقوم كل منها على ما سبقها، ومن ثم ضرورة وضوح المراحل المختلفة في ذهن المفكر الاستراتيجي من ناحية، وضرورة الاستمرارية من ناحية ثانية.

و ـ الإلزام

بمعنى أن الاستراتيجية تكون ملزمة للجهات التي تقوم بتنفيذها. فهي ليست

مجرد توصيات، وهذا هو أحد معايير جدية الاستراتيجية التي تصدر عن السلطة المخولة قانوناً لمثل هذا الاختصاص.

ز ــ المرونة

يجب أن تتضمن الاستراتيجية درجة من المرونة تسمح لها بمواجهة المواقف غير المحتملة، أو المتوقعة، مثل حالة حرب، أو كارثة طبيعية، وأن تحدد البدائل المناسبة في ظل هذه الظروف.

هذه هي شروط الاستراتيجية السليمة. وهذه الاستراتيجية، كما ورد في المقدمة، لم تعد أمراً ترفياً أو غير ضروري، وإنما هي أسلوب في التفكير يسمح بدراسة الوقائع والأحداث والمتغيرات وتصنيفها، حسب أهميتها، واختيار الوسائل الملائمة والفعالة لتحقيق الأهداف. فلكل موقف استراتيجية، ولكل هدف استراتيجية تتلاءم معه، ولا تطبق في موقف مختلف، أو لتحقيق هدف آخر.

ح ــ الاستراتيجية العليا

إذا كان التكتيك هو تطبيق الاستراتيجية على مستوى أدنى، فإن الاستراتيجية نفسها هي تطبيق الاستراتيجية العليا على مستوى أدنى. وما الاستراتيجية العليا سوى السياسة التي تقود سير الحرب. ويمكن التفرقة بينها وبين السياسة الأساسية التي تحدد هدف الحرب. ويستخدم تعبير الاستراتيجية العليا لشرح فكرة (السياسة خلال التنفيذ)، وإيضاح أن دورها الحقيقي هو توجيه كل إمكانات البلاد وتنسيقها أو إمكانات أعضاء الحلف بغية الحصول على الهدف السياسي للحرب.

إن على الاستراتيجية العليا أن تقدر وتضاعف الإمكانات الاقتصادية والقدرة البشرية بقصد دعم الوحدات المقاتلة، علاوة على دعم القوى المعنوية. لأن أهمية تقوية إدارة الرجال وشخصيتهم تعادل أهمية الحصول على القدرة المادية. والاستراتيجية العليا تتولى أيضاً تنظيم الأدوار والقوى، وتوزيعها بين مختلف المرافق والصناعة.

وعلينا أن ندرك علاوة على ذلك أن القدرة الحربية عامل واحد من عوامل

الاستراتيجية العالي، التي يدخل في حسابها قوة الضغط المالي، أو السياسي، أو الدبلوماسي، أو التجاري، أو المعنوي، وكلها عوامل هامة لإضعاف إرادة الخصم.

إن مدى الاستراتيجية محدود بالحرب. ولكن الاستراتيجية العليا تنظر إلى ما وراء الحرب، ونحو السلم الذي سيعقبها. وليس عليها أن تكتفي بتحقيق التوافق بين مختلف وسائط الحرب فحسب، وإنما عليها أن تنظم استخداماتها بغية تلافي ما يؤذي السلم المقبل، الذي يجب أن يكون ثابتاً ويحقق حياة أفضل.

٣ ــ الاستراتيجية البحتة أو العسكرية

يمكننا الآن بعد تحديد بعض المفاهيم رسم الخطوط العريضة لفكرة الاستراتيجية وعناصرها الحقيقية وقواعدها الخاصة.

يتوقف نجاح الاستراتيجية قبل كل شيء على التقدير السليم للوسيلة والغاية، وتحقيق تناسقهما. **يجب أن تكون الغاية متناسبة مع جميع الإمكانات، ويجب أن تكون** الإمكانات المستخدمة للوصول إلى كل غاية وسيطة كطريق للوصول إلى الغاية النهائية متلائمة مع متطلبات هذه الغاية الوسيطة وطبيعتها، سواء أكانت احتلال هدف، أو مشاركة في مخطط عام. علماً بأن كل زيادة ضارة كالنقص تماماً.

إن المطابقة الدقيقة بين الهدف والوسيلة تحقق اقتصاداً كبيراً في القوى. ولكن طبيعة الحرب وصفتها غير الثابتتين، ونقص الدراسات العلمية تجعل أكبر العباقرة عاجزاً عن تحقيق المطابقة المثلى. ويعتمد النجاح في النهاية على الاقتراب نسبياً من الحقيقة بالحساب والتوقع.

أما العلاقة بين الاستراتيجية والتكتيك فهي عبارة عن تشابك يصعب معه إيجاد الحدود بينهما في أثناء التنفيذ. ومن الصعوبة بمكان تقدير لحظة انتهاء الحركة الاستراتيجية وابتداء الحركة التكتيكية. إذ لا يختلف أحدهما عن الآخر إلا في المستوى. ويشمل التكتيك مدى المعركة، ولا تقف الاستراتيجية على حدود هذا الحقل فحسب، ولكنها تسعى إلى إقلال المعارك إذا أمكن ذلك.

٤ ــ هدف الاستراتيجية

قد يعارض كل ما ذكرناه سابقاً الذين يعتقدون خطأ بأن تدمير القوات المسلحة المعادية هو الهدف الوحيد المعقول للحرب ، وأن المعركة هي هدف الاستراتيجية الأوحد . وهم في الواقع متأثرون بحكمة كلاوزفيتز القائلة : « الدم ثمن النصر » .

فحتى لو اعتبرنا معهم أن المعركة الحاسمة هي الهدف المنشود ، فإن هدف الاستراتيجية هو إعداد الظروف الملائمة للقيام بهذه المعركة ، لتكون الخسائر أقل والنتائج أفضل .

وهكذا يمكن الحصول على التفوق الاستراتيجي بالوصول إلى نتيجة حاسمة ، دون القيام بمعارك ضارية . ولقد قدم التاريخ ، كما رأينا ، أمثلة أدت فيها الاستراتيجية المطبقة في ظروف ملائمة إلى نتائج حسنة . ونذكر من هذه الأمثلة معركة ليردا ليوليوس قيصر ، ومعركة بريستون لكرومويل ، ومعركة هولم لنابليون ، وتطويق جيش ماكاهـون على يد مولتكه ، وتطويق الجنرال اللنبي لجيش الأتراك في فلسطين . وأحدث الأمثلة من الحرب العالمية الثانية هي عزل الألمان جناح الحلفاء الأيسر في بلجيكا ، وتطويقه بعد أن قام غودريان باختراق خطوط الحلفاء فجأة في سيدان .

وهناك حالات تم فيها تدمير القوات المسلحة المعادية بطريقة اقتصادية ، وذلك بتجريدها من سلاحها بعد استسلامها ، مما يدل على أن التدمير الذي ينادي به أنصار كلاوزفيتز غير ضروري للحصول على نتائج حاسمة ، أو لبلوغ هدف الحرب .

وإذا لم ترغب دولة ما في احتلال دولة أخرى ، وكانت غايتها هي فقط اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على سلامتها ، فإنها تستطيع الوصول إلى هذه الغاية بإبعاد الخطر ، وإرغام العدو على التخلي عن مخططاته .

إن هزيمة بيليزير في مدينة صور بعد أن أطلق العنان لقواته الراغبة في تحقيق نصر حاسم ، برغم أن الفرس كانوا قد تخلوا عن مشروعاتهم بشأن غزو سورية ، تعتبر مثالاً واضحاً للجهود الضائعة والأخطار الإضافية التي ليس لها مبرر . كما تقدم طريقته التي صدّ بها غزوهم الأخير الخطير ، وطردهم من سورية مثالاً رائعاً لكيفية الحصول على النصر والوصول إلى الهدف الوطني ، بالاستراتيجية وحدها . ولقد ظهر العمل النفسي في هذه

الحالة فعّالاً لدرجة أجبرت العدو على التخلي عن مخططه، دون أن يكون هناك حاجة لبذل أي جهد مادي في المعركة.

إن الانتصارات المشابهة التي تتم دون إراقة دماء تعتبر نادرةً في التاريخ. ولكن ندرتها لا تقلل من قيمتها بل تزيدها. إنها تسلط الأضواء على الإمكانات الكامنة في الاستراتيجية العليا، وفي الحرب النفسية.

والحكومة بطبيعة الحال مسؤولة عن الاستراتيجية العليا خلال الحرب، وعليها اختيار الاستراتيجية التي تريدها للوصول إلى انتصار عسكري، أو من أي نوع آخر. وكما أن الوسائل العسكرية تعتبر شكلاً واحداً من أشكال الوصول إلى هدف الاستراتيجية العليا، وإذا كانت الظروف ملائمة، أصبحت الوسائل العسكرية أسرع السبل للوصل إلى النتيجة المرجوة. ولكن من الحماقة استخدامها في الحالات الأخرى.

ولنفرض أن استراتيجياً عهد إليه بالعمل على تحقيق نصر عسكري. إن مسؤوليته تنحصر في محاولة الوصول إلى هذا النصر في أحسن الظروف، للحصول على أفضل النتائج. ولن يكون هدفه الحقيقي البحث عن المعركة، بل العمل على خلق وضع استراتيجي ملائم، إن لم يؤد بنفسه إلى النصر خلق وضعاً ملائماً لمعركة تأتي بعده لتنتزع هذا النصر. ويمكننا أن نقول إن التفتيت هو هدف الاستراتيجية، ويترتب على ذلك تحطيم العدو بشكل أسهل خلال المعركة. وقد يتطلب هذا التحطيم في بعض الحالات نشوب معارك واشتباكات، ولكنها قد لا تكون حاسمة.

٥ ــ العمل الاستراتيجي

كيف يتم التفتيت الاستراتيجي؟ يمكن الوصول إلى هذه النتيجة إما في مجال القوات أو في المجال الإداري، وذلك نتيجة حركة:

أ ــ تسبب اضطراب تشكيلات العدو، وتجبره على إجراء تبديل مفاجئ في جبهته، وتحطّم توزيع قواته وتنظيمها.

ب ــ تجزّىء قوات العدو.

ج ــ تهدد خطوط تموينه.

د ـ تهدد الطريق أو الطرقات التي يستطيع منها القيام بتراجع نحو قاعدته، أو إلى موطنه الأصلي.

ويمكن الحصول على التفتيت بأحد هذه المؤثرات، ولكنه يحصل غالباً نتيجة عدة عوامل. والتمييز في الحقيقة صعب، لأن حركة موجهة إلى مؤخرة العدو يمكن أن تجمع كل هذه المؤثرات. ويختلف تأثير كل واحد منها، كما حدث خلال التاريخ، حسب أهمية الجيوش وتعقيد تنظيمها. فإذا كانت الجيوش تعتمد في حياتها على موارد البلاد نفسها، وتأخذ تموينها من المصادر المحلية، أصبحت طرق تموينها ذات أهمية قليلة. أما إذا كانت الجيوش أرقى تنظيماً، وتعتمد على قواعد تموينها فإن صغر حجم الجيوش يقلل من اعتماده على طريق مواصلاته. وكلما كبر الجيش أصبح تأثير الهجمات الموجهة إلى خطوط مواصلاته أكبر وأسرع.

عندما لم تكن الجيوش تعتمد على خطوط تموينها، كان تأثير الاستراتيجية محدوداً، وكان التكتيك يلعب الدور الأكبر. ومع هذا حصل بعض الاستراتيجيين الماهرين على نتائج حاسمة، قبل المعركة، بتهديد طريق انسحاب العدو، أو توازن قواته أو تموينه المحلي.

ويتم القيام بمثل هذا التهديد، ليكون حاسماً، على نقطة قريبة من جيش العدو من حيث الزمان والمكان، وليس على مواصلاته البعيدة. لذا كان من الصعب في فن الحرب القديم التفريق بين المناورة الاستراتيجية والمناورة التكتيكية.

ويتم التفتيت في الحقل النفسي بالتأثير على أفكار القائد. ويزداد التأثير إذا ما لاحظ القائد فجأة أنه في موقف غير ملائم، وشعر بعجزه عن مقاومة حركة العدو. ويأتي التفتيت النفسي بصورة رئيسية عند الشعور بالسقوط في الفخ، بعد قيام العدو بحركة مادية على المؤخرات. والجيش كالرجل لا يستطيع الدفاع بصورة فعالة ضد ضربة تأتيه من الخلف، دون أن يستدير ليستخدم أسلحته ضد هذه المهاجم. و(عملية الاستدارة) تجعل الجيش يفقد توازنه، وتضعه في وضع قلق بعض الوقت.

وتهدف حركة الالتفاف حول مجنبة العدو، أو نحو مؤخرته إلى تحاشي كل مقاومة خلال تنفيذ الحركة وبعد انتهائها. وهذه الحركة تسلك (أقل السبل مقاومة). ويعادلها في الحقل النفسي القيام بعمل غير متوقع، أو على (الخط الأقل توقعاً).

إن من الضروري لمنع العدو من تغيير اتجاهه القيام بحركة (مشاغلة) أو أكثر ، قبل القيام بحركة التدمير الرئيسية ، وذلك بقصد تشتيت انتباه العدو ، وحرمانه من (حرية العمل) على أن تتم هذه المشاغلة في المجالين المادي والمعنوي . وهي في المجال المادي تؤدي إلى توزيع إمكاناته ، أو توجيهها نحو أهداف عقيمة غير مجدية ، بحيث يتعذر عليه التدخل بقوة ، والتأثير بشكل حاسم على نتيجة مناورة المهاجم ، نظراً لتوزعه بشكل كبير ، واشتباكه في أماكن أخرى . كما تؤدي في المجال المعنوي إلى نتائج مشابهة للذعر الذي يسيطر على القيادة المعادية وشعورها بأنها خدعت . ويتم ذلك بخداع العدو ثم مفاجأته ، لأن خداع العدو وإيقاعه في الخطأ عبارة عن مشاغلة ، أما المفاجأة فهي السبب الرئيسي للتفتيت . وتؤدي (مشاغلة) تفكير القائد بطبيعة الحال إلى مشاغلة وسائطه . كما أن فقدان العمل يأتي من فقدان حرية التفكير والتقدير .

وقد ابتعدت بعض الكتب التقليدية عن الحقيقة بشكل أكبر عندما حاولت دراسة الحرب ، كما لو كانت في الأصل عملية تجميع قوات أكبر . ولقد كتب المارشال فوش في تعريفه الشهير للاقتصاد في القوى ، أنه فن استخدام كل الموارد في زمان ومكان محددين ، على أن يتم فيهما استخدام كل الوحدات ، وتنظيم المهام بينها ، لتعمل مترابطة مع بعضها ، بدلاً من توزيعها وإعطاء مهمة واحدة ثابتة لا تتبدل لكل وحدة منها . وعندما يتم الحصول على النتيجة يصبح هذا المبدأ عبارة عن توزيع الوحدات بشكل تستطيع معه التجمع والعمل من جديد على هدف موحد..

وإذا أردنا الدقة والواقعية في التعبير قلنا إن على الجيش أن يكون متمفصلاً بشكل تستطيع كل عناصره العمل والتعاون مع العناصر الأخرى ، لتحقيق أكبر تجميع ممكن في مكان ما ، ولا تترك للنقاط الأخرى سوى الحد الأدنى الضروري من الإمكانات ، وذلك لتسهيل نجاح عمليات التجمع الرئيسي .

إن تجميع جميع الوسائط عمل مثالي من المتعذر تحقيقه ، كما أظهر التطبيق العملي أن (الحد الأدنى الضروري) يشكل أحياناً بالنسبة للمجموع جانباً يفوق (أكبر تجمع ممكن) . ويمكننا القول إنه كلما كانت الوسائط المستخدمة لمشاغلة العدو معقولة وناجحة كانت فرصة التجمع الرئيسي في النجاح كبيرة .

ولا يكفي القيام بضغط كبير على نقطة حساسة إلا إذا كان العدو عاجزاً عن تقوية هذه النقطة المعرضة للهجوم في الوقت المناسب، أو كانت النقطة ضعيفة جداً مادياً ومعنوياً. وقد ازدادت ضرورة (المشاغلة) في الآونة الأخيرة، بعد ازدياد قدرة الردع التي تملكها الأسلحة الدفاعية الحديثة.

٦ ــ الأسس الاستراتيجية

هناك حقيقة أعمق هي أننا في حاجة لأن نضرب وأن نحتمي من الضربات. وللقيام بضرب فعّال يجب **مفاجأة العدو** قبل أن يأخذ حذره، ولا يمكن تجميع القوى بشكل فعال إلا إذا كانت قوات العدو مبعثرة. وللحصول على هذا التبعثر علينا توسيع جبهتنا بشكل كبير. وفي هذا تناقض واضح لأن التجميع الحقيقي هنا ثمرة للتوزيع. ومن الضروري **إيجاد أهداف متناوبة** عند محاولة احتلال هدف ما، لأنه إذا عرف العدو على وجه التحقيق النقطة التي اخترتها كهدف، تمكن من أن يأخذ حذره، ويخلق الوسائل للمقاومة. أما إذا وقع الاختيار على محور جهد يحدد أهدافاً متناوبة، فإنه يمكن مشاغلة العدو وخداع أفكاره ووسائطه، وهذه أفضل طريقة لمشاغلة العدو، لأنها تسمح بالمحافظة على أكثر القوات المهاجمة جاهزة للعمل على خط العمليات الحقيقي، وتحقق أكبر تجمع ممكن، في الوقت الذي تكون فيه قوات العدو مبعثرة.

إن عدم وجود أهداف متناوبة عمل يخالف طبيعة الحرب الحقيقية، ويناقض الأفكار اللامعة التي نشرها بورسيه في القرن الثامن عشر، وكان مما قاله:

« يجب أن يكون لكل مخطط معركة عدة فروع، على أن يكون كل فرع منها قادراً على السير بالمعركة إلى النجاح». وقد طبق نابليون بونابرت هذا الدرس من بعده، وكان يبحث دائماً كما يقول عن (إنشاء مخطط ذي فرعين). ثم استفاد الجنرال شيرمان بعد ٧٠ سنة من هذه التجربة، وخلق فكرته الجديدة التي تهدف إلى (وضع العدو في حالة تستولي عليه فيها الحيرة). وكان ينادي دائماً بالتلاؤم مع الظروف، بغية الوصول إلى النجاح.

ولنكون في حديثنا عمليين نقول: إن كل مخطط ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار احتمالات إحباطه بواسطة العدو. وأفضل وسيلة للتغلب على هذه المشكلة هو عمل

مخطط يتلاءم بسهولة مع الظروف. وللمحافظة على قدرة التلاؤم، مع الاحتفاظ بعامل المبادأة يجب استخدام خط يقود إلى أهداف متناوبة لوضع العدو (على طرفي المعضلة)، أي جعله في حيرة تامة. وهذا العمل يحقق على الأقل كسب أحد الأهداف، (أقلها حراسة وحماية)، كما يجعل من الممكن احتلال الهدف الثاني بعد سقوط الأول.

إن العدو يضع غالباً تنظيماته التكتيكية طبقاً لطبيعة الأرض، واختيار الأهداف التكتيكية، مع وضع العدو أمام معضلة أصعب من العملية المشابهة لها في المجال الاستراتيجي، حيث يكون العدو في هذا المجال قد اتخذ استعداداته بطبيعة الحال لحماية مراكز سككه الحديدية ومراكزه الصناعية. ويمكن الحصول على ميزة مماثلة إذا طابق المهاجم محور جهده مع شكل المقاومة ومقدارها اللذين يصادفهما، مع استثمار كل ضعف يظهر من جانب العدو.

٧ ــ قطع خطوط المواصلات

إذا وضع مخطط عمليات يهدف إلى تهديد مواصلات العدو، سواء أكان ذلك بمناورة التفاف على مجنبته أو باستثمار اختراق سريع لجبهته، برز سؤال يستحق الاهتمام وهو: ما أفضل نقطة يمكن أن يوجه منها هذا التهديد لتحقيق أفضل نتيجة؟ وهل يجب أن تكون هذه النقطة على مؤخرات جيش العدو مباشرة أم إلى الخلف قليلاً؟ والجواب على ذلك أنه إذا تم قطع المواصلات على مقربة من الجيش كان التأثير فورياً، وإن تم قرب القاعدة كان التأثير ضخماً. ويزداد التأثير في الحالتين ضخامة وسرعة وعمقاً إذا كانت العملية ضد عدو متحرك، بينما تنقص التأثيرات إذا كان العدو متمركزاً في مواقعه. ويتوقف اختيار اتجاه الهجوم على الوضع الاستراتيجي وظروف تموين الجيوش المعادية. وهذا يعني عدد خطوط تموينه، وإمكان اتخاذ خطوط تموين تبادلية، وكمية المواد التي يكدسها عادة في المستودعات القريبة من الجبهة. ويجب أن ندرس بعد فحص جميع هذه العوامل إمكانات التقدم لمختلف الأهداف الممكنة، وهذا يعني دراسة المسافة، والحواجز الطبيعية، والمقاومة المتوقعة.

وعلينا أن نفهم أن قطع التموين لا يتم بتدمير الطرق فحسب، بل ايضاً بتهديد القطارات والقوافل أو مهاجمتها. ولقد زادت إمكانات هذا النوع من العمل مع ظهور

الوحدات الميكانيكية، نظراً لمرونتها ومقدرتها على المناورة في مختلف الأراضي. وأكدت الحرب العالمية الثانية هذه الحقيقة.

٨ ـــ طريقة التقدم الاستراتيجي

كان الزحف بتشكيلات متجمعة هو قاعدة التقدم حتى نهاية القرن الثاني عشر، سواء في المستوى الاستراتيجي (نحو ميدان المعركة) أو في المستوى التكتيكي (ضمن ميدان المعركة). ثم استخدم نابليون بعد ذلك أفكار بوسيه، وأنشأ نظام الفرق الجديد وأدخل الحركة الاستراتيجية المتمفصلة. ولم يعد الجيش يتحرك ككتلة واحدة بل بوحدات مستقلة. ومع ذلك بقي التقدم التكتيكي ينفذ حتى ذلك الوقت بتشكيلات متجمعة.

وفي نهاية القرن التاسع عشر تقدمت الأسلحة النارية واضطرت الجيوش إلى إجراء الحركات التكتيكية بتشكيلات مبعثرة، أي بعناصر صغيرة متباعدة بغية الإقلال من تأثير تعرضها لخطر هذه الأسلحة، أما التقدم الاستراتيجي فعلى العكس، أصبح متجمعاً ويعود ذلك إلى ظهور السكك الحديدية وكبر تعداد الكتل البشرية المشتركة في القتال.

وأصبحت العودة إلى طريقة التقدم الاستراتيجي بتشكيلات متمفصلة أمراً ضرورياً لتجديد فن ونتائج الاستراتيجية، ثم تدخلت عوامل أخرى (كالطيران والمدرعات) في توجيه التطور المقبل للزحف الاستراتيجي بتشكيلات مبعثرة. وجاءت أخطار الهجوم الجوي، والرغبة في خداع العدو، وضرورة الاستفادة ما أمكن من حركة القوات الميكانيكية لترغم الجيوش على التفكير في تحريك الوحدات بشكل متمفصل جداً بحيث تتلاءم تشكيلات الزحف مع العملية العسكرية، وبحيث لا تزيد البعثرة عن الحد المعقول الذي يسمح بالمحافظة على تماسك الوحدات. وازدادت ضرورة هذا الإجراء بعد ظهور السلاح النووي، وجاء تقدم اللاسلكي ليحقق التوافق بين البعثرة وإمكانية قيادة الوحدات.

وبدلاً من الاكتفاء بالفكرة البسيطة السابقة المبنية على عملية مجمعة ينفذها جيش متجمع، أصبح في الإمكان الآن اختيار حالة من الحالات التالية حسب الظروف:

١ ـــ تقدم بتشكيلات مبعثرة نحو هدف مشترك واحد .
٢ ـــ تقدم بتشكيلات مبعثرة نحو سلسلة أهداف متعاقبة .
٣ ـــ تقدم بتشكيلات مبعثرة نحو عدة أهداف في وقت واحد .

ولقد أثبتت تجارب الحرب العالمية الثانية أن تراكم تأثير سلسلة من النجاحات الجزئية ، أو التهديدات الموجهة لعدد من النقاط خير من النجاح الكامل في نقطة واحدة .

ثانياً ـــ مكان الاستراتيجية في العلم العسكري

تمهيد

إن الاستراتيجية العسكرية، في المفهوم الحديث، هي نظريات وتطبيقات الإعداد للحرب وخوضها بمجملها، وبعض مراحلها وحملاتها، وعمليات الجبهات (مجموعاتِ الجيوش) ومجموعات الجبهات، المنفذة بالجهود المشتركة لجميع أنواع القوات المسلحة، بغية تحقيق الغايات السياسية للحرب، أو غايات استراتيجية أضخم منها.

لم تكتسب الاستراتيجية العسكرية هذا المفهوم آنياً. ففي البدء كانت الاستراتيجية العسكرية تعني القيادة العملية للقوات. ففي اليونان القديمة مثلاً كان يفهم من الاستراتيجية قيادة القوات في الغزوات العسكرية. وكان يطلق على القادة الموجهين لهذه الغزوات اسم الاستراتيجيين.

ولكنه حتى في العالم القديم، ومع تزايد الخبرة في قيادة الحروب أخذت تتشكل وجهات نظر محدودة حول مسائل خوض الحرب. وقام المؤرخون والعاملون في المجال العسكري، وأصحاب النظريات العسكرية بتوحيد وجهات النظر هذه، ووضع منهج متكامل متناسق، هو نظرية الاستراتيجية العسكرية. وأصبح لا يفهم من الاستراتيجية العسكرية في الوقت الحاضر التطبيق العملي فحسب، وإنما يفهم منها أيضاً نظرية الإعداد للحرب وخوضها.

كانت الاستراتيجية في الأزمنة الغابرة تلم بشتى مجالات المعرفة العسكرية والتطبيق الحربي، وبعدئذ انفصم عنها التكتيك ــ وهو نظريات وتطبيقات إعداد المعارك وخوضها ــ، وفيما بعد تفرعت عنها مجالات مستقلة من المعرفة العسكرية والتطبيق الحربي، هي التحصين في القرن السابع عشر، والمدفعية في القرن الثامن عشر، والجغرافية العسكرية والإدارة العسكرية في نهاية القرن التاسع عشر.

وفي القرن العشرين ظهر بين الاستراتيجية والتكتيك مستوى وسط في فن الحرب هو فن العمليات، ويشمل نظريات الإعداد وتطبيقاتها لعمليات الجبهات والجيوش وخوضها.

وقد حصل فن العمليات على تطوره الأكبر في القوات المسلحة السوفييتية. وإن هذا القسم في فن الحرب لا يبدو متميزاً في مجال مستقل لدى بقية الدول. حيث يدخل عادة في مجال الاستراتيجية أو التكتيك، تحت اسم (الاستراتيجية الصغرى) أو (التكتيك الأكبر).

إن تفرع التكتيك وفن العمليات والجغرافية العسكرية وغيرها من الاستراتيجية العسكرية في مجالات مستقلة من المعرفة العسكرية، والنشاط الحربي، كانت كلها نتيجة تطور القوى المنتجة، وتبدل أسلوب الإنتاج. وإن هذه الأسباب لتفرض جميع التطورات الاستراتيجية العسكرية.

ويمكن أن تكون الثورة البورجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر تأكيداً واضحا على ذلك، حيث أنها أحدثت قفزة كبيرة في تطور القوى المنتجة. وقد ساعد ظهور الأسلوب الرأسمالي في الإنتاج والتقنية الآلية في إيجاد الأسلحة النارية المحسنة وإنتاجها بكميات كبيرة. كما مكن دخول الأسلوب الجديد في بناء الجيوش ــ التخصص العسكري المتكامل ــ البورجوازية الفرنسية من تشكيل جيش بورجوازي ضخم. وكان هذا الجيش الجديد المسلح بأحدث الأسلحة، والمدرب والمربَّى على الأفكار الثورية للحريات البورجوازية سلاحاً بيد الاستراتيجية الجديدة، التي تبناها القادة الفرنسيون ــ استراتيجية الأعمال الحاسمة. وقد أوصل نابليون هذه الاستراتيجية إلى ذروة التحسين، وقدم نموذجاً لفن استراتيجي عالٍ. ولكن في الوقت نفسه لم يلحظ التبدلات

الهائلة التي طرأت على العلاقة بين الاستراتيجية والتكتيك ، حيث تعقدت هذه العلاقات المتبادلة لدى ظهور الجيوش البورجوازية الضخمة ، وحدث فراغ بين الاستراتيجية والتكتيك . وأصبحت المعارك الجزئية التي أخذت تنشب في أثناء الحرب على مساحات واسعة غير كفيلة بتحقيق النصر في الحرب . وأخذ القائد الفرنسي يحاول خوض موقعة شاملة ، لكي يسحق بها القوى الرئيسية للعدو ، محققاً بذلك النصر في الحرب .

إلا أن الموقعة الشاملة لم تستطع أن تسد الثغرة المتكوِّنة بين الاستراتيجية والتكتيك . ولم تحقق وقعة بورودين في عام ١٨١٢ ، خلال الحرب بين فرنسا وروسيا ، النصر لنابليون . ووضع القائد الروسي كوتوزوف ، بدلاً من فكرة الوقعة الشاملة ، فكرة المعارك والوقعات المتتابعة والمتزامنة والمتفرقة في المجال الأرضي ، ولكنها تهدف إلى غاية استراتيجية واحدة . وقد حاول كوتوزوف تحقيق هذه الفكرة عند تنظيمه وتنفيذه أول عملية على نهر بيريزين ، باشتراك عدة جيوش روسية ، بغية تطويق الجيش الفرنسي وتدميره .

لم يحقق كوتوزوف فكرة العملية بالكامل . حيث لم تكن لهذه الغاية بعد الشروط الموضوعية (الوسائط التقنية للاتصال والمناورة) ، عدا عن أن ذلك كان بداية تصنيف فن الحرب . فولدت العملية بين الحرب والتكتيك ، وولد معها فن العمليات لمستوى متوسط بين الاستراتيجية والتكتيك ، باعتباره نظريات وتطبيقات الإعداد للعملية وخوضها .

وقد احتل فن العمليات في حروب عصر الأمبريالية مكانته الواقعية كجزء من فن الحرب ، وخاصة في الحرب العالمية الثانية .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى ضوء خبرة الحروب طرأ تطور لاحق على النظريات العسكرية . وفي هذا الوقت بالذات ظهر مفهوم الاستراتيجية العسكرية كعلم قائم بذاته .

وقد اعتبر أن صهر الاستراتيجية العسكرية في جهاز متكامل من المعرفة المتعلقة بأساليب الإعداد للحرب وخوضها ، كان نتيجة لتلخيص خبرة قيادة القوات المسلحة في أثناء الإعداد للحروب وخوضها ، وإجراء الأعمال الحربية على مستوى استراتيجي . ولكن

الاستراتيجية العسكرية ليست نتيجة للخبرة الملخصة، وإنما توقع نظري أيضاً للشروط المحتملة، ولأساليب خوض الصراع المسلح، ولقيادة الحرب في المستقبل. ولهذا فإن نظريات الاستراتيجية لا يمكن أن تنفصل عن الواقع التطبيقي في يومنا هذا.

وعلى ضوء خبرة القيادة العملي للقوات المسلحة، والتبدلات التي طرأت في مجال التقنية العسكرية ووسائط الصراع، وعلى ضوء معطيات المشاريع والمناورات التجريبية للقوات، تزداد الاستراتيجية العسكرية غنى وتطوراً. وإن التطبيق اليومي للاستراتيجية يعتبر شاهداً على صحة القواعد الجديدة المطبقة، ويحدد لنا طريق تطورها.

وهكذا فإن الوحدة التي تجمع بين النظرية والتطبيق والعلاقة المتبادلة فيما بينهما في مجال الاستراتيجية لها أهميتها الحاسمة في المجال الديالكتيكي (الجدلي)، لتوسعهما وتطورهما المتبادل. وتظهر هذه الوحدة بشكل واضح في أثناء الحرب، عندما تتحول نظريات الإعداد للأعمال الحربية على المستوى الاستراتيجي إلى قيادة استراتيجية عملية للحرب.

١ ــ مضمون الاستراتيجية العسكرية ومكانها في العلم العسكري وفن الحرب

يفهم من محتوى الاستراتيجية العسكرية مجموعة من المشاكل التي تعترض الاستراتيجية العسكرية، والتي تحلها طبقاً للموقف التاريخي الراهن، والشروط العسكرية السياسية والاقتصادية، والجغرافية، مع اعتبار الإمكانات المادية التقنية والمعنوية السياسية الحقيقية. ولا يعتبر محتوى الاستراتيجية العسكرية ثابتاً كمفهومها نفسه، بل يتبدل بحسب التصورات المتبناة، بالنسبة للوقت الراهن عن ماهية الاستراتيجية، والمهمات التي تضعها سياسة الدولة، وإمكاناتها المادية، ونظامها الروحي أمام الاستراتيجية. أو بتعبير آخر إن محتوى الاستراتيجية العسكرية مرهون بالمهمات والمشاكل التي تحلها، وبالقوى والوسائط التي تضعها السياسة تحت تصرفها، من أجل تحقيق غايات سياسية.

وينتمي إلى المشاكل والمهمات التي تشكل بمجموعها محتوى الاستراتيجية العسكرية في الوقت الحاضر ما يلي:

ــ قانونية الصراع المسلح، والاستراتيجية المتبعة، وحساباتها، واستخدامها في

النشاط العملي للقيادة السياسية والعسكرية .

ـــ شروط الحرب المقبلة وطبيعتها .

ـــ إعداد البلاد والقوات المسلحة للحرب .

ـــ أنواع القوات المسلحة ، واستخدامها الاستراتيجي .

ـــ أساليب خوض الصراع المسلح .

ـــ التأمين المادي والفني للصراع المسلح .

ـــ طرائق قيادة القوات المسلحة في الحرب .

ـــ وجهات النظر الاستراتيجية للأعداء المحتملين .

ـــ مبادىء الدفاع المدني .

وتعتمد الاستراتيجية العسكرية في حل هذه المشاكل على معرفة قوانين الحرب المعتبرة تاريخياً . وقوانين الحرب موضوعية ، وتؤثر تأثيراً متساوياً على انعدام الرأفة بالنسبة للطرفين المتحاربين ، وبالنسبة لجميع العصور التاريخية ، وجميع الدول والشعوب . فمثلاً ، يكون قانون العلاقة بين سير الحرب ونهايتها والعوامل المادية ـــ الفنية والمعنوية ـــ السياسية ذا مفعول متساوي الدرجة في أية حرب ، وبالنسبة لأي جانب من الطرفين المتحاربين .

ولهذا السبب يتوجب على القيادة السياسية والعسكرية العليا للبلاد عند إعدادها البلاد للحرب ، أن تدخل في اعتبارها أن الحرب عبارة عن امتحان شامل للقوى المادية والروحية لكل أمة ، وأن المنتصر في الحرب هو الذي يملك احتياطات أكثر ، ومصادر أكبر للقوة ، وصموداً في شعبه ، وأن النصر في أية حرب مرهون في النهاية بالقوة الاقتصادية ، وتنظيمها العسكري ، والحالة الروحية للجماهير التي ستسكب دماءها في ميدان المعركة ، والتي ستؤمن السلاح والعتاد القتالي في المؤخرة . إن هذه القاعدة التي تعبر عن أحد قوانين فن الحرب لتدخل في أساس جميع المشاكل التي تحلها الاستراتيجية العسكرية ، والتي تشكل محتواها .

عندما نتحدث عن محتوى الاستراتيجية العسكرية يجب أن نضع في اعتبارنا أيضاً ، أن حل جميع مشاكل الاستراتيجية العسكرية له ناحيتان : ناحية نظرية وناحية عملية . وعلى الرغم من أن هاتين الناحيتين على ارتباط ديالكتيكي (جدلي) متبادل فيما بينها إلا أن هناك فرقاً بينهما .

تهتم نظريات الاستراتيجية العسكرية، باعتبارها مادية علمية، ببحث العلاقات الشاملة، والارتباط المتبادل لظاهرة الحرب. وعلى ضوء نتائج هذه البحوث تصوغ نظريات الاستراتيجية العسكرية قوانين الاستراتيجية ومبادئها، والقواعد والمتطلبات والنصائح المتعلقة بشتى نواحي الصراع المسلح.

وإن معرفة القوانين العامة للصراع المسلح تساعد القيادة السياسية والعسكرية على توقع طابع الحوادث الحربية المقبلة، واستخدام هذه القوانين بنجاح عند قيادة الحرب، وتوجيه نشاط القوات المسلحة بشكل مدرك واع. وهنا تظهر الناحية الشخصية في استخدام القوانين الموضوعية.

أما تطبيقات الاستراتيجية العسكرية، فعلى الرغم من أنها تدخل في حسابها جميع الاستنتاجات النظرية، إلا أنها لا تستخدمها جميعاً أو دائماً، لأنها على علاقة مباشرة بالحرب الراهنة، وبقوات مسلحة معينة، ووسائط صراع مسلح محددة، وعلى علاقة أيضاً بالعاملين فعلاً في مجال السياسة والحرب، الذين يتمتعون بخصائص وقدرات ومعارف وخبرات استراتيجية مختلفة. وهنا أيضاً يتجلى كنه الاستراتيجية العسكرية.

تشمل نظريات الاستراتيجية العسكرية دراسة طابع الحرب المقبلة. وعلى ضوء الاستنتاجات التي تضعها النظريات، وانطلاقاً من الشروط الراهنة الفعلية للموقف السياسي والاستراتيجي، ومع اعتبار الإمكانات الفعلية، تقوم القيادة السياسية العسكرية والقيادة العسكرية العليا، والأركانات العليا بالتخطيط العملي لإعداد البلاد للحرب، وتوجيه القوات المسلحة والبلاد للحرب.

تحدد النظريات ــ على ضوء الاستنتاجات عن طابع الحرب المقبلة والخبرة التاريخية ــ مكان جميع أنواع القوات المسلحة ودورها، وأسس استخدامها الاستراتيجي في الحرب المقبلة، والأساليب المتوقعة لخوض هذه الحرب، وأسس قيادة القوات المسلحة عموماً. وعلى ضوء معطيات النظريات الحربية تقوم القيادة العسكرية السياسية والقيادة الاستراتيجية في البلاد ببناء أنواع القوات المسلحة عملياً، ووضع الأنظمة والمراجع، التي تلقي ضوءاً على أساليب الصراع المسلح، ودور أنواع القوات المسلحة وصنوف القوات في الصراع المسلح، وتحقق القيادة الفعلية للقوات المسلحة في أثناء الحرب.

ومن جهة أخرى فإن الاستراتيجية هي تطبيق عملي، وبمعنى آخر مجال من نشاط القيادة العسكرية السياسية، والقيادة العليا، والأركانات العليا، وهي فن إعداد البلاد والقوات المسلحة للحرب، وخوض الصراع المسلح في شروط تاريخية راهنة.

إن الطبيعة المزدوجة للاستراتيجية العسكرية، النظرية والعملية، تحدد تبعيتها للعلم العسكري وفن الحرب. حيث أن الأسس العملية لنظريات الاستراتيجية العسكرية في كشف قوانين الصراع تجعل منها جزءاً أساسياً من العلم العسكري، الذي يبحث أيضاً في قوانين الحرب بمجملها، والقوانين الخاصة بالصراع المسلح، ولهذا فإن نظريات الاستراتيجية العسكرية هي جزء أساسي من العلم العسكري.

كما أن الحل العملي للمشاكل الاستراتيجية هو مجال من فن الحرب يشمل عمل القيادة العسكرية السياسية والاستراتيجية، ولهذا فإن الاستراتيجية العسكرية باعتبارها مجموعة من التدابير العملية تنتمي، أو يجب أن تنتمي إلى فن الحرب.

في العلم العسكري وفن الحرب تحتل الاستراتيجية العسكرية مكان الصدارة، فهي تحدد مهمات الصراع المسلح ووسائطه لفن العمليات، الذي يعتبر نظريات وتطبيقات تحضير، وإجراء عمليات الجبهات والجيوش. ويحدد فن العمليات بدوره مهمات التكتيك ووسائطه، الذي يهتم بناحيتين أيضاً هما نظريات تحضير المعركة وتطبيقاته.

وعند شرح محتوى الاستراتيجية العسكرية وطبيعة المهمة التي تنفذها في الحرب الحديثة، يجب أن نضع في الاعتبار أنها قد تبدلت تبدلاً كبيراً في شروط الحرب الصاروخية النووية.

فقد أحدث ظهور الأسلحة الصاروخية النووية تغييراً جذرياً على التصورات السابقة عن طبيعة الحرب. وإن الحرب الصاروخية النووية الحديثة استناداً إلى قدرتها التخريبية، ومجالاتها الواسعة، وحركيتها (ديناميكيتها)، لا يمكن أن تقارن مطلقاً مع أية حرب سابقة. إذ إن الاستخدام الكثيف للسلاح الصاروخي النووي يساعد على إخراج بلد، أو عدة بلاد، من الحرب في وقت قصير، حتى ولو كانت رقعتها كبيرة نسبياً، أو اقتصادها نامياً، أو سكانها بعشرات الملايين. لقد ازدادت رقعة الحرب الحديثة اتساعاً، وإن مدى

وسائط إيصال الأسلحة النووية غير المحدودة تقريباً يعطي الحرب الحديثة اتساعاً غير محدود ، بحيث يلغي جميع الحدود بين الجبهات والمؤخرة ، ويبدل مفهوم مسرح الأعمال الحربية .

إن الاستراتيجية العسكرية ، في شروط الحرب العالمية الحديثة ، هي استراتيجية الضربات الصاروخية النووية العميقة المشتركة ، مع أعمال جميع أنواع القوات المسلحة ، بغية التأثير في آن واحد على الكمون الاقتصادي والقوات المسلحة للعدو ، وتدميرهما في كامل عمق أراضيه ، من أجل تحقيق غايات الحرب في مُهَلٍ قصيرة . واستناداً إلى هذا التعريف للاستراتيجية العسكرية تفقد مجموعة كاملة من المبادىء والمعدلات والقواعد السابقة أهميتها ، ويتبدل محتواها ، بعد أن كانت تعتبر رائدة الاستراتيجية العسكرية في الحرب العالمية الثانية ضمناً .

فمثلاً ، يلزم الآن أن ننظر نظرة مختلفة إلى مبدأ حشد القوى والوسائط على الاتجاه الحاسم ، الذي كان سائداً في الأزمنة السالفة . فإذا كان حشد الجهود الحاسمة على الاتجاه الرئيسي في الحروب السابقة يتحقق عن طريق تقديم القوى الحية والعتاد ، وحشدهما في قطاع محدود نسبياً من الجبهة البرية ، فمن شروط الحرب الصاروخية النووية أصبح من غير الممكن استخدام هذه الطريقة في حشد الجهود الرئيسية على اتجاه الضربة الرئيسية . حيث يمكن أن يؤدي إلى تقديم القوات إلى قطاع **الخرق** ، وازدحامها في قطاع غير كبير من الأرض إلى خسائر فادحة ، لا لزوم لها ، بسبب ضربات العدو الضاروخية النووية والجوية .

نعم ، لم يعد لهذا التحشد من لزوم . وأصبح توفر الوسائط الصاروخية النووية يساعد على تحشيد الجهود النارية للقوات ، بواسطة الصواريخ البعيدة المدى ، من مختلف الأنواع ، والقصف النووي بالطيران ، مع موجود مرابض الصواريخ والمطارات على رقعة واسعة .

وفي شروط الحرب الصاروخية النووية يبدو لنا المبدأ الاستراتيجي الاقتصاد بالقوى بمظهر آخر ، حيث يمكن أن يكون النجاح في الحرب الحديثة مقرراً سلفاً في أثناء الضربات الصاروخية النووية الكثيفة الأولية . ولهذا لا يجوز الاعتماد فقط على الطاقات الكامنة للدولة ، أو الدول المتحالفة ، وعلى نشر هذه الطاقات في المراحل التالية للحرب .

وعلى هذا الأساس تتغير النظرة إلى إعداد الاحتياطات الاستراتيجية واستخدامها. وحسب رأي الكثير من الاختصاصيين والباحثين في الاستراتيجية نجد أنه من أجل تحقيق الفاعلية القصوى في الفترة الأولى من الحرب يستحسن استخدام أقصى الجهود الحربية للدولة، أو الحلف، ولا يستحسن إبقاء القسم الأكبر من القوى والوسائط كاحتياط، من أجل خوض الأعمال الحربية في فترات الحرب التالية في الشروط الحديثة.

ولقد تبدلت أيضاً الفكرة حول **مبدأ النصر الجزئي**، وعن مسرح الأعمال الحربية، وحول **الهجوم الاستراتيجي**، والدفاع الاستراتيجي، وحول **الانتشار الاستراتيجي**، وحول **طرائق حل المشاكل الأخرى للاستراتيجية العسكرية**.

من كل ما ذكر نجد أن الاستراتيجية العسكرية من حيث محتواها هي أعلى مجال من مجالات النشاط العسكري. وهي تعتبر الجهاز العلمي لوجهتي النظر النظرية والعملية في بناء القوات المسلحة للدولة، واستخدامها في الحرب، وكذلك في مجال نشاط القيادة العسكرية العليا، عند تنفيذ المهمات الاستراتيجية في الصراع المسلح من أجل النصر على العدو.

وإن نظريات الاستراتيجية العسكرية عبارة عن الجزء الرئيسي من العلم العسكري. وهي تبحث في القوانين المميزة للصراع المسلح. أما التنفيذ العملي للمهمات الاستراتيجية على ضوء قواعد نظريات الاستراتيجية العسكرية ونصائحها، فينتمي إلى فن الحرب. ولهذا تعتبر الاستراتيجية العسكرية أيضاً أحد الأقسام الأساسية لفن الحرب.

٢ ـ الرابطة المتبادلة بين الاستراتيجية والسياسة

لقد أكدت الخبرة التاريخية أكثر من مرة، وتبرهن الآن أن الحرب في مجراها ونهايتها، وتطوير القوات المسلحة، وفن الحرب مرهونة كلها دائماً بسياسة الدول المتحاربة وحلفائها. وعندما نتحدث عن العلاقات المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية يجب الانطلاق من أن الحرب ليست غاية بحد ذاتها، وإنما لا تتعدى كونها واسطة للسياسة. ويؤكد المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أكثر من مرة أن الحرب هي امتداد للسياسة، ولكن بوسائط أخرى هي القوة. وأن الاعتراف بالحرب كسلاح بيد السياسة

يحدد العلاقات المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسة، التي تقوم على مبدأ الاعتماد الكامل للاستراتيجية العسكرية على السياسة.

إن اعتماد الاستراتيجية العسكرية على السياسة له مظاهر مختلفة جداً. ويظهر تأثير السياسة على الاستراتيجية في تحديد الغايات الاستراتيجية العامة والخاصة، وفي الطابع العام لاستراتيجية الدول، وفي اختيار أساليب خوض الحرب وأشكالها.

وإن الغاية السياسية للحرب تؤثر تأثيراً حاسماً على خوضها، حيث تستخدم هذه الغاية أساساً في تحديد الغايات الاستراتيجية والمهمات الاستراتيجية الملقاة على عاتق القوات المسلحة. وتخصص القيادة السياسية للدولة، استناداً إلى متطلبات الحرب الحديثة والمهمات المقبلة للقوات المسلحة، القوى والوسائط الضرورية لتنفيذ هذه المهمات من قبل القوات المسلحة، كما تحدد نظام مساهمة الاقتصاد الوطني ودرجته في تأمين حاجات القوات المسلحة، سواء في زمن السلم أو الحرب.

والقيادة السياسية للبلاد فقط هي التي تملك إمكانية استخدام جميع مصادر الدولة على أفضل وجه لصالح الحرب، والجمع بين مختلف طرائق الصراع المسلح وأشكاله ضد المعتدي، وتوجيه الجهود وتنسيقها طبقاً للغايات العامة للحرب والمهمات الجزئية التي تنفذ في مختلف فترات الحرب. ولدى تحديد الغايات السياسية والاستراتجية للحرب يتوجب على القيادة السياسية أن تنطلق من التوافق بين غايات الحرب والإمكانات الاستراتيجية من أجل تحقيق الغايات المرجوة. ويتوجب على السياسة أن تضع أمام القوات المسلحة أهدافاً ومهمات واضحة حقيقية. كما يجب أيضاً أن يدخل في الاعتبار أن طابع الغايات السياسية يحدد الطابع السياسي للحرب. وبحسب طبيعة الغاية السياسية يمكن أن تكون الحرب عادلة أو غير عادلة، وهذا ما يؤثر تأثيراً جذرياً على الاستراتيجية. ففي الحالة الأولى تعتمد الاستراتيجية العسكرية في تنفيذها للمهمات الاستراتيجية على الدعم الشعبي الكامل لغايات الحرب، أما في الحالة الأخرى فيمكن أن لا يشارك الشعب في غايات الحرب، وتكون درجة مساهمته في الحرب منخفضة جداً.

وبحسب عمق التناقض بين الدول وأحلاف الدول تكون الغايات السياسية في الحرب مختلفة في درجة حسميتها. وأكثر الغايات السياسية والاستراتيجية حسمية هي

التي ترمي إليها الحروب الأهلية والثورية الطبقية، والحروب القومية التحررية. وتظهر العلاقات الوثيقة المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية عندما تؤمن السياسة، بالوسائط الدبلوماسية، والتعبئة الاقتصادية والمعنوية للبلاد، الظروف الملائمة لتحقيق الغايات الاستراتيجية. وتتميز العلاقة بين الاستراتيجية والسياسة في ظروف حرب الدول المتحالفة ببعض الخصائص. إن العصر الحديث ـ عصر حروب الأحلاف ـ. ففي مثل هذه الحروب يصبح من الضروري بالنسبة للدول المتحدة في الحلف أن تكون لها استراتيجية منسقة تنبع من السياسة المدعمة بوحدة الأهداف السياسية لجميع أعضاء الحلف. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن يدخل في الحسبان أيضاً أن استراتيجية كل دولة مرهونة بإمكاناتها الاقتصادية، ووضعيتها الجغرافية، وطبيعة شعبها وتقاليده القومية، وغير ذلك من العوامل.

٣ ـ الرابطة المتبادلة بين الاستراتيجية والاقتصاد

لما كانت الحرب وليدة العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية، فهي موجودة دائماً على ارتباط مباشر بالاقتصاد. وتحدد بدايتها ونهايتها قبل كل شيء بالإمكانات الاقتصادية، وقدرتها على تأمين البلاد والقوات المسلحة خلال الصراع المسلح، بجميع أنواع الوسائط المادية، وبوسائط الصراع المسلح بالدرجة الأولى (الأسلحة، الذخائر، الوقود، العتاد القتالي). وتشهد الخبرة التاريخية على أنه لا يتوقف على الاقتصاد بداية الحرب ونهايتها فحسب، بل وفن الحرب أيضاً، أي التكتيك، وفن العمليات، والاستراتيجية التي ترتبط كذلك ارتباطاً مباشراً بالاقتصاد.

يمارس الاقتصاد تأثيره على الاستراتيجية عن طريق تطوير الأسلحة ووسائط النقل ووسائط الاتصال بالدرجة الأولى. فقد أدى إختراع البارود والأسلحة النارية على سبيل المثال، إلى إيجاد الصفوف المتباعدة في ميادين المعارك. وفرضت المدفعية المحلزنة وجود البنية القتالية العميقة للقوات، والتأثير على العدو في عمق كبير. وأدخل ظهور السكك الحديدية، والقاطرات البخارية، والسفن البخارية، والسيارات تبدلاً جذرياً على طريقة الحشد والانتشار الاستراتيجيين للجيوش وإيقاعاتهما، وإمكانات استخدام الاحتياطات الاستراتيجية، ومكن من تحقيق إعادة التجمع الاستراتيجي في فترة وجيزة في أثناء الحرب، بغية حشد القوى والوسائط اللازمة على الاتجاهات الاستراتيجية الرئيسية.

كما زادت قدرة الجيوش على المناورة في البر والبحر إلى درجة كبيرة . وإن اختراع البرق اللاسلكي والأجهزة زادا إلى حد كبير في إمكانات القيادة الاستراتيجية ، بينما قلب ظهور الأسلحة الصاروخية ـــ النووية ، وتجهيز الجيوش بأعقد الوسائط اللاسلكية الألكترونية والتلفزيونية ، والآلات الحاسبة الألكترونية المعقدة التصورات السابقة حول طبيعة الصراع المسلح بمجملها رأساً على عقب .

وليست المخترعات لوحدها هي التي تؤثر على تطور الاستراتيجية العسكرية فحسب ، وإنما يؤثر أيضاً إلى حد كبير مستوى **التقدم العلمي التقني** . وقد توغلت في الوقت الحاضر منجزات العلم والتقنية بشكل خاص في جميع مجالات العمل العسكري ، وأدخلت هذه المنجزات تغييراً جذرياً على إمكانات الاستراتيجية العسكرية وطبيعتها .

وعند التحدث عن العلاقات المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصاد لا يجوز تجاهل واجبات الاستراتيجي تجاه الاقتصاد . فعندما تضع الاستراتيجية العسكرية متطلبات محددة تجاه الاقتصاد يتوجب عليها أن تتصور بوضوح سير التعبئة الاقتصادية للشؤون الشعبية بكامله ، والإمكانات الفعلية للإنتاج الحربي ، ومهله وشروطه ، والصعوبات التي يمكن أن تصادَف عندها أيضاً .

ويتوجب على الاستراتيجة أن تقدم للاقتصاد المعلومات الدقيقة عن الاحتياجات من الوسائط المادية والتقنية ، ومعدلات استهلاكها ، ونظام استعواضها . ويتوجب عليها أيضاً أن تحدد وتحقق التدابير الرامية إلى حماية الأغراض الاقتصادية ، وكذلك التدابير المتعلقة بالتأثير على اقتصاد العدو بوسائط الصراع المسلح .

ومع بدء أعمال القتال تزداد درجة تأثير الخطط الاستراتيجية دائماً ، عند وضعها لأفكارها ، على الإمكانات المادية والتقنية . ولا يتحقق الارتباط المتبادل بين الاقتصاد والاستراتيجية على أساس العلاقات المباشرة وإنما عن طريق السلطات الحكومية . ولتسهيل هذه العلاقات المتبادلة يجب تحقيق مركزية قصوى في قيادة الاقتصاد في أثناء الحرب .

وإن المركزية تساعد القيادة العسكرية على التعامل مع مؤسسة أو هيئة واحدة فقط تتولى المصالح الحربية والاقتصادية .

٤ ـ مهمات الاستراتيجية العسكرية وطرق تنفيذها في الحرب الحديثة

إن مهمات الاستراتيجية العسكرية وطرق تنفيذها كثيرة الأشكال، ومعقدة للغاية. وتؤثر عليها، بالإضافة إلى العوامل العسكرية، عوامل مختلفة جداً، ذات طابع سياسي واقتصادي، وكذلك **العمل المعنوي**، ومستوى تطور العلم والتقنية، والشروط الجغرافية، والخصائص القومية للشعب.

من المهمات الرئيسية للاستراتيجية العسكرية تحديد طبيعة الحرب المقبلة، وأساليب خوض الصراع المسلح. إن كشف طبيعة الحرب المقبلة المحتملة له أهمية سياسية وعسكرية بالغة، من أجل إقرار المسائل الجذرية في دفاع الدولة. ودون التوقع العلمي لطبيعة الحرب، المتمركز على التحليل العميق للعلاقات الدولية، واتجاهات تطور الأسلحة والعتاد القتالي، النابع من متطلبات الصراع المسلح، ودون معرفة الإمكانات الموضوعية للبلد والعدو يستحيل التحديد الصحيح لاتجاهات نظريات إعداد البلاد والقوات المسلحة للحرب وتطبيقات هذه النظريات.

ولهذا نجد أن نظريات الاستراتيجية العسكرية تدرس الشروط والعوامل التي تحدد في اللحظة التاريخية الراهنة طبيعة الحرب المقبلة، ووضعية القوى العسكرية والسياسية، ونوعية وسائط خوض الحرب وكميتها، والمقدرة الحربية والمعنوية والسياسية والاقتصادية، والقوام المحتمل للأحلاف المعادية وقواها ووضعيتها الجغرافية.

عند معرفة طبيعة الحرب ينبغي على الاستراتيجية العسكرية أن تدخل في حسابها ناحيتين من طبيعة الحرب: الناحية السياسية، والناحية التقنية الحربية. وإن معرفة الطبيعة السياسية للحرب مهمة عند وضع الإجراءات السياسية المتعلقة بتحضير السكان للحرب، وباستخدام العامل المعنوي لصالح تحقيق الغايات الاستراتيجية لدى إعداد طرق التأمين السياسي الخارجي للصراع المسلح.

عند التحديد الصحيح للطبيعة التقنية العسكرية للحرب تحقق القيادة السياسية والاستراتيجية إمكانية تطوير القوى المسلحة بشكل هادف، وتمعن النظر في مستقبل تحسين الصراع المسلح، وتنظيم القوات والنظريات العسكرية.

لدى دراسة الطبيعة العسكرية التقنية للحرب المقبلة ، تركز الاستراتيجية العسكرية اهتمامها بشكل خاص على الوسائط الأساسية لخوضها ، ومدتها ، وتوترها ، واتساع رقعتها .

لتحديد طبيعة الحرب المقبلة يتوجب على الاستراتيجية أن تدرس الفكرة الاستراتيجية والنظريات العسكرية للعدو وقواه ووسائطه ، والإمكانات الكامنة للاقتصاد والسياسة . ويتم تحديد طبيعة الحرب المقبلة استناداً إلى نتيجة العمل والبحث العلمي الضخم لعدد كبير من العلماء والمؤسسات العلمية .

وتعتبر استنتاجات نظريات الاستراتيجية العسكرية عن طبيعة الحرب المقبلة هي المستند في وضع أساليب الصراع المسلح بمجمله ، وأساليب استخدام أنواع القوات المسلحة ، وصنوف القوات في هذا الصراع . وعلى ضوء معطيات نظريات الاستراتيجية العسكرية عن طبيعة الحرب المقبلة وأساليب خوض الصراع تتبنى القيادة السياسية للدولة **المذهب العسكري**.

يعتبر المذهب العسكري تعبيراً للأفكار ووجهات النظر والقواعد المتعلقة بمسائل التقدير السياسي للحرب المقبلة ، ونظرة الدولة إلى الحرب ، وتحديد طبيعة الحرب المقبلة ، وإعداد البلاد للحرب من الناحية الاقتصادية والمعنوية ، والمتعلقة بمسائل بناء القوات المسلحة وتحضيرها ، وأساليب خوض الحرب التي تتبناها الدولة .

وعلى ضوء المذهب العسكري المتبنى يضع مُنَظِّرو الاستراتيجية العسكرية القواعد الأساسية للاستراتيجية العسكرية . ويدخل في تعدادها في الشروط الحديثة ما يلي :

— خضوع الاستراتيجية العسكرية وغاياتها ومهمات الصراع المسلح للأهداف السياسية للحرب .
— الاعتماد في التخطيط الاستراتيجي على طبيعة تطور الاقتصاد ومستواه ، والعلم والتقنية ، وعلى إدخال وسائط الصراع الحديثة إلى القوات المسلحة .
— تأمين الحالة المعنوية السياسية العالية لأفراد القوات المسلحة والسكان ، باعتبارها عاملاً في تحقيق النصر على العدو .

ـــ التغطية المضمونة لأهم الأغراض الاستراتيجية للبلاد ضد الضربات الجوية والصاروخية النووية للمعتدين.
ـــ الجاهزية القتالية العالية للقوات المسلحة.
ـــ اعتماد تحقيق النصر على العدو على الجهود المشتركة لجميع أنواع القوات المسلحة، من أجل تنفيذها مهماتها الاستراتيجية في الصراع المسلح.
ـــ توفير احتياطات الدولة والاحتياطات الاستراتيجية من جميع الأنواع، وتوزعها على أفضل وجه، واستخدامها الصحيح، وتجديدها باستمرار ـــ كشرط لازم لقيام القوات المسلحة بالأعمال الاسترتيجية الناجحة.
ـــ ضرورة تركيز الجهود الأساسية للقوات المسلحة على الاتجاهات الرئيسية، من أجل سحق العدو الرئيسي.
ـــ تحقيق مفاجأة القوات المسلحة بالعمل ـــ باعتبارها عاملاً حاسماً يؤمن النجاح في الصراع المسلح.
ـــ اعتماد الطابع الهجومي للاستراتيجية العسكرية كسمة رئيسية، وهي التي تحدد اتجاهات إعداد القوات المسلحة والاعتراف بأسبقية الهجوم على الدفاع، وأهمية الدفاع كعامل مساعد في منظومة الصراع المسلح.
ـــ القيمة الحاسمة في الصراع المسلح الحديث للفترة الأولى من الحرب، وتأثيرها على سير الحرب بأكملها ونهايتها.
ـــ ضرورة التأمين الشامل للأعمال الاستراتيجية التي تخوضها القوات المسلحة قبل بدء الحرب أو في أثنائها.
ـــ تنظيم القيادة الاستراتيجية للصراع المسلح على ضوء الفهم الصحيح للغايات السياسية الحربية، والتوقع العميق لتطور أعمال القتال، والجمع الصحيح بين مبدأ المركزية، مع إفساح المجال للمبادهة الواسعة للمستويات العملياتية.

والمهمة الأخرى للاستراتيجية العسكرية تنحصر في تحديد الغايات الاستراتيجية والمهمات الاستراتيجية للقوات المسلحة (التجمعات الاستراتيجية). واستناداً إلى الغايات الحربية السياسية المحددة تقوم الاستراتيجية العسكرية بتحديد الغايات والمهمات الاستراتيجية، وتضعها أمام القوات المسلحة. ويجب أن يفهم من الغايات الاستراتيجية

تلك الغاية التي يؤدي تحقيقها من قبل القوات المسلحة، أو قسم منها في أثناء الصراع المسلح إلى إحداث تغير جذري ليس في الموقف الاستراتيجي فحسب، وإنما في الموقف الحربي السياسي، مما يؤثر على مجرى الصراع المسلح اللاحق بمجمله.

ويمكن أن يكون تحقيق الغايات السياسية محتوى لمرحلة كاملة من الحرب. ويشمل في مضمونه حملات كاملة، وعمليات استراتيجية ضخمة، تجري على مختلف مسارح الأعمال الحربية، من قبل تجمعات استراتيجية للقوات المسلحة.

إن القوات المسلحة الحديثة في صراعها مع العدو قادرة على تحقيق مختلف الغايات الاستراتيجية. ويمكن أنِ نورد مثالاً هنا: إحباط التدخل المفاجيء للعدو عن طريق رد الضربات الكثيفة رداً فعالاً، وتسديد ضربة جوابية قاصمة إلى أهم أهداف (أغراض) المعتدي، وبث الفوضى في مؤخرة العدو العميقة، ونسق تجميعاته الاستراتيجية من القوات المسلحة على مسارح الأعمال الحربية الملائمة وغير ذلك.

ويفهم من المهمة الاستراتيجية تلك المهمة التي إذا ما نفذتها القوات المسلحة في أثناء الحرب تؤدي إلى إحداث تبدل حاد في الموقف، في منطقة معينة من مسرح الأعمال الحربية، أو الاتجاه الاستراتيجي.

ويمكن أن يكون محتوى المهمة الإستراتيجية: تدمير أو إبطال تجمعات ضخمة من القوات المسلحة المعادية، وتدمير أغراض هامة للعدو، بما في ذلك المراكز الذرية والمخزونات من الأسلحة النووية، والاستيلاء على مناطق معينة تتهيأ بنتيجتها ظروف ملائمة في الموقف الاستراتيجي، لتطوير أعمال القتال اللاحقة، وتنفيذ المهمات الاستراتيجية التالية.

يمكن أن يؤمن تحقيق القوات المسلحة لغاية استراتيجية راهنة عن طريق تنفيذ مهمة استراتيجية واحدة، أو عدة مهمات استراتيجية مناسبة في آن واحد. أو بمعنى آخر، تقسم الغاية الاستراتيجية إلى عدة أقسام أساسية، يشكل كل قسم منها مهمة استراتيجية مستقلة.

وانطلاقاً من طبيعة الحرب والمهمات المفروضة على القوات المسلحة توضع

المقترحات حول قوام القوات المسلحة وتنظيمها، وتحدد النسبة بين مختلف أنواع القوات المسلحة وصنوف القوات، كما توضع أيضاً المقترحات حول تزويدها بوسائط الصراع المسلح. ويجري إعداد مثل هذه المقترحات باستمرار تقريباً بحسب التقدم التقني والتبدلات المناسبة في الموقف الحربي السياسي.

ولكي يكون للصراع المسلح طابع هادف منظم يجب أن يخطط له من قبل أعلى المستويات العسكرية. ولهذا تدخل في مجال بحث نظريات الاستراتيجية العسكرية أسس التخطيط الاستراتيجي للأعمال العسكرية بمجملها، وفي البر والجو والبحر كل على حدة، استناداً إلى الشروط الفعلية لكل مسرح أعمال حربية، مع أخذ وسائط الصراع الحديثة بعين الاعتبار.

ويحتل التخطيط الاستراتيجي المسبق للصراع المسلح في الفترة الأولى من الحرب مكانة خاصة في هذا المجال، الأمر الذي يعتبر أساس الخطة العملياتية لاستخدام القوات المسلحة.

إن الإعداد المخطط للبلاد من أجل الحرب يجب أن يؤمن ما يلي:

- إمكانية ردع المعتدي ردعاً حاسماً في أية لحظة.
- تحقيق النصر في أقصر وقت ممكن.
- إمكانية خوض الحرب عند الضرورة لمدة طويلة.
- القدرة على درء الخسائر الكبيرة من الضربات النووية للعدو.
- المحافظة على الحالة المعنوية السياسية العالية للسكان، وعزمهم على تحقيق النصر.

ويتم إعداد البلاد للحرب حسب اتجاهات ثلاثة رئيسية:

- إعداد القوات المسلحة.
- إعداد اقتصاد البلاد.
- إعداد السكان.

ويجب أن يدخل في الحساب في كل اتجاه من هذه الاتجاهات تطور وسائط الصراع المسلح، والتبدلات الطارئة على الموقف الدولي.

لقد استدعى التهديد في الحرب الحديثة ، باستخدام وسائط التدمير الشامل على المؤخرات العميقة ، ظهور نوع جديد من التأمين الاستراتيجي للنشاط الحياتي للدولة ، المعروف تحت اسم الدفاع المدني . ولهذا يُعار اهتمام كبير في الآونة الأخيرة لإعداد الدفاع المدني في جميع الدول .

تؤدي المهمات الأساسية للدفاع المدني إلى تأمين الظروف اللازمة للنشاط الطبيعي لمختلف هيئات الإدارة في البلاد في فترة الحرب ، وتوظيف الاقتصاد الوطني بشكل فعّال . ويتحقق ذلك عن طريق وقاية السكان والأغراض الهامة التابعة للاقتصاد الوطني من وسائط التدمير الشامل ، وتقديم العون الواسع والمتعدد الأوجه للمصابين ، وسرعة تصفية آثار الضربات النووية المعادية .

عند البحث في أسس التأمين المادي والفني للصراع المسلح ، واتخاذ الإجراءات العملية الخاصة به تحدد الاستراتيجة العسكرية الحجم العام من الاحتياجات المادية للحرب بمجملها ، وبحسب نوع الأعمال العسكرية . ولدى تخطيط تنظيم المؤخرة تقرر الاستراتيجية توزع هيئات المؤخرة والتأمين المادي والفني للقوات المسلحة والبلاد ، وتحدد اتخاذ التدابير الواقعية التفصيلية للتأمين المادي والفني للصراع المسلح .

إن التنظيم الصحيح لتكديس المخزونات ، وإنشاء الاحتياطات من الوسائط المادية من أجل حاجات الحرب ، وتنظيم نقل وسائط التأمين المادي والفني لمختلف تجميعات القوات له أهمية كبيرة في تأمين القوات المسلحة .

ومن هنا تهتم الاستراتيجية العسكرية اهتماماً مباشراً بتوسيع القاعدة الاقتصادية والعلمية للبلاد (ارتباطها بالاقتصاد) ، التي يعتمد عليها إنتاج الأسلحة والعتاد القتالي ، ووسائط التأمين المادي والفني الأخرى للصراع المسلح .

ولزيادة القدرة الدفاعية للبلاد ، وخاصة في حالة الحرب الطويلة الأمد ، تتقدم الاستراتيجية العسكرية بنصائحها العلمية المعللة المناسبة حول تلك المجالات من الاقتصاد الوطني ، والعلم والتقنية التي تتوقف عليها مباشرة زيادة **المقدرات الاقتصادية الحربية للبلاد** .

تلم قيادة القوات المسلحة بنشاط هيئات القيادة الاستراتيجية في مجال الإعداد للصراع المسلح وخوضه. والمسائل الأساسية التي يجب أن تقرر في هذا المجال هي: تحديد الغايات والمهمات الاستراتيجية، وقيادة القوات المسلحة في فترة الإعداد، والتعبئة والانتشار الاستراتيجي، وتنظيم أعمال القتال وتأمينه من جميع الأوجه، وذلك طبقاً للغايات السياسية، والحربية ـ السياسية وطبيعة الحرب.

وأخيراً يعتبر من أهم مهمات الاستراتيجية العسكرية الدراسة الشاملة للأعداء والحلفاء الكامنين.

إن الصراع المسلح، عمل ثنائي الجانب، يلعب فيه العدو دوراً هاماً (وقد يكون حاسماً أحياناً). ويتوقف على إمكانات هذا العدو وأساليب عمله طابع تنفيذ الكثير من المهمات الاستراتيجية إلى حد بعيد. ولهذا يجب أن يتم في نظريات الاستراتيجية العسكرية بحث إمكانات استعداد العدو للحرب ودرجتها، وتجميع قواته المسلحة، وإلى أية غايات حربية سياسية يمكن أن يهدف في الحرب المقبلة، وما إمكاناته الاقتصادية والعسكرية والمعنوية، وإدخال هذه الأمور كلها في النشاط العملي للقيادة الاستراتيجية. وتهتم الاستراتيجية كذلك بالدراسة الدقيقة لوجهات النظر المعادية، وطبيعة خوض الصراع المسلح وأساليبه، وبناء القوات المسلحة، وإعداد الاقتصاد والسكان وأراضي الدولة للحرب.

هذا هو محتوى المهمات الأساسية التي يتطلب من الاستراتيجية الحربية تنفيذها في الحرب الحديثة والطرق المحتملة لتنفيذ هذه المهمات.

إن ما ذكرناه لا يعدو الأسس العامة للاستراتيجية العسكرية، وقد بينا ارتباطها وعلاقتها المتبادلة مع العلم العسكري، وفن الحرب، والمذهب العسكري، والسياسة، والاقتصاد، وذكرنا أهم مهمات الاستراتيجية العسكرية وطرق تنفيذها المحتملة.

لدى الاستفادة من هذه الأسس العامة للاستراتيجية العسكرية في أثناء الدراسة العلمية للمشاكل الاستراتيجية، وخلال النشاط التطبيقي للقيادة الاستراتيجية، يجب أن

ندخل في الحساب الإمكانات الفعلية للدولة والقوات المسلحة، ودرجة استعدادها للحرب والموقف السياسي والاستراتيجي.

وعن طريق هذه النظريات التاريخية الواقعية والشاملة فقط يمكن بنجاح إعداد البلاد والشعب والجيش للصراع المسلح.

الفصــــل الســـــادس

الاستراتيجية المباشرة والاستراتيجية غير المباشرة



تمهيد

منذ أقدم العصور، عرف تاريخ الحروب أسلوبين متناقضين في الظاهر ومتكاملين في الواقع هما: ما يمكن أن نطلق عليهما حالياً تسمية **الإستراتيجية المباشرة والإستراتيجية غير المباشرة**. إلا أنهما لم يأخذا بعدهما الواعي والعميق إلا في نهاية القرن التاسع عشر، حيث تحولا بالتتابع إلى عقيدتين:

ـ الأولى هي (الديناميكية العقلانية) التي تقدر القوى والوسائط المتوفرة، وتبحث عن الحل الذي يتلاءم مع المردود الأقصى لهذه القوى، ثم يتم السعي بعد ذلك نحو تجميع القوى لإلحاق الهزيمة بالكتلة الرئيسية المعادية، الأمر الذي يؤدي إلى انهيار سائر القوى. في هذه الحالة، يتم **صراع القوى ضد القوى**، وتحسم النتيجة على مسرح العمليات الرئيسي. هذه هي الاستراتيجية المباشرة التي يرجع الفضل إلى ظهورها إلى نظريات المفكر المعروف كارل فون كلاوزفيتز[1].

---

(١) كارل فون كلاوزفيتز: (١٧٨٠ ــ ١٨٣١) جنرال بروسي ومفكر عسكري، درس في الأكاديمية العسكرية ببرلين، ثم غادر بروسيا وعمل مع الجيش الروسي تحت قيادة كوتزوف ضد الجيوش الفرنسية، ثم أصبح في العام ١٨٣٠ رئيساً لأركان القيادة العامة للقوات البروسية المسلحة. له عدة مؤلفات عسكرية مشهورة، أهمها كتاب (في الحرب) الذي عرض فيه نظرياته حول اعتماد القوة كوسيلة لتحقيق هدف السياسة.

ــ أما الثانية فهي ما يمكن أن نطلق عليه (تأمين التوافق) والتي تركز على العامل المعنوي للفعل الذي نقوم به، وتتطلب حلاً تكون من نتيجته: عرقلة توقعات الخصم، وبلبلة أفكاره، وتحطيم آماله.

وقد يتطلب هذا الحل غالباً بعثرة قوى المنفذ، وتشتيت جهوده، لإرغام الخصم على أن يحذو حذوه، كما يبحث بعد ذلك عن النصر بالعمل من قبل القوي ضد الضعيف، على المسارح الثانوية أو النائية عند اللزوم. ومن أكبر أنصار هذه الاستراتيجية (ليدل هارت)، الذي يقدمها كمتناقضة لاستراتيجية كلاوزفيتز. والحقيقة أن الاستراتيجية ليست عقدة واحدة جامدة، ولكنه أسلوب في التفكير يسمح بتصنيف الأحداث حسب أهميتها، وباختيار أكثر الوسائل فعالية وملاءمة. فلكل موقف استراتيجية معينة تنسجم معه، وقد يكون اختيار هذه الاستراتيجية أو تلك صائباً في ظروف معينه وخاطئاً في ظروف أخرى. (فالديناميكية العقلانية) تتفق مع الحالة التي تكون فيها أقوى من الخصم، أو عندما **يتشتت** العدو المتفوق أصلاً **تشتتاً** خطيراً يضعف قواه. أما (تأمين التوافق) فيفرض نفسه إذا كنا في موقف الأضعف، كما يكون مفيداً لتحقيق التفوق عند التبعثر شريطة تجنب التبعثر أكثر من العدو. ولا شك في أن الاختيار الصحيح لردود الفعل عمل لا يوجهه سوى دراسة الموقف الخاص، والوضع الراهن، وميزان القوى، وطبيعة مسرح العمليات. ومن الأفضل استخدام عدة عقائد متعاقبة حسب تعاقب تطور الموقف.

تعتمد **الاستراتيجية المباشرة** إذن على استخدام القوى العسكرية كوسيلة أساسية لتحقيق الأهداف السياسية، بينما تتلاءم **الاستراتيجية غير المباشرة** مع البحث عن الحل بوسائل غير مباشرة، سياسية أو اقتصادية، وعسكرية تعتمد على تفتيت الخصم مادياً ومعنوياً، مع إزعاجه والإخلال بتوازنه، والاقتراب منه من اتجاهات لا يتوقعها، قبل الإجهاز عليه إجهازاً تاماً. وقد تزايدت أهمية هذه الاستراتيجية منذ أن أصبح التهديد بالحرب الشاملة، حسب الاستراتيجية المباشرة، خطراً قد يؤدي إلى تدمير متبادل شامل. وقد تكون الاستراتيجية الوحيدة التي يمكن استخدامها من قبل الدولتين الأعظم بعد أن شل التهديد النووي إمكانية العمل بالاستراتيجية المباشرة.

أولاً ـــ الاستراتيجية المباشرة

يشبه كلاوزفيتز جوهر الحرب بصراع بين متصارعَين يحاول كل منهما إخضاع الآخر لإرادته بواسطة **القوة** البدنية. أما الهدف **المباشر**، فهو القضاء على الخصم وجعله عاجزاً عن كل مقاومة.

فالحرب إذن عمل من أعمال العنف، هدفه إرغام الخصم على تنفيذ إرادتنا. يتسلح العنف لمجابهة العنف، بكل ما يمكن أن يقدمه العلم والفن من منجزات ومخترعات، والتقيد بزواجر طفيفة جداً، فيما يتعلق بحقوق الإنسان، دون أن يضعّف ذلك من قوته. وهكذا يمكن القول إن العنف المادي هو **الوسيلة**، بينما تبقى **الغاية** فرض إرادتنا على العدو.

لكي نحقق هذه الغاية بكل ثقة وأمان، لا بد من تجريد العدو من سلاحه، وهذا هو الهدف الحقيقي للعمليات الحربية.

ـــ الاستخدام اللا محدود للقوة

يمكن للنفوس الإنسانية المحبة للخير أن تتخيل كما تشاء، وتحلم بطريقة مصطنعة للقضاء على الخصم وتجريده من سلاحه، دون إراقة الكثير من الدماء، كما يمكنها الادعاء بأن هذا هو ما يطمح إليه الفن الحقيقي للحرب.

قد تكون هذه أمنية مرغوباً فيها، ولكنها خاطئة تماماً بالنسبة للاستراتيجية المباشرة كما يراها كلاوزفيتز. ففي مسألة حساسة وخطرة كالحرب (التي يراها استمراراً للسياسة بوسائل أخرى)، **تعتبر الأخطاء الناجمة عن طيبة القلب فادحة وقاتلة**، ولما كان استخدام القوة الكاملة لا ينفي مطلقاً مساهمة العقل والذكاء، فلا بدّ أن تكون الغلبة لمن يستخدم هذه القوة دون هوادة أو شفقة، ولا يتراجع ويتردد أمام أية إراقة للدماء.

وها هي التطورات التي ما زالت تطرأ على الأسلحة، منذ اختراع البارود حتى الآن، تثبت بحد ذاتها أن الميل نحو تدمير العدو لم يتأثر مطلقاً بتقدم الحضارة. لذلك ستبقى الحرب عملاً من أعمال العنف الذي لا تقيد ظهوره وتفاعله حدود، كما سيظل هذا العنف يتصاعد حتى تقهر إرادة الخصم، أو يبلغ ذروته لدى الطرفين.

ـ تجريد العدو من سلاحه

لكي يخضع العدو لإرادتنا، يجب إيصاله إلى وضع أسوأ من أن تنفع معه التضحيات التي يمكنه تقديمها. إلا أن هذا الوضع السيء لا يجوز له أن يكون مؤقتاً أو انتقالياً، أو لا يجوز أن يبدو للخصم كذلك، لأنه في هذه الحالة لن يفقد الأمل، بل سيصبر بانتظار فرصة مناسبة، أو تبدل في الموقف لصالحه. لذلك إذا أردنا إخضاع الخصم لإرادتنا عن طريق الحرب، لا بدّ لنا من تجريده فعلاً من سلاحه، أو وضعه في شروط يشعر معها بالتهديد بهذا الاحتمال.

وما دام هدف الحرب هو تدمير العدو وتجريده من سلاحه، فإن كلاوزفيتز يؤكد على مبدأين أساسيين يوجهان خطة الحرب: الأول يقضي بتحويل وزن القوة المعادية إلى مراكز ثقل قليلة، أو مركز ثقل واحد، إذا أمكن. بعد ذلك حصر الهجوم على مراكز الثقل بأقل عدد ممكن من الأعمال الرئيسية، أو بعمل رئيسي واحد إذا أمكن. أخيراً، جعل الأعمال الثانوية كلها مرتبطة بالعمل الرئيسي أو مسخرة لصالحه. وبعبارة واحدة، يتلخص المبدأ الأول **بحشد القوى** قدر المستطاع، بينما يتلخص المبدأ الثاني **بالعمل المباشر بأسرع ما يمكن**. وهنا يبرز التناقض واضحاً بين كل من كلاوزفيتز وليدل هارت، بين الاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة.

ــ الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى

تنشب الحرب بين الأمم عادة نتيجة وضع سياسي وبسبب سياسي. لذلك يعتبرها كلاوزفيتز عملاً سياسياً وأداة سياسية في آن واحد. فالنيات السياسية هي الغاية والحرب هي الوسيلة. ولا يمكن تصور وسيلة بصورة مستقلة عن الغاية. لذلك من الطبيعي ألا تكون الحرب مجرد عنف مطلق، بل تبقى موجهة من قبل الهدف السياسي الذي يتحكم بحدتها ووتيرتها، كما يؤثر الصراع المسلح بدوره على الهدف السياسي ويغيره في كثير من الأحوال والمراحل حسب نجاح هذا الصراع أو فشله. أضف إلى ذلك أن **الهدف السياسي لا يحدد اعتباطاً، بل يجب أن يتكيف مع طبيعة الإمكانات الموضوعة** تحت تصرفه، إلا أنه يبقى، في جميع الأحوال، في النسق الأول من اعتباراتنا.

أ ــ تأثير السياسة على الحرب

١ ــ الأهداف الاستراتيجية

تكون الاعتبارات السياسية ذات أهمية رئيسية في قيادة الحرب بالنسبة لأولئك الذين تبنوا الفرضيات القائلة بأن الحرب هي استمرار للسياسة، وأن الحرب تخاض لتحقيق أهداف سياسية، وبالتالي فإن أول عمل يؤخذ في أية حرب (وهو تحديد هذه الأهداف) يكون عملاً سياسياً. ويؤثر انتقاء الأهداف بشكل يحسم مجرى الحرب، حيث تتمحور حوله جميع القرارات اللاحقة. ومن هنا نرى أن السياسة تحدد الخطة التمهيدية للاستراتيجية العسكرية الواجب تطبيقها أي: الأهداف الاستراتيجية للحرب، والطرق الرئيسية التي ستستخدم فيها لتحقيق هذه الأهداف، وحجم القوات المسلحة وتسليحها إلخ.. وبالمقابل يتخذ القرار أيضاً حول ما إذا كانت الحرب ستكون شاملة أم محدودة، طويلة أم قصيرة، وهل سيؤخذ بالتكتيك الهجومي أو الدفاعي، وهل ستنفذ ضربة واحدة مدمرة أم ضربات متتالية؟ وفي هذه الحالة الأخيرة، أين وكيف؟ حيث تعتمد جميع هذه القرارات على الأهداف السياسية.

وإذا كانت الحرب ستخاض من قبل تحالف ما، فإن أشكالاً إضافية من التأثير السياسي والقرارات ستنشأ فيما يتعلق بالطريقة التي سوف يشترك فيها كل عضو من هذا التحالف.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تأثير السياسة على انتقاء الاستراتيجية قد ازداد كثيراً في العصر النووي. فمن ناحية أولى، نجد أن القضية المركزية في السياسة الدولية تكمن في الصراع بين الكتلتين العالميتين المتخاصمتين. وفي هذه المواجهة، لا تكوّن الاستراتيجية العسكرية سوى جزء واحد من نشاط سياسي منسق، حيث أصبحت الأهداف العسكرية في زمني السلم والحرب تكوّن أجزاء متكاملة من الأهداف السياسية العامة.

بالإضافة إلى ذلك، وبما أن الحرب أصبحت أداة مجازفة أكثر من السابق بكثير، فإن قرار إعلانها، وتحديد أهدافها أصبحا عملين في غاية الأهمية. ويجب أن ينفذا على أساس تقويم دقيق للوضع السياسي العالمي. وهكذا نجد أن المنظور العسكري الاستراتيجي أصبح ضيقاً ومحدوداً بشكل خطير.

وفي العصر النووي، أصبحت الحرب تتطلب التزاماً كاملاً من التجمع بشكل أكثر حدة من أي وقت مضى. وإن اختيار الاستراتيجية العسكرية لكل من الأهداف الهجومية والدفاعية يصبح أكثر اعتماداً على الموارد الاقتصادية والتكنولوجية التي يستطيع المجتمع توفيرها.

وأخيراً، فإن التطورات الحديثة في الاتصالات الشاملة أدت إلى زيادة أهمية العوامل السياسية، لأنها وضعت التقنيات المتقدمة تحت تصرف الحرب السياسية ــ النفسية.

٢ ــ الأهداف العسكرية

وفقاً للتعريف الكلاسيكي، يكون الهدف العسكري للحرب هو النصر الذي يؤدي إلى فرض إرادتنا على العدو، أو بعبارة أخرى، فإن المهزوم يصبح مضطراً لتلبية الطلبات السياسية للمنتصر. وعموماً فإن النصر في نظر كلاوزفيتز يؤكد على تحقيق الأهداف السياسية، أو على المعنى العسكري البحت، أي تدمير الخصم أو تجريده من السلاح.

في الحرب الشاملة، يعني النصر، بالمقياس السياسي، الاستسلام الكامل للعدو وتلبية جميع شروط المنتصر. وأما في الحرب المحدودة، فإن النصر يتحدد بتحقيق المكاسب

المحدودة كالاستيلاء على بعض المناطق الحدودية . ويمكن أن نميز هنا بين تحقيق الأهداف الفورية للحرب وتحسين الموقف السياسي ـــ العسكري **العام** للمنتصر . ولا بدّ من التنويه بهذا الصدد أن كلاوزفيتز كان أكثر ميلاً للحرب (المطلقة) في وقتنا الحاضر .

في المجال العسكري ، يعني النصر إيقاع حجم من التدمير بالعدو عبر التفوق عليه بالقوة العسكرية ، مما يجعل هذا العدو يخضع لإرادة خصمه . وهكذا فإن مؤشر هزيمة العدو يكون نسبياً ، حيث قد يعني تدمير العدو كلياً وتجريده من سلاحه (وهذا يعني تحقيق السيطرة المطلقة التي ينادي بها كلاوزفيتز وأنصاره) ، أو قد يعني أن العدو تكبد خسائر استراتيجية أكثر من المنتصر ، الذي يحقق بذلك نصراً نسبياً . وهنا نجد أن النصر بمعناه العسكري يتصل بشكل أو بآخر بالنصر في المجال السياسي .

إلا أن المؤشرات الكلاسيكية للنصر لا يمكن تطبيقها على العصر النووي ، لأن النصر المطلق عبر الحرب الشاملة أصبح مستحيلاً ، لأن كلاً من الرابح والخاسر سوف يتكبد خسائر تزيد كثيراً عن أية مكاسب ممكنة . لذلك يلاحظ ليدل هارت أن التاريخ يبين أن إحراز النصر العسكري ليس مساوياً بحد ذاته للربح السياسي . بهذا المعنى سوف لن يعني النصر أكثر من الخروج في الحرب في وضع أفضل من وضع الخصم ، سواء أكان ذلك متعلقاً بمدى التدمير ، أو بالقاعدة الاستراتيجية التي يمكن من خلالها تخطيط الأعمال السياسية ـــ العسكرية المستقبلية .

إن المظهر الرئيسي الثاني لسيادة السيادة وسيطرتها على قيادة الحرب قد أصبح ذا أهمية حيوية في العصر النووي . لذلك اعتبر كثير من المنظرين أن عقيدة (الرد الكثيف) تؤدي إلى خروج الحرب بسرعة من سيطرة السياسة ، بينما تحافظ استراتيجية (الرد المرن) على السيطرة السياسية بالنسبة لكل مرحلة من مراحل الحرب ، وكل درجة من درجات سلم التصعيد البنيوي .

إلا أن عدداً من المنظرين العسكريين أشاروا إلى ضرورة مراعاة مبدأ السيطرة السياسية على أهداف الحرب ، ولكن ليس على سير العمليات العسكرية . ومن هنا ظهرت في الغرب انتقادات كثيرة لما سمي بالتفسيرات الخاطئة للفلسفة التي ينادي بها

كلاوزفيتز ، عن سيادة السياسة ، حيث طالبوا بضرورة التعاون بين السياسيين والعسكريين وفق أربعة مبادىء أساسية يمكن تلخيصها بالآتي :

ــ الفهم المتبادل لوجهات نظر كل من الفريقين .
ــ قبول العسكريين بمبدأ السيادة السياسية في إدارة الحرب .
ــ عدم تدخل السياسيين في مجال العمل العسكري البحت الذي يجب أن يبقى ضمن مسؤوليات العسكريين .
ــ يجب على السياسيين ، لدى إصدارهم التوجيهات ، وفرضهم القيود ذات الطابع السياسي ، أن يتجنبوا انتهاك المبادىء والقواعد الرئيسية التي تتحكم بالقيادة السريعة والفعالة للحرب .

ب ــ تأثير الحرب على السياسة

١ ــ في أثناء السلم

من المعروف أن العلاقة بين السياسة والحرب لا تسير في اتجاه واحد فقط ، ذلك أن الأعمال الحربية تمارس تأثيراً على السياسة ، تماماً مثلما رأينا تأثير السياسة على الحرب . وكما يعمد المهني إلى ضبط أدواته وإعدادها حتى تلائم احتياجاته بشكل أفضل ، فإن السياسي يدخل التحسينات دائماً على أداته العسكرية ، قبل وقت كاف من استخدامها . وقد يضطر المهني أحياناً للعمل بأدواته دون ضبطها ، مما يجعله مضطراً في هذه الحالة لضبط عمله بما يتوافق مع هذه الأدوات .

بالمقابل ، وبما أن على القادة السياسيين أن يأخذوا بعين الاعتبار خطر احتمال تورطهم في الحرب ، فإن عليهم أن يجعلوا سياستهم تعتمد على الجهد العسكري الفعلي في المنظور القصير الأمد ، وألا يحملوا سياستهم ما لا تستطيع أداتها العسكرية احتماله . لذلك يقول كلاوزفيتز : « بالرغم من أن الحرب تخاض لتحقيق أهداف سياسية فإن من الواجب أن توضع هذه الأهداف بما يتلاءم مع الوسائط العسكرية المتوفرة » .

أضف إلى ذلك أن استخدام الأداة العسكرية ، في عصر الصواريخ النووية ، قد أصبح يشكل خطورة هائلة للجنس البشري كله ، مما أصبح يحتم الآن ، أكثر من أي

وقت مضى، تكييف السياسة لتتلاءم مع ما هو ممكن نظرياً، وما ينصح به عملياً. وأوضح مثال على ذلك ما حدث بين المعسكرين خلال أزمة الصواريخ الكورية الشهيرة وأسلوب حلها.

٢ ــ في أثناء حلها

ما إن تنشب الحرب فعلاً، حتى تصبح القضايا العسكرية ذات أهمية بالغة، كما يمكن أن تصبح صاحبة اليد العليا للقضايا الأخرى كافةً في بعض الحالات.

وقد يؤدي مجرى الحرب من ناحية أخرى إلى إجبار المتحاربين على إيضاح أهدافهم السياسية، وبخاصة إذا لم تكن واضحة منذ البداية. ويعتقد بعضهم مثلاً أن أهداف الحلفاء لم تكن واضحة تماماً عند بدء الحرب، وأن انتزاع قرار الاستسلام غير المشروط كان يعتمد بدرجة أقل على المصالح البعيدة المدى للحلفاء من اعتماده على الحقيقة المتمثلة بأن هؤلاء الحلفاء كانوا قد وجهوا بلدانهم من أجل الالتزام الكلي بالمجهود الحربي الكامل.

وهكذا فإن هناك خيطاً رفيعاً بين إيضاح الأهداف السياسية وإعادة تحديدها. لقد كان المسؤولون العسكريون على قناعة بأن الحرب العالمية الأولى ستكون قصيرة الأمد، مما دفع السياسيين إلى تحديد أهدافهم على ضوء هذه القناعة. إلا أن الحرب استمرت أربع سنوات ونيف، وكانت لها أصداء بعيدة جداً في الحياة الاجتماعية للدول المشتركة فيها. ومع تزايد الخسائر والتهاب العواطف والمشاعر شهراً بعد شهر، أصبح السلام غير مقبول عبر التسويات السياسية، وأصبح لا بد من الحسم في وضع بلغ درجة عالية من التعقيد، الأمر الذي أدى إلى تعديل الأهداف السياسية من خلال الحرب كما هو معروف.

وإذا أخذنا مثالاً حديثاً، نجد أن عدداً من منتقدي التدخل الأميركي في فييتنام، كانوا قد أكدوا أن الولايات المتحدة الأميركية أرغمت على تغيير أهدافها، نتيجة التطورات غير المتوقعة لأحداث الحرب.

ولا أدل على ذلك من التصريحات والبيانات السياسية المتناقضة التي أدلى بها المسؤولون الأميركيون طوال حرب فييتنام، إلى أن وجدوا أنفسهم مضطرين أخيراً للتراجع الكامل أمام إرادة القتال، والبطولات التي أبداها المناضلون الفييتناميون، وأمام الخسائر

الفادحة التي تحملتها القوات الأميركية، وتحت تأثير الضغط الداخلي الذي مارسه الشعب الأميركي نفسه.

ويرى عدد من الذين حلّلوا السياسة الأميركية في الحرب العالمية الثانية أن الاستسلام غير المشروط كان الهدف العسكري الرئيسي. إلا أن هذا الهدف لم يكن قابلاً للدفاع عنه بلغة الواقعية السياسية، لأنه أغلق الباب أمام أية تسوية، ولم يترك للألمان واليابانيين أي خيار سوى القتال حتى الرمق الأخير. أضف إلى ذلك أن هذا الهدف قد تجاهل كلياً مسألة التصور السياسي لما سيكون عليه الوضع بعد الحرب، الأمر الذي سمح للاتحاد السوفييتي بتحقيق مكاسب سياسية كبرى. كذلك يعتقد هؤلاء بأن استراتيجية ايزنهاور قد فتحت كل أوروبا الشرقية والكثير من دول أوروبا الوسطى أمام استيلاء الجيوش السوفييتية عليها، وبأن المعسكر الغربي قد عانى من هزائم كبرى خلال العامين الأولين من الحرب الباردة بسبب القرار الأساسي المنبثق من الاستراتيجية التي كان معمولاً بها في الحرب الساخنة السابقة. أما مرد ذلك فيعزى إلى فشل القادة الأميركيين في قبول الحرب كأداة للسياسة. لذلك يؤكد كليربورب بيل أن القيادة الأميركية نسيت أن الأهداف العسكرية يجب ألاّ تتوافق مع المصلحة الوطنية الراهنة فحسب، بل كذلك مع السياسة الوطنية البعيدة المدى.

ج ــ تأثير الحروب المحدودة على السياسة

منذ الحرب العالمية الثانية، تطورت دول كبرى كثيرة في حروب محلية، وبمناسبات مختلفة لتحقيق أهداف سياسية **بالأسلوب المباشر**، مثلما فعلت الولايات المتحدة الأميركية في فييتنام وكوريا ولبنان، ومثلما فعلت فرنسا وانكلترا في مصر بالتعاون مع الكيان الصهيوني سنة ١٩٥٦. إلا أن الاستراتيجية المباشرة هنا أثبتت فشلها الذريع، مما ترك آثاره العميقة على السياستين الداخلية والخارجية لهذه الدول، ومما دعا الكثيرين من السياسيين والمفكرين للدعوة إلى استبدال الدعم العسكري المباشر بمساعدات عسكرية ومالية للقوى المحلية. أضف إلى ذلك تدني مصداقية هذه الدول على الصعيدين، الداخلي والعالمي.

وهكذا نرى أن الاستراتيجية المباشرة تعتمد على مبدأ (أخذ الثور من قرنيه) كما

يقال، أي تدمير العدو بالمعارك الحاسمة، وبالهجوم المباشر، دون التردد أمام التضحيات، بعد تأمين التفوق الأكيد، على أن تبقى الأهداف العسكرية العامة في خدمة الأهداف السياسية للدولة.

كانت هذه الاستراتيجية، التي يعتبر الجنرال كلاوزفيتز من كبار أعلامها، هي **السائدة في نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، علماً بأن أنصارها** ما زالوا كثيرين حتى وقتنا الحاضر، بعد أن تم تصحيح التفسيرات الخاطئة والمتناقضة لفلسفة كلاوزفيتز في الحرب. ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الفلسفة قد تأثرت بالحروب النابليونية بشكل خاص، دون إهمال الدروس المستخلصة من الحروب القديمة من أيام اليونان والرومان وغيرهم.

وقد وجدنا من المفيد أن نورد فيما يلي، على سبيل المثال، فقرة من المذكرة التي رفعها رئيس الأركان العامة الألمانية الكونت فون مولتكه سنة ١٨٦٨ ــ ١٨٦٩، والتي جاء فيها ما يلي:

«إن خطة العمليات، من أجل الهجوم على فرنسا، قائمة فقط على البحث عن **القسم الأعظم من قوة العدو ومهاجمتها**. ولكن **الصعوبة** تكمن في تنفيذ هذه الخطة البسيطة **بقوات كبيرة جداً**...

إن تعبئتنا جاهزة بأدق التفاصيل. وهناك ستة خطوط حديدية قادرة على نقل الجيوش إلى المنطقة الواقعة ما بين الموزيل والراين. كما أن جدول التوقعات الزمنية، الذي يحدد الوقت الصحيح للتجمع والانطلاق، جاهز، للوحدات كافةً. وبالاستيلاء على معابر النهر، علينا أن تؤمن الهجوم بعد بضعة أيام (اليوم الرابع عشر من التعبئة)، **متفوقين** على العدو بأكثر من الضعف».

هذه هي الصيغة التي أراد بها مولتكه أن يترجم عقيدة كلاوزفيتز في الهجوم المباشر إلى عمل: البحث عن جيش العدو، **وتدميره بقوى متفوقة**، تستمد كفاءتها من **تعبئة الطاقة البشرية للأمة**، والتخطيط الدقيق في زمن السلم، مع الاستفادة من شبكة المواصلات الألمانية المتطورة نسبياً آنذاك.

ولا بدّ من التنويه أخيراً بأن لينين قد استفاد من هذه الاستراتيجية، كما استفاد

منها هتلر على طريقته الخاصة. كذلك شاطر معظم الكتاب العسكريين بعامة، والألمان بخاصة، كلاً من مولتكه وكلاوزفيتز نفورهما من العقائدية العقلانية في أبحاثهم عن تحليل الحرب، وأكدوا أن الحرب شأنها شأن الحياة نفسها، لا يمكن إخضاعها لقوانين جامدة لا تتغير. فقد تكون قاعدة ما صحيحة في حالة ما وخاطئة في حالة أخرى. إلا أن هناك مبادىء **عامة للاستراتيجية المباشرة** تساعد على تحديد اتجاه عام للعمل، يمكن تلخيصها بالآتي:

١ ـــ على الاستراتيجية أن تسير جنباً إلى جنب مع السياسة القومية.
٢ ـــ إن الجيش المعادي هو الهدف الأول للاستراتيجية.
٣ ـــ لا بد لتحقيق أهداف الاستراتيجية من توفير الحد الأقصى من القوة.
٤ ـــ لا يوجد نظام ثابت في قيادة الحرب، بل يعتمد ذلك على المحاكمة السليمة وشخصية القائد.
٥ ـــ إن العنف الدموي هو السمة الدائمة للحرب
٦ ـــ يجب أن تكون الحرب جماعية ومطلقة (مفهوم الأمة المسلحة).
٧ ـــ لا يجوز تغيير الاستراتيجية في أثناء الحرب إلا للضرورات القصوى.

ثانياً ـــ الاستراتيجية غير المباشرة

ليست الاستراتيجية غير المباشرة مفهوماً حديثاً، بل هي قديمة قدم تاريخ الحروب، إذا أخذت بمعنى الهجوم غير المباشر، واتباع الأساليب الملتوية، والطرق غير المتوقعة.

إلا أن الكاتب الشهير ليدل هارت قد طور نظرية (**التقرب غير المباشر**) بصورة رائعة، واعتبرها أفضل أنواع الاستراتيجية على الإطلاق. تتضمن هذه الاستراتيجية، في مجال العمليات العسكرية، (عدم أخذ الثور من قرنيه) ـــ كما قال الجنرال بوفر ـــ أي عدم مجابهة العدو مباشرة إلا بعد إزعاجه ومفاجأته وزعزعة توازنه بتقرب غير متوقع.

وها هو التاريخ يبين لنا أن الاسكندر قد استولى على فلسطين ومصر قبل أن يسير باتجاه بلاد الفرس. ويمكن أن نصنف إنزال الحلفاء في شمالي إفريقية سنة ١٩٤٢ في عداد التقرب غير المباشر.

والواقع أن مناورة التقرب غير المباشر هي وسيلة تفرض نفسها على أحد الخصمين المتحاربين، إذا كان لا يثق ثقة تامة بأنه من القوة بحيث يستطيع التغلب على خصمه في معركة تنشب على أرض يختارها عدوه. وقد بين ليدل هارت بحق أن كلا الطرفين لا يستطيعان أن يكونا واثقين كل الثقة من قوتهما. وحتى لو أحس أحدهما بأنه قوي، فإن انتصاره سيكلف غالياً. ولهذا يقترح ليدل هارت الاستخدام المنهجي للتقرب غير المباشر

الذي يعني التقدم نحو العدو من اتجاهات غير متوقعة (كالتقدم الذي قام به الألمان عبر جبال الأردين في أثناء الحرب العالمية الثانية) ، ثم التقدم في اتجاهات يمكن تغييرها بحيث نصرف تفكير العدو عن أهدافنا الحقيقية ، كالتقدم الذي قامت به الفرق المدرعة الألمانية في الحرب العالمية الثانية ضد فرنسا ، بحيث زعزعت ترتيب الحلفاء الدفاعي وحيرتهم فيما يتعلق بأهداف الهجوم ، هل هي باريس أم شمالي فرنسا ؟

وسنرى أن هذه الاستراتيجية ، التي اتسعت رقعة عملها بعد ظهور السلاح النووي ، وبسبب تصفية الاستعمار المباشر ، قد أصبحت بالغة التعقيد وشديدة الفعالية . لذلك لا بد من فهم آلية هذه الاستراتيجية ، والتي يحتمل أن يطبقها العدو الصهيوني ، بسبب موقعه المتوسط ، ضد أي بلد عربي عن طريق بلد عربي آخر (كالهجوم على القطر العربي السوري مثلاً عن طريق لبنان أو الأردن ، متجنباً بذلك الخطوط الدفاعية المحصنة على الجبهة) .

هناك ميزة أخرى للاستراتيجية غير المباشرة ، وهي تكمن في الطابع الخاص الذي تتخذه فيها حرية العمل . ففي أيامنا هذه ، وبخاصة بعد ظهور السلاح النووي ، لا يمكن لأي نزاع مسلح أن يدور إلا داخل هامش محدود من حرية العمل ، بسبب الانعكاسات التي قد يسببها تطوره على الوضع الدولي . وقد امتنعت دول البلقان في العام ١٩١٢ مثلاً عن الاندفاع إلى القسطنطينية خوفاً من تمركز الروس فيها . كما راعت فرنسا المصالح البريطانية والإسبانية في مراكش . كذلك توقف العدوان الثلاثي ثم انحسر عن مصر سنة ١٩٥٦ نتيجة الإنذار السوفييتي ثم الضغط الأميركي خوفاً من تطور الوضع .

كان الجميع هنا وما زالوا مقيدين بالخوف مما سماه كلاوزفيتز بالتصعيد إلى الحدود القصوى ، والذي يعني تحول النزاع المحدود إلى حرب مطلقة لا تتناسب أبداً مع هدفه الأولي . ولا شك في أن ظهور السلاح النووي قد زاد من خطر هذا التصعيد ، بينما ضاق هامش حرية العمل بشكل كبير . إلا أن هذا الهامش بقي كافياً لنشوب نزاعات محدودة كثيرة (كما حدث في كوريا وفييتنام والشرق الأوسط والمجر والكونغو وكوبا وأفغانستان والحرب العراقية ــ الإيرانية وغيرها . .) .

فكلما ضاقت حرية العمل ، أصبح استثمارها أكثر أهمية ، لأنها تسمح وحدها

بمجابهة الوضع القائم الذي يدعي الردع النووي محافظته عليه. وبقدر ما تضيق حرية العمل تصبح وسائل استثمارها دقيقة وملتوية (أي غير مباشر). ومع كل ذلك، فإن هذا الهامش الضيق من حرية العمل قد حقق أحياناً نتائج هامة لم تحققها حتى الحروب الكبرى، فقد حرم الغرب من الصين ومن كل جنوبي شرقي آسيا، واضطرب الشرق الأوسط، وثارت إفريقية، وانتشر التذمر في أميركا الوسطى والجنوبية. ولم تأت كل هذه النتائج كمحصلة حتمية للتطور التاريخي فحسب، بل جاءت نتيجة الاستخدام البارع لاتجاهات التطور الطبيعية بمناورات محسوبة بدقة، **طبقاً لاستراتيجية غير مباشرة واضحة ومحددة.**

وهكذا تبدو الاستراتيجية غير المباشرة وكأنها فن معرفة أفضل استخدام لهامش الحرية الضيق للعمل، الذي أفلت من الردع النووي، والحصول بواسطته على نجاحات حاسمة هامة، برغم التحديد الصارم للوسائط العسكرية التي يمكن استخدامها. وسنحاول إنطلاقاً من هذا التعريف، **فهم القواعد الأساسية** لهذه اللعبة البالغة الدقة والتعقيد.

ـ مفهوم المناورة غير المباشرة

قال ليدل هارت: « **في الاستراتيجية، يعتبر الطريق الطويل المتعرج هو أقصر الطرق لبلوغ الهدف** ». يتضح من هذا القول تفضيله للاستراتيجية غير المباشرة على الاستراتيجية المباشرة التي يراها باهظة الثمن.

يشتمل العنصر الأول في الاستراتيجية غير المباشرة على تحديد **هامش الحرية** المتاحة للعمل، والذي يستطيع الحدس أن يحدده، كما يتضمن التأكد من إمكانية الحفاظ على هذا الهامش أو توسيع مداه، بينما يضيق هامش الأمن الذي يتمتع به الخصم إلى أقصى ما يمكن.

في الحقيقة، يعود كل حوار المعركة إلى نزاع للحصول على حرية العمل. إلا أن الغرابة الأساسية للاستراتيجية غير المباشرة تكمن في أن حرية العمل لا ترتبط بالعمليات التي تنفذ في منطقة محددة، بل تستند كلها إلى عوامل خارجة عن هذه المنطقة، كتقدير

قيمة الردع النووي، وتقدير ردود الفعل الدولية، والإمكانات المعنوية للخصم وحساسيته تجاه ما يواجه من أعمال، أو تجاه الضغوط الخارجية وغيرها..

ينتج عن ذلك أن إمكانية هذا العمل ونجاح العملية محكومان بنجاح المناورة على الساحة العالمية. وهذا ما يسميه الجنرال بوفر (**بالمناورة الخارجية**). ولا شك في أن كسب المعركة يتحدد، إلى درجة كبيرة، خارج أرض القتال. وكم من معارك ناجحة عسكرياً قد اعتبرت فشلاً سياسياً ذريعاً، لأنها كلفت أكثر مما تستحق، أو لأنها لم تنجح في تحقيق أهدافها السياسية (مثل الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢).

ــ مفهوم المناورة الخارجية

إن الفكرة الأساسية في المناورة الخارجية هي التأكد من الحصول على حرية عمل قصوى لشل الخصم بأقصى حد ممكن من أربطة الردع. والمناورة هنا لا بد أن تكون بسيكولوجية تستعين لتحقيق هذا الغرض بكل الوسائل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية.

وتتعدى طرائق الردع المستخدمة من أكثر الطرق دهاءً ومكراً إلى أشدها عنفاً وشراسة. كما يلعب فيها احترام الأشكال الشرعية للحق الداخلي والدولي، وتراعي فيها القيم الأخلاقية والإنسانية[٢]، مع محاولة خلق معارضة لجزء من الرأي العام الداخلي في بلد الخصم، بينما يُحرص على كسب الرأي العام الدولي، مع أكبر عدد ممكن من الحلفاء، ويستغل هذا المناخ في الأمم المتحدة مثلاً أو في مجتمعات ومؤسسات دولية أخرى، إلا أنه يستخدم بصورة خاصة كتهديد لمنع الخصم من المبادرة بعمل استباقي، كما يؤكد التهديد ويدعم بالانتقام سياسياً واقتصادياً إذا كان ذلك ضرورياً. وأخيراً. يلوح بالتدخل المباشر وبالأسلحة الذرية أيضاً.

إلا أنه لا يمكن استخدام كل هذه الطرق بفعالية إلا إذا تحقق الشرطان التاليان:

أولاً: أن تكوّن القوة العسكرية الرادعة (نووية أم تقليدية) تهديداً عاماً كافياً لشل ردود الفعل المحتملة. والشرط الثاني: أن تدخل الأعمال المتوقعة ضمن إطار خط سياسي

(٢) يلاحظ هنا التناقض الواضح مع فلسفة كلاوزفيتز التي رأيناها سابقاً.

مختار بشكل مناسب ليكوّن كلاً متماسكاً . فعلى سبيل المثال ، عندما تدخلت الولايات المتحدة في كوبا **بصورة غير مباشرة** في خليج الخنازير ، ارتكبت خطيئة بسيكولوجية لا تعتبر خطيرة في الاستراتيجية المباشرة ، إلا أنها كلّفتها غالياً في ميدان الاستراتيجية غير المباشرة . وعندما انسحبت فرنسا وإفريقية السوداء ، وأنهت استعمارها لها ، وأجلت قواتها من المغرب وتونس ، ارتكبت خطيئة بتمسكها بالجزائر .

وهكذا ينبغي أن يأخذ انتقاء الخط السياسي بعين الاعتبار الاتجاهات النفسية الراهنة ، والتطلع إلى السلم ، وتصفية الاستعمار ، وإرادة التحرر ، ورفع مستوى الحياة .. إلخ . كما ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار حساسية العدو ، ونقاط ضعفه ، بالإضافة إلى حساسية الشركاء ونقاط ضعفهم .

ويقودنا هذا غالباً إلى قيادة النزاع بصورة غير مباشرة وبواسطة (خصوم يشكلون طرفاً ثالثاً) . إن هذا التصور لا يخدع أحداً ، ولكنه أساسي من الناحية النفسية . ومن المؤكد أيضاً أن على الخط السياسي أن يتنبأ بكل الانعكاسات الممكنة للخصم ، وأن يشتمل بقوة على كل أعمال المجابهة الملائمة . وخلاصة القول إن على (الخط السياسي) أن يكوّن فكرة المناورة لخطة عمليات نفسية حقيقية فعالة ، بقوة خطة العمليات نفسها ودقتها في الاستراتيجة العسكرية .

ومن الجدير بالذكر هنا أن هتلر قد أعطى أبعاداً جديدة لاستراتيجية التقرب غير المباشر على الصعيدين النفسي والإداري ، وفي المجالين العسكري والمدني ، كما استخدم أسلحة فكرية استهدفت تدمير العدو من الداخل ، عن طريق الحرب النفسية التي كانت تستهدف شل الجهاز العصبي المعادي ، لأنه أقل كلفة من تدمير القوات العسكرية .

ــ مناورة الخرشوفة

تعتمد هذه المناورة ، التي يجب أن تطبق ضمن إطار استراتيجية ذات نفس طويل ، على تحقيق (**أمر واقع**) بسرعة كبيرة وعنف زائد ، مع إيهام العدو والرأي العام الدولي بأن الهدف محدود . لذلك تنفذ هذه المناورة بواسطة القوات المنقولة جواً والآلية المدرعة . وقد نجح هتلر نجاحاً كبيراً في تطبيق هذه المناورة وفي تقديم كل هدف من أهدافه المتتالية ، وكأنه الوحيد والأخير .

ومن الجدير بالذكر هنا أن إسرائيل تطبق هذه الاستراتيجية منذ زمن، حيث تتوسع على حساب الأرض العربية على وثبات متتالية مدروسة مسبقاً، منذ زمن طويل.

أساليب العمل والتدخل في الاستراتيجية غير المباشرة

منذ العام ١٩٣٥، والاستراتيجية غير المباشرة هي السائدة والمستخدمة بصورة دائمة ومستمرة، وهي تحقق الانتصار تلو الانتصار. فمع هتلر، ومن العام ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، اتخذت هذه الاستراتيجية الطابع الذي أسميناه (مناورة الخرشوفة) على حد تعبير الجنرال بوفر، وبعد مرحلة الاستراتيجية المباشرة من العام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥، استعادت الاستراتيجية غير المباشرة انطلاقها ودفعها السابق، تحت زخم السوفييت ودفعهم.

ويعود هذا الانتشار المتزايد لهذه الاستراتيجية إلى شروط الحرب الحديثة، فمنذ العام ١٩١٨، وبالتحديد منذ كارثة هيروشيما، والجميع مقتنعون بسوء استعمال الحرب الشاملة التي يودون تجنبها قدر المستطاع. إلا أن أولئك الذين تتضمن سياستهم تبديل الوضع القائم، استمروا في استخدام القوة بأشكال مختلفة. وهذا يقود بالضرورة إلى اللعبة الدقيقة للاستراتيجية المباشرة، التي يطبقها كل طرف حسب ظروفه (ومطامعه وأهوائه وإمكاناته).

ولا بدّ من التنويه هنا بأن الطابع الجديد لهذا الشكل القديم من الاستراتيجية قد أدهش الجميع وضللهم بصورة عامة. فالأفكار كانت مسممة بالعقائد الراديكالية للقرن التاسع عشر، حيث كان الإيمان عميقاً بالتمييز المطلق بين الحرب والسلم، ولم يكونوا يريدون في الغالب أن يروا في الاستراتيجية إلا لعبة من ألعاب السياسة. وبما أنهم لم يكونوا يصممون إلا على الحرب الكبرى أو لا شيء، فقد تركوا هتلر يتصرف بحرية طوال أربعة أعوام، ثم شنوا الحرب العالمية التي كانت سبباً في تدمير أوروبا وانهيارها، دون أن يدركوا أن باستطاعتهم التغلب على هتلر بالطرق التي كان يستخدمها. وفي العام ١٩٤٦، عندما بدأ الاندفاع السوفييتي يجدد التهديد، من وجهة نظر الغربيين، ردت الولايات المتحدة باستراتيجية فسرها الكثيرون بأنها **استراتيجية غير مباشرة** (وبخاصة مشروع مارشال). إلا أن الأميركيين ما لبثوا أن نقلوا جهدهم إلى الاستراتيجية المباشرة المستندة

على السلاح الذري، الأمر الذي قادهم إلى استراتيجية الردع، التي كان من نتائجها دفع السوفييت إلى تطوير مناورتهم في الاستراتيجية غير المباشرة أيضاً. وقد ظهر أن تأثير هذه الاستراتيجية كان عظيماً، فمن وضع التثبيت الذي كانوا فيه سنة ١٩٤٦ في إيران، اندفعوا إلى اليونان، ولم يخرجوا منها إلا في العام ١٩٥٠. وفي العام ١٩٤٨، تم الانتصار في الصين. وفي العام ١٩٤٩، تحقق النصر في براغ. وفي العام ١٩٥٠، وقعت أحداث كوريا، والتدخل في الهند الصينية. وفي العام ١٩٥٣، تم الاندفاع **غير المباشر** نحو الشرق الأوسط. وفي العام ١٩٥٤، اشتعلت إفريقية الشمالية (المغرب العربي). وفي العام ١٩٥٩، تفجرت كوبا. وفي العام١٩٦٠ ثارت الكونغو. كما تفجرت أنغولا في العام ١٩٦١. وهكذا حقق الاتحاد السوفييتي خلال خمسة عشر عاماً، نجاحات لم يكن ليحققها في انتصار كبير. ولا بدّ من التمويه هنا بأهمية حركات التحرر الوطني والاتجاه العام في كل هذه المناطق إلى التحرر من الاستعمار. وإذا كان الاتحاد السوفييتي قد استفاد (استراتيجياً وسياسياً) من هذه الحركات، إلا أنه دعمها وساندها أيضاً، إيماناً منه بحتمية التحرر، وباتجاه التاريخ إلى وحدة الشعوب وحريتها.

إن الرعب النووي بالإضافة إلى تركة (يالطا)[٣] يفرض الآن على الدولتين الأعظم حداً للأعمال العدوانية، كما يردعهما عن اللجوء إلى استراتيجية المجابهة المباشرة، والاكتفاء بالاستراتيجية غير المباشرة. والحقيقة أن الاستراتيجية غير المباشرة تكوّن، كما ذكرنا آنفاً، جزءاً لا يتجزأ من الفن العسكري منذ أقدم العصور، فكلما كانت المجابهة الجبهية، أو الهجوم المباشر، غير ممكنة، أو تشكل مجازفة كبرى، كانت الاستراتيجية غير المباشرة تقضي باللجوء إلى أساليب (ملتوية) لتوجيه الضربة إلى العدو برغم كل شيء.

أما سجل هذه الأساليب الملتوية فواسع جداً، حيث يشمل ليس فقط الأعمال العسكرية عن طريق الوسطاء الآخرين، أو على مسارح غير المسرح الرئيسي، بل يشمل كذلك الأعمال السياسية والاقتصادية والنفسية أو الأيديولوجية المختلفة. وها هي الساحة الدولية تقدم لنا عدداً كبيراً من الأمثلة في الشرق الأوسط وفييتنام وكوريا وأفغانستان والخليج وغيرها...

(٣) مؤتمر يالطا: هو الذي وزع مناطق النفوذ بين العملاقين.

لا بد لتطبيق الاستراتيجية غير المباشرة وقيادتها من التقيد ببعض القواعد التي يمكن تلخيصها بالآتي :

١ ــ احترام بعض العتبات والسقوف، وعدم المس بالمحرمات .
٢ ــ المحافظة على الاتصالات، والتنبؤ ببعض المؤشرات والدلائل الخطرة .
٣ ــ القبول بخسارة بعض (البيادق) في بعض الحالات .
٤ ــ في حالة الغزو، عدم الإمعان في إذلال الخصم، بل السماح له بحفظ ماء الوجه .

على هذه الأسس الهامة تستند قيادة الاستراتيجية غير المباشرة. لذلك لا بدّ من التحدث عن كل منهما بأقصى ما يمكن من الإيجاز :

١ ــ بالنسبة للدولتين الأعظم مثلاً يشكل الرعب النووي وتوزع مناطق النفوذ **العتبات والسقوف والمحرمات** مما يتعلق بممارسة الاستراتيجية غير المباشرة. إلا أن هناك **عتباتٍ وقيوداً كثيرة أخرى، من منا لم يستغرب مثلاً التحفظ وضبط النفس اللذين** أبداهما الأميركيون في البحر خلال حرب فييتنام؟

لقد كان لديهم القدرة بلا منازع على منع وصول أية إمدادات بحرية إلى فييتنام الشمالية. فلماذا إذن سكتوا ست سنوات دون أن يتدخلوا في خليج تونكين؟

٢ ــ المحافظة على الاتصالات : وهذا أمر حيوي جداً. ويشكل (الهاتف الأحمر) في الوقت الراهن استمرار الاتصالات بين الخصمين. تضاف إلى ذلك المعاهدات كتلك التي تتعلق بالحوادث البحرية بين الروس والأميركيين، والتي من شأنها تجنب الأخطاء وسوء الفهم، أو تدارك الأمور قبل استفحالها.

٣ ــ القبول بخسارة بعض البيادق : وهذه قاعدة يعرفها جيداً كل لاعب شطرنج وكل استراتيجي في العالم. فقد خرجت أميركا من فييتنام، كما سحب الروس صواريخهم من عرض البحر بعد أن كانت في طريقها إلى كوبا، كما خرجوا من مصر وغينيا، ولا تزال اللعبة مستمرة.

٤ ــ عدم الإمعان في إذلال الخصم : لا شك في أن أزمة الصواريخ في كوبا

تعتبر خير مثال على ذلك، حيث اعتبر الغربيون حل الأزمة انتصاراً لهم، بينما لا يزال كاسترو في مكانه، كما تم سحب الصواريخ الأميركية أرض ـ أرض من تركيا.

في الاستراتيجية غير المباشرة، **تكون الغلبة دائماً لمن يستطيع، كالاتحاد** السوفييتي، اتباع سياسة ذات نفس طويل ومدى بعيد، مع الاستفادة من الاستمرارية، ووحدة وجهات النظر، والمحافظة على السر والأيديولوجية العالمية. أما المعسكر الغربي، فلا بد أن يلاقي صعوبات جمة بسبب انقسامه، وعدم استقراره، وتضارب مصالحه.

تسمح الاستراتيجية غير المباشرة **بالإعراب عن إرادة** التوسع أو إرادة الدفاع عن **الشعوب، كما تسمح باختيار حيوية بلد ما وتصميم قادته. ولا من شك في أن استراتيجية** الردع النووي تستمد مصداقيتها من التطبيق الجيد للاستراتيجية غير المباشرة في الزمان والمكان المناسبين.

من خلال التحليل المستمر للمعارك الحاسمة في التاريخ، قديمة وحديثة، يتبين أن الهجوم غير المباشر يتمثل في الأمور التالية:

١ ـ احتلال موضع يهدد مجنبة الخصم مادياً ويؤثر عليه معنوياً.
٢ ـ اجتياز النقاط المحصنة والالتفاف حولها وعدم الاشتباك معها.
٣ ـ الاعتماد على المعطيات النفسية أكثر من الاعتماد على العوامل الإدارية.
٤ ـ عند مهاجمة العدو، خلق ثغرة في نقطة تمفصل حساسة في ترتيبه الهجومي أو الدفاعي، بغية تفتيته وتجزئة قواته وعزلها عن بعضها.

ويعترف ليدل هارت بأن بقاء الامبراطورية البيزنطية وصمودها عدة قرون مدين لهذه المبادىء التي طبقتها جيوشها.

لا يتسع المجال، في فصل واحد من كتاب، لسرد معارك حاسمة مفصلة من التاريخ القديم والحديث، تم إحراز النصر فيها بفضل الاستراتيجية غير المباشرة، أو الهجوم غير المباشر. إلا أننا سنكتفي بالإشارة إلى أهم هذه المعارك التي يمكن الرجوع إليها من كتب التاريخ المختلفة، والتي تدرس عادة في معظم الكليات والمدارس العسكرية:

ـ من هذه المعارك غزو (هانيبعل) لإيطاليا سنة ٢١٨ ق.م عبر قمم جبال

الألب. لقد اختار هانيبعل طريقاً صعباً طويلاً شديد الوعورة، وهو يقود جيشاً من الفيلة. وهكذا استطاع تحقيق نصر كبير عن طريق **المفاجأة** التي أمنها له التقرب غير المباشر.

ــ كذلك كان **الاسكندر المقدوني** يطبق في معاركه المتعددة أسلوب إثارة التوتر النفسي والبلبلة في صفوف أعدائه، دون أن يحاول إفناءهم، مما دفع قياداتهم لاتخاذ قرارات خاطئة يستغلها لصالحه.

ـانتصر القائد الشهير بيليزير[٤] في معركة (داراس) التي كانت أول هزيمة للفرس أمام البيزنطيين. ويعزى انتصاره هذا إلى استغلال النقطة الضعيفة الواقعة بين قلب جيش الفرس وجناحه، عندما تقدمت خيالة الفرس على الجناح الأيمن للبيزنطيين وبقي قلب القوات الفارسية ثابتاً، فاستغل بيليزير نقطة الضعف هذه وقام بهجوم معاكس على نقطة التمفصل الضعيفة في هذا الترتيب الهجومي فانتزع النصر.

ــ اشتهر جنكيز خان بحركاته التي تميزت بسعة المناورة والمفاجأة والهجوم غير المباشر الاستراتيجي والتكتيكي، والتي تمكن بواسطتها من تحطيم الوحدة العسكرية والنفسية لامبراطورية كين في الصين سنة ١٢٢٠م.

ــ وفي القرن السابع عشر، برز كرومويل[٥] باستراتيجية في الهجوم غير المباشر وقتاله على مؤخرات العدو، وقلب ميزان القوى لصالحه برغم قلة إمكاناته. وقد استطاع الانتصار على خصمه ليسلي مستغلاً الظروف الجوية السيئة في ليل عاصف ممطر، فدمر جيشاً أقوى من جيشه بكثير، بواسطة الهجوم التكتيكي غير المباشر.

أما نابليون بونابرت، الذي استشهد به كلاوزفيتز كثيراً لنشر عقيدته عن الاستراتيجية المباشرة، فكان يلجأ في كثير من الأحيان إلى الهجوم غير المباشر، كلما

---

(٤) بيليزير: (٤٩٤ــ٥٦٥) قائد بيزنطي، انتصر على الفرس والفاندال والقوط الشرقيين.

(٥) كرومويل: (١٥٩٩ــ١٦٥٨) جهز جيشاً هزم به القوات الملكية البريطانية وأعدم شارل الأول وأخضع ايرلنده واسكتلنده ثم تسلط على الحكم كدكتاتور باسم حامي حمى الدولة.

سنحت له الفرصة . ومن الغني عن الذكر أن نابليون قد اشتهر بالمرونة والحركة والسعي للالتفاف على المؤخرات ، والبحث عن المفاجأة ، وعن النقطة الضعيفة في ترتيب دفاع العدو ، لفتح ثغرة فيها . ويقول ليدل هارت إن أهم فكرة أدخلها نابليون على الاستراتيجية غير المباشرة هي فكرة (السد الاستراتيجي) الذي أقامه خلف الجيش النمساوي في منطقة حصينة في إيطاليا ، بعد أن التف على مؤخرته .

ولعل الالتباس الذي أدى إلى سوء فهم استراتيجية بونابرت يعود إلى حرصه الدائم على تركيز جهوده (على نقطة واحدة) كما كان يقول . فقد فسرها كلاوزفيتز بأنها أقوى نقطة ، بينما يؤكد ليدل هارت بحق أنها النقطة الأضعف أو نقطة التمفصل . إلا أن هذا لم يكَن قاعدة ثابتة ، لأن بونابرت لم يكن يحب التقيد بالقواعد ، ولأن النقطة الضعيفة قد تترك هكذا عمداً لاستدراج المهاجم إلى فخ نصب بإحكام . والحقيقة أن بونابرت لم يكن من أنصار هذه الاستراتيجية أو تلك ، بل كان رجلاً عملياً يطلق لعبقريته العنان حسب كل موقف ومستجداته .

ــ **وفي الحرب العالمية الأولى** ثبت عقم الاستراتيجية التي تعتمد على الهجوم المباشر ، وبخاصة إذا كانت القوات متكافئة أو شبه متكافئة . ولا أدل على ذلك مما سمي (بحرب الخنادق) أو (بالحرب المضحكة) . كما أثبتت أن الهجوم المباشر المدعوم بتفوق **ساحق بالمدفعية قد يحقق اختراق مواقع العدو إلا أنه غير قادر على تدميره في كثير من** الأحيان ، كما يكلف المهاجم غالياً . كذلك أثبتت الحرب العالمية الأولى ، في نهايتها ، صحة درس قديم ، وهو أن هدف الحرب الحقيقية يجب أن يكون الروح المعنوية لقادة الأعداء ، وليس أجساد جنودهم . فقد استسلمت ألمانيا وحلفاؤها أخيراً عندما انهارت قيادتها ، وعجزت عن صد حركة استراتيجية متوقعة بالرغم من أن قواتها لا تزال سليمة .

ــ **وفي الحرب العالمية الثانية ،** وسع هتلر استراتيجية الهجوم غير المباشر قبل الحرب وفي أثنائها ، (أعطاها أبعاداً جديدة على الصعيدين النفسي والإداري وفي المجالين العسكري والمدني) .

فعندما هاجم هتلر فرنسا ، تحركت مجموعة جيوش (فون بروك) ، التي تشكل الجهد الرئيسي ، باتجاه كثير من التضاريس ، مليء بالغابات وغير متوقع من الفرنسيين .

وعندما اخترقت هذه القوات ثغرة (سيدان) المعروفة، غيرت اتجاهها بشكل بلبلت معه أفكار القيادة الفرنسية حول الاتجاه الحقيقي لهذه الجيوش.

وقد أعطت **الحرب الآلية** مجالاً واسعاً لسياسة الهجوم غير المباشر في الحرب العالمية الثانية:

فمعارك هتلر في بولونيا كانت معارك هجوم غير مباشر، ومناورات من اتجاهات غير متوقعة. وفي الهجوم على فرنسا، قام مانشتاين بتغيير محور جهده الرئيسي من بلجيكا الوسطى إلى منطقة (الأردين) الجبلية والتي كان الفرنسيون يتصورونها غير صالحة لتقدم المدرعات. كذلك استسلمت هولندا وجبهتها الرئيسية ما زالت سليمة تماماً. أضف إلى ذلك لجوء الألمان إلى استخدام القوات المحمولة جواً خلف خطوط العدو، وبخاصة لاحتلال الجسور والمحافظة عليها.

وتبرز أهمية الهجوم غير المباشر في حركات غودريان حين اجتاز نهر الموز ثم وسع رأس الجسر، فلم تستطع التكهنات معرفة هدفه النهائي، أهو باريس أم شواطيء المانش.

وكانت الحرب في روسيا تتضمن حركات غير مباشرة لمانشتاين، إلا أنها برهنت على أن هناك حدوداً لا يمكن تجاوزها من قبل استراتيجية هجومية، تنفذ بوسائط محدودة في ساحة عمليات غير محدودة.

وإذا رجعنا إلى التاريخ العربي، نجد أن العرب قد تمرسوا في فن الاستطلاع قبل المعركة وفي أثنائها منذ الجاهلية، وعرفوا المفاجأة الاستراتيجية والتكتيكية، كما اتقنوا أساليب المناورة والخداع. **فموقعة ذي قار**، قبل الإسلام، والتي دارت بين العرب والفرس، انتصر فيها العرب انتصاراً رائعاً بفضل التكتيك غير المباشر، في وقت لم يكن هناك فرق بين الاستراتيجية والتكتيك. لقد أعد العرب لهذه المعركة الجيش إعداداً نفسياً ومعنوياً رائعاً، حيث اتصلوا قبل بدء المعركة، بالقبائل العربية العاملة مع الفرس، وأثاروا حميتها ونخوتها، وأغروها بالتخلي عن الفرس فور احتدام القتال. وقد برّت قبيلة اياد بوعدها، وانسحبت من المعركة في الوقت الحرج، مما ضمن النصر للعرب، وحطم هيبة الأكاسرة في الجزيرة العربية.

ويعتبر **خالد بن الوليد** من أعظم القادة في استراتيجية الهجوم غير المباشر. ففي

معركة أحد، التي انتصر فيها المسلمون في المرحلة الأولى، انتصر خالد في النهاية بسبب خطأ المسلمين، ومخالفتهم لتعليمات الرسول عليه الصلاة والسلام، وبفضل حركة الالتفاف الرائعة التي قام بها حول جيش المسلمين ومهاجمته لهم من الخلف.

وفي معركة مؤتة، نعرف جميعاً كيف عمد خالد بن الوليد، الذي استلم قيادة جيش المسلمين وفي وقت حَرِجٍ بعد مقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، إلى إعادة ترتيب المسلمين القليلي العدد (ثلاثة آلاف)، تحت ستار الليل، حيث وضع الميمنة مكان الميسرة والميسرة مكان الميمنة، ووضع المؤخرة مكانَ المقدمة والمقدمة في مكان المؤخرة، كما وضع خلف الجيش مجموعة من الجنود يثيرون الغبار ويحدثون جلبة عند طلوع الصباح. وتمكن بذلك من خداع جيش الروم الهائل (مئة ألف رجل+ مئة ألف من قبائل لخم وجذام والين وبهراء) بقيادة هرقل، وأمن انسحاب جيشه وإنقاذه من فناء مؤكد.

خشي الروم اللحاق به خوفاً من كمين مبيت. وهكذا استطاع هذا القائد المحنك أن يخدع جيشاً أكبر منه بثمانين مرة، وأن يثبت ويؤمن انسحاباً استراتيجياً رائعاً يعتبر نصراً مؤزراً.

وعندما أرسله الخليفة أبو بكر لنجدة الشام من العراق، أخذ يفتش عن طريق متوقع يخرج فيه من وراء جموع الروم. وهكذا قام بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو، فاجتاز وادي سرحان عبر الصحراء مسافة مئتي ميل، إلى أن وصل إلى تدمر فالغوطة فبصرى، وكان وصوله مفاجأة استراتيجية رائعة نتيجة حركة يمكن اعتبارها من أبرع حركات التقرب غير المباشر في التاريخ.

وفي معركة اليرموك، وقبل المعركة الرئيسية، كان عمرو بن العاص وحيداً في بئر السبع، حيث عزم الروم على القضاء على جيشه منفرداً. إلا أن قوات العرب المسلمين اختفت فجأة من منطقة اليرموك، وراحت تغذُّ السير ليلاً ونهاراً لنجدة عمرو بن العاص. وفوجىء الروم بتدفق المسلمين عبر وادي عربة إلى سهل بئر السبع، حيث وقعت معركة أجنادين التي مني فيها الروم بهزيمة ساحقة. وهكذا جاءت هذه المعركة كمقدمة

نفسية ومادية لمعركة اليرموك ، حطمت مخططات العدو الهجومية المعاكسة ، ولم يبق أمام العرب سوى التصدي لحصن اليرموك .

اشتد القتال أمام حصون اليرموك إلى أن تمكن خالد بن الوليد ، بحركة بارعة ، من فصل مشاة الروم عن خيالتهم ، إذ أفسح الطريق للخيل كي تفر أمام ضغط المسلمين ، فعادت مشاة الروم إلى الخندق وهي محرومة من دعم الخيالة ، فالتف عليهم العرب فولوا هاربين في وادي الرقاد ، أو هوة الواقوصة . وهكذا تم الهجوم غير المباشر ، الاستراتيجي والتكتيكي ، وكانت هذه المعركة حاسمة في التاريخ ، لأنها فتحت أبواب سورية أمام الزحف العربي الإسلامي .

ـ استنتاجات عامة عن الاستراتيجية غير المباشرة

تعتبر الاستراتيجية غير المباشرة ، كالاستراتيجية المباشرة ، قديمة قدم التاريخ ، كأسلوب محدود من أساليب الحرب الشاملة . أما مظاهرها الحديثة وشيوعها الكبير ، فيعزيان إلى استحالة قيام حرب كبرى في الوقت الحاضر من الناحية العقلانية على الأقل . لذلك يعتبر دورها متمماً لدور الاستراتيجية النووية المباشرة ، فالاستراتيجية غير المباشرة هي الدواء الشافي إلى حد ما للاستراتيجية النووية ، كما يقول الجنرال بوفر . فبقدر ما تتطور الاستراتيجية النووية وتتوصل إلى تعزيز الردع الشامل بالتوازنات غير الثابتة التي تقيمها ، يزداد استخدام الاستراتيجية غير المباشرة ، ويتخذ السلم شعار (الحرب الباردة) .

وليست الاستراتيجية غير المباشرة استراتيجية خاصة متميزة ذاتياً عن الاستراتيجية المباشرة ، بالرغم من كل مظاهرها الخاصة والمحيرة أحياناً . فمفتاحها هو (**حرية العمل**) ، كما هي الحال في أية استراتيجية أخرى . إلا أن طريقة الحصول على هذه الحرية بالأمن والمبادهة هي التي تختلف في الاستراتيجية غير المباشرة عنها في الاستراتيجية المباشرة ، لأن هامش حرية العمل يرتبط بالمناورة الخارجية وليس بالمناورة الداخلية . وهذه هي الميزة الخاصة التي تعطيها الطابع غير المباشر .

لذلك يرى الجنرال بوفر أن الأمن (أي هامش حرية العمل) يرتبط بعوامل المناورة الخارجية . فكل تعرض للخطر يقدم ممسكاً للخصم ، وكل تعرض معاد للخطر يتيح

إمكانية التهديد بالانتقام. فالعمل الحقيقي للاستراتيجية غير المباشرة، ينبغي أن يجري ابتداء من الأعمال التمهيدية التي تتقدم الحدث. فإذا جرى العمل غير المباشر بعد مستوى التمهيد كان متأخراً.

ولهذا وجب إجراء المجابهة غير المباشرة لصالح الأمن بسرعة ودون إبطاء. وهكذا فإن الاستراتيجية غير المباشرة هي التطبيق العملي لقانون الاستراتيجية العام على قيم بعيدة، لبعض العناصر المتحولة، كالقوة (المتناقصة إلى الحد الأدنى)، والزمن (المتزايد بشكل ملحوظ). والحقيقة أن القانون العام المبسط للاستراتيجية يمكن تمثيله كقانون اينشتاين بالشكل التالي:

س=ك . ق . م . ز، حيث تمثل (س) الاستراتيجية، (ك) العامل الخاص للحالة الخاصة، (ق) القوى المادية، (م) القوى المعنوية، (ز) الزمن. وفي الاستراتيجية المباشرة يكون عامل القوى المادية (ق) سائداً، بينما العامل (م) أقل أهمية، والعامل (ز) صغيراً نسبياً. أما في الاستراتيجية غير المباشرة فإن الأهمية النسبية للعوامل المتحولة تكون معكوسة، إذ يصبح فيها العامل (ز) أكثر العوامل أهمية.

ولا شك في أن العامل النفسي والمعنوي يظل موجوداً في كل استراتيجية، ويلعب فيها دوراً حاسماً. والغرض هو استبدال القوة المادية الناقصة بقوى إيديولوجية متينة، واستبدالها أيضاً بقوة التوحيد بين مختلف القوى. هذه القوى الناتجة عن حساب عقلاني ودقيق. والخلاصة، أن العقل يحل محل القوة. إلا أنه ينبغي ألا ننسى أن وجود القوى ضرورة حتمية في لعبة الاستراتيجيتين المباشرة وغير المباشرة. فدون قوة لا توجد استراتيجية. وفي العصر النووي، ترسم القوة النووية الإطار العام وحدود الردع التي يجب على الاستراتيجية غير المباشرة أن تتطور ضمن إطارها. في هذه اللعبة الدقيقة والبعيدة في أغلب الأحيان عن الحرب الحقيقية التقليدية، يبدو استخدام القوة للبعض خطأ لا يقبله العقل. وهذه نظرة خاطئة وخطرة، فليست في حد ذاتها جيدة أو سيئة، لأن تقويمها يتعلق بالقضية التي تخدمها، وبالسياسة التي تحركها.

قد يبدو هذا الاستخدام الدقيق للقوة أحياناً وكأنه مجال من مجالات السياسة، مما يدفع بعضهم للاعتقاد بأن الاستراتيجية غير المباشرة يجب أن تقاد من قبل رؤساء

الحكومات . إلا أن اعتبار الاستراتيجية غير المباشرة كسياسة ، يدل في الواقع على حدوث التباس خطير ، فللسياسة دور تعيين الأهداف وتحديد حجم الوسائط الواجب تكريسها لكل هدف ، وعليها كذلك أن تقرر أفضل استراتيجية لبلوغ الهدف ، غير مباشرة أم سواها . إلا أن قيادة هذه الاستراتيجية ليست للسياسة مطلقاً ، بل هي للتعاون الوثيق المدروس بين السياسيين والعسكريين . لذلك لا بد للطرفين من إتقان أصول لعبة الاستراتيجية بشكل عام ، والاستراتيجية غير المباشرة بشكل خاص .

ولا بد من التنويه أخيراً بأن الاستراتيجية لا تدار كلعبة الشطرنج بأحجار ذات قيمة ثابتة ومحددة .

فحلولها أشبه بالطاهي الذي ينبغي عليه مزج المواد وهي في حالة تحول دائم .

وتستخدم الحرب أو الصراع قوى مادية تتأثر بعتاد العصر ، بالإضافة إلى قوى معنوية ، ترتبط بالأفكار السائدة والحضارة القائمة . وينتج عن ذلك أن الاستراتيجية هي **اختراع دائم** ، يستند إلى فرضيات ينبغي التحقق منها في أثناء العمل . وهنا تكمن أكبر صعوبة للاستراتيجية ، وبخاصة في عصور التطور السريع كما هي الحال في عصرنا الحاضر .

استنتاجات عامة

١ ـــ تحديد الأشكال الاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة

ينص تعريف الاستراتيجية الشاملة على أنها « في حوار الإرادات التي تستخدم القوة لحل النزاع » . ولا تمثل القوة هنا القوى العسكرية المستخدمة في العمليات الحربية فحسب ، بل تشمل استخدام القوى العسكرية بمجرد وجودها ، أي التهديد الكامن فيها ، كما تشمل استخدام جميع الوسائل غير العسكرية ، والقادرة على قهر العدو . وهكذا نجد أنفسنا مجبرين على تصنيف أشكال الاستراتيجية حسب دور القوة فيها ، **بدءاً** من الوسائل والأساليب الخداعية ، **وانتهاء** بأشد الأساليب عنفاً .

لذلك اكتفى بعض المحللين بتقسيم هذه الأشكال إلى صنفين كبيرين ، تلعب

القوة العسكرية في أولهما دوراً رئيسياً ، في حين لا تلعب هذه القوة في الثاني إلا دوراً ثانوياً أو مساعداً . ولقد أطلقوا على الأول اسم **الاستراتيجية المباشرة** (أي الاستراتيجية الشاملة التي يغلب عليها الطابع العسكري) ، وأطلقوا على الثاني اسم **الاستراتيجية غير المباشرة** ، بينما رأينا آنفاً أن ليدل هارت قد اعتبر **الهجوم غير المباشر** استراتيجية غير مباشرة ، **والهجوم المباشر** استراتيجية مباشرة . وقد أيده في ذلك كثيرون . لقد شرحنا بصورة وافية هذه النظرية الثانية ، لذلك وجدنا من المفيد التوسع بعض الشيء في دراسة النظرية الأولى وترك باب المقارنة مفتوحاً أمام القارىء علماً بأن الفارق بين النظريتين بسيط ودقيق .

يعتقد أصحاب النظرية الأولى ، وفي طليعتهم الجنرال اندريه بوفر ، أن المقياس هنا هو بالأهمية التي تتمتع بها القوة العسكرية ضمن إطار العمل ، فالاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة إذن هما عبارة عن (شكلين) مختلفين من أشكال الاستراتيجية الشاملة يتعايشان ويتكاملان كالنغمين الأعلى والأدنى للموسيقى .

٢ ــ العمل بالاستراتيجية الشاملة المباشرة

تبني الاستراتيجية الشاملة المباشرة على عملية البحث عن الحسم مع استخدام التهديد بالقوة العسكرية كوسيلة أساسية . ولقد أدى هذا الاستخدام إلى الوصول ، عند تحليل مستوى القرارات السياسية ، لاستنتاج عام يقول: إن القوة العسكرية تمثل أنجح الوسائل وأكثرها جدوى . ويستند هذا الاستنتاج إلى وجود تفوق عسكري واضح ، أو إمكانية تحقيق هذا التفوق . كما يستند إلى أن الوسائل الأخرى لا تتمتع بفاعلية كافية .

وتنطبق هذه الحالة مع وضع ألمانيا عندما جابهت بولونيا سنة ١٩٣٩ . ولكن لا بد من التأكيد فوراً على أن استخدام القوة العسكرية في جميع الحالات لا يمثل إلا جزءاً من العمل ، وأن على العمل الشامل أن يعد ويساعد ويستثمر النتائج التي يمكن أن تنجم عن العمليات العسكرية ، مستخدماً لذلك الوسائل الملائمة في المجالات النفسية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية . هذا هو مضمون إدارة هذا العمل المتكامل الذي يشكل الاستراتيجية الشاملة المباشرة . وبما أننا ننتظر أن يؤدي نجاح العمليات العسكرية إلى الحسم ، فإن علينا أن ننظم كل شيء لتحقيق هذا النجاح . وهذا يعني أن علينا البحث قبل كل شيء عن الوسيلة التي تصل العمليات العسكرية بها إلى النجاح الأمثل .

أ ــ فكرة العمل العسكري

إن على فكرة العمل العسكزي أن تنطلق قبل كل شيء من **الهدف السياسي** للعمل المتوقع، إذ يحدد هذا الهدف صفة العمل الهجومية أو الدفاعية، وطبيعة النتائج المرجوة وهل هي هامة (كاستسلام العدو بشكل كامل)، أم متوسطة (كالأهداف الحدودية)، أم صغيرة (كالضربة التأخيرية).

بعد تحديد الهدف السياسي، وحساب إمكانات الخصم وقدراته، يمكننا اختيار الهدف العسكري الواجب بلوغه، وتحديد الحالات المختلفة فيما إذا كان على العمل أن يكون مطلقاً نسبياً، وقد يكون الهدف ــ حسب عقيدة كلاوزفيتز ــ تحطيم القوات المعادية، أو الوصول إلى هدف جغرافي (كالعاصمة مثلاً) يتمتع بأهمية سياسية أو اقتصادية أو معنوية كبيرة، أو احتلال منطقة ذات مساحة كافية، واستخدامها كورقة للمساومة، أو كسب الوقت عن طريق إجراء مظاهرة للقوة وعرض العضلات.

ما إن يتم اختيار الهدف العسكري، حتى يصبح من الممكن استنتاج الوسائل العسكرية اللازمة لتحقيقه. وتدخل تفصيلات هذا العمل في مجال الاستراتيجية العسكرية البحتة التي لا نريد بحثها هنا. ولكن الصفات العامة لمناورة الاستراتيجية الشاملة تفرض على الاستراتيجية العسكرية إطاراً لابد من تحديده بوضوح تام، إذ ينبغي تحديد ما إذا كان على العمل أن يتصف بالسرعة أم لا، وما مستويات العمل العسكري المقبولة سياسياً. وهذه أسئلة تتمتع بأهمية بالغة.

ب ــ فكرة المناورة في الاستراتيجية الشاملة المباشرة

يقسم العمل العسكري، الذي هو الأساس هنا، إلى ثلاث مراحل: الإعداد، والتنفيذ، واستثمار النصر.

ــ يعتبر إعداد القوة العسكرية أهم الأمور في مرحلة الإعداد. وقد يكون هذا العمل سهلاً في بعض الحالات، إلا أنه يتصف في حالات أخرى بطول مدته وكثرة تكاليفه، وبخاصة إذا كان علينا صنع أعتدة أو معدات كثيرة ومعقدة. كما أن من الضروري إعداد الرأي العام الوطني ليكون مستعداً لتقبل فكرة الصراع وما يتطلبه من

تضحيات، كما يجب إعداد الرأي العام العالمي وإقناعه بشرعية العمل الذي نزمع القيام به.

إن هذا العمل المبني على تحليل جيد للدوافع السياسية الخاصة بالدول صاحبة العلاقة يستهدف عزل الخصم دبلوماسياً، عن طريق عقد معاهدات وأحلاف، تصل إلى درجة اقتسام بلد من البلاد (كاقتسام بولونيا في العام ١٩٣٩)، أو إلى استغلال المنطلقات الفكرية المساعدة التي تدغدغ الميول العقائدية (كالدفاع عن حرية الشعوب أو مكافحة الأمبريالية أو الدفاع عن الديمقراطية.. إلخ)، مع إعطاء المحايدين ضمانات تؤمن لهم حيادهم أو إرضاءهم بشتى الوسائل. من هنا نرى أن مرحلة الإعداد مرحلة رئيسية يعتمد عليها نجاح العمل كله.

ــ تستفيد **مرحلة العمل العسكري** (التنفيذ) من كل هذه الإعدادات وسواها لكي تحقق الهدف السياسي المرسوم بأكبر قدر ممكن من الحسم، وبأسرع ما يمكن مستفيدة من أقصى ما يمكن تقديمه لها من وسائط. ومن الضروري في هذه الفترة بذل الجهود المتزايدة في المجالات غير العسكرية، لأن الخصم لن يقف مكتوف الأيدي، بل سيسعى جاهداً لاستعادة قواته العسكرية وتأمين الدعم من كل نوع، ولفصم عرى تحالفنا مع الآخرين، والتأثير على المحايدين أو أهمهم لجرهم إلى صفوفه. لذلك وجب علينا دراسة الدعم الذي يمكنه الحصول عليه، وبخاصة إذا تأخر النجاح، وما هي النتائج السياسية لأي فشل؟ أو لتدخل واسع تقوم به دولة وقفت حتى الآن على الحياد؟ وما ردودنا على كل هذه الاحتمالات؟ ثم ما التعديل الذي ينبغي إدخاله على دوافعنا السياسية لنحصل على الدعم الأقصى؟ هذه هي بعض الأسئلة التي تحدد مخططات العمل الاحتياطية الضرورية على الصعيدين العسكري والسياسي.

ــ إذا تكللت جهودنا بالنجاح. بقي علينا أن نحسن الاستفادة من مرحلة استثمار النصر التي يتم فيها تحقيق الحسم المطلوب. وعلينا في هذه المرحلة أن نعود إلى الهدف السياسي المنشود، حتى لا نسكر بخمرة الفوز، وننجرّ على حلول وسط تفرض علينا. لذلك لا بد من القول هنا بأن الشروط المفروضة تنجح إذا كانت معتدلة، ولا تسبب جروحاً دائمة، ستكون في المستقبل سبباً لصراعات جديدة. ولا شك في أن على العمل السياسي والنفسي أن يستمر بفعالية، للإفادة من كل مصادر الدعم الممكنة.

أضف إلى ذلك أن هذا النصر سيعدل التوازن السياسي، فما النتائج المحتملة لذلك؟ وما دوافعنا الجديدة ومواقفنا المقبلة؟ وما التدابير الناجمة التي تلائم هذه التغيرات؟..

وهنا لا بدّ من العودة إلى دراسة احتمالات مناورة الخصم المتبدلة القادرة على تغيير المواقف. فبالرغم من هزيمة العدو على صعيد الاستراتيجية الشاملة المباشرة، فإنه بوسعه أن يستعيد قواه بوسائل استراتيجية غير مباشرة، كالمقاومة وحرب العصابات، والتوجيه إلى الضمير العالمي، وتفتيت الرأي العام داخل معسكر المنتصر نفسه، وتدخل دول قوية تتعاطف معه، أو يؤدي انتصارنا إلى الإضرار بمصالحها.

ج ـ قيادة الاستراتيجية الشاملة المباشرة وحدودها

ما إن يبدأ العمل حتى يصبح من الواجب إعطاؤه أكبر سرعة وأشد عنف، بغية تحقيق الأهداف العسكرية بأسرع ما يمكن، وخلق أمر واقع دولي. وتزداد صعوبة تحقيق هذا الأمر يوماً بعد يوم، نظراً لتزايد ارتباطات الشعوب وتزايد تأثير الرأ العام. فإذا ما تأخر العمل عن تحقيق غاياته، أعطينا العدو فرصة لاستنفار كل دعم ممكن، وإطالة أمد المقاومة، وجر العملية إلى حقل الاستراتيجية غير المباشرة. عند ذلك يتعثر الصراع ويفقد قدرته على الحسم، وينقلب إلى الاستنزاف الذي يؤدي إلى الملل والإرهاق. وفي هذا فشل للمناورة المباشرة.

ولاشك في أن لاختيار الوسائل العسكرية أهمية كبرى. ومن الضروري استخدام وسائل سريعة قادرة على المناورة الديناميكية. وأفضل وسائل تلبي هذه المتطلبات هي الطائرة وحاملة الطائرات والحوامة والقطعات المحمولة جواً.

وتزداد أهمية الشرط السابق إذا عرفنا أن العمل المباشر يجد نفسه غالباً حبيس حدود ضيقة جداً، تتمثل بالحدود المفروضة من قبل الردع النووي، والتي تفرض علينا إبقاء العمل دون مستوى عتبة معينة، مع تحاشي النتائج الباهرة القادرة على تصعيد العملية على المستوى الدولي، أو إجبار الخصم على المقاومة المستميتة. وسنرى فيما بعد أن هذا الاعتبار هو الذي يجعل الكثيرين يفضلون العمل غير المباشر على العمل المباشر.

وهناك حدود أخرى، إذ تستطيع ظروف الصراع المحلية (تقنية كانت أم سياسية) منع بعض أشكال العمل العسكري، وجعل العمليات أقل قدرة على تحقيق الحسم

السريع . وفي هذه الحالة يكون العمل المباشر معرضاً لكثير من المعوقات . تزيد كل هذه القيود من صعوبة العمل بالاستراتيجية المباشرة . والحقيقة أن من أواخر الأعمال التي تمت بهذا الشكل هي العدوان الثلاثي على مصر في العام ١٩٥٦ ، والذي انتهى بالفشل برغم حجم القوات المعتدية ووزنها الدولي . وإذا كانت الأوضاع والظروف الراهنة غير ملائمة للاستراتيجية المباشرة ، فإن من المحتمل تبدلها في المستقبل بصورة جذرية . فقد تتبدل مثلاً إذا أصبح التوازن النووي كاملاً لدرجة تجرد الردع النووي من كل قدرته .

عند ذلك ستعود المجابهات العسكرية المباشرة الهامة ، لأنها تسمح بتحقيق الحسم بسرعة لا يملكها العمل بأساليب الاستراتيجية غير المباشرة .

خلاصة القول هنا إن على الاستراتيجية المباشرة أن تكون شاملة لا عسكرية بحتة . ومهما تزايدت أهمية الدور المعطى للقوات العسكرية ، فلا بد من تأمين توافقه مع بقية أشكال العمل لزيادة الفاعلية والتأثير .

٣ ـــ العمل بالاستراتيجية الشاملة غير المباشرة

يعتبر كثير من المحللين أن العمل بالاستراتيجية غير المباشرة هو العمل الذي يحقق نتائجه بصورة أساسية بوسائل غير عسكرية ، أي العمل الذي تلعب فيه الوسائل العسكرية دوراً مساعداً دائماً .

ولا شك في أن فكرة العمل بالاستراتيجية الشاملة غير المباشرة هي فكرة جد منطقية ، ولكنها تختلف بعض الشيء عن العادات الموروثة من القرن التاسع عشر ، الذي سادت فيه الاستراتيجية المباشرة .

إن لجوءنا إلى الاستراتيجية غير المباشرة يعني بالضرورة أن هناك حدوداً مختلفة تمنع اللجوء إلى أي شكل من أشكال الاستراتيجية المباشرة . وتتمثل هذه الحدود بتحديد **حرية العمل**، وتحديد مستويات استخدام القوة ، وتحديد الوسائل المتوفرة ، أي تحديد الوسائل العسكرية . وقد عرف الجنرال بوفر الاستراتيجية غير المباشرة ، في كتابه (مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية) ، كما يلي :

« الاستراتيجية غير المباشرة هي فن معرفة الاستفادة من هامش حرية العمل

الضيق الذي أفلت من الردع النووي أو السياسي، مع استخدام الحد الأدنى من القوى والوسائط العسكرية، بغية تحقيق النتائج الحاسمة الهامة التي حددناها مسبقاً».

وقد رأينا سابقاً أن القانون العام للاستراتيجية هو الآتي:

س = ك . ق . م . ز

حيث تمثل (س) العمل الاستراتيجي، و(ك) العامل الخاص للحالة الخاصة المحلية والدولية، و(ق) القوة المادية، و(م) القوى المعنوية، و(ز) الزمن.

فإذا كانت (ق) صغيرة، أصبح من الضروري رفع كمية (م) و(ز). ولذا فإن الاستراتيجية غير المباشرة هي التي يتم فيها تأثير العمل النفسي على العدو بشكل مباشر، مع استخدام الزمن، إذا كان ذلك ضرورياً.

العمل النفسي والإرادة

تتصف الوسائل المادية بأنها محدودة قليلة الحجم في أغلب الأحيان، في حين أن المجال النفسي واسع جداً، ويشكل معيناً لا ينضب من القوى. ويمكن عن طريق هذه القوى تعويض الضعف المادي الذي نحس به. وهذا ما يعطي شعوب الأرض أهمية حاسمة في الاستراتيجية غير المباشرة، ويجعل هذه الاستراتيجية تلعب أهم أدوارها الخارجية الممتدة إلى خارج منطقة الصراع.

ولكن استثمار التأثيرات النفسية عمل طويل حساس، يخضع لقوانين ذات منطق خاص، كما أن الظواهر التي نثيرها في داخله تأخذ غالباً تطوراً عفوياً ومستقلاً، يجعل إدارة المناورة النفسية عملية صعبة وحرجة.

ولنذكر هنا على سبيل المثال أن أفكار هتلر جمعت القوى الألمانية، ولكن تطرف هذه الأفكار أثار معظم شعوب العالم الحر ضده. ومهما كانت صعوبات المجال النفسي فإنه يشكل المجال الأساسي الذي تتجابه فيه الإرادات. ولقد أصاب ماوتسي تونغ عندما قال: إن إرادة الشعوب تصنع التاريخ.

وخلاصة القول إن العمل النفسي يستهدف تدعيم إرادة الصديق، وتحطيم إرادة الخصم، بشكل يزيد من حرية الأول، ويحد من حرية عمل الثاني.

ــ الحدود المعقولة لأهداف الاستراتيجية غير المباشرة

لقد أصبح من المتعذر حالياً فرض استسلام كامل على الخصم بسبب حجم التهديدات وتطور وسائط الردع وتشابك المصالح. لذلك لا يمكن في معظم الأحيان سوى إجبار الخصم على اعتبار الحل الذي يتلاءم مع أهدافنا السياسية أمراً مقبولاً وحلاً وسطاً ممكناً.

وهكذا تبدو الاستراتيجية غير المباشرة كشكل قاس من أشكال التفاوض.

في هذه الحالة، تكون الأهداف المرجوة محدودة تتلاءم مع قدرة الخصم والرأي العام العالمي على تقبل الأمور. فإذا كان الهدف السياسي للنزاع كبيراً، أصبح من المتعذر بلوغه دون مناورة طويلة تتحقق بأسلوبين:

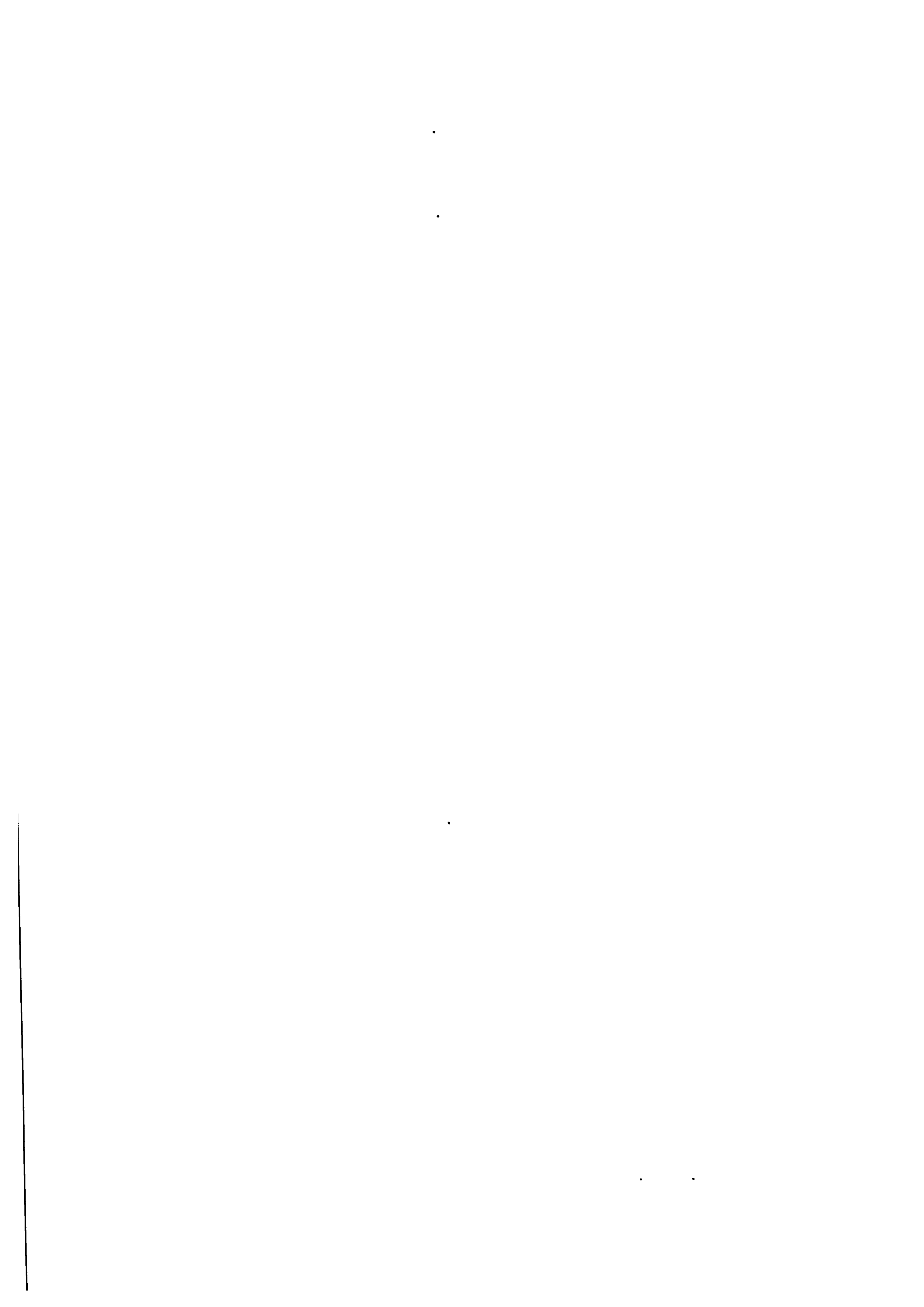
أما أسلوب المناورة الأولى فهو **أسلوب القضم على مراحل صغيرة متتابعة**، أي ما يسمى بمناورة الخرشوفة، كما فعلت إسرائيل حتى الآن في إطار سياستها التوسعية الاستيطانية، وكما فعل هتلر بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩. وأما أسلوب المناورة الثاني فينطبق على الحالة التي تبدو فيها الاستراتيجية غير المباشرة عاجزة عن الوصول إلى أي حل مهما كان متواضعاً، نظراً لعجزها عن إجبار العدو على الإذعان لحل وسط مقبول. عند ذلك لا يمكن الوصول إلى الحل إلا بصراع طويل الأمد، يستهدف استنزاف إرادة الخصم، وتعويده بصورة تدريجية على فكرة التخلي عن أهداف محسوسة. وهذه هي المناورة بالإعياء التي تستند إليها استراتيجية ماوتسي تونغ، والتي طبقتها الثورة الجزائرية بنجاح. ولا تحاول هذه المناورة تحقيق النصر على الصعيد العسكري، بل تسعى إلى البقاء والاستمرار في استنزاف الخصم حتى تتوفر لها الظروف والدعم الكافي لإرغام الخصم أخيراً على الانسحاب أو التفاوض. ومن الطبيعي ألا يتحقق ذلك إلا بالمساهمة الفعالة للأعمال العسكرية الناجحة.

خلاصة القول إذن إن جزءاً من السمعة الحالية للاستراتيجية غير المباشرة يعود إلى الردع النووي الذي أضعف إمكانات الاستراتيجية المباشرة، كما يعود جزءٌ آخر منها إلى الظروف النفسية لعالم مضطرب فقد بعض توازنه، نتيجة تصفية الاستعمار وولادة حضارة تقنية جديدة. ولكن الاستراتيجية غير المباشرة تتلاءم مع التطور العميق الذي

أصاب المشاعر حديثاً وأثر على موقفها من العنف بعد المآسي التي عاشتها البشرية خلال الحروب الأخيرة. وفي الوقت الذي أصبح فيه الإنسان قوياً بشكل رهيب، نراه يميل إلى رفض استخدام الحد الأقصى من القوة على نطاق واسع. فإذا استمر هذا الميل واتجهت القوة لتحقيق الردع بدل العمل، اضطر العمل إلى استخدام الاستراتيجية غير المباشرة لأنها الاستراتيجية الوحيدة القادرة على تحقيق نتائج هامة، مع استخدام محدود للقوة، يتناقض حتى يصل إلى المناورات المجردة على مستوى القرارات السياسية. لذلك يمكن التأكيد على أن الاستراتيجية غير المباشرة هي استراتيجية المستقبل المحتملة.

الفصـــل السـابــع

صلة الاستراتيجية بالسياسة والمعنويات والمذاهب العسكرية



تمهيد

إن الانتصارات العسكرية التي تتم دون إراقة دماء تعتبر شيئاً نادراً في التاريخ العسكري، ولكن ندرتها لا تقلل من قيمتها، فهي تسلط الأضواء على الإمكانات الكامنة في الاستراتيجية العسكرية. وهنا تأتي مسؤوليتها في محاولة تحقيق النصر بأفضل الشروط، وخلق وضع سياسي ملائم إن لم يؤد بنفسه إلى النصر خلق وضعاً ملائماً يؤمن انتزاع النصر.

إن تدمير القوات المعادية قد يتم بالوصول إلى نتائج حاسمة بمعارك فاصلة، أو بإرغامه على التخلي عن مخططاته العدوانية بعد تفتيت معنوياته. وهنا يكمن دور الاستراتيجية العسكرية من خلال صلاتها الأساسية مع السياسة، والمعنويات، والمذاهب العسكرية.

وهكذا يمكن لهذا الفصل من الكتاب أن يجيب عن الأسئلة التالية:

ــ ما صلة الاستراتيجية بالسياسة؟ وما التأثيرات الحقيقية والمحتملة لهذه الصلة؟
ــ تحديد إمكانات إفساح المجال لتفاعلات متسلسلة بين الاستراتيجية والمعنويات؟
ــ ما الوضع المرغوب فيه لصلة إيجابية بين الاستراتيجية والمذاهب العسكرية المختلفة؟

أولاً: الاستراتيجية العسكرية والسياسية

سبق وعرفنا الاستراتيجية فيما سبق من الفصول، وسندرس الآن علاقة السياسة بالاستراتيجية.

تقع السياسة في صميم حياتنا، وفي مركز النشاط الدائر الذي يسود عصرنا، وهي النشاط التي تحاول المجتمعات أن تحقق من خلاله أهدافها، وتحمي مصالحها الأساسية.

فالسياسة تقرر الحرب وتحضّر لها، وتصيغ أهدافها، وتحدد أين ومتى تبدأ وتدور رحاها وتنتهي، وتؤثر على اختيار الطرق وأساليب القتال المسلح وأشكاله وحجمه وشدته، وتشكل أساساً للاستراتيجية العسكرية، والملامح المميزة والغرض من القوات المسلحة.

إن الغاية من الاستراتيجية العسكرية هي تحقيق الأهداف التي تحددها السياسة، بصرف النظر عما إذا كانت مفاهيم هذه الاستراتيجية فنّاً أو علماً أو قوانين، ومع ذلك لابد من طرح السؤال التالي: هل تخضع الاستراتيجية العسكرية لضرورات خاصة غريبة عن السياسة، من أن أهدافها النهائية سياسية؟

ويمكن القول إن وجهات النظر الخاصة بالعلاقة بين الاستراتيجية والسياسة تكاد تكون واحدة في الشرق والمغرب، وإن المبدأ الموضح بالصيغة التالية يمكن أن يكيف هذه

العلاقة عند الطرفين: «إن تبعية الاستراتيجية العسكرية للسياسة لا تحدد الأهداف الاستراتيجية فحسب، بل تحدد أيضاً الطبيعة العامة للاستراتيجية».

وهكذا فإن نظرة فاحصة ودقيقة لمضمون المفاهيم المتعلقة بالاستراتيجية العسكرية والسياسية تبدو هنا ضرورية من أجل الفهم الكامل لطبيعة الحرب، والوقوف بدقة على النظريات التي يمكن أن تختلف بشكل حاد في تفسيرها للدور الذي تلعبه الحرب في العلاقات الدولية.

ومهما كانت نقاط القوة والضعف في كل المفاهيم السائدة حول صلة الاستراتيجية العسكرية بالسياسة فلا يمكن أن يكون هناك شك في أن هذه الصلة قد تبدلت وتطورت بعمق، خلال الجيلين أو الأجيال الثلاثة الأخيرة. وإن خبرة الحربين العالميتين، ومجرى الحروب المحلية، وتوقع الحرب النووية تقف جميعها دليلاً على أن الحروب الحديثة سواء كانت هجومية أو دفاعية ستنفذ بوسائل معقدة، من عسكرية وسياسية واقتصادية وأيديولوجية.

أ ـ حسب وجهة النظر السوفييتية

نجد في المذهب السوفييتي: «أن الهدف من الاستراتيجية العسكرية هو أن تخلق بالوسائط العسكرية تلك الشروط التي تستطيع فيها أن تحقق الأهداف التي تضعها لنفسها، وأن العلاقة بين الاستراتيجية العسكرية والأهداف السياسية هي علاقة وثيقة وواضحة جداً». ويمكن تمييز سمتين لهذه العلاقة:

الأولى: الأهداف السياسية تحدّد من قبل القادة السياسيين.
الثانية: التبدلات الاجتماعية السياسية تؤثر وبشكل مباشر على الأهداف الاستراتيجية.

ويعتبر المحللون السوفييت أن متطلبات الاستراتيجية العسكرية قد تؤثر في أثناء مجرى الحرب على السياسة التي تأخذ بها القيادة السياسية، ويجب عليها في هذه الحالة أن تأخذ في الحسبان البدائل العسكرية الحقيقية، كما يجب على قادتها أن يخططوا نشاطاتهم بغية المحافظة على السيطرة التي يمارسونها في العمليات العسكرية.

كان لينين يقدر دور العنف (القوة المسلحة) في القضايا الإنسانية تقديراً استثنائياً. ولقد سبق له أن قرأ كلاوزفيتز، وعلق عليه، وتعمق فيه، كما كان شأنه إزاء انغلز. وعلّق لينين على القول المأثور الذي نادى به كلاوزفيتز بأن «الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى ــ أي القوة ــ» فقال: «إن الماركسيون يعتبرون هذه البديهية أساساً نظرياً لما تعنيه كل حرب»، بل إنه كان يؤمن بوجود علاقة صميمة بين بنية الدولة وجهاز الحكومة من جهة، والتنظيم العسكري وإدارة الحرب من جهة أخرى.

ولذلك انطلقت العقيدة الماركسية ــ اللينينية في تعريفها للحرب بأن الأخيرة ليست هدفاً بحد ذاتها، ولكنها أداة للسياسة. ويؤكد لينين في ملاحظاته «إن السياسة هي الفكر، وإن الحرب هي الأداة».

والاعتراف بأن الحرب هي أداة السياسة يحدد العلاقة المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية.

ولقد أظهر السوفييت تمسكهم الدائم بالملاحظة التي أبداها لينين حول آراء كلاوزفيتز، الذي قال فيها: «إن الحرب لا تزال عسكرية بينما هي في أعماقها سياسية». لذلك فإن السوفييت يرون «أن الاستراتيجية العسكرية يجب أن تخضع خضوعاً كاملاً للسياسة»، وبالمقابل يجب أن لا تذهب السياسة إلى حد التناقض مع قوانين الحرب.

ولقد أعطى لينين القول: الحرب استمرار للسياسة مفهوماً مغايراً للصيغ التي طرحها كلاوزفيتز، ذلك أن ما يعنيه لينين بالسياسة هو السياسة بشكل عام، وليس السياسة الخارجية كما أراد كلاوزفيتز، زد على ذلك «أن ظاهرة السياسة بحد ذاتها يجب أن تدرس قبل دراسة الحرب، لأن السياسة هي التي تسبب الحرب وهي التي تديرها».

والاستراتيجية العسكرية بالنسبة للسوفييت «استمرار للسياسة بوسائل أخرى ــ تعتمد أساساً على العنف ــ. وقد عرف مفهوم الحرب في المؤلفات الكلاسيكية الحديثة بأنه ــ العنف المسلح ــ».

وهكذا نجد أن أحد العناصر الحاسمة في النظرية الماركسية اللينينية عن طبيعة الحرب، باعتبارها استمراراً للسياسة هو مفهوم السياسة نفسه: فالسياسة وفقاً للتعريف العام هي: ذلك النشاط الذي تمارسه جماعات اجتماعية منظمة، ويكون موجهاً إلى

جماعات معينة أخرى، ويتولد هذا النشاط كما يتم التعبير عنه عن طريق إقامة العلاقات المتبادلة بين الجماعات، كما نجد في التفسير الماركسي — اللينيني أن الصيغة المتعلقة بكون الحرب استمراراً للسياسة تعتمد على افتراضين يكمل أحدهما الآخر.

— فمن ناحية أولى تكون أهداف الحرب استمراراً لأهداف السلم.
— ومن ناحية ثانية تقتضي الحرب تغييراً في الأسلوب.

ويؤكد التحليل الماركسي — اللينيني سيادة السياسة على الحرب، حيث أن الأهداف السياسية التي تخاض الحرب من أجلها هي التي تحدد طابعها، وأن الاستراتيجية التي تخاض الحرب بها تعتمد على الخطوط السياسية العريضة.

وبالرغم من ذلك، فإن الباحثين السوفييت يعترفون بحقيقة أن مجرى الحرب يمكن أن يحدد البدائل السياسية، وأن السياسة التي تأخذ بها حكومة ما يمكن أن يعتمد في جزء منها على الحرب.

ومهما يكن من أمر، فإن النجاح في الحرب يجب أن يرتبط بالأهداف السياسية للأطراف المتحاربة. ويصاغ هذا المفهوم ضمن المقولة «السياسة هي الكل والحرب هي جزء منها» التي تُفهم فيها الحرب على أنها صراع، وقد فُسِّرَتْ هذه الجملة أيضاً لتعني أن الحرب هي مرحلة فقط في الصراع السياسي الدائم.

ب — حسب وجهة النظر الأميركية

في الولايات المتحدة الأميركية يعتبرون الحرب مسألة تقنية من حيث النظرية والممارسة. ووفقاً لما يراه المحللون العسكريون فإن العسكرية الأميركية لم تعرف الحدود السياسية، واعتبرت أن الحرب قد تشن من أجل تحقيق النصر الكامل والاستسلام غير المشروط للعدو. وعموماً فإنه يمكن إيجاد الدليل على أن نظرية (الحرب الصدفة) كان لها تأثير على تفكير القادة العسكريين الأميركيين. ووقف دعاة البورجوازية والأمبريالية لنفي جوهر تبعية الحرب للسياسة. ومن هؤلاء الكاتب الألماني ف. برنغاردي الذي قال: «يجب على السياسة أن تلائم متطلباتها مع ما تراه الحرب مناسباً، وقابلاً للتحقيق». وكتب كينغستون ماكلوري معلقاً على نظرية كلاوزفيتز ما يلي: «خذ تصريح كلاوزفيتز

المشهور، والقائل إن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائط أخرى ــ بوسائط القوة ــ وانظر إليه على ضوء الشروط الحديثة. ففي شروط الحرب النووية لا شيء يبدو بعيداً عن الحقيقة كهذا القول، لأن مثل هذه الحرب لو اشتعلت، فستعني نهاية السياسة، وتعني الدمار والفناء المتبادلين».

وبغض النظر عن التصريحات المشابهة لبعض الكتّاب الاستراتيجيين، فإن العلم العسكري البورجوازي يعترف بتبعية الاستراتيجية العسكرية للسياسة.

وإن تبعية الاستراتيجية العسكرية للسياسة تجد لها تعبيرات مختلفة. ويظهر تأثير السياسة بوضوح في تحديد الأهداف الاستراتيجية العامة والخاصة، وفي الطابع العام لاستراتيجية الدولة، وفي اختيار طرق خوض الحرب وأشكالها.

فأهداف السياسة الأمبريالية تنحصر في السعي لتجنب مصيرها المحتوم، وإيقاف التطور الشرعي للعالم على طريق التقدم والحرية والإشتراكية. ولتحقيق هذه الأهداف تعتمد الأمبريالية استراتيجية المغامرة، وتتبنى استراتيجية عسكرية مبنية على التقديرات والحسابات التي تتصف بالمغامرة والإرهاب، وخرق المعاهدات والاتفاقيات الدولية.

إن النظريات الجديدة **كالحرب المحدودة، والرد الكثيف، والحرب الشاملة..** إلى غير ذلك من النظريات والأفكار العسكرية، والتي يصدرها بغزارة مفكرو الغرب العسكريون، ما هي إلا تعبير للسياسة الأمبريالية، مما يشكل برهاناً آخر على تبعية الاستراتيجية العسكرية إلى السياسة.

ج ــ حسب وجهة النظر العربية

إن التاريخ العربي غني بروائع العلم والأدب والفن، وأما تاريخنا العسكري فأكثر غنى، وأكثر عطاء لكل ما هو مفيد وخالد.

جيوش صغيرة تنطلق من الجزيرة العربية قليلة في عددها، فقيرة في تسليحها، قوية في إيمانها، تتحدى أقوى قوى العالم، وتثبت أنها على مستوى هذا التحدي، فتزيل أعظم دولتين لهما أمجادهما العسكرية وقواتهما الكبيرة، علاوة على إمكاناتهما المادية الضخمة.

وتتطور الجيوش العربية في عددها وحجمها وتسليحها، ويتطور تبعاً لذلك تنظيمها القتالي وأسلوبها الحربي، وتزداد ميادين القتال بُعْداً، وتصبح ساحات العمليات الحربية واسعة.. وهنا تبرز **الاستراتيجية العسكرية العربية** وفق مخطط منظم بعيد عن الارتجال والعفوية. وكانت هذه الاستراتيجية بمثابة شاهد على نجاح العرب في تحقيق مبدأ جديد في فن الحرب، حين عمل العرب على اتباع **استراتيجية الردع**.

إن حسمية الأهداف السياسية التي وضعها العرب أمام استراتيجيتهم العسكرية تعلل وسائط القوات العربية للحرب وطرقها وأشكالها وأساليب إعدادها. ففي العام ٦٢٩ م هاجم العرب المسلمون بلاد الروم، وخسروا في جنوبي شرقي الأردن معركة مؤتة، وفيها استشهد قائد الحملة زيد بن حارثة، وبعده جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحه، فأخذ الراية خالد بن الوليد، فلمّ الصفوف ورجع بها إلى المدينة المنورة. وبعد مضي فترة من الزمن، تم خلالها استقصاء الأخبار والمعلومات عن العدو، قرر النبي ﷺ أن يثأر لتلك النكسة، فأمر بإعداد جيش يعهد بقيادته إلى أسامة بن زيد، وكان ذلك عام ٦٣٢ م.

تفاصيل على صغرها لأول وهلة هي على قدر جليل من الفائدة، تدل في جملة الدلائل على معطيات عديدة أهمها:

- خبرة العرب في شؤون الحرب من إعداد وتجهيز وتدريب.
- معرفة العرب بالمناخ السياسي والمعنوي المحيط بعد استطلاع للعدو سياسي وعسكري واجتماعي، دام أكثر من ثلاث سنوات.
- توثيق المعلومات السياسية والبشرية لما لها من تأثير على استراتيجية الحرب المقبلة، وتدقيقها، والوقوف على امتداداتها في محيط منطقة العمليات.

هذه المعطيات كان لها أثر فاعل في الأعمال العسكرية السياسية التي أدت فيما بعد إلى تحقيق الانتصارات العربية على الرومان والفرس معاً.

وأكد العرب، في أكثر من مجال، أهدافهم من الحرب، على اعتبار «أن الحرب هي الوسيلة النهائية لتحقيق ما عجزت الوسائل السلمية عن تحقيقه». ووضعوا المخططات لتطبيق السياسة المرحلية في تحقيق التوازن بين معادلة الهدف والإمكانات

المتوافرة. مما يدل على أن العقل الاستراتيجي للقيادة السياسية ـــ العسكرية ـــ العربية كان عاملاً أساسياً فيما حققته الجيوش العربية من انتصارات.

وبالطبع فإن الأهداف السياسية التي وضعت أمام الاستراتيجية العسكرية العربية تمحورت في تعزيز مكانة العرب، وتعريف العالم بالقيم التي كانوا يحملونها، وفي تصفية قواعد العدوان، وإزالة خطر التهديد (دولتي الفرس والروم). ولذلك فقد شكلت الجيوش الصغيرة والكبيرة، ووضعت الخطط الاستراتيجية الحربية لتنفيذ الأهداف السياسية هذه.

لذلك نستطيع القول إن الحرب لم تكن هدفاً من أهداف العرب، بل كانت وسيلة لإغناء الحضارة، وتحقيق العدالة، ودفع الأذى والظلامة عنهم.

لقد كانت القيادة السياسية العربية تقيم الحوار المستمر مع القادة العسكريين بإشراكهم في أعمال المجالس السياسية، وإعداد القرارات العسكرية. وأوجدت نوعاً من التنسيق لتوحيد وجهات النظر حول الأهداف العامة السياسية، ولإيجاد الوسائل العسكرية الملائمة لتنفيذ هذه الأهداف العامة.

هذه ظاهرة يجب الوقوف عندها طويلاً، وهي ما أكدتها جميع دول العالم بعد ذلك بمئات السنين.

يقول ليدل هارت: «الاستراتيجية العسكرية هي فن توزيع جميع الوسائل العسكرية واستخدامها لتحقيق هدف السياسة».

ويقول كلاوزفيتز: «الاستراتيجية العسكرية هي استخدام الاشتباك كوسيلة للوصول إلى هدف سياسي مخطط».

ويتحدث الجنرال بوفر عن الاستراتيجية العسكرية فيقول: «هي فن استخدام القوة لتحقيق الأهداف السياسية».

ويقول العماد مصطفى طلاس: «الاستراتيجية هي فن إعداد الحرب وإدارتها لتحقيق نصر لا يتعارض مع سلم مقبل».

وهذا ما أثبته العرب من خلال معالجتهم للصلات التي كانت تربط الاستراتيجية العسكرية بالسياسة. وثبت وبشكل جليّ أن العلاقة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية كانت تتمتع ببعد النظر والحكمة في معالجة الأمور.

د ـ حسب وجهة النظر الصينية

يتضمن المفهوم الصيني عن طبيعة الحرب الافتراضات الأساسية نفسها عن الحرب، باعتبارها استمراراً وأداة للسياسة.

ويرى الصينيون أن الحرب شكل من أشكال الصراع الطبقي، كما أن الأمبريالية تشكل بدورها المصدر الأكثر عمقاً للحرب في العصر الحاضر. ومهما يكن من أمر فإن الصينيين يختلفون عن السوفييت في تقويمهم للتناقضات الرئيسية في العصر التي تعتبر سياسات الحرب استمراراً لها، ويؤكدون أن السمة الأكثر أهمية في الصراع العالمي ضد الأمبريالية تتمثل بالصراع من أجل التحرر الوطني.

وباختصار فإن الصينيين يؤكدون على أنه توجد للحروب في العصر الحديث ثلاثة أبعاد سياسية هي:

أولاً: استمرار لسياسة المشتركين المباشرين فيها.
ثانياً: جزء من المواجهة السياسية.
ثالثاً: جزء من نضال شعوب العالم.

ثم إن الصينيين قد استبدلوا نظرية استخدام العنف المسلح بنظرية أيديولوجية تحمل طابع المغامرة عن العنف، حيث يتقرر بموجبها مجرى الحياة الاجتماعية، بما فيه النضال الاجتماعي والوطني، ليس عبر العلاقات الاقتصادية فحسب، بل وبالقسر أيضاً، وخاصة بوسائل الكفاح المسلح. وإن ما قاله ماو عن أن (البندقية تولّد القوة) و(أنه يمكن إعادة خلق العالم فقط بواسطة البندقية) ليس سوى تبرير للقوة وتمجيد للعنف المسلح. ولكن أحد العناصر الجديدة في الموقف السياسي الصيني، والذي تكرر في العديد من المرات هو أن الصين لن تكون البادئة بالحرب الدولية، وبالتالي فإن هذه الحرب لن تنشب إلا إذا شنّت من قبل الأمبرياليين.

هـ ـ صلة الاستراتيجية العسكرية بالسياسة عن طريق الأحلاف

يعتبر العصر الحديث عصر الحروب التي تخوضها الأحلاف العسكرية، لذا فإن للعلاقة المتبادلة بين السياسة والاستراتيجية في مثل هذه الحروب بعض السمات الخاصة، لأن تحقيق النصر في حرب تخوضها دول متحالفة يتطلب وجود استراتيجية

منسّقة بين تلك الدول بما تملكه من إمكانات اقتصادية وبشرية وأوضاع سياسية وتاريخية وجغرافية .

ـــ وانطلاقاً من ذلك ، فإن حلف وارسو العسكري ، والذي انضمت إليه الدول الإشتراكية في أوروبا يوحّد جهود المشتركين فيه بهدف واحد ، هو حماية المكاسب الإشتراكية في هذه الدول من العدوان الأمبريالي ، ويضع سياسة واحدة تجاه الأخطار الخارجية المحيطة بالحلف .

ـــ أما التحالف الغربي ، فقد كان على حساب التفاهم ، أو التنازل المتبادل ، أو القسر من جانب الدول الأقوى ، وعن طريق الإملاء من جانب الولايات المتحـدة الأميركية . لذلك فقد وضعت السياسة الموحدة للأحلاف العسكرية في استراتيجية عسكرية حديثة ، تستهدف بالدرجة الأولى تحقيق الأهداف السياسية العسكرية للولايات المتحدة .

ويعتبر التناقض داخل الأحلاف العسكرية الأمبريالية الجديدة تأكيداً لذلك . فالنزاع العنيف ، والتناقض بين دول حلف الأطلسي أدى إلى مناقشة الحلف للخطة الاستراتيجية الخاصة بالدفاع عن الغرب . ويدور الآن بين الولايات المتحدة وحلفائها صراع عنيف ومتزايد ، للسيطرة على مجالات التأثير في مختلف مناطق العالم ، وعلى الصلة بين السياسة والاستراتيجية العسكرية .

لقد صرح المارشال مونتغمري قائلاً : « عوضاً عن بحيرة الوحدة أصبح لدينا ثلاثون بركة سياسية » .

وأكد هذه المقولة الرئيس الأميركي السابق جون كنيدي إلى الكونغرس حين قال : « ليس لحلفائنا في أوروبا تأثير ملموس ، ومع ذلك فهم في حالة من الفوضى » .

و ـــ الاستراتيجية العسكرية الصهيونية وصلتها بالسياسة

الاستراتيجيـة العسكريـة الصهيونيـة جزء لا يتجـزأ من الاستراتيجيـة العامـة للأمبريالية الأميركية ، تجسّد الأطماع التوسعية ، والنزعة العدوانية ، والطبيعة العنصريـة

للحركة الصهيونية، كما تجسّد الدور الوظيفي للكيان الصهيوني كمصلحة أميركية في الشرق الأوسط، وكأداة لتنفيذ أغراض الأمبريالية ومخططاتها في هذه المنطقة.

وعلى هذا الأساس فالسياسة الصهيونية سياسة عدوانية، والكيان الصهيوني معسكر كبير جميع سكانه البالغين تحت السلاح، والسياسة المسيطرة على كل فئاته وأطرافه السياسية سياسة عدوانية، تسعى إلى إبقاء إسرائيل قوية متفوقة عسكرياً على الدول العربية مجتمعة.

وعلى هذا الأساس فإن السلام لم يكن يوماً ولن يكون مطلباً إسرائيلياً، ولا هدفاً أميركياً.. بل كان وسيظل دعائياً محضاً، يهدف إلى تفتيت قوى الصمود العربي، وفرض الاستسلام على العرب.

لقد بنت إسرائيل استراتيجيتها العسكرية وفق سياسة ثابتة معينة، وقد تمثلت بالمبادىء التالية:

- الحفاظ على تفوق عسكري كامل بكل القوى والوسائط.
- جعل العرب يدركون أن أية مجابهة عسكرية مع إسرائيل ستؤدي إلى هزيمة سياسية عربية.
- عدم القبول بأي نكسة عسكرية في أية حرب مع العرب، لأن ذلك يعني دمار إسرائيل، بل نهايتها.
- استمرار الضربة الوقائية.
- تبني الحرب الخاطفة، ونقل المعارك لأرض العدو بسرعة في الوقت المناسب.

وهكذا أصبحت السياسة الإسرائيلية تتحكم بالاستراتيجية العسكرية الصهيونية، وتسخرها من أجل تنفيذ كل مالا يمكن تنفيذه بالطرق السياسية، وهذا ما أثبتته الحروب العدوانية التي شنتها القوات الإسرائيلية على الدول العربية.

ومع بداية الثمانينيات دخل الوضع في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، والصراع العربي ـ الصهيوني بشكل خاص، مرحلة نوعية جديدة، في ظل سياسة مواقع القوة الأميركية، وما يسمى بالخطة الأمنية الاستراتيجية الجديدة. وهي الخطة التي تعتبر المنطقة

بكاملها مجالاً حيوياً للمصالح الأميركية، تحت ذريعة العمل على مجابهة الخطر السوفييتي المزعوم.

وعلى هذا الأساس تتحدد الأهداف القريبة للاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية في الثمانينيات بمحاولة استباق التطورات التي قد تعمل لغير صالح إسرائيل.

فقد كتب يتسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق يقول:

«الهدف الأول والأساسي في سياسة إسرائيل للثمانينيات هو ضمان عدم تحول القوى العسكرية بينها وبين القوى العربية الشاملة التي قد تشترك في الحرب لغير مصلحة إسرائيل، بل يجب تحسين هذه النسب إذا أمكن، وتأمين التزود بالأسلحة المطلوبة إزاء تزايد القوة العسكرية العربية».

ويؤكد شارون أنه للحصول على الأهداف السياسية للاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية في الثمانينيات يتطلب «منع نشوب حرب عن طريق الردع، فإذا انهار الردع يجب ضمان قدرة عسكرية للحفاظ على سلامة إسرائيل في بداية أية حرب، وتقويض الائتلاف الحربي المعادي، وضرب عمقه الاستراتيجي».

ويدعو الجنرال الاحتياطي آهرون ياريف رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب إلى دمج العامل السياسي مع العامل العسكري في استراتيجية إسرائيل المستقبلية فيقول: «إزاء الظروف التي يمكن أن تنشأ في المواجهة خلال السنوات القادمة، فإن من مصلحتنا أن لا نعتمد فقط على قوتنا العسكرية، بل كذلك على إمكانية استغلال كل الإمكانات السياسية».

ز ــ استراتيجية حرب العصابات وصلتها بالسياسة

حرب العصابات التي أصبحت في زماننا هذا شبه علم سياسي ــ عسكري، بدّلت علاقات القوى في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي في طريقها إلى تدمير مفاهيم هيئات أركان حرب الدول.

لقد أصبحت حرب العصابات الظاهرة السياسية لمنتصف القرن العشرين، كما أنها الريح المرئية التي تحمل الأمل والخوف إلى قارات ثلاث.

إن حرب العصابات في جوهرها سياسية ـــ اجتماعية ، أما وسائلها فهي سياسية بمقدار ما هي عسكرية ، أما هدفها فسياسي بالكامل تقريباً . ونستطيع أن نقول انطلاقاً من مقولة كلاوزفيتز : « إن حرب العصابات استمرار للسياسة بواسطة صراع مسلَّح ، وفي درجة معينة من نموها تصبح ثورة » .

إن حرب العصابات تعادل حرباً ثورية . إنها امتداد للسياسة باستعمال السلاح . واستراتيجية حرب العصابات ديناميكية ، فلها أهداف عسكرية وسياسية إيجابية ، وهي لا تملك أسلحة ضخمة ، أو صناعة متطورة ، أو جيوشاً نظامية ، ولكنها تملك المقومات الأساسية للحرب الثورة ، ألا وهي (المجال ـــ الزمن ـــ الإرادة) . فرجل العصابات هو متمرد سياسي ، وللوصول إلى أهدافه السياسية يلجأ للحرب . وفي هذه الحالة تهدف كل مناوراته إلى تأثير سياسي .

« إن مدى المدفعية والطيران أعظم بكثير من مدى القوس ، وتعمل المتفجرات بتأثير يختلف عن تأثير عمل السهم ، وتتميز الدبابات عن التروس ، وتشكل الشاحنات الضخمة والحوامات وسائل نقل أشد سرعة وأكثر ضماناً من الرواحل ، إلا أن معضلات السياسة هي نفسها ، والعوامل التي تتحكم في السياسة هي التي تحدد دائماً نتيجة المعارك والحملات » .

ح ـــ العلاقة بين القرار السياسي والقرار العسكري

يقول بعض الاستراتيجيين :

إن خضوع الرجل العسكري للسلطة السياسية بات مطلوباً في الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى ، من أجل المحافظة على حرية العمل ، وتوسيع مجالاتها . كما بدأت السلطة السياسية اليوم باتخاذ بعض القرارات المتعلقة بالأمور العسكرية ، تلك القرارات التي كانت في السابق من مسؤولية القائد العام العسكري حصراً . لذلك يجد القائد العسكري نفسه مكبلاً بقيود كثيرة حول الأهداف العسكرية ، وأماكن تركيز القوى ، ومدة العملية ، وأسلوب القتال ، والأسلحة الواجب استخدامها . وبمعنى آخر بات تصرف القائد العسكري تصرفاً مقيداً ومراقباً من قبل السلطة السياسية ، لدرجة أنه فقد معها قسطاً كبيراً من حرية عمله في وضع خطة مناورته وقيادتها . وبالمقابل إذا كانت

القيادة السياسية ترغب في أن يخطط القائد العسكري أعماله بما يتفق مع استراتيجيتها العامة، وجب عليها إقامة الحوار المستمر مع القائد العسكري، بإشراكه أكثر فأكثر في أعمال الأجهزة الحكومية المكلفة بالدراسات وإعداد القرارات السياسية، وبذلك يمكن للقائد العسكري أن يمارس، بكل كفاءة، دوره كمستشار للقيادة السياسية.

وتتطلب هذه الاعتبارات ضرورة وجود نوع من التنسيق، وتوحيد وجهات النظر بين السلطة السياسية والقيادة العسكرية، حول الأهداف العامة لسياسة الدولة، وقد أصبحت هذه الضرورة ملحة اليوم أكثر من الأمس، إذا أردنا أن تتم معالجة الأزمات بتعاون صريح وصادق وجريء، بين القائد العسكري المكلف باستخدام القوة، والقائد السياسي المسؤول عن الأعمال بكاملها.

يقول الجنرال البرتيني: «إن وظيفة قيادة الجيش هي تدمير القوات المسلحة المعادية، وهدف الحرب هو النضال من أجل السلام، ضمن شروط تتوافق مع السياسة التي تتبعها الدولة، وتحديد الأهداف التي يجب الوصول إليها من خلال الحرب تظل سواء في أثناء الحرب أم قبلها مهمة سياسية، ولا يمكن أداء هذه المهمة إلا بالتأثير المباشر على العمليات الحربية».

ويقول الجنرال بيرنهاردي: «بالنسبة لمسار الحرب، فإن وجهات نظر العسكريين هي الأهم، فإذا لجأت السياسة إلى السيف، يصبح لا شيء أهم من تحقيق النصر عن طريق العمل العسكري، وهذا بدوره متعلق بعوامل تكمن خارج نطاق السياسة».

وخلال ربع قرن من الزمن، وخلال السنوات الماضية تغيرت ظروف دولية، وتبدلت مقاييس التعامل بين الدول، وانقلبت التحالفات الدولية، وتغير منطق الاستراتيجية العسكرية، وأفضت الدراسات العديدة حول الاستراتيجية وآفاقها وصلاتها وتأثيراتها وتطورها على المدى الطويل إلى نتائج لم يفت الباحثين أن يجعلوا منها تنبؤات لأزمات تتلاحق بسرعة.

وما استخدام الحروب لتنفيذ أهداف سياسية معينة سوى جزء من هذه الصورة. وكلما كان الإنسان يغدو القوة المسيطرة في تحديد طبائع الحروب على الأرض، فإن

الخيارات السياسية تصبح معقدة، ولكنها موجودة. لذلك يفتش العقلاء عن أسس عقلانية لحل النزاعات، كي يعود التوازن إلى العالم.

والسؤال المطروح الآن: كيف يمكن للسياسة أن تمارس دوراً رئيسياً، وبالشكل الأكثر فعالية، دون أن تلحق ضرراً باستراتيجية الأعمال العسكرية؟

إن الحرب شيء مختلف عما اعتاد المرء عليه حتى الآن على الاعتقاد، فهي لا تمثل ظاهرة مستقلة، بل تخضع للنخبة المثقفة في مجال السياسة (وإذا ما افترضنا أن الحرب تنطلق من هدف سياسي، فمن الطبيعي أن يكون هذا الهدف الذي أوجد الحرب الدافع الأول).

«إن السياسة تلازم الاستراتيجية العسكرية، وتمارس تأثيراً دائماً عليها، ما دامت تسمح بذلك طبيعة القوى المتفجرة».

وهكذا نرى أن الحرب ليست مجرد عمل سياسي، بل أداة سياسية حقيقية، أو استمرار للحوار السياسي، أي القيام بالشيء نفسه، ولكن بوسائل أخرى.

ومن هنا فإن الاستراتيجية العسكرية لا يمكن تتبع قوانينها الخاصة، بل يجب النظر إليها كجزء من كل، وهذا الكل هو السياسة.

إن القائد العسكري يجب أن يعرف كنه السياسة، والسياسي يجب أن يلمّ بأمور الحرب. وهنا وبشكل مجدد تأتي مهمة التنسيق بين أهداف السياسة وأهداف القوات المسلحة، في وضع خطة استراتيجية الحرب. فاستراتيجية الحرب هذه (تشمل مجال الأعمال الحربية التي تصبح من خلالها عملاً واحداً، ويجب أن يكون لها هدف نهائي تقاسم به جميع الأهداف الخاصة الأخرى).

وكثيراً ما كانت تحدث بعض المصادمات العلنية بالرأي حول مدى الصلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية. فبينما أكد بسمارك وقف العمليات الحربية بعد أن تحققت الأهداف السياسية من هذه العمليات، طالب مولتكه بمتابعة الزحف العسكري: «إن السياسة تسخر الحرب للوصول إلى هدفها، فهي تؤثر بشكل فعال على بدايتها ونهايتها، إذ لا تشتط في مطاليبها في أثناء سير الحرب، وتقنع بنصر خفيف،

في مثل هذه الحالة من عدم الدقة لا تستطيع الاستراتيجية العسكرية أن توجه طموحاتها دوماً إلاّ إلى الهدف الأسمى الذي تجعل الوسائل المتاحة الوصول إليه ممكناً ، وهي تخدم السياسة بشكل مثالي من أجل أهدافها ، وتبقى مستقلة عنها بممارساتها » .

ونتيجة لذلك فقد توفرت مجموعة من الشواهد المتلاحقة بكثافة كان منها :

ــ السياسة دليل لمن يريد أن يكون على اطلاع بالحرب ، تنير له الطريق ، وتسهل خطواته ، وتهذب قراراته ، وتحفظه من الطرق الخاطئة ، وتوصله إلى النتائج السليمة .
ــ السياسة تربي روح قادة المستقبل في الحرب ، وترشدهم في تربيتهم الذاتية وفي تربية جنودهم ، وتثبت لديهم الإرادة ، على شرط أن لا ترافقهم إلى ميدان المعركة .
ــ السياسة لا تحدد طابع حرب معينة فحسب ، لكنها تؤثر أيضاً على طرق خوض العمليات العسكرية ، والحرب ككل ، وإن سياسة دولة ما في الحرب تحدد الطابع الاستراتيجي العسكري .
ــ السياسة التي تخوض الجيوش الحرب من أجلها هي التي تحدد طابعها ، والاستراتيجية العسكرية التي تخاض الحرب بها تعتمد على الخطوط السياسية العريضة .

وهكذا يبدو أن الارتباط الوثيق بين السياسة والحرب لا يمكن إهماله . فكلما تعمق المرء في دراسة الاستراتيجية العسكرية أدرك أنه اقترب أكثر فأكثر من جوهر العلاقات السياسية ، وأن لهذه العلاقات السياسية تأثيراً مباشراً على الحرب ، لا يمكن للمرء أن يتجاهله ، دون أن يسقط في تصرفات عابثة .

وقد بلغ النقاش أوجه عند الزعم بعدم إمكانية تحقيق الانتصار العسكري ، عندما تصمت السياسة . وإذا ما أرادت الاستراتيجية العسكرية أن تنجرف إلى الطريق السياسي فسوف يصبح الانتصار العسكري في بعض الأحوال موضع شك .

إن الاستمرارية المنطقية لفكرة أن السياسة تستخدم الحرب كوسيلة للوصول إلى هدف يقع كلياً خارج مجالها ، يجب بعد انتهاء الحرب أو قرب انتهائها أن تعود هذه السياسة التي تولدت عنها الحرب للظهور أكثر فأكثر ، لتحتل أخيراً المقام الأول عند عقد اتفاقيات السلام . وبرغم ضرورية استقلالية الاستراتيجية العسكرية في الحرب ، إلا أن الكلمة الأخيرة عند العزم على الحرب ، وعند عقد اتفاق السلام تبقى للسياسة .

لقد تنادى عدد من الاستراتيجيين العسكريين إلى دعوة مفادها أن السياسة تحجِّم الاستراتيجية العسكرية، وهي معوقة لها وضارة، وضربوا أمثلة من التاريخ على آرائه وطالبوا: «بفصل السياسة عن الاستراتيجية العسكرية في الوقت المناسب، لتعطي الأخيرة الحرية بالقدر الذي تتطلبه طبيعة الأشياء، وأن تدخُّل السياسة في قيادة الجيش يجب رفضها حتماً عندما تكون عاملاً معقولاً وضاراً، وأنه على المواقف السياسية أن لا تؤثر على سير الحرب إلاّ بالشكل الذي تخدم فيه الأهداف العسكرية».

وقد تركّز إلحاح هؤلاء الاستراتيجيين على المطلب القائل: «إن على الاستراتيجية العسكرية توجيه كل مساعيها في حروب العصر الحاضر دائماً نحو تدمير الخصم، ويجب ألاّ يشلها مانع سياسي دون أن يكون هناك سبب قاهر لذلك، بل يجب بالأحرى دعمها، من خلال إبعاد التأثيرات السياسية التي تشلّها».

وفي هذا المجال، عمد هؤلاء إلى تمييز مربك بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية، وأكدوا، بناء على مقاييس للتقويم، أنه ليس يمكن للسياسة أن تكون صحيحة، عندما تكون متوافقة مع التطورات والخطط العسكرية، كما أكدوا «أن الحرب هي استمرار للسياسة، مع وجود اليد على السلاح».

وبشكل عام كان المطلوب أنه «على المحارب أن يبتعد عن السياسة، عليه ألاّ يهتم بالسياسة إلا بقدر ما يمكن أن تفرضها انطلاقة الحرب». وخلال سير الحرب يجب ألاّ يخطر على بال المقاتل أية اعتبارات سياسية «لأن السياسة لا تهم المقاتل الذي ألقيت عليه مهمة القتال، حيث يتلقى مهماته كتعليمات عسكرية، يجب عليه تنفيذها بالطرق العملياتية».

كان هذا الرأي يطالب السياسة بصراحة لا تقبل الالتباس بالصمت، ما دامت الأسلحة مشرعة، لكي لا يخرب القلم ما ربحه السيف. «فمنذ لحظة التعبئة لا تعود الحرب مجرد وسيلة من وسائل السياسة، بل هدفاً بحد ذاته، ولا يحق للسياسة أن تأخذ حقها مجدداً إلا بعد الوصول إلى هذا الهدف، أي بعد أن يطرح الخصم أرضاً لا حول له ولا قوة، فإلى أن يحين ذلك الوقت على المقاتل أن يقرر ما يجب أن يحدث».

كتب لودندروف «لقد تغير جوهر الحرب، وبالتالي يجب أن تتغير علاقة

السياسة بالحرب ، وجميع النظريات يجب أن تقلب رأساً على عقب ، فالحرب والسياسة يخدمان الحفاظ على حياة الشعب ، ولكن الحرب هي التعبير الأسمى لإرادة الحياة الشعبية ، ولذلك فإن على السياسة أن تكون في خدمة الحرب » .

ونحن بدورنا نؤكد أن السياسة التي تملك في حوزتها كل الوسائط ، قادرة على استنفاد جميع الطاقات لتأمين نشاط القوات المسلحة ، واستمرار هذا النشاط بفعالية . وهي التي تخلق الشروط الملائمة للاستراتيجية العسكرية ، لخوض الحرب بنجاح . وهي التي تدفع المقاتلين إلى ساحة القتال بقوة وجرأة لتحقيق النصر .

ونؤكد أيضاً أن خصائص الصلة المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسية تتجلّى خلال الحرب بتحول مركز الثقل للصراع السياسي من شكله اللا حربي إلى الشكل الحربي ، وكما يقال فإن « السياسة تستبدل القلم بالسيف » .

وهكذا فإن السياسة غالباً ما تكون مجبرة زمن الحرب على ملاءمة أعمالها ، بحيث تسهل هذه الأعمال الوصول إلى النتائج الاستراتيجية المثمرة ، والتي سوف تؤدي في نهاية المطاف إلى بلوغ الأهداف السياسية من الحرب .

فالسياسة تختار اللحظة المؤاتية لبدء الحرب ، آخذة بعين الاعتبار الفكرة الاستراتيجية . وبقدر ما يكون فيه اختيار لحظة بدء الحرب صحيحاً تتوصل الاستراتيجية العسكرية غادة إلى نتائج عسكرية باهرة ، وبالتالي تجني السياسة الفوائد المطلوبة ، والعكس صحيح . والأمثلة في التاريخ العسكري كثيرة .

ففي عام ١٨٦٦ بدأ بسمارك الحرب مع النمسا ، في وقت كانت فيه النمسا غير مستعدة لذلك ، وانتصر بسمارك في الحرب بسهولة .

وفي نيسان ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على تركيا وبريطانيا ، في وقت تمكنت فيه انكلترا من تجميع قواها ، وتوصلت تركيا إلى إعادة تنظيم قواتها ، ولم تستطع السياسة الروسية جني الفوائد كاملة من انتصاراتها العسكرية .

كذلك كانت لحظة بدء الهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية

الثانية غير ملائمة للقوات السوفييتية، إذ لم يكن الجيش السوفييتي قد عبىء تماماً، وكان يمر في مرحلة إعادة تنظيم وتسليح.

وفي حرب تشرين ١٩٧٣ استطاعت السياسة العربية تحديد ساعة بدء الهجوم العسكري على إسرائيل بنجاح. واستطاعت القوات السورية والمصرية تحقيق استراتيجيتها العسكرية بنجاح، وخاصة في الأيام الأولى للحرب.

وفي حرب حزيران ١٩٨٢ استطاعت القوات الإسرائيلية غزو لبنان، وحققت بعض أهدافها العسكرية، نتيجة عدم استكمال تراتيب قتال القوات السورية العاملة هناك.

وأخيراً فإن للسياسة تأثيراً ضخماً على الاستراتيجية العسكرية في فترة نهاية الحرب، لأن الوضع الدولي الذي سينشأ بعد الحرب يتوقف إلى حد كبير على الموقف الذي تكون فيه البلاد في المراحل الحاسمة الأخيرة من الحرب.

ويمكن سوق الأمثلة على ذلك من المرحلة الراهنة.

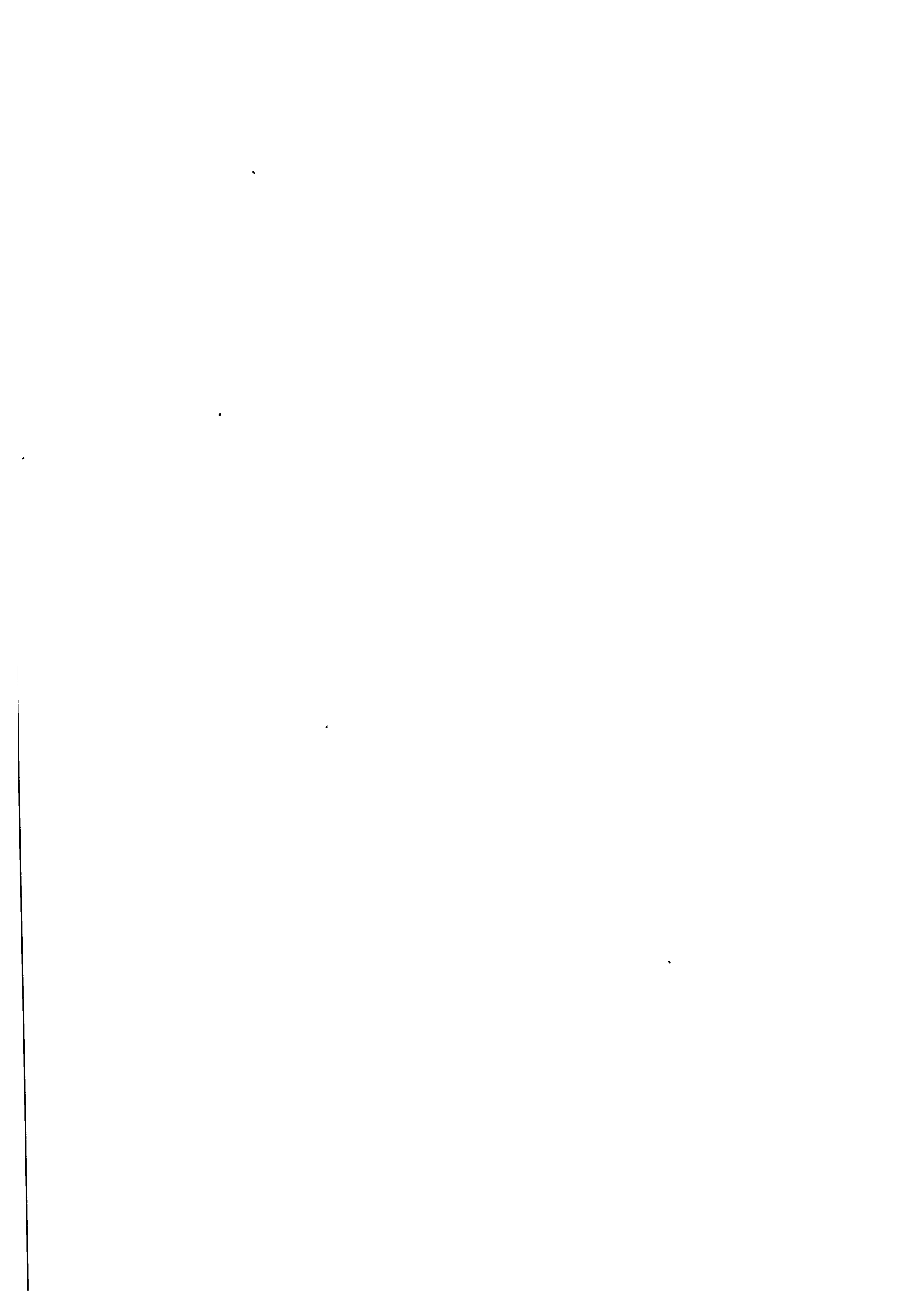
فقد ألغت سياسة السادات الخيانية في كامب ديفيد انتصارات تشرين التي حققتها القوات السورية والمصرية، وقلصتها لدرجة أعادت القوات المصرية إلى غرب القناة، وحجمت مهامها، وأخرجت مصر من ساحة الصراع العربي ـــ الصهيوني.

واستطاعت السياسة السورية منع إسرائيل من جني فوائد اجتياح قواتها للبنان، عندما تصدت سياسياً بحزم، وعسكرياً بقوة، وألغت اتفاق الإذعان المعقود بين لبنان وإسرائيل، والذي كان هدفاً رئيسياً من أهداف الغزو.

وفي الختام يمكننا أن نقول إن السياسة هي الرحم الذي تنمو فيه الحرب، والاستراتيجية العسكرية هي فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف سياسية، أو بالأحرى فن حوار الإرادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها.

وإن هدف الاستراتيجية العسكرية هو الوصول إلى الأهداف التي حددتها السياسة، مع استخدام الوسائل المتوفرة أفضل استخدام، على أن تتكيف السياسة

بشكل يتناسب مع طبيعة الوسائل. لأن الأهداف السياسية هي الغاية، والحرب هي الواسطة، ولا يمكن أن نتصور الواسطة دون الغاية.



ثانياً : صلة الاستراتيجية العسكرية بالمعنويات

كان مصير الشعوب والأمم إلى عهد قريب مرتبطاً إلى حد بعيد بطموحاتها في عالم ينتمي فيه الناس إلى مجتمعات غاياتها وأهدافها مختلفة ومتناقضة . ولقد ساد الاعتقاد خلال فترة من التاريخ أن الإنسان عامل يدخل رقماً هامشياً في حلّ أصعب المشاكل التي دخلت عصر الرخاء ، غير أن الأحداث أثبتت الحاجة الماسة إلى الإنسان نوعاً وكماً ، بحيث لا تستطيع الاختراعات أن تلبي متطلبات البشرية وحاجاتها ، بعد أن أصبحت الحروب وقوة الجنود العاملين اللذين يقرران مصير الدول ، وليس المفاوضات الحاذقة وذكاء الدبلوماسيين .

يبدو في المفهوم الجديد للحرب أن السلاح ليس وحده الذي يحدد نتيجة المعركة ، وليس المال عصب الحرب ، إنما العوامل الأخرى هي التي تساهم إلى حد كبير في البرهان على صحة هذه الاستراتيجية أو تلك . وقد انهمك الاستراتيجيون العسكريون في دراسة هذه العوامل وفي ترتيب أولياتها ، وبالطبع فقد احتل عامل المعنويات مكاناً مرموقاً في تسلسل عوامل نجاح المعركة .

ويمكن تعريف العامل المعنوي بما يلي : « إن العامل المعنوي ـــ السياسي في مفهومه العسكري هو مجموعة العناصر المعنوية ، والتي تعكس قدرة الشعب والقوات المسلحة على تحمل محن الحرب وأهوالها ، والصمود أمامها » .

والعامل المعنوي يعتبر من العناصر الرئيسية الحاسمة في أي حرب، لأن النصر في النهاية يتوقف على الروح المعنوية للجماهير التي تبذل دماءها في ميادين القتال.

ويحوز العامل المعنوي أهمية متزايدة في شروط الحرب الحديثة، حيث لا تمتحن في لهيبها الحالة المعنوية ــ السياسية للدول فحسب، بل الحالة المعنوية لكل محارب، ولوجهات نظره السياسية المعنوية، وملامحه، وصفاته النفسية.

إن الروح المعنوية العالية للقوات المسلحة في ميدان القتال ليس لها أية فائدة إذا لم تسد كافة أفراد الشعب، وخاصة في الشروط الحديثة للحرب، وحيث تزول الحدود بين الجبهة والمؤخرة. وقد أصبحت الحروب الحديثة تجري باشتراك جيوش عديدة مزودة بأحدث آلات القتل والدمار، تستمد روحها المعنوية من روح شعبها، وتتأثر بميوله السياسية والمعنوية.

والاستراتيجية العسكرية التي لا تأخذ ذلك العامل الهام بعين الاعتبار، وتحصر اهتمامها بالتفوق المادي فقط، فإنها تخاطر بفقدان التفوق المادي، لأن للعامل المعنوي أثرة الكبير على العامل المادي، وقد قال أنغلر في ذلك: «إن العنصر المعنوي يتحول رأساً إلى قوة مادية».

لقد اعتبر الكثير من الاستراتيجيين العسكريين أن حالة المقاتلين المعنوية والقوام الاجتماعي ــ السياسي للجيش من العوامل الهامة المؤثرة على الاستراتيجية العسكرية. ولكي نقدر بشكل صحيح الصلة التي تربط بين الاستراتيجية العسكرية والعامل المعنوي، ودور هذا العامل في الحرب، يجب الانطلاق من التحليل الموضوعي للتاريخ العسكري وشروط الحرب الحديثة وطبيعتها.

وقد انهمك الاستراتيجيون العسكريون من خلال انتقاداتهم الكثيرة للحرب العلمية في التفتيش عن دور المعنويات في استراتيجية الحروب التي خاضتها الجيوش على مرّ العصور، وتوصلوا إلى أن الحروب هي أحداث كبيرة تؤثر فيها العوامل المعنوية والمادية بشكل كبير.

وإذا نظرنا إلى معسكر الحلفاء في صيف ١٩١٨ ألفينا في قمته قيادة على مستوى عسكري رفيع، وقد أخذ فوش على غريمه لودندروف عدم إيلائه العامل المعنوي المكانة

التي يستحق، وحسبنا في ذلك قول فوش والقتال محتدم: «كلا الطرفين تعب، فمن صبر حتى الربع الساعة الأخيرة ظفر».

ونظراً للأمثلة الواضحة التي قدمتها الحربان العالميتان الأولى والثانية لكل مراقب للأمور، فقد ظهر بوضوح صلة الاستراتيجية العسكرية بالمعنويات. لأن تدمير العدو نهائياً، وهذا هو هدف الاستراتيجية العسكرية، يعني بتعبير آخر القتل الجسدي للجنود، أما المعنويات فدورها في الاستراتيجية العسكرية هو قتل شجاعة العدو، لأن المعركة لا تعتبره خاسراً نهائياً من الناحية المادية إلا عندما تهزم الروح المعنوية للقائد أو للجيش. وفي الصراع الراهن: القوى المادية هي مقبض السيف، والقوى المعنوية هي النصل اللامع لهذا السيف.

أ ــ مفهوم الروح المعنوية في الاستراتيجية العسكرية الأمبريالية

ينظر المفكرون في الجيوش الأمبريالية إلى الروح المعنوية للجيش على أنها مجموعة الخصائص العرقية والذاتية والنفسية والحياتية للضباط والجنود، والنابعة من طباع الشعب وعاداته القومية، دون أي اعتبار للشروط الاجتماعية ــ الاقتصادية والمصالح الطبقية للمجتمع. حتى إن بعض المفكرين الأمبرياليين يؤكد أن مصادر الروح المعنوية للشعب هي سعي الإنسان لحفظ النوع، وحب البقاء، والتضامن العرقي.

ولقد أخذت الدوائر الحاكمة الأميركية بعين الاعتبار وضع قواتها التي كان يتعين عليها العمل بعيداً عن حدودها الدولية. وعلى هذا النحو فقد كانت حالة القوات المسلحة الأميركية تتناسب بوجه عام مع المتطلبات التي فرضتها عليها الحروب، وبقي إعداد هذه القوات يتطلب درجات عالية من المعنويات. ولذلك كانت أكثر الحروب التي شنتها القوات الأميركية امتحاناً قاسياً لكثير من النظريات العسكرية، واختباراً صعباً لقمة الاستراتيجية العسكرية الأميركية.

تتلخص أهم الأهداف السياسية لحروب الدول الأمبريالية في احتلال الشعوب الأخرى واستعبادها. والطابع العدواني غير العادل لهذه الحروب يتطلب، وبإلحاح دائم، ضغط الرأي العام على المعتدين، مما يؤثر، وبشكل عكسي، على معنويات المقاتلين في الجبهة.

والحروب التي خاضتها القوات الأميركية بالنيابة في الفييتنام، وفي كوريا، وفي منطقة الشرق الأوسط اكتسبت طابعاً انهزامياً واضحاً لأن الفشل العسكري والسياسي كان من نصيب هذه الحروب.

ولقد نشأت الاستراتيجية العسكرية الأمبريالية تحت تأثير سياسة التوسع والاغتصاب التي رسمتها الأوساط الاحتكارية. وسعت هذه الاستراتيجية إلى فرض إرادتها على دول العالم، مستخدمة لذلك سلاح الضغط الاقتصادي والتهديد العسكري والاستفزاز. وقد سميت هذه الاستراتيجية بسياسة مواقع القوة. وليس مصادفة أن تعار مواضيع عامل المعنويات اهتماماً موجهاً، يتناسب وطبيعة الاستراتيجية الأمبريالية العدوانية. وبالطبع فإن الاستراتيجية العسكرية للقوات الأميركية تسعى إلى تخفيض الروح المعنوية لدول العالم، بإبرازها لمظاهر القوة والعظمة، من خلال استعراض قواتها، ونشر الكثير من العناوين الاستراتيجية مثل (استراتيجية حافة الحرب، واستراتيجية الرد الشامل، واستراتيجية الرد المرن، ومذهب الردع، والحروب الصغيرة أو المحدودة).

ب ــ الاستراتيجية العسكرية السوفييتية والمعنويات

كان لينين يقدر دور العنف والقوة المسلحة في القضايا الإنسانية تقديراً استثنائياً، كما كان مدركاً أن الحرب ليست عملاً عسكرياً صرفاً، وإنما هي ذات طابع دبلوماسي ومعنوي واقتصادي أيضاً.

وروسيا السوفييتية لم تتخل عن خوض الحرب بكل الوسائل المتوفرة، ولم تنس أبداً أن طرائق الحرب الأخرى ضرورية ترافق القوة العسكرية والعنف المسلح. فقد اعتبرت أن المعنويات سلاح أشد مضاء من باقي الأسلحة في ساحة الميدان.

لقد كان الألمان مصممين على تسديد ضربة قاضية إلى روسيا بحرب خاطفة، فحشدوا الجيوش والأساطيل لتنفيذ أهدافهم. وبالمقابل هيأ الروس أنفسهم لإبقاء قواتهم يقظة وجاهزة لخوض حرب طويلة الأمد، مع اعتمادهم الحرب الخاطفة، ولكن في نهاية الحرب وليس في بدايتها، وبالتوازي بدؤوا دعوة معنوية كبيرة، فراحت الأصوات تتعالى «من أجل الوطن».. تلك الصرخة التي أضرمت النار في النفوس، على اعتبار أن الدفاع عن الوطن هو القانون الأعلى للحياة. وبدأ التشجيع على الوحدة الوطنية وإحياء الاهتمام

بالتقاليد المجيدة رفعاً لمعنويات المقاتلين في الجبهة، واعتبرت الاستراتيجية العسكرية السوفييتية أن المعنويات منبع تعليمي غزير.

وقد ذهب لينين إلى أن «الحرب ما إلا اختبار شامل للقوى المادية والروحية لكل أمة، وأن الظفر في الحرب هو من نصيب الطرف الذي يملك احتياطاً أكبر ومصادر قوة أكثر، وقوة تحمُّل أشد في صفوف سكانه، وأن النصر في أية حرب يتوقف على الحالة المعنوية للجماهير التي تقف في ميدان المعركة».

لقد استطاعت الاستراتيجية السوفييتية تأمين الوحدة بين العسكرية والمعنويات تحت شعار (كل شيء للجبهة .. كل شيء في سبيل النصر). واعتبرت أن الروح المعنوية للقوات المسلحة السوفييتية نابعة من الوحدة الوطنية والسياسية للشعب السوفييتي.

ونستطيع القول إن المستوى المعنوي للقوات المسلحة مرهون بشكل أساسي بأهداف الاستراتيجية العادلة للحرب التي ستخوضها هذه القوات.

لقد اعتبر الكثير من الاستراتيجيين العسكريين أن حالة المقاتلين المعنوية، والقوام الاجتماعي السياسي للجيش من العوامل الهامة المؤثرة على الاستراتيجية العسكرية.

ولكي نقدر بشكل صحيح العلاقة التي تربط بين الاستراتيجية العسكرية والعامل المعنوي، ودور هذا العامل في الحرب، يجب الانطلاق من التحليل الموضوعي للتاريخ العسكري، وشروط الحرب الحديثة وطبيعتها.

لم يتم تقدير العامل المعنوي في مختلف العصور بشكل متشابه. وقد عرَّف القادة الروح المعنوية ودورها في الاستراتيجية العسكرية، فقال المارشال الألماني غون دركولتز: «لقد اتبع العرب، في حروبهم مع الفرس والروم، حرباً معنوية مدروسة. فقد اعتمد القادة العرب على الصدق في التهديد، كما وجهوا الأنصار لتحطيم إرادة القتال لدى العدو، وكانت مصادر قوتهم تكمن في الإيمان والانضباط والاستعداد للقتال».

«لقد طبق العرب استراتيجية بقعة الزيت (الخرشوفة) فأخذوا يدمرون مجموعات العدو على التتابع، ويوسعون قاعدة عملياتهم خطوة بعد خطوة، حتى إذا جاءت المعارك الكبيرة الحاسمة، كانت الجيوش العربية على استعداد نفسي كامل لخوض القتال، بينما

كانت إرادة القتال عند أعدائهم في حال إحباط كامل، وكان في ذلك سبب هام من أسباب النصر ».

وبعد ثلاثة عشر قرناً عرف العالم أنه ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

ــ قال نابليون: « إن ثلاثة أرباع النصر في المعركة يتوقف على العوامل المعنوية بينما يتوقف الربع الأخير على العوامل الأخرى ».

ــ وقال مونتغمري في إحدى خطبه: « إني أعتبر الروح المعنوية العامل الكبير والوحيد في الحرب، ودون روح معنوية عالية لا يمكن تحقيق أي نجاح، مهما كانت هناك خطط استراتيجية أو تكتيكية جيدة ».

ــ وقال تروتسكي: « لا يجوز للجيش أن يقاتل بنفسية التقهقر القاتلة، وقد أعجزته حالات الفرار والملل من الحرب واللا انضباط، يضاف إلى هذه الأمراض تفشي الدعاية التي تحض على السلبية والانهزامية ».

ــ وتحدث انغلز قائلاً: « يجب معرفة ما يمكن وما لا يجوز طلبه من الجيش دون أن يؤدي ذلك إلى تخفيض روحه المعنوية. كذلك يجب عند وضع الخطط الاستراتيجية عدم اعتبار مستوى الحالة المعنوية للقوات المسلحة في الفترة السابقة للحرب فحسب، بل ومستواها في بداية هذه الحرب وخلالها ».

إن شخصية القائد العسكري ومعنويات جيشه هما اللتان تحددان إلى مدى بعيد التصور الاستراتيجي للحرب. فالمعنويات قد تضع عقبات أمام تنفيذ الاستراتيجية العسكرية. ومن جهة أخرى يمكنها أن تدفع الجيش إلى عمل بطولي، كما أن الانتصارات العسكرية التي تحققها القوات في الميدان تؤثر بشكل جوهري على الحالة المعنوية للشعب والجيش، وإن هذه الحالة بدورها تحدد طبيعة الخطط الاستراتيجية بشكل عام والخطط العمليات بشكل مفصل.

ففي خطط الاستراتيجية العسكرية يحتل العامل المعنوي مكاناً هاماً، فإذا كانت السياسة بالأصل تتجاوب ومصالح الجماهير، فإن خطط الاستراتيجية العسكرية، والتي

تعتبر تعبيراً وانعكاساً للسياسة تجد دعماً لها في الجيش والشعب ، ودون ذلك فإن جميع الخطط الاستراتيجية تبقى خطوطاً وألواناً على خرائط القادة .

إن تبعية الاستراتيجية العسكرية للحالة المعنوية للجيش تتجلى في ضرورة تناسب هذه الاستراتيجية في غالب الأحيان مع الروح المعنوية للقوات المسلحة في اللحظة المعينة . والتاريخ مليء بالأمثلة التي تبين عدول القيادات الاستراتيجية العليا عن تنفيذ أو تأجيل التنفيذ للخطط الهجومية ، نتيجة انخفاض الروح المعنوية للقوات .

إلى جانب ذلك فإن رواد الاستراتيجية العسكرية يهتمون إلى جانب الإعداد المعنوي والنفسي والسياسي لشعوبهم وجيوشهم بخفض الروح المعنوية في جيوش الدول المعادية لهم وشعوبها . وهم يعتبرون أن هذا الاهتمام هو عمل حربي مستقل، يقف متساوياً مع أعمال القوات المسلحة بكل صنوفها .

ومن ناحية أخرى وجد بوفر أن الحركات الفكرية التحررية الحديثة ولدت ايديولوجية جديدة تنبع من نضال الشعوب في سبيل استقلالها ، واعتمدت هذه الشعوب — كعوض عن السلاح الثقيل والمعدات الحديثة — على القيم الإنسانية والقوى المعنوية . فظهرت الحروب الثورية في الوقت نفسه الذي تعاظمت فيه أهمية الروح المعنوية ، وأصبح النيل منها بالعمل السياسي مقدمة ضرورية تسبق المواجهة العسكرية .

وأدى تطور الأسلحة وظهور السلاح النووي ، وتطور الحرب الثورية ، والاهتمام بالروح المعنوية إلى بروز عدة مفاهيم استراتيجية جديدة ومحددة ، لذلك (فإن الاستراتيجية ليست عقيدة محددة ، بل هي فن الاختيار المناسب للأساليب الممكنة المتفقة مع حالة معينة) . ونظراً لتعدد الأساليب ، وتعديها للقوة العسكرية وحدها ، كان لزاماً أن يتسع مفهوم الاستراتيجية ليتضمن جميع عناصر القوة المتاحة . فأصبحت الاستراتيجية فن استخدام القدرات العسكرية والاقتصادية والمعنوية وغيرها ، وصولاً إلى تحقيق الغايات السياسية النهائية .

إن النجاح في المعركة ليس مرهوناً بالروح المعنوية وحدها ، مهما كان وزنها ثقيلاً في معايير الحرب ، إذ تتحقق الانتصارات أيضاً بالمعدات والانضباط ، وبالتفوق التكتيكي للقوات ، وبالتقيد بالمبادىء الاستراتيجية أيضاً .

يقول تروتسكي : «يجب أن تحصل كل وحدة في الجيش على مخصصاتها بانتظام، ويجب ألا يفسح المجال لكي تَفْسُد المواد الغذائية، ويجب أن تطبخ الوجبات بالشكل المناسب. يجب أن نعلّم جنودنا النظافة الشخصية، ونتأكد من أنهم يتخلصون من الحشرات. يجب أن يتقنوا تدريبهم تماماً، وأن يطبقوه في الهواء المطلق بقدر ما يستطيعون. يجب أن يتعلموا كيف تكون كلماتهم السياسية مختصرة ومعقولة، وأن ينظفوا أسلحتهم ويمسحوا أحذيتهم. يجب أن يتعلموا الرماية، وأن يساعدوا ضباطهم في فرض الرقابة الصارمة على الأنظمة، كي يبقوا على تماس مع الوحدات في الميدان».

وهكذا يبدو أن كل شيء ضروري لتحقيق النصر في المعركة، ويبقى الإنسان المقاتل المتصف بالمعنويات العالية، والمدرب تدريباً راقياً، والمقتنع قناعة كاملة بالهدف الذي يقاتل من أجله؟ ومن أجل من يقاتل؟ عنصر أساسي وهام في ترتيب أوليات عوامل نجاح المعركة.

ولتأمين نجاح العمليات الحربية من وجهة نظر الاستراتيجية العسكرية من الضروري توفر مستوى عال من الروح المعنوية ــ السياسية ليس لدى جميع أفراد الشعب فحسب، بل لدى القوات المشتركة مباشرة في الأعمال القتالية. حيث يمكن آنذاك تحقيق النصر عند تعادل القوى مع العدو، بل وعند تفوق العدو في بعض الأحيان. وتشهد بذلك أمثلة كثيرة من تاريخ الحروب القديمة والمعاصرة.

إن الصلة المتبادلة بين الاستراتيجية العسكرية والعامل المعنوي في الحرب تتجلى أكثر ما يكون في التبعية المتبادلة بين الانتصارات الاستراتيجية العسكرية والروح المعنوية، كأحد عناصر العامل المعنوي ــ السياسي للقوات.

كل ذلك يؤكد أن تقدير الحالة المعنوية ــ السياسية للشعب بأكمله، وبالتالي الخصائص المعنوية ــ العسكرية للقوات المحاربة عند وضع الخطط الاستراتيجية هو من الشروط اللازمة لنجاحها.

لا يؤثر العامل المعنوي ــ السياسي على طبيعة الأفكار الاستراتيجية فحسب، وإنما على طرق تنفيذها، ولا يمكن للقيادة الاستراتيجية ــ وهي تحدد هذه الطريقة أو

تلك من الأعمال الاستراتيجية ـــ إلا أن تأخذ بعين الاعتبار الحالة المعنوية ـــ السياسية لجماهير الشعب والقوات المسلحة لدى الطرفين المتحاربين.

وفي الحقيقة نستطيع القول إنه يتصارع في المعركة عاملان معنويان وأكثر من عاملين ماديين، وينتصر الأقوى.

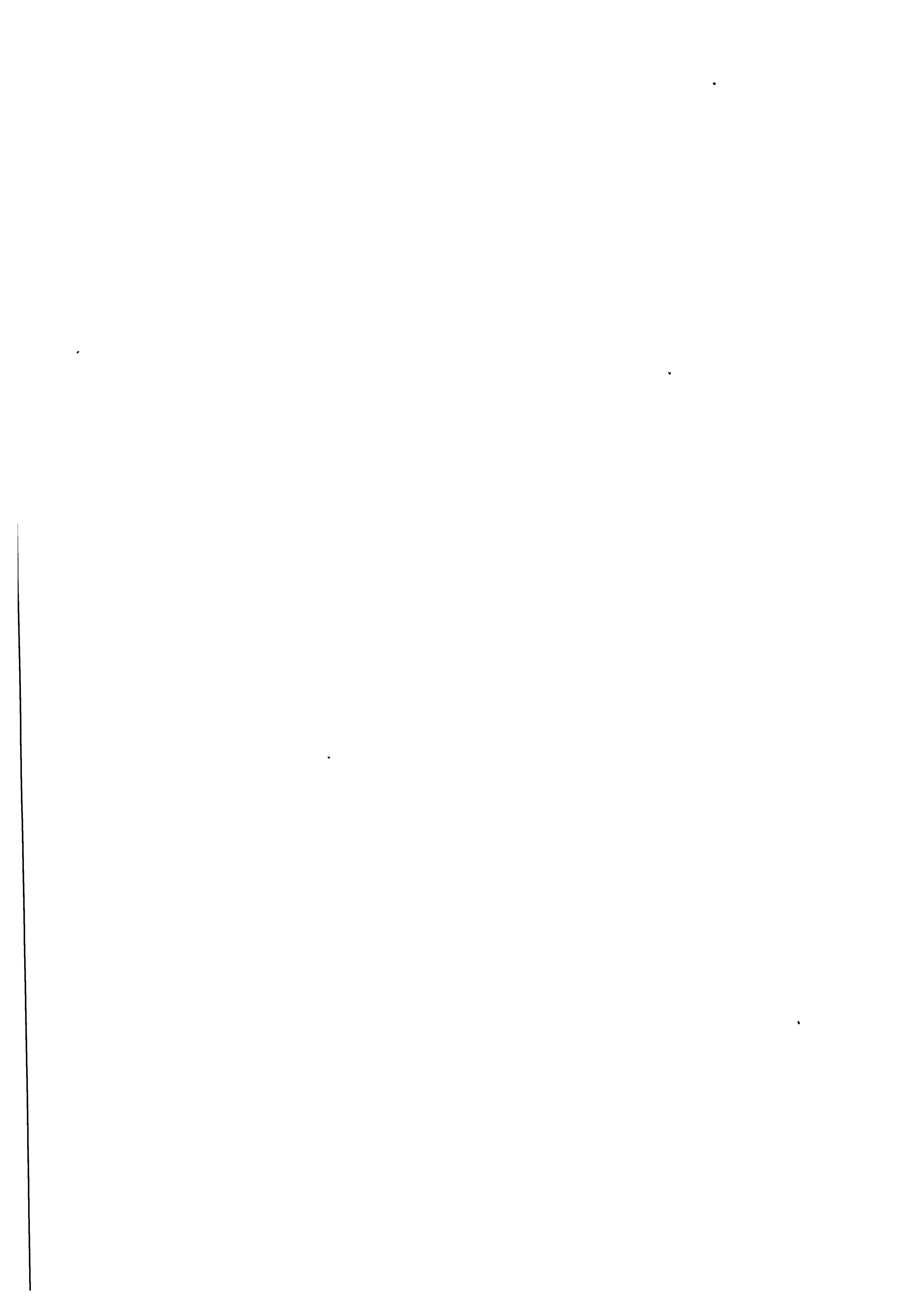
فالمعركة صراع بين إرادتين متعارضتين، وصدام بين قوتين معنويتين. ولقد أثبت التاريخ العسكري أن قوة عسكرية صغيرة تمتلك أسلحة تدمير محسنة، يمكن أن تحرز انتصارات بطولية على قوات كبيرة بالسلاح نفسه من خلال الجمع الموفق بين التكتيك والمعنويات.

وكما قال الجنرال فوش: «الاستراتيجية العسكرية مجال القوة المعنوية».

ونحن بدورنا نقول: هدف الحرب الحقيقي هو معنويات جنود العدو لا أجسادهم، وأفضل الاستراتيجيات هي التي تستهدف تحطيم مقاومة العدو دون قتال. لأن ثبات العامل المعنوي يؤدي إلى استنتاج نظريات للحرب تعتمد بالضرورة على نتائج واقعية، ومعارف عميقة بتاريخ الحروب. ولقد كان تحطيم توازن العدو المعنوي في أغلب الحروب مقدمة ضرورية لتحقيق سحقه وإحراز النصر الكامل.

إن التقدير الدقيق لكيفية تأثير المجال المعنوي وسيطرته على المجال المادي يعتبر عملاً غير مباشر في حدّ ذاته، ويذكرنا بسطحية المحاولات التي تهدف إلى إجراء تحليلات وبناء نظريات استراتيجية بشكل حسابي بحت، وعدم فائدتها.

إن اعتبار الاستراتيجية العسكرية عملية حسابية بعيدة عن التأثيرات المعنوية تتوقف نتائجها بصورة أكيدة على حشد الوسائط بصورة متفوقة في منطقة معادية مختارة أمر خاطىء كخطأ التفكير في الاستراتيجية على أساس هندسي، أي باستخدام كلمات الالتفاف والخطوط والزوايا. ولا يكفي القيام بضغط كبير على منطقة معادية مختارة إلا إذا كان العدو عاجزاً عن تقوية هذه المنطقة في الوقت المناسب، والقوات المتمركزة منهارة معنوياً، ومتأثرة نفسياً.



ثالثاً : الاستراتيجية العسكرية والمذاهب العسكرية

تعود المحاولات الأساسية لتركيز المعارف العسكرية في صيغ محدودة إلى القرن الثامن عشر ، عندما ظهر عدد من المبادىء النظرية العامة حول الاستراتيجية العسكرية ، تضمّن جميع الآراء التي لها طابع الشمول عن الحرب ، والتي تنطوي تحت لواء العلم العسكري الذي يبحث في الشؤون العسكرية وأنظمتها وفلسفتها . وفي الوقت نفسه دخلت الفلسفة والعلوم الاجتماعية والسياسية والمعنوية والنفسية في النظريات العسكرية المختلفة ، وتطورت فيما بعد لتصبح مذاهب عسكرية لها كامل أبعادها النظرية والتنفيذية .

ولما كانت الحرب ظاهرة اجتماعية وتاريخية محددة وحتمية بين الشعوب والمجتمعات المتناقضة ، فقد كان على الدولة أن تضع مذهبها العسكري بما يتلاءم مع سياستها العليا ، وطموحاتها الوطنية والقومية .

والمذهب العسكري فلسفة مرشدة ، ومجموعة آراء وأفكار حول جوهر الحرب المقبلة المحتملة ، وأهدافها وطبيعتها ، وحول إعداد البلاد والقوات المسلحة ووسائط الصراع اللازمة لخوضها ، ضمن استراتيجية معينة .

يتأثر المذهب العسكري بأصول تاريخية ، ويرتبط بالشعارات التي تلتزم بها الدولة أو الأمة .

فالأمة العربية ترفع شعار الوحدة العربية كهدف من أجل تحرير الأراضي العربية

المحتلة من الاحتلال الإسرائيلي، وبذلك تكون الحروب التي تخوضها ضد الأمبريالية والصهيونية عادلة ومشروعة.

وألمانيا النازية كانت تعتبر أن بسط نفوذها على أوروبا والعالم هو حق مشروع لها، نظراً لأن العنصر الجرماني الصافي هو الذي يجب أن يسود ــ على حدِّ زعم النازية ــ.

وإيطاليا الفاشية ترى أن من حقها السيطرة على حوض البحر المتوسط لاستعادة أمجاد أوروبا.

وإسرائيل ككيان ترى أن من حقها التوسع والاحتلال من أجل إعادة اليهود المشتتين في أنحاء العالم وتوطينهم في فلسطين المحتلة.

وللمذهب العسكري وجهان مترابطان:

الأول: سياسي ــ اجتماعي، من أجل تحقيق أهداف الحرب المقبلة.
الثاني: عسكري ــ تقني، من أجل خوض هذه الحرب.

وفي الحاضر كما في الماضي، تحمل المذاهب العسكرية في طياتها اختلافات في الأيديولوجية والمبادىء الأساسية للإعداد السياسي والمعنوي والنفسي، كما تحمل طابع الحرب المقبلة، ومسائل بناء القوات المسلحة، وتحسين تجهيزاتها التقنية، بالإضافة إلى أساليب التطوير اللاحق لفن الحرب وطرق خوضها.

والمذاهب العسكرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام السياسي للدولة، وبالأعباء الملقاة على عاتقها في قطاع السياسة الخارجية والداخلية، وبالحالة الاقتصادية والسياسية والثقافية للبلاد.

أما المبادىء الأساسية للمذهب العسكري فتحدد من قبل القيادة السياسية للدولة. لذلك فإن المذهب العسكري هو سمة من سمات الدولة.

أ ــ المذهب العسكري السوفييتي

اعتبر المذهب العسكري السوفييتي أن حرب المستقبل ستكون بالنسبة للاتحاد

السوفييتي حرباً ثورية لحماية الوطن من عدوان الأحلاف الأمبريالية، ورأى هذا المذهب كذلك أنه سيكون لهذه الحرب أهداف سياسية وعسكرية حاسمة.

قال لينين: «إذا كنا قد خضنا هذه الحرب بطاقة أكبر، وببسالة أشد، فذلك سببه أن جيشنا قد تكوَّن، وهو يعرف لأول مرة في التاريخ لماذا يقاتل».

وطبقاً لرأي فرونزه: «فإن الشروط الأساسية لصياغة مذهب عسكري مناسب هو تنسيقه بحزم مع الأهداف العامة للدولة، والمصادر المادية والروحية الموجودة في حوزتها».

ولد المذهب العسكري السوفييتي وتطور مع ولادة القوات المسلحة السوفييتية وتطورها. والسياسة السليمة التي ينتهجها الاتحاد السوفييتي في مجال العلاقات الخارجية تنبع من خصائص النظام الإشتراكي، ومن الشروط التي تتجلى في تلبية المطالب المادية والإنسانية المتزايدة للشعوب. والقضية السياسية «أصبحت مترابطة ترابطاً كاملاً مع القضايا العسكرية، تحدد أهداف الاتحاد السوفييتي وقواته المسلحة، وطبيعة وجوهر الاستراتيجية العسكرية الموجهة لصد العدوان الأمبريالي بنجاح». ومن هذه المقولة يتجلّى جوهر المذهب العسكري السوفييتي. وكما قال تشرشل واصفاً العلاقة بين الاستراتيجية الروسية والمذهب العسكري الروسي ببلاغة: «إنها أحجية محفوفة بالغموض داخل لغز، ولكن ربما كان لها مفتاح، وهذا المفتاح هو المصلحة القومية الروسية».

إن للمذهب العسكري السوفييتي صفة دفاعية حصراً، مبنية على مبدأ الرد المضاد. وقد أعلن ذلك على أعلى المستويات.

ففي إعلان الدول الأعضاء في معاهدة وارسو بتاريخ ١٩٨٠/٥/١٥ جاء صراحة دونما أي التباس «لم يكن لدينا قط، ولن يكون لدينا أبداً أي مذهب استراتيجي سوى المذهب الدفاعي».

كما أكد المذهب العسكري السوفييتي: إنه لن يكون أول من يلجأ إلى استخدام السلاح النووي، وأنه ضد جميع أنواع أسلحة الإبادة الجماعية بصورة عامة.

ب ـ المذهب العسكري الأميركي

يقوم المذهب العسكري الأميركي على استراتيجية الرد الشامل. وقد جاء على لسان المسؤولين الأميركيين: «إن على الولايات المتحدة أن تكون جاهزة لتوجيه ضربة نووية شاملة في الزمان والمكان المناسبين، وذلك خارج حدود أوروبا».

في الخمسينيات كان المذهب العسكري يعتمد على التهديد بإشعال الحرب العالمية النووية من أجل تحقيق أهداف أميركا الاستراتيجية السياسية والعسكرية.

وفي الستينيات ظهرت في أميركا استراتيجية جديدة، وهي أن الاستراتيجية يجب أن تكون مرنة وحاسمة في الوقت نفسه، وتلحظ الاستعداد لخوض أي حرب عالمية نووية أو تقليدية كبيرة أو صغيرة. وبالتالي فإن استراتيجية الرد المرن تناولت مجالاً واسعاً من الحروب، كما أنها تسمح بخوض ما يسمى بالحرب المحدودة، مع استخدام الوسائط النووية. وكانت تتجه كسابقتها إلى إحراز السيادة العالمية، ومجابهة الأنظمة الإشتراكية والتقدمية، وإخماد حركات التحرر الوطني في العالم.

وفي العام ١٩٧١ أعلنت واشنطن عن استراتيجية الردع الواقي، حين صاغت القيادة السياسية ــ العسكرية الأميركية وجهات نظر جديدة أدخلتها في مذهبها العسكري، حول طبيعة الحرب وتصنيفها. فقد قسمت الحرب إلى أربعة أنواع، حسب الوسائط التي تستدعى للإشتراك، ومقاييس التنفيذ، وتناسب القوى على ساحة الصراع، وهي: «الحرب النووية الاستراتيجية الشاملة ــ الحرب النووية المحدودة على مسرح العمليات ــ الحرب التقليدية الشاملة ــ الحرب التقليدية المحدودة على مسرح العمليات».

ولوحظ على عتبة الثمانينيات انقلاب مفاجىء في الاستراتيجية الأمبريالية، وغدت القوة، والقوة وحدها المؤثرة في سياسة واشنطن الخارجية، وراح رجال الدولة وكبار المسؤولين العسكريين الأميركيين يهددون بحرب نووية، ويعلنون عن مناطق هامة في العالم تقع على بعد آلاف الكيلو مترات من القارة الأميركية، أنها غدت مناطق مصالح حيوية لواشنطن.

ووفقاً لمبادىء المذهب العسكري للولايات المتحدة التي تقترح وترسم الإعداد ومجرى الحروب العدوانية في أراضي ما وراء البحار، فإن قوات أربع قيادات موحدة من أصل خمسة ووسائطها منتشرة حتى في زمن السلم خارج الولايات المتحدة في أوروبا، وفي المحيط الأطلسي، والمحيط الهادى، وفي القارة الأميركية. ولذلك وبناء على المهام العسكرية المطلوبة، فقد قسمت القوات الأميركية إلى قوات استراتيجية وقوات عامة، وقوات ووسائط نقل القطعات، وقوات احتياطية، وقوات تدخل سريع لتأمين التدخل العسكري المباشر للولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط بصورة خاصة، وأية منطقة أخرى في العالم.

هذا بالإضافة إلى انتشار شبكة متطورة من القواعد العسكرية في جميع المناطق المهمة استراتيجياً في العالم، كي تنفذ سياسة توسعية إجمالية، وتؤمن لهذه الغاية الوجود الدائم لتجمعات هامة من القوات العسكرية الأميركية، على مسارح ما وراء البحار، ولتردفها بالتعزيز في حالة الأزمات.

ويعترف المذهب العسكري الأميركي بطبيعته العدوانية.

هذا ما أكده مستشار الرئيس الأميركي للأمن القومي في تصريح له، في أيار عام ١٩٨٢ بقوله: «إن سياسة الولايات المتحدة التي تستند على القوة العسكرية، تعتمد برنامجاً طويل الأمد لزيادة حجم القوات العسكرية الأميركية، وتحسين الترسانة النووية الاستراتيجية في المجال الأول».

ومن المعروف أن النموذج الاستراتيجي الأميركي وضع في البداية على أساس أن البنتاغون الأميركي، ومعه معظم المنظرين الاستراتيجيين، كان يعتقد «أن الولايات المتحدة حصلت على التفوق التكنولوجي بشكل نهائي وإلى الأبد». وهكذا أصبح الأميريكيون أسرى لمذهبهم العسكري، على الرغم من أنهم لاحظوا أن الردع بدأ يرتد ضدهم، بسبب التعادل العسكري الذي حققه الاتحاد السوفييتي. وينبغي أن ننوه هنا بأن تلاؤم المذهب العسكري للولايات المتحدة، والمفاهيم الحربية الاستراتيجية لحلف الأطلسي، مع تناسب القوى المتغير، كان كل مرة يهدف إلى الإبقاء على الحرب كواسطة، لتحقيق المساعي السياسية ذات الطابع العدواني.

والخلاصة أن فكرة العمل من موقع القوة سيطرت على المذهب العسكري الأميركي. وظَهْر كتاب (دليل ضابط الركن في القوات المسلحة الأميركية) يعرف الاستراتيجية العسكرية بأنها: «فن استخدام القوة المسلحة وعلمها، بغرض تحقيق أهدافها السياسية القومية، عن طريق استخدام القوة أو التهديد بها».

ج ـ المذهب العسكري الألماني

تجلّى المذهب العسكري لألمانيا النازية بإنشاء ألمانيا الكبرى التي تضم العنصر الجرماني وتنمية الروح العنصرية. وأصبح كتاب (كفاحي) الذي ألفه هتلر إنجيل الشعب الألماني حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد كانت القوات المسلحة بالنسبة لألمانيا النازية هي الحد القاطع في آلة الحرب. ولم تكن الحرب في استراتيجيتهم العسكرية الشاملة مجرد خطوة أولى ضد العدو، وإنما هي مذهبهم العسكري كملاذ وحيد، وأخير، وحتمي، لتحقيق الاستيلاء والتوسع.

كتب هتلر يقول: «لا يمكن أن يكون هناك أي بعث للشعب الألماني ما لم يستعد قوته الخارجية.. وإن أفضل سلاح هو أداة ميتة وعديمة الفائدة ما دامت تفتقد الروح الجاهزة والمصممة والعازمة على استخدام ذلك السلاح».

وتضمن المذهب العسكري الألماني العديد من الإجراءات أهمها: عمليات صهر الشعب في وحدة واحدة، وتنفيذ حرب الأعصاب عن طريق الاضطهاد القاسي جداً، والدعاية الماهرة في وسائط الإعلام المختلفة للانضباط الحزبي، ومظاهر الفخار القومي، وتنمية الروح العسكرية، والتفوق العرقي، وتقديس الدولة، وأخيراً الاعتماد على انقسام الرأي العام خارج حدود ألمانيا.

والواقع فإن المذهب العسكري الألماني اعتمد أساساً على أن الاستراتيجية العسكرية الألمانية لم تنتهج على خط محدد واضح فيما بين الحرب والسلام، باعتبار أن الحرب لا السلام هي الحالة الطبيعية للمجتمع.

وبما أن الحرب في رأي النازيين لم تعد تتألف من العمليات العسكرية لوحدها، أو حتى إنها لم تعد في المقام الأول، فإن سياسة ألمانيا لم تكن سوى استراتيجية موسعة تشمل

الاقتصاد والسياسة وعلم النفس وأسلحة أخرى غير عسكرية، وكان العمل السياسي يجري دائماً وباضطراد.

د ـ المذاهب العسكرية الغربية الأخرى

تشكلت المذاهب العسكرية الغربية الأخرى وتطورت بعد الحرب العالمية الثانية بناء على الموقف الدول الناشىء، والتبدلات في نسبة القوى لمختلف جيوش العالم، وظهور وسائط جديدة للصراع المسلح.

وعلى الرغم من وجود اختلاف ظاهري للمذاهب العسكرية الغربية، إلا أن جوهرها بقي ثابتاً من غير تبديل، واعتمدت جميعها على القوى النووية والدعم الأميركي، من أجل السيطرة على العالم.

هـ ـ المذاهب العسكرية في الدول النامية

ظهر الفن الحربي للدول النامية في أثناء حروب المقاومة التي خاضتها هذه الدول ضد المحتل، وخلال الانتفاضات المسلحة للشعوب ضد قوات الاحتلال. وقد برز خلال هذه الحروب والانتفاضات عدد من النظريات العسكرية التي ساعدت كثيراً في ظهور فن الحرب المتطورة والمذاهب العسكرية المتقدمة في الدول الكبيرة.

وأهم الحروب التي ساهمت في خلق وتطوير مذاهب عسكرية لها صلة وثيقة بالاستراتيجية العسكرية هي: الحروب الفييتنامية ـ حرب التحرير الوطنية الجزائرية ـ الثورة الشعبية الكوبية ـ العدوان الثلاثي على مصر ـ عدوان حزيران ١٩٦٧ ـ حرب تشرين ١٩٧٣ ـ الحرب الإيرانية ـ العراقية ـ الحرب اللبنانية ١٩٨٢ ـ غزو أميركا لجزيرة غرينادا ـ العدوان الأميركي على ليبيا ١٩٨٦.

و ـ المذهب العسكري الإسرائيلي

يتميز المذهب العسكري الإسرائيلي عن معظم المذاهب العسكرية الأخرى بتبنيه الدين اليهودي، ودروس التاريخ العسكري لليهود جنباً إلى جنب مع الدروس الحربية المستقاة من التاريخ العسكري العالمي القديم والحديث، والاعتماد المطلق على دعم الولايات المتحدة الأميركية ومساندتها. ولم تنحصر هذه القيم في الجهاز السياسي والعسكري

فحسب، بل انتقلت إلى المجتمع الإسرائيلي ذاته، لتوجد علاقات اجتماعية تقوم على خلق جيل فاشي جديد يعطي للقيم العسكرية النزعة العدوانية.

وهكذا أصبح المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً عسكرياً حربياً متطوراً، والقوة العسكرية هي الوسيلة الرئيسية الوحيدة لتحقيق مطامع هذا الكيان. ولم تكن الوسائل السياسية والاقتصادية والإعلامية وغيرها سوى توابع للوسيلة الرئيسية مرتبطة بها وخادمة لها.

يتمحور المذهب العسكري الإسرائيلي حول فكرة إسرائيل الكبرى، إذ تشكل هذه الفكرة جوهره وغايته الرئيسية في الوقت ذاته. وقد كانت العسكرية الإسرائيلية الوسيلة التي استعملتها إسرائيل في تحقيق أهدافها السياسية الاستراتيجية.

وانطلاقاً من الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية المرسومة، أنشأت إسرائيل لنفسها مذهباً عسكرياً خاصاً بها. وإذا كان معظم المذاهب العسكرية قديمها وحديثها قد تضمن تعاليم في الدفاع والهجوم، فإن المذهب العسكري الإسرائيلي يعتمد في الأساس على أن إسرائيل لن تهزم إلاّ مرة واحدة، فإما أن تنتصر وإلا فالهزيمة تعني الزوال النهائي من الوجود.

لقد اعتمد المذهب العسكري الإسرائيلي ركائز أساسية اشتقها المخططون من واقع إسرائيل السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والجغرافي. والركائز هي: الحرب الوقائية ــ الردع ــ التفوق ــ نقل الأعمال القتالية إلى أرض العدو ــ سياسة الأمر الواقع ــ استثمار الموقف الدولي ــ الانتقام السريع.

لقد تركت الاستراتيجية العسكرية في المجتمع الإسرائيلي نزعة دائمة وعميقة من الحقد على العرب، وشجعت العنف، وكان تركيزها الدائم على الخطر الخارجي الذي طبع المذهب العسكري الإسرائيلي بالعنصرية، والتفوق، والتعصب الأعمى.

ولقد أنيطت بإسرائيل منذ قيامها مهمة خوض معارك الأمبريالية بالنيابة، من أجل إشغال البلدان العربية، وعرقلة تقدمها ووحدتها، وإبقائها متخلفة ممزقة، تمهيداً لإخضاعها كلياً للهيمنة الأمبريالية ــ الصهيونية.

وبعد حرب تشرين ١٩٧٣ أعلنت إسرائيل وبشكل سافر عن الخيار النووي «إن

يقلق العالم ، فهذا لا يؤثر فينا إطلاقاً » . هذا ما أعلنه افرايم كتسير رئيس الكيان الصهيوني السابق رداً على سؤال أحد الصحفيين حول قلق الأوساط الدولية من امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية .

كما جاء في صحيفة يديعوت أحرونوت يوم ١٩٧٦/٤/١١ على لسان موشي دايان «إن على إسرائيل الوصول إلى خيار نووي حتى يعرف العرب أننا نستطيع تدميرهم فيما إذا نشأ وضع أصبحت بموجبه الدولة كوجود معرضة للخطر » .

هذا ويجمع المخططون الاستراتيجيون في الكيان الصهيوني على أن الشرط الأساسي لتحقيق الأهداف الصهيونية هو استمرار التمسك بالمفاهيم الأمنية الاستراتيجية التي تعتبر أساساً للمذهب العسكري الإسرائيلي ، وتتمثل بالحفاظ على إسرائيل قوية ومتفوقة بشكل مطلق على الدول العربية من الناحية التكنولوجية .

لقد أثرت حرب تشرين عام ١٩٧٣ على المذهب العسكري الإسرائيلي تأثيراً كبيراً . فلقد أجبرت هذه الحرب القيادة العسكرية الإسرائيلية على إعادة النظر في كيفية خوض الحرب مع دول عربية تتقارب معها في التوازن العسكري . (الحرب الوقائية ، تعزيز الطاقة التقنية ، الحرص على المبادرة في الهجوم .. إلخ) .

فهرس الجزء الأول

الفصل الأول
طبيعة الحرب

الفصل الثاني
الاستراتيجية العسكرية

الفصل الثالث
وسائط الصراع المسلح المعاصرة وتأثيرها على طابع الحرب

الفصل الرابع
الجغرافية الاستراتيجية (الجيوستراتيجيا)

الفصل الخامس
أسس الاستراتيجية

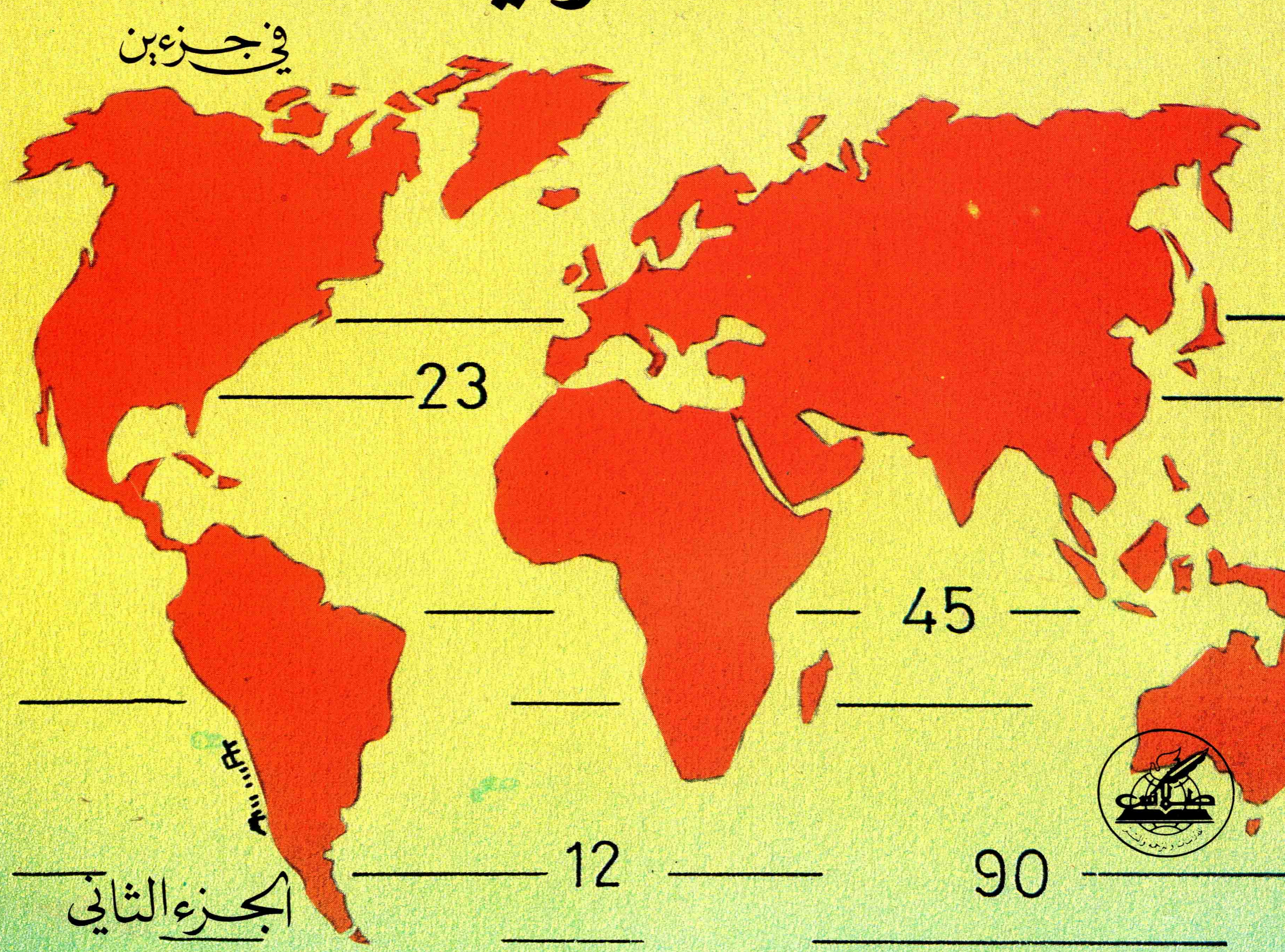
الفصل السادس
الاستراتيجية المباشرة والاستراتيجية غير المباشرة

الفصل السابع
صلة الاستراتيجية بالسياسة والمعنويات والمذاهب العسكرية

مجموعة من الباحثين
بإشراف
العماد الدكتور مصطفى طلاس

الاستراتيجيّة السياسيّة العسكريّة

في جزءين



الجزء الثاني



دمشق: اوتستراد المزة ــ مقابل مدخل ملاعب مدينة الجلاء الرياضــية
حي فيلات شرقية 3 ــ حارة فايز منصور (10) ــــ ص. ب: 16035
هاتف: 6618013 – 6618961 تلفاكس: 6618820 ــ برقيــاً: طلاســدار
E-mail:info@dartlass.com Website:www.dartlass.com

مكتبة دار طلاس ــ دمشق ــ فكتوريــا ــ بنــاء المصــرف التجــاري فــرع 9 ــ هــاتف: 2319558

ريــع الــدار لهيئة مدارس
أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

الاستراتيجيّة السياسيّة العسكريّة

طبعة ٢٠١١

مجموعة من الباحثين
بإشراف
العماد الدكتور مصطفى طلاس

الاستراتيجيّة السياسيّة العسكريّة

في جزءين

الجزء الثاني

الفصــــل الثامـــن

تطور الاستراتيجية
حتى بداية الحرب العالمية الأولى

١ ـــ حروب الفراعنة

تطورت مصر ، مهد الحضارة ، تطوراً بطيئاً عبر قرون متتالية . ولقد ضاعت معظم معالم تلك الحضارة ، وما كشفت عنه المعابد والأوابد التاريخية ، لا يشكل أكثر من ملامح عامة لتلك الحضارة المميزة ، والتي يكوّن (فن الحرب) فيها جزءاً هاماً بالتأكيد . وبالرغم من ذلك ، فإن الملامح العامة التي أمكن الكشف عنها قد تكون كافية لاستخلاص فكرة عن ذلك التطور ، الذي وصلته مصر في عهد الفراعنة . ولقد اتفقت الأبحاث والدراسات الحديثة على تقسيم تاريخ مصر القديمة إلى مراحل ، فكان منها :

مرحلة المملكة القديمة (٣١٠٠ ـــ ٢٢٠٠ ق . م) ، والتي ضمت بدورها ثلاث ممالك هي : المملكة القديمة ، والمملكة الوسطى والمملكة الحديثة . وتميزت هذه المرحلة بتوحيد القبائل المنتشرة على وادي النيل تحت قيادة القائد (مينا ـــ أو الفرعون نعرمر) . وهنا يظهر أن القيادة العسكرية هي التي مارست دورها في فرض الوحدة على شعب وادي النيل الذي أصبحت ممفيس عاصمة له .

تأتي بعد ذلك مرحلة المملكة الوسطى (٢١٥٠ ـــ ١٧٨٠ ق . م) وفيها تعاظمت القدرة العسكرية الفرعونية ، وقام الفرعون (منتوحوتب) الذي نقل العاصمة إلى طيبة عام ٢١٥٠ ق . م ، كما قاد جيوشه لفتح النوبة . غير أن مظاهر هذه القوة لم تلبث أن خبت باستيلاء الهكسوس الذين دخلوا مصر وحكموها طوال مائتي سنة . إلى أن جاء الفرعون (أحمس الأول) ، فطردهم من وادي النيل . وبذلك بدأت المرحلة الحديثة

(١٥٧٥ ـــ ١٢٠٠ ق . م) وهي المرحلة التي تميزت بتعاظم القدرة العسكرية المصرية ، وبالحروب التوسعية . ولم تكن هذه الحروب التوسعية استيطانية بقدر ما كانت اقتصادية ، هدفها الأول الحصول على المواد الأولية ، واستيفاء الجزية ، مع ترك أمور الإدارة لأبناء البلاد الأصليين . ثم جاءت الفترة الحديثة ـــ أو المتأخرة (١٢٠٠ ـــ ٥٢٥ ق . م) وفيها بدأ مجد مصر الفرعونية بالانحسار ، نتيجة غزوات الشعوب المجاورة . فقد قام النوبيون بغزو مصر (٧٣٠ ق . م) ، ثم تبعهم الآشوريون (٦٧١ ـــ ٦٦٥ ق . م) فنقلت عاصمة مصر إلى مدينة (سايس ـــ اوصا الحجر) . وجاء بعد ذلك الفرس الذين اجتاحوا بلاد مصر (٥٢٥ ق . م) ، وأخيراً جاء الإسكندر المقدوني فاحتل مصر (٣٣٢ ق . م) ، ودمجها ضمن أقطار امبراطوريته الإغريقية ، حتى جاء يوليوس قيصر ، وخلفاؤه (٣٠ ق . م) فدمجوا مصر بأقاليم الدولة الرومانية ، ففقدت مصر كيانها المستقل .

لقد أفادت مصر من موقعها المنعزل ، حيث تحيط بها الحواجز الطبيعية من صحارٍ وبحار ، فأقامت حضارتها المميزة ، والتي اعتمدت فيها على قدراتها الذاتية ، وعلى جهود أبنائها . غير أنها ما لبثت أن انفتحت على العالم ، ولكنها برغم ذلك احتفظت بمميزاتها وخصائصها . وهذا ما جعل هناك تشابهاً كبيراً بين هذه الحضارة ، والحضارة الصينية المعاصرة لها . ولقد انعكس ذلك بداهة على القدرات العسكرية ، وعلى فن الحرب ، والتي بقيت أساس الحضارة ودعامتها . إذ عرفت مصر في تلك الحقبة تنظيم الجيوش الضخمة ، وأتقنت إدارة الحروب . والأهم من ذلك هو أنها عرفت الحدود الفاصلة بين متطلبات الحروب ، واحتياجات السلم ، والعلاقة الثابتة القائمة بينهما . وقد ظهر ذلك واضحاً في التجارب المتتالية لحروب الفراعنة .

لقد تجلت القدرة الحربية لمصر الفراعنة بصورتها الواضحة في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، والتي بدأها (أحمس الأول) بطرد (الهكسوس) ، وإعادة مصر إلى حدودها الطبيعية . فمهّد بذلك لابنه (أمينوفيس الأول) الذي عمل على توسيع حدود بلاده ، فوضع حجر الأساس للسياسة التوسعية التي استمر العمل بها طوال مئة وخمسين عاماً . وكذلك فعل ابنه (تحتمس الأول) الذي عمل على توسيع رقعة الدولة ، فشملت بلاد النوبة جنوباً ، وشملت بلاد الشام شمالاً (فلسطين وسوريا) . ثم توقفت الفتوحات لمدة عشرين سنة ، إلى أن جاء (تحتمس الثالث) ، الذي قاد جيشاً في السنة الأولى من

حكمه ، في طريقه ، إلى فلسطين . والتقى بأعدائه الحثيين ، في مجدو ، والذين كانوا تحت قيادة أمير قادش . فباغتهم تحتمس بالهجوم ، ومزقهم شر ممزق ، فولوا الأدبار تاركين معسكرهم بما فيه . وأسرع تحتمس لاستثمار النصر ، فتابع تقدمه شمالاً حتى استولى على البلاد كلها بغير عناء . وانصرف بعد ذلك لتنظيم العلاقات مع أبناء البلاد ، وأعد بعض موانىء الساحل ، لتكون قواعد للسفن المصرية . ولكن قادش عادت فأعلنت تمردها ، فعاد تحتمس الثالث وقاد جيشه وأسطوله في العام الحادي والثلاثين من حكمه (وهي الحملة السادسة في جملة حملاته على بلاد الشام) ، فاستولى على بلاد الشام كلها ، ووصل إلى الفرات ، واستولى على مدينة كركميش ، بعد أن عبر الفرات بسفن حُمِلت أجزاؤها على عربات ، فانفتحت أقاليم الفرات أمام الجيش الفرعوني . وبدأت مملكة ميتاني بالتقرب إلى مصر ، فقدمت خضوعها وهداياها ، وحذت حذوها مملكة ناشئة أخرى هي مملكة خيتا في آسيا الصغرى ، وكذلك فعلت مملكة آشور وبابل . وأصبحت مصر منذ ذلك الحين صاحبة النفوذ في غرب آسيا . كما أصبحت جميع ثغور بلاد الشام ، وجزر البحر المتوسط ، داخلة تحت حكم مصر بفضل أسطولها القوي . واستمر تحتمس يوالي حملاته إلى أن كانت الحملة السادسة عشرة (في العام الثاني والأربعين من حكمه) . وكانت مدينة قادش ــ على خط مدينة حمص حالياً ــ قد عادت فأعلنت العصيان بتحريض من ملك ميتاني ودعمه ، وانضمت إليها مدينة تونييب . ونشبت معارك دارت فيها الدائرة على قادش . وبسقوطها وتدميرها للمرة الثانية ، تم القضاء على كل أثر للمعارضة ضد الحكم الفرعوني . ولم ينتقم تحوتمس الثالث من الأمراء الذين حاربوه ، بل قبل منهم الولاء ، بعد أن أقسموا له يمين الطاعة . ولكنه عمل على أن يأخذ معه بعض أبنائهم إلى مصر ، ليتعلموا مع أبنائه وأبناء كبار رجال الدولة ، ولينشؤوا على حب مصر . كما أخذ معه العمال المهرة في البناء ، من الشام وبلاد ما بين النهرين ، وظهر ذلك واضحاً في الأعمال الفنية المعمارية والتزيينية . وفتحت مصر أبوابها لأبناء البلاد الذين أخذوا في ارتياد مصر ، بعضهم للتجارة وبعضهم للاستقرار على أرض وادي النيل .

يمكن بعد ذلك تجاوز مرحلة من الزمن ، للوصول إلى عهد رمسيس الثاني الذي نشأ نشأة عسكرية . فقد عينه أبوه قائداً لسلاح المركبات والمشاة ، وهو في العاشرة من عمره . فلما توفي والده سنة ١٢٩١ ق . م ، خرج رمسيس الثاني بجيشه لطرد الحثيين

الذين كانوا قد أعادوا فرض سيطرتهم على بلاد الشام . وكان هذا الجيش يضم أربع فرق ، حملت كل واحدة منها اسم أحد آلهة المصريين (آمون ، ورع ، وبتاح ، وست) . وكان مجموع أفراده عشرين ألفاً ، وأوغل جيش رمسيس في بلاد الشام حتى وصل نهر العاصي ، دون أن يعثر على أثر للحثيين ، فما كان من رمسيس إلا أن أمر جيشه بالتفرق ، بحيث تسير كل فرقة من الفرق الأربع بمعزل عن الأخرى في وادي العاصي . وبقي هو مع الفرقة القائدة (آمون) . والتقى رمسيس الثاني برجلين من البدو ، فاستجوبهما ، وعرف منهما أنه لا أثر للحثيين في المنطقة . فأسرع بفرقته نحو مشارف مدينة قادش ، وهو يجهل أن هذين الرجلين لم يكونا إلا عملاء للحثيين ، كانت مهمتهما خداع المصريين وتضليلهم عن جيش الحثيين الذي كان قد احتل مواقعه ، وأخفاها بعناية عند مشارف الطرف المقابل من المدينة . وعندما اقتربت الفرقة الثانية من قادش (وهي فرقة رع) هاجمها الحثيون من الجانب ، فالتجأت إلى معسكر فرقة آمون الذي لم يكن قد أنهى إعداده بعد ، وكانت في أعقابهم ٢٥٠٠ عربة قتالية للحثيين . وفي تلك اللحظة اليائسة ، جمع رمسيس الثاني حرسه الخاص ، وقام بشن ست هجمات قتالية على أضعف نقطة في خطوط الحثيين ، فتمكن بذلك من رد عدد كبير من مقاتلي أعدائه ، وإرجاعهم على أعقابهم نحو نهر العاصي . وفي أثناء ذلك ، كان باقي الحثيين يعملون تخريباً في معسكر آمون . وبينما هم منهمكون في هذا العمل ، أغارت عليهم فصيلة من جند الجيش المصري ، وأبادتهم إبادة كاملة . وهنا وصلت فرقة (بتاح) فبادر الحثيون بالانسحاب إلى داخل مدينة قادش المحصنة . وعاد رمسيس الثاني إلى مصر ، مكتفياً بما أحرزه من نصر حاسم . وتوفي بعد ذلك ملك الحثيين (مواتاليس) ، وخلفه على الحكم ملك جديد (خاتوسيليس) . فلم يمضِ وقت طويل حتى عادت قادش إلى أيدي المصريين . ووجد كل من الملكين المصري والحثي ، أن استمرار القتال بينهما لن يفيد أي واحد منهما . فاتفقا على عقد معاهدة سلام بينهما (في العام الحادي والعشرين من حكم رمسيس) ، وتكونت المعاهدة من ثمانية عشر بنداً ، ومهرت بأختام فضية ، ونصت على إيقاف الاقتتال بين الجانبين ، واحترام كل من الطرفين حدود أراضي الطرف الآخر ، وأن يتبادلا الدعم في حال تعرضهما للهجوم من عدو مشترك الخ ...

لقد لوحظ وجود ثلاثة أسلحة أساسية في جيوش العصر الامبراطوري المصري

القديم (٢٧٧٨ ــ ٢١٦٠ ق.م). وهذه الأسلحة الأساسية هي: المشاة وعربات القتال أو الخيالة، وهندسة الحصار والجسور. ولقد تطور تقسيم الأسلحة إلى قطعات خفيفة، وأخرى ثقيلة، تتباين بنوع الحماية المؤمنة للأفراد، ونوع السلاح الذي يحملونه، والمهمات التي يكلفون بتنفيذها. وتكون القطعات الخفيفة عادة قليلة الحماية، أو دون أدنى حماية على الاطلاق (إلا في سلاح عربات القتال). وهي مجهزة للاشتراك في المعركة بواسطة الرمي أو القتال الطائر ــ الكر والفر والإغارات ــ أما القطعات الثقيلة فهي محمية بشكل أفضل، ومسلحة للقيام بالصدمة. ومن الملاحظ أن الخيالة وعربات القتال لم تأخذ في هذه المرحلة مهمة القيام بقتال الصدمة، كما أن الحماية تزايدت لدى سكان ما بين النهرين، حتى سببت تفوق جيوش هذه المنطقة على المصريين. ولقد ظهرت منذ ذلك العصر مشكلة تنسيق عمل وسائط الرمي مع وسائط الصدمة. لقد كان التسليح المختلط نادراً في صفوف المشاة. بينما كان باستطاعة عربات القتال أن تحمل أسلحة متنوعة بسهولة تامة (رماح، أقواس، ونبال، سيوف، تروس). ولكنها آثرت تقليد المشاة، وبقي الرمي وسيلتها القتالية الوحيدة. وكانت تكاليف صناعة عربات القتال على ما يظهر كبيرة، ولهذا فإنها لم تسمح للجيوش بزيادة تعدادها إلى أكثر من الثمن (واحد إلى ثمانية) من التعداد الكلي.

كانت المباغتة الاستراتيجية آنذاك وسيلة معروفة، فقد قام الحثيون بخداع رمسيس الثاني، وباغتوه مباغتة كاملة في قادش. غير أن تحقيق هذه المباغتة كان صعباً في كثير من الأحيان، ذلك أن التضاريس والحواجز الجغرافية كانت ترغم الجيوش على القيام بتقرب مباشر، عبر المسالك المعروفة والطرق المعهودة والمحروسة بالقلاع. وكان على القادة الإفادة من معرفة عادات العدو وطباعه، لمباغتته وأخذه وهو في حالة عدم احتراس. ولقد كان البحث عن المباغتة عاملاً لتوجيه الحملات في أوقات غير متوقعة (الليل)، أو في فصول غير مناسبة (الشتاء). وعلى سبيل المثال فقد قام سيروس بحملة صيفية ضد كريسوس، وكان نصيبه الفشل، مما دفعه للقيام بهجوم غير متوقع في قلب الشتاء، مخالفاً بذلك العادات المتبعة آنذاك، مما مكنه من مباغتة خصمه وحصره في (سارس) سنة ٥٤٠ ق.م. وقد كان فرض المعركة على الخصم عملاً سهلاً آنذاك بالرغم من ضخامة كتلة الجيوش وضعف تمفصلها، ذلك لأن كلاً من الجيشين المتحاربين كانا

يعملان على المحاور ذاتها ، ولا يمكنهما الابتعاد بعضهما عن بعضهما الآخر إلا بالتراجع ، ولهذا السبب لم تستمر بعض الحملات لأكثر من بضعة أشهر .

٢ ـــ الحروب الصينية

لقد ترك الصينيون القدماء بناء (سور الصين العظيم) برهاناً على ما وصلت إليه حضارتهم من التطور في الأزمنة الغابرة ، ودليلاً على ما بلغه فن الحرب خلال تلك الحقبة التاريخية السحيقة من التقدم والازدهار . وقد بقي تاريخ فن الحرب الصيني غامضاً ، تلفه غلالات من السحر الشرقي الأخّاذ ، غير أن ما تركه كتّاب الصين العسكريون من آثار ، قد حفظت ، برغم قلتها وإيجازها ، بعضاً من الروائع التي أمكن لها تبديد بعض ذلك الغموض ، وتفسير بعض تلك الأسرار . ولعل الظاهرة الأكثر الأكثر إثارة في تلك الكتابات القديمة هي احتفاظها بالكثير من قيمتها وأهميتها ، حتى الأزمنة الحديثة . ذلك لأن هذه الكتابات كانت ثمرة تجربة قاسية ومرّة عاناها شعب الصين عبر صراعاته المستمرة ، وخرج منها بدروس مستخلصة ، أضافت رفداً خصباً للتجربة الإنسانية . وهكذا فإن تجربة (فن الحرب الصيني) لم تكن من صنع رجل واحد ، ولا من نتاج حقبة معينة ، وإنما هي حصيلة جهد مستمر عبر عهود متتالية ، تتابعت فيها على حكم الصين مجموعة من (السلالات الحاكمة) . فكانت كل سلالة تضيف إلى إرثها رفداً جديداً من المعرفة العسكرية التي أبرزها بشكلها الواضح كاتب الصين العظيم (صن تزو) ، حيث كانت الحرب في عصره نوعاً من الطقوس . وكانت الحملات الموسمية تقاد بموجب عُرْفٍ متفق عليه . وكانت المعارك ممنوعة في الأشهر المخصصة للزرع أو للحصاد . وكان الفلاحون في الشتاء يقبعون في أكواخهم الطينية ، إذ كان الطقس بارداً جداً وغير مناسب لخوض الحرب ، أو كان حاراً جداً في الصيف . كما كانت الحرب محظورة ـــ نظرياً ـــ في أشهر الحداد التي تلي موت أحد الأمراء . وكان يمنع قتل الرجال المسنين ، أو جرح عدو مجروح من قبل . ولم يكن (الحاكم الإنساني ليدمر المدن) أو (ينصب الكمائن لجيوش العدو) أو (يحتفظ بجيشه على مدار أيام السنة) . فالأمير العادل هو الذي لا ينحط إلى درجة خداع عدوه ، أو الذي يحاول الحصول على فائدة غير مشروعة من خصمه . ففي سنة ٥٩٤ ق . م قاد ملك شو (شوانغ) جيشه ، وألقى الحصار على عاصمة سونغ .

وطال الحصار ، وبدأ جيشه يفتقر إلى المؤن ، فأرسل وزير حربه ليستطلع أحوال العدو ، وعندما عرف أن هذا العدو يعاني من ضائقة شديدة إلى درجة «أنهم كانوا يتبادلون أولادهم ويأكلونهم فاصلين عظامهم عنهم» صاح : «يا للأسف ، إنها شدة عسيرة حقاً» ، ورفع الحصار ، وعاد إلى بلاده .

وهكذا ميز ملوك الصين وفلاسفتهم بين (**الحرب العادلة**) و(**الحرب غير العادلة**) . فالملك أو الأمير الذي يستمد سلطته من (الإرادة السماوية) لا يستطيع خوض الحرب إلا إذا كانت عادلة ، مثل القيام بالهجوم على بلد مختلف ، أو شن الحرب لتمدين مجتمع همجي ، أو معاقبة المرتدين والمتمردين ، أو إنقاذ البلاد من الخراب . وكان قادة القوات المقاتلة من أفراد الطبقة الأرستقراطية . وكانت الجيوش في الصين القديمة جيوشاً خاصة . فكان الملك ذو السيادة يستنفر النبلاء وأمراء الإقطاعات الذين كانوا يسرعون لتقديم العربات والخيول والفؤوس والجند ــ المشاة ــ والطباخين والحمالين الخ . . . وكان من الطبيعي أن يختلف حجم ما تقدمه كل إقطاعية ، تبعاً لقوتها واتساعها ووفرة عددها . وبما أن قيمة الفلاح كانت أدنى بكثير من قيمة ثور أو حصان ، فإنه لم يحظَ بأي اهتمام خاص ، فالعبيد الطيعون لم يضطلعوا إلا بدور بسيط في معارك ذلك الزمن . وكان الدور الأكبر هو للعربة ذات الخيول الأربعة التي كان يمتطيها سائق وحامل رمح ونبيل من الرماة ، أما المشاة الذين كان لا يحميهم سوى ستراتهم المبطنة ، فكانوا يتجمعون حول العربات . وكانت نسبة بسيطة من الرجال المختارين يحملون الدروع المصنوعة من الخيزران . وكانت أسلحتهم مكونة من السكاكين والسيوف القصيرة والرماح المطلية بالبرونز . أما القوس ، فكان سلاح النبلاء . وكانت طبيعة الأرض وملاءمتها لسير العربات هي التي تحدد شكل المعركة .

تميزت المعارك في الصين القديمة بطابعها البدائي ، ولم تؤدِ غالباً إلى نتائج حاسمة ، وكان الفريقان عادة يعسكران أحدهما مقابل الآخر لمدة أيام ، يعمل العرافون والمنجمون خلالها على دراسة التنبؤات ، بينا يقوم القادة بالإعداد للمعركة . وعندما تأتي اللحظة المختارة من العرافين ، فإن الوحدات المقاتلة التي كانت تشق أصوات أبواقها وطبولها عنان السماء ، تقذف بثقلها ضد العدو . وكان القرار المحلي يتخذ بسرعة ، ويتم تنفيذه فوراً . إذ لم يكن الموقف يحتمل التعقيد ، فإما أن يكون المهاجم قد صُدَّ ، وسُمح له بالانسحاب

وإما أن يكون قد نجح في اختراق التشكيلات المدافعة المعادية، وقتل أولئك الذين كان باستطاعتهم القيام بمقاومة فعالة، وقام بمطاردة الجنود الهاربين لمسافة نصف ميل ــ لا أكثر ــ، واستولى على كل ما له قيمة، ليعود بعدها إلى معسكره وبلاده. وقليلاً ما كان يتم استثمار النصر. فالعمليات المحدودة كانت تنفذ للحصول على أهداف محدودة. غير أن الأفكار المهيمنة على إدارة الحرب قد أخذت في التغيير اعتباراً من سنة ٥٠٠ ق.م ــ أو قبل ذلك، وأخذت المعارك تكتسب درجة أكبر من القوة والعنف. وتعتبر المعركة التي وقعت سنة ٥١٨ ق.م بين جيشي (يو) و (شو) نموذجاً لهذا التغيير. **فقد أصدر (أميريو) أمره بزج ثلاثة آلاف رجل من الذين صدر الحكم عليهم بجرائم مختلفة، ووضعهم على نسق أمام قواته، وقام أولئك الرجال ــ أمام أنظار العدو ــ بالانتحار جماعياً بقطع رقابهم. وعندئذ نزل الهلع بجيش شو وحلفائه، ولاذوا بالفرار**. وعلى كل حال، فإن هذه الظاهرة في التطور نحو العنف قد ارتبطت بتطور اجتماعي آخر، أتاح فرصاً أوفر للمواهب الفردية. وكانت عملية التطور الاجتماعي تسير بصورة بطيئة، ولكن بثبات، بحيث شمل هذا التطور جميع مرافق الحياة في الصين، وفي طليعتها مجال الحياة العسكرية. فبعد أن فشل نظام جمع الضرائب، الذي لم يكن ثابتاً أو مستمراً، استُبدِل بنظام ضرائبي ثابت. وتبع ذلك تأسيس الجيوش الدائمة التي يقودها ضباط محترفون. واعتمدت هذه الجيوش بدرجة أكبر على الفلاحين، وأصبحت الجيوش تضم إليها الرجال المدربين والمنظمين، ممن كانت تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والستين. وكان كل جيش يضم نخبة مختارة للصدام وللعمل، بما يمكن وصفه (رأس الحربة). **وقد ظهرت التشكيلات الأولى لهذه القوات المنظمة حوالي سنة ٥٠٠ ق.م. وخضعت لتدريب مستمر طوال سبع سنوات**. حتى بات باستطاعتها السير مسافة مئة ميل تقريباً دون استراحة. وكان حرس الملك يلبسون الدروع والخوذ، ويحمل كل فرد منهم قوساً وخمسة عشر سهماً، ورؤوس سهام إضافية، وسيوفاً، ومؤونة لمدة ثلاثة أيام ــ من الأرز ــ. وفي ذلك الوقت أيضاً بدأت القوات الخفيفة بالظهور. وبوجود جيوش مجهزة كهذه، ومكتملة العناصر، لم تعد الأعمال القتالية محدودة بفترة زمنية معينة من أيام السنة. وأصبحت القيادة تضم أعداداً كبيرة من الأخصائيين: من متنبئين بالأحوال الجوية، إلى راسمي الخرائط، وضباط الشؤون الإدارية، والمهندسين الذين يعملون في حفر الممرات ووضع الألغام والأفخاخ آنذاك. وكان بعض

الخبراء الآخرون أيضاً يختصون بعمليات عبور الأنهار. والعمليات الهجومية بواسطة النار أو الدخان. ونظراً لأن الجيش قد أصبح يضم قادة محترفين، وأخذ يمثل استثماراً ضخماً للدولة، فإنه قد تم توجيه جهد خاص للروح المعنوية، مع بذل المزيد من الاهتمام لتموين القوات، وتم وضع نظام المكافآت والعقوبات (الانضباط). وهكذا رفعت الروح المعنوية للجيش، الذي أصبح على استعداد لاقتحام النيران، وخوض البحار والأنهار، إذا ما أمره قائده بذلك. وكان يتم ترفيع الجنود الذين يظهرون كفاءة قيادية، مع منحهم المكافآت. فأخذ دور الارستقراطية بالانحسار تدريجياً. ولقد طور في تلك الفترة — على الأغلب — مبدأ القيادة الجماعية. **فكان القادة الذين ينسحبون دون أوامر يعدمون، أما إذا تراجعت مجموعة صغيرة وبقي قائدها يحارب وحده في المعركة، فإنه كان يتم قطع رؤوس أولئك الذين تخلوا عنه. أما إذا انسحب قائد وحدة ما فالإعدام مصيره. وكانت هذه القوانين الصارمة خطوة نحو التقدم.**

٣ — الحروب الإغريقية

يحاول الباحثون الغربيون وكتابهم ومؤرخوهم إضفاء هالة خاصة على الحروب الإغريقية، وما عبرت عنه من تطور فكري وحضاري. باعتبار أن الحروب الإغريقية قد نجحت في إقامة أول امبراطورية غربية — شرقية، فجسدت بذلك طمع الغرب الدائم للسيطرة على الشرق، وبرهنت وفقاً لما يعتقده الغربيون على تفوق الإنسان الغربي — المتحضر —. وقد لا تكون هناك حاجة لدحض مثل هذه المقولة وأشباهها. فقد كان الشرق متفوقاً بفن الحرب وبتطوره الحضاري، منذ أقدم العصور. وليست الحضارة المصرية والحضارة الصينية إلا برهاناً على سبق الإنسان المصري والإنسان الصيني والإنسان المتحضر في بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات في مجال التطور والحضارة. وكان (فن الحرب) هو أساس تلك الحضارات جميعاً. والمعروف أن الحضارة الإغريقية التي وصلت ذروتها في عهد الإسكندر الكبير — أو الإسكندر المقدوني — لم تكن إلا ثمرة قصيرة العمر لمخاض طويل. ففي الفترة ما بين (٢٥٠٠ — ١٥٠٠ ق.م) ظهرت الحضارة الكريتية التي رفع علمها السكان الأوائل من البيلاجون، والتي عرفت باسم الحضارة المينوينية — حيث بقيت بعض آثارها متمثلة في قصور مدينة كنوسوس،

وحصونها المثيرة المبنية على شكل متاهات ومحاطة بجدران سميكة. وكان الهنود ــ الأوروبيون (العرق الأوراسي) قد هبطوا إلى اليونان سنة ٢٠٠٠ ق. م. وأخذوا في الاستقرار فيها. وبدأ الآخينيون بتطوير حضارة جديدة في جزر البيلوبونيز، وهي الحضارة التي مثلتها بقايا القلاع القوية في ميكيني وتيرينت، وهي إنشاءات جبارة بلغ وزن حجر منها في ميكيني ١٢٠ طناً. وفي سنة ١٢٠٠ ق.م انطلق الآخينيون بقيادة ملك الملوك ــ آغاقون ــ لحصار طروادة (١١٩٣ ــ ١١٨٤ ق.م). ثم وصلت موجة جديدة من الهنود الأوروبيين (الأوراسيين أيضاً)، فأعاقوا مسيرة التطور الإغريقي، بسبب طردهم لخيرة أبناء البلاد. إلا أن هذه الموجة التي حملت اسم الأوريين أسهمت في استعمار شواطىء آسيا واستيطانها. ويمكن تجاوز هذه الفترة من العهد القديم، للوصول إلى الفترة الموصوفة باسم (العهد الكلاسيكي) حيث تزعمت المدينتان إسبارطة وآثينا العالم الإغريقي. وأظهرت إسبارطة في عهد ليكرغوس (٨٢٠ ق.م) دورها القيادي، بما توافر لها من القدرة العسكرية التي تميزت بالشدة والانغلاق والعنصرية. ثم انتزعت أثينا الشغوفة بالحرية السيادة في عهد صولون، واشتركت المدينتان إسبارطة وأثينا بصفتين هما: اعتمادهما على الرياضة (إذ تم تنظيم أول أولمبياد سنة ٧٧٦ ق. م) وكذلك مطامعهما التوسعية التي قادت الإغريق إلى صقلية وقبرص وإفريقية ومصر. ولقد ضاعت الملامح الرئيسة لهذه الطفولة الاستراتيجية، لتبرز بعدئذ واضحة اعتباراً من (الحرب الميدية) التي بدأت بالاجتياح الفارسي لحدود اليونان سنة ٤٩٠ ق. م، وكان هذا الاجتياح قليل المدى، محدود الاتساع، غايته تلقين اليونانيين درساً قاسياً، وإشغالهم بأنفسهم، حتى لا يعملوا على دفع الرعايا اليونانيين في آسيا الوسطى للثورة ضد الفرس. وقد عمل الفرس على تدمير مدينة أرتيري المنافسة لأثينا، وعملوا على تهجير سكانها إلى منطقة الخليج العربي، ثم جاء دور أثينا. وكانت جماهيرها الشعبية تنتظر التدخل الفارسي ليدعم موقفها ضد طبقة النبلاء. وبدلاً من السير مباشرة نحو أثينا، أنزل الفرس جنودهم في ماراتون بهدف جذب الجيش الأثيني نحوهم، ليفسحوا المجال لأنصارهم للاستيلاء على السلطة من داخل المدينة، بعد خروج القوات الأثينية منها. وقدّر الفرس أن سيرهم مباشرة إلى أثينا سيقوي من وحدة العناصر المختلفة في المدينة، ويعيق حدوث الإنقلاب فيها، ويعرض قوات الهجوم لصعوبات الحصار المتعددة. ونجحت خطة الفرس. وسار جيش أثينا نحو ماراتون لمقابلتهم، واستعد الفرس عندئذ لتنفيذ القسم الثاني من مخططهم الاستراتيجي،

فأعادوا تحميل معظم قواتهم على السفن، تحت حماية مفرزة من الجند، بغية التوجه إلى فالير للقيام بإنزال القوات هناك، لتتجه بعد ذلك إلى أثينا التي خلت من حاميتها. ولكن القائد الأثيني ميلتياد هاجم مفرزة التغطية الفارسية بعنف ودون انتظار، وانتصر بفضل قوة دروع اليونانيين، وطول رماحهم. وهي ميزة كانت دوماً مصدر تفوق اليونانيين على الفرس. وكانت المعركة قاسية مرّة بالنسبة للطرفين المتصارعين. واستطاع القسم الأكبر من المفرزة الفارسية الانسحاب والالتحاق بالأسطول الفارسي. وعاد اليونانيون فوراً نحو عاصمتهم، وتم إنقاذ العاصمة بفضل سرعتهم. وترددت الجماهير التي فقدت الأمل، فلم تقدم على مساعدة الفرس. ولما وصل الخبر إلى الفرس، وجدوا أنفسهم مرغمين على حصار المدينة إن هم أرادوا احتلالها. فنشروا قلوعهم عائدين إلى آسيا، خاصة وأن (ملك الفرس داريوس الأول) لم يجد هذه الحملة التأديبية جديرة ببذل تضحيات باهظة.

أفاد اليونانيون من تجربتهم فقرروا سنة ٤٨٧ ق. م تطوير أسطولهم البحري حتى يصبح قادراً على تحقيق التفوق، بما يعادل تفوق الفرس في القوات البرية. وأمكن لهم تنفيذ هذا القرار بيسر وسهولة، نتيجة انشغال الفرس بالقضاء على الثورة التي اندلعت ضدهم في مصر (٤٨٦ — ٤٨٤ ق. م). غير أن الخطر الفارسي ما لبث أن جثم على أفق اليونان — وبدرجة أكبر من السابق. فقد شرع ملك الفرس الجديد (كسيركسيس الأول) بالإعداد لمشروع غزو كبير يتم تنفيذه بالتحرك البري، نظراً لصعوبة نقل الجيش الكبير بحراً، كما تم اتخاذ التدابير لتأمين إمداد الجيش بواسطة الأسطول، نظراً لصعوبة تأمين الإمداد والتموين من البلاد التي سيجتاحها الجيش الكبير. وبذلك ارتبط تحرك الجيش بالشاطىء، وارتبط تحرك الأسطول بالجيش البري، فعرف اليونانيون اتجاه الهجوم الذي سيسلكه عدوهم بصورة أكيدة. وأسهم هذا الخطر في دفع اليونانيين لتوحيد صفوفهم، ومجابهة العدوان بإرادة موحدة وعزيمة صادقة.

كان قائد اليونانيين (ثيمستوكل) يخاف من انسحاب حلفائه (أهالي البيلوبونيز) من المعركة، وتركه وحيداً في مواجهة أعدائه الفرس والمتفوقين عليه في البر قدر تفوقهم في البحر، فلجأ إلى الحيلة، وكتب إلى كسيركسيس كتاباً أبلغه فيه عن استعداد الأسطول اليوناني للانضمام إليه. وابتلع كسيركسيس الطعم، وصدق الأمر، ودفع بأسطوله عبر الممرات الضيقة القريبة من سالامين. واستعدت سفن أهالي البيلوبونيز للانسحاب من

المعركة في صبيحة اليوم التالي ، إلا أنها وجدت أن سفن الفرس قد سدت في وجهها جميع المنافذ المؤدية إلى عرض البحر . وتظاهرت مفرزة يونانية بالانسحاب فجذبت خلفها الأسطول الفارسي الثقيل ، مما أفقده ترتيبه وتنظيمه . ولما أوغل الفرس في تقدمهم عبر الممرات المائية الضيقة ، انسحبت السفن اليونانية ، وأسرعت المراكب الفارسية للحاق بها ، فتكدست في كتل متراصة ، وفقد الأسطول الفارسي إذ ذاك ميزة تفوقه العددي . ولم يبق أمام سفن الأسطول اليوناني إلا الانقضاض على مجنبتي الأسطول الفارسي . ووقف كسيركسيس وجيشه على البر وهم ينظرون مكتوفي الأيدي إلى عملية تحطيم أسطولهم الحربي ، ووسيلتهم الرئيسية للإمداد والتموين . ولم يبقَ أمام الفرس إلا العودة إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والفشل . وكان لمعركة سالامين نتائجها المثمرة ، فقد امتنع الفرس بعد ذلك ولمدة سبعين عاماً عن التعرض للأثينيين ، أو مهاجمتهم .

وأفادت أثينا من ذلك ، فطورت قدرتها البحرية ، وفرضت هيمنتها على المدن اليونانية كلها ، وهي الهيمنة التي استمرت حتى حرب البيلوبونيز حيث حاولت إسبارطة وحليفاتها العمل منذ البداية لاجتياح بلاد الآتيك بصورة مباشرة ، ولكن (بيريكليس) منع ذلك مستخدماً سياسة حربية تعتمد على تجنب الاشتباك مع الإسبارطيين في البر ، للإفادة من التفوق البحري اليوناني ، وتدمير إرادة العدو الهجومية ، بمجموعة من الأعمال التخريبية ، وتفتيتهم باستمرار حتى يصلوا إلى مرحلة العجز عن القيام بالأعمال الهجومية .

٤ ــ الحروب الرومانية

عندما بدأت روما بشق طريقها الصاعد نحو المستقبل ، وجدت أن الدولة الفينيقية ــ القرطاجية ــ قد سدت عليها الآفاق ، فقد كانت الدولة العربية الفينيقية قد أقامت حضارتها المزدهرة بزعامة صيدا ، منذ عهد بعيد (٢٥٠٠ ــ ١٢٠٩ ق . م) . حتى إذا ما دمر العبرانيون هذه الدولة ، قامت مدينة صور بتزعم الفينيقيين ، وأرسلت موجاتها نحو الغرب . فشيدت المستوطنات في (ايزسيوم وزوجتيان ــ في طرابلس الغرب وتونس) ، ثم شيدت قرطاجة عام ٨٤٠ ق . م بالإضافة إلى مجموعة المستوطنات التي تم إنشاؤها منذ القرن الثاني عشر ق . م . على سواحل الأندلس ، وصقلية ، وغربي الأطلسي (عوتيقة

وقادس وقرطاجة في الأندلس). فكان من طبيعة الأمور أن تصطدم القوة الصاعدة (روما) بالقوة الهرمة (قرطاجة). وقد أسفر هذا الصدام عن حرب حملت اسم (الحرب البونية). وإذا كانت قرطاجة قد اعتمدت في حروبها على المرتزقة ــ بحكم مجموعة العوامل التي تحكمت بتكوينها، فقد نهجت روما ومنذ البداية على تنظيم قواتها معتمدة على مواطنيها. فكانت الحروب البونية، في وجه من وجوهها، صراعاً مسلحاً بين جيش مرتزق وجيش وطني. فالجيش الروماني الذي غيّر وجه العالم القديم، قد سار نحو التطور والتكامل بصورة بطيئة. وكثيراً ما كان يقتبس باستمرار من الجيوش الأخرى ــ ومن عدوه ــ أفضل ما كان متوافراً من أسباب التسلح، فأخذ الرومان عن الغاليين الترس، وعن السمنيين المزراق، وعن الإسبان السيف القاطع، وعن اليونانيين والقرطاجيين ركوب البحر، وآلات الحصار، وأسلحة الخيالة.. وعلى كل حال، فقد يكون بالمستطاع تجاوز ملامح ذلك التطور البطيء، والذي تجلى بصورته الواضحة خلال الحرب البونية، كما أن هذه الحرب قد حفزت روما لدفع عجلة التطور بصورة متسارعة، بحيث أمكن خلال المرحلة الأولى من الحرب إحراز تقدم، تجاوز كل ما أمكن الحصول عليه من التطور في السابق. وقد بدأت الحرب البونية عندما استولى الرومان على مسينا في سنة ٢٦٤ ق.م. وأخذوا في تضييق الخناق على سيراقوزة، حتى أرغموا ملكها على التوقيع على معاهدة لمدة خمسين سنة، التزمت فيها سيراقوزة بدفع غرامة حربية، وتموين الجيش الروماني بالأغذية والعتاد الحربي. وضمنت روما بهذه المعاهدة حليفاً يحمل معها أعباء تموين جيشها المحارب في صقلية. وشعر الرومان بنشوة النصر فتابعوا إخضاع المدن الصقلية ــ القرطاجية الواحدة تلو الأخرى، حتى لم يبقَ لقرطاجة بعد ثلاث سنوات من الحرب إلا بعض الحصون البحرية في صقلية. فما كان من قرطاجة إلا أن وجهت تهديداتها للمدن الرومانية، مستفيدة من تفوقها البحري، مما دفع روما للعمل أيضاً على زيادة قدرتها البحرية.

كانت روما تزيد كل يوم من قدراتها الحربية والبحرية، ولم يقدر القرطاجيون خصومهم كما يجب، ولم يخطر في مخيلتهم أن روما الحديثة العهد بركوب البحر، ستتحداهم في البحر كما في البر. وظهر ذلك في ربيع سنة ٤٢١ ق.م عندما باغت الأسطول الروماني أسطول قرطاجة في ميناء ليليبايوم، فأغرقوا له خمسين سفينة، واستولوا على مئة وسبعين سفينة أخرى، كانت محملة بالأرزاق والعتاد، وعلى متنها عشرة آلاف

رجل، مما اضطر القائد القرطاجي (هملقار بركة ــ أو برقا) للانسحاب من حصن أريكس، وسواه من الحصون الصقلية الأخرى. وجرت على الأثر مفاوضات بين ممثلي الطرفين الروماني والقرطاجي، وتم الاتفاق على أن تنسحب قرطاجة من جميع مواقعها في صقلية، وأن تلتزم بعدم محاربة حلفاء روما، وأن تعيد الأسرى الرومان دون فدية، وأن تدفع خلال عشرين سنة غرامة تغطي نفقات الحرب. وقد قبل القرطاجيون هذه الشروط القاسية، إلا أن الشعب الروماني رفض هذه الشروط، فأرسل مجلس الشيوخ الروماني عشرة مندوبين لتعديل بنود الاتفاقية، فأضاف المفاوضون الرومان بنوداً جديدة، مثل قيام قرطاجة بالجلاء عن مختلف الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا (جزر أرخبيل ليباري)، وأن تتعهد قرطاجة بعدم تجنيد محاربين من المرتزقة الايطاليين، مع رفع الغرامة الحربية التي نصت عليها الاتفاقية الأولى، وإنقاص مدة تسديدها إلى عشر سنوات. وكان من الطبيعي أن ترفض أعظم دولة في العالم ــ خلال تلك الفترة ــ هذه الشروط المهينة والمزرية. فمضت الدولتان في استعداداتها للجولة التالية. وكان (هملقاد بركة) قد مضى إلى إسبانيا، ومعه أولاده الثلاثة: هاني بعل وأسد رئبال ــ أو أسد روبال ــ وماغون أو ماهون، وأخذ في إعادة تنظيم القوات القرطاجية، استعداداً للثأر من روما، غير أن سهماً أصاب منه مقتلاً خلال محاصرة مدينة ألسي الثائرة، فتولى ابنه (هاني بعل) قيادة الجيش القرطاجي، وأخذ في زيادة قدراته وإعادة تنظيم قواته. ولم تكن هناك حاجة لاختراع ذرائع الحرب، فقد كانت حججها وذرائعها وأسبابها متوافرة، لا سيما وأن روما كانت تزيد من تصعيد التوتر يوماً بعد يوم، إلى درجة أنها أخذت في تنظيم جيش لغزو الأندلس. وكان هاني بعل قد أنهى استعدادته، وشكل جيشه من ٥٠ ألف مقاتل من المشاة و٩ آلاف من الفرسان، بالإضافة إلى ٣٧ فيلاً. فأصدر أمره في ربيع سنة ٢١٨ ق.م بالتحرك نحو الشمال. وكان عليه اختراق جبال البيرينه، ثم جبال الألب، وسط صعوبات لا توصف. إذ كان من المتعذر على هاني بعل الحصول على الطعام والمأوى لجيشه الكبير، ولكنه سار أمام كتائبه غير هياب ولا وجل. ولم يثنِ القرطاجيين عن قصدهم برد ولا جوع. وكانت القبائل المعادية تحرس كثيراً من المضائق الجبلية التي كان على جيش هاني بعل أن يمر فيها بصورة إجبارية. فكانوا ينقضون على القرطاجيين من كل فج عميق، ويسلبونهم ما معهم. وكان الحابل يختلط بالنابل في الممرات الضيقة، فتتعثر المواشي والدواب المثقلة بما تحمله من العتاد، وتسقط على الأرض، بينما تجرح الخيول بحراب البرابرة

الجبليين ، فتجمح من شدة الذعر ، وتسيخ أقدامها في الأعماق . وبعد مسيرة تسعة أيام ، بلغ الجيش القرطاجي قمم الجبال ، فعسكر يومين ليتمكن جنده من أخذ قسط من الراحة ، بعد الصعاب التي تحملوها والمشقات التي تعرضوا لها . ولم يكن الجنود الذين جاؤوا من إفريقية قد ألفوا مناخ الثلوج والصقيع . فأخذ التذمر ينتشر في صفوفهم . ولكن سرعان ما أيقظ هاني بعل الروح المعنوية في رجاله عندما أراهم سهل البو ، وأشار إلى أن هذا الوادي هو إيطاليا ، وأنه يقود إلى الحلفاء الغاليين .. وهناك الطريق إلى روما . ثم بدأت مرحلة الهبوط ، التي لم تكن أقل صعوبة من مرحلة الصعود . إذ كثيراً ما سقط الجنود في الوديان السحيقة . وعندما وصل الجيش القرطاجي أخيراً إلى السهل ، كان قد فقد نصف قوته تقريباً ، بحيث بقي مع هاني بعل ٢٠ ألفاً من الجنود المشاة و٦ آلاف من الفرسان و ٢١ فيلاً .

كانت روما تتابع تحركات جيش قرطاجة ، فأسرعت لوضع جيشين أولهما في اريمينيوم (ريميني حالياً على البحر الأدرياتيكي) . والثاني بقيادة القنصل فلامينوس ، للتمركز في آريتيوم (آريزو حالياً في منطقة أترورري) ، وذلك لمنع هاني بعل من الوصول إلى روما . ودرس هاني بعل طبيعة الأرض ، لتجنب الطرق الطويلة المؤدية إلى أترورري ، والتي يعرفها الرومان جيداً ، وقرر السير عبر المستنقعات . وسار بجيشه أربعة أيام وثلاث ليال وسط المناطق المغمورة بالمياه . فأنهكه التعب والنعاس ، وفقد كثيراً من الخيول والرجال . وعندما خرج من هذا المأزق كان الجيش الروماني لا يزال في آريتيوم . ولم يقم هاني بعل بأي هجوم مباشر ، وفكر بأن تجاوز الموضع الذي يحتله الرومان ، والسير بعيداً في مناطق يعتبرونها تحت حمايتهم ، سيزعجان قائد الجيش فلامينوس ، ويعرضانه لانتقاد مواطنيه الرومان ، ويضطرانه للانطلاق المجنون وراء الجيش القرطاجي . وكان تفكير هاني بعل هذا نموذجاً للتطبيق الحاذق للمناورة على مؤخرة العدو ، تلك المناورة المبنية على معركة العدو بصورة دقيقة ، وعلى معرفة طبيعة مسرح العمليات . ولقد نظم هاني بعل في أثناء انطلاقه على طريق روما أكبر كمين ناجح في التاريخ . وفي صباح يوم من أيام سنة ٢١٧ ق . م سقط الجيش الروماني الذي كان يطارد هاني بعل في الفخ المحكم على طول الهضاب المحاذية لبحيرة ترازيمين . وهاجمه هاني بعل من الجبهة والمؤخرة في آن واحد ، فتمت إبادته (وذلك على الرغم من قوته الكبيرة إذ كان عدد أفراده قد تجاوز الأربعين ألف مقاتل) .

لم يتوجه هاني بعل إلى روما مباشرة بعد انتصاره الحاسم في ترازيمين. وبقي ذلك سراً من الأسرار الغامضة التي طواها التاريخ في صفحاته. ولم يتمكن من إيجاد تأويل لها أو تفسير، الأمر الذي أتاح لروما أن تتنفس الصعداء، وأن تكتسب الوقت لإعادة تنظيم أمورها، فنظمت جيشاً أسندت قيادته إلى القنصل فابيوس، الذي عرف في التاريخ باسم (المماطل أو المسوف) نسبة إلى استراتيجيته التي اختارها، وهي تجنب الاشتباك مع هاني بعل في معركة حاسمة، والعمل على إزعاجه باستمرار، بالإغارات والهجمات المحدودة لاستنزاف قدرته. وقد أعطت هذه الاستراتيجية ثمارها، إلا أن المماطلة والتسويف هما سلاح ذو حدين، يعاني منه الطرفان قدراً متعادلاً من الاستنزاف المادي والإحباط المعنوي، ولا سيما أن مسرح العمليات كان فوق أرض إيطاليا ذاتها. فقررت روما زج كل قواتها (٨ ليجيونات ضمت ٨٦ ألف رجل منهم ٨٠ ألفاً من المشاة) ومقابل ذلك كانت قوات القرطاجيين قد اكتسبت مزيداً من القوة بفضل ما توافر لها من الدعم، وبفضل من انضم إليها من المتطوعين، فوصل عدد أفراد جيش هاني بعل إلى أربعين ألفاً من المشاة، وعشرة آلاف من الفرسان ــ الخيالة ــ.

وقع اللقاء بين قوات الجيشين الروماني ــ القرطاجي يوم ٢ آب ــ أغسطس ــ سنة ٢١٦ ق. م. وكانت القوات الرومانية يومها تحت قيادة قارون ــ إذ كانت القيادة تتم بالتناوب بين قائدين، فكان القنصل بول اميل يتولى قيادتها يوماً ثم يتولى قارون قيادتها في اليوم التالي، وهكذا. وكان بول اميل يرغب في اجتذاب هاني بعل إلى منطقة يختارها، فعارضه قارون وأفاد من يوم قيادته، فنظم قواته في كاني، وأمر بتضييق جبهة الترتيب القتالي وزيادة عمقه. وهكذا ضاقت الفرج بين الوحدات (المانيبولات ــ أو السرايا)، داخل الليجيون الواحد حتى أصبح وكأنه فالانج يوناني كثيف ذو عمق مؤلف من ٤٨ صفاً. وتمركزت المشاة في منتصف الترتيب القتالي الروماني، أما الخيالة فتمركزت على الأجنحة (الأجناب)، فكان منها ٢٤٠٠ فارس على الجانب الأيمن الملاصق لنهر أوفيد، وتمركزت بقية القوات من الخيالة على الجناح الأيسر، ووضعت المشاة الخفيفة جميعها أمام خط الجبهة. ومقابل ذلك، نظم هاني بعل قواته تنظيماً مبتكراً، فوضع في قلب ترتيبه القتالي عشرين ألف محارب من الغاليين والايبيريين، ونظمهم على نسق واحد، يضم عدة خطوط، ووضع على الأجناب المشاة الإفريقية بعمق كبير، ومعها الخيالة الخفيفة على الجانب الأيمن. أما المشاة الخفيفة فقد تركزت أمام خط الجبهة، وأسندت إليها مهمة

الاشتباك مع الرومان ، ثم الانسحاب عند بدء الموقعة ، والانتظام من جديد خلف خط المشاة الثقيلة . وبدأ القتال باشتباك المشاة الخفيفة للجانبين ، ثم ما لبث هاني بعل أن زج بأفضل خيالته المتمركزة على الجانب الأيسر بقيادة أخيه (أسد روبال) ، باتجاه الجناح الأيمن الروماني . فتمزق خيالة الرومان على هذا الجانب شر ممزق ، برغم مقاومتها الضارية . ثم انطلق أسد روبال إلى مؤخرة القوات الرومانية ، ثم نحو جناحها الأيسر ، فما كان من الخيالة الرومانية المشتبكة على هذا الجناح إلا أن لاذت بالفرار ، وقد رأت الخيالة القرطاجية على مؤخرتها . وفي أثناء معركة الخيالة ، انطلقت المشاة الرومانية الكثيرة العدد في هجومها نحو قلب الترتيب القتالي القرطاجي ، ولم يحتمل القرطاجيون ثقل الهجوم ، فأخذوا بالتراجع ، وأصبح ترتيب قتالهم على شكل هلال مقعر ، بعد أن كان قبل القتال قد أخذ شكل هلال محدب رأسه أو قمته في اتجاه الرومان . وجاءت الخيالة القرطاجية وقد أنهت معركتها ضد خيالة الرومان ، فأغلقت هذا الهلال المقعر (الذي أصبح كالكيس وبداخله الجيش الروماني بكامله) وتحولت المعركة إلى مذبحة سقط فيها ٧٠ ألف روماني (٤٨ ألف قتيل و ٢٠ ألف أسير) ولاذ الآخرون بالفرار . أما هاني بعل فخسر ستة آلاف قتيل في معركة كاني التي لم تستمر أكثر من اثنتي عشرة ساعة . وأدت هذه المعركة إلى تفكك الاتحاد الايطالي ، وكادت أن تذهب بروما ذاتها . وهنا قام فابيوس بدور جديد لرفع معنويات الشعب ودفعه إلى المقاومة وكسب الوقت . حتى إذا ما كانت سنة ٢٠٧ ق . م أحرز الرومان نصراً حاسماً ، عندما انسحب جيشهم من مواجهة هاني بعل في الجنوب ، وأسرع إلى الشمال لقتال أسد روبال ، الذي كان قد جلب من إسبانيا دعماً جديداً لأخيه . وانتصر الجيش الروماني على أسد روبال في معركة نهر ميتور ، ودمر جيشه . فحرم هاني بعل من آماله في النجدة اللازمة للحصول على النصر النهائي ، ولم يبقَ أمامه إلا أن ينظم أموره في جنوب إيطاليا ، وأن يقيم فيها خمس سنوات . وأفادت روما من هذا الجمود ، فأرسلت إلى إسبانيا جيشاً بقيادة سيبيون الإفريقي . ونجح سيبيون في السيطرة على إسبانيا فحرم هاني بعل من القاعدة التي كانت تقدم له الدعم بالقوات والمواد التموينية . وتخلى حلفاء قرطاجة عنها ، فكان في ذلك بداية نهايتها .

تمّ انتخاب سيبيون قنصلاً سنة ٢٠٥ ق . م . وأصبح قادراً على تطبيق سياسة هجوم جديد غير مباشر على مؤخرة هاني بعل . فانصرف سيبيون لإعادة تنظيم قواته ، وضم إليه المبعدين تأديبياً إلى صقلية ، منذ كارثة كاني ، بالإضافة إلى المتطوعين . ثم ركب

البحر سنة ٢٠٤ ق . م ، ومعه ستة آلاف مقاتل . ولما وصل إلى إفريقية ، وأنزل قواته على أرضها اصطدم بقوة من الخيالة ، فاجتذبها لكمين ودمّرها . وانصرف لتطوير وضعه ، وحاصر مرفأ أوتيك ، ففشل في فتحه بعد ستة أسابيع من الحصار . وباغتته قوة قرطاجية من ستين ألف مقاتل ، مما اضطره للتراجع والتحصّن في شبه جزيرة قريبة من أوتيك . وتظاهر بأنه يعد لإغارة على مرفأ أوتيك ، فيما كان يعد لإغارة ليلية على معسكر القرطاجيين ذاته . وعندما قام سيبيون بتنفيذ إغارته ، حقق مباغتة تامة ، بحيث تم ذبح نصف قوة القرطاجيين . ثم توجه إلى قرطاجة ، ولم يحاصرها ، وإنما اكتفى بعزلها عن حلفائها ومصادر تموينها ، مما حمل القرطاجيين على طلب الصلح . وفي تلك الفترة وصل هاني بعل بجيشه إلى إفريقية سنة ٢٠٢ ق . م ، مما رفع الروح المعنوية للقرطاجيين . فعمد سيبيون عندها إلى التراجع حتى يضمن وصول الإمدادات إليه من حلفائه النوميديين (الجزائر حالياً) ، وحتى يحرم قرطاجة من مصادر تموينها . واضطر هاني بعل للسير إلى المعركة مدفوعاً بقوة جذب خصمه الذي اختار منطقة صالحة لحركة خيالته ، وحرم هاني بعل من العمل في منطقة تتوافر فيها المياه ، أو المواد التموينية ، أو مجال العمل لخيالته المتفوقة . وعندما دارت رحى المعركة ، أفاد سيبيون من عناصر تفوقه فأنزل بقوات القرطاجيين هزيمة منكرة ، ووقف هاني بعل مذهولاً في ميدان زاما ، وقد نزلت به الهزيمة للمرة الأولى في حياته ، غير أنها كانت هزيمة ساحقة ، وزاد من ثقلها عدم وجود حصن يلجأ إليه ، أو موقع يحمي به جيشه من مطاردة خصومه الذين أسرعوا لاستثمار الظفر بإبادة جيش قرطاجة إبادة شبه تامة .

لقد كان جيش سيبيون قبل معركة زاما قد وصل إلى ٣٥ ألف مقاتل ، في حين كان جيش هاني بعل قد ضم ٥٥ ألف مقاتل ، فكان التفوق لمصلحة هاني بعل ، غير أن إمساك سيبيون بالمبادأة ، واختياره الجيد لأرض المعركة ، قد حول ميزان القوى لمصلحته عندما نشب القتال .

لقد اتسعت روما بسرعة مذهلة ، من خلال قدرتها العسكرية ، وباتت تحكم إمبراطورية مترامية الأطراف . وقد تم هذا التوسع خلال قرن من الزمن ، فكان لزاماً على روما تطوير أجهزة الحكم حتى تستطيع التكيّف مع المستجدات الطارئة على حياتها . غير أن الطبقة الأرستقراطية الحاكمة استمرت في هيمنتها من خلال مجلس الشيوخ ، واستئثار

ذلك أعداء روما، بقدر ما استثار طموح الطامحين للتطور. وهكذا كان على روما مجابهة الهجمات الخارجية للشعوب البرابرة (في أوروبا)، وشعوب الشرق، ومجابهة الثورات الداخلية.

٥ ــ الحروب البيزنطية

بقيت روما عاصمة الدولة الرومانية منذ أيام يوليوس قيصر (١٠١ ــ ٤٤ ق.م) وحتى قيام الامبراطور قسطنطين الأكبر بنقل عاصمته من روما إلى بيزنطة، التي حملت بعدئذ اسم القسطنطينية، وذلك في سنة ٣٣٠ م. وعرف العرب هذه الدولة باسم دولة الروم أو دولة البيزنطيين. وقد حدث انقسام في سنة ٣٦٤ م بين دولة البيزنطيين (أو امبراطورية الشرق) والامبراطورية الرومانية (أو إمبراطورية الغرب). وعلى الرغم من الجهود التي بذلها أباطرة الغرب للحفاظ على إمبراطوريتهم، إلا أن هجمات البرابرة في الغرب قد استنزفت قدرتها. فقد انتصر القوط انتصاراً حاسماً على ليجيونات روما في اندرينوبل. ولقد حاول تيودوس الأول إيقاف التدهور، واستطاع إيقاف الانهيار الذي أصاب امبراطورية الغرب، إلا أن جهوده لم تكن أكثر من علاج مؤقت، بحيث لم يبقَ لإمبراطورية الغرب في النهاية سوى سلطة اسمية على البلاد التي تحكمها. هذا في حين كانت إمبراطورية الشرق تعيش حياة مزدهرة، حتى إذا ما كان عهد جوستينيان الأول شهدت الامبراطورية الشرقية (بيزنطة) عهد قوة لم تعهده منذ زمن طويل.

لقد كان لزاماً على الدولة البيزنطية خوض حروبها على ثلاث جبهات: جبهة الشرق (الفرس)، وجبهة الغرب (شعوب البرابرة)، وجبهة البحر والجنوب (إفريقية). ولم تكن إمكانات بيزنطة لتسمح لها بتشتيت جهدها على كل هذه الجبهات، ومن هنا يظهر دور القيادة التي عملت على تطوير قدراتها القتالية نوعياً، مع توافر كفاءة قيادية عليا لإدارة الحرب، بحيث يمكن إحراز الانتصارات بأقل جهد ممكن.. ولقد أفاد البيزنطيون من تجاربهم القتالية لاستخلاص الدروس الهامة منها، وإجراء التطوير على ضوئها. ففي عهد تيودوس تم تطوير العسكري الخيال الذي يرتدي الدرع، مما أدى إلى تجنيد عدد كبير من خيالة الشعوب الأوروبية البربرية. وأعيد تنظيم الوحدات العسكرية، وكان السلاح الرئيسي

في عهد جوستينيان هو (الخيالة الثقيلة المدججة بالدروع والمسلحة بالقوس والرمح الطويل). وكانت الغاية الأساسية من ذلك جمع قوة الرمي المتحركة وقوة الصدمة في مقاتل واحد، منظم وسريع الحركة. وقد أخذ البيزنطيون عن جيوش الهون والفرس فكرة الرمي المتحركة من الخيالة رماة النبال، كما أخذوا فكرة الصدمة من الخيالة القوط حاملي الرماح. وقد أعطى توافق هذين النوعين من الخيالة صورة تكتيكية مشابهة لتعاون الدبابات الخفيفة والمتوسطة والثقيلة في الأزمنة الحديثة. وكانت المشاة على نوعين: خفيفة وثقيلة، مسلحة برمح ثقيل، ومنظمة في تشكيلات متراصة، وكانت المشاة الثقيلة هي نقطة الارتكاز التي تناور حولها الخيالة خلال المعركة. فاستطاعت بذلك الدولة البيزنطية جعل حدودها آمنة، غير أنها تعرضت في القرن السادس لمجموعة من الهزائم المنكرة على الحدود الشرقية. وأصبحت مواقعها في آسيا الصغرى مهددة بشكل جدي، ثم خف ضغط الفرس نسبياً عندما هاجم الهون حدود بلادهم الشمالية. ولكن الحرب اشتعلت معهم من جديد سنة ٥٢٥ م تقريباً، وبدأت بداية جيدة بالنسبة لبيزنطة. وظهر قائد اسمه (بيليزير) تولى قيادة الخيالة في أرمينيا الفارسية، وقام بهجوم مضاد ناجح ضد الفرس الذين كانوا قد احتلوا حصناً عند الحدود. وبدت انتصاراته باهرة أمام النتائج التافهة التي حصل عليها القادة الآخرون. مما حمل الإمبراطور جوستينيان على تعيينه قائداً عاماً لجيوش الشرق، برغم أنه كان لا يزال شاباً، ولما يتجاوز الثلاثين من عمره.

تحرك جيش فارسي جديد سنة ٥٣٠ م نحو حصن داراس. وكانت قوة هذا الجيش في حدود أربعين ألف مقاتل، في حين لم يكن مع بيليزير أكثر من عشرين ألف مقاتل، معظمهم من المتطوعين غير المدربين، والذين أرسلوا مؤخراً لدعمه. فقرر بيليزير الاشتباك مع الفرس في موضع أعده بكل عناية بدلاً من الاحتماء والمحاصرة. واعتمد بيليزير في مخططه على تعالي الفرس وتفوقهم على البيزنطيين، عددياً، مما يدفعهم إلى المبادرة بالهجوم. فأمر بيليزير بحفر خندق عريض وعميق أمام حصن داراس. وجعل الخندق قريباً من أسوار الحصن، مما يضمن دعم الرماة المحتمين خلف الأسوار لرفاقهم المدافعين عن الخندق. كما أمر بحفر خندقين طولانيين على طرفي الخندق الجبهي بحيث يشكلان معه زاوية. وكانت أطراف الخنادق الطولانية متجهة نحو المرتفعات المسيطرة على الوادي من طرفيه. وأنشئت على مسافة متفاوتة من هذه التحصينات المغطية للمجنبات ممرات عريضة تتمركز خلفها الخيالة الثقيلة، وتكون جاهزة للانطلاق منها للهجوم

المضاد. وكانت خيالة الهون الخفيفة متمركزة في الزوايا، بغية القيام بهجمات إزعاج على المغيرين، إذا اضطرت الخيالة الثقيلة إلى الانسحاب أمامهم. وعندما وصل الفرس إلى مكان المعركة نظروا إلى هذه الأعمال الدفاعية، فاستغربوا أمرها، وخصصوا اليوم الأول لاستطلاعها. وفي صبيحة اليوم التالي أرسل بيليزير إلى القائد الفارسي كتاباً يعرض عليه تسوية المنازعات بمباحثات سلمية بدلاً من القتال. وكان مما قاله بيليزير في رسالته إلى القائد الفارسي: «**السلم أفضل الأعمال، هكذا يفكر الرجال الذين يملكون شيئاً من العقل. وإن أفضل القادة هو من يستطيع استبدال الحرب بالسلم**». وظن القائد الفارسي أن الخوف هو الذي دفع بيليزير لكتابة الرسالة، وهو الذي حمله على اتخاذ هذا الوضع الدفاعي، فأجاب بأنه لا يستطيع الثقة بعهود البيزنطيين. وكان لا بد من الحرب، وحاول الفرس تحاشي الوقوع في الفخ، فلم يهاجموا القلب. وكان هذا هو بدقة ما يتوقعه بيليزير. فتقدمت الخيالة الفارسية نحو جناح بيليزير الأيسر، ولكن مفرزة صغيرة من خيالته كانت مختفية على المجنبة، خلف الهضبة، فقامت بمهاجمة الخيالة الفارسية بقوة من الخلف. ومع هذه الصدمة المباغتة، ظهرت خيالة الهون الخفيفة من الطرف الآخر، فأرغمت الفرس على الانسحاب، وفي الوقت ذاته، كانت قوة أخرى من الخيالة الفارسية تتقدم نحو الجناح الأيمن، وقد نجحت هذه في التوغل داخل الترتيب القتالي البيزنطي، مشكلة بذلك ثغرة بين جناحهم المتقدم وقلبهم الذي بقي ثابتاً. وعندها دفع بيليزير في هذه الثغرة بكل الخيالة المتوافرة له. وقام بهجوم مضاد على نقطة التمفصل الضعيفة في تشكيلات الفرس، الأمر الذي أدى إلى إخراج خيالة الجناح الأيسر الفارسي من المعركة، وتشتيتها. ثم عاد بيليزير إلى مجنبة المشاة الفارسية المجمدة في المركز، وانتهت معركة داراس بهزيمة ساحقة للفرس. وكانت أول هزيمة لهم أمام البيزنطيين منذ أجيال عديدة.

لم يتوقف الصراع على جبهة المشرق، غير أن أموراً عاجلة تطلبت العمل على جبهة الغرب. ذلك أن الفاندال الذين كانوا قد سيطروا على إفريقية منذ قرن، وجعلوا من قرطاجة عاصمة لهم، قد أخذوا في الانطلاق من هذه القاعدة للقيام بأعمال القرصنة على نطاق واسع، وشن الإغارات على المدن الساحلية في البحر المتوسط، للسلب والنهب، حتى إنهم نهبوا روما سنة ٤٥٥ م، وهزموا الحملة التأديبية التي أرسلتها القسطنطينية ضدهم. إلا أن وصول هيلدريك لحكم الفاندال، وصداقته التي ربطته

بجوستينيان منذ أيام الصبا ، ساعدت على تحسين العلاقات بين الفاندال والبيزنطيين . ولكن جيليمير أحد أبناء أخوة هيلدريك ، والذي عرف بتهوره ، قام بعزل الملك هيلدريك . فما كان من جوستينيان إلا أن كتب إلى جيليمير ، وطلب إليه إخلاء سبيل عمه . فرفض جيليمير الطلب . فقام جوستينيان بتوجيه حملة إلى إفريقية سنة ٥٣٣ م ، ضمت خمسة آلاف فارس ، وعشرة آلاف من المشاة . وكانت الوحدات مختارة ، وممتازة ، ولكنها قليلة بالنسبة لقوة الفاندال ، الذين كان لديهم مئة ألف رجل . ووصل بيليزير إلى صقلية . وهناك علم أن أكثر قوة الفاندال قد انصرفت إلى سردينيا للقضاء على ثورة اندلعت فيها ضدهم . وكان جيليمير ذاته بعيداً عن قرطاجة ، فأسرع بيليزير في تحركه ، وأبحر إلى إفريقية ، وأنزل قواته دون قتال في نقطة تبعد مسيرة تسعة أيام عن قرطاجة ، فتجنب بذلك خطر التعرض لأسطول الفاندال المتفوق على أسطوله . وعندما عرف جيليمير ذلك ، أصدر أوامره العاجلة إلى مختلف الوحدات للتوجه نحو ممر يبعد عشرة أميال عن قرطاجة ، وكانت خطته تهدف إلى تطويق المهاجمين . ولكن بيليزير تقدم بتنسيق مع حركة الأسطول الروماني الذي كان يهدد قرطاجة ، مما أحبط مخطط جيليمير ، وساعد بيليزير على مباغتة قوات الفاندال في أثناء تجمعها . وجرت اشتباكات شتتت قواتهم ، وأثارت فيها الاضطراب إلى درجة أنهم فقدوا ميزة التفوق العددي على بيليزير ، وتفرقوا في كل اتجاه ، تاركين الطريق مفتوحاً أمام بيليزير ، للوصول إلى قرطاجة . وفي هذا الوقت جمع جيليمير قواته واستدعى وحداته من سردينيا ، واستعد خارج قرطاجة للقيام بهجوم جديد . فما كان من بيليزير إلا أن احتل المدينة التي تم إخلاؤها من قوات أعدائه . وانتظر بيليزير في قرطاجة عدة أشهر محاولة أعدائه لطرده . ولما لم يفعلوا ذلك ، استنتج أن الحالة المعنوية للفاندال سيئة ، فقرر القيام بهجوم يستند إلى مكان حصين يمكن الالتجاء إليه عند الفشل . فدفع خيالته إلى الأمام ، ووصل إلى معسكر الفاندال عند تريكاميرون الرابضة خلف نهر سريع الجريان . واشتبك في المعركة قبل وصول مشاته ، ولما كان الفاندال يمتلكون ميزة التفوق العددي ، فقد فكر بيليزير في دفعهم للهجوم حتى يقوم هو بالهجوم المضاد ، عندما تعبر قوات الفاندال النهر ، فقام بهجوم استفزازي ، وتظاهر بالانسحاب والتراجع ، غير أنه فشل في جذب الفاندال للمعركة كما كان يريد . عندها قرر القيام بالهجوم مستفيداً من حذر خصمه ، فجذب انتباههم ، وقام بهجوم جبهي . وانهارت مقاومة الفاندال فجأة ، فانسحبوا إلى معسكراتهم للاحتماء بها ، وهرب جيليمير

خلال الليل، وتفرق جيشه بعد انسحابه، وأعقب هذا النصر مطاردة، أسر خلالها جيليمير، وانتهت بذلك الحرب، وأمكن استرداد إفريقية وإخضاعها لسلطة البيزنطيين، بعد أن كان مثل هذا العمل بمثابة مغامرة خطيرة.

كانت أكبر ضربة تعرضت لها الدولة البيزنطية بعد ذلك هي الضربة التي وجهها إليها العرب المسلمون. فقد استطاع العرب المسلمون طرد الروم البيزنطيين من بلاد الشام (١٥ هـ = ٦٣٦ م)، ثم من مصر (٢٠ هـ = ٦٤٠ م). ولم يقف الروم عند حدود هذه الهزائم، فحاولوا التحريض ضد الحكم العربي ــ الإسلامي، والقيام بهجمات مضادة، فهاجموا بلاد الشام ووصلوا إلى مدينة حمص (١٧ هـ = ٦٣٨ م)، وقاموا بإنزال قواتهم في الإسكندرية (٢٥ هـ = ٦٤٥ م)، غير أن العرب المسلمين دمروا قوات الروم. ومن ثم وضع أمير الشام معاوية بن أبي سفيان سياسة ثابتة للمواجهة، تمثلت بشعاره «شدوا وثاق الروم فيها تضبطون أمم الأرض» وشرع في تضييق الخناق عليهم، بتكثيف الصوائف والشواتي، لإشغال الروم بأنفسهم. وتولى ذلك بنفسه عندما قاد سنة ٣٢ هـ = ٦٥٢ م غزوة لمضيق القسطنطينية، ليس ذلك فحسب بل إنه عمل على تضييق الخناق، وشد وثاق الروم في البحر، فكانت غزوة ذات الصواري (٣٤ هـ = ٦٥٤ م) هي البداية لمنافسة الروم في مجال البحر. ولكن البيزنطيين لم يخضعوا لهذه التحديات، فكانوا يستثمرون كل فرصة للعمل ضد دولة العرب المسلمين، على نحو ما فعلوه ضد عبد الملك بن مروان، عندما عرفوا انشغاله بقمع الفتن الداخلية فوجهوا قواتهم سنة ٧٠ هـ = ٦٨٩ م التي وصلت حتى جبل لبنان، مما حمل عبد الملك ابن مروان على مصالحتهم لقاء جزية يؤديها لهم كل أسبوع بمعدل ألف دينار. ولكن ما إن فرغ عبد الملك بن مروان من حرب مصعب بن الزبير حتى نقض الاتفاق، وقام بتعريب الدواوين، وأمر بسك النقود العربية الإسلامية، وذلك برغم احتجاج الروم وتهديداتهم. وقد أفاد الروم من روابطهم في إفريقية، ومن قوة أسطولهم في غرب المتوسط، فوجهوا لقوات العرب المسلمين ضربات قوية، تمثلت في معركة تهوذة، والتي استشهد فيها القائد عقبة بن نافع سنة ٦٣ هـ = ٦٨٢ م. كما قام البيزنطيون بإنزال قواتهم، وهاجموا مؤخرة قوات المسلمين، فاستشهد زهير بن قيس البلوي سنة ٧١ هـ = ٦٩٠م، غير أن تقدم قوات العرب المسلمين في إفريقية، وتعاظم قدرتهم البحرية في غرب المتوسط، حرم الروم البيزنطيين من مجالهم الحيوي. وجاء فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ = ٧١٠ م فأصبح نفوذ

الروم مقتصراً على القسطنطينية والأقاليم الأوروبية المحيطة بها، بالإضافة إلى آسيا الصغرى، التي بقيت عرضة لهجمات العرب المسلمين في غزوات الصوائف والشواتي. والتي كانت بمثابة حرب دائمة، تخمد وتشتعل حسب الظروف التي كانت تتحكم بالدولة البيزنطية من جهة، وبالدولة العربية الإسلامية من جهة ثانية. وقد حاول الروم البيزنطيون الإفادة من انتقال الحكم إلى أيدي العباسيين لاستعادة سيطرتهم على آسيا الصغرى، والوصول حتى ثغور المسلمين ومدنهم في الشمال (حلب، أنطاكية).

غير أن استقرار الدولة العباسية، وتعاظم قوتها، أحبط مخططات الروم البيزنطيين، وخيب آمالهم. ولعل قصة (نقفور) مع هارون الرشيد تمثل أصدق تمثيل هذا الاتجاه. فقد وجه نقفور رسالة إلى الرشيد جاء فيها: «أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك». ورد الرشيد برسالة جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام»، وسار الرشيد من فوره، حتى نزل على هرقلة، ففتح وغنم وأحرق وخرب، حتى سأله نقفور المصالحة، وخضع لشروطه. وكذلك فعل المعتصم يوم بلغته استغاثة امرأة هاشمية (وامعتصماه)، بسبب إهانة وجهها إليها أحد الروم، فهب المعتصم من فوره وقاد جيشه إلى عمورية، ودمرها. وحصل على عدد كبير من الأسرى، قتل بعضهم، وفادى بالآخرين. وهدأت حرب الحدود نسبياً لتبدأ من جديد بشكل حاد في عهد الإمبراطور (بازيل الثاني). وهنا جابهت قوات الروم البيزنطيين مقاومة (الحمدانيين) الذين كانوا قد جعلوا من مدينة حلب قاعدة لهم. وقد اشتهر في هذه الحروب سيف الدولة الحمداني، وأبو فراس الحمداني، وكان النصر فيها نُوَباً، والتدمير متبادلاً. وانتهت هذه الحرب بتدمير قدرة الحمدانيين. إلا أن قوة جديدة كانت قد أخذت في اجتياح آسيا الصغرى، وهذه القوة هي قوة الأتراك السلاجقة. وعندما حاول الإمبراطور البيزنطي (رومان الرابع ديوجين) شن حرب ضدهم بقوة مائتي ألف من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج، جابههم (ألب أرسلان) بقوة خمسة عشر ألف فارس في (ملازكرد). وقد حاول ألب أرسلان تجنب المعركة، فأرسل إلى ملك الروم يعرض عليه المهادنة، ولكن

ملك الروم رفض العرض معتمداً على تفوقه الساحق. واستطاع ألب أرسلان بتحركاته السريعة تجزئة قوات الروم، وضربها على التتابع وتدميرها، فمزقها شر ممزق. ووقع رومان ــ الذي تذكره المصادر العربية باسم أرمانوس ــ أسيراً، فأحسن ألب أرسلان معاملته، وأخلى سبيله مقابل الفدية. وكانت معركة (ملازكرد) هي البداية غير المباشرة للحروب الصليبية، وهي الحروب التي كان للدور البيزنطي فيها أثر كبير. إذ بقي الإمبراطور البيزنطي المرجعَ الأعلى في كثير من الأحيان لقادة الحملات الصليبية. وقدمت بيزنطة دعماً للحملات المتتالية، ولو أنها لم تسلم من أذى الصليبيين وشرورهم، والذين عملوا في إحدى حملاتهم على تدمير القسطنطينية. ولكن انتهاء الحملات الصليبية لمصلحة المسلمين، وضع الدولة البيزنطية أمام موقف صعب. فقد أخذ الأتراك العثمانيون في الزحف نحو القسم الغربي ــ الأوروبي ــ من أملاك البيزنطيين بصورة بطيئة استمرت أكثر من قرن. وكانت قوة العثمانيين خلالها تتزايد تعاظماً على حساب البيزنطيين، إلى أن جاءت نهاية هذه الدولة على يدي السلطان محمد الفاتح.

٦ ــ الفتوحات العربية الإسلامية

ما إن تحققت وحدة العرب المسلمين، بانتهاء حروب الردة، وأصبحت الجبهة الداخلية للعرب المسلمين قوية ومتماسكة، حتى أطلق الخليفة أبو بكر الصديق جيوش العرب المسلمين لفتح بلاد الشام والعراق ومصر سنة ١٢ هـ = ٦٣٣ م. وفي سنة ٩٢ هـ = ٧١٠ م كان العرب المسلمون قد فتحوا الأندلس غرباً، ووصلوا شرقاً حتى خوارزم وسمرقند، مع احتلال جزر البحر المتوسط، ما بين قبرص وسردينيا وصقلية ونهاية بجزر الباليثار (مينورقة وميورقة ويابسة). فشكلوا بذلك أعظم دولة عرفها العالم القديم، خلال فترة قياسية من عمر الزمن. ولقد كان العامل المعنوي هو العامل الأساسي فيما تم إحرازه من انتصارات. ولهذا فقد ظهر هناك شبه اتفاق بين المؤرخين والباحثين على تمييز الحروب الإسلامية بصفة (حروب الإيمان) أو (حروب جيوش المجاهدين في سبيل الله). ويتوافق هذا الوصف في واقعه مع هدف الحروب الإسلامية الذي حدد بصورة دقيقة وهو (نشر راية الإسلام)، وتعريف الدنيا برسالته، وإقامة المجتمعات على أساس تعاليم الإسلام. وهذا ما حمل أيضاً الباحثين والمؤرخين على إطلاق صفة (الحروب

العادلة) على الفتوحات العربية ـــ الإسلامية ، إذ إنها احتوت مضموناً تقدمياً ، أسهم بتطوير الإنسان وضمان حقوقه وفقاً لما نصت عليه الشريعة الإسلامية . إلا أن بروز العامل المعنوي في الفتوحات الإسلامية ، يجب ألا يحجب بقية العوامل ، والتي كان من أبرزها :

١ ـــ ظهور جيل ، أو أجيال ، من القادة على درجة عالية من الكفاءة والقيادة ، سواء على مستوى إدارة الحرب والسياسة الاستراتيجية ، والذي تمثل بدور الخلفاء الراشدين والأمراء الأمويين ، أو على مستوى قيادة مسارح العمليات ـــ بداية من أبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن أبي وقاص ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وعمرو بن العاص ، والنعمان بن مقرن ، ونهاية بعقبة بن نافع ، وموسى ابن نصير ، وطارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، وسواهم كثير ، بحيث يصعب أن يتوافر لأمة من الأمم أجيال من القادة توافر لهم من الكفاءات ما توافر لأجيال قادة الفتح .

٢ ـــ الالتزام الدائم والدقيق بمبادىء الحرب ، والعمل على تطوير هذه المبادىء من خلال التجارب الذاتية ، ومن خلال تجارب الصراع مع الآخرين (الفرس والروم خاصة) .

٣ ـــ ما توافر لجند العرب المسلمين من الفضائل الحربية ، التي كان من أبرزها : الشجاعة في مواجهة الخطر ، والصبر على احتمال مكاره القتال ، والاستعداد الدائم للقتال ، والإيثار ، والانضباط .

لقد بدأت الفتوحات عندما أطلق الخليفة أبو بكر أربعة جيوش لفتح الشام ، وخصص لكل واحد منها منطقة عملياته ، فكلف أبا عبيدة بن الجراح بقيادة جيش ، وخصص له منطقة حمص للعمل فيها . ووجه جيشاً بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، وخصص له العمل في منطقة دمشق . ووجه جيشاً ثالثاً بقيادة شرحبيل بن حسنة ، وخصص له الأردن منطقة لعمله . أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمرو بن العاص ، وحددت له فلسطين لتكون مسرحاً لعملياته . وكانت قوة كل جيش من هذه الجيوش تتراوح بين ستة آلاف ، وثمانية آلاف مجاهد . وكان أبو بكر قد وجه قوة بقيادة (خالد بن سعيد)

لتكون رداء ـــ حماية ـــ لجيوش المسلمين عند انطلاقتها للفتح ، وأمره أن يمكث (بتيماء) وألا يبرحها ، لكن الروم جمعوا أنصارهم من العرب وحشدوهم في مواجهته ، فكتب إلى الخليفة ، فرد الخليفة : « أن أقدم ولا تحجم » . وتقدم خالد بن سعيد . فتفرق الروم وأنصارهم من العرب ، فعاد وكتب إلى الخليفة ، فأجابه أبو بكر : « أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك » . لكن الروم استطاعوا اجتذاب خالد بن سعيد ثم طوقوا جيشه ، وهاجموه بضراوة ، ففر خالد بن سعيد ، حتى وصل موضع ذي المروة . وعندما علم أبو بكر ، أرسل إليه في ذي المروة : « أقم مكانك . فلعمري إنك مقدام محجام ، نجاء من الغمرات ، لا تخوضها إلا إلى حق ، ولا تصبر عليه » . واتخذ أبو بكر الترتيبات حتى لا تتأثر الروح المعنوية للمجاهدين ، وأرسل معاوية بن أبي سفيان ، فجمع فلول جيش خالد بن سعيد ، وسار بهم لدعم جيش أخيه يزيد بن أبي سفيان . وكان أبو بكر يوصي جيشه عندما يطلقه بقوله : « .. لا تعصوا ، ولا تفلوا ، ولا تجبنوا ، ولا تهدموا بيعة ، ولا تفرقوا نخلا ، ولا تحرقوا زرعا ، ولا تشجروا بهيمة ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تقتلوا شيخاً كبيراً ، ولا صبياً صغيراً ، وستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم للذي حبسوها ، فذروهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون أقواماً قد اتخذت الشياطين أوساط رؤوسهم أفحاصاً فاضربوا على أعناقهم » . وكان في وصيته ليزيد بن سفيان : « ... إذا قدمت على جندك ، فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير ، وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام يُنسِي بعضُه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس .. وإذا قدم عليك رسل عدوك ، فأكرمهم ، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تريهم ، فيروا خللك ، ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ذروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار ، وتنكشف عنك الأستار ، وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه ، فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرهما لقربها من النهار ، ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تلجن فيها ، ولا تسرع إليها ... ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم ، فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم ، واكتفِ بعلانيتهم ،

ولا تجالس العباثيق، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الفلول».

عندما علم الروم ــ البيزنطيون ــ بتحرك قوات المسلمين إلى الشام، زجوا في مواجهة كل جيش من جيوش العرب المسلمين جيشاً من ستين إلى تسعين ألف مقاتل. ووجد قادة الجيوش في الشام، أنه من الصعب عليهم مجابهة القوى المتفوقة، فتكاتبوا، وكتبوا إلى الخليفة أبي بكر، فأمرهم بالتجمع، وانسحب العرب المسلمون إلى (إذرعات)، ومنها إلى اليرموك. وكان أبو بكر قد أطلق إلى العراق جيشين أولهما بقيادة خالد بن الوليد، وثانيهما بقيادة عياض بن غنم، وكتب لهما بأن يبدأ خالد من الجنوب، وأن يبدأ عياض من الشمال. وحدد لهما الحيرة لتكون نقطة التقاء الجيشين، وقال لهما: «فإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين، ولصاحبه بالحيرة، وليقحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم ــ المدائن». كما كتب إليهما: «أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي». وهكذا لم يشترك في قتال العراق خلال السنة الأولى من فتح العراق أحد من المرتدين، لحرمانهم من شرف الجهاد، تأديباً لهم واستصغاراً لشأنهم.

وسارت عمليات العراق بنجاح، غير أن قيام الروم بحشد قوات ضخمة في مواجهة جيوش الشام، حمل الخليفة أبا بكر على إعطاء الأفضلية الأولى لمسرح عمليات الشام، وأطلق كلمته الشهيرة: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد». وكان جيش خالد في العراق يضم ثمانية عشر ألف مقاتل، فأمره أبو بكر باصطحاب نصف جيشه، والسير به لنجدة جيوش الشام. ولكن الموقف على جبهة العراق لم يلبث أن تدهور. وجاء قائد جيش العراق ــ المثنى بن حارثة الشيباني ــ إلى المدينة ليشرح الموقف، وليطلب الدعم. فقابل الخليفة أبا بكر وهو على فراش الموت، وعندما استمع أبو بكر لشرح الموقف استدعى عمر بن الخطاب، وقال له: «اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت يومي هذا، فإذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل، فلا تصبحني حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، فقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ، وما صنعت،

وما أصيب الخلق بمثله . وإذا فتح الله على أهل الشام ، فاردد أهل العراق إلى العراق ، فإنهم أهله ، وولاة أمره ، وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم » . ويظهر من خلال ذلك أن إدارة الحرب في مفهوم الخليفة أبي بكر قد حددت بتوجيه القوات إلى مسارح العمليات ، وتأمين متطلباتها من الدعم ، وتنسيق التعاون فيما بينها ، وإعطاء الأفضلية لمسارح العمليات وتحقيق التوازن الاستراتيجي فيما بينها . مع ترك حرية العمل المطلقة لقادة مسارح العمليات في تنفيذ الأهداف المحددة لهم .

برزت المعالم الواضحة لفن الحرب العربي ــ الإسلامي في عهد الفتوحات أيام الخليفة الثاني ــ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وذلك بسبب اتساع دائرة الفتوح وتطورها ، فما إن ولي عمر بن الخطاب ، حتى أخذ في حشد القوى واستنفارها ، إذ نادى مناديه « الصلاة جامعة ! فلما اجتمع المسلمون ، أهاب بهم القتال في العراق ــ والناس يبايعونه ، واستمر على ذلك ثلاثة أيام . ثم ندب أهل الردة ، فأقبلوا سراعاً ، فرمى بهم الشام والعراق ، ولم يؤمِّر منهم أحداً ــ أي لم يسند لأحد منهم أي مركز قيادي ــ ، وعين أبا عبيدة بن مسعود ، ولم يعين سليط بن قيس ، وقال : « إنه لم يمنعني أن أؤمِّر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب ، وفي التسرع إلى الحرب ضياع ، إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمّرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث » . وكان العرب المسلمون قد حققوا انتصارهم الرائع في اليرموك ، وتوقفوا لا يعرفون ماذا يفعلون ، فكتبوا إلى أمير المؤمنين عمر ، فأجابهم : « أما بعد ! فابدؤوا بدمشق فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم ، وأهل فلسطين ، وأهل حمص . فإن فتحها الله قبل دمشق ، فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها ، ولينطلق أبو عبيدة وسائر الأمراء ، حتى يغيروا على فحل ، فإن فتحها الله عليكم ، فلينصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص ، وشرحبيل وعمر إلى الأردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته » . وعرف أمير المؤمنين عمر أن الفرس قد حشدوا قواتهم لمواجهة جيش العرب المسلمين في العراق ، فكتب إلى المثنى : « تنح إلى البر ، وادع من يليك ، وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم ، حتى يأتيك أمري » . واستنفر الناس وقال : « والله لأخربن ملوك العجم بملوك العرب ، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ، ولا ذا سلطة ، ولا خطيباً ، ولا شاعراً إلا رماهم به ،

فرماهم بوجوه الناس وعزرهم » . ولما كانت المدينة لا تتسع لحشد القوات ، فقد وجه من تجمع له — أربعة آلاف — بقيادة سعد بن أبي وقاص ، وأمره بقوله : « سر إلى زرود ، فإذا انتهيت إليها ، فانزل بها ، وتفرقوا فيما حولها ، واندب من حولك منهم ، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدة » وهناك أمده بثمانية آلاف ، ثم أمره بالتوجه إلى (شراف) وتابع إمداده فلما بلغت قوته اثني عشر ألفاً ، أرسل إليه الأمر التالي : « إذا جاءك كتابي هذا ، فعشّر الناس وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبئهم ، ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا ، وقدرهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى أصحابهم ، وواعدهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في حينه ، واكتب إلي بالذي يستقر عليه أمرهم » . وهكذا حدد أمير المؤمنين عمر نظام منطقة الحشد ، ووضع أساس التنظيم العشري للجيش — الجماعات والفصائل الخ ... وبقي يتابع الموقف ، فكتب إلى سعد : « صف لي منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الجلية » . وعندما نزل سعد بالقادسية ، وحشد الفرس قواتهم ، كتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر ، الذي أجابه : « لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ... واكتب إليّ في كل يوم » . وكان أمير المؤمنين عمر يعرف ضعف قوة المسلمين العددية في مواجهة أعدائهم ، فلما أتم جند الشام فتح بلاد الشام ، أمر قادته بإيقاف الفتح عند حدود الجبال (طوروس) ، وقال كلمته الشهيرة : « لوددت لو أنَّ بيننا وبين الروم سداً لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » . وعندما أنجز العرب المسلمون فتح العراق ، عاد أمير المؤمنين عمر فأصدر أمره بإيقاف الفتوح عند الحدود الجغرافية للعراق ، وقال : « لوددت لو أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم » . وزاره وفد من أهل الكوفة وأهل البصرة يستأذنونه في الهجوم على بلاد فارس ، فقال أمير المؤمنين عمر لأهل البصرة : « حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز ، وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم » . كما قال لأهل الكوفة « وددت لو أن بينهم وبين الجبل جبلاً من نار ، لا يصلون إلينا منه ، ولا نصل إليهم » . وهكذا انصرف العرب المسلمون لبناء المجتمع العربي — الإسلامي في الشام والعراق ومصر . غير أن الروم أفادوا من فترة التوقف ، فاتصلوا ببقايا أنصارهم من العرب ، واتفقوا معهم على القيام بهجوم شامل لإخراج العرب المسلمين من بلاد الشام ، واضطر أبو عبيدة وخالد بن الوليد للانسحاب بجيوشهما حتى مدينة حمص . ولما علم أمير

المؤمنين عمر بخطورة الموقف وجه إلى سعد بن أبي وقاص في العراق : « أن سرِّح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند ، وليأت الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ... وسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، ثم لينفضا حران والرهاء . وسرح الوليد ابن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وسرح عياضاً بن غنم فإن كان قتال ، فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم » . ولما شعر أهل الجزيرة بتحرك العرب المسلمين من الكوفة ، تخلوا عن الروم . وكان أمير المؤمنين عمر قد اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدة لكونٍ إن كان . فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك : « أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به . وتقدم إليهم في الجد والحث » ، وكانت هذه القوة الخفيفة ، أشبه ما تكون بالاحتياط الاستراتيجي في قبضة القائد الأعلى لمجابهة التطورات المباغتة ، وللمحافظة على التوازن على مسارح العمليات . وقاد القعقاع (قوة التدخل السريع) ووصل إلى حمص . عندما كان أبو عبيدة قد انتهى من تصفية قوات الروم والقضاء عليها ، بعد أن أراد عمر قطع الروابط التي بقيت قائمة لعهود طويلة بين عرب الشام ـــ غير المسلمين ـــ والروم ، وعلم أن إياد بن نزار ، وقوماً من بني تغلب ، قد لجؤوا إلى بلاد الروم ، بعد أن اجتاحت قوات العرب المسلمين الجزيرة ، فكتب أمير المؤمنين إلى هرقل ملك الروم : « بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه ، أو لننبذن إلى النصارى ثم لنخرجنهم إليك » فأخرجهم ، وجاءوا إلى عمر ، يعتذرون ، وفرض عليهم عمر شروطه : « الإسلام أو الجزية وألا ينصروا وليداً » .

أما على جبهة الشرق ، فقد تابع الفرس بدورهم استفزازاتهم ، واستثارتهم لأنصارهم القدامى من العرب ، وقيامهم بحشد القوات . فكان العرب المسلمون يدمرون تجمعاتهم المرة بعد المرة ، ويستولون على مدنهم . وضاق أمير المؤمنين ذرعاً بانتقاض أقاليم العراق ، فطلب وفداً من أهل العراق لمقابلته . وجاء الوفد إلى المدينة ، فبادرهم أمير المؤمنين عمر ، بقوله : « لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى ، وبأمور لها ما ينتقضون بكم ! » فقالوا : « ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكه » قال : « فكيف هذا ؟ » فلم يجد عندهم شيئاً يشفيه ، ويبصر به ، إلا ما كان من الأحنف بن قيس الذي قال : « يا أمير المؤمنين ! أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد ، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا . وإن ملك

فارس حي بينهم ، إنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنَّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم . وإن ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم ، حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ، ونخرجه من مملكته وعزّ أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس » فقال عمر ، صدقتني والله . وانتظر أمير المؤمنين عمر بعد ذلك أربع سنوات ، حتى إذا ما كانت سنة ٢١ هـ . وعلم عمر بتجمع قوات الفرس في (نهاوزر) بتشكيلات ضخمة ، فوجه القوات بقيادة النعمان بن مقرن ، فكانت معركة (فتح الفتوح) الظافرة . وانطلق العرب المسلمون فاجتاحوا بلاد فارس خلال سنتين فقط ، وقتل ملك الفرس يزدجرد ـــ وانضمت بلاد فارس إلى الدولة العربية الإسلامية .

لقد تميزت إدارة الحرب في عهد أمير المؤمنين عمر بمجموعة من الخصائص ، من أبرزها :

١ ـــ المركزية القوية في القيادة ، بحيث كان عمر يتدخل في تعيين قادة العمليات ، وفي تحديد المهمات والواجبات . غير أنه كان يترك لقادته حرية العمل في إطار الواجب المحدد ، لاختيار أساليب العمليات والأساليب التعبوية ـــ التكتيكية .

٢ ـــ تحقيق التوازن على مسارح العمليات ، بفضل الاحتياطات الاستراتيجية ـــ قوات التدخل السريع من الفرسان ـــ .

٣ ـــ تنسيق التعاون بين الجبهات والقوات على الجبهة الواحدة .

٤ ـــ ألاهتمام ببناء المجتمع العربي ـــ الإسلامي في الأقطار التي يتم فتحها ، واكتساب قدرتها لتكون رفداً ودعماً لقوة العرب المسلمين .

٥ ـــ الحرص على العنصر العربي ـــ الإسلامي ، وحمايته ـــ مادياً ومعنوياً ـــ باعتباره العنصر المكلف بحمل رسالة الإسلام والدفاع عنها وحمايتها .

استمرت أعمال فتح المسلمين للأندلس أربعة أعوام . ولكن الصراع المسلح كان محدوداً ، فباستثناء معركة وادي لكة سنة ٩٢ هـ ، ومعركة وادي السواقي ٩٤ هـ ، وباستثناء بعض المقاومات في المدن ، والانتقاض أو الارتداد ، فإن أعمال الفتح كانت أشبه

بالمسيرة، ولو أنها مسيرة شاقة ومضنية، بسبب صعوبة الإقليم الجغرافية، علاوة على صعوبة المناخ.

لقد مضت فترة ثمانين سنة تقريباً بين الانطلاقة الأولى للفتوح وفتح العرب المسلمين للأندلس، ونضج فن الحرب العربي ــ الإسلامي خلال هذه الفترة، وبدت ملامحه واضحة كل الوضوح، وأول هذه الملامح هي تحقيق التوازن بين (هدف الحرب) و(غاية السلم). فهدف الحرب هو القضاء على المقاومات التي تعترض إقامة المجتمع العربي ــ الإسلامي التي هي (غاية السلم). ولقد اشتركت في أعمال الفتح أمم شتى، من بربر وسواهم، كانوا حديثي العهد بالإسلام. وارتضى كثير من الأندلسيين أبناء البلاد الدخول في دين الإسلام. وقد شارك هؤلاء العرب المسلمين المغارم والمشاق وكره القتال. فكان من الطبيعي أن يشاركوهم المغانم سواء بسواء. ولو أن المغانم لم تكن هدفاً، وإنما كانت وسيلة لتثبيت دعائم المجتمع الجديد. وهذا ما يفسر ترك أمور البلاد التي ارتضى أهلها الإسلام ديناً ــ في المغرب العربي الإسلامي وفي الأندلس، بيد أبنائها الأصليين.

أما الظاهرة الواضحة الثانية، فهي حرص موسى بن نصير على حماية قوات المسلمين، والاستناد دائماً إلى قاعدة قوية وصلبة. وهذا ما دفعه إلى الإسراع بالانتقال إلى الأندلس، واختيار محور جديد للعمليات ــ على يسار المحور الذي سار فيه طارق بن زياد، مع توجيه قوة ثالثة للسير على محور آخر ــ هو محور البرتغال حالياً ــ بقيادة عبد العزيز بن موسى، بحيث لا تبقى هناك مقاومات يمكن لها أن توجه تهديدات خطيرة لجنبات المسلمين ومؤخراتهم. وهذا ما يفسر أيضاً غضب موسى بن نصير على قائده طارق، الذي أوغل بعيداً في تقدمه، تاركاً المجال للمقاومات حتى تتجمع في كل مكان. وكذلك فإن عمليات فتح الأندلس تظهر الفارق المميز بين واجبات القيادة الاستراتيجية التي مثّلها الوليد بن عبد الملك وقيادة العمليات التي مثلها موسى بن نصير. فقد كان واجب القيادة الاستراتيجية تحديد الهدف بدقة، وتأمين متطلباته، وترك الحرية لقائد العمليات، حتى ينفذ الواجب بطرائقه وأساليبه وإمكاناته المتوافرة له. وهذا أيضاً ما تؤكده عملية استدعاء أمير المؤمنين الوليد للقائد موسى، عندما عرف طموحه لتجاوز حدود المهمة المحددة له بحدود الأندلس، وخضوع قائد العمليات خضوعاً تاماً

لتوجيهات قائده وأوامره، برغم ما توافر له من القدرات والإمكانات، وبرغم بعده الكبير عن مقر القيادة الاستراتيجية (دمشق)، وبرغم ما أحرزه من هالات النصر التي من شأنها التغرير بعقول الرجال، إلا من كانوا مثل موسى بن نصير، وعلى مستواه من الإيمان والإخلاص. وهو الذي وصف بنفسه ما أحرزه من انتصارات بقوله: «**ما هزمت لي راية قط، ولا فضّ لي جمع، ولا نكب المسلمون معي نكبة، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين**».

تعاقب على حكم الأندلس بعد الفتح عدد من الأمراء ــ الحكام ــ الذين بلغ عددهم تسعة عشر أميراً، إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل، فأقام الحكم الأموي في الأندلس سنة ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م. ولقد تميز عهد الولاة بظهور عدد من الأمراء الذين حاولوا متابعة الفتوح داخل بلاد الفرنج (فرنسا) من أمثال السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد يوم التروية سنة ١٠٢ هـ. ثم عبد الرحمن الغافقي الذي استشهد يوم معركة بلاط الشهداء سنة ١١٢ هـ. وعرف المسلمون خلال العهد الأموي بالأندلس مجداً وقوة وعلماً وعرفاناً لا زالت بقايا آثاره تشهد بعظمته. أما ما حدث بعدئذ من خروج العرب من الأندلس في القرن الخامس عشر، فلا علاقة له، بنهج الحكم العربي ــ الإسلامي، وإنما بقيت علاقته مرتبطة أشد الارتباط بالحروب الصليبية التي بدأت على أرض أندلس المسلمين، وانتقلت إلى أرض المشرق العربي ــ الإسلامي (بلاد الشام ومصر)، ثم تحولت إلى أوروبا.

لم يكن فن الحرب العثماني، إلا امتداداً لفن الحرب العربي ــ الإسلامي، وإلا تطويراً له. ولقد أظهرت عملية فتح القسطنطينية ــ وما سبقها من أعمال قتالية ــ خصائص هذا الفن. فعلى مستوى السياسة الاستراتيجية (أو الاستراتيجية العليا) يظهر ذلك التوازن الرائع بين (هدف الحرب) و (غاية السلم). فقد كان هدف الأتراك العثمانيين متابعة دور العرب المسلمين في رفع راية الإسلام، وتعريف الناس به، والدفاع عنه، غير أن العثمانيين جابهوا ما لم يجابهه العرب المسلمون الأوائل. فقد استطاعت الكنيسة البابوية خلال فترة ثمانية قرون تنظيم أمورها، وفرض هيمنتها على مراكز القوى في أوروبا الغربية، وصار باستطاعتها تقديم مقاومة عنيفة ومنظمة. وبالرغم من ذلك، لم يتحرك الأتراك العثمانيون بعامل الحقد أو الكراهية أو الانتقام، أو لغايات السلب والنهب

والاغتصاب والتدمير، وإنما تحركوا على نهج أسلافهم، فكانوا يمنحون الحريات الأمنية والاقتصادية والإدارية لمواطنيهم كافة، وفي حدود ما فرضته الشريعة الإسلامية. واعتمد الأتراك العثمانيون في إدارة البلاد التي يفتحونها على أبناء البلاد ذاتهم، تاركين لهم المرة بعد المرة الفرصة الكاملة لاتخاذ المواقف الصحيحة في إطار الدولة الإسلامية. الأمر الذي أدى إلى إنتشار الإسلام على نطاق واسع في الأقاليم التي فتحها الأتراك العثمانيون. ولقد كان موقف السلطان محمد الفاتح يوم دخل القسطنطينية، نموذجاً واضحاً لهذا النهج. فلم تستبد بالفاتحين الظافرين شهوة الانتقام لمعاناتهم، أو التدمير استجابة لنزواتهم، خلافاً لما كان يفعله الفرنج الصليبيون في كل مكان وطئوه.

الظاهرة الثانية هي القدرة الحركية العالية، واستخدام هذه القدرة للأغراض الهجومية. فلقد اتسعت حدود الدولة العثمانية، وكان عليها مجابهة متطلبات الحرب على مسارح متباعدة، فكان تطوير سلاح الفرسان (الصبايحية) وزيادة الاعتماد على القدرة البحرية عاملاً حاسماً في نجاح الأتراك العثمانيين لضرب أعدائهم، والاستيلاء على مدنهم، وفتح القسطنطينية.

الظاهرة الثالثة، هي تطوير ما يمكن تسميته (باستراتيجية الردع والضربات الإجهاضية المسبقة). إذ ما كانت الجيوش العثمانية تتحرك إلا عندما تتوافر المعلومات الكافية عن تحرك الجيوش المعادية وتجمعها، وعندها تسرع الجيوش العثمانية، لضرب القوى المعادية، قبل أن تكمل استعداداتها، أو تعمل على تجزئتها وضربها على التتابع، مستفيدة في ذلك من قدرتها الحركية العالية. ولم تكن عملية الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها إلا تطويراً للهجمات الوقائية، فقد عملت القسطنطينية باستمرار على توجيه الحرب ضد المسلمين، والتحريض ضدهم. فكان على الأتراك العثمانيين ضمان أمنهم، وتأمين الاستقرار لدولتهم، بالقضاء على مركز القوى الذي يشكل الخطر الأول عليهم. وقد أظهرت عملية فتح القسطنطينية حرص محمد الثاني (الفاتح) على الإمساك بالمبادأة، وتحقيق المباغتة. فقد فرض المعركة على المدينة فرضاً، وباغتها بما أعدَّه لها من المدفعية، كما باغتها بالتحرك الليلي، ونقل السفن من الدردنيل إلى ميناء القسطنطينية. وصحيح أن الإمساك بالمبادأة هنا وتحقيق المباغتة، لم يضعف من إرادة القتال لدى حامية المدينة والمدافعين عنها، إلا أن الإمساك بهذين المبدأين من مبادىء الحرب، ضمن للسلطان

محمد تنفيذ مخططه للهجوم بإحكام ودقة . وهنا يظهر مبدأ ثالث من مبادىء الحرب ، طبقه السلطان محمد بكفاءة عالية ، وهو (التأمين الإداري للقوات) . فقد عمل على حشد قوى ضخمة ـــ ربع مليون مقاتل ـــ وحاصر المدينة زهاء شهرين ، ولم يظهر خلال هذه الفترة أي ضعف في إمداد القوات بمتطلباتها واحتياجاتها .

لقد استمر العمل للاستيلاء على القسطنطينية زهاء ثلاثة أعوام (بداية من بناء قلعة روم ايلي حصار) ، فنضجت خلال هذه الفترة مخططات الهجوم ، وأمكن حشد القوى والوسائط الضرورية لتنفيذ المشروع بنجاح . وتوافرت المعلومات الدقيقة عن وضع المدينة وتحصيناتها وقواتها ، وبات باستطاعة السلطان محمد تنفيذ مخططاته بثقة تامة وأمل كبير بالنجاح . ولهذا لم يكن إنذاره إلى ملك الروم ـــ قسطنطين ـــ بتسليم المدينة ، إلا محاولة لتجنب (كره القتال) و (توفير الجهد) .

وأظهرت عملية فتح القسطنطينية خصائص الجندي المسلم التركي ، وريث الجندي العربي المسلم ، فهو مقاتل شديد البأس ، يتمتع بروح معنوية عالية يستمدها من إيمانه العميق . فلديه الاستعداد الدائم للقتال ، ويمتلك القدرة على الصبر واحتمال الشدائد ، ثم هو بعد ذلك مقاتل في جيش منظم ، ويخضع لانضباط صارم . وليس من الغريب بعد ذلك أن يصبح هذا الجندي رمزاً للفضائل الحربية ، في عصر كان يفتقر إلى الفضائل الحربية .

لقد استطاع محمد الثاني فتح القسطنطينية بفضل الأخذ بهذه الأسس جميعاً وتطبيق هذه المبادىء . وصحيح أن القسطنطينية ، عاشت قروناً وهي تحتضر ، إلا أنه كان من المحال الاستيلاء عليها ، لو لم تتوافر للسلطان محمد الإرادة الثابتة والصلبة لتحقيق ما عجز أسلافه عن تحقيقه . وهنا يأتي دور الفرد في صنع الأحداث . إذ كانت مسيرة هذه الأحداث جميعها تسير بالقسطنطينية نحو نهايتها ، ولو لم يتقدم لها محمد الفاتح من الشرق والغرب لوقعت تحت ضربات الصربيين القادمين إليها من الغرب . فكان استيلاء محمد عليها ، وسبقهم إليها ، هو الذي حول الموقف بكامله ، ونقل الدولة العثمانية من موقع الدفاع الاستراتيجي ضد الغرب إلى موقف الهجوم الاستراتيجي على أقطار الغرب .

٧ ـ حروب القرون الوسطى في أوروبا

برهنت الحضارات المتتالية على توافر عنصر التكامل في كل حضارة متفوقة. وهكذا كان التفوق في فن الحرب الإغريقي تعبيراً عن التفوق في بقية مجالات الحياة العلمية والأدبية والفنية. وكذلك كان شأن الحضارة الرومانية، ومثلها حضارة العرب المسلمين الذين تربعوا على عرش العالم طوال قرون متتالية، والذين لم يكن تفوقهم في فن الحرب إلا مجالاً واحداً تكامل مع بقية المجالات العلمية والأدبية والفنية، فارتفع بالإنسان المسلم وبالدولة الإسلامية إلى مستوى المتفوق، الذي بلغه في حقبة تاريخية كان فيها الغرب يعيش حياة التخلف الشامل والمتكامل، لا في فن الحرب وحده، وإنما في بقية المجالات المكونة للحضارة. وقد يكون من المفيد والممتع بآن واحد التوقف عند بعض ظواهر فن الحرب الغربي، خلال تلك الحقبة التاريخية، والتي يطلق عليها تحديداً اسم (القرون الوسطى).

لقد ارتبط تنظيم الجيوش في أوروبا بوجود السلطة المركزية، وكانت هذه السلطة مرتبطة بوجود أشخاص أقوياء. وهكذا فقد أقام (الميروفنجيين) سلطتهم على أساس الجهد الذي بذله مؤسسها (مورفي)، وكذلك الأمر بالنسبة (للكارولنجيين). وغالباً ما كانت تغيب هذه السلطة بغياب صاحبها، فتتمزق الدولة بين الورثة، وتضيع المركزية، ويصبح من العسير تأمين القدرات لتنظيم جيوش كبيرة. وهكذا فبعد أن امحت السلطة المركزية خلال القرن التاسع الميلادي، لم تكن هناك جيوش وطنية، بل مجموعات صغيرة مبعثرة في المدن والمناطق، حيث تجمع قطعات ضئيلة العدد في الأعم والأغلب، ولوقت محدود، تحت إمرة أحد الأتباع. ولقد أخذت هذه الشركة المسلحة صفات مشتركة في جميع أنحاء أوروبا، فهي إذ تتلمس الأمان، لجأت إلى المدن المحصنة والقلاع المنيعة. ولذلك فإن عهد ممالك فرنسا وألمانيا وإسبانيا وجمهوريات إيطاليا وأماراتها لم يكن إلا عهد الحصار والحصون. ومن ناحية أخرى، فإن الخيالة المدرعة ظلت هي الأساس في الفلوات والفيافي طوال سبعة قرون. ولئن بلغ فن التحصين وفن الحصار، وفن صانع الأسلحة، وهو الخبير في صنع اللباس الدارع (الشكة) والأسلحة، حدَّ الكمال، ولئن بلغت كل هذه الفنون شأناً رفيعاً، فإن فن الحرب ظل منكمشاً ليس له مفاهيم استراتيجية مبتكرة.

فكان يظهر غالباً وكأنه في دور الطفولة، ويفصله بون شاسع عن القيمة الفردية للمحارب، وأحياناً عن الوسائط المستخدمة. فبقي المحارب طوال هذه الفترة، وهو يقدم نموذجاً خاصاً للرجل الساذج والصلد والضاري، وعميق الإيمان في الوقت ذاته. ومع أنه ارتكب أعمال ضراوة رهيبة، فقد ظهرت أيضاً أعمال خارقة من الوفاء والبسالة والإيمان. فلقد ولدت من الاقطاعية العسكرية عادة ممارسة الوفاء بالعهد، والالتزام بالفضائل الحربية. ولقد درج حكام فرنسا ــ منذ أيام (كلوفيس)، ومثلهم بقية الحكام في أوروبا، على عادة تقديم الإقطاعات من الأراضي مقابل ما يقدمه الرجال من الخدمات. غير أن هذه الإقطاعات كانت تمنح لأجل محدد، فهي بالتالي قابلة للاسترداد من قبل العاهل الذي منحها، مما كان يدفع الحاصلين على الإقطاع للتأكيد طوال حياتهم على ولائهم وإخلاصهم. أما بالنسبة للجرمان، فكان من عادة ملوكهم وأمرائهم تنظيم جيوش صغيرة من الرفاق الموثوقين والمرتبطين ببيوتاتهم. وقد تواترت هذه العادة في كل مراتب التسلسل.. وهكذا تشكل نظام إقطاعي هرمي يحتل فيه الملك مرتبة القمة، ثم تأتي بعد ذلك مرتبة أمراء الإقطاع ومن يتبعهم ثم التابعين لهؤلاء وهكذا. ولم تكن الإقطاعات متساوية في أهميتها، وإنما كانت تكتسب أهميتها من اتساعها، ومن القدرة المتوافرة فيها لتقديم أكبر عدد من المقاتلين. ودخلت الأسقفيات وحماتها في هذا التنظيم. وكانت المدن بدورها جزءاً لا يتجزأ من الإقطاعية، فكان عليها تقديم المقاتلين المجهزين بأسلحتهم. ولكن المدن أخذت في النمو شيئاً فشيئاً، وزادت قوتها بارتفاع عدد سكانها، وازدهرت تجمعاتها (كومونوتها)، فأخذت بعد القرن الثالث عشر في تكوين جمهوريات حقيقية مستقلة في جميع أنحاء أوروبا. واستقلت عن وصاية السيد المولى، سواء أكان أسقفاً أو كهنوتياً. وأصبح لهذه الجمهوريات حق إعلان الحرب أو إبرام السلم، ولها قواتها المحلية الخاصة بها ــ ميليشيا ــ ولها علمها وشعاراتها وأختامها، ولها أحياناً إقطاعاتها وأتباعها، أو الملتزمون معها في الأراضي المتاخمة لها، فأطلق عليها في فرنسا اسم الضواحي، وفي إيطاليا الكونتادو. وكانت أول هذه الكومونات قد تكونت في شمال الأندلس، ومنحها ملوكها الصليبيون صكوكاً ــ فيوروس ــ حتى ينظموا مراكز مقاومة عسكرية متقدمة في مواجهة المسلمين، للانطلاق منها بالهجوم. وفي فرنسا أراد الملك لويس السادس (البدين) الانتقاص من شأن أصحاب إقطاعاته، فشجع الكومونات، وأولاها الإعفاء، فأولته وحدة سيادتها المباشرة. ولكن وبعد أن استغل ملوك فرنسا، الكومونات، عملوا على

إعاقة نموها حتى لا تصل إلى درجة الاستقلال التام، على نحو ما حَدث في ألمانيا وإيطاليا. وكانت الفرائض العسكرية على الكومونات متغيرة، شأنها شأن خدمة النبلاء الإقطاعيين. فبعضها تقدم جندها عند كل دعوة، وبعضها الآخر للدفاع عن البلاد عندما يتهددها خطر خارجي فحسب. وإذا كان جميع الذكور البالغين من (١٦ ــ ٦٠) سنة مكلفين بحمل السلاح من حيث المبدأ، إلا أن كثيراً من الهيئات بقيت معفاة من كل حملة بعيدة ــ مثل أصحاب المطاحن والمخابز، وأحياناً النجارين والبنائين ــ إلا في حالة الخطر الأهم.

وهكذا بقيت تعبئة الجيوش في العصور الوسطى وتنظيمها وقيادتها، مرتبطة أشد الارتباط ببنية المجتمع الإقطاعي. ولذلك فإن تعداد الجيوش لم يتجاوز أيام الكارولنجيين العشرة آلاف رجل، إلا فيما ندر، منها خمسة إلى ستة آلاف فارس على الأكثر. واستمر الأمر على ذلك طوال القرون التالية، وخاصة فيما يتعلق بالخيالة، إذ إن الحصان والتجهيزات والتسليح يتطلب أثماناً باهظة، ولا سيما التسليح الذي كان يتطلب أيدي عمال مهرة. ويحتاج الفارس البسيط لمالٍ كافٍ حتى يستطيع أن يتجهز. وفضلاً عن ذلك فهو ليس وحده، بل يواكبه المُرافق أو التابع المكلف بتسليحه، وخادم، وهذان الاثنان راكبان. وهناك عدة جياد منها واحد ــ أيمن ــ وهو حصان القتال الممسوك بعناية باليد اليمنى خلال مراحل المسير، حتى يصل إلى ميدان المعركة ويقتحمها، وهو غير مجهد. وهؤلاء الناس وجيادهم تزيد من النفقات طوال مدة الحملة التي تستغرق عادة الأربعين حتى الستين يوماً. فإذا ما تجاوزت مدة الحملة هذه الفترة، فإنه يجب على السيد أن يكون على درجة من الثراء حتى يستطيع دفع مرتبات جنده وأتباعه الذين ارتضوا البقاء معه. وكان على الملك إعلان التعبئة العامة حتى يستطيع تكوين قوة كافية من الفرسان. وتعتبر معركة بريسارت التي وقعت في أيلول ــ سبتمبر ــ ٨٦٦ م نموذجاً لضعف الخيالة في العصور الوسطى في فرنسا. ففي هذه المعركة قام البريتون والنورمانديون باجتياح إقليم بريسارت ونهبه. ولم تكن قواتهم من الخيالة تزيد على أربعمئة فارس، فقام (روبير القوي) بقيادة جيشه ومطاردة الغزاة، وكان عدد فرسانه مماثلاً. ولقد قاد لويس السادس أربعمئة فارس لقتال ملك انكلترا هنري الأول. ويبرهن ذلك على أن (الكابيسيين) الأوائل والذين اقتصروا على موارد مقاطعاتهم الخاصة، لم يكن باستطاعتهم

تجهيز أكثر من ألف فارس. وكانت الكومونات (المدن) هي التي تحتكر تقريباً ما تحتاجه الدولة من الرجالة ـــ الميليشيا ـــ المشاة. ولكنها كانت تقدم أعداداً متواضعة، إلا أنها منظمة في وحدات شديدة البأس، يختلف تجهيزها بحسب اختلاف عدد سكان المدن، وازدهارها. ولقد تضمنت وثائق الملك الفرنسي (فيليب أوغست) وثيقة عن (عدد فرسان مملكة فرنسا)، الذي كان ٤٣٦ فارساً. فإذا ما أضيف إليه فرسان غيان، وكونتية تولوز، الذين لم يدعوا أبداً إلى حملات شمال نهر اللوار، وإذا ما أضيف عدد فرسان شامبانيه وبورغونيه وهم ١٨٠ فارساً تقريباً، فإن العدد الإجمالي يرتفع حتى ثمانمئة فارس.

نهجت ألمانيا (أو الامبراطورية الرومانية ـــ الجرمانية المقدسة) نهجاً مغايراً في تنظيم جيوشها. فقد لاحظ (اوتون الثاني) أن عدد الخيالة ـــ الفرسان ـــ الذين كانت تقدمهم التنظيمات الكنيسية ـــ الاكليركية ـــ (الأسقفيات والأديرة) يشكل رقماً أكبر من الرقم الذي كانت تقدمه سوقات الإقطاعيين العلمانيين. فعندما حشد قواته لغزو إيطاليا، تجمع لديه ألفان ومئة وعشرون فارساً ثقيلاً، كان معظمهم ممن نظمتهم الكنيسة، الأمر الذي حمله على زيادة اعتماده على الإقطاعات الاكليركية ودعمه لها. ولا سيما أن هذه الإقطاعات تمتاز على الإقطاعات العلمانية بأنها ليست وراثية، كما أن قيادها أسهل من قيادة الإقطاعيين الكبار الذين يمكن لهم إعلان تمردهم بسرعة. والذين حاولوا ـــ على سبيل المثال ـــ تصديع الوصاية الإمبراطورية، مستفيدين من الصراع الدائم تقريباً بين الكنيسة الجرمانية والبابوية، وهو الصراع الذي وصل ذروته في عهد الأسرة الفرنكية (في عهد هنري الرابع). فأعلنوا ثورتهم. وما كان من هنري الرابع إلا أن خاض ضدهم معركة هامبورغ (على نهر الاونستروت يوم ٩ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٠٧٥ م). وانتصر فيها فسحق الساكسون الثائرين وقطع الفلاحين الذين اشتركوا في العملية مع سادتهم إرباً إرباً، والذين قاتلوا قتال المشاة، ضد فرسان الملك هنري الرابع.

لم يكن الساكسون أقل من الفرنسيين في اعتمادهم على ميليشيات المدن لتكوين وحدات المشاة ـــ الرجالة ـــ. فكان على أسرة (هوهنستوفن) الكبيرة، الاعتماد على ثورة المدن الإيطالية: إذ كانت إيطاليا الشمالية خلال تلك الفترة ترفض السيادة الألمانية. ذلك أن المدن الايطالية أفادت من الحروب الصليبية، فازدهرت، واغتنت، خلال القرنين

الحادي عشر والثاني عشر، مما ساعدها على التحرر من ربقة سادتها ووصاية أساقفتها، وأقامت جمهوريات ــ لا سيما في منطقة لومبارديا ــ. وكانت جمهوريات المدن هذه، الوافرة الثراء، والمكتظة بالسكان، والتي تنظمها ارستقراطية محلية ــ وطنية ــ تستمد قوتها من تماسك قواتها المنظمة، والتي يتم تجنيدها في مناطقها المحددة لها محلياً. وقد تميزت هذه القوات بتسليحها الجيد، وتنظيمها الذي يضم قوات المشاة ــ الرجالة ــ إلى جانب الخيالة الثقيلة ــ المدرعة ــ والمدعمة بالفرسان النبلاء. وهي خاضعة لهيئة قيادية شبيهة بقيادة الفلامور، ولطالما هزمت ميليشيات المدن هذه جيوش الإمبراطور. ولقد قرر الإمبراطور (فريدريك بربروسه) تصفية جمهورية (ميلانو) سنة ١١٦١م. فجمع ألفين وخمسمئة فارس (شوفالييه). فاستسلمت له ميلانو. ولم يكن جيش (اوتون الرابع) الذي خاض معركة (بوفين) سنة ١٢١٤ م يزيد كثيراً على جيش فيليب أوغست ــ الفرنسي ــ ولقد اكتسبت هذه المعركة أهمية خاصة بين معارك القرون الوسطى، لا بسبب حجم القوات المشتركة فيها، وإنما لتميز إدارة الحرب فيها. فعندما علم فيليب أوغست بتجمع قوى المتحالفين ضدَّه في الفلاندر، وبنزول (جان بلا أرض) في الأزوشيل، وكان يومها يقوم بمطاردة الانكليز باتجاه نهر الفارون، أسرع فترك قوة من ١٥ ألف رجل مع ابنه لويس، في وضع المراقبة على نهر اللوار، ثم اتجه مع ٢٥ ألف رجل نحو بوفين. وفي ٢ تموز ــ يوليو ــ سحق لويس قوات (جان بلا أرض) في (روش أوموان). وفي ٢٧ تموز ــ يوليو ــ سحق فيليب أوغست المتحالفين في بوفين. فبدأ الانكليز انسحابهم إلى الأورشيل، وقد فقدوا كل أمل. وأمكن لفيليب أوغست تحقيق انتصاره بفضل مناورته على الخطوط الداخلية، وضربه لكل قوة بمعزل عن القوة الأخرى. وأما بالنسبة لإدارة معركة بوفين ذاتها، فقد كان ميزان القوى فيها في غير مصلحة الفرنسيين، إذ حشد الامبراطور أوتون ١٠ آلاف فارس و٥٠ ألفاً من جنود المشاة المتحالفين معه (ميليشيات المدن)، في حين كان تحت قيادة فيليب أوغست ٥ آلاف فارس و ٢٠ ألفاً من المشاة ــ الرجالة ــ الأمر الذي حمل فيليب أوغست على توزيع قواته بتشكيلة متباعدة مرنة لم تكن الجيوش قد استخدمتها منذ اختفاء الجيوش الرومانية. وأفاد فيليب من هذا التوزيع فائدة لا تنكر. ولقد دارت المعركة في بدايتها ضد الفرنسيين. وكانت تدابير الحيطة سيئة كالمعتاد. واشتبكت مؤخرة الرتل الفرنسي خمس مرات مع مقدمة الحلفاء، واستطاعت الخيالة الخفيفة والنبالة أن تصد بشكل جيد

هذه الهجمات المتفرقة . ووصلت مؤخرة الفرنسيين لتقدم المساعدة ، وانتشرت كدعم ، وشكلت الجناح الأيمن للجيش . وكان أول ما فكر به ــ فيليب أوغست ــ هو إرسال قطعة قوية ــ من حملة المطارق الفولاذية ــ إلى مؤخرته بمهمة إمساك الجسر على نهر مارك . ثم انتشر الجيش الفرنسي على يسار مؤخرته مستنداً بمجنبته اليسرى على نهر مارك . وكان رئيس أركان الملك (الأسقف الأخ غيران) يقدر تقديراً صحيحاً الموقف ، فأدرك أن تفوق خيالة العدو سيضمن له قوة صدمة كافية لجرف قوات الفرنسيين ، إذا ما تجمعت في سرايا كثيفة كعادتها . ولهذا امتطى جواده ، وسار على طول جبهة القتال ، ونشر الجيش كله داخل مفارز صغيرة ، بحيث أصبح عرض الجيش الفرنسي معادلاً لعرض جبهة العدو . وكانت أوامره تنطلق مجلجلة : « باعدوا صفوفكم ، مددوا خطوط الجبهة حتى يتعذر على العدو تطويقكم ، قفوا جميعاً على الجبهة » . وعندما انتشرت التشكيلة ، كان عمق الخط الفرنسي أكبر من عمق الخط الإمبراطوري بثلاث مرات ، على حين كانت كثافته تعادل كثافة الخط الإمبراطوري . وكانت الشمس واقعة خلفه ، وكانت الخيالة النورماندية في القلب مغطاة بالمشاة ، وعلى الجناح الأيمن كانت خيالة الشرق الفرنسية تقف على خطين ضمن وحدات تضم كل واحدة منها ٢٥٠ رجلاً . وعلى الجناح الأيسر كانت خيالة الغرب محمية بالميليشيا ، وموزعة داخل وحدات تضم كل واحدة منها ٤٠٠ رجل . وفي المعسكر المقابل ، كانت ميمنة (لجيش الحلفاء) فقط تتمتع بمثل هذه التشكيلة المرنة . أما القلب فكان عبارة عن جحفل يضم ٣٠ ألف رجل من المشاة الفلامندية التي تحمل الرماح ، كما كان الجناح الأيسر مؤلفاً من (فلانكس) يضم ٥ آلاف فارس فلامندي . ولقد أظهر القتال أن الفاعلية مقتصرة على التشكيلات المتباعدة فقط . فقد بدأت المعركة بحركات تتجه نحو نقطة واحدة ، هي قلب الجيش الفرنسي ، وقام بهذه الحركات الميليشيا الفلامندية المنظمة على شكل سهم ، وفرسان الفلاندر وقطعات بولوني . وخرقت صفوف المشاة الفرنسية ، في حين كانت قوة فرنسية تأخذ الهجوم المعادي من الجانب . وتدهور الموقف إلى درجة خطيرة ، غير أن الحرس الملكي وقوات (سان فاليري) قاموا بإنقاذ الموقف . وخلال ذلك ، كانت هناك معركتان تدوران على الأجنحة ، فعلى ميسرة الفرنسيين تحطم هجوم بانتيو على سالزبوري ، ولم يستعد الفرنسيون السيطرة إلا بعد أن تدخلت مفرزة حملة المطارق الفولاذية ، المنطلقة من المجنبة (بقيادة الأسقف دوبوفي) . أما على الجناح الفرنسي الأيمن ، فقد قام سان بول

وميلون بهجمات التفت حول الخيالة الفلامندية، وحققت نتائج جيدة، عندما بدأت تضغط عليها من الخلف. وتدخل بورغوني وشامباني، وتبعثر الفلامنديون، عندها هاجمت ميمنة الفرنسيين قلب القوات الجرمانية وسحقته. بعد قتال استمر فترة ثلاث ساعات، لم يبقَ في قلب الجيش الامبراطوري سوى جزيرة ضمت سبعمئة فلامندي من حملة الرماح، ولم يتغلب عليهم الفرنسيون إلا بعد جهد شاق. وتوقف القتال دون أن تتبعه مطاردة عامة. ولم يصمد من الخط الامبراطوري حتى المساء إلا الميمنة المتمفصلة، والتي تميزت بتشكيلتها المرنة والمماثلة لنظيرتها في الخط الفرنسي.

يمكن بعد ذلك التعرض لجيوش انكلترا. ففي القرن العاشر الميلادي، حقق النورمان الاسكندينافيون انتصارهم بإنزال ثلاثمئة وخمسين رجلاً من سبع سفن سنة ٩٨١ م. وكانت هذه القوة علىٰ صغرها كافية لاحتلال مدينة (سوفهامبتون). وأصبح باستطاعة ملوك اسكندينافيا امتلاك تاج انكلترا سنة ١٠١٦ م، بقوات منقولة على مئة وستين مركباً فقط. وهذه السيطرة الدانمركية في ذلك العهد انتهت سنة ١٠٤٢ م. في وقت بقي فيه الانكلوساكسون يعيشون حياة المجتمع الهمجي المغرق في بدائيته. فكان جيشهم انعكاساً لذلك، على نقيض جيش (غليوم دون نورماندي) الذي اعتبر بحق من أفضل الجيوش التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، من حيث التأهب والتنظيم والتوازن. وقد ضم ذلك الجيش ــ الضخم ــ سبعة آلاف رجل مقاتل، ومعهم جيادهم وخدمهم وصناعهم، حملتهم إلى انكلترا قوة بحرية من ستمئة وستة وتسعين زورقاً. وكانت قوات هذه الحملة قد تشكلت من أمم شتى فمنهم الفرنسيون والغلامان والبورغونيون والاليتانيون ومن صقلية، وكانت قوة الفرسان هي القوة الرئيسة في جيش غليوم، إذ بلغ عدد أفرادها ألف وخمسمئة فارس. ولم يكن باستطاعة ملك انكلترا (هارولا الثاني) أن يزج ضد غليوم إلا جيشاً صغيراً من أربعة آلاف راجل ــ مشاة ــ. وقد عمل غليوم بعد أن بسط سيطرته على انكلترا، على إعادة تنظيم المملكة، ليضمن لنفسه ما يكفي من الموارد للصراع ضد بارونات انكلترا، ثم ضد ايقوسيا وايرلندة. وهذا ما فعله ملوك أسرة (بلانتاجيني). وبالرغم من ذلك فقد بقي عدد المقاتلين في هذه الجيوش صغيراً. ففي (معركة الراية) التي نشبت يوم ٢٢ آب ــ أغسطس ــ سنة ١١٣٨ م، ضد ملك ايقوسيا (دافيد) أرسل الملك (ايتين دوبلو) حفيد غليوم قوة لا تتجاوز بضع مئات من الفرسان. وقد خاضت قوات المملكة حروبها

في ايرلندة ضد المواطنين الذين قاتلوا راجلين، ودون وقاية دفاعية، وبأسلحة بدائية سيئة. وكانت حملة هنري الثاني ــ ابن حفيد غليوم الفاتح ــ هي أكبر الحملات، إذ ضمت خمسمئة فارس، وزهاء أربعة آلاف راجل ــ مشاة ــ منهم مئة وستة وثلاثون دارعاً. وكانت هذه القوات كافية لإخضاع ايرلندة دون أي عناء. واعتباراً من القرن الثاني عشر، بدأت الجيوش الانكليزية في تعزيز مشاتها ببضع مفارز من الخيالة الفرسان، الذين كانوا يتركون جيادهم في المعركة إلى خدمهم، لكي يحيطوا ويدعموا حاملي الحراب ورماة النبال. وهذا دليل آخر على الأهمية التي كانت تحتلها المشاة ــ الرجالة ــ.

سارت حروب القرون التالية (الثالث عشر حتى الخامس عشر) على هذا النهج ذاته، سواء في معارك الملك (جان بلا أرض)، أو الملك الانكليزي ادوار الثالث (١٣٢٧ ــ ١٣٧٧). ولكن تاريخ فرنسا أبرز خلال هذه الفترة نموذجين لكفاءات قيادية غريبة. أولهما (الفارس دوغيسكلان) الذي وضع سيفه تحت خدمة شارل دوبلوا (١٣١٩ ــ ١٣٦٤ م)، ثم التحق بخدمة شارل الخامس، وحارب ملك نافار ــ حفيد لويس العاشر ــ، وهزمه دوغيسكلان في كوشرال، ووقع أسيراً في معركة أوري (١٣٦٤)، ثم التحق بخدمة هنري دوتر انتسبامار في إسبانيا، حيث خاض أكبر معاركه. وسمي لدى عودته قائداً أول لفرنسا إلى إخراج الانكليز منها. واعتمد في ذلك على استراتيجية تعتمد على تجنب الاشتباك مع الجيش الرئيسي للانكليز. ولم يكن تجنب المعركة سلبياً، بل ضمن استراتيجية تعتمد على المرونة والمباغتة، والتي قلما نجح في استخدامها قائد مثله، وعلى التعرض للقوافل، وسحق المفارز، وأسر الحاميات المنعزلة. وكانت الهجمات مباغتة دائماً، وعلى الاتجاه غير المتوقع، وكانت ليلية في أغلب الأحيان. وزاد من فاعليتها ما كان يستخدمه من وسائط مبتكرة للانقضاض السريع، ودقة اختيار الأهداف، ودراسة حالة العدو النفسية. فكان دوغيسكلان يهاجم غالباً الحاميات المتذمرة، أو المدن المستعدة لتغيير اتجاه ولائها وتبعيتها. مع إثارة الاضطرابات المحلية، واستغلالها لتحويل أنظار الخصم وإبعاده عن أهدافه الحقيقية. وأدت هذه الطريقة في النهاية إلى إرغام الانكليز على ترك الأراضي التي كانوا يحتلونها حتى ذلك الحين. وبحيث لم يبقَ للانكليز إلا شريط ضيق على أرض فرنسا (ما بين بوردو وبايون).

كذلك كان دور (جان دارك) التي قلبت روتين القرون الوسطى بشكل ثوري.

ولقد أفهمت هذه المناضلة الثورية طبقة النبلاء أن الحرب عمل هام ، وفن يقوم فيه النظام والمناورة بدور خطير ، لا مجرد لعبة نجريها بالاتفاق مع الخصم ، أو فرصة نستغلها لإظهار الشجاعة الفردية . وأن للمدفع في الحرب مكانة تفوق مكانة الفروسية . ولقد استطاعت جان دارك استخدام تأثيرها المعنوي لتضع حداً لفكر القرون الوسطى ، ولتحل محله الشعور الوطني القومي . كما عرفت كيف تفرض أفكارها حول الأهداف (السياسية العسكرية) التي شكلت مفتاح حملاتها على أورليان وريمس وباريس . فبرهنت جان على تفوقها على أفضل الاختصاصيين الغارقين في روتينهم الجامد ، وأنها قائد وإنسان ملهم ، لا يمكن قياس قدراته بالمقاييس العسكرية المجردة . وعندما سقطت القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م بدأ عصر جديد ، لا لأن سقوطها كان يعني انهيار آخر الأسوار الرومانية فحسب ، بل لأن الفاتحين من أحفاد الخيالة النبالة مدينون بانتصارهم للمدافع الثقيلة من عيار ألف مم ، ولقوة أسطولهم البحري ـــ الحربي ، وهنا يكمن رمز العصر الجديد .

٨ ـــ حروب القرن السابع عشر

تميز القرن السابع عشر بمجموعة كبيرة من الحروب لعل من أهمها (حرب الثلاثين عاماً) ، التي وصفت بأنها أول حرب كبرى عرفتها أوروبا في التاريخ الحديث . وجاءت بعدها (حرب الجمهورية الانكليزية) ، أو (حرب كروموبل) ، ثم حروب الملك لويس الرابع عشر والتي برز فيها اسم (تورين) واسم (كونديه) وسواهما . وقد أبرزت هذه الحروب جميعها نضج (السياسة الحربية) ، التي أصبحت أكثر طموحاً ، وأكثر اتساعاً مما كانت عليه في القرون الوسطى . فقد كان بعض الملوك يرغب بالوصول إلى حدود طبيعية ، أو تغطية هذه الحدود بدويلات تابعة له . في حين كان بعضهم الآخر يرغب في إقامة مراكز مراقبة قوية على خطوط مواصلاته الدولية . وبالرغم من أن الأهداف الاقتصادية لم تستعد الأهمية التي كانت تتمتع بها في العصور القديمة ، خلال هذا القرن ، إلا أن الأمر الواضح هو أن هذه الأهداف قد أخذت في شق طريقها للظهور عبر الصراعات التي سبقت الحروب الاستعمارية ، التي اصطدمت فيها الدول الغربية الثلاث الكبرى : انكلترا وفرنسا وإسبانيا في المجالات البحرية خاصة . أما بالنسبة للقوات البرية فقد بقيت الأهداف محدودة . وكانت الجيوش تنتشر وتتحرك بحذر كبير ، خشية الوقوع

في المخاطر . وبقيت هذه الجيوش مرتبطة إدارياً بالحصون والقلاع ، وتتحرك عبر مختلف الأراضي بأرتال متوازية ، قادرة على أن تأخذ تشكيلة المعركة ، عندما يظهر احتمال الصدام بالعدو . وكانت هذه التشكيلة المتراصة تغني القطعات عن استخدام الحيطة القريبة أو البعيدة . وترك البحث عن المعلومات لبعض الوحدات الصغرى الخفيفة أو للجواسيس . وبقيت الاستراتيجية بسيطة موجزة ، نظراً للتمسك بمبدأ وحدة مسرح العمليات ، ولم يظهر التنسيق بين الجيوش المستقلة ، وانتقالها من مسرح إلى آخر ، إلا اعتباراً من سنة ١٦٥٠ م . وطالب معارضو التقاليد القديمة ـــ حتى قبل فترة التطورات التقنية الهامة ـــ بالاستغناء عن القلاع ، واستخدام أرتال الطرق بشكل واسع النطاق ، بالإضافة إلى فتح التشكيلات بأقسام متمفصلة . وقد عبر تورين عن هذا الاتجاه بقوله : « **لو صرف ملك إسبانيا على تجهيز قطعاته المقاتلة ما كلفته عمليات التحصين وتحسين القلاع من رجال وأموال ، لكان اليوم أعظم ملوك الأرض طرا** » . ثم جاء التطور العملي على أرض المعركة ، إذ أدى تأثير الأسلحة النارية إلى انتقال التشكيلات من المربعات إلى النسق .

كان الجنرال (غاستون دوفوا) هو أول قادة المخاطرات ، إذ قبل بالمغامرة والتعرض لأخطار الانقطاع الإداري ، وأخطار أرتال الطرق ، وناور على الخطوط الداخلية بكل جرأة ، ونجم عن ذلك قيامه بحملات صاعقة من ٥ شباط ـــ فبراير ـــ حتى نيسان ـــ ابريل ـــ ١٥١٢ ، فهزم الإيطاليين ٤ مرات ، وسار ٦٠٠ كم قطع منها ٢٠٠ كم في ١٤ يوماً ، عبر بولوني ومانتوا وبريساورافين . ثم جاء كبار قادة القرن السابع عشر (غوستاف ادولف) ، و(تورين) ، و(لوكسمبورغ) ، و(مونتي كوكولي) ، فكانوا هم أول من جرب فتح التشكيلات . وتمت السيطرة على مسرح العمليات في بداية الأمر من قبل مخافر محصنة . وكان لوكسمبورغ يفرز المقدمات إلى المناطق الحساسة التي يتوجه إليها . على حين كان تورين يفتح التشكيلات داخل تنظيم قواته . وكان جيشه سنة ١٦٥٧ م يتألف من ٥٠ ألف رجل ، ويتمفصل إلى ثلاثة فيالق ، منتشرة بين هسدن وميزيير على مسافة تبعد ستة أيام عن مكان التجمع . وهذا انتشار كبير عظيم الخطر . وتولى في سنة ١٦٧٢ قيادة ثلاثة جيوش ضمت ١٢٠ ألف رجل ، انتشرت في الفلاندرد وهولندا . وقاد وحده في سنة ١٦٧٤ قطعات منتشرة من الموزيل حتى سويسرا ، علماً بأنه كانت تزج في مثل هذه المساحة الجغرافية قبل ٤٠ عاماً ، أربعة جيوش مستقلة ، بيد أن

تورين كان حالة استثنائية بين قادة عصره. ولقد أظهر تورين في حملاته مهارة وفناً في استخدام المناورة غير المباشرة ضد الأهداف الإدارية، واستخداماً جيداً لأرتال الطرق.

هكذا تطورت جيوش القرن السابع عشر بقفزة مذهلة، سواء في عددها، أو في تنظيمها، أو في إدارة حربها. ولم يكن هذا التطور إلا تعبيراً عن تطور اجتماعي مماثل، فقد اغتنت أوروبا بفضل الاكتشافات الجغرافية، وبدأت تعيش حياة الطفولة المبكرة للتطورات السريعة التي ستعقبها. ولم يكن انفجار ثورة كرومويل في انكلترا، إلا واحداً من انفجارات مماثلة، عرفت فرنسا منها على سبيل المثال (ثورة فرونديه). ولقد كانت هذه الثورات بدورها تعبيراً غامضاً عن التحولات الاجتماعية التي باتت تلوح في أفق المستقبل.

لقد تميزت أول حروب هذا القرن (حرب الثلاثين عاماً) بغياب الحسم عن معاركها. وكانت أكثر المعارك أهمية فيها، هي تلك التي وقعت بين غوستاف أدولف ملك السويد، والقائد الألماني فالنشتاين، في (لوتزن). والتي قتل فيها الأول، وضاع كل أمل في الوصول إلى إقامة اتحاد بروتستانتي واسع، تحت السيطرة السويدية. ولولا تدخل الفرنسيين، ومصرع فالنشتاين لكانت هذه المعركة حاسمة، ولأمكن تحقيق الوحدة الألمانية، قبل إقامتها بعد ذلك بثلاثة قرون. ولقد تم الحصول على هذه النتائج العملية بصورة غير مباشرة، وانتهت المعركة الهامة الوحيدة خلال هذا الصراع بهزيمة من كان ميزان الحرب في صالحهم. وتعود هذه الهزيمة إلى أن جيش فالنشتاين كان أضعف من جيش السويديين، كما تعود إلى خطأ فالنشتاين ذاته، عندما لم يستغل الفرصة التي حققتها له استراتيجيته استغلالاً جيداً على المستوى الاستراتيجي. لقد حصل قبل المعركة على مزايا كبيرة بفضل ثلاثة تطبيقات متتالية لأنواع مختلفة من العمل غير المباشر، وهذه التطبيقات الثلاثة هي التي غيرت بشكل جذري شكل الحرب. وكان ملك جرمانيا فرديناند الثاني (١٥٧٨ ــ ١٦٣٧ م) قد أساء معاملة فالنشتاين وأهمله، ولكن حقده على البروتستانتية، وطموحه، دفعاه للبحث عن قائد تتوافر له الكفاءة المطلوبة لإدارة الحرب. فاستدعى إليه فالنشتاين سنة ١٦٣٢ م، وكلفه بقيادة جيش لم يشكل بعد، فاستطاع فالنشتاين تجنيد أربعين ألف مقاتل، ممن اندفعوا إلى التطوع بتأثير سمعته ونفوذه، وذلك خلال فترة ثلاثة أشهر فقط. وسرعان ما جاءه طلب النجدة من بافاريا،

حيث كان جيش غوستاف أدولف يجتاحها منتصراً في كل مكان. غير أن فالنشتاين تجاهل هذا الطلب، وتوجه نحو حلفاء السويديين الضعفاء (الساكسون) فطردهم من هنغاريا، وسار نحو الساكس بعد أن ضم إليه قوات بافاريا، فبدا كأنه ترك بافاريا وهي محرومة من قدراتها الدفاعية.

لقد اختلفت هذه الحروب التي عرفتها أرض القارة الأوروبية عن تلك الحرب الأهلية التي مزقت انكلترا، ما بين (١٦٤٢ ــ ١٦٥٢ م)، وعرفت باسم (حرب الجمهورية الانكليزية ــ أو حرب كromويل). ويعود الفارق المميز في هذه الحرب الأهلية إلى محاولة الطرفين المتصارعين حسم الصراع المسلح من خلال المعركة، ومن خلال البحث المستمر عنها، وهذا ما عبر عنه أحد قادة هذه الحرب بقوله: «**لم ننصب الخيمات أو نحفر الخنادق، ولم نختفِ أبداً وراء الأنهار أو عبر الطرق. وكانت الفكرة العامة للحرب باستمرار هي: أين العدو؟ إلى الأمام للقائه**».

ولقد استمرت هذه الحرب الأهلية، برغم هذه الفكرة الهجومية، طوال أربع سنوات، دون وقوع معركة حاسمة فعلاً إلا على المستوى التعبوي ــ التكتيكي ــ وعندما انتهت أخيراً في سنة ١٦٤٦ م، كانت هناك جمرات ملكية ملتهبة كثيرة تحت الرماد، فما إن أضعفت الاختلافات من قوة الجمهوريين المنتصرين، حتى اندلع اللهب بعد سنتين، وهو أكثر ضراماً وأشد عنفاً.

كانت الحروب التي خاضتها فرنسا في عهد ملكها لويس الرابع عشر مشابهة لتلك التي دارت على أرض انكلترا، إذ لم تتضمن هذه الحروب إلا القليل من المعارك الحاسمة. وكانت أهداف الحرب محدودة على الأغلب، ويعود السبب في قلة عدد المعارك الحاسمة إلى عاملين أساسيين: أولهما تفوق التحصينات وتقدمها على التسلح، مما أعطى الدفاع تفوقاً ظاهراً. وثانيهما عدم وجود جيوش منظمة في وحدات دائمة مستقلة، واعتماد الجيوش على الحركة والقتال، باعتبارها كتلة واحدة، مما كان يضعف من إمكانية المناورة والأعمال الخداعية الرامية إلى تضليل العدو وحرمانه من حرية العمل.

لقد خاضت فرنسا لويس الرابع عشر مجموعة من الحروب (حرب الثلاثين عاماً)، و(حرب الفروند ــ أو المقلاع)، و(حرب إعادة الحق ــ أو حرب هولندا). وكان لرئيسي

الوزراء المتتاليين (ريشيليو)، ثم (مازاران) دورهما في رسم السياسة الاستراتيجية لهذه الحروب، فقد حدد مازاران الأهداف السياسية لحكمه بما يلي:

١ ــ تدمير البروتستانتية كحزب أساسي.

٢ ــ الانتقاص من درجة النبلاء والكبار والحد من نفوذهم.

٣ ــ الانتقاص من مكانة العائلة المالكة النمساوية.

وقد تطلب تحقيق هذه الأهداف السياسية إعادة تنظيم شامل للإدارة الداخلية، والقيام بإصلاحات إدارية مفيدة ــ لم يرضَ عنها الجميع ولا سيما النبلاء ــ مع تنظيم الأمور المالية والتشريعية والجيش، وتحطيم امتيازات الأقاليم لدعم المركزية. ولقد أظهرت هذه الحروب المستمرة كفاءات قيادية عليا، لم يكن أقلها شهرة (كونديه العظيم). غير أن شهرة تورين هي التي هيمنت على الجميع. وكان من أبرز معاركه وأكثرها حسماً هي (معركة الشتاء في سنة ١٦٧٤ ــ ١٦٧٥)، وأدت إلى انتصاره في توركهايم. وكانت فرنسا يومها تواجه موقفاً صعباً، فقد تخلى حلفاء لويس الرابع عشر عنه، واتحد الإسبانيون والهولانديون والدانيماركيون والنمساويون، ومعهم معظم الأمراء الألمان ضد ملك فرنسا. فاضطر تورين للانسحاب بعد أن نشر الدمار في مقاطعة بالاتينا. وسار حكام براندبورغ للالتحاق بالجيش الإمبراطوري، ولكن تورين هزم هذا الجيش قبل وصول قوات حكام براندبورغ في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ سنة ١٦٧٤. ثم انسحب إلى ديتويلر، بينما اجتاح الألمان الألزاس، وعسكروا لقضاء الشتاء في المناطق الواقعة بين ستراسبورغ وبيلفور.

كان كل شيء معداً لعمل تورين العظيم. وحدثت أول مباغتة عندما قرر دخول المعركة في أقسى أيام الشتاء. وقام بخداع الحلفاء، بأن وضع حصون الألزاس الوسطى على أهبة الدفاع. وسحب كل وحداته المقاتلة إلى اللورين دون أدنى صخب أو ضجيج، ثم سار بسرعة نحو الجنوب، مستفيداً من ستارة جبال الفوج لإخفاء تقدمه، وإخفاء ما يصله من نجدات على امتداد محور تقدمه. وعمل على تقسيم قواته إلى مفارز صغيرة وكثيرة، عندما وصل إلى المرحلة الأخيرة من مسيرته، لخداع جواسيس أعدائه. وبعد سير طويل في مناطق جبلية، وسط العواصف الثلجية، وصل قرب بيلفور، فجمع جيشه، وهاجم الألزاس فوراً فاجتاحها من الجنوب، وهي التي كان قد انسحب قبل

ذلك من شمالها. وحاولت قوات الألزاس مقاومة تورين. فوقعت معركة في (ميلوز) يوم ٢٩ كانون الأول ـــ ديسمبر ـــ ١٦٧٤. وانتصر تورين، واندفع التيار الفرنسي الجارف بسرعة بين جبال الفوج ونهر الراين، طارداً أمامه جنود الإمبراطورية الهاربين بفوضى نحو الشمال، على اتجاه ستراسبورغ. وكان الفرنسيون يسحقون خلال هذه المطاردة كل مفرزة تحاول المقاومة. وفي كولمار الواقعة على منتصف الطريق إلى ستراسبورغ، وقف حكام براندبورغ مع قوة معادلة لجيش تورين، وأقاموا سداً دفاعياً. وكان تورين يملك قوة الاندفاع المادية والمعنوية مع حرية العمل، فاحتفظ بذلك كله، وقام في معركة توركهايم بهجوم تكتيكي غير مباشر، هدفه شل إمكانية مقاومة العدو، أكثر مما يهدف إلى تدميره. واعتمد على تأثيرات هذا التكتيك لإلحاق الهزيمة بالعدو. ونجحت خطته بشكل رائع، ولم يعد في الألزاس بعد أيام قليلة أيُّ وجود لجند العدو. وعاد الفرنسيون إلى معسكراتهم الشتوية ـــ في ستراسبورغ ـــ حيث باتوا قادرين على تأمين أغذيتهم وطعامهم، دون أية صعوبة من الضفة الألمانية لنهر الراين، وحتى حدود نهر نيكار. وانسحبت القوات الألمانية الباقية إلى براندبورغ. واستدعي مونتي كوكولي خصم تورين القديم لتسلم قيادة الجيش الإمبراطوري. ولكن تورين هزمه ووضعه في موقف صعب قرب نهر سالزبار، ولكن تورين قتل في بداية المعركة بقنبلة مدفع. وبموته تغير مجرى الحرب مرة أخرى.

٩ ـــ حروب القرن الثامن عشر

بدأ القرن الثامن عشر (بحرب الوراثة الإسبانية)، التي خاضتها فرنسا ضد النمسا وانكلترا وهولندا. وانتهى هذا القرن بحروب الثورة الفرنسية. وما بين بداية القرن ونهايته، تفجرت حروب كثيرة، لم يكن أقلها شهرة (حرب الوراثة النمساوية)، و(حرب السنوات السبع)، و(حرب الوراثة البافارية)، و(حرب الاستقلال الأمريكية). وقد أدى اتساع ميادين الحروب إلى زيادة حجم القوات. فارتفع عدد الجنود في جيش لويس الرابع عشر إلى ٣٨٠ ألف جندي، من بينهم ٨٠ ألف جندي أخذوا من جنود الميليشيا، وكانت هذه النسبة عالية بالمقارنة مع عدد أفراد الشعب الفرنسي الذي لم يكن يتجاوز العشرين مليوناً. ولقد قطعت بروسيا شوطاً أبعد من ذلك عندما نظم

فريدريك الثاني جيشاً من ٢٠٠ ألف جندي، في شعب لا يتجاوز عدد أفراده مليونين ونصف المليون. وعلى هذا النحو سارت بقية الدول الأوروبية، إذ ارتفع عدد أفراد الجيش الانكليزي سنة ١٧١١ م حتى ١٨٦ ألف رجل (من بينهم ٦٧ ألف مواطن انكليزي، والبقية مرتزقة). ومع هذا التطور، ظهر تطور مماثل في التسلح، فمع بداية القرن الثامن عشر سنة ١٧٠٠ م، تم استبدال البارودة القديمة التي تعمل بإشعال الفتيل، ببارودة جديدة ــ ذات زند صوّان ــ وأصبح القسم الأكبر من القوات مسلحاً بالبارودة الجديدة. هذا في فرنسا، أما في انكلترا، فقد بقي الجيش يستخدم البارودة القديمة المعروفة باسم (وليم الثالث)، حتى سنة ١٧٢٠ م حيث تم استبدالها بالبارودة الجديدة (براون بيس). وكان المدى المتوسط للبارودة الجديدة يصل إلى ٢٥٠ ياردة = ٤٠٠ م. أما المدى المجدي والذي كان يتم الالتزام به، فكان لا يتجاوز ستين ياردة (مئة متر تقريباً). ولقد أدى ذلك إلى زيادة الأعباء المالية يوماً بعد يوم. وعلى سبيل المثال، فقد كانت موازنة ألمانيا (بروسيا) في عهد فريدريك الثاني تبلغ (٧,٥ مليون تالر) خصص منها للجيش ٥ مليون تالر تقريباً، كما خصص احتياط في خزانة الدولة من أجل الدفاع مقداره (٦ مليون تالر)، لا يصرف إلا عند الضرورة لمجابهة متطلبات الحرب. وأصبح للمدفعية دور متعاظم، وكان لدى فرنسا في بداية القرن الثامن عشر كتيبتا مدفعية (كتيبة القذافة الملكية ــ بومبارديه ــ والتي نظمت منذ سنة ١٦٨٤ م)، ثم كتيبة المدفعية الملكية، التي نظمت سنة ١٦٩٥ م. أما انكلترا فقد نظمت كتيبة المدفعية الملكية الأولى سنة ١٧١٦ م. وارتفعت قيمة الفرسان بسبب اتساع مسارح العمليات. وكانت قوات الخيالة ــ الفرسان ــ تتكون في تنظيمين (الفرسان الثقيلة ــ أو الدراغون) و (الفرسان الخفيفة ــ أو الهوسار). وهكذا أخذت ملامح التشكيل المختلط لمختلف الصنوف (مشاة ــ مدفعية ــ فرسان ــ هندسة) ترتسم على أفق فن الحرب مع بداية القرن الثامن عشر. وبدأت الحرب الشاملة، تظهر على شكل نظام باهظ التكاليف، يتمثل بالسلم المسلح، في عهد لويس الخامس عشر. ولقد أعطت حروب هذا القرن أهمية متزايدة للأهداف السياسية ــ العسكرية. ثم أصبحت حرب الحركة والحروب الاستعمارية، والاحتلال المنهجي للبلاد الغنية بغية استثمارها، عبارة عن غاية في حد ذاتها. وانقلب الصراع على الممتلكات الاستعمارية ليصبح صراعاً على المواقع الهامة الرئيسة التي تسيطر على خطوط المواصلات البحرية العالمية (جبل طارق ــ

مالطة ـــ جزر الانتيل)، وأدى وجود عدة مسارح عمليات بآن واحد، والفتح المتتابع لكل جيش على مسرحه إلى ظهور عدة صفات يتصف بعضها بالجدة التامة. فلقد عادت إلى الظهور (**المناورة على الخطوط الداخلية**) المعروفة في التاريخ القديم. وصارت تنفذ في بداية الأمر بين عدة مسارح للعمليات، ثم أصبحت تنفذ بعدئذ بين أجزاء الجيش الواحد، داخل كل مسرح من مسارح العمليات.

وأدى (**فتح التشكيلة**) إلى وقوع المعركة بصورة إجبارية، إذ إن التأخر في فتح التشكيلة كان يعني التعرض للتطويق. فإذا انتشر الخصمان لمراقبة مسرح العمليات معاً، أصبح الاشتباك ضرورياً، ولا مفر منه. أما إذا بقي أحدهم متكتلاً، فإن تكتله يعرضه للتطويق بقوات الخصم المنتشرة على شكل شبكة. وغدت المناورة على خطوط المواصلات مجدية بصورة مبدئية، لأن من يقوم بها يصبح قادراً على فرض المعركة. وأصبحت (**عمليات السبر أو الجس والاستطلاع**) ضرورية جداً لمعرفة الاتساع الأقصى للانتشار بتشكيلة أي جيش من الجيوش، وهذا ما عبرت عنه مقولة تلك الفترة:

ينبغي على الجميع أن يناوروا معاً، وأن ينتشروا دون الوقوع في قبضة العدو، وأن يلتفوا دون التعرض للفوضى، على أن يتجنبوا إنشاء المفارز الدائمة». وجاء فريدريك الثاني فأضاف إلى ذلك قوله: عندما نقسم جيشاً إلى عدد من الفيالق غير المتكافئة، فإنه لا بد لنا من أن نتذكر أن أي فيلق منها لا يملك القوة الكافية ليضرب ضربة عنيفة وحاسمة. وينبغي أن يتم اجتماع الفيالق في مكان خلفي حتى يتعذر على العدو مهاجمتها وسحقها، وهي متفرقة خلال وصولها إلى مكان التجمع».

وهكذا، ومنذ تلك الفترة، غدت مناورات فتح التشكيلات القتالية وضمها من أجل العمل على خطوط مواصلات العدو، وعلى الخطوط الداخلية، مشروطة بطبيعة الحيطة، وإمكانية تحقيق المباغتة. ففي مواجهة خصم متردد، قليل الفاعلية، يمكن التصرف بجرأة تصل إلى حد المغامرة، فإذا ما تساوى الخصمان بالمهارة والفاعلية، أصبح اتساع التشكيلة الممكن مرهوناً بعلاقة سرعة ردود فعل العناصر، مع قدرتها الاستقلالية التكتيكية والإدارية. ولقد كان تحقيق المباغتة نادراً في مرحلة الجيوش التي لا تقبل التجزئة، ولا يتم التوصل إليها مطلقاً عن طريق التقرب المباشر. وكانت أساليب المسير

تنتقص من السرعة وتبطئها ، كما أن الانتشار بصورة منهجية كان عملية بطيئة . وبقيت طبيعة الأعمال القتالية خاضعة لتأثير ثلاثة عوامل :

١ ـــ سرعة الرجل ـــ المشاة ـــ .

٢ ـــ سرعة الحصان .

٣ ـــ توافر المواد التموينية للمقاتلين والعلف لدوابهم .

هذا بالإضافة إلى العامل الاقتصادي الذي أخذ يفرض ذاته بقوة متزايدة ، تتناسب مع حجم الجيوش ، وتسلحها ، وطبيعة مسرح العمليات الخ ... وظهر نتيجة لذلك اتجاه لدى عدد كبير من قادة القرن الثامن عشر يتلخص بعدم إمكان تحقيق المباغتة في المعركة . وقد رأى هؤلاء أن تحقيق هذه المباغتة يتم عن طريق المسيرات والمسيرات المعاكسة بأرتال صغيرة لاحتلال أفضل المواقع . ولهذا كانت مباغتة المواقع كثيرة جداً ، وهدفت باستمرار لإبعاد العدو عن المنطقة المرغوبة باستخدام حركة مخادعة ، أو بإعطاء معلومات كاذبة ، والانطلاق بعد ذلك إلى الموقع لأخذه دون قتال .

وبدأت المباغتة تأخذ معنى خطيراً منذ بدأت القطعات تخرج من شبكة القلاع والحصون الواقعة على الحدود ، لتجابه جيوشاً تضم أعداداً كبيرة من الخيالة الخفيفة . وأدى هذا الوضع إلى خلق مقدمات كثيفة تجمع في داخلها قوات من مختلف الصنوف . وتدخّل عاملان آخران دفعا إلى تكثيف هذه المقدمات وهما :

١ ـــ الفتح النادر للتشكيل المعادي .

٢ ـــ ضرورة تغطية مناورات النظام المائل ، منذ الوصول إلى ميدان المعركة .

وقد أخذت المقدمات تتطور باستمرار في تنظيمها وتسليحها ، حتى أخذت شكلها الواضح في منتصف القرن الثامن عشر ، على مسرح عمليات بافاريا وبوهيميا ، حيث كان الجيش النمساوي فيها مدعماً بقوة (٣٠ ألف) خيّال هنغاري . ولقد ساعد على هذا التطور عاملان أيضاً أولهما : الاحتكاك الدائم مع الجيوش الإسلامية العثمانية التي كانت تتقن استخدام الخيالة الخفيفة ، وتنظيم المقدمات ، وثانيهما قلة القلاع والحصون في بافاريا وبوهيميا .

وهكذا لم تعد القطعات تكتفي بالاعتماد على عدد صغير من الخيالة ، يقوم

بالاستطلاع على شبكة طرق قليلة التطور . ولما كانت القطعات الخفيفة والمشاة الراكبة تذوب تحت هجمات الهنغاريين الكثيفة والدائمة ، فقد ظهرت ضرورة دعمها بمفارز قتالية ضخمة ، وبعدد كبير من المدافع ، الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل . وبات الجيش مرغماً على الفتح بمفارز تعبوية ــ تكتيكية تضمن له متطلبات الحيطة . وأدت هذه المشكلة إلى زيادة جوهرية في تنظيم القطعات الخفيفة ، وقطعات المشاة الراكبة (دراغون) . ووجد كل جيش من الجيوش الأوروبية نفسه مضطراً لتقليد النموذج الهنغاري ومحاكاته ، وأنجب الاحتراس الدفاعي القدرة الهجومية . وأخذت الحيطة البعيدة تتزايد حتى على المسارح المغطاة بشبكة كثيفة من الحصون « **وأصبحت مهمة المقدمات هي الاستطلاع أمام الجيش ، وإعداد الظروف الملائمة لدخول الكتلة الرئيسة للجيش في المعركة** » . وكانت المقدمات تحاول في حقل المعركة تشكيل ستارة ، يتحرك الجيش خلفها ، ليخرج بصورة مباغتة على مجنبة الخصم . وأصبح تشكيل (الفرقة) وتنظيمها أمراً ضرورياً ، اعتباراً من هذه الفترة . إذ إن الحيطة أصبحت بحاجة لفتح القوات بمفارز تعبوية ــ تكتيكية ــ تضم مختلف صنوف الأسلحة ، علماً بأن هذا الفتح يأخذ شكلاً عملياً أفضل ، إذا ما كان تشكيل المفارز عضوياً ودائماً ، شريطة أن تكون قادرة على التمفصل للحصول على أكبر قوة عند العمل على أرض مسرح العمليات . وهذا هو التدبير الذي أخذه جيش (دوبروغلي) سنة ١٧٥٩ م وما قبل ذلك . ففي الفترة ما بين العام ١٧٤١ والعام ١٧٤٣ م عمل الجيش الفرنسي بمجمهرات تكتيكية للحيطة ، ثم تشكيلها تحت ضغط الهنغاريين . فتم تنفيذ ١٠ عمليات حصار ووقع ١١ اشتباكاً ، وأجريت معركة واحدة . وفي الفترة من سنة ١٧٤٤ حتى سنة ١٧٤٨ م استخدم الجيش الفرنسي في الفلاندر ، والذي لم يكن منظماً بتشكيل فرقي ، قواته للقيام بتنفيذ ٢٢ حصاراً . ووقعت ٣ اشتباكات ، وأجريت ٣ معارك . وعندما وقعت حرب السنوات السبع ، وعمم فيها استخدام المقدمات ، قام الفرنسيون ما بين سنة ١٧٥٦ وسنة ١٧٥٩ م بتنفيذ ١٩ حصاراً ، ووقع ١٥ اشتباكاً و ٤ معارك . وأدى استخدام التنظيم الفرقي ما بين سنة ١٧٦٠ وسنة ١٧٦٣ م إلى القيام بتنفيذ ١٢ حصاراً ، ووقع ٤٣ اشتباكاً و ٦ معارك ، ويظهر ذلك بوضوح أنه كلما زاد فتح الجيش تزايدت فرص الاشتباك ، وأصبح فرض المعركة العامة أكثر سهولة .

لقد بدأ القرن الثامن عشر بحروب القلاع والتحصينات ، والتي مثلتها أصدق تمثيل

تحصينات (فوبان)، وكان ذلك تعبيراً عن تفوق الدفاع على الهجوم. وعندما انتهى القرن الثامن عشر ــ كانت حرب الحركة قد تطورت تطوراً كبيراً على حساب حرب القلاع والحصون. وكان ذلك بدوره تعبيراً واضحاً عن تفوق الهجوم على الدفاع. ومارست المدفعية والأسلحة النارية دورها في هذا التطور الكبير، وذلك إلى جانب التطورات التي سبق عرض بعض ملامحها. وكان للقادة في هذا القرن دورهم الحاسم أيضاً، فيما حدث من تطورات على مستوى تنظيم الجيوش، وإدارة الحرب. وكان مارلبورو، وفريدريك الثاني، وسواهما في طليعة القادة الذين أسهموا في هذه التطورات. ولقد ارتبط اسم مارلبورو بحرب الوراثة الإسبانية، التي وقفت فيها فرنسا، وليس معها إلا إسبانيا وبافاريا وسافوا ضد التحالف الذي ضمّ النمسا وبريطانيا وهولندا والدانيمارك والبرتغال، وعدة دويلات ألمانية. وقد بدأت هذه الحرب في شمال إيطاليا، بينما كانت بقية الجيوش تكمل استعداداتها، واحتشد النمساويون بقيادة الأمير أوجين في بلاد التيرول، استعداداً للسير مباشرة نحو القوات الفرنسية التي كانت تسد الطريق في ممر ريفولي. ولكن أوجين عرف ممراً صعباً في الجبال، لم يستخدم منذ زمن بعيد، فسلكه، وخرج فجأة من السهل بعد أن قام بحركة التفاف واسعة من الشرق. وأفاد من هذه الميزة منذ البداية، وقام بمناورات ناجحة خدعت الفرنسيين مرات متتالية وأخفت أهدافه الحقيقية. ودفعت الفرنسيين إلى مهاجمته فانتصر عليهم، وثبّت أقدامه في شمال إيطاليا. وشعر الهولنديون بخطر الغزو، فلجؤوا إلى حصونهم. وكان مارلبورو يؤمن بفكرة الحرب الإيجابية، ولكنه لم يبدل هذا الدفاع السلبي بهجوم مباشر على الجيش الفرنسي الذي كان يتقدم نحو نهر الراين، بل ترك الحصون الهولندية الهامة، وسار مسرعاً نحو خطوط برايان، وخط التراجع الفرنسي. وشعر الجيش الفرنسي بأن قبضة مارلبورو تكاد تخنقه معنوياً، فانسحب بسرعة، وقد نزل به الإنهاك المادي والانهيار المعنوي. فأصبح هدفاً سهلاً لمارلبورو الذي كان يراقبه عن كثب للقيام بتطويقه. ولكن الهولنديين رفضوا هذه الفكرة، واكتفوا بإبعاد خطر الغزو عن بلادهم. وفي هذه السنة أيضاً (١٧٠٢ م) جذب الجيش الفرنسي إلى الفتح مرتين، وساعد التردد الهولندي الفرنسيين على الخلاص في كل من المرتين. وقام مارلبورو في السنة التالية (١٧٠٣ م) بمناورة ناجحة لاحتلال أنفرس، واجتياز خط الخنادق المحصن، وكان يأمل في تثبيت الجيش الأساسي الفرنسي بهجوم مباشر على الطرف الجنوبي لخطوط برايان، بينما يقوم الفيلق الهولندي بالهجوم على مدينة ستاند،

بدعم من الأسطول ومساعدته. وتتجه قوات هولندية أخرى نحو أنفرس من الشمال الغربي. وكان الهدف من هذه التحركات على الساحل هو إرغام القيادة الفرنسية على سحب قواتها المتمركزة في الطرف الشمالي لخطوط برايان، لحماية المؤخرات الفرنسية. وكان على الفيلق الهولندي التقدم بعد أربعة أيام ومهاجمة المدينة من الشمال الشرقي، على حين يترك مارلبورو القوات الفرنسية، ويتقدم نحو أنفرس في الشمال، مطبقاً عليها بكل قواته. وأمكن تنفيذ القسم الأول من المخطط بنجاح. وانسحب الجيش الفرنسي إلى نهر الموز خوفاً من جيش مارلبورو. ولكن الفيلق الهولندي لم ينفذ الحركة في اتجاه ستاند كما كان مقرراً، وقام بحركة أقل اتساعاً قرب أنفرس. ولم تحقق هذه الحركة نتيجتها المتوقعة في خداع الفرنسيين. فلما تقدم مارلبورو إلى الشمال، دفع الجيش الفرنسي قوة من ٣٠ سرية من سرايا الخيالة، و٣ آلاف رجل من المشاة رماة القنابل الذين ساروا على الأقدام بسرعة مسير الفرسان الخيالة. وتمكنت هذه المفرزة السريعة من قطع مسافة ٤٠ ميلاً (سبعين كيلو متراً تقريباً) بمدة ٢٤ ساعة، وانضمت إلى حامية أنفرس، في تموز ـــ يوليو ـــ ١٧٠٣، ثم هاجمت الفيلق الهولندي، وأرغمته على الانسحاب، بعد أن كبدته خسائر فادحة. وهكذا فشل المخطط الذي أطلق عليه مارلبورو ـــ بكل غرور ـــ اسم (المخطط الكبير).

قام مارلبورو في السنة التالية (١٧٠٤ م) بتنظيم مناورات وتحركات مماثلة، قادته لمجابهة الجيش الفرنسي في بيلسنهايم يوم ١٣ آب ـــ أغسطس ـــ وكان الجيش الفرنسي يضم ٥٦ ألف جندي و(١٣٠ ـــ ١٥٠ كوكبة فرسان)، بالإضافة إلى ٩ أفواج، و٤ كوكبات من فرسان (الدراغون)، و٩٠ مدفعاً. بينما كانت قوات مارلبورو ـــ والأمير أوجين ـــ تضم ٥٢ ألف مقاتل، و(١٦٠ ـــ ١٧٠ كوكبة فرسان)، و٥٢ مدفعاً، فكان ميزان القوى شبه متعادل، وجرت معركة تصادمية ـــ جبهية ـــ انتصر فيها مارلبورو ـــ. وبلغت خسائر الحلفاء ٤٥٠٠ قتيل ـــ منهم ٦٧٠ انكليزياً ـــ بالإضافة إلى ٧٥٠٠ جريح، بينما ارتفعت خسائر الفرنسيين حتى (١٠ ـــ ١٥) ألف قتيل، وزاد عدد جرحاهم على هذا العدد، علاوة على ٢٤ ألف أسير وقعوا في قبضة الحلفاء. وأصيبت هيبة فرنسا ومكانتها إصابة بالغة، غير أن فرنسا صممت على متابعة الصراع. ولم يتمكن أحد الطرفين من تحقيق انتصارات حاسمة، برغم المناورات المعقدة التي نفذها الطرفان بمهارة كبيرة.

كانت بروسيا وبقية الأمارات الألمانية خاضعة (للدولة الجرمانية المقدسة). وقد عرفت أقاليم بروسيا أشد أنواع البؤس بسبب اجتياح القوات الأجنبية أراضيها في الحروب التي لم تكن لتتوقف حتى تعود للاندلاع من جديد، (وأهمها حرب الوراثة الإسبانية). ولم يكن لبروسيا وسواها من الأمارات الجرمانية أية مصلحة في هذه الحروب. وكانت بروسيا أقوى الأمارات الجرمانية، فأخذ فريدريك الثاني على عاتقه متابعة الجهد لتوحيد الأمارات الألمانية، وإعادة بناء قدراتها الذاتية، وتنظيم جيشها تنظيماً حديثاً. فلما تم له ذلك، بدأ حربه ضد الإمبراطورية الجرمانية المقدسة التي وصفها بأنها «ليست إمبراطورية ولا جرمانية ولا حتى مقدسة ــ بعد أن أضعفها المسلمون الأتراك مرات عديدة وهددوا عاصمتها». وانتصر على الجيوش النمساوية المتفوقة في معارك سنة ١٧٤٢ (موليتز وشوتوسبتز)، ثم في الحرب السيليزية الثانية (١٧٤٤ ــ ١٧٤٨ م)، مما أثار النمسا وفرنسا وروسيا التي كانت تطمع جميعها في الهيمنة على الأمارات الجرمانية وإخضاعها لنفوذها، فشكلت تحالفاً ضد بروسيا التي لم تقف إلى جانبها سوى انكلترا، والتي كان اشتراكها محدوداً، إذ اكتفت بإرسال جيش إلى هانوفر للمحافظة عليها. وكان على فريدريك مجابهة جيوش ضمت زهاء نصف مليون جندي تقريباً، في حين لم يكن باستطاعته حشد أكثر من ١٢٥ ألف مقاتل. ولكنه أفاد من موقع بروسيا المتوسط لضرب كل جيش من جيوش الحلفاء على التتابع، بأسلوب (العمل على الخطوط الداخلة). ولقد اشتملت هذه الحرب (حرب السنوات السبع) على مجموعة معقدة من المناورات والتحركات، وتخللتها مجموعة من المعارك ــ كانت معركة روزباك من أشهرها. فقد استخدم فريدريك في هذه المعركة أسلوب النظام المائل، إذ قام بمناورات وضعت قواته بشكل عمودي تقريباً على جبهة قوات الحلفاء، الأمر الذي سمح له بضرب أجنحتهم على التتابع، ثم تمزيقهم. ولم يخسر فريدريك في هذه المعركة أكثر من ٥٠٠ رجل، مقابل ٧٧٠٠ مقاتل من الحلفاء، وتمزيق جيشهم الذي كان يضم ٦٤ ألف رجل (ضعف عدد أفراد جيش فريدريك تقريباً). وأسرع فريدريك لاستثمار نصره، فتوجه إلى (لوثن) التي كان الحلفاء قد حشدوا فيها ٨٠ ألف جندي، و١٤٤ كوكبة فرسان، و٢١٠ مدافع. في حين لم يكن مع فريدريك إلا ٢٤ ألف جندي، و١٢٨ كوكبة فرسان، و١٦٧ مدفعاً ثقيلاً. وانتصر فريدريك بفضل ظهوره المباغت في سيليزيا فدارت معركة قاسية خسر فيها فريدريك ٦ آلاف رجل، بينما خسر النمساويون ١٠ آلاف بين

قتيل وجريح، ووقع ٢١ ألف أسير في قبضة القوات البروسية، بالإضافة إلى ١١٦ مدفعاً. فكانت الخسارة الإجمالية للحلفاء في هذه الحملة (٥٦) ألف رجل. وخرج فريدريك منتصراً. فوضع الأساس الثابت لقيام (الإمبراطورية الجرمانية). وتحطمت آمال الحلفاء بالإبقاء على بروسيا ضعيفة ممزقة حتى يسهل استثمارها. فكانت هذه المعارك بمقدماتها ونتائجها من أعظم معارك العصر، نظراً لما رسمته من النتائج على جدار (أفق المستقبل).

١٠ ـــ الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت

انفجرت الثورة الفرنسية، وانتهت (حروب الملوك) لتبدأ (حروب الشعوب). ففي يوم ١٤ تموز ـــ يوليو ـــ ١٧٨٩ م انقضّ رعاع باريس على سجن الباستيل، وذبحوا حاميته. وكان ذلك إيذاناً باندلاع شرارة الثورة. وتبع ذلك اعتقال ملك فرنسا لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت في اليوم ٢١ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٧٩١ م. وكان ذلك بمثابة تحد مثير لملوك أوروبا، وأمرائها، وخاصة النمسا وبروسيا، فزحف جيش بروسي، وتوجه لقتاله جيش فرنسي، ووقعت المجابهة على تلال (فالمي) يوم ٢٠ أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٧٩٢ م. غير أن المعركة توقفت عند حدود التراشق العنيف بالمدفعية، ولم يحدث أي اشتباك أو قتال، ولم تهرق نقطة دم. وكان الشاعر الألماني (غوته) قد رافق الجيش البروسي إلى فالمي. ورأى ببصيرته ما يتمخض عنه هذا اللقاء، فقال كلمته الشهيرة: «**من هذا المكان، وفي هذا اليوم، يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم، وفي وسعكم جميعاً أن تقولوا إنكم قد حضرتم إشراقة شمس هذا العصر**». وأخذت عجلة الأحداث في التسارع، ففي يوم ٢١ كانون الثاني ـــ يناير ـــ سنة ١٧٩٣ م انهالت المقصلة محدثة صوتاً مكتوماً، صامتاً، حسم حياة ملك. وكان هذا الملك هو لويس السادس عشر، وهب رجل الثورة دانتون صائحاً ومحذراً: «**إن تحالف الملوك يهددنا ونحن نلقي بين أقدامهم رأس الملك، رهينة للمعركة**». ولكن أين هي القوات التي ستضطلع بأعباء هذا التحدي؟.. لقد كانت هناك حاجة لحشد القوى الضخمة، وتأمين الوسائط القتالية لها، بأسعار منخفضة، فأصدر مجلس التوفيق الذي كان يحكم فرنسا مرسوماً **يوم ٢٣ آب ـــ أغسطس ـــ ١٧٩٣ م**، **بإجراء التجنيد العام**. فكان

إصدار هذا المرسوم هو نقطة التحول الحاسمة في تنظيم الجيوش الحديثة، لا في فرنسا وحدها، وجاء في الفقرة ـ أو المادة ـ الأولى من هذا المرسوم ما يلي:

« **من هذه اللحظة، وإلى أن يتم طرد كل الأعداء من أرض الجمهورية، يعتبر كل الفرنسيين مصادرين بصفة دائمة**. وسيذهب الشبان إلى القتال، وسيصنع الرجال المتزوجون الأسلحة، وسينقلون التموين والإعاشة، وستصنع النساء الخيام والملابس، وسيخدمن في المستشفيات، وسيحول الأطفال الملابس القديمة إلى ضمادات صحية، وسينقل المسنون إلى الميادين العامة لتأجيج شجاعة المقاتلين، وإثارة الحقد ضد الملوك، وللدعوة إلى وحدة الجمهورية. وستحول المباني الوطنية إلى ثكنات، والميادين العامة إلى ورش لصنع الأسلحة، وستغسل أرضية الأقبية لاستخلاص ملح البارود منها، وستخصص الأسلحة ذات العيارات المناسبة لتسليح المواطنين الذين سيسيرون لملاقاة العدو. أما رجال الأمن الداخلي، فسيسلحون ببنادق الصيد وبالسلاح الأبيض. وستصادر كل الخيول لصالح قطعات الخيالة. أما خيول الجر التي لا تستخدم في الزراعة، فإنها ستجر المدفعية وعربات التموين». ولم يتقبل الشعب الفرنسي مرسوم التجنيد بالخضوع، فانفجرت (حرب الفانديه)، وأسرع مجلس التوفيق فزج جيش الثورة للقضاء على ثورة الفانديه. وسارت الجمهورية الفرنسية إلى الحرية على أشلاء الجثث الممزقة لرعاياها. وكانت هذه هي المرحلة الأولى من مراحل التجنيد التي أعادت عقارب الزمن إلى أيام (الحروب القبلية)، أو (القبلية المسلحة). ولم تكن قضية التجنيد هي قضية إصدار مرسوم، بل هي قضية القدرة على تطبيق هذا المرسوم. فأخذت (الدعاية) بممارسة دورها. وهذا ما تضمنته المقولة التالية: «لقد اعتمدنا على ما يسمى بالدعاية حتى نجذب آلاف المجندين إلى مراكز التدريب. وأخذ الجميع ينشدون في فرنسا نشيد المارسيليز، الذي ألفه روجيه دوليسل يوم ٢٥ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٧٩٢، وهو أكثر الأناشيد الحربية إثارة للمشاعر، بهدف إثارة الحماسة في وسط الجماعات. ولم يهمل الزعماء الديماغوجيون أية حركة من الحركات لإثارة المزاج القتالي للجنود، وتغذية الكراهية والحقد على أعدائهم، إلا واتبعوها، آخذين بمقولة شهيرة: أعطوني شيئاً أحقد عليه، وأنا أعدكم بتنظيم حملة دعائية هائلة ضده في أي مكان، خلال أربع وعشرين ساعة، ودون الحقد لا يمكن أن تكون هناك دعاية». لقد حررت الدعاية تلك القدرة الكامنة في الفرد، ووصفها أحد الملكيين الفرنسيين ـ مالية دوبان ـ بأنها: «تكتيك

خبيث جدير بالوحوش التي اخترعته ، إن خمسين ألفاً من الوحوش الضارية ، يتصاعد الزبد من أفواههم غضباً وشراسة ، يصرخون كما يصرخ أكلة اللحوم البشرية ، وينقضون بأقصى سرعتهم على جند العدو ، الذين لا يحرك الانفعال شجاعتهم » . لقد عدل التجنيد أسس الحرب ، ذلك أن تكاليف الجيوش ــ في الأنظمة الملكية ــ كانت نفقات مرتفعة جداً . فأصبحت هذه النفقات منخفضة جداً بعد تطبيق مرسوم التجنيد . كانوا في الماضي ــ أيام الملكيين ــ يتجنبون المعارك ، فأصبحوا بعد التجنيد يبحثون عنها ، إذ مهما ارتفعت نسبة الخسائر ، فسيكون بالمستطاع تعويضها ، عن طريق إصدار مراسيم الدعوة إلى خدمة العلم لأفراد جدد . ولقد سمح التجنيد وحده لنابليون أن يتبع سياسة الفتح . فكان نابليون يتبجح متباهياً أمام مترنيخ ــ في شوبنروم سنة ١٨٠٥ ــ بأنه يسمح لنفسه بخسارة ٣٠ ألف جندي شهرياً ، فقد كان سعر الجنود رخيصاً ، بل أرخص من روث الحيوانات .

لقد تطلبت الجماهير المسلحة ، إجراء تغيير جذري في الإدارة العسكرية والشؤون الإدارية ــ اللوجيستيك ــ . فقد كانت الجيوش أيام الملكيين تستخدم الخيام ، وتسير في أرتال الطرق المتواصلة ، وتحشد بصورة منهجية قبل شن المعركة ، معتمدة على أرتال التموين ، والمخابز الميدانية ، وقوافل الخبز ، وعلى مستودعات لجعالات الإطعام وعلف الرواحل . وقد عدل هذا التنظيم أو ألغي بجرأة . فاختفت الخيام ، واختفت معها مئات عربات الجر التي كانت تنقلها . وأصبح الجنود يبيتون بالعراء بدلاً من المبيت في الخيام . وجزئت الأرتال الطويلة ذات السير البطيء ، وقسمت إلى أرتال فرقية منضمة ، اشتملت على جميع صنوف الأسلحة . كانت هذه الأرتال تشكل جيوشاً مصغرة . ومكّن هذا من إجراء الحشد سواء قبل المعركة أو في أثناءها ، وضغطت أرتال النقل إلى حد كبير ، وحل التموين المنظم المنهجي محل المصادرات التي كانت تتم بنهب الأرياف . وقد زادت هذه التغييرات من سرعة الحركة الاستراتيجية والحركة التعبوية ــ التكتيكية للجيوش الثورية . وقد أدى ازدياد مسافات مسير هذه الجيوش ، وتخييمها في العراء ، إلى زيادة نسبة الخسائر في الجنود ، بالمقارنة مع نسبة هذه الخسائر التي كانت تقع في وسط الجنود ، عندما كان يطبق النهج القديم المريح . إلا أنه كان باستطاعة التجنيد التعويض عن هذه الخسائر جميعها . وكان للتجنيد أيضاً أثر آخر على الحرب ، ذلك لأن مستوى ذكاء المجندين

وتعليمهم كان أعلى من مستوى ذكاء الجنود في الجيوش الملكية القديمة ، لأن تجنيدهم كان يتم من كل طبقات المجتمع . ولو أنهم لم يكونوا يتمتعون بنفس قوة الانضباط للجنود في جيوش الملكيين .

وبما أن هؤلاء المجندين لم يدربوا على تنفيذ التطورات الآلية ، التي تمت في عصرهم ، فقد أوجدوا بسرعة التكتيك الملائم لاندفاعهم ومزاجهم القتالي . فكانوا لا يستخدمون نيران الفصيلة ، أو أنهم كانوا يكملونها بنيران محكمة التوجيه إرادياً . وأضيف النظام المنتشر إلى النظام المنضم . وشكلت كتائب الرماة ، التي كانت مهمتها التقدم أمام أرتال الانقضاض ، وتمهيد الطريق أمامها . وكان هؤلاء الرماة يتمتعون بحدة الرؤية كالنمس ، قدر تمتعهم بنشاط السنجاب . فكانوا يرغمون خصومهم على التملص من الحصار كما تفعل الثعالب عندما يطاردها الصيادون . وكتب ضابط بروسي عن المجندين ما يلي : « كان الفرنسيون ما زالوا غير مدربين ، ولكن في الغابات ، حيث لا يحتفظ الجندي بمكانه في الصف ، ولا ينفذ أية تدابير يفرضها النظام ، وحيث تغطيه الأشجار ، ولا يحتاج إلا إلى إطلاق النار وسط هذا الجو ، لم يكن المجندون الفرنسيون متكافئين معنا فحسب ، بل كانوا متفوقين علينا . وكان جنودنا الذين تمرسوا على القتال في أرض مكشوفة ، وعلى صفوف منظمة ، يجدون صعوبة في القتال وسط هذه الفوضى الظاهرية ، التي تعتبر ضرورية إذا ما أرادوا أن لا يكونوا هدفاً لرمايات العدو » .

ولكن ، وبالرغم من هذه المزايا الاستراتيجية والتكتيكية الساحقة التي انفردت بها جيوش المجندين ، وتميزت بها على الجيوش الملكية القديمة ، فإن جيوش المجندين الذين جاءت بهم الثورة ، كانت تتسم بعيب يلغي كل هذه الميزات دون استثناء . وكان هذا العيب هو الصعوبة التي تعانيها أمة خاضعة للتجنيد ، أي أمة مسلحة ، أمة تغذيها دعاية عنيفة ، في تحقيق سلم دائم . وكانت معاهدات السلم المغتصبة من الطرف المغلوب مجحفة بحقه إلى حد لم تكن تشكل إلا اتفاقيات هدنة مزعزعة . وكان المهزومون لا يوقعونها إلا تحت الإكراه وهم ينوون جازمين نقضها لدى أول فرصة سانحة . وكان هذا هو بدقة ما كتبه أحد مؤرخي الثورة الفرنسية : « فرضت الثورة الفرنسية وامبراطوريتها على أوروبا حرباً رومانسية ذات إيقاع جنوني ، وإن أصل هذه الحرب هو خطأ نفسي ـ بسيكولوجي ـ تجسد في الوهم الذي تصور أنه بالإمكان تحقيق السلم بسرعة

وسهولة من خلال الانتصارات الصاعقة والحاسمة . على حين أن هذا الأسلوب يزيد من صعوبة الحصول على السلم ، ويجعل من المحال الوصول إليه . وإن هذا الخطأ هو مفتاح كل تاريخ الثورة ، وتاريخ الإمبراطورية ، والقرن التاسع عشر ، وحتى عصرنا المضطرب الذي نعيشه في الوقت الحاضر » .

تكشف الدراسة لحملات نابليون أنه كان يعتمد على مبادىء ثلاثة هي :
١ ــ ثقته التي لا تتزعزع بالهجوم .
٢ ــ إيمانه بالسرعة لكسب الوقت ولتحقيق المباغتة الاستراتيجية .
٣ ــ إصراره على حشد قوات متفوقة في ساحة المعركة . وبخاصة في مكان الهجوم الحاسم . وإلى جانب ذلك فقد كان يلتزم التزاماً عميقاً بمبادىء الحرب : الحركية ، والمباغتة ، والحشد ، والأمن أو حماية القوات . وكان نابليون يتخذ من قادة الحرب التاريخيين أساتذة له ، ويوصي بالتعلم من تجاربهم ، فكان يقول : « قم بالحرب الهجومية على غرار الاسكندر ، وهاني بعل ، وقيصر ، وغوستاف أدولف ، وتورين ، وأوجين ، وفريدريك ، وخذ نموذج هجومك منهم ، فإن هذه هي الوسيلة الوحيدة حتى تصبح قائداً كبيراً . ولكي تقتحم أسرار فنهم الحربي » . وقد أبرزت أقوال نابليون مفهومه الهجومي : « إنني أومن بأن من الواجب أن نكون أبداً البادئين بالهجوم . إذ من الخطأ الكبير أن تسمح للعدو بأن يهاجمك . وينبغي في بداية كل حملة أن نفكر ملياً فيما إذا كان من الواجب أن نتقدم أم لا ، ولكن عند تنفيذ الهجوم لا بد من دعمه حتى نهايته الأخيرة . وعندما نريد غزو بلد من البلدان ، ينبغي أن لا نخشى خوض المعركة ، وعلينا أن نبحث عن العدو في كل مكان لقتاله » .

وكان نابليون يعمل من خلال الهجوم للوصول إلى الحسم ، ففي برقيته إلى القائد مورا يوم ١٧ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٨٠٥ ، كتب له مهنئاً على انتصاره في أولم : « أهنئك على النجاح الذي حققته ، ولكن لا تسترح أبداً ، طارد العدو ، وسيفك في ظهره ، واقطع عليه كل خطوط المواصلات » . وكان نابليون يعتبر أن السرعة هي العنصر الأساسي في حروبه ، وأن المعركة الحاسمة هي أداتها . فكان يردد باستمرار : « إن السرعة تضاعف العدو ، وإن سرعة المسيرات تعوض عن العدد ... إن المسيرات هي الحرب ، وإن القدرة على الحرب هي القدرة على الحركة . إن الانتصار هو من نصيب الجيوش التي

تتحرك ـــ تناور ـــ . وإن فن الحرب مثله مثل علم الميكانيك ، يعتبر عامل الزمن هو أكبر العناصر بين الوزن والقوة ... إن خسارة الوقت لا تعوض في الحرب ، وإن الأسباب التي تتذرع بها لخسارته هي أسباب سيئة دائماً ، لأن العمليات لا تتوقف إلا بسبب التأخير .. إن الاستراتيجية هي فن استخدام الوقت والمدى . وإنني أقل اقتصاداً بالمدى من الوقت ، لأن في وسعنا أن نغزو الأرض من جديد ، أما الوقت الضائع فلا يمكن تعويضه أبداً » . ومع إيمان نابليون بالهجوم وثقته به ، إلا أنه لم يكن يستبعد الدفاع عن تفكيره ومخططاته . فكان يقول : « **يشتمل كل فن الحرب على دفاع مصمم بصورة معقولة ، يسوده الاحتراس والحذر الكاملين ، وعلى هجوم جريء وسريع . فعندما تستخدم قطعات ضعيفة في قدرتها القتالية ، يجب أن تحفر الأرض كثيراً . إن الحرب الدفاعية لا تستبعد الهجوم . كما أن الحرب الهجومية لا تستبعد الدفاع** » . لقد كان نابليون في عملياته يحرص على تهديد مؤخرات العدو ، وقطع خطوط مواصلاته ، ولكن ظهر أن المناورة على خطوط المواصلات بات يتطلب حشد قوات كبيرة ، حتى يكون التهديد مؤثراً وخطيراً . فما كان من نابليون إلا أن أخذ في دفع جيشه بكامله للعمل على خطوط المواصلات ، مشكلاً بذلك ما أطلق عليه (**السد الاستراتيجي**) . وقد ظهر ذلك واضحاً جداً في عملياته سنة ١٨٠٠ م عندما نزل نابليون إلى ممر ستراديلا في إيطاليا ، واحتل بجيشه موقعاً طبيعياً ، وقطع جميع مواصلات العدو ما بين ميلانو إلى جنوب نهر البو . مما وضع النمساويين أمام موقف صعب ، فاضطروا لخوض معركة (مارنغو) التي حقق فيها نابليون نصراً من أكبر انتصاراته . وفي ذلك قال نابليون : « إننا نربح المعارك بالالتفاف حول العدو ، وبضرب مجنبته » .

بقي العامل الاقتصادي العامل القوي والمحرض وراء الحروب النابليونية . وكان نابليون يعرف أن انكلترا قد حققت عبر حروبها في القرنين السابع عشر والثامن عشر أكبر المكاسب ، فغدت أقوى قوة بحرية في العالم . وأصبحت مهيمنة على ثروات العالم ـــ الذهب ـــ . وتأكدت لنابليون هذه الحقيقة عندما نجح نيلسون بتحطيم الأسطول الفرنسي في (أبي قير) ، فأفسد على نابليون حملته التي كان هدفها إقامة امبراطورية فرنسية في الشرق . ولقد عاد نيلسون فدمر الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر . ولهذا حاول نابليون التعويض عن ذلك بحروبه القارية ، وبالمقاطعة الاقتصادية . ولكن انكلترا استمرت في التحريض ضد نابليون ، وتابعت نهجها في تقديم المساعدة لحلفائها

الأوروبيين، وتكوين التحالف إثر التحالف ضد نابليون. ولم يكن الصراع الذي خاضه نابليون ضد انكلترا هو صراع العدل ضد الظلم، بل كان صراعاً للبقاء على قيد الحياة بين دولتين بعثتهما طلائع الثورة الصناعية. فقد كانت انكلترا تبحث عن الأسواق لتصدير منتجاتها، والحصول على المواد الأولية، حتى تبقى دولة غنية، يسودها الرخاء والاستقرار. وكان على فرنسا تحقيق الهدف ذاته لتحافظ على قوتها وحماية صناعتها الوليدة. وهذا ما دفع نابليون للقول: «تستند قوة انكلترا إلى الاحتكار الذي تمارسه ضد الأمم الأخرى، ولا تقبل أن تشاركها فيه أية دولة أخرى. فلماذا تجني انكلترا هذه الأرباح وحدها ولا تشارك فيها مئات الملايين من الأفراد... إن مصلحة أوروبا هذه، والتي تحتكر انكلترا خيراتها كلها، لا قيمة لها بالنسبة لتجار لندن، إنهم يضحون بكل الدول الأوروبية، وبالعالم كله، مقابل مضاربة مالية واحدة».

ولقد حاول نابليون عبر حروبه القارية إقامة (وحدة اقتصادية أوروبية)، وتنظيم (إمبراطورية عالمية)، للوقوف في وجه انكلترا واحتكاراتها التي هيمنت على جميع أرجاء العالم. ولكن مخططات نابليون باءت بالفشل، فقد استطاعت انكلترا اختراق الحصار الأوروبي، عبر نفوذها إلى روسيا القيصرية. وهذا ما حمل نابليون على القول، بعد أن انتصرت عليه قوى الحلفاء، وحملته أسيراً إلى جزيرة سانت هيلانة: «**كانت روسيا المورد الأخير لانكلترا، وكان سلام العالم كله يستند إليها. ومن المؤسف أن الذهب الانكليزي قد برهن أنه أقوى من جميع خططي**».

لقد تم تكوين أول حلف ضد فرنسا سنة ١٧٩٢ م، عندما اتفقت انكلترا مع هولندا والنمسا وبروسيا واسبانيا وسردينيا للانتقام لقتل ملك فرنسا لويس السادس عشر، وكان هذا الحلف في واقعه حلفاً دفاعياً ضد خطر انتشار الأفكار الثورية في دول أوروبا الملكية، غير أن هؤلاء الحلفاء كانوا يفتقرون لوحدة القيادة، ولوحدة الهدف، مما ساعد الفرنسيين على تحقيق انتصاراتهم في فالمي وجياب. وانتقلت فرنسا من مواقع الدفاع إلى مواقع الهجوم. فأرسلت فرنسا الثورة جيشاً إلى إيطاليا (١٧٩٦). ولما عاد نابليون ظافراً، تقرر إرساله إلى مصر، في محاولة لتهديد انكلترا في أخطر مراكزها (طريق الهند). وكان نابليون يتبع في ذلك نهجاً ثابتاً يتمثل بمقولة: «إن مبادىء الحرب في المعركة العادية، مماثلة لمبادىء الحرب في الحصار، يجب التركيز بحشد النيران على نقطة واحدة،

وما إن تنفتح الثغرة حتى ينهار التوازن . وما بقي بعد ذلك فهو أمر غير مهم » . فماذا كان يقصد نابليون ــ بنقطة واحدة ــ هل هي النقطة الأقوى التي يساعد انهيارها على انهيار المقاومة كلها ؟ أم هي النقطة الأضعف التي يؤدي انهيارها إلى زعزعة المقاومة وتهيئة الظروف المناسبة للحسم ؟ لقد أوضح نابليون بعدئذ ماذا كان يريد بكلمة ــ نقطة واحدة ــ فعندما هاجم مصر ، كانت مصر هي نقطة التمفصل القوية المسكة بعنق طريق الهند . ثم عاد فأكد هذه الحقيقة عندما قال : « إن النمسا هي عدونا الأكبر ، فإذا ما تم سحقها ، سقطت إسبانيا وإيطاليا لوحدهما ، يجب علينا ألا نبعثر هجماتنا بل نركزها » . وعلى كل حال فقد كوّنت انكلترا الحلف الثاني المضاد لفرنسا ، والذي ضم ــ في سنة ١٧٩٨ م ــ كلاً من روسيا والنمسا وتركيا والبرتغال ونابولي . وكان هدف هذا الحلف فرض معاهدة صلح على فرنسا . وكان نابليون يومها في مصر . فلما عاد إلى فرنسا ، وجد أن الأوضاع متردية فيها ، فقام بانقلاب ضد حكومة المديرين ، وبذلك انتهت مرحلة حروب الثورة لتبدأ مرحلة الحروب النابوليونية .

١١ ــ من حرب القرم إلى الحرب العالمية الأولى (١٨٥٤ ــ ١٩١٤)

انتهت الحروب النابوليونية ، وتنفس الأوروبيون الصعداء ، لقد ظنوا أن مهندسي السياسة في فيينا سيضعون حجر الأساس لبناء عالم سلمي ، ينعم فيه الناس بالأمن والاستقرار . غير أن عوامل الحرب بقيت ثابتة ، فالثورة الصناعية أدت إلى تعاظم المنافسة بين الدول الصناعية . ولقد قدمت هذه الثورة الصناعية لأجهزة الحرب ما تحتاجه من الوسائط ، بداية من المراكب البخارية المسلحة ، ومروراً بالبارودة ذات القدم ، ونهاية بالمدفع والصاروخ (الهاون) . ولقد مارست هذه المخترعات دورها في زيادة حدة المنافسة ، فإذا بفرنسا التي خرجت من الحروب النابوليونية وهي شبه مجردة من مستعمراتها فيما وراء البحار ، تنطلق إلى عالم الاستعمار ، مبتدئة بأقرب الأقطار إليها (الجزائر) ، ولتتابع بذلك توسيع (مجالها الحيوي) ، بعد أن تمت إزالة إحدى العقبات الأساسية التي كانت تعيق عملية الاستعمار ، والتي تمثلت بالقضاء على الأسطول العثماني في معركة (نافاران)

البحرية، حيث تعاونت أساطيل انكلترا وروسيا وفرنسا لتدمير الأسطول العثماني، الذي بقي مسيطراً على شرق المتوسط، برغم الكارثة التي نزلت به في معركة (ليبانت) البحرية. وكان هذا الأسطول يهدد مشاريع التوسع باعتباره وسيلة الاتصال الأساسية بين الدول الإسلامية في المشرق والدول العربية ـ الإسلامية في المغرب العربي الإسلامي (ما بين ليبيا والمغرب الأقصى). ثم جاءت بقية الدول الأوروبية، فشقت طريقها على ذرب المنافسة للحصول على المجال الحيوية. ولم تجد انكلترا مانعاً من إعطاء الأوروبيين بعض المكاسب مادام ذلك لا يتهدد مصالحها الأساسية، ولا يلحق الضرر بمستعمراتها الرئيسة في آسيا وإفريقية. فكانت (الحروب الاستعمارية) هي السمة الأولى التي ميزت طابع القرن الفاصل ما بين الحروب النابوليونية والحرب العالمية الأولى؛ والتي لم تكن بدورها إلا تطويراً لتجارب الحروب التي سبقتها، وإلا محصلة لها، إذ كانت عوامل هذه الحرب هي ذات العوامل التي فجرت جميع حروب القرن.

كانت روسيا قد انتقلت إلى مصاف الدول الأوروبية العظمى، ولم تكن بحاجة للبحث عن المجال الحيوي، فقد كان لديها فيما حولها مجموعات من الدول الصغرى التي يمكن إتباعها بالإمبراطورية الروسية، ولو توقفت مطامع روسيا على المسرح الأوروبي بعد أن حصلت على ما تريده. وكانت الدولة العثمانية هي الدولة القوية الواقعة على حدودها الجنوبية. فكان توسعها في شرق الأورال مرتبطاً بما تنتزعه من الدولة العثمانية من أقاليم. فخاضت ضدها حروباً مستمرة، كانت الحرب فيها سجالاً، ولقد حاولت روسيا إقناع أوروبا باقتسام تركة (الرجل المريض ـ بحسب تعبير إمبراطور أو قيصر روسيا نيقولا الأول) غير أن الدول الأوروبية لم توافق على المشاريع الروسية الطموح، والتي كانت تهدد مصالح انكلترا خاصة، وبقية الدول الأوروبية. ولكن ذلك لم يمنع روسيا من متابعة نهجها بصبر وثبات، فرفعت راية (حماية الأرثوذكسية) وشنت تحت رايتها حروباً مستمرة، استطاعت في نهايتها منح المجر وبلاد الصرب استقلالها سنة ١٨٢٩ م. ثم عملت روسيا على تفجير الحرب في اليونان ودعمتها، ولم يكن باستطاعة الدول الأوروبية الغربية الوقوف مكتوفة اليدين، فإذا ما كانت قد اشتركت مع روسيا لإغراق الأسطول العثماني في نافاران، فإنها لن تسمح لروسيا بالاستيلاء على الدولة العثمانية التي كانت تحمي طريق الهند. ولم تكن فرنسا تفتقر للحجة المناسبة، ذلك أن احتلالها للجزائر سنة ١٨٣٠ م قد فتح أمامها أبواب العالم العربي ـ الإسلامي وأبواب إفريقية، وهي

لا تريد ظهور دولة قوية تتهدد مصالحها. وهي أيضاً تمتلك الحجة المناسبة، فإذا ما انتحلت روسيا حجة (حماية الأرثوذكسية) وتحرير (الأخوة السلاف) فإن لفرنسا أيضاً حق (حماية الكاثوليكية)، ودعم علاقاتها (بالمارونية). وهكذا التقت مصالح فرنسا وانكلترا وانضمت إليهما دولة البييمونت للوقوف في وجه المطامع الروسية. فكان الصدام في (حرب القرم) التي كانت بمثابة مجال لتجربة المخترعات الحديثة، والوسائط القتالية الجديدة.

كانت بروسيا خلال ذلك تتابع نهجها لزيادة قدرتها الذاتية، وبناء الدولة الجرمانية العظمى. وكان لا بد لها من متابعة الصراع مع النمسا من جهة، ومع فرنسا من جهة ثانية، وكانت بروسيا قد أفادت من الحروب النابوليونية، واستخلصت الدروس الهامة منها. فوضع لها مفكرها الكبير (كلاوزفيتز) الأسس النظرية لتطوير فكرها العسكري، فيما وضع لها (فون مولتكه) الأسس العملية لتطوير جيوشها وإدارة الحرب فيها، عن طريق تطوير عمل (هيئات الأركان). وبامتلاك بروسيا لأجهزة الحرب الحديثة، بات باستطاعتها مجابهة النمسا التي استنزفت قدرتها بالحروب المتتالية مع الأتراك العثمانيين، كما أن انصراف فرنسا لحرب الجزائر، أضعف من قوتها. هذا بالإضافة إلى أن التخمرات الثورية والانقلابات المتتالية بين الملكيين والجمهوريين مزقت الجبهة الداخلية الفرنسية. وبالرغم من الجهود التي بذلها إمبراطور فرنسا الجديد (نابليون الثالث) لإعطاء فرنسا مظاهرة (العظمة)، من خلال حرب القرم، وحرب الجزائر، إلا أن انهيار الفضائل الحربية، وتدهور القيم الاجتماعية، أضعف من قدرة فرنسا برغم ما كانت تمتلكه من ظواهر القوة، وهذا ما أكدته نتائج حرب السبعين (١٨٧٠ م)، والتي انتصرت فيها بروسيا على فرنسا. ووقع نابليون أسيراً، وتوجه بسمارك رئيس الوزراء برفقة الإمبراطور غليوم إلى قاعة المرايا في فرساي ليعلن في عاصمة فرنسا قيام الدولة الجرمانية الموحدة. في حين عادت فرنسا للتمزق الذي عبر عن نفسه بظهور (كومونة باريس) التي لم تكن إلا الولادة المبكرة لتطبيق النظرية الاشتراكية في الحكم.

لقد اجتذبت هذه الحروب اهتمام شعوب العالم وحكامه، بسبب التصاقها بحياة معظم الشعوب، وبسبب ما أحاط بها من تناقضات مثيرة، وما رافقها من أحداث ضخمة، غير أن هناك حروباً أخرى وقعت على مسارح منفصلة أو قارات بعيدة، وكانت

هذه الحروب لا تقل أهمية عن سابقتها، نتيجة لما تميزت به من خصائص في مجال فن الحرب، ونتيجة لما حققته في مجال السياسة الاستراتيجية، مما انعكس بصورة حادة على أفق المستقبل. وهنا أيضاً كان للثورة الصناعية دورها الحاسم في مسيرة الحروب، إذ لم تكن الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) إلا ثمرة التناقض بين مجتمعين اقتصاديين مختلفين: مجتمع صناعي حديث (في الشمال)، ومجتمع زراعي إقطاعي (في الجنوب). وكان من المتوقع أن ينتصر المجتمع الصناعي على المجتمع الزراعي، وأن يفرض عليه قوانينه وشرائعه. ولكن النقطة المثيرة هنا هي ما حدث من تشابه في أسلوب إدارة الحرب بين قادة الشمال، وقادة الحروب الاستعمارية، فقد عمل أكبر قائدين من قادة الشمال (غرانت و شيرمان) على القيام بمسيرات شاقة ومناورات معقدة، مع استخدام أساليب وصلت في وحشيتها وقسوتها إلى ما وصلته الحروب الاستعمارية على أرض القارتين الإفريقية والآسيوية. وفي أقصى الشرق، انفجرت الحرب (الروسية ــ اليابانية ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ م) فكانت استطالة طبيعية لحروب المنافسة، فقد وصلت روسيا في زحفها البطيء حتى الشرق الأقصى، وأخذت في منازعة اليابان على امتلاك كوريا. وأخذت في مد خط حديد سيبيريا لوصل الشرق بالغرب، الأمر الذي سيساعد روسيا على دعم قواتها في منشوريا، فأخذت اليابان في استباق الزمن، وهاجمت القوات الروسية ــ البحرية ــ في خليج (بورث آرثر). وتطورت هذه الحرب في غير صالح روسيا القيصرية التي كانت تعاني من الانهيار على جبهتها الداخلية، ومن الضعف في تنظيم قواتها المسلحة، وتسليحها. وخرجت اليابان من هذه الحرب وهي أقوى دولة آسيوية. مما أفسح لها المجال للاضطلاع بدورها الكبير على المستوى العالمي.

هكذا كانت الحروب الاستعمارية، وحروب المنافسة من أبرز الصراعات التي هيمنت على العالم ما بين نهاية الحروب النابوليونية، والحرب العالمية الأولى (الحرب العظمى). ولقد تمايزت الحروب الاستعمارية وتباينت تبعاً لاختلاف الأقاليم والطبيعة الديموغرافية ــ السكانية ــ وطبيعة الدولة القائمة بالغزو الاستعماري، وذلك على الرغم من وحدة هدف الدول الاستعمارية جميعها. فالهدف الأساسي هو نهب البلاد التي يتم استعمارها واستخدامها أسواقاً لتصريف منتجاتها، مع تحقيق أهداف تابعة لتغطية سؤات الاستعمار وأهدافه الحقيقية، مثل (رسالة الرجل الأبيض ــ الأوروبي ــ في نقل

الحضارة الحديثة إلى الشعوب الهمجية المتوحشة، حتى لو لم تكن هذه الشعوب همجية ولا متوحشة). ومثل تطوير البلدان المتخلفة بإدخال الخدمات الصحية، وشق الطرقات، وتنظيم الإدارة العامة على نهج الدولة القائمة بتنفيذ الاستعمار. بالإضافة إلى متابعة الحرب الصليبية بإطلاق حرية البعثات التبشيرية ودعمها ومساعدتها. ولقد تميزت المدرستان الاستعماريتان (الفرنسية والايطالية) بوحشيتهما المطلقة في التعامل مع الشعوب التي تقومان بغزوها. وتمثل التجربة الجزائرية والتجربة الليبية النموذج الكامل لنهجهما الاستعماري. فقد عملت فرنسا على إنزال فيلق الغزو في الجزائر، ثم أخذت في توسيع دوائر استعمارها، منطلقة من قاعدة مأمونة ومستقرة، لإخضاع المناطق الثائرة والمضطربة. وقد وصف قادة غزو الجزائر نهجهم بما يلي: «لم يكن للحرب في إفريقية ــ الجزائر ــ مظهر التمثيلية الأبوية... كان الجنود يشتبكون مع خصم لا يتمركز في أي مكان، وكان يسيطر عليهم التفكير بأن لا يتراجعوا، وأن يستخدموا كل الوسائل ليثبتوا للعرب المسلمين قوة الفاتحين، ويضطروهم إلى طلب الأمان بسرعة. كان الجنود يطلقون قليلاً من العيارات النارية، ثم يحرقون جميع القرى والأكواخ الصغيرة. وفي عام ١٨٤٣، خنقت القوات الفرنسية بالدخان جميع الجزائريين الذين لجؤوا إلى مغائر الظهرة، مرتين، ولقد أثيرت هذه المشكلة في المجلس الأعلى الفرنسي، ووصفت بأنها جريمة قتل كاملة مع سبق الإصرار والتصميم ضد عدو مجرد من أي دفاع. وقد دافع قائد الغزو عن جرائمه بقوله: لقد دمرنا كثيراً، وربما أتهم بأنني بربري متوحش، ولكني أقف فوق ملامات الحرب عندما أملك القناعة الكاملة بأني أتممت مهمة جليلة لبلادي؟..». وبذلك، وبهذه الأساليب غير الحضارية كانت قوات الغزو تنطلق من المناطق المهدأة إلى المناطق المتمردة أو الثائرة، وتتوسع كما هي بقعة الزيت، مستعينة بمن يتعاون معها، أو ممن يتم تطويعهم في وحدات خفيفة مساعدة من أبناء البلاد (القوم، أو الزواف الخ..)، على أن تبقى قيادة هذه القوات في قبضة الضباط الأجانب ــ ضباط الدولة التي تمارس الاستعمار ــ. وكان للانكليز أسلوبهم المميز، إذ كانوا يعملون على تهدئة مناطق واسعة مثل الهند وإفريقية، مستعينين بسلطات مختارة من السكان المحليين. ويكون الحليف المحلي مراقباً بصورة دائمة، ومدعماً بقوات بريطانية لا تمارس عادة الحرب ضد الثوار، وإنما تمارس هيبتها من خلال انضباطها الصارم وتصرفها المدهش وهالة تفوق الرجل الأبيض. وتعتمد الحرب الاستعمارية في هذه المدرسة على المراهنة على زعيم، أو مجموعة زعماء، ممن

يضطلعون بأنفسهم بمهمة إخضاع البلاد ، وفقاً لطرق البلاد وعاداتها وأساليبها . وهذه في جوهرها هي استراتيجية العمل غير المباشر عن طريق رجل ثالث ـــ أو ما بات معروفاً باسم الحرب بالوكالة ـــ والتي يقوم بها طرف من الأطراف بالحرب نيابة عن الدولة الكبرى ، وتنفيذاً لمصالحها . وعندما تتم تهدئة البلاد يصبح هذا الحليف هو الحاكم . ويكون ذلك تطبيقاً كاملاً للوصاية .

الفصـــل التاســـع

تطور الاستراتيجية
خلال الحرب العالمية الأولى



أولاً ـــ الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الأولى

١ ـــ الخطط الاستراتيجية في مسرح العمليات الغربي في أوروبا عام ١٩١٤ ونتائجها

إن الخطط الاستراتيجية ، التي وضعت قبل بداية الحرب العالمية الأولى ، يمكن أن تكون نقطة انطلاق لدراسة العمليات الحربية التي دارت في الجبهة الغربية .

فقد بلغ طول الجبهة الفرنسية الألمانية ٢٥٤ كم . وطول هذه الجبهة يعتبر صغيراً جداً كي يسمح لجيوش ضخمة أن تنفذ احتمالات كثيرة ، أو مناورات هامة . وإن نصف هذه الجبهة يساير ، لمسافة ١٢٠ كيلو متراً ، جبال الفوج ، حتى تصل الجبهة إلى حدود لوكسمبورغ وبلجيكا .

كانت الخطة الفرنسية ، التي وضعت بعد كارثة عام ١٨٧٠ ، مبنية على دفاع رئيسي ، يعتمد على سلسلة من حصون الحدود ، وعلى ضربة معاكسة حاسمة ضد العدو الذي يخترق خط الدفاع الرئيسي . وقد أنشأ الفرنسيون ، استناداً لهذه الفكرة الاستراتيجية جهاز تحصينات كبير ، يمتد على طول الألزاس واللورين ، وتركوا فيه ثغرات كثغرة شارم ، بين تول وايبينال ، بقصد جذب الهجوم الألماني في اتجاه معين يؤدي إلى تحطيمه بضربة مضادة قوية وفعالة .

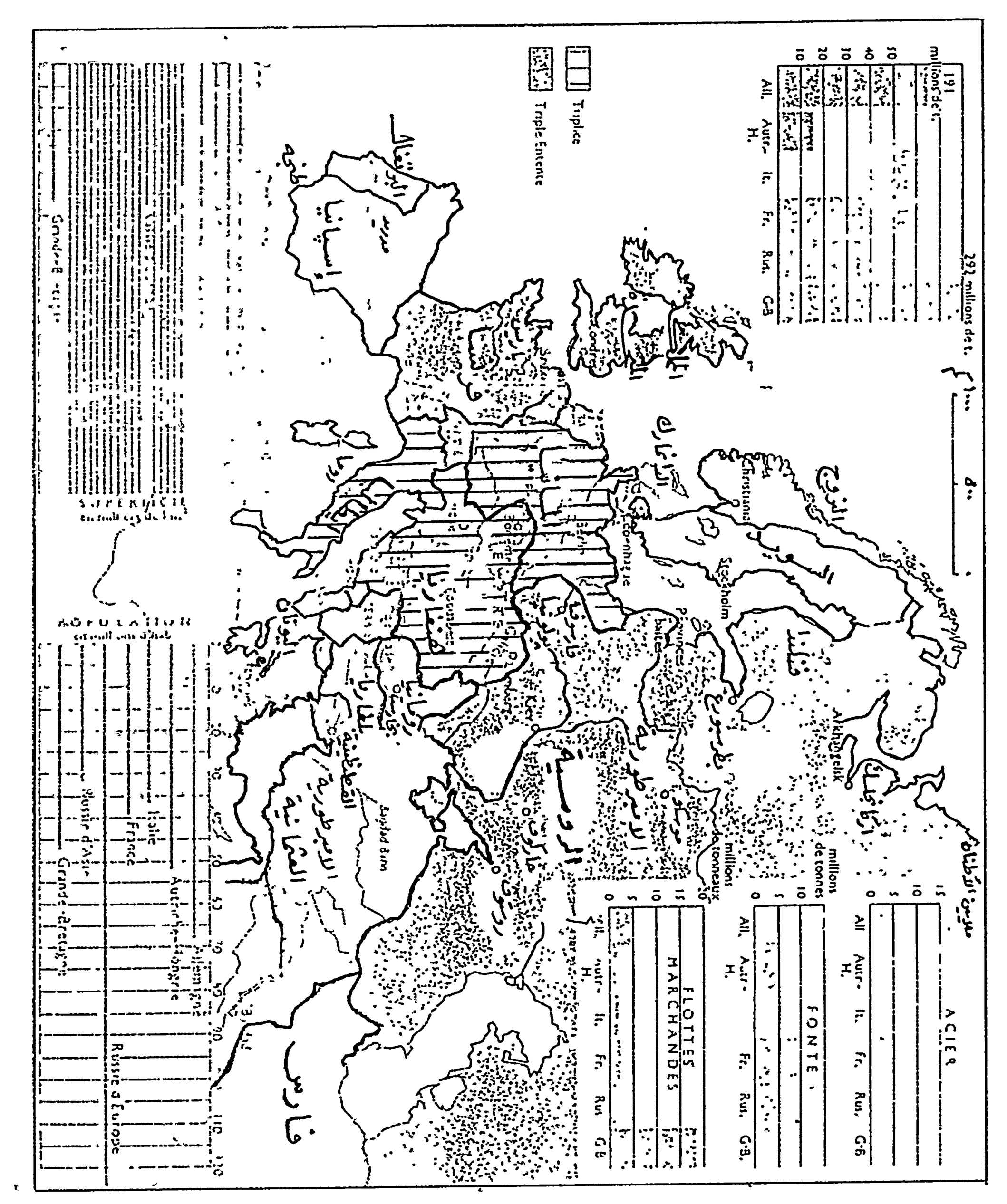
وكانت هذه الخطة تنطوي على نوع من (الاستراتيجية غير المباشرة) في نطاق

مسارح العمليات، التي توفرها جبهة ضيقة، كما كانت في الوقت نفسه تحترم بشدة حياد الدول المجاورة.

إلا أنه ظهرت في السنوات العشر التي سبقت بداية الحرب (١٩١٤ ــ ١٩١٨)، مدرسة جديدة يرأسها العقيد الفرنسي **دوغران ميزون قامت** بدراسة هذه الخطة الدفاعية ومناقشتها، ونقدتها وهاجمتها، لأن هذه الخطة لا تتلاءم مع العقلية الفرنسية الحديثة، وتتضمن تجاهلاً تاماً للفكرة الهجومية. ووجد أنصار هذه المدرسة المتحمسون ضالتهم في جوفر **Joffre**، الذي عين رئيساً للأركان العامة الفرنسية عام ١٩١٢. فما إن وصلوا إلى مراكز القيادة في الجيش الفرنسي حتى أهملوا (**الخطة القديمة**) ووضعوا عوضاً عنها **خطتهم المشهورة رقم ١٧**، التي لم تكن سوى استراتيجية مباشرة عادية، تتضمن هجوماً عميقاً تقوم به كل القوى مجتمعة ضد مراكز القوات الألمانية. ولتنفيذ هذا الهجوم الجبهي على طول الجبهة افترض الفرنسيون وجود تعادل في القوى، مع عدو يعتمد في دفاعه على منطقة حدودية محصنة، بينما يترك الفرنسيون خصونهم الحدودية ويحرمون أنفسهم من قيمتها الدفاعية، ويتوغلون في أعماق الدفاع الألماني.

ويقول (ليدل هارت): «إن الناحية الذكية الوحيدة، في هذه الخطة، والتي تتلاءم مع دروس التاريخ والعقل، هي عدم مهاجمة حصن متين والاكتفاء بتثبيته، على أن يتم الهجوم في اللورين من الشمال والجنوب». وكان على الجناح الأيسر للجيش الفرنسي المهاجم، أن يطور هجومه ضمن إقليم اللوكسمبورغ البلجيكي، إذا قام الألمان باختراق أرض محايدة. وهكذا فإن ليدل هارت يتابع تحليله قائلاً: «وهكذا فقد كانت الخطة الفرنسية مستمدة من نظريات المفكر العسكري الألماني كلاوزفيتز، في حين كانت الخطة الألمانية تتشابه مع آراء نابليون الفرنسي وأفكار هانيبال».

أما اشتراك الوحدات البريطانية في الخطة الفرنسية فلم يكن وليد دراسة سابقة، وإنما جاء نتيجة (للفكرة الأوروبية)، التي نشأت عند الانكليز، خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب. وهكذا قبلوا القيام بدور (حلقة إضافية) لجناح الفرنسيين، الأمر الذي أبعدهم عن انتهاج الطريقة، التي مارستها بريطانيا خلال تاريخها كله، وهي الطريقة التي تعتمد على (سرعة الحركة) التي توفرها لها السيطرة البحرية.



L'Europe en 1911.

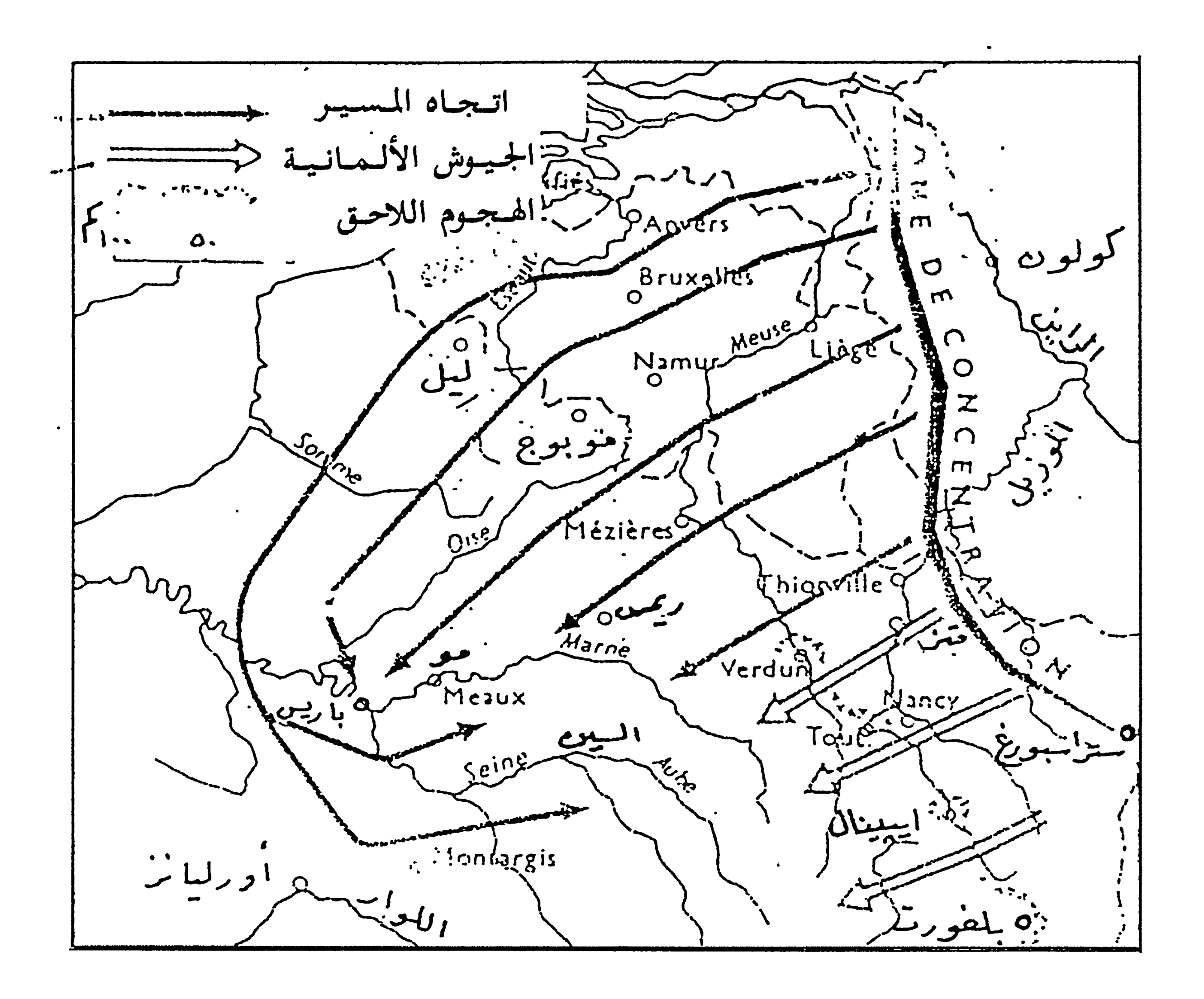
وفي الاجتماع الحربي، الذي عقد يوم إعلان الحرب، أظهر جون فرينش J. French قائد الحملة البريطانية شكه في الخطة الفرنسية، وطالب بالتوجه إلى أنفرس، لدعم مقاومة البلجيكيين، وتهديد مؤخرة الجناح الأيمن للجيوش الألمانية، إذا هاجمت فرنسا عبر بلجيكا. ولكن الجنرال هنري ويلسون H. Wilson رئيس العمليات الحربية، تعهد بأن تعمل القيادة البريطانية دائماً بالتعاون المباشر مع الفرنسيين. وهكذا أدت الاتفاقيات العسكرية، التي استمرت من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٤، إلى فتح الطريق أمام سياسة حربية تختلف تماماً عن السياسة البريطانية التقليدية المطبقة خلال عدة قرون.

وقد ساعدت (الخطة الفرنسية الجديدة) على حسن تنفيذ الخطة الألمانية الأساسية، التي وضعها (شليفن Schliffen) عام ١٩٠٥، بأسلوب الهجوم غير المباشر. ولم يجد الألمان، أمام السد الفرنسي المنيع، المقام على طول الجبهة المحصنة سوى حل منطقي وحيد، وهو الاستدارة حول هذا الحاجز باجتياح بلجيكا. واختار شليفن هذا السبيل، وقرر القيام بحركة التفاف واسعة ما أمكن. ولكن القيادة الفرنسية لم تدرك ذلك، وبقيت تفترض، حتى عندما اجتاح الألمان بلجيكا في شهر آب عام ١٩١٤، أن الجيوش الألمانية سوف تسلك السبيل الأقصر شرقي نهر الموز Meuse وتزحف في جبهة أضيق.

كانت (خطة شليفن) تقضي بتركيز الجزء الأكبر من القوات الألمانية على جناحها الأيمن، الذي كان عليه أن يجتاز بلجيكا وشمالي فرنسا بسرعة، ثم يبدل اتجاهه، وينحرف نحو الجنوب قليلاً. على أن يقوم الطرف الأيمن لهذا الجناح باجتياز نهر السين، قرب روان Rouen، ويتجه نحو الجنوب باتجاه باريس، ويدفع الفرنسيين أمامه في اتجاه نهر الموزل Moselle، ويحصرهم ويوجه إليهم الضربات المتلاحقة، وهم محصورون بين الحدود السويسرية وحدود اللورين.

ويقول ليدل هارت، تعقيباً على هذه الخطة «إن قيمة هذه الخطة الحقيقية مبنية على القيام بهجوم غير مباشر، لا يعتمد على الحركة الجغرافية مثل اعتماده على فكرة توزيع القوى».

وقد استطاع الألمان تأمين المفاجأة الأساسية بإضافة وحدات احتياطية



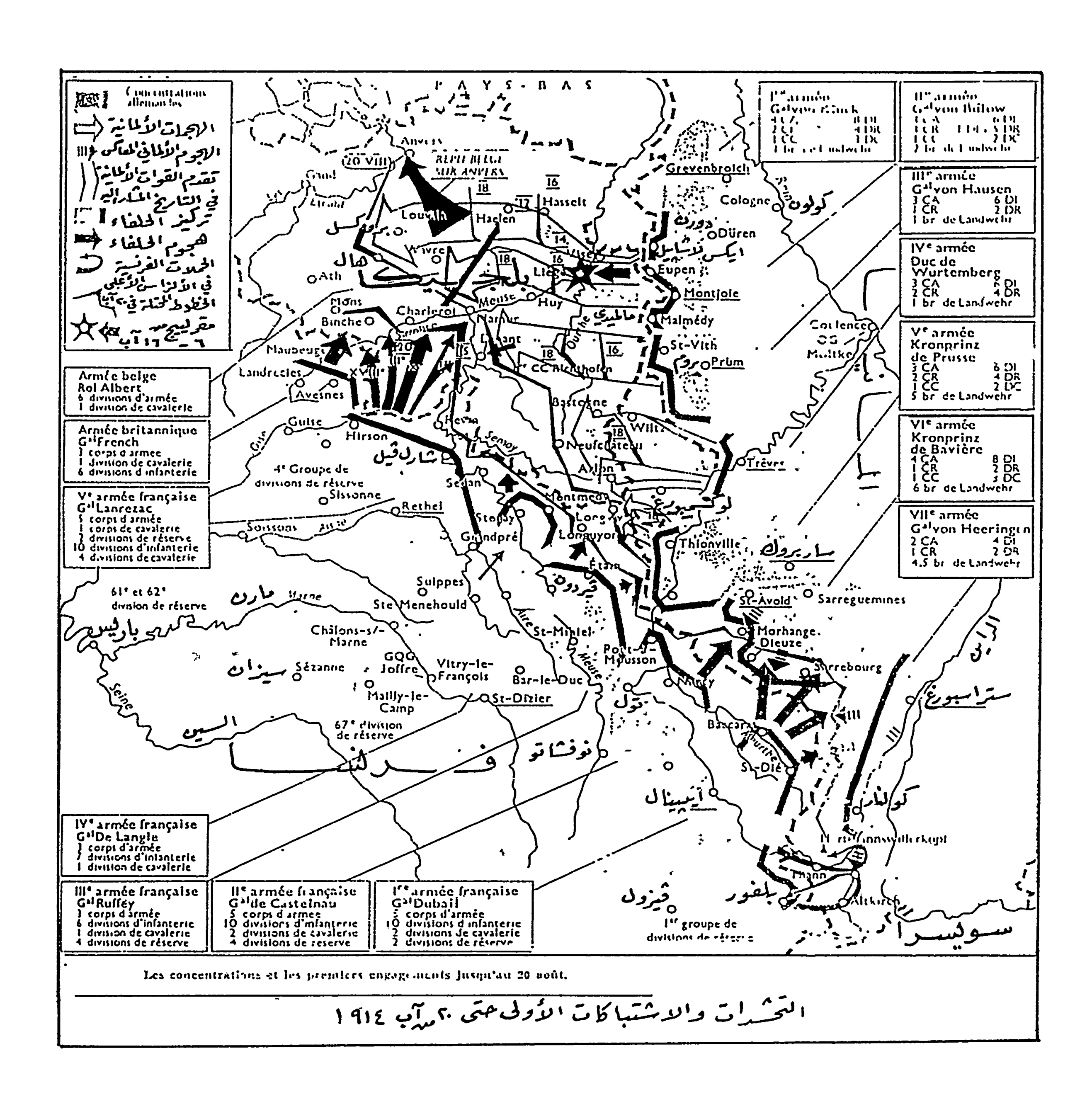
اتجاه المسير
الجيوش الألمانية
الهجوم اللاحق
٥٠
١٠٠ كم
Anvers
Bruxelles
Namur
Meuse
Liège
ليل
موبوج
Somme
Oise
Mézières
Thionville
ريمس
Marne
Verdun
متز
Nancy
Toul
معو
Meaux
باريس
السين
Seine
Aube
ابينال
Montargis
أورليانز
اللوار
بلفورت
ستراسبورغ
كولون
الراين
الموزل

خطة شليفن

للتشكيلات الفعلية لإعداد القوى الرئيسية للهجوم. وكان يوجد لدى الألمان آنذاك ٧٢ فرقة، وضع منها على اتجاه الضربة الرئيسية ٥٣ فرقة، بينما وضع ١٠ فرق منها على مركز الجبهة، أمام فيردان Verdun، و٩ فرق فقط على الجناح الأيسر مقابل الجبهة الفرنسية. وقد استطاع الألمان إضعاف الجناح الأيمن للقوات الفرنسية عن طريق دفع الجناح الأيسر للقوات الألمانية بعنف في اللورين في اتجاه نهر الرين. بحيث يتعذر عليهم التدخل لمنع تقدم الهجوم الألماني الأساسي في بلجيكا عند وقوعه، وتزداد صعوبة التدخل باتجاه الضربة الرئيسية المتقدمة. وقد أدت ضخامة تعداد القوات المشتركة في القتال، وصغر الميدان المستخدم، إلى جعل مناورة شليفن عبر بلجيكا، هجوماً غير مباشر نسبياً من الناحية الجغرافية. أما من الناحية النفسية فإن تجميع قواته ضد جناح العدو الأيسر قلب هذا التقرب إلى هجوم غير مباشر تماماً. وجاءت الخطة الفرنسية لتساعد الخطة الألمانية على الوصول إلى ذروة مثالية، لأنهم لم ينتظروا أحداً ليجذبهم إلى الفخ، بل اندفعوا إليه بمحض إرادتهم. ولكن خطة شليفن لم تطبق بحذافيرها، لأن القائد مولتكه Moltke الشاب عدلها وأفقدها قوتها في أثناء التحضيرات التي سبقت الحرب، ثم أهملها بالتدريج خلال التنفيذ.

فقد قام مولتكه، في الفترة الواقعة بين ١٩٠٥ ــ ١٩١٤، بدعم الجناح الأيسر باستمرار بقوات جديدة. فأفقد التوزيع، المقرر سابقاً، كل معناه، وجعل خطة (الخطة الألمانية) ضعيفة النجاح، ثم واصل بعد ذلك تهديم قواعد الخطة حتى سبب انهيارها.

فعندما انطلق الهجوم الفرنسي في آب ١٩١٤، فكر مولتكه في الرد على التحدي بشكل مباشر، والبحث عن النصر عن طريق اللورين، مؤخِّراً بذلك حركة جناحه الأيمن الالتفافية. ولم تعطِ هذه المحاولة أية نتيجة برغم زج ست فرق مشكلة حديثاً، ومعدة لتقوية الجناح الأيمن. وأدت هذه القوى الجديدة إلى دفع القادة الألمان في اللورين إلى الشعور بالغرور، وتجاهل مهمتهم الأساسية. وبدلاً من أن ينسحب الجناح الأيسر، ويجتذب معه الفرنسيين إلى العمق، فإنه توقف بقوة، واستعد للقتال الضاري ضدهم. وهكذا استطاع الألمان على هذه الجبهة رد الفرنسيين إلى مواقعهم الحصينة، الأمر الذي زاد في مقاومتهم، وجعلهم قادرين على توجيه وحدات إلى الغرب للاشتراك في قتال المارن.



التحشدات والاشتباكات الأولى حتى ٢٠ آب ١٩١٤

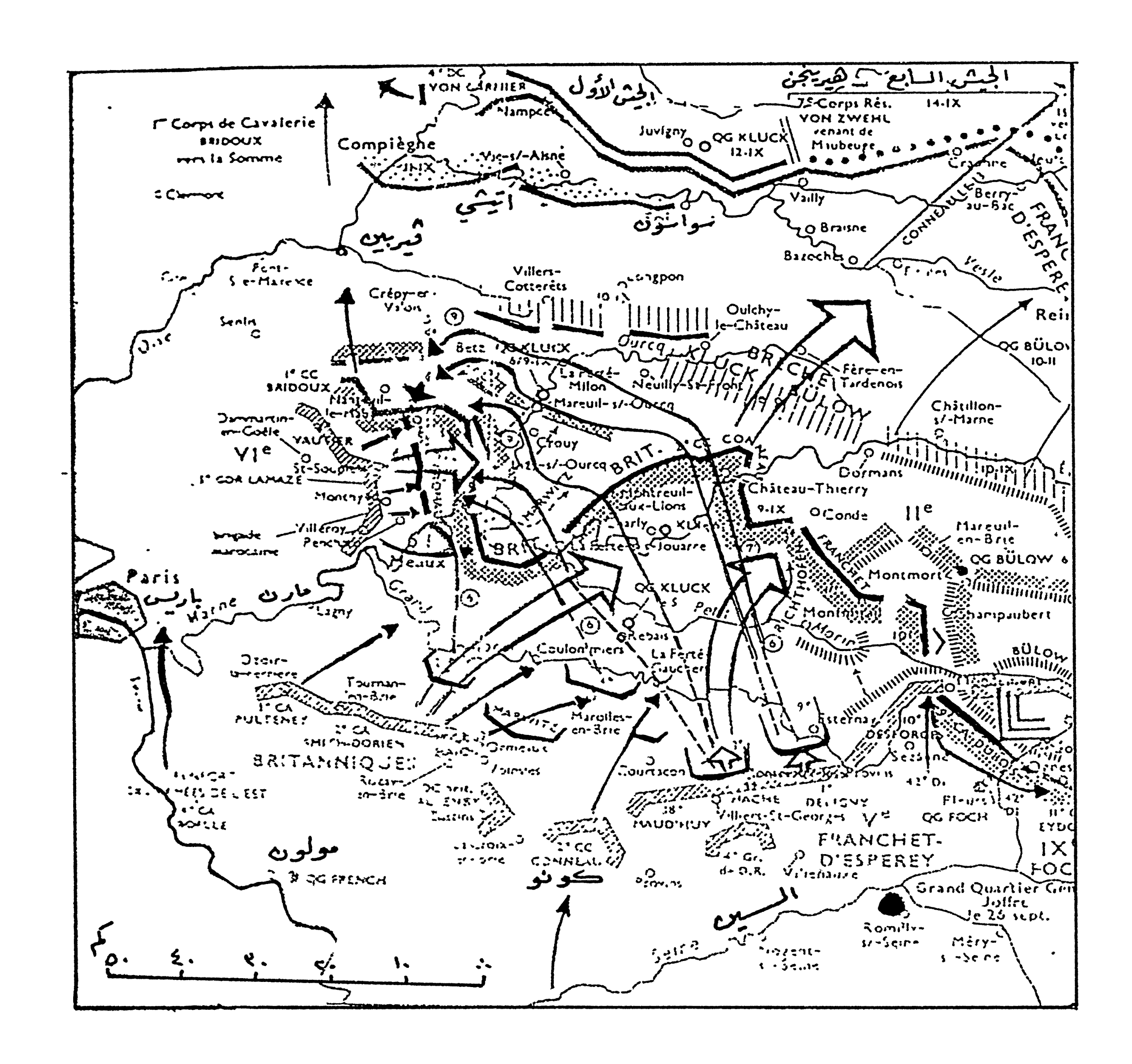
وهكذا أفسد الألمان بأيديهم خطة شليفن. وعندما تقدم جيش كلوك Kluck في أقصى اليمين، قبل الوقت المحدد بناء على طلب جاره وموافقة مولتكه، وجدت حامية باريس في هذه الحركة الفرصة السانحة لضربه من مجنبته. وهكذا زال التفوق الألماني بعد خفض أعداد القوات على الجناح الأيمن، وازداد التفوق الفرنسي المقابل بسبب سوء تصرف القيادة الألمانية.

ولو أن الجناح الألماني الأيمن استطاع التوغل بعمق في اللورين، لتعذر نقل الفرق الفرنسية من اليمين إلى اليسار. ولكن هل كان الجناح الألماني الأيمن قادراً على المحافظة على اندفاعه، لو لم تسحب منه كل هذه الفرق؟ والجواب مشكوك فيه لأن تدمير البلجيكيين جسور نهر الموز Meuse عرقل مواصلات الألمان، ولم تستطع قطاراتهم العبور إلى ما وراء لييج إلّا بعد ٢٤ آب.

وعندما وصل الألمان إلى المارن كان وضعهم مشابهاً لشكل وحدات منهزمة نظراً لقيامهم بزحف صعب وبطونهم خاوية، ولو لم يقم مولتكه بعملية سحب بعض القوات من جناحه الأيمن ليضمها لهذا الجناح، لأصبحت حالة القوات في المارن أكثر سوءاً.

وتقودنا معركة المارن، التي غيرت مجرى الحرب، إلى خط تحديد غير واضح بين الاستراتيجية والتكتيك، ولكنها تلقي ضوءاً على مشكلة (الهجوم)، وهي مشكلة هامة. ذلك أن نتيجة معركة المارن جاءت بعد حدوث ضربة وفتح ثغرة. أما (الضربة) فكانت نتيجة هجوم جيش مونوري Maunoury على مجنبة الجبهة الألمانية اليمنى، هذا الهجوم الذي أدى إلى إحداث ثغرة في نقطة اتصال ضعيفة للألمان. وقد نجم عن هذه الثغرة المادية ثغرة معنوية في القيادة الألمانية. فقد تم في ١١ أيلول سحب جميع الجيوش الألمانية، وفشلت محاولة تطويق فيردان، كما تحطمت كماشة الجيش الألماني السادس والسابع على دفاع الجبهة الفرنسية الصلب.

ومن الصعوبة بمكان تصور الشكل الذي كانت عليه القيادة الألمانية، وقادرة به على انتزاع النصر بهجوم جبهي غير محضر، علماً بأن فرصة نجاحها، في حالة تطبيق خطة العمليات الرئيسية المحضرة كانت قليلة أصلاً. لقد كان أمام الألمان حل واحد، قبل الحرب، للحصول على نتائج أفضل، وهو اجتياح بلجيكا.



معركة المارن ٦ ـــ ٤ أيلول ١٩١٤

ولنذكر مرة ثانية بأن هجوم مولتكه الاستراتيجي غدا مباشراً، بشكل متزايد، كما أن هجوم الجناح الألماني الأيسر الجبهي كان فشلاً غالي الثمن دون أي كسب استراتيجي.

ويجب علينا، عند تحليل أسباب الانسحاب الألماني، الانتباه إلى عامل أهمله الكثيرون، وهو تأثر القيادة الألمانية باستمرار من التقارير المؤكدة لاحتمال القيام بعمليات إنزال بريطانية على الشاطىء البلجيكي، تشكل خطراً على مؤخرات الجيوش الألمانية ومواصلاتها، لدرجة أن القيادة الألمانية أعدت عملية تراجعية قبل بدء معركة المارن.

ولقد تأثرت القيادة الألمانية بفكرة الإنزال البريطاني لدرجة تصورت معها نزول ٤٠ ألف رجل، في حين كانت القوات الحقيقية القادمة في حدود ثلاث كتائب بحرية نزلت في اوستاند وبقيت فيها ٤٨ ساعة فقط. ويقول ليدل هارت، إنه أشيعت فكرة عن قدوم الروس، وأن هذه الفكرة كانت وليدة تخيلات مهووس انكليزي يعمل في السكك الحديدية، ويستحق أن ينصب له نصب تذكاري. فلقد أكد المؤرخون فيما بعد، أن زيارة الكتائب الثلاث لاوستاند، وشائعة الغزو الروسي، كانت من الأسباب الأساسية للنصر في المارن.

وعندما نقارن التأثير المعنوي الذي خلفته هذه القوات الوهمية، مع بقاء الوحدات الألمانية في بلجيكا خوفاً من انطلاق البلجيكيين من حصن أنفرس، ذلك الأمر الذي حدث في ٩ أيلول، نجد أنفسنا مرغمين على تأييد الاستراتيجية، التي طالب بتطبيقها جون فرينش **J. French** دون جدوى. ولو طبقت هذه الاستراتيجية لكان للحملة البريطانية تأثير إيجابي حاسم على الصراع، بدل اقتصارها على التأثير السلبي.

ثم حل فالكنهاين **Falkenhayn**[1] محل مولتكه، وأحس بالتهديد الدائم الموجود على الشاطىء البلجيكي غلى مؤخرات الجيش الألماني فقام بمحاصرة أنفرس. ومن هنا ظهرت

---

(١) ايريش فون فالكنهاين، جنرال ألماني ولد في بورغ بيلشاو (١٨٦١ ــ ١٩٢٢) رئيس الإدارة العليا للجيوش (١٩١٤ ــ ١٩١٦)، ثم قاد رومانيا بعد ذلك (١٩١٦)، ثم عمل في فلسطين (١٩١٧ ــ ١٩١٨).

أول عملية فيها بعض الهجوم غير المباشر . ولكن التنفيذ لم يتلاءم مع الفكرة ، وانقلب إلى هجوم مباشر بحت ، إلا أنه كان كافياً لدفع الحلفاء إلى حافة الهزيمة .

وتوقفت ملاحقة الحلفاء الجبهية نهائياً عند نهر آين Aisne . وفي ١٧ أيلول لاحظ جوفر ، القائد الفرنسي العام ، فشل محاولة مونوري في الالتفاف حول المجنبة الألمانية . فقرر تشكيل جيش جديد أسند قيادته إلى كاستيلنو Càstelnau ، بغية محاولة القيام بالتفاف في الشرق . ولكن الجيوش الألمانية كانت قد تماسكت في ذلك الوقت ، ووجدت القيادة العليا نفسها قادرة على مجابهة مناورة صغيرة كهذه ، تتم ضمن خط الانتظار المتوقع .

وفي الشهر التالي قام كلا الطرفين بسلسلة من المحاولات المتوقعة للالتفاف حول جناح الخصم الغربي . وفشلت كل هذه المحاولات ، التي أطلق عليها (السباق نحو البحر) . وتعب فالكنهاين ، في هذه المرحلة ، قبل جوفر . وفي ١٤ تشرين الأول ، جهز فالكنهاين **فخاً استراتيجياً** ضد محاولات الحلفاء المتوقعة ، وأعطى الأوامر للمجنبة المشكلة مؤخراً بتجنب الصدام مع العدو ، على أن يقوم جيش مؤلف من الوحدات ، التي انتهت مهماتها بعد سقوط أنفرس ، مع ٤ فيالق حديثة التشكيل ، بالهجوم بسرعة على طول الشاطىء البلجيكي ، واختراق مجنبة قوات الحلفاء المهاجمة ، والالتفاف حولها ، وضربها من الخلف . كما أوقف ، مؤقتاً ، حركة القوات المكلفة بملاحقة الجيش البلجيكي المنسحب من أنفرس ، كيلا يعطي قيادة الحلفاء تحذيراً مسبقاً .

ولكن الملك ألبيرت الحذر رفض طلب فوش ، الذي كان يريد اشتراك البلجيكيين في حركة التفافية ، إذ لم يكن يود الابتعاد عن منطقة الشاطىء . لذا فإن الجيش البلجيكي كان جاهزاً لصد الهجوم الألماني القادم من الشمال ، أو تعطيله على الأقل بإغراق الأراضي الواطئة على الشاطىء . ووجد فالكنهاين نفسه مضطراً للقيام بهجوم مباشر على مجنبة الحلفاء . وتقدم قلب القوات البريطانية وجناحها الأيمن فوصلا قبل الأوان ، مما أدى إلى توقفهما . ولكن جون فرينش أعطى الأوامر لجناحه الأيسر بقيادة هيغ Haig ، للقيام بالالتفاف ، الذي فكر فيه جوفر . ولعب الحظ إلى جانب الحلفاء ، إذ اتفق هجومهم في الزمن مع هجوم ألماني انطلق قبل أوانه ، وفشل هجوم الحلفاء فانتقلوا إلى الدفاع . ولما فقد فالكنهاين كل أمل في طرد العدو من الشاطىء البلجيكي ، حاول انتزاع النصر بهجوم مباشر . وانتصر دفاع الحلفاء برغم ضعفه ، كما هي الحال في كل هجوم مباشر . وهكذا

امتد سد الخنادق من الحدود السويسرية حتى البحر في الشمال . وتوقفت بذلك مختلف العمليات والمناورات .

٢ ــ مسرح العمليات الغربي (١٩١٥ ــ ١٩١٧)

اقتضرت عمليات الحلفاء (الانكليز والفرنسيين) ، خلال سنوات الحرب التي تلت ذلك ، على محاولات متعددة للخروج من المأزق ، باختراق السد ، أو بالبحث عن مخرج يظهر صدفة للالتفاف حوله .

وأصبحت **الاستراتيجية** على الجبهة الغربية ، أمام هذه الخطوط المتوازية اللامتناهية من الخنادق مجرد تابع للتكتيك . ولم يكن التكتيك إلّا آلة بلا تفكير . وكانت استراتيجية الحلفاء في سنوات ١٩١٦ ــ ١٩١٧ عبارة عن إستراتيجية هجوم مباشر ولكنها عاجزة عن إخراجهم من المأزق ، ولا تستحق كبير دراسة أو تحليل . ومهما كان **لحرب الإنهاك** من قيمة ، ومهما قدم البعض من حجج وبراهين لإظهار هذه المرحلة كمعركة مستمرة ، فإن محاولة تتطلب بذل الجهود لمدة ٤ سنوات للوصول إلى النصر ، لا يمكن أخذها مثالاً يحتذى .

وفي مدينة نوشاتيل Neuchatel قامت محاولة الهجوم الأولى في العام ١٩١٥ . وكان الهجوم مباشراً ، ولكن المفاجأة التكتيكية كانت محققة . وكان الهجوم على شكل رمي تمهيدي طويل الأمد بالمدفعية ، يعقبه انقضاض المشاة جبهياً ، وصدورهم مكشوفة لرصاص العدو . وفي أيار ١٩١٥ قام الفرنسيون بهجوم مماثل في آراس ، وقام الانكليز والفرنسيون بهجمات مشابهة في أيلول ١٩١٥ في مقاطعة شامبانيا ، وفي شمالي آراس . ومن تموز وحتى تشرين الثاني ١٩١٦ في مقاطعة السوم ، وفي نيسان ١٩١٧ على نهر آين Aisne . واستمرت فترة نزع الجيش البريطاني داخل مستنقعات (باسشانداثيل) من تموز إلى تشرين الأول ١٩١٧ . وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧ ظهرت المفاجأة التكتيكية الجديدة باستخدام الدبابات ، التي دخلت المعركة فجأة ، وعلى شكل مجموعات لتحل محل القصف التمهيدي بالمدفعية بالأسلوب التقليدي . ولكن من المتعذر وضع هذا الهجوم الصغير المدى ، الناجح في بدايته والمتعثر في نهايته ضمن وسائل الهجوم غير المباشر الاستراتيجي .

أما استراتيجية الألمان فكانت دفاعية بحتة، باستثناء معركة فيردان عام ١٩١٧، والتي يمكن اعتبارها هجوماً مباشراً عادياً، إلا إذا أدخلنا في نطاق الهجوم غير المباشر فكرة (استنزاف العدو)، حتى يؤدي النزيف إلى موته، بفضل سلسلة كبيرة جداً من قرصات (دود العلق) المحلية، ولكننا نلاحظ هنا أن التبذير في استخدام الديدان أدى إلى إفلاس الدولة.

كان أقرب العمليات الألمانية الدفاعية للهجوم غير المباشر انسحاب لودندورف في ربيع ١٩١٧، الذي تم تخطيطه وتنفيذه بمهارة. وتم بفضله سحب قسم من الجيوش الألمانية إلى خط هندنبورغ. ولإيقاف أي هجوم انكلو ــ فرنسي على السوم، جهز خطاً جديداً من الخنادق المحصنة بشدة في مواضع دفاعية. وكان هذا الخط يستند إلى وتر القوس المشكل من مدن لانس و نوايون و رانس. ثم دمر المنطقة المحصورة بين القوس ووتره، وانسحب بصورة متقطعة، وعلى مراحل قتالية، حتى وصل إلى الخط الجديد الأقصر من الخط السابق. وتظهر هذه المناورة شجاعة لودندورف وثقته، اللتين دفعتاه إلى عدم التردد في ترك الأرض بهدف إحباط مخطط الحلفاء الهجومي المحضر للتنفيذ في الربيع. وكسب الألمان بذلك سنة من الراحة، بعيداً عن كل خطر، وفي مأمن من كل هجوم مشترك يقوم به الحلفاء.

وكان لهذه السنة تأثير سيء على روسيا القيصرية، التي انهارت وخرجت من الحرب. واستطاع لودندورف، بذلك، زج قوات أكبر في هجومه النهائي في الغرب عام ١٩١٨، وهو الهجوم الذي كان يهدف من ورائه إلى إحراز النصر.

٣ ــ مسرح العمليات الشمالي ــ الشرقي

كانت خطط العمليات على الجبهة الشرقية أقل دراسة ودقة وتحضيرا من خطط عمليات الجبهة الغربية. ولكنها مرت خلال التطبيق بأخطاء ومغامرات سيئة، ومشاكل متنوعة، كما حدث في الجبهة الغربية.

كانت بولونيا، التابعة لروسيا في ذلك الوقت، تشكل بروزاً كبيراً في غرب روسيا نفسها. وكانت محاطة من ثلاث جهات بمناطق ألمانية ونمساوية. فعلى مجنبتها الشمالية

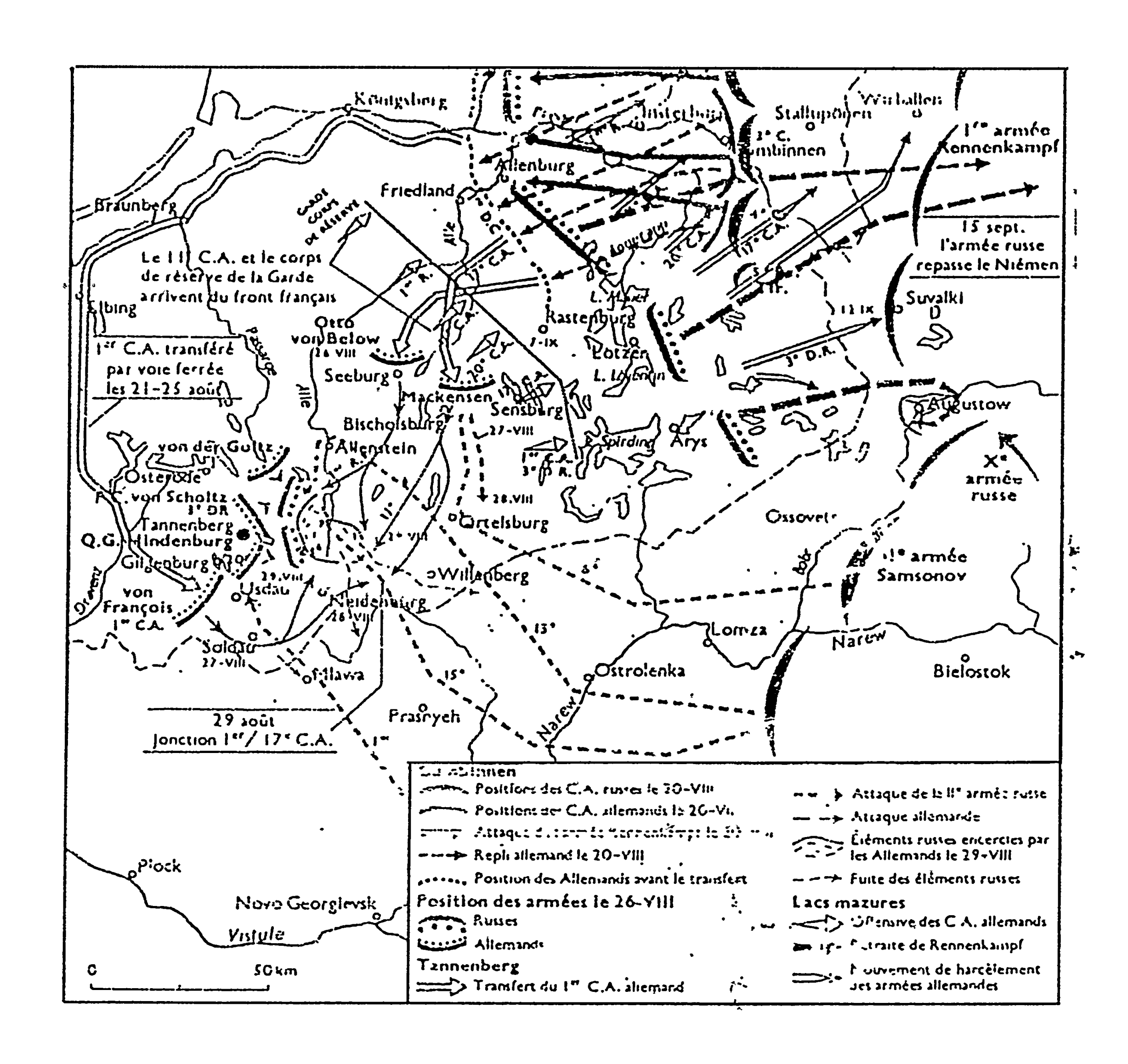
بروسيا الشرقية وبحر البلطيق ، وعلى التي تسيطر على مداخل السهول الهنغارية ، أما من الغرب فتوجد مقاطعة سيليزيا .

وكانت مقاطعات الحدود الألمانية تتضمن شبكة واسعة من السكك الحديدية الاستراتيجية ، التي لم تكن متوفرة في بولونيا أو روسيا . وكان الألمان وحلفاؤهم قادرين على التجمع ، وإيقاف كل تقدم روسي بدفاع ناجح ، ولكن قيامهم بالهجوم وتوغلهم في بولونيا وروسيا يعنيان فقدان كل هذه الميزات . وتدلنا دروس التاريخ المتعددة على أن أفضل استراتيجية يطبقها الألمان ، في هذه الحالة ، هي وضع طعم للروس ، يجذبهم إلى موضع يسمح بالقيام ضدهم بهجوم مضاد كبير ، وتدميرهم في العراء . وكان هذا أفضل من تحطيم رؤوس الألمان بهجوم ضد عدو في مواقع محصنة . إلا أن هذه الاستراتيجية تعطي الروس وقتاً كافياً لتحضير جهازهم الحربي الثقيل العتيق وتحريكه .

وقد ظهر خلاف في الرأي بين فيينا وبرلين . لقد اتفقت الحليفتان مبدئياً على ضرورة إيقاف الروس ، وإحباط محاولاتهم الهادفة لدعم حلفائهم الغربيين ، خلال ٦ أسابيع فقط ، تكون كافية بالنسبة للألمان كي يسحقوا الفرنسيين بسرعة ، ثم يجمعوا قواتهم على الجبهة الشرقية ويقوموا ، بالاشتراك مع النمساويين ، بضرب الروس ضربة حاسمة . وكان الخلاف ينحصر فقط في طريقة التنفيذ .

ومن أجل تحقيق النصر في فرنسا ، وفي الوقت نفسه حماية ظهرها من احتمالات مختلفة ، قامت القيادة الألمانية بوضع ستارة بسيطة من القوات في الشرق ، ولولا خوفها السياسي من أن تتعرض أراضي الوطن لخطر الغزو لما ترددت في الجلاء عن روسيا الشرقية ، والوقوف عند نهر فستولا Vistula . وقام رئيس الأركان النمساوي هوتزندورف Hötzendorf بإقناع النمساويين بفكرة تعطيل الجهاز الروسي بهجوم فوري قوي . ووجد مولتكه أن هذه الفكرة تسمح لمشاغلة الروس ، حتى تنتهي معركة فرنسا ، فوافق عليها . وكانت فكرة هوتزندورف تهدف إلى القيام بهجوم في بولونيا في الاتجاه الشمالي الشرقي ، ينفذه جيشان ، يغطي مجنبتهما جيشان آخران ، يعملان باتجاه الشرق .

وكانت الاستراتيجية العسكرية ترغب ، لأسباب عسكرية ، في تركيز جميع قواتها ضد النمساويين ، وتجاهل الألمان ، حتى يتم تجنيد كل القوى في روسيا . ولكن الفرنسيين



القتال على الجبهة الشمالية الشرقية ٢٠ ـــ ٢٩ آب ١٩١٤

أحسوا بضغط الألمان ، وأرادوا تخفيفهم عن جبهتهم ، فطلبوا من الروس الهجوم على الألمان والنمساويين معاً . وقام الروس بهجوم غير محضر من ناحية التنظيم والقوات . ووجهوا نحو جبهتهم الجنوبية الغربية مجموعتين من الجيوش ، تتألف كل واحدة منها من جيشين مهمتهما الالتقاء في غاليسيا ضد القوات النمساوية . كما وجهوا إلى الجبهة الشمالية الغربية جيشين ، للالتقاء في بروسيا الشرقية ضد القوات الألمانية .

وعندما اندلعت الحرب عجل القائد العام الروسي الغراندوق نيقولا باجتياح بروسيا الشرقية . وفي ١٧ آب عبر جيش ريننكامبف Rennenkampf الحدود ، ثم قابل في ١٩ ــــ ٢٠ آب الجيش الألماني الثامن بقيادة فون بريتفتس Pritwitz ، وصده في غومبينن Gumbinen . وفي ٢١ منه علم بريتفتس أن جيش سامسونوف Samsonov الروسي دخل من الجنوب في بروسيا الشرقية مهدداً مؤخراته التي لم تكن تحرسها إلا ثلاث فرق مقابل إحدى عشرة فرقة روسية . فأخذه الهلع وقرر الانسحاب إلى ما وراء نهر الفستولا . فعزله مولتكه وعين بدلاً عنه الجنرال المتقاعد هندنبورغ Hindenburg على أن يساعده رئيس أركانه لودندورف Ludendorff .

واستطاع لودندورف أن يعالج الموضوع بأن أخذ خطة العقيد هوفمان Hoffmann ، أحد ضباط أركان الجيش الثامن الألماني ، ووسع مداها وأبعادها ، وجمع حوالي ست فرق ضد جناح سامسونوف الأيسر . ولكن جيشه الضعيف عددياً كان غير قادر على تحقيق النصر الحاسم . ولما علم لودندورف بأن ريننكامبف لا يزال موجوداً قرب غومبينن ، خاطر وسحب بقية الوحدات الألمانية من هذه المنطقة ، تاركاً أمام العدو ستارة بسيطة من الخيالة ، ودفع هذه الوحدات ضد جناح سامسونوف الأيمن . وبالإضافة إلى التمكن من حل شيفرة الأوامر الروسية المنقولة باللاسلكي ، حطم هذان الهجومان المتلاقيان مجنبة سامسونوف ، ووقعت قواه الرئيسية في الحصار ، وأُفني جيشه تقريباً . ويقول ليدل هارت : «إنه يمكن اعتبار معركة تاننبرغ Tannenberg هذه مثالاً كاملاً لاستخدام (الخطوط الداخلية) في الهجوم غير المباشر» .

وما إن تلقت القيادة الألمانية فيلقين ، قادمين من الجبهة الفرنسية ، حتى استدارت نحو ريننكامبف ، المتقدم ببطء ناجم عن خسائره في غومبينن ، إضافة لنقص المعلومات

لديه، وطردته من بروسيا الشرقية. وترك الروس على أرض المعارك ٢٥٠ ألف رجل، كما خسروا خسارة لا تعوض، وهي عبارة عن كمية كبيرة من العتاد الحربي.

ولكن اجتياح بروسيا الشرقية خفف العبء عن الحلفاء في الغرب، لانه أرغم الألمان على سحب فيلقين من جبهتهم، الأمر الذي ساعد الفرنسيين على استعادة نشاطهم في المارن.

أما بالنسبة للقوات النمساوية العاملة في الشرق، فقد تقدم الجيشان النمساويان الأول والرابع في بولونيا في بادىء الأمر، ثم ضاعت فائدة هذا التقدم عندما قام الجيشان الروسيان الثامن والثالث بهجوم ضد الجيشين النمساويين الثاني والثالث، القائمين بحماية المجنبة اليمنى للجبهة النمساوية. وقد كان التفوق العددي لصالح الروس، فهزم الجيشان النمساويان هزيمة ساحقة في ٢٦ ــ ٣٠ آب، وتم دفعهما إلى ما وراء النبورغ Allenburg. وهدد تقدم الجناح الروسي الأيسر مؤخرات الجناح النمساوي الأيسر المنتصر. وحاول هوتزندورف الالتفاف حول الجناح الروسي بجزء من جناحه الأيسر، وصد الروس الضربة النمساوية، واندفع جناحهم الأيمن يتقدم من جديد، مما أجبر النمساويين على القيام بتراجع غير منتظم في ١١ أيلول. وارتدت الجبهة النمساوية حتى أصبحت في نهاية أيلول قرب كراكوف.

وأصبح موقف النمسا حرجاً، واضطر الألمان لنجدتهم، فشكلوا من معظم قواتهم الموجودة في بروسيا الشرقية جيشاً أسموه (الجيش التاسع)، ونقلوه بسرعة إلى القسم الجنوبي الغربي من بولونيا، ومنها اتجه نحو فارسوفيا، بالتعاون مع جيش نمساوي جديد. وهنا كان الروس قد جهزوا كل قواتهم وجمعوا معظم جيوشهم، وقاموا بهجوم مضاد كبير أوقف تقدم العدو، ثم اندفع محاولاً اجتياح سيليزيا.

وقد شكل الغراندوق نيقولا مجموعة كبيرة من القوات، مؤلفة من سبعة جيوش وزعت كما يلي: ٣ جيوش في النسق الأول، وجيشان يحميان كل مجنبة. وكان الجيش الروسي العاشر يجتاح بروسيا الشرقية، ويقاتل القوات الألمانية الضعيفة هناك. وهنا اجتمع هندنبورغ ولودندورف وهوفمان لإيجاد حل يوقف الخطر الروسي. وتوصل هؤلاء الثلاثة إلى فكرة بارعة تعتمد على سهولة الانتقال الناجمة عن توفر السكك الحديدية في بلادهم

بشكل مواز للجبهة. وكان الجيش التاسع الألماني ينسحب أمام تقدم الروس مخرباً سبل المواصلات القليلة في بولونيا تخريباً كاملاً، لعرقلة حركة العدو. ولما وصل إلى حدود سيليزيا، دون أن يشتبك جدياً مع العدو، توجه أولاً نحو الشمال في منطقة ثورن ــ بوزن Thorn - Posen. وفي ١١ تشرين الثاني اندفع نحو الجنوب الشرقي في اتجاه منبع الفستولا، وسار على ضفته اليسرى، في نقطة الاتصال بين الجيشين الروسيين القائمين بتغطية المجنبة الروسية اليمنى. واستطاع تفريق هذين الجيشين بعضهما عن بعض، كإسفين يغوص تحت ضغط المطرقة. وأجبر الأول على التراجع، وحقق انتصاراً ضد الثاني يشبه النصر في تاننبرغ. وكاد أن يحاصره في لودز Lodz لو لم يحضر الجيش الخامس لنجدته. ولم يحصل هندنبورغ على نصر هام، ولكن هذه المناورات أثبتت قدرة الجيش الصغير على شل تقدم عدو متفوق عليه عددياً، حيث استغل إمكاناته الحركية بمهارة، ليقوم بهجوم غير مباشر على نقطة حساسة في تشكيلة العدو. وتعطل الجهاز الروسي الضخم، ولم يعد بعد ذلك قادراً على تهديد الأراضي الألمانية.

وخلال أسبوع واحد جاءت أربعة فيالق ألمانية جديدة من الجبهة الغربية، حيث فشل هجوم الايبر Ypres. وكان قدومها متأخراً بحيث أصبح متعذراً تحقيق نصر حاسم. ولكن لودندورف استخدمها، مع ذلك، ودفع الروس حتى خط بزورا ــ رافكا Bsura - Rawka أمام فارسوفيا. وعندئذ بدأ التمركز في الشرق داخل الخنادق، بشكل مشابه للجبهة الغربية، ولكن بخطوط أضعف. وكان الروس قد بددوا مخزونهم من الذخائر لدرجة عجزوا معها عن تجديدها.

كانت القصة الحقيقية، في العام ١٩١٥، على الجبهة الشرقية عبارة عن خلاف بين فكرتي قائدين كبيرين: أولاهما **فكرة لودندورف**، التي تهدف إلى الحصول على النصر باستراتيجية الهجوم غير المباشر، جغرافياً على الأقل، وثانيهما **فكرة فالكنهاين**، التي تعتمد على توفير الوسائط الألمانية، وشل قدرة روسيا الهجومية باستراتيجية الهجوم المباشر. وكان فالكنهاين في مركز لودندورف، فاستطاع فرض رأيه، ولكن استراتيجيته عجزت عن تحقيق أي هدف من أهدافه المنشودة.

ولاحظ لودندورف أن تقدم الروس الخريفي نحو سيليزيا وكراكوف دفعهم إلى زج الكتلة الرئيسية من قواتهم في بولونيا. وبينما كان الروس يحاولون الاندفاع، في الجنوب



العمليات في بولونيا في نهاية ١٩١٤

الغربي، عبر فتحات باتجاه الأراضي النمساوية. ضربهم لودندورف في لودز ضربة شلتهم. ولما استعادوا قواهم وجدوا الدفاع النمساوي قوياً متماسكاً من جديد. وقام الروس من كانون الثاني إلى نيسان بعدة محاولات غير مجدية على السفوح الشمالية لجبال الكاربات، فأدت جهودهم إلى تبعثر معظم قواهم الكبيرة.

إلا أن لودندورف اضطر إلى إيقاف عمليات الانقضاض، الرامية إلى خرق خطوط الخنادق الدفاعية في الغرب، وإلى إضعاف قواته الاحتياطية الخاصة لدعم حلفائه النمساويين، واستخدم هذه القوات في عملية محدودة من الناحية الاستراتيجية، بقصد إضعاف روسيا، بشكل يستطيع معه العودة إلى الهجوم في الغرب، دون التعرض لأي إزعاج.

واقترح هوتزندورف خطة طبقها فالكنهاين في الشرق. وتتضمن هذه الخطة خرق الجبهة الروسية بين الكاربات ونهر الفستولا. وفي ٢ أيار بدأ الهجوم وكانت المفاجأة كاملة، وتم استثمارها بسرعة. وفي ١٤ أيار نفذ خط الجبهة الروسي كله على طول جبال الكاربات تراجعاً لمسافة ١٢٠ كيلو متراً، حتى وصل إلى خط نهر سان San.

وهنا نرى مثالاً واضحاً للفرق بين الهجوم غير المباشر والمفاجأة. وقعت في هذه المعركة مفاجأة في الزمان والمكان والقوى. وتكبد الروس خسائر فادحة، ولكنهم اندفعوا في أثناء تراجعهم ككرة من الثلج، تزداد تماسكاً وضخامة بازدياد دحرجتها. وتم انسحابهم نحو مراكز تموينهم وسككهم الحديدية فعوضوا ما ضاع منهم. ولم يؤدِ هذا الهجوم المباشر، برغم خطورته، إلى الانهيار التام للقوات الروسية.

وأدرك فالكنهاين أنه تقدم في غاليسيا بشكل لا يسمح له بالتراجع، كما لاحظ فشل هجومه الجزئي في تأمين الحيطة على الجبهة الشرقية. ووجد نفسه مضطراً إلى سحب وحدات جديدة من فرنسا للوصول إلى هدفه. ولكنه اختار، مرة أخرى، الهجوم المباشر. فغيّر اتجاه هجومه من الشرق إلى الشمال الشرقي، وأعطى لودندورف، الذي كان يتميز غيظاً في بروسيا الشرقية أمراً بالهجوم، في الوقت نفسه، باتجاه الجنوب الشرقي. واعترض لودندورف على هذه الخطة، لأنها تشبه الهجوم الجبهي، برغم أن له شكل حركة

الجناحين ، يزحفان من اتجاهين مختلفين للالتقاء في نقطة واحدة ، ولأن الجناحين الألمانيين عاجزان عن محاصرة الروس وتحطيمهم .

وأصر على تطبيق مناورة (فيلنا) التي اقترحها من قبل . ولكن فالكنهاين رفض ذلك من جديد .

وجاءت النتائج مؤيدة لفكرة لودندورف عندما انطبق طرفا الكماشة الألمانية وطردا الروس ، دون التوصل إلى قطعهم . وجاء هذا الطرد لمصلحة الروس ، إذ قصرت المسافات بين مواقعهم . وفي نهاية أيلول كانت مواقعهم تمتد على خط مستقيم من ريغا Riga ، على بحر البلطيق ، حتى الحدود الرومانية . ولم تعد القوات الروسية تشكل خطراً مباشراً على ألمانيا ، ولكنها كانت كافية لتجميد قوات ألمانية كبيرة ، وإزعاج النمسا مادياً ومعنوياً .

وعندما أوقف فالكنهاين العمليات على مستوى كبير سمح للودندورف بكل فتور بالقيام بتجربة مناورة (فيلنا) بالوسائط القليلة المتوفرة لديه .

وكانت الموافقة متأخرة ، ومع ذلك استطاعت هذه الضربة المنعزلة أن تقطع حركة السكك الحديدية بين فيلنا ودفينسك Dvïnsk ، ووصلت حتى خط مينسك Minsk ، شريان المواصلات الروسي الحيوي . وكان هذا برهاناً واضحاً على قدرة هذه المناورة على إعطاء أكبر النتائج ، لو أنها نفذت قبل ذلك ، وبقوات أكبر ، ولا سيما عندما كان الجيش الروسي مشتبكاً بشدة في بولونيا .

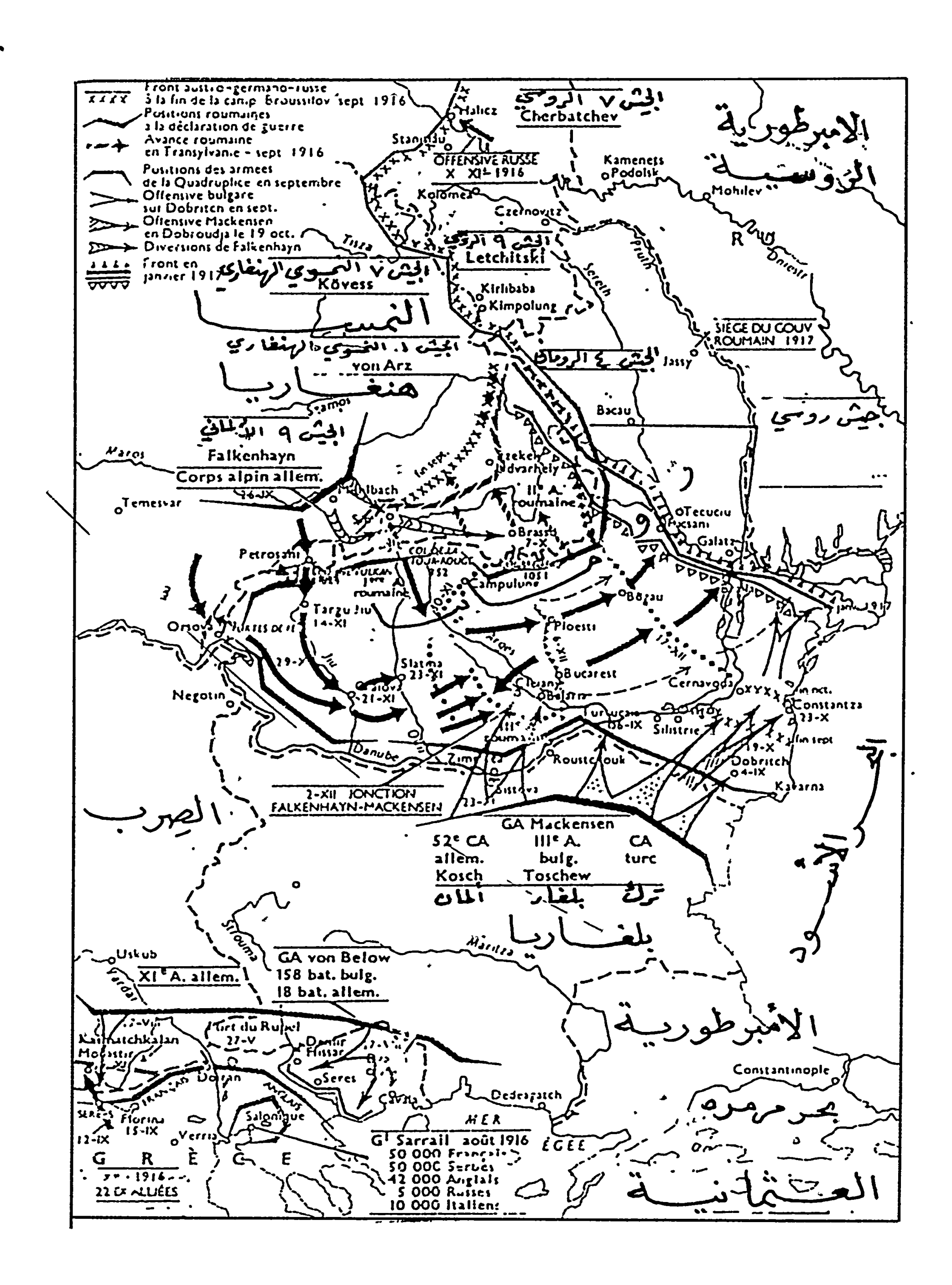
بعد أن أنهى الألمان وحلفاؤهم الهجوم في الشرق ، وثبتوا الدفاع في الغرب ، قرروا تخصيص الخريف لمعركة في بلاد الصرب . ويمكن اعتبار هذا العمل ، من وجهة النظر العامة للحرب ، هجوماً غير مباشر محدود الهدف . ولكنها كانت حاسمة في إطارها المحلي ونتائجها الخاصة . ولقد دارت هذه المعارك في ظروف سياسية وجغرافية خاصة ، مما سلط ضوءاً جديداً على نتائج هذا الأسلوب . وكانت الخطة مبنية على تدخل بلغاريا في المعركة ، إلى جانب الألمان وحلفائهم . ولقد فشل الغزو الألماني النمساوي المباشر في اللحظة التي دخل فيها البلغاريون بلاد الصرب من الشرق . واستمر الصربيون في الدفاع مستفيدين من طبيعة بلادهم الجبلية ، حتى استطاع الجناح الأيسر للقوات البلغارية دخول البلاد من الجنوب ، والاستدارة حول مؤخراتهم ، وعزلهم عن النجدات الانكلو ـــ فرنسية القادمة

من سالونيك (اليونان). وانهارت مقاومتهم، ولم يبقَ من جيشهم سوى وحدات متفرقة تتراجع نحو الغرب عبر ألبانيا، في ظروف الشتاء القاسية، للوصول إلى شواطىء البحر الأدرياتيكي. ولقد أدى هذا التجمع السريع لسحق دولة صغيرة من دول الحلفاء إلى تحرر النمسا من كل خطر قادم من هذا الاتجاه، كما سمح للألمان بالسيطرة على أوروبا الوسطى، وتنظيم خطوط مواصلاتهم فيها.

إن العمليات، التي وقعت في العامين ١٩١٦ — ١٩١٧ على الجبهة الروسية، لا تستحق كثيراً من التعليق، فقد كانت دفاعية من جهة الألمان والنمساويين، وهجومية، بشكل مباشر، من قبل الروس. وتظهر هذه العمليات فقر الاستراتيجية المعتمدة على تطبيق القوة بهجوم مباشر، وتأثيرها المعنوي الذي يشبه تأثير سلاح يرتد إلى صدر صاحبه. وعندما اندلعت الثورة، عام ١٩١٧، وعجلت بانهيار مقاومة روسيا القيصرية، كانت القوات الروسية أحسن تسليحاً وتجهيزاً من قبل. ولكن الخسائر الكبيرة التي قدمتها روسيا دون جدوى حطمت الرغبة في القتال لدى الشعب الروسي، الذي كان يتمتع بروح تضحية لا مثيل لها في أوروبا كلها. كما حدث في أثناء عمليات التردد التي بدأت تظهر في الجيش الفرنسي، بعد هجوم الربيع عام ١٩١٧، وخاصة عندما تلقت الوحدات، التي أنهكها القتال، أمراً بالعودة إلى الخنادق.

وكان هجوم بروسيلوف Brussilov، قرب لوك في حزيران ١٩١٦، العملية الوحيدة غير المباشرة التي قام بها الروس. وقد تم الحصول على هذه النتيجة لأن العملية كانت دون هدف جدِّي ثابت، كما كانت عملية مشاغلة وخداع، نُفِّذت بناء على طلب إيطاليا، ثم تُركت قبل الأوان. ومن الجدير بالذكر أنها تمت دون تحضير خاص أو تجميع قوات كبيرة، ولكنها سببت تأثيراً كبيراً عندما وقعت صدفة على دفاع نمساوي غير مستعد، وسببت وقوع ٢٠ ألف نمساوي في الأسر، خلال ثلاثة أيام.

لقد كان لهذه الصدمة المفاجئة نتائج استراتيجية متعددة، إذ إنها أوقفت الهجوم النمساوي في إيطاليا، وأجبرت فالكنهاين على سحب وحدات من الجبهة الغربية، والتخلي عن معركة الإنهاك في فيردان، ودفعت رومانيا إلى الدخول في الحرب ضد ألمانيا وحلفائها، وسببت سقوط فالكنهاين، وتعيين هندنبورغ و لودندورف مكانه. ويظن بعضهم أن دخول رومانيا في الحرب هو سبب عزل فالكنهاين، ولكن السبب الحقيقي



العمليات في رومانيا وجبهة البلقان عام ١٩١٦

كان فشل استراتيجيته المباشرة الضيقة الأهداف والأبعاد في العام ١٩١٥ ، والتي أدت إلى تجدد تماسك الروس وظهورهم على مسرح العمل من جديد في العام ١٩١٦ .

ولكن نتائج تقدم بروسيلوف غير المباشر لم تدم طويلاً . فقد دفعت القيادة الروسية إلى تركيز ثقلها على خط مقاومة واحدة يتقوَّى مع الزمن ويؤدي إلى استنزاف القوى المهاجمة . وهكذا أضاع الروس معظم قواتهم الاحتياطية دون جدوى . وترك بروسيلوف مليون رجل على أرض المعركة ، وكان استدراك الخسائر ممكناً برغم فداحتها ، ولكن انكشاف إفلاس القيادة الفكري أمام الجنود أدى إلى انهيار معنويات القوات العسكرية الروسية .

وتابع الروس بذل هذا الجهد بعناد وإصرار ، فاستفاد هندنبورغ و لودندورف من هذا الموقف ، للقيام بهجوم غير مباشر آخر ، مع تبديل سريع في الهدف ، بشكل يشبه الهجوم الذي وقع عام ١٩١٥ في بلاد الصرب ، وكانت رومانيا هي هدفهما .

وكانت القوات الرومانية مؤلفة من ٢٣ فرقة سيئة التجهيز ، مقابل ٧ فرق معادية . وكانت الحكومة الرومانية تأمل في أن يؤدي ضغط بروسيلوف ، وضغط الانكليز في السوم ، وضغط وحدات الحلفاء في سالونيك إلى منع العدو من زيادة قواته الموجهة ضدها . ولكن أعمال الحلفاء كلها كانت مباشرة ، فلم تمنع ألمانيا وحلفاءها من سحب قوات كافية من الجبهات للقيام بسحق رومانيا .

كانت الأرض الرومانية محصورة بين ترانسيلفانيا وبلغاريا ، وتعتمد عند طرفيها على موانع طبيعية هي جبال الكاربات ونهر الدانوب . ولكنها كانت معرضة ، بشكل كبير ، للهجوم غير المباشر ، كما أن منطقة دوبرودجا Dobrodja المكونة من شريط ضيق على ساحل البحر الأسود ، كانت تشكل صيداً يسهل على الخصم الماهر اقتناصه .

كما أن رغبة رومانيا في القيام بهجوم نحو الغرب ، عبر ترانسيلفانيا ، جعلت خصومها يردون عليها بهجوم غير مباشر ، لم يكن في نيتهم القيام به أصلاً .

بدأ التقدم الروماني في ٢٧ آب ١٩١٦ . وتقدمت ثلاثة أرتال رئيسية ، يتألف كل منها من أربع فرق تقريباً ، نحو الشمال الغربي ، عبر جبال الكاربات ، مشكلة بذلك هجوماً مباشراً نحو السهل الهنغاري . وعهد بحراسة الدانوب إلى ثلاث فرق لتعزيزها . وكان

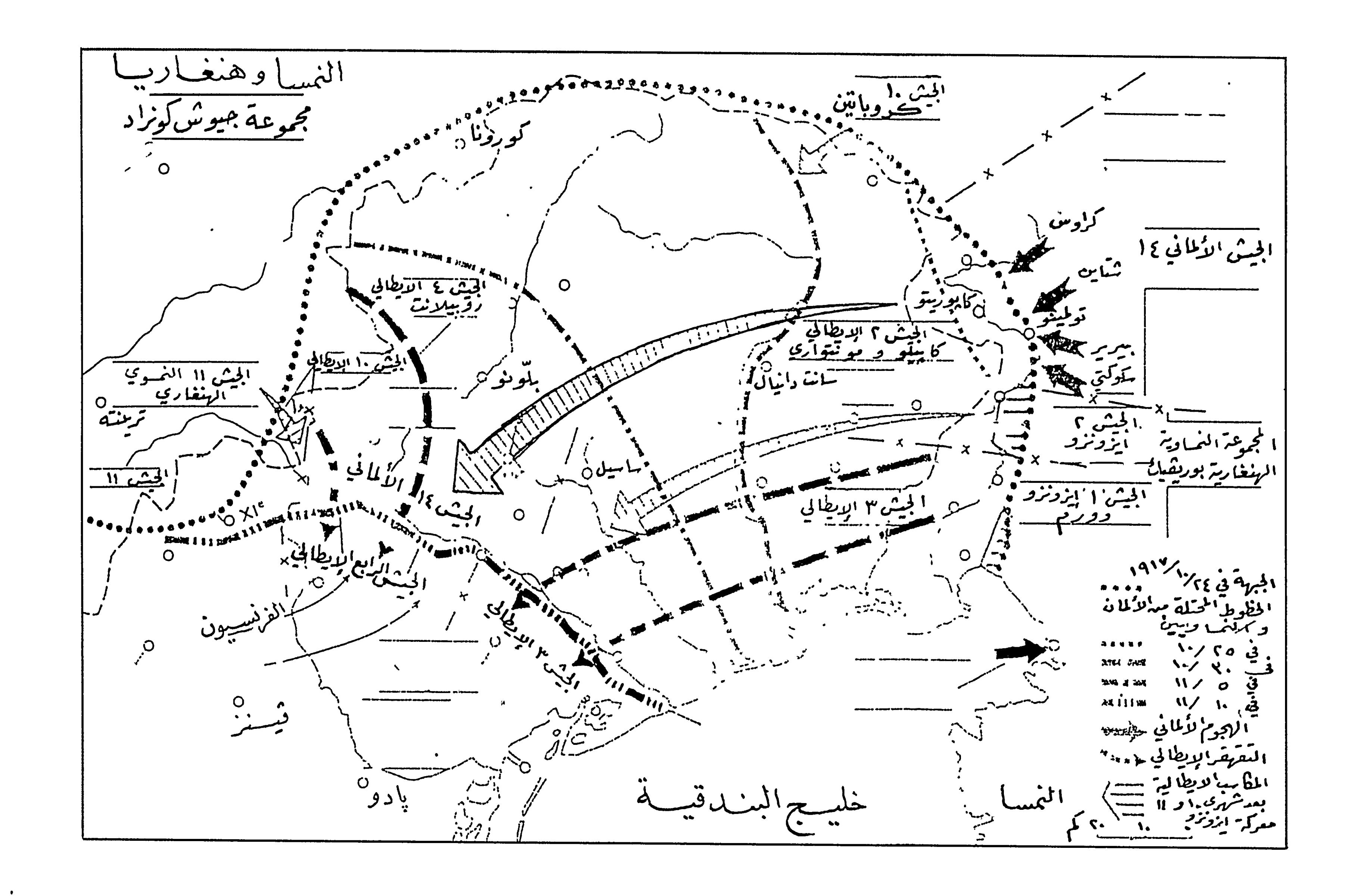
الجبهة الشرقية في تموز ١٩١٧ وحتى كانون الثاني ١٩١٨

تقدم الأرتال الرومانية حذراً وبطيئاً، ولا يعود ذلك إلى مقاومة العدو، بل إلى التدمير الشامل لمجموعة الجسور. ولم تكن الفرق النمساوية الخمس الضعيفة، التي تغطي الحدود، حاجزاً أمام التقدم، وبقيت تحرس الحدود وحدها، حتى دعمت بخمس فرق ألمانية، وفرقتين نمساويتين جديدتين. ووضع الألمان تحت تصرف ماكنزن أربع فرق بلغارية، مع مدفعية ألمانية، ووحدات جسور نمساوية، بغية تنفيذ النصف الثاني للخطة التي وضعها فالكنهاين، قبل تركه القيادة، وهي الخطة التي تتضمن اجتياح دوبرودجا.

وبينما كانت الأرتال الرومانية تتقدم ببطء نحو الغرب عبر ترانسيلفانيا، قام ماكنزن Machensen بانقضاض مفاجىء، احتل به في ٥ أيلول، رأس جسر في تورتوكايا Turtukaia، وحطم ثلاث فرق رومانية كانت تحرس نهر الدانوب. ثم استند بجناحه على النهر، وتقدم نحو الشرق باتجاه دوبرودجا، ولم يتجه إلى بخارست، كما كان متوقعاً، ومع ذلك كان تأثير الصدمة المعنوية كبيراً وناجحاً، لأن النتيجة الفورية لاستراتيجيته كانت في ترانسيلفانيا، حيث فقد الهجوم الروماني كل قوته الدافعة.

وكان فالكنهاين يتولى حينذاك قيادة الجيوش الألمانية في هذه المنطقة، فقام بهجوم مضاد مباشر مع كثير من قوة الاندفاع. وكان يضرب بوحداته المتماسكة جيداً أرتال الجنوب والقوى الرئيسية، بينما كانت مفارز صغيرة أخرى تقوم بإيقاف الأعداء الآخرين. وكانت نتيجة هذه العمليات صد الرومانيين، الذين ظلوا مع ذلك مرابطين في الجبال. وكاد المخطط الألماني أن يتعرض للفشل، لأن القوات الرومانية المسيطرة على الممرات الجبلية آنذاك صدت بشدة كل المحاولات الأولى للعبور في أقصى الغرب. ثم نجحت محاولة أخرى قبل ظهور ثلج الشتاء. واستدار فالكنهاين نحو الغرب فدخل رومانيا من بابها الحقيقي. وتلا ذلك هجوم مباشر تضمن اجتياز سلسلة من الأنهار. ولما اضطر للتوقف على طول نهر الآلت تدخل ماكنزن لإصلاح الموقف.

سحب ماكنزن بسرعة معظم قواته من دوبرودجا نحو سيستوفر، وفي ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٦ عبر نهر الدانوب. وأتاح هذا الانسحاب دعم قوات فالكنهاين ومساعدته على عبور نهر الاولتو Oltu، ولكنه ساعد الرومانيين أيضاً على استخدام مواضعهم المركزية الواقعة على مقربة من العدو، لتوجيه ضربات خطيرة إلى ماكنزن، الذي كانت مجنبته شبه مطوقة. ولما زال الخطر اشترك فالكنهاين و ماكنزن في دفع الجيش


النمسا وهنغاريا
مجموعة جيوش كونراد
كورونا
الجيش ١٠ كروباتين
كراوس
الجيش الألماني ١٤
شتاين
كابوريتو
تولمينو
الجيش ٤ الإيطالي روبيلانت
الجيش ٢ الإيطالي كابيلو و مونتواري
الجيش ١٠ الإيطالي
بلونو
سانت دانيال
الجيش ١١ النمسوي الهنغاري
ترينته
الجيش ١١
الألماني
الجيش ١٤
باسيل
الجيش ٣ الإيطالي
الجيش ١ إيزونزو وورم
الجيش الرابع الإيطالي
الفرنسيون
الجيش ٣ الإيطالي
فينز
بادو
خليج البندقية
النمسا
الجبهة في ١٩١٧/١٠/٢٤
٢٠ كم

الروماني إلى الوراء حتى بخارست ، ثم انسحب منها بعد ذلك إلى خط سيرس ـــ البحر الأسود .

واحتلت ألمانيا ، منذ ذلك الوقت ، معظم رومانيا ، ووضعت يدها على قمحها وبترولها . ولكنها لم تدمر الجيش الروماني ، الذي تحسنت معنوياته . وازدادت قدرته على المقاومة خلال صراعه ضد هجوم الألمان الأخير ، حتى وقعت روسيا البلشفية معاهدة الصلح مع ألمانيا عام ١٩١٧ ، ووجدت رومانيا نفسها منعزلة ومضطرة لعقد معاهدة صلح مماثلة .

٤ ـــ مسرح العمليات في الجنوب الشرقي (أو في منطقة البحر الأبيض المتوسط)

(آ) مسرح العمليات في إيطاليا

في عام ١٩١٧ كانت إيطاليا هدف القيادة الألمانية ومسرح عملياتها خلال الخريف . وكان شكل الجبهة ملائماً لقيام الألمان بهجوم غير مباشر من الوجهة الجغرافية والمادية ، وغير ملائم لقيام أعدائهم بمثل هذا الهجوم .

كانت مقاطعة البندقية الإيطالية تشكل بروزاً داخل الأراضي النمساوية ، يحده من الشمال التيرول النمساوي ، وإقليم ترنتين ، ومن الجنوب البحر الأدرياتيكي ، الذي يشكل شاطئه شريطاً أرضياً منخفضاً نسبياً . وكانت الحدود حينئذ تحاذي جبال الألب ، وترسم قوساً كبيراً في الشمال الشرقي يمتد حتى بحيرة غارد .

ولم تجد إيطاليا هدفاً حيوياً في الشمال ، حيث كانت طبيعة المنطقة جبلية وعرة ، فلم تندفع بهجوم في هذا الإتجاه . واكتفت بالتفكير في القيام بحركة مباشرة على شكل هجوم في اتجاه الشرق ضد النمسا ، ولكنها بقيت مهددة بهجوم نمساوي قد يأتي على مؤخراتها عبر إقليم ترانتين . ولم تجد إيطاليا بدأ من اختيار هذا السبيل لعدم وجود حلٍّ آخر .

واستمرت إيطاليا في هجومها المباشر مدة سنتين ونصف السنة . وفشلت جيوشها

في ١١ معركة، ولم تتقدم عن نقاط انطلاقها، برغم تكبدها خسائر قوامها مليون ومئة ألف رجل، مقابل ٦٥٠ ألف رجل فقدتهم النمسا. وقد قامت النمسا، خلال هذه الفترة بهجوم واحد في العام ١٩١٦، عندما حاول القائد النمساوي هوتزندورف الحصول على مساعدة فالكنهاين المادية بقصد تدمير العدو بضربة حاسمة جنوب ترنتين، على مؤخرات الجيش الإيطالي المشتبك حينئذ في ايسونزو Isonzo. ولكن فالكنهاين اتخذ موقفاً حذراً من هذه الخطة، ومن (الضربات الحاسمة) التي يحلم بها هوتزندورف. وكان ينوي الاستمرار في حرب الإنهاك أمام فيردان فرفض إعطاء هوتزندورف ٩ فرق ألمانية لدعم فرقه النمساوية على الجبهة الشرقية. لذا قرر هوتزندورف المناورة بالعملية بإمكاناته الخاصة. فسحب من الشرق أفضل فرقه، وعرض جبهته الشرقية لتقدم بروسيلوف، دون أن يستطيع جمع وحدات كافية في الألب للقيام بهجوم فعّال ضد الإيطاليين.

وكادت المناورة أن تنجح، ولم يأخذ هذا الهجوم خط انتظار غير متوقع، ولكنه حمل في طياته برغم ذلك بعض الصفات غير المتوقعة. إذ لم تكن القيادة الإيطالية تعتقد بوجود قوات كافية مع هوتزندورف للقيام بعملية واسعة المدى. وكان الهجوم على مستوى واسع حقاً، ولكنه لم يكن كبيراً بشكل كافٍ. وتم الحصول على انتصارات ومكاسب سريعة خلال عدة أيام. ولكن القائد الإيطالي كادورنا Cadorna استطاع أن يسحب قواته الاحتياطية من قطاع ايسونزو Isonzo، واستعد لسحب الذخيرة والمدفعية الثقيلة، وبقيت المعركة سجالاً، وكاد الهجوم النمساوي أن يصل إلى السهل، ولكن نقص قواته الاحتياطية حد من اندفاعه. وجاء تقدم بروسيلوف الروسي على الجبهة الشرقية فتوقف كل شيء في هذا القطاع.

بعد سبعة أشهر، فكر لودندورف في القيام بضربة مشتركة مع النمسا ضد إيطاليا، إلا أن الوضع كان أقل ملاءمة، بسبب خطورة موقف النمسا. ولم يكن قادراً على تقديم أكثر من ست فرق، تسحب من الاحتياطي العام لدعم حليفه المنهك مادياً ومعنوياً. ولنقص الإمكانات اقتصرت الخطة على القيام بهجوم أكثر مباشرة، وأقل اتساعاً، في اتجاه الزاوية الشمالية الشرقية لجبهة ايسونزو، حيث ينعطف الهجوم نحو جبال الألب. وقد تم اختيار نقطة الهجوم آنذاك بناء على مبدأ يطبق لأول مرة على هذه الجبهة، ويقول بضرورة البحث عن أقل الخطوط التكتيكية مقاومة.

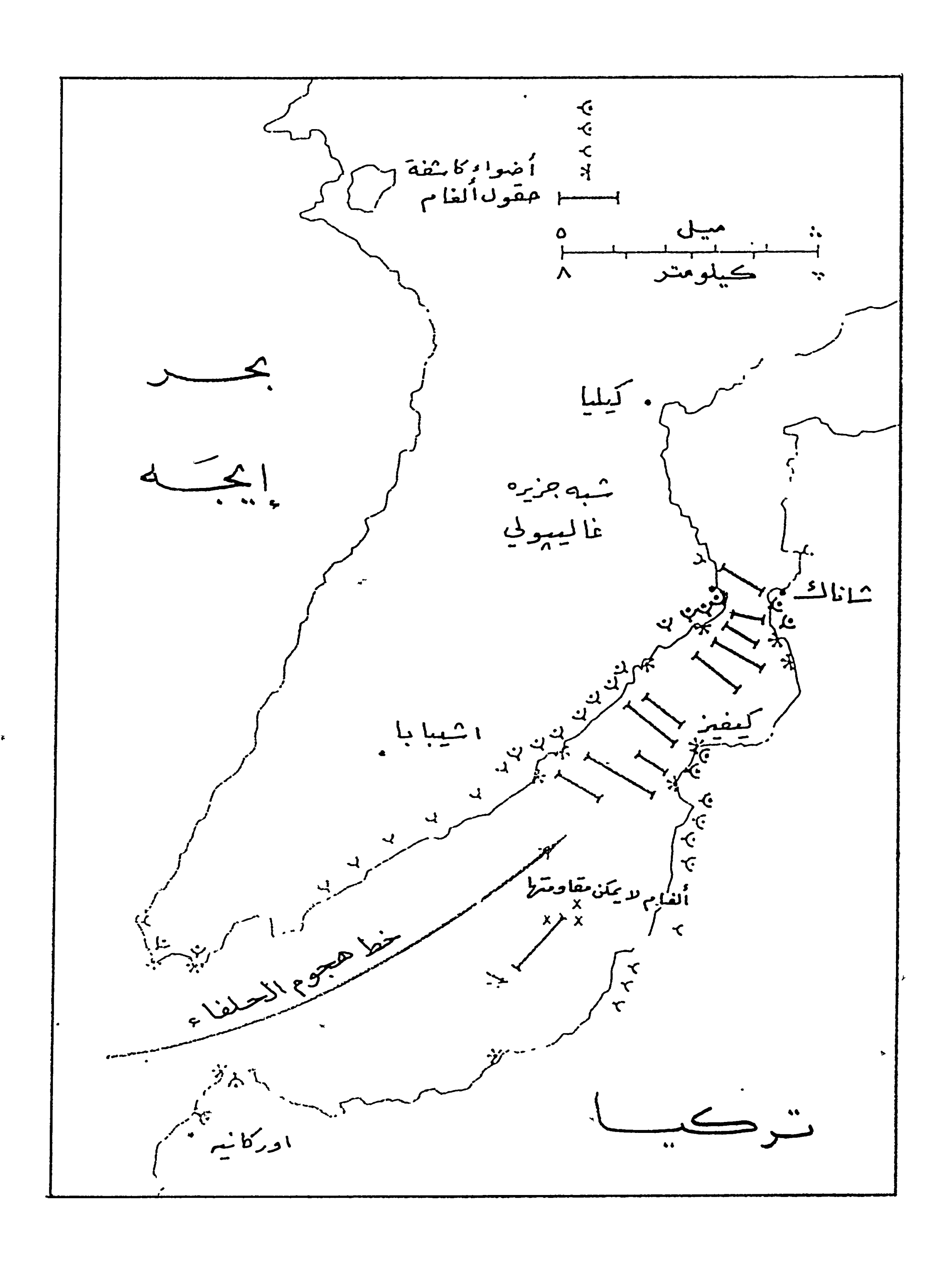
وكانت الخطة الأساسية عبارة عن عمل ثغرة في كابوريتو Caporetto للإحاطة بالجبهة الايطالية في ايسونزو ، ثم عدلت هذه الخطة بفكرة أكثر جرأة مع بقاء الإمكانات على حالها دون زيادة . وارتكب لودندورف في كابوريتو الخطأ العميق الاستراتيجي نفسه الذي ارتكبه البريطانيون في الوقت نفسه في كامبري Cambrai ، وهو خطأ أساسه (تفصيل الثياب دون مراعاة ، كمية القماش الموجودة) . وكان خطأ لودندورف عكس فالكنهاين الذي كان يطلب دائماً قليلاً من القماش ، نظراً لسوء تقديره لمقاس الثياب ، ثم يضطر لطلب مزيد من القماش لتوسيع حجم الثوب عن طريق ترقيعه .

وفي ٢٤ تشرين الأول انطلق الهجوم الألماني النمساوي بشكل مجهز جيداً ، ودون أن يذاع عنه شيء حتى آخر لحظة . ودق بذلك إسفيناً بين الجيوش الإيطالية ، وبعد ٨ أيام وصل إلى نهر تاليامنتو Taliamento . ولكن ما إن قام الإيطاليون بسحب وحداتهم المبعثرة وجمعها (والمتناقصة باستمرار) ، حتى تابع الهجوم تقدمه نحو الشمال على شكل هجوم مباشر بحت ، ودفع الإيطاليين حتى نهر بياف Piave ، الذي يعتبر حاجزاً قوياً يمكن الاستناد إليه . وفكر لودندورف ، بعد فوات الوقت ، في توجيه قواته الاحتياطية نحو ترنتين . وفشلت هذه المناورة لضعف شبكة السكك الحديدية في هذه المنطقة . وحاول الجيش النمساوي الهجوم في ترنتين ، بإمكاناته الضعيفة دون جدوى ، لأنه لم يعد قادراً على العمل بشكل فعال ضد مؤخرات عدو سحب وحداته وقواته الاحتياطية إلى الخلف مسافة كبيرة .

وانقضت لحظة المفاجأة الأساسية ، وأصبح الهجوم النمساوي ـــ الألماني عبارة عن مناورة التقاء مباشر جعلت الإيطاليين يتراجعون نحو قواتهم الاحتياطية ، ومراكز تموينهم ونجدات حلفائهم . وكانت النتيجة الحتمية سلبية ، ولكن مدى النجاح ، الذي تم الحصول عليه بوسائط ضعيفة كهذه ، يكوّن مع ذلك رداً تهكمياً على تصرف فالكنهاين ، الذي رفض في بداية عام ١٩١٦ قبول خطة هوتزندورف ، التي كانت تنطوي على آمال واسعة .

(ب) مسرح العمليات في البلقان

كانت القيادة العامة الفرنسية والبريطانية تؤمنان إيماناً شديداً بمزايا الهجوم المباشر ،

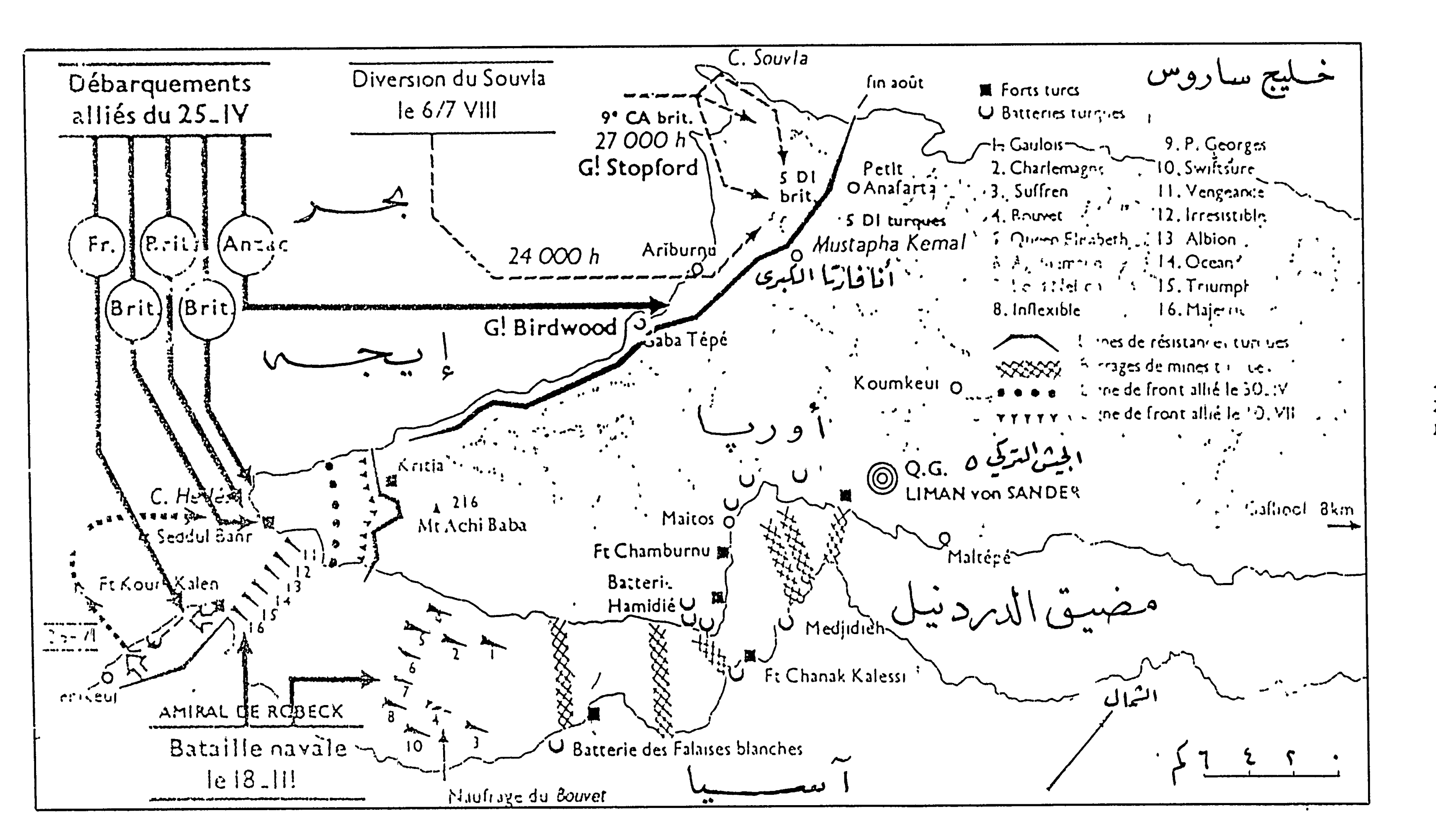


مضائق الدردنيل الملغمة

ولكن كان هناك من يشك ، اعتباراً من تشرين الأول ١٩١٤ ، بقيمة هذه المزايا . وكان بعض هؤلاء الذين ساورهم الشك بعيدين عن الجبهة ، وبعضهم قريبين منها . ومن هؤلاء الناس غاليبيني في فرنسا ، وكيتشنر في انكلترا . ولقد تضمن كتاب كيتشنر في ٧ كانون الثاني ١٩١٥ إلى السير جون فرينش قوله : « يمكن اعتبار خطوط الألمان في فرنسا حصوناً لا يمكن الاستيلاء عليها بانقضاض مباشر ، كما لا يمكن الاستدارة حولها تماماً . لذا يجب تثبيتها بقوات معينة والاستمرار في العمليات في مكان آخر » .

وقد زعم البعض ، ومنهم ونستون تشرشل ، آنه يمكن اعتبار مجموعة الدول المعادية كتلة واحدة ، وأن التقدم الحديث طور جذرياً طريقة تقدير المسافات وقدرة الحركة ، وأن ضربة في مسرح عمليات مجاور تكوّن هجوماً استراتيجياً على مجنبة العدو في المسرح الأصلي . كما أن عملية كهذه تبدو ملائمة للاستراتيجية البرمائية التقليدية في بريطانيا ، وتسمح باستثمار التفوق الناجم عن سيطرتها البحرية ، والتي لم تستغلها حتى ذلك الحين . وفي كانون الثاني ١٩١٥ دعم كيتشنر الخطة التي تهدف إلى قطع الطريق الرئيسي لمواصلات تركيا مع الشرق بالنزول في خليج إسكندرونة . وقد دلت تعليقات هندنبورغ وأنور باشا ، بعد الحرب ، على أن عملاً كهذا كان قادراً على شل حركة تركيا ، برغم عجزه عن تحقيق نتيجة حاسمة .

واقترح لويد جورج نقل معظم القوات البريطانية إلى بلاد البلقان ، واختراق بلاد العدو من (الباب الخلفي) ، ولكن القيادتين الفرنسية والبريطانية ، الواثقتين من اقتراب النصر في الجبهة الفرنسية قاومتا هذه الفكرة بشدة ، محتجين بصعوبة المواصلات والتموين وسهولة إرسال وحدات ألمانية إلى البلقان ، لمجابهة هذا التهديد . وهذه أسباب وجيهة ، ولكن حماسة القيادتين الفرنسية والبريطانية دفعتهما إلى المبالغة في تقدير أهمية هذه الأسباب . ولكن هاتين القيادتين كانتا أقل معارضة لخطة غاليبيني في البلقان وكانت هذه الخطة تهدف إلى إنزال قوات في سالونيك ، وجعل هذه المدينة قاعدة انطلاق لجيش قوي يزحف في اتجاه القسطنطينية ، ويرغم اليونان وبلغاريا على الانضمام للحلفاء ، على أن يتبع احتلال العاصمة التركية تقدم مشترك مع الرومانيين على طول نهر الدانوب حتى امبراطورية النمسا ـــ هنغاريا . وفي أيلول ١٩١٨ رأت القيادة العسكرية الألمانية في هذه



حملة الدردنيل عام ١٩١٥

الخطة حركة خطيرة وحاسمة ضدها. وكان هذا التهديد، الذي برز في الأسبوع الأول من تشرين الثاني عاملاً من العوامل الرئيسية التي عجلت باستسلام ألمانيا.

ومن الجدير بالذكر أن قيادة الحلفاء العسكرية تجاهلت في كانون الثاني ١٩١٥ كل الاقتراحات التي كانت ترمي إلى تنفيذ عمليات مشاغلة، ومنع تجميع كل الجهود على الجبهة الغربية. ولكن الفكرة بقيت كامنة حتى وجد الحلفاء أنفسهم في وضع يسمح لهم ببعث خطة الشرق الأوسط بشكل جديد وعلى مستوى أصغر.

في ٢ كانون الثاني طلب الغراندوق نيقولا من كيتشنر القيام بعملية مشاغلة لتخفيف ضغط تركيا على الجيوش الروسية في القفقاس. ولم يكن لدى كيتشنر قوات كافية فاقترح القيام بمظاهرة بحرية أمام الدردنيل. ورأى تشرشل النتائج الاقتصادية الاستراتيجية الهامة، التي قد تنجم عن هذه المظاهرة، فاقترح تحويلها إلى عملية اقتحام لمضيق الدردنيل، نظراً لأنه ليس من الممكن تقديم المساعدات التي طلبها الروس. وجمعت قوة بحرية معظمها من السفن القديمة بالتعاون مع الفرنسيين. وفي ١٨ آذار دخلت السفن الحربية مضيق الدردنيل بعد قصف شديد بالمدفعية. ولكن الألغام البحرية العائمة، التي زرعت منذ وقت طويل في مكان غير متوقع، أغرقت بعض السفن وفشلت المحاولة.

ويمكن أن نتساءل هنا عن إمكان نجاح مثل هذه العملية، لو أنها تكررت مرة ثانية بسرعة، وخاصة بعد نفاد الذخيرة التركية، الأمر الذي يسهل عملية اجتياز الألغام العائمة. ولكن القائد الجديد للقوات البحرية الأميرال دوروبيك **DeRobeck** اعترض على ذلك المشروع، إلا إذا تم دعمه براً. ترددت القيادة في إرسال الوحدات اللازمة. ولما أرسلت هذه الوحدات بأعداد قليلة غير كافية أضاع الحلفاء عدة أسابيع في الإسكندرية لتنظيم نقلها، حسب متطلبات العمليات. وزاد الطين بلة سياسة التردد التي أضاعت فرصة المفاجأة. وكانت القوات التركية، خلال القصف المبدئي في شباط ١٩١٥، عبارة عن فرقتين، ولما بدأت المحاولة البحرية زيدت الفرق التركية إلى أربع. وعندما وجد هاملتون **Hamilton** نفسه جاهزاً لتنفيذ عملية إنزال الجنود بلغ عدد الفرق التركية ستاً. وكانت قوات هاملتون، المؤلفة من ٤ فرق بريطانية وفرقة فرنسية واحدة، أضعف، في مجموعها، من قوى العدو، الذي يتمتع، علاوة على ذلك، بالميزات التي يملكها الدفاع في مواجهة

الهجوم، بالإضافة أيضاً إلى صعوبة الأرض. واضطر هاملتون، نظراً لضعفه العددي، واقتصار مهمته على دعم عبور الأسطول إلى إنزال الجنود في شبه جزيرة غالبولي بدلاً من إنزالها على الشاطىء الآسيوي.

وفي ٢٥ نيسان ١٩١٥، انطلق البريطانيون من الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة قرب غاباتيبيه Gabatépé، على بعد ٢٥ كيلو متراً من شاطىء بحر إيجة، وقاموا بقفزة أولى إلى الأمام، ونزل الفرنسيون، المكلفون بتنفيذ عملية مشاغلة وخداع مدة من الزمن في كوم كاليه Kaum-kaleh على الشاطىء الآسيوي. ولما انتهى تأثير المفاجأة الأساسية استطاع الأتراك جلب قواتهم، ولم يعد المهاجمون قادرين على توسيع رأس جسرهم المهدد باستمرار.

وفي تموز قررت الحكومة البريطانية إرسال خمس فرق جديدة لدعم الفرق السبع، الموجودة حتى ذلك الوقت في شبه الجزيرة. وعندما وصلت هذه القوات وجدت عدد الفرق التركية قد بلغ ١٥ فرقة. وقرر هاملتون القيام بعملية معقدة تهدف إلى القيام بضربة ضد غاباتيبيه بمجموعة من قوارب الهجوم، في الوقت الذي يتم فيه إنزال مفرزة من الجنود على بعد عدة كيلو مترات إلى الشمال في خليج سوفلا Souvla، للسيطرة على أواسط شبه الجزيرة، وتأمين المرتفعات المسيطرة على المضيق.

وقد تبدو هذه الصدمة (الضربة) مباشرة أكثر مما لو تم إنزال القوات في بولايير، أو على الشاطىء الآسيوي. ولكنها تمت في اتجاه لا يتوقعه العدو، الذي كانت قواته الاحتياطية متجمعة في مكان آخر بعيد عنه. ولم تكن القوات التركية، التي تدافع عن الممر، تتجاوز في ذلك الوقت ٣٦ كتيبة من الجنود، ثم وصلت النجدات وضاعت الفرصة من يد الحلفاء. وهنا أدى نقص خبرة وحدات الإنزال، وعدم براعة قادة الهجوم، واستمرار مقاومة من كانوا ضد فكرة هذا المشروع من البداية، إلى الجلاء عن شبه الجزيرة.

ويقول القائد الألماني فالكنهاين في هذا الصدد: «لو كانت المضائق الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، مفتوحة أمام قوافل الحلفاء لنقصت فرصة ربح الحرب أمامنا، ولتخلت روسيا عن عزلتها، التي نستفيد منها لما تقدمه لنا من ضمانات تفوق ضمانات النجاح العسكري».

ولم يكن الخطأ موجوداً في تنظيم الخطة بل في تنفيذها . ولو زج البريطانيون ، منذ البداية ، بعض القوات ، التي اضطروا إلى إرسالها فيما بعد على دفعات متتالية لكان نجاحهم كثير الاحتمال .

ويمكن اعتبار (حملة الدردنيل) هجوماً مباشراً ضد تركيا ، وغير مباشر ضد معظم الجيوش التركية التي كانت تقاتل حينئذٍ في جبال القفقاس . كما يمكن اعتبارها ، على المستوى الأكبر ، هجوماً غير مباشر ضد الألمان وحلفائهم في وسط أوروبا .

ولو قارنا نتائج الصراع العقيم في فرنسا ، حيث اشتبكت قوات ضخمة في ساحات صغيرة من الأرض بشكل يمنع تحقيق اختراق حاسم ، مع فكرة الغزو في الدردنيل ، لوجدنا هذه الفكرة متلائمة في الأصل مع **مبدأ ضرورة مطابقة الهدف مع الواسطة** .

(ج) مسرح العمليات في الشرق الأوسط (فلسطين وسورية)

لا يمكن إدخال الحملات في الشرق الأوسط ضمن هذه الدراسة لأنها كانت بعيدة عن مسرح العمليات الرئيسي ، بحيث لا تؤدي إلى عمل أي تأثير استراتيجي حاسم . وإذا أخذت في الاعتبار كعمليات مشاغلة استراتيجية لوجدناها امتصت عدداً من القوات البريطانية تزيد كثيراً عما وضعه العدو لمجابهتها .

ولكن يجب أن نلتفت إلى نقطة أخرى هدفت إليها السياسة البريطانية ، وهي أن بريطانيا كانت تعدل بشكل مستمر هزائم حلفائها في الحرب في القارة الأوروبية ، بالاستيلاء على المناطق التي يحتلها العدو في ما وراء البحار . أي أنها لجأت إلى أسلوب الاستيلاء على مستعمرات ألمانيا في العالم ، وبذلك فإنه في حال انتصارها في الحرب فإنها سوف تحتفظ بها وتحرم ألمانيا منها ، وفي حال انكسارها ستكون واسطة للمساومة على نتائج أفضل في مباحثات الصلح في نهاية الحرب الدائرة في أوروبا . وهنا تبدو الفكرة الاستعمارية المتسلطة على أذهان البريطانيين . فالشعوب الأوروبية مشغولة ومنهكة في الحروب على الأرض القارية الأوروبية ، وبريطانيا تستولي تباعاً على مستعمرات هذه الدول في العالم لتوسيع امبراطوريتها .

وتستحق الاستراتيجية المستخدمة في فلسطين بعض الاهتمام الخاص، لقد كانت في البداية، بالنسبة للقوات البريطانية، مزيجاً من الهجوم المباشر وغير المباشر. واستخدمت الخط، الذي توقعه العدو، والذي كان يعتبر أطول الطرق وأصعبها للوصول إلى مركز القوة التركية الحيوي.

ففي آذار ونيسان ١٩١٧، وبعد فشلين متتاليين بريطانيين للنزول في غزة، التي كانت حصناً يحمي طريق الهجوم المباشر بين مصر وفلسطين بمحاذاة الشاطىء، جرب البريطانيون هجوماً أقل مباشرة بالقوات المتوفرة لديهم بكاملها.

فقد وضع شيتوود خطة وافق عليها (الجنرال اللنبي). وكانت هذه الخطة غير مباشرة جغرافياً، وضمن الحدود التي تسمح بها إمكانية التموين بالماء، وضيق المنطقة المحصورة بين البحر والصحراء. وكانت مواقع الأتراك الدفاعية في غزة تمتد مسافة ٣٥ كيلو متراً داخل البلاد، بينما كانت بئر السبع الواقعة على بعد ١٨ كيلو متراً، تشكل منطقة أمامية تغطي الجزء الشرقي من منطقة الهجوم المحتمل. واستطاع (اللنبي) جذب انتباه الأتراك نحو غزة بفضل مجموعة من الخدع، مع الاحتفاظ التام بسرية الخطة. ثم احتل بلدة بئر السبع بهجوم مفاجىء عنيف على الجزء غير المحصن منها، واستفاد بذلك من منابع مياهها. وكانت الخطة تهدف إلى إجراء هجوم مشاغلة على غزة، وهجوم على مجنبة المواضع التركية الرئيسية، مع التفاف الخيالة، التي تحتل بئر السبع، بسرعة حول مؤخرة الأتراك. ولكن صعوبة التموين بالماء، في منطقة صحراء النقب، وهجوم الأتراك المضاد شمالي بئر السبع أوقفا هذه المناورة. وتم اختراق الجبهة التركية دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، وهي تدمير القوى الرئيسية المدافعة، ووجدت القوات التركية نفسها مدفوعة إلى ما وراء القدس، ونجت من التطويق والإبادة، التي كان يحلم بها البريطانيون.

وتأخرت عمليات تطويق القوات التركية وإبادتها سنة كاملة حتى أيلول ١٩١٨. وفي ذلك الوقت جرت في الصحراء الشرقية والجنوبية عمليات مضادة للقوات التركية ساعدت على إضعافها، وسلطت الأضواء على استراتيجية خاصة للهجوم غير المباشر. ولم تكن هذه العمليات سوى عمليات الثورة العربية، التي يمكن النظر إليها على أنها عمليات حرب شعبية تحررية، تعتبر من حيث طبيعتها من أعمال الهجوم غير المباشر.

وقد وصف ليدل هارت هذه العمليات بأنها « كانت صورة صادقة للهجوم غير المباشر ، وتؤدي إلى نتائج فعالة وقليلة التكاليف ، ضمن حدود إمكاناتها البسيطة . فقد كان العرب أكثر حركة وأقل تحملاً للخسائر من القوات النظامية . أما الأتراك فلم يبدوا أي اهتمام لفقدان الرجال ، على عكس تأثرهم الواضح بفقدان العتاد الذي بدأ يتناقص لديهم بسرعة » .

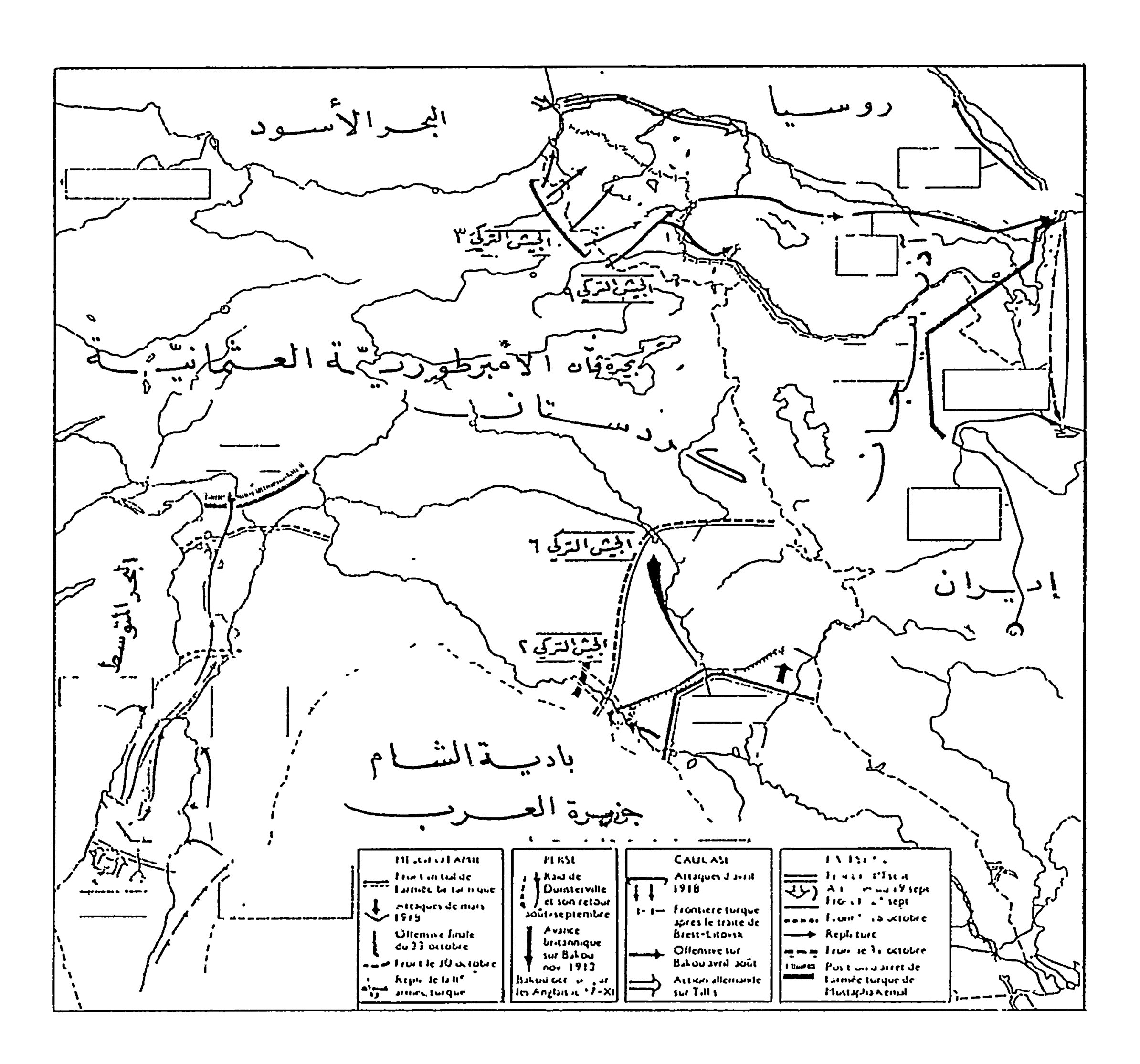
ويتضح من سرد ليدل هارت أن الأتراك لم يكونوا يبالون بالخسائر البشرية أولاً لعدم وعيهم تجاه هذه القضية ، وثانياً ، وهو الأهم ، أنهم كانوا يحاربون بجنود مرتزقة ومجندة من الدول التي كانوا يحتلونها : بلاد الشام والعراق .. الخ .

وكان الجنود الذين يقاتلون في الصف التركي يصمدون بشكل رائع إذا ما هوجموا في خنادقهم ، ويسددون نيرانهم بإحكام على الأهداف المتجهة نحوهم مباشرة ، ولكنهم كانوا يعجزون عن الاستمرار في بذل جهد طويل الأمد في العمليات العسكرية التي تحتاج إلى مرونة وحركية كبيرتين .

ويتابع ليدل هارت وصفه ليقول : « كان العرب يتحاشون القتال في الظروف التي يسعى إليها أي جيش عادي . وكانوا يبحثون عن تدمير عتاد العدو في النقاط غير المحروسة ، بدلاً من محاولة تدمير قوات العدو ، كما تفعل الجيوش التقليدية عادة » .

وقد تحدث لورانس Lowrence ، الذي كان يرافق قائد الثورة العربية المضادة للأتراك ، بقوله : « لم يحاول الجيش العربي المحافظة على النصر أو استثماره ، ولكنه كان يتحرك دائماً ليضرب من جديد في نقطة أخرى . لقد استخدم أقل القوى في أصغر زمن ، وفي أبعد مكان . ولو استخدم طريقة إطالة مدة العمليات لدرجة تدفع العدو إلى تبديل تكتيكه الخاص ، بقصد الاستمرار في المقاومة ، لخالف القاعدة الأساسية التي ترمي إلى عدم إتاحة الفرصة للعدو لتنفيذ أغراضه » .

فما هو وجه الخلاف بين هذه الاستراتيجية وتلك التي طبقت عام ١٩١٨ على الجبهة الغربية ؟ يقول ليدل هارت : إنهما في الحقيقة متشابهتان ، ولكن إحداهما أكثر تطوراً من الأخرى ، وتطبيقها في الحرب العادية مشروط بعوامل الزمن والإمكانات ، وسعة ميدان العمل . لقد كانت عبارة عن نوع سريع وفعّال من أنواع الحصار ، ولكن نتائجها


البحر الأسود
روسيا
الجيش التركي ٣
الجيش التركي ٩
بحيرة فان
الامبراطورية العثمانية
كردستان
الجيش التركي ٦
إيران
الجيش التركي ٢
البحر المتوسط
بادية الشام
جزيرة العرب
PERSE
Raid de Dunsterville et son retour août-septembre
Avance britannique sur Bakou
CAUCASE
Attaques d'avril 1918
Frontière turque après le traité de Brest-Litovsk
Offensive sur Bakou avril août
Action allemande
Offensive finale du 23 octobre
Repli turc
Position d'arrêt de l'armée turque de Mustapha Kemal

أبطأ من نتائج استراتيجية التدمير . إن استخدام استراتيجية التدمير يصبح ضرورياً إذا تطلب الموقف انتصاراً سريعاً بسبب السياسة الوطنية . وقد تكون أبطأ وأكثر كلفة وخطراً من استراتيجية العرب ، إلا إذا لجأت إلى طريق غير مباشرة للعمل . وقد يعرقل العمل كثافة الوسائط المستخدمة ، وصغر مساحة مسرح العمليات . وكقاعدة عامة ، يجب علينا في الحرب العادية اختيار هجوم غير مباشر يؤدي إلى النصر السريع الحاسم بإيقاع العدو في فخ . فإذا تعذر مثل هذا الهجوم أو فشل بعد قيامه وجب استخدام هجوم غير مباشر يهدف إلى تحقيق النصر عن طريق استنزاف قوى الخصم وسحق إرادته . وتظل جميع الحلول أفضل من الهجوم المباشر .

وفي أيلول ١٩١٨ أدت الاستراتيجية العربية إلى شل حركة الجيش التركي المنتشر على طول الخط الحديدي الحجازي ، عندما قام الجنرال (اللنبي) بضربة في فلسطين ، لعبت فيها القوات العربية دوراً هاماً ، وانهارت القوات التركية الرئيسية انهياراً تاماً .

ويتساءل ليدل هارت « هل يمكن النظر إلى العمليات ، التي أنهت الحرب في فلسطين ، باعتبارها حملة أم معركة تلتها مطاردة ؟ ويقول إن الإجابة عن ذلك صعبة ، بسبب حدوث اشتباك بين الطرفين منذ بداية الصراع . وقد تحقق النصر قبل إنهاء القتال ، بحيث أن هذه العمليات تبدو وكأنها معارك . ولكن النصر جاء ، قبل كل شيء بطرق استراتيجية ، ولم يكن للقتال فيها دور هام » .

لقد كان كلاوزفيتز Klausewitz يقول « إن الدم المراق هو ثمن النصر » ، ولكن الحقيقة هنا في معارك فلسطين قللت من قيمة هذه المقولة . فبالرغم من تفوق قوات اللنبي عددياً (٢ أو ٣ ضد ١) ، فإن احتمالات نجاحه كانت أقل من احتمالات نجاح التقدم البريطاني الأول في فلسطين الذي انتهى إلى الفشل . وليس التفوق العددي كل شيء ، فكثيراً ما فشلت هجمات في الحرب العالمية ، وفي الحروب التي سبقتها برغم هذا التفوق .

والذي يقلل من قيمة انتصار الجنرال اللنبي Allenby ، هو أنه وقع بعد أن انهارت قوة الأتراك المعنوية . ومع ذلك يعتبر انتصار أيلول ١٩١٨ من روائع التاريخ العسكري لما تميز به من بُعد نظر .

وخطة القتال في فلسطين تتلاءم جيداً مع تعريف الاستراتيجية، الذي قدمه ويليش، والقائل إنها «دراسة المواصلات»، كما يتلاءم مع قول نابليون «يكمن سر فن الحرب في السيطرة على المواصلات». لأن هذه الخطة كانت تهدف إلى تحقيق سيطرة القوات العربية والبريطانية على جميع المواصلات التركية بمختلف أشكالها. وإن قطع مواصلات جيش هو شل تنظيمه وتأمينه المادي، أما قطع خط انسحابه فيعني شل حالته المعنوية، كما أن قطع خطوط اتصاله الداخلي، التي يتم بواسطتها نقل الأوامر والتقارير فيعني شل جهازه العصبي، الذي يوصل المخ بالأعضاء العاملة في الجسم. وكان الطيران في هذه المعركة مكلفاً بتنفيذ المهمة الثالثة، إذ طرد من الجو جميع الطائرات المعادية، فأصبحت القيادة التركية عاجزة عن الرؤية، ثم تمّ قصف المراكز اللاسلكية والهاتفية في العفولة، فأفقد هذه القيادة إمكانية النطق والسمع. ويقول ليدل هارت «إن الفضل في تنفيذ المرحلة الثانية من العملية يعود إلى العرب، الذين قطعوا السكة الحديدية الرئيسية في درعا، مما أدى إلى نتيجة مادية، تمثلت في توقف سيل التموين التركي لمدة معينة، وهذا أمر كبير الأهمية، كما أدى إلى نتيجة معنوية، دفعت القيادة التركية إلى إرسال جزء من قواتها الاحتياطية إلى أمكنة الحوادث».

كانت الجيوش التركية الثلاثة مرتبطة مع دمشق بطريق حديدية واحدة. وكانت درعا نقطة التقاء الخط الحديدي الذاهب إلى الجنوب باتجاه الحجاز، والخط الآخر الذاهب إلى الغرب نحو العفولة، على الضفة الثانية لنهر الأردن حيث يتفرع إلى فرعين: يتجه أحدهما إلى الغرب نحو حيفا، ويتجه الثاني إلى الجنوب نحو المنطقة التي يحتلها الجيشان التركيان السابع والثامن. وكان الجيش التركي الرابع، في شرقي الأردن، يعتمد على الخط الحديدي الحجازي. وكان احتلال العفولة ونقطة اجتياز الخط الحديدي لنهر الأردن، قرب بيسان، يعني قطع مواصلات الجيشين التركيين السابع والثامن، وإغلاق خط انسحابهما العادي مع السهل، مع بقاء سبيل انسحاب واحد صعب نحو الأراضي الوعرة في شرقي الأردن. أما احتلال درعا فكان بمثابة السيطرة على مواصلات الجيوش التركية الثلاثة، وقطع أفضل طرق انسحاب الجيش الرابع.

كانت درعا بعيدة عن خط الجبهة بشكل يمنع البريطانيين من الوصول إليها بسرعة، للتأثير على النتيجة النهائية. ولكن العرب انطلقوا من الصحراء كأشباح

أسطورية ، وقطعوا الخطوط الحديدية الثلاثة . إلا أن طبيعة الأرض ، وموقع درعا ، ونوع التكتيك العربي ، كل هذا لم يسمح بعمل سد استراتيجي على مؤخرة الأتراك . وكان الجنرال اللنبي يبحث عن مكان أقرب لعمل هذا السد ، والتوصل إلى نصر سريع ، فوجد أن مفترق طرق العفولة والجسر الموجود على الأردن ، قرب بيسان ، ومعان في منطقة تبعد ١٠٠ كيلو متر عن الجبهة ، أي ضمن مدى قفزة استراتيجية تقوم الخيالة والعربات المدرعة ، على أن يتم الوصول إلى هاتين النقطتين الحيويتين دون ملاقاة أي حاجز . وكان من الضروري إيجاد طريق هجوم لا يستطيع العدو إغلاقه في الوقت المناسب ، والتحقق مقدماً من عدم وجود تحضيرات بهذا الصدد .

فكيف تم حل المعضلة ؟ .. يشكل السهل الساحلي ممراً إلى سهل مرج ابن عامر ووادي بيسان ، توجد فيه العفولة وبيسان . وكان هناك باب واحد لسد هذا الممر ، وكان هذا الباب بعيداً وغير محروس ، ومؤلفاً من خط صغير من الجبل الذي يفصل السهل الساحلي عن سهل بيسان في الداخل ، وكان مدخل الممر مغلقاً بخنادق الأتراك .

وهنا استخدم الجنرال اللنبي حيلاً خداعية لإيهام الأتراك بأن التحرك التالي قادم من وادي الأردن . وفي أيلول ١٩١٨ كان الأتراك يلتفتون بأنظارهم واهتمامهم نحو الشرق ، عندما تقدمت وحدات اللنبي خفية في الغرب حتى وصلت إلى الشاطىء ، وارتفع تفوقها العددي ، الذي كان يبلغ ٢ إلى ١ ، حتى بلغ ٥ إلى ١ . وفي ١٩ أيلول تقدمت المشاة ، بعد تمهيد كثيف بنيران المدفعية لمدة ربع ساعة ، واحتلت دون صعوبة الخندقين التركيين المجهزين بشكل بدائي . ثم استدارت نحو الشرق ، مغيرة اتجاهها نحو الداخل . واندفعت الخيالة من الباب المفتوح ، ودخلت الممر مع العربات المدرعة ، ودخلت عبر الممرات الجبلية حتى مرج ابن عامر ، ويعود معظم الفضل في هذا النجاح إلى نشاط الطيران ، الذي جعل القيادة التركية صماء عمياء بكماء .

وخلال يوم تم تنفيذ السد الاستراتيجي على مؤخرة الأتراك ، ولم يعد أمامهم سبيل سوى واحد للخلاص في الشرق على الطرف الثاني لنهر الأردن . وكانوا قادرين على الوصول إليه لولا تدخل الطيران . وكانت مشاة اللنبي تتقدم ببطء بسبب مقاومة مؤخرات العدو الشديدة .

وفي صباح ٢١ أيلول ١٩١٨ ، اكتشف الطيران رتلاً معادياً كبيراً ، يضم ما بقي من الجيشين التركيين المنسحبين ، متجهاً نحو الأردن ، فنفذ ضده هجوماً جوياً لمدة ٤ ساعات أدى إلى بعثرته وفراره .

أما في شرقي الأردن فكان الوضع غير ملائم لعمل مثل هذا السد . وتمت تصفية الجيش الرابع التركي بسرعة بواسطة وخزات متتالية غير منقطعة ، بدلاً من استخدام التدمير العنيف . وسقطت دمشق بيد العرب نتيجة ذلك . وتم استغلال هذا النصر بالسير نحو حلب ، التي تبعد حوالي ٥٠٠ كيلو متراً عن قواعد الانطلاق ، التي غادرها البريطانيون قبل ٣٨ يوماً . وتم خلال هذا التقدم أسر ٧٥٫٠٠٠ جندي تركي ، وخسر البريطانيون حوالي خمسة آلاف رجل .

وعندما وصلت القوات المشتركة العربية والبريطانية إلى حلب كانت تركيا مهددة باحتمال انهيار بلغاريا ، وتقدم الجنرال ميلين ، المنطلق من سالونيك في اتجاه استانبول وأعماق البلاد ، فاضطرت إلى الاستسلام في ١٣ تشرين الأول ١٩١٨ .

نلاحظ ، عند تحليل النصر الحاسم في فلسطين وسورية ، أن الأتراك كانوا قادرين على إيقاف المشاة حتى لحظة انتشار نبأ السد الاستراتيجي ، الذي انتشر في مؤخراتهم ، إذ أدى هذا النبأ إلى نتيجة معنوية حاسمة . لقد كانت المشاة ضرورية لاقتحام الخنادق في هذه المعركة ، وما إن تم تحقيق ذلك حتى تم تحقيق النصر بعناصر متحركة لم تكن تشكل سوى جزء من القوى الرئيسية .

وتمتاز هذه الحالة من الهجوم غير المباشر بأن تحضيرها كان جيداً ، وكان تنفيذها يعتمد على سرعة حركة المهاجم ، التي تفكك قوى العدو وتفقده معنوياته . وكانت هذه السرعة في الحركة مفاجأة قوية للعدو ، لدرجة أثرت فيه تأثيراً شديداً .

٥ ــ الاستراتيجية عام ١٩١٨

إن دراسة الأحداث العسكرية ، في السنة الأخيرة لهذه الحرب ، تتطلب معرفة وضع القوى البحرية قبل عام ١٩١٨ ، بسبب تأثيرها العميق على تلك الأحداث . إن هذه البحرية لم تقم بمعركة حاسمة ، كمعركة الطرف الآخر ، ولكنها اشتركت أكثر من أي

عامل آخر في تحقيق النصر للحلفاء. لقد كانت البحرية أداة الحصار. ولما درس الحصار، بعد انتهاء الحرب، ظهرت آثاره الهامة والخطيرة، لدرجة اعتبره بعضهم أول عامل أدى إلى حسم نتيجة الحرب.

إن العجز يؤدي غالباً إلى فقدان الأمل. ويؤكد التاريخ أن للأمل أثراً كبيراً في صمود الرجال. ولا يمكن لأي مؤرخ تجاهل قيمة التأثير المباشر الذي أصاب الشعب الألماني، بسبب حالة (نصف الجوع)، التي عانى منها، وكيف أدى ذلك إلى انهيار (الجبهة الداخلية). فإذا ما تركنا جانباً موضوع تأثير الثورة على الفشل العسكري، وبالعكس، لوجدنا أن عامل الحصار يدخل جدياً في كل التقديرات العسكرية.

وكان الخطر الكامن في الحصار سبباً من الأسباب التي دفعت الألمان إلى أول هجوم بالغواصات في شباط ١٩١٥، الأمر الذي دفع بريطانيا إلى إلغاء اتفاقية لندن، وتعزيز الحصار بإيقاف وتفتيش جميع السفن التي تعتقد بأنها تقوم بإمداد ألمانيا. وأتاح حادث إغراق الباخرة لوزيتانيا[٢] بطوربيد غواصة ألمانية، للولايات المتحدة سبباً وجيهاً لدخول الحرب ضد ألمانيا، وقضى على الخلافات في وجهات النظر الانكليزية الأميركية حول موضوع الحصار.

وبعد مضي عامين، دفعت الأزمة الاقتصادية، الناجمة عن الحصار، القادة العسكريين الألمان إلى **مضاعفة حرب الغواصات**. وكانت بريطانيا تعتمد على البحر في تموين شعبها وجيشها. وهذه، في الحقيقة، نقطة ضعفها. وكان هجوم الغواصات الألمانية على مواصلاتها البحرية بمثابة هجوم غير مباشر على مستوى الاستراتيجية العليا، وله نتائج محتملة حاسمة. وبرغم بعض خطأ الألمان فإن بريطانيا وجدت نفسها في وضع حرج فعلاً. وارتفعت الخسائر البحرية من ٥٠٠ ألف طن في شهر شباط إلى ٨٧٥ ألف طن في شهر نيسان. وهنا بادر البريطانيون إلى اتخاذ تدابير مضادة لحرب الغواصات. وكان عدد الغواصات الألمانية غير كافٍ، فقل عدد سفن الحلفاء التي تغرقها هذه الغواصات، ولم يكن لدى بريطانيا آنذاك من المؤن ما يكفيها إلا لمدة ستة أسابيع فقط.

---

(٢) بآخرة ركاب انكليزية ضربتها غواصة ألمانية بالطوربيد، قرب شواطىء إيرلندة في ٧ أيار ١٩١٥، مما أدى إلى غرق ١٣٨٠ شخصاً، منهم ١٢٤ أميركياً. وكان هذا الحادث سبباً في دخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا.

وقد أدى دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب ضد ألمانيا إلى زيادة ضغط الحصار البحري ضد ألمانيا. وانقلب الحصار إلى خنق دائم تراخت ألمانيا بسببه باستمرار، لأن القوة العسكرية تقوم على صحة الوضع الاقتصادي.

ويمكن اعتبار هذا الحصار استراتيجية عليا لا يمكن مقاومتها. وكان خطره ناجماً عن بطء تأثيره، وتزايد هذا التأثير بتزايد مدته. وفي نهاية عام ١٩١٧ شعر الألمان وحلفاؤهم به بشكل خطير، فاضطروا للقيام بمحاولة لتخليص أنفسهم من انهيار اقتصادي محقق. وكانت هذه المحاولة عبارة عن هجوم عسكري قوي قاموا به عام ١٩١٨، وما إن فشل هذا الهجوم حتى بدت الكارثة بشكل مفجع.

ويرى ليدل هارت «أنه لو طبقت ألمانيا، بعد معركة المارن عام ١٩١٤، أو بعد ذلك بقليل خطة دفاعية في الجبهة الغربية، وهجومية في الجبهة الشرقية، لأمكن تغيير نتيجة الحرب. لأنه كان في استطاعتها حينئذ تحقيق حلمها في السيطرة على أوروبا الوسطى، دون التأثر بالحصار الفعال مادامت الولايات المتحدة خارج الحرب. والسيطرة على أوروبا الوسطى تعني إخراج روسيا من الحرب. وعندئذ فإن فرنسا وانكلترا وإيطاليا لم تكن لتستطيع أكثر من دفع ألمانيا للجلاء عن بلجيكا وشمالي فرنسا، كبديل عن مكاسب ألمانيا في الشرق. ولأصبحت ألمانيا، بعد هذه المكاسب، كبيرة وقوية وقادرة على الاكتفاء الذاتي والتخلي عن النصر في الغرب. وفي الحقيقة يمكن اعتبار التخلي عن الجهد غير المجدي عملاً يميز الاستراتيجية العليا عن الحماقة الكبرى».

ولم تعد الفرصة ملائمة لذلك في العام ١٩١٨، لأن قوة ألمانيا الاقتصادية غدت ضعيفة. وكان ازدياد ضغط الحصار يؤدي إلى خفض قوة مقاومتها بسرعة تفوق سرعة استفادتها من المصادر الاقتصادية التي استولت عليها في رومانيا وأوكرانيا.

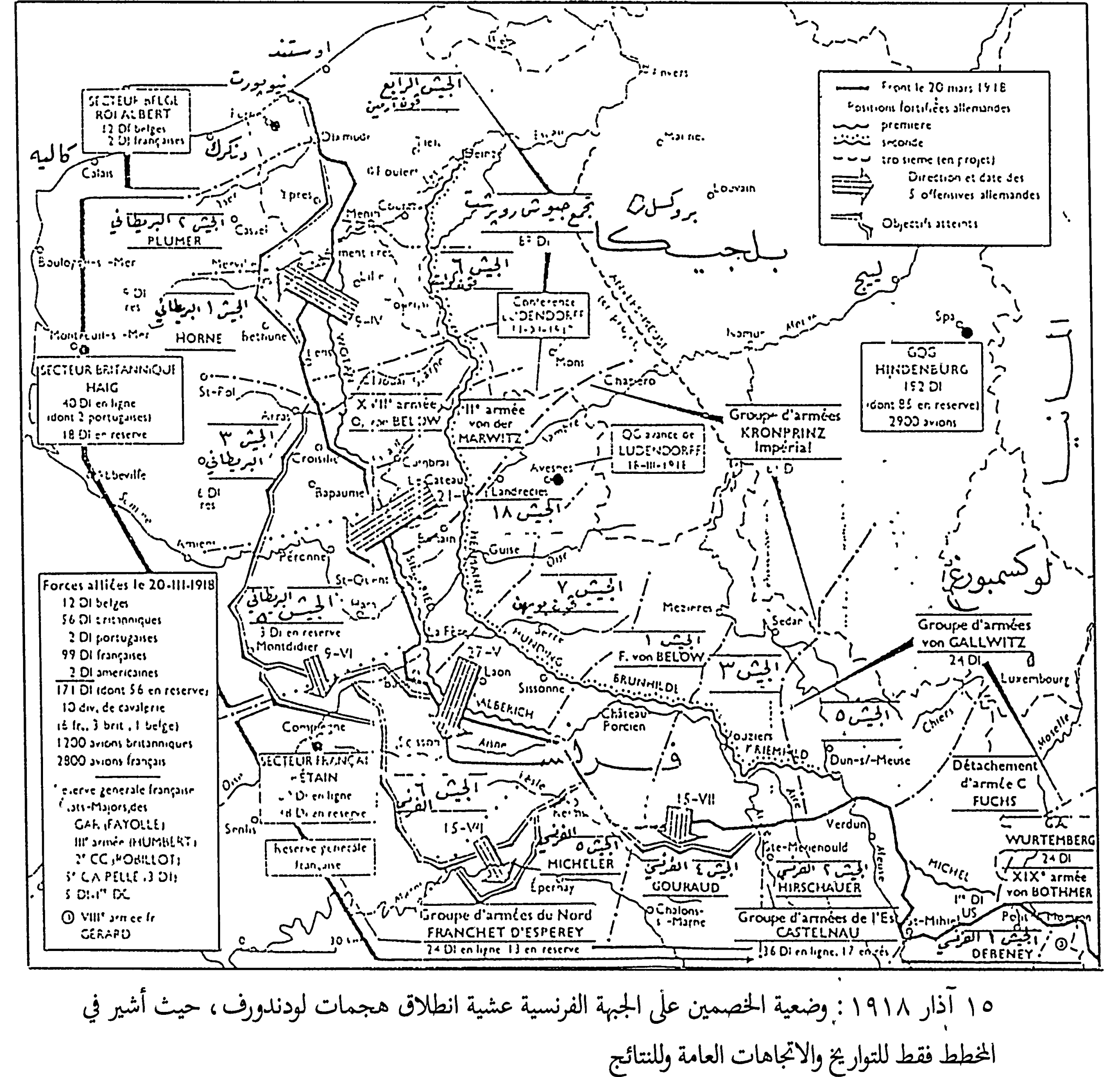
وفي هذه الظروف انطلق الهجوم الألماني النهائي للحصول على نصر عسكري ينقذ الوطن. وكانت الوحدات الألمانية العائدة من الجبهة الروسية قد أعطت ألمانيا تفوقاً عددياً، لكنه كان أقل من التفوق العددي للحلفاء بالنسبة لألمانيا. ففي آذار ١٩١٧ كان يوجد لدى الحلفاء ١٧٨ فرقة مقابل وجود ١٢٩ فرقة لدى ألمانيا، وكانت قوات

الحلفاء في آذار ١٩١٨ تبلغ ١٧٣ فرقة، بما في ذلك ٤ فرق أميركية ونصف، تعادل كل واحدة منها فرقتين من الناحية (العددية) مقابل ١٩٢ فرقة لدى الألمان.

وكان الألمان قادرين على جلب قوات أخرى من الشرق لزيادة التفوق، ولكن دخول الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء في الحرب قلب بسرعة توازن القوى، بسبب تدفق قواتها تحت ضغط الموقف الحرج. وكان يوجد لدى الألمان ٨٥ فرقة من فرق (الانقضاض)، موضوعة في الاحتياط، كما كان يوجد لدى الحلفاء في الاحتياط ٦٢ فرقة، ولكنها لم تكن موضوعة تحت قيادة واحدة. وفشلت فكرة تشكيل الاحتياط العام من ٣٠ فرقة ووضعه تحت قيادة المجلس التنفيذي العسكري في فرساي، عندما صرح الجنرال هيغ بعجزه عن تقديم الفرق السبع المطلوبة منه. وفشل اتفاق التعاون المتبادل بين الفرنسيين والانكليز، عندما وضع موضع التنفيذ العملي. ولكن الكارثة عجلت باتخاذ إجراء كان من الواجب اتخاذه قبل ذلك، فقد كلف المارشال فوش بتأمين التعاون بين الجيوش الحليفة، ثم كلف بعد ذلك بقيادتها.

كانت خطة الألمان تهدف إلى تنفيذ مفاجأة تكتيكية أفضل وأوسع من جميع الخطط التي تم وضعها خلال العمليات الأولى في هذه الحرب. وأدركت القيادة الألمانية أن الهجوم على الخط المنتظر المتوقع يؤدي إلى مساوىء عديدة، لا يستطيع التفوق العددي تعديلها. كما أن تحقيق المفاجأة الفعالة يحتاج إلى مجموعة قوية من عوامل الخداع. هذا فضلاً عن أن اختراق الجبهة المتماسكة جداً يتطلب جميع هذه العوامل مجتمعة.

كان التخطيط الأساسي في الهجوم الألماني يشمل قصفاً قصيراً وكثيفاً بنيران المدفعية، مع استخدام القنابل الغازية. ولم يدرك لودندورف حتى ذلك الحين، أهمية الدبابات لكي يزيد استخدامها. وكان التكتيك الجديد المتبع عند المشاة مبنياً على التسرب، بحيث تبحث الوحدات الأمامية عن نقاط الضعف في دفاع العدو وتتوغل فيها، ثم تأتي الوحدات الاحتياطية لاستغلال النجاح. وقد صمم الهجوم على أن تحتل فرق الهجوم مكانها ليلاً، وتربض المدفعية في أماكن مستورة قرب الجبهة، وتفتح النار المؤثرة دون إحكام رمي مسبق. كما أن القيام بهجمات متتالية على نقاط أخرى يساعد في خداع المدافعين ومشاغلتهم، ويسمح بتوسيع نطاق الهجوم.

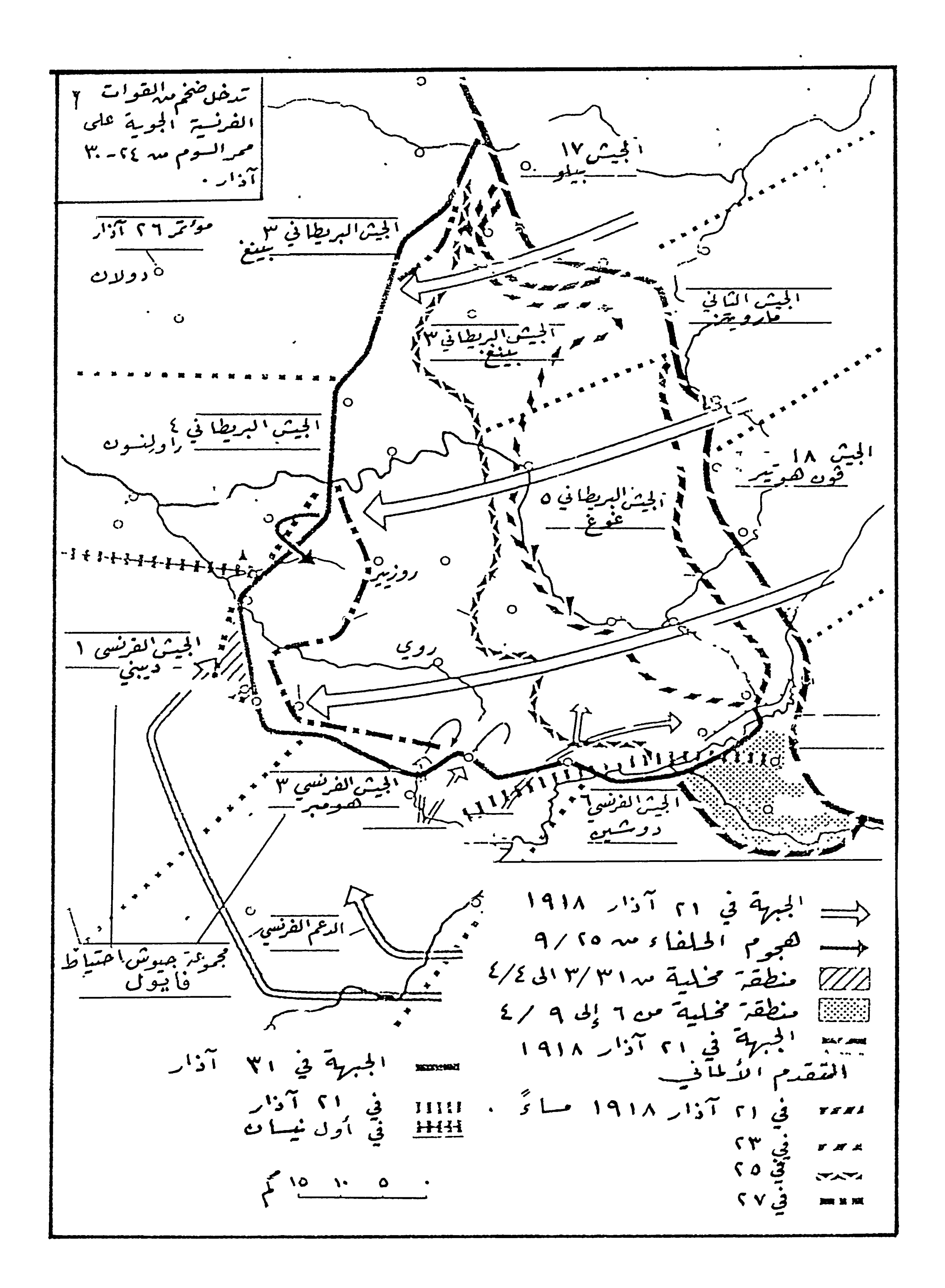


١٥ آذار ١٩١٨ : وضعية الخصمين على الجبهة الفرنسية عشية انطلاق هجمات لودندورف ، حيث أشير في المخطط فقط للتواريخ والاتجاهات العامة وللنتائج

واستنتج لودندورف من الهجمات السابقة الفاشلة للحلفاء **ضرورة التفكير في التكتيك قبل الأهداف الاستراتيجية البحتة**، لأنها قد لا تعطي محاولة تنفيذها أية فائدة إذا كان النجاح التكتيكي متعذراً قبلها. وكان هذا التفكير صحيحاً لعدم وجود إمكانات تسمح بالهجوم الاستراتيجي غير المباشر. وقد رافق التكتيك الألماني الجديد في الخطة استراتيجية جديدة، لأن هذين العاملين يؤثران على بعضهما تأثيراً متبادلاً، ويستندان على مبدأ القيام بالجهد على خط المقاومة الأضعف. ولكن ظروف عام ١٩١٨ في فرنسا كانت تعيق حرية استخدام خط المقاومة الأضعف، ولم يحاول لودندورف القيام بهذا العمل أصلاً. كما أن تنفيذ ضربة مفاجئة ضد عدو منتشر على خط قتال يحاذي خط الخنادق، واستغلال هذا الاختراق بسرعة يؤديان حتماً إلى هدف لا يمكن الوصول إليه عادة إلّا باستخدام أقل الخطوط توقعاً للهجوم عليها. وقد أدت الضربة إلى خرق خطوط الحلفاء، وتم استغلال هذا الخرق دون تأخير، ومع هذا فشلت الخطة. فأين كان الخطأ ؟

تقول الانتقادات، التي ظهرت بعد الحرب، إن ميول لودندورف نحو التكتيك دفعته إلى تبديل الاتجاه، وبعثرة القوى، وتوجيه الجهود لتأمين النجاح التكتيكي، على حساب الهدف الاستراتيجي. ولكن دراسة الوثائق الألمانية، التي تعود إلى ذلك العهد، وأوامر لودندورف وتعليماته تلقي ضوءاً مختلفاً على الموضوع، وتظهر أن الخطأ الحقيقي يكمن في عدم تطبيق لودندورف للمبدأ الذي تبناه نظرياً، وعدم إدراكه للمعنى العميق لهذه النظرية الاستراتيجية الجديدة. لقد أبدى لودندورف تبذيراً شديداً في استخدام قواته الاحتياطية لإصلاح الفشل التكتيكي، وكان يتردد كثيراً في اتخاذ القرار اللازم لاستغلال نجاحه التكتيكي.

وقد كان اختيار قطاع الهجوم أول خطأ وقعت فيه القيادة الألمانية. فقد حددت جبهة عرضها ١٠٠ كيلو متر بين آراس ولافير، لتدفع فيها الجيوش ١٧ و ١٨ و ٢. ودرست فكرتين مختلفتين: تقول أولاهما بضرورة الهجوم على منطقة فيردان البارزة داخل الجبهة، ثم أهملت هذه الفكرة، نظراً لصعوبة الأرض ووعورتها، ولأن خرق هذه الجبهة لا يحقق نتيجة حاسمة، هذا فضلاً عن أن الجيش الفرنسي كان قد استعاد قواه وتنظيمه خلال سنة خلت من المضايقات.



الخرق الألماني في بيكاردي (٢١ آذار ـــ ١٥ نيسان ١٩١٨)

وتنادي الفكرة الثانية بضرورة الهجوم بين ايبر Ypres ولانس Lens . وأيّد فيتسيل المستشار الاستراتيجي لدى لودندورف هذه الفكرة، كما وافق عليها الأمير روبريخت Ruprecht قائد الجبهة بين سان كانتان والبحر . ولكنها أهملت، برغم ذلك، لأن مثل هذه الخطة تعني الاصطدام بالقوات الرئيسية للجيش البريطاني، فضلاً عن أن الأراضي الواطئة كانت مليئة بالمياه، ولا ينتظر أن تجف قبل مضي وقت طويل .

وأخيراً وقع الاختيار على القطاع الواقع بين آراس ولافير، لأن الأرض هناك صالحة، ولضعف هذا القطاع من حيث التحصينات المعادية، وقلة وجود المدافعين والقوات الاحتياطية فيه، فضلاً عن أنه كان نقطة الاتصال بين الجيوش الفرنسية والبريطانية . وكان لودندورف يبغي تحطيم هذا الاتصال وسحق البريطانيين، الذين ضعفت قواتهم بعد أن طال صراعهم في ايبر .

لقد كان هذا القطاع ضعيفاً نسبياً في الواقع، ولكن حكم الألمان كان سطحياً وتعوزه الدقة، إذ كان ثلث الخط الشمالي صلباً ومتماسكاً، ويرابط فيه الجيش البريطاني الثالث، المؤلف من ١٤ فرقة، منها ٤ فرق في الاحتياط . كما كانت معظم القوات الاحتياطية البريطانية تعزز هذه المجنبة، التي كان من السهل دعمها بسرعة بواسطة الجيوش البريطانية الأخرى الموجودة في الشمال، (وهذا ما حدث في أثناء القتال) . وكان ثلثا القطاع الآخران يرابط فيهما الجيش البريطاني الخامس، المؤلف من خمس فرق تقف في مواجهة الجيش الألماني الثاني . أما الطرف الجنوبي المقابل للجيش الألماني ١٨ فكانت ترابط فيه سبع فرق بريطانية منها فرقة في الاحتياط .

ولكن لودندورف أعطى للجيش ١٧، المتمركز قرب آراس ١٩ فرقة للهجوم الرئيسي، الذي كلف به جناحه الأيسر فقط، على جبهة عرضها ٢٢ كيلو متراً . وتقرر عدم مهاجمة القطاع البريطاني، الذي كان يبلغ طوله ٨ كيلو مترات في اتجاه كامبري، بل الضغط عليه بشدة فقط . وكان في مواجهة هذا القطاع فرقتان ألمانيتان من الجيش الثاني الذي كان مؤلفاً من ١٨ فرقة، ومعداً لمهاجمة الجناح الأيسر للجيش البريطاني الخامس (خمس فرق) على جبهة عرضها ٢٢ كيلو متراً . وفي أقصى الجنوب جاء الجيش ١٨ من طرفي سان كانتان، ولم يعطه لودندورف سوى ٢٤ فرقة يهاجم بها على جبهة

عرضها ٤٢ كيلو متراً. وخالف لودندورف أفكاره ووزع قواته حسب قوات خصمه، بدلاً من أن يعيد تجميعها وتكثيفها على أضعف النقاط.

وقد أكدت تعليماته هذا الاتجاه، الذي اتخذه، وكان محور الجهد الرئيسي للقوات الألمانية يتركز شمالي السوم. وبعد اختراق الجبهة المعادية طارد الجيشان الألمانيان ١٧ و ٢ القوات البريطانية باتجاه الساحل. وكان الجيش ١٨ والنهر يغطيان مجنبتهما. ثم أجرى تعديلاً للخطة في أثناء تنفيذها تعديلاً جذرياً، لأنه نجح في الأمكنة التي لم تكن تهم لودندورف، برغم كونها تقع على خط المقاومة الأضعف، ولم ينجح في الاتجاه الذي كان يرغبه أشد الرغبة.

انطلق الهجوم الألماني في ٢١ آذار ١٩١٨، وساعد ضباب الصباح على تحقيق المفاجأة، وانطلقت عملية خرق جبهة الحلفاء جنوبي السوم بنجاح، لنقص الوحدات المدافعة. وفشل الهجوم قرب آراس. وقد أثر هذا الفشل على الهجوم شمالي النهر، كما كان متوقعاً، وخالف لودندورف مبدأه مرة ثانية، وأمضى الأيام التالية وهو يحاول تجديد الهجوم على موقع آراس المنيع، واعتبر هذا الاتجاه محور جهده الرئيسي. وفي هذا الوقت كان الجيش الألماني ١٨ يتقدم نحو الجنوب دون أن تصادفه أية مقاومة جدية. وفي ٢٦ آذار أرسل له أمراً بعدم اجتياز نهر آفر، والتقدم بخطا تلائم مسيرة القوات المجاورة، المؤلفة من الجيش الثاني الذي كان مضطراً بدوره إلى إعطاء حركته، بسبب النجاح البسيط الذي صادف الجيش ١٧ قرب آراس.

وهكذا نجد أن لودندورف كان يريد ضرب الجيش البريطاني بأي ثمن، وذلك بتدمير أفضل مواقعه الدفاعية بواسطة هجوم مباشر بدلاً من أن يندفع على الخط الأقل مقاومة جنوبي السوم.

في هذا اليوم نفسه (٢٦ آذار ١٩١٨) ضعف الهجوم شمالي السوم. وكان ثمن المكاسب غالياً. وفي جنوب النهر وصل الجناح الأيسر للجيش الثاني إلى هدفه، ولكن تقدمه صادف صعوبات، لأنه كان يزحف في أراضي السوم، التي سادها الدمار والخراب، أما الجيش ١٨ فكان يندفع إلى الأمام دون عراقيل.

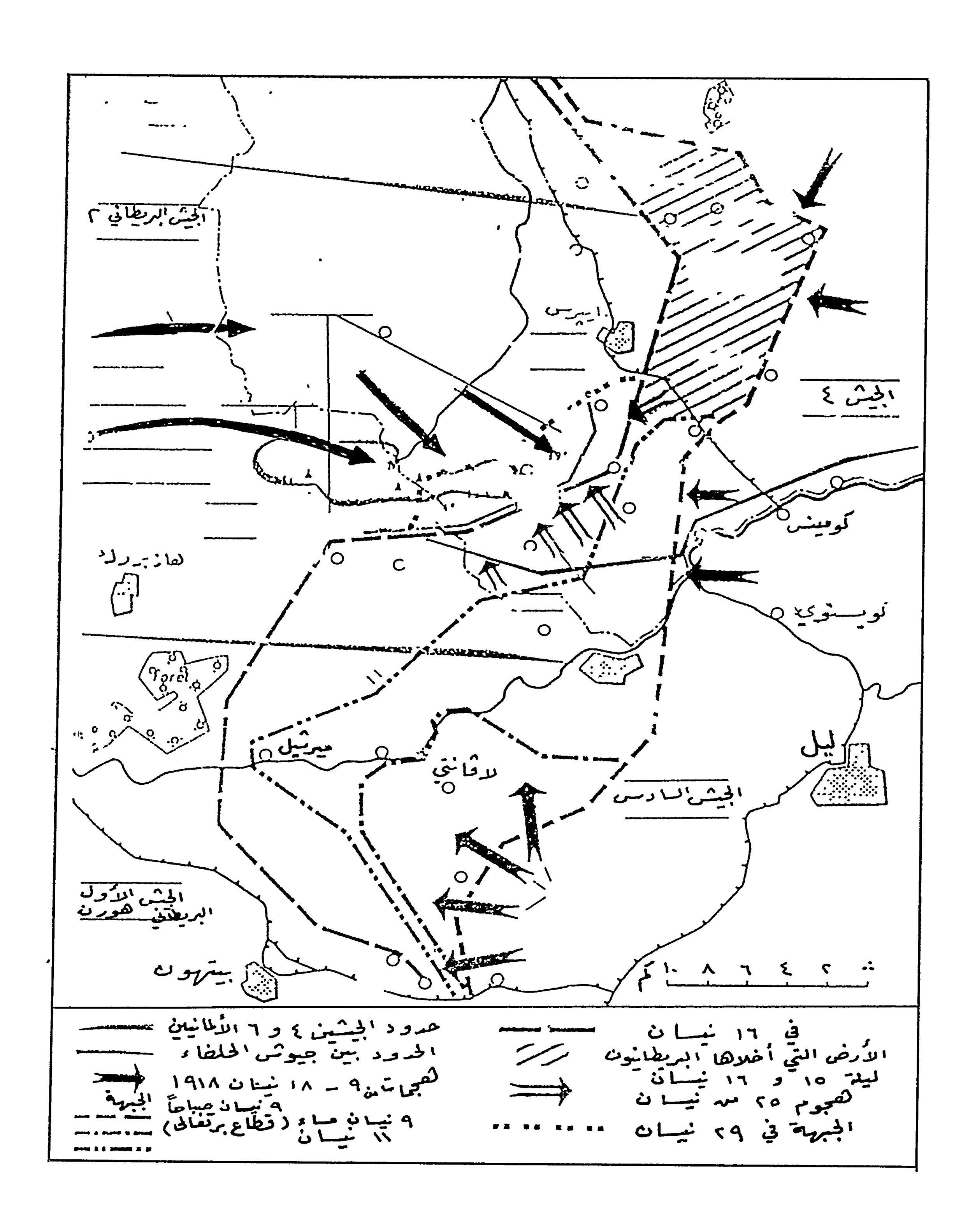
إزاء هذا الموقف، اتخذ لودندورف خطة جديدة، دون أن يهمل الخطة القديمة

نهائياً. وأعطى الأمر في ٢٨ آذار للجناح الأيمن للجيش ١٧ للقيام بهجوم آخر مباشر باتجاه المرتفعات قرب آراس. واندفع هجوم الجيش السادس في الشمال بين فيمي Vimy ولاباسيه La Basseé، وبدا الوضع جنوبي السوم ملائماً، فكلف الجيش الثاني بمهمة رئيسية للوصول إلى أميان. وأصدر تعليماته للجيش ١٨ بعدم الاندفاع إلى الأمام، والاستدارة حول مجنبة المقاومة في أميان، إلا إذا تلقى أمراً جديداً. وعدت مدينة أميان هدفاً رئيسياً للمرة الثانية، وكان احتلالها يقتضي القيام بهجوم مباشر على أرض غير ملائمة.

وفي ٢٨ آذار ١٩١٨ انطلق هجوم آراس دون الاعتماد على المفاجأة أو على ستارة الضباب، وفشل أمام مقاومة الجيش الثالث البريطاني. وعندئذٍ تخلى لودندورف عن فكرته الأساسية، ووجه نحو أميان معظم ثقله، ودعمه ببعض القوات الاحتياطية الموجودة لديه. ولكنه أصدر الأمر للجيش ١٨ بالتوقف في مكانه لمدة يومين. وعندما تجدد الهجوم في ٣٠ آذار كانت الوحدات المهاجمة غير كافية من الناحية العددية، فلم تحقق سوى نجاح قليل أمام مقاومة توفر لها الوقت الكافي لكي تستعد وتقوّي تحصيناتها بالأسمنت الفرنسي الاحتياطي، الذي استخدم في تلك المنطقة بكميات ضخمة، لتقوية التحصينات. ووصلت المدفعية الألمانية في ذلك اليوم لأول مرة بعد المشاة، وتدخلت في المعركة بعنف. وفي ٤ نيسان قامت ١٥ فرقة ألمانية (منها ٤ فرق جديدة) بهجوم آخر لم يؤدِ إلى نجاح يفوق نجاح سابقه.

وترك لودندورف جيوشه في اميان في قتال ينهك قوى جيوشه بدلاً من الاندفاع. ولم يحاول مطلقاً الاستفادة من قدرته الهجومية لتوسيع الثغرة بين الجيشين الفرنسي والبريطاني. وقد أبلغ القائد الفرنسي بيتان Pétain القائد الانكليزي هيغ، بأنه إذا استمر التقدم الألماني على هذا الخط فإنه ينبغي إعادة القوات الاحتياطية الفرنسية نحو الجنوب لتغطية باريس. وكان أقل جهد إضافي في ذلك الوقت كافياً لتحويل هذه الثغرة الصغيرة إلى فجوة هائلة.

فهنا، ومنذ الحرب العالمية الأولى، يقدم لنا هذا الوضع شاهداً جديداً على أن نقطة الاتصال بين جيشين هي أفضل موقع يمكن توجيه الهجوم ضده بنجاح. ويكون



الخرق على نهر الليس ومعركة كيمل نيسان ١٩١٨

هذا الهجوم أشد خطورة إذا كان هذان الجيشان ملتصقين كل منهما بالآخر ، أكثر مما لو كانا متباعدين .

بعد ذلك قرر لودندورف القيام بهجوم جديد في الشمال بمعظم قواته الاحتياطية التي تواجه آراس ، برغم عدم تأكده من نجاح هذا الهجوم . وفي ٢٥ آذار ١٩١٨ أمر بتنفيذ عملية صغيرة بين لاباسيه LaBasseé و آرمانتيير Armantèrs ، لتوسيع نطاق الخرق . وكان قد وضع هذه الخطة بعد فشل الهجوم على آراس في ١٨ آذار ، وكان من المفروض أن يأتي بعد الهجوم جنوب آرمانتيير هجوم جديد من شمالها ، بعد ٢٤ ساعة ، ليضغط عليها بشكل أقرب . ولقد جاء قرار هذا الهجوم متأخراً ، ولم يكن جاهزاً إلّا في ٩ نيسان ، واعتبر حتى ذلك التاريخ عملية مشاغلة . واستفاد الهجوم من ضباب الصباح ، وحصل على نجاح غير متوقع في بداية الأمر ضد قطاع ضعيف ، مما دفع لودندورف إلى تحويله إلى عملية واسعة النطاق .

وفي ٩ نيسان هاجمت ٩ فرق ألمانية ، تساندها ٥ فرق احتياطية ، جبهة عرضها ١٨ كيلو متراً جنوبي آرمانتيير ، حيث كانت تدافع فرقة برتغالية وفرقتان بريطانيتان : وفي اليوم التالي (١٠ نيسان) هاجمت ٤ فرق ألمانية أخرى ، تحت ستار الضباب ، شمالي آرمانتيير ، على جبهة عرضها ٧ كيلو مترات . وعندما أخذت المقاومة شكلاً قوياً زج الألمان بفرق أخرى على شكل وحدات صغيرة . وفي نهاية الأسبوع الأول من أيار بلغ تعداد القوات التي وصلت إلى خطوط النار ٤٠ فرقة . ووصل لودندورف في النهاية إلى حرب استنزاف .

ووجد البريطانيون أنفسهم مدفوعين بلا أمل نحو قواعدهم البحرية ، ولكن بعد أن تمكنت مقاومتهم من إيقاف اندفاع الألمان ، الذين تقدموا ١٨ كيلو متراً باتجاه ملتقى السكك الحديدية الهام في مدينة هازبروك Hazebrouck . وفي ١٧ نيسان قرر لودندورف القيام بهجوم على شكل كماشة من كلا طرفي بلدة ايبر Ypres . ولكن العدو لاحظ هذه الحركة واستطاع إحباطها تقريباً بفضل حركة هيغ غير المباشرة ، التي تضمنت تغييراً لخطة العمليات بـ٤٨ ساعة . وعاد لودندورف بعد فشل هذه الخطة إلى القيام بهجوم مباشر بحت جنوبي ايبر ، حيث وصلت قوات احتياطية فرنسية جديدة لتحتل قطاعاً من الجبهة . ووقع الهجوم في ٢٥ نيسان على نقطة اتصال الحلفاء فمزقها في مونت كيميل

Mont Kemmel ولم يستثمر لودندورف هذا الاختراق خوفاً من وقوع هجوم مضاد. وكان يبدو منذ بعض الوقت أنه يقتصد في استخدام قواته الاحتياطية، ولكن هذا الاقتصاد كان غير كاف، فضلاً عن أنه جاء متأخراً، فلم يحقق له نجاحاً حقيقياً. ولما فشل هجومه الأول أصبح أمله في نجاح الهجوم الثاني ضعيفاً. وبعد محاولة أخيرة أوقف الهجوم في ٢٩ نيسان، وكانت فكرته عدم إيقاف العمليات قبل التوصل إلى جذب القوات الاحتياطية الفرنسية إلى الجبهة، بشكل يسمح له بضرب القوات البريطانية في الفلاندر ضربة قاضية.

وكان لودندورف قد بدأ، قبل ذلك، في إعداد هجوم في قطاع شومان دي دام Chemin des Dames بين مدينتي سواسون Soissons و رانس Reins، على أن يتم التنفيذ في ١٧ نيسان ١٩١٨، ولكن الاستعدادات استمرت حتى ٢٧ أيار. ويرجع هذا التأخير إلى تمديد مدة الهجوم الألماني في الفلاندر، وما ترتب على ذلك من إنهاك قوات لودندورف الاحتياطية. واستطاعت إدارة المخابرات في القيادة العامة الأميركية معرفة مكان الهجوم وتاريخه تقريباً، ولم يؤخذ تحذيرها بعين الاعتبار إلا عندما أكّدهُ أسير ألماني في ٢٦ أيار، أي بعد فوات الأوان. وكانت فرصة تعزيز الوحدات قد ضاعت، فلم يعد أمام قيادة الحلفاء سوى إنذار الوحدات، كما تمكنت من تحريك القوات الاحتياطية. وفي صبيحة اليوم التالي قامت ١٥ فرقة ألمانية، تدعمها موجة أخرى مؤلفة من ٧ فرق، بهجوم ساحق على جبهة عرضها ٤٠ كيلو متراً، تدافع عنها ٥ فرق فرنسية وبريطانية و٤ فرق احتياطية. وساعد الضباب والدخان هذا الهجوم فحطم المدافعين عن شومان دي دام Chemin des Dames، وعبر نهر آين بسرعة ووصل في ٣٠ أيار إلى نهر المارن. وحصل لودندورف هنا أيضاً على نصر جزئي، لم يكن مستعداً له، كما لم يكن راغباً فيه. لقد أراد هذا القائد الاستراتيجي أن يفاجِىء ففوجىء. فقد جذبت هذه البداية الناجحة جزءاً كبيراً من قواته الاحتياطية إلى ذلك المكان، ففقدت بذلك كل تأثير فعّال، لأنها عجزت عن مجاراة القوات الاحتياطية للحلفاء في هذا السباق.

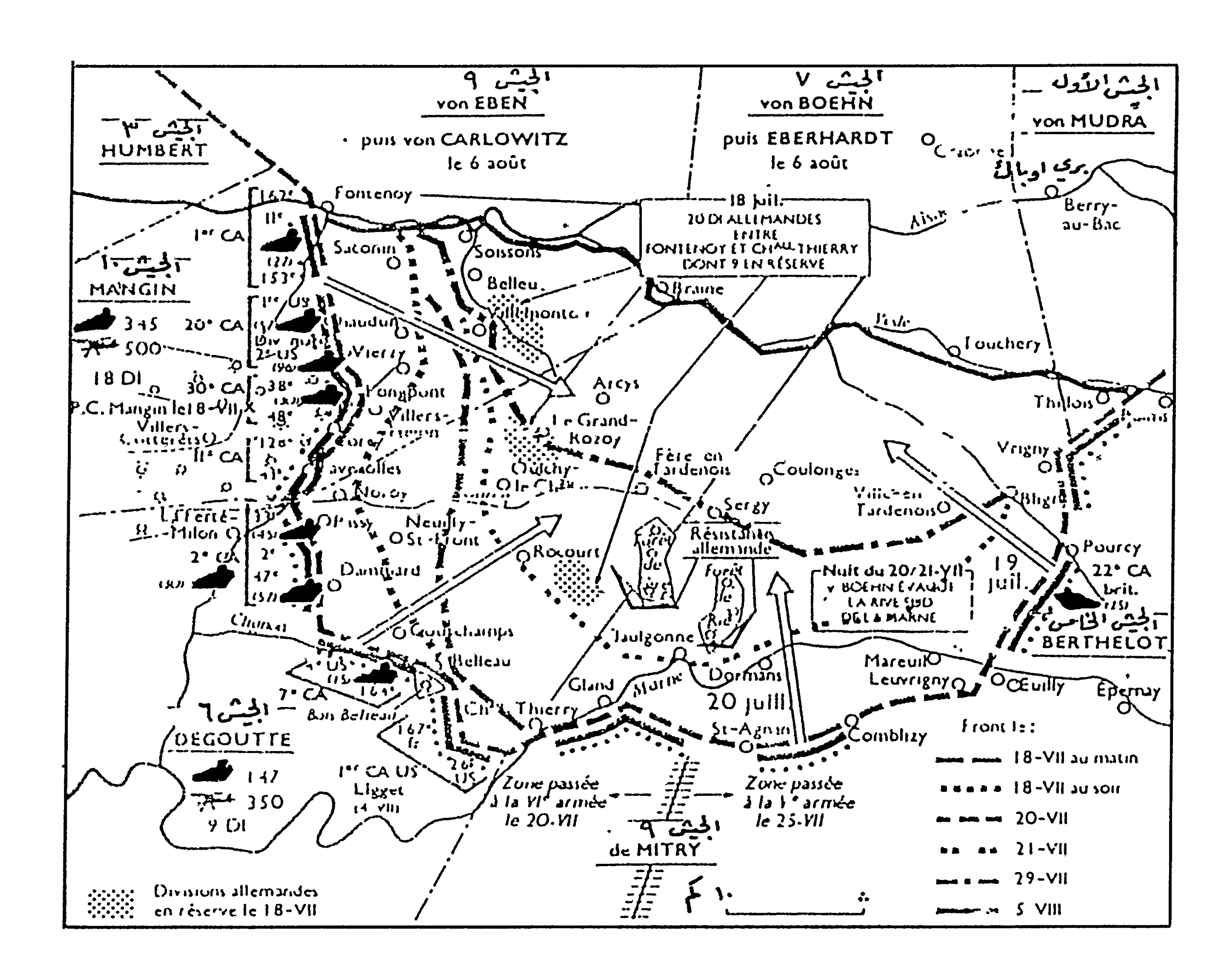
ويستحق هذا النجاح الأولي، الذي حققه الألمان، مع ذلك الملاحظة. إذ يبدو أنه يرجع إلى أن انتباه العدو كان متجهاً نحو مكان آخر، وإلى أن الهجوم اختار خط المقاومة الأضعف، فضلاً عن افتقار القيادة الفرنسية إلى الإدراك السليم. فقد أصرت على

تكتيك المشاة على المواضع الأمامية ، كأنما كانت تريد أن تجعلهم لقمة سائغة أمام مدفعية الألمان . وكانت مدفعية الحلفاء والقوات الاحتياطية المحلية ، ومقرات قيادة الدفاع قريبة من الجبهة ، فلما اندفع الألمان أدى اندفاعهم إلى انهيار الحلفاء انهياراً تاماً . وحصل الهجوم بذلك على المفاجأة التكتيكية ، التي فقد بعضها عند انطلاقه . ولما كان هدف كل مفاجأة هو تحطيم توازن الخصم ، فإن النتيجة واحدة ، سواء سقط هذا الخصم في الفخ المنصوب له وهو مغمض العينين ، أو سمح للآخرين بأن يخدعوه ، وهو مفتوح العينين .

في هذا الوقت كان لودندورف قد فتح في جبهة الحلفاء جيبين كبيرين وجيباً صغيراً . وحاول بعد ذلك تدمير نقطة الاتصال في منطقة كومبيين Compiègne ، الواقعة بين مدينة أميان ونهر المارن ، ولكن المفاجأة كانت معدومة . وفي ٩ حزيران تم الهجوم على جانب هذه النقطة الغربية ، ولكنه جاء متأخراً فلم يتوافق مع الهجوم القادم على جانبها الشرقي .

تبع ذلك توقف عملياتي لمدة شهر . كان لودندورف يبغي القيام بضربة حاسمة في بلجيكا ضد البريطانيين . وهي ضربة كان يفكر فيها منذ مدة طويلة . وكانت هذه الفكرة تراوده حتى ذلك الحين . ولكنه قدَّر أن قوات الحلفاء الاحتياطية لا تزال كبيرة فيها . فقرر القيام بعملية مشاغلة جديدة . وكان يود القيام بهجوم عنيف في الجنوب ، لجذب القوات الاحتياطية البريطانية إلى هناك . ولكن فشله في تدمير نقطة الاتصال في كومبيين دفعه إلى تطبيق الطريقة نفسها في الشرق ، بمهاجمة مدينة رانس Reins من جهتين . ولكنه وجد نفسه في حاجة إلى استراحة ليسترد قوته ويستعد . وجاءت هذه الفترة وبالاً عليه ، لأنها أعطت الفرنسيين والانكليز الوقت اللازم لتعويض خسائرهم ، كما أعطت الأميركيين الوقت الكافي لإعداد مزيد من القوات .

قد تكون نجاحات لودندورف التكتيكية سبباً من أسباب فشله النهائي . أي أن اندفاعه ، تحت تأثير الانتصارات ، جعله يستثمر كل انتصار إلى مدى أكبر مما يجب ، مع فترات زمنية طويلة تفصل بين الضربة والأخرى . ولم يكن يسير ، حسب خطة المقاومة الأضعف ، بل حسب خط تتزايد فيه المقاومة بشكل يصبح معه كل هجوم من هجماته ، بعد انتهاء الخرق الأساسي ، عبارة عن هجوم مباشر بحت . لقد غرس في قلب الدفاع ثلاثة أسافين ، دون أن يدخل أي واحد منها بعمق كافٍ لقطع شريان حيوي .

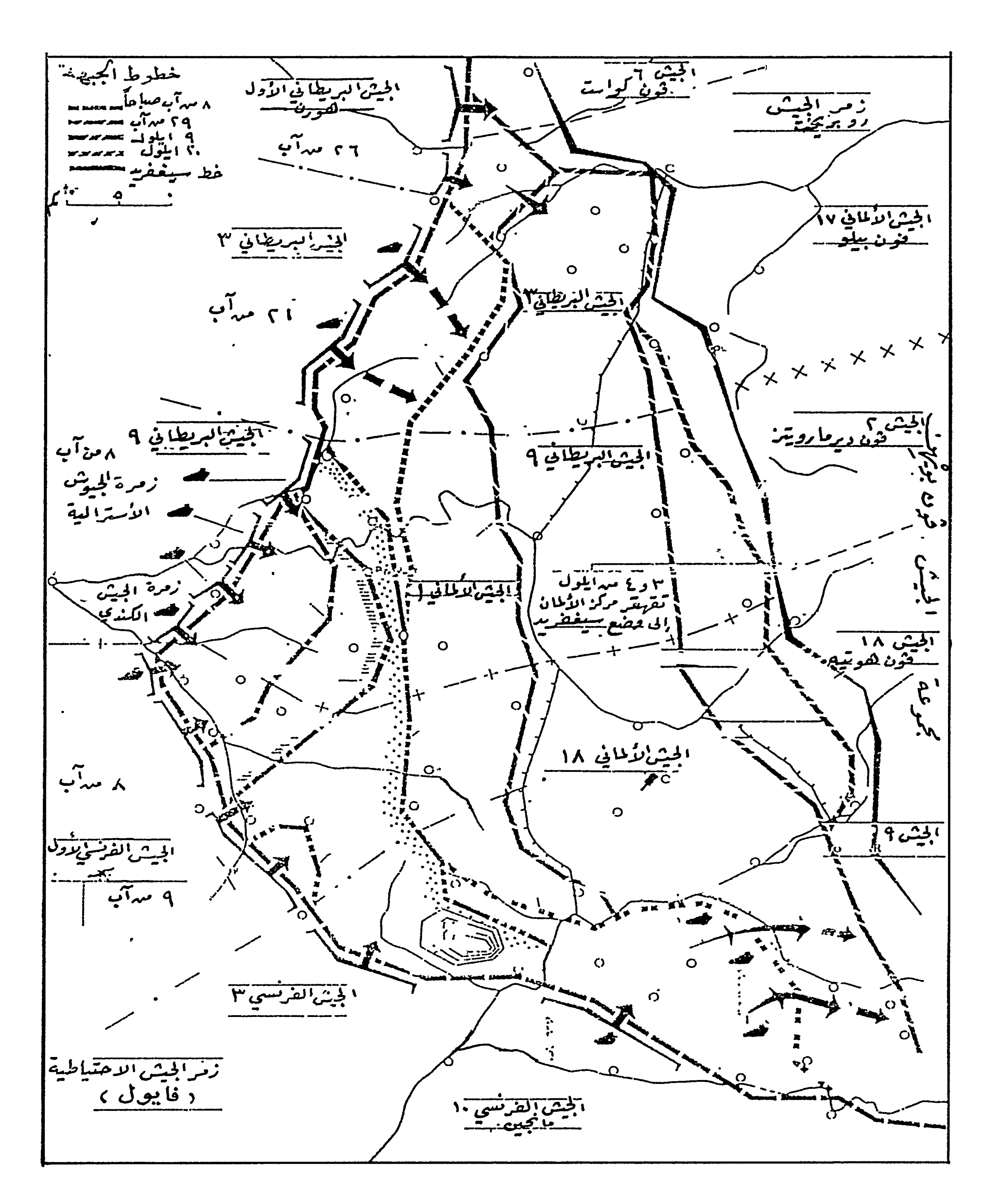


الهجوم المضاد في ١٨ تموز ١٩١٨ : إن تقصير الجبهة أدى ، في ٢٤ منه ، إلى تفكيك الجيش التاسع ، الذي كان يقوده متري Mitry ، ووزع قطاعه بين الجيشين السادس والخامس

وترتب على هذا الفشل الاستراتيجي أن أصبح الألمان على جبهة مسننة ذات تعاريج يستطيع فيها الحلفاء القيام بهجوم على المجنبات .

وفي ١٥ تموز أطلق لودندورف هجومه الجديد ، ولم يكن هذا الهجوم سراً لدى الحلفاء . وفشل الهجوم الشرقي (رانس) ، بفضل الدفاع المرن ، وأدى توغل الألمان ، وراء نهر المارن في الغرب ، إلى تعريضهم لهزيمة كاملة فيما بعد . ففي ١٨ تموز أطلق القائد الفرنسي فوش هجوماً محضراً منذ مدة طويلة ضد المجنبة الثانية لجيب المارن . واستخدم بيتان ، الذي كان يقود هذه المعركة مجموعة من الدبابات الخفيفة التي حققت ميزة الهجوم المفاجىء . واستطاع الألمان ، برغم ذلك ، الاحتفاظ بمدخل المنطقة مفتوحاً مدة كافية لسحب وحداتهم ، ووضعها في مأمن ، وتنظيم خطوطهم ، ولكن وحداتهم الاحتياطية كانت قد نفدت كلها ، وانتقل عنصر المبادأة إلى الحلفاء .

إن رد الفعل ، الذي حققه الحلفاء في المارن ، يستحق دراسة عميقة . لقد طلب بيتان من فوش إعداد مجموعتين من القوات الاحتياطية ، بقصد القيام بهجوم مضاد على مجنبة الهجوم الألماني الجديد المحتمل . واستطاعت المجموعة الأولى بقيادة مانجان Mangin تحطيم الهجوم المعادي في ٩ حزيران ، ثم توجهت بعد ذلك إلى موضع جديد يقع غرب بروز المارن ، نظراً لأن فوش قرر استخدامه لأهداف هجومية على عقدة مواصلات السكة الحديدية في سواسون Soissons . وخلال إعداد هذا الهجوم علمت إدارة المخابرات ، من مصادر موثوقة ، أن هجوماً ألمانياً يجهز قرب رانس ، فقرر فوش منع هذا الهجوم ، وليس مقاومته ، وذلك بالقيام بهجوم في ١٢ تموز ١٩١٨ . ولكن بيتان اقترح السماح للألمان بالتقدم والتوغل في زحفهم ثم ضرب مؤخرة جناحهم . ولم تكن القوات الفرنسية جاهزة للهجوم يوم ١٢ تموز ، لذا تمت المعركة حسب فكرة بيتان تقريباً ، وليس حسب فكرة فوش . ونقول ــ تقريباً ــ لا تماماً ، لأن فكرة بيتان الأساسية كانت تعتمد على إخلاء الموضع الخلفي السليم ، ثم القيام بهجمات مضادة محلية ترغم العدو على زج قواته الاحتياطية في الجيوب الجديدة ، على طرفي رانس ، على أن ينطلق القائد الفرنسي مانجان ، بعد ذلك نحو الشرق للقيام بهجوم مضاد قوي على طول المجنبة الغربية لمنظومة المارن البارزة ، فيصبح بذلك قادراً على إغلاق فتحة الكيس الكبير واستلام القوات الألمانية الموجودة جنوبي نهر الآين Aisne .



خارطة الهجوم الانكليزي الفرنسي في بيكاردي من ٨ آب إلى ٢٠ أيلول ١٩١٨

وساهمت الحوادث، وكذلك فوش، في تعديل هذه الفكرة. لقد فشل الهجوم الألماني شرقي مدينة رانس بسبب الدفاع المرن المعادي، وهو نوع من الهجوم التكتيكي غير المباشر. وكان قادة الجيوش غرب رانس يصرون على استخدام الوسائل الدفاعية القديمة الجامدة، فاخترق الألمان جبهتهم في عدة نقاط، وعبروا نهر المارن. ولمواجهة هذا الخطر رفع بيتان معظم قواته الاحتياطية المحضرة للمرحلة الثانية من العملية. وقرر سحب بعض وحدات مانجان لتشكيل قوات احتياطية جديدة فتأخر بذلك انطلاق الهجوم الذي أعده مانجان، بناء على أوامر فوش في ١٨ تموز. ولما علم فوش بذلك أعطى أمراً مضاداً، وأصر على أن يقوم مانجان بهجومه، فأهملت بذلك المرحلة الثانية من العملية.

واستطاعت القوات الاحتياطية الألمانية الجاهزة إيقاف هجوم مانجان، وبقيت فوهة الكيس مفتوحة، وانقلب رد الفعل إلى ضغط مباشر بحت على الكيس من كل الجهات، وهو ضغط يدفع الألمان إلى خارج الكيس (الجيب).

وأصبحت فكرة فوش الرئيسية، منذ ذلك الوقت، هي المحافظة على المبادأة ومنع الخصم من التقاط أنفاسه، وتجميع قوات الحلفاء الاحتياطية من كل صوب. وكان عمله الأول تحرير خطوطه الحديدية الجانبية بسلسلة من الهجمات المحلية. ونفذ هيغ الهجوم الأول في ٨ آب قرب أميان، واستطاع الجيش الرابع البريطاني مضاعفة عدد قواته، خفية عن الألمان، بفضل استخدام الحيطة والخداع. فقامت ٤٥٠ دبابة بهجوم يعتبر أكبر ضربة مفاجئة في هذه الحرب. ثم اضطرت للوقوف، بعد ذلك، لأن مهمتها الأساسية كانت تأمين الضغط المباشر. ولكن تأثيرها المفاجىء أدى إلى تحطيم معنويات القيادة الألمانية العليا. وتأكد لودندورف أن قواته قد انهارت معنوياً، فأعلن أن السلم لا يمكن تحقيقه إلا بالمفاوضات. وقال: «يجب أن يكون هدف استراتيجيتنا، في غضون ذلك، شل إرادة الحرب لدى العدو شيئاً فشيئاً بدراسة الدفاع الاستراتيجي».

في هذا الوقت كان الحلفاء يتجهون نحو استخدام أسلوب استراتيجي جديد يعتمد على القيام بسلسلة سريعة من الضربات الشديدة الموجهة ضد مواضع مختلفة. وكل ضربة من الضربات تتوقف بمجرد أن يضعف اندفاع الهجوم، وتكون كل واحدة منها وسيلة لفتح الطريق للضربة التالية، على أن تكون جميعها متقاربة في الزمان والمكان، بحيث تؤثر الواحدة منها على الأخرى، بشكل فعّال. وهكذا تم وقف حركة لودندورف،

الذي لم يعد قادراً على تحريك قواته الاحتياطية بسرعة لتفادي الصدمات، ووجدت هذه القوات نفسها مثبتة وعاجزة عن الحركة، الأمر الذي قدم للحلفاء مزايا كبيرة. وهذه الطريقة لا تشكل هجوماً غير مباشر وحقيقياً، ولكن تشبهه إلى حد كبير، لأنها لا تستخدم الخط غير المتوقع، ولكنها تتحاشى مع ذلك خط الانتظار المتوقع، ولم تستخدم أسلوب خط المقاومة الأضعف، ولكنها لا تصر على متابعة الجهد على خط تزداد قوته، ويمكن اعتبارها شكلاً سلبياً للهجوم غير المباشر.

وقد ترتب على الضعف المعنوي والعددي المستمر للقوات الألمانية أن أصبحت هذه الطريقة كافية، خلال وقت معين، لتأمين تقدم الحلفاء، وإضعاف المقاومة الألمانية. وأمام وضوح هذا الضعف، وتأكيدات هيغ Haig، بإمكان اختراق خط هندنبورغ، الذي تتمركز فيه أقوى وحدات العدو، قرر فوش ترك طريقته والقيام بهجوم عام في كل مكان في وقت واحد.

وتضمنت خطته القيام بضغط مباشر، على شكل كماشة حول البروز الكبير الذي تشكله الجبهة الألمانية في فرنسا. وكانت خطته تعتمد على قدرة جناحي الحلفاء، المؤلفين من القوات البريطانية والأميركية، في القضاء على القوات الألمانية الموجودة داخل هذا البروز. وهكذا يمكن تفادي منطقة الآردين، التي تشكل، بنظر قيادة الحلفاء، جداراً خلفياً لا يمكن اجتيازه، وليس فيه سوى مخارج ضيقة على المجنبات. ولكن هذه الفكرة عن الآردين كانت غير صحيحة، ولا يقبلها إلا الذين لا يعرفون طبيعة هذه المنطقة. فالواقع أن طرقها كانت حسنة، ومعظم مناطقها يمكن الوصول إليها بسهولة.

كانت الخطة تحوي، في البداية، بعض الهجوم غير المباشر، بناء على اقتراح الجنرال بيرشنغ Pershing الأميركي، الذي كان يقول بضرورة استخدام جيشه لاستثمار النصر المحلي، بغية السيطرة على مواصلات الألمان في اللورين، وتهديد خطوط انسحابهم نحو الراين. ورفض هيغ هذه الفكرة لأنها تبعد الهجوم عن بقية الهجمات الحليفة، بدلاً من أن تتلاقى معها. عندها عدّل فوش خطته ورفض اقتراح بيرشنغ. وكان على الجيش الأميركي أن يبذل جهوده في الغرب ويعدّ في مدة تقل عن سبعة أيام، هجوماً في قطاع الموز ـــ آرغون.

وأدى الضغط المستمر على خط المقاومة المتزايدة إلى اضطرابات وخسائر فادحة دون أن يسهل تقدم هيغ عبر خط هندنبورغ .

هنا أثبتت الوقائع أن هجوماً مباشراً مدعوماً بتفوق ساحق بالمدفعية ضد عدو ضعيف المعنويات يمكن أن يتوغل في عمق مواضع العدو ، ولكنه غير قادر على تدميره . وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وهو يوم الهدنة ، كانت القوات الألمانية باستثناء وحدات المؤخرة في مأمن خارج الجيب (الكيس) ، ومتمركزة على خط أكثر استقامة وأقل طولاً . وتوقف تقدم الحلفاء بسبب صعوبة التموين في منطقة مخربة تماماً . وقد أدى الهجوم المباشر ، في هذه الظروف ، إلى انسحاب الألمان بسرعة أكبر من سرعة مطاردة الحلفاء .

لم يكن للمرحلة الأخيرة للهجوم العسكري للحلفاء إلا أهمية ثانوية . والواقع أن الصدمة المعنوية التي أصابت القيادة الألمانية من مفاجأة عملية ٨ آب قد استكملت تأثيرها بهجوم غير مباشر ، حدث في ميدان بعيد للعمليات ، وهو هجوم الحلفاء في سالونيك ، الذي اختار قطاعاً من الأرض كثير التضاريس ضعيف الحراسة ، وتقدم ، بفضل ذلك ، بسرعة . ولم يستطع العدو جلب قواته الاحتياطية بسرعة لإيقاف تقدم الحلفاء نحو مجنبته على خط المقاومة الأضعف . ووجد البلغاريون ، المتعبون من الحرب ، جيوشهم مقسمة إلى قسمين فطلبوا الصلح . وأدى ذلك إلى خروج قوات أوروبا الوسطى من الحرب ، وفتح الطريق أمام ضربة بارعة وجهت ضد مؤخرة النمسا .

وظهر الخطر أكثر وضوحاً عندما انطلق هجوم إيطالي ضد الجبهة النمساوية المحطمة مادياً ومعنوياً فاخترقها . وباستسلام النمسا استفاد الحلفاء من أرضها وشبكة خطوطها الحديدية ، واستخدموها قاعدة لعملياتهم ضد مؤخرات القوات الألمانية . وكان الجنرال الألماني فون غالفيتس **Von Gallwits** قد أبلغ مستشار ألمانيا ، في شهر أيلول ، أن استسلام النمسا سيقرر مصير الحرب .

وكان الحصار البحري والتأثير المعنوي المتزايد الناجم عنه ، بمثابة هجوم غير مباشر في مجال الاستراتيجية العليا ، ضد شعب قاسى بسبب الجوع وفقد الأمل ، مما أدى في النهاية إلى استسلام الحكومة الألمانية . لقد كان هذا الحصار عبارة عن مهماز يخز الحصان

القنال الإنكليزي
كاليه
اوستند
خطوط الجبهة في ٢٥ أيلول ١٩١٨
٣١ ت ١
١١ ت ٢
الهجوم الأمريكي
هجوم الحلفاء
حدود القوات
ميل
كيلومتر
بروكسل
بلجيكا
ألمانيا
لوكسمبورغ
زمرة رودبرشت العسكرية
الجيش البلجيكي (ألبرت)
أراس
أميان
جيش بوين
الجيش الفرنسي (فايول)
فرنسا
جيش تاج الأمير
جيش غالويتز
متيز
جيش البرخت
الجيش الفرنسي (ماستر)
الجيش الأمريكي الأول
شالون
باريس

هجمات الحلفاء الأخيرة ٢٥ أيلول ــ ١١ تشرين الثانى ١٩١٨

ليعدو بسرعة، ثم جاء سقوط بلغاريا ضربة سوط دفعته للجري بسرعة أكبر، وخاصة لمجيئها في لحظة وصول أول التقارير عن متابعة هجوم الحلفاء على الجبهة الغربية في فرنسا.

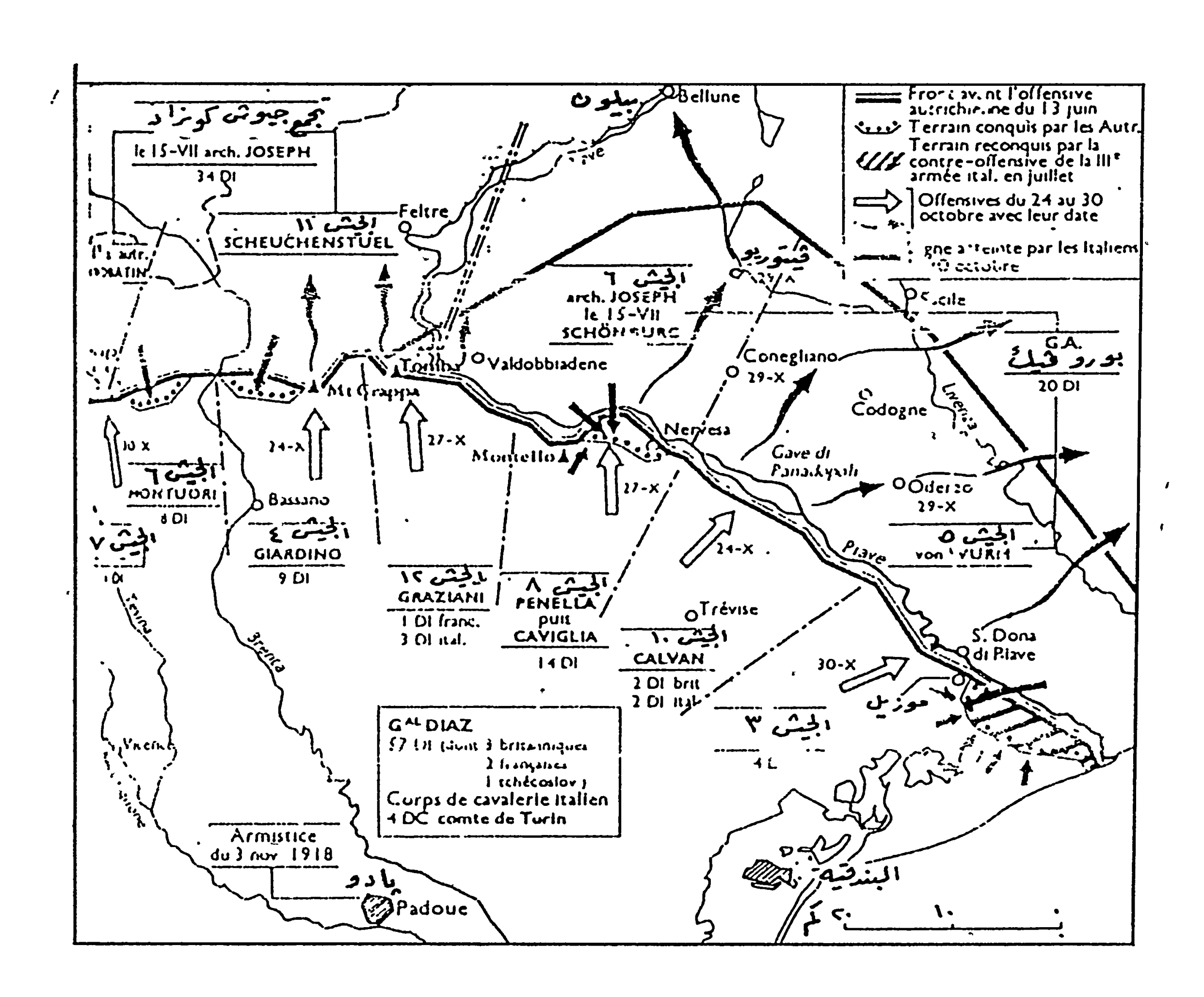
وفي ٢٩ أيلول ١٩١٨ قرر هندنبورغ و لودندورف فجأة طلب الصلح، لأن انهيار بلغاريا قلب الموقف كله. فقد كانت الضرورة تقضي بإرسال وحدات معدة للجبهة الغربية نحو الجبهة الجديدة.

وكانت التدابير في الجانب الألماني تتخذ لمواجهة الهجوم العام للقائد الفرنسي فوش، لأن الهجوم الأميركي، الذي بدأ في ٢٦ أيلول في قطاع الموز — آرغون، لم يكن يشكل خطراً حقيقياً، وإن كان مزعجاً للألمان. ولكن في صباح ٢٩ أيلول قام هيغ بهجوم على خط هندنبورغ، وكانت الأبعاد الأولى تدعو إلى القلق. وفي هذه الظروف الحرجة دعا الأمير ماكس دوباد Max de Bade ليبدأ مفاوضات الصلح بكل سرعة، لأن خطورة الموقف العسكري لا تسمح بأي تأخير.

وهكذا طلب الألمان الهدنة مباشرة من الرئيس الأميركي ويلسون، في ٣ تشرين الأول ١٩١٨. وكان هذا الطلب ينطوي على اعتراف صريح بالهزيمة أمام الرأي العام العالمي. ومن الغريب أن مثل هذه الفكرة كانت كافية منذ يومين لكي تثير اعتراضات شديدة في القيادة العامة الألمانية، وخاصة عندما عرضت في أحد الاجتماعات على رؤساء كل الأحزاب السياسية.

وبعد بضعة أيام استعادت القيادة العامة الألمانية بعض هدوئها، وشعرت بشيء من التفاؤل، نظراً لأن اختراق خط هندنبورغ لم يتبعه خرق كامل لجبهتهم. ثم جاءتهم الشجاعة من التقارير التي تصف الحلفاء بالتخاذل في استثمار الفرص الملائمة. وكان لودندورف يرغب في الهدنة ليعطي لقواته بعض الراحة ويؤمن انسحابها نحو خط دفاعي أقصر على حدود بلاده. وشعر في ١٧ تشرين الأول أنه قادر على الاستغناء عن هذه الراحة، بعد أن رأى أن الموقف قد تبدل. ولم يكن الوضع سيئاً كما تصوره من قبل في ٢٩ أيلول، ولكن انطباعه الأول انتشر في الأوساط السياسية، وبين الجماهير الألمانية، وانهارت الجبهة الداخلية قبل جبهة القتال.

وفي ٣ تشرين الثاني قررت تركيا والنمسا الاستسلام، مما جعل باب ألمانيا الخلفي



العمليات على الجبهة الإيطالية (حزيران ـــ تشرين الثاني ١٩١٨)

مفتوحاً. واشتعلت الثورة في ألمانيا، وانتشرت في طول البلاد وعرضها، واتسع نطاقها بسبب طول أمد المفاوضات. واستلم السلطة الزعيم الاشتراكي ايبرت Ibert، ووقع شروط الصلح في ١١ تشرين الثاني، في الوقت الذي كانت فيه القوات الألمانية قادرة على متابعة القتال.

ويمكن اعتبار الحصار من أسباب نصر الحلفاء، لأنه خنق الاقتصاد الألماني، وعجل بالثورة الشعبية، كما أن المجهود الحربي الذي قام به الحلفاء يعتبر عاملاً أساسياً في التعجيل باستسلام ألمانيا والحيلولة دون امتداد الحرب حتى عام ١٩١٩.

وهذا لا يعني بأن القوات العسكرية الألمانية كانت، عند توقيع الهدنة، محطمة بصورة حاسمة. إن دراسة الوثائق المتعلقة بآخر مئة يوم تؤكد أن هدف الحرب الحقيقي هو روح قادة الأعداء وليس أجساد جنودهم، وأن الهزيمة والنصر يتقرران تحت تأثير الضغط المعنوي، وبصورة غير مباشرة، تحت تأثير الضربات المادية. ولم يهتز لودندورف في الواقع أمام خسارة الرجال أو المدافع، أو الأرض، قدر اهتزازه عند وقوع المفاجأة وشعوره بالعجز عن صد حركة استراتيجية محتملة.

٦ ـــ تطور القوات المسلحة والاستراتيجية خلال الحرب العالمية الأولى

دامت الحرب العالمية الأولى ٤ سنوات و٣ أشهر و١٠ أيام، تمّ خلالها تدمير مناطق شاسعة وتحطيمها، وإغراق آلاف السفن التجارية، ومئات السفن الحربية، وهلاك ما ينوف عن ١٠ ملايين، وجرح حوالي ٢٠ مليون نسمة تقريباً.

انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة كاملة لألمانيا وحلفائها، وعقدت مجموعة من المعاهدات الدولية تم بموجبها تقسيم المستعمرات، وجزء من أراضي البلدان المهزمة بين الدول المنتصرة.

والجدير بالذكر أن الحرب العالمية الأولى لم تقضِ على الخلافات والتناقضات الأمبريالية السابقة، بل على العكس من ذلك، خلقت تناقضات جدية جديدة، اعتبرت بدورها سبباً لنزاعات واصطدامات عسكرية جديدة. وكان أهم نتائج الأزمة

انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا، حيث انقسم العالم على أثرها إلى نظامين اشتراكي ورأسمالي.

وإلى جانب التبدلات الجذرية في المجال السياسي، أدخلت الحرب العالمية الأولى تعديلات كبيرة على العمل العسكري: حيث تبدلت البنية التنظيمية للقوات المسلحة، وازدادت كميات الأسلحة والأعتدة القتالية في القوات، وتحسنت نوعيتها إلى حد كبير، وكانت المشاة الصنف الرئيسي والأكبر في القوات البرية، وقد شكلت المشاة، قبيل نهاية الحرب، ٥٠٪ من التعداد العام لأفراد هذه القوات، كما ازدادت، خلال سني الحرب، قوة تشكيلات وقطعات ووحدات المشاة عدة أضعاف، ولا سيما أن الرشاشات[٣] والهاونات والمدافع دخلت في تسليحها بكميات كبيرة.

وقد فقدت الخيالة، في ظروف الحرب الميدانية الموضعية (الثابتة)، أهميتها السابقة وتقلص عددها ٢ ــــ ٣ مرات. وبقيت مدفعية الميدان تشكل طيلة الحرب، الواسطة النارية الضاربة الرئيسية والمتطورة بسرعة، حيث ارتفع عدد القذافات والمدافع ذات العيار الكبير، الداخلة في قوام مدفعية الميدان، إلى حد كبير. وظهرت أنواع جديدة من الذخيرة: متفجرة، كيميائية، خارقة للدرع. كما صممت وصنعت المدفعية المضادة للطائرات، والمدفعية المضادة للدبابات، واستخدمت على نطاق واسع.

وقد شكلت المدفعية حوالي ٣٠٪ من القوام العام للقوات البرية في الدول المتطورة. وتحولت القوات المدرعة لتصبح خلال سني الحرب صنفاً مستقلاً من القوات، يتألف سلاحه الرئيسي من الدبابات. واكتسبت القوات خبرة قيمة في استخدام الدبابات في الهجوم والدفاع، واقتنعت بأن الاستخدام الكثيف لهذه الدبابات هو الشكل الأفضل في القتال.

وخلال الحرب العالمية الأولى تطور **الطيران بسرعة كبيرة**، وأصبح يشكل في القوى البرية والبحرية الصنف الهام، القادر على تنفيذ أنواع مختلفة من المهام القتالية. وبدأ

---

(٣) على سبيل المثال كان يوجد في تسليح فرقة المشاة الفرنسية، قبيل بداية الحرب ٢٤ رشاشاً ثقيلاً، وأصبح هذا العدد، قبيل نهاية الحرب، ١٣٣ رشاشاً ثقيلاً و ٤٤٠ رشاشاً خفيفاً.

في هذه الحرب، ينقسم إلى: طيران استطلاع، وطيران مقاتل، وطيران قاذف. كما استخدمت المناطيد من أجل تنفيذ بعض المهام.

وتطورت **القوى البحرية** في الحرب العالمية الأولى وزادت من فعالية أعمالها، عن طريق تحسين نماذج السفن المتوفرة، وصنع نماذج جديدة منها (حاملات طائرات، سفن حراسة، زوارق طوربيد.. الخ)، وتطوير أسلحة المدفعية والطوربيد والألغام، كما عملت الغواصات وطائرات استطلاع البحرية بنجاح كبير وتطورت بسرعة.

كذلك تعاظمت **القوات الهندسية**، وزاد دورها إلى حد كبير، وأصبحت متخصصة في تنفيذ مهام التجهيز الهندسي للأرض، وإنشاء التحصينات والحواجز المختلفة والجسور والمعابر والطرقات، وتمويه القوات والأهداف الهامة. وكذلك استخدمت وسائط الهجوم الكيميائي (المواد السامة) لأول مرة في نيسان ١٩١٥، من قبل القوات الألمانية، واستخدمت بعد ذلك على نطاق واسع. ونتيجة لذلك شكلت الوحدات والقطعات الكيميائية، بيد أنها كانت قليلة العدد، لأن المدفعية كانت الواسطة الرئيسية لقذفها إلى أماكن توضع العدو. وقد **جهزت قوات الإشارة** بوسائط فنية جديدة للاتصال: (هواتف، أجهزة برق، أجهزة لاسلكية) مما وفر الإمكانية للقادة لقيادة القوات على مسافات كبيرة وعلى مساحات واسعة للصراع المسلح.

واكتسبت **خدمات الشؤون الإدارية** (المؤخرة) أهمية فائقة، ولا سيما أنه لم يكن باستطاعة الجيوش الكبيرة العدد تنفيذ مهامها إلا في حال إمدادها المستمر بكميات ضخمة من الأسلحة والذخيرة والأعتدة القتالية والتجهيزات واللوازم والتعيينات. وقد لبّى اقتصاد البلاد حاجة الجبهات من الوسائط المادية، وتعاظم مستوى عمل وحدات الشؤون الإدارية ونشاطها على وجه الخصوص.

كان يوجد في قوام القوات المسلحة، خلال فترة الحرب العالمية الأولى، أكثر من ٧٣ مليون رجل. وقد تطلبت هذه الأعداد تحويل اقتصاد البلدان إلى اقتصاد عسكري، من أجل تأمينها مادياً، وتحويل أراضي البلدان المتحاربة إلى **مؤخرات استراتيجية**.

تشكل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) مرحلة هامة من مراحل تطور فن الحرب. فقد دحضت هذه الحرب كافة الأفكار والآراء السابقة التي كانت مناسبة في

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حول إمكانية كسب الحرب خلال وقت قصير ، عن طريق سحق جيش العدو ، والاستعانة فقط بالاحتياطات المكدسة مسبقاً من أجل التأمين المادي للقوات .

وفي هذه الحرب أصبحت مراعاة الإمكانات الاقتصادية للبلاد ، وتوفير المخزونات الاستراتيجية ، وتنسيق جهود الجبهة والمؤخرة ، وتنظيم التعاون بين أنواع القوات المسلحة ، وتنسيق الجهود مع أعمال الحلفاء ــ أمراً ضرورياً وملحاً في التخطيط الاستراتيجي .

وقد تطلب ازدياد تعداد القوات المسلحة المشتركة في القتال ، واتساع مسارح الصراع المسلح إدخال تعديلات هامة على أسلوب تنظيم **القيادة الاستراتيجية للقوات** . فقد وجدت ; الأجهزة الحكومية العليا ، هيئات القيادة الاستراتيجية الحليفة ، هيئات القيادات العليا في البلدان ، الجبهات ، مجموعات الجيوش ، الجيوش .. الخ . وقد شكِّلت في أواخر الحرب قيادة موحدة لقوات حلف الانتانتا ، العاملة في أوروبا الغربية ، إلا أن الفرصة لم تتح لهذا الجهاز للقيادة الاستراتيجية لاكتساب خبرة العمل الكافية .

اكتسبت القوات المسلحة ، خلال سني الحرب العالمية الأولى ، خبرة عملية كبيرة في تحضير العمليات الهجومية والدفاعية وتنفيذها . واتصفت عمليات ١٩١٤ ــ ١٩١٥ بطابع المناورة والمجال الواسع . وقد نفذت الجبهة (مجموعة الجيوش) الهجوم في نطاق عرضه ٣٠٠ ــ ٤٠٠ كيلو متر ، وعلى عمق يصل حتى ٢٠٠ كيلو متر تقريباً ، بوتيرة متوسطة تعادل ٦ ــ ٨ كيلو مترات في اليوم . إلا أن أعمال المناورة ، بالنسبة للحرب العالمية الأولى ، لم تكن واسعة الانتشار ، بسبب سيطرة أشكال الصراع الموضعي بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٨ .

كانت معضلة خرق الدفاع الموضعي تشكل المعضلة الأساسية لفن العمليات . وقد استخدمت أشكال عديدة في تنفيذ الخرق : كالخرق في قطاع ضيق واحد (فيردان ، كامبري .. الخ) ، والخرق في قطاع عريض متصل (عملية نهر السوم) ، والضربات المجزئة للجبهة على عدة قطاعات (عملية الجبهة الروسية الجنوبية الغربية) ، كما تطورت أساليب الخرق ، حيث انتقلت القوات من أسلوب التقدم الإيقاعي البطيء ، المنفذ وفقاً لمبدأ «المدفعية تحطم المواضع والمشاة تحتلها» إلى الأعمال الأكثر فعالية

رحسمية، والتي تمثلت في الضربات المفاجئة والكثيفة والمنسقة للمدفعيـة والـطيران والدبابات والمشاة على الاتجاه المختار .

جرى خرق الدفاع الموضعي أكثر من مرة واحدة بين عامي ١٩١٧ ــ ١٩١٨، بيد أن الأطراف المتحاربة لم تكن قادرة بعد على تطوير النجاح المحقق، وتحويل الخرق التكتيكـي إلى خرق عمليـاتي. ولـذلك لم يزيـد عمـق العمليـات الهجوميــــة في عامي ١٩١٦ ــ ١٩١٧ عن ١٠ ــ ١٥ كيلو متراً، كقاعدة، وأما وتيرة الهجوم فكانت تحسب بعشرات الأمتار في اليوم. وإن الوتيرات التي حققتها الجبهة الروسية الجنوبية الغربية، في أثناء خرق الدفاع المعادي، في حزيران عام ١٩١٦ (حوالي ٧ كم في اليوم) كانت ظاهرة نادرة واستثنائية .

إن جهاز الدفاع الموضعي المتصل والمنسق بالعمق، والمناسب لوسائط الصراع المستخدمة خلال الحرب العالمية الأولى، والمزود بجهاز نيران متطور، إلى جانب التجهيز الهندسي الجيد للأرض (خنادق قتال، خنادق مواصلات، نقاط استناد، أجهزة من الحواجز .. الخ) هو الذي يفسر أهمية معضلة الخرق والصعاب التي تعترض حلها .

كان الدفاع، عام ١٩١٤، يتألف بصورة رئيسية، من موضع واحد، تتمركز أمامه بعض النقاط المتقدمة، مع موضع خلفي على الاتجاهات الهامة .

وفي عام ١٩١٥، أصبح الدفاع يتألف من ٢ ــ ٣ مواضع دفاعية . وكان كل موضع يتألف من ٣ ــ ٤ خطوط من الخنادق . وفي عام ١٩١٦، بني الدفاع على شكل نطاقات محصنة: النطاق الدفاعي الرئيسي، النطاق الدفاعي الثاني، النطاق الخلفي . وكان كل نطاق يتألف من ٣ ــ ٤ خطوط من الخنادق (المساند) . وظهرت، عام ١٩١٧، المنطقة الدفاعية المتقدمة، وخلفها المنطقة الرئيسية للدفاع، ثم المنطقة الدفاعية الثانية، وأخيراً المنطقة الدفاعية (القتالية) الخلفية . وفي عام ١٩١٨ ازداد عدد هذه المناطق أيضاً .

ومع ازدياد عمق الدفاع ازدادت أيضاً قدرته على الصمود ومتانته . فبعد أن كان في عام ١٩١٤ يتألف من مساتر بسيطة لا تقـي من رمايـات المدفعيـة أصبـح، في

عام ١٩١٥ ، يجهز بالمساتر الواقية من هذه الرمايات ، وأصبح الحديد والإسمنت يستخدمان في بنائه ، الأمر الذي زاد فيه صلابة ومنعة .

وتبدلت طبيعة الدفاع ، وفقاً لظهور وسائط الصراع الجديدة ، وبعد أن بني ، في عام ١٩١٤ ، ليكون مضاداً للمشاة فقط ، تحول في عام ١٩١٥ ليكون مضاداً للمدفعية وللوسائط الكيميائية ، وأصبح في عام ١٩١٦ مضاداً للطائرات ، واتصف اعتباراً من عام ١٩١٧ بخصائص الدفاع المضاد للدبابات .

وتبدل الدفاع ، من حيث طرق خوضه . فقبل عام ١٩١٦ أسندت إلى القوات مهمة الدفاع العنيد عن المواضع ، وبدءاً من عام ١٩١٧ تعاظمت قوة نيران المدفعية المستخدمة في أثناء الخرق ، وتحولت القوات ، بعد أن زادت قدراتها النارية والحركية ، من الدفاع الصلب إلى ما سمي آنذاك بـ(الدفاع المرن) ، أي المتحرك . وهذا الدفاع كان كبير الفعالية ، خلال عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ ، حيث استخدمت القوات المدافعة جميع الوسائط النارية المتوفرة لصد العدو ، ونفذت الهجمات والضربات المعاكسة ، ومختلف أشكال المناورة . وكان الدفاع المبني ، وفقاً لنظام المنطقة المحصنة ، أي الذي يتضمن المنعات الميدانية والطويلة المقاومة ، من أكثر أنواع الدفاع صموداً .

كذلك طرأ على التكتيك تطور كبير بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ . ففي بداية الحرب كانت المشاة تعتبر القوة الحاسمة في المعركة . وقد بنت المشاة تراتيب قتالها على شكل **سلاسل** رقيقة ، ولكن متراصة بعضها مع بعضها الآخر ، ودون دعم قوي من المدفعية ، مما جعلها عرضة لنيران الرشاشات والبنادق والمدفعية المعادية ، ونزلت بها أفدح الخسائر . وعند تشكيل الجبهات الموضعية (الثابتة) المتصلة تعاظم دور المدفعية في المعركة ، ولم تعد المشاة تبدأ بالهجوم إلا بعد تمهيد مدفعي طويل ، كما كان يرافق الهجوم نفسه رمايات الدعم المتتابع أو السد الزاحف ، وكذلك نيران مدافع المرافقة ، وضربات الطيران على مواضع العدو التي تهاجمها المشاة . كما تبدل شكل تراتيب قتال المشاة وازدادت عمقاً ، إن كان في الهجوم أو في الدفاع . وعند ظهور الدبابات ومدافع المرافقة بدأت المشاة بالتجمع حول هذه الوسائط الضاربة القوية الحامية ، وظهر بالتالي ترتيب القتال المجمع ، القادر على المناورة في ميدان المعركة ، والتوغل في عمق دفاع العدو .

وقد ساعد التجهيز المضطرد للقوات بالمدفعية والدبابات والطيران على وضع

أسس تكتيك المعركة المشتركة (بوشر بوضع أسسها بين عامي ١٩١٧ و ١٩١٨)، أيْ أسس المعركة التي يتحقق فيها النجاح، بتضافر جهود جميع صنوف القوات المشتركة فيها. وإلى جانب ذلك تطور أيضاً تكتيك المعركة الدفاعية. ففي بداية الحرب لم يكن الدفاع عميقاً، وكان مخصصاً فقط من أجل صد هجمات المشاة، بيد أنه مع ازدياد قوة نيران المدفعية وظهور وسائط الهجوم الأخرى (الطائرات، المواد السامة، الدبابات) ازداد عمق الدفاع التكتيكي وتحسن التجهيز الهندسي للأرض، وتطورت بنية الدفاع (بنيت المواضع المتقدمة والمواضع المائلة، ونقاط الاستناد، وعقد المقاومة، وشكلت الاحتياطات). وقبيل نهاية الحرب أصبح الدفاع متنوع الوظائف والأهداف، وبُني لكي يكون مضاداً للمشاة والدبابات والمدفعية والطيران والوسائط الكيميائية.

ثانياً ـــ الاستراتيجية عشية الحرب العالمية الثانية وخلالها

١ ـــ النظريات العسكرية والقوات المسلحة للدول الكبرى في الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية

بدأت الدول الاستعمارية، بعد الحرب العالمية الأولى، بالإعداد لحرب جديدة. فقد أدت الخلافات والتناقضات الأمبريالية إلى تشكل حليفين متضاربين في أواخر الثلاثينيات، ضم الأول منها كلاً من ألمانيا وإيطاليا واليابان وحلفاءهم، وضم الثاني فرنسا وانكلترا المدعومتين من قبل الولايات المتحدة الأميركية.

وفي الوقت نفسه، ركزت الجهود الأمبريالية العالمية لتدمير الاتحاد السوفييتي. وعقد التحالف الانكليزي الفرنسي الأميركي الآمال على تحقيق هذا الهدف عن طريق تشجيع العدوان الألماني ضد الاتحاد السوفييتي. علماً بأن جميع مكاسب نهاية الحرب العالمية الأولى قد نالتها الدول الأمبريالية، حيث ورثت عن الألمان المستعمرات والأسواق العالمية.

وإن الحملات التي نفذتها القيادة الألمانية النازية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها تبرز بوضوح أهمية الطريقة التي استخدمتها هذه القيادة. فقد طرح هتلر، في المرحلة الأولى أبعاداً جديدة لاستراتيجية الهجوم غير المباشر، من الناحيتين النفسية والمادية، وعلى

الصعيدين المدني والعسكري. ولكنه أتاح بعد ذلك لأعدائه فرصاً كثيرة ليستخدموا ضده مثل هذا النوع من الهجوم.

ويقتضي المنطق والعقل، خلال الحرب، عدم الإقلال من شأن العدو، ومعرفة طريقة عمله وأسلوب تفكيره. وهذا أساس كل عمل جدي، يهدف إلى التكهن بأعماله ومناوراته ومحاولة اعتراض سبيلها. وقد ضاعت فرص كثيرة من الحلفاء، بسبب تباطئهم في توقع واكتشاف الضربة التالية التي يستعد هتلر للقيام بها ضدهم.

وهنا ينصح ليدل هارت لكل دولة أن يكون في إدارتها الحكومية (قسم للعدو)، مهمته الاهتمام بكل قضايا الحرب، ودراسة مشاكلها من وجهة النظر المعادية، وتوقع نوايا العدو، ومخططاته مقدماً، على أساس منطقي. ولا شك أن المؤرخين سيصابون بدهشة كبيرة عند دراسة أسباب عجز دول الحلفاء عن معرفة أهداف هتلر، لأن التاريخ لم يعرف رجلاً طموحاً مثله، كشف بكل وضوح طريقته الخاصة، وتسلسل تنفيذها للوصول إلى هدفه. وكتابه (كفاحي) وخطبه، وظواهر أخرى غيرها، يلقون نوراً ساطعاً حول اتجاهه العام، وتسلسل أعماله المقبلة. لقد كشف هتلر بنفسه أفكاره بكل جلاء، مما يثبت أن نجاحه لم يكن وليد الصدفة أو استغلال الظروف.

لقد اقتبس هتلر حكمة لينين التي تقول إن «الاستراتيجية السليمة تقوم على تأخير العمليات حتى تنهار معنويات العدو، بشكل يسمح بتوجيه الضربة القاضية له»، وإن «الحرب الحقيقية تبدأ قبل بدء العمليات العسكرية». ويمكن أن تقرأ في كتاب (هتلر قال لي) حديث هتلر مع روشنينغ، حول هذا الموضوع: «يهمني أن أعرف كيف يمكن تحقيق انهيار العدو قبل إعلان الحرب عليه، إن كل شخص خاض غمار تجربة الحرب، في جبهات القتال، يأمل أن يقلل ما أمكن من الدم المسفوك».

لقد ابتعد هتلر عن النظرية الألمانية التقليدية العميقة الجذور، التي سادت خلال قرن مليء بالمعارك، ودفعت أكثر الشعوب للسير على الطريق الضيقة لهذه النظرية العسكرية. لقد أدى اتباع العسكريين، في ذلك الوقت، تعاليم كلاوزفيتز، فيلسوف الحرب، إلى تقبل أفكار عسيرة الهضم، مثل: «إن حل الأزمة يجب أن يتم بالدماء، وإن الجهود التي تبذل لتدمير القوى العسكرية المعادية هي الولد البكر للحرب». «وإن المعارك الكبيرة هي وحدها التي تؤدي إلى نتائج كبيرة»، و «الدم ثمن للنصر»

و « لا تحدثونا عن قادة ينتصرون دون سفك دماء » . وكان كلاوزفيتز يستهجن الفكرة التي تقول إن « هناك طريقة بارعة لنزع سلاح العدو وإخضاعه دون سفك كثير من الدماء . وهذا هو الاتجاه الأساسي لفن الحرب » .

ولقد تقبل تعاليم كلاوزفيتز أناس متعصبون وذوو أفق ضيق ، فاعتبروا (المعركة) عاملاً رئيسياً ، ولم يبحثوا عن عناصر أخرى أفضل ، لخلق الظروف الملائمة للحصول على نتائج كبيرة . لذا كان فن الحرب في فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) قاصراً على المذابح في كلا المعسكرين .

ولكن هتلر تجاوز هذه الآراء التقليدية . ويذكر روشنينغ قول هتلر : « إن الناس لم يلجؤوا إلى القتل إلا عندما عجزوا عن الحصول على هدفهم بطريقة أخرى . إن هنالك استراتيجية أوسع ، تقودها أسلحة فكرية ... فهل أحطم معنويات العدو بوسائط عسكرية إذا كنت أستطيع ذلك بوسائط أخرى أفضل وأقل نفقة ؟ » . وقوله : « إن استراتيجيتنا تقوم على أساس تدمير العدو من الداخل ، وقهره بتحطيم معنوياته » ، وقد أعطى هتلر نظرية الحرب الألمانية اتجاهاً جديداً . وساعده لودندورف في وضع خطة عام ١٩٣٢ ، التي فشلت في الاستيلاء على السلطة .

ولكي نفهم أفكار هتلر جيداً ، لا بدّ لنا من مقارنتها مع نظرية (الحرب الشاملة) ، التي وضعها لودندورف ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بعشرين عاماً ، أمضاها في تحليل دروس هذه الحرب . فبدأ بهجوم شديد على نظريات كلاوزفيتز التي كانت أساس النظرية الألمانية في الحرب العالمية الأولى ، وأخذ على كلاوزفيتز عدم سيره في طريق العنف إلى آخر مداه ، وإعطاء أهمية كبرى للسياسة . كما انتقد فكرته القائلة « بأن الهدف السياسي يشكل الغاية ، والحرب هي وسيلة تحقيقها . ولا يمكن تصور الوسيلة إن لم تكن الغاية محددة بدقة » . واعتبرها فكرة قديمة بالية ، لأن مبدأ الحكم المطلق يتطلب من الوطن أن يضع ، في زمن الحرب ، كل شيء لمصلحة الحرب ، كما يسخر كل شيء ، في زمن السلم ، للتحضير لحرب مقبلة ، على اعتبار أن الحرب فكرة سامية لتحقيق (إرادة الحياة) الوطنية ، وما السياسة سوى تابع لها .

ومن قراءة مؤلف لودندورف يبدو اختلافه الواضح مع كلاوزفيتز . إذ إن

لودندورف يعتبر الحرب وسيلة لغاية محددة ، ويرغب في جعل الشعب كله جيشاً هو في حد ذاته غاية . وليس هذا الرأي جديداً ، كما اعتقد لودندورف . لقد جربته اسبارطة من قبل في حكمها ، ثم انهارت من الشلل الذي جرته على نفسها . وكان لودندورف يسعى جاهداً لتوثيق (أواصر وحدة الشعب النفسية) وخلق عقيدة وطنية تؤمن فيها النساء ، بدورهن المقدس في إنجاب أبناء قادرين على تحمل أعباء الحرب الشاملة ، كما يؤمن جميع رجالها بضرورة زيادة قدراتهم للمشاركة في تنفيذ هذا الهدف ، عقيدة تؤمن بضرورة التناسل من أجل تزويد الحرب بالضحايا اللازمة . أما فكرة لودندورف الثانية ، الخاصة بتحقيق الوحدة النفسية للشعب ، فإنها تعني ببساطة اضطهاد وقمع أي شخص يعارض أو يفكر في معارضة القيادة العليا .

ويؤكد لودندورف ضرورة تحقيق شرط آخر ، هو إيجاد نظام اقتصادي وطني يعتمد على الاكتفاء الذاتي ويتلاءم مع متطلبات الحرب الشاملة . ومن هنا يبدو فهمه لفكرة اعتماد القوة العسكرية على الإمكانية الاقتصادية . إلّا أن تحليله واعترافه بالصعوبات الهائلة ، التي عانتها ألمانيا ، من حصار الحلفاء الاقتصادي في سنوات الحرب العالمية الأولى ، لم يؤدِ إلى تعديل فكرته ، التي تعتبر مصير الحرب متعلقاً فقط بمعارك القوات المسلحة . وهو يمتدح في هذا الصدد أستاذ ألمانيا القديم قائلاً : « لم يفكر كلاوزفيتز إلا في إبادة جيوش العدو في المعركة » . وتظل هذه الفكرة في نظرية لودندورف بديهية ، بينما يؤمن هتلر بأن الهدف الحقيقي للقائد العسكري هو إرغام جيوش العدو على الاستسلام دون الاشتباك في أية معركة .

وكان وصف لودندورف لشكل الحرب المقبلة تضخيماً للهجمات التي أمر بها في عام ١٩١٨ . كانت هذه الهجمات رائعة في بدايتها ، عقيمة في نتائجها : وهو يرى في الهجوم : مشاة تتقدم ، تحت دعم المدفعية والرشاشات ومدافع الهاون والدبابات ، حتى تسحق العدو في الالتحام المباشر . وتقود المناورات كافةً ، حسب وجهة نظره ، إلى (المعركة) . وما استخدام الآليات إلّا لزج الوحدات في المعركة بسرعة أكبر .

ويرى لودندورف أن ضرورات (الحرب الشاملة) «لن تعترف بالرغبات النظرية التي ترمي إلى إلغاء حرب الغواصات دون قيد أو شرط» ، بل على العكس ، فقد قال إن «الطائرات يجب أن تتعاون مع الغواصات لإغراق جميع السفن المتجهة إلى موانىء

العدو ، حتى ما كان منها تحت علم محايد » . وقال عن الهجوم على المدنيين العزل في المدن : « سيأتي يوم نرى فيه أسراباً من الطائرات تهاجم بعنف ودون شفقة » .

وكانت وجهات نظر هتلر ولودندورف تتفق حول فكرة **العنصرية والدولة** ، **ودور ألمانيا في السيطرة على العالم** ، ولكنها تختلف ، بشكل خاص ، حول أساليب العمل وطرقه .

وقد طالب لودندورف بشيء يبدو غريباً ، وهو أن **تقوم الاستراتيجية بالإشراف** على السياسة ، أي أن تختار الإدارة ، بنفسها ، نوع عملها . وقد توصل هتلر إلى حل المشكلة بدمج كلتا الوظيفتين في شخص واحد . واستفاد من المزايا نفسها التي استمتع بها الاسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر في التاريخ القديم ، وفريدريك الكبير ، ونابليون في التاريخ الحديث . الأمر الذي أعطاه إمكانية تحضير وسائطه وزيادتها للوصول إلى هدفه ، دون أن يستطيع استراتيجي آخر إيقافه .

إن الدولة قد تدخل الحرب لأسباب مختلفة جداً ، ولكن هدف الحرب الأساسي هو تأمين استمرار سياسة الدولة ، برغم إرادة دولة معادية تطبق سياسة مضادة . فإذا رغبت دولة ما في الحصول على ما تريد عن طريق الحرب ، فإنه يجب عليها أن تضغط على إرادة الخصم لتجبره على تطبيق سياستها ، فإذا ما تم ذلك ، أدركنا خطأ المبدأ العسكري الذي يدعو إلى « تدمير القوات المسلحة الرئيسية عن طريق المعركة » ، وهو المبدأ الذي رفعه تلاميذ كلاوزفيتز إلى مركز الصدارة ، واستطعنا إعادته إلى المكان الذي يستحقه بين مختلف وسائل الاستراتيجية الكبرى ، التي تشمل كل الأشكال المكملة للعمل العسكري ، كالضغط الاقتصادي ، والدعاية ، والعمل الدبلوماسي .

إن هذه الاستراتيجية هي اكتشاف (عقب آخيل) وإصابته ، أي إصابة النقطة الحساسة لقدرة العدو الحربية ، والبحث عن نقطة ضعف في درع العدو بقصد خرقه . لأن تركيز جهد المهاجم على أقوى نقاط العدو قد يضعفه ، ولكن بشكل لا يتلاءم مع النتائج المرجوة . والضربة المثالية هي الضربة التي تقع على نقطة الضعف . إن نزع سلاح العدو أجدى من محاولة تدميره في المعركة وبأقل كلفة . وإن شل قدرته ، قبل المعركة ، توفر الجهود الكبيرة التي تبذل لتدميره ، كما تجنب المهاجم احتمال الفشل .

إن **الاستراتيجي** البارع هو الذي **يعمل على شل العدو وليس على قتله** . إن قتل جندي من جنود العدو ، يعني إنقاص عدد الأعداء واحداً . أما تحطيم معنوياته فيعني بذر الخوف والهلع بين زملائه . وإذا طبقنا هذه الفكرة على مستوى أعلى ، وجدنا أن إضعاف روح القائد المعنوية تعني تعطيل فعالية وحداته بشكل ملحوظ . أما على المستوى الاستراتيجي ، فيلقى التأثير المعنوي والنفسي على حكومة بلد ما لتجميد كل وسائل الحرب في مكامنها .

إن تحليل الحرب يوضح أن القوة المادية لبلد ما تتوقف على عدد سكانه ومجموع إمكاناته ، ومنابع قدرته ، وتعتمد دائماً على حالة أعضائه الداخلية ، وجهازه العصبي ، واستقرار أجهزة قيادته ، ومراقبته ، وحالته المعنوية . ويؤدي **الضغط المباشر** إلى زيادة مقاومة العدو ، **أما الهجوم غير المباشر** ، في الاستراتيجية والسياسية ، فهو أفضل السبل وأكثرها قدرة على قلب توازن العدو المادي والنفسي ، بشكل تسهل فيه عملية القضاء عليه .

يجب أن يكون الهدف الحقيقي للاستراتيجية تفتيت إمكانات مقاومة العدو . ومن هنا جاء المبدأ القائل بضرورة تحديد أهداف تبادلية ، بغية الوصول إلى الهدف المعين ، بحيث لا يهدد الهجوم أحد الأهداف إلا إذا كان قادراً على التحول إلى هدف آخر . وهكذا يحقق الاستراتيجي فرصة أكبر بنجاحه في الحرب ، ويقلل من احتمالات فشله .

وهكذا عرف هتلر هذه الحقائق الاستراتيجية التي تخفى على كثير من العسكريين ، وطبق هذه الاستراتيجية النفسية المعنوية خلال حملته ، التي مهدت له الطريق لحكم ألمانيا . فاستغل نقاط الضعف في سياسة جمهورية فايمار ، واستفاد من تضارب مصالح الرأسماليين والاشتراكيين ، وأخذ يقترب من هدفه باضطراد ، وعلى مراحل ، وبمجموعة من الأعمال غير المباشرة .

فما إن أصبح سيد ألمانيا ، عام ١٩٣٣ ، حتى أعطى لهذه الطريقة أبعاداً جديدة واسعة . فقد عقد ، في عام ١٩٣٤ ، معاهدة عدم اعتداء مع بولونيا ، لتغطية جناحه الشرقي ، وأعقب ذلك بأن أعلن ، عام ١٩٣٥ ، رفض القيود المفروضة على تسليح ألمانيا وفقاً لمعاهدة فيرساي . وفي عام ١٩٣٦ أعاد تسليح منطقة الراين ، وبدأ حرباً خفية في

إسبانيا، حيث اشترك مع إيطاليا في مساعدة فرانكو على قلب حكومة الجمهورية الإسبانية. أدى هذا الهجوم غير المباشر، على المؤخرة الاستراتيجية لفرنسا وبريطانيا، إلى اضطراب في التوازن على مستوى الاستراتيجية العليا، لأنه أضعف موقفهما في الغرب، في الوقت الذي عزز فيه هتلر جناحه الغربي بتحصين منطقة الراين، وأصبح قادراً على الالتفات إلى الشرق، ليقوم بمناورات كانت نتائجها البعيدة بمثابة ضربات غير مباشرة لاستراتيجية الدول الغربية.

وفي آذار ١٩٣٨ دخل النمسا، فهدد بذلك تشيكوسلوفاكيا، وحطم النطاق الذي أحكمته فرنسا حول ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. وفي أيلول ١٩٣٨ استرد إقليم السوديت، وشل حركة تشيكوسلوفاكيا استراتيجياً. وفي آذار ١٩٣٩ احتل تشيكوسلوفاكيا، وهدد بذلك مجنبة بولونيا.

وهكذا حطم هتلر السيطرة الفرنسية في أوروبا الوسطى، وفكَّ الحصار الاستراتيجي المضروب حول ألمانيا، وقلب الوضع إلى مصلحته، وذلك بفضل **سلسلة بارعة من المناورات السلمية** دون سفك دماء، وتحت ستار من الدعاية البارعة التي تهدف إلى إقناع الرأي العام العالمي بشرعية أعماله. وبفضل ذلك زادت قوة ألمانيا زيادة مباشرة بتقوية مصادر التسليح واليد العاملة، وأخرى غير مباشرة بإضعاف قوة الأعداء الرئيسيين، بعد حرمانهم من حلفائهم وتقطيع جذورهم الاستراتيجية.

وفي ربيع ١٩٣٩، لم يعد هتلر يخشى الصراع المكشوف. وساعده في هذه الفترة الخطأ الذي ارتكبه البريطانيون، عندما ضمنوا فجأة استقلال بولونيا ورومانيا المعزولتين استراتيجياً، والمحرومتين من أي ضمان أمني من جانب روسيا، فضلاً عن تعذر مساعدتهما من جانب أية دولة. وكانت هذه الإثارة عاملاً مغرياً لهتلر، نظراً لتعذر وصول القوات البريطانية والفرنسية إلى هذين البلدين. وهكذا نسفت الدول الغربية بيدها قواعد الاستراتيجية الملائمة لوسائطها الضعيفة بالنسبة لوسائطه، وقدمت لهتلر جبهة ضعيفة ليخرقها ويحقق نصراً أولياً، بدلاً من أن تجبره على مهاجمته جبهة دفاعية قوية في الغرب.

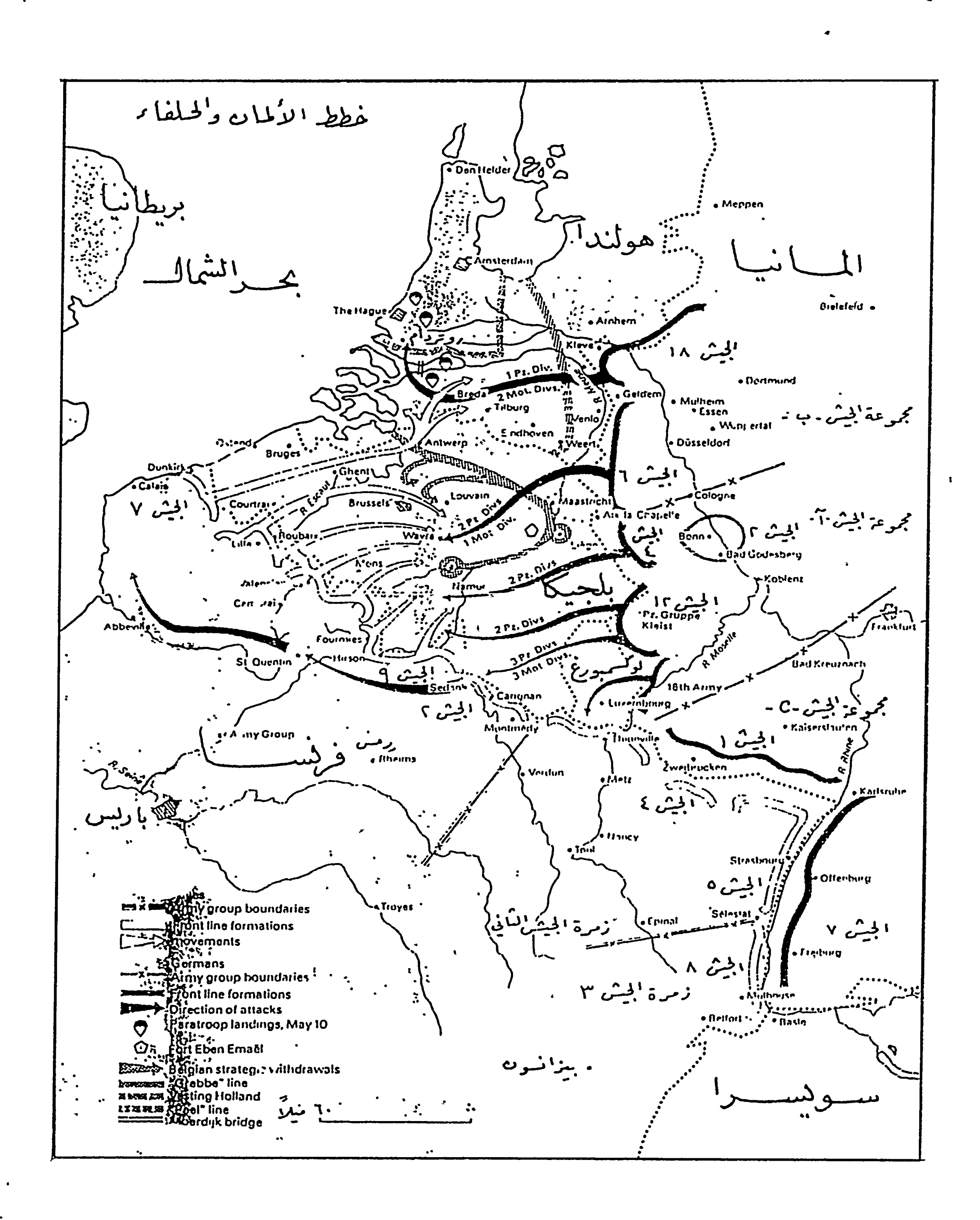
كان هتلر يعتمد في سياسته على ضرب البلاد المنعزلة، أو الضعيفة بصورة مفاجئة، وبشكل يلقي عبء الهجوم الأكبر على عاتق العدو نفسه. ولقد سنحت له

الفرصة للعمل كما يرغب دون صعوبات كبيرة. فدفعته استراتيجيته إلى عقد حلف مع روسيا لضمان حيادها. وما إن تم ذلك حتى أصبح مستعداً تماماً. فإذا أعلن الحلفاء الحرب ضده، للوفاء بالتزاماتهم، فسيجدون أنهم فقدوا ميزات الدفاع، واندفعوا مرغمين في استراتيجية هجومية، في ظروف غير ملائمة، وإمكانات غير كافية. وإذا وقفوا أمام خط زيغفريد Siegfried عاجزين، ظهر ضعفهم وضاعت هيبتهم، وإن تابعوا هجومهم زادت خسائرهم وضعف أملهم في مقاومة الهجوم الألماني، الذي سيتجه نحو الغرب بعد تأمين الجبهة الشرقية.

ولم يكن أمام الحلفاء للخلاص من هذا المأزق، ولعرقلة حرية عمل هتلر، سوى استخدام سياسة (العقاب)، والحصار الاقتصادي والسياسي، بالإضافة إلى إمداد الدول المعتدى عليها بالسلاح. وكانت هذه الطريقة حينئذ أفضل من إعلان الحرب، وتشكل حلاً مفيداً لأزمة بولونيا، مع تعريض مخططات الحلفاء وهيبتهم إلى أقل ضرر ممكن. وقد أثبت الواقع ذلك، إذ لم يؤثر هجوم الفرنسيين على خط زيغفريد، وأدت طريقة الهجوم السيئة إلى إضعاف هيبة الحلفاء. وترتب على هذا الهجوم الفاشل، والانتصارات الألمانية السريعة في بولونيا ازدياد خوف الدول المحايدة من ألمانيا، وإضعاف ثقتها بالحلفاء.

أصبح هتلر منذ ذلك الوقت، قادراً على دعم مكاسبه العسكرية واستغلال تفوقه السياسي، الناجم عن تغطية جناحه الغربي بتحصينات عجز الحلفاء، القادمون لنجدة بولونيا، عن اختراقها. وكان قادراً على مواصلة الدفاع إلى أن يتذمر الشعبان الفرنسي والانكليزي من الحرب. وقرر ساسة الحلفاء الهجوم قبل استعمال الوسائط اللازمة للتنفيذ، فألقوا بأنفسهم في أوضاع تقيد حركتهم، وأعطوا هتلر بذلك إمكانية المبادأة بتوسيع ميدان العمل. ولما كان الفرنسيون والانكليز يفكرون في استخدام الدول الصغيرة المجاورة لألمانيا، كطريق يهاجمون به مجنبته، استدار هتلر حول جناح الحلفاء واكتسح خمس دول، وأظهر بذلك عدم اكتراثه بالقواعد الدولية.

وخلال الشهور الأولى من الحرب وافق هتلر على حياد النرويج، التي تغطي جناحه وطريقه البحري المتجه إلى السويد، والذي يمر بالمرفأ النرويجي نارفيك. ولكن عندما أعلن الحلفاء، بشكل سافر، أنهم عازمون على مراقبة المياه والموانىء النرويجية، فكر



الغزو الألماني لدول غربي أوروبا

هتلر في القيام بعملية وقائية باحتلال هذه البلاد ، وقال : « سيكون هذا عملاً جريئاً وهاماً وليس له مثيل في تاريخ العالم » .

تم تنفيذ هذه الفكرة في ٩ نيسان ١٩٤٠ ، ونجحت نجاحاً منقطع النظير . فقد احتلت القوات الألمانية كل النقاط المطلوبة ، دون أن تصاب خطة الغزو بأقل فشل ، برغم وجود أهداف بعيدة مثل نارفيك .

أوقف هذا النجاح الباهر السهل رغبة الحلفاء في اجتياح النرويج ، ودفع هتلر إلى القيام بالضربة التي أعدها واعتبرها أكثر أهمية . لقد كان رأيه السابق ، في حال اندلاع حرب كبرى اتخاذ موقف الدفاع في الجبهة الغربية وانتظار هجوم الأعداء ، واندفاعه نحو البلاد الاسكندنافية والبلاد الواطئة لتقوية موقفه الاستراتيجي ، وإعطاء الدول الغربية فرصة لعقد الصلح « وليجربوا طردي ، وعندئذٍ يتحملون عبء الهجوم الأكبر » .

كان هذا تفكير هتلر السابق . أما الآن فالظروف مختلفة : لقد عرض الصلح على الحلفاء ، بعد احتلال بولونيا ، فرفضوه ، فقرر إرغام فرنسا على الركوع . وحرك جيوشه نحو الغرب للقيام بهجوم في الخريف . وتأجل هذا الهجوم لسوء الأحوال الجوية ، ولاعتقاد الجنرالات الألمان بأن قوتهم غير كافية لسحق الجيوش الانكليزية — الفرنسية . وزاد الانتظار من شوق هتلر ورغبته للعمل ، ودفعه النصر ، الذي حققه في النرويج ، إلى التحرر من نصائح جنرالاته الذين كانوا يشيرون عليه بالتريث .

وكان هتلر قد سبق وقال ، عندما ناقش إمكانات القيام بمثل هذا الهجوم : « سأناور ضد فرنسا ، خارج خط ماجينو ، دون أن أفقد جندياً واحداً » . وهذه مبالغة دون شك ، ولكنه حققها في عام ١٩٤٠ بخسائر قليلة جداً . كان محور الجهد الرئيسي الألماني ، حسب الخطة الأولى ، ينطلق من الجناح الأيمن حيث تعمل مجموعة جيوش فون بوك Von Bock . ثم تغيرت الخطة بصورة جذرية في مطلع عام ١٩٤٠ ، وانتقل محور الجهد ، بناء على حجج وأسباب قدمها الجنرال فون مانشتاين Von Manstein ، رئيس أركان مجموعة جيوش فون بوك ، حيث طالب بالقيام بحركة اختراق عبر منطقة الآردين Ardennes ، على أقل الاتجاهات توقعاً ، مما يزيد في فرص النجاح .

تميزت المعركة في الغرب بتجنب القيادة الألمانية كل انقضاض مباشر ، وباستخدام

الهجوم غير المباشر باستمرار، برغم تفوقها في الوسائط الهجومية الحديثة. ولم يحاول هتلر خرق خط (ماجينو)، ولكنه تظاهر بهجوم مشاغلة مخادع على هولندا وبلجيكا، فنجح في إخراج الحلفاء من مواقعهم الدفاعية على الحدود البلجيكية، وجذبهم للسير ناحيته. ولم يتعرض سلاح الطيران الألماني لهذه الحركة، وتركهم يتقدمون. فما إن توغلوا في بلجيكا حتى هاجمهم من الخلف، وضرب جناح الهجوم الفرنسي المكشوف.

نفذ هذا الهجوم المدمر جزء صغير من الجيش الألماني، ولكنه كان مؤلفاً من فرق مدرعة. وفهمت القيادة الألمانية بسرعة أن الحصول على نصر سريع يعتمد على استخدام القوات الميكانيكية أكثر من اعتماده على الكتل البشرية. وكان رأس الرمح الألماني ضيقاً لدرجة دفعت بعض جنرالات الألمان إلى الشك في إمكان النجاح. ولكن عناصر النجاح توفرت بسبب اندفاع القيادة الفرنسية بحماقة إلى تطبيق الاتفاقيات العسكرية المعقودة دون تبصر. فدفعت الجزء الأكبر من جناحها الأيسر في تقدم واسع عبر بلجيكا بحثاً عن المعركة، وأبقت فرقاً من الدرجة الثانية للدفاع عن نقطة ارتكاز المناورة (منطقة الآردين)، الكثيرة التضاريس، والمغطاة بالغابات، بصورة جعلت البعض يعتقدون أنه من المتعذر تقدم الفرق الآلية فيها.

بعد سيدان Sedan تقدم الألمان بسرعة، مستفيدين من تهديد أهداف مختلفة، الأمر الذي كان يضع الفرنسيين في حيرة، لا يعرفون معها اتجاه الجهد الرئيسي للهجوم. وهكذا لم يعرفوا، في بادىء الأمر، إذا كان الألمان ينوون الزحف نحو باريس، أم في اتجاه مؤخرة الجيوش الموجودة في بلجيكا. ولما استدارت الفرق المدرعة الألمانية نحو الغرب، تساءلوا: هل ستتجه نحو أميان Amiens، أو نحو ليل Lille ؟ واستغلت هذه الفرق الضباب ستاراً لها، وغيرت اتجاهها عدة مرات حتى وصلت أخيراً إلى سواحل المانش.

وقد تقدمت الجيوش الألمانية بتكتيك يتلاءم مع استراتيجيتها. فتجنبت الانقضاض المباشر، وبحثت باستمرار عن النقاط الضعيفة لتتسرب منها، وتستغل النجاح على خط المقاومة الأضعف. وعندما كان ساسة الحلفاء العاجزون عن فهم فن الحرب الحديث يطلبون من جيوشهم صد الغزو الألماني (بهجمات عنيفة متلاحقة) كانت المدرعات الألمانية تلتف حول وحدات المشاة المشلولة، وتتجاوزها دون أن تهاجمها لتتابع تقدمها في العمق. وكانت الهجمات المعاكسة لقوات الحلفاء عديمة الجدوى. وفي حين

كان قادة الحلفاء يفكرون في الاستعداد لخوض المعارك كان القـادة الألمان الشبـان يتحاشونها ويعملون على شلّ عدوهم استراتيجياً ، باستخدام القاذفات المنقضة والمظليين ، الذين زادوا في فوضى مواصلات العدو واضطرابها . وكانت النتيجة الذهول التام .

ولا يمكن تفسير الانتصارات الألمانية الرائعة بأنها ترجع فقط إلى استخـدام الإمكانات الحديثة ، والتكتيك والاستراتيجية الجديدين . فقد كان من رأي هتلر أن فن الحرب يتطلب استخدام الهجوم غير المباشر على مستوى واسع . وبالإضافة إلى ذلك فقد استخدم هتلر العملاء في البلاد التي ينوي احتلالها ، على نطاق واسع . وكان دور هذه العنـاصر تخريب المواصلات ، وبث الذعـر ، ونشر الشائعـات ، وخطـف زعمـــاء البلاد .. الخ . كما أن التدمير المعنوي للخصم أمر هام بالنسبة لهتلر ، الذي يستخدم (القصف المعنوي) لبلوغ هدفه عن طريق سلاح (الدعاية) . فقد كان يسعى دائماً لشل إرادة خصمه بدلاً من قتله ، لأن عملية القتل والتدمير أصعب وأعقد وأكثر كلفة . لقد كان هتلر أكثر القادة التاريخيين اهتماماً بالقوة الايديولوجية .

أدخل هتلر أساليب جديدة في **فن الهجوم الاستراتيجي** حتى تفوق على جميع خصومه في المرحلة الأولى من **الاستراتيجية العليا** ، التي تتضمن تطوير جميع ألوان النشاط الحربي وتنسيقها ، وجميع الوسائل التي يمكن استخدامها للتأثير على إرادة العدو . ولكنه أخطأ ، كنابليون ، في فهم المخطط الأعلى للاستراتيجية العليا ، ذلك المخطط الذي يتعلق بالإدارة العامة للحرب ، والذي يهتم أيضاً بحالة السلم التي لا بدّ وأن تعقب الحرب .

فالاستراتيجية تتعارض مع الأخلاق ، لأنها تستخدم الخداع على نطاق واسع ، بينما تنسجم **الاستراتيجية العليا** مع الأخلاق ، لأنها تتدخل كمبدأ توجيهي ، يحافظ به الاستراتيجي على الهدف الأصلي للجهود التي بذلها . لقد أدت محاولة الألمان لإثبات قوة هجماتهم إلى إضعاف مقاومتهم في مجالات أخرى ، استراتيجية واقتصادية ومعنوية ، إذ أشاعت جيوشهم ، المنتشرة في طول أوروبا وعرضها ، البؤس دون أن تحقق السلام ، فبذرت بذلك بذور حقد انطلقت منها المقاومة ضد الايديولوجية الألمانية . وشعرت وحداتهم بآثار هذا الحقد باحتكاكها مع الشعوب المحتلة ، فتأثرت من جراء ذلك ، وضعفت عندها جذوة الحماسة الحربية التي كان هتلر يذكيها باستمرار .

ويقول ليدل هارت : «إن هتلر أعطى ، بتوسيع رقعة هجومه ، الفرصة لأعدائه الباقين ليناضلوا ويتفوقوا عليه في النهاية . ولكن تفوقهم جاء متأخراً ، وكان من الممكن الحصول عليه بصورة أسرع لو أن الحلفاء كانوا يفهمون بشكل أوسع فكرة الاستراتيجية العليا» .

وزاد بقاء بريطانيا غير محتلة من فرص نجاح الحلفاء ، لأن هتلر كان عاجزاً عن فرض إرادته دون الحصول على نصر كامل يشمل احتلال بريطانيا . وكان توغله في البلاد المعادية يزيد حجم وصعوبة مشاكله الناجمة عن قهر الشعوب المحتلة . وأصبحت كل خطوة يخطوها إلى الأمام تحمل في طواياها احتمالات الخطر والفشل . أما موقف بريطانيا فكان أبسط وأقسى في آن واحد . لقد كان عليها أن تقاوم بعنف ، إلى أن يرتكب هتلر ، كما ارتكب من قبله نابليون ، خطأ فاحشاً لا يمكن إصلاحه . ولعب الحظ إلى جانبها فجاء هذا الخطأ مبكراً ، وقبل أن تضعف إلى درجة حرجة . وما إن وقع هتلر في الخطأ حتى تعذر تداركه ، لأن هتلر لم يفهم الاستراتيجية الدفاعية بالشكل الرائع الذي فهم به الاستراتيجية الهجومية ، كما أن انتصاراته الساحقة الأولى دفعته إلى الاعتقاد ، كما فعل نابليون ، بأن الهجوم يحل جميع المشاكل .

الأسلوب الهجومي الذي سارت عليه القيادة الألمانية

يعتبر احتلال الألمان بولونيا ، عام ١٩٣٩ ، واجتياحهم أوروبا الغربية ، في العام ١٩٤٠ ، مثلاً رائعاً في التاريخ العسكري على قيمة نظرية الحرب الآلية السريعة . لقد وضعت هذه النظرية في إنكلترا ، ثم استخدمها الألمان بفضل جهود الجنرال غودريان Guderian مؤسس الجيش المدرع الألماني . هذا السلاح الجديد الذي كان ثورة في فن الحرب ، وعاملاً على تعديل مجرى التاريخ ، وتغيير خارطة أوروبا ، وإعادة توزيع القوى في العالم ، بعد هزيمة ألمانيا بين الكتلة الأمبريالية التي تتزعمها الولايات المتحدة الأميركية والكتلة الاشتراكية التي يتزعمها الاتحاد السوفييتي .

وتعطي الحملات الهجومية الألمانية الناجحة دلالة عظيمة ، في مجال فن الحرب وتوازن القوى ، على نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر . ذلك أن مرونة الوحدات

الميكانيكية ، وقدرتها على الحركة ، أعطيتا الهجوم غير المباشر قدرة أكبر وإمكانات متزايدة .

٢ ـــ الهجوم الاستراتيجي الألماني على بولونيا

كان الموقف في بولونيا يسمح بالقيام بالعملية بشكل كامل ، إذ كان طول جذورها مع ألمانيا ٢٠٠٠ كيلو متر ، ثم زادت ٨٠٠ كم ، بعد أن احتل الألمان تشيكوسلوفاكيا . وهذا يعني تعرض مجنبة بولونيا الجنوبية لنفس خطر الغزو الذي تتعرض له مجنبتها الشمالية الواقعة مقابل بروسيا الشرقية . ولم تكن لبولونيا في الحقيقة سوى بروز كبير بين فكي الكماشة الألمانية .

وزاد شكل انتشار القوات البولونية من خطورة الموقف ، إذ كانت الكتلة الرئيسية من الجيوش البولونية مدفوعة بعمق داخل البروز ، وذلك بسبب الرغبة البولونية الطبيعية لتغطية القطاعات الصناعية الهامة ، الواقعة غربي نهر الفستولا ، والكبرياء القومية ، وثقة العسكريين البولونيين المفرطة .

كان تعداد الجيش البولوني ، في زمن السلم ، يعادل تعداد الجيش الفرنسي ، وهو أقل بقليل من الجيش الألماني . وكان يتألف من ٣٠ فرقة مشاة و١٢ لواء خيالة . ولكن الموارد الصناعية البولونية عاجزة عن تجهيز هذه القوات وإمدادها على المستوى المناسب . وعندما أعلنت بولونيا التعبئة العامة زادت عدد فرقها بمقدار الثلث فقط ، بينما استطاعت ألمانيا مضاعفة فرقها ، باستثناء الفرق المدرعة .

وكانت الأراضي البولونية سهلة مناسبة للغزو ولكنها ضعيفة بالطرق البرية والطرق الحديدية ، وكثيرة البحيرات والغابات ، ولكن الألمان اختاروا زمن الهجوم بشكل يقلل هذه المساوىء .

بدأ الغزو من الشمال بمجموعة جيوش فون بوك Von Bock . وكانت تتألف من الجيش الثالث بقيادة كوخلر Küchler والجيش الرابع بقيادة فون كلوغه Von Kluge . وكان الجيش الثالث يهاجم باتجاه الشرق ، عبر الممر البولوني ، ليتصل مع كوخلر ، ويحيط بالجناح الأيمن للعدو .

أما الدور الأساسي فقد أعطي لمجموعة جيوش فون رونشتدت Von Rünstedt ، التي قامت بالغزو من الجنوب . وكان عدد جنود المشاة فيها ضعف المشاة الموجودة في مجموعة فون بوك . وكانت تضم الجيش الثامن بقيادة بلاسكوفتس Blaskouvitz والجيش العاشر بقيادة رايخناو Reichenau ، والجيش الرابع عشر بقيادة الجنرال زيغموند ليست S . List . وكانت مهمة جيش بلاسكوفتس ، الواقع على الجناح الأيسر الزحف نحو المركز الصناعي الكبير في لودز Lodz ، والاشتراك في عزل الجيوش البولونية الموجودة في جيب بوزنان Poznan ، مغطياً في الوقت نفسه مجنبة جيش رايخناو . وكان على ليست ، الواقع على الجناح الأيمن الاندفاع نحو كراكوف Krakow ، والاستدارة حول المجنبة البولونية في جبال الكاربات ، مستخدماً فيلقاً مدرعاً لاجتياز ممرات جبلية ، على أن يقوم رايخناو المجهز بمعظم القوات المدرعة بالضربة الحاسمة .

بدأ الغزو في الأول من أيلول ١٩٣٩ . وعندما دخلت انكلترا وفرنسا الحرب في ٧ أيلول ، تنفيذاً لمعاهدتهما مع بولونيا ، كان فون كلوغه قد قطع الممر البولوني ، ووصل إلى الحوض السفلي لنهر الفستولا Vistula ، بينما ازداد ضغط كوخلر ، القادم من بروسيا الشرقية نحو نهر ناريف Narew . والأهم من ذلك كله وصول قوات رايخناو المدرعة إلى نهر فارتا Warta وعبوره ، ثم تقدم جناحي ليست للإحاطة بكراكوف على شكل كماشة . وفي ٤ أيلول عبر رأس حربة رايخناو نهر بيليكا Bilika على مسافة ٨٠ كيلو متراً من الحدود .

وأصدر الجنرال براوختش Von Brauchitsch ، القائد العام للجيوش الألمانية ، أمراً بالتقدم مباشرة نحو الشرق واقتحام نهر الفستولا . ولكن الجنرال فون رونشتدت ورئيس أركانه فون مانشتاين أجريا بعض التعديل في الخطة الموضوعة ، عندما قدرا أن الجيوش البولونية الرئيسية لا تزال موجودة غرب نهر الفستولا ، ويمكن إيقاعها في الفخ هناك . وتقدم جناح رايخناو الأيسر يسبقه فيلق مدرع ، وتوجه نحو الشمال ، نحو مؤخرات التجمعات البولونية الهامة المتكتلة حول لودز ، ثم تلقى الأمر باحتلال موقع يغلق مخارج نهر البزورا Bzura بين لودز وفارسوفيا . وكانت هذه الحركة غير منتظرة ، فلم تصادف مقاومة كبيرة ، ونتج عن ذلك عزل القوات البولونية المتجمعة ، ومنعها من الانسحاب إلى ما وراء نهر الفستولا .

وقد حصل الألمان على هذا التفوق بفضل توغلهم الاستراتيجي العميق عبر الخط الأقل توقعاً ومقاومة . وقاتل الجيش البولوني بضراوة وشجاعة ، اعترف بهما الألمان ، ولكنه لم يستطع فك الحصار والانضمام إلى حامية فارسوفيا إلّا بأعداد صغيرة .

وفي ١٠ أيلول ، أعطى القائد العام البولوني المارشال ريدز ـــ سميغلي Rydz - Smigly الأمر بالانسحاب العام لجميع القوات المتبقية نحو الجنوب الشرقي لبولونيا . وكان يأمل في تنظيم الدفاع على جبهة أصغر نسبياً لإطالة مدة المقاومة ، ثم ضاع هذا الأمل بسبب عمق التوغل الألماني غربي الفستولا ، وقيام الألمان بإجراء مناورة كماشة أكبر اتساعاً تلتف حول الخطوط الدفاعية البولونية المحتملة على نهري سان San وبوغ Bug . وفي ١٤ أيلول كان تقدم القوات الألمانية قد وصل إلى خط برست ـــ ليتوفسك على نهر بوغ ، ودفعت القوات الألمانية إلى شرقه ، مما جعل تدمير القوات البولونية أمراً محتوماً .

٣ ـــ الهجوم الألماني نحو الغرب

في بداية تشرين الأول ١٩٣٩ ، وبعد انتهاء عملية بولونيا ، أعطى هتلر أوامره الأولية للهجوم على الغرب . وعندما تأكد أن بريطانيا وفرنسا لا تنويان عقد الصلح أسرع في العمل « لأن فترة انتظار طويلة تعني تقوية قدرة أعدائنا العسكرية إلى درجة كبيرة » ، الأمر الذي قد يدفع المحايدين للانضمام إلى جبهة الحلفاء . وكان هتلر يدرك أن الزمن يعمل ضده ، فإذا انتظر ، كما ينصحه مستشاروه ، حصل الحلفاء على التفوق ، كما أن حرباً طويلة قد تؤدي إلى جفاف الموارد الألمانية المحدودة ، وتعرضها ، بعد ذلك ، لهجوم روسي حاسم على مؤخراتها ، خاصة وأن المعاهدة مع ستالين لا تضمن حياد روسيا مدة طويلة ، إلا إذا كان ذلك في مصالح ستالين . كل هذا دفع هتلر إلى التفكير في إرغام فرنسا على عقد الصلح ، بتأثير هجوم ينطلق مبكراً ، لاعتقاده بأن هزيمة فرنسا سترغم انكلترا على الاعتذار والانسحاب بهدوء .

لقد كان لدى هتلر في هذا الوقت من القوة والعتاد ما يسمح له بالتغلب على فرنسا . وكانت ألمانيا متفوقة في مجال التسليح الحديث ، وقد بلغ سلاحها المدرع وسلاحها الجوي درجة عالية من الكفاءة ، لم تبلغها أية دولة أخرى في المجالين الهجومي

والدفاعي. وكانت إمكاناتها الاستراتيجية في العمليات تقوم على تنظيم جيد وقيادة محنكة لم يعرفهما بلد آخر.

وبرغم الاعتراف بتفوق فرنسا في التسليح التقليدي، وخاصة في مجال المدفعية الثقيلة، فلم يكن لأسلحتها أي تأثير حاسم في حرب الحركة. هذا علاوة على أن تفوق الأسلحة الألمانية الحديثة كان كافياً ليعوضها عن تفوق فرنسا العددي في حالة التعبئة العامة.

وكان القادة العسكريون الألمان يرون أن من الحكمة اتخاذ إما موقف دفاعي إلى أن تتجه فرنسا وبريطانيا بالتدريج نحو السلم، وإما القيام بهجوم يدفع الحلفاء إلى القيام بتدابير يردون عليها بهجوم مضاد. ورفض هتلر كل هذه الاعتراضات، وحدد تاريخ الهجوم في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني، ثم تأخر مرات متتالية حتى أيار.

وخلال هذه الفترة أدخلت تعديلات كبيرة على خطة الغزو. فقد اقترح فون مانشتاين نقل مركز الثقل من اليمين إلى المركز، ووضع الجهد الرئيسي في الآردين، وهو الخط الأقل توقعاً من قبل العدو، وكان يعتقد أنه يمكن استخدام الوحدات المدرعة هناك بنجاح برغم صعوبة الأرض، وأيد وجهة نظره خبير المدرعات في الجيش الألماني الجنرال غودريان Guderian.

وقد أثارت هذه الفكرة الجريئة إعجاب هتلر. ولكنه لم يتخذ قراراً بتعديل الخطة الأساسية إلا بعد حادثة مفاجئة، مؤداها أن ضابطاً من هيئة الأركان العامة الألمانية، كان ينقل في طائرته في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٠ وثائق تتعلق بالخطة الأساسية، وقد ضل هذا الضابط طريقه بسبب عاصفة ثلجية، وهبط خطأ في الأراضي البلجيكية. وبرغم هذه الظروف تردد القائد العام ورئيس الأركان العامة في تعديل الخطة تعديلاً جذرياً، كما يرغب فون مانشتاين، وعندئذ تجاوز مانشتاين رؤساءه وقابل هتلر شخصياً، وحصل على تأييده الحاسم لخطته الجريئة.

خلال هذا الوقت قام الألمان بعمليات إنذار وهمية بقصد الخداع، دفعت الحلفاء إلى كشف خططهم بشأن اعتزامهم الهجوم على ألمانيا عن طريق بلجيكا، الأمر الذي عزز موقف الذين يؤيدون تعديل الخطة الألمانية حسب فكرة فون مانشتاين.

وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك بأن الخطة الأساسية الملغاة، لم تكن تستطيع تحقيق نتيجة حاسمة مثل انهيار فرنسا، لأن التقدم الألماني المباشر كان سيصطدم بأقوى أجزاء الجبهة الأنكلو فرنسية وأكثر تجهيزاً من الناحية الدفاعية، ويضطر إلى شق طريقه في منطقة مليئة بالحواجز، كالأنهار والقنوات والمدن الصناعية الكبيرة. وقد تبدو منطقة الآردين أكثر صعوبة، ولكن إذا استطاعت القوات الألمانية اجتياز هذا النطاق المغطى بالنباتات والتضاريس، الذي يقع جنوبي بلجيكا، بسرعة، ودون أن تشعر القيادة الفرنسية بالخطر، فإن سهول فرنسا ستصبح مفتوحة أمام تقدم الجيوش الألمانية، وتشكل أرضاً مثالية لعمليات واسعة النطاق تقوم بها القوات المدرعة.

لقد كان فون مانشتاين يتوقع رغبة الحلفاء في الزحف عبر بلجيكا، وكان يأمل الاستفادة من مثل هذه الحركة. وكانت تقديراته كلها صحيحة، لأن دور الجناح الأيسر للحلفاء في خطة القائد العام، التي أعطيت رمز (الخطة د) كان التوغل في بلجيكا، منذ بدء الغزو الألماني، والاندفاع نحو الشرق، حتى نهر ديل **Dile**، أو أبعد من ذلك إذا أمكن. ولقد برهنت الوقائع، بعد ذلك، على أن الخطة د كانت قاتلة للفرنسيين. إذ إنها كانت تجعل من هجوم الألمان هجوماً مضاداً على المجنبة، وجعلت الحلفاء يتوغلون في بلجيكا، بشكل يساعد عمليات الألمان في الآردين على الوصول بسهولة إلى مؤخرات الحلفاء وعزلهم عن جناحهم الأيمن.

وغدت النتيجة حاسمة تماماً، عندما اندفع الجنرال غاملان **Gamlin** بمعظم قواته المدرعة، في عملية بلجيكا، ولم يترك لحراسة المركز الذي تدور حوله المناورة مقابل الآردين إلا ستارة ضعيفة من وحدات قليلة. ولما قام الألمان بخرق هذه النقطة لم يفقد غاملان توازنه فحسب، بل أصبح عاجزاً عن تعديل الموقف، نظراً لوجود قواته، القادرة على تحسين الوضع وسد الثغرة، بعيداً داخل بلجيكا، وهكذا فقد غاملان مرونته الاستراتيجية، نتيجة لدفعه قواته بسرعة تزيد عما ينبغي إلى الأمام.

وفي بادىء الأمر أدت الضربات الألمانية الأولية التي وجهت إلى هولندا، والتي شغلت العدو ولفتت أنظاره بشكل فعّال، إلى تغطية خطورة خرق منطقة الآردين. وقد أصيب الجيش الهولندي ببلبلة شديدة، من جراء إغارات قوات ألمانية أنزلت من الطائرات في منطقة مؤخراته، في الوقت نفسه الذي تعرض فيه لهجوم جبهي عنيف، واضطر

للاستسلام، بعد خمسة أيام. كما تم خرق مواقع الجيش البلجيكي الأمامية في اليوم التالي، فانسحب إلى خط آيفيرس ـــ نانور، حيث انضمت إليه القوات الفرنسية والبريطانية.

وصباح يوم ١٠ أيار ١٩٤٠، قامت القوات الألمانية المحمولة جواً بإغارة مفاجئة في هولندا على العاصمة لاهاي، وعلى مدينة روتردام، مركز المواصلات الهام، وذلك في الوقت نفسه الذي قامت فيه القوات الألمانية بهجوم على الحدود، على بعد ١٦٠ كيلو متراً إلى الشرق. فانتشرت الفوضى، ودب الهلع في البلاد من جراء هذه الصدمة المضاعفة على الجبهة والمؤخرة. وزاد من خطورة الموقف نشاط الطيران الألماني الذي أثبت وجوده في كل مكان.

كان للغزو المباشر، الذي قامت به القوات الألمانية ضد بلجيكا، صفة هجوم غير مباشر من الناحية النفسية (السيكولوجية)، وذلك بفضل الضربة الأولية التي فتحت الطريق أمام المهاجمين. لقد كان الجيش الألماني السادس القوي الذي يقوم بالهجوم الرئيسي بقيادة رايخناو مضطراً لاقتحام حاجز مائي كبير، قبل أن يستطيع الانتشار. فأرسلت القيادة العامة ٥٠٠ رجل من الوحدات المحمولة جواً لمساعدته في مهمته. وكلفت هذه القوة باحتلال جسرين على قناة ألبرت Albert وحصن ايبن Aiben، وهو أحدث حصن في بلجيكا، ويقع على مجنبة القناة على الحدود. وكان لهذه الوحدات برغم صغرها دور حاسم في العملية كلها، فقد كان أمام الحراس البلجيكيين الوقت الكافي للإنذار، ولنسف الجسور، قبل أن يتمكن الألمان من اجتياز الحدود. ولكن الوحدات المحمولة جواً نزلت بسكون في ظلام الليل، واحتلت الجسور سليمة، كما تم شل حصن ايبن بمفرزة مؤلفة من ٨٠ رجلاً هبطوا على بروجه، واستطاعوا تجميد ١٢٠٠ رجل لمدة ٢٤ ساعة كانت كافية لوصول القوات الألمانية واحتلال الحصن.

واضطرت الجيوش البلجيكية، أمام هذا الخطر، إلى التراجع نحو نهر ديل، حيث كان الفرنسيون والانكليز قد وصلوا منذ وقت قريب.

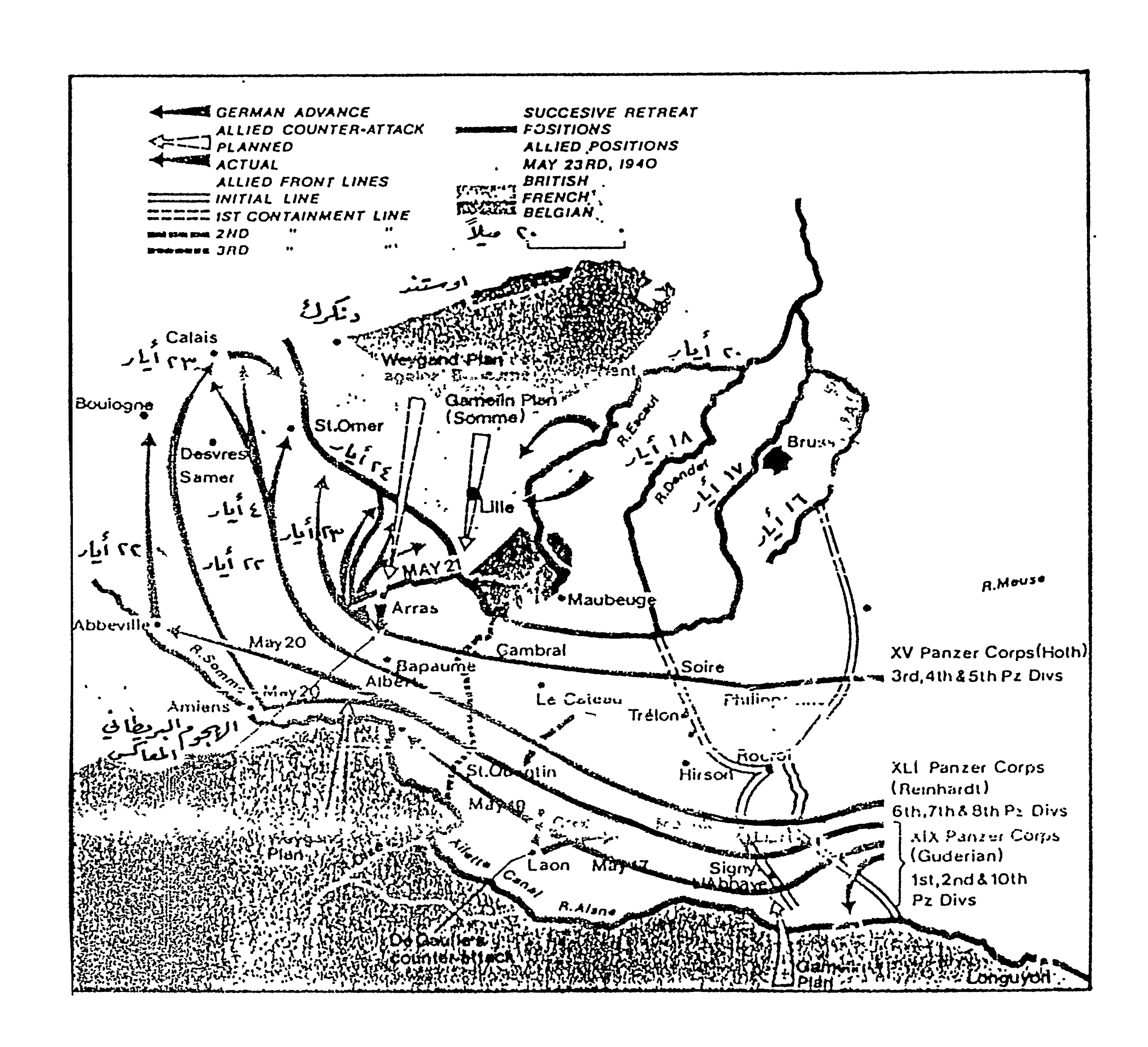
إن عمليات القوات المحمولة جواً، التي نفذها الألمان في هولندا وبلجيكا كانت من وحي هتلر نفسه. وقد نفذها الجنرال الجريء شتودنت بمهارة فائقة، بينما كانت التشكيلات المدرعة في مجموعة جيوش فون رونشتدت تجتاز اللوكسمبورغ مندفعة نحو

الحدود الفرنسية . وكانت هذه التشكيلات المؤلفة من ٥ فرق دبابات و ٤ فرق صفحة ، تحت قيادة الجنرال فون كلايست Von Kleist ، وكان رأس حربتها فيلق الجنرال غودريان ، المؤلف من ثلاث فرق مدرعة ، قد زحفت ١١٠ كيلو مترات في الآردين ، بعد سحق مقاومـات ضعيفـة ، وعبر الحدود الفرنسيـة ، ووصل إلى ضفـاف نهر الموز Meuse في صبيحة اليوم الرابع للهجوم .

وكان غودريان قد اقترح في شباط ١٩٤٠ أن تقوم التشكيلات المدرعة بمهاجمة الموز بأقصى سرعة ممكنة دون انتظار وصول المشاة والمدفعية . وقد انتقد هالدر Halder هذا الاقتراح ، واعتبر أن مدة ٩ أو ١٠ أيام هي أقصر مدة يمكن بعدها القيام بالهجوم المنشود . ولكن هتلر وافق على فكرة غودريان . ولما وصل فيلق غودريان إلى نهر الموز قرب سيدان Sedan ، في ١٣ أيار اندفع في اقتحامه إلى الضفة الأخرى ، بعد ظهر اليوم نفسه . وفي المساء تم اقتحام النهر ، واستطاعت مقدمة أرتال الفرقة المدرعة السادسة ، التي كان يقودها رومل Rommel عبورَ النهر في ١٣ أيار ، فشتت بذلك انتباه العـدو ، وأوجـد الفرصة الملائمة لتنفيذ عمليات تفتيت المواقع الفرنسية بعد اختراقها .

وفي يوم ١٤ أيار ، بعد الظهر ، عبرت فرق غودريان الثلاث كلها نحو نهر الموز ، وبعد أن صدت هجوماً مضاداً متأخراً قامت بتبديل مفاجىء في اتجاهها وزحفت نحو الغرب . وفي مساء اليوم التالي اخترقت آخر خط دفاعي خلف نهر الموز ، وأصبحت طرق الغرب المؤدية إلى شواطىء بحر المانش ، الواقعة على بعد ٢٥٠ كيلو متراً مفتوحة أمام دبابات البانزر .

وفي ليلة ١٥ أيار ، تلقى غودريان آمراً من فون كلايست بالحذر ، وبالتوقف وتقوية المواضع المحتلة ، إلى أن تلحق به قوات المشاة . وبعد مناقشة حامية عدل الأمر ، ونال غودريان الموافقة على أن يمد رأس جسره بعمق محدود . فاندفع نحو الغرب مسافـة ٨٠ كيلو متراً ووصل إلى نهر الواز Oise في اليوم التالي . ثم لحقت به بقية التشكيلات المدرعة ، التي وسعت الثغرة حتى بلغت ١٠٠ كيلو متر ، واندفعت كسيل على الطرق الواقعة على مؤخرات جيوش الحلفاء الموجودة في بلجيكا ، وهكذا فقد الحلفاء صوابهم لفترة من الزمن ، وعجزوا عن معرفة ما إذا كانت القوات الألمانية تبغي الوصول إلى باريس ، أو إلى شواطىء بحر المانش .



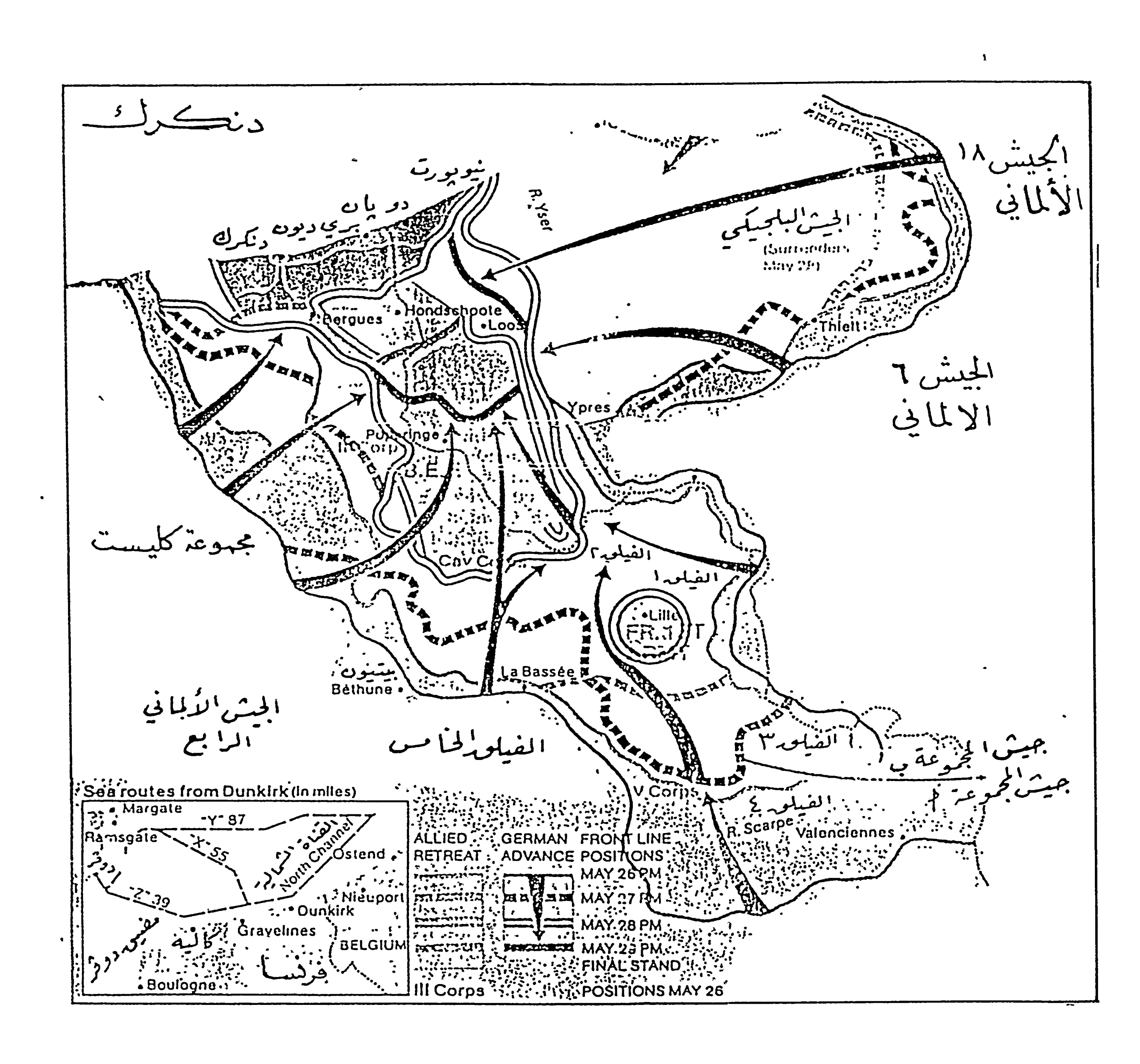
ممر دبابات البانزر الألماني نحو بحر الشمال والذي قطع قوات الحلفاء إلى قسمين

وضاعت ردود الفعل الفرنسية كلها في الهواء، لأن تنفيذها كان بطيئاً جداً، ولا يتلاءم مع سرعة تطور الموقف. ويعود ذلك إلى سرعة مناورة الألمان، حيث كانت أسرع من مناورة خصومهم. وهكذا شُلَّت حركة الفرنسيين. وكان ضعفهم الأساسي كافياً في تفكيرهم وليس في كمية أو نوع عتادهم، لأن تقدمهم الفكري، بعد الحرب العالمية الأولى، كان أقل من تقدم خصومهم.

أما القيادة الألمانية العليا فكانت تخشى، حتى ذلك الوقت، من خطر تنفيذ استراتيجية تتطلب مثل هذا التوغل العميق، بواسطة مجموعة من الفرق المدرعة. وكان هتلر نفسه متوتر الأعصاب. وقد دفعه قلقه على مصير المجنبة الجنوبية إلى إيقاف التقدم نحو الغرب مدة يومين، إلى أن يصل الجيش الثاني عشر إلى نهر ايسن Aisne، بحيث يشكل درعاً يحمي المجنبة على طول النهر. ولقد أثر هذا التوقف على الخطة الألمانية، وكاد أن يؤدي إلى فشلها، لو لم تكن حالة الشلل الفرنسية كاملة. ثم تردد هتلر بعد أسبوع مرة أخرى بصورة كلفت القوات الألمانية الشيء الكثير. ولكن مكاسب الألمان السابقة، وضعف العدو قلل من خطورة هذا التوقف على نهر الواز. ومع ذلك ظهر بين الألمان اختلاف في تقدير مفهوم الزمن. وكان الاختلاف بين المدرستين الألمانيتين، القديمة والحديثة، أوضح من الاختلافات بين أفكار الألمان والفرنسيين.

وأصبح غودريان على توقف ١٧ أيار، وطلب إعفاءه من منصبه. لكنه عاد بعد قليل إلى قيادته، وطلب منه القيام (باستطلاع قوي). وفهم من ذلك أن الصلاحيات لديه أصبحت تخوله دفع قواته إلى الأمام بالقوة التي يريدها. وعندما أعطي له الأمر بالتقدم كان تقدمه أسرع. وفي ١٠ أيار احتل أميان Amiens، ووصل إلى البحر خلف ابفيل Abbeville، فقطع بذلك مواصلات جيوش الحلفاء الباقية في بلجيكا.

وفي ٢٢ أيار، اضطر لقبول توقف جديد مدة ٢٠٤ ساعة، بناء على أوامر قيادته، ثم سار نحو الشمال باتجاه موانىء بحر المانش، على مؤخرات الجيش البريطاني، الذي كان لا يزال يرابط في بلجيكا، من أجل ضد تقدم مشاة بوك الجبهي. وكان يسير على يمين غودريان في أثناء توجهه نحو الشمال فيلق الجنرال راينهاردت Reinhardt المدرع، الذي أخذ من مجموعة جيوش فون كلايست Von Kleist. وفي ٢٢ أيار تم عزل مدينة بولوني Boulogne، ثم عزلت كاليه Calais في اليوم التالي. واستمر التقدم حتى غرافلين على



تطويق وتدمير القوات الحليفة في دونكرك ومعركة السوم

مسافة ١٦ كيلو متراً من دونكرك. ووصلت دبابات راينهاردت إلى خط لير ــ سان اومير ــ غرافلين، وشكلت بعد ذلك رأس جسر. ثم توقف التقدم نحو دونكرك (باب انسحاب الانكليز الأخير) بناء على أوامر هتلر. وهذا هو الذي أنقذ الجيش البريطاني بعد وقوعه في الفخ، من المصير الذي لقيته الجيوش البلجيكية، ومعظم الجيوش الفرنسية الثلاثة الموجودة على الجناح الأيسر للحدود الفرنسية. ثم أعطى هتلر أوامره بمتابعة الهجوم بعد يومين. وكان الدفاع قد اشتد وانتظم، فاستطاعت مفارز التغطية إيقاف الألمان وقتاً كافياً لتأمين انسحاب ٢٢٤ ألف جندي بريطاني و١١٤ ألفاً من جنود الحلفاء، معظمهم من الفرنسيين عبر البحر. ولكن هذا، مع ذلك، لم يمنع الألمان من أن يأسروا مليون رجل، دون أن يفقدوا أكثر من ٦٠ ألفاً من جنودهم. ويعود هذا إلى هجومهم الواسع غير المباشر.

ولا يمكن، حتى الآن، معرفة الأسباب التي دفعت هتلر إلى إيقاف تقدم قواته غرب دونكرك. ولكننا إذا تفحصنا الواقع، وجدناه يعلن بنفسه عن مخاوفه من أن تغوص دباباته في أراضي الفلاندر المليئة بالمستنقعات، وهي ذكرى ظلت عالقة في ذهنه منذ أن كان عريفاً في الجيش في الحرب العالمية الأولى. وقد يكون السبب أيضاً رغبته في الاحتفاظ بجيش مدرع سليم يقوم بالضربة الحاسمة في فرنسا. أو أنه خشي وقوع معظم قواته المدرعة الآلية في معارك طويلة ضد عدو لا منجى له يدافع بقسوة عن بقائه. أو أيضاً، قناعته بالمعلومات التي نقلها له غورنغ بأن الطيران الألماني قادر على منع انسحاب الجيوش الانكليزية الواقعة في الفخ عن طريق البحر.

بدأت المرحلة التالية والأخيرة من المعارك في ٥ حزيران ١٩٤٠، أي في اليوم التالي لدخول الألمان دونكرك. وانطلق الهجوم بصورة تثير الذهول، إذ إن القوات الألمانية، التي أنهت عملياتها الهجومية في اتجاه الشمال الغربي، استدارت نحو الجنوب لتقوم بالضربة الجديدة. ويمكن اعتبار هذا التجمع السريع للزحف، في اتجاه جديد، دليلاً آخر يؤكد التطور الثوري الذي أدخل على الاستراتيجية عن طريق سرعة حركة التشكيلات والوحدات الميكانيكية.

انطلق الهجوم الجديد على الجبهة الجديدة المؤلفة من بقايا الجيش الفرنسي على نهري السوم Somme وأين Aisnes، وكانت جبهته أطول من الجبهة السابقة، وذات

إمكاناتٍ أقل. وكان الفرنسيون قد فقدوا حتى ذلك الوقت، ٣٠ فرقة، بالإضافة إلى معظم القوات الحليفة، باستثناء فرقتين بريطانيتين. عندئذٍ جمع الجنرال الفرنسي ويغان Weygan، الذي حل محل غاملان، ٦٦ فرقة، ووضع ١٧ منها في خط ماجينو، وأنشأ بما تبقى خطاً دفاعياً على نهري السوم وأين.

وقامت جيوش فون بوك بالهجوم في ٥ حزيران. وبعد ٤ أيام فقط قام رونشتدت بهجومه. ولم ينجح الهجوم الرئيسي في هجوم بوك بشكل جيد وبعمق كاف إلا في أقصى اليمين، وذلك عندما اخترقت فرقة مدرعة بقيادة الجنرال رومل، في اليوم الثالث للهجوم خطوط الدفاع الفرنسية. وقد أمكن إنجاز هذا الخرق السريع بفضل جرأة رومل التي لم يستطع أعداؤه توقعها، بسبب تفكيرهم التقليدي الضيق. وذلك عندما قفزت وحداته واستولت بسرعة على جسرين سليمين غلى نهر السوم، ودفع دباباته إلى الضفة المقابلة بلا تردد.

وفي مساء اليوم الأول كانت قواته قد تغلغلت مسافة ١٣ كيلو متراً داخل مواقع العدو، وفي اليوم الثاني توغلت ٣٢ كيلو متراً، وفي اليوم الثالث ٤٨ كيلو متراً، منتشرة في مختلف الأراضي خارج الطرق، وملتفة حول مفارق الطرق التي يراقبها العدو ويدافع عنها. وأدى هذا الخرق العميق إلى تفتيت الجيش الفرنسي العاشر وتدميره. عندئذٍ اندفعت فرق ألمانية أخرى في الثغرة المفتوحة، وفي مساء ٨ حزيران، وهو اليوم الرابع للهجوم، وصل رومل إلى نهر السين Seine، شمالي مدينة روان Rouens، بعد تقدم صاعق بلغ عمقه ٦٤ كيلو متراً، عبر خطوط العدو الدفاعية المضطربة، التي نظمت على عجل قرب روان والسين. واستطاع رومل اقتحام النهر، قبل أن يتمكن الفرنسيون من جمع الوسائط اللازمة للدفاع الجيد عن هذا الحاجز العريض الفعال. وفي اليوم العاشر من الهجوم، قامت فرقة رومل بحركة التفاف طولها ٨٠ كيلو متراً، وقطعت طريق الانسحاب أمام الجناح الأيسر للجيش الفرنسي العاشر، المؤلف من خمس فرق، منها الفرقة الانكليزية ٥١. ولما أحسّت هذه الفرق بأنها أصبحت محاصرة استسلمت في ١٢ حزيران في سان فاليري.

خلال ذلك، اصطدم الهجوم الرئيسي، الذي قام به الجناح الأيمن للجيوش

الألمانية على السوم بمقاومة أكبر. وكان هذا الهجوم على شكل كماشة، يقوم به فيلقان مدرعان بقيادة فون كلايست، ابتداء من رؤوس الجسور المحتلة على نهر السوم، في بيرون وأميان. واخترق طرف الكماشة الأيمن، المنطلق من أميان الدفاع الفرنسي في ٨ حزيران، وتقدم نحو الجنوب في اتجاه حوض نهر الواز الأسفل، بينما لاقى الطرف الأيسر مقاومة عنيدة شمالي كومبين.

وفي هذه الأثناء، كانت مجموعة رونشتدت تهاجم على طول نهر أين، وفي ٩ حزيران اخترقت الدفاع الفرنسي بسرعة. عندئذ قررت القيادة العليا الألمانية سحب فيلقي كلايست المدرعين وإرسالهما للزج في الثغرة الواسعة المفتوحة على دفاع نهر أين، بقصد استغلال هزيمة الفرنسيين في شمبانيا. إن هذه المناورة السريعة، التي تمت على جبهة واسعة ووعرة، تعتبر مثالاً جديداً على مرونة السلاح المدرع وقدرته على الحركة.

وقام غودريان مرة أخرى بالضربة الحاسمة، ونفذ بشكل رائع استراتيجية الخرق العميق، المتسمة بالهجوم غير المباشر. وذلك عندما عين قائداً للمجموعة المدرعة التي يرأسها الجنرال رونشتدت. وكان فيلقا المجموعة على نهر أين، قرب مدينة ريتل Rethel، بعد أن قاما بحركة طولها ٣٢٠ كيلو متراً ابتداء من الشواطىء الفرنسية لبحر المانش. فبعد أن احتلت مشاة الجيش ١٢ ثلاثة رؤوس جسور صغيرة وراء نهر أين، ومدينة شاتو تييري، دفع غودريان فرقة المقدمة المدرعة خلال الليل وعبر النهر من رؤوس الجسور. وفي صبيحة اليوم التالي اكتسح الأراضي المنبسطة أمامه بسرعة، ملتفاً حول القرى والغابات التي يدافع عنها الفرنسيون، وتدخلت المدرعات الفرنسية في القتال، وجرت سلسلة من معارك الدبابات، ومع ذلك استطاعت الدبابات الألمانية التوغل، خلال يومين، لمسافة ٣٢ كيلو متراً. وفي اليوم الثالث وصل جناح غودريان الأيمن إلى مدينة شالون سور مارن Chalons Sur Marnes، ثم وصل في اليوم الرابع إلى مدينة فيتري لو فرانسوا، على بُعد ١٠٠ كيلو متر من قاعدة الانطلاق. وتقدم جناحه الأيسر ليصبح في مستوى جناحه الأيمن، بعد أن صد هجمات مضادة جانبية. ثم اندفع غودريان بسرعة أكبر على هضبة لانغر، وتوغل في مؤخرات خط ماجينو، وتابع تقدمه نحو الحدود السويسرية.

ووصل إلى مدينة شومون في اليوم الخامس (١٤ حزيران)، بعد وثبة بلغ طولها

٨٠ كيلو متراً ، وفي صبيحة ١٧ حزيران استولت فرقة المقدمة على مدينة بونتارلييه ، على الحدود السويسرية ، وعلى بعد ١٠٠ كيلو متر من نهر الرون . وقد قطعت هذه الوثبة الأخيرة مواصلات الحصون الفرنسية الهامة ، التي تمسك خط ماجينو . واستعدت فرق غودريان الأخرى لتتحرك شمالي نهر الموزل لتقطع طريق انسحاب القوات الفرنسية . ولكن الحكومة الفرنسية كانت قد قررت الاستسلام قبل ذلك بعدة ساعات ، وطلبت الصلح نظراً لانهيار جيوشها .

ويقول ليدل هارت بأنه « بالرغم من ذلك فإن هذا النصر الحاسم ، من الوجهة الاستراتيجية في القارة الأوروبية ، لم يكن حاسماً على مستوى الاستراتيجية العليا ، نظراً لفشل هتلر في الاستيلاء على الجزر البريطانية » .

ويدفعنا هذا إلى التفكير بالخطأ الذي ارتكبه هتلر بوقف التقدم الألماني نحو دونكرك . فلو أنه منع الجيوش البريطانية من الانسحاب لوجدت انكلترا نفسها ضعيفة وعاجزة عن الدفاع ، لدرجة تجعل احتلالها أمراً ممكناً بغزو يعد على عجل . ولكن إفلات الجيش البريطاني من (فخ دونكرك) ، جعل السيطرة على بريطانيا أمراً غير ممكناً إلا بعد إعادة حملة قوية لغزوها . ولكن ذلك أصبح متعذراً في حينه .

وقد قام هتلر بعدة محاولات للتمهيد لغزو بريطانيا ، ولكن هذه المحاولات جاءت متأخرة . وكانت عروض هتلر لعقد الصلح غير مشجعة . ولما حاول تحقيق السيطرة الجوية فوق البحر باءت محاولاته بالفشل في (معركة بريطانيا) وأرجئت خطة غزو بريطانيا إلى موعد لاحق .

وفي نهاية حزيران ١٩٤٠ كانت ألمانيا تسيطر على كل أوروبا الغربية والوسطى والجنوبية الشرقية ، باستثناء الجزر البريطانية في الطرف الغربي لأوروبا . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت روسيا السوفييتية في الشرق تشكل لهتلر ظلاً قاتماً على مجنبته الشمالية الشرقية . وكانت انتصارات هتلر الباهرة حينئذ تؤهله للسيطرة المطلقة على أوروبا أو على العالم أجمع .

لقد أخطأ هتلر أخطاء قاتلة على مستوى الاستراتيجية العليا ، لأنه ، بالدرجة الأولى ، لم يعرف كيف يهدىء المخاوف التي ترتبت على احتلاله للبلاد الأخرى ، وتأمين

أمان الشعوب المجاورة ، بإقناعها بأن (النظام الجديد) سوف يكون مفيداً لها . ولو عرف ذلك لاستطاع النجاح ، حيث فشل نابليون ، وتمكن من تحقيق الوحدة الأوروبية بقيادة ألمانيا بصورة لا يمكن معها تحطيمها من الخارج . ولكن افتقاره إلى الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الهدف منعه من الوصول إلى الغاية المنشودة . لقد كان هجومه السياسي مباشراً أكثر مما يجب . وبرغم مهارته في خلق الاختلافات بين الدول التي كان يهددها ، فقد كان أقل مهارة في تخفيف مقاومة هذه الدول . وقد استخدم كلمتي «الوطن والاشتراكية» بكثرة ، فأثار بذلك التطرف القومي لدى الشعوب الأوروبية ، وأزال الآثار الحسنة التي تحملها كلمة الاشتراكية بين شعوب البلاد الأخرى . وأصبح هتلر ، في النهاية ، عبداً لانتصاراته ، وأصبحت محاولاته لعقد الصلح مع الآخرين قليلة وغير مشجعة .

وهكذا فشل في السيطرة على بريطانيا ، ولم يستطع عقد صلح معها بعد انهيار بقية البلاد الغربية . وكان بقاء بريطانيا حرة يعني عدم السيطرة التامة على الغرب ومنعه من قطف ثمار انتصاراته . وهكذا استدار هتلر نحو الشرق يهاجم روسيا السوفييتية . ويعتبر هذا القرار الخطير ، الذي كان سبب دماره ، بداية تخليه عن الهجوم غير المباشر في ميدان الاستراتيجية العليا . وقد دفعه قلقه وعدم صبره ، ورغبته الملحة في الوصول إلى النصر ، إلى ترك الهجوم غير المباشر حتى على المستوى الاستراتيجي العادي . وهذا التبدل يثير الاهتمام لأنه كان ، حتى ذلك الوقت ، حريصاً على أسلوبه الأول ، حتى عند هجومه ضد مقاومة ضعيفة نسبياً ، كما هي الحال مع اليونان ، التي اجتاحها في نيسان ١٩٤١ ، بعد أن أنزل البريطانيون ، في سالونيك ، جيشاً صغيراً لمساعدة الجيش اليوناني .

٤ ـــ الهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي

في بداية غزو هتلر لأراضي الاتحاد السوفييتي استخدم الألمان عمليات الهجوم غير المباشر ، واستغلوا طول الجبهة الروسية ـــ الألمانية ، التي بلغت في بداية العدوان الألماني حوالي ٤٠٠٠ كيلو متر[٤] ، وندرة الحواجز الطبيعية ، الأمر الذي أعطى الوحدات

---

(٤) الاستراتيجية العسكرية ـــ سوكولوفسكي ص ٢٣١ .

الميكانيكية الألمانية فرصاً ملائمة للقيام بمناورات كبيرة ضد مؤخرات الجبهات السوفييتية . كما أن المدن المتباعدة جداً ، والتي تشكل عقد الطرق والسكك الحديدية ، أعطت المهاجم الفرصة للعمل ضد أهداف متناوبة ، وساعدته في خداع السوفييت عن الاتجاه الحقيقي للهجوم ووضعه في مواقف حرجة متتالية .

لقد استفادت القيادة السوفييتية جداً من فترة الحرب التي سبقت ، ودرست جميع الأساليب الألمانية التي استخدمت في غزو الأراضي الأوروبية ، وأجرت التجارب على أسلحتها وحسنت من إنتاجيتها ، كل ذلك بفضل الإشراف القاسي للدولة الاشتراكية على كل المرافق العلمية والصناعية والإنتاجية في البلاد ، وتعبئة جميع قوى الشعب لصد العدوان .

وهكذا ، وبعد أن حصل الألمان ، في البداية ، على انتصارات كبيرة على الجبهة الشرقية بدؤوا يفقدون الميزات التي كسبوها ، بسبب عجزهم عن تقدير القوة السوفييتية الحقيقية ، التي استطاعت أن توقف تقدم الألمان ، وأن تقلب الميزان فيما بعد .

كان هتلر يعتبر ليننغراد هدفاً أساسياً ، يسمح له بدعم مجنبته على بحر البلطيق وفلندة ، ويعتبر موسكو هدفاً أقل قيمة . ولكن إحساسه المتزايد بقيمة العوامل الاقتصادية دفعه إلى التفكير في الاستيلاء على مراكز الثروة الزراعية في أوكرانيا ، والمنطقة الصناعية الهامة في حوض الدنيبر الأسفل . وكان هذان الهدفان متعارضين ، ويتطلب كل منهما خط عمليات مستقل تماماً ، الأمر الذي جعل القوات الألمانية تفتقر إلى حرية المناورة على خط واحد لعمليات مركزية ، تسمح بتهديد أو مهاجمة أهداف أخرى بصورة متناوبة .

أما براوختش و هالدر فكانا يرغبان في تركيز الإمكانات على محور الجهد المؤدي إلى موسكو ، لاحتلال العاصمة السوفييتية وتدمير أكبر قسم من الجيوش السوفييتية ، التي كانا يتوقعان الالتقاء بها على طريق موسكو . وكان هتلر يعارض هذه الفكرة ، لأنها ستجبر الروس على القيام بانسحاب عام نحو الشرق ، يخلصهم من قبضة الألمان ، التي يريد أن يطبقها عليهم .

وهكذا اتفق براوختش و هالدر مع هتلر في فكرة عدم السماح للسوفييت بالانسحاب . ووافق هتلر على ضرورة تدمير القوات السوفييتية ، هذا الذي بدأ مع

(معركة التطويق) . وتم الاتفاق على التريث في اختيار الأهداف المقبلة إلى أن تنتهي مرحلة الغزو الأول .

وفي منتصف المرحلة الأولى تم الاتفاق على تركيز نقل القوات المشتبكة في قطاع مجموعة جيوش فون بوك في شمالي مستنقعات بريبيت ، وعلى محور طريق مينسك ـــ موسكو . وهنا تم زج معظم القوات المدرعة في المعركة . وساهمت مجموعة جيوش الجنرال ليب في البداية في تغطية تقدم مجموعة جيوش الجنرال بوك (الرئيسية) وذلك بانطلاقها من قواعدها الأساسية في بروسيا الشرقية ، والتقدم عبر بلاد البلطيق .

وكانت الخطة في قطاع فون بوك تهدف إلى إيقاع معظم الجيوش المعادية في الفخ بفضل مناورة تطويق مضاعفة تقوم بها مجموعتان مدرعتان بقيادة غودريان وهوت بحيث تتقدمان من الجناحين لتطويق مدينة مينسك والبقاء خلفها لمتابعة التقدم في العمق ، بينما تقوم فيالق مشاة الجيش الرابع والتاسع بعمليات كماشة داخل الجيب ، الذي تخلّفه المدرعات ، بغية تطوق بياليستوك .

بدأ الغزو الألماني لروسيا في ٢٢ حزيران . وقامت القوات المدرعة الألمانية بقيادة الجنرال غودريان والجنرال هوت باختراق الخطوط الدفاعية الروسية اختراقاً عميقاً ، والتقيا في اليوم السادس للهجوم في مينسك ، على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الحدود ، وأغلقت كماشة المشاة على القوات السوفييتية من الخلف ، ولكن عملها جاء متأخراً فلم تستطع أسر معظم الجيش السوفييتي الذي كان ينسحب من جيب بياليستوك . وقد أجرى تطويق جديد آخر قرب مينسك حيث نجح نسبياً وتم أسر الآلاف من الجنود السوفييت .

ثم بدأ سير العمليات يتعثر . وتلقت الوحدات المدرعة أمراً بالتوقف إلى أن يصبح التطويق كاملاً ، بينما كان عليها حسب الخطة الأساسية أن تتابع تقدمها ، دون انتظار ما وراء مينسك . وقد تم تدارك بعض الوقت الضائع بحركة جزيئة ، قام بها غودريان عندما اقتحم نهر الدنيبر قبل وصول مشاة الجيش الرابع ، وقبل أن يجمع السوفييت قواتهم . وقد تم اقتحام النهر في ١٠ تموز ١٩٤١ من ثلاث نقاط غير محروسة ، ثم اندفع بعد العبور نحو سمولنسك فبلغها في ١٤ تموز ، وهكذا تمكن المهاجمون الألمان من اجتياز حوالي

٦٠٠ كيلو متر داخل الأراضي السوفييتية، ولم يكن يفصلهم عن موسكو سوى ٣٠٠ كيلو متر، ويعتبر هذا التقدم سريعاً للغاية.

وكان غودريان يهدف إلى مزيد من تطويق الجنود السوفييت وأسرهم، حتى لا يترك الفرصة للقيادة السوفييتية لالتقاط أنفاسها. لكن هتلر كان يعتقد أن الفرصة قد حانت لتطبيق فكرته الأساسية التي تعتبر لينغراد و أوكرانيا هدفين رئيسيين نظراً لأهميتهما السياسية والاقتصادية.

ويبدو أن هتلر كان يفكر في القيام بمناورة تهدف إلى تهديد موسكو، لجذب القوات الاحتياطية السوفييتية إلى قطاعها، الأمر الذي يسمح للأجنحة الألمانية القوية بالاستيلاء بسهولة على الهدفين الجانبيين أوكرانيا ولينغراد، على أن تنطلق القوات الألمانية بعد ذلك من هذين الموقعين الجانبيين لتلتقي في موسكو، التي يمكن أن تسقط حينئذ ثمرة يانعة. لقد كانت هذه الفكرة طموحة لكنها لم تأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن وازدياد صلابة الدفاع السوفييتي.

وفي ١٩ تموز ١٩٤١، أرسل هتلر تعليماته المتعلقة بالمرحلة الثانية، وأمر بإنهاء عمليات التطهير بين نهري الدنيبر و دسنا فوراً. وكان على فون بوك أن يرسل جزءاً من قواته المدرعة نحو الجنوب لتساعد فون رونشتدت في تدمير الجيوش السوفييتية التي تقف في وجهه، وأن يرسل جزءاً آخر لمساعدة فون ليب من الشمال في أثناء هجومه على لينغراد، وقطع مواصلات هذه المدينة مع موسكو، ويتابع بمشاته فقط التقدم الجبهي ما أمكن، باتجاه العاصمة السوفييتية.

وهنا طلب براوختش إيقاف القوات المدرعة الألمانية، بصورة مؤقتة، قبل البدء بعمليات جديدة، بغية إعادة تنظيمها واستكمال استعدادها الفني. ووافق هتلر على الطلب، وعادت المناقشات، في القيادة الألمانية، حول متابعة سير العمليات، واستمرت هذه المناقشات حتى شهر آب ١٩٤١. ورفض هتلر طلب براوختش و هالدر، للقيام بهجوم نحو موسكو. وأعطى تعليمات جديدة، تطابق تعليماته السابقة، مع تعديل بسيط يتضمن إنقاص الوحدات المخصصة لجبهة لينغراد، وتوجيه معظم الإمكانات لتطويق الجيوش المعادية وإبادتها في منطقة كييف، على جبهة روند شتدت. ثم يتابع بوك

تقدمه نحو موسكو ، بينما يزحف روند شتدت نحو الجنوب ، ليعزل السوفييت عن بترول القوقاز .

وخلال هذا النقاش الطويل ، طرأت تغييرات جديدة على الموقف ، أرغمت هتلر على تأكيد قراره ، خاصة عندما توقف الجيش السادس بقيادة رايخناو على جناح رونشتدت الأيسر أمام كييف. وكانت القوات السوفييتية الضخمة ، التي اندفعت إلى أقصى الشرق ، في منطقة مستنقعات بريبيت تشكل تهديداً لمجنبة رايخناو اليسرى ، ومجنبة فون بوك اليمنى . ومن جهة أخرى حصلت مجموعة فون كلايست المدرعة على نجاح في نهاية تموز ، عندما خرقت الخطوط الدفاعية السوفييتية في بيلاتسيركوف جنوبي كييف ، واتجهت نحو الجنوب ، في الممر بين نهري بوغ و دنيبر ، وفتحت هذه الضربة غير المباشرة الطريق إلى أوكرانيا ، وهددت مؤخرات الجيوش السوفييتية التي تواجه القوات الرومانية قرب البحر الأسود . وفي حوالي منتصف آب وصل الألمان إلى أبواب نيكولاييف و خيرسون ، عند مصب النهرين الكبيرين المذكورين آنفاً . وقد أدى هذا الخرق العميق إلى ضعضعة المقاومة السوفييتية في الجنوب ، برغم تمكن القوات السوفييتية المهددة من الانسحاب ، قبل أن يتم إغلاق الطوق حولها .

وهنا تبين للقيادة الألمانية أنه بالإمكان القيام بعمل جديد ، يتضمن تقدم فون كلايست نحو الشمال ، في الوقت الذي تتحرك فيه قوات كبيرة من جبهة بوك نحو الجنوب للقيام بهجوم مضاعف من المجنبتين يدمر المقاومة السوفييتية حول كييف نهائياً ، دون خطر التعرض لهجوم مضاد ، يأتي من مناطق دنيبر الجنوبية ، كما قد يحدث عند التقدم باتجاه موسكو . وقد أثرت هذه الفكرة على هتلر بشكل واضح ، وجعلته يصر على ضرورة إنهاء عملية كييف قبل التقدم نحو موسكو .

وشارك فون روند شتدت هتلر وجهة نظره . وتحمس لفكرة الدعم القادم من الشمال لمساعدته على حل المشاكل الصعبة في جبهته ، كما تقبل بكل ترحيب فكرة الحصول على النصر بتطويق واسع النطاق .

أما على الجانب الآخر ، السوفييتي ، فإن المارشال سكولوفسكي يقول : « يعتبر تحديد اتجاه الضربة الرئيسية للعدو ، وبناء الدفاع الاستراتيجي ، وتحديد الجبهة

الاستراتيجية، وأساليب خوض الدفاع، واستخدام الاحتياطات الاستراتيجية، وخلق الظروف المناسبة للانتقال إلى الهجوم العام المضاد، من أهم موضوعات الدفاع الاستراتيجي، التي وضعتها الاستراتيجية العسكرية السوفييتية، خلال المرحلة الأولى من الحرب. وكان نجاح القتال عام ١٩٤١، منوطاً إلى حد كبير بتحديد الاتجاه الذي ستحشد عليه الجهود الرئيسية للقوات. ومنذ الأيام الأولى توصلت هيئة القيادة العامة إلى استنتاج صحيح يعتبر أن الاتجاه الغربي (اتجاه موسكو) هو الاتجاه الحاسم، من بين الاتجاهات الاستراتيجية الثلاثة. وعلى هذا الاتجاه بالذات حشد العدو أقوى تجمعات لديه ووجه إليه الضربات الرئيسية. وتجلت أهمية هذا الاتجاه بأنه أقصر الطرق المؤدية بالقوات الألمانية إلى المنطقة الصناعية المركزية، وإلى العاصمة موسكو. وقد أدى نجاح دفاع القوات السوفييتية على هذا الاتجاه إلى استقرار الجبهة الاستراتيجية كلها إلى حد كبير. فقد خصصت القيادة العامة القسم الرئيسي من احتياطها لهذا الاتجاه (١٥٠ فرقة مشاة، ٤٤ لواء مشاة، و٥٢٪ من الفرق و٤٧٪ من الألوية المرسلة إلى الجيوش العاملة، منذ ٢٢ حزيران حتى الأول من كانون الأول ١٩٤١). وقد ساعد هذا الاستخدام الهادف لاحتياطات القيادة السوفييتية على إيقاف تقدم العدو، وتغيير تناسب القوى لصالحها على هذا الاتجاه الهام، وأثر، بالتالي، تأثيراً حاسماً على نتائج الصراع المسلح في عام ١٩٤١».

وهكذا تابعت القوات الألمانية تنفيذ خططها الهجومية، وكان تطويق كييف أكبر عمل عسكري تنفذه القوات حتى ذلك الوقت. وقد تمكنت جيوش المشاة بقيادة رايخناو و فيكس من تنفيذ الهجوم الجبهي، بينما قام غودريان و فون كلايست بمجموعاتهما المدرعة بالهجوم العميق، حيث التقت على بعد ٢٤٠ كيلو متراً شرقي كييف فتم التطويق. ولكن معركة التطويق لم تنتهِ إلا في شهر أيلول حيث بدأت القوات الألمانية تعاني من الطقس السيء وحالة الطرق، وقد تمكن عدد كبير من القوات السوفييتية الموجودة داخل الطوق من الإفلات.

وهكذا أصبح هدف هتلر الأول الانتصار في أوكرانيا، وأصبحت لينينغراد هدفاً ثانوياً، برغم استمراره في مهاجمتها بقوات كافية لتطويقها، ولكنها لم تكن كافية تجاه المقاومة السوفييتية الضاربة.

شجع انتصار الألمان في منطقة كييف هتلر وجنرالاته، وتم اتفاقهم، في جو من التفاؤل، على القيام بجهدين متباعدين: الاتجاه نحو موسكو من جديد بهجوم في الخريف، والاتجاه نحو تطهير شواطىء البحر الأسود من القوات السوفييتية، واحتلال حوض نهر الدونتز Donetz الصناعي والوصول إلى القوقاز.

انطلقت العملية نحو موسكو بقوى مؤلفة من ثلاثة جيوش مشاة وثلاث مجموعات ميكانيكية، منها مجموعة غودريان المؤلفة من جيش مدرع كامل. وفي ٢١ تشرين الأول انطلق الهجوم على شكل كماشة، وقارب التطويق أن يتم حول موسكو، قرب فيازما، ولكن المقاومة السوفييتية والهجمات المعاكسة الشديدة، والبرد القارس منع الألمان من إكمال عمليتهم.

وكان معظم قادة الجيوش الألمانية بحاجة للتوقف، وإعادة تنظيم خط قوي للمقاومة للصمود فيه خلال الشتاء. وكانوا كلهم يذكرون ما حل بجيش نابليون. أما لدى القيادة الألمانية العليا، وبعيداً عن منطقة القتال والثلوج والوحول، فقد كانت توجد وجهة نظر مغايرة تماماً. كانت موسكو في نظرها هدفاً له إغراء سحري لا يقاوم، يدفعهم إلى المغامرة بأية محاولة للوصول إليه. وكان فون بوك مسحوراً بفكرة الاستيلاء على موسكو، وأصر على متابعة الهجوم. وكان من رأيه أن كلا الخصمين منهك، بحيث تستطيع الإرادة الأقوى وحدها تحديد نتيجة القتال. وأيّد هالدر و براوختش فكرة بوك، لكونهما أول من نادى بضرورة وضع الجهد الرئيسي على هذا الهدف، ولعجزهما عن الظهور بمظهر التردد، بعد أن دفعا هتلر إلى توجيه اهتمامه نحو موسكو.

أما رونشتدت وليب فقد اقترحا إيقاف الهجوم، كما طالب رونشتدت بالإنسحاب إلى المواقع الأساسية على الحدود البولونية، خشية من تدمير القوات الألمانية في الشتاء، على يد القوات السوفييتية المتحكمة في المنطقة، والتي تدافع عن بلادها بمعنويات أعلى من معنويات الجنود الألمان. ولم يؤخذ رأيهما بعين الاعتبار.

وهكذا قام الألمان بجهد جديد في تشرين الثاني ١٩٤١، إلا أن نجاح السوفييت في التكهن بمعرفة الأهداف المقصودة من قبل الألمان، وفي تمكنهم من صد الهجمات الألمانية سهل لهم مهمتهم، وسمح لهم بتركيز قواتهم الاحتياطية في أماكن مناسبة، لإحباط كل محاولة ألمانية خطرة. وفي بداية كانون الأول توقف الهجوم الألماني، ثم أعقب ذلك

انسحابات سريعة تحت ضغط الهجمات المضادة السوفييتية. فقرر هتلر عزل براوختش، وتولى بنفسه قيادة الجيش الألماني، فحقق بذلك هدفين شخصيين، هما تملصه من مسؤولية الفشل السابق وإلقاؤه على عاتق براوختش، ثم ضمان الحصول لنفسه على سلطة أكبر في المستقبل.

وقد وصلت موجة الغزو الألماني في الجنوب إلى ذروتها في يوم ٢٣ تشرين الثاني عندما استولى الألمان على مدينة روستوف، باب القوقاز على نهر الدون الأسفل. ثم أخذت الوحدات الألمانية تتعثر في الأوحال، واضطرت بعد أسبوع إلى إخلاء المدينة، والانسحاب تحت ضغط هجوم معاكس جانبي على طرق مواصلاتها.

يقول كثيرون بأن فشل الألمان في معارك ١٩٤١ يعود إلى أسباب مادية: ثلوج، إمدادات، طقس سيء. فقد كانت إمكاناتهم مبعثرة، على محاور جهد متباعدة، بسبب اختلاف أعضاء القيادة فكرياً، وبسبب الانتصارات السهلة، التي تم الحصول عليها في بادىء الأمر على مختلف الاتجاهات. ولكن الحقيقة هي أن السوفييت كانوا يعرفون نيّات الألمان معرفة جيدة، فما إن تنطلق القوات الألمانية المهاجمة حتى يحدد الروس، وهم في أماكنهم، خطوط مواصلاتها المقبلة، ويضعون العراقيل، وينظمون الهجمات المعاكسة القوية والسريعة ضدها، وهكذا انتهى عام ١٩٤١ إلى تململ في الجانب الألماني، وإلى تركيز في الجهود وتصميم في الجانب السوفييتي.

لم يعد لدى الألمان، في عام ١٩٤٢، الإمكانات التي تتطلبها سعة عمليات الهجوم التي تقررت في العام السابق. ولكن هتلر رفض مشورة بعض قادته باتخاذ موقف الدفاع، ورفض الاكتفاء بتقوية الأراضي المكتسبة. لقد نصحه روند شتدت و ليب مثلاً بالانسحاب نحو بولونيا. ولكن هذا الإجراء السليم استراتيجياً كان ينطوي على اعتراف من الألمان بفشلهم، وبأن طموحاتهم هي أكبر من إمكاناتهم.

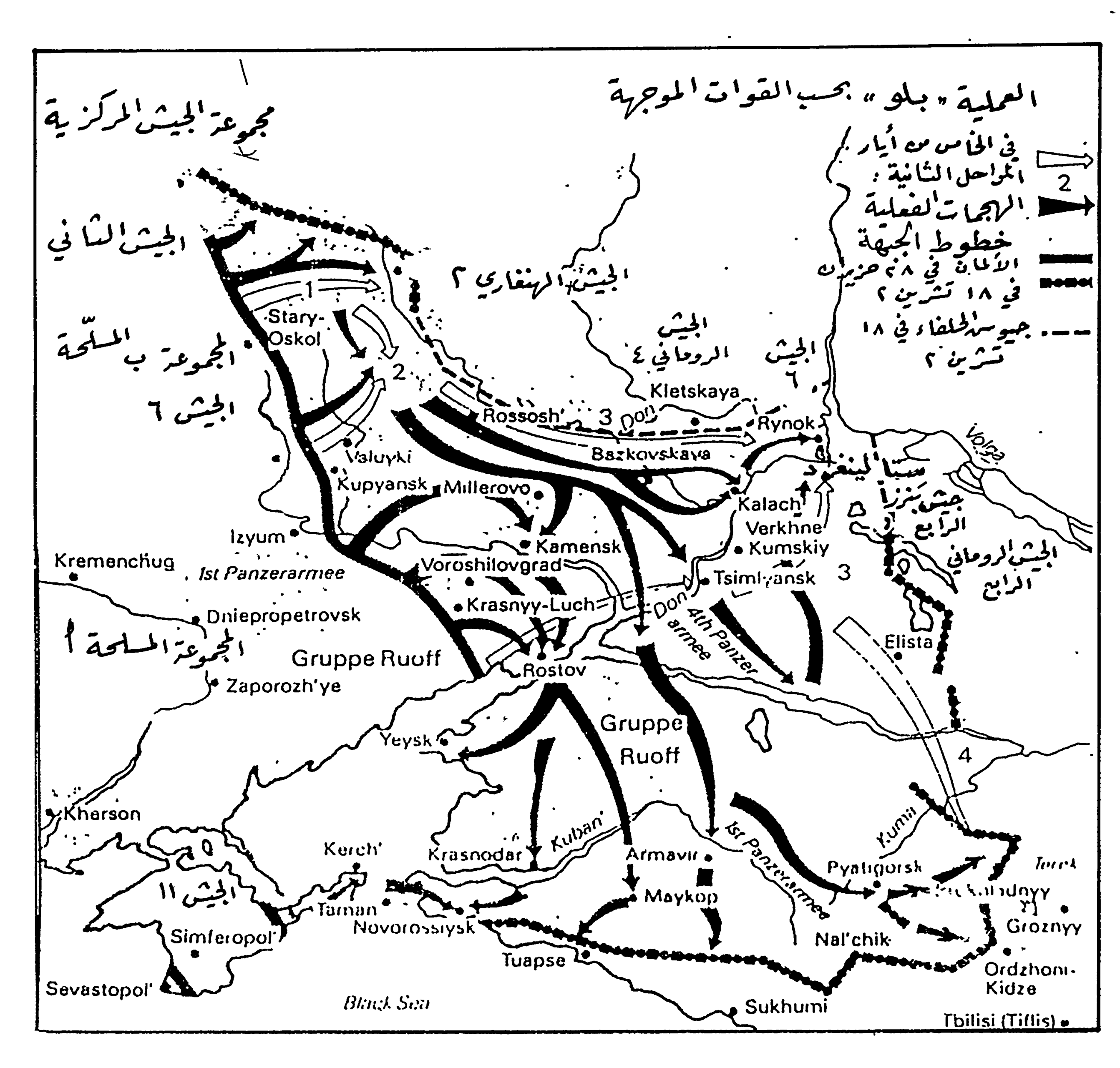
وكان هتلر يبحث عن حل هجومي، مدفوعاً بطموح لا يرتوي، وخوف من ضياع الهيبة، وشعور غريزي بأن الهجوم هو أفضل الوسائل لمعالجة المشاكل. ولكن وسائطه الهجومية المحدودة لم تكن لتحقق له سوى نتائج محدودة. ولما أحسّ بنقص الوسائط اللازمة للقيام بهجوم جديد على طول الجبهة، قرر تركيز جهده الرئيسي على

القطاع الجنوبي، بقصد احتلال مناطق البترول في القوقاز، وحرمان السوفييت من هذا المصدر الحيوي الهام. وكانت محاولة تنفيذ هذه الفكرة تعني التخلي عن جميع المحاولات الجديدة الهادفة إلى سحق قوات العدو الرئيسية.

لقد بدأ الهجوم الألماني بنجاح، وزاد من نجاحه قيام الألمان بعمليات على خط يستطيع تهديد أهداف عدة بشكل متناوب. لكن هذا العمل تأثر عندما انقسم إلى عمليتين تهددان في وقت واحد هدفين مختلفين. وكان هذا الازدواج خطأ قاتلاً، سببه اختلاف الأفكار في القيادة الألمانية. لقد صمم رئيس الأركان العامة الألماني هالدر خطة العمليات الأساسية، وحدد هدفه بالوصول إلى نهر الفولغا، عند مونيه (ستالينغراد)، على أن يشكل في ذلك المكان، فور الوصول إليه، حاجزاً استراتيجياً يفصل الجيوش السوفييتية الرئيسية عن منابع البترول في القوقاز، ولكن هتلر أراد الاندفاع مباشرة نحو القوقاز، بأقصى سرعة، دون أن يحاول تفهم روح فكرة هالدر. وشجعه على ذلك عدة قادة لاعتقادهم أن هذا الهدف يشكل هدفاً رئيسياً، وترتب على ذلك نقصان الجهود المخصصة لاحتلال موقع ستالينغراد الاستراتيجي. ثم شعر هتلر، في المرحلة التالية بعد ذلك، بضرورة احتلال المدينة فبذل كل شيء لحشد جيوشه ضدها.

وفي العام ١٩٤٢ قامت القوات السوفييتية بهجوم في الربيع لاستعادة خاركوف. وقد كان الهجوم شديداً وعميقاً لدرجة استهلك معها كميات كبيرة من القوات والمعدات الاحتياطية السوفييتية. وقد أدى هذا الهجوم، في النهاية، إلى إحداث بروز عميق في خطوط القتال، أتاح للقيادة الألمانية الفرصة للقيام في نهاية حزيران ١٩٤٢ بهجوم مضاد قوي. وكان محور الجهد الرئيسي الألماني موازياً للبروز الرئيسي ومضاداً له في الاتجاه. والتف الألمان حول مجنبة القوات السوفييتية واجتازوا مسافة ٢٠٠ كيلو متر بكل سرعة، حتى وصلوا إلى حوض الدون الأعلى، قرب مدينة فورونيج، وهي مفترق السكك الحديدية الرئيسية من موسكو إلى القوقاز. ولما تم إغلاق الطرق قرب فورونيج قام الألمان بتوجيه ضربة بكل إمكاناتهم في الاتجاه الجنوبي الشرقي، حتى وصلت قواتهم إلى الممر القائم بين نهري الدون والدونتز واحتلته.

ويقول المارشال سوكولوفسكي في كتابه (الاستراتيجية العسكرية): «إن القيادة العليا السوفييتية، في أثناء الحملة الدفاعية عام ١٩٤٢، قدرت بأن العدو سيوجّه ضربته



التقدم الألماني نحو ستالينغراد، صيف ١٩٤٢

الرئيسية على الاتجاه الغربي ، والثانية على الاتجاه الجنوبي الغربي من حوض الدون إلى روستوف ، ومن ثم إلى شمالي القفقاس . وكان هذا التقدير ، إلى حد ما ، مبنياً على وجود أقوى تجميع من القوات الألمانية الفاشية في ربيع عام ١٩٤٢ ، والذي شُكِّل في أثناء عمليات شتاء ١٩٤١ / ١٩٤٢ على هذا الاتجاه ، وعلى أهمية موسكو كعاصمة للدولة ، وكمركز اقتصادي واستراتيجي كبير في البلاد .

وقد أكدت الأحداث التي جرت في صيف ١٩٤٢ عدم صحة تنبؤ القيادة السوفييتية العليا عن نيّات العدو ، إذ حشد العدو جهوده الرئيسية على الجناح الجنوبي للجبهة ، محتفظاً بتجميع قوى من القوات على الاتجاه المركزي واتجاه موسكو . وكما هو معلوم ، فقد وجه ضربته الرئيسية في صيف عام ١٩٤٢ على الاتجاه الجنوبي الغربي .

وقد أدت ضربة العدو ، على هذا الاتجاه ، إلى دحر القوات السوفييتية ، وانسحاب جناحها الأيسر إلى ما وراء نهر الدون ، وإلى دخول قوات العدو في حدود القفقاس الشمالي ، وبالتالي كان هجوم القوات الألمانية ، على هذا الاتجاه ، مفاجأة للقيادة السوفييتية ، وخاصة بالنسبة لحجم القوات والوسائط المشتركة . ولم تستنتج هذه القيادة بأن العدو وجه ضربته الرئيسية على الاتجاه الجنوبي الغربي ، وليس على الاتجاه الغربي ، إلا في أوائل تموز ١٩٤٢ ، وفي أثناء الهجوم الألماني ، الذي بدأ على اتجاه فورونيج » .

وهكذا انهارت المقاومة السوفييتية أمام عملية الكماشة الألمانية ، ودخلت القوات الميكانيكية الألمانية بسهولة في الممر بين نهري الدون و الدونتز ، وكانت مجنباتها مستورة بهذين النهرين . ووصلت ، في أقل من شهر ، إلى الطرف الثاني من الممر ، وعبرت الدون الأسفل ، شمالي مدينة روستوف ، وفتح هذا الزحف طريق القفقاس وبترولها أمام الألمان ، وأدى بالمعركة إلى نقطتها الحرجة . وبدا السوفييت مشلولين تماماً بعد انقطاعهم عن منابع وقودهم ، كما أصبحت القوات الألمانية تتمتع بحرية الحركة منذ ذلك الوقت . وهكذا حصل الألمان على انتصارات باهرة بفضل الطريقة التي اتبعوها في المناورة .

بعد ذلك ، تقدم الألمان وراء نهر الدون ، ففقدوا المكاسب الاستراتيجية التي حصلوا عليها من قبل . لقد ناوروا ، في بادىء الأمر ، بشكل حذر ، مع البقاء مجتمعين على المستوى الاستراتيجي . وقاموا بجهدهم على محور يسمح بالوصول ، بصورة متناوبة ،

إلى أهداف مختلفة ، ووضعوا خصومهم أمام مشكلة معقدة ، مع الاحتفاظ بقدرتهم على توجيه كل قوتهم ضد أضعف نقطة في جبهة العدو . ولكنهم اضطروا ، عقب عبور نهر الدون ، إلى توزيع قواتهم على محورين متباعدين ، اندفع الأول في اتجاه الجنوب نحو القوقاز ، بينما اتجه الثاني إلى الشرق نحو ستالينغراد .

وكانت القيادة السوفييتية ، في صيف ١٩٤٢ ، قد جددت الاحتياطات الاستراتيجية على جناحها الجنوبي ، كما قدمت لهذه الاتجاهات ستة جيوش مشتركة ، وجيشين مدرعين ، وبعض التشكيلات المستقلة ، بلغ مجموعها ٢٦ فرقة مشاة ، و٢٥ فوج مشاة ، وخمسة فيالق مدرعة ، وفيلق خيالة ، في الفترة بين تموز و آب ١٩٤٢ ، وذلك من أجل تشكيل جبهة متصلة على الدون وفي شمالي القفقاس .

وفي بعض الأحيان ، كان تجديد الجبهة الاستراتيجية يتم بإعادة تجميع قسم من قوى الجبهات العاملة ووسائطها ، وباستخدام القوات المنسحبة . فمثلاً تم تجديد الجبهة الاستراتيجية بعد أن قام الألمان بخرق الدفاع على الجبهات (بريانسك ، والاحتياطية ، والغربية) في تشرين الأول ١٩٤١ .

وهكذا خلق توفر الاحتياطات الاستراتيجية ، لدى هيئة القيادة العليا ، الإمكانية لتجديد جبهة الدفاع الاستراتيجية ، وتنسيقها بالعمق حتى ٢٥٠ ــ ٥٠٠ كيلو متر ، وإنشاء تجميعات استراتيجية كبيرة ، الأمر الذي ساعد في خوض العمليات الدفاعية .

بعد ذلك ، طرأت عوامل جديدة أثرت على مجرى الأحداث . فبعد أن كانت هزيمة السوفييت كبيرة في ممر الدون ــ الدونتز ، وأصبح الوصول إلى ستالينغراد و الفولغا ، والسيطرة عليهما أمراً ممكناً وسهلاً في تموز ١٩٤٢ ، قام الجيش المدرع الألماني الرابع ، الذي كان يزحف على هذا الاتجاه ، بتبديل اتجاه مسيره نحو الجنوب ، لمساعدة الجيش المدرع الأول ، الذي كان يجتاز نهر الدون الأسفل في طريقه نحو القفقاس . وعندما انحرف الجيش الرابع مرة أخرى نحو الشمال كانت الجيوش السوفييتية في ستالينغراد قد بدأت في إعادة تجميعها . وكان دعم هذا القطاع بالنسبة للسوفييت ، أسهل من دعم قطاع القفقاس ، نظراً لقربه من الجبهة الوسطى ، وسهولة تحريك القوات الاحتياطية السوفييتية بالسكك الحديدية وعلى شبكات الطرق .

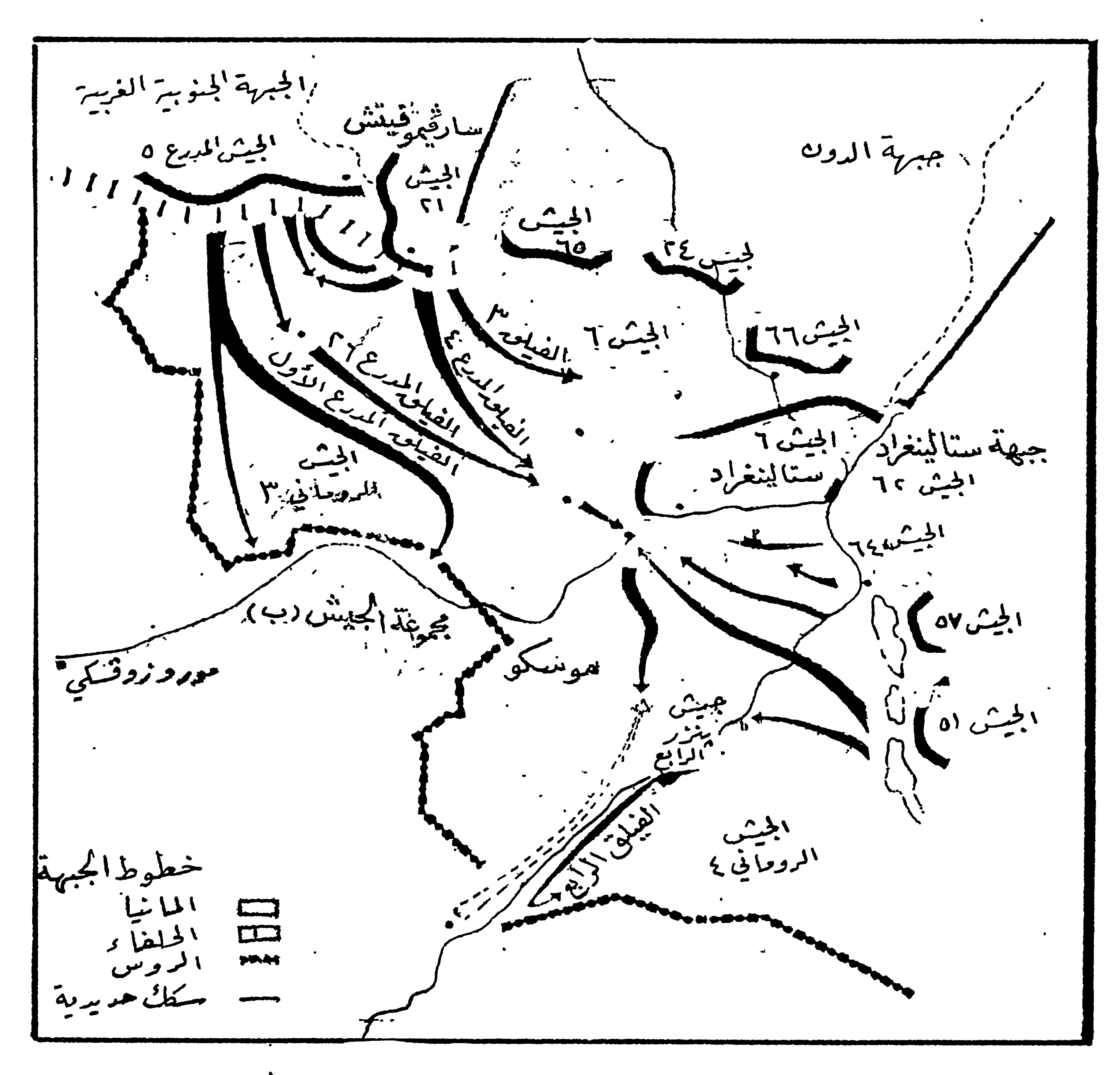
وأصيب الألمان بسلسلة من الفشل المتتابع، حتى أخذت ستالينغراد أهمية معنوية تفوق أهميتها الاستراتيجية الحقيقية. وركز الألمان اهتمامهم وجهودهم للاستيلاء على المدينة، على حساب الجهود المبذولة للوصول إلى بترول القفقاس. وبدأت عملية سحب الجيش المدرع الأول من القفقاس لدعم القوات الألمانية، التي تهاجم ستالينغراد، دون أن تعوض الوحدات بعد سحبها بوحدات جديدة.

بعد أن فشل الهجوم الأول على ستالينغراد في آخر لحظة، تعثر ميزان القوى، وبدأت التعزيزات السوفييتية تفوق التعزيزات الألمانية تجاه الهجوم المباشر. وأصبحت قوة الهجوم الألمانية أقل نسبياً من قبل. وكان هذا هو الثمن الاستراتيجي، الذي دفعه الألمان، لتجاهلهم فرصة سنحت أمامهم للقيام بعملية مشاغلة ولفت أنظار.

وأدى نقصان طول الجبهة إلى تسهيل عملية تحريك القوات الاحتياطية على المدافعين السوفييت، الذين أصبحوا قادرين على نقل وحداتهم إلى أية نقطة من القوس الذي يدافعون عنه. وقد تمكن الألمان من خرق الدفاع حول ستالينغراد عدة مرات، ولكن السوفييت كانوا يتمكنون، في كل مرة، من سد الثغرة.

وازدادت خسائر المهاجمين بشكل أضعفت إمكانات قيامهم بالمناورة، وكانت كل خطوة إلى الأمام تكلفهم أكثر، ولا تعود عليهم إلا بكسب ضئيل. وأوضحت عملية الإنهاك الطويل هذه أن الألمان سيفقدون قوتهم المادية التي كانوا يتمتعون بها عام ١٩٤١. وبدأ الهبوط يظهر، في بادىء الأمر، في قوة مدرعاتهم. وبدأ عدد دباباتهم يتناقص باستمرار، ثم أخذت سيطرتهم الجوية تخف. وأدى النقص، في هذين السلاحين، إلى تحميل المشاة الألمان مهمات أصعب. وأصبح كل انتصار جزئي تحققه المشاة بهجوم كثيف يدفع ثمنه بشكل باهظ من أرواح الجنود الألمان.

واقترح رئيس الأركان العامة الألماني هالدر، العمل على تقليل الخسائر، بالتوقف مؤقتاً، والدفاع عن خط متين خلال الشتاء. فرفض هتلر هذا الاقتراح، وبدل رئيس الأركان وعيّن مكانه زيتسلر، الذي كان أصغر سناً من هالدر وأكثر حماسة. وكان طعم ستالينغراد مغرياً جداً بالنسبة لهتلر، كما كانت موسكو في الخريف السابق. ولكن نتائج هذه المغامرة كانت أخطر، لأن الجيوش، التي كانت تهاجم ستالينغراد توغلت بعمق أكبر، وعلى جبهة ضيقة جداً، فأصبحت معرضة للتطويق.



الهجوم السوفييتي المضاد في ستالينغراد، تشرين الثاني ١٩٤٢ وتطويق الجيش الألماني السادس

وبدا الخطر واضحاً في تشرين الثاني ١٩٤٢ ، عندما انطلق الهجوم السوفييتي المضاد في منطقة ستالينغراد . وكان الألمان في حالة تجعلهم معرضين للهزيمة ، سواء على الصعيد المعنوي أو على الصعيد الاستراتيجي . وكان رد السوفييت غير مباشر مادياً ، وأدى إلى نتائج حاسمة . وقد استفاد السوفييت من الضربة ، التي وجهوها ضد قطاعات تدافع عنها وحدات رومانية وإيطالية ، استخدمها هتلر لتغطية أجنحته الطويلة ، وأدى ذلك إلى عزل وحدات كبيرة من الجيوش الألمانية ، ووقع في الأسر ، لأول مرة ، أعداد كبيرة من القوات الألمانية (٣٣٠٫٠٠٠ أسير ، بمن فيهم فون باولس ، قائد الجيش الألماني السادس) .

ولما وجد السوفييت الباب مفتوحاً أمامهم ، استثمروا هذا النصر ، وقاموا بسلسلة من الضربات نحو الجنوب لتهديد مؤخرات الجيوش الألمانية ، الموجودة في القفقاس ، وطرق مواصلاتها ، وقد تعرضت المواصلات الألمانية لخطر كبير جداً ، نظراً لأنها كانت تبعد عن روستوف ، في شهر كانون الثاني ١٩٤٣ ، بمسافة ٦٥٠ كيلو متراً . واستطاع الألمان المحافظة على فكي الكماشة مفتوحين مدة كافية للانسحاب بالتدريج . ولكنهم اضطروا ، تحت ضغط التطويق ، إلى إخلاء القفقاس وحوض الدونتز الصناعي .

وفي شباط ١٩٤٣ ، ازدادت سرعة الانسحاب الألماني ، وطارد السوفييت القوات الألمانية حتى اجتازوا قاعدة الانطلاق ، التي انطلق منها هجوم أعدائهم في الصيف الماضي ، واستعادوا خاركوف واقتربوا من نهر الدنيبر . ولكن الألمان ردوا ، في نهاية شباط ، على ذلك بهجوم مضاد ، استعادوا به خاركوف ، وحطموا التوازن السوفييتي مؤقتاً . ووجد السوفييت أنفسهم في وضع يشبه وضع الألمان خلال الصيف ، إذ كانوا منهكين من المطاردة ، التي أطالت طرق تموينهم وجعلتهم في وضع أصعب ، في حين استرد أعداؤهم شيئاً من قوتهم بانسحابهم إلى قواعدهم ونحو مصادر تعزيزاتهم .

كان الهجوم المضاد في خاركوف مثلاً جيداً للشكل الدفاعي ـــ الهجومي ، أي الدفاع بأسلوب هجومي ، ولاستراتيجية الهجوم غير المباشر ، التي تعتمد على تقديم طعم يخدع العدو ويجذبه إلى فخ . وقد أعد هذا الفخ ونفذه فون مانشتاين . وكان مانشتاين استراتيجياً ممتازاً ، ولكنه لم يكن يحظى برضى هتلر . غير أن استسلام المارشال فون باولوس في ستالينغراد ، أجبر هتلر على تسليمه قيادة جيوش الدون ليتلافى الكارثة .

وبغية إنقاذ جيوش القفقاس بذل مانشتاين جهوداً كبيرة لتأخير تقدم السوفييت ومنعهم من قطع ممر روستوف. ونظم لهذه الغاية موقعاً دفاعياً على نهر ميوس Mius بين بحر آزوف Azov ونهر الدونتز Donetz.

عند ذلك قام السوفييت بخرق الجبهة شمالي نهر الدونتز في المناطق التي تحتلها الجيوش الإيطالية والهنغارية، واندفعوا كالموج نحو الغرب، من خلال ثغرة عرضها ٣٢٠ كيلو متراً، تقع بين الدونتز وفورونيج، وتجاوزوا مجنبة مانشتاين. وعبروا نهر الدونتز واستعادوا خاركوف، ثم اندفعوا نحو الجنوب الغربي في اتجاه منعطف الدنيبر Dniepr، وهي المنطقة التي يعتمد عليها مانشتاين في تموينه. وفي شباط ١٩٤٤ وصلت مفرزة سوفييتية متقدمة إلى قرب زابوروجيو Zaporojio على منعطف النهر قبل أن يتمكن مانشتاين من نقل قيادته إلى الغرب.

وفي هذا الوقت، جمع مانشتاين وسائطه، واستدعى من ميوس فيالقه المدرعة الثلاثة المنهكة، وتمركز على جبهة معكوسة في الاتجاه الشمالي الغربي.

وفي أثناء تنفيذ القوات السوفييتية هجومها الحاسم في القطاع الجنوبي الغربي للجبهة، قررت القيادة العامة السوفييتية أن تنفذ في الوقت نفسه عملية أخرى لخرق طرق الحصار المحيط بمدينة ليننغراد في الشمال. ففي صباح ٢١ كانون الثاني ١٩٤٤ انتقلت قوات جبهتي ليننغراد و فولخوف للهجوم، وخرقتا دفاع الألمان، واتصلتا كل منهما بالأخرى في ١٨ كانون الثاني، وفك الحصار عن المدينة، الذي دام من ٨ شباط ١٩٤١ وحتى ١٨ كانون الثاني ١٩٤٤، وعاد الاتصال البري المباشر مع ليننغراد من جديد.

وتجدر الإشارة إلى أن القوات السوفييتية كانت قد تقدمت خلال أربعة شهور ونصف من الأعمال الهجومية مسافة ٦٠٠ ــــ ٧٠٠ كيلو متر، ودمرت أكثر من ١٠٠ فرقة معادية. وخسر الألمان خلال هذه الفترة حوالي مليون وسبعمئة ألف جندي وضابط، و ٢٤٠٠٠ مدفع هاون، وأكثر من ٣٥٠٠ دبابة و ٤٣٠٠ طائرة.

وهكذا مال ميزان القوى لصالح السوفييت.

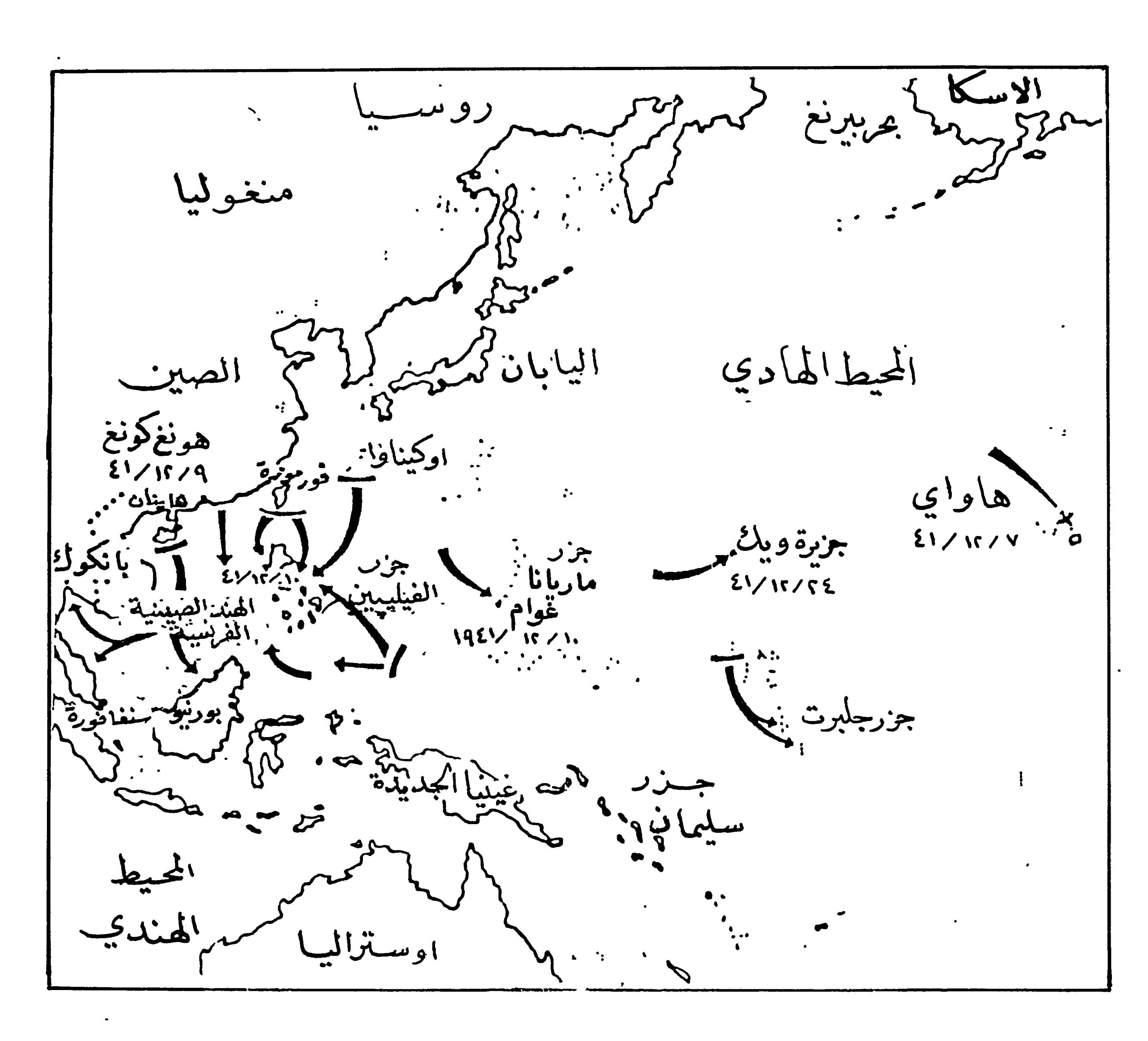
٥ ـــ الحرب في المحيط الهادىء

منذ عام ١٩٣١ ، مد اليابانيون رؤوس جسورهم على القارة الآسيوية على حساب الصينيين ، الذين أضعفتهم خلافاتهم الداخلية . فاجتازوا منشوريا وضمّوها إلى بلادهم . وفي عام ١٩٣٢ نزل اليابانيون في أراضي الصين ، واصطدمت جهودهم بحرب العصابات الصينية . فحاولوا التغلب على هذه الصعوبة بمتابعة التوسع نحو الجنوب ، لعزل الصينيين عن موارد تموينهم الخارجية . ولما انهارت فرنسا أمام قوات هتلر استغل اليابانيون عزلة الهند الصينية ، وأجبروها على قبول حماية قوات الاحتلال اليابانية .

ورد الرئيس روزفلت في ٢٤ تموز ١٩٤١ بأن طلب سحب القوات اليابانية من الهند الصينية ، وجمد أرصدة اليابان ، ومنع البترول عنها اعتباراً من ٢٦ تموز . وتحرك تشرشل أيضاً ، وكذلك الحكومة الهولندية . وكان كل ذلك يعني ، حسب قول تشرشل عزل اليابانيين عن موارد تموينهم البترولية ، ولم يبقَ أمام اليابانيين سوى الحرب .

ولم تكن اليابان لتستطيع قبول هذه الشروط ، وأصبح نشوب الحرب منتظراً في كل لحظة. ثم اندلعت الشرارة في صبيحة ٧ كانون الأول ١٩٤١ عندما هاجمت وحدة بحرية يابانية مؤلفة من ست حاملات طائرات ميناء بيرل هاربور الأميركي دون إعلان الحرب .

كانت خطة الحرب اليابانية مع الولايات المتحدة الأميركية هي إرسال الأسطول الياباني الرئيسي إلى المحيط الهادي الجنوبي ومهاجمة الفيليبين ، في الوقت نفسه وذلك لإرغام الأميركيين على القتال عند انطلاقهم لنجدة مواقعهم في الفيليبين عبر المحيط الهادي . ولكن الأميرال الياباني ياماماتو وضع خطة جديدة تتضمن القيام بهجوم مفاجىء على بيرل هاربور . وتقدمت قوة الانقضاض واستدارت في اتجاه جزر كوريل ، ثم جاءت من الشمال في اتجاه هاواي فلم يتم اكتشافها . وانطلق الهجوم قبل الفجر بواسطة ٣٦٠ طائرة تحلق من ست حاملات طائرات راسية على بعد ٣٠٠ ميل من بيرل هاربور . وكانت القاعدة البحرية البريطانية الكبيرة في سنغافورة هي هدف الهجوم في ماليزيا . ولم يتم الهجوم من البحر لأن المدافعين أرادوا ذلك ، وإنما قام اليابانيون بهجوم غير مباشر ، يتلخص في إنزال قوات صغيرة في نقطتين ، على الشاطىء الشرقي لماليزيا للمشاغلة ، واحتلال مهابط الطائرات ، وإنزال القوات الرئيسية قرب حدود سيام ، على مسافة ٨٠٠ كيلو متر شمالي سنغافورة .



المكاسب اليابانية خلال كانون الأول ١٩٤١

وتقدم اليابانيون من الشواطىء، التي أنزلوا بها جنودهم في أقصى الشمال الشرقي، عبر شبه الجزيرة، والتفوا حول كل الخطوط الدفاعية التي أقامها البريطانيون، لوقف الهجوم، وتسللوا عبر الطرق التي لا يتوقع العدو سيرهم فيها، وقدمت لهم الغابات الكثيفة فرصاً ثمينة في هذا المجال. وفي نهاية كانون الثاني وجد الانكليز أنفسهم مضطرين، بعد تراجع متواصل دام ستة أسابيع، للانسحاب من القارة إلى جزيرة سنغافورة. وفي ليلة ٨ شباط ١٩٤٢، قام اليابانيون بهجوم عبر مضيق عرض ميل واحد، ونزلوا في مواضع مختلفة، وتسربوا على جبهة عريضة إلى الداخل.

كان عدد المدافعين يعادل ضعف عدد المهاجمين. ولكن الوحدات المهاجمة كانت مختارة ومدربة جيداً للعمل في الأدغال والمناطق الصيفية، بينما كانت القوات البريطانية متوسطة النوعية والتدريب، غير قادرة على الرد في الوقت المناسب. وأظهر سير المعركة ضعفها، وزاد في ذلك فقدان التغطية الجوية، وازدياد نشاط الطيران الياباني. وهكذا تفكك المدافعون، وفقدوا توازنهم، وفي ١٥ شباط ١٩٤٢ استسلم المدافعون.

أما في الفيليبين فقد تم الإنزال الياباني الرئيسي في جزيرة لوسون شمالي العاصمة مانيلا، ثم تبعه إنزال آخر خلف العاصمة. وأخلت القوات الأميركية معظم الجزيرة، وانسحبت إلى شبه جزيرة باثان، قبل نهاية كانون الأول ١٩٤١. وهنا لم يكن أمام اليابانيين سوى الهجوم الجبهي على قطاع صغير متين. وقد استطاع الأميركيون الدفاع عنه حتى شهر نيسان ١٩٤٢ حيث تم سحقهم نهائياً.

وامتد الغزو الياباني عبر مجموعة جزر ماليزيا. ففي ٢٤ كانون الثاني نزل اليابانيون في بورنيو و سيبيبز و غينيا الجديدة. وبعد ٦ أسابيع هاجموا جزيرة جاوة، قلب جزر الهند الشرقية، بعد أن عزلوا الجزيرة بعمليات تغطي مجنبات الهجوم. وبعد أقل من ٣ أسابيع سقطت الجزيرة كلها في أيديهم، ولم يحدث الهجوم المتوقع ضد أستراليا، واتجه الجهد الياباني، منذ ذلك الوقت، إلى الغرب بغية احتلال بورما. وكان الهجوم المباشر ينفذ على جبهة عريضة تبتدىء من سيام وحتى رانغون، لأن رانغون كانت الميناء الذي يصل منه التموين والإمداد الأنكلو ــ أميركي لدعم الصين عن طريق بورما. وكانت هذه المناورة تهدف في الوقت نفسه إلى إتمام احتلال المنافذ الغربية على المحيط الهادي، وإنشاء حاجز قوي على الطرق الرئيسية، التي لا بد لكل هجوم أنكلو ــ أميركي كبير من المرور فيها.

سيام
بانكوك
الهند الصينية
تايلاند
سايغون
الفيليبين
مانيلا
بحر الصين الجنوبي
بالاوان
ميندانا و
داڤاو
20.12.41
ناتونا
أنامبا
تركان
ساراواك
سومطرة
بورنيو
24.1.42
10.2.42
11.1.42
24.1.42
بحر جاوة
جاوة
المحيط الهندي
المكاسب اليابانية
ميتكينا
تامو
لاشيو
مندالاي
رانغون
بانكوك

المكاسب اليابانية في أوائل ١٩٤٢

وفي ٨ آذار ١٩٤٢ سقطت رانغون ، وبعد شهرين تم طرد القوات البريطانية من بورما ، وانسحبت هذه القوات إلى الهند عبر الجبال . وهكذا استطاع اليابانيون الحصول على مواقع طبيعية قوية للتغطية ، ساعدتهم على صد كل المحاولات التي ترمي إلى إعادة احتلالها فيما بعد .

ومرت أيام كثيرة قبل أن يستطيع الحلفاء إعداد الوسائل اللازمة لاستعادة الأراضي التي استولى عليها اليابانيون . فقد اتخذوا أوستراليا قاعدة كبيرة ضد المواقع اليابانية الأمامية . ولكنهم أضاعوا مدةً من آب ١٩٤٢ وحتى أيلول ١٩٤٣ لاسترجاع بعض الجزائر . وبدأت عملية العودة إلى الفيليبين والانطلاق منها إلى اليابان مغامرة لا تنتهي . وفي خريف ١٩٤٣ تحسن الموقف باستخدام طريقة التفاف ، كانت نوعاً من استراتيجية الهجوم غير المباشر ، وأهمل الأميركيون في تقدمهم البرمائي سلسلة من الجزائر البعيدة ، وتركوا حامياتها اليابانية معزولة عن تموينها وكأنها في سجن استراتيجي .

وفي تشرين الأول ١٩٤٤ نفذ الأميركيون وثبة كبيرة أوصلتهم إلى الفيليبين . وقد سبق هذه العملية هجوم جوي كبير على الموانىء والمطارات في بعض النقاط . وكان هدف هذا الهجوم إقناع اليابانيين بأن الأميركيين يعتزمون النزول في إحدى هذه النقاط . ثم ظهر أسطول الجنرال ماك آرثر أمام جزيرة لييت Leyte ، في منتصف الطريق بين الجزيرتين الرئيسيتين لوسون Luçon ومينداناو Mindanao ونزلت القوات الأميركية فيها .

وانتقل الأميركيون إلى المرحلة الثانية . وقد تحقق لهم النجاح بفضل أسلوبهم الذي يعتمد على عزل الهدف بشبكة بحرية وجوية في أثناء مهاجمته واحتلاله . وأصبح لدى الأميركيين مواقع قريبة من اليابان نفسها ، بشكل يحقق الهيمنة والسيطرة بالوجود الجوي والبحري المستمر .

والتف الأميركيون حول جزيرة فورموزا ، ووصلت وثبتهم التالية إلى أوكيناوا ، في أرخبيل ريو ــ كيو في منتصف الطريق بين فورموزا واليابان .

٦ ــ الحرب في البحر الأبيض المتوسط

دارت المعارك الأولى في البحر الأبيض المتوسط من أجل الفكرة الإيطالية ــ الألمانية لاحتلال مصر وقناة السويس ، ومن ثم بقية بلدان الشرق الأوسط .

بدأ المارشال غرازياني يتقدم من ليبيا إلى مصر في أيلول ١٩٤٠ . وكان نجاحه محتملاً نظراً لتفوقه العددي الكبير على القوات البريطانية المعدة للدفاع عن مصر . ولكن جيش غرازياني كان بطيء الحركة ، وأدى ضعف قواته الميكانيكية وقلتها إلى إعاقة المناورة ونقصان عنصر المفاجأة . ثم ازداد هذا الضعف لصعوبات الإمداد والتموين ، وهذا ما أدى إلى توقف الإيطاليين بعد زحفهم حوالي ١٠٠ كيلو متر عبر الصحراء الغربية ، ووصولهم إلى سيدي براني وتمركزهم هناك عدة أشهر .

وقرر القائد العام البريطاني في الشرق الأوسط الجنرال ويفل Wavell القيام بهجوم مفاجىء بقوات الصحراء الغربية (نواة الجيش الثامن فيما بعد) على أن تتم العملية على شكل إغارة بقوات كبيرة ، لا على شكل هجوم تقليدي . وكانت هذه القوات تتضمن فرقتين هما الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الهندية الرابعة . وأدت الإغارة إلى نصر حاسم ، بفضل الحركة المفاجئة عبر الصحراء ، ضد مؤخرة القوات الإيطالية في ٩ كانون الأول ١٩٤٠ ، وطوّق القسم الأكبر من قوات غرازياني واستسلم ٣٥٫٠٠٠ إيطالي ، وتراجع الباقي نحو الحدود الليبية .

وكان إنهاء العملية مستطاعاً حينئذ لولا إصرار القيادة العامة البريطانية على سحب الفرقة الهندية الرابعة إلى مصر ، ومن ثم إلى السودان للمساعدة في صد الإيطاليين في أرتيريا والحبشة .

وهكذا حرمت الفرقة السابعة المدرعة من الدعم فأصبحت عاجزة عن خرق دفاع الإيطاليين في البردية . وبعد عدة أسابيع وصلت الفرقة الاسترالية السادسة من فلسطين لتشترك في المعركة . وفي ٣ كانون الثاني تم احتلال البردية وأسر فيها ٢٥٫٠٠٠ جندي .

وبدأت بقية جيش غرازياني في الانسحاب إلى ما وراء بنغازي وانطلقت في أثره الفرقة المدرعة السابعة ووصلت إلى البحر جنوبي بنغازي في ٥ شباط ، وقطعت مقدمة الفرقة ٢٧٠ كيلو متراً في حوالي ٣٦ ساعة ، وقطعت طريق انسحاب العدو ، ودخلت داخل خطوطه ، وتمكنت من أسر ٢١٫٠٠٠ جندي إيطالي .

وانطلقت القوات البريطانية من جديد نحو طرابلس ، وكان استعداد الإيطاليين ضعيفاً فيها ، ولكن الحكومة البريطانية أمرت بإجراء توقف كبير ، يسمح بتجميع

الوسائط اللازمة للقيام بحملة اليونان الفاشلة . وفي هذه الفترة وصلت الوحدات الأولى من الفيلق الإفريقي الألماني بقيادة الجنرال رومل إلى طرابلس . وكان وصولها متأخراً بشكل يتعذر معه إنقاذ الإيطاليين من الكارثة . ومع هذا فقد أدى قدومها إلى إطالة الحرب في شمالي إفريقية مدة سنتين ، وتهديد مواقع الانكليز في مصر بشكل خطير .

قام رومل بالرد في نهاية آذار ١٩٤١ بقوة تعادل فرقة تقريباً ، وأجرى مجموعة حركات سريعة ليلية ضد أجنحة البريطانيين ومؤخراتهم ، واجتاح مواقعهم الأمامية ، وعرض معظم قواتهم للتطويق فاستسلمت في المخنبلي .

وكانت هذه مفاجأة تامة أعطت هذا الهجوم ، في مختلف مراحله ، صفة غير مباشرة ، وتم طرد الانكليز في أقل من ١٥ يوماً من جميع المناطق التي احتلوها في برقة ، باستثناء مفرزة منعزلة لجأت إلى طبرق ، وبقيت شوكة في جنب رومل . ووصل رومل إلى حدود مصر ، ولكنه اضطر للتوقف ، نظراً لامتداد خطوط مواصلاته أكثر مما ينبغي .

وفي شهر حزيران قام البريطانيون ، من جديد ، بهجوم على حدود ليبيا ، بعد أن تلقوا إمدادات جديدة . وكان هجومهم واسع النطاق على جبهة عريضة ، وصد رومل هذا الهجوم ، ثم قام بهجوم مضاد مدرع مستديراً حول جناح الأعداء في التفاف كبير عبر الصحراء .

وفي تشرين الثاني قام الانكليز بهجوم أكبر ، بعد أن حل الجنرال اوكنلك Auchinleck محل ويفل ، كقائد عام للقوات البريطانية . ودمجت القوات المرابطة عند الحدود الليبية ، وألّف منها الجيش الثامن بقيادة الجنرال كننغهام Cunningham . وانطلق الهجوم في ١٨ تشرين الثاني عبر الصحراء ، ووجد الألمان أنفسهم أمام وحدات بريطانية سريعة الحركة ، ومتفوقة عددياً ، فاستخدموا ببراعة الهجوم غير المباشر ، وبدؤوا يجذبون المدرعات البريطانية إلى كمائن يضعون فيها دباباتهم المجهزة بمدافع الـ ٨٨ مم القوية . فأثبتوا فعالية الطريقة الدفاعية الهجومية ، ونجاح أسلوب الطعم في الحرب الآلية الحديثة . وفقد البريطانيون ، من جراء ذلك ، مكاسبهم الاستراتيجية ، كما فقدوا تفوقهم العددي في الدبابات ، وتضعضع توازن الجيش الثامن المادي والمعنوي . وفي ٢٣ تشرين الثاني اضطر كننغهام إلى وقف هجومه والانسحاب إلى ما وراء الحدود ، بغية إعادة تنظيم جيشه .

وفي اليوم التالي، وجد رومل الموقف ملائماً للقيام بضربة جريئة. فزج بقواته الآلية في مناورة تطويق، على مجنبة الجيش الثامن اليسرى المستندة إلى الصحراء. وبعد اجتياز الصحراء، اتجه مباشرة إلى مواصلات العدو، ووصل إلى منطقة مؤخرات البريطانيين بشكل مفاجىء، فنشر بينهم الفوضى والهلع. ولو استمر انسحاب البريطانيين، كما أراد كننغهام لحلّت بهم كارثة حاسمة. ولكن اوكنلك جاء إلى أرض المعركة بنفسه، وأوقف الانسحاب، وأصر على متابعة القتال، ثم عاد إلى القاهرة، بعد يومين، وعين ريتشي Ritchie بدلاً من كننغهام. وهكذا أدى تدخل اوكنلك إلى انتزاع النصر من براثن الهزيمة، لأنه تمسك ببقية الجيش الثامن على الموقع الأمامي الذي تعرض لإغارة رومل.

وفشل تقدم رومل العميق في آخر لحظة. فبينما كانت فرقه الثلاث (فرقتان ألمانيتان وفرقة إيطالية) تعمل وراء الحدود، بعيداً عن مناطق دعمها وتموينها، استعاذت القوات البريطانية هدوءها، ومن ثم عادت للهجوم، واتصلت بحامية طبرق، قبل أن يتمكن رومل من طلب وحداته غير الآلية. وقد فقد رومل عدداً من الدبابات أضعف وسائطه المحدودة، كما استلم البريطانيون نجدات جديدة كبيرة. وفي كانون الأول ١٩٤١ اضطر رومل إلى وقف المعركة حول طبرق والتراجع نحو الغزالة ثم نحو حدود ليبيا.

وعاد رومل إلى أسلوبه الدفاعي ــــ الهجومي فحصل على انتصارات باهرة. وعندما تقدم الانكليز بهجومهم في ٢٧ كانون الأول أحبط رومل تقدم وحداتهم المدرعة بالالتفاف حول مجنباتهم، وإجبارها على القتال بجبهة معكوسة، ومن ثم تطويقها في نهاية الأمر.

وتحطم توازن القوات المدرعة البريطانية، وزاد من خطورة الموقف وصول قافلة كبيرة تحمل نجدات هامة لرومل، لم يتلقها منذ أواسط تشرين الثاني. وأراد رومل الاستفادة من امتداد تقدم الانكليز، فقام بهجوم مضاد اخترق جبهة الانكليز، في الوقت الذي كانوا يعتقدون فيه أن الجيش الألماني منهك وغير قادر على الحركة. وهكذا استثمر رومل الفوضى في الصف الانكليزي، وتقدم نحو قواعد العدو في بنغازي، ثم نحو الغزالة، واستعاد رومل بذلك أكثر من نصف الأرض التي احتلها الانكليز.

ثم تجمدت الجبهة، عند موقع الغزالة مدة ٣ أشهر. وكانت مراكز الجيش الثاني

البريطاني ملائمة لتكون قاعدة انطلاق لهجوم مقبل، ولكنها لم تكن صالحة للدفاع المتين. وفي أيار ١٩٤٢ تحرك رومل قبل أعدائه، وقامت مدرعاته بمناورة كبيرة على المجنبة خلال ليلة ٢٦ أيار، فاجتاحت دفاع الجيش الثامن، وتوقفت قبل الوصول إلى الشاطىء، وإنهاء تطويق القوات البريطانية المدافعة عن خط الغزالة ١٠. واتخذت موضعاً دفاعياً تستند مؤخرته إلى حقول الألغام البريطانية. واعتقد الانكليز أن قوات رومل وقعت في مأزق، وأنها حوصرت، فقاموا بمناورة فسقطوا في الأفخاخ الدفاعية، التي نظمها رومل بسرعة فور توقفه. ووجد الجيش الثامن أن قواته الاحتياطية مبعثرة، وأحس بعجزه عن مقاومة التفاف رومل على مجنبته، فانسحب قسم منه إلى الحدود، والتجأ البقية إلى طبرق.

وتجاوزت دبابات رومل مدينة طبرق بسرعة، وكأنها تود اجتياز الحدود. ثم استدارت فجأة، وهاجمت طبرق من الخلف قبل أن تستعد حاميتها. وكان هذا هجوماً غير مباشر رائعاً من الناحية المادية والمعنوية. واخترق الألمان الدفاع في إحدى النقاط الضعيفة، واجتاحوا الموقف، وأسروا حامية طبرق بأكملها، واستولوا على أكداس هائلة من التموين وعربات النقل، فأصبحوا بذلك قادرين على متابعة التقدم.

طارد رومل ما تبقى من الجيش الثامن، عبر الصحراء الغربية، واقترب بشكل خطير من وادي النيل. ولو أنه وصل إلى الوادي، واستولى على قناة السويس لضاعت كل مواقع البريطانيين في الشرق الأوسط.

وفي هذه الأزمة الخطيرة تدخل أوكنلك، وأخذ على عاتقه مهمة قيادة الجيش الثامن المنسحب. فجمعه في العلمين للدفاع عن موقع يسد الممر الصحراوي المؤدي إلى مصر. وتحطمت قوات رومل القليلة العدد، المنهكة القوى من طول المطاردة أمام مقاومة عنيدة غير منتظرة، ومجهزة على خط دفاعي جديد. وعندما حاول رومل اختراق خطوط المقاومة رد عليه أوكنلك، ومع أنه فشل في طرد رومل فقد هز توازنه هزة عنيفة منعته من تحقيق أهدافه.

وجاءت النجدات، بعد ذلك، من انكلترا، وعين الكسندر Alexander قائداً عاماً للجيوش البريطانية في الشرق الأوسط، وتولى مونتغمري Montgomery قيادة

الجيش الثامن. وفي هذه الأثناء بدأ رومل هجومه الجديد في نهاية شهر آب ١٩٤٢. ولكن هذا الهجوم أمكن صده بفضل تكتيك جديد. ودفعت الوحدات المدرعة الألمانية إلى اجتياز حقول الألغام، التي تغطي النصف الجنوبي للجبهة الانكليزية، في قطاع لا تحميه سوى الألغام، بينما كانت المشاة تدافع عن المواقع القوية في النصف الشمالي. وهكذا تم جذب رومل لمهاجمة الفيلق المدرع البريطاني الأساسيَ على أرض اختارها أعداؤه، ففقد عدداً كبيراً من دباباته دون جدوى، وتم تثبيته بين موضعه الجانبي وحقول الألغام، وعندئذ قامت الفرقة المدرعة السابعة البريطانية بالالتفاف حول مجنبته الجنوبية، وفقد رومل عامل المبادأة، ولكن الشبكة لم يحكم إطباقها عليه بسرعة كافية لمنع انسحابه.

وتبدل الموقف نهائياً، منذ أن تزايدت إمكانات مونتغمري. وبعد استراحة طويلة أعيد خلالها تنظيم القوات البريطانية، قام الجيش الثامن بهجومه، في الأسبوع الأخير من تشرين الأول ١٩٤٢، وكان يملك تفوقاً ساحقاً في الطيران والمدفعية والدبابات. ومع ذلك استمرت المعركة عنيفة خلال أسبوع كامل. ولم تسمح الجبهة الضيقة بالقيام بمناورة واسعة. وكانت قوات رومل منهكة. ووجدت نفسها مهددة بالشلل بسبب نشاط الغواصات الحليفة، التي أغرقت ناقلات البترول الألمانية في البحر الأبيض المتوسط، فأثر ذلك على نتيجة المعركة. عندئذ لاحت بوادر هزيمة رومل، وأصبح الألمان عاجزين عن استعادة حركيتهم، قبل الوصول إلى قواعد تموينهم.

كان رومل في بداية المعركة مريضاً، واضطر للسفر إلى فيينا. ولما عاد ودرس الوضع قرر سحب جيشه إلى فوكه، وهي موقع يبعد ١٠٠ كيلو متر غربي العلمين، لتعطيل الاستعدادات الحربية التي وضعها مونتغمري موضع التنفيذ. ولكن هتلر أحبط رغبة رومل، وقرر عدم التخلي عن شبر واحد من الأرض. ولم يؤدِ ذلك إلّا إلى تأجيل الانسحاب حتى الهزيمة التالية. ولكن رومل نفذه بمهارته وفطنته الشهيرتين، فترك أقل وحداته آلية وتدريباً، بما في ذلك معظم القوات الإيطالية، ليسحب من هذا المأزق وحداته المختارة مستخدماً جميع وسائط النقل المتوفرة لديه.

وفشلت كل محاولات البريطانيين لمهاجمته من الخلف. ولم تقم القوات البريطانية بحركة تطويق واسعة النطاق، فقد انحرفت ناحية البحر، قبل الأوان، بقصد أسر معظم

القوات المنسحبة على الطريق الساحلي ، ثم قامت بحركة واسعة قرب مرسى مطروح (٢٠٠ كم غربي العلمين) ، ولكنها لم تستطع قطع طريق الانسحاب .

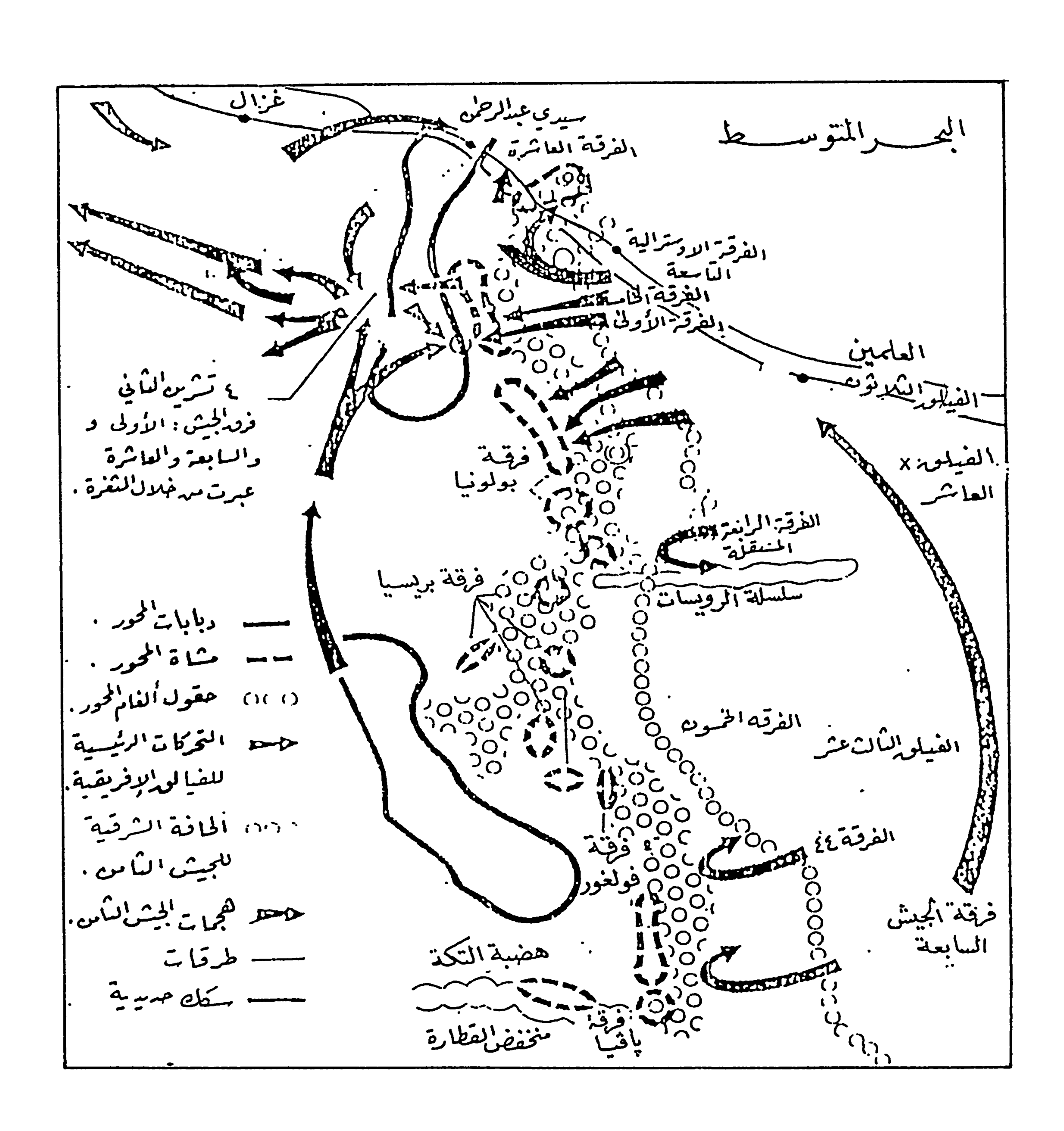
ولم يتوقف رومل ، بعد تخلصه من فكي كماشة المطاردين المدرعة حتى وصل إلى العقيلة (على بعد ١١٠٠ كم من العلمين) . وقد أحبط خلال هذا الانسحاب ، الذي استمر ١٥ يوماً جميع خطط مطارديه ، وفقد القليل من الأسرى والعتاد .

واضطر الجيش الثامن إلى التوقف مدة ٣ أسابيع ليجمع قواته ، ويقوم بمهاجمة العقيلة . وعندما بدأ الهجوم انسحب رومل . واستطاعت مناورة جانبية عزله عن مفارز المؤخرة ، ولكنه استطاع شق طريقه قبل أن يتم إنشاء (السد الاستراتيجي) على طريق انسحابه .

توقف رومل من جديد عند البويرات ، التي تبعد ٣٣٠ كم إلى الخلف . واستطاع الدفاع عن هذا الموقع ثلاثة أسابيع . وعندما اقترب الجيش الثامن وقام بهجومه الجديد ، في منتصف كانون الثاني ١٩٤٣ ، انسحب رومل ، من جديد انسحاباً مستمراً بمسافة ٥٦٠ كيلو متراً ، بعيداً عن طرابلس إلى خط ماريت في الأراضي التونسية . وقد اضطر إلى اتخاذ هذا القرار بسبب ضعف قواته ، وفقدان البترول الذي يمونه ، علاوة على الموقف الجديد ، الذي نشأ بسبب نزول القوات الانكليزية ـــ الأميركية في شهر تشرين الثاني ١٩٤٢ في المغرب والجزائر .

حصل الإنزال عقب هجوم العلمين مباشرة ، على مسافة ٤٠٠٠ كيلو متر تقريباً من خط القتال ، في الطرف الثاني من شمالي إفريقية . وكان ذلك يعتبر هجوماً غير مباشر ، بعيد المدى ، على مؤخرات رومل في ليبيا ، ويهدد مواقعه قرب مصر .

لقد كانت الفكرة الأساسية لهذه الإنزالات هي إنزال قوات للحلفاء على شاطىء المغرب ، على المحيط الأطلسي . ولو حدث ذلك لكان هجوماً مباشراً يعطي للقوات الفرنسية ، الموالية للألمان ، فرصة الدفاع بشكل فعّال . كما أن انطلاق الحركة من منطقة تبعد ٢٠٠٠ كيلو متر عن بنزرت ، مفتاح مسرح عمليات شمالي إفريقية ، يعني إعطاء الألمان الزمن والإمكانات اللازمة لدعم المقاومة الفرنسية ضد غزو الحلفاء . ثم أضيفت إلى الخطة عمليات إنزال أخرى على شواطىء البحر الأبيض المتوسط قرب وهران والجزائر .



معركة العلمين، ٢٣ تشرين الأول ــــ ٤ تشرين الثاني ١٩٤٢

ومهدت الدبلوماسية الأميركية الطريق لهذه العمليات بعد أن حصلت على موافقة سلطات فرنسية مختلفة ومساعدتها . وأثرت عمليات الإنزال هذه تأثيراً حاسماً على سلوك القوات الألمانية العاملة في شمالي إفريقية .

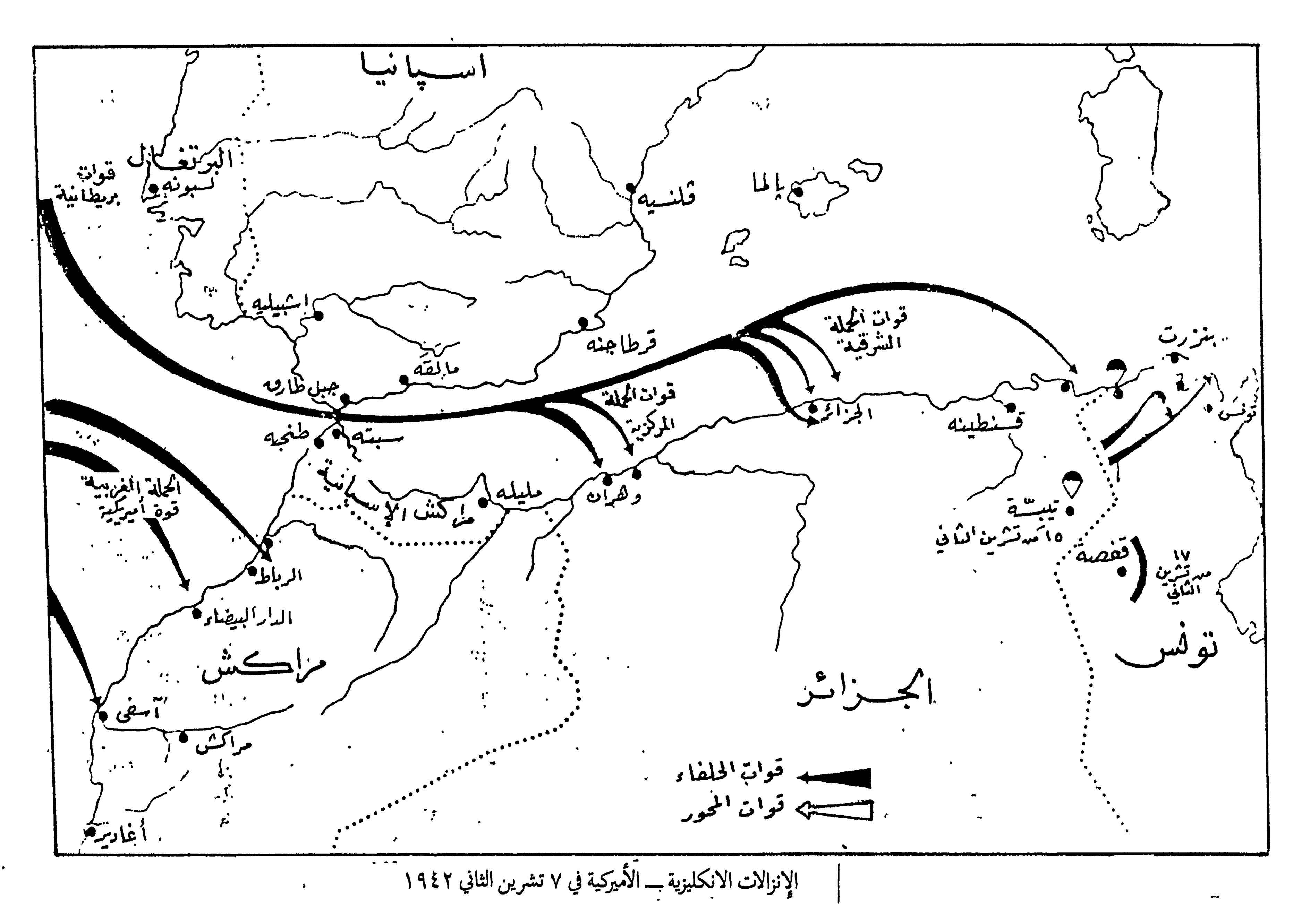
وكان رد فعل الألمان سريعاً ، برغم مفاجأتهم بنزول قوات الحلفاء . فوجهوا في اليوم الثالث لوقوع هذه العملية قوات نحو تونس ، واستخدموا لهذا الغرض جميع طائرات النقل والمراكب الموجودة تحت أيديهم . وكان حجم القوات صغيراً ، لكنها استطاعت صد الوحدات ، التي أنزلها الجيش الأول للحلفاء المتقدم نحو تونس بعد أسبوعين ونصف من نزول قوات هذا الجيش على الساحل .

ترتب على هذا الفشل ، الذي صادف الحلفاء ، توقف استمر خمسة أشهر على القوس الجبلي ، الذي يغطي مدينتي بنزرت و تونس . ومع ذلك كان هذا الفشل لمصلحة الحلفاء في المستقبل ، لأنه شجع الألمان على إرسال نجدات متزايدة عن طريق البحر إلى تونس ، بينما كان الحلفاء يقطعون مواصلاتهم بتقوية الحصار البحري ضدهم ، وحرمانهم بالتالي من طريق الانسحاب .

واضطر هتلر ، في النهاية ، إلى إرسال وحدات عديدة للثبات في تونس ، تفوق الوحدات التي كانت قد خصصت لاحتلال مصر .

بدأت المعارك في تونس في عام ١٩٤٣ بهجوم ألماني مضاد هزّ الحلفاء بعنف . وقد حدث هذا الهجوم عندما كان الجيش الأول للحلفاء ، القادم من الغرب ، يسعى مع الجيش الثامن القادم من الشرق لحصر قوات المحور بين فكي الكماشة . وأرادت قيادة المحور تلافي الخطر بتحطيم هذين الفكين ، وكانت الشروط المناسبة لتحقيق هذه الخطة متوفرة تماماً . فقد كانت النجدات ، المرسلة إلى تونس ، تؤلف جيشاً تحت قيادة فون آرنيم ، كما كانت بقايا فيلق رومل تتلقى دعماً جديداً بالرجال والعتاد في أثناء تراجعها نحو الغرب . وفكر رومل في الاستفادة من ميزات القتال على (الخطوط الداخلية) ، على أن يستخدم موضعه المركزي بين الجيشين الحليفين ، المتقدمين نحو نقطة واحدة ، وذلك بمهاجمة الواحد بعد الآخر ، وإبعادهما بعضهما عن بعض .

كان الفيلق الأميركي الثاني ، الذي يضم فرقة فرنسية ، الهدف الأول للهجوم



الإنزالات الانكليزية ــ الأميركية في ٧ تشرين الثاني ١٩٤٢

الألماني المضاد . وكانت جبهته تمتد على مسافة ١٤٠ كيلو متراً ، وتستند إلى ثلاثة طرق تتجه نحو البحر عبر الجبال . وكانت عناصر رأسي الفيلق تحتل الممرات الجبلية الضيقة قرب مدن الفندق ، فايد ، قفصة ، بشكل متين .

وفي أواخر كانون الثاني ١٩٤٣ ، اندفعت فرقة البانتزر ٢١ فجأة نحو ممر فايد ، واجتاحت الحامية الفرنسية قبل وصول النجدات الأميركية . واعتقدت قيادة الحلفاء بأن هجوماً مضاداً جديداً أكبر لا بد أن يقع على نقطة أخرى ، واعتبرت عملية فايد مجرد مشاغلة ، وحددت مكان الضربة التالية في مدينة الفندق . وانقلبت هذه الفكرة إلى إيمان أكيد أدى إلى نتائج قاضية تقريباً .

وفي ١٤ شباط ١٩٤٣ ، بدأ الهجوم الحقيقي على شكل وثبة جديدة ، منطلقة من ممر فايد بقيادة زيغلر Siegler ، مساعد فون آرنيم . وقد وقع الهجوم في الوقت الذي تقدمت فيه المدرعات الأميركية لإعاقته . فثبتت فرقة البانتزر ٢١ الأميركيين في الجبهة ، واستدارت على مجنبتهم اليسرى ، وناورت حول مجنبتهم اليمنى لتأخذهم من الخلف . وخسر الأميركيون ١٠٠ دبابة . وأعطى رومل لـ زيغلرالأمر لمتابعة التقدم خلال الليل ، واستثمار النجاح حتى النهاية . وظل زيغلر ٤٨ ساعة ينتظر موافقة فون آرنيم ، ثم اندفع مرة أخرى مسافة ٤٠ كيلو متراً حتى مدينة سبيتلة ، حيث تجمع الأميركيون بعد هزيمتهم . وكان يستطيع دفعهم إلى الوراء بمعارك أصبحت أكثر ضراوة ، برغم وصول الأميركيين إلى ممر القصرين . وفي هذا الوقت سحب رومل من خط ماريت مفرزة مدرعة ، وانطلق بعمق نحو الجنوب ، عبر ممر حفصة بحركة طولها ٨٠ كيلو متراً ، كان من نتائجها سقوط مطارات الأميركيين الواقعة جنوبي غربي القصرين بيديه في ١٧ شباط ١٩٤٣ .

ودخل في المعمعة الجنرال الكسندر ، الذي كان قد عين حديثاً لقيادة الجيشين الحليفين . فوجد الوضع حرجاً ، وقوات الحلفاء في فوضى ، والتعاون معدوم . ولو تدخل رومل ضد هذا الوضع لما صادف في تدخله وتقدمه سوى بعض الحواجز الطبيعية ، ولأدى ذلك إلى خرق الجبهة في تونس ، الأمر الذي يجبر الحلفاء على الانسحاب أو الوقوع في كارثة .

وكان رومل يود استثمار الفوضى والهلع اللذين وقعا في صفوف الحلفاء ، وذلك

بمناورة كبيرة تشترك فيها جميع القوات الآلية الموجودة لديه، ومـن ثم الزحـف نحو مواصلات الحلفاء الرئيسية في الجزائر. وكانت استطلاعات الألمان الجوية تدل على احتراق مستودعات الحلفاء في تيبسة. ولكن فون آرنيم رفض الاشتراك في هذه المغامرة، مما أجبر روميل على أخذ موافقة موسوليني، الذي وافق شريطة الاتجاه إلى طحلة وليس إلى تيبسة.

وأثبتت النتائج، شكل قاطع، صحة رأي روميل. ووقع الهجوم في المكان الذي كان يتوقعه الجنرال الكسندر، والذي استعد لاستقباله. فأعطى أوامره للدفاع عن طحلة، وجلب لها القوات الاحتياطية البريطانية من الشمال. ولو استطاع روميل أن يناور، كما كان يرى، لأوقع في صفوف الحلفاء اضطراباً كبيراً وخسائر أكبر.

وتمركز الأميركيون أيضاً بكل قوة في طحلة، ودافعوا بقوة عن ممر القصرين. ولم يستطع الألمان المرور إلا يوم ٢٠ شباط. وفي اليوم التالي دخلوا مدينة طحلة منهكين، فطردتهم القوات البريطانية منها. عندئذ أدرك روميل، في ٢٢ شباط، أن الحظ قد تخلى عنه. فأوقف الهجوم، وبدأ في الانسحاب على مراحل. وفي اليوم التالي تلقى أمراً جديداً من روما، ولكن بعد فوات الأوان، يخوله قيادة كل جيوش المحور في شمالي إفريقية.

لقد أدى تأخير تسليم القيادة العامة لقوات المحور في شمالي إفريقية إلى روميل إلى عجز في القيادة وإضاعة في الوقت، وتبديل في القرار. فقد اضطر روميل لشن هجوم فاشل مقابل مقدرته على شن هجوم ناجح عميق. وقد أفقد هذا الهجوم الفاشل الألمان فرقاً عديدة ضرورية لقيام روميل بضربة جديدة ضد مونتغمري، وقد قلب ذلك التأخير خطط روميل كلّها.

لم يكن مونتغمري قد أرسل، حتى ٢٦ شباط، سوى فرقة واحدة في اتجاه خط ماريت. وعندما هاجم روميل في آذار ١٩٤٣ كانت قوات مونتغمري قد ازدادت أربع مرات، وأصبح لدى الأخير ٤٠٠ دبابة و ٥٠٠ مدفع مضاد للدبابات، وترتب على ذلك ضياع التفوق الذي كان يتمتع به روميل قبل ذلك. ولم يستطع روميل متابعة الهجوم وفقد ٥٠ دبابة في قتال بعد الظهر، وأثر ذلك عليه بشكل جدّي في المرحلة التالية من المعركة. وسقط روميل مريضاً فاستدعي إلى أوروبا.

وفي ١٧ آذار، رد الحلفاء بهجوم بالفيلق الثاني الأميركي، الذي يقوده الجنرال

باتون ، في اتجاه خط انسحاب الفيلق الإفريقي الألماني نحو تونس . وكان من أهداف هذا الهجوم تخفيف الضغط عن جبهة تونس ، ولكن التقدم كان بطيئاً وحذراً ، ثم توقف أمام الممرات الجبلية التي تغطي الحدود . وشجع هذا التوقف الألمان على شن هجوم جديد فشل في خرق الدفاع الأميركي . وفقد الألمان ٤٠ دبابة ، فضعفت قوتهم الهجومية ، الأمر الذي أضعف مقاومة الألمان الدفاعية أمام تقدم مونتغمري .

بدأ هجوم الجيش الثامن البريطاني على خط ماريت ليلة ٢٠ آذار ١٩٤٣ . وكان محور الجهد الرئيسي يهدف إلى خرق دفاع الألمان قرب البحر ، وأن تتوغل الفرقة المدرعة داخل الثغرة ، وأن يقوم الفيلق النيوزيلاندي في الوقت نفسه ، بحركة تطويق واسعة في اتجاه مدينة الحمة ، على مؤخرات العدو لتهديد احتياطاته الموجودة في هذا القطاع .

ولم ينجح الهجوم الجبهي في خرق خطوط الألمان . وبعد قتال دام ثلاثة أيام بدَّل مونتغمري خطته ، ودفع الفرقة المدرعة الأولى والنيوزيلانديين نحو مؤخرات العدو . ولكن الدبابات وقع هجومها في وادٍ تدافع عنه وحدات ألمانية جيدة الدفاع المضاد للدبابات ، وكادت العملية أن تنقلب إلى كارثة لولا قيام عاصفة رملية أنقذت الانكليز . وهكذا صد الألمان الهجمات البريطانية في الحمة ، ثم اضطرا لإخلاء خط ماريت ، بعد تهديد مواصلاتهم ، ولكنهم احتفظوا بالباب مفتوحاً للانسحاب منه دون خسائر جديدة .

ثم توقف الألمان على مسافة ١٥ كيلو متراً وراء الحمة ، على (وادي العكاريت) ، الذي يشكل موضعاً جبهياً ضيقاً بين الهضاب ووادي قابس . واندفع الأميركيون المهاجمون في اتجاه الجنوب ، وحاولوا مباشرة تدمير العدو على هذا الموضع والوصول إلى ظهره ، ما دامت جبهته مثبتة مع الجيش الثامن . ولكنهم صدوا ، ولم يستطيعوا اجتياز المنطقة الجبلية . وفي الساعات الأولى من ٦ نيسان هاجم الجيش الثامن وادي العكاريت تحت ستار الظلام . وسمح التكتيك الليلي الجديد بخرق دفاع العدو ، غير أنه فشل في استثمار النصر عند طلوع النهار . واشتبكت فرقتان من الفرق الألمانية المدرعة الثلاث مع الأميركيين ، ولكن الألمان لم تكن لديهم القدرة على الاستمرار في المقاومة . وفي الليل التالي توقف الألمان عن القتال ، وانسحبوا بسرعة على الطريق الساحلي نحو مدينة تونس .

وحاول الفيلق التاسع للحلفاء قطع طريق انسحاب الألمان من جديد ، بخرق ممر

الفندق في ٨ نيسان، والوصول إلى البحر على مؤخرات الألمان. وفشلت المشاة في شق الطريق أمام المدرعات، الأمر الذي دعا إلى استخدام الدبابات في اليوم التالي، بهجوم جريء غالي الثمن، عبر حقول الألغام. ولكن هذا الخرق، الذي جاء متأخراً لخطوط الألمان، لم يؤدِ إلى تطويقهم خلال انسحابهم على طول الشاطىء. وبعد عدة أيام اتصل الجيشان الألمانيان، وأصبحا قادرين على القيام بمقاومة موحدة على قوس الجبال التي تغطي مدينة تونس. وكانا قادرين فعلاً على الاستمرار في المقاومة أو استخدام المناورة والانسحاب بسرعة لإجلاء قواتهم إلى صقلية.

ويقول ليدل هارت: «إن انسحاب جيش رومل من إفريقية، من منطقة العلمين إلى تونس، مسافة ٣٢٠٠ كيلو مترٍ تقريباً، يعتبر أكمل عمل من نوعه في التاريخ العسكري».

إن سرعة انسحاب رومل، ابتداء من وادي العكاريت، ونجاحه في إحباط هجمات الحلفاء، أعطت القيادة العامة الألمانية فرصة كافية لإجلاء جيوشها نحو صقلية، لو أنها حصلت على موافقة بذلك. وكان على الحلفاء أن يتوقفوا ١٥ يوماً قبل البدء بهجوم جدي جديد، ضد القوس الدفاعي للعدو، من انفيدافيل جنوبي مدينة تونس إلى رأس سيرت غربي ميناءِ بنزرت. كما أن الضباب ساعد على إخفاء عمليات الإخلاء والنقل. وكانت معظم الجيوش الألمانية في تونس قادرة على الانسحاب بطريق البحر والجو.

وفضلت القيادة العامة الألمانية القيام بمحاولة إطالة أمد الحرب في شمالي إفريقية، بدلاً من سحب القوات إلى قواعدها على سواحل أوروبا الجنوبية. وقد اضطر الألمان إلى إنشاء جبهة في تونس تزيد عن إمكانات القوات ووسائطها (طولها ١٦٠ كيلو متراً)، رغبة في تغطية مدينتي تونس و بنزرت في وقت واحد، فأتاحت للحلفاء بذلك فرصة ذهبية لاستثمار مزايا الاختيار بين هدفين بالتناوب.

بدأ هجوم الحلفاء في ١٠ نيسان، عندما هاجم الجيش الثامن جناح العدو الأيسر، ثم تعثر تقدمه في الممر الساحلي، حتى اضطر إلى التوقف في ٢٣ نيسان. وفي ٢١ نيسان كان الفيلق الخامس قد تقدم منطلقاً من المركز الأيسر عبر الهضاب المؤدية إلى

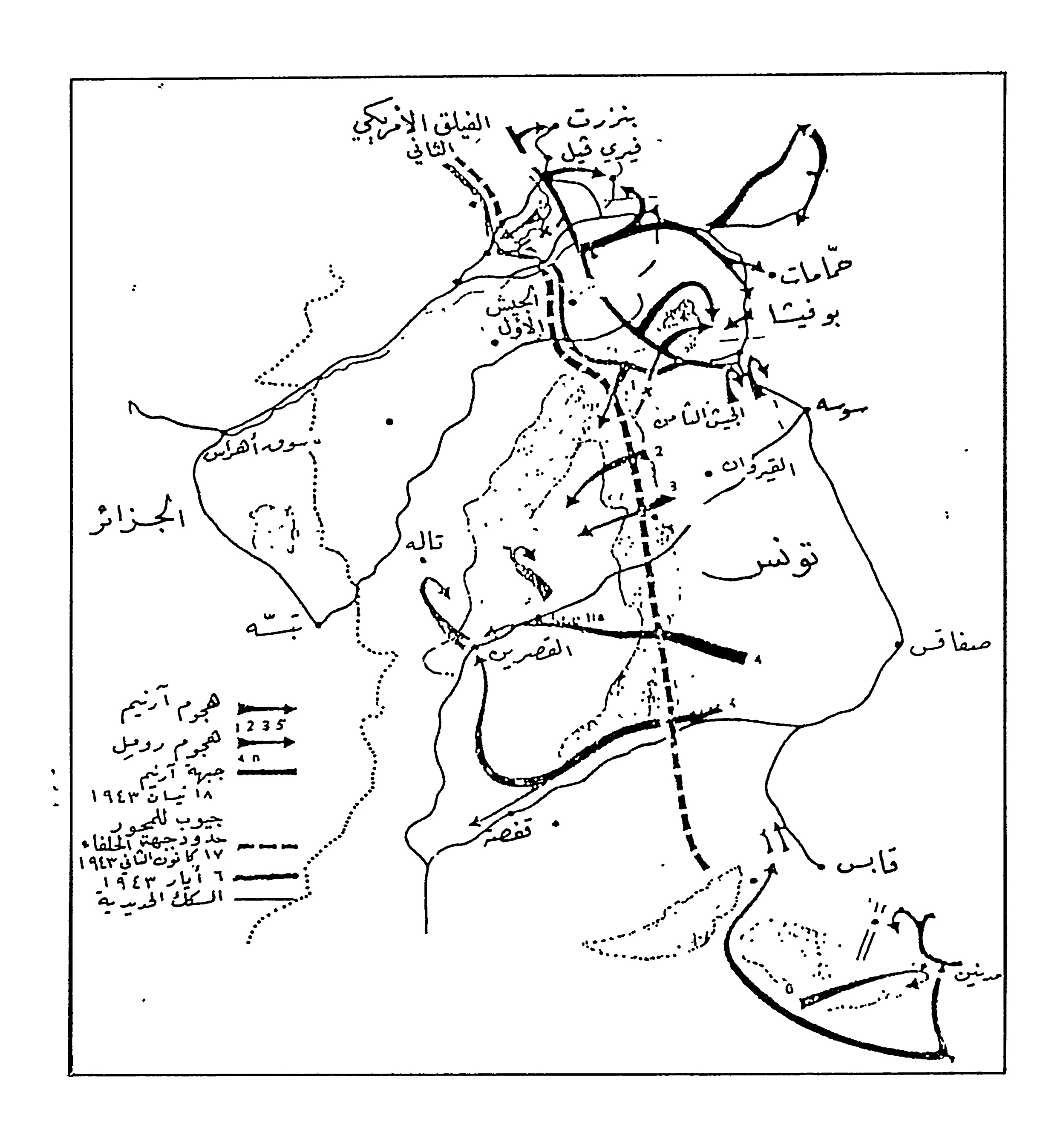
تونس. وفي اليوم التالي زحف الفيلق التاسع منطلقاً من المركز الأيمن، قرب جبيلات، ليستثمر الخرق الذي قامت به المدرعات، ولكنه لم يتمكن من تدمير دفاع العدو، بل اكتفى بإضعاف قوة وحداته المدرعة. ثم تم التوقف مدة ١٥ يوماً، في معظم أجزاء الجبهة، بينما استمر الأميركيون، مع الفيلق الفرنسي في الشمال، بالتوغل في خطوط العدو حتى وصلوا إلى بعد ٣٦ كيلو متراً عن بنزرت.

وفي هذا الوقت، عدّل الكسندر تنظيم قواته، فترك ستارة من الوحدات في المركز الأيمن قرب جبيلات، ووجه معظم قوات الفيلق التاسع نحو المركز الأيسر، وجمعه خلف الفيلق الخامس، ودعمه بفرقتين مختارتين من الجيش الثامن، هما الفرقة المدرعة السابعة، والفرقة الهندية الرابعة. وقام بخدعة لإخفاء تحركات قواته وإيهام العدو بأن الهجوم الجديد يتجه إلى الجنوب، الأمر الذي دفع الجنرال فون آرنيم إلى الاحتفاظ بقوات كبيرة في الجنوب. ولم يكن أمام آرنيم، بعد بدء الهجوم، فرصة لكشف الحيلة وتبديل تشكيلته نظراً لسيطرة الحلفاء الجوية، القادرة على شل جميع حركات الوحدات وقوافل النقل على الطرق.

انطلق هجوم الفيلق التاسع بقيادة الجنرال هوروكس بشكل كثيف وعنيف، في الساعات الأولى من يوم ٦ أيار في ليلة مظلمة. وسبق هذا الهجوم ورافقه تمهيد كثيف بنيران المدفعية، حيث استخدم ٦٠٠ مدفع في ضرب جبهة لا يزيد عرضها عن ثلاثة كيلو مترات في وادي مجيردة المؤدي إلى مدينة تونس.

وفي الصباح، تابع الطيران نشاطه وشل بذلك قوة المدافعين، الذين اجتاحتهم فرقة المشاة الرابعة الهندية، والفرقة البريطانية. وكانت المواقع الدفاعية طويلة وضعيفة وليس لها عمق كاف. وانطلقت دبابات الفرقتين المدرعتين السادسة والسابعة من خلال الثغرة التي فتحتها، ولكنها أضاعت بعض الوقت في تطهير الجيوب التي صمد فيها الألمان، فلم تتقدم حتى المساء سوى بضعة كيلو مترات وراء الثغرة، وأصبحت المسافة بينها وبين تونس ٢٥ كيلو متراً.

وفي صبيحة اليوم التالي كان الجيش الألماني قد أصيب بالشلل، بسبب المفاجأة الاستراتيجية وصدمة الطيران، وأصبح عاجزاً عن الرد بأية حركة مضادة تكتيكية.



المراحل الأخيرة من قتال قوات المحور في شمالي إفريقية (تونس)

وتسربت عناصر المقدمات للفرق المدرعة البريطانية بعد الظهر داخل مدينة تونس. وتوجهت الفرقة السادسة نحو الجنوب، والفرقة السابعة نحو الشمال لزيادة تأثير التفتيت في قوات العدو. وفي ذلك الوقت دخل الأميركيون والفرنسيون بنزرت، وانهارت مقاومة الألمان في الجزء الشمالي من الجبهة. وكان العدو، في الشمال، قادراً في ذلك الحين على الانسحاب إلى شبه جزيرة رأس بونه والمقاومة هناك طويلاً. إلا أن الفرصة ضاعت بسبب سرعة وصول الفرقة المدرعة السادسة إلى مؤخرات الألمان، وعزل شبه الجزيرة. وهكذا تم الانهيار التام، واستسلم حوالي ٢٥٠ ألف رجل من قوات المحور.

كان سبب فقد قيادة القوات الألمانية توازنها في شمالي إفريقية يعود إلى توافق العمليات الجوية مع هجمات المدرعات على المؤخرات، وكان انهيار القيادة هو أول سبب من أسباب الكارثة، وأدى قطع المواصلات إلى زيادة التأثيرات المعنوية الناجمة عن نقص الاحتياطات وفقدان الإمداد والتموين.

٧ ـــ انهيار هتلر

بدأت قوى ألمانيا تتناقص ابتداء من عام ١٩٤٣، وفقد الألمان بعد كارثة ستالينغراد، والانسحاب من القفقاس، كل أمل في إحراز نصر على السوفييت. وبدأت القوات السوفييتية تزداد قدرتها القتالية وإمكاناتها في إنتاج الأعتدة الحربية من طائرات ودبابات ومدافع. وبدأ ميزان القوى بين الطرفين السوفييتي والألماني يشير إلى احتمال فشل أي هجوم ألماني استراتيجي.

وقد بدا أن الألمان أصبحوا عاجزين، بقواهم الذاتية، عن الدفاع عن الأرض الواسعة التي يحتلونها. وكان عليهم، إذا أرادوا الدفاع في مثل هذه الظروف، التخلي عن قسم كبير من الأراضي المحتلة بقصد تنفيذ دفاع مرن، يقوم على سلسلة من المناورات التراجعية التي تؤمن الانسحاب قبل مواجهة هجوم العدو.

ومنذ عام ١٩٤٣، كانت لدى الألمان أسباب هامة تدعوهم إلى اللجوء إلى الدفاع المتحرك للوقوف في وجه هجمات السوفييت الراغبين بتحرير بلادهم. وقد أجمع الاستراتيجيون الألمان كافة، على أن استخدام خطة دفاع مرن أمر ملائم لإنهاك قوى

السوفييت وتحطيم إرادتهم القتالية ، لما يتيحه هذا النوع من الدفاع من فرص ملائمة للقيام بتنفيذ هجمات معاكسة تستطيع تغيير الموقف .

ولكن تشبع هتلر بالروح الهجومية جعله يصم أذنيه عن سماع مثل هذه الآراء . لقد كان مؤمناً بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، وأن المقاومة الصلبة ، دون التفكير في التراجع ، هي أحسن وسائل الدفاع بعد الهجوم . وهذا ما دفعه إلى رفض فكرة مستشاريه ، الذين اقترحوا عليه الانسحاب نحو خط الدنيبر ، نظراً لقلة القوات الاحتياطية الألمانية ، وخطورة البقاء على الخط ، الذي تم الوصول إليه في معركة الشتاء . وهكذا ، فإنه أصر على ضرورة حل المشكلة بالعودة إلى الهجوم في صيف عام ١٩٤٣ .

وفي آذار ١٩٤٣ ، قام مانشتاين بعملية ، بأسلوب غير مباشر ، في خاركوف . وعرض على هتلر تكرار هذا العمل ، بشكل مدروس بدقة ، مع استخدام **أسلوب (الطعم والفخ)** . وكانت الجبهة الألمانية في قطاع ميوس ، بين نهر الدونتز وبحر آزوف تشكل بروزاً متقدماً جداً في الخطوط السوفييتية بشكل قد يدفع السوفييت إلى مهاجمته في الربيع القادم . واقترح مانشتاين تقليل الوسائل المعدة للدفاع عن هذا البروز ، وسحبها أمام التقدم السوفييتي ، وإعدادها للقيام بهجوم مضاد بجميع الوسائط المتوفرة ، على أن يتم هذا الهجوم المضاد في منطقة كييف ، على مجنبة العدو الشمالية بقصد الالتفاف حول الجبهة السوفييتية بأكملها وتطويق جيوشها .

ووجد هتلر ، في هذه الخطة ، جرأة زائدة ، ولم يقبل بترك حوض الدونتز وموارده الصناعية والمعدنية . واختار حلاً جديداً يهدف إلى جلب السوفييت وتحطيمهم قبل أن يقوموا بهجوم الربيع . وكانت الخطة تتضمن طردهم من الجيب الكبير ، الداخل في الجبهة الألمانية حول كورسك ، بين بلغورد و آريول . وكان على الجيش المدرع الرابع ، من جيوش الجنوب ، التي يقودها فون مانشتاين ، وهي التي كانت تسمى في الماضي باسم (مجموعة جيوش الدون) أن يشكل فك الكماشة الأيمن ، على أن يشكل الجيش التاسع ، من (مجموعة جيوش المركز) بقيادة كلوغة ، الفك الأيسر . وقد أصر مانشتاين على الشروع في العمل ، إذا تم إقرار هذه الخطة ، في بداية شهر أيار ، عندما يبدأ فصل الربيع بالجفاف ، وقبل أن يتمكن السوفييت من جمع قواتهم . ولكن الهجوم تأخر حتى ٥ تموز ١٩٤٣ . وهنا يبدو ذلك مثالاً واضحاً على السعي وراء زيادة الوسائل ، قد يكون أقل

فعالية في بعض الأحيان من تقصير المدة، وخاصة عندما تكون هنالك ضرورة لعامل السرعة.

ومرت الأيام، وبدأ هتلر يشك في نجاح هذا المشروع، ولكنه لم يكن ليقبل **فكرة الانسحاب الاستراتيجي** بدلاً عنه. ووافق على فكرة **العودة إلى الهجوم**، التي نادى بها ويتسلر، الذي حل محل هالدر، وكان متحمساً لفكرة البدء في الهجوم قبل بدء الهجوم السوفييتي، وعلقت آمال كبيرة على هذا الهجوم، الذي أطلقت عليه تسمية (القلعة).

ويبدو أن القيادة السوفييتية قد علمت أو قدّرت بشكل صحيح موضوع الهجوم الألماني، فأخرت هجومها حتى تسمح ببدء انطلاق الهجوم الألماني وتحطيمه بالدفاع المتين، ومن ثم الانطلاق في هجوم كاسح ضد قوات ألمانية منهكة.

وهكذا جهّز السوفييت بروز كورسك الكبير، وحصّنوه تحصيناً متيناً، وزرعوا حوله الألغام بعمق كبير، ونظموا الدفاع المتين والكثيف وراء هذه الحواجز الهندسية العميقة. وهكذا فشل الهجوم الألماني في جذب السوفييت إلى الطعم، ووقع الألمان أنفسهم في الشبكة. ولم يحرز الفك الأيمن للكماشة الألمانية إلا تقدماً بسيطاً، ولكنه استطاع خرق منطقتين دفاعيتين للسوفييت، واشتبك في معركة مدرعة قاسية مع تشكيلات مدرعة سوفييتية. بينما استطاع السوفييت صد الفك الأيسر في أوله. وقد أدت هذه الجهود الألمانية الضائعة إلى إخراج الألمان من مواقعهم الدفاعية، ووضعتهم في موقف حرج جداً، وعرضتهم للضربات السوفييتية المضادة القوية. وتحطمت الجبهة الألمانية شمالي آريول، وأصبح الموقف حرجاً. وتلقى مانشتاين أمراً بوقف هجومه وإرسال بعض فرقه المدرعة لنجدة كلوغة، الأمر الذي أعطى الفرصة للسوفييت كي يخترقوا جبهته الضعيفة.

لقد حشد الألمان لتنفيذ عملية (القلعة) تجميعات ضاربة قوية ضمت في صفوفها ٥٠ فرقة من خيرة الفرق الألمانية، بقوام ٩٠٠,٠٠٠ جندي، وحوالي ١٠,٠٠٠ مدفع، و ٢٧٠٠ دبابة، وأكثر من ٢٠٠٠ طائرة. وعقدت الآمال الكبيرة على الاستخدام الواسع للدبابات الجديدة من طراز النمر **Tiger**، والفهد **Panther**، ومدافع الهجوم الذاتية الحركة فيرديناند **Ferdinand**، والطائرات الحديثة من طراز فوكه ــ فولف ــ ١٩٠ و هنكل ــ ١٢٩.

وقد ألقيت مهمة الدفاع عن بروز كورسك على عاتق قوات الجبهة المركزية بقيادة الجنرال روكوسوفسكي Rokossovsky ، وجبهة فورونيج بقيادة الجنرال فاتوتين Vatutin في النسق الأول ، وفيها ١٫٣٣٦٫٠٠٠ مقاتل و ١٩١٠٠ مدفعٍ وهاونٍ ، و ٣٤٤٤ دبابة ومدفعاً ذاتي الحركة و ٢١٧٢ طائرة ، وفي النسق الثاني جبهة السهوب بقيادة الجنرال كونييف Koniev ، وهي مخصصة للقيام بالضربة المعاكسة الحاسمة . وقد عيّن المارشالان جوكوف Jukov وفاسيلفسكي Vassilevsky ممثلين لهيئة القيادة العامة للإشراف على تنفيذ العملية .

وهكذا استعاد السوفييت في ٢٣ تموز ١٩٤٣ الوضع الذي كانت تشغله قواتهم قبل الهجوم الألماني . لقد باءت بالفشل محاولة هتلر الانتقام لهزيمة قواته قرب ستالينغراد ، **واستعادة المبادرة الاستراتيجية** . وهكذا استنزفت القوات الألمانية خلال الموقعة الدفاعية قرب كورسك ، وتشكلت بنتيجة ذلك الظروف المناسبة لانتقال القوات السوفييتية إلى الهجوم العام المعاكس .

بعد ضربات المدفعية القوية قامت القوات السوفييتية بخرق دفاع الألمان على عدة اتجاهات ، وبدأت بتطوير الهجوم . وبعد صد الضربات المعاكسة القوية الألمانية تقدمت قوات الجبهة الغربية ، وعلى رأسها تشكيلات جيش الحرس ١١ بقيادة الجنرال باغراميان مسافة ٧٠ كيلو متراً تقريباً . كذلك اقتربت قوات جبهة بريانسك من جهة الشرق . وبعد خوض معارك عنيفة وطويلة تكبد الألمان إصابات فادحة كان لها أكبر الأثر في تشكيل الظروف من أجل سحق تجميع آريول الألماني بالكامل ، والقضاء على بروز آريول .

وفي ١٥ تموز ، انتقلت قوات الجبهة المركزية إلى الهجوم المعاكس ، واستعادت ، قبل ١٨ تموز ، الوضع الذي شغلته قبل الهجوم الألماني ، وأصبحت تتقدم نحو الأمام موجهة الضربات للالتفاف حول آريول من جهة الجنوب الغربي .

وبعد تطهير آريول ، تقدمت القوات السوفييتية نحو الغرب وشكلت الظروف المناسبة للقوات ، لتحرير الأراضي والوصول إلى الخط الدفاعي الألماني المحضر ، والذي أطلق الألمان عليه تسمية (خط هاغن) ، مهدت السبيل لتحرير روسيا البيضاء (بلوروسيا) السوفييتية .

تعتبر ملحمة كورسك من أهم أحداث الحرب العالمية الثانية . وقد فشلت فيها آخر محاولات القيادة الألمانية الرامية إلى استعادة المبادرة الاستراتيجية المفقودة ، واضطرت فيها القوات النازية إلى التحول إلى الدفاع .

فقد الجيش الألماني خلال ٥٠ يوماً من الأعمال القتالية المستمرة حوالي ٣٠ فرقة (منها ٧ فرق مدرعة وميكانيكية) و ١٥٠٠ دبابة ، و ٣٠٠٠ مدفع ، وأكثر من ٣٧٠٠ طائرة . وكان لانتصار القوات السوفييتية في كورسك أهمية دولية عظمى ، خاصة وأنها نفذت في ظروف هدوء تام في الجبهات الغربية ، الذي حافظوا عليه في منطقة كوبان في الطرف الغربي من القفقاس ، كما سحبوا قواتهم من شبه جزيرة القرم ليدعموا ، بعد فوات الأوان ، القطاع الجنوبي من جبهتهم الرئيسية بين منعطف الدنيبر و البحر الأسود . ولكن السوفييت خرقوا هذه الجبهة قبل وصول النجدات الألمانية ، وتقدموا ووصلوا إلى المجرى السفلي لنهر الدنيبر وعزلوا منطقة القرم . وفي شهر تشرين الأول نجح السوفييت في عبور نهر الدنيبر شمالي المنعطف ، واندفعوا بأعداد كبيرة في خطوط الألمان داخل البروز . ونجح الألمان ، مع ذلك ، في إبعاد الكارثة ، ولكن موقفهم اهتز بقوة . وهنا أصر هتلر على التمسك بالقطاع الجنوبي من بروز الدنيبر للاحتفاظ بالمناطق الغنية بالمنغنيز ، المادة الضرورية للصناعة الحربية . ودفع الألمان ثمناً غالياً للمحافظة على موارد المنغنيز ، حيث كان على المدافع الضعيف أن يلجأ إلى استخدام الدفاع المتحرك ، القادر على مقاومة مناورات المهاجم الكبير العدد .

وفي بداية تشرين الأول ١٩٤٣ ، احتل السوفييت رأسي جسرين جديدين على نهر الدنيبر ، الأول شمالي كييف والثاني جنوبها . واتسع رأس الجسر الأول باستمرار حتى أصبح قاعدة انطلاق عريضة لهجوم بدأ بعد شهر وأدى إلى احتلال كييف . واستغل السوفييت النصر بسرعة في اتجاه الغرب ، وفي حوالي أسبوع وصل الجنرال السوفييتي فاتوتين Vatutin إلى مسافة ١٣٠ كيلو متراً وراء الدنيبر .

وحاول مانشتاين إصلاح هذا الموقف الخطير ، برغم عدم توافر القوات الاحتياطية لديه . فقام بانسحاب سريع ، ثم قام بهجوم مضاد على مجنبة السوفييت . وقاد هذا الهجوم الجنرال مانتوغل . وكانت القوات المهاجمة ضعيفة نسبياً ، ولكن هجومها حقق بعض النتائج الجديدة ، بالنسبة للألمان . وحاول مانشتاين استغلال الفرصة والقيام بهجوم مضاد

كبير بواسطة النجدات القادمة من الغرب ، إلا أن عامل الزمن أحبط خططه ، ووجد الجنرال فاتوتين ، في الفترة بين الهجومين ، فرصة مناسبة لإعادة تنظيم قواته .

وفي بداية كانون الأول ١٩٤٣ ، بدأت القوات الألمانية تتعثر في الوحل بالإضافة إلى ضعفها القتالي وتقهقرها أمام السوفييت . وأصبح فون مانشتاين عاجزاً عن صد الهجمات السوفييتية التالية . ورفض هتلر فكرة الانسحاب على مستوى كبير .

وفي ليلة عيد الميلاد قام الجنرال السوفييتي فاتوتين بهجوم من جيب كييف الكبير ، حيث كان محصوراً ، وفي ٤ كانون الثاني ١٩٤٤ اجتاز الحدود البولونية وتقدم حتى وصل إلى نهر بوغ ، وهدد بذلك خطوط السكك الحديدية الرئيسية الممتدة من فارسوفيا إلى أوديسا . وهنا غامر مانشتاين بهجوم مضاد جديد ، ولكن فاتوتين صده . واستفاد السوفييت من إصرار هتلر على التمسك بخط الدنيبر جنوبي كييف ، فقام فاتوتين بالتعاون مع كونييف ، الذي يعمل على الجناح الآخر بعملية كماشة على جيب خورسون أدت إلى أسر ١٠ فرق ألمانية .

فتحت هذه الصدمة ثغرة في الجبهة الألمانية ، وسهلت عمليات التقدم السوفييتية التالية . واستخدمت الجيوش السوفييتية الأخرى في أوكرانيا طريقة الضربات المتناوبة . واضطر الألمان إلى إخلاء لوك و روفنو ، كما تركوا جيب نيكوبول وموارد المنغنيز .

وفي ٤ آذار ١٩٤٤ قام الجيش الأحمر بمناورة جديدة بقيادة المارشال جوكوف ، الذي حل محل فاتوتين بعد مرضه ، فقام بهجوم من شيتوفكا وتقدم مسافة ٥٠ كيلو متراً ، خلال اليوم الأول من العملية ، ووصل إلى سكة حديد أوديسا — فارسوفيا بعد يومين . وطوقت هذه الحركة خط بوغ الدفاعي . وتقدم مالينوفسكي ووصل إلى نيكولاييف . وبين هذين الإسفينين قام كونييف بهجوم وصل إلى نهر بوغ في ١٢ آذار ، كما وصل إلى نهر الدنيبر في ١٨ آذار ، ثم اقتحمه في اليوم التالي . إن السرعة المذهلة ، التي تمت بها هذه العمليات تستحق الدراسة والملاحظة ، لأنها أدخلت شكلاً جديداً لعمليات الخرق في تاريخ الحرب . ثم تابع جوكوف تقدمه من منطقة تيرنوبول نحو مخارج جبال الكاربات .

وحتى يتمكن الألمان من صد هذا الخطر مباشرة أسرعوا باحتلال المجر . وكان هذا

الإجراء، بالنسبة للألمان، ضرورياً للاحتفاظ بسلسلة جبال الكاربات. وكان عليهم الاحتفاظ بهذا الحاجز لصد الاجتياح السوفييتي المتوقع عن سهول أوروبا الوسطى، فضلاً عن أنه يعتبر نقطة ارتكاز للدفاع عن البلقان.

كانت جبال الكاربات تشكل مع جبال ترانسيلفانيا، الممتدة إلى الجنوب، خطاً دفاعياً طبيعياً كبير الأهمية. وكان الدفاع عنها يتطلب قوات قليلة جداً، نظراً لأن الممرات فيها محدودة، وهذا ما يحقق مبدأ الاقتصاد في القوى. هذا ويبلغ عرض المنطقة بين البحر الأسود والجبال الواقعة قرب فوكساني ٢٠٠ كيلو مترٍ، يحتل نصفه الشرقي دلتا الدانوب وسلسلة من البحيرات، أما النصف الغربي، الذي يضم فجوة غالاتسي، وعرضه ١٠٠ كيلو مترٍ، فقد كان ممكن الخطر.

وفي بداية نيسان ١٩٤٤، أظهر الألمان رغبة في الانسحاب إلى هذا الخط الخلفي. واقتحمت جيوش كونييف نهر بروت ودخلت رومانيا، بينما طرد الألمان من الجنوب خارج أوديسا. واستعاد السوفييت شبه جزيرة القرم بمناورتين متلاقيتين، وتم اجتياح الجيوش الألمانية التي كانت فيها. واستطاع الألمان بصعوبة صد هجمات السوفييت وراء نهر بروت ومنعها من التوغل في عمق رومانيا، فقطعوا بذلك منابع البترول الرومانية عن السوفييت. ولكن هذا النجاح المؤقت كان سبب انهيارهم، بعد شهور قليلة، لأنه دفع هتلر إلى إبقاء جيوشه في وضع غير مأمون، لأنها كانت مهددة بشكل كبير شرقي الجبال وشرقي فجوة غالاتسي. كذلك نجح الألمان في الشمال، ولكن لمدة مؤقتة فقط، في عرقلة تقدم جوكوف، الذي كان يحاول خرق ممر الكاربات في الجنوب الغربي من تيرنوبول.

تمّ خلال الأعمال القتالية، التي استمرت من ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢، وحتى ٢٢ كانون الأول ١٩٤٣ تحرير نصف أراضي الاتحاد السوفييتي تقريباً، ووصلت القوات السوفييتية إلى تخوم روسيا البيضاء (بلوروسيا) والطرف الأيمن لأوكرانيا، وشبه جزيرة القرم، وتكوّنت الظروف من أجل متابعة الهجوم، لتطهير الأراضي السوفييتية من المحتلين الألمان.

وقد سحقت القوات السوفييتية ٢١٨ فرقة، ودمرت ٥٠٫٠٠٠ مدفع، وأكثر من

سبعة آلاف دبابة وأسقطت ١٤٣٠٠ طائرة ألمانية. وفقدت القوات البرية الألمانية لوحدها ٥ر٢ مليون رجل، منذ أن أشعلت ألمانيا النازيـة نار الحرب ضد الاتحاد السوفييتي. فإذا أضفنا إلى هذه الخسائر خسائر القوى الجوية والبحرية الألمانية وخسائر الدول الحليفة لألمانيا، لاتضح لنا أن الحلف النازي لن يعود بعد الآن إلى حالته الأولى بعد الهزيمة التي مني بها.

وفي نهاية نيسان ١٩٤٤، كانت الجبهة السوفييتية مثبتة مؤقتاً. وكان الجيش الأحمر قد استعاد مناطق واسعة من الأرض، وخاصة في الجنوب، ولكن دون أن يتمكن من إيقاع الألمان في فخ كبير. واستطاع الألمان تلافي الخطر، والتخلص من مناورات الكماشة التي دبرها السوفييت، وتجنب الكارثة برغم اقترابهم منها. ولم يكن عدد أسرى الألمان كبيراً بالنسبة للتقدم السوفييتي. ولكن التناقص المستمر في تعداد الجيوش الألمانية كانت له نتائج أكثر خطورة. وأظهر هتلر تهوره وعدم إدراكه لحقيقة الموقف عندما عزل فون مانشتاين من قيادته. وأثبت بذلك تمسكه **بالفكرة الخاطئة التي تقول إن الدفاع دون فكرة تراجع خير من المناورة الماهرة**.

وبعد بدء غزو القوات الأنكلو ــ أميركية لجنوبي أوروبا ازدادت أعباء الألمان؛ حيث أعقب احتلال صقلية استسلام إيطاليا في بداية أيلول ١٩٤٣، وخلف انهيار الحليف الإيطالي فراغاً في الجدار الجنوبي للحصن الأوروبي، ولم يكن هذا الفراغ هاماً، نظراً لأن إيطاليا تشكل شبه جزيرة، ولكنه أرغم ألمانيا مع ذلك على وضع جزء كبير من إمكاناتها لسده، كما اضطرها لزيادة جهودها لتأمين التغطية في البلقان.

ومن النتائج الخطيرة، التي أعقبت انهيار إيطاليا، تعرض ألمانيا لهجمات جوية كبيرة، تقوم بها القاذفات الحليفة على مستوى أكبر، خاصة بعد زيادة إمكانات طيران الحلفاء بفضل إمدادات الصناعة الأميركية المتفوقة.

كان هدف الهجوم الجوي للحلفاء تدمير القوة الصناعية الألمانية. ويمكن، على مستوى الاستراتيجية العليا اعتبار ذلك هجوماً غير مباشر. لقد خرب هذا الهجوم، في الحقيقة، توازن إنتاج وسائل الحرب بصورة عامة. ولو كانت استراتيجية القصف الجوي قد وضعت بدقة أكبر، واستهدفت بلبلة نظام الإمداد والتموين وعرقلته بدلاً من تدمير

مناطق واسعة كثيفة السكان، لأدت إلى شل المقاومة الألمانية بسرعة أكبر. ولكنها استطاعت، مع ذلك، وبرغم سوء توجيهها، تحقيق الشلل الجزئي لألمانيا.

ويعود الفضل في نجاح غزو الحلفاء لصقلية في شهر تموز إلى أن شبكة الحلفاء في تونس أمسكت بالألمان بشكل قوي. وترتب على انهيار الموقف في تونس أن فقدت الوحدات الإيطالية في صقلية روحها المعنوية، واهتز نظام موسوليني في إيطاليا، من أساسه. وعندما توقع هتلر انهيار إيطاليا أو استسلامها خشي إرسال قوات إلى الجنوب، قد تضيع دون جدوى، فرفض دعم الايطاليين وتقوية دفاع صقلية.

وقد قام الحلفاء بإنزال قواتهم في صقلية في ١٠ تموز، على شاطىء واسع طوله ١١٠ كيلو مترات، وكان هدف هذا الهجوم خداع العدو وإثارة شكوكه حول النقطة المهددة بصورة رئيسية، وعرقلة المناورات المضادة في المرحلة الحرجة. وتقدم الجيش الثامن بسرعة على طول الشاطىء الشرقي، مما أدى إلى هزيمة العدو. وكانت المفاجأة كبيرة، وزاد من أهميتها اعتقاد العدو بوقوع الغزو على طرف صقلية الغربي، لأنه أقرب إلى قواعد الحلفاء في شمالي إفريقية، ولوجود موانىء متعددة في هذا القطاع من الجزيرة. وفي أقل من أربعة أيام تقدم مونتغمري مسافة ٦٥ كيلو متراً على طول الشاطىء الشرقي للجزيرة، ووجد نفسه في منتصف الطريق المؤدي إلى مضيق مسينا.

وحصل الجيش الأميركي السابع، بقيادة الجنرال باتون، على نتائج مشابهة عندما دعم رأس جسره على يسار قوات مونتغمري، واندفع بكل ثقله فجأة نحو الغرب، ثم استدار نحو الشمال في اتجاه باليرمو، وتم تفتيت المقاومة المعادية وانهيارها، بفضل مناورات الحلفاء، التي كانت تهدد باليرمو و مسينا في وقت واحد.

وقد أدى هذا الانهيار إلى زيادة أعباء القوات الألمانية في صقلية والمؤلفة من ثلاث فرق. لقد كان عليها أن تصد غزواً بسبع فرق، ثم ازداد عددها حتى أصبح ١٢ فرقة. ومع ذلك استطاعت هذه القوات المدافعة، دون دعم جوي، تأخير احتلال الحلفاء لجزيرة صقلية أكثر من شهر. ثم اجتازت مضيق مسينا تحت حماية المدافع المضادة للطائرات واستطاعت العودة إلى إيطاليا. ويمكن تفسير هذه المقاومة بعناد المقاتلين الألمان، وبصعوبة الأراضي، ولأن تقدم الحلفاء كان مباشراً بحتاً.

بعد سقوط باليرمو، عاصمة صقلية، وتطهير غربي الجزيرة، اتجه جيش الجنرال باتون نحو الشرق ليلتقي مع هجوم مونتغمري على مسينا. واستطاع العدو استغلال الطرف الشمالي الشرقي للجزيرة، الذي يشكل مثلثاً جبلياً، بأن استخدم طبيعة الأرض الصعبة، التي تزيد من قوة المدافعين، وانسحب نحو ذروة المثلث لينقص بذلك طول جبهته، فازدادت بذلك كثافة وسائطه الدفاعية مع كل مرحلة من مراحل انسحابه. هذا بينما كانت الجيوش الحليفة تصادف كثيراً من الصعوبات عندما تحاول زج إمكاناتها المتفوقة في المعركة.

٨ ــ غزو إيطاليا من قبل الحلفاء

باحتلال صقلية أنشأ الحلفاء رأس جسر في أوروبا يسهل انطلاقهم ويسمح لهم بالقيام بضربات في قلب القارة الأوروبية. لقد كان لديهم حرية اختيار مكان العمل، إذ كان بمقدورهم تهديد الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية مباشرة، علاوة على قدرتهم على القفز في اتجاه سردينيا، أو ساحل إيطاليا الغربي، أو طرفها الجنوبي الشرقي. وكان الهدف الأخير خارج حدود إمكانات الطيران، الذي كان يفترض أن يدعم الهجوم. ولم يكن الألمان يتوقعون هذا الهجوم، لأن عمليات الحلفاء كانت، حتى ذلك الوقت، محدودة بحدود إمكانات الدعم الجوي. وكانت مخالفة هذه القاعدة تعني مفاجأة العدو، كما أن طريق التقدم من ذلك المكان، بعد إنزال القوات، كان مفتوحاً أمام الوحدات الميكانيكية، ويشكل تهديداً للبلقان وإيطاليا الوسطى، في وقت واحد، الأمر الذي يضع القيادة الألمانية العليا أمام معضلة صعوبة الحل. وهكذا يمكن اعتبار الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة الإيطالية بمثابة (عقب آخيل) بالنسبة لألمانيا.

وقررت قيادة الحلفاء آنذاك القيام بالجهد الرئيسي ضمن حدود الدعم الجوي. ثم قررت، في اللحظة الأخيرة، القيام بإنزال ثانوي للجنود على الطرف الجنوبي الشرقي. وكان الجهد الرئيسي عبارة عن عملية إنزال على الشاطىء الغربي يقوم بها الجيش الثامن، بالإضافة إلى إنزال أهم في ساليرنو، جنوبي نابولي، يقوم به الجيش الخامس الأنكلو ــ أميركي، المكوّن حديثاً لهذه الغاية بقيادة الجنرال ماك كلارك.

وقد فشلت هذه الخطط، لأنها كانت مباشرة من الناحية الاستراتيجية، ولأن

المسؤولين في دول الحلفاء طالبوا باستسلام إيطاليا دون قيد أو شرط، الأمر الذي أضاف القادة الإيطاليين، وجعلهم يترددون مدة من الزمن، فكسب بذلك الألمان شهراً من الزمن استعدوا خلاله.

عبر الحلفاء ممر مسينا في ٩ أيلول، وسبق النزول على الشاطىء الغربي لساحل إيطاليا قصف هائل بالقنابل، كان عديم الجدوى، لأن الفرقة الألمانية الوحيدة، في تلك المنطقة، تحركت نحو الشمال قبل القصف بعدة أيام. وعندما تقدمت الجيوش التي أنزلت من السفن، لم تجد أمامها سوى مقاومة ضعيفة. ومع ذلك فقد كان تقدمها بطيئاً بسبب الحذر الشديد وطبيعة الأرض الوعرة، ولم تقدم هذه العملية سوى مساعدة محدودة للعمليات الرئيسية، الخاصة بإنزال الجنود في ساليرنو يوم ٩ أيلول. وكان إعلان استسلام إيطاليا مقرراً بعد ظهر اليوم نفسه. ولم تؤثر هذه العملية على الوحدات الألمانية الموجودة هناك، والتي قامت بهجمات مضادة، جعلت موقف الحلفاء حرجاً خلال ستة أيام. وكان الألمان قادرين على تحديد المواقع، التي سيتم بها الإنزال، بناء على حدود التغطية الجوية الممكنة، لذا فإنهم ربطوا بين ساليرنو و نابولي.

وقد أظهرت حسابات الألمان، في هذا المجال، كيف أنهم عملوا تقديراً دقيقاً لخطط الحلفاء المحتملة، وأظهرت الحوادث أن انتهاج طريق ليست فيه مفاجأة يؤدي إلى نتائج محدودة.

وهكذا تعرض الحلفاء بتقدمهم في القطاع، الذي ينتظره العدو، إلى خسائر فادحة في الرجال، وإلى ضياع وقت ثمين، حتى إنهم أوشكوا على الوقوع في كارثة لم ينجوا منها إلا في آخر لحظة. وأظهرت ساليرنو، مرة أخرى، أهمية الدرس التاريخي، الذي يقول: «**إن من الخطر القيام بهجوم على نقطة يتوقع العدو منطقياً احتمال الهجوم عليها**».

في هذا الوقت، لم تكن لدى القيادة الألمانية، التي يرأسها الفيلد مارشال كسيلرينغ سوى ٧ فرق للدفاع عن جنوبي إيطاليا وأواسطها، بسبب استسلام إيطاليا، وتجريد جيوشها من سلاحها.

لم يصادف إنزال قوات الحلفاء الثانوي، في الطرف الجنوبي الشرقي من إيطاليا، أية

مقاومة ، بعكس عملية إنزال القوات في ساليرنو وهكذا ، أمكن بسهولة احتلال ميناءين هامين ، هما برانديزي Brandisi و تارانتو Taranto . وأصبح الطريق مفتوحاً للتقدم نحو عقد السكك الحديدية في فوجيا Foggia ، والمطارات المحيطة بها . وكانت القوات الألمانية ، التي تدافع حينئذ عن المنطقة بين تارانتو و فوجيا عبارة عن فرقة مظلات تعاني أوجه نقص كثيرة .

وكانت القوات ، التي أنزلت ، مؤلفة من الفرقة البريطانية الأولى المحمولة جواً ، التي استخدمت في هذه المهمة كفرقة مشاة . وكانت عاجزة عن استثمار النصر لأنها كانت دون دبابات أو مدفعية ميدان ، أو وسائط نقل آلية تقريباً .

وبعد ١٥ يوماً ، أنزل في باري Bari لواء مدرع ، اندفع نحو الشمال دون أن يلاقي أية مقاومة ، واحتل فوجيا . واضطرت الوحدات الألمانية ، التي كانت تدافع أمام الجيش الخامس في الجبال ، وتحرس طريق نابولي إلى الانسحاب ، عندما أصبح الهجوم يهدد مؤخرة جناحها . وفي تشرين الأول ١٩٤٣ ، وبعد الإنزال بثلاثة أسابيع دخل الحلفاء نابولي . ولكن الألمان تصرفوا ، خلال ذلك الوقت ، بسرعة لم يتوقعها الحلفاء . فعززوا مواقعهم ، في القسم الباقي من إيطاليا ، وشتتوا شمل الوحدات الإيطالية ، وتخلصوا بذلك من معظم نتائج استسلام إيطاليا .

وتقدمت الجيوش الحليفة في إيطاليا كمكبس في إسطوانة ، يتحرك أمام ضغط متزايد باستمرار . وكانت غاية الألمان ، في بداية الأمر ، عرقلة تقدم الحلفاء نحو روما ، وانتظارهم في الشمال بعد ذلك . ولكنهم اضطروا فيما بعد ، إلى إرسال نجدات نحو الجنوب لمساعدة كسيلرينغ ، عندما وجدوا أن الحلفاء بدؤوا يتعثرون في زحفهم ، بسبب ضيق الجبهة وصعوبة الأرض .

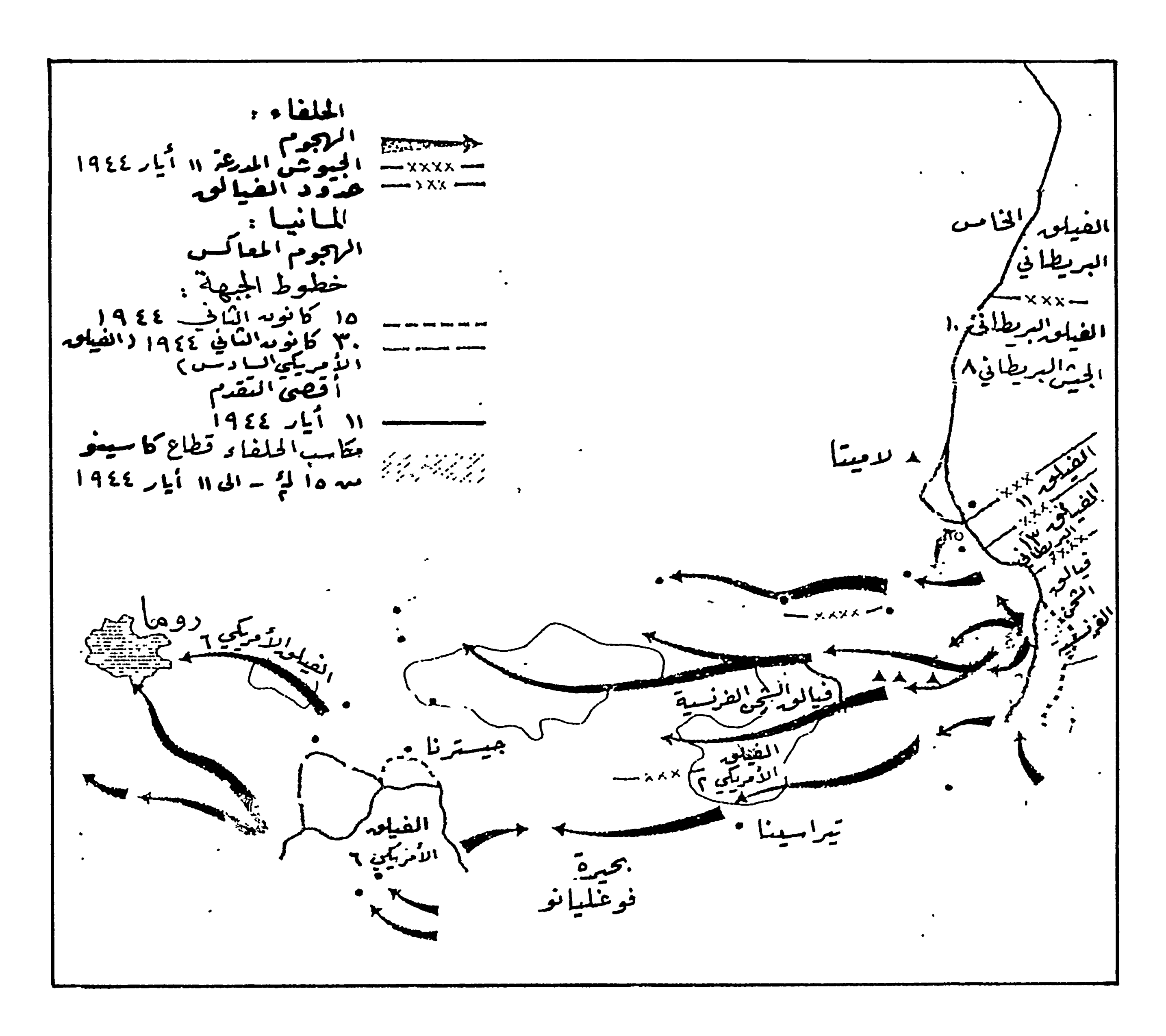
وتوقف تقدم الجيش الخامس مدة من الزمن على خط فولتورنو ، خلف مدينة نابولي بـ ٣٠ كيلو متراً . ثم توقف نهائياً على خط غاريليانو Garigliano بالقرب من كاسينو Cassino . ولم تستطع الهجمات المتعاقبة ، في تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٤٣ ، خرق هذا الحاجز . في هذه الأثناء اصطدم الجيش الثامن ، المتقدم بمحاذاة الشاطىء الشرقي ، بمقاومة عنيدة على نهر سانغرو Sangro ثم توقف مرة أخرى ، بعد اجتياز هذا

الخط. وهكذا لم يتقدم الحلفاء، خلال أربعة أشهر سوى ١١٠ كيلو مترات وراء ساليرنو. وقد تم احتلال معظم هذه الأرض في شهر أيلول، ثم أصبح معدل التقدم بطيئاً جداً.

وهكذا ثبت أن الهجوم المباشر على جبهة ضيقة لا يعطي نتيجة. ولا يكفي تفوق القوى والوسائط، إلا إذا كان يوجد لدى المهاجم مجال للمناورة على جبهة عريضة نسبياً. إن عرض إيطاليا كله في حدود ١٦٠ كيلو متراً تقريباً، وتحتل معظمه سلاسل جبلية. لذا نجحت القيادة الألمانية العليا، عندما قررت زيادة قواتها في الجنوب، بتكوين دفاع كثيف نسبياً، وشلت تقدم الحلفاء استراتيجياً عبر الأراضي الايطالية.

وفي بداية عام ١٩٤٤، قام الحلفاء بمناورة برمائية جديدة على الشاطىء في مؤخرة العدو. وفي ٢٢ كانون الثاني نزلت مفرزة قرب أنزيو Anzio، على مسافة ٤٠ كيلو متراً جنوبي روما. وكان يوجد في هذه المنطقة كتيبتان ألمانيتان فقط. وكان أي تقدم سريع داخل البلاد يمكن أن يؤدي إلى احتلال المرتفعات التي تسيطر على طريق روما، وتهديد روما نفسها. ولكن هذا التقدم لم يحصل لأن خطة الحلفاء كانت تقوم على أساس أن العدو سيرد مباشرة على عمليات إنزال القوات. ولهذا اهتموا بتقوية رأس الجسر قبل كل شيء، في الوقت الذي تستفيد فيه القوى الرئيسية في الجنوب من ضعف إمكانات العدو الذي يدافع عن المنطقة. لكن العدو لم يتصرف بالشكل المتوقع.

وعندما تبين انعدام المقاومة قرب أنزيو Anzio، أراد الكسندر متابعة التقدم نحو الداخل، ولكن القائد المحلي توقف، وتردد بشكل عرقل التقدم مدة أسبوع، فوجد الجنرال كسيلرينغ الوقت اللازم ليدفع قواته الاحتياطية نحو هذه المنطقة، في الوقت الذي أوقف فيه تقدم الحلفاء الرئيسية في قطاع كاسينو. وفي ٣ شباط، أي بعد أن أنزل الحلفاء قواتهم بـ ١٣ يوماً، قام الألمان بهجوم مضاد ضد رأس جسر أنزيو. وفشل هذا الهجوم المضاد في طرد الحلفاء، ولكنه ضَغَطَهم في مكان ضيق، بحيث جعلهم في شبه معسكر اعتقال كبير غير مريح. ثم بدأ هجوم الحلفاء في إيطاليا من جديد في أيار على نطاق واسع. وكان جزءاً من مخطط كبير ويشكل عملية أولية (للمخطط الكبير)، الذي يهدف إلى القيام بهجوم حاسم على ألمانيا. وبعد شهر بدأ غزو فرنسا من قبل الحلفاء عبر بحر المانش.



هجمات الحلفاء والهجمات المضادة الألمانية في أنزيو والخرق في منطقة كاسينو خلال الأشهر الأ[illegible] من عام ١٩٤٤

كانت المرحلة الأولى من خطة الكسندر عبارة عن هجوم جديد من طرفي كاسينو، حيث توقفت الهجمات السابقة. ولتحسين نتائج العملية وسع الجيش الثامن نطاق جبهته، وزحف بصورة موازية للجبهة بوحدات قطاع الأدرياتيكي للقيام بهجوم على القطاع الغربي لخط غوستاف، وذلك خلال هجوم الجيش الخامس. وبدأ الهجوم في ١١ أيار، مستهدفاً منافذ الجبال، حيث توجد خطوط الألمان الدفاعية الحصينة التي تحمي مداخل وادي ليري.

وحصل الهجوم على خط غوستاف، وحقق بعض النجاح في عدة مواضع بين كاسينو والبحر. وتوغل الفيلق الفرنسي، بقيادة الجنرال جوان، بعمق لأنه استخدم الخبراء في قتال الجبال، كما استخدم طريقاً صعباً، فحصل بذلك على عنصر المفاجأة. وبعد أن اخترق الحلفاء خطوط العدو بعمق ١٠ كيلو مترات، خلال ثلاثة أيام، اضطر العدو إلى ترك الدفاع عن خط غوستاف، الأمر الذي سهل عمل الجيش الثامن الذي دخل وادي ليري والتف حول كاسينو، التي سقطت في يوم ٨ أيار.

وفي ٢٣ أيار قامت قوات الحلفاء في أنزيو بهجوم، منطلقة من رأس الجسر، في المكان الذي ضعفت فيه القوات الألمانية، بعد سحب جزء منها لدعم الجنوب. وقد وضع الحلفاء خطة مناورة بارعة للاستفادة من هذا الضعف. وفي اليوم الثالث للهجوم تحطم الدفاع الألماني أمام ضغط الحلفاء. ولما تم خرق خطوط الألمان، وجد هؤلاء أنهم لا يملكون قوات احتياطية كافية تستطيع منع تقدم الحلفاء في اتجاه جبال الآبنين، وعلى مؤخرة جيوشهم الرئيسية في الجنوب.

وفي الوقت نفسه، قام الجيش الثامن بهجوم آخر على المواقع الألمانية في وادي ليري، وتمكن الفيلق الكندي من اختراقها في اليوم الأول. وفي اليوم التالي بدأ الألمان انسحابهم من كل مكان. وازدادت سرعة انسحابهم عندما واجهوا الخطر القادم من أنزيو. وقد قطعت خطوط انسحابهم المباشرة نحو روما لعدة أيام، فاضطروا إلى تبديل اتجاههم نحو الشمال الغربي، عبر طرق جبلية صعبة، تتعرض القوات المنسحبة عليها لضربات شديدة من طيران الحلفاء.

وهكذا ضاعت آخر فرصة أمام الألمان لتغطية روما، برغم نجاح جزء كبير من

جيوشهم المهددة في التخلص من حصار الحلفاء . ونقل الجنرال الكسندر معظم قواته إلى الجناح الأيسر مقابل الجيش الألماني الآخر ، واستطاع الاستيلاء على مونت البان ذات الأهمية الاستراتيجية . ودخلت الجيوش الحليفة بعد ذلك بسرعة ضواحي روما ، واحتلت المدينة صباح يوم ٥ حزيران ، بعد تسعة أشهر من استسلام الحكومة الإيطالية .

٩ ـــ الإنزال الحليف في النورماندي

في اليوم التالي لسقوط روما أنزل الحلفاء قواتهم في النورماندي . وكان هذا حدثاً من أهم أحداث الحرب العالمية الثانية . وكان القرار الخاص بتأجيل تنفيذ عملية الإنزال في النورماندي عدة مرات يرجع إلى سوء الأحوال الجوية . ومع ذلك بدأت العملية في ظروف جوية غير ملائمة ، وكانت الرياح شديدة لدرجة تعرض العملية للخطر وتدعو إلى التأجيل . ولكن الجنرال ايزنهاور واجه هذا الخطر ، وكان هذا أحد عناصر المفاجأة في العملية .

تم نزول قوات الحلفاء صباح يوم ٦ حزيران ١٩٤٤ في خليج السين ، بين كان Caen و شيربورغ Cherbourg ، وسبقه إنـزال قوات كبيرة من الجو على الجنـاحين في الليل . وتم تحضير الغزو بهجوم جوي ، استمر بعد ذلك بكثافة لم يسبق لها مثيل ، وخاصة على مواصلات العدو ، لشل حركة قواته الاحتياطية إلى المناطق الهامة .

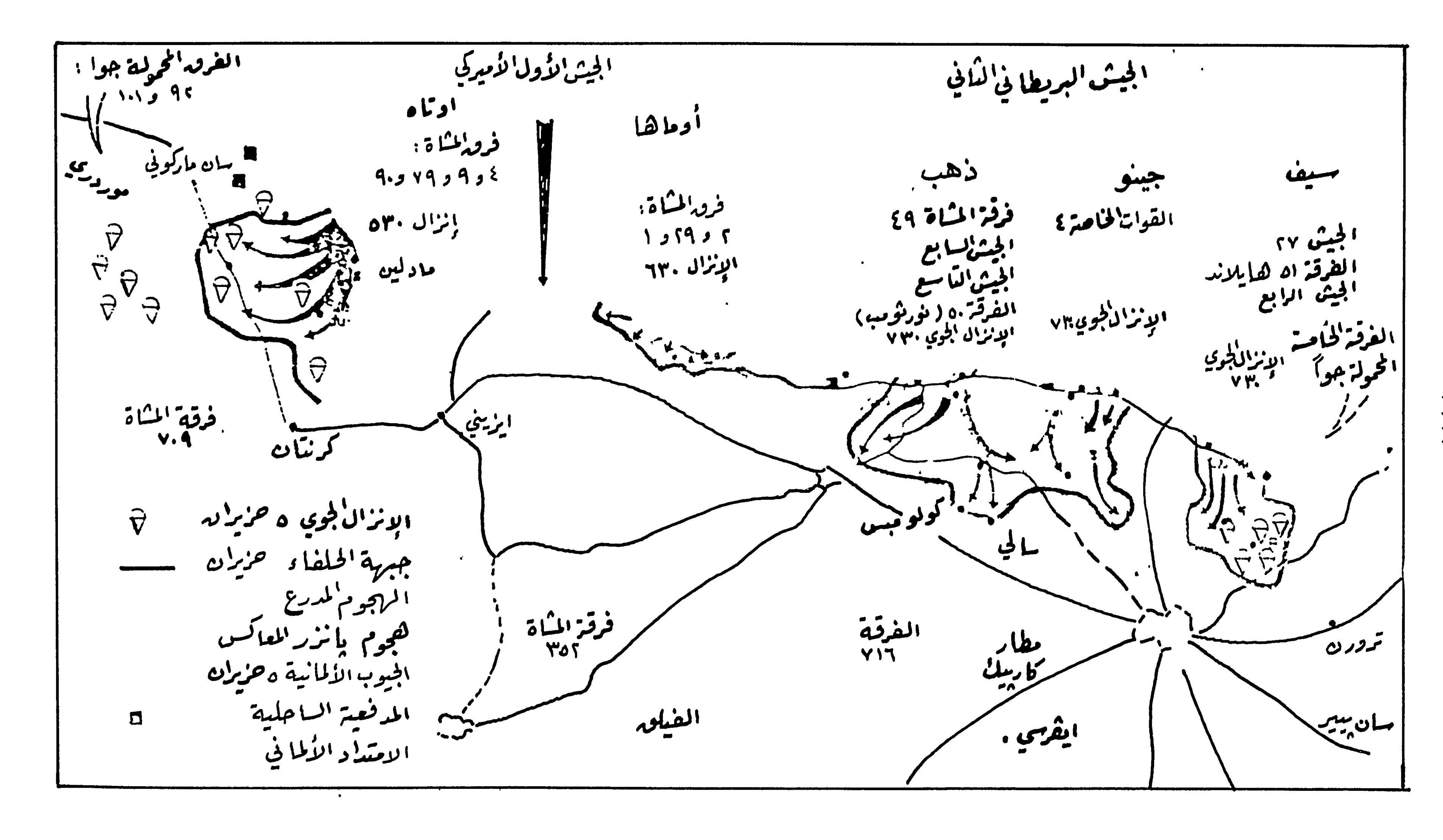
وقد حددت عدة عوامل في هذا القطاع ، ليتم الإنزال فيه ، ومع ذلك فوجىء الألمان بالعملية ، وكانت معظم قواتهم الاحتياطية شرقي السين . وتعود هذه المفاجأة ولا شك ، إلى سوء توزيع القوات الألمانية ، وإصرار القيادة الألمانية على اعتقادها بأن الحلفاء سوف يستخدمون أقصر الطرق عند عبور المانش ، وأنهم سيحاولون الاستفادة إلى أقصى درجة من التغطية الجوية ، كما فعلوا في غزو إيطاليا . ولكن الحلفاء فاجؤوا الألمان بتبديل طريقتهم ، وكان هذا الخطأ في تكهنات الألمان وتقدير موقفهم خطأً قاتلاً .

كان هتلـر قد بحث الاستنتاجـات ، التـي استخـلصت من تحشد الجيـوش الانكليزية ـــ الأميركية في انكلترا قبل الغزو . فتوقع في شهر آذار أن الحلفاء سوف ينزلون في اقليم النورماندي . ولم يكن ضباط أركانه يشاطرونه رأيه ، عدا رومل المسؤول عن

الساحل الشمالي. ولكن فون رونشتدت، القائد العام للجبهة الغربية، كان يتوقع نزول الحلفاء بين دييب و كاليه ، في أضيق مكان من بحر المانش . ولم تكن فكرته هذه مبنية على ميل الحلفاء المعروف لتأمين التغطية الجوية القصوى فحسب ، بل كانت تعتمد على أن هذا المحور هو أفضل المحاور نظرياً للهجوم ، لأنه يوصل إلى الهدف بأقرب السبل . وهذا حساب نموذجي في الاستراتيجية التقليدية .

وكانت خطة المهاجمين تسعى لأهداف أخرى في الواقع غير تحاشي الخطوط الدفاعية الألمانية القوية . وكان اختيار النورماندي يعني أخذ اتجاه يهدد ، بصورة متناوبة ، ميناءي الهافر و شيربورغ ، ويضع الألمان ، حتى آخر لحظة ، في حالة شك ، وعجز عن تحديد الهدف الحقيقي . ولما أدرك الألمان في النهاية أن شيربورغ هي الهدف الحقيقي كان عليهم اجتياز نهر السين الذي يفصل بين وحداتهم. ولكنهم لم يستطيعوا تحريك احتياطاتهم نحو النقاط المهددة إلا بعد استدارة طويلة . وتدخل طيران الحلفاء باستمرار ، فجعل مناورتهم بطيئة جداً . ولما وصلت النجدات الألمانية إلى ميدان المعركة توجهت إلى القطاعات البعيدة عن شيربورغ ، وخاصة قطاع كان . وكانت الوحدات البريطانية ، في هذا القطاع ، تشكل خطراً في حد ذاتها ، كما كانت درعاً يحمي امتداد العمليات الأميركية في شبه جزيرة كوتانتان .. وقد كان لهذا التهديد المتناوب تأثير حاسم على الغزو بأكمله .

وعبر الأسطول الكبير بحر المانش دون أن يتدخل العدو . وتم احتلال السواحل التي نزلت فيها قوات الحلفاء ، بأسهل مما كان متوقعاً ، عدا مكان نزول الجناح الأميركي الأيسر ، شرقي مصب نهر فير . ويعود هذا النجاح إلى حسن تنظيم حملة الحلفاء ، وفاعلية ما تحمله من أسلحة . ومع ذلك بقي الحد الفاصل بين النجاح والفشل صغيراً جداً ، عندما جرت محاولة زيادة عمق رأس الجسر . ولم يستطع المهاجمون احتلال شيربورغ . وزاد طول الجبهة من فرص نجاح الحلفاء ، وكان هذا عاملاً من عوامل النصر . وقد أدى تركيز الألمان لوسائلهم الدفاعية ، عند هاتين المدينتين الواقعتين على جناحي مواقعهم ، إلى إضعاف الدفاع في المسافة الفاصلة بينهما . واستطاع الانكليز استثمار إنزال قواتهم قرب اورمانش ، واندفعوا عبر هذه الثغرة إلى بايو . وفي نهاية الأسبوع كان الحلفاء قد أقاموا رأس جسر أصغر على الشاطىء الشرقي لشبه جزيرة كوتانتان . وفي ١٢ حزيران ، احتل



الجيش البريطاني الثاني
الجيش الأول الأميركي
الفرق المحمولة جوا : ٩٢ و ١٠١
اوتاه
فرق المشاة : ٤ و ٩ و ٧٩ و ٩٠
إنزال ٥٣٠
مادلين
أوماها
فرق المشاة : ٢ و ٢٩ و ١
الإنزال ٦٣٠
ذهب
فرقة المشاة ٤٩
الجيش السابع
الجيش التاسع
الفرقة ٥٠ (نورثومب)
الإنزال الجوي ٧٣٠
جينو
القوات الخاصة ٤
الإنزال الجوي ٧٣
سيف
الجيش ٢٧
الفرقة ٥١ هايلاند
الجيش الرابع
الفرقة الخامسة المحمولة جواً
الإنزال الجوي ٧٣٠
سان ماركوني
موردري
فرقة المشاة ٧٠٩
كرنتان
ايزيني
كولومبس
سالي
فرقة المشاة ٣٥٢
الفرقة ٧١٦
مطار كاربيك
الفيلوه
ايفرسي
ترورن
سان بيير
الإنزال الجوي ٥ حزيران
جبهة الحلفاء حزيران
الهجوم المدرع
هجوم بانزر المعاكس
الجيوب الألمانية ٥ حزيران
المدفعية الساحلية
الامتداد الألماني

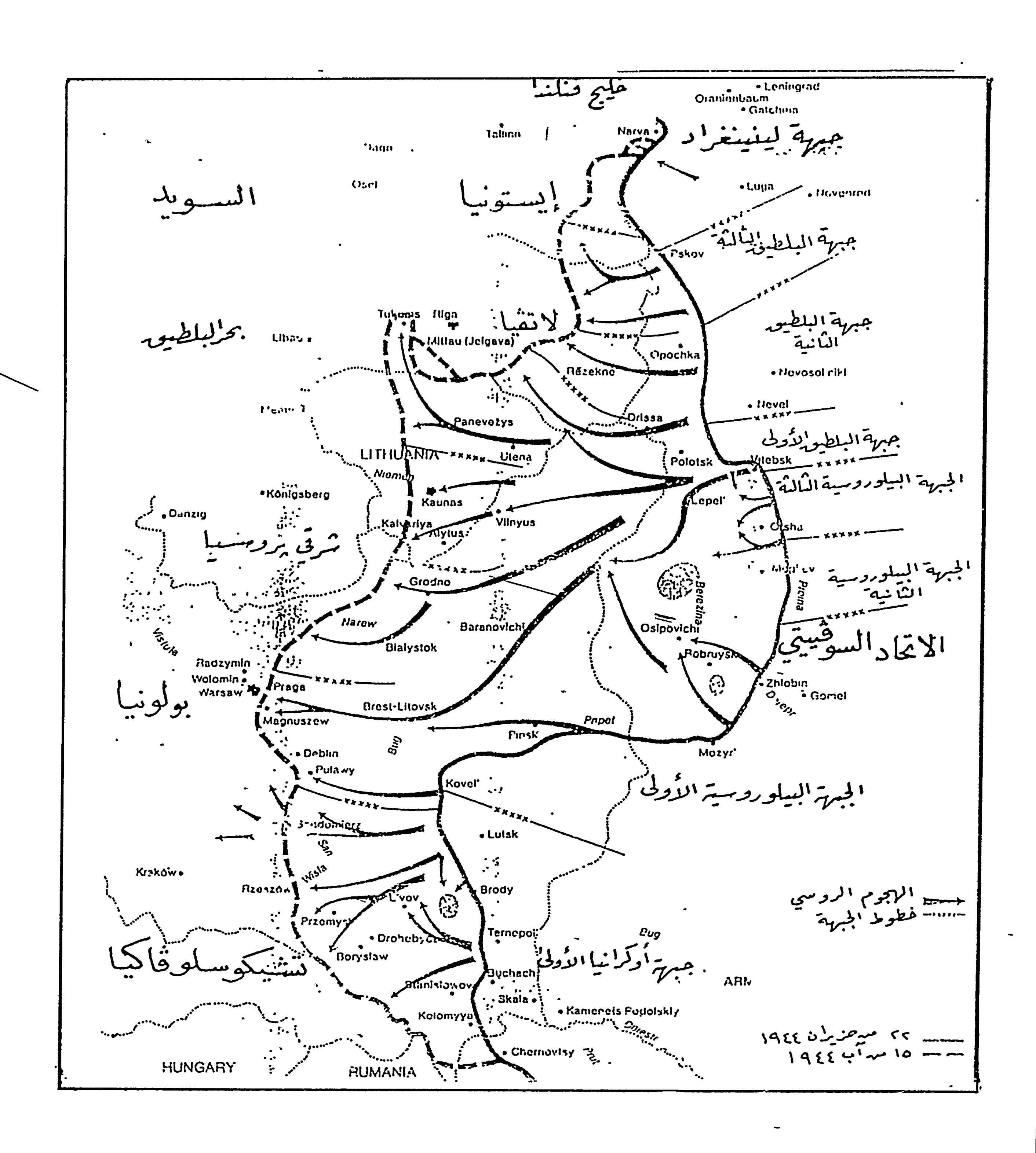
الأميركيون مدينة كارانتان، مفتاح المنطقة، كما احتلوا رأس جسر بعرض ١٠٠ كيلو متراً.

وأصبح الجنرال مونتغمري، القائد العام لجيوش الغزو، والذي يعمل تحت قيادة الجنرال ايزنهاور، قادراً على إعطاء مناوراته الهجومية أبعاداً أكبر نطاقاً. وفي الأسبوع الثاني من الغزو تم توسيع رأس الجسر على الجناح الغربي، وعندئذ قام الجيش الأميركي الأول بهجوم على قاعدة شبه جزيرة كوتانتان، بينما استمر الجيش البريطاني الثاني في الضغط على كان، لامتصاص معظم النجدات الألمانية، وخاصة فرقهم المدرعة القادمة لملاقاة الجناح الشرقي للحلفاء. ويمكن اعتبار تهديد الانكليز من الناحية الاستراتيجية عملاً غير مباشر. وقد ساعد هذا التهديد خطط مونتغمري، التي تهدف إلى خرق الجبهة في الطرف الغربي لرأس الجسر.

وخلال الأسبوع الثالث، عزل الأميركيون شيربورغ، وزحفوا في شبه الجزيرة نحو الشمال، ودخلوا الميناء من الخلف في ٢٧ حزيران ١٩٤٤. ولكن رصيف الميناء كان مدمراً وغير صالح للاستعمال. وفي ذلك الوقت صدت كافة الهجمات، التي قام بها الانكليز حول كان، بفضل تكتيك دفاعي جيد يقوم به عدو ماهر جداً، على أرض صالحة للدفاع المرن. ولكن خطر وجود الانكليز جذب أنظار القيادة الألمانية، ومنعها من التصرف بحرية في استخدام قواتها الاحتياطية. وسارع الحلفاء بإنزال كميات كبيرة من العتاد بفضل الموانىء الصناعية. وكان هذا العمل مفاجأة لأعدائهم.

١٠ ــ السوفييت يحررون بولونيا

بدأ الجيش الأحمر معركة الصيف في ٢٣ حزيران ١٩٤٤، بعد هجوم أولي تم على الجبهة الفنلندية. وتقدم الهجوم في روسيا البيضاء، شمالي مستنقعات بريست، وكان هذا القطاع أصعب القطاعات. ورأى الألمان ضرورة تزويده بقوات أقل من القوات المدافعة عن القطاع المكشوف بين مستنقعات بريبيت وجبال الكاربات، حيث يمكن أن يقوم الجيش السوفييتي بعملياته الربيعية. وأصيب الألمان مرة أخرى بخيبة أمل، نظراً لوقوع مفاجأة غير منتظرة. وأصبح موقفهم أكثر حرجاً عندما رفض هتلر الانسحاب


خليج فنلندا
جبهة لينينغراد
السويد
إيستونيا
جبهة البلطيق الثالثة
جبهة البلطيق الثانية
بحر البلطيق
لاتفيا
جبهة البلطيق الأولى
الجبهة البيلوروسية الثالثة
شرقي بروسيا
الجبهة البيلوروسية الثانية
الاتحاد السوفييتي
بولونيا
الجبهة البيلوروسية الأولى
الهجوم الروسي
خطوط الجبهة
تشيكوسلوفاكيا
جبهة أوكرانيا الأولى
٢٢ حزيران ١٩٤٤
١٥ آب ١٩٤٤
Leningrad
Narva
Tallinn
Luga
Novgorod
Pskov
Opochka
Riga
Libau
Mitau (Jelgava)
Rēzekne
Novosokol'niki
Nevel
Panevežys
LITHUANIA
Utena
Polotsk
Vitebsk
Königsberg
Danzig
Kaunas
Vilnyus
Lepel'
Orsha
Grodno
Baranovichi
Berezina
Osipovichi
Bobruysk
Zhlobin
Gomel
Białystok
Radzymin
Wołomin
Warsaw
Praga
Brest-Litovsk
Magnuszew
Pinsk
Mozyr'
Dęblin
Puławy
Kovel'
Lutsk
Kraków
Rzeszów
Brody
Przemyśl
Borysław
Ternopol
Stanisławów
Kolomyya
Skała
Kamenets Podolskiy
Chernovtsy
HUNGARY
RUMANIA

١٥٠ كيلو متراً وراء الجبهة. ولو تم مثل هذا الانسحاب في الوقت الملائم لسقط الهجوم السوفييتي في الفراغ.

وعندما تم خرق الجبهة الألمانية ازدادت سرعة السوفييت بشكل مفاجىء، وسقطت فيتبسك Vitebsk في اليوم الرابع، نتيجة لهجومين متلاقيين قامت بهما مجموعتا جيوش باغراميان و تشيرنياخوفسكي، اللتان اخترقتا الجبهة الألمانية في قطاع الجيش المدرع الألماني الثالث. وبذلك تم فتح طريق التقدم نحو الجنوب على طريق مينسك ـــ موسكو، وعلى مؤخرات الجيش الألماني الرابع، الذي أوقف ضربة الهجوم السوفييتي على جبهته بأن انسحب حتى خط الدنيبر. وفي ذلك الوقت قامت مجموعة جيوش ركوسوفسكي Rokossovsky بضربة على المجنبة الثانية للجيش الألماني واخترقتها، شمالي مستنقعات بريبيت، وقامت بوثبة عمقها ٣٢ كيلو متراً، ثم قطعت مواصلات الألمان وراء مدينة مينسك، وعزلت المدينة التي سقطت في ٤ تموز ١٩٤٤.

وأدت الضربات السوفييتية المتعددة غير المباشرة إلى انهيار الدفاع الألماني، وأخذ السوفييت عدداً كبيراً من الأسرى الألمان، يفوق ما أسروه خلال هجماتهم الماضية. ثم تناقص عدد الأسرى الألمان، بعد الأسبوع الأول، برغم عدم تناقص معدل الزحف. وهذا يدل على المحاولات الكبيرة التي كان يبذلها الجنرالات الألمان في إنقاذ وحداتهم، وخاصة عندما اضطر هتلر، تحت ضغط الأحداث السيئة إلى قبول فكرة القيام بانسحاب كبير لا مناص منه. وتدل سرعة الانسحاب ومسافاته، والعدد الكبير من المدن الهامة، التي تركها الألمان دون مقاومة، على مهارة الجنرالات السوفييت، الذين عرفوا كيف يضعفون مقاومة العدو بمجموعات متعددة وكثيرة من عمليات الهجوم غير المباشر.

وقد اكتسبت القوات السوفييتية خبرة كبيرة في عبور الموانع المائية. فقد كان اقتحام الأنهار يتم عادة من الحركة، وعلى جبهة واسعة، وليلاً، دون تمهيد مدفعي، باستثناء بعض الحالات القليلة التي تم فيها اقتحام الأنهار بعد تحضير مخطط.

ويتمتع اقتحام الموانع المائية بأهمية كبرى في الحرب في القارة الأوروبية. فالأنهار تتكرر بمعدل نهر متوسط أو عريض كل ١٥ ـــ ٢٠ كيلو متراً. وهذا يحتاج من المهاجم

إلى تقنية جيدة وإصرار على اقتحام هذه الموانع، وهذا ما أثبتته قدرة الجيش السوفييتي على التقدم بسرعة، دافعة أو مطوقة أمامها القوات الألمانية بسرعة مذهلة.

استفادت القوات السوفييتية من النجاح، الذي تم تحقيقه في روسيا البيضاء، وباشرت قوات جبهة البلطيق الثانية بخوض أعمال القتال في ١٠ تموز، ولحقت بها جبهة البلطيق الثالثة في ١٧ منه، والجبهة الأوكرانية الأولى في ٢٣ منه، وجبهة لينينغراد في ٢٤ منه. وفي أواسط تموز خاض الجيش السوفييتي أعمالاً هجومية متلاحقة، اعتباراً من الخليج الفنلندي حتى جبال الكاربات. وفي أواخر تموز وأوائل آب ١٩٤٤ وصلت قوات جبهة البلطيق الأولى إلى مشارف مدينة ريغا، وعبرت قوات الجبهتين روسيا البيضاء الثانية والثالثة نهر نيمان ووصلت إلى حدود بروسيا الشرقية من جهة الشرق والجنوب الشرقي. وقاتل إلى جانب القوات السوفييتية في المعارك، التي دارت قرب نيمان الفوج الجوي الفرنسي نورمانديا.

طورت قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى الهجوم، وعبرت في ٢٠ تموز ١٩٤٤ نهر بوغ الغربي على جبهة واسعة، ودخلت أراضي بولونيا، وبدأت بتحرير الشعب البولوني، ووصلت في أواخر تموز إلى نهر فيسلا وعبرته، واحتلت عدة رؤوس للجسور على ضفته الغربية، في مناطق ماغنوشيف و بولاف، وخاضت المعارك في ضواحي فارسوفيا، العاصمة البولونية، وعند براغا. وتجدر الإشارة إلى أن الجيش البولوني الأول اشترك في القتال مع القوات السوفييتية لتحرير أراضي بلاده وشعبه.

انتهت عملية روسيا البيضاء في ٢٩ آب. وكانت هذه العملية من أكبر عمليات الحرب العالمية الثانية، التي دارت فيها الأعمال القتالية على جبهة يزيد عرضها عن ١١٠٠ كيلو متر، وعلى عمق يزيد عن ٦٠٠ كيلو متر، وتحررت بنهايتها جميع الأراضي البلوروسية (روسيا البيضاء)، وقسم كبير من أراضي ليتفا، وجزء من أراضي لاتفيا، والأراضي البولونية، الواقعة إلى الشرق من ناريف و فيسلا، واقتربت فيها القوات السوفييتية من بروسيا الشرقية، وقضت على مجموعة جيوش المركز (الوسط)، وعلى الفرق التي قذفت حديثاً للمنطقة.

وفي هذه العملية تعرض للسحق الكامل ٦٧ فرقة ألمانية و ٣ ألوية. ولتعويض هذه

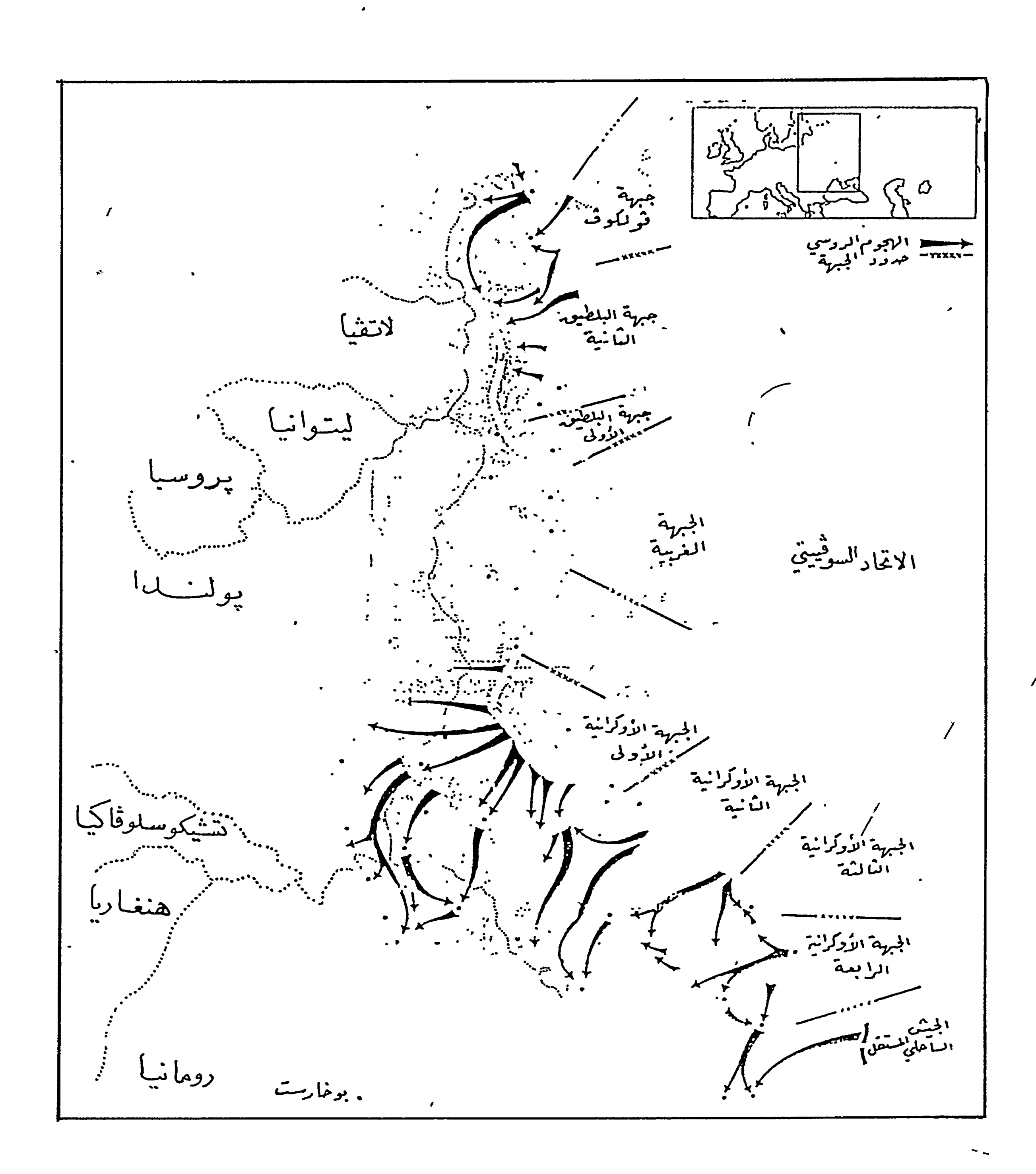
الخسائر ، اضطرت القيادة الألمانية إلى نقل ٤٨ فرقة (منها ١٨ فرقة و ٤ ألوية من دول أوروبا الغربية) إلى روسيا البيضاء ، الأمر الذي خلق الظروف المؤاتية للقوات الأميركية — الانكليزية لكي تعمل بنجاح في الغرب .

وفي هذه العملية أيضاً ، دارت معارك طاحنة في ١٣ تموز ١٩٤٤ ، بعد أن وجهت الجبهة الأوكرانية ضربتها الأولى وخرقت دفاع الألمان . وخلال تلك المعارك زجت تجميعات مدرعة ضخمة في الموقعة (جيوش مدرعة) . وقد استطاعت هذه التجميعات سحق الاحتياطات الألمانية ، واندفعت نحو العمق ، ودخلت في ١٧ تموز أراضي بولونيا وحررت في ٢٢ منه مدينة لفوف ، ووصلت بعد يومين إلى نهر فيسلا ، واقتحمته واحتلت رأس جسر في منطقة ساندومير . وفي أواخر آب حررت قوات الجبهة الأوكرانية الأولى جميع أراضي أوكرانيا الغربية ، والمناطق الجنوبية الشرقية من بولونيا ، واقتربت من جبال الكاربات الشرقية ، وتم خلال هذه المعارك القضاء على ٤٠ فرقة من مجموعة جيوش أوكرانيا الشمالية الألمانية .

وهكذا ، وخلال هذه العملية أيضاً ، عملية روسيا البيضاء ، حررت جمهوريات البلطيق السوفييتية (جزء من استونيا ، وقسم كبير من لاتفيا وليتفا «ليتوانيا») .

تدل دراسة سير العمليات كيف كانت عمليات التقدم السوفييتية تهدد بصورة متناوبة هذه المدينة أو تلك ، ثم تتركها وتخترق الدفاع الضعيف في الثغرة الواقعة بينهما ، وتتوغل ، بعد ذلك ، بعمق على مؤخراتهما ، الأمر الذي يؤدي إلى إخلائهما من قبل العدو . ومن الجدير بالذكر أن الزحفين السوفييتيين الرئيسيين أصيبا بأول فشل هام عندما حاولا التلاقي عند فارسوفيا ، ثم ابنستربورغ لأن هجومهما كان مباشراً .

وفي أقل من ١٥ يوماً ، استطاع الجيش السوفييتي طرد العدو من روسيا البيضاء ، واحتل حتى منتصف تموز أكثر من نصف بولونيا الشمالية الشرقية ، واقتربت قواته من بريست Brest ، ليتوفسك Litovsk و بياليستوك Bialistok وحاصر فيلنا Vilna . ثم اجتاز نهر النيمن واقترب من حدود بروسيا الشرقية . وتقدمت الموجة الزاحفة ، وتجاوزت بأكثر من ٣٢٠ كيلو متراً مجنبة مجموعة جيوش ليندمان ، التي كانت تغطي ، حتى ذلك الوقت ، دول البلطيق على جبهة تمتد بين نارفا و بسكوث ، ووضعتها في موقف غير ملائم .



جبهة فولكوف
الاجوم الروسي
حدود الجبهة
جبهة البلطيق الثانية
لاتفيا
جبهة البلطيق الأولى
ليتوانيا
بروسيا
الجبهة الغربية
الاتحاد السوفييتي
بولندا
الجبهة الأوكرانية الأولى
الجبهة الأوكرانية الثانية
تشيكوسلوفاكيا
الجبهة الأوكرانية الثالثة
هنغاريا
الجبهة الأوكرانية الرابعة
الجيش الساحلي المستقل
رومانيا
بوخارست

وأظهرت الحوادث أن الألمان بدؤوا يستفيقون من الصدمة، ويعملون لاستعادة السيطرة على الموقف، بعد أن جعلهم الانسحاب في مأمن من الخطر المباشر، أي بعد أن وصلوا إلى خط يتعذر على مطارديهم التقدم إليه دون الانقطاع عن موارد تموينهم.

وفي بداية شهر آب ١٩٤٤، فتحت الهجمات الألمانية في الشمال من جديد خط التراجع أمام السوفييت، الذين اضطروا إلى إخلاء فارسوفيا بصورة مؤقتة.

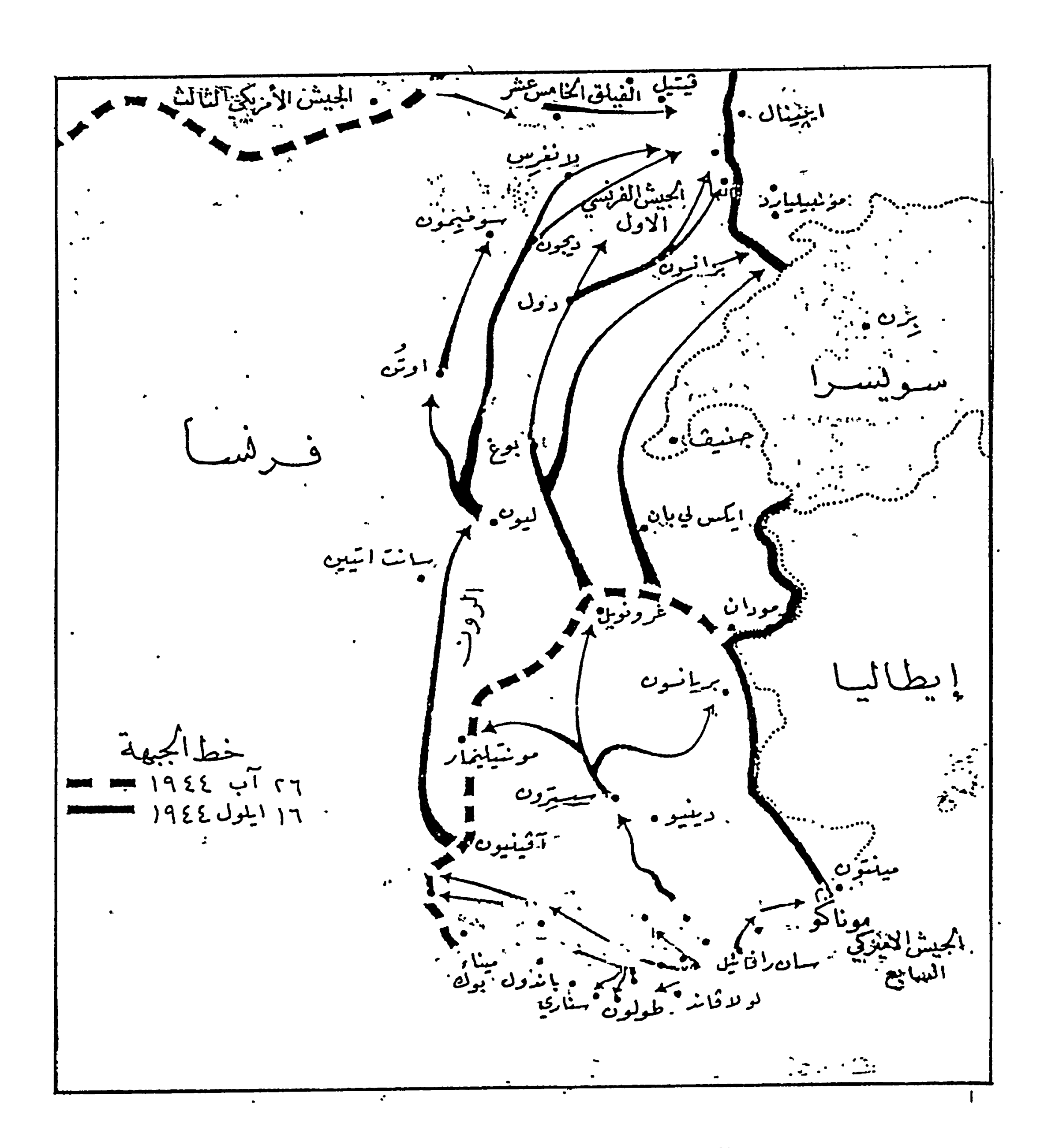
وفي جنوب فارسوفيا نجح السوفييت في إقامة رأس جسر عبر نهر الفستولا ثم اضطروا للتوقف طيلة شهر آب.

قطعت هذه الاستراحة المؤقتة بمناورة سوفييتية جديدة في الجنوب على الجبهة الرومانية. ومع ابتداء هذه العملية أعلنت رومانيا في ٢٣ آب ١٩٤٤ أنها مستعدة لعقد الصلح. وهذا فتح الطريق أمام تقدم سوفييتي سريع باتجاه ياسي، أدى إلى تطويق القوات الألمانية، التي أصبحت معرضة لتهديد شديد من البروز الساحلي شرقي بروت. وتابع السوفييت تقدمهم وراء الألمان، واحتلوا غالاتس و فوكساني في ٢٧ آب، كما استولوا على حقول النفط الرومانية في ٣٠ آب، ودخلوا بوخارست في اليوم التالي. وبهذا تكون الدبابات السوفييتية قد تقدمت ٤٠٠ كيلو متراً خلال ١٢ يوماً.

بعد ذلك اتجهت الجيوش السوفييتية نحو الشمال والغرب والجنوب واجتازت نهر الألب، ووصلت إلى المجر وحدود يوغسلافيا بمناورة تهدف إلى منع انسحاب الفرق الألمانية الموجودة في اليونان، ثم اندفعت نحو الجنوب، واخترقت بلغاريا التي أعلن السوفييت الحرب عليها.

١١ ــ المعارك في إيطاليا

لم يتبع سقوط روما انهيار القوات الألمانية بسرعة، كما كان متوقعاً، واستطاع كسيلرينغ Kesselring إنقاذ جيوشه من الوضع الرهيب، الذي كانت فيه، وقاد الانسحاب بيد ماهرة، وكبد الحلفاء المتقدمين نحو الشمال سلسلة من الهزائم. ومرت سبعة أسابيع قبل أن يتمكن الحلفاء من الوصول إلى ضواحي بيزا و فلورنسا، على بعد



عملية دراغون : ١٥ آب ١٩٤٤ الهادفة إلى الاتصال مع تقدم الحلفاء من النورماندي

٢٥٠ كيلو متراً شمالي روما، ثم مرت ثلاثة أسابيع قبل أن يخلي كسيلرينغ فلورنسا، وينسحب إلى موضعه الدفاعي الرئيسي في الجبال على الخط الغوطي.

وقدر الجنرال الكسندر طبيعة هذا الحاجز الهام، فقام بمناورة جديدة على الجناح ونقل مركز ثقل الجيش البريطاني الثامن من جديد إلى الجناح الأدرياتيكي، ثم هاجم في نهاية آب ١٩٤٤ القطاع الساحلي في أقصى دفاع العدو قرب بيزارو واخترقته في أثناء زحفه في اتجاه ريميني.

ولكن كسيلرينغ أحبط الهجوم وأغلق الباب. واضطر الكسندر إلى العودة إلى طريقة تهدف إلى إعادة فتحه بهجمات متعاقبة. وفتحت له هجماته في النهاية طريقاً نحو أقصى الشرق لوادي نهر يو. ولكن المنطقة كانت مغطاة بكروم العنب، وكانت الأرض وحلية تنقلب إلى ميدان من وحل، إذا سقطت الأمطار عليها، بحيث لا تسمح بالقيام بعمليات سريعة لاستغلال الثغرة المفتوحة. وجاء مطر الخريف ليخفف الضغط عن الوحدات الألمانية المنهكة المعرضة للانهيار، وبدأت مرحلة هدوء جديدة استمرت حتى الربيع.

ثم قام الكسندر بسحب جزء من قواته للقيام بهجوم جنوبي فرنسا في شهر آب ١٩٤٤. وكانت هذه عملية مشاغلة لمصلحة المعركة الرئيسية الدائرة في شمالي فرنسا. ولكنها لم تقدم لها كبير مساعدة، لأن نتيجة المعركة الأساسية ظهرت قبل بدء العمليات في الجنوب بـ ١٥ يوماً. وعلاوة على ذلك، فإنها حرمت الكسندر من الإمكانات التي تؤمن له التفوق الضروري، لإنهاء معركة إيطاليا بشكل حاسم. ولكن هذه المساوىء انقلبت كلها إلى فوائد، عندما هاجم الكسندر في الخريف بإمكانات ضعيفة، وقام بمعارك غير حاسمة، لم تستطع إرغام الألمان على التفكير في الانسحاب نحو جبال الألب. في ظروف جوية ملائمة للوقوف عند مواضع أقوى. وفي بداية عام ١٩٤٥، سحبت من كسيلرينغ ٤ فرق لإرسالها إلى الجبهة الغربية. ومع ذلك أصر هتلر على منع أي انسحاب فوري نحو جبال الألب، برغم تناقص إمكانات قواته باستمرار. وفي الخريف كان الألمان في حاجة إلى طائرات ومدرعات ووسائط نقل ووقود، وكل ما هو ضروري للإنسحاب السريع نحو جبال الألب. فلما قام الحلفاء بالهجوم في نيسان ١٩٤٥ استطاعوا اختراق الجبهة الألمانية الضعيفة، واندفعوا بسرعة نحو مؤخرات الألمان، وتمركزوا هناك لسد المنافذ

عليه، مما أدى إلى تفتيت القوات الألمانية، وانتشار الفوضى فيها. ولو كانوا قد انسحبوا منذ البداية، ولم يغرهم ضعف هجوم الكسندر على البقاء في أماكنهم، لنجوا من الكارثة. وكان هذا النصر خاتمة الجهود المستمرة التي بذلها الحلفاء في إيطاليا.

١٢ ـــ خرق جبهة النورماندي

شهدت ربوع النورماندي في شهر تموز ١٩٤٤ معارك ضارية قليلة النتائج كثيرة الخسائر. ولم يكن الألمان قادرين على تحمل الخسائر كالحلفاء، الذين تتزايد قواتهم بنجدات مستمرة. وفي ٢٣ حزيران، بدأ الجيش الأميركي، الذي تجمع بعد احتلال شيربورغ، في التقدم نحو الجنوب في اتجاه قاعدة شبه جزيرة كوتانتان، وكان تقدمه بطيئاً بسبب ضيق مجال المناورة. وفي ٨ تموز، دخل الجيش البريطاني الثاني، بقيادة الجنرال ديمبسي Dempsey، مدينة كان Caen، ثم توقف عندما حاول عبور نهر الأورن Orne بسبب سلسلة من الهجمات الجانبية. وفي ١٨ تموز، تمت عملية جريئة بقوات مؤلفة من ٣ فرق مدرعة تزحف كل منها وراء الأخرى. وانطلقت من قاعدة انطلاقها في الشمال الشرقي من كان، ودخلت في الثغرة الضيقة التي فتحها قصف جوي رهيب على جبهة عرضها ثلاثة أميال، واخترقت الخطوط الدفاعية وراء كان، ووسعت الثغرة، ولكن معدل التقدم كان بطيئاً بسبب تردد القادة الصغار، وعدم قيامهم بعمليات التفاف، يتحاشون خلالها القرى التي يحتلها الألمان، الذين أظهروا مهارة وسرعة في عمل ستارة من الدبابات والمدافع المضادة للدبابات في طريق المهاجمين. وبعد ضياع هذه الفرصة حققت بعض الهجمات الكندية والانكليزية نجاحاً بسيطاً، ولكنها ساعدت على جذب انتباه العدو، وتثبيت أفضل وحداته في قطاع كان، إلى أن وصلت إلى القطاع سبع فرق مدرعة ألمانية من أصل الفرق التسع التي يملكها الألمان هناك.

وفي الطرف الغربي لرأس الجسر في النورماندي، قدمت قوات الجنرال برادلي Bradley الأميركية جبهتها من ٨ كيلو مترات إلى ١٣ كيلو متراً خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من تموز. وفي هذا الوقت نقل الجيش الأميركي الثالث بقيادة الجنرال باتون Patton، من انكلترا إلى النورماندي، للقيام بعملية هامة بدأت في ٢٥ تموز بست فرق زحفت على جبهة عرضها ٧ كيلو مترات، وسبقها قصف جوي أشد من القصف الذي

سبق العملية السابقة . وقد امتلأت الأرض ، من جراء القصف ، بالحفر لدرجة ساعدت المدافعين المبعثرين على إيقاف التقدم الأميركي . وفي خلال يومين تقدمت هذه الفرق ٨ كيلو مترات فقط ، ثم وسعت الثغرة وزادت سرعة التقدم في اتجاه الجنوب الغربي لشبه الجزيرة . وقد تم الخرق الحاسم في ١٣ تموز ١٩٤٤ ، واستطاع عندئذ الجيش البريطاني الثاني الانتقال من شرقي نهر الأورن إلى القطاع الأوسط جنوبي بايو Bayeux بقصد الهجوم على كومون وانشغل العدو بهذه العملية ، وبدأ يسحب ما يستطيع سحبه من القوات من كان لتقوية هذه المنطقة المهددة ، واستغل الأميركيون هذه الفرصة وفتحوا الباب في افرانش Avranches ، بالقرب من الشاطىء الغربي لشبه جزيرة شيربورغ .

واندفعت دبابات باتون في الثغرة متجهة نحو الجنوب ، ثم نحو الغرب واحتلت بسرعة القسم الأكبر من مقاطعة بروتانيا Bretagne ، ثم دارت نحو الشرق ، وطهرت المنطقة شمالي نهر اللوار Loire في اتجاه مدينتي لومان Le Mans و شارتر Chartres . وأصبح عرض الجبهة ٦٥٠ كيلو متراً بعد أن كان ١١٠ كيلو مترات . وأصبح اتساع ميدان العمليات كبيراً لدرجة عجز معها العدو عن مواجهة تقدم الحلفاء ، الذي أخذ يتجاوز مفارق الطرق المحروسة جيداً ويلتف حولها .

وكان هنالك خطر يهدد هذا الزحف الجارف ، وهو قدرة العدو على القيام بهجوم مضاد على نقطة الاختناق في افرانش Avranches ، التي يمر منها تموين الحلفاء . وهذا هو ما فعله الألمان بناء على إصرار هتلر . فقد انطلق المضاد في ٦ آب ، واشتركت فيه أربع فرق مدرعة تقدمت نحو الغرب . وجاء الهجوم مباشراً جداً كصدمة على درع الوقاية الذي وضعه الأميركيون . ولما تم صد الهجوم المضاد الألماني تدخل الطيران بسرعة وساعد على إبادته نهائياً . وأدى هذا الفشل إلى نتائج وخيمة بالنسبة للألمان ، لأنه جذب مركز ثقلهم إلى الغرب في الوقت الذي توغلت فيه المدرعات الأميركية نحو الشرق في اتجاه مؤخراتها . واستدار الجناح الأيسر الأميركي نحو الشمال متجهاً إلى ارجانتان Argentan ، بقصد القيام بمناورة كماشة ، بالتعاون مع الجيش الكندي الأول ، الذي زحف من كان باتجاه فاليز Falaise . ولم يلتقِ فكا الكماشة في الوقت المناسب لحصر الجيشين الألمانيين المطوقين . ومع ذلك استسلم ٥٠٫٠٠٠ ألماني وقتل ١٠٫٠٠٠ آخرين ، ومنيت الفرق المنسحبة بخسائر كبيرة . وأصبحت حالة معداتها الآلية أسوأ من وضع رجالها بسبب القصف

الجوي المستمر. وكان لخسائر الألمان في جيب فاليز تأثير كبير عليهم، لأنها حرمتهم من الإمكانات اللازمة للمناورة، وجعلتهم عاجزين عن منع الحلفاء من متابعة التقدم نحو الشرق في اتجاه السين وما بعده.

وأصبح موقف الألمان حرجاً، وتعرضت مجنباتهم للالتفاف، ومؤخراتهم للتهديد عدة مرات بسبب حركة دبابات الجنرال باتون، التي كانت تعمل على جناح الحلفاء الأيمن، والتي كانت تتجاهل المقاومة التي تصادفها وتتجاوزها وتلتف حولها، مما زاد من سرعة تقدمها وسمح لها بالقيام بتطويق استراتيجي دائم لمجموعة الجيوش الألمانية.

وكانت السرعة واتساع المدى مفتاحاً مزدوجاً فتحت به الجيوش الحليفة أبواب الغرب، ونجحت المناورة في كل مكان فشل فيه الهجوم المباشر. وما إن تم الحصول على ميدان مناورة واسعة حتى أصبح الحلفاء قادرين على استغلال إمكاناتهم الهائلة. وتدل مناورة التطويق الكبيرة ونتائجها السريعة، التي أدت إلى انهيار موقف الألمان العام في فرنسا، على أنه لم يكن هناك داع لنزول القوات الفرنسية ــ الأميركية بقيادة الجنرال باتش Patch على سواحل فرنسا الجنوبية يوم ١٥ آب، لأن الألمان كانوا قد سحبوا من الريفييرا جميع قواتهم، باستثناء أربع فرق ضعيفة. وكان التقدم داخل البلاد في وادي نهر الرون Rhône يلاقي صعوبات تموينية أكثر من الصعوبات التكتيكية. وسقطت مارسيليا في ٢٣ آب، كما سقطت باريس في ٢٥ آب. وفي هذا الوقت كان جيش الجنرال باتون يندفع نحو المارن في الشمال الشرقي من باريس.

وقام الجيش البريطاني بعمل هام عندما استثمر النصر وعبر نهر السين شرقي روان Rouen، وأوقع في الفخ بقايا الجيش الألماني السابع، الذي كان يقاوم، حتى ذلك الحين، غربي روان. واستطاع جانب كبير من قوات العدو الانسحاب في الوقت الملائم إلى ما وراء النهر، ليجد المدرعات الحليفة قد قطعت عليه الطريق من الخلف. ووصلت مقدمات قوات الجنرال ديمبسي Dempsey إلى أميان Amiens، في صبيحة يوم ٣١ آب، بعد أن زحفت ١١٠ كيلو مترات في يومين وليلة، ابتداء من نهر السين، وعبرت نهر السوم، وتجاوزت مدينتي أراس Arras، وليل Lile بسرعة، ووصلت إلى الحدود البلجيكية، عند مؤخرة الجيش الألماني الخامس عشر، المتمركز على شواطىء با دو كاليه Pas-de Calais. كما وصل الجيش الأميركي الأول، بقيادة هودجز Hodges إلى الحدود

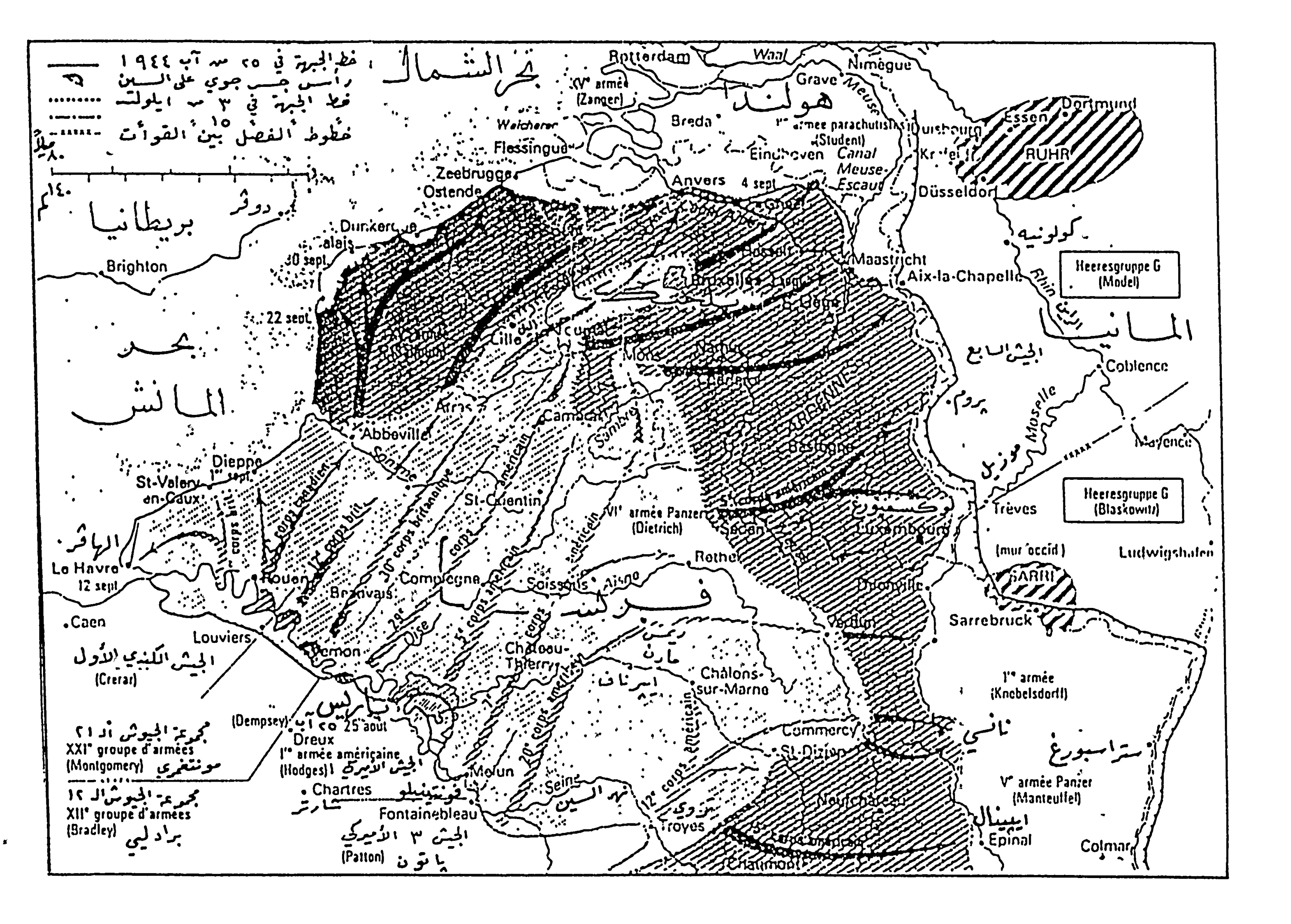
البلجيكية . وفي أقصى الشرق كان جيش باتون يتقدم بسرعة عبر مقاطعة شامبانيا وما وراء فيردان Verdun حتى نهر الموزيل Moselle ، بين ميتز Metz و تيونفيل Thionville ، قرب الحدود الألمانية . ثم بدأت قوة اندفاعه بالتناقص ، نظراً لصعوبة الإمداد والتموين ، حتى اضطرت طلائع قواته إلى التوقف لنقص الوقود ، وهي في ذروة إمكاناتها الاستراتيجية . ولم تكن تبعد حينئذ عن نهر الراين أكثر من ١٣٠ كيلو متراً . ولما تلقت كمية كافية من الوقود لمتابعة التقدم وجدت مقاومة العدو قد ازدادت . لقد أدت عملية باتون إلى نتيجة حاسمة في فرنسا . ولكن نقص الإمداد منعها من القيام بمعركة ألمانيا بمثل هذا الشكل الواسع . وتأكدت صحة قانون الامتداد الاستراتيجي عندما فرض على المتقدمين فترة توقف معينة .

في بداية شهر أيلول ١٩٤٤ ، كانت سرعة التقدم على الجناح الأيسر للألمان قد ازدادت ، وبدت الفرصة مؤاتية لتحقيق نصر سريع . ودخلت القوات المدرعة الانكليزية مدينة بروكسل في ٣ أيلول ١٩٤٤ ، وأنفرس Anvers في ٤ أيلول ، ثم دخلت هولندا . وعزل مونتغمري بهذه المناورة الواسعة ، الوحدات الألمانية المتبقية في النورماندي ، وفي با دو كاليه ، وهي الوحدات التي كانت تشكل القوة الأساسية للألمان في الغرب . واحتل الجيش الأميركي الأول نامور Namur ، وعبر نهر الموز Meuse .

في هذه المرحلة الحرجة سلمت قيادة الجيوش الألمانية ، في الجبهة الغربية للجنرال موديل Model ، الذي اكتسب شهرته في روسيا في موضوع « **توفير القوات الاحتياطية في كل زمان ومكان** » . ونجح الألمان ، برغم ضعفهم وخسارة نصف مليون أسير في فرنسا ، من إطالة الحرب لمدة ثمانية شهور .

وقد ساعدهم على التماسك واستعادة قواهم صعوبات التموين ، التي عاناها الحلفاء ، الذين اضطروا للقيام بهجومهم في تشكيلات خفيفة ، يمكن تحطيمها بسهولة بواسطة دفاع غير منظم ، ولكنه قادر ، مع ذلك ، على عرقلة خطط الحلفاء . وترجع الصعوبات الإدارية إلى امتداد زحف الحلفاء من جهة ، وإلى استراتيجية الألمان الذين كانوا يتركون حاميات خلفهم تمنع استخدام الموانىء الفرنسية الهامة ، من جهة أخرى .

لم تكن قوافل الحلفاء ، قبل اختراق الخطوط الألمانية ، تسير أكثر من



تقدم الحلفاء نحو الراين في ١٥ أيلول ١٩٤٤

٣٠ كيلو متراً من قواعدها . أما الآن فكان عليها أن تقطع حوالي ٥٠٠ كيلو متر . وكان معظم العبء يقع على عاتق النقل بالسيارات ، نظراً لتدمير شبكة السكك الحديدية الفرنسية بقنابل طائرات الحلفاء كتمهيد للأعمال الهجومية .

وفي منتصف شهر أيلول ١٩٤٤ ، قام الحلفاء بمحاولة جريئة لتدمير الدفاع الألماني العنيد ، فأنزلوا ثلاث فرق محمولة جواً وراء مجنبة العدو اليمنى في هولندا ، بقصد فتح الطريق أمام هجوم جديد يقوم به الجيش البريطاني الثاني في منطقة حوض الراين السفلى وما وراءها . وألقيت الوحدات المحمولة جواً ، في موجات متعاقبة ، فاحتلت رأس جسر يشمل أربع نقاط هامة للمواصلات تعترض الطريق . وأمكن المحافظة على ثلاث نقاط ، بينما فشلت عمليات الاستيلاء على النقطة الرابعة ، بسبب تردد الحلفاء وسرعة تصرف الألمان .

وأدى هذا الفشل إلى التضحية بالفرقة الأولى المحمولة جواً في آرنيم . ولكن الالتفاف حول خطط دفاع الراين كان هدفاً استراتيجياً هاماً ، كما أكد فائدة الجرأة في إلقاء وحدات محمولة جواً بعيداً وراء الجبهة . وتمركزت الفرقة الأولى المحمولة جواً في مواقعها المنعزلة خلال عشرة أيام ، بدلاً من يومين كما كان مقرراً كحد أقصى لمهمتها الدفاعية . ثم ضاعت فرصة النجاح لأن الحلفاء اختاروا مناطق الإنزال الأربع متسلسلة في خط مستقيم ، يكشف بشكل واضح محور هجوم الجيش البريطاني الثاني .

وسهّل وضوح الهدف المعضلة أمام العدو ، الذي استطاع تجميع كل احتياطاته وسحق الوحدات البريطانية المحمولة جواً ، قبل أن تستطيع عناصر المقدمة في الجيش الثاني الوصول إليها وتبديلها . وساعدت طبيعة الأرض الهولندية ، وقنواتها الكثيرة ، دفاع الألمان في صد الهجوم البريطاني ، وعرقلت مناورات الحلفاء وحركاتهم غير المباشرة .

١٣ ــــ معركة الراين

بعد فشل مشروع غزو آرنيم Arnhem ، ضاع الأمل في إمكان تحقيق نجاح حاسم وسريع . واضطر الحلفاء إلى إعادة تنظيم إمكاناتهم على طول الجبهة الألمانية لإعداد هجوم كثيف . ثم تم التقدم الأميركي على اكس لا شابيل Aix-La Chapelle بشكل مباشر ففشل ، فاضطر للتوقف .

ولم تؤدِ محاولات جيوش الحلفاء في أيلول وتشرين الأول ١٩٤٤ على بقية الجبهة الغربية إلا إلى نتائج ضعيفة. وجمع الألمان قواهم ونظموا صفوفهم على طول الحدود بسرعة تفوق سرعة تنظيم الحلفاء، برغم تفوق الحلفاء من حيث العتاد. وفي منتصف تشرين الثاني قامت جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية بهجوم عام كثير التكاليف دون فائدة، وأضعفت الجهود المتتالية وحدات الهجوم بشكل ملحوظ.

وبدت اختلافات في وجهات النظر بين الجنرالات الانكليز والأميركيين حول الخطة الرئيسية لهذا الهجوم. وكان الانكليز يرغبون في القيام بعملية مركزة كثيفة، بينما يريد الأميركيون جس نبض الدفاع الألماني على جبهة عريضة جداً. وبعد فشل الهجوم انتقد البريطانيون الخطة، بسبب بعثرتها للجهود، ولكن التحليل الدقيق يظهر أن فشل الخطة يرجع إلى فقدان عناصر المفاجأة فيه. لقد كان الهجوم واسع النطاق، نظراً لتوزيع المهام بين عدة جيوش، ولكنه كان مركزاً في قطاع كل جيش من هذه الجيوش. وكانت محاور الهجوم منطبقة مع المحاور التي يتوقعها العدو، والتي تؤدي مباشرة إلى قلب ألمانيا، علاوة على أنها نفذت على أرض مستوية يمكن إغراقها بكل سهولة في الشتاء.

وفي منتصف كانون الأول، وجه الألمان ضربة قوية لجيوش الحلفاء، عندما قاموا بهجوم مضاد، واستطاعوا وقف هجوم الحلفاء، دون أن يزجوا في هذه العملية بقواتهم الآلية. وضاعت الفرصة أمام الأميركيين في اختراق الجبهة، وأصبح خطر العمليات الألمانية مؤكداً، خاصة بعد أن جهزوا فرقهم المدرعة بدبابات جديدة.

إن أفضل وقت يختار للقيام بهجوم مضاد هو عندما يكون العدو المهاجم قد زج كل إمكاناته في المعركة دون أن يصل إلى هدفه. ففي هذه اللحظة تتأثر وحداته من كل عمل يزيد مدة الجهد، وتكون قيادته عاجزة عن صد أية مناورة مضادة، خاصة إذا تمت في اتجاه غير متوقع.

وقد اختارت القيادة الألمانية الأرض الملائمة للهجوم المضادة، بشكل يختلف عمّا فكر فيه الحلفاء. فقد اختارت منطقة الآردين المتضرسة الوعرة الكثيرة الأشجار، ولم يكن قادة الحلفاء التقليديون يعتبرون هذه المنطقة صالحة للعمليات على مستوى كبير.

وكانت تسمح بإخفاء عمليات التحشد ، كما كانت الأرض العالية الجافة تسمح للدبابات بالمناورة ، الأمر الذي أعطى الألمان الأمل في النجاح .

وكان الخطر الأكبر يتمثل في طيران الحلفاء القوي ، لذا انطلق هجوم الألمان عندما أعلنت الأرصاد الجوية عن وجود غيوم منخفضة . ومنع الضباب والمطر في الأيام الثلاثة الأولى طيران الحلفاء من التحليق . وجاءت التطورات كلها لصالح الألمان ، حتى الأحوال الجوية نفسها . واستغل الألمان كل ما حصلوا عليه من ميزات ، وبدؤوا القيام بعمل كبير بإمكانات محدودة . وكانوا يعرفون أنهم يقومون بمحاولة يائسة ، ويقامرون بآخر ورقة في أيديهم ، فأعطوا للجيشين المدرعين المهاجمين الخامس والسادس معظم الدبابات المجمعة من هنا وهناك .

وكان الهجوم في الآردين صعباً ، لأن الأرض تشقها وديان عميقة ، وتمر فيها الطرق عبر ممرات ضيقة يسهل قطعها ومنع تقدم المدرعات فيها . وكانت القيادة الألمانية قادرة على تلافي هذه المساوىء باستخدام وحدات من المظليين لاحتلال الممرات ، ولكنها تجاهلت هذا السلاح الخاص ، الذي لم تعد تعتمد عليه منذ عمليات كريت (آذار ١٩٤١) ، ولم تستخدم في هذه العملية إلا مفارز صغيرة من المظليين .

كان الهدف من الهجوم المضاد بعيد المدى ، ويرمي إلى خرق صفوف الحلفاء من أنفرس Anvers بهجوم غير مباشر ، وعزل الجيوش البريطانية عن تموينها وعن الأميركيين ، ثم سحق هذه المجموعة بعد تطويقها . وكان على الجيش المدرع الخامس بقيادة مانتوفل Manteuffel اختراق الجبهة الأميركية في الآردين ، والزحف نحو الغرب ، ثم الانحراف نحو الشمال ، بعد عبور نهر الموز والوصول إلى أنفرس ، كما كان عليه إنشاء حاجز دفاعي على المجنبة ، في أثناء تقدمه ، لمنع تدخل أي جيش أميركي يأتي من الجنوب . وكان على الجيش السادس المدرع ، الذي يقوده أحد ضباط الصاعقة (س . س) واسمه ديتريش Ditrich ، أن يقوم بالهجوم في الاتجاه الشمالي الغربي على محور مائل ، والتقدم باتجاه أنفرس ، وإنشاء سد استراتيجي على مؤخرات الجيوش الانكليزية والأميركية الموجودة في أقصى الشمال .

وقد استفاد الهجوم الألماني المضاد من عامل المفاجأة ، وقام بتقدم خطير خلال

الهجوم الألماني المضاد في الآردين

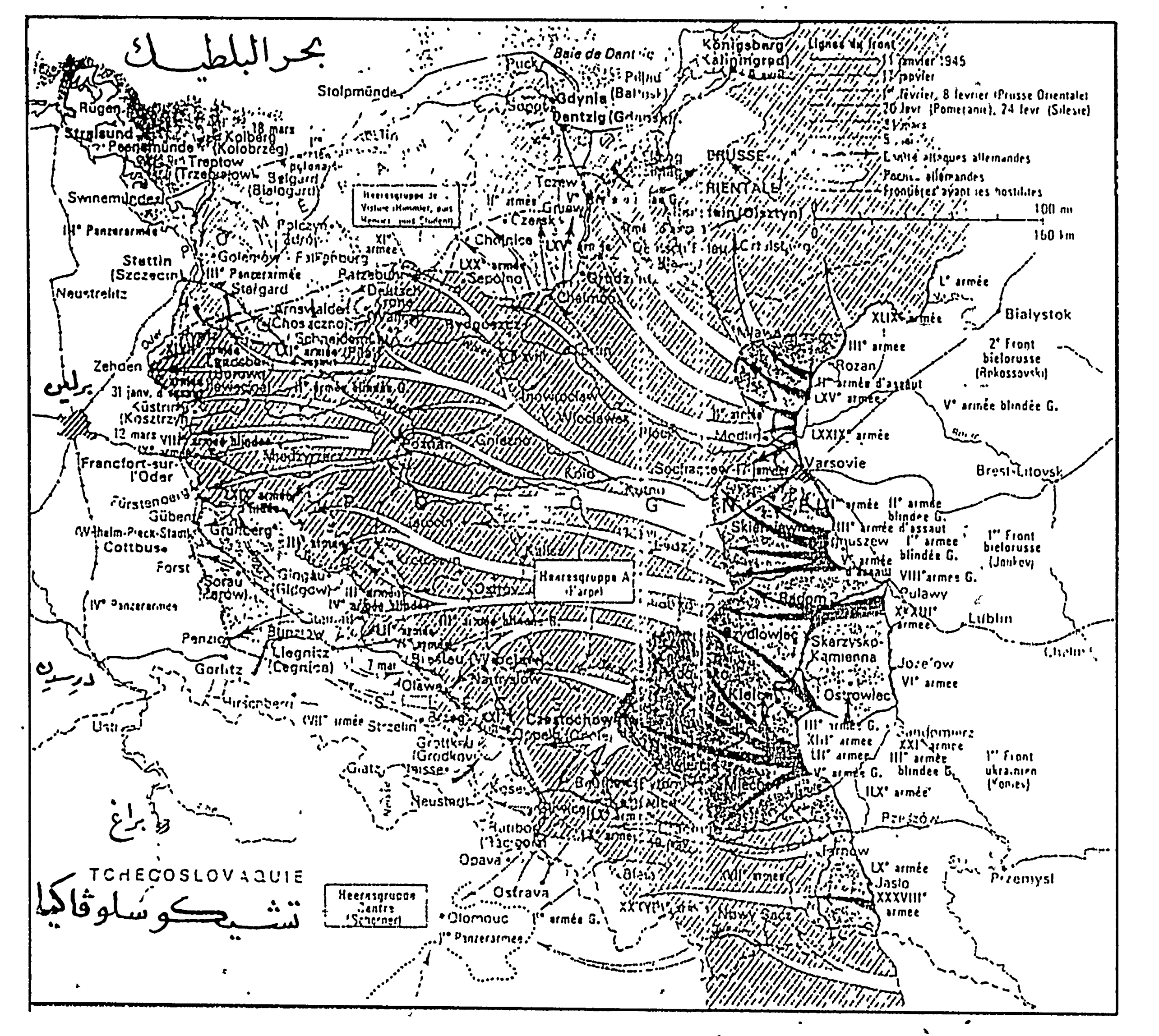
الأيام الأولى ، ونشر الفوضى والرعب بين صفوف الحلفاء . وكان الخرق ، الذي قام به الجيش الخامس المدرع عميقاً ، ثم بدأت موارد الوقود في التناقص ، بسبب تدخل طيران الحلفاء . ولم يصل الألمان إلى نهر الموز ، برغم اقترابهم منه في عدة نقاط . ويعود هذا الفشل إلى عناد القوات الأميركية ، التي كانت تقاوم بعد تطويقها وعزلها في مناطق مختلفة في الآردين ، كما يعود إلى سرعة مونتغمري في تحريك قواته الاحتياطية نحو الجنوب ، ليمنع العدو من عبور الموز بعد أن تولى القيادة في الجناح الشمالي .

وفي المرحلة التالية ، عندما جمع الحلفاء قواتهم وحاولوا قطع الجيب الكبير ، الذي فتحه الألمان في جبهتهم ، قام الألمان بانسحاب بارع سمح لهم بالتخلص من الفخ الذي نصب لهم . ويعتبر الألمان هجومهم المضاد هذا عملية حسنة ، برغم فشلها في الوصول إلى أهدافها ، لأنها أحبطت استعدادات الحلفاء ، وكبدتهم خسائر فادحة بثمن قليل جداً ، خلال مختلف المراحل ، باستثناء المرحلة الأخيرة التي أوقف هتلر فيها عملية الانسحاب .

ومع ذلك كانت هذه العملية قاضية ، بالنسبة للألمان ، لأنها أجبرتهم على استهلاك وسائط تفوق إمكاناتهم في تلك الظروف القاسية . ولقد حرمهم هذا التبذير من القدرة على مد مدة المقاومة أمام أي هجوم جديد للحلفاء . وأدركت الوحدات الألمانية أنها لم تعد قادرة ، منذ ذلك الوقت ، على قلب الموقف لصالحها .

١٤ ــــ المرحلة الأخيرة من الحرب

بقيت الجبهة السوفييتية الأساسية ، حتى نهاية عام ١٩٤٤ ، ثابتة نسبياً في وسط بولونيا . بينما انطلقت جيوش الجناح الأيسر السوفييتي ، في ذلك الوقت ، من رومانيا وبلغاريا والمجر ويوغسلافيا ، وقامت بتنفيذ التفافات جانبية واسعة على مستوى استراتيجي ، مع أهداف بعيدة ، علاوة على كونها مناورة استراتيجية . وقد واجه دوغن ، من سرعة هذه العملية متاعب إدارية محلية ، ومن ضعف شبكة المواصلات في هذه المنطقة . وأدى توسع هذه الحركة الدائرية ، بشكل طبيعي ، إلى حركة التقاء استراتيجية نحو الهدف المشترك . واضطر الألمان إلى زيادة امتداد جبهات جيوشهم لصد هذا التقدم المتجه نحو باب بلادهم الجانبي ، الأمر الذي منعهم من التحكم في الجبهتين الشرقية والغربية كما ينبغي .



معركة الأودر ــ ٣١ كانون الثاني

في أوائل عام ١٩٤٥ تقلص طول الجبهة السوفييتية ــ الألمانية إلى النصف تقريباً ، الأمر الذي ساعد القيادة السوفييتية على إرسال القوات غير المشغولة بالقتال لتعزيز أعمال الجبهات ، واقتربت القوات الأميركية والانكليزية والفرنسية من حدود ألمانيا نحو الغرب ، وخاضت الأعمال القتالية في شمالي إيطاليا ، وأصبحت ألمانيا النازية مضطرة للقتال على جبهتين .

وقد بلغ تعداد الجيش السوفييتي العامل ٦٫٧ مليون مقاتل و١٠٧ آلاف مدفع وهاون ، و١٢ ألف دبابة وقانص و١٥ ألف طائرة حربية . هذا بالإضافة إلى القوات التي قاتلت إلى جانب القوات السوفييتية : قوات بولونية ، تشيكية ، رومانية ، بلغارية ، والفوج الجوي الفرنسي (النورماندي) . وكان يقف في مواجهة القوات السوفييتية من القوات الألمانية ١٨٥ فرقة و٢١ لواءً .

تقرر أن لا يباشر بتنفيذ الهجوم ، مع الحلفاء ، قبل الـ ٢٠ من كانون الثاني ١٩٤٥ ، بيد أن الوضع السيء والعصيب ، الذي كانت تعاني منه القوات الأميركية والانكليزية في الآردين ، ورجاء رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل جعلا القوات السوفييتية تسرع في أعمال التحضير لهذا الهجوم .

حاول الألمان التمسك ببولونيا فبنوا بين الفيسلا و الأودر سبعة خطوط دفاعية محصنة ، وكان خط نهر الفيسلا من أكثر الخطوط الدفاعية قوة . نفذت عملية الفيسلا ــ الأودر من قبل قوات جبهة بلوروسيا الأولى وجبهة أوكرانيا الأولى ، وآزرها في ذلك قسم من قوى جبهة أوكرانيا الرابعة . واشترك في هذه العملية ٢٫٢ مليون مقاتل ، و ٣٣٥٠٠ مدفع وهاون ، و ٧٠٠٠ دبابة و ٥٠٠٠ طائرة . وروعي في فكرة العملية توجيه ضربات قوية من رؤوس الجسور من أجل تجزئة التجميع الألماني الموجود في بولونيا وتفكيكه ، ومن ثم تطوير الهجوم بإيقاعات عالية ، وإحباط خطط الألمان الرامية إلى إعاقة هجوم القوات السوفييتية .

اتخذت القوات المهاجمة بُنْيات عملياتية عميقة ، ومن أجل تطوير النجاح في القتال وضع في قوام الجيوش المشتركة في الهجوم خمسة فيالق مدرعة مستقلة ، وبالإضافة لذلك كان يوجد تحت تصرف كل قيادة جبهية جيشان مدرعان ، إضافة لوجود جيش أو

جيشين في النسق الثاني للجبهة من أجل تغذية الجهود . وكانت كثافة القوات المهاجمة تعادل ٢٣٠ ــ ٢٥٠ مدفعاً و ٢١ ــ ٢٥ دبابة دعم مباشر لكل ١ كم من الجبهة .

ابتدأت قوات جبهة أوكرانيا الأولى ، التي كان يقودها المارشال كونييف ، الهجوم في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٥ ، وبعد يومين لحقت بها قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى ، التي كان يقودها المارشال جوكوف ، وخلال ٣ ــ ٥ ساعات خرقت قوات الجبهتين نطاقاً بلغ مجموع عرضه ٥٠٠ كم تقريباً ، واندفع إلى الأمام مسافة ١٠٠ ــ ١٥٠ كم وحررت العاصمة فارسوفيا .

بعد ذلك تابعت القوات السوفييتية هجومها بتواترات أسرع ، وتحولت إلى المطاردة المستمرة نهاراً وليلاً ، وعبرت قوات الجبهتين في ١٩ و ٢٦ كانون الثاني الحدود البولونية الألمانية القديمة ، وتابعت تقدمها في أراضي ألمانيا النازية ، ووصلت في أواخر كانون الثاني إلى نهر الأودر واقتحمته ، واستولت على رأس جسر على ضفته الغربية ، وأصبحت القوات السوفييتية على مسافة ٦٠ كيلو متراً من عاصمة ألمانيا برلين .

وقد احتاجت القوات السوفييتية ٢٣ يوماً من الزمن كي تتوغل في عمق الدفاع الألماني مسافة ٥٠٠ كيلو متر ، وبلغ إيقاع الهجوم المتوسط ٢٥ كيلو متراً في اليوم .

ولكي تعيد القيادة الألمانية التوازن إلى خط الجبهة قامت بنقل قوى ضخمة من القطاعات الأخرى للجبهة ، ومن ألمانيا نفسها ، وشكلت مجموعة جيوش الفيسلا ، لمواجهة هجوم الجناح الأيمن لجبهة روسيا البيضاء الأولى ، وأوقفت القوات الألمانية هجومها المضاد في الغرب . .

بعد خرق الدفاع الألماني ، المحصن بقوة والمنسق في العمق ، استطاعت القوات السوفييتية ، في أواخر كانون الثاني ١٩٤٥ ، فصل التجمع الألماني الموجود في بروسيا الشرقية عن بقية المناطق الألمانية وجزأته إلى ثلاثة أقسام ، وأتمت تدميره في ٢٥ نيسان بضربات متلاحقة . وكانت القوات السوفييتية ، قبل ذلك قد اقتحمت في ٩ نيسان مدينة كينغسبرغ Kingsberg ، ودمرت ٢٥ فرقة ألمانية تدميراً كاملاً ، إلى جانب تدمير ٥٠ ــ ٧٥٪ من ١٢ فرقة أخرى ، واحتل الجيش السوفييتي كامل بروسيا الشرقية ،

وحرر القسم الأعظم من مناطق شمالي بولونيا، وتحسنت بذلك ظروف تمركز أسطول البلطيق وعمله.

استفاد الغربيون من الهجوم السوفييتي، ومن انشغال القسم الأكبر من القوات الألمانية في الجبهة الشرقية، وقامت جيوش ايزنهاور بهجوم كبير في مطلع شهر شباط ١٩٤٥، وحاولت تطويق الجيوش الألمانية غربي الراين، وتدميرها قبل أن تنسحب إلى ما وراء النهر. ودفع في البدء الجيش الأول الانكليزي ــ الكندي على الجناح الأيسر، فزحف مع الضفة الغربية للنهر ليأخذ القوات الألمانية، المدافعة مقابل الجيشين الأميركيين الأول والتاسع غربي كولونيا، من الجانب. ولكن الهجوم الألماني المضاد في الآردين أخّر تقدم الحلفاء، فلم يتابعوا تقدمهم إلا بعد ذوبان الثلوج. وساعد هذا التأخير المقاومة الألمانية، التي واجهت الموقف الحرج، بأن فتحت سدود نهر الرور، وأخرت الهجوم الأميركي، الذي لم يستطع عبور هذا الحاجز المائي، إلا بعد ١٥ يوماً من ذلك. وقد صادف خلال ذلك مقاومة ضارية. ولم يستطع الأميركيون دخول مدينة كولن Köln إلا في ٥ آذار ١٩٤٥، وكسب الألمان بذلك الوقت اللازم لسحب وحداتهم المنهكة إلى ما وراء نهر الراين.

وأتاح ضعف جناح الألمان الأيسر الفرصة المناسبة للجيشين الأميركيين الأول والثالث، فاخترقت ميمنة الجيش الأول خط الراين في بون، واحتلت وحدة أميركية جسراً سليماً في ريماغن. ولم يستغل ايزنهاور فوراً هذه الثغرة غير المتوقعة، التي كان يستطيع استخدامها في نقل قواته، وتعديل خططه للمرحلة التالية الحاسمة. وأدى تهديد ريماغن إلى تثبيت القوات الاحتياطية الألمانية الصغيرة في أماكنها. أما الجيش الأميركي الثالث فقد حصل على نجاح أكبر، عندما خرق الخطوط الألمانية في ايفيل. واندفعت الفرقة المدرعة الرابعة المشكلة لرأس الحربة، بكل سرعة نحو الراين في كوبيلنس Coblence، ثم وجه باتون قواته نحو الجنوب، فدخلت بالاتينا وراء حوض الموزيل السفلي، واجتاحت ضفة نهر الراين الغربية على مؤخرات القوات الألمانية الصامدة أمام الجيش السابع فعزلتها عن نهر الراين، وأخذت عدداً كبيراً من الأسرى، وأمنت لنفسها عبور الراين دون مقاومة، وذلك عندما استدارت نحو الشرق. وتم العبور ليلة ٢٢ آذار، ثم أعقب العبور استثمار الجناح بزحف عميق في بافاريا الشمالية.

وفي ليلة ٢٣ آذار ، زحف مونتغمري على الراين ، قرب الحدود الهولندية ، وتم عبور النهر الكبير ، في أربع نقاط خلال الليل . وفي الصباح أنزلت فرقتان محمولتان جواً وراء النهر بقصد تدمير القوات الألمانية ، التي كانت تقاوم في محاولة لمنع توسيع رأس الجسر ، وبدأت المقاومة الألمانية تتحطم في كل مكان ، ومهد ذلك إلى حدوث الانهيار العام .

ولم تأتِ النهاية ، برغم هذه الظروف كلها ، إلا بعد شهر . ويرجع هذا التأخير إلى مشاكل التموين ، التي تعرض لها الحلفاء ، والتي كانت تزداد كلما تقدموا وراء نهر الراين . ولا سيما أن عمليات القصف ، التي قام بها الطيران الحليف ، ملأت الطرق بكتل كبيرة من الأنقاض . يضاف إلى ذلك الظروف السياسية المعقدة ، التي كان يواجهها الحلفاء .

أما على الجبهة الشرقية ، فقد استمرت القوات السوفييتية في التقدم السريع نحو الغرب . وقد خاضت قوات جبهة أوكرانيا الأولى ، بقيادة المارشال كونييف ، خلال شهري شباط وآذار ١٩٤٥ معارك ضارية مع القوات الألمانية الضخمة ، الموجودة في منطقة سيليزيا .

ففي الفترة الواقعة بين ٨ و ٢٤ شباط ، انتقلت قوات الجناح الأيمن للجبهة للهجوم من رؤوس الجسور ، المستولى عليها على نهر الأودر ، وخرقت دفاع الألمان ، ووصلت إلى نهر نيسو ، بعد أن طوقت في برسلافل تجميعاً يزيد تعداده عن ٤٠٫٠٠٠ رجل . وبعد إعادة تجميع القوى الرئيسية على الجناح الأيسر ، أنزلت قوات الجبهة ، بين ١٥ و ٣١ من آذار ، خسائر فادحة بالقوات الألمانية الموجودة في منطقة سيليزيا العليا ، ووصلت إلى هضاب السوديت ، وإلى الحدود التشيكوسلوفاكية ، مشكلة بذلك الظروف المناسبة للهجوم على برلين من جهة الجنوب .

تعتبر الأعمال القتالية ، المتعلقة بتحرير تشيكوسلوفاكيا ، جزءاً لا يتجزأ من أعمال الهجوم الاستراتيجي للجيش السوفييتي ، وكانت قد بدأت هذه الأعمال في كانون الثاني ١٩٤٥ ، واستمرت طيلة فصل الشتاء . فقد انطلقت قوات جبهة أوكرانيا الرابعة بقيادة المارشال بتروف Petrov ، إلى الهجوم من خط نهري فيسلوكا ، وخاضت معارك ضارية ، وحررت في ٣٠ نيسان ، المركز الصناعي الهام والضخم مورافا ـــ اوسترافا ، وعمل في قوامها الفيلق التشيكي الأول . في حين خاضت قوات

جبهة أوكرانيا الثانية ، التي كان يقودها المارشال مالينوفسكي ، أعمالاً قتالية في المناطق الجنوبية من سلوفاكيا . وفي الخامس والعشرين من آذار ، استأنفت قوات الجبهة هجومها شمالي الدانوب ، وعبرت نهر غرون ، واندفعت باتجاه الغرب ، وحررت في ٤ نيسان براتيسلافا ، عاصمة سلوفاكيا ، واستولت في ٢٥ نيسان على مدينة برنو Brno التشيكية .

دارت المعارك الطاحنة في الجنوب ، حيث زجت القيادة الألمانية هناك بقوى ضخمة من القوات ، وخاصة المدرعة منها . وفي كانون الثاني ، صدت القوات السوفييتية ثلاث ضربات مضادة قوية للألمان ، الذين كانوا يحاولون إنقاذ تجميع قواتهم المطوق في بودابست . وفي ١٣ شباط أصبحت بودابست محررة ، وبدأت القوات السوفييتية بالاستعداد لمتابعة الهجوم . بيد أن القيادة الألمانية كانت أسرع في تنفيذ ضربة مضادة في أوائل آذار ١٩٤٥ في منطقة بحيرة بالاتون Balaton . فقامت قوات جبهة أوكرانيا التي ضمت في صفوفها جيشاً بلغارياً ، بتنفيذ عملية بالاتون الدفاعية بين ٦ و ١٥ آذار ، وتصدت لهجمات الألمان . بعد ذلك انتقلت تشكيلات جبهة أوكرانيا الثالثة ، التي كان يقودها المارشال تلبوخين ، وقسم من قوى جبهة أوكرانيا الثانية ، إلى الهجوم في ١٦ آذار ، وأكملت في ٤ نيسان تحرير هنغاريا ــ المجر ، وحررت في ١٣ نيسان مدينة فيينا ، عاصمة النمسا ، بضربة مشتركة لقوات الجبهتين ، بالاشتراك مع سفن أساطيل الدانوب الحربي .

تلخصت نتائج هجوم الجيش السوفييتي في الجنوب بهزيمة الألمان ، وتحرير هنغاريا ، ودخول النمسا ، وتحرير القسم الأعظم من تشيكوسلوفاكيا ، والوصول إلى المناطق الهامة في ألمانيا ، الأمر الذي ساعد الشعب اليوغسلافي ، بقيادة تيتو Tito على خوض الأعمال القتالية لطرد الألمان من بلاده .

نجم عن الهجوم الشتوي للجيش السوفييتي حدوث تبدل كبير في الموقف الدولي ، وتجلّى بشكل واضح في مؤتمر القمة ، الذي عقد في القرم ــ يالطا ــ بين ٤ و ١١ شباط وضم كلاً من ستالين و روزفلت و تشرشل ، ونسقت فيه مسائل الحرب ومتابعتها ، واتخذت القرارات المشتركة حول البناء الديمقراطي للسلم في فترة ما بعد الحرب .

ساعدت الانتصارات السوفييتية في الشرق والجنوب الشرقي على نجاح هجوم

القوات الأميركية والانكليزية، التي اقتحمت في شهر آذار ١٩٤٥، نهر الراين، وأكملت في ١٨ نيسان سحق القوى الرئيسية لمجموعة جيوش (ب)، في حوض الرور ووصلت طلائع الجيش الأميركي إلى نهر ألبا.

وفي أوائل نيسان ١٩٤٥ أصبح الموقف واضحاً حول انهيار ألمانيا النازية، حيث أصبحت القوات السوفييتية موجودة على مسافة ٦٠ كيلو متراً شرقي برلين، والقوات الأميركية والانكليزية من الغرب على مسافة ١٢٠ كيلو متراً. وقد بذلت القيادة النازية كل ما تستطيع من جهود لتأخير وقت انهيارها، ولا سيما أنها كانت لا تزال تمتلك أعداداً هائلة من القوات، التي كان يتمركز معظمها على الجبهة السوفييتية ـــ الألمانية.

سقوط برلين

في هذا الوقت كان سقوط برلين يعني انتهاء الحرب في أوروبا. ولذلك استعدت القيادة الألمانية لصد هجمات القوات السوفييتية، واتخذت التدابير لتعزيز دفاعها في هذه الاتجاهات. وبنت دفاعاً قوياً محصناً، ومنسقاً بالعمق، يتألف من خط الأودر ـــ نيسة الدفاعي بعمق ٢٠ ـــ ٤٠ كم، ومنطقة برلين الدفاعية. وكان الدفاع قوياً للغاية، على الضفة اليسرى لنهري الأودر و نيسة، واشتركت فيه قوات مجموعة جيوش الفيسلا، والقوى الرئيسية لمجموعة جيوش الوسط، التي ضمت في قوامها حوالي مليون رجل، و ١٠٤٠٠ مدفع وهاون و ١٥٠٠ دبابة و ٣٣٠٠ طائرة حربية.

ألقي على غاتق القوات السوفييتية مهمة: «**إكمال سحق الجيش الألماني النازي، واحتلال برلين خلال أقصر وقت ممكن**».

وقد وضعت الخطة على أساس إشراك أكبر قدر من القوات السوفييتية في العملية، كسباً لشرف تدمير ألمانيا النازية. وضمت هذه القوات كلاً من قوات جبهتي روسيا البيضاء الأولى (جوكوف)، والثانية (روكوسوفسكي)، وقوات جبهة أوكرانيا الأولى (كونييف)، بالإضافة إلى أسطول الدنيبر والجيش الجوي ١٨ (قاذفات بعيدة المدى)، و٣ فيالق دفاع جوي إقليمي.

تلخصت فكرة عملية برلين في توجيه ضربات منسقة بقوى الجبهات الثلاث

لتحطيم الدفاع الألماني على عدة اتجاهات، وتطويق القوى الرئيسية الألمانية، وتجزئتها، وتدمير كل جزء منها على حدة. واحتلال برلين العاصمة. وكان على هذه القوات أن تصل في اليوم الثاني عشر حتى الخامس عشر من العملية إلى نهر ألبا، والاتصال مع القوات الحليفة هناك (الأميركية والانكليزية).

توجب على جبهة روسيا البيضاء (جوكوف) أن تحطم دفاع الألمان على نهر الأودر بواسطة ثلاث ضربات: الضربة الرئيسية ـــ من رأس جسر كوسترين بقوى خمسة جيوش مشتركة، وجيشي دبابات، باتجاه برلين مباشرة من جهة الشرق، بعد الالتفاف حولها من الشمال والشمال الشرقي: ولحماية التجميع الرئيسي من الشمال والشمال الشرقي: ولحماية التجميع الرئيسي من الشمال والجنوب تقرر توجب ضربتين مساعدتين بقوى جيشين لكل منهما: الأولى على فيربلين، والثانية من رؤوس الجسور المحتلة على الأودر، شمالي وجنوبي فرانكفورت على الأودر باتجاه بوتسدام Potsdam براندنبورغ Brandenburg مع الالتفاف حول برلين من جهة الجنوب.

وأسندت لجبهة أوكرانيا الأولى (كونييف) مهمة خرق الدفاع الألماني على نهر نيسة Neisse بتوجيه ضربتين، تنفذ الضربة الأولى الرئيسية بقوى أربعة جيوش مشتركة وجيشي دبابات باتجاه شبرمبيرغ ـــ بيلتسيغ، وتخصيص قسم من القوى لمؤازرة قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى في احتلال برلين. ولحماية التجميع الرئيسي من جهة الجنوب تقرر توجيه ضربة مساعدة بقوى جيشين باتجاه درسدن. وكان يتوجب على قوات الجناح الأيسر للجبهة أن تنتقل للدفاع.

وأسندت لجبهة روسيا البيضاء الثانية (روكوسوفسكي) مهمة اقتحام نهر الأودر بثلاثة جيوش في القطاع المحصور بين شتيتين Stettin و شفيدت Schwedt، وتوجيه الضربة الرئيسية باتجاه نويستريلتز Neustrelitz لسحق الجيش المدرع الألماني الثالث.

وهكذا وصلت الكثافة العملياتية للقوات المهاجمة: في جبهة أوكرانيا الأولى (كونييف) إلى معدل ٦٠ دبابة و ٣٠٠ مدفع لكل كيلو متر من الجبهة، ولجبهة روسيا البيضاء الأولى (جوكوف) إلى معدل ١٠٠ ـــ ١١٠ دبابات و ٣٠٠ مدفع لكل كيلو متر من الجبهة.

عملية برلين ــــ نيسان ١٩٤٥

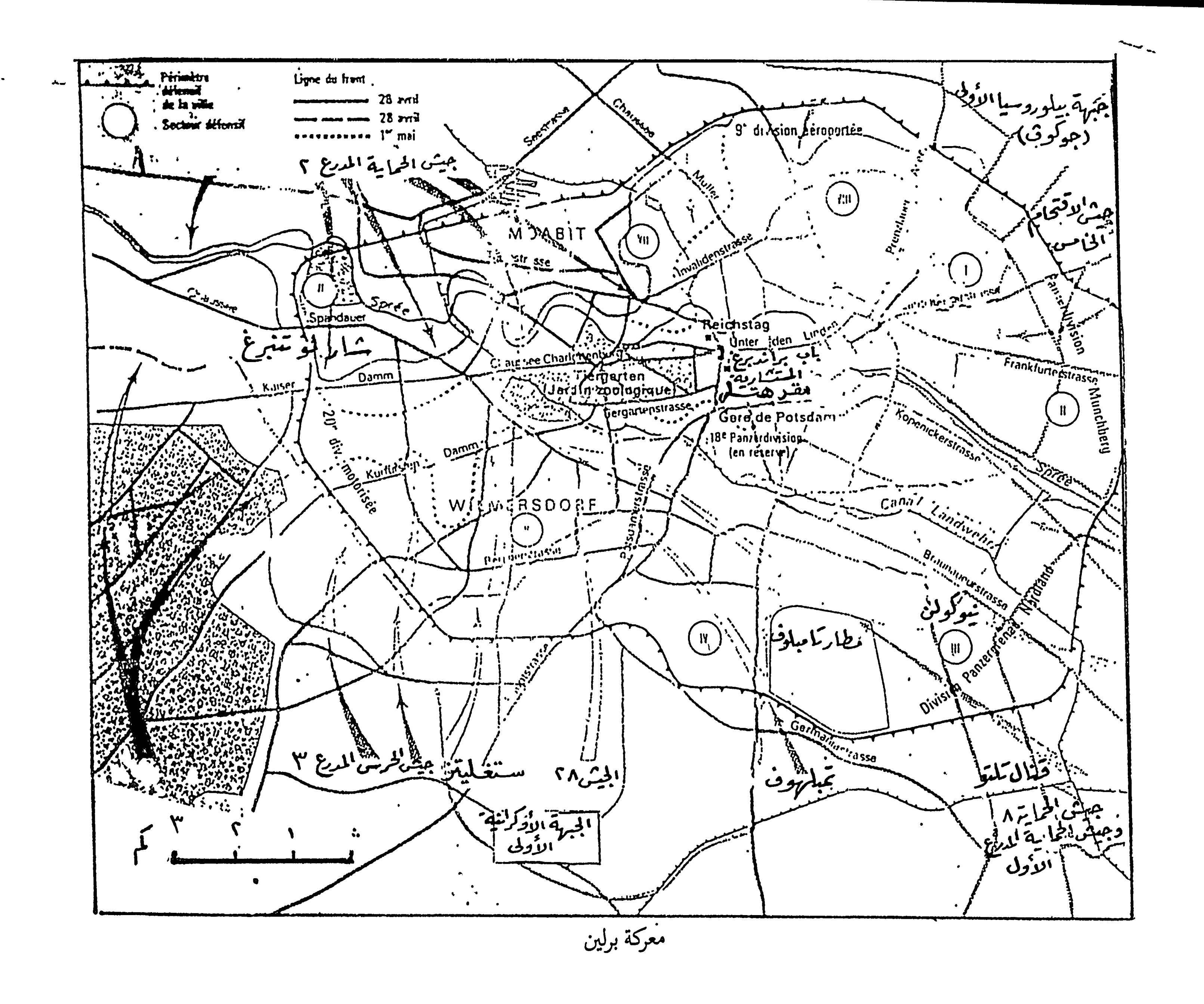
بدأ هجوم جوكوف وكونييف في ١٦ نيسان ١٩٤٥ ، أما روكوسوفسكي فقد بدأ هجومه في ٢٠ نيسان . وتطور الهجوم بنجاح ، على الرغم من ضراوة الألمان الدفاعية وهجماتهم المضادة المستمرة .

خرقت قوات جوكوف وكونييف الخطوط الدفاعية الألمانية على نهر الأودر و نيسة في ١٨ و ١٩ نيسان على التوالي ، وتقدمت إلى عمق ٣٠ كيلو متراً . وفشلت خطط الألمان الرامية إلى التمسك بالخط الدفاعي (الأودر ـــ نيسة) .

اتصفت المعارك التي دارت من أجل مرتفعات زيليوف Seelow عند خرق الأودر بصعاب بالغة على وجه الخصوص ، حيث أبدت القوات الألمانية المدافعة عنها ، مقاومة عنيفة في وجه قوات جوكوف ، التي استطاعت التغلب عليها ، وخرقت الخط الدفاعي الداخلي والخارجي لمدينة برلين ، وتوغلت في المدينة من الشرق والجنوب ، واتحدت في ٢٤ نيسان في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي للمدينة مع جيوش كونييف ، المتقدمة بنجاح من الجنوب . واكتمل بذلك تطويق التجميع الألماني (فرانكفورت ـــ غوبن) بعد عزله عن برلين . وفي اليوم التالي التفت تشكيلات جبهتي جوكوف وكونييف حول المدينة من الشمال والجنوب ووصلت إلى منطقة كيتسين Ketzin . وهكذا طوق تجميع برلين بكامله .

عملت قوات الدبابات بسرعة لدى مطاردة الألمان وتجميعهم القوى في مدينة برلين . وكانت التشكيلات الألمانية المغطاة بقطعات الحراسة الخلفية قد أبدت مقاومة عنيفة على الخطوط الوسيطة وفي النقاط الآهلة بالسكان في نطاق الجبهة الأوكرانية الأولى (كونييف) ، لكن قوات هذه الجبهة تمكنت من سحقها في المنطقة الواقعة بين نهري نيسّه Nisse وشبرة Spree . وتجدر الإشارة إلى أن القوات المدرعة لم تستطع المناورة بسبب طبيعة الأرض المستنقعية ، الأمر الذي أجبرها على العمل على الطرقات فقط ، وخوض المعارك من أجل الاستيلاء على النقاط الآهلة بالسكان . وهذا ما قام به اللواء المدرع الحرس ٣٥ ، الذي كوّن طليعة فيلق مدرع ، واشتبك مع الألمان في معركة ضارية على مشارف باروت Baruth ، لكنه فشل في احتلال المدينة من الحركة .

في ٢٥ نيسان التقت قوات جبهة أوكرانيا الأولى (كونييف) مع قطعات الجيش


Périmètre défensif de la ville
Secteur défensif
Ligne du front
28 avril
28 avril
1er mai
جيش الحماية المدرع ٢
جبهة بيلوروسيا الأولى (جوكوف)
جيش الاقتحام الخامس
9e division aéroportée
MOABIT
Invalidenstrasse
Reichstag
Unter den Linden
باب براندنبرغ
المستشارية
مقر هتلر
Tiergarten
Jardin zoologique
Gare de Potsdam
18e Panzerdivision (en réserve)
شارلوتنبرغ
Spandauer
Spree
Kaiser Damm
20e div. motorisée
WILMERSDORF
Frankfurterstrasse
Munchberg
Kopenickerstrasse
Canal Landwehr
Division Panzergrenad. Nordland
نيوكولن
مطار تامبلهوف
تمبلهوف
Germaniastrasse
ستغليتز
جيش الحرس المدرع ٣
الجيش ٢٨
الجبهة الأوكرانية الأولى
كم
٣ ٢ ١ ٠
جيش الحماية ٨
وجيش الحماية المدرع الأول

معركة برلين

الأميركي الأول في منطقة تورغاو Torgau ، وأصبحت جبهة القـوات الألمانيـة مجزأة إلى جزءين منعزلين (شمالي وجنوبي) . وقد صدت تشكيلات جبهة أوكرانيا الأولى على اتجاه درسدن ضربة معاكسة قام بها تجميع غيرليتس Görlitz الألماني ، كما اقتحمت قوات جبهة روسيا البيضاء الثانية المنطقة الواقعة بين النهرين ، واقتحمت بعد ذلك نهر الأودر الشرقي ، وخرقت النطاق الرئيسي للدفاع ، وجمدت هناك حركة الجيش المدرع الألماني .

تعتبر موقعة برلين من أكثر المواقع الحربية ضراوة ، وخاصة من أجل الاستيلاء على مبنى البرلمان الألماني (الرايخشتاغ) ، الذي يشكل بناؤه عقدة مقاومة هامة في برلين . والذي كانت تدافع عنه حامية مختارة قوية مؤلفة من عدة آلاف من الضباط والجنود .

نفذت عملية اقتحام الرايخشتاغ من قبل الفرقة ١٥٠ مشاة ، يقودها الجنرال شايتلوف ، والفرقة ١٧١ مشاة بقيادة العقيد نيجودا .

وقد دارت معركة الاستيلاء على هذا المبنى الهام طيلة الأيام ٢٩ و ٣٠ نيسان ، وتمكنت هذه الفرق من رفع راية الجيش الضارب الثالث على سارية الرايخشتاغ في صباح الأول من أيار ١٩٤٥ . وقد قاومت بعض المجموعات الألمانية المتمركزة في أقبية البناء حتى اليوم الثاني من أيار .

خلال المعارك التي دارت في برلين ، طورت قوات جبهة روسيا البيضاء الثانية (روكوسوفسكي) الهجوم على الاتجاه الشمالي الغربي ، ووصلت في ٣ و ٤ أيار إلى ساحل البلطيق وإلى نهر البا Elbe . واتصلت هناك بقطعات الجيش الانكليزي الثاني ، في حين قامت جبهة روسيا البيضاء الأولى (جوكوف) ، بين ١ و ٨ أيار ، بتدمير بعض المجموعات الألمانية ، ووصلت إلى نهر البا ، وباشرت جبهة أوكرانيا الأولى (كونييف) بإعادة تجميع قواتها على اتجاه براغ .

انتهت عملية برلين بانتصار القوات السوفييتية التي تمكنت من تدمير ٧٠ فرقة مشاة ، و٢٣ فرقة مدرعة ميكانيكية ، وأسرت أكثر من ٤٨٠ ألف جندي وضابط بين ١٦ نيسان و ٧ أيار . وفي الثامن من أيار ١٩٤٥ ، وقع ممثلو القيادة العسكرية الألمانية ، في ضاحية برلين ، على صك الاستسلام دون قيد أو شرط .

وعلى الرغم من عدم وجود أي أمل يعقد على الاستمرار في الحرب ، بعد سقوط برلين ، فإن بعض التجميعات الألمانية استمر في المقاومة مثل مجموعة جيوش الوسط ، ومجموعة جيوش النمسا العاملة في تشيكوسلوفاكيا . وقد حرص قادة هذه المجموعات على مقاومة تقدم القوات السوفييتية والاستسلام فقط للجيش الأميركي . وكان لا بد للقيادة السوفييتية أن تعطي الأوامر للإسراع ، قدر الإمكان ، لتوجيه ضربة نهائية إلى هذه القوات ، وإكمال تحرير تشيكوسلوفاكيا . ففي اليوم السادس من أيار ، وجه تجميع من قوات جبهة أوكرانيا الأولى ضربة قوية من الشمال باتجاه درسدن ـــ براغ ، وفي يوم ٧ أيار بدأ هجوم آخر بتجميع آخر من هذه الجبهة نفسها بالهجوم من الجنوب من اتجاه برنو .

وقد حطمت هاتان الضربتان مقاومة الألمان ، واندفعت القوات السوفييتية نحو براغ ، وفي يوم ٩ أيار ١٩٤٥ ، دخلت القوات المدرعة مدينة براغ وحررتها .

كان دفاع الألمان ، خلال المعارك الأخيرة التي قاوموا فيها الهجوم السوفييتي ، من الشرق ، والهجوم الأميركي ـــ البريطاني من الغرب ، ناجحاً ، برغم نقصان القوت والذخائر . ويعود هذا النجاح إلى قدرتهم الفائقة على المقاومة ، كما يعود إلى شروط الحلفاء الثقيلة ، التي كانت تطالب بالاستسلام المهين دون قيد أو شرط .

لقد دمرت ألمانيا النازية نفسها عندما ذهبت بأطماعها إلى مكان بعيد ، ولولا ذلك لوجد أعداؤها صعوبة أكبر في التغلب عليها . وقد أعطى توسيع هجومها في أوروبا كلها فرصة مناسبة للحلفاء لتحقيق تدميرها . كما أتاحت متاعبها وتوسعها الزائد الفرصة للحلفاء لاختصار مدة الحرب . فهذه نتيجة الأطماع التي تزيد عن الطاقة ، وهذا ما يفعله العدو الصهيوني الآن في المنطقة العربية .

الأعمال القتالية في المحيط الهادي ١٩٤٤ ـــ ١٩٤٥

اضطرت القيادة اليابانية ، في أواخر عام ١٩٤٣ ، إلى إيقاف هجومها اللاحق في المسرح البحري للأعمال القتالية ، وركزت في الوقت نفسه جهودها للهجوم على الصين . وقررت احتلال القواعد الجوية العسكرية الأميركية في الصين الوسطى والجنوبية ، وإقامة شبكة مواصلات برية مع دول جنوبي شرقي آسيا ، وبالتالي تشكيل قاعدة متينة لمتابعة

خوض الحرب . إلا أن الطاقة القصوى المخصصة للدفاع عن مساحات واسعة من المحيط الهادي كانت قليلة ، وتألفت بصورة أساسية من تشكيلات الأسطول (٦ بوارج ، و ٦ حاملات طائرات و ١١ طراداً ، وعدد كبير من الغواصات) و ١٣ فرقة وحوالي ٦٠٠ طائرة .

في ذلك الوقت كانت القوات الأميركية والانكليزية ، الموجودة في منطقة المحيط الهادي ، متفوقة غلى القوات اليابانية من حيث الطيران والأسطول . وتوفر لديها حوالي ١٣ فرقة برية و ٣ فرق مشاة بحرية ، و ١٣ بارجة ، و ٣٢ طراداً ، و ٢٨ حاملة طائرات ، و ١٨٨ مدمرة ، و ٥٧ باثّة ألغام ، و ١٢٣ غواصة ، و ٦٦٧٦ طائرة . وكان تجميع هذه القوات مشتركاً . وعملت في القطاع الأوسط للمحيط الهادي مجموعة عملياتية بقيادة الأدميرال نيمتس Nimitz ، في حين عمل في القطاع الجنوبي الغربي منه تجميع عملياتي — استراتيجي بقيادة الجنرال ماك آرثر Mc Arthur .

وخلال شهر شباط ١٩٤٤ ، استولت قوات الحلفاء ، العاملة في القطاع الأوسط للمحيط الهادي ، على جزائر مارشال Marshall . وأكملت في ١٠ آب تطهير جزائر ماريان Mariannes ، واحتلت في أيلول جزائر بالاو Palau ، و اوليت ، وطوقت الحاميات اليابانية في جزائر كارولين Carolines .

وتجدر الإشارة إلى أن الطيران الأميركي استخدم النابالم لأول مرة خلال الأعمال القتالية على جزر ماريان ، وعند الإنزال في جزائر سايبان Saipan في ١٥ تموز ١٩٤٤ . كما استولت القوات العاملة في القطاع الجنوبي الغربي للمحيط الهادي ، خلال النصف الثاني من شباط وشهر آذار ، على جزائر أدميرال وخاضت في نيسان الهجوم على جزيرة غينيا الجديدة .

وبوصول الحلفاء إلى الساحل الغربي لجزيرة غينيا الجديدة ، وباستيلائهم على جزيرة موروتاي في ١٥ أيلول ، تكونت الظروف المناسبة لتنفيذ عملية احتلال جزائر الفيليبين . وبالفعل بدأت هذه العملية بإنزال القوات الأميركية في جزيرة ليته Leyte في ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٤ .

وقد اتصفت المعارك ، التي دارت من أجل هذه الجزيرة بطابع الضراوة ، إلا أن

التفوق الواضح للأميركيين، وهزيمة الأسطول الياباني في منطقة الفيليبين أرغمتا حامية الجزيرة على الاستسلام في ٢٢ كانون الأول ١٩٤٤.

لم تستطع اليابان تنفيذ خططها المتعلقة باحتلال الصين الوسطى والجنوبية بشكل كامل، ومع ذلك لم تكن تنوي التوقف عن الحرب، ولا سيما أنها لا زالت تملك جيشاً برياً قوياً، وعدداً كبيراً من السفن والطائرات واحتياطات المواد الخام.

أخذت قيادة الحلفاء بعين الاعتبار أن أمد الحرب سيطول. وقررت أن لا يتم الإنزال في الجزر الرئيسية لليابان قبل نهاية عام ١٩٤٥ (ربيع عام ١٩٤٦). وطلبت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا من الاتحاد السوفييتي المؤازرة في سحق اليابان. ووافقت الحكومة السوفييتية على ذلك، وعلى دخول الحرب ضد اليابان بعد ٢ ــ ٣ شهور من استسلام ألمانيا النازية.

تابعت قوات الحلفاء أعمالها القتالية، واستولت في أواخر حزيران ١٩٤٥ على جزائر اوكيناوا، وأكملت، في أوائل تموز، تطهير جزائر الفيليبين.

في ذلك الوقت، تردى وضع اليابان أكثر فأكثر. واستسلمت ألمانيا النازية دون قيد أو شرط، وأصبحت اليابان في حالة عزلة عن حلفائها. كما امتدت حركات التحرر الوطني لتشمل جميع دول جنوب شرقي آسيا.

وهنا أصدرت الحكومة الأميركية أوامرها لقصف مدينتي هيروشيما و ناغازاكي بالقنابل الذرية يومي ٦ و ٩ آب ١٩٤٥. علماً بأن الموقف العسكري لم يكن يستدعي القيام بمثل هذا العمل البربري، أضف إلى ذلك أن هذه القنابل لم تكن العامل الحاسم والنهائي الذي أرغم اليابان على الاستسلام.

دلت الأعمال القتالية في المحيط الهادي على أن جميع المهمات العملياتية والاستراتيجية قد نفذت بالجهود المشتركة لجميع أنواع القوات المسلحة، برغم سيطرة المسرح البحري على ذلك.

لم يشترك في تنفيذ عمليات الإنزال البحرية أكثر من ١ ــ ٢ فرقة، باستثناء بعض العمليات الكبرى (مثل احتلال جزيرة ليته و لوسون و اوكيناو). وفي جميع

الأحوال جرى دعم أعمال القوات البرية بقوى ضخمة من الطيران والأسطول . ويجدر التنويه هنا بأن مدفعية الميدان لم تستخدم في العمليات بكميات كبيرة ، كما لم تستخدم القوات المدرعة على نطاق واسع ، بسبب طبيعة وخصائص مسرح الأعمال القتالية .

لعبت حركات التحرر الوطني ، في دول آسيا الشرقية والجنوبية الشرقية دوراً كبيراً في تحقيق النصر على اليابان . فقد خاضت شعوب الصين وكوريا ، واللايو ، وبورما ، والفيليبين ، والهند الصينية الفرنسية (فيتنام ، لاوس ، كمبوديا) ، وأندونيسيا ، وغيرها من البلدان ، صراعاً مسلحاً ضد الغزاة اليابانيين . وقد نفذ هذا الصراع بيد القوى الشعبية المنظمة ، كجيش تحرير فيتنام ، والجيش الشعبي الفيليبيني ، والجيش الشعبي الملاوي .. الخ .

في ٨ آب ١٩٤٥ ، ألغى الاتحاد السوفييتي (المعاهدة السوفييتية اليابانية حول الحياد) ، المعقودة في نيسان ١٩٤١ ، وأعلن الحرب على اليابان اعتباراً من ٩ آب عام ١٩٤٥ .

امتدت حدود مسرح الأعمال القتالية للقوات السوفييتية لتشمل أراضي الصين الشمالية الشرقية ، وقسم من منغوليا الداخلية ، وكوريا الشمالية ، وبحر اليابان ، وجزيرة ساخالين ، وجزر الكوريل .

تألف تجميع القوات اليابانية في منشوريا و ساخالين الجنوبية ، وجزر الكوريل من الجبهات الأولى والثالثة والخامسة والسابعة عشرة ، ومن الجيشين الرابع والرابع والثلاثين . وقد بلغ مجموع تعداد هذه القوات ٨١٧٫٠٠٠ جندي ، و ١٢٠٠ دبابة ، و ٦٧٠٠ مدفع ، و ١٩٠٠ طائرة .

أما تجميع القوات السوفييتية المضادة فكانت تتألف من : جبهة البايكال ، وجبهتي الشرق الأقصى الأولى والثانية (١١ جيشاً مشتركاً ، وجيش دبابات واحد و ٣ جيوش جوية ، و ٣ جيوش دفاع جوي إقليمي) . وأسطول المحيط الهادي ، وأسيطيل نهر الآمور . وقد بلغ تعداد القوات السوفييتية هنا : ١٫٧٤٧٫٠٠٠ رجل و ٢٩٠٠٠ مدفع هاون ، و ٥٢٨٠ دبابة ، وأكثر من ٥٠٠٠ طائرة و ٩٣ سفينة حربية .

وقد أسفرت العمليات الاستراتيجية للقوات السوفييتية في الشرق الأقصى عن

السحق الكامل للقوات اليابانية في منشوريا، وكوريا الشمالية، وساخالين، وجزر الكوريل. وبلغت خسائر اليابانيين فيها أكثر من ٦٧٧ر٠٠٠ رجل، منهم ٨٤ر٠٠٠ قتيل.

وفي أواخر آب ١٩٤٥ أصبحت جميع أراضي الصين الشمالية الشرقية وقسم من أراضي منغوليا و كوريا الشمالية محررة من القوات اليابانية.

وبعد القصف النووي الأميركي لليابان في ٦ و ٩ آب ١٩٤٥ أمر امبراطور اليابان في ١٥ آب بإيقاف القتال على جميع الجبهات، وفي ٢ أيلول ١٩٤٥، أعلن استسلام اليابان دون قيد أو شرط، وتقبل قادة الحلفاء استسلام اليابان على متن الميسوري في المحيط الهادي.



الفصل العاشر

الاستراتيجية العسكرية الحديثة للولايات المتحدة الأميركية وحلف شمالي الأطلسي (NATO)



تمهيـــد

انتهت الحرب العالمية الثانية بتدمير القوات المسلحة لدول المحور ألمانيا ـــ اليابان ، بعد أن استسلمت إيطاليا دون قيد أو شرط في وقت سابق ، وكان لذلك تأثير كبير على التطور التقدمي لشعوب أوروبا وآسيا وأميركا اللاتينية ، وخلق الظروف المؤاتية لتعزيز النظام الاشتراكي وتوسعه في العالم ، بحيث شمل هذا النظام أكثر من ثلث سكان الكرة الأرضية .

أما بالنسبة للعالم الرأسمالي ، فقد جرت فيه ، بنتيجة الحرب العالمية الثانية ، تبدلات جذرية . فقد خرجت بريطانيا العظمى من الحرب منهكة القوى ، وفقدت هيبتها القديمة ، كذلك خرجت فرنسا ومثيلاتها من الدول الأوروبية ، التي رزحت فترة طويلة تحت نير الاحتلال الألماني ، من الحرب وهي شبه ممزقة . أما بقيـة الـدول الرأسماليـة (ما عدا الولايات المتحدة وكندا) ، والتي اشتركت إلى جانب المعسكر المعادي للنازية في الحرب ، فقد وجدت نفسها في وضع اقتصادي سيء للغاية .

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية ، والتي ازدادت ثرواتها ضخامة بشكل غير معقول في هذه الحرب ، فقد استغلت هذه الظروف المؤاتية لها ، من أجل تعزيز مواقعها السياسية والاقتصادية والعسكرية في العالم .

وقد ظهر أن الأهداف السياسية، التي وضعتها الإدارة الأميركية نصب عينيها تتضمن الهيمنة على الدول الأوروبية، وغيرها من الدول الرأسمالية، سياسياً واقتصادياً، وتحويلها إلى أدوات مذعنة طيعة، وتجميعها في أحلاف عسكرية مختلفة، موجهة ضد دول المعسكر الاشتراكي، لتحقيق الهدف الأساسي لمخططاتها، وهو السيطرة على العالم.

وقد أعلن المسؤولون الأميركيون أكثر من مرة عن نية الولايات المتحدة في السيطرة على العالم. ففي العام ١٩٤٥، وإثر انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، كتب الجنرال مارشال رئيس أركان الجيش الأميركي آنذاك، في تقرير رفعه لوزارة الدفاع الأميركية، جاء فيه: «إن على الولايات المتحدة امتلاك القوة اللازمة لتأمين دورها القيادي في التطور العام المقبل للإنسانية».

وقد أكد الرئيس السابق ترومان هذه الفكرة، بشكل أوضح، في رسالة إلى الكونغرس الأميركي، في كانون الأول من العام ١٩٤٥، حين قال: «إن النصر في الحرب العالمية الثانية قد وضع الشعب الأميركي أمام مسؤولياته في قيادة العالم». وأخيراً فإن الرئيس السابق كنيدي، ذكر في رسالته الخاصة، الموجهة إلى الكونغرس في ٢٥ أيار ١٩٦١: «إن على الحكومة الأميركية اتخاذ تدابير إضافية بعيدة المدى، حتى يمكن تعليل دور الولايات المتحدة في القيادة الدولية بعيدة المدى».

وقد نشطت السياسة العسكرية الخارجية الأميركية، في السنوات الأولى التي تلت الحرب العالمية الثانية، بصورة أساسية في السعي لتطويق دول المعسكر الاشتراكي بأجهزة من الأحلاف والتجمعات العسكرية والسياسية للدول الرأسمالية، وتوحيدها في حلف موحد، موجه ضد منظومة الدول الاشتراكية، وبخاصة الاتحاد السوفييتي. وقد تجلت هذه السياسة بأجلى مظاهرها في إقامة عدد كبير من القواعد الجوية والبحرية الحربية حول دول المعسكر الاشتراكي، وكذلك في موافقة الكونغرس الأميركي على مبدأ الرئيس ترومان ومشروع مارشال، التوسعيين في جوهرهما، واللذين يمكنان الولايات المتحدة من فرض إشرافها على اقتصاد الدول الأوروبية وسياستها، وكذلك مبدأ ايزنهاور، الموجه إلى تكبيل دول الشرق الأوسط واستعبادها.

وهكذا قامت أحلاف هامة ، بالاشتراك الفعال والمباشر للولايات المتحدة ، منها الأحلاف التالية :

ــ حلف شمالي الأطلسي (الناتو) ، في عام ١٩٤٩ في أوروبا .
ــ حلف جنوبي شرقي آسيا (سياتو) ، في عام ١٩٥٤ .
ــ حلف بغداد في الشرق الأوسط (١٩٥٥)، والذي أطلق عليه فيما بعد ، بعد انسحاب العراق منه بعد ثورة ١٩٥٨ ، حلف السنتو .

وفي عام ١٩٥٤ ، وفي المؤتمر الرابع عشر لمجلس الحلف الأطلسي في باريس ، توصلت الولايات المتحدة إلى إلغاء نظام الاحتلال في ألمانيا الغربية ، وقامت باتخاذ إجراءات لبعثها وإنعاشها وإحيائها عسكرياً ، وإدخالها في عداد القوى الضاربة لحلف الأطلسي . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد عقد الأميركيون عدة اتفاقات عسكرية ــ سياسية مع اليابان ، وكوريا الجنوبية ، وفورموزا ، واسرائيل وغيرها .

كما أن الولايات المتحدة ركزت ، بشكل خاص ، اعتمادها على الكيان الصهيوني في سبيل إحكام سيطرتها على الأقطار العربية في الشرق الأوسط ، وحماية مصالحها الاقتصادية والبترولية بواسطتها . وهي تدفع مليارات الدولارات في كل عام لهذا الكيان المصطنع ، بغية تثبيته وجعله شوكة في خاصرة الوطن العربي . وقد استطاعت ، بإمكاناتها المادية ، تسيير سياسة بعض الأقطار العربية لتأمين هيمنتها وسيطرتها على سياسة الأمة العربية واقتصادها من مشرقها إلى مغربها .

وهكذا فإن الولايات المتحدة الأميركية أقامت التكتلات العسكرية المعادية للأمة العربية ، وللاتحاد السوفييتي ، ولدول المعسكر الاشتراكي ، وللدول المحبة للسلام من العالم الثالث . وقد حصل الأميركيون بنتيجة ذلك على حق استخدام أراضي الدول الموقعة على هذه الاتفاقيات لاستخدامها كرأس جسر . كما وضعت الولايات المتحدة تحت إشرافها كل الطاقات الاقتصادية العسكرية لهذه الدول ، بما في ذلك بناء ، وإعداد ، وإمكانية استخدام القوات المسلحة لهذه الدول ، بحيث حوّلت شركاءها إلى منفذين مطيعين لإرادتها . وقد أدى إنشاء هذه الأحلاف العسكرية ، تحت إشراف الولايات المتحدة

الأميركية ونفوذها، إلى فقدان الدول المنضمة إليها سيادتها السياسية والملامح الوطنية لسياستها الخارجية واستراتيجيتها.

وليس ببعيد أن نذكر ردة فعل مصر العربية للاجتياح الاسرائيلي للبنان في حزيران ١٩٨٢. فلم يستطع هذا القطر العربي، الذي حارب اسرائيل سنين طويلة، أن ينبث ببنت شفة عندما قامت إسرائيل، بدعم الولايات المتحدة الأميركية وموافقتها، بقصف المدن والقرى والأراضي اللبنانية قصفاً وحشياً، وهاجمته بكل قواها صيف العام ١٩٨٢. وهكذا كان الشعب المصري الوطني يرى بعينه تدمير أشقائه وتقتيلهم، دون أن تستطيع الحكومة المصرية الإفصاح عن رغبة هذا الشعب البطل في الوقوف إلى جانب أشقائهم اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين، ذلك أن الولايات المتحدة كانت قد لجمت الإدارة المصرية وكبّلتها باتفاقات كامب ديفيد، ووضعتها في خندق الأعداء الصهاينة.

وعندما حاول حاكم مصر أن يحتج على الاجتياح الاسرائيلي للبنان، هدده آرئيل شارون وزير الدفاع الصهيوني باجتياح سيناء خلال ثلاث ساعات.. ذلك أن سيناء أصبحت مجردة من السلاح والقوات بعد اتفاقيات كامب ديفيد، والمدة التي حددها وزير دفاع اسرائيل هي المدة اللازمة للطائرات العمودية الإسرائيلية المحملة بالجنود لكي تصل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس. وهكذا نتأكد أن مصر لا تملك السيادة على سيناء، لأن من يملك السيادة على أرض يمكنه أن يضع ما يشاء فيها من قوات للدفاع عن وطنه. ومن قديم الأزمان كانت سيناء هي درع مصر الواقي. ولكن أنور السادات حولها إلى أرض خالية.

كانت الاستراتيجية العسكرية للدول الرأسمالية الكبرى، في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، تعبر بوضوح عن ملامحها الوطنية، أما بعد الحرب فقد تميزت بالميل نحو استراتيجية عسكرية (وطنية) موحدة في استراتيجية عسكرية شاملة تؤمن متطلبات الخط السياسي الخارجي للولايات المتحدة الأميركية. وعند صياغة هذه الاستراتيجية الموحدة ووضعها، كانت كل دولة، مشتركة في هذا الحلف أو ذاك، تدخل الاقتراحات أو التعديلات التي تنسجم مع مصالحها الوطنية، الأمر الذي كان يؤدي إلى ظهور خلافات حادة في وجهات النظر. ولكن عندما كانت التناقضات والخلافات تمس الجانب

السياسي أو الايديولوجي في الموضوعات ذات العلاقة بالصراع ضد الاشتراكية، أو الدول المناهضة للاستعمار، فإن هذه الدوائر الأمبريالية كافةً، والتي يحركها الكره الشديد للاشتراكية والخوف من المستقبل، كانت تجد، ذوماً، أساساً موحداً لاتخاذ قرار منسجم ومنسق. وقد أوضح ذلك السكرتير العام لحلف شمالي الأطلسي السابق، الذي قال: «إن في حلف الأطلسي وجهات نظر متباينة وتناقضات في المسائل التكتيكية فقط. أما عندما يدور الموضوع حول الصراع ضد الكتلة الاشتراكية فإن الحلفاء يعملون بشكل جيد».

١ ـــ استراتيجية الردع

وفقاً لوجهة نظر الاستراتيجيين السياسيين الغربيين، كان الموقف، في نهاية الحرب العالمية الثانية، جديداً في كل شيء، ومن النواحي كافةً. فالهجوم، الذي تبناه الشيوعيون، ظهر للغرب أنه شكل هام من أشكال التحدي. في ذلك الوقت كانت التقنية العسكرية قد دخلت في الوقت ذاته المرحلة النووية، ولم تكن مضامينها التامة واضحة كلياً. وكانت الحاجة تدعو إلى استراتيجية جديدة للغرب. ولم تلبث أن ظهرت الاستراتيجية التي عرفت باستراتيجية الردع[1].

إن المعنى العسكري للردع هو: «عدم تشجيع العدو على اتخاذ عمل عسكري»، وذلك بأن يعرف مسبقاً أن حجم التكاليف والمغامرة يتجاوز ما يتوقعه من أرباح. وقد وسع هذا المفهوم، في المجال السياسي، ليعني: «عدم تشجيع طرف ثان على أن يفعل شيئاً ما، بالتهديد الضمني أو المكشوف باستخدام عقوبة ما، إذا أنجز العمل الممنوع». ويجدر أن نلاحظ هنا إنجاز الردع مهمةً شبه هجومية، ذلك أن الوظيفة الدفاعية فقط هي وسيلة سلبية فقط، في حين أن الردع هو تهديد باتخاذ إجراءات هجومية انتقامية تشمل منع الخصم من القيام بعمل ما، وحتى من الرد على أعمال الاستفزاز.

وقد حاولت الأوساط الأميركية الحاكمة، التي تهيمن عليها هذه العقلية، فرض

---

(١) سنايدر Snyder, 1961, P.3 إن الردع هو منع شخص آخر من عمل شيء ما، كان سيفعله لولا الردع، وذلك خوفاً من النتائج.

قناعاتها ومفاهيمها على السوفييت ، ولكنها لم تكتشف خيبة أملها وفشلها إلا ابتداء من النصف الثاني من السبعينيات .

والحقيقة في هذا المجال ، بالنسبة للأميركيين ، تقوم على تحليل العلاقة بين الثنائي (المخاطرة / الرهان) ، بالدقة نفسها التي يفعلها السوفييت . ولكن الصعوبة في عملية التحليل تكمن في كيفية الوصول إلى معرفة جميع العناصر التي تدخل في حساب السوفييت . لهذا فإن (مشكلة الردع) لا يمكن حلها حلاً صحيحاً . وهي تشبه تماماً الاستراتيجية السوفييتية التي تستند إلى مفهوم آخر يحل محل حساب (المخاطرة / الرهان ، أو الربح) ، الذي يستبدله الأميركيون بمفهوم آخر هو حساب (الكلفة / المردود) .

وتقوم استراتيجية الردع ، قبل كل شيء ، على (المناورة بالتهديد باستخدام السلاح النووي) ، هذه المناورة التي تجعل الشك بمستوى (العتبة النووية) ممكناً ، الأمر الذي يفتح المجال لهجوم سوفييتي .

والحقيقة ، ولكي تتمكن (استراتيجية الردع) من تحقيق هدفها ، لا بد من أن يقبل السوفييت بمفهوم الأميركيين للردع ، أو أن يفرض عليهم فرضاً . وبعبارة أخرى ، يجب أن يقبل السوفييت بأن يكونوا في وضع (المرتدع) عن رضى كامل وطيب خاطر ، أو بالقوة .

لم ييأس الأميركيون من إمكانية إقناع السوفييت (بمنطقهم الردعي) ، ولكن يجب أن نلاحظ ، بهذه المناسبة ، أنهم لم يتوصلوا إلى هذا الهدف منذ أكثر من عشرين عاماً .

كانت فكرة الردع أحد أحجار الزاوية في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية وحلفائها خلال كل الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية . وحسب التصريحات الرسمية ، فإن القوات المسلحة الأميركية لن تستخدم لبدء الحرب ، ولكن قوتها سترد ع أي عدو محتمل من اتخاذ خطوات عدوانية . وكان الهدف ، منذ البداية ، تأمين أوروبا الغربية من اجتياح سوفييتي ، وبشكل أكثر شمولية ، حماية (العالم الحر) من الاحتواء الشيوعي .

ولا بدّ من الإشارة إلى أنه في ذلك الوقت كان الاتحاد السوفييتي لا يملك مثل هذه الأسلحة النووية الفتاكة ، ولذلك فإن سياسة الولايات المتحدة استهدفت العمل من موقع القوة المدمرة هذه . وقد تجلى تأثير هذه السياسة على استراتيجيتها ، وعلى أعمال القيادة

العسكرية الرسمية ، التي حددت استراتيجيتها العسكرية بأنها : « علم وفن استخدام القوات المسلحة للدول من أجل تأمين أهداف السياسة الوطنية ، عن طريق استخدام القوة ، أو التهديد باستخدامها »[٢] .

ويبدو ، من كل ما تقدم ، أن الأميركيين كانوا يأملون في الوصول إلى أهدافهم السياسية الكبرى ـــ وهي الحصول على السيطرة الدولية ـــ عن طريق التهديد بإشعال الحروب العدوانية .

٢ ـــ استراتيجية الضربات الجوابية الكثيفة

قبل نهاية العام ١٩٦٠ ، كان الاتحاد السوفييتي قد تمكن من الحصول على السلاح النووي ، كما استطاع في العام ١٩٥٧ أن يطلق قمره الصناعي الأول في الفضاء الخارجي ، عند ذلك تبنت الولايات المتحدة استراتيجية أخرى ، غير الاستراتيجية السابقة التي كانت مستمدة من موقع القوة . وهذه الاستراتيجية عرفت باسم (الضربات الجوابية الكبيرة أو الكثيفة) . وقد انبثقت هذه الاستراتيجية من أفكارها الهادفة إلى التخويف ، فقد أعلنت عن قدرتها لخوض حرب شاملة نووية ضد الاتحاد السوفييتي فقط .

وقد وضعت استراتيجية (الضربات الجوابية الكثيفة) ، أو كما تسمى أيضاً بـ (استراتيجية العقاب الكثيف) من قبل حكومة الولايات المتحدة في العام ١٩٥٣ ، مع وصول حكومة الرئيس ايزنهاور إلى الحكم ، وأعلنت بصورة رسمية في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٤ من قبل وزير الخارجية دالاس ، الذي صرّح في نيويورك بقوله : « إن القرار الرئيسي يجب أن يقوم ، بالدرجة الأولى ، على قدرتنا العالية في توجيه ضربة جوابية قوية وفورية ، بتلك الوسائط ، وفي تلك النقاط التي نختارها نحن » .

وتخفي تعابير (الضربة الجوابية الكثيفة ، أو العقاب الكثيف) الجوهر العدواني المقنع للاستراتيجية الأميركية . وإن الإدارة الأميركية المتسترة وراء هذه التعابير تعد في الواقع لعدوان نووي مفاجىء ضد الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى .

---

(٢)   انظر دليل ضباط الأركان في القوات المسلحة الأميركية لعام ١٩٥٩ صفحة ١٧٥ .

وقد صرحت بذلك بشكل مباشر أو غير مباشر الشخصيات العسكرية والسياسية الأميركية .

وقد جاء في بعض أقوال الرئيس السابق للجنة رؤساء الأركان الأميركية ، الجنرال ماكسويل تايلور في العام ١٩٦٠ :

... «إنه ، وحسب رأي القيادة الجوية الأميركية ، فإن الهجوم العنيف ، في الحرب الاستراتيجية الجوية ، يعتبر أفضل أنواع الدفاع» ... «إذا أخذنا بعين الاعتبار ، إمكانية الاستخدام الفاشل للقوى» المقصود بها القوات الأميركية .... «والأعمال الجوابية للعدو» أي الأعمال الجوابية للاتحاد السوفييتي .

من هذه الكلمات يتضح لنا من سيكون البادىء بالعدوان .

كذلك ، فإن قائد القوى الجوية الاستراتيجية الأميركية ، الجنزال باور ، شرح هذه الاستراتيجية بصورة أكثر وضوحاً ، بقوله : «يجب ألّا نكون مطلقاً في حالة لا نستطيع فيها أن نكون البادئين بالحرب . يجب أن نملك القدرة لتوجيه الضربة الأولى ...» .

وتقوم استراتيجية (الضربات الجوابية الكثيفة) على أساس الافتراض بأن الولايات المتحدة تملك تفوقاً ساحقاً على الاتحاد السوفييتي في الأسلحة النووية ، وعلى الأخص في القوى الجوية الاستراتيجية . لذلك فإن بلوغ الأهداف السياسية والعسكرية الموضوعية للولايات المتحدة يمكن أن يتم من وجهة نظرها فقط ، عن طريق التهديد بإشعال حرب نووية شاملة ، لم تقرر الدول الاشتراكية خوضها بسبب تخلفها في الأسلحة النووية الهجومية .

واستناداً إلى هذه الاستراتيجية ، وجهت حكومة الولايات المتحدة الأميركية اهتمامها الدائم لتطوير الأسلحة النووية ذات المستوى العملياتي والاستراتيجي ، على حساب نقص القوات المسلحة التقليدية ، وخاصة القوات البرية ، الأمر الذي أدى إلى خلاف حاد بين قيادة القوات البرية من جهة ، وقيادة القوات الجوية والبحرية من جهة أخرى .

وهذا الاتجاه الجديد في تطوير القوات المسلحة الأميركية ، لم يؤدِ فقط إلى انزعاج

قادة القوات البرية فقط، وإنما إلى انزعاج قادة التجمعات الصناعية العسكرية التقليدية، التي تؤمِّن تزويد القوات المسلحة البرية بالأسلحة والتجهيزات والأعتدة الحربية. والذين اعتبروا أن نجاح أنصار الاستراتيجية الجديدة (الضربات الجوابية الكثيفة) كان نصراً ليس فقط لممثلي القوات الجوية والبحرية الأميركية، وإنما كان نصراً للتجمعات الصناعية الاحتكارية الكبرى، التي تزدهر مصالحها في إنتاج الأسلحة للطيران والأسطول.

لم تتبنَّ (استراتيجية الضربات الجوابية الكثيفة) الولايات المتحدة فحسب، وإنما تبنتها أيضاً دول حلف الأطلسي. ففي كانون الأول من العام ١٩٥٢، بدأت هذه الدول بتخطيط العمليات الحربية باستخدام الأسلحة النووية. وبعد ذلك تبنت هذه الدول، رسمياً، الاستراتيجية المذكورة، والتي يجب على دول حلف شمالي الأطلسي بموجبها استخدام الأسلحة النووية في أي حالة، بغض النظر عمّا إذا استخدمها العدو أم لا. وقد اعتبرت هذه الدول أن دول حلف الأطلسي لا يمكنها تبنِّي عقيدة الحرب المحدودة مع الاتحاد السوفييتي في أوروبا، وأن إمكانية خوض مثل هذه الحروب قائمة في مناطق أخرى غير متطورة من الكرة الأرضية، وخارج الحدود الأوروبية.

وهكذا، وحسب أفكار مخططي الاستراتيجية الأميركية، وحلفائهم في حلف الأطلسي اعتبر التهديد باستخدام الأسلحة النووية وكأنه عامل رادع كافٍ، أما استخدامه في أية أزمة فيجب أن يزيل ويفني القدرة الهجومية للقوات المسلحة السوفييتية. غير أن هذه الآمال كانت خاطئة دون شك.

فقد نجح الاتحاد السوفييتي نجاحاً كبيراً في مضمار بناء الصواريخ عابرة القارات، وفي مجال غزو الفضاء الخارجي، وباءت استراتيجية (الضربات الجوابية الكثيفة)، والتي كانت في أساسها غير سليمة، بالفشل الذريع. وسرعان ما نبذها دعاتها أنفسهم. ففي تشرين الأول من العام ١٩٥٧ صرح وزير خارجية الولايات المتحدة جون نوستر بأنه «يجب على الولايات المتحدة وحلفائها اتخاذ التدابير الضرورية، في حالة نشوب نزاعات محدودة محلية، لكي لا تثير أعمالها حرباً نووية شاملة».

ووفقاً لهذه التوجهات، بدأت الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى، خلال الفترة من ١٩٥٧ ــ ١٩٦٠، بدراسة أسباب سقوط استراتيجية (الضربة الجوابية

الكثيفة) وفشلها، والبحث عن استراتيجية بديلة، تتجاوب مع وجهة نظرهم، ومع الوضعية الراهنة الجديدة، التي تبدل فيها تناسب القوى بين الشرق والغرب. وقد اشترك في هذا البحث مختلف المؤسسات والأجهزة العسكرية والمدنية، كمؤسسة ريند[٣]، ومركز الدراسات السياسية الخارجية لجامعة جونس هوبكنز في واشنطن، ولجنة غيتر وروكفلر، وجامعات هارفرد وبرينستون، وشيكاغو، وبنسلفانيا، وغيرها من الجامعات الأخرى. وقد اشترك في هذا الموضوع أيضاً بعض الشخصيات العسكرية الأوروبية والأميركية. وبنتيجة ذلك، صدرت في الولايات المتحدة وانكلترا وغيرها من الدول، أعداد كبيرة من التقارير والكتب والمقالات التي تبحث في مواضيع السياسة الخارجية، والحرب، والاستراتيجية.

ففي كانون الأول من العام ١٩٥٩، نشرت مجلة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي تقريراً خاصاً حول «تطور الأعتدة الحربية وتأثير ذلك على الاستراتيجية وعلى السياسة الخارجية للولايات المتحدة»، وُضِع من قبل مركز واشنطن لجامعة جونس هوبكنز، والذي اعتبر وثيقة رسمية للكونغرس. وبالإضافة إلى ذلك صدر في الولايات المتحدة كتاب أوسغود (الحرب المحدودة)، وكتاب برنارد برودي (الاستراتيجية في عصر الأسلحة الصاروخية)، وكتاب الجنرال ماكسويل تايلور (الاستراتيجية غير المضمونة)، وكتاب هنري كيسنجر (ضرورة الاختيار)، وكتاب جون هينش (الاقتصاد الحربي في العصر النووي)، وكتاب (استراتيجية للولايات المتحدة الأميركية للمستقبل) لعدد من المؤلفين.

أما في انكلترا، فقد ظهر كتاب مارشال الجو كينغستون ماكلوري (الدفاع والسياسة والاستراتيجية)، وغير ذلك من الكتب.

ظهر من كل هذه الكتب والتقارير أن مؤلفيها متفقون في تقديرهم السلبي لاستراتيجية العقاب الكثيف (استراتيجية الضربة الجوابية الكثيفة، ومتفقون أيضاً على

---

(٣) مؤسسة ريند: هي مؤسسة أنشأتها قيادة القوات الجوية الأميركية عام ١٩٤٨، وتضم ٨٠٠ عالم كبير. وقد ألقي على عاتقها مهمة تحديد أنواع الأسلحة التي تتجاوب مع متطلبات الاستراتيجية الحديثة.

اقتراح أساليب جديدة لإعداد حرب عدوانية ضدد دول المعسكر الاشتراكي، في شروط المواقف المتبدلة، وكذلك القيام بتنفيذ أعمال عدوانية في مناطق مختلفة من العالم. وقد تم تنفيذ جزء كبير من الأبحاث المذكورة بتكليف من الأجهزة العسكرية والسياسية للولايات المتحدة. لذلك كان لها أثرها الكبير في صياغة وجهات النظر الرسمية للدوائر الحكومية الأميركية.

كان أهم هذه الوثائق، من وجهة نظر شرح الاستراتيجية العسكرية الأميركية، هو تقرير لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ حول الشؤون الخارجية، وكذلك كتاب الجنرال ماكسويل تايلور (الاستراتيجية غير المضمونة)، وكتاب هنري كيسنجر (ضرورة الاختيار).

لقد كان السبب الرئيسي في سقوط استراتيجية (الضربة الجوابية الكثيفة)، هو إعادة تقدير قوة الولايات المتحدة وإمكاناتها بشكل أكثر واقعية، وسوء التقدير الواضح للإمكانات العلمية والعسكرية والتقنية للاتحاد السوفييتي. فبنتيجة التفوق، الذي حققه الاتحاد السوفييتي على الولايات المتحدة الأميركية في مضمار الأسلحة الصاروخية العابرة للقارات، نشأ تهديد حقيقي، ولأول مرة، للأراضي الأميركية نفسها. فقد وجدت الهيئات السياسية والعسكرية للولايات المتحدة نفسها أمام ضرورة إعادة تقدير وضعها الاستراتيجي، وتقييم إمكاناتها الحقيقية.

وقد ورد، في تقرير لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي «إن انتهاء الاحتكار الأميركي للسلاح النووي، ونمو الإمكانات الاستراتيجية للاتحاد السوفييتي، زادا من الصعوبات المتعلقة بالمحافظة على المواقع العسكرية الضرورية واللازمة للوصول إلى الأهداف الأميركية المخططة». وقد جرى في هذا التقرير تقدير سليم لإمكانات الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بالنسبة لمساحات الأراضي، وأعداد السكان، إضافة لخسارة المزايا الهامة للولايات المتحدة فيما يتعلق بأنهار القارة البعيدة التي لا يطالها خطر، وكذلك حجم الطاقة الصناعية لكلا البلدين، وخرج بنتيجة مفادها أن الوضع الحربي للولايات المتحدة الأميركية قد ساء. فالبلاد لم تعد تتمتع بكامل الأمان، الذي كانت تتمتع به في الماضي، وأصبحت الآن مكشوفة ومعرضة للهجوم النووي المباشر والمدمر.

واستطاع هنري كيسنجر أن يقدر بشكل صحيح وضع الولايات المتحدة، وأن يقترح التخلص، بشكل حاسم، من وهم تعرض الأرض الأميركية للقصف النووي المباشر والتدمير. كما نادى، في كتابه (السلاح النووي والسياسة الخارجية)، والذي صدر في الولايات المتحدة، عام ١٩٥٧، باستراتيجية تقوم على التهديد بالاستخدام غير المحدود للأسلحة النووية، أي إعلان حرب نووية شاملة. غير أن الأحداث، التي حصلت في السنوات الأربع الأخيرة، أجبرته على الوصول إلى نتائج معاكسة تماماً، وضرورة الاختيار بين المذلة أو الحرب النووية الشاملة.

كذلك اضطر الرئيس كنيدي أن يعترف، في تشرين الثاني ١٩٦١، في بلدته سييتل، بعد أن أدرك القوة الحربية المتزايدة للاتحاد السوفييتي، وفقدان التفوق الأميركي بالوسائط النووية للصراع المسلح، «بأن الولايات المتحدة لا تعتبر الأقوى، ولا الرائدة في العالم في الوقت الحاضر».

وهكذا، وبسبب الظروف الحديثة التي نشأت في موضوع التوازن في القوى، من حيث قوة ووسائط التدمير الاستراتيجية بين الشرق والغرب، وحصول تفوق كبير لدى الاتحاد السوفييتي بالقوات المسلحة التقلبدية، إضافة لامتلاك صواريخ عابرة للقارات قادرة على حمل المتفجرات النووية إلى كل مكان في الكرة الأرضية، بما فيها أرض الولايات المتحدة الأميركية، فقد اضطرت الإدارة الأميركية إلى أن تعيد النظر في نظرتها السابقة عن الحرب النووية الشاملة.

ويقول المنظرون العسكريون الغربيون إن الطريق النووي أصبح مسدوداً، بنتيجة الازدياد العالمي لمخزون الأسلحة النووية الصاروخية من جهة، والخطر المحتمل من استخدامها من جهة ثانية. وقد أدى هذا الموقف، كما تقدر الدوائر العسكرية الأميركية وحلف الأطلسي، إلى أن يجد كل طرف من الطرفين الرئيسيين في العالم نفسه في مواقع (الردع المتبادل).

وقد أدى هذا الأمر إلى اعتبار (استراتيجية الضربة الجوابية الكثيفة) استراتيجية غير مرنة، ولا يمكن أن تؤمن التوصل إلى الأهداف السياسية للأمبرياليين الأميركيين. فإذا كانت الولايات المتحدة، سابقاً، تستطيع، دون عقاب، أن تهدد بالاستخدام اللامحدود

للأسلحة النووية في أية حالة ، حتى في حالة إمكانية وقوع اشتباك محلي عسكري ، فقد أصبح الآن من الخطر عليها ، مع تبدل تناسب القوى ، ممارسة (التهويل بالخطر النووي) ، والمخاطرة بأمن بلادها وسلامتها .

٣ ـــ استراتيجية رد الفعل المرن

أثرت الشروط الحديثة ، التي كان سببها التوازن النووي والتفوق السوفييتي في القوات المسلحة التقليدية ، بشكل خاص على سياسة الدول الأوروبية ، وخاصة منها التابعة للولايات المتحدة . ففي نهاية عام ١٩٥٩ ، على وجه الخصوص ، لوحظ في قرارات (حلف أوروبا الغربية) ، أن الدول الأوروبية لا تستطيع الاعتماد فقط على القوة النووية الاستراتيجية للولايات المتحدة الأميركية ، كما كان ذلك سابقاً ، إذ لم تتوفر لديها القناعة الكافية بأن الولايات المتحدة سوف تهب ، بصورة آلية وتلقائية ، للحرب عند ظهور أي تأزم عسكري في أوروبا ، دون أن تخاطر بوضع نفسها (الولايات المتحدة) تحت تهديد الضربات النووية السوفييتية . وعلى هذا فقد أثارت بعض الدول الغربية موضوع إنشاء قوات نووية وطنية خاصة بها .

وقد أصبحت الولايات المتحدة الأميركية بقيادتها السياسية والعسكرية تعترف ، انطلاقاً من تقييم الظروف الجديدة ، بأن الاستراتيجية الأكثر ملاءمة وفائدة لهذه الظروف هي (استراتيجية رد الفعل المرن) . فهذه الاستراتيجية ، بحسب رأيها ، تؤمن عند الضرورة ، إمكانية الدخول في حرب نووية شاملة ، أو في حروب محدودة ، مع أو دون استخدام الأسلحة النووية التكتيكية .

لقد وضعت (استراتيجية رد الفعل المرن) ، بشكل كامل ، من قبل الجنرال ماكسويل تايلور . فقد كشف تايلور في كتابه (الاستراتيجية غير المضمونة) جوهر هذه الاستراتيجية ، وطريقة تنفيذها . فقد قال في كتابه «إن العقيدة الاستراتيجية التي أستطيع اقتراحها ، عوضاً عن (استراتيجية الضربة الجوابية الكثيفة) ، هي (استراتيجية رد الفعل المرن)» . وإن هذه التسمية الجديدة تعني أن علينا أن نكون قادرين على الرد على أي نداء محتمل ، والعمل بنجاح في أية حالة . وبتعبير آخر ، فإن الاستراتيجية ، التي

افترضها تايلور، تصلح برأيه لحالات الحياة كافةً، وتجد المخرج والحل لكل وضع، إذن فهي رد فعل مرن.

وقد كتب الجنرال ماكسويل تايلور، في صحيفة الشؤون الخارجية، في كانون الثاني ١٩٦١، في مقالة (الأمن لا ينتظر) مشيراً للمبادىء الأساسية لهذه الاستراتيجية، والمنهاج العسكري العام لحكومة الولايات المتحدة، والذي تضمن:

آ ـ إنشاء قوات صاروخية استراتيجية غير مكشوفة، قادرة على توجيه ضربات ماحقة إلى العدو، حتى بعد توجيه هذا العدو ضربات نووية مفاجئة.

ب ـ إنشاء قوات ذات حركية عالية، مجهزة تجهيزاً جيداً، وذات اكتفاء ذاتي، وقادرة على العمل في الحروب المحدودة، أي النزاعات المسلحة ذات الأبعاد الصغيرة، والتي هي أصغر من الحروب النووية الشاملة بين معسكرين نوويين.

جـ ـ إنشاء أحلاف عسكرية قوية وفعّالة.

د ـ الاستخدام الملائم للموارد المخصصة لتنفيذ المناهج العسكرية.

وقبل وصول الرئيس كنيدي إلى الحكم، كان مفهوم الاستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة الأميركية، قد أخذ أبعاده، وأصبح الرئيس الجديد من أشد أنصاره.

ففي رسائل الرئيس كنيدي إلى الكونغرس بتاريخ ٢٨ اذار و ٢٥ أيار ١٩٦١، وكذلك في خطابه التلفزيوني في ٢٥ حزيران ١٩٦١، تم شرح المفهوم الاستراتيجي العسكري الجديد، والمناهج العسكرية للولايات المتحدة، وتوضيحهما بشكل كامل.

وقد وضع المفهوم الاستراتيجي الجديد، في رسالة رئيس الولايات المتحدة الموجهة للكونغرس، بتاريخ ٢٨ آذار ١٩٦١، حيث قال فيها: «يجب أن تكون الاستراتيجية الجديدة مرنة، وحاسمة بآن واحد. وأن تلحظ الإعداد لخوض أي حرب، عالمية كانت أو محدودة، نووية أو تقليدية، واسعة أو صغيرة». وتكمن، في أساس هذا المفهوم، فكرة (الضربة الجوابية)، بكل أبعادها، مع الفارق الذي يتجلى بأن الاستراتيجية السابقة، أو استراتيجية الضربة الجوابية الكثيفة، تهدد، بغض النظر عن مستوى النزاع وحجمه ـ بخطر استخدام الوسائط النووية على نطاق واسع، أي قيام حرب نووية عالمية شاملة. أما الآن فإن الضربة الجوابية (يجب أن تتفق وطابع الاصطدام المحتمل).

كذلك فقد ذكر الرئيس كنيدي ، في رسالته ، بأن على الولايات المتحدة أن ترفع وتزيد من قدرة قواتها المسلحة للرد السريع والفعّال على أية أعمال معادية . وفي ظروف حرب عالمية ، فإن هذا الوضع يعني أن هذه القدرة يجب أن تحافظ على الجزء الذي يتبقى من القوات المسلحة بعد (الهجوم المعادي المفاجىء) . ومن المهم ، كما أشارت هذه الرسالة ، ضرورة تأمين إمكانية البقاء ، بعد الضربة الأولية المعادية ، من أجل توجيه **ضربة جوابية** للعدو ، قادرة على أن تسبب له خسائر كبيرة . وقد أكد الرئيس كنيدي على أن القدرة على ردع العدو عن الهجوم لا تتوقف فقط على كمية القذائف الموجهة ، وقاذفات القنابل المتوفرة فحسب ، وإنما على درجة استعدادها ، وإمكانية المحافظة عليها في حالة الهجوم ، وعلى مرونتها وضمانتها اللازمتين لتوجيهها من أجل بلوغ الأهداف الاستراتيجية المطلوبة .

وقد ذكرت هذه الرسالة ، بالنسبة لإمكانية خوض حروب محدودة ، « إن على الولايات المتحدة وحلفائها امتلاك القدرة لخوض مثل هذه الحروب مع استخدام الأسلحة التقليدية ، غير أنه إذا كانت القوات المجهزة بأسلحة تقليدية لم تستطع تنفيذ المهام الموضوعة ، فمن المحتمل استخدام الأسلحة النووية ، مع عدم استبعاد تحول الحرب المحدودة إلى حرب عالمية شاملة . وهنا يجب التأكيد على ضرورة اتخاذ جميع التدابير لحصر النزاع محلياً ، وعدم السماح بنشوب حرب نووية شاملة بسببه » .

وهكذا ، فإن المنهاج العسكري للولايات المتحدة الأميركية ، والذي ذكره الرئيس كنيدي في رسالته وخطبه ، يلحظ في مظهره العام بناء وإعداد قوات مسلحة لخوض حرب عالمية نووية شاملة ، أو لخوض حروب محدودة محلية .

وعلى هذه الصورة ، فإن الاستراتيجية ، التي أخذت بها الولايات المتحدة وحلف الأطلسي ، قبل عام ١٩٦١ (استراتيجية الضربة الجوابية الكثيفة) ، كانت تأخذ بعين الاعتبار إعداد حرب نووية وخوضها فقط ضد الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى ، إلا أن حصول التوازن الاستراتيجي في القوى بين الشرق والغرب ، وتهديد الاتحاد السوفييتي للأرض الأميركية بالذات جعل هذه الاستراتيجية تنتهي وتستبدل بـ (**استراتيجية رد الفعل المرن**) أو ما يطلق عليه أحياناً (**استراتيجية الرد المرن**) . وهذه الأخيرة تأخذ بعين الاعتبار إعداد حرب نووية شاملة وخوضها ضد الاتحاد السوفييتي

ودول المعسكر الاشتراكي، وكذلك خوض حروب محدودة محلية، مع أو دون استخدام الأسلحة النووية.

إن النظرة التحليلية إلى الاستراتيجية السابقة (استراتيجية الضربة الجوابية الكثيفة) تظهر المنظر الغريب التالي: فمن جهة تعتقد القيادة السياسية العسكرية الأميركية أن الحرب النووية الشاملة أصبحت تعتبر معضلة، بل ويمكن وصفها بأنها مجهولة المصير، إذ إنها تؤدي إلى التدمير المتبادل الشامل. لهذا فقد سقطت هذه الاستراتيجية. ومن جهة أخرى، فإن الاستراتيجية اللاحقة، والمتبناة حديثاً (استراتيجية الرد المرن)، والتي تعتبر أكثر مرونة، تراعي أيضاً، وبالدرجة الأولى، توفير القدرة والجاهزية لخوض حرب نووية شاملة كسابقتها، وهنا يظهر التناقض من جديد.

إن إعلان الولايات المتحدة الأميركية عن أن قواتها يجب أن تكون جاهزة لخوض حرب عالمية نووية شاملة، يفصح في الحقيقة عن خوفها من القوة الأخرى المقابلة. ذلك أن تراجع الولايات المتحدة، أمام الرأي العام لحلفائها، وخاصة الأوروبيين الغربيين، عن الإعلان عن الاستعداد لخوض الحرب النووية الشاملة ضد الاتحاد السوفييتي سوف يجعل الدول الأوروبية الغربية تسارع إلى إيجاد حل للتعايش السلمي مع الاتحاد السوفييتي. وهذا يعني خلق رأي منفصل لأوروبا الغربية عن الولايات المتحدة، وبالتالي التخلي عن مصالحها في أوروبا لصالح السوفييت.

ويخشى الأوروبيون الغربيون بالتالي من عدم تنفيذ الولايات المتحدة لتعهداتها بشأن حماية أوروبا من الاجتياح السوفييتي في حال حصوله. ذلك لأن الأوروبيين يشككون في قيام الولايات المتحدة بتعريض أراضيها ومدنها ومصانعها وثروتها للتدمير، من أجل حفنة من الدول الأوروبية. وقد شغل هذا الموضوع بالذات، وما يزال، أفكار الأوروبيين الغربيين من أجل تأمين الدفاع الذاتي عن أنفسهم. فانسحبت فرنسا من حلف الأطلسي، وشككت دول أخرى بجدية هذا الحلف، وصدرت مئات، بل آلاف الكتب، عن المفكرين العسكريين والسياسيين الأوروبيين، تبذر الشك في صحة الاستراتيجيات الأميركية التي تعلن من حين إلى آخر.

٤ ــــ استراتيجية ضد القوة

إن الخوف من تدمير الأمبريالية الأميركية، والأرض الأميركية، جعل المفكرين الاستراتيجيين الأميركيين يتابعون البحث عن وسيلة أو أسلوب يمنحهم الرهبة في أعين السوفييت، والثقة في أعين الدول الأوروبية الغربية.

ولقد أدخلت التعديلات الجديدة على الاستراتيجية (استراتيجية الرد المرن) والملاءمة والواقعية مع الحرب النووية الشاملة. ففي ١٦ حزيران ١٩٦٢، حدد وزير الدفاع الأميركي، ماكنمارا، جوهراً لاستراتيجية جديدة، أطلق عليها تسمية (**استراتيجية ضد القوة، أو استراتيجية استثناء المدن**).

ماذا يعني الأميركيون من تعبير (استراتيجية ضد القوة). كما ذكرنا أعلاه ؟ تخشى الولايات المتحدة، في حال قيامها باعتداء نووي ضد الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي، من الضربات النووية الجوابية التي سيوجهها الاتحاد السوفييتي ضد أرض الولايات المتحدة، وخاصة ضد المراكز الصناعية، والصناعية العسكرية، وكذلك على المراكز السياسية الأميركية. وهذه الضربات سوف تكون ماحقة، وتنزل أفدح الأضرار بالثروة الاقتصادية، وبمجمعات الصناعات المدنية والعسكرية. لذا فإن عباقرة التخطيط الاستراتيجي الأميركي يريدون أن تبقى الثروة الاقتصادية والصناعة المدنية والعسكرية تتعامل مع الأسواق العالمية بسلام، وأن توجه الضربات النووية السوفييتية، كما كان الحال في الحروب السابقة، ضد القوى العسكرية فقط في ميادين القتال، وليس ضد السكان في المدن.

من هنا جاءت التسمية (**استراتيجية ضد القوة، أو استراتيجية استثناء المدن**).

لقد توصلت القيادة العسكرية الأميركية إلى هذا الاستنتاج بنتيجة الدراسة الطويلة لمشكلة خوض حرب نووية شاملة. وكان من الضروري تحديد الأهداف التي بتدميرها يتم الوصول إلى التدمير السريع والشامل للعدو.

وقد ظهرت، استناداً لذلك، وجهات نظر مختلفة. فالبعض يقترح تركيز الجهود

الرئيسية لتوجيه الضربات إلى أهم الأهداف العسكرية، وبالدرجة الأولى إلى أمكنة وجود الوسائط الاستراتيجية. أما البعض الآخر فيقترح توجيه هذه الضربات إلى المدن الكبيرة الآهلة بالسكان. وحسب تقرير القيادة العسكرية الأميركية فإن تقرير هذه المسألة يتمتع بأهمية جوهرية كبيرة.

يعتبر توجيه الضربات النووية إلى الوسائط الاستراتيجية المعادية مهمة أكثر صعوبة بالنسبة لما هو الحال بالنسبة لتوجيه هذه الضربات إلى المدن الكبيرة. وتتجلى هذه الصعوبة أساساً بأن تعداد هذه الوسائط الاستراتيجية، المراد تدميرها، كبير جداً. كذلك فإن أكثر هذه الوسائط، وخاصة الصاروخية منها، والتي تعتبر في الظروف الحديثة أسلحة حاسمة ومهمة للغاية، تتمركز في قواعد وحفر تحت الأرض يصعب كشفها وإصابتها، كما يوجد منها أسلحة تحت الماء، وتطلق صواريخها من تحت الماء من الغواصات، وهي متحركة، وكشفها يحتاج لجهود استطلاعية كبيرة. علاوة على ذلك فإن الميل إلى زيادة إخفائها (أي الوسائط الصاروخية النووية) يزداد باضطراد، وتبتكر في سبيل هذه المهمة أساليب غاية في التعقيد.

أما قصف الأهداف السكانية الكبيرة فهو عمل سهل نسبياً، فلا يمكن إخفاء مدينة، أو نقلها من مكانها، ولذلك يمكن توجيه الصواريخ إلى المدن بسهولة نسبية كبيرة.

إن تقرير نوع الأهداف، الذي يجب توجيه الضربات النووية إليها، الوسائط الاستراتيجية أو المدن، يتوقف، إلى حد كبير، على نوع الأسلحة المتوفرة وكميتها. فإذا كانت الأسلحة غير دقيقة بالقدر اللازم، بحيث لا يمكن استخدامها لتدمير الأهداف ذات الحجم الصغير، كقواعد إطلاق الصواريخ أو المطارات، أو عددها غير كاف، فمن الممكن استخدامها فقط ضد الأهداف الضخمة كالمدن.

وحسب ما أعلنت وسائط النشر في الولايات المتحدة، فإن القيادة الأميركية أجرت خلال عدة أعوام بعض التمارين التجريبية استخدمت فيها الحاسبات الألكترونية، التي قامت، خلالها، بحساب مختلف احتمالات توجيه الضربات بالوسائط الصاروخية النووية والوسائط الأخرى المنقولة جواً، ضد الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي

الأخرى . وقد مكنت هذه الحسابات القيادة الأميركية من الوصول إلى الاستنتاج التالي : «وهو أن توجيه الضربات إلى المدن لا يعد التهديد بالضربات الجوابية القوية المعادية ، لأن الوسائط الاستراتيجية المعادية ، سوف تبقى ، في هذه الحالة ، سليمة ، أما عند توجيه الضربات إلى الوسائط الاستراتيجية ، فإن إمكانية العدو في تدمير المدن الأميركية سوف تقل إلى درجة كبيرة» .

استناداً لهذه الحسابات ، توصلت القيادة الأميركية ، بشكل خاص ، إلى استنتاج نهائي حول ضرورة تدمير قوات العدو المسلحة ، قبل كل شيء ، وبالدرجة الأولى وسائطه الاستراتيجية ، كما صرح بذلك وزير الدفاع الأميركي . وقد أشارت الصحافة الأميركية إلى أن (استراتيجية ضد القوة) نالت استحسان رؤساء الأركان والبيت الأبيض ، واعتبرت كاقتراح موجه إلى الاتحاد السوفييتي عن السلوك الواجب اتباعه في الحرب النووية .

ويقول الاستراتيجيون السوفييت رداً على هذه الاستراتيجية ، إن الفكرة السياسية لاستراتيجية (ضد القوة واستثناء المدن) تتلخص في تجنيب النظام الرأسمالي ، في حال نشوب حرب نووية ، مصيره المحتوم . وهذه الأمنية ، التي يتمناها مخططو القصف النووي الأميركي ، ما هي إلّا وهم واضح . فلو أشعل دعاة الحروب مثل هذه الحرب النووية ، فليس هناك أية استراتيجية ــ مهما كانت تسميتها ــ تستطيع أن تنقذ الأمبريالية من الموت المحقق .

ويتساءل الاستراتيجيون السوفييت عن كيفية إمكان إقناع الجميع بضرورة التمسك (بالسلوك الجديد) ، والقائل بتوجيه الضربات النووية إلى الأهداف العسكرية فقط ، دون المدن ، وخاصة عندما يكون أكثر هذه الأهداف واقعاً ضمن المدن الكبيرة أو الصغيرة ؟ . وإذا ما اتبعت هذه القواعد ، أو هذا السلوك ، فهذا يعني أن على الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين (كما أشارت الصحافة الأميركية) القيام بنقل كل الأهداف العسكرية والحربية من المدن ، الأمر الذي اعتبر غير عملي . ومع هذا فقد نوهت أجهزة الإعلام الأميركية إلى أن نقل الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها الأهداف الحربية من المدن سيجعل الاتحاد السوفييتي يستنتج أن الولايات المتحدة تستعد للعدوان .

وبالإضافة إلى ذلك ، وحسب تقدير أجهزة الإعلام الأميركية ، فإن (استراتيجية

ضد القوة) تفترض ضرورة بناء شبكة واسعة من الملاجىء لوقاية السكان، وهذه الملاجىء تعتبر بالنسبة للأميركيين ذات دور هام في الحرب المقبلة، وهي كذلك من أكبر معضلاتها.

ويعتقد أن واقعية (استراتيجية ضد القوة) وفعاليتها تتعلق بعدة عوامل، أهمها:

ــ وجود كمية كافية من وسائط الاستطلاع ذات المعلومات الأكيدة.

ــ توفر كمية كبيرة من الأسلحة الصاروخية النووية ذات الدقة العالية، والضمان، وفعالية الاستخدام، ذلك أن عدد الأهداف الحربية أكبر بكثير من عدد المدن.

ــ وجود جهاز دقيق ومضمون للقيادة والإنذار والاتصال.

ــ التخطيط الدقيق للضربات الصاروخية النووية، ولعمليات القوات المسلحة للأحلاف العسكرية، بشكل عام، والمعتمدة اعتماداً كلياً على الاستخدام الواسع للحاسبات الألكترونية.

ــ المفاجأة في الاستخدام.

وقد حلت القيادة العسكرية الأميركية مهمة **الاستطلاع**، بصورة أساسية، عن طريق إطلاق أعداد كبيرة من الأقمار الصناعية الاستطلاعية الخاصة. وحسب تقدير هذه القيادة، فإن هذه الأجرام، الموجودة في الفضاء الخارجي، قادرة على تصوير أهداف ذات مقاييس تصل حتى ٢ متر أو أقل من ذلك أيضاً، وقد يصل ذلك حتى أهداف ذات أبعاد لا تتجاوز الـ ٦٠ سم، وذلك من ارتفاع حوالي ٥٠٠ كيلو متر ليلاً. وحسب معلومات وسائل الإعلام الأميركية، فإن نجاح وسائط الاستطلاع الأميركية، عام ١٩٦٢، في مضمار كشف قواعد الصواريخ الاستراتيجية السوفييتية، كانت كبيرة جداً. فقد كتب المستشار الصحفي للرئيس كنيدي (آنذاك) هنري كيسنجر، في صحيفة (الشؤون الخارجية)، في حزيران ١٩٦٢ قائلاً: «لكي تبقى استراتيجية ضد القوة ناجحة، في جميع الأوقات، فإنه من الضروري أن نعرف مسبقاً مكان الأهداف المعادية. وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة للصواريخ التي لا تستطيع أن تبحث عن أهدافها بنفسها... وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار مساحة الاتحاد السوفييتي، واحتمال خطأ معلوماتنا عن قواعد إطلاق الصواريخ النووية السوفييتية، والتي سوف تزداد أعدادها في المستقبل، ويتحسن انتشارها وإخفاؤها في منشآت محصنة وعميقة تحت الأرض،

وسوف يكون قسم كبير منها مركباً على قواعد متحركة على الأرض، أو تحت سطح الماء، الأمر الذي سيجعل كشفها صعباً وعسيراً».

أما بالنسبة **للأسلحة الصاروخية**، فإن الاعتماد الرئيسي سيصبح في السنوات القادمة على الصواريخ من الأجيال الحديثة، أمثال بيرشنغ ـ ٢ و م اكس، والصواريخ المعروفة ذات الوقود الجاف، كصاروخ مينتمان، العابر للقارات، والصاروخ بولاريس المتوسط المدى، كما يفترض أن تحتل الوسائط الفضائية أهمية خاصة في المستقبل القريب.

وتسعى القيادة الأميركية لحل مشكلة **القيادة والإنذار والارتباط**، عن طريق إطلاق عدد كبير من الأقمار الصناعية المناسبة، والتي يجب أن تؤمن الإنذار اللازم عن انطلاق الصواريخ المعادية العابرة للقارات، قبل ٣٠ دقيقة من وصولها إلى أهدافها في الأراضي الأميركية، كما تعمل على إنشاء جهاز اتصال وتوجيه على مستوى العالم كله، غير قابل للخلل، وذلك بوسائط الأقمار الصناعية.

ولتأمين قيادة القوات المسلحة الأميركية، وقوات حلف الأطلسي، فقد تم إنشاء مقرات قيادة جوية محلقة (على طائرات)، وبحرية (على السفن). ويعتقد بعض الخبراء العسكريين الأميركيين أن صعوبة جمع معلومات الاستطلاع عن الأهداف العسكرية، وخاصة عن الوسائط الصاروخية النووية لدول المعسكر الاشتراكي، والزيادة المستمرة للوسائط الصاروخية النووية الاستراتيجية لدى كلا الجانبين، قد عقّد تخطيط الهجوم الصاروخي وتنظيمه من قبل الولايات المتحدة الأميركية إلى درجة كبيرة. وقد أدت هذه العوامل بمجموعها إلى زعزعة الثقة بفعالية (استراتيجية ضد القوة)، إذ إنه لا يجوز، حسب رأي هؤلاء الخبراء، الاعتماد على الافتراض والتخمين بالتدمير الكامل للوسائط الاستراتيجية المعادية. ويعتقد أن عدم الثقة، في إمكانية تنفيذ هذه المهمات، يؤدي إلى خفض القيمة السياسية لاستراتيجية ضد القوة، حتى قبل انخفاض قيمتها العسكرية، إذ ستكون هناك صعوبة كبيرة أمام ممثلي قيادة القوات المسلحة في إقناع القادة السياسيين بالثقة المطلقة بالخطط الموضوعة على أساس معلومات الاستطلاع المشوشة والمتقطعة عن أهداف العدو. وعلى هذه الصورة، فإن واقعية استراتيجية ضد القوة وفعاليتها ستصبحان في شك كبير. ويعتقد أكثر المنظرين العسكريين الغربيين أنه خلال سنوات السبعينيات

والثمانينيات ازدادت القدرة التدميرية للوسائط الاستراتيجية النووية السوفييتية ، وأن الكمية التي ستبقى منها ، بعد قصف نووي أميركي شديد ، سوف تكون كافية للقضاء على معظم الأهداف العسكرية والمدنية في الولايات المتحدة الأميركية ، وفي دول حلف الناتو (الأطلسي)، وفي جميع المحيطات التي تعمل فيها قواعد متحركة للإطلاق النووي الصاروخي (غواصات سفن إطلاق صواريخ .. الخ) .

إن مثل هذا الاعتراف يعتبر طبيعياً من حيث أنه يكشف بصورة لا إرادية الجوهر العدواني لاستراتيجية ضد القوة ، هذه الاستراتيجية التي تنبع في الأساس من ضرورة الحرب الوقائية . لأن الاستراتيجية ، التي تفترض الوصول إلى النصر عن طريق تدمير القوات المسلحة المعادية ، لا يمكن أن تنبع من فكرة (**الضربة المضادة**) ، بل هي تنبع من فكرة **الأعمال الاستباقية** ، أو ما يسمى بالأعمال الوقائية .

وبرأي المفكرين الأميركيين فإن المفاجأة في استخدام الوسائط الصاروخية النووية ضد أهداف في الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي سوف تؤمن **كسب المبادأة ، والتدمير السريع للقوات المسلحة المعادية** ، وخاصة القوى والوسائط الصاروخية الاستراتيجية النووية ، كما أنها تربك قيادة القوات المعادية والدولة بالكامل ، وتدمر الاقتصاد والروح المعنوية للشعب . ويعتقدون بأن العدو سيصبح بنتيجة ضربة نووية قوية ومفاجئة مشلولاً من النواحي كافةً ، ويتقرر مصيره خلال الأيام الأولى للحرب . وقد أعطت لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي ، أهمية كبيرة للمفاجأة في الحروب الحديثة ، حيث دعت مباشرة ، بعد أن ألقت جانباً جميع الأحاديث عن السلام ، وإلى توجيه الضربة النووية المفاجئة الأولى إلى الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى . وقد ذكرت هذه اللجنة في تقريرها أن **عصر الصواريخ النووية** قد أوجد اختصاراً هائلاً في الزمن الضروري لإيصال الشحنات النووية إلى مسافات قارية ، وكذلك إلى اختصار الوقت اللازم لتلقي الإنذار بالهجوم . فإذا ربطنا كل ذلك مع حقيقة عدم وجود دفاع فعّال كافٍ مضاد للصواريخ النووية المحلقة في الفضاء[٤] ، فإن ذلك سوف يؤدي إلى وجود إغراء كبير ببدء توجيه الضربات في حرب نووية شاملة .

---

(٤) يجري هذا الكلام في أثناء وجود استراتيجية ضد القوة . أما الآن فإنه وجدت أسلحة صاروخية مضادة للصواريخ لدى كلا الطرفين ، ولكن أيضاً ليس بالعدد الكافي لمنع ضربة نووية قوية .

٥ ــــ استراتيجية الحرب الوقائية

استناداً للمناقشات التي دارت حول استراتيجية ضد القوة بدأ المفكرون العسكريون الأميركيون يفتشون عن الجوانب السلبية والإيجابية للحرب الوقائية، وسبق العدو بتوجيه الضربة الأولى (استراتيجية الضربة الاستباقية).

لقد ظهرت (نظرية الحرب الوقائية)، لأول مرة، في نهاية الأربعينيات، عندما امتلك الأميركيون احتكار القوى النووية. إلا أن ظهور مثل هذه الأسلحة لدى الاتحاد السوفييتي أضعف الدعاية والتطبيل لهذه النظرية. ولكن الأجهزة الرسمية للقيادة العسكرية الأميركية عادت ثانية إلى إثارة موضوع هذه الحرب، معتبرة إياها واحدة من حلين محتملين ممكنين.

ما الحرب الوقائية ؟

لقد قدم برنارد برودي في كتابه (الاستراتيجية في عصر الأسلحة الصاروخية)، التعريف التالي لها: «إنني استخدم هذا التعبير لوصف الهجوم المدبر من قبل إحدى الدول على الأخرى، أي الاعتداء الذي لا يأتي نتيجة عدوان ما، أو نتيجة أعمال مباشرة ومكشوفة من قبل دولة معادية. وإن الهدف المباشر والرئيسي لهذا الهجوم هو تدمير القوة العسكرية العامة لهذه الدولة، وخاصة قواتها المسلحة الاستراتيجية. ومن الطبيعي أنه إذا نفذت هذه المهمة بنجاح فإن الدولة الأولى يمكن أن تلحق بعدوتها الخسارة، أو تفرض عليها الشروط التي تريدها»[٥]

إن الحجج الإيجابية لصالح الحرب الوقائية، حسب رأي برودي. تقوم أساساً على أمرين اثنين:

ــــ الأول: إنه في الحرب الجوية الفضائية، التي تستخدم فيها الأسلحة النووية، فإن الطرف الذي يوجه الضربة الأولى (السابقة) سوف يحصل دون شك على التفوق والميزات التي سوف تكون حاسمة بكل تأكيد، وخاصة في حال وجود تخطيط جيد.

ــــ الثاني: إن الحرب الشاملة أمر لا مفر منه.

---

(٥) برنارد برودي (الاستراتيجية في عصر الأسلحة الصاروخية) أيار ١٩٦١ صفحة ٢٤٩.

ويتابع برودي حديثه ليقول «إنه دون مبالغة يمكن القول إن خطة هجومنا الاستراتيجي سيكون لها فرصة كبيرة للنجاح، إذا نحن وجهنا الضربة الأولى. وإن هذه الفرصة ستقل إذا بدأ العدو في توجيه تلك الضربة. فإذا فكرنا فقط في زيادة فرص نجاحنا إلى الحد الأقصى فيمكن اعتبار ذلك أساساً كافياً للحرب الوقائية».

وهكذا نرى أن المفكرين العسكريين الأميركيين يجاهرون برأيهم، بكل تبجح، لصالح الحرب الوقائية وشن الهجوم المفاجىء. ولما كان برودي موظفاً في هيئة البحث العلمي (رند)، فإن رأيه لا يعكس وجهة نظره الخاصة فحسب، وإنما وجهة نظر قيادة القوات الأميركية الجوية، والأجهزة الحربية الأميركية الأخرى التي تعمل هيئة (رند) لصالحها.

يستنتج من ذلك أن خطر إشعال حرب وقائية، من قبل الأميركيين، ضد الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى، هو حقيقة قائمة، وإن شعار هذه الحرب **(أهجم أولاً، فذلك أفضل من التأخر. لأنك في هذه الحالة سوف تتحمل خسارة أقل، لأن وقت بدء الحرب الوقائية يختار من قبل الطرف المهاجم في الوقت الملائم له)**.

ويعتقد القادة الأميركيون أن القوة العسكرية الأميركية الراهنة مناسبة جداً لمهمة التدمير السريع للاتحاد السوفييتي، وخاصة عن طريق بدء حرب وقائية دون أي تأخير.

وقد استبدل بعض المفكرين الاستراتيجيين الأميركيين، أمثال كيسنجر، تعريف الحرب الوقائية بتعريف (**الضربة الأولى**) **أو** (**الضربة الاستباقية**)، **والاختلاف هنا هو في الشكل وليس في الجوهر. إذ إن الضربة الاستباقية أو الأولى يمكن أن تعني أيضاً بدء الحرب الوقائية. ومهما أعطيت هذه الضربة من تسميات مختلفة فإن الهام فيها هو تحقيق أقصى قدر من المفاجأة.**

ومن المعروف أنه يمكن الوصول إلى (**المفاجأة**) عن طريق سبق العدو في توجيه الضربة. وهذا يعتبر، حسب تقدير المفكرين العسكريين الأميركيين، **ضربة دفاعية** لأنها توجه إلى العدو الذي يستعد لهجوم. ومهما يكن من أمر فإن الخبراء العسكريين الأميركيين يعتقدون أن إمكانية تحقيق المفاجأة الاستراتيجية في المستقبل ستقل كثيراً،

لأن وسائط الكشف والإنذار الحديثة تسمح بكشف إطلاق الصواريخ العابرة للقارات، وعلى الأخص الصواريخ الاستراتيجية، وإرسال الإنذار عنها إلى مقرات القيادة المناسبة. وبالرغم من ضآلة الوقت، الذي سوف يتوفر بعد تلقي إشارة الإنذار، فإنه يمكن وضع أجهزة الدفاع الجوي، والدفاع المضاد للصواريخ في حالة الاستعداد الكامل، واستنفار القسم الرئيسي من الطيران، وتحليقه في الجو، وحتى يمكن إطلاق رشقة من الصواريخ القارية للإجابة على الاعتداء الأمبريالي.

وفي الوقت الذي تستعد فيه الولايات المتحدة لتوجيه الضربة الاستباقية، فإنها تعير اهتماماً كبيراً للإجراءات الدفاعية بآن معاً، مركزة في ذلك على عاملين رئيسيين، وهما عامل الوقت، **وعامل وقاية القوى والوسائط الاستراتيجية**، وتقليل تعريضها للإصابة. ومن المعروف أن للوقت قيمة كبرى في تأمين الإنذار عن الهجوم، في الوقت الملائم، وإخراج القوات المسلحة، وخاصة الوسائط الاستراتيجية من تحت تأثير الضربات المعادية، وتنظيم الضربة الجوابية، وإنذار السكان عن طريق الدفاع المدني، وغير ذلك من الإجراءات المناسبة الأخرى.

وقد شكل الرئيس كنيدي، في أيلول ١٩٦٠، لجنة مؤقتة برئاسة السناتور (سايمنغتون) وزير الطيران الأسبق، لدراسة بنية قيادة القوات المسلحة الأميركية وتلاؤمها مع الموقف العسكري السياسي والاستراتيجي الراهن آنذاك. وقد رفعت هذه اللجنة، في كانون الأول من عام ١٩٦٠، تقريراً إلى الرئيس الأميركي، حول إعادة النظر في التنظيم الدفاعي للولايات المتحدة، ألمحت فيه إلى أنه في أي تقدير للموقف العسكري للولايات المتحدة، فإن عاملاً واحداً يتمتع بأهمية أكثر من العوامل الأخرى في هذه المرحلة الراهنة من التطور التقني. وهو **عامل الوقت**، والذي عللت اللجنة المذكورة أهميته بما يلي:

ـــ قيمته الاستراتيجية المتزايدة، والتي لم يسبق لها مثيل من وجهة النظر تأمين الإمكانية والقدرة على رد الفعل السريع في العصر النووي الفضائي الحديث. وحسب تقدير اللجنة المذكورة أعلاه، فقد استغرق إعداد الولايات المتحدة الأميركية لكل من الحربين العالميتين الأولى والثانية حوالي ١٨ شهراً. غير أن الوقت اللازم لرد الفعل، في حال اندلاع حرب عالمية نووية جديدة، لن يزيد عن ١٨ دقيقة فقط.

ــ أهميته الحاسمة في سباق التسلح، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وقد ذكر هنا ضرورة تأمين الانتقاء الآني السريع، وفي الوقت المناسب، بين الأسلحة المختلفة، وإلى ضرورة استهلاك وقت قصير جداً بين تصميم السلاح وإدخاله في الخدمة.

ــ تأثيره على الميزانية العسكرية. فمهما أنفقت الولايات المتحدة على أهدافها الحربية فإنها لا تستطيع أن تشتري الوقت بالمال. لذلك فإن اللجنة توصي بعدم إغفال الثمن الباهظ لصنع أسلحة، تصبح بنتيجة البطء في تصميمها وصنعها قديمة.

وفي الظروف الحديثة، عندما تقوم الأسلحة الصاروخية بالاختصار المدهش للوقت لحمل الشحنات النووية إلى مسافات قارية، فإن الوقت اللازم لرد الفعل يجب أن يحسب بالدقيقة بل وبالثانية. فإطلاق الصاروخ وتحليقه، مثلاً، من القارة الأميركية إلى القارة الأوروبية أو الآسيوية، أو بالعكس، لا يستغرق سوى ٣٠ دقيقة. هذا بالإضافة إلى أن هذا الوقت سوف ينقص في المستقبل مع تقدم صناعة الصواريخ ووقودها.

وهكذا، فإن القيادة العسكرية الأميركية تفتش عن كل الطرق والوسائط الممكنة، والتي تؤمن كسب الوقت. وكما ذكر سابقاً، فإن حل هذه المعضلة كان في إطلاق أقمار صناعية خاصة، لكشف انطلاق الصواريخ العابرة للقارات، وإرسال الإشارات عن ذلك إلى الأرض، بالإضافة إلى إعداد محطات رادار خاصة لكشف إطلاق الصواريخ العابرة للقارات ومساراتها.

أما العامل الثاني، الذي لا يقل أهمية عن العامل الأول، فهو تأمين وقاية نسبية للقوات المسلحة، وبالدرجة الأولى، للوسائط الاستراتيجية. وتعتقد القيادة السياسية والعسكرية للولايات المتحدة الأميركية وحلف الأطلسي أن هذه المهمة قد أمكن حلها بالطريقة التالية:

ــ إيجاد أكثر من نوع واحد من الأسلحة الاستراتيجية، كالصواريخ العابرة للقارات، والصواريخ متوسطة المدى، المجهزة بوقود جاف، والغواصات النووية المزودة بالصواريخ، والقاذفات الثقيله والمتوسطة والمحملة بالصواريخ الموجهة جو ــ أرض، ذات المدى الكبير، وإنتاج أسلحة ومعدات فضائية خاصة في المستقبل القريب.

ـــ تجهيز قواعد إطلاق، متحركة تحت الأرض، للصواريخ العابرة للقارات، والصواريخ متوسطة المدى، ذات الوقود الجاف، التي يصعب كشفها وتدميرها.

ـــ وضع جميع الصواريخ العابرة للقارات والمتوسطة، وكذلك الجزء الأكبر من الطيران الاستراتيجي والتكتيكي في حالة استعداد كامل للتدخل خلال ١٥ دقيقة.

ـــ رفع أعداد قاذفات القنابل الثقيلة المناوبة في الجو، والتي تحمل على متنها قنابل نووية.

وهنا يجب التنويه بأن الاحتفاظ بجزء كبير من الوسائط الاستراتيجية والعملياتية، والمستعدة للتدخل خلال ١٥ دقيقة، وكذلك زيادة تعداد الطائرات القاذفة الثقيلة، المناوبة في الجو، يؤمن الهدفين التاليين:

١ ـــ الاستعداد العالي لتوجيه ضربة مفاجئة.

٢ ـــ التخلص بسرعة من الضربات المعادية، وتوجيه ضربة جوابية مقابلة.

ويقوم بالضربة الجوابية، إذا كانت ممكنة، القوات الصاروخية فقط، التي بقيت سليمة، بما فيها الغواصات النووية المجهزة بالصواريخ، والقاذفات الثقيلة المناوبة في الجو، وجزء من الطيران، الجاهز للتدخل خلال ١٥ دقيقة. أما الطيران الاستراتيجي والتكتيكي الباقي، والذي استطاع الإقلاع إلى الجو للتخلص من الضربة النووية المعادية، فسيكون مضطراً للهبوط ثانية في المطارات السليمة لإعادة التزود بالوقود، وحمل الذخيرة النووية. وبعد هذا فقط، يمكن لهذا الجزء من الطيران الشروع في تنفيذ مهماته.

ويساور القيادة الأميركية قلق شديد في إمكانية تعرض طيرانها الاستراتيجي للقصف النووي المفاجىء. لذلك فقد اتخذت التدابير الضرورية لنشره ولزيادة حجم القوى المناوبة في المطارات والجو، كذلك فإنها درست إمكانية زيادة عدد الطائرات الاستراتيجية المناوبة في الجو أو المطارات، والمحملة بالقنابل النووية لغرض اختصار الوقت اللازم لتوجيه الضربة الجوابية.

وفي هذا المجال، فإن الغواصات النووية حاملة الصواريخ، وكذلك أجهزة إطلاق الصواريخ العابرة للقارات، أو متوسطة المدى، والمستورة تحت الأرض، والمتحركة، وكذلك حاملات الطائرات، والوسائط الفضائية، تعتبر أقل الوسائط تعرضاً لضربات العدو.

٦ ـــ نظرية الحرب المحدودة

بعد ذلك طرح الأميركيون نظرية جديدة، وهي (نظرية الحرب المحدودة)، كبديل للحرب النووية الشاملة، والتي قد تستخدم فيها الأسلحة النووية التكتيكية. وتنحصر هذه الحرب المحدودة في الاشتباكات المسلحة المحلية، أو التي تتصف بطابع الحصر والتقييد للهدف السياسي للحرب، وكذلك للقوى والوسائط المستخدمة فيها، ومنطقة الأعمال الحربية، وكمية القوات. ويدخل تحت عبارة الحرب المحدودة كل أنواع الحروب، التي تستخدم فيها الأسلحة التقليدية، أو الأسلحة التكتيكية النووية، أو الحروب المحلية.

ووفق تفكير القيادة العسكرية الأميركية، فإن الحرب المحدودة لا توجب استخدام الأسلحة الاستراتيجية النووية ضد الأهداف الموجودة في أراضي الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، كما أنها لا تتطلب الطاقة القصوى لجهود الأطراف المتحاربة، بل لجزء من مواردهم البشرية والمادية فقط. كما أن الحرب المحدودة تتميز عن الحرب الشاملة بأنها لا تصل إلى نهايتها القصوى، وأنه يتوجب على الأطراف المشتركة فيها الوصول إلى اتفاق قبل أن تخرج الأعمال الحربية عن الإطار المحدد لها.

تتضمن **فكرة الحرب المحدودة** الكثير من المبادىء المتناقضة، والتي اضطر إلى الاعتراف بها حتى المنظرون العسكريون الغربيون، أنصار هذه الحرب. ويمكن تتبع التناقض في هذه المبادىء في طبيعة بعض العوامل. فالقيود المعتمدة المصطنعة هي التي تعطي هذه الحرب صفة المحدودية، حسب تقدير المفكرين العسكريين الغربيين. ويعتقد أن في مثل هذه الحرب لا يتوجب على أحد الأطراف أن يضع نصب عينيه أهدافاً سياسية واسعة، يمكن أن تبرر انتشاراً كبيراً لحجم الأعمال القتالية، أو خطر إشعال حرب شاملة، بل أن تكون هذه الأهداف متواضعة بحيث لا تؤدي إلى توتر سياسي شديد يبدل طبيعة الجو الدولي.

إن هذه الأهداف المتواضعة، بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية، وحسب رأي المفكرين العسكريين، هي تعزيز سيادتها الدولية في بعض الأجزاء المحدودة من الكرة الأرضية، أو إضعاف مواقع الدول الاشتراكية في بعض المناطق، ودعم النظام الرأسمالي في

أية دولة تسير على طريق الاشتراكية ، وشل الحركات الديمقراطية في الدول الرأسمالية ، وخنق الحركات الوطنية التحريرية في الدول التي تناضل من أجل استقلالها الوطني .

أما بالنسبة للأهداف العسكرية ، فإن الكتّاب العسكريين الأميركيين ، معبرين عن الاندفاع العدواني للأمبريالية الأميركية ، يشيرون إلى أن الولايات المتحدة لن تحل أبداً أهدافها العسكرية بحدود أو شروط سياسية توضع قبل بدء هذه الحرب .

وبهذا الشكل فإن آراء القادة الغربيين ، حول الأهداف (**المتواضعة**) ، تصبح دون أي معنى ، إذ إن هذه الأفكار لا تتعلق بتقييد الأهداف السياسية والعسكرية للأمبريالية ، وهي تقع في تناقض واضح مع الطبيعة الأمبريالية نفسها التي تسعى إلى السيطرة على العالم كله .

ويعترف المفكرون العسكريون الأميركيون ، وهم صادقون في هذا ، أن أكثر معضلات الحرب المحدودة حدة هي مشكلة استخدام الأسلحة التكتيكية النووية فيها .

إن الصعوبة في هذه المعضلة ، حسب رأيهم ، تظهر أساساً أن دور الأسلحة النووية التكتيكية وتأثيرها لم يدرسا بشكل وافٍ ، وأنهما قد بنيا أساساً على الافتراض والتخمين ، ولم يصبح ممكناً بعد ، التنبؤ بالنتائج العسكرية والنفسية والسياسية لاستخدام هذه الأسلحة . كذلك فإن الطرف الآخر ، في جوابه على استخدام الأسلحة النووية التكتيكية ، يمكنه أن يقوم بتوجيه ضربات نووية جوابية بالكمية نفسها ، أو أكبر من ذلك . ولا يستبعد أن يؤدي ذلك إلى إشعال حرب نووية شاملة بنتائجها المروعة المفجعة . ومن المشكوك فيه أيضاً إمكانية اعتراف كلا الطرفين المتحاربين بالتصنيف الموضوع من قبل الطرف الآخر للأسلحة النووية بحسب قوتها ، (تكتيكية أو استراتيجية) . ومن الصعب ، كذلك ، تصور الوسائط التي ستستخدم لإيصال الأسلحة النووية التكتيكية في الاشتباكات المحدودة ، وهل من الممكن أن تستخدم هذه الوسائط من المناطق الموجودة خارج منطقة الحرب المحدودة ؟ .

وهكذا ، فإن الوهم في القيود على استخدام الأسلحة النووية لا يتطلب أي برهان . فإن إيديولوجية الحرب المحدودة ، المتنازلة إلى الاستخدام الواسع للأسلحة النووية التكتيكية ، لا تملك ، في الوقت نفسه ، أية رغبة في التنازل عن وسائط الهجوم النووي

الاستراتيجي ، التي يجب أن تكون موجودة ، كما يقولون ، على استعداد دائم كوسائط ردع وتخويف .

أما من حيث القيود على المساحات الأرضية فهي أكثر فعالية . إذ يمكن ، عند وقوع نزاع محلي ، مراقبة ذلك ومراعاته بسهولة من كلا الطرفين المتحاربين . وإن هذا ينطبق ، بشكل خاص ، على المناطق والدول المتخلفة اقتصادياً ، والواقعة في مناطق الجزر وأشباه الجزر .

إلى جانب ذلك ، اضطر أنصار الحرب المحدودة إلى الاعتراف بحقيقة أن إنشاء الأحلاف العسكرية والسياسية ، التي استطاع الأمبرياليون الأميركيون أن يجروا إليها عدداً كبيراً من دول العالم الرأسمالي ، قد عقّد ، إلى حد كبير ، إمكانية حصر النزاع المسلح المحلي في مساحات محدودة من الأرض .

إن مفهوم الحرب المحدودة ينبثق أيضاً من ضرورة حصر الضربات ، التي تستخدم فيها الأسلحة التقليدية وتنفيذها ، أو الأسلحة النووية التكتيكية ، فقط على الأهداف الحربية دون أن يؤدي ذلك إلى قصف مدن كبيرة أو أهداف ذات طبيعة استراتيجية وتدميرها .

إن الوهم في هذا الافتراض لا يتطلب أي شرح أو برهان . فمن الصعب نظرياً وعملياً التفريق بين الأهداف التكتيكية والأهداف الاستراتيجية . وحتى إذا كان هذا التفريق ممكناً فهل سيعترف به قانونياً كلا الطرفين المتحاربين ؟ إن استعراض هذه القيود يوضح أن أغلبها غير منطقي ، واصطلاحي . فالحرب المحدودة تنطوي على خطر جسيم بأن تتحول إلى حرب شاملة ، وخاصة إذا استخدمت فيها الأسلحة النووية التكتيكية . وهذا ما يعترف به حتى المفكرون العسكريون الأميركيون .

فقد أشار هنري كيسنجر إلى أن « الحرب المحدودة النووية سوف تتحول تلقائياً إلى حرب شاملة ، لأن الجانب الخاسر سوف يدفع فيها مصادر جديدة لتحسين موقفه » .

يعتبر مفهوم الحرب المحدودة ، بمضمونه الحالي في الوقت الحاضر ، متناقضاً وصعب التحقيق ، وخاصة إذا استخدمت ، في مثل هذه الحروب ، الأسلحة التكتيكية النووية . ويقول تصريح نائب وزير الدفاع الأميركي كيلباتريك ، في تموز ١٩٦١ : « أما

فيما يتعلق بي ، فإني لم أؤمن مطلقاً بما يسمونه الحرب النووية المحدودة . إذ لا يمكنني أن أتصور ، بكل بساطة ، كيف يمكن وضع حدود أو قيود ما ، إذا ما بدأت الأسلحة النووية بالعمل » . أما من الوجهة السياسية ، فإن مفهوم الحرب المحدودة ما هو إلّا تقدير مغامر للأمبرياليين الأميركيين ، بفرض خوض الحرب على أراضي الغير .

٧ ــ مبدأ الرد المناسب (الرد المتدرج) أو (الرد المرن)

يمكن أن يؤمن مبدأ (الرد المتدرج) تحقيق هدفين رئيسيين ، هما :

ــ رفع (العتبة النووية) بشكل يحول دون الانزلاق ، تلقائياً ، إلى ذروة الأزمة (أي استخدام الأسلحة النووية) .

ــ السماح بمعالجة الأزمات باستخدام مستوى من التهديد أدنى من المستوى النهائي ، غير المقبول ، أي عدم المساس بالمصالح الحيوية للطرف الآخر .

وهذا يعني تطبيق أساليب من التهديد المتنوع ، الذي يتلاءم مع جميع المستويات ومختلف احتمالات العدوان . ويعرّف الجنرال ماكسويل تايلور الرد المتدرج . في كتابه (البوق المريب) ، بما يلي : « إن الرد المتدرج يعبر عن ضرورة توفر القدرة على رد الفعل ضد جميع الأشكال الممكنة للهجوم ، ابتداء من الهجوم العام الشامل ، وحتى مختلف أنواع الاعتداءات والنزاعات المحلية المحدودة » .

ولا يزال هذا المفهوم ، الذي تبلور في الستينيات ، صالحاً في مطلع الثمانينيات ، كما أن طريقة تخطيط العمليات ، التي نجمت عنه ، لا تزال صالحة في إطارها العام . « يجب علينا إعادة تعريف الحرب الشاملة على أساس أنها مرادفة لتبادل القصف النووي بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية »[٦] .

وهكذا ، نجد أن تعبير (الحرب المحدودة) سوف يشمل جميع أشكال العمليات العسكرية الأخرى . أما بالنسبة للسؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان من الواجب استخدام الأسلحة النووية في الحروب المحدودة أم لا ، فيمكن الإجابة عنه ، بأنه من الضروري ، قبل

---

(٦) ماكسويل تايلور ، رئيس أركان القوات المسلحة الأميركية في عهد الرئيس كنيدي ، في كتابه (البوق المريب) .

كل شيء ، اللجوء إلى الأسلحة التقليدية ، مع الاحتفاظ بإمكانية استخدام الأسلحة النووية التكتيكية في الحالات النادرة جداً التي تقتضيها (المصلحة الوطنية) . هذا ولا بدّ من أن « يتضمن التصعيد في اتجاه الحد الأقصى ، انقطاعات متدرجة تؤمن قيام فترات من الراحة تسمح بالتفاوض والوصول إلى تسوية » .

ويلاحظ هنا وجود التيار الفكري ، الذي أدى إلى خلق وكالة (الرقابة على السلاح) . كما يلاحظ أيضاً انفتاح مفهوم الرد على (نظام تصعيد مراقب) ، يترك للسلطات السياسية حرية العمل الكافية . وهذه النقطة الهامة الأخيرة تتطلب وجود (مركز للقرار السياسي الواحد) وهو (مركز رئيس الولايات المتحدة الأميركية) ، بعد تعريف درجات التصعيد ، حسب (مذهب شليزنغر) عام ١٩٧٤ ، ويلاحظ أنها كثيرة لمواجهة جميع الأوضاع التي يمكن تصورها . وتشتمل خطط (الردع) عادة على لوحة من الأعمال الممكنة ، يترك فيها مجال واسع يساعد على مرونة الاختيار بين درجات التصعيد ، ونوع القوات التي يجب أن تستخدم ، على أن يعطي للقائد السياسي أقصى ما يمكن من حرية القرار في استعمال القوة وتحديد مستواها في ظروف الأزمة .

ويمكن تسمية هذه الاستراتيجية ، (باستراتيجية الرد المرن) ، لأنها تشبه تلك التي استخدمت في الستينيات ، مع اختلاف طفيف جداً في المفهوم . ولهذا فإن الترجمة الأولى لـ (الرد المرن) يمكن أن يكون (الرد المتدرج) ، أمّا مفهوم شليزنغر ، لهذا النوع من الرد ، فيمكن التعبير عنه بشكل أدق باستعمال اصطلاح (الرد المناسب) ، ويحتفظ من حيث المبدأ باصطلاح (الرد العالي) ، للتعبير عن الرد ، الذي يستخدم للدفاع عن أراضي الولايات المتحدة الأميركية نفسها ، من أجل جعلها (مكاناً محرماً لا يمس) . وينفذ هذا الرد العالي بواسطة الصواريخ المركزية العابرة للقارات ، المتمركزة فوق أراضي الولايات المتحدة ، وهي تختلف عن الصواريخ قصيرة المدى ، أو متوسطة المدى ، التي يوجه معظمها ضد القوات ، وتخصص للدفاع عن أوروبا ، وهي موجودة على الأرض الأوروبية .

ويمكن استخدام الصواريخ العابرة للقارات لتنفيذ ضربات جماعية قوية ، يطلق عليها اسم (**الضربات ذات الفعالية**) ، على أهداف عسكرية معادية ، مثل قواعد إطلاق الصواريخ النووية ، ومقرات القيادة والسيطرة ، ومستودعات الإمداد والتموين ، ومناطق تحشد القوات .

أما أكثر الدرجات انخفاضاً في سلم التصعيد فتقوم بها قوات مجهزة بأسلحة تقليدية ، ويمكن التأكيد على أن ثلاثة أرباع القوى من هذا النوع هي من الجنود والأسلحة الأوروبية .

وقد كانت إدارة الرئيس كارتر متحفظة في البداية حيال مذهب شليزنغر . ولكنها سرعان ما وافقت عليه ووصلت إلى حد تدعيمه . أما التوجيهات الرئاسية رقم (٥٩) ، التي وافق عليها الرئيس كارتر ، فتضمنت مفهوم (**الاستراتيجية المضادة للأهداف القيمة**) .

وتتوخى هذه الاستراتيجية قصف الأهداف ، التي يعتبرها السوفييت في أعلى درجات التصعيد التفضيلي ، لأنها تتناول قواعد إطلاق الصواريخ ، ومراكز اتخاذ القرارات المدنية والعسكرية ، والمؤسسات الصناعية العسكرية .

وهذه الاستراتيجية تقرر بصراحة إمكانية خوض حرب نووية محدودة أو شاملة ، مع إضافة أهداف أخرى حسب سير العمليات .

والواقع أنه لا يمكن تحقيق جزء من الضربات المطلوبة في هذه الاستراتيجية بوساطة الأجهزة المركزية ، التي يجب أن تحتفظ بقدرتها الكاملة على القيام بأعمال ثأرية كثيفة في المرحلة الأخيرة(٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك نقطتين تبرزان بعض التلاقي بين الاستراتيجية الأميركية والاستراتيجية السوفييتية . (**فالاستراتيجية المضادة للأهداف القيمة**) تضع تصنيفاً تفاضلياً للأهداف ذات الصفة العسكرية ، على غرار الاستراتيجية السوفييتية ، كما تقرر احتمال وقوع حرب نوونية شاملة .

يستخلص من (**مفهوم الرد المناسب**) ميزتان رئيسيتان :

الأولى : يتصور (**مفهوم الرد المناسب**) إمكانية فشل الردع في مستوى معين . ويتوقع في مثل هذه الحالة الانتقال إلى استخدام القوات . وهذا يشكل انحرافاً عن المفهوم الذي يتحاشى استخدام القوات . فلكي يكون الردع بالقوة يصبح من الضروري الحصول

---

(٧) عن صحيفة انترناشيونال هيرالد تريبيون ، في عددها الصادر في ٧ آب ١٩٨٠ .

على التفوق المطلق، بالقياس إلى (مستوى الأعداء) الذي اختاره الخصم، وذلك لضمان تراجعه عن عدوانه (هجومه).

الثانية: يقرر (الرد المناسب) مبدأ الحرب المحدودة، أو الحرب على مسرح محدد من الكرة الأرضية. ولا يستبعد أبداً أن يكون هذا المسرح أوروبياً. أما مستوى عنف هذه الحرب المحدودة، فلا يمكن تحديده مسبقاً، لأن استخدام الأسلحة النووية التكتيكية، أو غير التكتيكية، من أجل استعادة وضع مهدد إلى ما كان عليه، أو لإفهام العدو أن درجة إضافية من سلم التصعيد قد تم اجتيازها.

وهذا النوع من التدرج المتتالي يمكن أن يؤدي إلى حرب نووية شاملة.

والخلاصة، فإن (مذهب الرد المناسب) يمكن أن تترتب عليه حرب عالمية شاملة. وهذه الحرب تعني، بشكل خاص، العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية. ولكن ميدان خوضها يمكن أن يمتد ليشمل مجمل الكرة الأرضية، متجاوزاً الإطار الجغرافي الذي نص علية حلف الأطلسي[٨].

ويمكن أن تشن الحرب المحدودة ضد دول حلف وارسو، أو ضد أي عدوٍ يهدد مصالح الولايات المتحدة. وتعطي الاستراتيجية الأميركية، عندما يطلب منها توقع الحرب الشاملة، دوراً أساسياً للقوات النووية الاستراتيجية، ضمن إطار مجموعة من القوات التي تشتمل على قوات مزودة بصواريخ ذات مدى متوسط، وأسلحة نووية تكتيكية، وقوات تقليدية.

وإن تحليل علاقة (تناسب) القوى بين الشرق والغرب، أدّى منذ العام ١٩٧٧، إلى تبني مبدأ المحافظة على مستوى القوات الأميركية في وضع (تعادل جوهري) مع الاتحاد السوفييتي. وبعبارة أدق، كان لا بد من الاعتراف بتفوق السوفييت في عدة أنواع من الأسلحة الأساسية، على أن يتم تعويض هذا التفوق، لصالح الولايات المتحدة في مجالات أخرى أكثر أهمية. يضاف إلى ذلك، أنه كان لا بد أيضاً من توحيد جميع الجهود

---

(٨) على أثر حرب تشرين التحريرية، بين العرب والكيان الصهيوني عام ١٩٧٣، استنفرت الولايات المتحدة كافة قواتها النووية، بما في ذلك القوات الموجودة في القارة الأوروبية.

لكي تكون فعالية القوى النووية الاستراتيجية، والوضع العام في الولايات المتحدة، لا يقلان عن وضع الاتحاد السوفييتي وقواه النووية الاستراتيجية، مع الاحتفاظ بقدرة تدميرية مؤكدة[٩].

على أساس هذه الشروط، تقوم الاستراتيجية الأميركية على خمسة مبادىء أساسية:

١ ـــ ثني السوفييت عن الإقدام على شن حرب نووية.

٢ ـــ ثني بلدان حلف وارسو، أو عدو آخر محتمل، عن ممارسة ضغط عسكري على الولايات المتحدة وحلف الأطلسي.

٣ ـــ في حال فشل الردع، إعادة الوضع لصالح الولايات المتحدة عن طريق السيطرة على سلم التصعيد.

٤ ـــ في حال فشل السيطرة على التصعيد، تكبيد الاتحاد السوفييتي خسائر، لا يمكن قبولها، والعمل على أساس أن تبلغ قوة الولايات المتحدة ونفوذها مستوى الذروة في فترات ما بعد الحرب.

٥ ـــ الاحتفاظ بالقدرة الضرورية لتنفيذ عمليات استراتيجية محدودة، إذا اقتضت الضرورة والظروف ذلك.

وهكذا نرى، أن فرضية الحرب النووية، التي كانت في الماضي بعيدة عن التصور، أصبحت تشكل منذ الآن احتمالاً معقولاً، وتترك للبديهة القائلة بـ (**عصمة الردع**).

وتجدر الإشارة، بهذه المناسبة، **إلى أنه أجريت في الولايات المتحدة بعض الدراسات حول فائدة (الحرب الوقائية) وفعاليتها، فكانت النتائج سلبية.**

---

(٩) مناقشات لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأميركي، الدورة الثانية، الاجتماع ٩٥، وبيان هارولد براون، وزير الدفاع في أثناء تقديمه لميزانية الدفاع لعام ١٩٨٠، وكلمته في ٥ نيسان ١٩٧٩ في نيويورك.

٨ ــ قدرات القوات المسلحة الأميركية

يعكس تشكيل وتنظيم القوات المسلحة الأميركية، بدقة، (استراتيجية الرد المناسب) الذي يقوم بالدرجة الأولى على قوة نووية عابرة للقارات.

إن تشكيل القوات النووية الاستراتيجية[١٠] على شكل ثلاثي، يتحقق توازنه الداخلي بتجهيز كل منها بعدد من القاذفات الاستراتيجية والطاقات التدميرية (محسوبة على أساس الميغاطن ــ مليون طن). ويقدم هذا الثلاثي جدولاً واسعاً وإمكانات متعددة تسمح بالتعبير عن فعاليتها. فكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة، قادر نظرياً على توجيه الضربة الأولى، علماً بأن الطاقة التدميرية، المطلوبة في هذه الحالة، تعادل ٤٠٠ ميغاطن، طبقاً للمعايير الأميركية. وهو الحجم الذي يستطيع تحقيقه كل من العناصر الاستراتيجية الثلاثة.

ويبدو أن السوفييت أخذوا بعين الاعتبار فرضية إقرار الولايات المتحدة للقيام بالضربة الأولى.

وتستخدم قيادة (القوات الجوية الاستراتيجية) ٣٥٦ قاذفة قنابل استراتيجية من نوع B-52 ومن نوع FB-IIIA، جاهزة للعمليات بشكل دائم، وقادرة على حمل ما يعادل ١٧٣٤ ميغاطن.

أما القوة الصاروخية المخصصة للقصف البري، أرض ــ أرض، فتتألف من ١٠٤٥ صاروخاً من نوع LGM 3OF Minuteman II و LGM 3OG Minuteman III و Titan II، وهذه الصواريخ محملة بـ ٢١٤٥ رأساً نووية تصل طاقتها إلى ١٢٨٤ ميغاطن، في نهاية عام ١٩٨٤. وقد بدأت الحكومة الأميركية بتنفيذ مشروع لإنتاج صواريخ أرض ــ أرض من نوع MX، وهو صاروخ قابل للحركة، أي أنه قادر على الإفلات من الضربة النووية الثأرية، ولكنه لن يصبح جاهزاً إلا في نهاية الثمانينيات.

وتملك البحرية الأميركية ٣٤ غواصة نووية من حاملات الصواريخ تحمل بمجموعها

---

(١٠) الميزان الاستراتيجي، معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ١٩٨٣ / ١٩٨٤.

٥٦٨ صاروخاً باليستيا (١٩ غواصة من طراز لافاييت Lafayette و ١٢ غواصة من طراز فرانكلين Franklin ، و ٣ غواصات من طراز أوهايو Ohio) . وقد أوصت البحرية الأميركية على ٧ غواصات نووية من طراز أوهايو ، و ١٦٨ صاروخاً من نوع (Trident I / C-4) ، تعادل قوتها بمجموعها حوالي ٧٥٠ ميغاطناً .

وبالرغم من الجهود ، التي بذلها السوفييت لتدعيم دفاعهم الجوي وتحسينه ، الأمر الذي يجعل القاذفة الاستراتيجية عاجزة عن خرق حرمة الجو السوفييتي ، إلا أن الأميركيين ما زالوا يحتفظون بهذا النوع من الطائرات بكل قوته ، بل ويسعون لتحسينه . وتخطط الولايات المتحدة بناء ١٠٠ قاذفة قنابل طراز ب ـــ ١ب (B-1B) . وهي تدقق في كفاءة نموذج المستقبل من قاذفة القنابل التي تدعى

والواقع ، أن الطائرات الاستراتيجية القاذفة ليست سلاحاً للهجوم المفاجىء ، نظراً للمدة الطويلة نسبياً التي تستغرقها الطائرة لبلوغ الهدف ، والتي قد تصل إلى ١٢ ساعة . وهذا يعني أنها لن تستعمل لتنفيذ الضربة الأولى ، بل للقيام بعمليات (الرد) . وتبقى الصواريخ البالستية ، بسبب سرعتها الهائلة التي تملكها وتمكّنها من بلوغ أبعد الأهداف في مدة لا تتجاوز ٤٠ دقيقة ، السلاح الأمثل لتحقيق المفاجأة ، وتلبية الضرورات التي تتطلبها الضربة الأولى .

وهكذا تبدو القوى الجوية الأميركية القاذفة هي السلاح الذي يلجأ إليه للضربات التالية والجوابية ، فهو ملائم لقصف المدن أكثر من ملاءمته لقصف القوات والأهداف الاستراتيجية الأخرى . أما الصواريخ أرض ـــ أرض و بحر ـــ أرض فستخصص لضرب القوات والمنشآت الاقتصادية .

وستقوم أنظمة حديثة مثل حاجز الرادار الباسيفيكي و المسح الألكتروني ـــ البصري الفضائي البعيد ، المتمركز على اليابسة ، بتعزيز الكشف المبكر للأهداف الموجودة في الفضاء . ولم توجد حلول لبعض العيوب التي اكتشفت في أجهزة البعثرة الخلفية لما وراء الأفق ، وبالرغم من ذلك ، فهناك خطط لتطوير هذه الوسائط ونشرها . وتنفذ حالياً خطوات لتعزيز إمكانات الكشف والمراقبة لخط الإنذار المبكر البعيد DEW ، وأجهزة الإنذار المبكر الأولي .

والدفاع الإيجابي ليس أحسن حالاً من الدفاع السلبي، فليس هنالك أي جهاز أميركي من الصواريخ المضادة للصواريخ أرض ـــ جو موجوداً بصورة فعلية. وتملك الولايات المتحدة قوة جوية صغيرة مخصصة لاعتراض طيران العدو، وهي غير كافية لتغطية المجال الجوي الأميركي بكامله ضد الطيران المعادي.

والبحرية الأميركية حالياً أقوى سلاح بحري في العالم. وتعتبر هذه القوات أداة التدخل المفضل في الولايات المتحدة، وهي تقوم حالياً بالدور نفسه الذي كانت تقوم به البحرية البريطانية لمدة طويلة.

وتعتمد البحرية الأميركية، بشكل خاص، على حاملات الطائرات القادرة على نقل الطائرات المجهزة بالأسلحة النووية. كما تعتمد أيضاً على الغواصات الهجومية.

وتستخدم البحرية الأميركية تشكيلات قوية لمكافحة الغواصات، وهي تعتبر أحدث قوة من هذا النوع في العالم. وتستخدم هذه القوة ضد الغواصات الحاملة للصواريخ النووية، وضد غواصات الهجوم العادية في آن واحد.

وتشتمل البحرية الأميركية على قدرة تدخل أخرى هي (مشاة البحرية) وتتألف هذه القوة من قوات بحرية ـــ برية تقدر بـ ٣ فرق و ٢٢٧ دبابة من طراز م ـــ ٦٠ آ ـــ ١ M-60 A-1 و ٣ أجنحة جوية فيها حوالي ٤٣٦ طائرة و ١٠٢ حوامة مسلحة.

وقد انشأت الولايات المتحدة القيادة المركزية الأميركية US CENT COM التي كانت تدعى فيما سبق بقوة الانتشار السريع RDF، وهي قوى خصصت لغايات مخططة، بما فيها القوى البحرية والجوية التابعة لها. ويمكن أن تضمَّ هذه القيادة حالياً، حوالي ٢٩٢٫٠٠٠ فرد. وتتألف القوات، الموضوعة تحت تصرف هذه القيادة، من جيش واحد، وفيلق واحد مؤلف من فرقة ميكانيكية، وفرقة محمولة جواً، وفرقة هجوم جوي، ولواء واحد فرسان الجو، وقوات خاصة، وقوات قتال قريب.

وبالإضافة إلى ذلك تتضمن القيادة المركزية قوة بحرية واحدة ٩٢٫٠٠٠ بما فيها ٥٠٫٠٠٠ من قوات البحرية (المارينز)، فيها ٣ مجموعات حاملات طائرات، ومجموعة واحدة من سفن السطح، ومجموعة برمائية واحدة ١٠٠ غ. وكذلك قوة جوية واحدة

۳۰٫۰۰۰ مؤلفة من جناح جوي قاذفات ب ــ ٥٢ هـ B-52H ، و ٧ أجنحة جوية مقاتلات تكتيكية ، وجناح واحد إنذار ومراقبة محمولة جواً AWACS ، وسرب إعادة ملء وقود جواً .

وهكذا يسير التحديث في جيش الولايات المتحدة الأميركية بالتوازي مع استراتيجيتها .

٩ ــ تطور الاستراتيجية العسكرية الأميركية

جرى تطور الاستراتيجية العسكرية الأميركية على عدة مراحل حسب تطور صناعتها للأسلحة وحسب تطور الطرف الثاني المقابل .

وتندرج التطورات التي طرأت على الاستراتيجية الأميركية ، منذ العام ١٩٤٥ حتى الآن ، ١٩٨٥ في إطار تطور توازن القوى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . ولا يلاحظ بشكل واضح ، تأثير استراتيجيات الأمم الأخرى المعادية والمحايدة على هذه الاستراتيجية . ويمتاز هذا التطور بسلسلة من التعديلات تم تنفيذها كردود فعل على الاستراتيجية السوفييتية .

وقد استندت مختلف المفاهيم الاستراتيجية الأميركية على الثقة بالتفوق التقني (التكنولوجي) المطلق ، بشكل خاص ، في الأسلحة النووية . ولكن هذه الفرضية لم تنطبق على الواقع ، وأدت إلى سلسلة طويلة من خيبات الأمل .

أما تاريخ تطور الاستراتيجية الأميركية ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن فينقسم إلى ثلاث فترات كبرى :

الفترة الأولى : تميزت بطابع الاستخدام .

الفترة الثانية : ظهرت فيها استراتيجية الردع ، وتميزت بتفوق القوة الأميركية .

الفترة الثالثة : وهي فترة التعادل بين العملاقين .

١٠ ـ تطور الاستراتيجية الأميركية منذ العام ١٩٤٥ وحتى العام ١٩٥٤

بعد استخدام الولايات المتحدة للقنبلة النووية ضد اليابان عام ١٩٤٥ ، أصبحت أعظم المنتصرين في الحرب . فقد خرجت من الحرب وأراضيها سليمة ، ولم تتجاوز خسائرها بالأرواح ٣٠٠,٠٠٠ رجل . وعلى عكس ذلك تماماً ، كان وضع حلفائها وأعدائها ، لأنهم خرجوا من الحرب منهكين من النزف الدموي ، إذ بلغت خسارة الاتحاد السوفييتي حوالي ٢٢ مليون نسمة ، ودمرت جميع مدنه وقراه في الأراضي الأوروبية تدميراً كاملاً . وقد أعطى هذا الوضع لواشنطن تفوقاً واقعياً على المستوى العالمي . وقد أدرك الأميركيون هذه الحقيقة في أثناء المفاوضات حول تنظيم عالم ما بعد الحرب ، كما أدرك العالم أجمع ، أنهم الوحيدون الذين يمتلكون السلاح النووي .

وإذا أضيف إلى هذا الشعور بالثقة والقوة ، ضغط الرأي العام الأميركي ، أمكن أن نفسر بسهولة الأسباب التي جعلتهم يبادرون إلى تسريح قواتهم المسلحة بشكل كثيف بعد انتهاء الحرب مباشرة .

ولم تنقضِ إلا فترة قصيرة جداً بعد انتهاء الحرب ، حتى ظهر الاتحاد السوفييتي كعدو رئيسي للغرب بصورة عامة ، وللولايات المتحدة بشكل خاص . واستطاع السوفييت أن يعوضوا احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي جزئياً ، بالاحتفاظ بقواتهم المسلحة التقليدية الضخمة على حالها التي بلغتها في نهاية الحرب .

كانت أراضي الولايات المتحدة ، في هذه الفترة ، بمنأى عن الضغط السوفييتي . أما أوروبا الغربية فقد كانت مهددة بالاجتياح السوفييتي . ولكي تجابه الولايات المتحدة هذا الاحتمال ، وتعوض الضعف في الجيوش الغربية ، باشرت بصناعة أسلحة نووية تكتيكية لتستخدم ضد القوات . وقد أنجزت بالفعل قنبلة نووية تكتيكية قوتها ١٠ كيلو طن ، وجزبتها في ٢٥ أيار ١٩٥٣ .

أما الأسلحة النووية الاستراتيجية فكانت تحمل بواسطة الطائرات القاذفة الاستراتيجية ، وتنطلق من قواعد قريبة نسبياً من الأراضي السوفييتية .

ومنذ آذار ١٩٤٦ شكلت القاذفات النووية تشكيلة خاصة، أطلق عليها تسمية (قيادة القوى الجوية الاستراتيجية) ومنذ آذار ١٩٤٦. وكانت جميع هذه الطائرات في البداية من مخلفات الحرب العالمية الثانية، ولكن سرعان ما استبدلت هذه الطائرات بطائرات حديثة. ولم تتوقف عمليات تطوير الطائرات القاذفة وتحسينها، بل كانت تحتل المكان المفضل بالنسبة للصواريخ العابرة للقارات حتى أواسط الخمسينيات. غير أن الأميركيين، في سعيهم للتحرر من العوامل الجغرافية، توصلوا في كانون الأول من العام ١٩٥٣ إلى إنتاج أول غواصة نووية قاذفة للصواريخ.

وتجدر الإشارة إلى أن الأسلحة النووية، في هذه الفترة، لم يكن لها امتيازات خاصة، فهي تلبي الضرورات التي تتطلبها الاستراتيجية القائمة على الحرب المحتملة الوقوع، ضمن إطار (سياسة الاحتواء)، التي كانت تسير عليها الولايات المتحدة آنذاك. وكانت الاستراتيجية تهدف إلى توجيه الضربات المقررة ضد السكان.

وقد بقيت (استراتيجية الوسائل النووية) مقررة رسمياً طوال مدة تسع سنوات (١٩٤٥ ــ ١٩٥٤)، ثم تقرر التخلي عنها لسببين رئيسيين:

الأول: توصل الاتحاد السوفييتي إلى امتلاك السلاح النووي في ٢٩ آب ١٩٤٩، عندما فجر قنبلته النووية الأولى، ثم ما لبث أن فجر قنبلة هيدروجينية في ١٢ آب ١٩٥٣، بينما لم يتمكن من إنجاز أول قنبلة هيدروجينية عملياتية إلّا في الأول من آذار من العام ١٩٥٤.

صحيح أن الأراضي الأميركية بكاملها بقيت في مأمن من القصف النووي المباشر، بسبب عدم توفر قاذفات القنابل بعيدة المدى لدى الاتحاد السوفييتي، بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة نظمت شبكة من أجهزة الرادار، وكوّنت قوة جوية للاعتراض والدفاع الجوي.

ولكن التهديد السوفييتي، كان يطبق مباشرة على الحلفاء الأوروبيين. يضاف إلى ذلك، أنّ المستقبل لم يكن مضموناً: لأنه ما من قوة تستطيع التأكيد بأن السوفييت لن يتمكنوا من إنتاج طائرة استراتيجية قادرة على حمل القنابل النووية إلى الولايات المتحدة. لهذا كان من الواجب إيجاد وسيلة فعالة للاحتفاظ بالمدن الأميركية في مأمن من الحروب،

كما كانت ، منذ العام ١٨٦٦ ، ولحماية الأميركيين من الذعر الذي أصاب الأميركيين من جراء قصف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل النووية ، ودرسدن وهامبورغ بالقاذفات الاستراتيجية الثقيلة .

الثاني : تعود أسباب التخلي عن استراتيجية استخدام الوسائل النووية إلى التجارب العملية التي أثبتت ، خلال الحرب الكونية ، استحالة استخدام الأسلحة النووية .

وقد تبين للغربيين أن (مفهوم المصلحة الحيوية) هو وحده الذي يبرر استخدام السلاح النووي ، وتبلورت الفكرة القائلة بأن « هذا السلاح الجديد يتمتع بطبيعة خاصة متميزة » . كما ظهرت صعوبة إضافية أخرى ذات طابع (أخلاقي) . فقد بدأت الأوساط الشعبية ، في عديد من الدول الرأسمالية ، تعارض استخدام الطاقة النووية للأغراض العسكرية ، ومن بينها الأوساط العلمية التي أسهمت أصلاً في إنتاج الأسلحة النووية وتطويرها .

لكن هذه المعارضة لم تحل دون إنتاج السلاح النووي واستخدامه ضد اليابان . يضاف إلى ذلك ، أن التاريخ لا يعطي أي مثال عن منع فعلي لصنع أو استخدام أي سلاح جديد لأسباب أخلاقية . ففي القرن الثاني عشر قرر المجمع المسكوني في لاتران تحريم استخدام (قاذف السهام والكرات الحجرية) باعتباره سلاحاً شيطانياً ، بسبب قدرته الكبيرة على القتل ، وهدد من يستخدمه بعقوبة الحرمان . ولم تكن هناك عقوبة أقوى من عقوبة الحرمان من الخلاص الأبدي ، في ذلك الوقت . ونحن نعلم الآن ماذا كانت نتيجة هذا المنع من الناحية الردعية الأخلاقية .

ومع ذلك لا يجوز الاستخفاف بالعامل الأخلاقي لأنه هو الذي يصنع العقول .

١١ ــ تطور الاستراتيجية الأميركية بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٧٢

تتميز الفترة ، التي ابتدأت منذ عام ١٩٥٤ بـ (استراتيجية الردع) ، التي رافقها

الكثير من الانعطافات والتغييرات، الأمر الذي يتناسب مع التطوير التدريجي للتوازن في القوى بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي.

ففي بداية العام ١٩٥٤، صاغت إدارة ايزنهاور ـ دالاس، مبدأ (استراتيجية الردع)، التي يكملها (**استراتيجية الضربات الكثيفة**)، أو ما تسمى أحياناً بـ (**مذهب الانتقام الكثيف**)، الموجهة خاصة ضد المدن. وكان (**التفوق النووي الأميركي**) يسمح بالأخذ بهذه الاستراتيجية.

«إن الدفاع المحلي هو دفاع عظيم الأهمية. ولكن ما من دفاع محلي يستطيع وحده احتواء القوة البرية الهائلة التي تملكها الكتلة الشيوعية. لذلك لم يكن هنالك بد أمام الأميركيين من الأخذ بعنصر الردع الذي يستند إلى ممارسة استراتيجية (الضربات الكثيفة) أو (الانتقام الكثيف)»[١١].

ويلاحظ أن هذه الاستراتيجية تربط بين العناصر النووية والعناصر التقليدية. فالدرع كان ممثلاً بالقوات الأميركية التقليدية وقوات حلف شمالي الأطلسي في أوروبا، أما السيف فكان ممثلاً بـ (قوة الانتقام الكثيف) التي تقدمها قيادة القوى الجوية الاستراتيجية.

وتجدر الإشارة هنا إلى آن (الردع النووي) كان وحيد الطرف، أي من جانب واحد فقط، لأن الاتحاد السوفييتي لم يكن يملك الوسائل اللازمة لقصف أراضي الولايات المتحدة. وكانت (العتبة النووية) موضوعة آلياً في مستوى الدفاع عن أوروبا الغربية. وكانت القوى الاستراتيجية بأمس الحاجة للقواعد الأوروبية كي تتمكن من الوصول إلى أهدافها في الاتحاد السوفييتي، كما كانت الصواريخ ذات المدى المتوسط بحاجة أيضاً إلى قواعد إطلاق تحيط بأراضي الاتحاد السوفييتي وقريبة منها.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى نقطة هامة بدت فيها الاستراتيجية الأميركية أنها تحوي أفكاراً غامضة: وتتلخص الفكرة الأولى في أن الردع التقليدي يجب أن يكون قوياً جداً للدرجة التي تضطر الاتحاد السوفييتي لتوجيه هجوم ضخم يبرر الاستخدام الاستراتيجي

(١١) من تصريح وزير الخارجية الأميركية فوستر دالاس في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٤.

للسلاح النووي !!. ولما كانت قوات الحلف التقليدية أضعف من المستوى المطلوب، الذي قرره مؤتمر لشبونة، فقد تمّ تزويدها بالسلاح النووي التكتيكي. وترتب على هذا الإجراء إضعاف الطبيعة الخاصة التي كانت تعطى للأسلحة النووية.

أما الفكرة الغامضة الثانية، فتكمن في التعديلات الطفيفة التي أدخلها وزير الخارجية الأميركية فوستر دالاس على (استراتيجية الضربات الكثيفة)، عندما ميّز بين الحرب المحدودة والحرب النووية الشاملة. فقد صرّح في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٤ بما يلي: «إن النقطة الأساسية هي أننا وحلفاءنا نملك الوسائل والرغبة في جعل أي معتدٍ محتمل يدرك سلفاً أنه سيخسر أكثر مما سيربح، في حال إقدامه على العدوان. وهذا لا يعني أن المعتدي يجب أن يدمر تدميراً كاملاً، بل يجب أن يعني القدرة على تكبيده خسائر فادحة جداً لا يستطيع تحملها وقبولها»[١٢]. وعلى هذا الأساس فإذا كانت الحرب الكورية (حرباً محلية)، فما الذي يمنع أن يكون هذا الهجوم المحدود على أوروبا الغربية ؟.

وقد ظهر أن الخوف من إمكانية حدوث هجوم سوفييتي محدود على أوروبا قد نتج استناداً إلى فرضية أخذ بها الغربيون، تقول باحتمال وقوع غارة سوفييتية على برلين الغربية في أثر تطور أزمة برلين، بسبب الاختلاف حول نظام إداراتها.

ومع ذلك، بقيت الأمور واضحة والتهديد مقبولاً، لأن التفوق الأكيد كان لصالح الولايات المتحدة في ذلك الوقت، وكان (الردع النووي) من جانب واحد فقط. وفجأة أقدم الاتحاد السوفييتي في آب ١٩٥٧ على إجراء أول تجربة للرمي بالصواريخ العابرة للقارات. فكان هذا زلزالاً حطم التفوق الأميركي إلى غير رجعة.

وهكذا جاء السلاح الجديد ليضاف إلى القاذفات البعيدة المدى، من طراز TN-20 و MYA-4 التي وضعت في الخدمة في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٦، ولكن احتمال بلوغها أراضي الولايات المتحدة كان ضعيفاً بسبب الدفاع الجوي الأميركي الفعّال.

وفي كانون الأول ١٩٥٨ أطلق الأميركيون الصاروخ العابر لِلقارات، الذي أطلق عليه اسم (أطلس)، وأضيف هذا السلاح إلى ترسانة (القيادة الجوية الاستراتيجية) والغواصات النووية.

---

(١٢) الوثائق الأميركية حول السياسة الخارجية ــ ١٩٥٤ صفحة ١٨.

وبعد إطلاق القمر الصنعي (سبوتنيك)، في ٤ تشرين الأول عام ١٩٥٧، تضاعف التهديد السوفييتي، وبرهن هذا الحدث العظيم على أن الاتحاد السوفييتي سيطر بشكل جيد على تكنولوجيا الرمايات العابرة للقارات. وعلى أثر ذلك أصبح من الواضح، بشكل لا يقبل الشك، أن مصير المدن الأميركية يمكن أن يكون شبيهاً بمصير ناغازاكي، وهيروشيما، وهامبورغ، ودرسدن. وأصبحت واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة الأميركية، لأول مرة، منذ حوالي قرن ونصف[١٣] تحت رحمة نيران العدو، وأن الحرب لم تعد، بالنسبة للولايات المتحدة عبارة عن إرسال حملات، صغيرة أو كبيرة، لتحارب فيما وراء البحار، وإنما أصبحت الحرب تنال أرض الولايات المتحدة ومدنها وقاعدتها الصناعية.

وهكذا أصبح (الردع الوحيد الجانب) ردعاً ثنائياً من جانبين. ولكي تخفف الولايات المتحدة من آثار التهديد، الذي ترتب على ظهور الأسلحة الجديدة المذكورة آنفاً لدى الاتحاد السوفييتي، قامت بالضغط على حلفائها من أجل أن يسمحوا لها بنشر الأسلحة الصاروخية متوسطة المدى في كل من إيطاليا وتركيا وبريطانيا، ليكون الدفاع القريب المباشر عن أوروبا أكثر قوة.

وفي المرحلة الثانية، قام الأميركيون بتعديل مفهومهم الاستراتيجي، فأصبح هدف الاستراتيجية المطلوب، هو استعادة حرية العمل الكاملة، بواسطة ردع العدو، ومنعه من التفكير في تهديد المصالح الأميركية، وباعتبار ذلك الوضع أمراً غير مقبول.

وفي هَذه الظروف وضعت استراتيجية الرد المرن، والرد المتدرج، في عام ١٩٦١، بتشجيع من إدارة كنيدي — ماكنمارا. ولم تعدل هذه الاستراتيجية إلا في عام ١٩٧٤، بعد أن مرت بكثير من المنعطفات.

يستخلص من ذلك أن استراتيجية الرد المتدرج قلبت دور القوات الاستراتيجية النووية والقوات التقليدية رأساً على عقب، فأصبحت القوات التقليدية تشكل (السيف) والقوات النووية تشكل (الدرع).

---

(١٣) المقصود، منذ حرب الانفصال بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة.

ويستند (الرد المتدرج) على ثلاثة عناصر :

١ ــــ القوات المسلحة التقليدية .

٢ ــــ الأسلحة النووية المتقدمة ، المتمركزة خارج الولايات المتحدة ، والمؤلفة من الأسلحة التكتيكية وأسلحة مسارح العمليات .

٣ ــــ الأسلحة النووية الاستراتيجية ، المؤلفة من الصواريخ العابرة للقارات ، والوسائل المركزية الموجودة فوق أراضي الولايات المتحدة نفسها .

وتعتبر (أسلحة الرد المتدرج) مرحلة وسيطة ، بين التهديد باستخدام الأسلحة المتقدمة ، الموجودة خارج أرض الولايات المتحدة ، من جهة وتبادل **القصف النووي الكثيف** ، من جهة أخرى . وسوف تنحصر هذه المرحلة من القصف بقصف القوات فقط ، ويؤمل بواسطتها تأخير الحالة الأخيرة القصوى ، الهادفة إلى قصف المدن والأهداف الصناعية ، وإعطاء فرصة للمفاوضات .

وتختلف هذه المذاهب عن تلك التي تبناها شليزنغر ، في عام ١٩٧٤ ، في آلية تزايد التصعيد ، إذ يبتدىء التصعيد بأدنى مستوى ممكن ، وتعطى الأفضلية في إمكانية الرد على القصف بقصف القوات . وهذا ما أوصى به وزير الدفاع السابق ماكنمارا ، في عهد الرئيس كنيدي ، عندما قال : « إن الأهداف الرئيسية يجب أن تكون قوات العدو المسلحة ، وليس السكان المدنيين ، مع الاحتفاظ بالطاقات التدميرية لقصف المدن ، كرد على هجوم معاد كثيف . وسوف يكون ذلك خير وسيلة للمحافظة على سلامة المدن الأميركية » .

يقوم مذهب (الرد المتدرج) على استراتيجية الردع ، وعلى السعي للحفاظ على استقرار الوضع ، الذي يجب إنقاذه ، أو إعادة ترميمه ، وذلك باستخدام مبادرة التصعيد ، من جهة ، وبواسطة نظام (الرقابة على الأسلحة) من جهة أخرى .

وتفترض استراتيجية الردع السعي نحو الاستقرار ، عن طريق امتلاك التفوق في مختلف درجات التصعيد ، وخاصة منها الدرجة العليا ، التي تحتاج إلى توفر القدرة على التدمير المؤكد للعدو ، أي القدرة على الرد بقصف جوابي ، رداً على الضربة التي بادر العدو بها أولاً .

والقصف الجوابي، القصف بالمرتبة الثانية، يجب أن يتم وفق حسابات زمنية ملائمة، وأن يكون بالإمكان تكبيد العدو خسائر تعادل $\frac{١}{٣}$ أو $\frac{١}{٤}$ السكان، وثلثي طاقاته الصناعية.

وتجدر الإشارة إلى أن (التفوق) لا يمكن الحصول عليه بالوسائل الهجومية فحسب، بل لا بدّ من الوسائل الدفاعية الإيجابية والسلبية. والأميركيون على خلاف مع السوفييت في هذا المجال. فإنهم يهملون وسائل الدفاع السلبي، ويكرسون جهودهم للدفاع الإيجابي بالأسلحة والصواريخ المضادة للصواريخ.

وتتضمن استراتيجية الردع هذه نقطة ضعف من الناحية النظرية، بسبب تناقضها الداخلي. فالاستقرار المرغوب فيه على المستوى النووي يتناقض بالفعل مع الرغبة بالتفوق الضروري للهيمنة على عملية التصعيد. فأين هو العدو، الذي يقبل أن يكون في موقف الضعف في عملية الرد، في الوقت الذي يمكنه استخدام قدراته في الضربة الأولى ؟

وقد أدخل الرئيس نيكسون، فيما بعد، تعديلاً رئيسياً على (**مذهب ماكنمارا**) استناداً إلى جوهر مبدأ (**الرقابة على السلاح**). فقد لوحظ أن (**نظرية التدميرات المتبادلة المؤكدة**) لم تمنع السوفييت عملياً من متابعة جهودهم في مجال صنع الصواريخ العابرة للقارات. ففي عام ١٩٧١ استطاع السوفييت التفوق على الولايات المتحدة في عدد الصواريخ، فأصبح لديهم ١٥١٠ صواريخ مقابل ١٠٥٤ لدى الولايات المتحدة. وفي هذا الظرف بالذات، طرح الرئيس نيكسون أمام الكونغرس (**نظرية الكفاية الاستراتيجية**)، التي يمكن على أساسها قبول (عدم التوازن الكمي)، في حدوده الدنيا، مقابل وقف سباق التسلح، ما دام الأميركيون يحتفظون (بالتفوق النوعي)، وما دامت الصواريخ السوفييتية مزودة برأس نووي واحد، على عكس معظم الصواريخ الأميركية التي تحمل رؤوساً متعددة. أضف إلى ذلك، أن الرئيس نيكسون انتقد مبدأ (التدميرات المتبادلة المؤكدة) بسبب صلابة **نظام آلية التصعيد**، أي توجيه الضربات للسكان. وقد قال: «نظراً لتعدد الأوضاع السياسية العسكرية المحتملة، التي قد نجد أنفسنا أمامها، فإن سياستنا الاستراتيجية يجب أن لا تقوم فقط على القدرة على تكبيد المدن والمراكز الصناعية المعادية حدوداً من الخسائر تتجاوز المستوى الممكن قبوله»[١٤].

(١٤) من رسالة الرئيس نيكسون إلى الكونغرس في ٩ شباط ١٩٧٢.

وكان هذا التعديل الجوهري بمثابة رفض للتفوق الذي اقترحه (مذهب ماكنمارا) كما فتح الطريق (**التعادل**) على أساس (**التكافؤ الجوهري**) ومقدمة لـ (**مذهب شليزنغر**).

١٢ ــ تطور الاستراتيجية الأميركية بعد عام ١٩٧٢

نظراً لتمسك ماكنمارا بمفهومه الخاص القائم على سياسة (التدميرات المتبادلة المؤكدة)، الذي يعطي الأفضلية لتطوير الأسلحة الهجومية، فقد ابتدىء باختيار إنشاء الدفاع المضاد للصواريخ، وانتهى في عام ١٩٦٧ إلى اقتراح صنع سلاح دفاعي خفيف يوجه ضد الخطر الصيني المحتمل. وأوضح، في الوقت نفسه، أن السلاح ستكون له حسنة ثانوية هي حماية الصاروخ مينوتمان ضد هجوم سوفييتي. وعلى هذا الأساس تضاعف التسابق، في المجال الهجومي، وبدأت مبارزة جديدة في مجال الدفاع الإيجابي (الفعّال). وبالرغم من ذلك لم يتم إنجاز شيء، في مجال الدفاع المدني (السلبي)، وبدا للعيان أن التخلف الأميركي في هذا المجال كان واضحاً.

وتوصلت واشنطن، طبقاً لروح (مبدأ الرقابة على السلاح) إلى عقد معاهدات مع موسكو للحد من استخدام الطاقة النووية في المجال العسكري(١٥)، وفي سبيل المساهمة في الاستقرار الدولي، كما يتصوره الجانب الأميركي، وافقت الولايات المتحدة على بدء المفاوضات في عام ١٩٦٩، للوصول إلى معاهدة لتحديد الأسلحة النووية الاستراتيجية سالت ــ ١. وقد توصلت هذه المفاوضات، المشهورة بالفعل، إلى اتفاق تم توقيعه في موسكو عام ١٩٧٢، وألحق به بروتوكول خاص، وقع في فلاديفوستك سنة ١٩٧٤.

وبموجب نصوص هذا الاتفاق، تم تحديد الأسلحة المضادة للصواريخ بقاعدتين فقط، كما تم الاتفاق، فيما بعد، على أن يقتصر كل طرف على بناء قاعدة واحدة. أما الأسلحة الهجومية العابرة للقارات فلا يجوز أن تتجاوز المستوى الذي كانت عليه في عام ١٩٧٢. وتم الاتفاق أيضاً على استمرار المفاوضات للوصول إلى الاتفاقية التي سميت سالت ــ ٢.

---

(١٥) منها المعاهدة الخاصة بجعل القطب الشمالي منطقة مجردة من السلاح النووي. ومعاهدة تلاتياوكو، التي تحرم وجود الأسلحة النووية في أميركا اللاتينية. ومعاهدة موسكو، التي تحرم التفجيرات النووية في الفضاء الخارجي وتحت البحار، ومعاهدة أخرى تحرم انتشار الأسلحة النووية.

وتعتبر اتفاقية سالت ـــ ١ في جوهرها حدثاً هاماً في تاريخ العالم. فلأول مرة وقعت اتفاقية تستبعد جميع المسائل السياسية والايديولوجية، وتكرس بكاملها للمشاكل الاستراتيجية. ويمكن اعتبار ذلك انتصاراً لمبدأ (الرقابة على الأسلحة)، ولنجاح (مذهب التدميرات المتبادلة المؤكدة) لأن المدن، في بلاد الطرفين المتعاقدين، أصبحت (رهائن)، وحرمت مهاجمتها منذ ذلك الوقت.

ويبدو أن المعاهدة كانت (عادلة)، بل يمكن اعتبارها في مصلحة الأميركيين فقد تبين أن الأسلحة المسماة A.B.M[١٦] باهظة التكاليف وقليلة الفعالية. وقد ذهبت واشنطن، بعد هذه المعاهدة، إلى حد إلغاء القاعدة الوحيدة التي سمحت بها الاتفاقية. أما موسكو فلم تنشئ إلا ٦٤ فوهة أرضية (سيلول) لإطلاق الصواريخ، من أصل ١٠٠ فوهة سمحت بها الاتفاقية. وعلى أثر ذلك أعلم السوفييت، أمانة السر الدائمة الخاصة بالمعاهدة، في عام ١٩٨٠، أنهم أزالوا (الفوهات)، التي سبق وأنشؤوها. ولم يكن ذلك يعني التخلي عن فكرة الدفاع ضد الصواريخ، بل القناعة بعدم فعالية هذا النوع من الأسلحة.

والخلاصة، فإن الأميركيين قبلوا في النهاية، أن يكون لدى السوفييت عدد أكبر من الصواريخ، أكثر كثيراً مما لديهم من الصواريخ والغواصات، دون أن يؤدي ذلك إلى أية خسارة لهم. ومع ذلك فقد تبدل الظرف، الذي وقعت فيه المعاهدة بسرعة غير متوقعة، وأدى هذا التغيير إلى زوال التفوق الأميركي، أو على الأقل لم يعد يصبح له أي معنى حقيقي، ذلك لأن السوفييت استطاعوا خلال وقت قصير نسبياً إنجاز الصواريخ ذات الرؤوس النووية المتعددة والموجهة تلقائياً، وذلك بوتيرة أسرع مما كان يتوقعه الأميركيون. ونتيجة لذلك انقلب الوضع العام، واختل توازن القوى بين الطرفين من جديد.

ولكي تجابه الولايات المتحدة هذا الوضع الجديد، عمدت إلى تبني مذهب شليزنغر، الذي سبق وأشرنا إليه في خطوطه الرئيسية.

---

(١٦) A.B.M هو تعبير مختصر لـ Anti Ballistic Missiles، مضاد للصواريخ الباليستية.

١٣ ـــ حدود الاستراتيجية الأميركية

انطلقت الولايات المتحدة، في عام ١٩٤٥، من موقع السيادة الكاملة على العالم. فقد تسلمت ذروة التكنولوجيا الألمانية واليابانية والأوروبية الغربية، وأصبحت أعظم قوة اقتصادية، فهل اضطرت في آخر الأمر لقبول حدود لاستراتيجيتها، إلى درجة يمكن الكلام بعدها عن (**تعادل بالقوى مع الاتحاد السوفييتي**). إن هذه الحقيقة هي نتيجة أولية هامة لأنها تطرح، بشكل واضح (**مسألة أمن أوروبا الغربية**).

١٤ ـــ التوازن بالهشاشة

لقد تم توقيع معاهدة سالت ـــ ٢، في عام ١٩٧٩، ولكن تصديقها أدى إلى خلق بعض المشاكل، والكشف عن عدة حقائق بددت الشكوك حول حقيقة (**مفهوم التفوق الأميركي**). فإذا كانت المعاهدة تحدد عدد الأسلحة النووية الهجومية، أو بمعنى آخر تحدد الصواريخ العابرة للقارات المنقولة بوسائط مختلفة (بالصواريخ أو الطائرات أو الغواصات»، فإنها لم تحدد التسابق في مجال تحسين وتطوير التكنولوجيا. وإذا كان الاتحاد السوفييتي قد قبل، منذ الآن، الدخول في المنافسة النوعية، فهذا يعني أنه واثق من إمكانية في هذا المجال، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تعتمد دوماً في قوتها على تفوقها التكنولوجي.

وتدل المستويات، التي أخذت بعين الاعتبار في معاهدة سالت ـــ ٢، على وجود ميزة تكنولوجية لصالح الولايات المتحدة. والحقيقة أن هذا التفاوت بين الدولتين في هذا المجال. بدأ يتضاءل بشكل هائل منذ عام ١٩٥٠. ويمكن لهذا الاتجاه أن يتزايد خلال أعوام الثمانينيات. وهذا يعني أن أحد أسس التفوق الأميركي في طريقه إلى الزوال.

وهكذا فإن اتفاقية سالت ـــ ٢، بحد ذاتها، تؤكد فشل (نظام الرقابة على الأسلحة). وحتى بصرف النظر عن معاهدة سالت ـــ ٢، فإن هناك مجموعة من المؤشرات والمعايير، التي تقاس بها القوى النووية، يمكن أن تقيم وضعاً من التعادل بين الخصوم. بينما نجد أن (مذهب الرد المناسب) يتطلب بالضرورة، وعلى المستوى النووي وضعاً متفوقاً، يمكن معه المحافظة على إمكانية (الردع).

وتفترض الاستراتيجية الأميركية وجود قوة ضاربة، قادرة على توجيه ضربة جوابية تكبد الاتحاد السوفييتي خسائر لا يمكنه قبولها. أما في حالة بدء السوفييت بتوجيه الضربة الأولى بصواريخهم العابرة للقارات أرض ــ أرض، فإن قوة الرد الأميركية، على الرغم من الخسائر الهائلة المتوقعة، ستبقى قاذرة على توجيه ضربات قوية جداً للأراضي السوفييتية.

وحتى بعد ذلك، «سيبقى لدى السوفييت ما يكفي من أسلحة أرض ــ أرض لكي يدمروا المجتمع الأميركي تدميراً يصل إلى حد انتزاعه من جذوره»[١٧] يضاف إلى ذلك، أن السكان والاقتصاد الأميركي أكثر تمركزاً وكثافة مما هو عليه الحال في الاتحاد السوفييتي. ولهذا فهو أكثر تعرضاً للخطر، أو بمعنى أدق (أكثر هشاشة) وحساسية. وقد ازدادت هذه الهشاشة بسبب ضعف الجهاز الدفاعي السلبي الأميركي.

وعلى العكس، فإن الاتحاد السوفييتي لا يملك قوة دفاع مدني فحسب، بل ولم يتوقف عن مضاعفة جهوده في مجال الدفاع الإيجابي، بواسطة الأسلحة المضادة للجو، والتي تشتمل على صواريخ أرض ــ جو، وطائرات مخصصة للاعتراض. وفي إطار هذه الشروط قد لا تكون الضربات الجوابية الأميركية قوية كما يتوقع لها. لهذا لا بد من الحصول على تصور احتمال جديد: وهو أن الولايات المتحدة قد تضطر أمام التهديد بضربة سوفييتية ثانية إلى التخلي عن الضربات الجوابية. وهكذا سيرتد الردع ضد الذين أسسوه. أما إذا استطاعت الولايات المتحدة تحمل ضربة سوفييتية موجهة ضد القوات حصراً، فإنها في هذه الحالة ستقرر الرد على السوفييت.

١٥ ــ عيوب المفهوم الاستراتيجي الأميركي

وضع (نموذج الاستراتيجية الأميركية) في البداية، كما هو معروف، على أساس أن البنتاغون، ومعه معظم المنظرين الاستراتيجيين، يعتقد «أن الولايات المتحدة حصلت على التفوق التكنولوجي بشكل نهائي وإلى الأبد». بينما أكدت الحقائق أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع، فقد صرح الجنرال هيغ قائد قوات حلف الأطلسي في أوروبا، بما يلي: «لقد اعتدنا التقليل من أهمية تقدم التكنولوجيا السوفييتية»[١٨].

(١٧) وردت هذه العبارة على لسان هنري كيسنجر.

(١٨) نشر هذا التصريح في صحيفة هيرالد تريبيون الدولية، في عددها الصادر بتاريخ ١٤ ايار ١٩٧٩. ومن ←

وضمن هذه الظروف كان الحل الوحيد هو (الردع المتبادل)، ولكن من أجل ذلك، لا بد من وجود: (رادعين ومردوعين)، وأن كل طرف من الأطراف يمكن أن يلعب الدورين، أو بعبارة أخرى، لا بدّ من توفر العقلانية لدى الطرفين، أي الاتفاق حول مفهوم الردع. والحقيقة أن هذا التفاهم لم يحصل إطلاقاً. فالمفهوم الاستراتيجي السوفييتي يتصف باستمرارية رائعة، وهو (مفهوم استخدام) وليس (مفهوم ردع)، كما أنه حصيلة نظرة مختلفة كلياً، ومناقضة تماماً للمفاهيم الليبرالية الأميركية. لقد حدد السوفييت هدفاً لهم هو (الحصول على التفوق على خصومهم، أو التعادل معهم على الأقل). وكان السوفييت دائماً في وضع المهاجم، بينما كان الأميركيون في وضع المدافع، ولم يبذلوا الجهود الكافية للمحافظة على مكتسباتهم. وطبيعي بعد ذلك أن تتحول المبارزة لصالح الهجوم، شريطة أن يخصص لها المجهودات الضرورية، حتى ولو أدى ذلك إلى التضحية ببعض القطاعات الاقتصادية الأخرى.

ولكي يتصدى الأميركيون للاستراتيجية السوفييتية كان عليهم أولاً أن يفهموها، وأن يقدروها حق قدرها ثانياً، ثم يعملوا على التصدي لها. وقد خيل للأميركيين، بسبب تأثير الخوف من احتمال تعرض بلادهم للمصير الكريه (الذي تعرضت له هيروشيما وناغازاكي)، وتحويل أراضيهم إلى مسرح للحرب، وأي حرب !!. لقد خيل لهم أنهم وجدوا الحل الناجع لتجنب ما يسمونه بـ(الاحتمال غير المعقول). وقادهم هذا إلى الاعتقاد بأن السوفييت (الأعداء) يتبنون الاستراتيجية التي يريدونها لهم. ولم يستطع بعض المنظرين التشكيك في صحة هذه (المقولة) الوهمية عن العدو إلّا في أعوام الثمانينيات.

وبالرغم من أن واشنطن بدأت تتبنى مفهوم استخدام السلاح النووي منذ العام ١٩٤٥، فإنها لم تفكر جدياً وعملياً بأن (**استراتيجية الردع**) سوف تكون متبادلة في يوم من الأيام. وأثبتت الأحداث عدم صحة هذا الرأي. ومما لا شك فيه أن الصعوبة في فهم الاستراتيجية السوفييتية يجب البحث عنها في (عقلية الأميركيين) أنفسهم. ومن

المعروف أن هيغ أصبح وزيرا للخارجية، بعد استلام ريغان منصب الرئاسة في الولايات المتحدة مع بداية عام ١٩٨١.

المعروف أن الأميركيين لم يخسروا سوى ٥٠٠ر٥٨١ر١ نسمة بسبب الحروب أو الثورات، منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى العام ١٩٧٩، بينما خسر الروس، في هذه الفترة نفسها ما يزيد عن ٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠ نسمة. وهذه الحقيقة وحدها يمكن أن تعطي تفسيراً أولياً لظاهرة الوعي الجماعي الأميركي، الذي يرفض فكرة (الكارثة)!. كما يمكن أن نجد فيها جذور الحساسية النفسية التي امتاز بها الأميركيون: وهذا يعني أن الأميركيين لن يكون لديهم القدرة الكافية على هضمه، أو امتصاص الخسائر البشرية الكثيفة، كما هي الحالة عند السوفييت[١٩].

يضاف إلى ذلك سذاجة الأميركيين وحداثتهم في خوض الصراع السياسي في العالم وإدارته. فالأميركيون يفكرون بإمكانية تسوية كل النزاعات عن طريق التفاوض والشرح والتفسير، وذلك بسبب ميلهم الغريزي للمواعظ العظيمة والتبشير. ومن الأدلة على ذلك أن بول وارنكه مدير مؤسسة ACDA وصل إلى حد الكلام عن «تربية السوفييت، في آذار ١٩٧٧، ووصفهم بالبدائيين فيما يتعلق بالاستراتيجية»، فهل هنالك سذاجة في التصوير والتفكير أكثر عقماً من هذه الآراء. هذا في الوقت الذي تبرز فيه الاشتراكية كمدرسة عالمية، وإن الاستراتيجية السوفييتية تفتخر بأنها رفعت العلم الأحمر فوق عاصمة الرايخ الثالث، بعد حرب طويلة كانت في منتهى الشراسة والقسوة، وأن الجيش السوفييتي يفتخر بأنه رفع المستوى الثقافي لضباطه، إلى درجة أصبح حوالي ٧٠٪ منهم يحملون ألقاباً جامعية.

وإذا كان هناك بعض نقاط الالتقاء بين الاستراتيجيتين السوفييتية والأميركية، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى التقارب بين مفاهيم الطرفين، بل يرجع بكل بساطة إلى عقلانية عالمية فرضت نفسها على الطرفين.

وعند توقيع اتفاقية سالت ــ ٢ خيل للأميركيين أن السوفييت تبنوا (استراتيجية ردع متبادل)، ضمانتها مدن البلدين، التي أصبحت في حالة الرهائن، لأنهم لم يتخلوا عن (نظام الدفاع القائم على الصواريخ المضادة للصواريخ). أما السوفييت فقد تخلوا فعلاً

---

(١٩) الأستاذ ريتشارد بيبس، من جامعة هارفرد، ومقالة الأميرال سيلفست «هل الردع نظرية أم حالة واقعية؟»، الذي نشر في مجلة الدفاع الوطني في آب ــ أيلول ١٩٧٨.

عن هذا النوع من الأسلحة، لا لأنهم وصلوا إلى الخلاصة نفسها التي وصل إليها الأميركيون، بل لأن معادلة (الكلفة / المردود) لا تشجع على الاحتفاظ بمثل هذه الأسلحة. وقد اعتقد البنتاغون أن النتائج التي توصلوا إليها تسمح للأميركيين بالتخلي عن الدفاع الإيجابي والسلبي والاعتماد على (استراتيجية التدميرات المتبادلة المؤكدة). أما موسكو فقد ضاعفت جهودها لزيادة قدرة قواتها المسلحة على الدفاع الجوي ضد الصواريخ، وعلى الدفاع المدني. ومن المحتمل أن تؤدي هذه النقطة إلى إحداث خلل في التوازن بين القوتين.

وبينما كان الأميركيون يعتقدون أن إقامة الاتصال بين واشنطن وموسكو، بالمبرقة الكاتبة (التلكس) الحمراء، وتوقيع عدد من المعاهدات، التي تحد من خطر الحرب، أصبحت جزءاً من التيار الفكري الخاص بنظام (**الرقابة على الأسلحة**)، كان سلوك السوفييت ينبع من مفهوم (**التعايش السلمي**).

وقد وصلت الاستراتيجية الأميركية والاستراتيجية السوفييتية في ذلك إلى (نقطة مشتركة)، حول الشكل، الذي يمكن أن تأخذه المجابهة المسلحة في المستقبل، وهذا الشكل هو (الحرب المحدودة المسرح) بالنسبة لواشنطن، و(الحرب المحلية) بالنسبة لموسكو، مع احتمال التصعيد التدريجي نحو حرب شاملة. وترجع نقطة الالتقاء المشتركة هذه إلى تطور المفاهيم الأميركية. فمفهوم (الرد المرن) بسلمه المنخفض جداً، اعترف بضرورة الأخذ بعين الاعتبار (لاستراتيجية الاستخدام) أكثر من استعمال (**مناورة التهديد بالاستخدام**).

وهكذا نرى أن الاستراتيجية الأميركية كانت تعاني، منذ ثلاثة عقود، من تأثيرات الاستراتيجية السوفييتية. وعندما انتهى التفوق لم يعد بإمكان البنتاغون فرض مفاهيمه على السوفييت، لأنه لم يستطع إقناعهم بها. وبذلك يكون الردع، الذي تصوره الأميركيون، قد هزم. بمعنى أنه لم يستطع تقييد خصمه. وكانت المسألة، التي طرحها البنتاغون على نفسه، تتعلق بالضربة المعادية الأولى، التي سيكون من الضروري ردعها بضربة صديقة قوية.

وتجدر الملاحظة إلى أن الأميركيين أصبحوا في النهاية أسرى لمفهومهم، على الرغم

من أنهم لاحظوا أن الردع بدأ يرتد ضدهم . فضربتهم الجوابية لا يمكن إلا أن تقلل من أهمية ضربة السوفييت الثالثة ، ومع ذلك سيبقى لدى السوفييت من القدرة ما يمكنهم من تكبيد الأميركيين خسائر كبيرة في السكان ، مما يعرض المجتمع الأميركي بكامله للخطر . وإن المدى المتوسط لا يوحي بأي أمل يحمل معه تبدلاً هاماً في هذا المجال .

ونستطيع القول في الخلاصة بأن الردع يمكن أن يكون قد فشل كاستراتيجية ، ولكنه لا يزال يفرض نفسه كعقلانية عالمية . زد على ذلك أن إمكانات الولايات المتحدة على التدخل في العلاقات الدولية لا بد وأن تتضاءل . وسيكون « على الإدارة السياسية الأميركية أن تصبح أكثر حذراً عند معالجتها للأزمات الدولية »[٢٠] .

لقد أخذت الاستراتيجيتان ، الأميركية والسوفييتية ، منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن ، بركاب سباق التسلح بين الدولتين العملاقتين ، لأن كلاً منهما تطالب بإحراز التفوق العسكري على الأخرى . فالاستراتيجية الأميركية ترمي إلى إظهار التفوق عملياً ، في إحدى درجات (الرد المرن) ، والاستراتيجية السوفييتية تصر على إحراز النصر وإبادة العدو .

ويصر الطرفان ، في جو من الحذر الشديد ، على الحصول على قوات عسكرية كافية ، ليتمكنا من التفاوض على تحديد الأسلحة ، دون تكبد خسائر باهظة . ويعتقد الطرفان ، أنه لا بد من ترسيخ الأمن والسلام ، خلال مدة تتراوح بين ١٠ و ١٥ عاماً ، من أجل اختراع سلاح حديث هام ، وجعله صالحاً للاستخدام في العمليات الحربية . وإن المصلحة الخاصة لكل من الطرفين تدفعه إلى استباق الأحداث ، خوفاً من تفوق خصمه من الناحية التكنولوجية . والنقطة الأخيرة هي أن تظاهرة القوة ، بالنسبة لهذا الطرف أو ذاك ، كانت تهدف دائماً إلى البرهنة على تفوق نظامه السياسي والاجتماعي . ويكرر السوفييت هذا الادعاء دون أي تحفظ « إن الثورة العلمية والتقنية هي الحلبة الأعظم أهمية التي يتبارز فيها النظامان الاجتماعيان والاقتصاديان ، وهي الوسيلة الصحيحة لإثبات المحاسن التاريخية للإشتراكية ولتفوقها على الرأسمالية »[٢١] .

---

(٢٠) تصريحات هنري كيسنجر ، التي نشرتها مجلة الايكونوميست في ٣ شباط ١٩٧٩ .

(٢١) غريتشكو : (القوات المسلحة السوفييتية) ، صفحة ١٨٤ ، ووكالة الصحافة السوفييتية (تاس) في عددها الصادر في ٢١ آب ١٩٧٩ .

ولما كانت هذه المعطيات ذات صفة دائمة، فإن الجهود التي تبدل لتحسين الإدارة العسكرية لا يمكن أن ينظر إليها كهدف له الأفضلية الأولى لدى الأميركيين والسوفييت. ومع ذلك فإن المفاوضات حول تحديد الأسلحة يمكنها أن توصل إلى إنهاء السباق على التسلح. وهذا هو الدرس، الذي يمكن استخلاصه بالفعل، من اتفاقيتي سالت ــ ١ و سالت ــ ٢. ولكن إذا كان التسابق يمكن أن يتوقف على الصعيد الكمي، فإنه سوف ينتقل، بسرعة مدهشة ومتزايدة، إلى المجال النوعي.

وتجدر هنا الإشارة إلى النتائج التي اقترنت بتوقيع اتفاقية سالت ــ ٢. فبعد توقيع هذه الاتفاقية مباشرة، رأينا رئيس الولايات المتحدة الأميركية يعلن فجأة عن وضع برنامج لإنتاج الصواريخ المتحركة أرض ــ أرض من نوع ام اكس M X، وكان ذلك تمشياً مع نص وروح الاتفاقية، التي تسمح بإنجاز أسلحة استراتيجية جديدة في كل من المعسكرين مع المحافظة على القيود العامة. ومن خصائص الصواريخ المتحركة المذكورة أنها تستطيع ردع الهجوم السوفييتي المفاجىء، ذلك لأن الحدود المنصوص عليها في اتفاقية سالت ــ ٢ لن تمكنهم من تدمير ٤٦٠٠ ملجأ لصواريخ ام اكس وجميع قواعد صواريخ تيتان والمدن الأميركية. «وإذا لم تقيد حريتهم بمعاهدة ما، مثل سالت ــ ١ أو سالت ــ ٢ أو غيرها، فإن السوفييت سيتمكنون، من الناحية النظرية والعملية، من بناء ما يكفي من الرؤوس النووية لبلوغ جميع أهدافهم» بل وأكثر من ذلك كما قال جيمس فوستر، الخبير الأميركي في الشؤون العسكرية[٢٢].

ولهذا فإن الغالبية العظمى من الأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الأميركية تعتقد أنه من الضروري التصديق على معاهدة سالت ــ ٢، مهما كانت الظروف العالمية، بما في ذلك التدخل العسكري السوفييتي في أفغانستان. وهذا ما عبّر عنه الخبير المذكور نفسه، عندما قال «لست متأكداً من أن الصاروخ ام اكس يمكن أن تكون له أية قيمة مع وجود اتفاقية سالت، ولكنه لا يعني شيئاً على الإطلاق دون هذه المعاهدة»[٢٣].

---

(٢٢) مجلة التايم، في عددها الصادر بتاريخ ٧ نيسان ١٩٨٠.

(٢٣) لورانس فريدمان، كما أوردته صحيفة التايم في ١٧ نيسان ١٩٨٠.

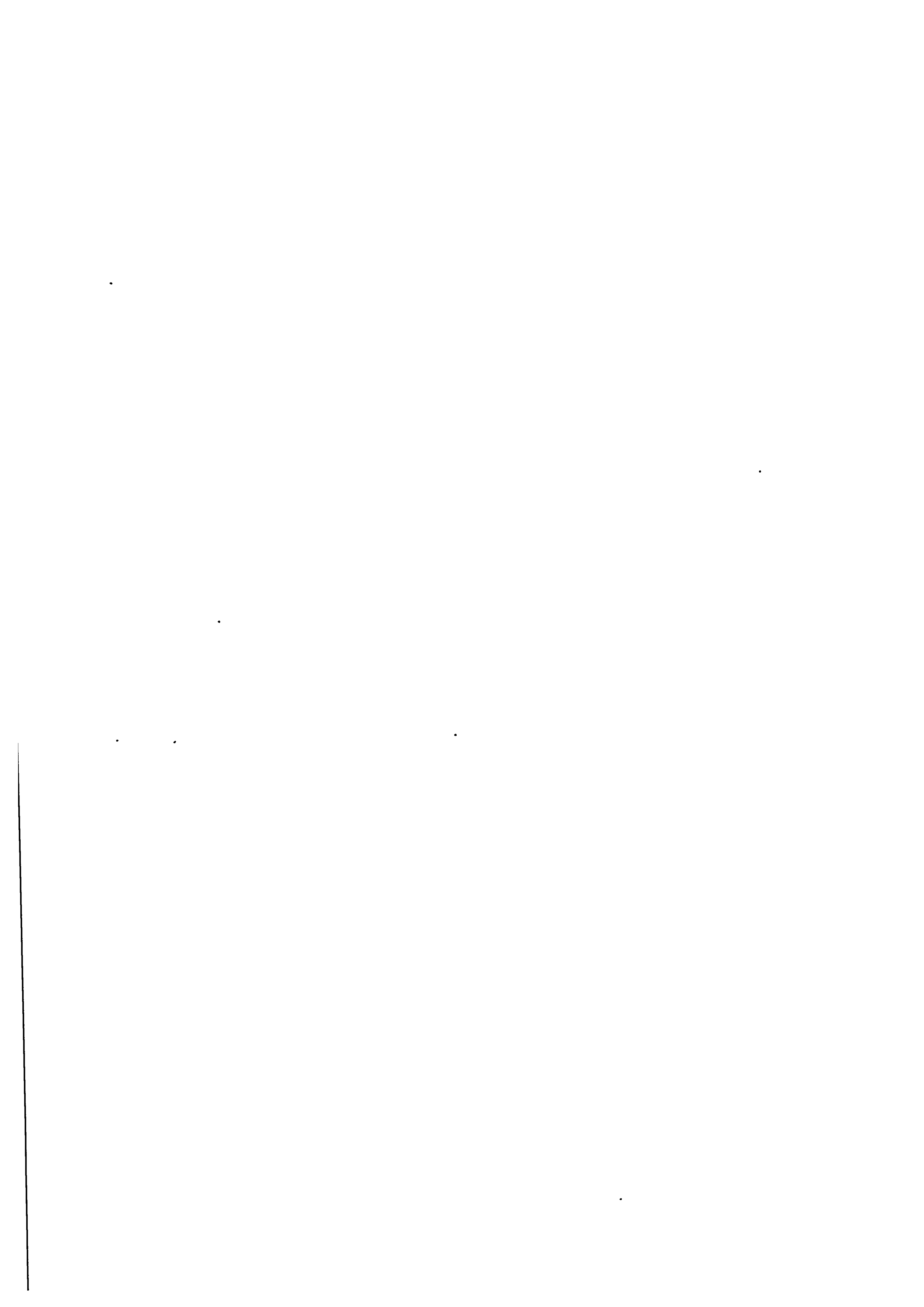
زد على ذلك أنه من غير المعقول أن نتصور أن السوفييت سيقفون مكتوفي الأيدي ، ولا ينجزون نظاماً معيناً للرد على نظام الـ ام اكس . بل وسوف يسعون للتفوق ، والمحافظة على نسبة القوات التي حددتها معاهدة سالت ـــ ٢ أو تحسين هذه النسبة ، علماً بأن المعاهدة تسمح بذلك صراحة .

ويبدو أن (سباق التسلح) يجد في (الفضاء الخارجي) مجالاً متميزاً لا حدود له ، ولذلك تندفع الدولتان العظميان في هذا المجال لإيجاد أسلحة قادرة على اكتشاف الصواريخ العابرة للقارات ، منذ إعقلاعها وأثناء مسارها الفضائي ومن ثم تدميرها . ولكن تحول الأسلحة وتدميرها إلى الفضاء الخارجي ، عوضاً عن تدميرها على سطح الأرض ، ليس أقل خطورة على جو الكرة الأرضية وعلى سكانها .

وهكذا يبدو من جديد أنه ما دامت (الاستراتيجية) فناً وعلماً ، أو كلاهما معاً ، فإنها أيضاً حوار بين إرادات وممارسات . وفي هذا المجال استطاع السوفييت في الواقع فرض استراتيجيتهم على الأميركيين ، وجعلها حالياً في مرحلة ضياع واستعادة للهيبة السابقة .

الفصـــل الحـادي عشـــر

خصائص استراتيجية الحرب العالمية المقبلة للولايات



أولاً ـــ حرب الفضاء

١ ـــ عسكرة الفضاء من النظرية إلى التطبيق

بالرغم من كثافة المشكلات الدولية التي يعاني منها العالم فتهتز أعصابه لها، ويمتلىء خوفاً منها، وفي مقدمتها: سباق التسلح الرهيب، وثالوث الجوع والمرض والتخلف، والتناقضات الاقتصادية الحادة التي تعيشها العلاقات الدولية، وشهية الاستعمار الجديد المندفعة باستمرار للعودة إلى بلدان العالم الثالث، واستراتيجية الهيمنة المطلقة التي تحاول الأمبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الأميركية فرضها على المجتمعات الإنسانية، بالرغم من هذا كله فقد قفزت مشكلة الفضاء إلى مقدمة القضايا الخطرة، خاصة وأن الرغبة العدوانية الجديدة قد أخذت على عاتقها أمر ترويض الفضاء واستخدامه عسكرياً والسيطرة عليه، ومن ثم تحويله إلى قاعدة حربية للسيطرة على الكون بكامله، وهو الأمر الذي برز منذ مطلع الثمانينيات، ومضى يتطور بوتائر سريعة للغاية.

وهكذا برز للوجود مصطلح (حرب الفضاء) حيث عكف الاستراتيجيون العسكريون في الغرب والشرق على دراسته، وتقصي أبعاده، وتتبع نتائجه وآثاره، خاصة بعد أن رصدت الولايات المتحدة الأميركية اعتمادات مالية ضخمة لتطوير أسلحة الفضاء، مما دفع بالاتحاد السوفييتي لتبني سياسة دفاعية تؤمن الردع المرن من جهة، ودعم السلام العالمي وحمايته من جهة أخرى.

لقد أصبحت السيطرة المطلقة على الفضاء، وتسليحه، وتجهيزه عسكرياً الشغل

الشاغل لقادة (البنتاغون) ، الذين يلقون الدعم من أصحاب شركات الصناعة الحربية والمراكز المالية ، حيث ورد هذا في الأمر الرئاسي الصادر في حزيران ١٩٨٢ تحت عنوان (السياسة الفضائية القومية) .

لقد وضعت الولايات المتحدة الأميركية لنفسها هدفاً استراتيجياً يتمثل بتشكيل جهد عسكري حربي كبير يؤمن القضاء على التوابع والأقمار والمحطات المعادية الموجودة في الفضاء ، ويدمر الأهداف الأرضية والمراكز القيادية والحيوية الاقتصادية ـــ الاجتماعية على الأرض وفي البحر ، والغلاف الجوي بآن واحد ، وعليه أن يوفر الردع الكامل لصواريخ العدو المضادة ووسائطه التي ستستخدم في الضربة الجوابية .

وفي آذار ١٩٨٣ أطلق الرئيس الأميركي ريغان من خلال خطاب تلفزيوني له صرخة جديدة أسماها (حرب النجوم) ، معتبراً أنها حقيقة واقعية وليست من نسج الخيال .

بعد هذا سارع المهتمون الأميركيون في شؤون الحرب المقبلة لوضع خطة متماسكة ، من شأنها تحقيق هذا الخيال ، بينما توالت المؤتمرات والدراسات والمؤلفات في الصدور خلال السنتين الأخيرتين ، لبحث هذه المسألة من مختلف الجوانب ، والتي يعتبر الجانب العسكري التقني والاستراتيجي هو الأهم من بينها .

إن خطورة موضوع عسكرة الفضاء الكوني ، وسبب اهتمام الأوساط العالمية به تنبع من كونه يشكل حلقة جديدة في سلسلة سباق التسلح الذي يعرّض البشرية كلها لخطر الكارثة الإنسانية الشاملة ، خاصة وأن نشر الأسلحة في الفضاء المحيط بالأرض يعني وجود النية والقدرة على استخدامها في المنظور القريب .

فالفضاء أصبح عملياً وبرغم جميع المقترحات الثنائية والمشتركة والعالمية التي قدمت لمنع عسكرته ، ونقل الأسلحة والأعتدة الحربية إليه ، أصبح اليوم مسرحاً للتنافس العسكري بين الجبارين ، وتحول إلى خطر مدمر دائم مصلّت على رؤوس البشر .

وانتقال الأسلحة الفتاكة إلى الفضاء يعني القضاء على جميع الآمال التي تعقدها المجتمعات الإنسانية من أجل التوصل لاتفاقية شاملة بشأن الحد من الأسلحة النووية ، ومنع انتقالها إلى الفضاء .

وفي الواقع فإن لمخاوف الإنسانية هنا ما يبررها. فالحرب العالمية الثانية بجميع معطياتها ليست شيئاً يذكر أمام الصورة الجديدة المأساوية التي ستذهب بالعالم كله : بشراً وطبيعة ووجوداً من جراء الحرب النووية المقبلة التي سيلعب فيها الفضاء دوراً مخيفاً للغاية ، الأمر الذي نبه إليه المؤتمر الثاني لهيئة الأمم المتحدة المنعقد في آب ١٩٨٢ في فيينا ، والذي حضره مندوبون عن مئة بلد من بلدان العالم ناقشوا موضوعات الاستخدام اللاحق للمحيط السادس (الفضاء) ، حيث خلصوا إلى تأكيد الأهمية الكبرى التي يعلقونها على سلامة الفضاء الخارجي ، وعدم استخدامه عسكرياً .

إن خطورة حرب الفضاء تنبع من كونها متعذرة الردع فيما إذا نشبت من جهة ، وتسبب اندلاع الحروب الأرضية في الوقت نفسه من جهة أخرى ، ويستحيل إيقافها جزئياً أو كلياً عن طريق إحراز نصر من جانب على آخر من جهة ثالثة . إنها بهذا تعني (نهاية البداية وبداية النهاية) . على حد تعبير الفلاسفة .

وحتى الآن يمكن التأكيد على وجود قواعد عسكرية ومراكز حربية وأماكن انتشار فضائية مخصصة للاستخدام القتالي ضد الأرض ، أو في الفضاء نفسه ، وهو أمر لم يعد لأحد القدرة على إنكاره ، ولهذا فإن أية محادثات تجري الآن لوقف سباق التسلح في الفضاء ، أو لمنع عسكرته والإبقاء عليه منطقة سلام وأمان إنما يجب أن تنطلق من التجهيز العسكري الحالي ، وضرورة منع تزايده وتضخمه وانتشاره ، خاصة وأن المعلومات الهامة جداً تشير إلى أن التفوق المطلق في مجال الفضاء لم يكتب لأحد حتى اليوم ، بالرغم من الخطوات التي أقدمت عليها الولايات المتحدة الأميركية مؤخراً لدفع عجلة التسليح باتجاهه ، وإجبار الخصم على تخصيص اعتمادات هائلة وقدرات مادية وبشرية كبيرة للحاق بها ، بحيث يمتنع عليه التقاط أنفاسه ، وبحيث ينشغل عن اهتماماته المتعددة في شؤون السلم والأمن العالميين ، وخير الشعوب والمجتمعات الإنسانية .

يشير كتاب (دليل جينز لرحلات الفضاء) الذي صدر في مطلع شهر أيلول ١٩٨٤ عن دار نشر جينز البريطانية المعروفة باختصاصها في إصدار الكتب العسكرية من جهة ، وبصلتها الوثيقة بحلف الأطلسي والبنتاغون الأميركي من جهة أخرى ، ومؤلفه هو ريجينالد تورنيل إلى أن الولايات المتحدة الأميركية تنشىء في الوقت الحاضر أجيالاً جديدة من الملاحين الفضائيين العسكريين الذين ستناط بهم مهمة إدارة منصات

(حرب النجوم) وتوجيهها، خاصة وأن رؤساء الأركان وجنرالات البنتاغون من الصقور يعتقدون أن (حرب الفضاء) هي الحرب المقبلة، وأنها ستكون حتماً في غضون السنوات الخمس والعشرين القادمة، إلا أن البدء بها في الحالات الاضطرارية قد يتم قبل ذلك التاريخ.

أما كبار الاستراتيجيين العسكريين فيؤكدون أن الولايات المتحدة الأميركية تخطط لبدء الحرب العالمية المقبلة، بغية تحقيق الهيمنة الأميركية المطلقة على الكون انطلاقاً من الفضاء. وأنه حتى يتم لها ذلك يجب أن تطور بسرعة منظوماتها الهجومية ـــ الدفاعية الفضائية بحيث عليها حتى ما قبل ١٩٩٠ إنفاق أكثر من تريليوني دولار، وهو ما يؤمن لها تفوقاً في الأسلحة المضادة للأقمار والتوابع والصواريخ الموجهة من الأرض إلى الفضاء، وتلك المستخدمة عبر الفضاء نفسه، بالإضافة إلى التفوق في كمية أسلحة الضربة الأولى ونوعيتها من مختلف أنحاء الكون، على الأهداف الأرضية: البرية والبحرية.

وبالمقابل فإن الدولة الأخرى الأعظم ـــ الاتحاد السوفييتي والتي تنظر بقلق بالغ لهذا **النشاط الأميركي في مجال الفضاء**، تجد نفسها مضطرة للعمل باتجاه إيجاد القوة الرادعة أيضاً في الفضاء، ما دامت المقترحات التي تقدمت بها الحكومة السوفييتية عن طريق هيئة الأمم المتحدة وفي مقدمتها: مشروع مُعاهدة لمنع نشر الأسلحة من أي نوع في الفضاء سنة ١٩٨١، ومشروع معاهدة لمنع استخدام القوة في المجال الفضائي أو من الفضاء نفسه ضد الأرض سنة ١٩٨٣، وأخيراً المذكرة التي تقدمت بها في ٢٩ حزيران ١٩٨٤ بخصوص البدء بمحادثات ثنائية مع الحكومة الأميركية حول هذا الموضوع، قد باءت جميعها بالفشل، مقابل توجه جميع المقترحات الأميركية للبدء بمحادثات تحدد الأطر العامة لمسألة عسكرة الفضاء.

ومع هذا كله
يطرح التساؤل التالي نفسه بقوة..

هل بوسع السلاح الأميركي الفضائي ضرب أهدافه الموجودة على الأرض وفي الفضاء وتدميرها كما يرى المنظرون والخبراء العسكريون الأميركيون؟ وبالتالي ما الأسلحة

المضادة للأقمار ؟ وكيف ستتوضع وتنتشر وتعمل ؟ وهل هي أسلحة من شأنها إعماء العدو في لحظة ما ، أم شل وسائطه عن الحركة ، أم تغيير مسار التوابع ومداراتها ؟

تلك هي المسائل التي تتطلب الإجابة عنها التوقف ملياً أمام المنظومة الجديدة .. ثم ألا يعني بناء هذه المنظومة من الأسلحة في الجانب الآخر انعدام ثقة الأميركيين بقدرتهم العسكرية ، وشكهم في إمكانية إخراج الأقمار الصناعيه كافةً الموجودة في الفضاء من المعركة ، اعتماداً على التقنية المتواجدة ، وفي مقدمتها أسلوب البرمجة ، لتوجيهها خارج مداراتها ، وأسلوب استخدام المواد المتفجرة المخصصة للفضاء والمتميزة بالمدى والتأثير الواسعين والدقيقين بآن واحد ؟.

إن البرنامج الأميركي المقترح لعسكرة الفضاء يعني في الوقت نفسه اتساع حزام الأمن القومي الأميركي ليحيط الكرة الأرضية كلها ، بحيث تتصل منظومة الدفاع الأميركية ضد الصواريخ العابرة للقارات بالمنظومة الدفاعية ــ الهجومية الفضائية ، وبحيث تكون هناك قواعد إطلاق ، ومرابض نارية ثابتة في الفضاء ، وموجهة ضد الصواريخ العابرة للقارات ، أي أن الدفاع الأرضي الأميركي أصبح الآن وأكثر من أي وقت مضى يرتبط بالمنظومات الفضائية الداعمة له ، مما يعني بتعبير آخر اهتزاز ثقة الأميركيين بأسلحتهم ومنظوماتهم ، وعدم تأكدهم من فعالية الضربة الأولى النووية التي يوجهونها ، ولا من استطاعتهم ومقدرتهم التامة على ردع الضربة النووية الأولى التي يوجهها السوفييت ، سواء أكانت من الأرض أم من الفضاء .

٢ ــ التطورات الجديدة العاصفة

يرى الاستراتيجيون العسكريون مستندين إلى التطبيق الواسع الذي تقوم به الإدارة الأميركية للبرامج الواسعة المخصصة لعسكرة الفضاء ، يرى هؤلاء أن الولايات المتحدة الأميركية قد دخلت فعلياً مرحلة جديدة من سباق التسلح ، حيث نقلته إلى ما حول الأرض ، ولهذا فالحرب المقبلة ستكون (حرب النجوم) .

كما يؤكد هؤلاء أن التحضير المباشر لهذه الحرب قد بدأ منذ وقع الرئيس الأميركي رونالد ريغان على التعليمات الخاصة بذلك رقم ١١٩ في ٦ كانون الثاني من

عام ١٩٨٤ ، والتي نصت على ضرورة البدء بتنفيذ برامج الاستراتيجية الأميركية الدفاعية الجديدة بإشراف البنتاغون ، وتكوين القيادة الفضائية العامة ، والقيادة المركزية ، وتطوير برامج البحث العلمي والتصنيع الحربي ـــ القتالي ، وإعداد نماذج الانتشار الكامل للمنظومات الحربية الجديدة حول الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية ، تحت غطاء مصطلح (المنظومات الدفاعية) .

إن الولايات المتحدة التي تحاول اعتماداً على هذه التدابير تغطية الأراضي الأميركية وحمايتها من الضربة الجوابية ، إنما تحضر إلى هجوم مفاجىء مجبرة البلدان الأخرى على نشر منظومات مشابهة ، ومجاراتها في هذا المجال .

لقد اقتضى الأمر من الإدارة الأميركية البدء فوراً بنشر الأسلحة والمنظومات المختلفة في الأجواء المحيطة بالأرض ، حيث ضمت مقاتلات من طراز ف ـــ ١٥ تحمل رؤوساً نووية لضرب الأقمار الصناعية ، وأنظمة للأسلحة المضادة للصواريخ ، وأجهزة ليزرية ، وإشعاعية ذات حزم ، فكان هذا بدوره حافزاً لدفع الاتحاد السوفييتي للمضي بهذا الاتجاه محتجاً بخرق الإدارة الأميركية للمعاهدة الموقعة بين واشنطن و موسكو في ٢٦ أيار ١٩٧٢ بخصوص حظر إنشاء منظومات الدفاع المضاد للصواريخ من ذات التوضع الفضائي ونشرها ، وهي معاهدة غير محدودة الزمن .

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، بل سرعان ما رافقه تطور آخر في أسلحة الضربة الأولى الأرضية للتوسيع وتعميق قدرتها الاستراتيجية عن طريق وضع آخر منجزات التقنية العسكرية في مجال العمل والاستثمار كالصاروخ العملاق م . إكس ، والغواصات من نوع ترايدنت ـــ ٢ ونافستار ، وقاذفات ب ـــ ١ .

ورافقه أيضاً تطور ثالث في بنية الدفاع الأميركي المضاد للصواريخ .

وبالرغم من أن القرار الأميركي سياسي في الدرجة الأولى إلا أن المستفيد الأكبر منه هو ـــ بلا شك ـــ الشركات الصناعية الحربية العملاقة التي تتعامل مع البنتاغون وتشترك عضوياً مع احتكارات البنوك والمراكز المالية الكبيرة .

وفي آذار ١٩٨٣ طرح الرئيس الأميركي ريغان حلاً بديلاً عن محادثات الحد من سباق التسلح وعسكرة الفضاء ، فاقترح نقل سباق التسلح إلى مجالات جديدة ، وبناء

دفاع مضاد للصواريخ واسع النطاق، أرضي ـــ فضائي بآن واحد، وهو ما كانت ترفضه الإدارات الأميركية السابقة لاعتبارات علمية ـــ تقنية وعسكرية، وأخرى اقتصادية ـــ سياسية، خاصة وأن هذه المنظومة تحتاج إلى آلاف الأجهزة الكونية المزودة بأسلحة عصرية لمَّا توجد بعد، وإلى عدد كبير ودقيق جداً من أجهزة ومنظومات الدلالة على الأهداف والملاحقة والتسديد، بحيث تظهر القدرة على إصابة الصواريخ التي تطلق من أية نقطة من نقاط الكرة الأرضية، لتدمر المراكز الحيوية والأغراض والمنشآت الأرضية عن طريق توجيه الضربة الأولى.

لقد استنتج الاستراتيجيون العسكريون والخبراء في شؤون العلاقات الدولية أن هذا المشروع الأميركي الخطير للغاية، والذي يشكل خطوة مخيفة على طريق تطبيق الخيال العلمي، وتجسيد (فانتازيا) حرب الفضاء، إنما هو في جوهره وسيلة للاستئثار بالضربة الأولى وامتلاك سبقها، مهما قيل عن الجانب الآخر المرتبط بتطوير السلاح المضاد للأقمار الصناعية الذي بدىء به مع إطلاق الاتحاد السوفييتي لأول قمر صناعي له، وطور للمرة الأولى في الفترة ما بين ١٩٦٣ ـــ ١٩٦٦، اعتماداً على صواريخ نايك زيفس، وصواريخ تور، التي نشرت في أرخبيل جونستون في المحيط الهادي، بالإضافة إلى منظومتين نشرتا في المرحلة ذاتها في جزيرتي: كفاجالين، وجونستون.

لقد كانت الولايات المتحدة الأميركية باستمرار وراء التجارب الخاصة بالتفوق الفضائي، وشل عمل الأقمار الصناعية، حيث أثبتت المعطيات العسكرية الموثوقة أنها بدأت ذلك في نهاية الخمسينيات، حيث قام سلاح الجو الأميركي طبقاً لبرنامج سبيس تريك بتجربة صواريخ مضادة للأقمار الصناعية من طراز بولر اوريون أطلقت من قاذفات طراز ب ـــ ٤٧، حيث أصاب صاروخ أميركي من هذا الطراز أطلق في عام ١٩٥٩ قمراً صناعياً يدور حول الأرض.

بعد هذا قامت القوات الحربية الأميركية في عام ١٩٦٢ بعمليتي إطلاق مماثلتين من مقاتلات طراز ف ـــ ٤ وفقاً لبرنامج هاي ـــ هو.

وفي مطلع عام ١٩٨٤ أطلق صاروخ من طائرة مقاتلة اعتيادية طراز ف ـــ ١٥ أصاب قمراً صناعياً.

ومؤخراً تم إطلاق صاروخ أميركي مضاد للرؤوس النووية المتفجرة فأصاب أحد الأجسام المتحلقة على ارتفاع ١٧٠ كيلو متراً ودمره فوراً، وهو ما أكده الجنرال لايل بيكر.

ومنذ الثمانينيات سادت التكهنات شبه القاطعة على قيام جهات معنية بتصنيع أنواعَ من السلاح المضاد للأقمار الصناعية، بغية إرسالها إلى الفضاء الكوني، حيث يؤكد الاتحاد السوفييتي أن الولايات المتحدة الأميركية قد شرعت في تجريب منظومة جديدة مضادة للأقمار الصناعية في أطر برنامج (آسات)، تضم في قوامها:

ـــ المقاتلة القاذفة ف ـــ ١٥ والتي تطير على ارتفاع شاهق، وهي مزودة بصاروخ خاص يعمل على مرحلتين وطوله ستة أمتار.

ـــ وسائل لإيصال السلاح النووي يصعب إخضاعها للمراقبة كالصواريخ المجنحة ذات التوضع الأرضي، والصواريخ الباليستية الخفيفة.

إلّا أن المهتمين من كبار القادة الاستراتيجيين العسكريين يؤكدون حتى عجز هذه المنظومة ـــ التي يعتبرها البنتاغون ضرورية لتشكيل الدرع الليزري الفضائي) ـــ عن الدفاع الكامل، وحماية أمن المجتمع الأميركي ذاته وسلامته، خاصة إذا ما تعرض للضربة الأولى، أو للضربة الجوابية المكثفة.

وعلى هذا فإن استخدام السلام المضاد للصواريخ لا يستهدف الدفاع، بقدر ما يستهدف الهجوم بغية التخفيف من قوة الضربة الجوابية.

وبالرغم من أن توجيهات البنتاغون في مجال الدفاع للفترة ما بين ١٩٨٤ ـــ ١٩٨٨ تؤكد أنه يجب على الولايات المتحدة الأميركية أن تكون مستعدة لإلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفييتي في أي مستوى للنزاع الحربي، بدءاً من العمليات القتالية العادية، وانتهاء بالحرب النووية المحدودة والشاملة، وهو ما يعني بحد ذاته اعترافاً بإباحة الحرب النووية، والبدء بها، وتحقيق النصر بواسطتها، إلا أن الاتحاد السوفييتي لم يتردد في ردع هذه التوجهات على لسان الرئيس السوفييتي الراحل يوري أندروبوف الذي قال: «ينبغي عدم التعامل مع مسائل الحرب والسلام بهذا الشكل، لأن كل المساعي الرامية إلى إحراز تفوق عسكري على الاتحاد السوفييتي عقيمة إذ إنه لن يسمح بذلك بتاتاً، ولن يقف أعزل في وجه أي تهديد».

٣ ـــ التخطيط الأميركي للحرب المقبلة

آ ـــ مؤشرات الاستعداد للحرب

إن جميع المؤشرات المتوفرة تؤكد اليوم على وجود مخطط أميركي شامل للحرب المقبلة ، تكون الولايات المتحدة الأميركية هي البادىء فيها والمنتصر بآن واحد .

وقد اتضح التخطيط الأميركي للحرب المقبلة من خلال جوانب ثلاثة : مالي ، تقني ، وسياسي .

فبعد أن اعترفت الولايات المتحدة الأميركية في مطلع السبعينيات بالتوازن النووي ، والمساواة التامة بالقوى الاستراتيجية بينها وبين الاتحاد السوفييتي ، عادت بمجرد وصول ريغان إلى السلطة لتعلن عن ضرورة اعتراف السوفييت بقوتها النووية ، وتقليص عدد صواريخهم وقوتهم النووية ، بحيث لا تكون معادلة فعلياً للقوة الأميركية .

وطبيعي أن السوفييت لم يكن لهم أن يسلموا بهذا الموقف الجديد ، وإلا لكانت نهايتهم .

إن الازدياد الملحوظ في حصة الإنفاق المخصص للتسلح في الميزانية العسكرية الأميركية ، والذي قفز من ٢٩٪ إلى ٣٧٪ ، وتترجم في عام ١٩٨٢ وحده إلى ٧٣٫٦ مليار دولار ، ومن ثم إلى ٩٥٫١ مليار دولار ، إنما يقدم دليلاً ملموساً على نيّات الحرب المقبلة التي تخطط لها (الإدارة الأميركية) .

لقد كان هذا كله تجسيداً معيناً لبرنامج تطوير القوة النووية الأميركية ، الذي صدق عليه الرئيس الأميركي رونالد ريغان في ٢ تشرين الأول عام ١٩٨١ ، والذي شمل التطوير الشامل لها ، سواء كقوات عسكرية ، أو كمنظومات أسلحة وأعتدة ، أو أخيراً كمنظومات تأمين قتالي (قيادة ، اتصال ، استطلاع) .

ويضم هذا البرنامج الجديد تنفيذ ٣٤ برنامجاً عسكرياً قيمة إنجازها تتراوح ما بين ٣٥٠ ـــ ٣٧٠ مليار دولار ، وهي برامج تؤمن التطور الواسع والعصري للقوات الاستراتيجية النووية الأميركية المعروفة باسم (الترِيادا) .

ويلخص المهتمون والباحثون في الشؤون الدولية واتجاهات التطور العسكري براهينهم حول النيّات الأميركية لشن حرب عالمية ثالثة بما يلي :

ـــ ازدياد تعداد عناصر القوات المسلحة الأميركية بنسبة ١٠٪ تقريباً عما كان عليه الأمر في السبعينيات .

ـــ تحقيق زيادة في عدد الفرق الأميركية النظامية والاحتياطية ، بحيث يصل حتى نهاية عام ١٩٨٧ إلى ٢٧ فرقة ، إضافة لما هو موجود في الوقت الحاضر .

ـــ زيادة قوام الأسطول البحري الأميركي بحيث يصل حتى عام ١٩٩٥ إلى ٦٦٥ قطعة بحرية ، أي بزيادة ٢٠٠ قطعة تقريباً عما هو عليه الآن .

ـــ زيادة قوة الدبابات بنسبة ٤٠٪ .

ـــ زيادة وسائط التدمير الشامل للبشرية والطبيعة وتكديسها ، وفي مقدمتها : الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية والجرثومية ، بحيث يكون هناك خمسة ملايين وحدة كيمياوية ، وبحيث تصل نفقات تصنيع هذه الأسلحة والذخائر وإنتاجها إلى أكثر من مليار دولار .

وبالإضافة إلى هذا كله فإن المؤشرات الموثوقة تؤكد أن الولايات المتحدة الأميركية تسعى لبناء ٦٠٠ منظومة جديدة من الأسلحة والأعتدة العسكرية التي من شأنها تنفيذ المهام القتالية في التسعينيات .

ب ـــ مفهوم (الترّيادا) وتطويرها الدائم

ينطلق الاستراتيجيون العسكريون الأميركيون من ضرورة تطوير أسلحة (الثالوث ـــ الترّيادا) الاستراتيجي الأميركي المؤلف من :

١ ـــ القوات النووية الهجومية الاستراتيجية .

٢ ـــ الغواصات النووية الاستراتيجية المجهزة بصواريخ نووية عابرة للقارات ، دقيقة للغاية .

٣ ـــ الطيران الاستراتيجي الأميركي .

وقد تشكلت الترّيادا الأميركية النووية ـــ الاستراتيجية في عام ١٩٦٧ ، وكان لدى البنتاغون وقتها ١٠٥٤ قاعدة إطلاق للصواريخ الباليستية العابرة للقارات من طراز

مينتمان ــ ١ ، و مينتمان ــ ٢ ، وتيتان ــ ٢ ، بالإضافة إلى ٦٥٦ قاعدة إطلاق من الغواصات طراز بولاريس A-2 ، و بولاريس A-3 ، و ٦١٥ قاذفة استراتيجية من طراز ب ــ ٥٢ ، و ب ــ ٥٨ .

وفي السبعينيات حدّثت القوات الأميركية ٥٥٠ قاعدة إطلاق صواريخ من طراز مينتمان ــ ١ و مينتمان ــ ٢ ، فحولتها إلى مينتمان ــ ٣ ، حيث الصاروخ هنا مزود بثلاثة رؤوس نووية . كما استبدلت ٤٩٦ قاعدة إطلاق لصواريخ بولاريس ــ ٢ و بولاريس ــ ٣ المتوضعة في ٣١ غواصة نووية بالصواريخ بوسايدون س ــ ٣ ، وبمعدل ١٦ صاروخاً في كل غواصة ، وما بين ١٠ ــ ١٤ رأساً نووية لكل صاروخ .

وفي الوقت نفسه فقد تمت زيادة دقة الرمي والإصابة ، ونفذت جميع التدابير التي توفر حماية شاملة لآبار تخزين الصواريخ الباليستية العابرة للقارات من طراز مينتمان ومنصات إطلاقها ، وزود الصاروخ مينتمان ــ ٣ بمنظومة التسديد البعيد للصواريخ على أهداف غير مخططة .

وقد سلحت القاذفة الاستراتيجية بصواريخ ضاربة من طراز (سديم) ، بمعدل حتى عشرين صاروخاً لكل طائرة ب ــ ٥٢ ، و ٦ صواريخ للطائرة FB-III .

ونتيجة لهذا فقد تم خلال عقد السبعينيات دون زيادة عدد الوسائط الحاملة للسلاح النووي مضاعفة الاستطاعة النووية في طلعة ــ قصف واحدة .

وخلال هذه الفترة تابعت الولايات المتحدة الأميركية عملها المتواصل لتصنيع الصاروخ العملاق العابر للقارات من نوع ام ــ إكس ، والطائرة الاستراتيجية ب ــ ١ ، والرؤوس النووية الجديدة للصواريخ ، وأسطول الغواصات النووية الحاملة للصواريخ العابرة للقارات من طراز ترايدنت ــ ١ س ــ ٤ .

ومنذ ١٩٧٩ بدأت القيادة العسكرية الاستراتيجية الأميركية بتزويد ٣٠٠ صاروخ عابر للقارات من طراز مينتمان ــ ٣ بالرؤوس النووية الجديدة من طراز MK12A ، واستطاعة كل منها ٣٥٠ كيلو طن ، أما دقتها فمتناهية حيث تصل إلى ١٨٠ م فقط عن الهدف .

كما تم تزويد ١٢ غواصة نووية من طراز بوسايدون بالصاروخ ترايدنت ـــ ١ .

ومنذ أيلول ١٩٨١ ظهرت ضمن قوام الطائرات الاستراتيجية القاذفة ، ولأول مرة ، الطائـرة ب ـــ ٥٢ س ، المزودة بصواريخ مجنحـة من نوع أ ب م ـــ B حيث تحمـل ١٢ صاروخاً ، ومن المحتمل حتى بداية التسعينيات أن تجهز لحمل عشرين صاروخاً .

وفي تشريـن الأول ١٩٨١ وضعت الغـواصة الجديـــدة من طراز أوهايـــو ـــ منظومة ترايدنت ـــ المجهزة بالصواريخ ترايدنت ـــ ١ ، وهي أفضل بكثير من الغواصة طراز بوسايدون حيث قواعد الإطلاق الموجودة عليها أكثر بمرة ونصف ، والوسائط النووية أكثر بـ ٢٠٪ ، والاستطاعة أكبر بـ ٥ر٢ مرة .

وبالنسبة للإمكانات القتالية فإن غواصة أوهايو واحدة تتفوق على عشر غواصات ذرية ذات نظام بولاريس . ومستقبلاً ستزود هذه الغواصة بالصاروخ العابر للقارات من نوع ترايدنت ٢ د ـــ ٥ ، والذي يبلغ مداه ١١ ألف كيلـو متـر ، وعـدد رؤوسه ١٤ رأساً ، استطاعة كل منها ١٥٠ كيلو طن ، ودقة إصابته حتى ٩٠ متراً بينما مدى الصاروخ ترايدنت ١ س ـــ ٤ هو ٧٤٠٠ كيلو متر وعدد رؤوسه ثمانية ، استطاعة كل منها ١٠٠ كيلو طن ، ودقة إصابته حتى ٤٦٠ متراً .

إذن : إن الاستراتيجية العسكرية الأميركية لإحراز التفوق العسكري المطلق على الخصوم تنطلق من ضرورة استخدام أسلحة الضربة الأولى بأنواعها الثلاثة . وبحيث يكون هناك تعاون دائم بين القوات النووية الهجومية الاستراتيجية التي ستزود حتى التسعينيات بمئة صاروخ من طراز ام ـــ إكس تحمل ما لا يقل عن ألف رأس نووية ، قادرة بدقة على إصابة (الأهداف المحصنة) ، حيث قدرة كل رأس منها ٦٠٠ كيلو طن ، وبين الغواصات النووية الاستراتيجية التي ستضاف إليها عشرون غواصة حديثة من طراز ترايدنت ، من المقرر تجهيزها بصواريخ د ـــ ٥ ، مما يضمن للأربعة والعشرين صاروخاً الموجودة بكل منها دقة التصويب النادرة ، وبين الطيران الاستراتيجي الأميركي الذي ستنضم إليه مئة قاذفة عصرية من طراز ب ـــ ١ ـــ ب و ١٣٠ قاذفة أخرى من طراز ستيلث غير مرئية للرادارات .

وفي مطلع التسعينيات سوف تضم هذه التريادا قرابة سبعة آلاف صاروخ مجنح

استراتيجي، مختلف مكان التوضع (أرضي ــ بحري ــ جوي) حيث منها حوالي الألف في السفن والغواصات.

كما سيكون هناك الآلاف من الصواريخ المجنحة، مدى الطراز الحالي منها، أكثر من عشرة آلاف كيلو مترٍ.

وعلاوة على هذا سوف تستخدم القيادة العسكرية الأميركية ضمن أسلحة منظومة الترياد جميع الصواريخ النووية البريطانية الأربعة والستين الموجودة في الغواصات النووية، وهي موضوعة تحت تصرف القيادة العسكرية العليا لحلف الأطلسي، ولكن يجري توجيهها نحو الهدف طبقاً لتوجيهات قيادة الطيران الاستراتيجي الأميركي ــ وهو ما أكده مؤخراً تقرير خاص نشرته هيئة الأبحاث في الكونغرس الأميركي.

جـ ــ المنظومة الفضائية للدفاع المضاد للصواريخ

يشمل مخطط (حرب الفضاء) تطوير ثلاثة مجالات عسكرية بحتة هي:

١ ــ مجال تطوير أسلحة الضربة الأولى.

٢ ــ مجال تطوير الأسلحة والوسائط المضادة للفضاء نفسه.

٣ ــ مجال الأسلحة والأعتدة المضادة للصواريخ العابرة للقارات والتي تطلق من الفضاء.

إلا أن هذا المجال الأخير يحتل في المنظور الراهن والقريب أهمية دولية بالغة، لأنه يعني مباشرة عسكرة الفضاء، واستخدامه لتوجيه الضربة النووية.

ففي الأول من أيلول ١٩٨٢ صدر قرار عن وزارة الدفاع الأميركية قضى بتشكيل قيادة فضائية خاصة ضمن قوات السلاح الجوي للولايات المتحدة الأميركية، حيث وضعت تحت تصرفها جميع أنظمة الأسلحة الفضائية الموجودة.

وفي ٢٣ آذار عام ١٩٨٣ أعلن ريغان عن بدء التحضير لصنع منظومة دفاعية مضادة للصواريخ ذات فعالية دقيقة للغاية، تستطيع أن تدمر بواسطة أشعة الليزر ليس فقط الأقمار الصناعية، بل وصواريخ العدو التي تخرج من المحيط الجوي، بالإضافة إلى

نية الاستخدام اللاحق للسلاح الإشعاعي الموجه عن طريق إرسال حزم شديدة الطاقة من الجزئيات المشحونة ـــ بروتونات وأيونات وغيرها ـــ .

وفي تشرين الأول ١٩٨٣ بدأت العمل لجنة خاصة علمية برئاسة كل من كاسبار واينبرغر ، ووليام كلارك ـــ المستشار القومي آنذاك ـــ حيث اقترحت البدء فوراً بنشر المنظومات الفضائية المضادة للصواريخ ، بحيث تبلغ نفقتها خلال السنوات الخمس المقبلة وحدها ما بين ١٨ ـــ ٢٧ مليار دولار .

وبالرغم من التسمية الدفاعية لهذه المنظومة إلا أنها ستؤدي بدورها إلى زيادة في استخدام الوسائط الهجومية نظراً للعلاقة الوثيقة بين الهجوم والدفاع ، خاصة في المستوى الاستراتيجي ، حيث سيبذل كل طرف جهده لخرق الدرع المضاد للصواريخ بأي ثمن .

تفترض القيادة العسكرية الأميركية أن تبني دفاع المنظومة المضادة للصواريخ البالستية العابرة للقارات على أنساق معتمدة الأسلحة الليزرية ، والإشعاعية ، والحزم المركزة التقليدية والحديثة .

ومن المقرر إقامة أربعة أنساق دفاعية ، ولكل نسق منها مهامه الاستراتيجية التي تتلخص بتدمير الصواريخ الاستراتيجية البالستية في قطاع التحليق الفعال ، واعتراض الأجزاء القتالية للصواريخ في مرحلة توزع الرؤوس النووية وانتشارها ، ثم التقاطها في قطاع التحليق السلبي ، وتدميرها بمجرد دخولها إلى المجال الأرضي .

ويرى الخبراء العسكريون الاستراتيجيون هنا أن الولايات المتحدة الأميركية بإنجازها منظومة الدفاع الفضائية المضادة للصواريخ تكون قد امتلكت قدرة جبارة لتوجيه الضربة الأولى ، ومنظومة دفاعية قوية ضد الصواريخ البالستية المعادية العابرة للقارات في الوقت نفسه ، فتحقق بذلك فكرة الاستراتيجيين الأميركيين ومنظّري (فلسفة القوة) التي ترى أنه : إذا ما توفر (السيف الحاد) و (الدرع المنيع) فليس ما يمنع من المجازفة (بكبس أزرار الإطلاق) وتوجيه الضربة الأولى التي تعني نهاية الخصم واستسلامه ، دون قيد أو شرط ، فيما لو بقيت لديه قدرة على (الاستسلام) .

وبهذا ستكون الضربة الأولى التي ستوجهها الولايات المتحدة الأميركية معتمدة على تلك المنظومات النووية الاستراتيجية التي تجمع بين إمكانات (القوة المضادة) ،

و (المناعة الناجعة)، وهو ما يؤمن لها عملياً تجريد الاتحاد السوفييتي من السلاح بضربة مفاجئة، وحرمانه من إمكانية توجيه ضربة جوابية فعالة، لأن الوسائط النووية الأميركية غير المستخدمة ستكون حقيقية وجاهزة وفعالة، بينما سيكون الهدف الاستراتيجي المتمثل في العمل على أن تتفادى الأراضي الأميركية كلها الضربة السوفييتية الجوابية مؤمناً.

بهذا تكون المنظومة الفضائية للدفاع ضد الصواريخ، والعاملة مع جملة من المنظومات المضادة للأقمار الصناعية العاملة في وقت واحد من الفضاء والأرض، وباعتراف الاختصاصيين الأميركيين البارزين، وفي مقدمتهم ت ــ كيراس، مدعوّة لأن تلعب دور العنصر الرئيسي في قوة الضربة الأولى سواء:

في الفضاء: لتحقيق إمكانية نسف الأقمار الصناعية السوفييتية.

أو في الأرض: للقضاء على المخزون النووي والترسانات الصاروخية السوفييتية باعتبار أن هذا الأمر، كما أكّد ف. ايكل نائب وزير الدفاع الأميركي من شأنه أن يعرقل بشكل ملموس الضربة الجوابية.

وعلى كل حال يعلق الاستراتيجيون العسكريون الأميركيون أهمية كبيرة على مسألة تدمير التوابع والأقمار وسفن الفضاء، لأن هذه الوسائط مرتبطة بمنظومات إنذارية مختلفة، وبمراكز توجيه وقيادة أرضية.

إن مهاجمة أي قمر صناعي يمكن أن تؤدي إلى شل عمل منظومة الإنذار، وتشويش المراكز الأرضية، وإخراج الأقمار الصناعية عن مداراتها، مما سيؤدي بدوره إلى اضطراب في القيادة التقنية المباشرة والاستراتيجية العامة للمنظومات الحربية العليا، وهو ما يؤدي بدوره إلى عجز العدو ليس فقط عن اتخاذ التدابير الوقائية الفعالة ضد وسائط الضربة الأولى، بل وعن الرد أيضاً مهما كان جزئياً ومتواضعاً.

ولتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي الجنوني بدأ العمل الجدي والمتواتر لصنع الأسلحة والأعتدة ذات القدرة العالية على تنفيذ مهام (حرب النجوم)، التي تعتبر منظومة الدفاع المضادة للصواريخ العابرة للقارات والعاملة في الفضاء نفسه جزءاً هاماً منها.

ولقد اقتضى الأمر من العسكريين البارزين وضع مخطط عام لشن الحرب الفضائية

المقبلة وفقاً للفكرة الاستراتيجية ـــ الكونية ، التي يتطلب تنفيذها العمل على تطوير ، وتحسين ، وتحديث الأسلحة في اتجاهات ثلاثة ، بصورة متوازية هي :

١ ـــ **اتجاه تطوير أسلحة الضربة الأولى** ، والتي مهمتها تدمير القيادة العسكرية والسياسية للخصم ، وكذلك تدمير وسائط أسلحة الضربة الجوابية المتوفرة لديه ، وهو ما يجسده اليوم نصب صواريخ بيرشينغ و كروز في وسط أوروبا بمجموع قدره ٥٧٢ صاروخاً ، تتوزع في خمسة بلدان أوروبية ، وإنتاج الصاروخ الاستراتيجي العملاق من طراز ام ـــ إكس ، والصواريخ العابرة للقارات التي تطلق من الغواصات بوسيدون و أوهايو ، والطائرات الثقيلة القاذفة والحاملة للسلاح النووي من طراز ب ـــ ١ ـــ ب .

٢ ـــ **اتجاه تطوير الأسلحة والوسائط المضادة للمحطات الفضائية والأقمار** الصناعية ، بمهمة تدمير أجهزة الرقابة والاتصال والتوجيه ، التي تمكن الخصم من كشف نيات الضربة الأولى وتوقيعاتها ، وهو ما يجسده اليوم برنامج تطوير الأسلحة الإشعاعية التي يخزن قسم منها على الأرض وقسم في الفضاء .

٣ ـــ **اتجاه تطوير الأسلحة المضادة للصواريخ العابرة للقارات** ذات الأمدية الاستراتيجية لضمان عدم وصول صواريخ الخصم إلى الأراضي الأميركية ، بعد توجيه الضربة الأولى ، وهو ما تجسده اليوم برامج تسليح الفضاء المختلفة ، وبرنامج منظومة الدفاع ضد الصواريخ من الفضاء ، وإنشاء محطات فضائية للقيادة مأهولة ودائمة ، وخزن المدافع الإشعاعية فيها ، وتحقيق السبق في هذا المجال خاصة وأن السوفييت قادرون على وضع سلاح الليزر في المدار مع مطلع عام ١٩٨٦ ، وخاصة أيضاً أن هناك ضرورة قصوى لمحطات الفضاء العسكرية التي ستكون قادرة بدورها على تدمير الصواريخ النووية الباليستية بعد دقائق قليلة من إطلاقها .

ويترتب على هذا بالتأكيد تشكيل قيادات فضائية من بين صفوف عناصر سلاح الجو والبحرية في الولايات المتحدة الأميركية ، وهو ما بدىء العمل به تحت اسم مختصر هو USAF ، وذلك بإشراف وكالة الفضاء الأميركية . وهذه القيادات مكلفة بالإشراف على تحليقات الأقمار الصناعية العسكرية ، وبرامج مكوك الفضاء العسكري ، وبرامج الأسلحة الفضائية المضادة للصواريخ ، وتلك المضادة للأقمار الصناعية ..

لقد وضعت القيادة العسكرية الأميركية باعتبارها فعالية المنظومة الفضائية للدفاع ضد الصواريخ ، حيث قدم الاستراتيجيون العسكريون الأميركيون براهين متعددة على هذه الفعالية ، وأجروا حساباتهم على أساس أنه إذا تمكنت الوسائط الصاروخية المهاجمة من اجتياز الأنساق الدفاعية الأربعة ، بمعدل ١٠٪ لكل نسق فإن نسبة فعالية هذه المنظومة ونجاعتها ستكون ٩٩ر٩٩٪ .

يعتبر النسق الدفاعي الأول مفتاح هذه المنظومة ، حيث أن تدمير الصواريخ المزودة برؤوس نووية على هذا النسق يعني تقليص أهداف المرحلة الثانية ــ النسق الثاني ــ بمقدار عشرة أضعاف . وستكون الأداة الرئيسية هنا لتدمير الصواريخ المعادية للأسلحة الليزرية ذات التوضع الفضائي ، لأنها تمتاز عن غيرها ــ كما يرى الاستراتيجيون الأميركيون الغربيون ــ بكون الطاقة الليزرية تتوزع وتنتشر في الفضاء بسرعة الضوء دون أن تتأثر بمؤثرات الغلاف الجوي ، ودون أن تتأثر إلى مسافات بعيدة ، تقلص من درجة فاعليتها . كما سيدخل في قوام أسلحته العضوية حوالي ٤٠٠٠ قمراً صناعياً أرضياً من نوع ي . س . ز تعمل على ارتفاع ٥٥٠ كم ومهمتها الإمساك بالصواريخ الباليستية ، حتى انفصال الرؤوس الحربية . وعلى هذا فإن استخدام أشعة الليزر من القواعد الفضائية سوف يؤدي ــ كما يرى المختصون الأميركيون ــ إلى تدمير ٩٠٪ من الصواريخ المعادية . خاصة وأن إشعاعات الليزر نفسها تشل عمل النظام الكهربائي للصواريخ ، وتجعلها دون فاعلية .

ويرى الخبراء المهتمون في شؤون الفضاء أن هذا النسق الأول سيكون جاهزاً للعمل في عام ١٩٨٨ ، حيث سيتم إيصال أنظمته كافةً إلى مداراته ، بواسطة المراكب الفضائية المخصصة لذلك .

أما النسق الدفاعي الثاني فيعتمد على أشعة الليزر المنطلقة من القواعد الأرضية ، والمرآة العاكسة المدارية التي تعكس الإشعاعات وتوجهها نحو الهدف .

إلا أن النسق الدفاعي الثالث يعتمد على القواعد الليزرية الفضائية ، والتي تعمل على الالكترونات الفارغة التي تشل حركة الصاروخ في أثناء التحليق .

بينما يكون على النسق الدفاعي الرابع مهمة القضاء على الصواريخ المتبقية ، والتي لم يتسنَّ للأنساق الثلاثة الأولى تدميرها لأسباب مختلفة ، ويكون هذا اعتماداً على منظومة

الحزم الشعاعية العاملة في القواعد الأرضية، والتي تسبب الخلل والاضطراب في عمل الرؤوس النووية الحربية.

هكذا تجري القيادة العسكرية المختصة حساباتها لتدمير الصواريخ الباليستية العابرة للقارات الموجودة لدى العدو في حال إطلاقها باتجاه أراضي الولايات المتحدة الأميركية، أو بلدان أوروبا الغربية، حيث يتم على النسق الدفاعي الفضائي الأول تدمير ٩٠٪ من مجموعها وعلى النسقين الثاني والثالث تدمير ١٠٪، أما النسق الرابع فيتولى مهمة تدمير تلك الصواريخ التي تمكنت من عبور الأنساق الدفاعية الثلاثة..

إلا أن الدراسات الموثوقة التي قدمتها جمعية العلماء العاملين ضد عسكرة الفضاء، وفي مقدمتهم: غ. بيت، ف. بانوفسكي، غ. يورك، ج. ستون، فيز، وغيرهم ممن شارك في إنشاء نظام (مانختينك) لصنع القنبلة النووية، والبرامج الفضائية اللاحقة، والمنظومات الاستراتيجية، وغيرها تؤكد على عجز نظام الدفاع من الفضاء ضد الصواريخ عن اللجم لوسائط الخصم. وأن الضربة الجوابية السوفييتية سوف تكون صارمة للغاية، وستستهدف حتماً الأراضي التي توجد بها الصواريخ، وكذلك الأراضي التي تصدر منها الأوامر بشأن استخدامها.

د ـــ التقنية الفضائية المستقبلية

من الطبيعي أن تختلف منظومات الأسلحة والأعتدة الفضائية عن مثيلاتها المستخدمة في الأرض، سواء براً أو بحراً أو جواً، إلا أن هذا لا يعني الاختلاف المطلق، بل الاستخدام العلمي ـــ التقني المتطور جداً لتكنولوجيا السلاح، في حل المهام العسكرية المختلفة من الفضاء.

وبغض النظر عن انقسام الآراء حول فعالية أسلحة الفضاء وقدرتها على شل الوسائط الهجومية الاستراتيجية المعادية، أو تنفيذ الضربة الأولى بمساعدة الأرض، إلا أن السباق لعسكرة الفضاء، وتطوير تقنيته يمضي اليوم على قدم وساق، بين الدولتين العظميين، مع التأكيد على أن الإدارة الأميركية كانت السبّاقة إلى عسكرة الفضاء، ووضع منجزات البحوث العلمية المختلفة في خدمة تقنية الأسلحة والأعتدة الفضائية.

فمنذ الستينيات لوحظت نزعة أميركية لتصنيع أنظمة قتالية فضائية مخصصة لتنفيذ حروب محدودة في الفضاء المحيط بالكرة الأرضية ، وللقيام بأعمال الاستطلاع ، والاتصالات والملاحة وغير ذلك .

وقد تمركز العمل هنا على عدة اتجاهات كان أهمها :

١ ـــ مجال صنع قواعد أنظمة الملاحة الفضائية وتطويرها ، التي من شأنها المساعدة على توجيه القذائف الباليستية ، والصواريخ المجنحة ، والطائرات المقاتلة المختلفة الأغراض والمهام .

هنا تم الانتقال من نظام ملاحة الأقمار (ترانزيت) الذي ظهر في الستينيات ، وهي من نوع ن . ن . س . س ، والتي كانت بحوزة القوى البحرية الأميركية ، إلى نظام الملاحة القمرية ، المعروف باسم نافستار في السبعينيات ، وهو نظام أكثر قدرة على استخدام أسلوب المدى البعيد ، للتحليق على ٣ ـــ ٤ مدارات ، ونشر من ١٨ ـــ ٢٤ قمراً فضائياً ، وتحديد معطيات المكان والارتفاع ، وسرعة تحرك الهدف ، مقاسة بالزمن القريب من الواقع .

وقد تبين أن نظام نافستار لتحديد بارمترات ملاحة الهدف دقيق للغاية ، ولا يتعدى متوسط خطئه عشرة أمتار . وسيكون هذا النظام جاهزاً تماماً للعمل في الفضاء بحلول عام ١٩٨٧ .

٢ ـــ مجال صنع (مكوك الفضاء) ـــ أو وسائط إيصال السلاح النووي وقواعد الإطلاق وغيرها إلى المدارات الفضائية وتطويرها

هنا تمكنت التكنولوجيا الأميركية من تقديم مكوك الفضاء المسمى شاتل الذي بدأ عمله منذ سنة ١٩٨١ ، ويشرف عليه الجنرال ج . ابراهامسون المسؤول الأول تجاه البنتاغون عن تطوير برامج الفضاء .

إن المكوك الفضائي من طراز شاتل هو عبارة عن مركبة فضائية تستخدم عدة مرات في الوصول إلى الفضاء ، وتنقل حمولات متباينة إلى مدار الأرض ، ويمكن تحميلها رؤوساً قتالية للصواريخ الباليستية ، ووسائط أشعة الليزر ، وأسلحة مشعّة ، ووسائط

استطلاع وتدمير الأقمار الصناعية، وأجهزة الاستطلاع الفضائي، والفضائي ـــ الأرضي المعادية.

وحتى الآن من المقرر أن يعمل رواد الفضاء على متن هذه السفن ـــ المكوكية، إلا أن العمل يتجه لتصنيع نوع آخر من المركبات الفضائية أصغر من شاتل ودون رائد فضاء..، حيث يمكن إطلاقها من أية قاعدة عائدة لسلاح القوى الجوية الأميركية، على متن طائرة حاملة لها من طراز بوينغ ـــ ٧٤٧ ومن المقرر أن تكون أبعاد هذا المكوك ١٥٫٨٥ متراً طولاً، ٩٫١ متراً عرضاً، ٩٥٧٠ كيلو متراً وزناً. كما يجري الآن العمل التحضيري لصنع وسائط يتم اعتماداً عليها إيصال سفن فضائية من نوع آخر إلى المدار الذي حول الأرض مباشرة، وهي سفن تملك جميع وسائل الحماية الذاتية، والقدرة السرية والمفاجأة للإقلاع والتوغل في عمق الفضاء خلال فترة الحرب.

ومن المخطط له أن تكون حمولة هذا النوع الجديد من مكوك الفضاء ثلاثة أطنان، يوصلها إلى مدار ارتفاعه ما بين ١٠٠ ـــ ٢٠٠ كيلو متر.

إن التحليق الواحد للطائرة من طراز سبيس/شاتل يكلف الولايات المتحدة الأميركية ما بين ٧٥ ـــ ٨٠ مليون دولار. إلا أن أهميته تتجاوز هذا المبلغ، حيث تقوم شاتل أولاً بنقل مجموعة من المعدات الحربية إلى مدار قريب من الأرض، ثم تقوم بعدئذ بنقل أقمار التجسس والأسلحة الليزرية إلى الفضاء الخارجي، كما أنها قادرة على القيام بمهام الاستطلاع المختلفة، ورصد أعمال الأغراض الفضائية المعادية، وملاحقتها، ومراقبة مدى سلامة تجهيزات الأقمار الحربية، وإجراء التجارب على الأسلحة والمنظومات العسكرية الفضائية الجديدة.

ومع مطلع التسعينيات تشير المعطيات إلى أن القيادة الفضائية العسكرية الأميركية سوف تطلق ٤٥٠ جهازاً حربياً فضائياً من طراز المكوك الفضائي شاتل، الذي يبدو أن أهميته تنبع من قدرته على أن يأخذ مكانه في المدار المحدد له، حيث يثبت المحطات الفضائية والأقمار الصناعية المجهزة بأسلحة وأنظمة توجه بأشعة الليزر المتنوعة الأشكال، لتدمير أقمار الطرف الآخر، وأهدافه الموجودة في الجو.

إن هذه السفن الجديدة من طراز شاتل تستطيع الإقلاع من مطارات أرضية،

والعودة إلى قواعدها بعد تنفيذ مهامها في الفضاء الخارجي . كما أنها سوف تتحول إلى قاذفات عن طريق وضع السلاح النووي فيها . وسوف تستطيع تدمير الأهداف الأرضية خلال ٣ دقائق .

٣ ـــ مجال صنع وتطوير المنظومات المضادة للأقمار الصناعية

وضع الأميركيون باعتبارهم منذ البدء استخدام الأقمار الصناعية كوسائط لتعزيز القوات المسلحة الأميركية ودعمها ، وخاصة منها (أطراف الترايادا) ، وذلك بهدف التأثير على المناورة بالقوى والوسائط ، إن في الفضاء أو على الأرض . وتؤكد الدراسات المهتمة اليوم أن حوالي ٧٠٪ من الاتصالات العسكرية الأميركية تتم في الوقت الحاضر عن طريق الفضاء باستخدام الأقمار الصناعية التي تجمع المعلومات والمعطيات الاستطلاعية والتجسسية المختلفة ، وقد استخدمتها الولايات المتحدة الأميركية في حروبها العدوانية على بلاد جنوب وشرق آسيا والشرق الأوسط ، كما دعمت بواسطتها العدوان الاسرائيلي على الشعب العربي ، خلال حربي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وحرب لبنان ١٩٨٢ .

وباعتبار أن الجانب الآخر ـــ للسوفييت ـــ سوف تكون له مثل هذه الأقمار الصناعية ، وبالتالي مثل هذه القدرة ، فقد اندفعت القيادة العسكرية الاستراتيجية الأميركية لصنع أسلحة خاصة وتطويرها بمنظومات مضادة للأقمار الصناعية ، على أساس الاستخدام الواسع للطاقة الموجهة من على متن سفينه فضائية مكوكية ، بحيث تكون في الوقت نفسه سلاحاً ضد الأقمار . والطاقة الموجهة هنا تكون نتيجة لاستخدام أشعة الليزر ، أو الموجات القصيرة ، أو على أساس إطلاق حزم شعاعية ترددية . وهذا هو برنامج (آسات) المضاد للأقمار الصناعية .

وقد طوّرت القيادة العسكرية الأميركية هذه المنظومات في السنوات الأخيرة لتستخدم بفعالية ضد الأقمار الصناعية المعادية ، في إطار منظومة الدفاع الأميركية المضادة للصواريخ من جهة ، ولتدمير الأهداف الأرضية والبحرية والجوية المعادية من جهة ثانية .

وتجرى الآن في ولاية كاليفورنيا تجارب متواصلة للوقوف على الفعالية التدميرية لأشعة الليزر ضد دريئات الصواريخ.

أما بالنسبة للتجارب المتعلقة بالنماذج المختبرة الكبيرة لأسلحة الليزر ذات الاستطاعة العالية فقد تمت بنجاح.

وتم كذلك الانتهاء من الأعمال الخاصة بإنشاء منظومة الالتقاط والملاحقة لأهداف الفضاء اعتماداً على الليزر.

٤ ــ مجال الاستخدام المطلق لأسلحة الليزر

اعتبر الأميركيون الأسلحة الليزرية الأداة المفضلة في مجال الفضاء باعتبارها الأكثر فعالية وقدرة على تنفيذ المهام التي توضع من أجلها.

لهذا رأى أكثر المنظرين العسكريين الاستراتيجيين ضرورة العمل على استخدام الأسلحة الليزرية استخداماً واسعاً في الفضاء، وخاصة لأنها تملك مدى كبيراً للعمل يصل إلى ٢٠٠٠ ــ ٤٠٠٠ كيلو متراً، ويمكن أن تدمر الأهداف المتحركة خلال فترة قصيرة جداً، وهو ما تم التأكد منه مؤخراً، اعتماداً على السفينة ــ المكوك سبيس / شاتل.

والولايات المتحدة الأميركية ــ كما هو معروف ــ مهتمة بالليزر منذ مدة طويلة، ولها خبرة كبيرة في هذا الميدان. ففي بداية السبعينيات بدأت التجارب المكثفة على مختلف الوسائط العاملة وفقاً لمبدأ الليزر.

وفي عام ١٩٨٣ واعتماداً على ليزر غازي ديناميكي، استطاعته ٤٠٠ كيلو وات، متوضع في طائرة ــ مخبر من نوع NKC-135 جرت تجارب ناجحة لتدمير صواريخ من طراز سايد ويندر، وهي في مرحلة الطيران، وكذلك لتدمير دريئات طائرات مسيرة.

وفي حقل رمي الصواريخ وايت سايندر ــ ولاية نيومكسيكو ــ جرت تجارب رمايات عديدة استخدم خلالها الليزر الكيمياوي باستطاعة ٢ر٢ ميكرو ــ فولت.

ومع هذا، لازال الأمر الأمر مشكوكاً به في مجال كفاية الوسائط اللازمة لخوض

(حرب النجوم) حيث يبدو أن رغبات الأميركيين هنا قد سبقت الإمكانات التكنولوجية الأميركية بشوط بعيد ، وهو بالضبط ما يفسر الطلب الملح والمتكرر من الإدارة العسكرية المختصة لتطوير استخدام الليزر في الفضاء ، وزيادة الاعتمادات المالية المخصصة لذلك من جهة ، والإقبال الشديد من قبل البنتاغون والبيت الأبيض على تلبية مثل هذا الطلب من جهة أخرى .

وتؤكد المصادر الموثوقة ــ المهتمة ، أن الأعمال الرئيسية الخاصة بأسلحة الفضاء الليزرية تجرى في الولايات المتحدة الأميركية على ثلاثة نماذج بإشراف (إدارة البحوث العلمية ــ المستقبلية) حيث يمضي العمل :

١ ــ نموذج الليزر الكيمياوي باستطاعة ٥ ــ ١٠ ميكرو فولت ، بحيث يمكن البدء بتجربته في النصف الثاني من الثمانينيات .

٢ ــ نموذج المرايا البؤرية المعاكسة للأشعة الجسيمية النووية المحمولة على متن المحطات المدارية ، والموجهة إلى الأهداف المحددة ، وستجرى عام ١٩٨٧ أول تجربة لمعرفة نجاعة تكنولوجيا هذه المرايا .

٣ ــ النموذج الخاص بتوجيه حزمة الليزر على أهداف عديدة ووضع الأجهزة الخاصة بتسديد شعاع الليزر وتوجيهه . وستتم تجربة هذا النظام على سفينة فضائية من نوع شاتل .

ومن المتوقع حتى مطلع التسعينيات أن يسمح تشكيل هذه المنظومة الليزرية الثلاثية ببناء تجهيزات وأنظمة كثيفة متكاملة للأسلحة الليزرية الفضائية .

إن المسؤولين الأميركيين يخلصون هنا إلى أن السلاح الذي يعتمد أشعة الليزر سيكون حتماً هو السلاح الأساسي برغم تكلفته الباهظة التي تقود بدورها تكاليف السباق نحو القمر خلال السنوات العشرين المقبلة ، خاصة وأنه السلاح القادر على تدمير أنظمة دفاعات العدو المضادة للصواريخ الباليستية العابرة للقارات ، وأنظمته الفضائية المضادة للصواريخ الباليستية بواسطة الأسلحة الفضائية الموجهة لطاقة من الموجات الأليكترونية ، أو لإشعاعات جسيمية نووية عبر مسافات واسعة .

أما الحزم المرسلة فتعتمد على استخدام الجزئيات الصغيرة التي تتحرك بسرعة قريبة من سرعة الضوء، وتدمير الأهداف اعتماداً على الحرارة العالية، والتأثير الميكانيكي.

وفي الوقت الحاضر تدرس مسألة استخدام السلاح الذري من الفضاء ضد الأرض، وداخل الفضاء نفسه، حيث تأكد اليوم أن الإدارة الأميركية سوف تنشر ــ خلافاً لجميع القواعد والمواثيق الدولية ــ الصواريخ من طراز مينتمان ــ ٢، وهي صواريخ باليستية معدلة حديثة عابرة للقارات، مزودة برؤوس نووية.

كما سيتم إرسال سفن وأهداف فضائية أخرى إلى الفضاء، مزوّدة بالصاروخ مينتمان ــ ٣.

٤ ــ الفكرة الاستراتيجية ــ الكونية للحرب المقبلة

آ ــ الموقف الأميركي

تحاول القيادة السياسية والعسكرية الأميركية إيهام العالم بالتفوق العسكري السوفييتي أولاً، وبعزم موسكو على توجيه الضربة النووية الأولى ضد الأراضي والمنشآت والمدن الأميركية والأوروبية بآن واحد.

ويقدم العسكريون الاستراتيجيون الأميركيون الدلائل على هذا فيشيرون إلى أن الاتحاد السوفييتي متفوق على الولايات المتحدة الأميركية في جميع المجالات، وأنه قد طوّر أسلحته وأعتدته ومنظوماته سراً وعلانية في السنوات التي تلت التوقيع على اتفاقية سالت ــ ١، وخلال فترة المحادثات التي جرت للموافقة على اتفاقية سالت ــ ٢ للحد من الأسلحة الاستراتيجية النووية، حيث جرى هذا كله بهدف إحراز تفوق عسكري في جميع المجالات، وإعداد العدة لحرب نووية طويلة الأمد يأمل الخروج منها منتصراً.

ويؤكد الأميركيون أن السوفييت يسعون إلى إحراز التفوق العسكري في الفضاء أيضاً، حيث بذلوا في السنوات العشر الأخيرة جهوداً كبيرة للغاية مخصصين اعتمادات مالية تزيد بنسبة تتراوح ما بين ١٥ و ٢٠٪ عمّا ينفقه الأميركيون.

ونتيجة لهذا فقد ظهرت الأسلحة السوفييتية الاستراتيجية المتطورة، وفي مقدمتها:

الغواصة السوفييتية حاملة الصواريخ من طراز تايفون ، الفائقة القدرة ، والعصرية جداً ، والتي تكوّن خطراً مباشراً على أمن الأميركيين وسلامتهم ، بينما لن تتمكن الولايات المتحدة الأميركية من وضع المنظومة الصاروخية المكافئة لها من طراز ترايدنت ـــ ٢ إلا في التسعينيات .

كما طرأ تطور هام لصالح السوفييت في القوى البحرية ، حيث حسّن الاتحاد السوفييتي بصورة ملحوظة التجهيز التقني والقدرة القتالية لأسطوله البحري ، بحيث أصبح يملك اليوم ١٨٠ غواصة ذرية ، منها عدد كبير يتواجد بالقرب من السواحل الأميركية نفسها ، و ١١٢ من السفن الحربية الرئيسية .

كما وصلت الحمولة الإجمالية البحرية العامة للسفن الحربية السوفييتية إلى ٦ر٢ مليون طن . وبالنسبة لحاملات الطائرات كان الاتحاد السوفييتي يملك في عام ١٩٨١ حاملتي طائرات من طراز كييف ، بينما هو اليوم يبني الحاملة الرابعة من هذه الفئة .

إن الصواريخ السوفييتية التي تطلق من البحر ذات ميزات متفوقة من حيث القوة والدقة وبلوغ الأهداف الواقعة على أراضي الولايات المتحدة الأميركية ، ومن حيث مدة التحليق التي تتطلبها لبلوغ أهدافها ، الأمر الذي ما زالت الصواريخ الأميركية المماثلة لها بعيدة عنه كل البعد .

وفي الجانب الآخر طوّر الاتحاد السوفييتي الصواريخ الباليسبتية الجديدة العابرة للقارات ، والقاذفات الثقيلة الجديدة من طراز بيكفاير ، والصواريخ المجنحة بعيدة المدى . كما زرع أضعاف ما كان لديه من الصواريخ المتوسطة المدى من فئة س ـــ س ـــ ٢٠ في وسط أوروبا .

ونتيجة لهذا فقد أصبح يوجد لديه ١٣٩٨ قاعدة إطلاق صواريخ باليستية عابرة للقارات ، و ٩٥٠ قاعدة إطلاق صواريخ باليستية ، متوضعة في الغواصات ، و ١٥٦ قاذفة قنابل ثقيلة حمولتها ٧٠٠٠ وحدة سلاح نووي .

ومنذ كانون الأول ١٩٨٣ بدأ الاتحاد السوفييتي ، متفقاً مع ألمانيا الديمقراطية

وتشيكوسلوفاكيا، بنشر منظومة جديدة من الصواريخ العملياتية التكتيكية ذات المدى الأبعد.

ونتيجة لتقادم الصواريخ الأميركية، وحداثة الصواريخ السوفييتية فإن الخطر يحدق بالأمن الأميركي ـــ على حد تعبير كاسبار واينبرغر ـــ وزير الدفاع الأميركي ـــ.

كما أن عدد القاذفات الأميركية الاستراتيجية من طراز ب ـــ ٥٢ هو في الوقت الحاضر فقط ٢٤١، مقابل الأعداد الكبيرة من الأسلحة والأجهزة السوفييتية المشابهة. وأكثر من هذا فإن عدد الأقمار الصناعية والمحطات التي أطلقت إلى الفضاء، والحمولة الإجمالية المنقولة إليه كبيرة للغاية، وهي معدة للأغراض العسكرية الحربية، وسيكون بوسع الاتحاد السوفييتي استخدام السلاح الذري بحلول عام ١٩٨٦، بينما ستتأخر عنه الولايات المتحدة الأميركية بمقدار ثلاث سنوات.

ويقول الأميركيون: إن الاتحاد السوفييتي بهذا قد خرق جميع الاتفاقات والقواعد والمواثيق، وهدد السلام العالمي متدخلاً في شؤون الدول الأخرى، ومرغماً البلدان الاشتراكية وذات التوجه الاشتراكي على السير في مداره، ولعب دور التابع، ومجبراً الولايات المتحدة الأميركية على مجاراته في سباق التسلح، والإنصراف عن حل مشكلاتها الاقتصادية المتدهورة إلى تعزيز قدرتها الدفاعية لتعميق حماية المجتمع الأميركي، والدفاع عن السلام العالمي، ومستقبل المجتمع الأميركي، والدفاع عن السلام العالمي، ومستقبل البشرية، هذه المهمة التي أسندتها لها شعوب العالم الحر.

إن على الولايات المتحدة الأميركية أن تقف في وجه التوسع والعدوان السوفييتي من أجل مصالح البشرية كلها.

ب ـــ الموقف السوفييتي

تضخمت الهستيريا العسكرية الأميركية مع وصول ريغان إلى البيت الأبيض وتولي واينبرغر وزارة الدفاع، بصورة لم يعهدها العالم كله من انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى الآن.

وتتضح هذه الهستيريا من خلال النفقات العسكرية التي يعتمدها البنتاغون

الأميركي، والتي وصلت عام ١٩٨٤ إلى ٢٧٣ مليار دولار، بينما خطط لها في السنوات الخمس المقبلة أن تكون على الشكل التالي :

١٩٨٥ ـــ ٣٢٣ مليار دولار
١٩٨٦ ـــ ٣٥٧ مليار دولار
١٩٨٧ ـــ ٣٨٨ مليار دولار
١٩٨٨ ـــ ٤٢٥ مليار دولار

كما تتضح هذه النزعة التوسعية في مجال سباق التسلح وتهديد السلام العالمي عن طريق تطوير المنظومات الحربية المختلفة، وخاصة في مجال الفضاء لتحقيق التفوق العسكري الأميركي على الاتحاد السوفييتي من جهة، وبهدف الهيمنة الأميركية على الكون من جهة ثانية .

إن الاستراتيجية الأميركية ترى ضرورة السيطرة المطلقة على الفضاء، ودعم ذلك بتفوق كامل في مجال الأسلحة الاستراتيجية الهجومية التي تحقق لديها مقولتي الدفاع الأمين، والهجوم الحاسم، وهي بهذا تدفع الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية إلى تحضيرات عسكرية متواصلة، تزيد من أعبائها الاقتصادية، كما تجبر من خلال هذا دول أوروبا الغربية على تبني فكرة الزيادة المتواصلة في النفقات العسكرية، والقبول بمقترحات نشر السلاح والمنظومات الصاروخية الأميركية في بلدان القارة الأوروبية، وتعرضها بذلك لخطر الحرب النووية .

وتعتبر مسألة السيطرة على الفضاء اليوم الشغل الشاغل للثنائي الأميركي ريغان ـــ واينبرغر، وهو ما أكدته التعليمات التوجيهية الدفاعية للسنوات ١٩٨٤ ـــ ١٩٨٨ التي نظمت الاستراتيجية الأميركية المقبلة في مجال خوض الحروب الفعّالة من الفضاء، والضرورة القومية لتحقيق السيطرة الأميركية على الفضاء، حيث عبر وزير القوى الجوية الأميركية فيرن أوي عن هذا بتأكيده على ضرورة التوجه إلى الفضاء واعتباره المجال الرابع للدفاع الأميركي، وتجهيزه عسكرياً لتوجيه الضربات ضد الأهداف الموجودة على الأرض وفي الجو والبحر، وكذلك ضد الأقمار الصناعية المعادية، وحماية الأراضي الأميركية عن طريق (الدرع الواقي) من الصواريخ المعادية .

ويؤكد السوفييت أن قيمة ما أنفقه الأميركيون على الفضاء منذ عام ١٩٥٨ وحتى الآن تصل إلى ١٥٠ مليار دولار، منها حوالي ٥٠ مليار دولار للشؤون العسكرية. فقط في عام ١٩٨٢ تم إنفاق ٦٫٤ مليار دولار، وفي عام ١٩٨٣ زادت نسبة الاعتمادات المخصصة لعسكرة الفضاء بمقدار ٣٣٪، ووصلت إلى ٨٫٥ مليار دولار، وفي عام ١٩٨٤ زادت أيضاً بنسبة ٩٪، ووصلت مع ضم مخصصات فضائية أخرى إلى ١٤٫١ مليار دولار.

كما يؤكدون هنا اعتماداً على المعطيات الأميركية نفسها أنه يعمل في الشركات الأميركية المختصة بالطيران والفضاء عدد كبير من العلماء والمختصين، يزيد على عدد أمثال هؤلاء الذين يعملون في الشركات الكيمياوية والطبية والنفطية والمطاطية، وشركات صناعة السيارات مجتمعة، مما يدلل على الأهمية البالغة التي توليها القيادة السياسية ـــ العسكرية الأميركية للفضاء.

إن استراتيجية واشنطن تزيّف الحقيقة، فالاتحاد السوفييتي لا يسعى إلى إحراز تفوق عسكري في أي مجال، وهو لا يعد العدة لحرب نووية أو غير نووية، إنما يناضل فعلاً من أجل العدل وتوطيد السلام، ولجم العدو المتدهور، وإرغامه على التفكير مرتين قبل أن يقوم بأية مغامرة لن تعود عليه بالنصر.

إن اعتمادات النفقات العسكرية السوفييتية أقل بكثير مما هو لدى الولايات المتحدة الأميركية، وقد جرى تخفيضها في السنوات الأخيرة بصورة ملحوظة، وهو ما يترتب عليه تطور أقل في السلاح والعتاد، مما هو عليه الأمر في الجانب الأميركي.

فمقابل الغواصة تايفون السوفييتية وضع الأميركيون منظومتهم الصاروخية ترايدنت موضع التنفيذ، بالإضافة إلى ما يمتلكونه اليوم في ترساناتهم العسكرية من غواصات حديثة حاملة للصواريخ من طراز أوهايو المسلحة بصواريخ باليستية جبارة جديدة من نوع ترايدنت ٢ ـــ د ـــ ٥، تعادل الغواصة تايفون إن لم تتفوق عليها.

ومقابل الصواريخ الباليستية السوفييتية الجديدة العابرة للقارات ظهرت صواريخ ام ـــ إكس التي بدأ العمل بتصنيعها منذ سنة ١٩٧٣، كما بدأ التسلح بالصواريخ الباليستية الاستراتيجية من طراز مينتمان ـــ ٣، وبوسبرون ـــ ١ منذ السبعينيات.

وفي مطلع الثمانينيات ظهر الصاروخ ترايدنت ١ س ـــ ٤ ، أما في أوائل التسعينيات فسيكون الصاروخ ترايدنت ـــ ٢ د ـــ ٥ جاهزاً للعمل بشكل كلي .

وفي الوقت نفسه بدأ العمل لصنع القاذفة الثقيلة الأميركية الحديثة ب ـــ ١ في عام ١٩٧٥ ، وأنزلت الغواصة الصاروخية من طراز أوهايو إلى البحر في عام ١٩٨١ .

ومقابل الصواريخ السوفييتية المجنحة البعيدة المدى صمم البنتاغون الأميركي على صنع أكثر من ١٢ ألف صاروخ مجنح مختلف التوضع ، كما أن الكمية العامة للشحنات النووية التي يمكن أن تطلق دفعة واحدة من جميع عناصر الثالوث الاستراتيجي الأميركي تفوق بكثير ما لدى الاتحاد السوفييتي .

إن لدى القوات الاستراتيجية النووية الأميركية كمية أكبر بكثير من الرؤوس النووية مما هو لدى الاتحاد السوفييتي ، حيث وصل الفارق في نهاية عام ١٩٨١ إلى أكثر من ثلاثة آلاف رأس نووية .

والقيادة العسكرية الأميركية تخادع نفسها إذ تؤكد أن عدد القاذفات الأميركية ـــ الاستراتيجية من طراز ب ـــ ٥٢ هو فقط ٢٤١ طائرة ، وذلك لأنه سبق وتضمنت معاهدة سالت ـــ ٢ رقماً آخر هو ٥٧٤ طائرة من هذا الطراز ، ولم يحدث منذ تلك الفترة أي تنسيق لهذه الطائرات في الجيش الأميركي .

كما أن عدد الأقمار الصناعية الأميركية التي تدور حول الأرض مباشرة والموجودة بصورة دائمة في الفضاء يزيد بمقدار ١٫٥ ـــ ٢ مرة عن مثيلاتها السوفييتية ، وهذه الأقمار مخصصة أصلاً لأهداف عسكرية .

كتب فرد كابلان المعلق العسكري في صحيفة الواشنطن بوست ، يقول : « إن أكثر معلوماتنا التي نتلقاها عن القوات المسلحة السوفييتية ، وخاصة ما يتعلق بالأسلحة النووية نحصل عليها بواسطة الأقمار الصناعية . فنحن نمتلك برنامجاً ضخماً للاتصالات العسكرية وشبكات مراقبة للقيادة ، وتسهيلات ملاحية بحرية وأنظمة دعم أخرى موجهة من الفضاء » .

أما في المجال البحري فالولايات المتحدة الأميركية متفوقة بالسفن الحربية ، إذ لديها

١٤٣ سفينة مقابل ١١٢ لدى السوفييت، ومتخلفة في الغواصات النووية، إذ لديها ٢٣ غواصة مقابل ١٨٠ لدى السوفييت.

أما بالحمولة العامة للأسطول الحربي فتتفوق البحرية الأميركية بنسبة ١٫٧ مقابل ١، وهي ٤٫٥ لدى الأميركيين مقابل ٢٫٦ لدى السوفييت.

وبالنسبة لحاملات الطائرات فإن القوات البحرية الأميركية تملك في قوامها ٢١ حاملة للطائرات، بالإضافة إلى سفينة حاملة للطائرات.

وفيما بين ١٩٨٣ ــ ١٩٨٧ سوف تبني حاملتي طائرات ذريتين جديدتين من طراز نيميتس.

وعلى متن حاملات الطائرات الأميركية ترابط الآن أكثر من ٥٢٠ طائرة مزوّدة بالأسلحة النووية، وهي قادرة على توجيه الضربات إلى الأهداف السوفييتية وغير السوفييتية.

ونتيجة لهذا كله يتضح أن لدى الأميركيين ١٠٥٣ قاعدة إطلاق للصواريخ الباليستية العابرة للقارات، و ٦٤٨ قاعدة إطلاق صواريخ باليستية عابرة للقارات، متوضعة في الغواصات، وأكثر من ٥٧٠ قاذفة ثقيلة و ٦٥ قاذفة متوسطة مخصصة للعمل في القارة الأوروبية، بالإضافة إلى ألف طائرة من زمرة الوسائط النووية للتوضع الأمامي في أوروبا والشرق الأقصى والمحيط الهندي. يضاف إلى هذا عشرة آلاف وحدة سلاح نووي لدى القوى الاستراتيجية الهجومية الأميركية.

إن الولايات المتحدة الأميركية بنشرها الصواريخ المتوسطة المدى في أوروبا الغربية، وهي صواريخ مخصصة للضربة الأولى تكون قد خرقت التوازن العسكري، وأنشأت خطراً نووياً إضافياً بالنسبة للاتحاد السوفييتي وحلفائه، خاصة وأن مدة التحليق القصيرة اللازمة لصواريخ بيرشينغ ــ ٢ لبلوغ أهداف فوق أراضي الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى، والتي تتراوح بين ٨ ــ ١٠ دقائق تضمن تفوقاً محدوداً للولايات المتحدة الأميركية.

جـ ـــ الرؤية الاستراتيجية الموضوعية

إن الخبراء الدوليين الموضوعيين مجمعون على أن حرباً نووية يمكن أن تقع بسبب التهور الأميركي لا السوفييتي. وهم يتخوفون من النيّات الأميركية العدوانية ضد العالم كله، هذه النيّات التي من الممكن أن تقود للحرب.

إن الأميركيين يخططون لكي تكون الضربة النووية الأولى ضربتهم أولاً، وقوية لدرجة أنها تقلص حتى النهاية قدرة الخصم على تنفيذ الضربة الجوابية.

إن الضربة النووية الأولى ستستهدف أغراض الجهد الحربي الكبير، والهيئات السياسية، والقيادات العسكرية والحكومية، والمنشآت الصناعية ـــ الاقتصادية الحيوية، ووسائط النقل والاتصال، والمراكز الإدارية الكبرى لدى الخصم، حيث سيتم هذا كله بواسطة أسلحة دقيقة وأمينة وفعّالة وفي مقدمتها: مختلف الصواريخ العابرة للقارات وخاصة الصاروخ M X، وصواريخ الغواصات من طراز ترايدنت ـــ ٢، والصواريخ المجنحة ذات المهام الاستراتيجية.

كما سيعمد البنتاغون إلى الاستخدام المحدود للقوات الاستراتيجية الهجومية، وفقاً لأساليب مختلفة، يستخدمها لتنفيذ الضربات النووية المتتالية المحدودة، بحيث يخطط لاستخدام القدرة النووية بصورة تبدأ من بضعة وسائط نووية، لتصل إلى بضعة آلالاف وحدات ذخيرة نووية، بحيث تنزل بصورة دقيقة على أهم أغراض الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية وأهدافهما، وبعض مناطق العالم الهامة التي تعتبرها الولايات المتحدة الأميركية داخلة في نطاق أمنها القومي وامتداده، ومصالحها الحيوية كالشرق الأوسط، والخليج.

وبديهي أن هذه الحروب المحدودة سوف يتعذر إيقافها والإحاطة بها، ومن المحتمل انتشارها لتصبح عالمية ـــ كونية.

إن الاستراتيجية الأميركية التي ترى إمكان خوض حرب نووية طويلة الأمد ـــ تمتد لعدة أسابيع، وحتى لعدة أشهر ـــ بحيث يمكن التوصل من خلالها إلى النصر هي استراتيجية غير موضوعية ولا مبرهنة. ومع هذا فستعمل الإدارة الأميركية لكي لا تكون هذه الحرب على أراضيها، ولا قريبة منها.

كما أنها تصرّ على تحميل أوروبا الغربية أزمة هذه الحرب وعواقبها، وهو بالضبط ما يفسر إكراه واشنطن بلدان القارة الأوروبية على قبول نشر الصواريخ الاستراتيجية المتوسطة المدى من طراز بيرشينغ ـــ ٢ وكروز، وهي صواريخ قادرة على تدمير الأهداف السوفييتية الواقعة في القسم الأوروبي، وجميع الأهداف الموجودة في البلدان الاشتراكية الأوروبية ـــ الشرقية.

أما فيما يتعلق بحجج الجانبين: الأميركي والسوفييتي ومبرراتهما فإنه لا بد من التسليم بمسألة سباق التسلح الكبير الذي يتأجج بينهما من جهة، وبين حلفي الأطلسي ووارسو من جهة أخرى، في إطار الاندفاع الأميركي ـــ الأطلسي المتواصل للسيطرة على الموقف العسكري الدولي، ورغبة الطرف الآخر في العزوف عن تقديم تنازلات من شأنها خرق التوازن الدولي وفقدان هذا الطرف هيبته العالمية.

إن العالم كله يعرف جيداً أن هناك توازناً ومساواة بين كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية، وهذا التساوي يشمل كلاً من الأسلحة النووية الاستراتيجية، والوسائط النووية ذات المدى المتوسط، والأسلحة التقليدية ـــ الكلاسيكية.

إلا أن الولايات المتحدة الأميركية ـــ وهذا ما اعترفت به الجهات المعنية بما فيها الأقلام الأميركية نفسها ـــ تحاول بكل ما تستطيع تغيير المعادلة لصالحها، ونشر الهيمنة الأمبريالية على العالم كله.

فحتى منتصف السبعينيات كانت هناك مساواة في كمية الأسلحة الاستراتيجية النووية ونوعيتها بين الدولتين الكبيرتين، حيث تم الاعتراف بها مرة ثانية من خلال محادثات اتفاقية سالت ـــ ٢ للحد من الأسلحة الاستراتيجية النووية.

فقد اتفق الخبراء والمختصون في شؤون سباق التسلح على وجود توازن في وسائط نقل السلاح النووي، والتي وصل عددها إلى ٢٥١٠ لدى السوفييت و ٢٣٠٠ لدى الأميركيين.

وكان على كل منهما تقليص هذا العدد مع مطلع عام ١٩٨١، بحيث يكون لدى كل منهما ٢٢٥٠ واسطة لحمل السلاح النووي.

إلا أنه سرعان ما وضعت اتفاقية سالت ـــ ٢ الموقعة من الجانبين (على الرف) وبدأت الاتهامات الأميركية تتوالى موجهة ضد الاتحاد السوفييتي، حيث اعتبرته متفوقاً وخارقاً جميع المعاهدات والمواثيق بآن واحد. وكان هذا هو رأي كل من ريغان وواينبرغر وهدفهما.

والأمر ذاته بالنسبة للوسائط النووية ذات المدى المتوسط المتواجدة في أوروبا، فإن الدولتين متساويتان نوعاً وكماً، حيث وصل عددها لدى كل منهما إلى ألف قطعة. فالولايات المتحدة الأميركية مع بلدان حلف الأطلسي تملك من الصواريخ والطائرات النووية التي يمكن أن تصل إلى أراضي الاتحاد السوفييتي من أوروبا الغربية ـــ أي من دائرة نصف قطرها ألف كيلو متر، وأكثر ـــ لا تدخل هنا الصواريخ النووية الباليستية العابرة للقارات ـــ ما يصل عدده إلى ٩٨٦ قطعة منها: للولايات المتحدة الأميركية ٧٠٠ طائرة من طراز F-III، و FBIII، و F-4، وهي طائرات على حاملات متواجدة في البحار المحيطة بأوروبا، ولانكلترا ٦٤ صاروخاً باليستياً و ٥٥ قاذفة، ولفرنسا ١٤٤ قطعة (٩٨ صاروخاً و ٤٦ قاذفة).

ومقابل ذلك لدى الاتحاد السوفييتي ٩٧٥ قطعة مشابهة لهذه الأنواع، وهو مؤخراً قد عمد إلى استبدال صواريخه المتوسطة المدى من طراز س س ـــ ٤ و س س ـــ ٥ بأخرى جديدة من طراز س س ـــ ٢٠، وهي صواريخ تحمل ثلاثة رؤوس نووية، ولكن مجموع استطاعتها ـــ كما يؤكد الخبراء السوفييت ـــ لا يزيد على المنظومة القديمة.

ومن المؤكد أنه فيما لو اندلعت الحرب فإن الولايات المتحدة الأميركية سوف تستخدم بصورة متعاونة لدرجة كبيرة القوات الاستراتيجية الهجومية (الترِيادا) التي تشمل في قوامها الصواريخ الباليستية العابرة للقارات، والطيران الاستراتيجي، والغواصات النووية الصاروخية.

وسوف تستخدم هذه القوة معتمدة على وسائط نقل السلاح النووي، وعددها حتى عام ١٩٨٥، حسب معطيات السوفييت، هو ٢٣٣٨ منها: ١٠٥٣ قواعد إطلاق للصواريخ العابرة، و ٤١١ قاذفة، و ٦٤٨ قاعدة إطلاق صواريخ باليستية موجودة في ٤٠ غواصة صواريخ ذرية.

إن هذه الوسائط قادرة في طلعة واحدة على حمل عشرة آلاف قطعة سلاح، تتراوح استطاعتها ما بين ٥٠ كيلوطن و ١٠ ميغاطن (الميغا الواحدة مليون كيلو طن).

وستبذل القوات والأسلحة الاستراتيجية النووية الدفاعية بدورها جهداً مكملاً للجهد الاستراتيجي الهجومي، وتؤمن المعطيات الاستطلاعية الضرورية والتامة عن الموقف الجوي الفضائي ــ الكوني.

ومن المعروف أنه يدخل في عداد هذه القوات الوحدات والوسائط البرية والجوية والبحرية التابعة عملياتياً للقيادة الجوية ــ الفضائية الدفاعية، وهي حسب المهام موزعة إلى:

- قوى ووسائط الصراع ضد الصواريخ.
- قوى ووسائط الصراع ضد الأسلحة الفضائية.
- قوى ووسائط الصراع ضد الطائرات.
- منظومة الإنذار عن الضربة النووية الصاروخية المتوقعة.

بهذا تكون الولايات المتحدة الأميركية قادرة من حيث المبدأ مع اقتراب عام ١٩٩٠ على شن حرب نووية شاملة، يلعب فيها الفضاء دوراً بارزاً للغاية.

وتكون في الوقت نفسه قد تسببت بكارثة كبرى بشرية لا يستبعد أن تقع هي ذاتها ضحيتها، لأن خصمها قوي للغاية، وقادر على تنفيذ الضربة الجوابية بصورة مدمرة أيضاً.

٥ ــ نتائج الحرب النووية المقبلة

ما من شك في أن مسحة من الحزن العميق تخيّم اليوم على وجوه أفراد الجنس البشري، نظراً للسباق النووي الدائر بين الجبارين المتصارعين، إلا أن هذه المسحة سرعان ما تنتقل إلى هلع وخوف شديدين، بمجرد رصد نتائج الحرب النووية سواء على الصعيد العسكري، أم المدني، أم الطبيعي ــ الإنساني بكامله.

ولكن قبل كل شيء لا بد من وضع المقولة التالية بالاعتبار الأول. ليست هناك حرب لا يمكن تفاديها، إذا ما توفرت النيّات السليمة والتوجهات الإنسانية الصحيحة.

لهذا تبذل المجتمعات الإنسانية كلها ما بوسعها اليوم لتجنب حدوث حرب نووية غداً.

أما من وجهة النظر التقنية العسكرية والاستراتيجية فإنه لم يعد بوسع أي طرف أن يفاجىء الطرف الآخر الذي سوف يتمكن إما من إحباط نيّات خصمه، أو الرد عليها بالقوة نفسها تقريباً.

لهذا يمكن التسليم بآراء المنظرين الاستراتيجيين العسكريين التي ترى أن البرامج الأميركية المتعلقة بالدفاع الأمين الواقي، والهجوم الحاسم ليست مبررة بشكل كافٍ، إذ ليس هناك ما يمنع السوفييت باعتراف الخبراء الأميركيين أنفسهم ـــ من تدمير المحطات الدفاعية الفضائية المضادة للصواريخ بواسطة وسائلهم التدميرية المتوضعة في الفضاء الخارجي، أو في الجو، أو في البحر، أو في البر، حيث يمكن تدمير هذه المحطات اعتماداً على وسائط الليزر المثبتة على الأرض، وتلك التي ستنتشر في الفضاء جاهزة للعمل مع مطلع عام ١٩٨٧، كما يمكن تدميرها عن طريق نشر عوائق وحواجز متباينة متحركة في مدارات المحطات الفضائية الدفاعية، حيث تشل عملها وتتركها دون فعالية تذكر.

ومن الممكن أيضاً أن يعمد السوفييت إلى إطلاق صواريخ كاذبة ـــ تمويهية لجذب نظر المحطات الفضائية الدفاعية وإجبارها على التعامل معها، واستنفاذ احتياطي الطاقة المتوفر لديها.

كما يمكن للخصم استخدام نظام المرايا للتمويه على المظهر الخارجي للصاروخ، بحيث تصبح أشعة الليزر نفسها دون فاعلية.

وأخيراً يمكن العمل على تعطيل وتخريب مختلف الاتصالات ما بين المحطات الفضائية ومراكز القيادة وتسهيلات الإشراف المنشأة على الأرض.

ومع هذا كله، فإن هناك قلقاً بشرياً واسع النطاق يسببه الخوف من حدوث المأساة ووقوع البشرية في بركان الكوارث المترتبة على نتائجها وآثارها وأبعادها.

ومن المؤكد أن نتائج الحرب المقبلة سوف تكون مغايرة تماماً لكل ما عرفته البشرية من الحروب نظراً للاستخدام الجديد لأسلحة ومنظومات فتّاكة تدمر القوى الحيّة البشرية والطبيعية ، ورسالة الحضارة الإنسانية بكاملها .

ومع هذا ، تطرح التساؤلات التالية نفسها :
هل الحرب المقبلة تعني نهاية البشرية ؟
هل هي الدمار المحتوم للكرة الأرضية باعتبار ما تحدثه من تحولات خطيرة في الطبيعة والبيئة البشرية على الأرض ؟
وهل صحيح أن العواقب المناخية للحرب النووية أشد أثراً من نتائج الصدمة المباشرة نفسها ؟
وهل يعني بقاء بعض البشر العودة إلى العصر الحجري ؟
وأخيراً هل هناك من منتصر أو مهزوم ؟

إن الإجابة الحقيقية الموضوعية غير متوفرة حتى الآن عن كل هذه التساؤلات ، إلا أن المتتبعين للشؤون السياسية والحربية ، والمهتمين في سباق التسلح النووي ، وعسكرة الفضاء يبدون تشاؤماً جاداً في هذا الميدان .

ومع هذا فإن دمار العالم منوط بسبب الحرب وبالسياسة التي تأتي الحرب امتداداً لها ، فإذا لم تحدث الحرب مباشرة بين الجبارين ، ولم تضغط الأيدي الأميركية على أزرار الصواريخ والقاذفات المختلفة وتوجهها ضد الأهداف السوفييتية فإنه من المستبعد أن تكون هناك حرب ، ذلك لأن الاتحاد السوفييتي قد أخذ على عاتقه ألّا يكون البادىء ، وهو ما تثق به شعوب العالم .

إلا أن الضربة الجوابية السوفييتية ستكون فعالة للغاية ، وهي قد تتأخر ما بين ٣ ــ ٥ دقائق ، إلا أنها ستكون موجعة ، وستنطلق إلى الأراضي الأميركية من جهة ، وإلى جميع المناطق التي تتواجد بها القواعد ومنصات الإطلاق الأميركية من جهة أخرى ، مما سيعرض الجزء الأكبر من الكرة الأرضية لخطر التدمير الشامل .

ومهما بلغت قوة الضربة النووية ومن أي اتجاه بدأت ، من البحر أم الأرض أم الجو

أم الفضاء، فسيكون لدى كل من الطرفين متسع من الوقت لتوجيه أكثر من ضربة جوابية.

إن جغرافية العمليات العسكرية لا تعني هنا محدودية انتشار مفعول الاستخدام النووي، فالآثار المناخية التي تنتج عن استخدام السلاح النووي تنتشر حسب آلية الجريان الجوي العام التي ستؤدي بدورها إلى تلوث الغلاف الجوي الداخلي للأرض بحدود شهر على الأقل أو شهرين على الأكثر.

لهذا إذا كان المخزون النووي الحالي الموجود لدى الدول الأعضاء في النادي النووي، وفي مقدمتها كل من: الولايات المتحدة الأميركية، الاتحاد السوفييتي، انكلترا وفرنسا يستطيع أن يدمر الكرة الأرضية بمقدار ١٥ مرة، وكان معدل الوحدة النارية التي ستستخدم من كل الطرفين الدقائق العشر الأولى يتجاوز ثلث حجم هذا المخزون، فإن القول ببقاء البشرية أو قسم منها مشكوك في صحته.

لكن هذا كله مرة أخرى يتوقف على نوع الضربة واتجاهها وتوقيتها وظروفها، وعلى قدرة الردع المتوفرة، ومدى تطور النظامين: الدفاعي، والهجومي لدى الطرفين، وهو الأمر الذي يمنح بعض التفاؤل حول إمكان تفادي نشوب الحرب النووية.

وإذا كانت الحروب السابقة كافةً ذات أهداف سياسية، سواء أكان الباعث لها فردياً أم جماعياً، وشعوراً قبلياً أم قومياً فإن الحرب المقبلة ذات هدف سياسي واضح. إنه بالنسبة للأمبريالية الاحتكارية التدمير الشامل للاشتراكية كنظام ومجتمع ودول، وبالتالي قطع طريق التطور المستقل العادل لبلدان العالم الثالث.

لكنه أمر لن يحصل هكذا بسهولة إذ إن الرأسمالية العالمية سوف تجد نفسها تدمر ذاتها، إما بيدها أو بيد غريبة عنها، وهنا يمكن التسليم بالرأي الذي يقول إنه في الحرب المقبلة لا وجود لغالب أو مغلوب. إنه تدمير شامل وكارثة جنونية ضد البشرية قاطبة.

ومن المعترف به ضمنياً أن بلدان المنظومة الاشتراكية لن تكون البادئة في الحرب المقبلة، لأن هذا يتعارض وجوهر النظام الاشتراكي القائم على أساس احترام السلام وتوطيده، والتعامل مع الشعوب في إطار من العدل والتكافؤ والنفع المتبادل.

ولهذا فإن الأمبريالية إلتي أشعلت حربين سابقتين وعشرات الحروب الإقليمية والقارية اللاحقة هي التي ستسبب الحرب المقبلة، بحيث تصدق هنا مقولة المنظّر، الفيلسوف والقائد الاشتراكي المعروف لينين التي ترى أن «السيطرة العالمية ــ باختصار ــ هي مضمون السياسة الأمبريالية التي تعتبر الحرب الأمبريالية امتداداً لها».

وعملياً فإن الأمبريالية العالمية تراهن دوماً على القوة، وترى في ازدياد قدرتها العسكرية مدخلاً لشن حرب جديدة، وبدورها تريد الأمبريالية الأميركية ــ حسب تعبير السيناتور الأميركي ياري غولد ووتر ــ تريد أن تصبح قادرة على إلقاء القذيفة في حضن الكرملن. ولكن هذا ــ كما يبدو ــ حلم مستحيل التحقق.

إن القوة التي كانت في الماضي أداة لحل التناقضات والمشكلات التي تقوم بين الدول والبلدان والمجتمعات، أصبحت اليوم عاجزة عن أداء هذا الدور. إنها تقوقعت وأفرغت من محتواها، برغم تطورها الكبير. إنها عاجزة عن قول الكلمة الحاسمة، ويجب بالتالي أن تخلي الموقع لحلول المزيد من العقلانية والهدوء والسلمية والعدالة لحل التناقضات الدولية.

وعلى هذا فإن الاتجاهات التي تعتقد بالقوة لاحتلال مركز الصدارة في إيجاد حلول لمشكلات دولية عجزت عنها السياسة لم تعد مبررة اليوم. وأكثر من هذا فإن شعوب العالم ترى في آلة الحرب العدوانية، وفي تطوير القوة وسباق التسلح والاندفاع للسيطرة على الفضاء بغية شن المعارك المقبلة منه، ترى في ذلك كله جرائم بحق الإنسانية. ولهذا فهي تدينه وتشجبه وترفضه، مما يعني في نهاية الأمر عاملاً حاسماً من عوامل هزيمة الأمبريالية المقبلة، فيما إذا دفعها الجنون العسكري إلى ارتكاب الجريمة النكراء.

إن نتائج الحرب السياسية كانت دوماً ضد مسببيها ومفتعليها، وبهذا سقطت النازية والفاشية في كل من ألمانيا ــ هتلر، وإيطاليا ــ مرسوليني، واندحرت العسكرية اليابانية، وتم لجم القوى والنزعات والاندفاعات الأمبريالية العسكرية الانكليزية والفرنسية والأوروبية الأخرى.

وقد وقف الشعب الأميركي نفسه يدين جرائم حكومات الولايات المتحدة الأميركية ضد شعب فييتنام، وشعوب بلدان جنوب شرق آسيا والشرق الأوسط.

ومن المؤكد أن الحرب الأمبريالية المقبلة سوف ترتد وبالاً على الولايات المتحدة الأميركية نفسها، لأنه ليس هناك اليوم على وجه الأرض دولة ولا شعب يقف مع الحرب أو يريدها، بالرغم من أن دولاً كثيرة سوف تنخرط بها شاءت أم أبت.

والحرب المقبلة تختلف كلياً عن الحربين السابقتين اللتين كانتا بحدود مَّا، عاملين مسرعين لنشر أنظمة وعلاقات وبنى جديدة على الخارطة الدولية، وفي الأنظمة الاجتماعية ـــ الاقتصادية العالمية.

فالحرب الأولى انتهت إلى ظهور الأمبريالية الأميركية واندحار الإستعمار بشكله الكلاسيكي، وبروز الدولة الاشتراكية الأولى في العالم كله، وإعادة تقسيم القارة الأوروبية، بينما أدت الحرب العالمية الثانية إلى بروز معسكرين متصارعين بشكل واضح وهما: المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، وما ترتب على ذلك من مؤسسات عسكرية واقتصادية وثقافية وغيرها، كما عجّلت في الوقت نفسه قيام الثورات والحركات التحررية الوطنية، ووضعت بداية لظهور مسيرة العالم الثالث، وتطور الطبقة العاملة العالمية.

لكن الحرب المقبلة سوف تقضي على هذا كله، فتزيل من الوجود جميع البنى السياسية والاقتصادية، وتقضي على كل من وما تقع عليه فتكون بذلك حرباً مدمرة شاملة دون أي تسامح أو تمهل.

فإذا كان عدد قتلى حروب القرن السابع عشر في أوروبا هو ثلاثة ملايين إنسان، وقتلى حروب القرن الثامن عشر أكثر من خمسة ملايين إنسان، وقتلى حروب القرن التاسع عشر حوالي ستة ملايين، وقتلى الحرب العالمية الأولى عشرة ملايين، والحرب العالمية الثانية أكثر من خمسين مليون إنسان، فإن الحرب النووية المقبلة تعني مباشرة ودفعة واحدة قتل مئات الملايين، وربما الأكثرية المطلقة للبشرية، وربما الوجود البيولوجي للبشرية برمتها، وللمخلوقات جميعاً ولمكونات الحياة، ذلك لأن الضحايا ستكون ليس فقط تلك التي تستهدف مباشرة وتتعرض لتدمير التفجير، بل وتلك التي ستتلقى الإشعاعات النووية

القاتلة، وهذا يشمل الكرة الأرضية كلها، باعتبارها اليوم هدفاً مدروساً للسلاح النووي الموجه عليها من جميع المناطق والزوايا، والذي بدأت تواجهه مؤخراً من الفضاء.

لقد عبّر العالِم البروفسور الأميركي جيجر أمام لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ في الكونغرس الأميركي عام ١٩٨١، عن مخاوفه إزاء الحرب النووية المقبلة ناطقاً باسم منظمة الأطباء المناضلين من أجل المسؤولية الاجتماعية فقال: «إن الحروب النووية من وجهة نظر الطب هي مرض لا يمكن معالجته».

أما لجان العلماء المتخصصين في الشؤون الفلكية والاجتماعية والطبية والبيولوجية وغيرها، فتصر على اعتبار هذه الحرب هي الأخيرة. فخلال ٥٥٠٠ سنة من تاريخ البشرية شهد العالم ١٤٥٠٠ حربٍ ذهبت بحوالي أربعة مليارات من البشر، أما اليوم فإن قتل هذا العدد يمكن أن يتم في ساعات محدودة، لا بل دقائق معدودة. والدبلوماسي الأميركي والمؤرخ المعروف ج. كيتان يستبعد بقاء الحضارة بعد الحرب المقبلة.

ومع هذا، فمن المثير الوقوف على تكهنات العلماء حول مصير العالم بعد الضربة النووية، وأغلب هؤلاء أطباء وفيزيائيون وبيولوجيون، حيث يؤكدون أن نتائج الحرب النووية المقبلة ستكون كارثة شاملة. فالخسائر المادية والبشرية المباشرة من الانفجارات والإشعاع المهلك، وما يلي ذلك من سيطرة على العناصر والعوامل الموروثة قد درست بعناية وتفصيل في كثير من الندوات والمؤتمرات الدولية التي توصلت إلى استبعاد بقاء المنتصر حياً، بالرغم من أن اقتناع الإدارة الأميركية ــ الأطلسية بحسم المعركة لصالحها.

ففي الخمسينيات سادت نظرية مفادها أن الانفجارات النووية تكاد تؤثر في الجو تأثير البراكين التي تقذف إلى الجو لدى ثورتها سحابة كبيرة من الغبار، الذي يحجب أشعة الشمس، مما يؤدي إلى انخفاض كمية الطاقة الشمسية التي تتلقاها الأرض لبعض الوقت، فتأخذ درجة حرارة سطح الأرض والجو بالانخفاض. إلا أنه لا يمكن للثورات البركانية مهما اشتدت وتعاظمت وتكاثفت أن تخفض معدل درجة الحرارة أكثر من نصف درجة مئوية. ولهذا بالذات كان يعتقد أن التغييرات التي تطرأ على الخصائص المناخية نتيجة نشوب حربٍ نووية لن تكون كبيرة.

إلا أنه سرعان ما دحضت هذه النظرية، حيث برهن الأستاذ كروتسين من معهد

ماكس بلانك بألمانيا الغربية ، على أن الانفجار النووي يسفر عن تصاعد كمية كبيرة من الهباب بدلاً من الغبار ، وأن كثافة الطاقة العالية في ظل توفر الأوكسجين الكافي تؤدي إلى نشوب حرائق دائمة ، وهي عبارة عن دوامات من اللهيب يطلق عليها اسم (الأعاصير النارية) ، حيث يحترق فيها كل ما تصادفه حتى المعادن والخرسانات .

إن هذه الأعاصير يمكن أن تنشأ نتيجة استخدام أسلحة أقل قدرة من الأسلحة النووية ، كالاستخدام المكثّف للقصف الجوي والمدفعي . فقد كان عدد ضحايا القصف الجوي لمدينتي هامبورغ و درسدن في الحرب العالمية الثانية كبيراً للغاية ، وربما أكثر من ضحايا مدينتي هيروشيما و ناغازاكي .

وعلى كل حال أظهرت الحسابات المختصة أنه في حالة الانفجارات النووية الكبيرة تكون الأعاصير النارية نتائج حتمية لها ، ولهذا فإن كمية كبيرة جداً من الهباب ترتفع فوق المدن التي تتعرض للقصف النووي . فالهباب أكثف من الغبار ، ويتعذر على الضوء عملياً اختراقه .

نظرية الشتاء النووي

تسود اليوم بين العلماء المهتمين بشؤون الفضاء عامة والحرب النووية المقبلة خاصة ، نظرية (الشتاء النووي) ، حيث يتفق العلماء الأميركيون والسوفييت على أن مدخرات الأرض من الأشياء المادية المختلفة كالغابات والدور السكنية ، ومصادر الوقود والمواد الكيمياوية ، كلها ستكون قابلة للاحتراق إلى درجة كبيرة ومتواصلة .

فالأرض ــ كما هو معروف ــ مغمورة بوقود (الهيدروكاربون) ، وهي إذا ما اشتعلت نتيجة تبادل الضربات النووية ، فإن العالم في اليوم التالي سيغوص في الجليد والظلام .

إن العلماء يؤكدون اليوم أن التحولات الفاجعة في البيئة سوف تحدث مباشرة بعد أيام قلائل من الحرب النووية ، وتؤثر على الكوكب الأرضي لمدة سبع سنوات ، إلا أن هذه المدة تحددها الأساليب الاستراتيجية لخوض الأعمال القتالية نووياً ، وما يترتب عليها من طاقة وتأثير حاد ومفاجىء على المناخ ، حيث تنخفض إلى درجة ملحوظة برودة الهواء المحيط بالقارات فخلال شهر واحد من بدء حرب نووية تستخدم فيها طاقة إجمالية تصل

إلى عشرة آلاف ميغاطن تتدنى الحرارة إلى أكثر من ثلاثين درجة تحت الصفر في الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأميركية ، وإلى أربعين درجة في الشمال الشرقي منها ، وإلى خمس وثلاثين درجة في آلاسكا ، وإلى أربعين درجة في كامشاتكا ــ الاتحاد السوفييتي ــ وإلى خمسين درجة في أوروبا ، وإلى واحد وخمسين درجة في شبه الجزيرة العربية ، وإلى اثنين وعشرين درجة في أميركا الوسطى .

ويترافق الهبوط الحاد لدرجة حرارة الهواء في طبقات الغلاف الجوي السفلي بسخونة متزايدة للغلاف الجوي الملوث . كما أن حرارة الهواء في المستوى الأدنى من سطح الأرض ترتفع تدريجياً على ارتفاع يتراوح ما بين ثمانية إلى اثني عشر كيلو متراً فوق سطح الأرض ، حيث يصبح الغلاف الجوي متوازناً إلى حد كبير .

ولأن تيارات الهواء العمودية بسبب الحمل الحراري تحول بقوة دون الانتقال العمودي لبخار الماء فإن تحولاً جذرياً يظهر في الدورة الهيدرولوجية للغلاف الجوي .

إن هذا سيؤثر بدوره على المحيطات التي ستتبرد ببطء أشد بفعل مبدأ القصور الذاتي الحراري الهائل ، وسيشكل الهواء فوق المحيطات مباشرة طبقة من الضباب ، وسيؤدي التباين الكبير في الحرارة ما بين اليابسة والمحيطات إلى هبوب أعاصير ساحلية شديدة مصحوبة بازدياد مكثّف مائي يؤدي إلى تساقط الثلوج الغزيرة ، ليسود الشتاء النووي العام الأرض كلّها ممتداً زمنياً ليتجاوز جميع الفصول .

ونتيجة للانفجارات النووية تتولد كمية هائلة من غاز أوكسيد النيتروجين الذي ينفلت في الغلاف الجوي فتزداد نسبته العادية إلى حد كبير ، مما سيؤدي إلى القضاء على طبقة غاز (الأوزون) حيث يتمدد الدخان ، فتزداد كثافة الأشعة فوق البنفسجية المميتة التي تصل سطح الأرض بمقدار عدة أضعاف ، بينما تحدث الإنفجارات النووية ذات الارتفاعات الأقل تركيزاً أشد لغاز الأوزون السام بيولوجياً .

وإلى هذا ذهب العالِم الفلكي الأميركي كارل ساغان في دراسة له نشرها عام ١٩٨٣ متطرقاً إلى عواقب حرب نووية يستخدم فيها فقط خمسة آلاف ميغاطن ــ أي خمسة آلاف مليون طن من الوقود النووي ــ وهو ما يعادل ١٢٪ فقط من المخزون

النووي العالمي ، حيث أكد أن هذه الكمية كافية لتدمير ألف مدينة كبيرة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية بفعل (الإعصار الناري) .

وقد علل ساغان ذلك بكون سحابة الهباب تحجب عملياً كل ضوء شمس ، ولن يصل إلى سطح الأرض سوى جزء من عشرة ملايين من الطاقة التي كانت تتلقاها سابقاً .

وبما أن الهباب يترسب ببطء فإنه ستخيم على المدن المدمرة سحب سوداء غير ثابتة ، إذ إن التيارات الهوائية تحملها إلى أماكن أخرى .

ويشير ساغان في الجانب الآخر إلى أن الفوضى الاجتماعية وفقدان الكهرباء والبنزين ، ووسائل النقل والغذاء والمواصلات والخدمات العامة الأخرى ، وغياب العناية الطبية ، وانتشار الأمراض ، والاضطرابات النفسية ، سيسفر عنه بالتأكيد عدد هام من الضحايا الإضافية .

أما كتاب (البرد والظلمات) لجملة من المختصين الأميركيين على رأسهم : البيولوجي بول ايد يلش من جامعة ستانفورد بكاليفورنيا ، والبروفسوران : رنالد كيندي ودارلتر روبرتس ، فإنه يؤكد أن حرباً نووية بين الجبارين يستخدم بها فقط ثلث موجودات الترسانة الاستراتيجية العالمية ، أي خمسة آلاف ميغاطن ، (ساغان يرى أن هذه الكمية لا تشكل إلا فقط ١٢٪ من المخزون النووي) ستؤدي إلى موت ١ر٨ مليار إنسان ، كما أن عدداً مماثلاً سيصاب بجروح مميتة ، وسيحترق بالكامل ما مساحته أربعة وعشرون مليون كيلو متر مربع أي ما يعادل سدس المناطق المتمدنة في العالم . كما أن الحرائق الهائلة في المدن الآهلة والمناطق المكتظة بالسكان ستسبب إطلاق الغازات الخانقة والسامة مثل أحادي أوكسيد الفحم والسيانيد ، وثاني أوكسيد الفحم ، وأنواع أخرى من الغازات والوقود تنتقل بتأثير الرياح لتتلف البنى البيئوية للكائنات الحية .

ويتضح أن كارل ساغان ومؤلفي كتاب (البرد والظلمات) متفقون على أن الضربة النووية الأولى والجوابية المتبادلتين بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي سوف تودي بحياة نصف سكان الكرة الأرضية ، أو تتركهم يعانون الجروح الخطيرة من جراء التأثير المباشر للحرب النووية .

وإضافة إلى هذا فإن الدخان الناتج عن سلسلة من الانفجارات الذرية سيكون

من الضخامة بحيث يحجب أشعة الشمس كلياً ، مغرقاً الأرض ومن عليها من البشر في (شتاء نووي) . حيث تهبط الحرارة إلى حوالي ٤٠ درجة تحت الصفر بصورة وسطية ، وينعدم الضوء والحرارة ، وتسود الظلمة الجليدية ، وتزول جميع آثار الحياة الحيوانية والنباتية ، وسيكون مستوى الإشعاع بصورة خاصة كبيراً جداً لدرجة أنه لا يبقى أمام الناجين فرصة للعيش مدة أطول .

إن واضعي نظرية (الشتاء النووي) يؤكدون أن عواقب الحرب النووية ستكون محسوسة في نصفي الكرة الأرضية : الشمالي والجنوبي ، ولو اقتصر تبادل الصواريخ على النصف الشمالي ، وذلك لأن الكرة الأرضية تدور على نفسها مما يجعل ظواهر آثار التلوث سواء أكان إشعاعياً أم لا تنتشر أيضاً على جانبي خط الاستواء ، كما أنه سيؤدي إلى تباين حراري صارخ بين نصفي الكرة الأرضية ، وإلى تغيّر كروي في حركة الهواء ينتج عنه انتقال مكثّف للتلوث النووي عبر خط الاستواء إلى نصف الكرة الجنوبي .

وإذا كان سكان نصف الكرة الشمالي سيتعرضون مباشرة للدمار النووي ، فإن سكان نصف الكرة الجنوبي سوف يشملهم بعد مدة ليست بعيدة (سيل الإشعاع الذري) القادم من الشمال . ويبدو أن العلماء السوفييت بالرغم من تحفظهم قد توصلوا أيضاً إلى هذه الاستنتاجات نفسها ، فالخبير العالِم السوفييتي الكبير أندريه سخاروف «يستخلص أن حرباً نووية ستؤدي تقريباً إلى هلاك الإنسان كنوع بيولوجي» .

اهتم مركز الحسابات لدى أكاديمية العلوم السوفييتية جدياً بآراء كارل ساغان من جهة ، وبنظرية الشتاء النووي من جهة أخرى . وسارع بإجراء حسابات حولها معتمداً على النموذج الرياضي (غيا) الذي يصف العمليات الجارية في المحيط الحيوي (البيرسفير) ومستخدماً الكمبيوتر من طراز ب . أ . س . م ـــ ٦ .

ونتيجة لهذه الدراسة التطبيقية التي جرت أيضاً في صيف عام ١٩٨٣ ، فقد بات واضحاً للعلماء السوفييت أن النزاع النووي لن يؤدي إلى مجرد ليل نووي يستمر زهاء عام كامل فقط ، بل إن درجة الحرارة سوف تنخفض في أنحاء الكرة الأرضية كافة ليعمّها شتاء نووي ، بغض النظر عن زمان الانفجار ومكانه .

وعلى هذا سوف ينخفض معدل درجة حرارة الجو في الطبقات القريبة من سطح

الأرض في الشهر الأول الذي يلي القصف النووي بمقدار ١٥ ــ ٢٠ درجة مئوية، بينما تنخفض درجات الحرارة المحلية في وسط سيبيريا والساحل الشرقي للولايات المتحدة الأميركية بمقدار ٤٠ ــ ٤٥ درجة مئوية، ويحدث اختلال في كامل الدورة الجوية للأرض، وتنتشر السحب السوداء الداكنة تماماً من الشمال إلى الجنوب لتعم الكرة الأرضية بأسرها، إضافة إلى تجمد جميع مصادر المياه العذبة واختلال العلاقات البيئية، وتلف المحاصيل الزراعية، وإبادة الكائنات الحية على اليابسة من حيوانات ونباتات وأحياء مجهرية بشكل كامل. وقد يصيب هذا المصير الحياة في المحيطات أيضاً لأن انعدام ضوء الشمس يؤدي إلى تلف العوالق النباتية التي هي أساس الحياة في المحيطات.

وهكذا يبدو من حسابات مركز الحاسبات لدى أكاديمية العلوم السوفييتية أنه إذا استخدم في الحرب النووية ما بين ١٠٠ ــ ١٥٠ ميغاطن من الوقود النووي، أي أقل بخمسين مرة من حسابات ساغان فإن النيران سوف تلتهم كبريات مدن أوروبا وآسيا وأميركا، وسيعم الكرة الأرضية شتاء نووي يستمر بضعة أشهر تكفي لإبادة الحياة على سطح الكرة الأرضية.

أما نيكيت موريسييف ــ مدير مركز الحاسبات ــ والعضو المراسل في أكاديمية العلوم السوفييتية فقد استخلص وجود توافق بين التحليل العلمي الأميركي والسوفييتي، حيث يرى أن الخبراء السوفييت والأميركيين قد توصلوا كل على حدة إلى خلاصة واحدة مفادها أن في حوزة البشرية الآن فكرة جديدة تماماً قائمة على معطيات علمية دقيقة عن العواقب والآثار الوخيمة التي يمكن أن تسفر عنها الحرب النووية. إنها على حد تعبير الأكاديمي السوفييتي يفغيني فيليخوف تتمثل في أنه بات واضحاً للجميع أن السلاح النووي لم يعد أداة سياسية، ولكنه لم يعد أداة حربية أيضاً. إنه أداة انتحارية.

لكن هذا كله لا يعبر عن رأي القيادة العسكرية الأميركية التي تؤمن بمفهوم الانتصار في الحرب النووية، وشل الخصم وإرغامه على الاستسلام.

فما معنى الانتصار في الحرب النووية ؟

إنه يعني تأمين بقاء القيادة العليا على قيد الحياة، والحفاظ على جهد صناعي،

وحماية نسبة محدودة من الأفراد، بالإضافة إلى امتلاك إمكانية إنزال خسائر كبيرة بالعدد.

إلا أن المصادر المختصة حتى هنا تؤكد أن عدد المتبقين من السكان لدى المنتصر نووياً لن يزيد على ٢٪ بالمئة، وفي أحسن الأحوال ٥٪.

إن تفجيراً نووياً بطاقة ثلاثة أطنان من مادة (تري نترو تولول) هو أقوى اليوم من مليون قنبلة من نوع القنبلة التي ألقيت على هيروشيما اليابانية، ولهذا لا مجال للقول بالحرب النووية المحدودة والخروج منها بالنصر.

وإذا ما جرى تبادل ضربات نووية بين الجبارين، ففي الساعات الأولى سوف يموت نصف سكان المناطق المعرضة مباشرة للضربات النووية منهم ٣٠٠ مليون في أوروبا. بينما سيتعرض الباقون إلى الحروق والإصابات والهلوسات الشديدة، بحيث يموت أكثرهم بعد مدة تتراوح ما بين ٢ ــ ٨ أسابيع، على الأخص لأنهم سيكونون بحاجة إلى كل وسائل العيش غير المتوفرة، وفي مقدمتها العون الطبي الذي سيكون حتماً مفقوداً.

هناك تعبير (ميدو درامي) اعتاد العلماء ترديده وهو: «الأحياء بعد الحرب النووية سيحسدون الموتى». ولهذا التعبير كما يبدو درجة كبيرة من الحقيقة والصحة والصدق، لأن الآثار النووية ستصيب الأجيال المتتالية وستؤثر على البيئة البيولوجية، والشكل الإنساني بكامله، خاصة وأن قسماً كبيراً من المتبقين سوف يصابون بالتورمات الخبيثة السرطانية ذات المنشأ النووي التي تظهر بتأثير الغبار والهباب والمواد الأخرى، التي ستترسب بعد الانفجار النووي، الذي تبلغ استطاعته خمسة آلاف ميغاطن، حيث ستورِّث أمراضهم وإصابتهم لأحفادهم.

ويضرب عالِم الاجتماع الأميركي ج. شل المثال التالي:

إن رأساً نووية واحدة تنفجر على ارتفاع ٢٠٠ كيلو مترٍ فوق مدينة ــ أوماها بولاية نيبراسك ــ يمكن أن تستدعي نبضة ــ كهرومغناطيسية، تكفي استطاعتها لتدمير شبكة الكهرباء في جميع أراضي الولايات المتحدة الأميركية، بالإضافة إلى مناطق أخرى في كندا والمكسيك حيث ستدمر اقتصاد هذه البلدان، ولهذا لا معنى للنظرية التي ترى أن حرباً نووية محدودة ممكنة الوقوع.

هكذا تتضح الأبعاد المخيفة لعسكرة الفضاء، والتطورات الجديدة العاصفة، وأبعاد التخطيط الأميركي للحرب المقبلة، ومدى الاستعداد الذي تقوم به الولايات المتحدة الأميركية لتحقيق التفوق المطلق إن في مجال وسائط الهجوم الاستراتيجية النووية، أو في مجال بناء منظومة الدفاع المضادة للصواريخ والعاملة من الفضاء.

كما تتضح نتائج الحرب النووية المخيفة على جميع الأصعدة. وهو أمر تحاول القوى التقدمية والثورية العالمية أن تجنب البشرية آثاره وأبعاده وعواقبه الوخيمة.



ثانياً ــ الحرب النووية

١ ــ تعريف

الحرب النووية هي الحرب التي تستخدم فيها الأسلحة النووية، سواء مع بدء نشوبها، أو نتيجة التصعيد الذي يلجأ إليه، في الظروف التي تتعقد فيها المواقف القتالية في الحرب التقليدية.

٢ ــ مفهوم الأسلحة النووية ووسائط استخدامها

لن نقف إلا قليلاً عند هذا المفهوم، لأن السلاح النووي عموماً، كان موضوع دراسات مستفيضة في الكثير من الكتب والنشرات الموجودة في متناول الجميع، ومع ذلك فلا بدّ لنا من مرور عابر على النقاط الهامة في هذا المجال، للذكرى أولاً، ولإيضاح بعض المعطيات الغامضة ثانياً.

يعتمد هذا السلاح أساساً على الطاقة الهائلة الموجودة في نوى بعض العناصر الثقيلة، والتي تنطلق عبر تفاعلات نووية معينة، تكون انشطارية (تصبح النواة اثنتين) أو اندماجية (تصبح النواتان واحدة) ويفقد بنتيجة هذه التفاعلات جزء من الكتلة متحولاً إلى طاقة حسب قانون انشتاين الشهير جداً:

(الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء).

وإذا علمنا أن سرعة الضوء البالغة ثلاثمئة ألف كيلو مترٍ في الثانية ، تحسب هنا بالمتر في الثانية أي تساوي (٣ × ١٠)^٨ متر / ثانية ، أدركنا كم هي كبيرة هذه الطاقة .

تقاس طاقة الأسلحة النووية أو قوتها بما يعادلها من طاقة تفجيرية للمواد الشديدة الانفجار مثل ت . ن . ت . ويعرف هذا المعادل بالعيار ، ويقاس بالكيلـو طن أي (١٠٠٠ طن) ، فنقول إن عيار القذيفة النووية للمدفع من عيار ١٥٥ ميليمتراً هو (٠٫٠٨) كيلو طناً أي (٨٠) طناً من مادة ت . ن . ت . وأن عيار القنبلة النووية التي استخدمت على هيروشيما كان (٢٠) كيلو طناً أي ما يعادل (٢٠) ألف طن من المادة المذكورة . وعموماً ، فإن الأسلحة النووية تصنف حسب عياراتها إلى :

ـــ صغيرة جداً إذا كان عيارها لا يزيد عن كيلو طن واحد .
ـــ صغيرة إذا كان العيار يتراوح بين كيلو طن واحد وخمسة عشر كيلو طناً .
ـــ متوسطة : بين ١٥ و ١٠٠ كيلو طن .
ـــ كبيرة : عندما يزيد العيار عن مئة كيلو طن .

أما وسائط استخدام هذه الأسلحة فهي :
ـــ الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية ، وهي ذات أمداء غير محدودة .
ـــ الصواريخ ذات الأمداء المختلفة والتي تصل إلى (١٦٠٠٠) كيلو متر . وهي بدورها تقسم إلى :

ـــ صواريخ استراتيجية بعيدة المدى يكون مداها أكبر من (٦٤٠٠) كيلو متر .
ـــ صواريخ استراتيجية ذات مدى فوق المتوسط يتراوح مداها بين (٨٠٠) و (٢٤٠٠) كيلو متر .
ـــ صواريخ عملياتية وتكتيكية يقل مداها عن (٨٠٠) كيلو متر .
ـــ قذائف المدفعية النووية وهي ذات مدى لا يتعدى (٤٠) كيلو متر .
ـــ الطيران الذي تصل أمداؤه حتى (١٧) ألف كيلو متر .
ـــ الألغام النووية (تعامل هذه الألغام بالنسبة لتأثيراتها التدميرية كالانفجارات النووية تحت الأرض ، أما من ناحية الاستخدام فلها شروطها العملياتية والتكتيكية الخاصة بها) .

٣ ــ العوامل التدميرية للانفجارات النووية

وتشمل خمسة عوامل هي :

آ ــ موجة الصدمة

وهي كتلة من الهواء المضغوط تتحرك بسرعة كبيرة اعتباراً من مركز الانفجار وفي كل الاتجاهـــات وتستهلك ٥٠٪ من الانفجـــار . تصل سرعتها إلى حوالي (٢٠٠٠) كيلو متر في الساعة علماً بأن سرعة العاصفة العاتية لا تزيد عن (١٥٠) كيلو متر في الساعة . ومن هنا يمكن تقدير حجم التدمير لهذه الموجة .

ب ــ الإشعاع الوهّاج

وهو تيار من الطاقة الضوئية (تشمل الأشعة فوق البنفسجية ، والمرئية وتحت الحمراء) تصدر عن الكرة النارية التي تبلغ درجة حرارتها بضعة ملايين درجة مئوية في المركز وبضعة آلاف على السطح الخارجي . ولها مفعول الحرق الشديد لكل ما تصادفه من أحياء وجمادات (يستهلك ٣٥٪ من طاقة الانفجار) .

جـ ــ الإشعاع النافذ

وهو سيل متدفق من أشعة غاما والنترونات يستمر لمدة ١٠ ــ ١٥ ثانية . يدمر خلايا جسم الإنسان لدى تعرض هذا الأخير له . وتكون الإصابة متراوحة بين الموت والخروج من القتال . (يستهلك ٥٪ من طاقة الانفجار) .

د ــ التلوث الإشعاعي للأرض

وهو تلوث الأرض بالعناصر المشعّة الناجمة عن الانفجار (يستهلك ٥ ــ ١٠٪ من طاقة الانفجار) ويستمر لزمن طويل يصل إلى عدة أيام وأكثر .

هـ ـــ النبضة الكهرطيسية وتأين الجو

يترافق الانفجار النووي بنبضات كهرطيسية قصيرة الأمد وبتغيرات في الخواص الكهربائية للجو، بنتيجة عوامل متعددة، وخاصة عامل التأين، ويؤدي ذلك إلى تعطل الأجهزة اللاسلكية لبضع ساعات (وعموماً فقد صممت وأنتجت أجهزة لاسلكية والكترونية حديثة تعمل حتى في هذه الشروط).

ونذكر فيما يلي أمثلة رقمية عن التأثيرات التدميرية مجتمعة:

١ ـــ إن نصف قطر الخروج من المعركة لانفجار نووي من عيار (٥ر٠) كيلو طن هو تقريباً كما يلي:

ـــ ٨٠٠ متر للقوى الحية

ـــ ١٠٠ متر للدبابة

ـــ ٤٠٠ متر للعربة العادية

ـــ ٢٠٠ متر للعربة المدرعة.

٢ ـــ يصبح نصف القطر المذكور بالنسبة لانفجار نووي من عيار (٥٠٠) كيلو طن كما يلي:

٥ر٥ ـــ ٤ر٨ كيلو متر للقوى الحية

٣ر١ ـــ ٧ر١ كيلو متر للدبابات

٣ر٣ ـــ ٣ر٤ كيلو متر للعربات العادية

٢ ـــ ٣ كيلو متر للعربات المدرعة

٣ ـــ تصل السحابة الملوثة بالمواد المشعة إلى مسافة ٤٤ كيلو متر عن مركز الانفجار بالنسبة لانفجار نووي من عيار (٥) كليو طن، وإلى ٥١٦ كيلو متر بالنسبة لانفجار من عيار (١٠٠٠) كيلو طن.

٤ ـــ لا يمكن لقنبلة متوسطة من عيار (٢٠) كيلو طن أن تخرج من القتال سوى كتيبة واحدة متمركزة دفاعياً.

٤ ـــ انتشار الأسلحة النووية

توجد معاهدة للحد من انتشار الأسلحة النووية وقعت عليها أغلب دول العالم،

ما عدا بعض الدول التي امتلكت فعلاً أو هي في الطريق لامتلاك هذه الأسلحة مثل الأرجنتين ، والبرازيل ، ومصر ، واسرائيل ، والباكستان ، وجنوب إفريقية . ونظراً لأن العديد من دول العالم أصبح الآن يمتلك منشآت نووية لتوليد الطاقة الكهربائية ، وحيث أن هذه المنشآت تقدم لأصحابها التسهيلات والخبرة في الانتقال إلى صنع الأسلحة النووية ، لذا فإن إمكانية انتشار هذه الأسلحة حتى على مستوى الدول النامية أصبحت أمراً في متناول أغلب دول العالم مع الأسف . وربما سيصبح عدد الدول النووية حتى نهاية القرن الحالي ، أكبر مما يتصور أكثر الناس تشاؤماً .

ولوضع النقاط على الحروف ، فإننا سنعرض ، لما هو موجود فعلاً من هذه الأسلحة لدى الدولتين العظميين بالدرجة الأولى ، ولدى الدول الأخرى النووية أو شبه النووية بالدرجة الثانية .

وسوف نفصل ذلك مع دراسة الاستراتيجية النووية لكل من هذه الدول ، حيث نحدد القوى والوسائط ، واستخدامها المحتمل في الحرب المقبلة ، مع لفت النظر إلى أن التعداد يظل تقريباً غالباً ، لأن إنتاج الوسائط الجديدة ، وتجهيز الوسائط القديمة ، لا يزال مستمراً بعد أن عصفت رياح استراتيجية التفوق النووي في عهد الرئيس ريغان بكل أوراق اتفاقيات الحد من الأسلحة الاستراتيجية ، ولم يكن ردّ السوفييت على هذا العبث أقل عنفاً وحدّة عموماً . ولكننا سنصل في نهاية البحث إلى استنتاجات توجد في أذهان صانعي القرار السياسي ومفاهيمهم في الدول العظمى ، دون أن يجرؤوا على البوح بها . فهم يقرونها ضمناً ، ولكنهم ينكرونها علناً . وعموماً ، فإن ما يهم العالم كله ، والدول الكبرى بشكل خاص ، هو أن تأخذ بالخيار بين أن يبقى سكان هذا العالم على قيد الحياة ، أو أن تبقى الأسلحة النووية ، ويبدو أنه ليس ثمة خيار ثالث في أن يبقى الإثنان معاً .

ولا بدّ لنا أن نشدد على دور الوسائط النووية سواء في رسم الخطوط الرئيسية لاستراتيجيات الدول المالكة لها أو في وضع تصور قريب من الواقع عن أية حرب نووية مقبلة . وبالتالي ، فإن وجود الوسائط يشكل بدوره المقدرة الكامنة لدى أصحابه في اللجوء إلى الخيار النووي ، عندما تفشل الخيارات الأخرى ، وتندفع الدول المعنية إلى المحرقة النووية ، أو لعلنا لن نغالي كثيراً ، إذا قلنا إن هذه الدول تذهب في هذه الحالة إلى الجحيم

النووي الذي لا يوجد مخرج فيه لأحد. وما دامت الأسلحة النووية موجودة، فإن استخدامها يظل ممكناً اليوم أو غداً، أما إذا أردنا لها ألّا تستخدم أبداً فليس علينا سوى التخلص منها، وإنقاذ عالمنا من دمارها.

٥ ـ القوات النووية الاستراتيجية والتكتيكية في دول النادي النووي

أولاً ـ في الولايات المتحدة الأميركية

إن القوات المسلحة الأميركية بشكل عام، والقوات النووية الاستراتيجية فيها بشكل خاص، معدة حسب العقيدة العسكرية الأميركية، لتنفيذ خطط السيطرة على العالم.

وقد عبر معاون وزير الدفاع السابق راشفيلد عن ذلك بقوله:
تبقى القدرة القتالية من وجهة نظر الدوائر العسكرية الأميركية عاملاً حاسماً في الصراعات العالمية، حيث أنها تحدد بشكل رئيسي إمكاناتنا في تحقيق أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية[1].

ولا يمكن تصور وجود عدو رئيسي للولايات المتحدة في الوقت الراهن، وفي المستقبل المنظور، سوى الاتحاد السوفييتي، أو دول المعسكر الاشتراكي عموماً ـ وبالتالي فإن الاستراتيجية الأميركية بشكل عام، وبناء القوات المسلحة الأميركية بشكل خاص، كانتا ومازالتا تعتمدان على الاستراتيجية السوفييتية حسب مبدأ الفعل ورد الفعل.

تعتمد الولايات المتحدة حالياً ـ في بناء قواتها المسلحة على استراتيجية (الترويع الواقعي)، التي تستخدم باعتبارها إحدى أهم وسائل السياسة الخارجية الأمريكية ضد الدول الأخرى. لذلك فلا يزال الهدف الرئيسي للإدارة الأميركية في الثمانينيات متمثلاً

---

(١) انظر مجلة المراقب العسكري لما وراء الحدود، الروسية ـ العدد ١ / ١٩٨١.

في تصعيد القدرة القتالية للولايات المتحدة وحلفائها ـــ عبر التطوير الكمي والنوعي لجميع أنواع القوات المسلحة، وبشكل خاص للقوى النووية الصاروخية، باعتبارها تملك أسلحة ذات أهداف استراتيجية، وعملياتية تكتيكية معاً.

تقسم القوات المسلحة الأميركية عموماً إلى قوى استراتيجية معدّة لخوض الحرب النووية الاستراتيجية، وقوى عامة معدة لخوض أنواع الحروب الأخرى، ومع ذلك فإن هذه القوى الأخيرة مزوّدة أيضاً بوسائط نووية[٢]، يمكن أن تستخدم عند الضرورة ـــ وبتعليمات مركزية تصدر من القيادة السياسية ـــ العسكرية الأميركية. وإذا كانت القوى الاستراتيجية لم تشترك حتى الآن في الأعمال القتالية، فإن القوى العامة اشتركت في العديد من الحروب المحلية الهادفة إلى المحافظة على السيطرة الأميركية، في العديد من بلدان العالم، أو إلى إخماد الحركات الثورية والتحررية (كوبا ـــ فيتنام ـــ أميركا الجنوبية ـــ الشرق الأوسط)[٣].

لن نتعرض هنا إلى القوى العامة[٤] إلا حيث يمكن أن تستخدم وسائطها النووية، ولكننا سنركز على القوى الاستراتيجية، ودورها في السياسة العالمية وتطورها عبر مختلف المراحل، وآفاقها المستقبلية.

ترى القيادة الأميركية أن القوى الجوية تملك أكبر الإمكانات في حل مهام الحرب النووية، أو العامة، باعتبارها مسلحة بالوسائط الاستراتيجية الرئيسية للهجوم، أي بالصواريخ الباليستية العابرة للقارات. وعموماً، فإن القوى الجوية ـــ وبالاشتراك مع الغواصات النووية الصاروخية الداخلة في قوام القوى البحرية، تأخذ على عاتقها مهمة

---

(٢) تكون هذه الوسائط عملياتية تكتيكية فقط ـــ ولا علاقة لها بالوسائط الاستراتيجية.

(٣) لا يزال آخر تدخل أميركي في لبنان ماثلاً في الأذهان. وكان لصمود قطرنا العربي السوري الفضل الأول والأخير في دحره بالشكل الذي لا يجهله أحد.

(٤) تشمل هذه القوى (وهو ما يهمنا هنا) ١٠٨ صواريخ من نوع بيرشينغ ـــ ٢ في ألمانيا الاتحادية (مداها ١٨٠٠ كم) و ٤٦٤ صاروخاً مجنحاً في كل من ألمانيا ٩٦، وبريطانيا ١٦٠، وبلجيكا ٤٨، وهولندا ٤٨، علماً بأن مدى الصاروخ المجنح هو ٢٦٠٠ كم، وأن جزءاً من هذه الصواريخ قد نشر في أوروبا، ولا يزال الجزء الأكبر منها ينتظر. وقد حلت هذه الصواريخ محل الصواريخ السابقة من نوع بيرشينغ ـــ ١ ... ولانس ...

تدمير الوسائط النووية الصاروخية للعدو ، والتجميعات الكبرى لقواته المسلحة ، وإحداث الفوضى في قياداته السياسية والعسكرية ، وتدمير الجهود الاقتصادية في بلاده ، وإضعاف الروح المعنوية لدى القوات والسكان معاً . أما الطيران التكتيكي فيعتبر الواسطة الأساسية لاستخدام السلاح النووي في مسارح الأعمال القتالية ـــ حيث يوجه الضربات النووية على الأهداف الأكثر أهمية لدى العدو ، واكتساب السيطرة الجوية والمحافظة عليها ـــ وعزل مناطق الأعمال القتالية والدعم المباشر للقوات في المسارح المذكورة .

تتألف القوى الجوية الأميركية من قيادة وجيوش وفرق وأجنحة جوية ، ومن أسراب ووحدات متنوعة . وسنذكر فيما يلي باختصار الحجم التقريبي للقوى الجوية التي تستخدم الأسلحة النووية الاستراتيجية بشكل رئيسي ، على أن نكتفي بذكر أرقام إجمالية عن الطيران الذي يستخدم الأسلحة النووية العملياتية والتكتيكية ، مع ذكر الحجم التقريبي أيضاً للقوى البحرية التي تستخدم هذه الأسلحة ، بالإضافة إلى الأنظمة الأساسية التي تعتبر جزءاً أساسياً من مكونات الحرب النووية .

آ ـــ في القيادة الجوية الاستراتيجية

١ ـــ الصواريخ

ـــ ١٠٣٧ صاروخاً باليستياً عابراً للقارات ICBM من الأنواع مينتمان ٢ و ٣ وتيتان ـــ ٢ (تنتظم في ٢٤ سرباً) .

(يحتمل أن يزيد العدد إلى ١٢٥٤ حتى نهاية هذا العقد ، عندما تضاف صواريخ ام اكس MX ، بعد انتهاء تجارب تحليقها والمخطط لها أن تكون جاهزة في عام ١٩٨٦ ، وبذلك تظل الولايات المتحدة متقيدة بشروط معاهدة سالت ـــ ٢ لعام ١٩٧٩ ، بالرغم من عدم التوقيع عليها) .

٢ ـــ القاذفات

ـــ ٣٥٦ طائرة قاذفة (وهي مزودة بـ ١١٤٠ صاروخاً هجومياً ذا مدى قصير) .

وتنتظم هذه الطائرات في ٢١ سرباً .

ـــ ٥١٧ طائرة تزويد بالوقود في ٣٤ سرباً .
ـــ ٢٤٢ طائرة متنوعة (احتياط واستطلاع استراتيجي وأواكس الخ ..) .

٣ ـــ الدفاع الجوي

ـــ ١٠٠ صاروخ مضادة للصواريخ الباليستية ، وهو الحد الأقصى المسموح به حسب اتفاقية سالت ـــ ١ .
ـــ ٧ أسراب طائرات اعتراض جوي تضم ١٦٩ طائرة .

٤ ـــ أنظمة الإنذار وتشمل

ـــ أنظمة إنذار مبكر وأنظمة كشف فضائي ، وشبكات الاتصال والكشف والإنذار المنتشرة في جميع أنحاء العالم .
ـــ نظام مراقبة الأرض شبه الآلي (٦ مراكز) .
ـــ محطات الرادار الأرضية (٥٥ محطة) .

ب ـــ القوات النووية التكتيكية الأميركية

١ ـــ الأسلحة النترونية : لا توجد أية معطيات عنها سوى أنه خصص لها في الأعوام ١٩٨٢ ـــ ١٩٨٥ مبلغ ٣٠٠ مليون دولار ، وأن عياراتها هي ٨ بوصات و ١٥٥ ميلمتراً (حسب تقرير وزير الدفاع الأميركي عن السنة المالية ١٩٨٤) .

٢ ـــ كتائب المدفعية ذاتية الحركة من عيار ١٥٥ ميلمتراً هاوتزر ، والتي تستخدم قذائف نووية من عيار ٢ كيلو طن ، ويبلغ مداها ١٦ كم (على مستوى الفرق) .

٣ ـــ كتائب المدفعية ٢٠٣ مم ، وتستخدم قذائف عيار ١٠ كيلو طن ويبلغ مداها ٣٠ كم (على مستوى الفرق أيضاً) .

٤ ـــ صواريخ لانس Lance وبيرشينغ Pershing ذات الأمداء ٧٠ و ٤٥٠ كم على التوالي .
وتتراوح عياراتها بين ١ و ١٠٠٠ كيلو طن (على مستوى الفيالق فما فوق) .

٥ ـــ الملاغم النووية : تستخدم دفاعياً حسب الخطط العملياتية وخاصة في المسرح

الأوروبي ، حيث تحضر الحفر مسبقاً ، وتوضع الملاغم قبل بدء العمليات بوقت قصير .

جـ ــ في القوى البحرية

ــ ٣٥ غواصة تحوي على ٥٩٢ صاروخاً باليستياً من النوعين بوسايدون ، وبولاريس .

ــ يوجد ٧ غواصات أوهايو قيد الصنع (مع ١٦٨ صاروخاً من نوع ترايدنت) ، وينتهي العمل بها في عام ١٩٨٩ ، ويوجد عموماً حوالي ٥٠٠٠ رأس نووي في هذه الصواريخ البحرية .

ثانياً ــ في الاتحاد السوفييتي

آ ــ قوام القوة النووية الاستراتيجية

القوى الهجومية

١ ــ في البحرية : ٧٩ غواصة مزوّدة بـ ٩٨١ صاروخاً باليستياً عابراً للقارات .

٢ ــ القوات الصاروخية الاستراتيجية : تشمل ستة جيوش مؤلفة من فرق وأفواج وكتائب وسرايا ، علماً بأن السرية تضم صاروخاً واحداً . ويوجد في هذه القوات ٣٠٠ مقر قيادة للتوجيه ، وثلاثة مراكز للاختبارات .

يبلغ مجموع الصواريخ في هذه القوات ١٣٩٨ صاروخاً باليستياً عابراً للقارات من الأنواع س س ــ ١١ و ١٣ و ١٧ و ١٨ و ١٩ .

و ٥٩٦ من الصواريخ الأخرى ذات الأمداء المتوسطة وفوق المتوسطة ، نشر منها ٣٧١ صاروخاً في غرب الاتحاد السوفييتي والباقي في الوسط والشرق .

وهي تشمل ٣٧٨ صاروخاً من نوع س س ــ ٢٠ و ٢١٨ صاروخاً من نوع س س ــ ٤ . ويجري حالياً تبديل النماذج القديمة بالنموذج الحديث س س ــ ٢٠ المتحرك ، والذي يمكن إعادة تلقيمه .

٣ ــ الطيران بعيد المدى : يتألف من ٥ جيوش جوية ــ فيها ٧٥٢ طائرة .

ب ــ القوة الدفاعية

١ ــ توجد ١٠ مناطق دفاع جوي، وعدد كبير من الأفواج، وتتألف بدورها من: ٣٢ صاروخاً مضاداً للصواريخ ABM، (من أصل مئة صاروخ سمح بها بموجب اتفاقية سالت ــ ١) وتنتظم في فوج واحد مؤلف من ٤ كتائب متوضعة حول العاصمة موسكو.

٢ ــ ٤٠٠٠ طائرة معترضة من الأنواع ميغ ــ ٢٣ و ميغ ــ ٢٧ و س و ــ ٩، و س و ــ ١١، و س و ــ ١٥، و تو ــ ٢٨، و باك ــ ٢٨.

٣ ــ ١٠ طائرات مراقبة وإنذار من نوع تو ــ ١٢٦ م.

٤ ــ ١٠ آلاف جهاز إطلاق صواريخ أرض ــ جو في ١٢٠٠ موقع إطلاق.

٥ ــ ٧٠٠٠ جهاز إنذار بما فيها الأقمار الصناعية وأجهزة الإنذار المبكر، ورادارات المراقبة الأرضية. ويتراوح مداها بين ٣٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ كيلو مترٍ، ومنها ما يركب على الطائرات ويبلغ مداه ٦٠٠ كيلو مترٍ.

جـ ــ القوة النووية التكتيكية

١ ــ في القوى البرية

١٣٠٠ صاروخ أرض ــ أرض ضمن الملاك العضوي للتشكيلات وهي من الأنواع س س ــ ٢١ و ٢٢ و ٢٣.

٢ ــ في القوة البحرية

٢٥٩ غواصة مزودة بـ ١٣٧٥ صاروخاً نووياً مختلفاً.

٣ ــ في القوى الجوية

ــ ٥٨٦٠ طائرة مقاتلة تكتيكية تحمل الأسلحة النووية، تنتظم جميعها في ١٦ جيشاً جوياً، مؤلفة من ١٢٤ فوجاً وبعض الأسراب المستقلة، ينتشر منها ٤ جيوش في أوروبا الشرقية، وجيش واحد في كل من المناطق العسكرية السوفييتية الاثنتي عشرة.

ــ طائرة مختلفة للأغراض البحرية الحربية.

بلغ عدد الرؤوس النووية السوفييتية حتى عام ١٩٨١ (٧٠٠٠) رأس

نووية ، وهي في ازدياد مستمر ما دامت الصواريخ القديمة ذات الرأس الوحيد تبدل بالرؤوس المتعددة من نوع ميرف Mirv . ونذكر مثلاً أن مجموع عيارات الرؤوس النووية في الصواريخ العابرة للقارات وذات الأمداء فوق المتوسطة قد بلغ حتى نهاية عام ١٩٨٤ (٢٧٥٧) ميغا طن .

ثالثاً ــ في بريطانيا

تخطط بريطانيا لوضع قوتها النووية الاستراتيجية تحت تصرف قيادة حلف الناتو ، وتتألف هذه القوة من :

ــ أربع غواصات نووية ريزوليوشن Resolution تحمل صواريخ بولاريس (أ ــ ٣) بمعدل ١٦ صاروخاً لكل منها ، وبالتالي فإن مجموع الصواريخ هو ٦٤ صاروخاً لكل منها ، وبالتالي فإن مجموع الصواريخ هو ٦٤ صاروخاً ، تحوي على ١٩٢ رأساً نووية من عيار ٢٠٠ كيلو طن ، وبمدى يصل إلى ٤٠٠ كم .

ــ حوالي مئتي طائرة ــ يحمل بعضها قنبلة نووية واحدة والبعض الآخر قنبلتين ، ويتراوح مداها بين ٧٢٠ ــ ٢٨٠٠ كيلو مترٍ . وعموماً فإن مجموع هذه القنابل هو (٢٣٤ + ٨٠) = ٣١٤ قنبلة .

ــ محطة إنذار مبكر عن الصواريخ الباليستية العابرة للقارات في فلايينغ دالز Flying Dales .

يوجد قرار متخذ من قبل الحكومة البريطانية بتبديل هذه الغواصات بأخرى تحمل صواريخ ترايدنت ــ ١ (يحمل كل منها ٨ رؤوس نووية من عيار ١٠٠ كيلو طن ، وبمدى يصل إلى ٧٤٠٠ كيلو متر وذلك في التسعينيات من هذا القرن) .

رابعاً ــ في فرنسا

لا تزال قيادة حلف الناتو تأخذ بعين الاعتبار القوة النووية الفرنسية ، بالرغم من انسحاب فرنسا من المنظمة العسكرية لهذا الحلف في عام ١٩٦٦ ، وتضم هذه القوة ما يلي :

ــ ١٨ قاعدة إطلاق صواريخ ذات أمداء فوق المتوسطة من النوعين س ٢ و س ٣ (وسيتم تبديل جميع الصواريخ س ٢ بـ س ٣).

(يوجد في الصاروخ س ٢ رأس نووي من عيار ١٥٠ كيلو طن ويبلغ مداه ٢٧٠٠ كيلو متر. أما الصاروخ س ٣، فيوجد فيه رأس نووي حراري من فئة الميغا طن، ومداه ٣٠٠٠ كيلو متر).

ــ خمس غواصات نووية تحمل كل منها ١٦ صاروخاً من نوع م ــ ٢ برأس نووية من عيار ٥٠٠ كيلو طن، ومدى يبلغ ٢٤٠٠ كيلو متر. تبدل هذه الصواريخ بالنوع م ــ ٢٠ من فئة الميغا طن ومدى الـ ٣٠٠٠ كيلو متر.

ــ يراعى في المستقبل المنظور إضافة غواصة سادسة ــ وتبديل جميع الصواريخ بالنوع (ميرف) ذي السبعة رؤوس، التي يبلغ عيار كل منها ١٥٠ كيلو طن، وبالتالي فإن إجمالي عدد الرؤوس سيصل إلى ٦٧٢ رأساً حتى عام ١٩٨٥.

وثمة اتجاه لإضافة غواصتين أخريين في المدى البعيد، تجوب الغواصات النووية الفرنسية الانكليزية البحار بمعدل ١ ــ ٢ غواصة، بينما يتوقع أن يصبح هذا العدد ٣ غواصات ابتداء من عام ١٩٨٥.

ــ ٣٣ طائرة ميراج أ ــ ٤، تحمل كل منها قنبلة واحدة من عياز ٦٠ كيلو طن ويصل مداها إلى ١٦٠٠ كيلو مترٍ.

خامساً ــ في جمهورية الصين الشعبية

القوات الاستراتيجية

آ ــ الصواريخ

ــ ٢ صاروخ باليستي عابرٍ للقارات د ف ــ ٥ بمدى ١٣٠٠٠ كيلو مترٍ، وعيار ٥ ميغا طن.

ــ ٤ صواريخ باليستية عابرة للقارات د ف ــ ٤ بمدى ١٠٠٠٠ كيلو متر، وعيار ٣ ميغا طن.

ــ ٦٠ صاروخاً باليستياً ذا مدى فوق المتوسط.

ــ ٥٠ صاروخاً باليستياً متوسط المدى د ف ــ ٢ بمدى ١٨٠٠ كيلو متر، وعيار ٢٠ كيلو طن.

ب ــ الغواصات

ــ غواصة واحدة تحمل ١٢ صاروخاً من نوع د ف ــ ٣ بمدى ٢٨٠٠ وربما برأس نووي من عيار ٢ ميغا طن.

ــ يتم حالياً صنع أربع غواصات جديدة.

جـ ــ الأسلحة الأخرى

ــ يعتقد أنه يوجد لدى الصين بضع مئات من القنابل النووية التي يمكن إيصالها إلى أهدافها بواسطة الطائرات التي يبلغ مجموعها حوالي ٤٠٠٠ طائرة مختلفة.

سادساً: في الدول الأخرى بما فيها إسرائيل

لا توجد معطيات وخاصة في النشرات الصادرة عن معهد الدراسات الاستراتيجية عن وجود الأسلحة النووية في هذه الدول. وإذا كانت الهند والباكستان قد أجريتا تفجيرات نووية تجريبية فإنهما لم تعلنا، أو لم يعلن في أي مصدر آخر، عن امتلاكهما لهذه الأسلحة. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الدولة الصهيونية، التي يعتقد أنها تمتلك حالياً بضع عشرات القنابل النووية، وأنها تصنع هذه القنابل بمعدل ٢ ــ ٣ قنابل كل عام. وهي تستغل عناصر الشك في امتلاك هذه الأسلحة لردع الدول العربية عن التفكير بإمكانية تحقيق انتصار شامل عليها من ناحية، وللتأثير النفسي البعيد الأمد على الطموحات العربية بشكل عام، والطموحات الفلسطينية بشكل خاص، بما يتصل بإمكانية إعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، وإزالة الوجود الأمبريالي المتمثل بالوجود المادي لدولة العدوان الصهيوني في قلب الوطن العربي. وعموماً فإننا سنعود إلى هذا الموضوع في مكان آخر.

٦ ــ الاستراتيجية النووية للدول المالكة للأسلحة النووية واحتمالات الحرب النووية المقبلة

إذا أردنا التحدث عن الاستراتيجية النووية للدول المالكة للأسلحة النووية، أو عن

الاستراتيجية النووية العالمية، فإننا نقصد من ذلك، التحدث عن استراتيجية الدولتين العظميين، لأن دول النادي الذري الأخرى، تعتبر في المقياس العالمي دولاً لم تشب عن الطوق بعد، وذلك باعتراف منظريها العسكريين بالدرجة الأولى(٥).

وسنرى في مكان آخر من هذا البحث أن ست طائرات فقط من مجموع ٦٠٠ طائرة سوخوي ــ ٧ (وهي طائرة قديمة نسبياً) محملة بالذخائر النووية تستطيع أن تصل إلى أهدافها في أوروبا الغربية إذا انطلقت من قواعدها في أوروبا الشرقية.

لقد أعربت انكلترا عن رغبتها الشديدة في وضع قواتها النووية تحت تصرف حلف الناتو، وبدأت فرنسا تعرب عن مثل هذه الرغبة بعد ديغول، بالرغم من انسحابها من اللجنة العسكرية للحلف المذكور في عام ١٩٦٦.

يبقى العضو الخامس في النادي النووي أي الصين التي لا تملك سوى بضع صواريخ عابرات للقارات (٦ صواريخ تحديداً)، بالإضافة إلى حوالي مئة صاروخ ذات أمداء متوسطة وفوق المتوسطة، تهدد جزءاً من الأراضي السوفييتية، ولا تصل إلى القارة الأميركية، ناهيك عن الطيران ذي المدى المحدود أيضاً.

لذا سنتعرض إلى الاستراتيجية النووية، والحرب المقبلة من وجهة نظر القوتين العظميين بالدرجة الأولى، مؤكدين أن دور القوى الأخرى النووية المقبلة يظل ذا أهمية معينة، ولكن ثانوية غالباً. ونؤكد أيضاً أن كل الدراسات والافتراضات والتنبؤات عن الحروب النووية المقبلة لا تعتمد على خبرات عملية سابقة، كما هو الأمر بالنسبة للحروب التقليدية التي ما زالت مستعرة منذ أن وجد الإنسان على سطح الكرة الأرضية. وباستثناء القنبلتين النوويتين اللتين استخدمتا في نهاية الحرب العالمية الثانية ضد مدينتين يابانيتين، فكل ما قيل أو سيقال عن الحرب النووية يعتمد على دراسات علمية ذات اتجاه نظري تنبؤي، ويظل ذا جذور غير عميقة في أرض الواقع. وإذا كنا لا ندعو إلى حرب نووية لكي تتراكم لدينا الخبرات العملية عنها، فإننا نريد التنويه بأن ما كتب ويكتب في هذا

---

(٥) إذا كان الجنرال بيير غالوا قد اعتقد أن امتلاك فرنسا لبضعة أسلحة نووية سيردع الاتحاد السوفييتي عن مهاجمة بلاده نووياً، فإن الجنرال بوفر Beaufre أكد في محاضرة ألقاها في نادي القوات المسلحة في دمشق (١٩٧٤) أن هذا الأمر ليس صحيحاً.

السياق ينطوي ــ مع الأسف ــ على الكثير من المبالغات التي تخدم أهداف هذا أو ذاك الطرف على الصعيدين الداخلي والعالمي معاً .

٧ ــ الاستراتيجية النووية الأميركية وتطورها وآفاقها المستقبلية

فماذا عن الولايات المتحدة الأميركية ؟ وكيف تطورت استراتيجيتها النووية منذ استخدامها الأول للأسلحة النووية وحتى اليوم ، وما الآفاق المستقبلية لهذه الاستراتيجية ؟ لقد مرت الاستراتيجية النووية في المراحل التالية :

آ ــ المرحلة الانتقالية (١٩٤٥ ــ ١٩٥٢)

اتسمت هذه المرحلة باعتبار السلاح النووي تصعيداً للأسلحة التقليدية ، واستمراراً للنظر إلى الحرب النووية باعتبارها مرحلة متقدمة من مراحل الحرب العالمية الثانية . وقد استفاد الأميركيون من امتلاك السلاح النووي لموازنة التفوق السوفييتي في الأسلحة التقليدية والتهديد الموجه إلى أوروبا الغربية .

وربما كانت الولايات المتحدة تتصرف على أساس انفرادها بامتلاك هذا السلاح ، وسرعان ما انقلبت الآية بانضمام الاتحاد السوفييتي إلى النادي النووي ، وبالتالي فقد بدأ التأثير المتبادل بين الاستراتيجيتين النوويتين الأميركية والسوفييتية .

ب ــ مرحلة استراتيجية الانتقام الشامل (١٩٥٣ ــ ١٩٦٠)

كان التفوق خلال هذه المرحلة لصالح الولايات المتحدة ، وعموماً فقد تميزت بما يلي :

١ ــ خوف السوفييت من سياسة الانتقام الشامل التي أعلن الأميركيون أنها ستنفذ بضربة مضادة للقوة ، ووصفها خروتشيف بأنها تهديد نووي (عاري الوجه)[٦] .

٢ ــ ثقة السوفييت بعدم احتمال بدء الأميركيين لحرب نووية ضدهم ، لأنهم لو أرادوا

---

(٦) انظر شالمرز روبرتس Chalmers Roberts في : (السنوات النووية) : سباق التسلح والسيطرة على الأسلحة (١٩٤٥ ــ ١٩٧٠) الصفحة ٤١ .

ذلك لفعلوه في المرحلة السابقة ، عندما لم يكن السوفييت يملكون السلاح النووي .

٣ ـــ تراجع السوفييت عن وجهة النظر القائلة إن الغرب سيدمر في صراع كبير ، وأخذهم بسياسة التعايش السلمي .

٤ ـــ محاولة السوفييت اللحاق بالأميركيين في امتلاك حجم مماثل من الأسلحة النووية (والاعتماد على الصواريخ عوضاً عن القاذفات) .

٥ ـــ فشل محاولات الحد من الأسلحة والسيطرة عليها .

جـ ـــ مرحلة الدمار المؤكد المتبادل (١٩٦١ ـــ ١٩٦٨)

جرت في هذه المرحلة عودة إلى الأسلحة التقليدية لاستخدامها في الرد المرن ، مع تقوية الأسلحة النووية ليكون لها دور الردع عبر ما تستطيع أن تحققه من دمار مضمون لدى الطرف الآخر ، الذي يستطيع بدوره أن يفعل الشيء نفسه . وإذا قام أحد الطرفين بضربة أولى أو استباقية ، فإن الطرف الثاني يرد بضربة ثانية أو جوابية . واعتمد كل من الطرفين على الثالوث الاستراتيجي ذي الأذرع الثلاثة (صواريخ عابرة للقارات ، وقاذفات استراتيجية ، وصواريخ تطلق من الغواصات) . وبما أن أياً من الطرفين لا يستطيع كسر أذرع هذا الثالوث كلها بضربة واحدة ، فإن الطرف الثاني سيرد التحية بأحسن منها مستخدماً الذراع السليمة الباقية .

ولا يزال هذا المفهوم سائداً حتى الآن ، وربما حتى إلى ما بعد نهاية القرن الحالي ، كما سنرى فيما بعد .

د ـــ مرحلة المساواة والكفاية وتحديد الأسلحة (١٩٦٩ ـــ ١٩٧٤)

تميزت هذه المرحلة بما يلي :

١ ـــ عدم إمكانية تحقيق التفوق نظراً للتنامي المتماثل نووياً في كلا الطرفين .

٢ ـــ إن محاولة تحقيق التفوق ستؤدي إلى زيادة حرارة سباق التسلح ، مما يؤدي إلى زيادة خطر الحرب النووية .

٣ ـــ الأخذ بمفهوم المساواة ، ومفهوم الكفاية ، أي أن يتساوى الطرفان فيما يمتلكان من أسلحة نووية ، وأن يكون هذا الحجم كافياً لتدمير الطرف الآخر .

٤ ــ الانتقال إلى محادثات تحديد الأسلحة النووية، وبالتالي الانتقال إلى إيجاد حلول للمشكلات السياسية بين الدولتين العظميين، أو بين المعسكرين العالميين، وصولاً إلى سياسة الوفاق الدولي.

هـ ــ مرحلة استراتيجية الرد المعاكس التوازن (١٩٧٥ ــ ١٩٨١)

كان منظّر هذه الاستراتيجية هو هارولد براون وزير الدفاع الأميركي الأسبق الذي شدد على أنها ليست خروجاً عن مبادىء الاستراتيجية السابقة، بل هي إثبات للردع وتأكيد لمصداقيته، وهي عموماً توضح هذه المبادىء وتحدد أولوياتها وتفسر أغراضها. وهكذا فقد بقي مفهوم الضربة الأولى بعيداً عن ذهن الإدارة الأميركية التي كانت لا تزال تعتقد أن الحرب النووية لا يمكن أن تبقى محدودة، ولا بد أن تتحول إلى مواجهة شاملة.

وهكذا بقي الردع، والضربتان الأولى والثانية، ولكن الإدارة الأميركية لم تستطع آنذاك مقاومة أصحاب الفعاليات الاقتصادية الذين يريدون الاستمرار في إنتاج الأسلحة النووية وتحديث وسائط إيصالها إلى الأهداف، وإلا فإن كارثة اقتصادية أشد هولاً من الحرب نفسها ــ ستحل في البلاد حسبما يرى هؤلاء الاقتصاديون الذين استطاعوا التأثير على الرأي العام عبر حساسية هذا الأخير تجاه انعكاس التراجع الاقتصادي على مستوى حياة الناس ورفاهيتهم. أما متى تأتي الحرب المدمرة لكل شيء، فهذا أمر يتصل بالمستقبل غير المنظور الذي لا يريد الإنسان الأميركي العادي أن يفكر به كثيراً. وهنا بدأ زرع البذور الأولى لاستراتيجية ريغان اللاحقة، التي ستقلب الطاولة على رؤوس أصحابها. وبرغم ذلك فقد حافظ الطرفان حتى الآن على ما اتفق عليه في محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية، علماً بأنهما خرجا عن هذه الاتفاقيات بالصاروخ ذي الرؤوس النووية المتعددة، معتبرين أن الصاروخ هو صاروخ سواء أكان برأس واحد أو بعدة رؤوس.

و ــ العقيدة النووية الحالية أو استراتيجية ريغان العسكرية (١٩٨١ وما بعد)

جاء الرئيس ريغان إلى السلطة في بداية عام ١٩٨١ بعد حملة انتخابية أسهم فيها

عدد من أعضاء[٧] هيئته الاستشارية الذين ينـادون بإلغـاء استراتيجيـة الدمـار المؤكـد المتبادل ، والأخذ باستراتيجية التفوق ، وإمكانية خوض الحرب النووية وإحراز النصر على العدو .

وبالرغم من أن هؤلاء الأعضاء جاؤوا إلى السلطة مع ريغان ، وأنهم أصبحوا هم الذين يصنعون القرار ، ومارسوا فعلاً كل ما أرادوه في ظل أجهزة إعلام ذات قدرات تكاد تكون أسطورية ، وجعلوا الرأي العام يتحول إلى جانب دولته التي يجب أن تكون الأقوى في العالم أو الأولى ، وليست إحدى الدولتين العظميين فقط ، فإنهم عادوا مع رئيسهم الذي انتخب للمرة الثانية يطالبون بإلحاح بالعودة إلى محادثات الحد من الأسلحة النووية . كما أن برامج التسليح التي أرادوا بها إصلاح الخلل في الميزان العسكري الأميركي ، لم تصل بعد إلى ما كانوا يأملون به ، في ظل مقاومة الأجهزة الحكومية (وخاصة الكونغرس) التي يبدو أنها أقل تأثيراً بالدعاية المبرمجة من الرأي العام . ونذكر مثلاً أن الطائرة ستيلث Stealth التي لا يكشفها الرادار ، ما زالت في مرحلة الأبحاث والتطوير ، والطائرة ب ــ ١ هي قيد الإنتاج حالياً . أما الصاروخ ام . اكس الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، فقد انتهت تجارب تحليقه في عام ١٩٨٦ . فما المبادئ التي حددتها هذه الاستراتيجية ؟ وهل أدخل عليها التطوير حتى نهاية الفترة الرئاسيـة الأولى لريغـان ؟ لقـد حددت هذه الاستراتيجية المبادئ التالية :

١ ــ إقامة ارتباط بين مناطق العالم بحيث يصبح واضحاً للاتحاد السوفييتي أن إثارته لأي فعل في أي مكان ستؤدي إلى إثارة رد فعل (حرب) في مكان آخر .
٢ ــ إعارة الاهتمام إلى التهديدات الإقليمية ، وخاصة في المناطق الحساسة من العالم كالبحر الكاريبي وأميركا الجنوبية ، وحوض البحر الأبيض المتوسط ، ومحاولة إزالة أسباب التوتر في الأماكن التي لا يمكن للقوات الأميركية أن تتدخل فيها مباشرة ، أو التي يمكن أن يؤدي التدخل فيها إلى حرب شاملة .

---

(٧) نذكر منهم مثلاً : فريد ايكليه Fred Iklé نائب وزير الدفاع للشؤون السياسية العامة ، وجون ليمان وزير البحرية ، وريتشارد بيس عضو مجلس الأمن القومي ، وكولين غيراي مستشار الرئيس وعضو جمعية الخطر الراهن اليمينية المتطرفة ، وبول نيتزه ، ويوجين روستو وغيرهم .

٣ ــ تخطيط برامج دفاع مدني لتخفيض عوامل القهر التي قد يستغلها العدو خلال الأزمات وتأمين استمرارية العمل الحكومي والإقلال ما أمكن من الخسائر البشرية في حالة الحرب ، وتحقيق التوافق بين هذه الاستراتيجية وسياسة الدفاع الوطني .

٤ ــ ضمان تحقيق السيطرة على طرق المواصلات العالمية الحساسة ، والتشديد على دور البحرية الأميركية في العمليات الهجومية ، وتخصيص القوى اللازمة لمناطق حلف الناتو ، والبحر الأبيض المتوسط ، وغرب المحيط الهادي ، والمحيط الهندي ، وجنوب غرب آسيا ، بغية التعامل مع العدوان السوفييتي .

٥ ــ تأمين حرية وصول الولايات المتحدة إلى منابع الثروات المعدنية ، والمواد الأولية التي تعتبر حيوية للمصالح القومية الأميركية .

٦ ــ إقامة منشآت جديدة لإنتاج ما يلزم من المواد النووية الاستراتيجية اللازمة للرؤوس النووية ، أو تطوير المنشآت الحالية الموجودة ، أو الإثنين معاً[٨] .

٧ ــ التشديد على تحويل التكنولوجيا إلى الحلفاء الغربيين ، سواء عبر تبادل المعطيات التقنية ، أو بواسطة برامج التطوير المشتركة ، على أن يراعى عدم تسرب هذه التكنولوجيا إلى الأعداء .

٨ ــ دعم أجهزة القيادة والسيطرة والاتصال والمعلومات ، لتصبح في المستوى نفسه الذي تعمل به الأنظمة النووية الاستراتيجية . وعموماً فإن هذه الاستراتيجية اعتمدت على عدد من الافتراضات ، وبشكل خاص على ثلاث منها ، استخدمت لتبرر الميزانية العسكرية حتى العام ١٩٨٨ وهي :

آ ــ لن تكون الحرب مع الاتحاد السوفييتي محدودة في منطقة واحدة ، ولكنها ستكون غالباً حرباً عالمية تحتاج إلى نشر القوات الأميركية في عدة مسارح حربية في آن معاً .

ب ــ احتمال كون هذه الحرب طويلة الأمد ، بالرغم من تميز مراحلها الأولى في أوروبا بطابع عنيف يترك تأثيراً حاسماً على نتائجها النهائية .

---

(٨) لقد وصلت طاقة الإنتاج حالياً إلى ١٥٠٠ رأس نووية في العام ، ولكن الطاقة الإجمالية لمجمل الإنتاج تصل إلى ٤٠٠٠ رأس نووية ، وسوف يتم إنتاج ٢١٠٠٠ رأس نووية بين عامي ١٩٨٣ و ١٩٩٣ ، على أن يتوفر دائماً احتياطي من الوقود النووي لا يقل عن خمسة أطنان .

جـ ــ دعم النزاعات التي تشترك فيها القوات البرية الأميركية، بإعلان الكونغرس للتعبئة القومية الشاملة في البلاد .

وبالتالي فإن كل افتراض مما ذكر أعلاه، يحتاج إلى ميزانية خاصة، سواء لنشر القوات أو لعملها الطويل نسبياً، أو لتعبئتها .

تهدف هذه الاستراتيجية إلى جعل القوات النووية الأميركية معادلة على الأقل[٩] للقوات المماثلة في الاتحاد السوفييتي، وأن تكون قادرة مع أجهزة القيادة والسيطرة على تحمل الضربة النووية الأولى، والقيام بعدئذ برد مسيطر عليه، يمكّن من اختراق الدفاعات المعادية، وتدمير عدد كبير من أهداف العدو، بطريقة يتأمن معها تحقيق الأهداف الأميركية . وتدعو هذه الاستراتيجية إلى تحقيق تفوق بحري أميركي، وتفوق تكنولوجي، مع تأمين عنصر برّي قادر على البقاء من عناصر الثالوث الاستراتيجي، وذلك خلافاً للمفهوم السابق في هذا المجال . فما معنى ذلك ؟

إن تحقيق التفوق البحري النووي، يعني تحديث الصواريخ التي تطلق من الغواصات لتصبح قادرة على إصابة الأهداف الصلبة وتدميرها (كصوامع الصواريخ المحصنة)، بعد أن كانت معدّة لتدمير الأهداف السهلة (كالمدن والمنشآت الكبيرة)، علماً بأن المطلب الأول لا يتحقق إلا بجعلها ذات دقة عالية، كما سنرى فيما بعد .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الاستراتيجية تراعي ما يلي :

آ ــ تحديث عنصر القاذفات في الثالوث الاستراتيجي عبر تطوير الطائرتين ب ــ ١ و ستيلث .

ب ــ تطوير إمكانات الحرب الفضائية بإقامة نظام مضاد للأعمال الصناعية، والانتقال إلى نشر نظام فضائي مضاد للصواريخ (وهو موضوع خاص بحرب الفضاء) .

جـ ــ تخطيط تطوير القوات بحيث لا يحدث خلل في الميزان الاستراتيجي، إذا استطاع السوفييت تحقيق قفزات تكنولوجية غير متوقعة، ونشروا مثلاً عدداً كبيراً من الصواريخ العابرة للقارات . وقد روعي وضع خطة لبرامج أبحاث وتطوير يمكن بواسطتها القيام برد فعال على محاولات السوفييت الهادفة إلى الإخلال بهذا الميزان . وتشمل هذه

---

(٩) يفهم من التعبير أنها يجب أن تكون متفوقة .

البرامج تطوير الأسلحة ذات الطاقة الموجهة، وأسلحة الليزر والإشعاع الجزيئي التي تستطيع تدمير الصواريخ الباليستية[10].

د ــ إنشاء قوات نووية برية وبحرية لتكون صلة الوصل بين القوات الاستراتيجية والقوات التقليدية.

هـ ــ نشر صواريخ بيرشينغ وكروز في دول حلف الناتو (بدأ النشر فعلاً عام ١٩٨٤، ومن المخطط أن ينتهي في عام ١٩٨٩ إذا لم يحدث ما يعيق ذلك).

فماذا نفهم باختصار من هذه الاستراتيجية ؟

لعلنا نضطر في الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نثير النقاط التالية:

١ ــ تراجع الولايات المتحدة عن الاستراتيجية السابقة، منتقلة إلى المفهوم القائل بإمكانية خوض حرب نووية.

٢ ــ الانتقال أيضاً من مفهوم الحرب الخاطفة إلى خوض الحرب النووية الطويلة الأمد.

٣ ــ تخطيط دفاع مدني قادر على الصمود في حرب نووية.

٤ ــ التركيز على أجهزة القيادة والسيطرة والاستطلاع وإقامة أنظمة مضادة للأقمار الصناعية وللصواريخ العابرة للقارات.

٥ ــ خلق تفوق على الاتحاد السوفييتي، أي فتح باب سباق تسلح غير محدود.

٦ ــ الربط بين الحرب النووية العالمية الشاملة، والمصالح الأميركية في العالم، أي العودة إلى سياسة القرصنة الدولية.

ولننتقل الآن إلى الاستراتيجية النووية السوفييتية على أن نعود بعد ذلك إلى العبور إلى الآفاق المستقبلية.

ز ــ الاستراتيجية النووية السوفييتية وتطورها وآفاقها المستقبلية

لا يختلف الغرض من الاستراتيجية النووية السوفييتية عن نظيرتها الأميركية، ولذا فلن نكرر الكلام نفسه الذي ذكر سابقاً في هذا المجال، وبما أننا استعرضنا القوى والوسائط المتوفرة لدى الطرف السوفييتي، لذا فإننا ننتقل الآن إلى صلب الموضوع.

(١٠) يمكن لهذه الأسلحة تدمير الصواريخ المعادية والصديقة، وبالتالي يمكن تدمير الصواريخ الأميركية بعد انطلاقها إذا اضطرت القيادة الأميركية إلى تبديل قرارها.

العقيدة النووية السوفييتية

ترى هذه العقيدة أنه يمكن استخدام السلاح النووي لتنفيذ جميع المهام على المستويات الاستراتيجية ، والعملياتية ، والتكتيكية ، حيث يصبح زمن تنفيذ هذه المهام أقصر بكثير مما كان عليه في الحروب التقليدية ، كما أن إمكانات القوات المسلحة السوفييتية تزداد بشكل حاد لتصبح أداة مخيفة لكبح جماح المعتدين ، وحماية مكاسب الاشتراكية وتحقيق السلام . وترى هذه العقيدة أيضاً أن امتلاك السلاح النووي من قبل دول معينة حالياً ، ودول أخرى مستقبلاً يؤكد أن طابع الحرب المقبلة سيكون نووياً غالباً ، وحتى إن بدأت بشكل تقليدي ، لأن ضرورة التصعيد ستكون أقوى من الرغبة في عدمه . وبما أن جميع الدول تدرب قواتها على العمل في شروط الحرب النووية ، فالأحرى بالاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية أن يكونوا مستعدين لمثل هذه الحرب ، وأن يخططوا لكسبها بالرغم من فداحة الخسائر المحتملة ، وللبقاء على قيد الحياة ، كما كان يحدث في الحروب التقليدية السابقة .

ترى العقيدة العسكرية السوفييتية أن الحرب يجب أن تنتقل فور بدئها إلى أراضي الطرف الآخر سواء على البر الأوروبي أو الأميركي ، وتترجم إلى ضربات نووية ساحقة وكثيفة ، توجه إلى جميع الأهداف المحددة مسبقاً ، أو التي تحدد في أثناء الأعمال القتالية .

ولكن هل يمكن فعلاً الدخول في لعبة الحرب في ظل القدرات النووية الراهنة ؟ كان خروتشوف قد قال : « يكفي أن نضغط على زر واحد لتطير في الهواء مدن بأكملها ، ولتدمير دول بأسرها ، وهذه هي القوة التدميرية الرهيبة للسلاح المعاصر » ، ثم ذهب خروتشوف وبقيت الأزرار . فهل يعقل أن تذهب الأزرار ويبقى من جاؤوا بعد خروتشوف ؟ لقد أجاب عن هذا السؤال المنظّر الأميركي المشهور هيومان كان بقوله : « تكمن القيمة العظمى لهذه الأزرار في عدم استخدامها ، وإذا ما استخدمت فإن كل شيء ينتهي » . ومع ذلك فإن العقيدة النووية السوفييتية ترفض أن تحتكر الأسلحة النووية إمكانية تحقيق النصر لوحدها ، فالنصر لا يتحقق إلا باشتراك جميع أنواع القوات المسلحة البرية والجوية والدفاع الجوي والبحرية ، مع الإسهام الفعلي للشعب الذي لا يعتبر مصدراً للسلطات كلها فحسب بل ومصدراً لا يستغنى عنه لتحقيق النصر في أية حرب مقبلة .

ويمكن تلخيص مبادىء هذه العقيدة بما يلي :

١ ـــ إن تدمير الوسائط النووية لدى العدو ودحر نواته وشل مؤخرته لن يكون كافياً لتحقيق الأهداف السياسية والعسكرية الحاسمة في الحرب المقبلة . ولن يتحقق ذلك إلا بالتدمير الكامل لقوات العدو ، وحرمانه من رؤوس الجسور الاستراتيجية ، ومنع جيوشه البرية وإنزالاته الجوية وبحريته من اختراق حدود الدول الاشتراكية ، الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا باستخدام القوة النووية ، وتعاونها مع الأنواع الأخرى للقوات المسلحة .

٢ ـــ يظل الدور الرئيسي في الحرب واقعاً على عاتق القوات البرية المجهزة بالوسائط النووية العملياتية والتكتيكية المختلفة ، فهي التي ستنفذ الهجوم وتحتل الأرض .

٣ ـــ تلعب القوة النووية الاستراتيجية (بما فيها القوات الجوية) دوراً لا يمكن إنكاره في منع إشعال الحرب من قبل العدو ، وذلك عبر الردع المضمون ، والدمار المتبادل ، اللذين يجعلان اللجوء إلى الحرب باعتبارها وسيلة عنف بيد السياسة أمراً يخرج عن حدود العقل البشري ، كما يجعل ثمن ذلك باهظاً إلى درجة لا يقبل به من يحمل هذا العقل البشري .

٤ ـــ تكوِّن قوات الدفاع الجوي درعاً واقياً .

٥ ـــ للأسطول البحري دور رئيسي بعد أن جهز بالصواريخ النووية التي تستطيع أن تصل إلى أية نقطة في العالم .

٦ ـــ أصبح الهدف الرئيسي للحرب هو تدمير القوات المسلحة المعادية ، بالإضافة إلى تدمير الأهداف العميقة في المؤخرة ، الأمر الذي يتطلب استخدام جميع وسائط الصراع التكتيكية والعملياتية والاستراتيجية ، مما يعطي الحرب المقبلة طابع الشمولية .

٧ ـــ دخل الفضاء الخارجي في مجالات الحرب المقبلة ، حيث سيشكل مسرحاً هاماً فيها . (وإذا كانت محاولات استبعاده من هذه المجالات تسير الآن ببطء ، فربما تتحقق في المستقبل القريب ، ولكن ليس قبل الاتفاق على تحديد المجالات الأخرى) .

٨ ـــ سوف تتسم الحرب المقبلة التي ستكون صراعاً حاسماً بين نظامين عالميين

اجتماعيين متناقضين بالطابع العقائدي ، حيث يرى السوفييت أن النظام الاشتراكي يمثل المرحلة الأكثر تقدماً وتطوراً في الحياة البشرية ، وبالتالي فلا بد من التحضير المتعدد الجوانب لهذه الحرب ، وخاصة بما يتعلق بقدرة الاقتصاد على خلق شروط النصر .

وطبعاً فقد تطورت الاستراتيجية النووية السوفييتية عبر مراحل متعددة ، ولكننا استعرضنا المرحلة الأخيرة منها لضيق المجال .

والآن ماذا عن الحرب النووية المقبلة ؟

هل يمكن أن تنشب الحرب النووية مستقبلاً للأسباب نفسها التي كانت تنشب بنتيجتها الحروب التقليدية السابقة ؟ وهل يمكن أن تذهب الدول النووية إلى الحرب إذا كانت تعرف مسبقاً أنها لن تحقق أهدافها منها ؟ وهل يمكن أن تحدث الحرب لأسباب عرضية تخرج عن إرادة أطراف الصراع فيها ؟ وهل لا يزال يصح القول بأن الحرب امتداد للسياسة بوسائل العنف ؟ لا شك في أن الأجوبة على كل هذه الأسئلة هي بالنفي . ولكن لماذا تعمل الدولتان العظميَان على تخزين كل هذه الأسلحة النووية إذا كانتا لن تستخدمانها ؟ ولماذا تعيد تجديدها كل عشر سنوات على الأكثر ؟

لعل الجواب الصحيح هنا يكمن في أن هذه الأسلحة هي التي تمنع الحرب النووية ، وتجعل أطراف الصراع يفكرون بأي شيء ما عدا الذهاب إلى الحرب النووية .

لقد تراجع خروتشوف أمام التهديد الأميركي ، الذي ربما كان سيؤدي إلى حرب نووية إثر أزمة الصواريخ في كوبا . وتراجع نيكسون بعد استنفار القوات الأميركية والاستراتيجية إثر حرب تشرين التحريرية ، وفرض على غولدا مئير التوقف عن القتال في غرب قناة السويس ، ثم ادعى أنه إنما كان يريد من وراء ذلك ألا يأتي الاتحاد السوفييتي بقواته المحمولة جواً إلى الشرق الأوسط .

ومع ذلك فهل هناك احتمالات لبدء هذه الحرب النووية ؟

يرى حلف الناتو أن الرد على أي هجوم سوفييتي على أوروبا الغربية ، سينفذ بواسطة الأسلحة التقليدية ، أو بالتصعيد النووي الجزئي أو بالرد النووي الشامل . وفي الحالتين الأخيرتين ، تكون الحرب النووية قد بدأت فعلاً .

ويرى السوفييت أن الغرب أو الولايات المتحدة قد تلجأ إلى الضربة الأولى النووية باعتبارها ضربة وقائية، علماً بأن الضربة الثانية قد تكون فعّالة. ولكن الطرفين يريان أن الضربة الحاسمة هي الضربة الأولى.

وثمة تساؤلات عن الأسباب التي تجعل الاتحاد السوفييتي يهاجم أوروبا الغربية، وهو يعلم أن الحرب التقليدية لا يمكن السيطرة عليها، أو التي تجعل الولايات المتحدة الأميركية تقوم بالضربة الأولى، مهما كانت المبررات، وهي تعلم أن الضربة الثانية الجوابية ستحولها إلى دولة من الدرجة العاشرة، وتوقع فيها خسائر تصل إلى عشرات الملايين من الضحايا البشرية.

كان الأميركيون يقولون: يستطيع السوفييت توجيه ضربة أولى كثيفة (لا يمكن أن تكون هذه الضربة مفاجئة) ومضادة للقوة Counter Force فيدمرون الجزء الأكبر من القوات النووية الأميركية دون المس بالمدن والمنشآت، كما يصل عدد الضحايا إلى مليوني إنسان فقط، علماً بأن هذا العدد لا يشكل كارثة للأمة الأميركية، ثم يطلبون تنفيذ ما يريدونه مرفقين ذلك بتهديدات، عن تدمير المدن الأميركية الكبيرة فيما لو حدث رد أميركي بما تبقى من قوات نووية. ولكن هل يمكنهم أن يقولوا مثل هذا الكلام الآن؟

لندقق في هذه المسألة المبدئية معتبرين أنها تمثل المسألة الأساسية في هذه الدراسة علماً بأن البحث في أكثر من مسألة ربما يحتاج إلى مجلد كامل.

لا شك في أن الحرب إذا ما بدأت سوف تستخدم فيها طرق الصراع التالية:

- الضربات الصاروخية النووية الاستراتيجية.
- عمليات القوى النووية البحرية.
- الأعمال القتالية للقوى النووية الجوية.
- الأعمال القتالية لقوات الدفاع الجوي.
- الأعمال القتالية لأنواع القوات وصنوفها على المسارح البرية.

ولكن المرحلة الأولى من الحرب سوف تشهد الاستخدام الحاسم لعناصر الثالوث الاستراتيجي المؤلف من:

آ ـ الصواريخ الباليستية العابرة للقارات التي تستخدم ضد القوات الهجومية

الاستراتيجية للطرف الآخر، والأهداف الرئيسية التي تشكل أساس الاقتصاد الحربي لدى العدو، وللإخلال بأجهزة القيادة والسيطرة، وربما لسحق القوات النووية البحرية إذا أمكن تحديد مواقعها.

ونذكر مثلاً أن الأنواع القديمة من هذه الصواريخ كانت ذات رأس واحد وقليلة الدقة بحيث يحتاج ضرب صومعة صاروخ معاد إلى صاروخين على الأقل، أي يحتاج تدمير جميع الصواريخ الأميركية العابرة للقارات التي تطلق من البحر إلى ٢٠٧٤ صاروخاً معادياً على الأقل. أما الآن فقد ازداد عدد الرؤوس من ناحية، وازدادت الدقة من ناحية ثانية، فالصاروخ ام. اكس الأميركي مثلاً يحمل عشرة رؤوس نووية عيار كل منها ٦٠٠ كيلو طن، ويبلغ نصف القطر الأعظمي للخطأ المحتمل في الإصابة ٩٠ متراً فقط[١١]، بينما تبلغ هذه الدقة ١٨٠ ـــ ١٢٠ متراً بالنسبة لأحدث صاروخ أميركي في الخدمة وهو المينتمان ـــ ٣ وهو يحمل ثلاثة رؤوس فقط عيار كل منها ٢٠٠ كيلو طن، وبذلك يمكن تدمير الصواريخ العابرة للقارات السوفييتية التي تطلق من البر والبالغ عددها حالياً ١٣٩٨ صاروخاً بواسطة حوالي ١٤٠ صاروخاً من نوع ام. اكس MX.

يعتبر هذا الحساب نظرياً، وسنتعرض للحساب العملي بعد قليل وعموماً فإن دقة الصواريخ السوفييتية الحديثة هي في حدود نصف قطر يبلغ ٢٣٠ متراً.

إن طاقة الانفجار للصواريخ الباليستية العابرة للقارات الأميركية تصل حالياً (عام ١٩٨٤) إلى ١٣٠٠ ميغاطن أي ١٣٠٠ مليون طن من مادة شديدة الانفجار مثل ت. ن. ت، بينما يبلغ عدد رؤوسها النووية ٢١٢٩ رأساً. وفي الوقت نفسه فإن طاقة الانفجار للصواريخ الباليستية العابرة للقارات وذات المدى فوق المتوسط السوفييتية[١٢] تصل حالياً (١٩٨٤ أيضاً) إلى ٢٧٥٧ مليون طن من المواد شديدة الانفجار، كما أن عدد رؤوسها يبلغ ٧٧٧٨ رأساً[١٣].

---

(١١) إن الصاروخ قد يسقط على مسافة مترين من الهدف أو ٩٠ متراً في أقصى حد.

(١٢) ما عدا الصواريخ الأخرى، وخاصة التي تطلق من الغواصات لكلا الدولتين الكبريين.

(١٣) إن نصيب كل فرد في الكرة الأرضية من هذه الكمية الجزئية لدى الدولتين الكبريين هو أكثر من ٢ طن تقريباً.

ثم إن عدد الأهداف الحساسة لدى الغرب يساوي ٦٠٠٠ في أميركا + ٦٠٠ في أوروبا + ٥٧٢ هدفاً جديداً في أوروبا أيضاً (هو عدد صواريخ البيرشينغ ـــ ٢ والكروز) أي أن المجموع يساوي ٧١٧٢ هدفاً.

ليس من المتوقع أن يستخدم الاتحاد السوفييتي كل رصيده من الصواريخ التي تطلق من البر في الضربة الأولى، لأن لديه أسلحة أخرى سنذكرها في عنصري الثالوث الآخرين.

والآن، فما إن تنطلق هذه الصواريخ في رحلتها الرهيبة حتى يصل الإنذار عنها إلى القيادة الأميركية خلال ثوان فقط (نظراً لتطور الإنذار المبكر الفضائي).

يحتاج الصاروخ العابر للقارات إلى ٤٢ ـــ ٤٥ دقيقة للوصول إلى هدفه. وبعد ثوان فقط يكون الرئيس الأميركي قد أعلم بذلك (سواء أكان موجوداً في البيت الأبيض أو في أي مكان آخر، فلديه أجهزة إنذار مرافقة، وحقيبة إعطاء الأوامر للقيادات الاستراتيجية. وبالمناسبة فإن هذه الحقيبة لا تفارقه لحظة واحدة حتى في أثناء زياراته الداخلية والخارجية). وعندئذ يقلع في حوامة تنقله فوراً ليذهب إما إلى القيادة الميدانية، أو إلى القيادة المحمولة جواً، حيث يوجد لديه متسع من الوقت (لا أقل من ثلاثين دقيقة قبل وصول الصواريخ) وبالتالي فقد يأمر غالباً بتنفيذ الضربة الجوابية التي لا تكون غالباً ضد القوة **Counter Force** بل ضد القيمة **Counter Value**، أي ضد المدن والمنشآت المعادية.

نتوقف قليلاً لنرَ ماذا يحدث في العنصرين الآخرين للثالوث الاستراتيجي.

ب ـــ الصواريخ الباليستية التي تطلق من الغواصات

تكون الغواصات بحالة حركة في أعماق البحار والمحيطات، وهي موجودة بأعداد كبيرة جداً لدى الدولتين العظميين. ولكن دقة إصابتها ليست عالية لأنها تستخدم غالباً، أو هي معدة أصلاً لتوجيه ضربات ضد القيمة (أي على أهداف كبيرة كالمدن والمنشآت الكبيرة) ولكنها تتميز بالمقابل بأنها تصل إلى أهدافها خلال زمن قليل نسبياً قد لا يتعدى بضع دقائق. وهي تستخدم أيضاً في الضربة الجوابية من قبل الطرفين، إلا إذا أراد أحدهما أن يستخدم ضربة موحدة ضد القوة والقيمة معاً.

ونجدنا هنا مضطرين إلى العودة قليلاً إلى العنصر الأول في الثالوث الاستراتيجي ، فالصواريخ السوفييتية من نوع س س ـــ ٢٠ التي تستطيع ضرب كل أوروبا والصين والهند وجزءاً من إفريقية بقطر يبلغ ٥٠٠٠ كيلو متر تصل إلى أقصى مدى لها خلال ١٥ دقيقة . أما الصواريخ من نوع بيرشينغ ـــ ٢ في أوروبا فهي تصل إلى أقصى مدى لها في الاتحاد السوفييتي (ولا تغطي مدينة موسكو التي تبعد أكثر من ١٨٠٠ كيلو متر عن مراكز الإطلاق) خلال زمن يتراوح بين ٦ و ٩ دقائق فقط .

وهنا نجد التشابه بين صواريخ الغواصات وهذه الصواريخ التي تهدد الأمن الأميركي والسوفييتي ، ولا تتأثر غالباً بالدفاع الفضائي المضاد لها . (وربما على الأقل حتى وقتنا الحاضر) .

وإذا علمنا أن الاتحاد السوفييتي كان يملك في عام ١٩٨٤ ٩٨١ صاروخاً يطلق من الغواصات ، فماذا يمكنه أن يحدث من تدمير في المنشآت والمدن الأميركية ؟ وبالمقابل ، فماذا يستطيع أن يفعله ٥٩٢ صاروخاً أميركياً مماثلاً في المنشآت السوفييتية ... ؟ ولا بدّ لنا أن نذكر أن هذه الصواريخ تُطوّر أو طُوّرت لكي تكون دقيقة جداً ، وبالتالي لتستخدم ضد القوة أيضاً . فصاروخ ترايدنت ـــ ١ الذي بدأ التزويد به للغواصات الأميركية الحديثة يحمل ٨ رؤوس نووية عيار كل منها ١٠٠ كيلو طن ، وتبلغ دقته في حدود نصف قطر ، لاحتمال الخطأ يساوي ٤٦٠ متراً ، بينما تصل دقة ترايدنت ـــ ٢ الذي يدخل الخدمة قريباً ٩٠ متراً .

وفي عودة إلى العنصر الأول نقول إن الصواريخ العابرة للقارات مثل ام . اكس تنطلق من صوامعها خلال ٣٠ ـــ ٦٠ ثانية فقط من إعطاء الأمر . وهي تتوضع في صوامع تبعد الواحدة عن الأخرى بمسافة تزيد عن نصف قطر احتمال الإصابة ، علماً بأن بعض الصوامع تكون فارغة للتمويه ، ولكي يضطر الطرف الآخر لاستخدام عدد أكبر من الرؤوس النووية .

جـ ــ وماذا عن العنصر الثالث في الثالوث الاستراتيجي، أي القاذفات الاستراتيجية ؟[14]

يبلغ عدد هذه القاذفات حالياً (عام ١٩٨٤) ٣٥٦ قاذفة أميركية تحمل ١١٤٠ صاروخاً و ٧٥٢ قاذفة سوفييتية تحمل عدداً أكبر من الصواريخ المذكورة، وتستطيع التوجه إلى أهدافها حسب خطط مدروسة مسبقاً. وغالباً ما يكون جزء كبير منها في الجو في حالات التوتر حيث تنطلق فوراً إلى أهدافها وتتزود بالوقود في الجو.

ولكن هل تصل فعلاً كل الصواريخ والطائرات إلى أهدافها ؟ إن الجواب هو حتماً سلبي، وها نحن نقدم أمثلة عن ذلك :

١ ــ يصل من ٢٣٠ صاروخاً س س ــ ٢٠ الذي يحتوي كل واحد منها على ٣ رؤوس نووية، ٢٩٥ رأساً فقط إلى أهدافها (أي ٢٩٥ من ٦٩٠).

٢ ــ يصل من ٤٠ صاروخاً س س ــ ٥ الوحيد الرأس، ١٣ صاروخاً فقط إلى أهدافها.

٣ ــ يصل من ٦٠٠ طائرة سوخوي ــ ٧ (وهي نموذج قديم) ٤ طائرات فقط إلى أهدافها.

٤ ــ يصل من ٤٠٠ طائرة ميغ ــ ٢١ (نموذج قديم تقريباً) ٣٠ طائرة فقط إلى أهدافها.

٥ ــ يصل من ٣١٠ طائرات تو ــ ١٦ بادجر، ٤٦ طائرة فقط إلى أهدافها.

٦ ــ يصل من ٤٨٠ طائرة سو ــ ٢٤، ٤٤ طائرة إلى أهدافها.

وعموماً فلا توجد معطيات عن الصواريخ الباليستية العابرة للقارات أو التي تطلق من الغواصات، نظراً لتحديد عدد الصواريخ المضادة لها بمئة صاروخ فقط، في كل دولة (أميركا والاتحاد السوفييتي) ولأن أنظمة الدفاع الصاروخية الفضائية لم تأخذ دورها بعد.

---

(١٤) وهي تشمل قاذفات بعيدة المدى (أكثر من ٩٠٠٠ كيلو متراً) وقاذفات متوسطة المدى (بين ٥٠٠٠ و ٩٠٠٠ كيلو متراً).

وبعد كل ذلك، فما الذي يحدث على مستوى الدولتين العظميين بعد تبادل الضربتين الأولى والثانية ؟

تتضارب وجهات النظر في هذا المجال، فمن قائل بأن كل ضربة ستحدث خسائر بشرية لا تقل عن ٢٠ ــ ٢٥ بالمئة من التعداد العام للسكان وعن ٧٠٪ من الطاقة الصناعية، إلى آخر يقول إن الولايات المتحدة لن تتكبد خسائر بشرية تزيد عن ٣٠ مليون إنسان، إلى ثالث متشائم يعتقد أن الرقم سيصل في كلا الطرفين إلى حوالي ١٨٠ مليون.

وإذا أخذنا الرقم الأكثر تفاؤلاً أي ٣٠ مليون إنسان، والذي يفترض معه أن إجراءات الدفاع المدني ستكون مستكملة (مدن ومصانع ومنشآت كاملة تحت الأرض، وعمليات إخلاء يفترض أن الناس كلهم يلتزمون بها، وفي الوقت المناسب)، فهل يقبل الشعب الأميركي هذه التضحية ويتحمل الحياة في الشتاء النووي والمناطق الملوثة بالمواد المشعة والأرض التي تصبح عاقراً لا تصلح للزراعة، أو هل يقبل الشعب السوفييتي شروطاً مماثلة حيث يقع تحت رحمة الشتاءين النووي والمناخي ؟ وماذا تقدم الحرب للطرفين أو حتى للطرف المنتصر ــ إن وجد ــ مقابل ذلك ؟

أما الشعوب الأوروبية التي ستعاني من ضربات الطرفين معاً، فهي إما رافضة، وتعبر عن الرفض بالتظاهر ضد نشر الصواريخ الأميركية فيها، أو تعتقد أن الحرب لن تنشب، وبالتالي فليست كل تظاهرات القوة للدولتين العظميين سوى عرض عضلات في مشاهد مسرحية ومناورات سياسية تهدف إلى كسب الدعم في الداخل والخارج.

وأخيراً فماذا عن الدول الثلاث الأخرى في النادي النووي، أي فرنسا وانكلترا والصين ؟

يبدو أن انكلترا لا تريد أن تزج نفسها في الأتون النووي، فقوتها النووية الاستراتيجية لا يزيد تعدادها عن ٢٣٠٠ شخص. وهي لا تريد أن تطوّر هذه القوة بمعزل عن حلف الأطلسي. أما فرنسا فلا تزال متمسكة بنظرة الاعتزاز الديغولية، وتريد أن تقف إلى جانب العملاقين النوويين. فقوتها النووية ذات تعداد يصل إلى عشرين ألف رجل، ورؤوسها النووية ستصل إلى ٦٨٥ رأساً في نهاية عام (١٩٨٥). ولكن

أحد جنرالاتها الكبار علق على هذه القوة قائلاً : « إن أول صاروخ فرنسي يطلق ضد الاتحاد السوفييتي سيؤدي إلى إزالة فرنسا عن الوجود » . وتبقى الصين التي انتقلت من سياسة الردع بواسطة التعبئة الشعبية إلى سياسة الردع النووي ، عبر تطويرها المستمر للصواريخ العابرة للقارات (لا تزال محدودة ببضع صواريخ فقط) ، والصواريخ ذات المدى المتوسط (أكثر من مئة بقليل) ، والقنابل التي تلقى بواسطة الطائرات (بضع مئات) . وبالتالي فهي تخطط لأن تحتل مكانة مرموقة في النادي النووي .

وأخيراً فإن دولة دولة إسرائيل التي امتلكت بضع عشرات من القنابل النووية ، وجربت بعضها بالتعاون مع جنوب إفريقية ، لا يمكن آن يصبح لها شأن كبير في النادي النووي . ولكنها تستفيد من التأثير النفسي لهذا الامتلاك في جعل الدول العربية تخشى قوتها النووية ، ولتقديم ذريعة للمتخاذلين إذ يقولون إنهم لا يستطيعون الدخول في مواجهة نووية من طرف واحد مع العدو الاسرائيلي . وربما لم يخطر ببال هؤلاء أن الدول الكبرى لن تسمح لأي دولة أن تلعب بالنار النووية ، وإذا ما أسقطت قنبلة نووية إسرائيلية واحدة على مدينة عربية ، فستسقط عشر قنابل مماثلة على إسرائيل بعد دقائق فقط من سقوط قنبلتها .

وفي النهاية ، فلا بدّ لنا أن ننوه بأن الحرب النووية المقبلة ، والاستراتيجية النووية ، يجب أن تكونا من الأمور التي يعيها الرأي العام في دول العالم . فبالرغم من أن احتمال وقوع هذه الحرب بعيد جداً ، فإنه يجب على شعوب العالم المتفهمة لأبعادها وتأثيراتها ، والمدركة لما قد تسببه هذه الحرب من كوارث ، ربما تؤدي إلى إنهاء الحضارة ، أو حتى إلى إنهاء الحياة على الكرة الأرضية ، أن تعمل على جعل هذه الحرب مستحيلة الوقوع . ولن يكون ذلك ممكناً ما لم يعرف كل إنسان في كرتنا الأرضية أبعاد هذه الحرب ونتائجها بشكل مبسط وسهل وقريب التناول .

ثالثاً ــ الحرب البيولوجية (الجرثومية)

١ ــ مفهوم الحرب البيولوجية (الجرثومية)

إن الحرب البيولوجية هي الاستخدام العسكري المتعمد للكائنات الحية، أو سمومها، بغية تدمير العدو وإنزال الخسائر بممتلكاته من ثروات حيوانية أو زراعية، وبالتالي إضعاف قدرته القتالية. ويطلق البعض على هذه الحرب تسمية (البكتريولوجية) أو (الجرثومية) أو (الإحيائية) ولكننا سوف نستخدم تعبير الحرب البيولوجية نسبة إلى البيولوجيا[١٥].

والحرب البيولوجية هي أول حرب استخدمتها الطبيعة ضد الإنسان، ولا يزال الصراع بينهما على أشده حتى في نهاية القرن الحالي. وإذا كان الإنسان قد قضى على الطاعون والجدري والكوليرا والتيفوس والزحار، فإن بعض الأمراض والسموم لا تزال تفتك بالملايين من الناس في كل عام، سواء في الحرب أم في السلم. ولذلك فإذا كانت ألمانيا النازية لم تلجأ، بقيادة هتلر ــ الذي لم يكن يهمه العبث بالأنظمة والقوانين الدولية ــ إلى استخدام هذه الحرب في اللحظات الحرجة من معاركه الكبرى في الحرب العالمية الثانية، فلأنه كان يخشى الرد المعادي من ناحية، ولم يكن واثقاً من السيطرة على المسببات المرضية بعد الاستخدام من ناحية ثانية، حيث كان يخشى أن يرتد سلاحه عليه.

(١٥) البيولوجيا هي علم الحياة أو الكائنات الحية في جميع أشكالها وظواهرها.

وعموماً ، فإن ممارسة الحرب البيولوجية عبر التاريخ الحربي كانت تقتضي وجود طرف متخلف لا يخشى رده ، إذا ما استخدمت المسببات المرضية ضده . وهو ما حدث فعلاً عندما استخدمت اليابان السلاح البيولوجي ضد الصين قبيل الحرب العالمية الثانية ، وعندما استخدم الأميركيون هذا السلاح في الحرب الكورية . وسنرى فيما بعد كيف اهتمت منظمة الأمم المتحدة بتحريم هذا السلاح ، ولماذا قبلت أغلب دول العالم بهذا التحريم .

٢ ــ الأسلحة البيولوجية

إن الأسلحة البيولوجية هي العوامل البيولوجية مع وسائط استخدامها ، علماً بأن هذه العوامل تشمل فقط ما يمكن أن يؤذي الإنسان والحيوان والنبات .

وتصنف من الناحية العسكرية في المجموعات التالية :

آ ــ الجراثيم

وهي كائنات حية متناهية في الصغر ، لا رائحة ولا لون لها وتستطيع المحافظة على حياتها لمدة طويلة نسبياً في الوسط الخارجي .

وهي تضم بدورها ما يلي :

البكتريات : وهي عضويات ميكروسكوبية ذات منشأ نباتي ، ووحيدة الخلية ، تسبب الأمراض من نوع الكوليرا والحمى التيفية للإنسان ، ومن نوع الطاعون للحيوانات والطيور ، ومن نوع القرحة السيبيرية للإنسان والحيوان على السواء .

الفيروسات : وهي أصغر حجماً بمئات وآلاف المرات من البكتيريات ، وتسبب الأمراض من نوع الحصبة الطبيعية ، والحمى الصفراء وغيرها .

الركتزيات : هي تشكل حلقة وسيطة بين النوعين السابقين ، وتسبب الأمراض من نوع الحمى الطفحية وغيرها ، وتنتقل بواسطة الحشرات الناقلة للأمراض كالبق مثلاً .

الفطريات : هي كالبكتريات ذات منشأ نباتي ولكنها ذات بنية أكثر تعقيداً ، حيث تكون وحيدة أو متعددة الخلايا . وتسبب الأمراض من نوع الهيستوبلا فيوز مثلاً .

ب ـ السـموم

وهي مفرزات ذات سمية عالية ، تطلقها الجراثيم ، ويمكن المحافظة عليها بعد تجفيفها لمدة أسابيع ، وتسبب العديد من الأمراض ، ولها فترة حضانة لا تقل عن ساعتين .

جـ ـ سموم البوتاليزم

وهي أشد السموم المعروفة ، تزيد سميتها عن سم الأفاعي بعشرة آلاف مرة على الأقل[١٦] ، وتعمل على تخريب الجهاز العصبي المركزي وأعصاب الرئتين والقلب .

د ـ ناقلات العدوى

كالحشرات من نوع القمل والبق والقراد الخ ...

هـ ـ الحشرات والنباتات المؤذية

أما وسائط استخدام العوامل البيولوجية فتشمل ما يلي :

ـ قنابل الطائرات ، حيث تحوي القنبلة الأميركية من النموذج م ـ ١١٤ على ٣٢٠ سنتمتراً مكعباً من السائل البيولوجي ، بينما تحتوي الحاضنة م ـ ٣٢ على ١٠٨ قنابل م ـ ١١٤ وتبلغ زنة السائل فيها ٣٥ كيلو غراماً .
ـ قذائف المدفعية .
ـ أجهزة رش من الطائرات تحمل غالباً مساحيق أو سوائل أو كميات من الحشرات .
ـ رزم وعلب وأوعية ترمى من الطائرات .
ـ التلويث المباشر لمنابع المياه ومستودعات المواد الغذائية بواسطة العملاء .

---

(١٦) تكفي كمية ٤٣٢ غراماً منها لقتل كل سكان الكرة الأرضية .

٣ ـــ طرق الاستخدام ومساحات الإصابة أو التأثير

تستخدم العوامل البيولوجية بطريقتين رئيسيتين هما :

ـــ نشر هذه العوامل في الاتجاه الذي تهب منه الريح نحو الهدف المراد ضربه ، مما يسمح بتلويث مناطق واسعة ، وبالتالي تعتبر هذه الطريقة هي الأفضل .

ـــ نشر العوامل مباشرة فوق الهدف ، حيث تتميز هذه الطريقة بالدقة من ناحية ، بينما تحتاج إلى استهلاك أكبر من ناحية ثانية .

وبالإضافة إلى ذلك فثمة طريقة تلويث منابع الماء والمواد الغذائية ، حيث تعتبر خطرة جداً ، إذا لم تكن هذه المواد خاضعة للتصفية والفحص الطبي باستمرار . وكذلك ، فإن الحشرات تنشر في مناطق الأعمال القتالية ، ولكنها سرعان ما تكشف ، لأن الظهور المفاجىء لهذه الحشرات يعتبر أمراً غير طبيعي .

يفضل استخدام هذه العوامل في الليل أو في ساعات الصباح الأولى ، حيث تكون سرعة الريح بين ٢ و ٤ أمتار في الثانية ، ودرجة الحرارة لا تزيد عن ١٠ درجات مئوية ، ولا توجد تساقطات جوية .

أما مساحة الإصابة بالمقارنة مع السلاحين الكيميائي والنووي فهي كما يلي :

ـــ تبلغ مساحة الإصابة لطائرة قاذفة من نوع ف ـــ ٤ محملة بالمواد السامة الكيميائية ٦٠ كيلو متراً مربعاً (مع حساب المنطقة التي تنتشر فيها السحابة) .

ـــ تبلغ هذه المساحة بالنسبة للطائرة نفسها إذا كانت تحمل قنبلة نووية من عيار مئة كيلو طن بين ١٠٠ و ١٠٠٠ كيلو متر مربع .

ـــ أما بالنسبة للعوامل البيولوجية ، فتبلغ مساحة الإصابة في الشروط السابقة نفسها ٢٠٠٠ كيلو متر مربع .

وأخيراً فإن زمن استمرار تأثير هذه العوامل البيولوجية لا يقل عن يومين ، بينما يمكن للقراد مثلاً أن يعيش لمدة عام واحد تقريباً .

٤ ـــ الوقاية من العوامل البيولوجية

نقصد بالوقاية أن يحال دون إصابة الأفراد بهذه العوامل ، أما بعد الإصابة فلا بد من إجراء العلاجات الطبية ، كما في حالة الإصابة بالأمراض العادية الأخرى .

ولذا يمكن استخدام وسائط الوقاية الفردية، كالأقنعة الواقية لوقاية أجهزة التنفس، والبزات والأردية والقفازات والجوارب الواقية، لمنع الإصابة بالحشرات والحيوانات القارضة الخ.. وكذلك تستخدم وسائط الوقاية الجماعية كالملاجىء والمنشآت المحكمة، والمجهزة بمجموعات تصفية وتهوية خاصة. وبالإضافة إلى ذلك يستخدم التلقيح على نطاق واسع، وخاصة في الوقت الراهن، حيث يمكن تناول مادة تلقيح واحد لعدد من الأمراض يصل إلى ١٠ أو ١٥ مرضاً، أو اللجوء إلى التلقيح الجماعي بنشر المادة الملقحة في الهواء.

وكذلك فلا بدّ من التشديد الصارم على الإجراءات الصحية سواء من حيث تغطية مصادر المياه، ووضع المواد الغذائية في أوعية محكمة، ورفع مستوى النظافة وفرض الحجر الصحي عند الضرورة، وتطهير الأفراد المصابين. ولحسن الحظ، فإن أغلب المواد المطهرة من المواد السامة تصلح أيضاً للتطهير من العوامل البيولوجية (مركبات الكلور، والمواد المؤكسدة، بالإضافة إلى الفينول، والفورمالين الخ..).

يتم الكشف عن هذه العوامل بواسطة أجهزة تستطيع وجود دقائق صغيرة في الهواء وبنسبة معينة، دون أن تحدد نوعها. أما الكشف الاختصاصي فيقتضي أخذ عينة من العوامل البيولوجية وكشفها مخبرياً.

٥ ــ الاستخدام القتالي للأسلحة البيولوجية

تستخدم الأسلحة البيولوجية على الأهداف الموجودة في المؤخرات العميقة للعدو، أو لحل بعض المهام التكتيكية مباشرة في حقل المعركة. وفي الحالتين يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، ما إذا كانت الأسلحة النووية تستخدم أو لا تستخدم. ولا بدّ أيضاً أن تراعى في هذا الاستخدام التكلفة والنتائج المحتملة، حيث لا تستخدم الأسلحة البيولوجية، إذا كان ثمن وسائط إيصالها إلى الأهداف أكبر من حجم التدمير المحتمل للعدو.

وعموماً فإن استخدام الأسلحة البيولوجية في العمق «يكون مجدياً جداً نظراً إلى كون الذخائر اللازمة منها، لتنفيذ هذه المهمة، قليلة جداً إذا ما قورنت مع الأسلحة الأخرى».

كان قائد السلاح الأميركي الأسبق الجنرال ستابس يرى أن الوسائط البيولوجية الحديثة يمكن أن تستخدم بنجاح لحل مهام استراتيجية، وإصابة مساحة كبيرة من الأهداف الموجودة حتى على قارة بأكملها. ولكن لا بد لذلك، من استخدام مسببات مرضية تستطيع أن تحافظ على حياتها وفعاليتها، خلال الوقت اللازم لانتشار السحابات الملوثة على كل المساحة المراد إصابة الناس فيها. وإذا افترضنا أن هذه المسببات المرضية لا تستطيع البقاء حية إلا لفترة ليل كامل وللساعات القليلة الأولى من الصباح أي حوالي ١٥ ساعة، وكانت سرعة الريح في حدود ٤٠ كيلو متراً في الساعة، فإن السحابة الملوثة بها لن تقطع أكثر من ٦٠٠ كيلو مترٍ، وبالتالي فمن الضروري أن تنفذ الرمايات بحيث يغطي مجموع سحاباتها، كل مساحة الهدف، وتفصل بين السحابة والأخرى مسافة لا تزيد عن ٦٠٠ كيلو مترٍ.

إذا نفذت دولة مالكة للسلاح النووي، ضربة نووية ما على دولة أخرى فستكون بذلك قد أشعلت النار النووية، وبالتالي فسوف تتلقى رداً من الدولة المعادية، إذا كانت تمتلك هذا السلاح، أو من دولة حليفة لها. وعلى الأقل فإنها تكون قد أدخلت نفسها في متاهة نووية لا يعرف أحد كيف يمكن الخروج منها. أما إذا استخدمت السلاح البيولوجي فإن شيئاً من ذلك لن يحدث. فلا الدولة التي تعرضت للضربة، سوف تكشف ذلك فوراً، ولا العالم سيصدق هذه الأخيرة إذا أعلنت عن هذا الاستخدام بعد كشفه. وقلما استطاعت دولة معتدى عليها بهذه الأسلحة أن تثير اهتمام الرأي العام العالمي. ومن النادر جداً، أو ربما يكون مستحيلاً أن تلجأ الدولة المعتدى عليها إلى رد نووي مثلاً. ولكن المحذور الأشد خطراً هو عدم السيطرة على هذا السلاح بعد استخدامه، واحتمال أن يرتد السحر إلى صاحبه.

وثمة رأي آخر يقول إنه ما لم تمتلك الدول المالكة للأسلحة البيولوجية وسائل القضاء على ما تسببه هذه الأسلحة من أوبئة فإنها لن تجرؤ على استخدامها. وليس بعيداً عن الذهن ما جرى في جزيرة غرينارد الواقعة مقابل الساحل الشمالي الغربي لاسكتلندا، حيث أجرى فيها العلماء البريطانيون تجاربهم إبان الحرب العالمية الثانية، ونشروا فيها جرثومة الجمرة الخبيثة **Anthrax**، ثم تبين لهم أن هذه الجزيرة كانت لا تزال ملوثة بهذه الجرثومة في عام ١٩٦٦، كما يعتقد أنها ستظل كذلك لمئة عام أخرى.

وعموماً فإن استخدام ناقلات المرض ممكن مبدئياً ، ولكن احتمال تلوث الأفراد بواسطتها نادر جداً ، ولذا فهي لا تصنف ضمن وسائط الاستخدام الرئيسية للحرب البيولوجية ، وإنما يخشى أن تنقل المرض إلى حشرات وحيوانات أخرى ، الأمر الذي يخلق حالة من عدم التوازن في الطبيعة ، وربما يؤدي ذلك إلى نتائج لا يمكن التنبؤ بفداحتها .

وفي ضوء كل هذه الاحتمالات ، يجب أن تراعى مبادىء صارمة في استخدام الأسلحة البيولوجية ، ليس أقلها دراسة الأرض ، والشروط المناخية ، ومدى محافظة المسببات المرضية على حياتها ، واحتمالات انتشار السحابات إلى أراضي صديقة . وبالإضافة إلى ذلك فلا بدّ من دراسة العوامل التالية :

١ ــ قوام القوى الحية في منطقة الهدف (هل تتألف من مدنيين أو عسكريين أو الاثنين معاً) .

٢ ــ بعد الهدف عن القوات الصديقة .

٣ ــ مدة استمرار التأثير التدميري للأسلحة البيولوجية .

٤ ــ طبيعة المهمة المراد تنفيذها ، وهل يجب أن يتم احتلال منطقة الهدف ، أو عزلها ، أو الالتفاف حولها .

فإذا كان يوجد مدنيون وعسكريون في منطقة الهدف ، استخدمت الأسلحة البيولوجية المخرجة من القتال فقط ، وإذا وجد عسكريون فقط استخدمت أسلحة مميتة .

ويجب أيضاً أن يراعى كون القوات الصديقة مجهزة ومدربة على استخدام وسائط الوقاية .

تسند للفيلق المدرع ــ في الحرب الحديثة ــ مهمة احتلال منطقة على عمق يصل حتى ٣٠٠ كيلو مترٍ . ولا بدّ من توقع قيام العدو بضربات معاكسة محضرة مسبقاً بواسطة الفرق المدرعة . وإذ يصعب تحديد أماكن هذه الفرق التي تنتشر على مساحات واسعة ، فلا يستثنى توجيه ضربات بيولوجية تنشر الموت على مساحات كبيرة جداً ، أو تخرج الأفراد من المعركة ، وذلك على مسافات بعيدة ، وفي اتجاه الريح الذاهبة إلى هذه الأماكن ، الأمر الذي يجعل القيام بالضربات المعاكسة في غاية الصعوبة ، أو قد يفقد العدو قدرته القتالية ، وربما من حيث لا يدري .

أما بالنسبة لأنواع المسببات المرضية ، فيمكن استخدام جراثيم حمى الأرانب (التي تسبب للكائنات الحية البشرية إصابات مميتة ، ولا توجد مناعة ضدها لدى أغلب الناس ، ولا تنتقل بالعدوى إلا خلال فترة قصيرة جداً فقط ، بحيث لا تؤثر على القوات الصديقة المهاجمة عندما تصل إلى مناطق استخدامها) بواسطة الصواريخ التكتيكية والعملياتية (لبضع مئات الكيلو مترات) . وكذلك يمكن استخدام سموم البوتاليزم عندما يُراد التأثير السريع على القوى الحية المعادية . وفي حالة وجود الكثير من المدنيين في منطقة الهدف ، فإنه يُفضل استخدام مسببات مرضية غير مميتة كفيروسات الحمى الطفحية الجبلية التي تكون نسبة الإصابات المميتة فيها قليلة جداً ، ولا تنتقل العدوى بها من شخص إلى آخر .

يلجأ أحياناً إلى استخدام مسببات مرضية متنوعة لجعل معالجة المصابين معقدة جداً .

يبلغ عدد المسببات المرضية التي تصلح للاستخدامات الحربية حوالي ٣٢ نوعاً ، علماً بأنه يوجد حوالي ١٦٠ نوعاً من المسببات المرضية الأخرى . ومع ذلك فإن تحديد الأنواع الأكثر فعالية هو أمر يتعلق بالدولة الصانعة ، ويعتبر من الأسرار العسكرية التي لا يمكن إفشاؤها في أي مرجع علمي .

وبما أن الحرب تهدف إلى تدمير القوة العسكرية للعدو وتخريب اقتصاده بحيث يصبح عاجزاً عن الاستمرار في تقديم الإمدادات لقواته المحاربة ، فإن الأسلحة البيولوجية تستخدم أيضاً ضد الأغراض الزراعية ، وخاصة ضد المصادر الغذائية لدى العدو .

ثم إن إتلاف الثروات الزراعية والحيوانية يؤدي إلى إضعاف الصناعة حيث تقل المواد الأولية كالألبان والأجبان والحليب والجلود والصوف والمستحضرات الطبية والقطن والتبغ والشاي وغيرها . ولعله من المفيد أن نذكر أن الحبوب تشكل ٧٥٪ من المواد الغذائية في العالم وهي تشمل القمح والأرز اللذين يشكلان بدورهما أهم مادتين غذائيتين .

لذا تستخدم الوسائط البيولوجية بشكل عضويات جرثومية قابلة للتكاثر على مساحات كبيرة من الأرض المزروعة بالنباتات ، وتؤدي إلى إصابات جماعية .

تلعب الفطريات دوراً هاماً بين المسببات المرضية في إتلاف النباتات والمزروعات، وتؤدي إلى تعفن القمح والبطاطا والرز. وتنتقل هذه المسببات المرضية التي تكون متحوصلة[١٧] غالباً، مع الريح إلى مسافات بعيدة لتحدث بؤر إتلاف جديدة، ثم لا تلبث أن تنتقل مرة أخرى وهكذا ... إلى أماكن أخرى. وقد تنتقل مع مجاري مياه المطر أو المجاري العادية، أو بواسطة الحشرات أو الحيوانات أو البشر.

نذكر من الأمراض النباتية المشهورة، مرض تعفن القمح الفطري، الذي تتكاثر فطرياته في أجيال جديدة كل ١٠ ــ ١٤ يوماً ويصل تعدادها في كل بؤرة إلى بضع مئات الآلاف، وقد أدى هذا المرض إلى إتلاف عشرة ملايين طناً من القمح في الولايات المتحدة في أعوام الخمسينيات. ولا يمكن اتخاذ أية إجراءات مضادة له سوى زرع أنواع من القمح لا تتأثر به.

وهناك أيضاً مرض (الفيتوفتوروز) للبطاطا، الذي كان قد أدى في الأعوام ١٨٤٥ ــ ١٨٤٨ إلى حدوث مجاعة تاريخية في ايرلندا، مات بنتيجتها ٢,٥ مليون من السكان، وهاجر مليون ونصف، ونقص معدل المواليد نصف مليون أيضاً. أما مرض الأرز فيعرف (بالبيريكوليروز)، ويؤدي إلى يباس نبات الأرز، وبالتالي إلى إضعاف إنتاجه إلى أدنى حد وثمة أمراض عديدة أخرى لم نأتِ على ذكرها هنا.

وبالطبع فهناك مسببات مرضية للحيوانات والطيور على اختلاف أنواعها، تؤدي إلى القضاء على الثروة الحيوانية، وخاصة اللحم والحليب، اللذين يعتبران جزءاً أساسياً من الثروة الغذائية.

وأخيراً لا بد أن نذكر أن المسببات المرضية تستخدم في الأعمال التخريبية التي تهدف إلى تعقيد أعمال العدو الهجومية والدفاعية، حيث تستعمل ضد المشاريع الحيوية وخاصة تلك التي تنتج المواد الغذائية والمستحضرات الطبية فيصبح الدواء عاملاً في تقوية الداء عوضاً عن العكس. ويمكن أيضاً تلويث مصانع الحليب في إحدى المراحل التي تلي مرحلة التعقيم، وبعدها تنتشر مسببات المرض عبر أجهزة التوزيع إلى البائعين والمستهلكين

---

(١٧) وهي المسببات المرضية التي تخلق غلافاً صلباً حولها يمكنها من التكاثر والعيش والانتشار حتى في الشروط غير الملائمة.

بسرعة قياسية. وهناك احتمال تلويث مستحضرات التجميل أيضاً، بالإضافة إلى تلويث المحاصيل الزراعية. وغالباً ما تتم أعمال التخريب هذه بواسطة العملاء أو الجواسيس الذين يعرفون، أو يعملون في منشآت الدولة المُراد تلويثها بالمسببات المرضية. وبما أن تأثيراتها لا تظهر إلا بعد انقضاء فترة الحضانة للمسببات المرضية المستخدمة، فإن هؤلاء العملاء قلّما يمكن كشفهم[١٨].

تستخدم سموم البوتاليزم السريعة التأثير في أعمال التخريب، وعموماً فإن التأثيرات النفسية التي تتركها هذه الأعمال التخريبية ربما تفوق تأثيراتها التدميرية، وبالتالي فلا بدّ من تشديد الإجراءات الأمنية في جميع هذه المنشآت وخاصة في مصانع المواد الغذائية.

هل يمكن أن تستخدم هذه المسببات المرضية في أعمال الأنصار؟ نعم، يمكن أن ينفذ ذلك، ضد التشكيلات والقطعات المعادية، شريطة أن تستخدم طرق فعالة ومبتكرة، وتتوفر المسببات المرضية من ناحية، والاختصاصيون من ناحية ثانية، بالإضافة إلى مهارات ومبادهات القادة.

٦ ـ الحرب البيولوجية دولياً

كان بروتوكول حزيران ١٩٢٥ الذي وقعته أغلب دول العالم آنذاك (كما وقعته الولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٧٥ أي بعد خمسين عاماً) قد منع اللجوء إلى استخدام الوسائل البكتريولوجية في الحروب. وكررت الأمم المتحدة في عام ١٩٦٦ ضرورة الالتزام بما ورد في بروتوكول ١٩٢٥. وفي عام ١٩٦٢ كانت بريطانيا قد أثارت من جديد مسألة نزع السلاح البيولوجي. ثم أعادت طرح الموضوع في جنيف في شهر آب من عام ١٩٦٩، ودعمها الاتحاد السوفييتي، بينما لم تكن الولايات المتحدة متحمسة لهذا الطرح بالرغم من أنها كانت قد أعلنت في عهد إدارة روزفلت الثالثة في عام ١٩٤٣ (انتخب روزفلت للرئاسة ثلاث مرات) انها لن تكون البادئة بشن حرب كيميائية أو

(١٨) استطاع عملاء ومخربون ألمان أن يلوثوا الحيوانات المستوردة من قبل الحلفاء من أميركا الجنوبية، بالمسببات المرضية من نوعي القرحة السيبيرية والسقاوة.

بيولوجية، كما أن نيكسون أعلن في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٩، استنكار أميركا لاستعمال الأسلحة البيولوجية، وأمر بتدمير كل ما ادخرته أميركا منها، حيث قال يومئذ: «إن للأسلحة البيولوجية نتائج واسعة لا يمكن السيطرة عليها، ولا التكهن بمداها، فقد تثير وباء يعم العالم ويخرب صحة الأجيال المقبلة، لذلك قررت، أولاً: أن تمتنع الولايات المتحدة عن استعمال المواد والأسلحة البيولوجية القاتلة، وكل أساليب الحرب البيولوجية. وثانياً: ستحدد الولايات المتحدة الأميركية أبحاثها البيولوجية بالتدابير الدفاعية كاللقاحات واحتياطات الوقاية، والسلامة».

أما بالنسبة لإسرائيل فهناك قرائن تشير إلى نيّاتها في هذا الصدد منها: أنها غير مرتبطة باتفاقية جنيف لعام ١٩٦٩، ولم تنضم إليها حتى الآن، الأمر الذي يدفع إلى الاعتقاد بأن إقدامها على استخدام هذه الأسلحة أمر لا يمكن استبعاده، وخاصة في حالة يأسها، وبمجرد شعور مؤسستها العسكرية بأن ميزان القوى لم يعد في صالحها، في أية حرب مقبلة.

وأخيراً ففي مطلع السبعينيات، حدث تطور هام يتعلق بالحرب البيولوجية، حيث وقعت عشرات الدول على معاهدة ١٠/٤/١٩٧٢ الخاصة بتحريم صنع الأسلحة البيولوجية والزيفانات وتخزينها (السموم العضوية) وضرورة تدمير الموجود منها، والاكتفاء بالدراسات والتجارب ذات الطابع الدفاعي والهادفة إلى وقاية الإنسان والحيوانات والنباتات من أخطار الأوبئة والسموم. وبالرغم من أن بعض الدول مثل فرنسا والصين والهند لم توقع على هذه المعاهدة، فإن حكوماتها أصدرت قوانين خاصة تتوافق مع روح الاتفاقية ونصها. وقد قامت الدول فعلاً بتدمير مخزونها من الأسلحة البيولوجية، وتراجع شبح الحرب البيولوجية بخطوات واسعة.

٧ ـــ الآفاق المستقبلية للحرب البيولوجية

بعد أن استعرضنا مختلف الاستخدامات المحتملة للأسلحة البيولوجية، ورأينا أن وجهات نظر صانعي القرار في أغلب الدول تميل إلى استبعاد اللجوء إلى الحرب البيولوجية باعتبارها نوعاً من الدخول في عالم المجهول، ولم يتم حتى الآن اكتشاف ملامحه، وبما أن أغلب الدول، وخاصة العظمى منها تحمست لمعاهدات المنع وتدمير المخزون من هذه

الأسلحة ، فلا بدّ من القول إن هذه الحرب أصبحت بعيدة الاحتمال . ومع ذلك فلا مندوحة من الإشارة إلى أن الدول تتخذ بالنسبة لمعاهدات المنع والتحريم ، أحد المواقف التالية[١٩] :

آ ـــ تراعي الوقاية فقط ، حتى لا تفاجأ إذا ما حدث انتهاك لهذه المعاهدات .
ب ـــ تراعي الوقاية وتمتلك مخزوناً من المواد المحرمة لكي تستخدمها في الرد .
جـ ـــ لا تراعي الوقاية ولا تحاول امتلاك مخزون من المواد المحرمة ، وإنما تثق ثقة كاملة بالمعاهدات الدولية .

ولعله من حسن حظ البشرية أنها لم تشهد حتى الآن حرباً بيولوجية بالمعنى الحقيقي لها ، بالرغم من وجود أسلحتها في معظم دول العالم ، وأن كل ما شهدته البشرية في هذا المجال لم يتجاوز الاستخدام المحدود الذي اتسم بالسرية ، حيث كان المنفذون ينكرون لجؤهم إلى هذه الأسلحة . وقد كان لجهود المفكرين والداعين إلى السلم دور هام في ذلك . وسيكون للمعاهدات دور لا يقل أهمية عن دور أولئك ، في ردع هذه الحرب . ولكن متى كان الردع والمعاهدات حاجزاً لا يمكن لدولة معتدية عبوره ، وهل تعترف إسرائيل بالمواثيق والقرارات الدولية عندما تقترف كل يوم جريمة جديدة بحق الشعب العربي ، سواء في عقر دارها ، أو في الأراضي المحتلة ، أو في لبنان أو سوريا أو الأردن أو العراق (تدمير المفاعل النووي) ، أو في البحر الأحمر (الألغام البحرية) ؟ وإن دولة لها كل هذا التاريخ البشع في ارتكاب المجازر وتحدّي المجتمع الدولي ، لن تراعي أية فقرة من الفقرات الثلاث (آ ـــ ب ـــ جـ) أعلاه ، ولكنها تمتلك الأسلحة الجرثومية ، وسوف تستخدمها عندما تدعو الضرورة لذلك .

لذا ، فحتى الطابع الرهيب للحرب البيولوجية لن يشكل في المستقبل ضمانة أكيدة لمنع اندلاعها ، إذا ما توافرت الظروف المناسبة لها .

وعموماً ، ففي شروط استخدام السلاحين النووي والكيميائي ، يظل استخدام السلاح البيولوجي أمراً عادياً ، فهو يشكل مع هذين السلاحين أسلحة الغد ، التي ستبقى هي أو يبقى الإنسان على الكرة الأرضية .

---

(١٩) تنطبق هذه المواقف على الأسلحة البيولوجية والكيميائية معاً .

رابعاً ـــ الحرب الكيميائية

١ ـــ مفهوم الحرب الكيميائية

إن الحرب الكيميائية هي التي تستخدم فيها الأسلحة الكيميائية التي تتألف بدورها من المواد السامة الحربية، ووسائط استخدامها، حيث تلعب المادة السامة دوراً رئيسياً في إصابة القوى الحية، بالإضافة إلى الأسلحة التقليدية الأخرى.

وهي تهدف إلى:

آ ـــ إصابة القوى البشرية إما عن طريق تلويث الهواء بأبخرة المادة السامة، أو تلويث الأفراد والأرض والأسلحة والمواد الغذائية وغيرها.

ب ـــ إعاقة العدو، أو منعه من تنفيذ الأعمال القتالية في مناطق معينة، سواء في الدفاع أو في الهجوم.

جـ ـــ ضرب أهداف في عمق العدو.

د ـــ التأثير النفسي وخفض الروح المعنوية.

وقد لجأ الإنسان إلى الحرب الكيميائية منذ القرون القديمة والوسطى، ولكن التاريخ الحديث، وخاصة في القرن الحالي، يتميز بتطور السلاح الكيميائي على أساس الإنتاج الصناعي المتطور جداً. ونذكر مثلاً أن هتلر طلب إلى العلماء الألمان، في أعوام الثلاثينيات أن يطوروا مادة سامة تكون أكثر سمية بكثير من المواد المستخدمة في القضاء

على الحشرات والمسببات المرضية للنباتات ، فاستطاع هؤلاء إيجاد مادة عرفت آنذاك ، ولا تزال تعرف حالياً بالتابون ، كانت أشد سمية من أفضل مادة مضادة للحشرات بثلاثة آلاف مرة ، وجاءت بعدها مادة الزارين التي هي أشد سمية منها بعشر مرات ، أما المواد المعروفة حالياً بغازات (ف) فهي الأخرى أشد سمية من الزارين بعشر مرات أيضاً .

وإذا علمنا أن الأسلحة الكيميائية التي استخدمت في الحرب العالمية الأولى بكميات بلغت ١٢٠ ألف طن ، وأدت إلى إحداث خسائر في القوى الحية بلغت ٣ر١ مليوناً (قتلى وخارجون من المعركة) ، وكانت من أنواع لا تقارن مع ما هو موجود منها الآن ، لأدركنا فداحة ما تستطيع هذه الأسلحة إحداثه من خسائر في أية حرب كيميائية مقبلة .

٢ ـــ الأسلحة الكيميائية وتأثيراتها (مساحات الإصابة والتأثير)

إن الأسلحة الكيميائية هي المواد السامة ووسائط استخدامها ، وعموماً فإن هذه المواد تتميز بالقدرة على النفوذ عبر المنشآت محمولة في الهواء ، وتحافظ على قدرة التدمير لفترة طويلة تصل أحياناً إلى أشهر ، وتغطي مساحات كبيرة جداً ، وهي تؤثر على الأعصاب ، أو على الجلد ، أو على أجهزة التنفس ، وغيرها من أعضاء الجسم ، وعلى الحالة النفسية للمصاب الخ ... ولن ندخل إلى التفاصيل ، لأن ذلك ليس موضوع هذا البحث . ولكن لا بدّ لنا من ذكر وسائط استخدامها باختصار ، والتي تشمل ما يلي :

- قنابل الطائرات وقذائف المدفعية ، والصواريخ .
- أجهزة الرش من الطائرات .
- الملاغم الكيميائية .
- مولدات الايروزول .

وكذلك فإننا نقدم بعض المعطيات الرقمية عن مساحات الإصابة المباشرة ومساحات التأثير .

آ ـــ تستطيع أربع طائرات قاذفة مقاتلة أن تلوث بالزارين مساحة ٢٤٠ هكتاراً ، بينما تصل مساحة منطقة التأثير التي تنتشر فيها السحابة الكيميائية الملوثة إلى ١٤٤ كيلو متر مربع في الحالة المناخية الملائمة .

ب ــ تستطيع هذه الطائرات نفسها أن تلوث بغازات (ف) مساحة ٧٠٠ هكتاراً ، بينما تصل مساحة منطقة التأثير للسحابة الملوثة إلى حوالي ٧٠ كيلو متر في أقصى حد لها .

جـ ــ يستمر بقاء مادة غازات (ف) على الأرض لمدة ١١ يوماً في درجة الحرارة البالغة ١٠ درجات مئوية .

د ــ نحتاج لإخراج ١٥٪ فقط من فصيلة مشاة في نقطة استناد إلى ضربها بتسعين قنبلة عادية ، بينما يمكن إخراج ٩٠٪ منها من المعركة بواسطة قنبلة واحدة من غازات (ف) .

هـ ــ يحتاج لواء مشاة في الدفاع إلى ١٨٠ ألف طلقة مدفعية لإخراجه من المعركة ، بينما يمكن تحقيق ذلك بواسطة بضع طائرات مجهزة بأجهزة رش المواد السامة أو بالقنابل الكيميائية .

وليست هذه المعطيات سوى أمثلة فقط عن تأثيرات الأسلحة الكيميائية ، ومدى ما تغطيه من مساحات يكون التركيز فيها مميتاً .

٣ ــ طرق الاستخدام

هناك اختلاف في وجهتي نظر الغرب (أميركا وحلفاؤها) ، والشرق (دول المعسكر الاشتراكي) في طرق استخدام الأسلحة الكيميائية . فالغرب يرى أن الطريقة المفضلة هي استخدام الذخائر الكيميائية على مسافة ما من الهدف ، بحيث تصل السحابة الكيميائية الملوثة إلى مناطق توضع العدو ، وتحقق المفاجأة ، بينما لا يحقق الاستخدام مباشرة على الهدف ، أية مفاجأة ، وتستطيع قوات العدو استخدام وسائط الوقاية الفردية والجماعية ، مما يجعل الخسائر في حدها الأدنى . أما وجهة النظر الأخرى ، فترى أن الاستخدام المباشر على القوات المعادية يحقق الفعالية المطلوبة ، لأنه يلوث هذه القوات وعتادها ومناطق عملها ، ويحدث نسبة كبيرة من الخسائر ، بينما يضطر الناجون إلى العمل في شروط صعبة جداً ، مع ارتداء وسائط الوقاية الفردية ، التي لا يمكن تحملها في الجو الحار سوى أقل من ساعة واحدة أو ساعتين في الجو البارد نسبياً ، أما بالنسبة

للقوات الموجودة في اتجاه تحرك السحابة المذكورة فيمكنها ارتداء القناع الواقي الذي لا تحتاج لغيره لمدة تصل إلى ١٢ ساعة .

وعموماً فإن تكوُّن السحابة الكيميائية الملوثة يتم على مرحلتين : فهناك السحابة الأولية التي تتكون من قطرات المادة السامة صغيرة الحجم ، التي يمكن للهواء حملها ، دون أن تسقط على الأرض ، وهناك أيضاً السحابة الثانوية التي تتكون من أبخرة القطرات التي سقطت على الأرض ، ثم تصاعدت عنها ، وسارت في اتجاه الريح .

تستخدم المدفعية قذائفها الكيميائية على القطعات الموجودة في الحد الأمامي وفق العمق القريب ، بينما يستخدم الطيران قنابله الكيميائية على أهداف العمق البعيد غالباً ، كما يستخدم أجهزة الرش على ارتفاعات منخفضة لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار[٢٠] ، وعلى أهداف ذات دفاع جوي ضعيف ، الأرتال أو وحدات المؤخرات . أما الصواريخ فتستخدم في عمق البلاد ، ضد أهداف استراتيجية حيوية . وبالنسبة للألغام فهي تستخدم أمام القوات المدافعة ، إما في حقول مستقلة تنفجر كهربائياً ، أو في حقول مختلطة مع الألغام العادية المتفجرة .

يرى الأميركيون أن الاستخدام الفعّال لمادة الزارين السريعة التطاير ، يجب أن يتم بكثافة كبيرة ، بحيث يمكن تشكيل التركيز المميت منه بعد ١٥ ــ ٣٠ ثانية ، لا يستطيع الأفراد خلالها أن يرتدوا الأقنعة الواقية ، أو أن تستخدم صبائب المدفعية لمدة ١٥ ــ ٣٠ دقيقة متواصلة ثم تكرر في فترات لاحقة .

وفي كل هذه الحالات ، تراعى طبيعة الهدف والشروط الجوية المناخية كسرعة الريح واتجاهها ، وحالة الصعود الشاقولي للهواء (كأن يكون الهواء صاعداً أو متعادلاً أو هابطاً[٢١] ، وعموماً فإن الحالة الأكثر ملاءمة هي في الليل ، وفي الساعات المبكرة من الصباح ، حيث تسود حالة الهبوط الشاقولي . ثم إن تكوّن السحابات وانتشارها يعتمدان على هذه العوامل أيضاً ، فقد لا تصل السحابة إلى أبعد من حدود منطقة استخدام المادة

---

(٢٠) إن الارتفاع النموذجي هو حتى مئة متر حيث تكون الطائرات محمية بطائرات مقاتلة أو حوامات .

(٢١) تعتبر أفضل حالات الاستخدام عندما تكون سرعة الريح ٢ ــ ٤ أمتار في الثانية ، والأرض منبسطة ومكشوفة وحالة الهبوط الشاقولي للهواء .

السامة ، أو قد تصل إلى مسافة ٦٠ كيلو متر عن هذه المنطقة ، كما ذكرنا في أحد الأمثلة السابقة . وفي هذه الحالة فإن التركيز للمادة السامة في الهواء[٢٢] يكون مميتاً على هذه المسافة .

أما زمن ثبات المادة السامة على الأرض فيعتمد على نوع المادة نفسها (سريعة أو بطيئة التطاير) ، وعلى الشروط الجوية ، وخاصة على درجتي حرارة التربة والهواء ، وتتراوح بين بضع دقائق وعدة أشهر .

٤ ــ الوقاية من الأسلحة الكيميائية

إن الوقاية من هذه الأسلحة هي نوعان : فهناك الوقاية الفردية التي يستخدم فيها الفرد وسائط الوقاية الفردية (القناع الواقي ــ ووسائط وقاية الجلد) . والوقاية الجماعية (ملاجىء مجهزة بمجموعات تصفية وتهوية) . وكذلك فإنه يجب إنجاز إجراءات علاجية ، تؤمن استعادة الفرد المصاب حالته الصحية ، نذكر منها حقن الأتروبين التي تسعف المصابين بالمواد السامة المؤثرة على الأعصاب . والمعالجة الصحية الجزئية لأماكن الإصابة بالقطرات بواسطة مجموعة التطهير الفردية . ومعالجة ضيق التنفس ، وألم الرأس والأعراض الأخرى ، باستخدام أمبولات خاصة موجودة في هذه المجموعة .

يعالج أيضاً العتاد والسلاح الملوثين حتى يمكن استخدامهما من قبل الأفراد ، دون تعرضهم لأية خطورة . ويتم تطهير الأرض والمنشآت في شروط معينة . وثمة معالجة خاصة للملابس والمواد الغذائية ، بحيث يمكن الاستفادة منها بالرغم من تلوثها .

وأما الكشف عن المواد السامة ، فيتم بواسطة الأجهزة اليدوية ، أو الأوتوماتيكية ، التي يجب توفرها مع الرصّاد الكيميائيين الذين يجب أن يشكلوا بدورهم شبكة رصد واستطلاع كيميائية تغطي جميع مناطق الأعمال القتالية .

٥ ــ الاستخدام القتالي للأسلحة الكيميائية

يمكن استخدام الأسلحة الكيميائية ، إما على الأهداف الموجودة في المؤخرات العميقة للعدو ، أو لحل بعض المهام التكتيكية في حقل المعركة ، على أن يراعى في ذلك ،

---

(٢٢) التركيز هو سمية المادة السامة محسوباً بالميليغرامات في الليتر .

ما إذا كانت الأسلحة النووية تستخدم أو لا تستخدم. وعموماً فإن الاستخدام الاستراتيجي لهذه الأسلحة، سواء بواسطة الصواريخ الاستراتيجية، أو العملياتية، يعتبر حالة ثانوية، وخاصة إذا كان الطرفان يستخدمان هذه الصواريخ لحمل الرؤوس النووية. وبالإضافة إلى ذلك فإن تدمير الأهداف في المؤخرات البعيدة، أو في قارات أخرى، يحتاج إلى كميات كبيرة من المواد السامة ومن وسائط نقلها، وبالتالي فلا يعتبر هذا الاستخدام فعالاً، بينما يكون الاحتمال الأكبر متمثلاً في استخدام هذه الأسلحة لتنفيذ بعض المهام الخاصة، حيث يمكن أن يحقق الاستخدام نتائج عملية جيدة.

إن بدء استخدام الأسلحة الكيميائية يعني الانتقال من شروط الحرب التقليدية إلى شروط الحرب الكيميائية، وعندئذ يصبح استخدام هذه الأسلحة من مسؤولية القادة على مختلف المستويات وحسب قراراتهم، حيث يصبح هؤلاء غير مسؤولين عما يترتب على أول استخدام لهذه الأسلحة، التي تصبح مماثلة لأي سلاح آخر. ولكن يجب في هذه الحالة أن يراعي القادة النقاط نفسها التي تُراعى في الحرب البيولوجية والتي تشمل ما يلي:

آ ــ قوام القوى الحية الموجودة في منطقة الهدف (وهل تتألف من مدنيين أو عسكريين أو من الإثنين معاً).

ب ــ بدء التأثيرات التدميرية للأسلحة الكيميائية واستمرارها.

جـ ــ بعد الهدف عن القوات الصديقة.

د ــ طبيعة المهمة المطلوب تنفيذها، وهل سيتم احتلال منطقة الهدف، أو تعزل ويجري الالتفاف من حولها.

ويراعي هؤلاء أيضاً نوعية المواد السامة، حسب وجود أو عدم وجود سكان مدنيين في منطقة الهدف، حيث تستخدم في الحالة الأولى مواد سامة مخرجة من القتال مؤقتاً، بينما تستخدم مواد سامة مميتة في الحالة الثانية. وكذلك يُراعى أيضاً كون هذه المواد سريعة التأثير أو ثابتة حسبما يتوقع أو لا يتوقع تأثيرها على قواتنا.

وتراعى أيضاً، وبدرجة عالية، إجراءات الحيطة للقوات الصديقة، وخاصة بما يتعلق بالشروط الجوية الملائمة، واتجاهات الريح السائدة وسرعاتها، وبما يتعلق، بالتأكيد، بتجهيز القوات الصديقة بوسائط الوقاية وجاهزيتها، ودرجة التدريب عليها.

وهكذا نرى أن الاستخدام العملياتي للأسلحة الكيميائية يكون أسهل من الاستخدام التكتيكي الذي يحتاج إلى حسابات ودراسات دقيقة للشروط الجوية، علماً بأنه يفترض دائماً أن القوات مزودة بوسائط الوقاية ومدربة على استخدامها.

تستخدم المواد السامة السريعة الزوال والشديدة التأثير[٢٣] على العدو المدافع في تماس مباشر مع قواتنا، ويتم ذلك غالباً بواسطة المدفعية، نظراً لدقة رماياتها. وفي هذه الحالة يجب أن ينفذ الرمي قبل بدء الهجوم مع مراعاة إيقاع أكبر نسبة خسائر بالعدو، وعدم إتاحة الفرصة له للتمكن من تبديل قواته المصابة.

يمكن في حالات خاصة تنفيذ الرمي قبل عدة ساعات بمواد سامة ثابتة كالايبريت، حيث تدخل أبخرته إلى جميع التحصينات، ولكن كون هذه المادة السامة لا تمتلك درجة التأثير اللازمة، فلم يعد هذا الأمر وارداً في الوقت الراهن.

يحتمل جداً استخدام المواد السامة الثابتة ضد احتياطات العدو المعدة للقيام بالضربات أو الهجمات المعاكسة، حيث تقع هذه القوات تحت تأثير السحابات الملوثة التي تتحرك إلى بضع عشرات الكيلو مترات. ويمكن أيضاً استخدام الضربات الكيميائية بواسطة الطائرات على الاحتياطات العملياتية، لإيقاع خسائر كبيرة فيها، وإعاقتها عن الحركة السريعة.

ثم إنه يمكن أن تستخدم المواد السامة بنجاح على الأهداف الكبيرة، ذات المساحات الواسعة والمستطلعة جيداً، والتي تحتلها تحشدات كبيرة من القوى الحية المعادية، على أن تستخدم ضدها مواد سامة سريعة التأثير. ويلعب اختيار زمن الضربات الكيميائية دوراً بالغ الأهمية، حيث أن تنفيذها قبل الوقت اللازم يقدم للعدو فرصة ثمينة لاستعادة قدرته القتالية، وتبديل قواته المصابة، والاستعداد للقيام بالضربة المعاكسة، كما أن التنفيذ المتأخر لا يؤثر على العدو الذي يكون قد بدأ تقدمه فعلاً إلى خط الضربة المعاكسة لملاقاة قواتنا المهاجمة، بترتيب قتالي سليم.

---

(٢٣) نذكر منها الزارين الذي ينتمي إلى المواد السامة المؤثرة على الأعصاب ويتشكل تركيزه المميت خلال ١٥ ــ ٣٠ ثانية فقط.

وإذا كان الهجوم سينفذ بوتيرة سريعة بسبب ضعف دفاع العدو، فيفضل استخدام المواد السامة سريعة التأثير وقليلة الثبات. وإن استخدام الألغام الكيميائية يضطر المهاجم لارتداء الأقنعة الواقية مما يجعل الأعمال القتالية أكثر تعقيداً، إما إذا استخدمت مواد سامة من نوع غازات (ف)، التي تستطيع النفوذ عبر الجلد فلا بدّ من استخدام وسائط وقاية الجلد أيضاً، مما يجعل العمل فيها لفترات زمنية طويلة شبه مستحيل حيث لا يمكن ارتداؤها لأكثر من ١٥ ــ ٣٠ دقيقة صيفاً وحتى ساعتين شتاءً.

٦ ــ الحرب الكيميائية دولياً

كان أول عمل دولي مشترك لحظر الحرب الكيميائية هو «بروتوكول حظر استعمال المواد الخانقة والمسممات والغازات الأخرى، والطرائق البكتريولوجية في شؤون الحرب» الذي وقع في جنيف في ١٧ حزيران ١٩٢٥، وكان هذا البروتوكول يقتضي أن يصبح نافذ المفعول من تاريخ التصديق عليه من قبل حكومات الدول التي وقعته بالأحرف الأولى. وعموماً فقد وجدت في هذا البروتوكول ثغرات كبيرة ومتعددة منذ البداية، الأمر الذي جعل تعديله أو إبرام معاهدة جديدة في هذا المجال ضرورة لا يمكن تجاوزها. ونذكر من هذه الثغرات على سبيل المثال عدم الشمولية بحيث بقي عدد كبير من الدول لم يوقع على هذا البروتوكول، وخاصة الدول التي ظهرت بعد توقيعه، وعدم التحديد الدقيق للعوامل أو المواد الكيميائية المُراد حظرها، بحيث لجأت بعض الدول إلى الاحتيال القانوني في هذا المجال، وعدم النص على حظر صنع المواد السامة الكيميائية وتخزينها، مما ترك الباب مفتوحاً أمام الدول في امتلاك الأسلحة الكيميائية، مدعية أنها تريد بذلك ردع الآخرين عن استخدامها.

ولعل المشكلة الأكثر تعقيداً التي واجهت المجتمع الدولي ولا تزال تواجهه هي تلك الدول التي تتحدى قرارات هذا المجتمع، معتمدة إما على كونها قوة كبرى، أو على كونها مدعومة من قبل قوى كبرى، حيث تبدو دولة إسرائيل مثالاً فاضحاً عن ذلك في الوقت الراهن. فهي تدير ظهرها لكل القوانين والأعراف الدولية، وتعلم أن الولايات المتحدة تشد أزرها، وبالتالي فهي لا تخشى المجتمع الدولي. أما الدولة الكبرى فإنها

تتحدى المجتمع الدولي مستخدمة قدراتها الكبيرة جداً في المجال الإعلامي، بحيث تبدو وكأنها ملتزمة بروح النصوص الدولية، في الوقت الذي تعمل فيه على انتهاك هذه النصوص، وأبسط القيم الإنسانية.

وهكذا فقد استخدمت الولايات المتحدة ٧٢ مليون ليتر من المواد السامة المضادة للنباتات والغابات والمحاصيل الغذائية في الحرب الفيتنامية، مدعية أن هذه المواد لا تدخل ضمن بروتوكول ١٩٢٥ عن حظر الحرب الكيميائية. وكذلك فقد استخدمت هذه الدولة ٩ ملايين كيلو غرام من مادة سي اس ــ CS[٢٤] في الحرب المذكورة مدعية أيضاً أنها غير مشمولة في بروتوكول جنيف المذكور. ولكنها كانت تستخدم الذخائر العادية لتدمير الألوف من المصابين بهذه المادة، الذين كانوا يفقدون القدرة على التصرف في هذه الحالة.

أدى هذا الاستخدام الواسع النطاق لوسائط الحرب الكيميائية في فيتنام إلى نتيجتين، فمن ناحية أولى، لم يلبث الرئيس الأميركي نيكسون أنه أعلن في عام ١٩٦٩ موافقته على تقرير اللجنة الدولية التابعة للأمم المتحدة الذي جاء فيه أن السلاحين الكيميائي والبيولوجي يعتبران من أسلحة التدمير الشامل، وأنهما يفوقان خطورة هذه الأسلحة في بعض الحالات، وبالتالي فيجب تحريم صنعهما وتخزينهما، بعد أن تم تحريم استخدامهما في بروتوكول جنيف لعام ١٩٢٥. ومن ناحية ثانية قامت الولايات المتحدة بتصديق بروتوكول جنيف في ٢٢ / ١ / ١٩٧٥ أي بعد خمسين عاماً من صدوره.

ويبدو أن الصيغة الدولية القانونية لحظر الحرب الكيميائية والحرب البيولوجية أصبحت الآن شبه مكتملة، ولكن، هل يعني ذلك أن هاتين الحربين حذفتا من قاموس الحروب إلى الأبد، وأن الدول المالكة للأسلحة الكيميائية والبيولوجية ستقوم بتدميرها، ولن نرتدي بعد الآن القناع الواقي؟ أو هل أصبحت هاتان الحربان من منسيات التاريخ الإنساني، وتغلب الناس في نهاية المطاف على حجم كبير من المعاناة التي يفرضها بعضهم على بعضهم الآخر.

---

(٢٤) هي مادة ذات تأثير مهيّج شديد على العينين والمجاري التنفسية ولها تأثير كاوٍ على الجلد وتصنف في المواد السامة غير المميتة ولكنها تؤدي إلى إخراج القوى الحية من المعركة وقد استخدمتها اسرائيل في حرب لبنان ١٩٨٢.

بوسعنا أن يكون الجواب على كل هذه الأسئلة بالنفي. أما لماذا هو كذلك، فالجواب يأتي في الفقرة الأخيرة من هذا البحث.

٧ ـــ الآفاق المستقبلية للحرب الكيميائية

كانت الحروب في السابق تشن من أجل المحافظة على القيم الأخلاقية للشعوب، حيث كان مثيرو هذه الحروب يرون أن عدم الذهاب إلى الحرب يعني التراجع عن التمسك بالأخلاق، وبالتالي فإن الشعوب التي فقدت أخلاقها، تكون قد فقدت مبرر وجودها، وسرعان ما تفقد نفسها. ولذا فإن الحرب، على فظاعتها، تظل أكثر رحمة بالإنسان من أن يفقد إنسانيته. فكيف ينظر الناس إلى الحروب النووية، والبيولوجية والكيميائية من هذه الزاوية؟ إن أي اعتراف بإمكانية أو احتمال كون هذه الحروب أخلاقية يؤدي إلى الموافقة على القتل الجماعي لجميع الشعوب، ولذا، فليس من المفيد أن توجه هذه الحروب بالنية فحسب، بل لا بدّ أن تحكمها النظرة الواقعية للنتائج الإجمالية التي تنجم عنها. أما على أساس النية، فإن أية درجة من التدمير ستكون معقولة. وأين تكمن هذه الأخلاقية إذا كانت هذه الحروب ستدمر النظام الدولي كله؟ وإذا كان هناك من يقول «إن ما هو منطقي أو معقول هو أخلاقي أيضاً، وإن الاستخدام المرن للقوة النووية، إذا كان يستخدم سياسة معقولة، سيكون أخلاقياً»، فإن الصراع لا يزال على أشده بين مؤيدي هذه الحروب ومعارضيها، حيث يقول الطرف الأول (المؤيدون) إنه يمكن أن تستخدم أسلحة التدمير الشامل (نووية، بيولوجية، كيميائية) بطرق مختلفة لتحقيق دمار مسيطر عليه، وإنها ذات قيمة كبيرة جداً في بعض أنواع الحروب (وخاصة في الحروب المضادة للعصيان والتمرد)، كما أنها تحدث معاناة أقل من أنواع الأسلحة الأخرى، وتعمل على ردع أية حروب أخرى. أما الطرف الثاني (المعارضون) فيرى أن ثمة صعوبة كبيرة جداً في السيطرة على هذه الحروب، وخاصة على المقاتلين، وغير المقاتلين، كما لا يمكن السيطرة على التصعيد فيها، بالإضافة إلى أن الدمار الواسع الذي يحدث فيها غير مقبول بأي مقياس.

وعموماً فإن تحول أية حرب مقبلة إلى حرب نووية، يعني تحولها بصورة آلية أيضاً إلى حرب بيولوجية وكيميائية، حيث أن هاتين الأخيرتين تعتبران جزءاً مكملاً فقط للحرب الأولى.

لنعد الآن إلى الحرب الكيميائية بالذات، ونرى الصورة التي يظهر فيها العالم وخاصة القوتان العظميان بما يتعلق بالاستعداد لها.

إن المعطيات عن امتلاك الولايات المتحدة الأميركية للأسلحة الكيميائية تشير إلى ما يلي (من مصادر سوفييتية وأميركية معاً):

— يوجد ٥٥ ألف طن من المواد السامة المؤثرة على الأعصاب، و ١٥٠ ألف طن من مواد سامة أخرى معبأة في ثلاثة ملايين قنبلة وقذيفة متنوعة.
— خصص في ميزانيات الدفاع الأميركية للأعوام ١٩٨٢ — ١٩٨٦، مبلغ ١٠ مليارات دولار تكفي لصنع ٥ ملايين قنبلة وقذيفة أخرى.
— تقام قاعدة صناعية في الولايات المتحدة لتكون جاهزة لإنتاج الأسلحة الكيميائية الحديثة المعروفة بالسلاح الثنائي[٢٥]، بمعدل ٧٠ ألف قنبلة وقذيفة شهرياً.

وبالإضافة إلى ذلك يوجد أربعة ملايين ليترٍ من غازات (ف) المؤثرة على الأعصاب في ألمانيا الغربية، مع القوات الأميركية العاملة فيها.

وفي الوقت نفسه فإن المصادر الأميركية تقول إن الاتحاد السوفييتي يمتلك أسلحة كيميائية تعادل المخزون الأميركي الذي كان موجوداً حتى عام ١٩٨٢، بـ ١٤ مرة. ولكن السوفييت ينفون ذلك، قائلين إنهم لا يملكون سوى القدرة الدفاعية ضد استخدام هذه الأسلحة من قبل أعدائهم المحتملين. ومع ذلك، فقد فشلت ثلاثة عشرة جولة من المباحثات بين الطرفين السوفييتي والأميركي بين عامي ١٩٧٧ — ١٩٨٠، التي كانت تهدف إلى التوصل إلى الاتفاق على مسألة التفتيش المتبادل على الأسلحة الكيميائية.

استمرت محادثات تحريم الأسلحة الكيميائية، حيث قدم الاتحاد السوفييتي اقتراحاً في حزيران ١٩٨٢، بما يتعلق بشروط التفتيش، وفي شباط ١٩٨٣، حث نائب الرئيس الأميركي السيد جورج بوش لجنة نزع السلاح المجتمعة في جنيف من أجل الاتفاق على هذا التحريم قائلاً:

---

(٢٥) وهو عبارة عن ذخائر أو أجهزة حاوية، توضع فيها مادتان غير سامتين، تتحولان لدى اختلاطهما في لحظة الاستخدام إلى مادة سامة. ويعتبر هذا السلاح من أحدث الأسلحة الكيميائية، حيث يتميز بعدم خطورة تحضيره ونقله وخزنه الخ ...

« إن ما يهمنا بالدرجة الأولى هو تحريم جميع أنواع الأسلحة الكيميائية، وإزالتها نهائياً من ترسانات العالم». وفيما بعد قدم رئيس الوفد الأميركي مذكرة جاء فيها: «إن الولايات المتحدة لا تطلب تفتيشاً مطلقاً، وتعترف بوجود بعض المجازفات في هذا المجال، ولكن على الدولتين الكبريين قبول هذه المجازفات. ونحن نشدد على أنه يجب أن تتقلص هذه المجازفات إلى أدنى حد، لنحمي أمننا وأمن البلدان الأخرى. وبالتالي ينبغي أن نتفق على مستوى من التفتيش يحقق هذا الهدف».

ومهما يكن من أمر، فما لم يتم التوصل إلى معاهدة تحريم الأسلحة الكيميائية، ومنع صنعها وتخزينها، وتدمير الموجود منها، وما لم تنفذ هذه المعاهدة عملياً، فإن شبح الحرب الكيميائية سيظل يلوح في أفق العلاقات الدولية، ما دامت الدول كافةً لا تزال تعتبر أن ردع هذه الحرب في الشروط الراهنة، لا يتحقق إلا بامتلاك السلاح الكيميائي، والتدرب على إجراءات الوقاية منه، مؤكدة أن الذي منع هتلر من اللجوء إلى استخدام هذه الأسلحة (هناك معطيات عن تدمير هتلر لمخزون كبير جداً من هذه الأسلحة في الأراضي التي احتلتها ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، ثم تراجعت منها تحت ضغط أعدائها وخاصة في الاتحاد السوفييتي)، بالرغم من الظروف الصعبة التي وجد نفسه وبلاده فيها هو وجود أسلحة مماثلة وبكميات أكبر لدى خصومه.

وإلى أن يتحقق ذلك فليس أمامنا ــ كعرب ــ سوى أن نستمر في تدريب قواتنا العسكرية على العمل في شروط استخدام الأسلحة الكيميائية، خاصة وأن عدونا الاسرائيلي يمتلك هذه الأسلحة، ولا يعترف بأية معاهدات دولية حالية أو مستقبلية.

○

المـراجـع

١ ــ كتاب الاستراتيجية العسكرية، سوكولوفسكي، الترجمة العربية دردري ــ أتاسي ــ جركس الباب الرابع، ص ٢٧٤.

٢ ــ المؤلفات الكاملة للينين، جزء ٢٢، ص ١٩٣ ــ ١٩٤ باللغة الروسية.

٣ ــ طبيعة وخواص الحرب الحديثة، تأليف د. باليفيش من مجلة القوات المسلحة الشيوعية، ص ٧٧، العدد ٢١، عام ١٩٦٢.

٤ ــ كتاب كوزلوف KOZLOV، بعض مسائل نظرية الاستراتيجية، مجلة الفكر العسكري السوفييتي، ١٩٥٤، العدد ١١، ص ٣٢.

٥ ــ كتاب ن. ن آزوفنسيف، لينين.

٦ ــ الماركسية اللينينية عن الحرب والجيش، ١٩٦٨، تيوشكفتش، ١٩٦٩، ص ٣٢.

٧ ــ ريبكين، ١٩٧٣، ص ٥.

٨ ــ الحرب والإشتراكية، ١٩٦٤، كارد لي.

٩ ــ مقالة الحروب المحلية وحروب التحرير الوطني، لـ ج. مالينوفسكي، المجلة العسكرية التاريخية السوفييتية ص ٧٤ ــ ٧٥.

١٠ ــ الوهم الكبير في الحروب الصغيرة، ف. موتشالوف، دار النشر العسكري موسكو ١٩٦٥.

١١ ــ القوات المسلحة للاتحاد السوفييتي، غريتشكو، دار النشر العسكرية، موسكو.

١٢ ــ مقررات المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، نقلاً عن كتاب الحرب والجيش ص ٣٠.

١٣ ــ أسباب الحروب الأمبريالية، ي. أوسنكو، موسكو عام ١٩٥٣.

١٤ ــ الأيديولوجية العدوانية وسياسة الأمبريالية الأميركية، موسكو ١٩٥٠.

١٥ ــ الأيديولوجية البرجوازية الأمبريالية ــ تشجيع للعدوان والحرب أكاديمية العلوم السوفييتية، معهد الفلسفة، موسكو ١٩٥٢.

١٦ ــ الجوهر الرجعي والطابع العدواني للأيديولوجية العسكرية الحديثة للأمبريالية الأميركية، ف. بتروف، عام ٥٢.

١٧ ــ كارل ماركس وعلم الاجتماع المعاصر، لويس. آ. كوزر، ١٩٦٧.

١٨ ــ حول طبيعة الحرب، جوليان لايد، ص ٤٦٥.

١٩ ــ الموسوعة العسكرية السوفييتية الجزء ٨، ص ٣٨٥.

٢٠ ــ كتاب القوة، توماس، ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥.

٢١ ــ كتاب هسلر Hessler، عام ١٩٤٩، ص ١٥٨ ــ ١٦٠.

٢٢ ــ انظر ميليس Milles ١٩٦١، وآرندت Arendt ١٩٦٣.

٢٣ ــ الأخلاق: منطق الحرب، رالف بوتر، ١٩٧٣.

٢٤ ــ الدبابات، محمد وليد الجلاد ــ أحمد يوسف.

٢٥ ــ أسلحة الحرب العالمية الثالثة، وليم توينغ.

٢٦ ــ أسلحة الحرب، كريس كوك ــ جون ستيفنسن.

٢٧ ــ نزع التسليح، بتروفسكي.

٢٨ ــ مجلة أسبوع الطيران وتكنولوجيا الفضاء.

٢٩ ــ دليل جينز للأسلحة.

٣٠ ــ مجلة الفكر العسكري.

٣١ ــ مجلة استراتيجيا.

٣٢ ــ استراتيجية الغرب ف. ت ــ ستنيدر.

٣٣ ــ الأسس العامة للاستراتيجية العسكرية ــ محاضرات دورة القيادة العليا، (١٩٦٩).

٣٤ ــ مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، (٤) نيسان ابريل ١٩٨٢، دراسة في مفهوم الاستراتيجية في العلوم الاجتماعية، للدكتور علي الدين هلال.

٣٥ ــ مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية، تأليف الجنرال اندريه بوفر، تعريب أكرم ديري، والهيثم الأيوبي.

٣٦ ــ الاستراتيجية وتاريخها في العالم، تأليف ج. ل. ليدل هارت ــ ترجمة الهيثم الأيوبي.

٣٧ ــ سياسة القوة واستراتيجية السلام، تأليف لوتاريل، ترجمة د. أحمد حيدر.

٣٨ ــ في الحرب، تأليف فون كلاوزفيتز.

٣٩ ــ الاستراتيجية وتأريخها في العالم، ليدل هارت.

٤٠ ــ مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية، الجنرال اندريه بوفر.

٤١ ــ حول طبيعة الحرب، جوليان لايدر.

٤٢ ــ نظرية الحرب وممارستها، مايكل هوارد.

٤٣ ــ استراتيجية العمل، الجنرال اندريه بوفر.

٤٤ ــ مجموعة مقالات ومحاضرات، مبادرة عن مركز الدراسات الفرنسي ومدرسة الحرب العليا الفرنسية.

٤٥ ــ استراتيجية العصر النووي، الجنرال بيير غالوا.

٤٦ ــ الجدل الكبير حول الاستراتيجية الذرية، ريمون آرون.

٤٧ ــ تعبير مأخوذ من الفقرة الأولى من البيان المشترك، الذي أعلن في أوتاوا، من قبل مجلس حلف شمالي الأطلسي في ١٩ حزيران ١٩٧٤، ووقعه رؤساء حكومات بلدان الحلف في بروكسل بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٧٤.

٤٨ ــ الاستراتيجيتان السوفييتية والأميركية، هنري باريس، إصدار دار طلاس للنشر ترجمة أحمد عبد الكريم.

٤٩ ــ سنايدر (Snyder. 1961. P.3) «إن الردع هو منع شخص آخر من عمل شيء ما، كان سيفعله لولا الردع، وذلك خوفاً من النتائج».

٥٠ ــ دليل ضابط أركان في القوات المسلحة الأميركية، لعام ١٩٥٩، صفحة ١٧٥.

٥١ ــ الاستراتيجية في عصر الأسلحة الصاروخية، برنارد برودي، أيار ١٩٦١ ص ٢٤٩.

٥٢ ــ البوق الغريب، ماكسويل تايلور، رئيس أركان القوات الأميركية في عهد الرئيس كنيدي.

٥٣ ــ عن صحيفة انترناشيونال، هيرالد تريبون، في عدد ما الصادر في ٧ آب ١٩٨٠.

٥٤ ــ مناقشات لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأميركي، الدورة الثانية الاجتماع ٩٥، وبيان هارولد براون، وزير الدفاع، أثناء تقديمه لميزانية الدفاع لعام ١٩٨٠، وكلمته في ٥ نيسان ١٩٧٩ في نيويورك.

٥٥ ــ الميزان الاستراتيجي، معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ١٩٨٣/١٩٨٤.

٥٦ ــ من تصريح وزير الخارجية الأميركية فوستر دالاس في ١٩٥٤/١/١٢.

٥٧ ــ الوثائق الأميركية حول السياسة الخارجية، ١٩٥٤ صفحة ١٨.

٥٨ ــ من رسالة الرئيس نكسون إلى الكونغرس في ١٩٧٢/٢/٩.

٥٩ ــ نشر هذا التصريح، صحيفة هيرالد تريبيون الدولية، في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٩/٥/١٤.

٦٠ ــ الأستاذ ريتشارد ييبس، من جامعة هارفرد ومقالة الأميرال سيلفست، هل الردع نظرية أم

حالة واقعية؟، التي نشرت في مجلة الدفاع الوطني في آب ــ أيلول ١٩٧٨ .
٦١ ــ تصريحات هنري كيسنجر، التي نشرتها مجلة الايكونوميست في ١٩٧٩/٢/٣ .
٦٢ ــ القوات المسلحة السوفييتية، غريتشكو، صفحة ١٨٤، ووكالة الصحافة السوفييتية، تاس، في عددها الصادر في ٢١ آب ١٩٧٩ .
٦٣ ــ مجلة التايم، في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٠/٤/٧ .
٦٤ ــ لورانس فريدمان، كما أوردته صحيفة التايم في ١٩٨٠/٤/١٧ .
٦٥ ــ من أين يأتي خطر الحرب، إصدار موسكو ١٩٨٢ .
٦٦ ــ صحيفة النجم الأحمر، تاريخ ١٢ تموز ١٩٨٤ .
٦٧ ــ زار بيجوم الأسبوعية، العدد ٢٩ تاريخ ١٣ ــ ١٩ تموز ١٩٨٤ .
٦٨ ــ الزمن الحديث الأسبوعية، العدد ٢٨ تاريخ ٦ تموز ١٩٨٤ .
٦٩ ــ الزمن الحديث الأسبوعية، العدد ٣١ تاريخ ٢٧ تموز ١٩٨٤ .
٧٠ ــ خطر الحرب النووية، ملحق الزمن الحديث لعام ١٩٨٤ .
٧١ ــ الزمن الحديث الأسبوعية، عدد ٤٢ تاريخ ١٩٨٤/١٠/١٢ .
٧٢ ــ الأطلسي سلاح العدوان، ملحق عسكري خاص بالزمن الحديث ١٩٨٣ .
٧٣ ــ سباق التسلح وخطر الاختيار ملحق عسكري خاص بالزمن الحديث ١٩٨٤ .
٧٤ ــ الازفستيا، رقم ٢٥٣ تاريخ ١٩٨٤/٩/٩ .
٧٥ ــ زار بيجوم الأسبوعية، عدد ٣٣ تاريخ ١٠ ــ ١٩٨٤/٧/١٦ .
٧٦ ــ النجم الأحمر، تاريخ ١٩٨٤/٩/٢٦ .
٧٧ ــ كتاب الموارد الخارجية والفضاء، موسكو إصدار دار نشر الذرة ١٩٧٦ .
٧٨ ــ كتاب الحرب النووية والعواقب الطبية ــ البيولوجية، إصدار موسكو ١٩٨٤ .
٧٩ ــ صحيفة البعث، تاريخ ١٩٨٤/٧/٢٤ .
٨٠ ــ المجلة العسكرية السوفييتية، المصدر العربي، عدد ٤ نيسان ١٩٨٤ .
٨١ ــ ما العمل لوقف مخاطر عسكرة الفضاء؟، مقال مترجم في صحيفة البعث .
٨٢ ــ الحرب والسياسة في العصر النووي، مقال هام مترجم عن الدولة السوفييتية، بقلم كورتونوف، الدكتور في العلوم التاريخية صحيفة الثورة عدد ٦٥٧٨ .
٨٣ ــ البعث، تاريخ ١٩٨٤/٩/١٩ .
٨٤ ــ البعث، تاريخ ١٩٨٤/١٠/٣١ .
٨٥ ــ الثورة، تاريخ ١٩٨٤/١٠/١٥ .
٨٦ ــ مفهوم الاستراتيجية، دراسة هامة ترجمتها عن مجلة الدفاع الوطني الفرنسية صحيفة البعث، عدد ٦٥١٨ .

٨٧ــ مجلة جيش الشعب، تاريخ ١٩٨٤/٩/١٥.

٨٨ــ نشرتان صادرتان عن وكالة نوفوستي ــ دمشق:

ــ أجوبة المارشال ديمتري أوستيغوف ــ وزير الدفاع السوفييتي، عن أسئلة مراس وكالة تاس صيف ١٩٨٤.

ــ رد تشيرنينكو على نداء العلماء الأميركيين، موسكو صيف ١٩٨٤.

٨٩ــ كتاب الحرب النووية والعواقب الطبية ــ البيولوجية، إصدار موسكو ١٩٨٤، مجموعة من الأطباء وعلماء البيولوجيا.

٩٠ــ الأمن في العصر النووي، للمؤلف جيروم كاهن، ترجمة العميد الركن نافع أيوب، مراجعة اللواء سعيد الطيان، صادر عن مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٢.

٩١ــ الأسلحة الحديثة والوقاية منها، للمؤلف غرابوفوي، باللغة الروسية، دار نشر دوساف، موسكو ١٩٨٤.

٩٢ــ حول الحرب النووية ــ الحرارية، لمؤلفه هيرمان كان، باللغة الانكليزية، دار ماكميلان للنشر، نيويورك، لندن، الطبعة الثانية ١٩٦٩.

٩٣ــ الميزان العسكري ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥، باللغة الانكليزية، صادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية.

٩٤ــ مجلة استراتيجيا، الأعداد ٣ ــ ٦ ــ ١٠ ــ ١٣ ــ ١٩ ــ ٢١ ــ ٢٢ ــ ٢٩ ــ ٣٣.

٩٥ــ حول طبيعة الحرب، لمؤلفه جوليان لايدر، ترجمة العميد نافع أيوب، مراجعة اللواء سعيد الطيان، صادر عن مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٣.

٩٦ــ تأثير امتلاك إسرائيل للسلاح النووي على مستقبل الصراع العربي ــ الإسرائيلي، العميد الركن نافع أيوب.

٩٧ــ النتائج البيئية لحرب الهند ــ الصينية الثانية، باللغة الانكليزية.

Ecological Consequences of the Second Indo- China War.

صادر عن معهد أبحاث السلم العالمي في ستوكهولم. 1976 (SIPRI)

٩٨ــ الأسلحة الكيميائية ــ في ظل التحريم، مقالة لقائد السلاح الكيميائي السوفييتي العماد ف. مياسنيكوف، في صحيفة البرافدا ١٩٨٢.

٩٩ــ مجلات استراتيجيا رقم ٣ ــ ١٢ ــ ٢٩ ــ ٣٠.

١٠٠ــ أسلحة الغد، لمؤلفه ج. هروتشيلد، ترجمة عن الروسية الرائد، نافع أيوب، وصدر عن الإدارة السياسية في الجيش العربي السوري، فرع الثقافة والتعليم ١٩٧٠.

١٠١ــ Defense and Economic, Emile Benoil, Crowth in Developing Countries, Lexington Books, Lexington, MA., U.S.A. 1973.

١٠٢ــ The Military in the third World, G. Kennedy, Duck Worth, London, 1974.

١٠٣ــ The Military in Development, Mary Kalrar, World Development,4, June 1976.

١٠٤ــ Whynes o third World Military expenditure, David K.

١٠٥ــ The university of Texas Press, Austin, Texas, U.S.A. 1984.

١٠٦ــ Geopolitique et Geostrategie, Pierre Celetier Presses Universitaires de France Paris, 1969.

١٠٧ــ Politics Among Nations, Hans J. Morgentha Alfred, A Knopf Publisher New Year, 1963.

١٠٨ــ Revue de la Defense Nationale, Fevrier 1963. Amiral Lepotiec: Geopolitique et Geostrategie.

١٠٩ــ Encyclopedia, Gollier, Vol 8 and 10.

الفهرس العام للكتاب

فهرس الجزء الأول

الفصل الأول
طبيعة الحرب

الفصل الثاني
الاستراتيجية العسكرية

الفصل الثالث
وسائط الصراع المسلح المعاصرة وتأثيرها على طابع الحرب

الفصل الرابع
الجغرافية الاستراتيجية (الجيوستراتيجيا)

الفصل الخامس
أسس الاستراتيجية

الفصل السادس
الاستراتيجية المباشرة والاستراتيجية غير المباشرة

الفصل السابع
صلة الاستراتيجية بالسياسة والمعنويات والمذاهب العسكرية

فهرس الجزء الثاني

الفصل الثامن
تطور الاستراتيجية حتى بداية الحرب العالمية الأولى

الفصل التاسع
تطور الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الأولى

الفصل العاشر

الاستراتيجية العسكرية الحديثة للولايات المتحدة الأمريكية وحلف شمال الأطلسي (ناتو)

الفصل الحادي عشر

خصائص استراتيجية الحرب العالمية المقبلة

انتهى الكتاب
بعون الله تعالى

الاستراتيجية السياسية العسكرية/تأليف مصطفى طلاس... [وآخرون]؛ صياغة سعيد الطيان، سميح السيد، صبحي الجابي.ــ ط. ١.ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩.ــ ٢ ج. (٩٦٥ ص.): خرائط؛ ٢٥ سم.

١ــ ٣٥٥٫٤٧ طل ا ٢ــ ٣٢٧٫١ طل ا ٣ــ العنوان ٤ــ طلاس
٥ــ الطيان ٦ــ السيد ٧ــ الجابي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٨٩/٧/٩١١

رقم الإصدار ٤٥٦

هذا الكتاب

تعبير الاستراتيجية هو تعبير ذو أصل عسكري . ومن الناحية التاريخية ارتبط لفظ الاستراتيجية بلفظ الحرب وقيادتها . وعندما ظهر علم الحرب أصبحت استراتيجية الحرب فرعاً من فروعه . وبدأت الجهود الجادة لتدوين فن الحرب مع نيقولا ميكيافيلي ، الذي كتب كتاباً بعنوان « فن الحرب » . وترجع بداية الدراسة العلمية للموضوع إلى منتصف القرن الثامن عشر ، عندما قام هنري لويد الإنكليزي في مقدمة كتابه عن تاريخ حرب السنوات السبع بتدوين عدد من النظريات العسكرية العامة وأسس الاستراتيجية الحربية .

يقصد بالاستراتيجية في المجال العسكري استخدام القوة المسلحة بواسطة الدول لتحقيق أهدافها . ويمكن الإشارة إلى ثلاث إضافات فكرية واضحة ساهمت في تطوير المفهوم وتحديد معناه . ففي البداية سادت تعريفات حصرت مفهوم الاستراتيجية في إطار قيادة المعارك وجاء ليدل هارت لينتقد هذه التعريفات ويوسع من مفهوم الاستراتيجية لتشمل كيفية استخدام القوة المسلحة عموماً لتحقيق الأهداف السياسية ، ثم قدم « بوفر » إضافته التي أخرجت مفهوم الاستراتيجية من إطاره العسكري إلى إطار أوسع يعتبر القوة المسلحة أحد أبعاده ومجالاته .

يتألف الكتاب من أحد عشر فصلاً تتحدث عن طبيعة الحرب ، وقوانين الصراع المسلح ووسائط الصراع المسلح وتأثيرها على طابع الحرب ، والجغرافيا الاستراتيجية ، وأسس الاستراتيجية ، والاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة ، وصلة الاستراتيجية بالسياسة والمعنويات ، وتطور الاستراتيجية حتى بداية الحرب العالمية الأولى ، وتطور الاستراتيجية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، والاستراتيجية العسكرية للولايات المتحدة ، وخصائص استراتيجية الحرب المقبلة .

